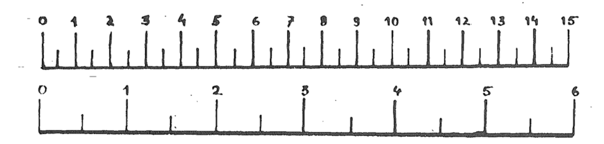


مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

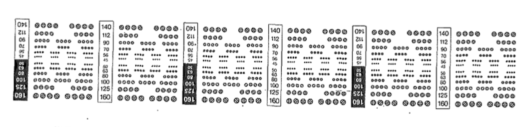
1937
Volume 2

ECHELLE DE PRISE DE VUE

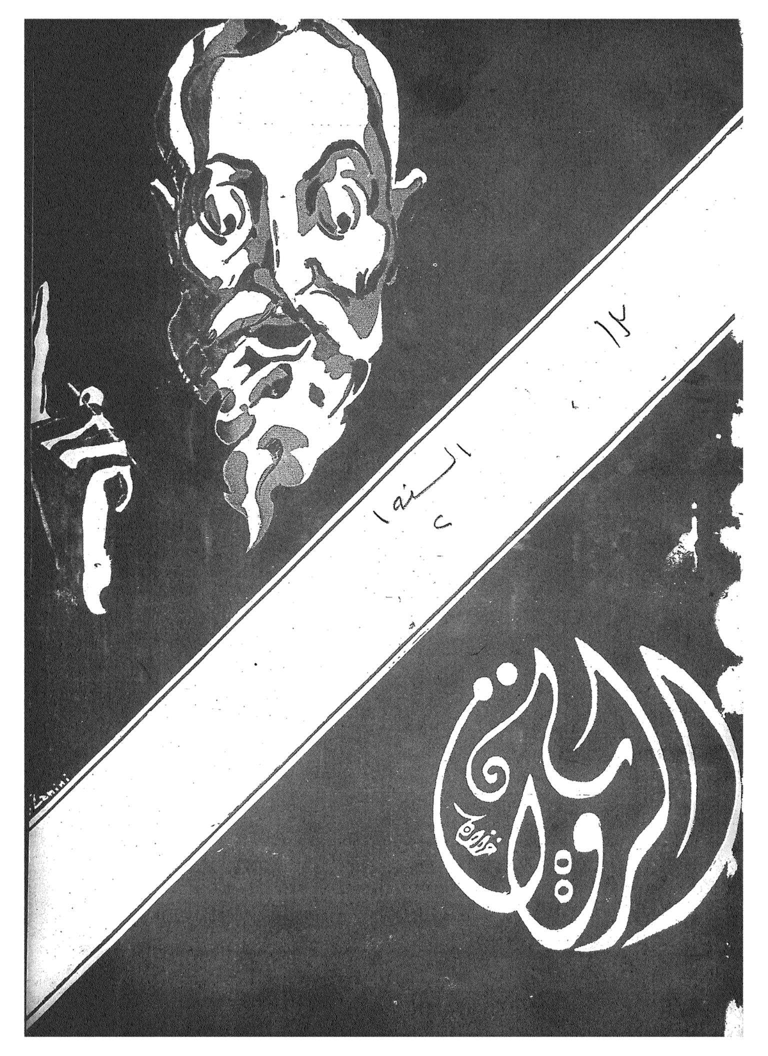


Rx9

A.C.R.P.P



MIRE ISO N° 1
NF Z 43-007
AFNOR
Cedex 7 - 92080 PARIS-LA-DÉFENSE



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الثالث عشر ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — أول أغسطس سنة ١٩٣٧ السنة الاولى



فهرس العدد

التائه

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

فى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والعشرين تماماً اختفى الطفل « فوزى » ولم يعد أحد يراه لا فى البيت ولا فى الحديقة الواسعة ولا حول النافورة أو فيها ، ولا فى الشارع . وفى الساعة العاشرة والربع بدأت أمه تسأل عنه بعد أن أعدت له الحمام على عادتها كل يوم جمعة . وبعد ربع ساعة من السؤال والاستفسار بلاجدوى انطلق الخادم الهرم «عم محمد» وزوجته « حليمة » يبحثان عن فوزي ويسألان كل صاحب دكان فى الحارة هل رآه منهم أحد ؟ وفى أثناء هذا البحث العقيم كانت أم فوزى قاعدة على آخر درجة من درجات السلم وكوعها على فخذها ، وذقنها على كفها ، والزفرات الحرار يعلو بها صدرها ويهبط . وينفذ صبرها أحياناً فتضرب كفاً بكف وتقول : « مسكين يا ابنى . . . يا ترى رحت فين يا ابنى . . . المسكينة أمك . . . أمك المسكينة . . . بعد التعب وطول الغلب أخسرك مرة واحدة . . . لو كنت مت كنت عرفت انت فين . . . كنت أعرف أرضك وأروح أزورك . . . » الخ الخ

وفى الساعة الحادية عشرة عاد الرسول بأبى الغلام المفقود من « بيت القاضى » فقد كان محامياً شرعياً وكان « بيت القاضى » هذا هو دار المحكمة — بين حي سيدنا الحسين وحى النحاسين — وقد اضطر الوالد لما سمع بالفجيعة التى أصابته أن يلتمس من المحكمة أن تؤجل قضاياه، فقبل القاضى وهو مغتبط ، وطمأن الوالد المتلهف ودعا الله أن يرد إليه ابنه سالما ، وطوى أوراقه التي كانت أمامه ، ونهض فما كان فى المحكمة كلها من المحامين إلا اثنان أو ثلاثة ، وخرج مع المحامي وهو يربت له على ظهره ، ويقول له : « لا تقلق ولا تنزعج . . . ستجده إن شاء الله يلعب فى البيت » وخرج وراءهما أصحاب القضايا وهم ينفخون ويهزون رءوسهم ولا يرون لهم حيلة

وفى الساعة الثانية عشرة عقدت الأسرة جلسة برياسة الوالد وعضوية الأم المنتحبة والعمة التى دعيت من بيتها على عجل ، ونودى الشهود ، فتقدمت « حليمة » وقررت — من غير أن تحلف أى يمين فان الموقف لا يعقل فيه الكذب ولا يحتمل هذه الاجراءات الطويلة — أنها رأت « سيدى فوزى » فى الصباح يفتح الخزانة ويخرج حق السكر ويسرق منه قطعة . وكانت معه قطعة من الخبز الطازج — فقد كانت الأسرة تعجن وتخبز كل يوم جمعة ويوم اثنين — فصاحت الأم المسكينة : « يا ريتنا ما خبزنا ولا نيلنا ... أتاريه غطس ولا حد شافه ... ويأكل عيش وسكر ؟ يا حبيبي يا ابنى . . . خرج من غير فطور ... والوقت الضهر ... »

فقالت العمة : « الله يهديك يا بنتي . . . تصبرى . . . الصبر طيب »

وقال الأب : « حلمك يا أم فوزى ... انتظرى علينا . . . خلينا نفهم الولد راح فين »

وتقدم الشاهد الثاني « عم محمد » وكان رجلا مغضن الوجه ، كما تبدو مبانى المدينة للمحلق فى طيارة ، ولكنه قوى جلد يعرف المشى ولا يعرف الركوب ، ويجوب المدينة كلها على قدميه ولا يتأفف أو يتذمر ، ولا تراه قط إلا كالرمح أو الجندى فى الصف . ويظل طول النهار يعمل ، ويروح ويجئ ولا يكل ، ويقبل الليل فيخدم سيده فى المكتب حتى إذا صعد سيده إلى مسكنه — فقد كان المكتب فى البيت — تسلل « عم محمد » إلى « البوظة » المحلية ثم عاد يتطرح إلى غرفته فيرتمى فى أى مكان فيها إلى الصباح

وقال عم محمد : « أهو كان يلعب فى الجنينة »

فسأله الأب : « هل رأيته يخرج ؟ » قال : « آه ... وقف عند الجزار »

فسأله الأب : « وهل رأيته يعود بعد ذلك ؟ »

فقال : « أنا خرجت أقضى الحاجة »

فسأله الأب : « ماذا كان يصنع عند الجزار ؟ »

فقال الشاهد : « أنا عارف ... كان يكلم الصبي »

فدعى الصبي ، وكان يناهز التاسعة من عمره ، ولكنه كان ممتلئاً ضخما ، وكانت رقبته غليظة ، ورأسه لهذا يبدو كأنه مغروس بين كتفيه ، فغطت السيدتان وجهيهما لما دخل عليهما الصبي

وقال الشاهد إن فوزى كان بيده ودعتين كانتا معه وإنه بعد ذلك ذهب إلى دكان الجزار الذى فى آخر الحارة . وهنا تبرع الشاهد برأى له فقال إنه يعتقد أن ذاك الجزار خطف فوزي وأنه يخفيه ليذبحه ويبيع لحمه للزبائن باسم لحم ضأن مصغر . فصرخت الأم واستعاذت العمة بالله ، وقالت يا حفيظ ، وطرده الأب من الجلسة . ثم تشاورت المحكمة وقررت ألا تأخذ بهذه الشهادة ، وإن كلام صبي الجزار لا ينبغى أن يعول عليه ، وذكرت من أسباب قرارها أن المزاحمة بين الجزارين هي التى أغرت الصبي بهذا الكلام الفارغ

وفى الساعة العاشرة مساء عاد فوزى إلى البيت تحمله جارية سوداء لامعة الجلد كالفحم « الكوك » وقالت إنها وجدته نائماً على عتبة بيتها فرق له قلبها وحملته فأدخلته وعالجت أن توقظه ، فلم تفلح ، فتركته حتى تقلب فهزته ففتح عينيه وسألته عن اسمه ولكن النوم كان يغالبه فلم يجبها فاستشارت جارة لها فاتفق لحسن الحظ أنها تعرف الغلام فدلتها على أهله

ونضت عنه أمه ثيابه القذرة الملطخة وألبسته أخرى نظيفة وغسلت له رأسه فسال منها عسل كثير ولم يستطع أحد أن يعرف أين ذهب الغلام ولا أين كان غائبا طول النهار وإلى ما بعد العشاء ، ولكنى كنت نده وكنا نلعب معا ولا نكاد نفترق فقص على ما يأتى وأوصانى ألا أبوح بالسر . فأنا أوصى القراء بمثل هذا الكتمان

وقد صحح لى شهادة الشهود أولاً فقال إنه لم يأخذ السكر ليأكله بل ليمصه ، لأن أسنانه مختلفة النَّبْتَةِ غير مُنْتَسِقَةٍ وبعضها طويل والبعض قصير فالمص لهذا أسهل — وأحلى أيضاً — وقال إن الذى كان معه وهو يكلم صبى الجزار لم يكن ودعات وإنما كان خرزات ، وعجب للصبي كيف لا يعرف الفرق بين الودعة والخرزة . ولم يصدق الصبي فى قوله إنه ذهب إلى دكان الجزار الآخر ليكلم أحداً فما وقف أمام دكانه إلا لأن منظر الجزار وهو يفرم اللحم الأحمر سحره فلم يسعه إلا أن ينظر ، وكان يتوقع فى كل لحظة أن تقطع السكين أصابع الرجل ، ولكن الأصابع كانت تدفع اللحم وتكومه للسكين الهاوية وتتقى وقعها بمهارة عجيبة ، وقد كان فوزى

وهو واقف ينظر ويعجب ، يود لو أن الجزار سمح له بالتدرب على هذه « اللعبة » وأعرب لى عن أسفه لأن أباه وأمه لا يسمحان له بلعبة تشبه هذا

وكان يلبس جلبابا — جلابية — مخططا وحذاءين ، وعلى رأسه « طاقية » مزركشة ، وكان فى يده « عقلة » مما تتخذ منه الأقلام « البسط » التى يحتاج إليها أبوه فى أعمال مكتبه وقد أعطاه إياها « عم محمد » — وقد نسى أن يفضي بذلك فى شهادته أو لعله خاف أن يؤنبه سيده — فراح فوزى يتمشى ويدفع الحصى فى طريقه طورا بقدميه وتارة بالعقلة وكانت عينه إلى الأرض فلم يلتفت إلي الطريق (يجب أن يلاحظ القارىء أنى أنا الذى أقص الحكاية الآن لافوزى وأنى أحاول أن أجعلها مفهومة على قدر ما يتيسر ذلك) فلما تنبه ألفى نفسه فى حارة لايعرفها فجعل يتلفت وشق عليه أن يكون قد ضل وأدار عينه فى الرائحين والغادين لعله يعرف واحداً منهم أو عسى أن يعرفه منهم أحد فلم يوفق وكاد يبكي من الجزع ولكن عينه أخذت رجلا يصنع أمام دكانه ما استطعت أن أفهم أنه ما يسمى « الحلاوة الحمصية » وكان يمطها وهى مشدودة إلى عمود مركز فى الأرض ثم يعود فيطويهـا ففتنه هذا المنظر كما فتنه منظر القصاب وهو يفرم اللحم ودنا من الرجل ووقف يتطلع إليه ثم حانت منه التفاتة فرأى ما هو أغرب وأولى بعنايته . ذلك أنه أبصر رجلا ضخما على وسطه فوطة مخططة وأمامه مرجل كبير يقلب فيه بيديه ما أدركت أنه «الحلاوة الطحينية» فوقف مبهوتا ثم زاغت عينه بين الرجلين وأحس ريقه يجري وشعر بعضة الجوع وكان ظهره إلى باب الدكان وكانت يده تعبث بالعقلة فضربت شيئاً استغرب صوته فأدار وجهه لينظر فاذا به يرى وعاء هو الذى نسميه « البلاصى » وعلى فمه أو — فتحته — لوف يسد به ، فلم يشك فى أن هذا عسل لأنه رأى مثله في البيت فغافل الرجلين ومد يده بخفة ورفع الغطاء ودس يده في الوعاء حتى بلغت العسل ثم راح يلحس وتكرر منه ذلك. ويظهر أنه أفرط فيه أو شغل بلحس العسل عن الحذر الواجب فقد فاجأه أحد الرجلين بزجر عنيف وكانت يده فى ذلك الوقت فى جوف « البلاصى » فانتزعها بسرعة وبلا حساب فخرجت ولكن الوعاء مال وسقط على الأرض فأريق العسل . وذهب فوزى يجري غير أن الرجل أدركه وعاد به وجعل يضربه ويشتمه ، ثم لم يكفه الضرب والشتم القبيح بل تناول بيده من العسل المراق على الأرض ونزع الطاقية عن رأس فوزى وجعل يمسح له شعر رأسه — أو يعجنه على الأصح — بالعسل الممزوج بالطين والوحل . ثم مسح يديه فى جلبابه وعلى وجه الغلام ورفسه فكبه على وجهه، وارتد إلى ما كان فيه من غير أن يغسل يديه اكتفاء بمسحهما على ثياب الفتى ووجهه

(ولم أستطع أن أفهم من فوزي كيف اتفق له ما سيجيء والظاهر أنه سار على غير هدى وأنه كان مشغولا بما أصابه من هذا الجلف القاسى الذى ضربه ولوث له ثيابه ووجهه ورأسه بالطين والعسل على أنه فراغ لا يؤثر فى الموضوع فليسده القارىء بما شاء)

وألفى فوزى نفسه فى شارع لا عهد له به وكان الذى لفته إلى ذلك أنه سمع طبولا تدق وأصوات مزامير — أى موسيقى — فتلفت وأنصت حتى استطاع أن يعرف مصدر الصوت فاتجه إليه وإذا بسرادق كبير تنبعث منه هـذه الأصوات المغرية تصحبها ضجات عاليـة وضحكات مقرقعة وتصفيق وصفير وصيحات ، فأيقن أن ههنا شـيئاً يستحق الرؤية وحاول أن يدخـل من الباب ولـكن رجالا واقفين عليه منعوه وانتهروه بعد أن طالبوه بقرش

ولم يكن معه شيء من الفلوس . فارتد آسفاً كاسف البال واغرورقت عيناه بالدموع وعز عليه أن يحرم هذه « الفرجة » التى يتمتع بها كل هؤلاء الذين هم فى السرادق من الأطفال مثله ومن الكبار أيضاً . ثم جعل يعزى نفسه وراح يتمسح بالسرادق ويطل من بين قطع الخيام المشدود بعضها إلى بعض ، فرأى ملعباً مرفوعاً وعليه خيل تدور وتدخل فى دوائر كبيرة وتخرج منها إلى أخرى بعدها وتثب من فوق ما يشبه المقاعد سوى أنها بغير ظهور ، فلم يطق صبراً على هذا الحرمان وظل يدور حول السرادق حتى اهتدى إلى مكان يسعه أن يدخل منه – من تحت الخيمة – وتمتع ساعة بالخيل الدائرة وبمنظر المهرج الذى يلبس فوق رأسه « طرطورا » ويرتدى ثياباً مرقعة مختلفة الألوان وعلى وجهه طبقات من الأبيض فى مواضع دون أخرى ، وبغير ذلك مما يجري هذا المجرى . وانفض السامر وانصرف المتفرجون وهو معهم أو بينهم وصار فى الشارع مرة أخرى . وكان الجوع قد ألح عليه ولا طعام معه ولا فلوس فى جيبه . وشعر أن قواه بدأت تخور ، فلما مرت به مركبة يجرها جوادان تعلق بها من الخلف فسارت به وراحت وجاءت ولطف الله بالفتى فلم يش به أحد إلى الحوذى وإلا لكواه بالسوط الطويل ، كما هي العادة . وأخيراً وقفت المركبة فى الموقف — وكان لحسن الحظ عند بيت القاضى — فتركها فوزي ومشى يجر رجليه والجوع يعضه والنوم يغالبه

(وهنا غموض آخر فى القصة وأحسب أن السبب فيه أن فوزى كان يمشى وهو كما يقول الشاعر : « مشاهد للأمر غير مشاهد » من فرط التعب ومن إلحاح الجوع والنعاس عليه . وله العذر)

وقد قال لى إن بيت الجارية ليس أول بيت نام على عتبته فقد كان يسقط من الاعياء والجوع فينام على أقرب عتبة حتى يوقظه داخل أو خارج . فينهض ويستأنف المشى وهو يفرك عينيه . ويبكى أولا يبكى — حسب الأحوال — حتى ارتمى على عتبة الجارية . وهذا تصحيح آخر فقد حملته ودخلت به كما قالت ولكنه لم يكن مستغرقا فى النوم كما زعمت ، فقد استيقظ لما أحس بها ورآها تحمله على صدرها ، ويؤكد فوزى أنه نظر بمؤخر عينيه إلى وجهها ، فلما رآه أسود كالفحم خاف فأغمض عينيه وتظاهر بالنوم ، ووضعته الجارية على حشية طويلة ودست تحت رأسه وسادة ووقفت تتأمله وكان هو يحس عينيها عليه وإن كانت عيناه مغمضتين من الخوف . وقد كبر فى وهمه أنها ستأكله ، فلما هزته ليستيقظ أبى أن يفتح عينيه وأصر على التناوم ولج فى هذا العناد خوفاً وفرقاً . وجعل بعد ذلك يلاحظها من حيث لا تشعر ويتبعها بعينه وهى تروح وتجىء . ولكنه نام أخيراً — غلبه النوم لا يدرى كيف على الرغم من الخوف الذى كان يساوره فلما استيقظ سألته عن اسمه فأشفق أن يذكره لها فحاورته وداورته وجاءته بشيء من الحلوي وكان جائعاً فأكل فلما أحس ببعض الشبع امتنع عن الأكل مخافة أن يكون فى الحلوى سم مدسوس كما سمع فى القصص التى تقصها عليه « حليمة » كل ليلة قبل أن ينام . وجاءت سوداء أخرى فنظرت إليه ملياً ثم قالت له : « إنت مش فوزى ابن الست أم فوزي ؟ » فلم يجب وأصر على التباله ، فأكدت السوداء الثانية أنها واثقة أنه فوزى وقالت إن عمته ساكنة على مقربة من هنا وإنها رأته مراراً يجيء إلى عمته مع خادمته فلما سمع فوزى كلام هذه الجارية بكى وقال : « عاوز أروح لعمتى » فصاحت الجارية التى عرفته : « شفتى ؟ . شفتى بقى ؟ . عشان تصدقينى »

واتخذت من بكائه ومن رغبته أن يذهب إلى عمته

دليلا على صدق فراستها . وقد تكون عمته هذه فى آخر الدنيا ولكن رغبة الصبي فى رؤيتها كانت حسب الجارية دليلا على صحة رأيها . وكثرت الجوارى فى البيت واجتمع على فوزى ظلام الليل وظلام وجوههن ، ولكن هذا لم يفزعه فقد راقه بياض أسنانهن وبعض الحمرة فى عيونهن — من أثر البوظة وفعلها على الأرجح فقد كان شربها شائعاً بين الجوارى فى ذلك الزمان — وكان لغطهن عظيما وكن جميعاً يتكلمن ولا يبدو أن واحدة منهن تصغي إلى مايقال أو تعنى بغير ما تقول هى ، ولم يكن هو يفهم شيئاً من كلامهن لشدة الضوضاء ولعجزه عن متابعتهن ولغرابة لهجتهن أيضاً . وأخيراً انتهى المؤتمر الأسود فخرجن جميعاً إلا صاحبة البيت فقد عادت من توديعهن وقالت له : « تعال يا حبيبى » وحملته على كتفها وهو يعجب أين ياترى تريد أن تذهب به ، ويدعو الله فى سره ألا تذهب به إلى الجزار

ونام فوزى على كتفها وهى عائدة به إلى بيته وأهله ، فلما نهض فى صباح اليوم التالى ألفى نفسه على سريره المألوف فهل كان كل هذا حلماً ؟ كلا . فان ثيابه « المغسولة » هناك تذكره بما لقى فى رحلته العجيبة . وهذا شعره لا يزال كلما غسلوه له يقطر عسلا

ولا يذكر فوزى أنه كان يحن إلى البيت أو إلى أمه أو أبيه . وكل ما كان يحسه هو الجوع والتعب . وقد علمته هذه التجربة شيئاً هو ألا يخرج قط من البيت — يجاوز عتبته — إلا إذا كان معه فلوس . إذ من يدرى ؟ فقد يضل مرة أخرى فيجوع فماذا يصنع بغير فلوس . ؟ ؟

وقد كبر فوزى وصار رجلا ولكنه لم ينس هذه التجربة ولا الدرس الذى حذقه فى السادسة من عمره منها فاذا لقيته فى الطريق فثق أن معه ما يكفيه للطوارىء . وأنت وذمتك

ابراهيم عبد القادر المازنى

كوميديا في فصل واحد

الغرفة المشتركة

للكاتب الانجليزي جون ماديسون

بقلم الأديب احمد فتحي مرسي

« تقيم السيدة (بنسر) فى منزل صغير تستغل حجراته المؤثثة بالايجار لتقيم أودها »

وأحد مستأجريها وهو السيد جون بوكسن رجل ذو غفلة ، فهو يمضي ما بين أطراف الليل من عمله ويعود عند انبلاج الصبح تاركا حجرته طوال الليل تنعي من بناها . . . وقد استغلت السيدة بنسر هذا الظرف فراحت تؤجر الحجرة لرجل آخر وهو السيد كوكس رجل شاذ الخلق يشتغل فى صناعة القبعات ويعود عندما يسبل الليل سجوفه ... وكلا الرجلين لا يعلم شيئاً عن الآخر »

« الصباح متبلج تسيل أشعته من خصاص نافذة السير كوكس وهو يمشط رأسه أمام المرآة »

كوكس — إننى لن أحلق رأسي بعد اليوم قط فان المشط لا يمكنه أن يؤدى واجبه ألبتة بين هذه الشعرات القصار . . . لقد قلت للحلاق أن يقص أطراف الشعر فقط ، ففهم بفكره السقيم أن يقص أطراف الرأس (يسمع طرقاً على الباب)

كوكس — من هذا الذى يطرق الباب ؟ ...

السيدة بنسر ولا شك..

تفضلي ياسيدتي

(تدخل السيده بنسر)

السيدة بنسر — انعم صباحا يامستر كوكس... آمل أن تكون قضيت نومة هانئة

كوكس — كلا . لا يمكننى أن أقول إني فعلت . . . فقد كان الفراش قلقانابياً فأرجو أن تبحثي عن فراش ألين وأوثر

السيدة بنسر — إني أفعل كل ما فيه راحتك ياسيدى .

كوكس — إذن احملي لى هذه المرآة قليلا حتى أصفف شعري هـذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا أعلم لماذا يتناقص فحمى بهذه السرعة

السيده بنسر — ماذا تقول ياسيدى ؟

كوكس — وكذلك الزيت والسكر

السيده بنسر — أتظن أني أسرقها ؟

كوكس — كلا . . كلا . . لا أظن هذا ... ولا أظن أيضاً أن القطة سرقتها . قد تسرق القطط اللبن ، ولكن لا أظن أنها تسرق الفحم لتسخن اللبن ، أو السكر لتضعه فيه ... ومن جهة أخرى كثيراً ما أجد جو الغرفة ملبداً بالدخان عندما أعود فى مغرب الشمس

السيده بنسر — آه ... هذا دخان المدفأة

كوكس — كلا .. كلا لا أعنى هذا النوع .. أتدخنين التبغ

السيده بنسر — كلا ألبتة ...

(١) عن كتاب « بوكس وكوكس » للقصصى الانجليزى الكوميدى جون ماديسون

كوكس — إذن فمن أين جاء هذا الدخان الخانق

السيدة بنسر — إن الرجل الذى يشغل الحجرة التى فوق حجرتك يدخن الغليون ... فربما نفذ إليك دخان غليونه

كوكس — أظن أن الدخان يصعد إلى أعلى ولا يهبط إلى أسفل ... أتتحدثين عن ذلك الرجل الذى يقابلنى صاعدا عند ما أهبط ، وهابطاً عندما أصعد ؟ أهو يقيم فى أعلى الدرج ؟

السيدة بنسر — (فى اضطراب) ... لماذا ... أجل أجل بالطبع ...

كوكس — والآن لقد أزف موعدي ... عمي صباحاً يا سيدتى (يخرج)

السيدة بنسر — لقد ذهبت أخيراً ... إنها فكرة نيرة ولا شك تلك التي جعلتنى أتناول أجراً مضاعفاً لغرفة واحدة ... كم أتمنى أن يكون كل القطان مثل هذين الرجلين ... والآن يجب أن أنسق الغرفة فقد أوشك السيد بوكس أن يعود (تسمع المستر بوكس فى الخارج)

بوكس — (فى الخارج) لماذا لا تلزم جانباً واحداً من الدرج فى هبوطك يا سيدى ؟.. لقد كدت أن تدوس قدمى .

كوكس — إنه خطأك يا سيدى

بوكس — بل خطأك أنت يا سيدى

كوكس — إنه خطأك يا سيدى لأنك لم تنتظر من الهابط

بوكس — بل خطأك يا سيدي لأنك لم تنتظر من الصاعد . (يدخل)

إلا خبرينى يا مس بنسر من هذا المخلوق الذى يقابلنى صاعداً عند ما أهبط ، وهابطاً عند ما أصعد ؟

السيدة بنسر — (فى اضطراب) إنه ... إنه السيد الذى يقيم فى الحجرة الصغيرة التى فى أعلى الدرج

بوكس — يخيل إلى أنه بائع قبعات ... لأن القبعات تتشكل على رأسه بتشكل الأيام ...

السيده بنسر — أجل إنه يعمل فى محل قبعات أتريد شيئاً يا سيدى .

بوكس — كلا... لك الشكر (تخرج السيدة بنسر)

بوكس — لقد لبثت طول الليل لا يغمض لى طرف ... فيجب أن أنام قليلا ويجب أن أتناول أيضاً ما تيسر من الطعام ... أيهما سأفعله أولا ؟.. أأتناول الطعام قبل أن اضطجع على السرير أم اضطجع على الطعام قبل أن أتناول السرير أعنى اضطجع على السرير قبل أن أتناول الطعام ؟ ... سأتناول الطعام أولا ... أين صندوق الثقاب ؟ ... لقد تركته على المنضدة أمس . إنه الآن على شفا الموقد.. لا أظن أن للصندوق سيقاناً فيقفز هذه القفزة الخطرة ... لا بد أن السيدة بنسر قد استخدمت شيئاً منه .

(يوقد النار في الموقد فتذكو وتتوهج ثم يتناول آنية فى يده يقبلها ويتشممها) لا شك أن مسز بنسر استعملت تلك الآنية فى إعداد طعامها . إن رائحتها تفوح برائحة السمك ...

(يخرج من جيبه ورقة فى طواياها قطعة من اللحم يضعها فى الاناء على النار ـ ثم يذهب فيتطرح على السرير ويسدل الأستار) — والآن سأغفو غفوة سريعة حتى ينضج اللحم . (يدخل مستر كوكس)

كوكس — (لنفسه) إن عجائب هذه الدنيا لا تنتهى ... لقد قال لى المدير وما أطيب قلبه ... ليس لك عمل اليوم ويمكنك أن تقضى يوماً سعيداً هنياً على شاطىء النهر ... والآن سأتناول طعامى سريعاً ثم أمضى إلى ضفاف النهر الناضرة ... . (يخرج من جيبه قطعة من السمك) . . . أين صندوق الثقاب ، لقد تركته على حافة الموقد ... والآن هو ذا على المنضدة ... أظن أن ليس للثقاب سيقان

حتى يقفز تلك القفزة ... إن السيدة بنسر تعد غداءها على موقدى ... إنى أعجب كل العجب من وسائلها الهادئة ... (يرفع قطعة اللحم ويلقيها فى طبق آخر ثم يضع سمكة فى الآنية ويذهب إلى أقصى الغرفة ليأتى بالشاى ويوصد الباب فى طريقه بصوت ظاهر

بوكس — (يستيقظ ويبرز رأسه من خلف السدول) أهذه سيدتى بنسر ؟ تفضلى . . . ألا تعلمين كم من الوقت قضيته نائماً . فلا بد أن اللحم قد احترق الآن (ينهض من الفراش ويمم شطر الموقد) ما هذا السمك ..؟ آه يا لها من فكرة نيرة تلك التى حفزت السيدة بنسر أن تستغل نومي لتعد طعامها (يأخذ قطعة السمك ويلقيها من النافذة غاضباً) الآن لقد ذهب طعام السيدة بنسر ولم يبق إلا أن أعد العدة لطعامى وآتى بالصحاف (يخرج ليأتى بالصحاف من باب الى اليمين يصل الحجرة بالمنزل)

كوكس — (يحث خطاه راجعاً من باب فى أقصى الغرفة) أظن أن النار قد هيأت ما عليها ... ما هذا ؟ اللحم ثانياً . . . لقد عيل صبرى (يقذف اللحم من النافذة ويضع على النار إناء الشاي ويستدير لبعد المائدة فيقابل السيد بوكس عائداً من الباب وهو يحمل الصحاف)

كوكس — من أنت ياسيدى ؟

بوكس — من أنت يا سيدي ؟

كوكس — إنى أكرر على سمعك من أنت يا سيدى ؟

بوكس — إنى أكرر على سمعك من أنت ياسيدى؟

كوكس — آه إنه عامل المطبعة الذى يقطن الحجرة التى فى أعلى الدرج

بوكس — آه إنه عامل القبعات الذى يقطن الحجرة التى أعلى الدرج

كوكس — إن لم تصعد إلى حجرتك فى الحال فسأحملك على مغادرتها عنوة

بوكس — إن لم تصعد إلى حجرتك فى الحال فسألقيك على الدرج

كوكس — أنى آمرك أن تغادر غرفتى

بوكس — غرفتك . . . أتعنى غرفتى ؟

كوكس — إنك مجنون أيها السيد . . . إن لم تكن تحلم . . . هوذا عقد الغرفة

بوكس — بل أنت المجنون أيها السيد . . . إن لم يكن كلانا مجنونا . . . هوذا عقد الغرفة

(يصيح) أيها السيدة بنسر

(تدخل السيدة بنسر مسرعة)

بوكس — اطردى عامل القبعات بعيداً عن غرفتى . . . إنه مجنون

كوكس — إن لم تطردى عامل المطبعة...فسأجن

السيدة بنسر — ولكن يا سادتى لا يمكننى أن أطرد أحدكما . . . سأفصل لكما الأمر

بوكس — هيا فصلى ... لمن هذه الغرفة . . . أليست لى ؟

السيدة بنسر — كلا

كوكس — أسمعت يا سيدى ؟ . . . إن تلك الغرفة تخصنى . . . اليس كذلك ياسيدتى

السيدة بنسر — كلا ... إنها تخص كلا منكما ..

الاثنان معاً — نحن نكرر . . . فصلى الأمر

السيدة بنسر — أنت ترى أيها السيد بوكس أنك تقضى سواد الليل فى عملك ، وأنت ترى ياسيد كوكس أنك تقضى في عملك سحابة نهارك . . . فرأيت أن أشرككما فى تلك الغرفة ، ولكني سأعد غرفة أخرى فى الحال لأحدكما (تخرج السيدة بنسر وهى مضطربة عجلى ... ويقوم السيد كوكس فيذرع الغرفة جيئة وذهابا)

بوكس — إن لم تكن ريضت قدميك اليوم يا سيدى فانصحك أن تتريض على شاطئ النهر

كوكس — إني أتريض متى وأين يروق لى

(بضع السيد بوكس غليونه فى جانب فمه)

كوكس — أتنوى أن تدخن فى غرفتى ياسيدى ؟
بوكس — إنى أدخن متى وأين يروق لى
(يفتح السيد كوكس نافذة الغرفة)
بوكس — أتفتح نافذة غرفتى أيها السيد ؟
كوكس — أجل إنى أفتح نافذة غرفتى لأستروح أنسام الخارج
بوكس — اقفل هذه النافذة
كوكس — ضع هذا الغليون
بوكس — هوذا . . . (يضع الغليون)
كوكس — هي ذى . . . (بوصد النافذة)
بوكس — أظن أنه ما دمنا نقطن غرفة واحدة يا سيدي فيجب أن يكون التفاهم رائدنا . . . إننى أرى فى نفسي ميلا إليك يا سيدى
كوكس — وإني لكذلك أيها السيد
بوكس — إذن دعنا نشغل وقتنا بأية وسيلة .. أتغنى يا سيدى ؟
كوكس — كلا . . . إن زوجتى لا تسمح لى بذلك
بوكس — وهل أنت متزوج يا سيدى ؟
كوكس — كلا يا سيدى ... ولكنى عقدت العزم على الزواج
بوكس — لك مني خير الأمنيات
كوكس — لك الشكر يا سيدى
بوكس — وعلى ذكر هذا أقول . . . عند ما تتزوج يا سيدى أظنك ستترك الغرفة الأخرى التى ستعدها لك السيدة بنسر
كوكس — إننى لن أقيم فى الغرفة الأخرى... هذه غرفتى ولن أبرحها بأية حال
بوكس — ولكن هذه غرفتى
كوكس — كلا إنها غرفتى

بوكس — خفض عليك جأشك يا سيدي فأني لا أريد أن نتشاحن .
كوكس — وكذلك أنا لا أود أن نتشاحن .. أمتزوج أنت يا سيدى ؟
بوكس — كلا . . . ولكنى عقدت النية على الزواج
كوكس — أتمنى لك مستقبلا سعيداً
بوكس — لك الشكر . . . وإن كنت أعتقد أنه لن يكون سعيداً
كوكس — ولم ذلك . . . ألا تنتظرك زوجة دقيقة تذوب شوقا لرؤيتك ؟
بوكس — لا أظن هذا . . . فزوجتى الآنسة بنلوب آن تذوب شوقا لرؤية المال لا لرؤيتى أنا
كوكس — بنلوب آن ؟ !
بوكس — تماماً
كوكس — أوف ما رجات .
بوكس — بالضبط ... أوف مارجات
كوكس — أتنظر لتلك الآنسة كزوجتك المستقبلة ؟
بوكس — أجل .. أني أنظر إليها كزوجتى المستقبلة .
كوكس — وهل هى تنظر إليك كزوجها المستقبل ؟
بوكس — إنها تفعل ... فقد وعدتنى بالزواج
كوكس — إذن دعنى أقول لك إن بنلوب آن هى زوجتى المستقبلة ... يا عامل المطبعة البسيط
بوكس — كلا إنها زوجتى المستقبلة أيها الصانع الفقير ولن أتركها لك ولو أقاتلك إلى النهاية
الاثنان معا — أيها السيدة بنسر (تدخل السيدة بنسر علي عجل)
بوكس — علينا بالسلاح .

السيدة بنسر — أجل يا سيدى (تهم بالخروج)

كوكس — انتظرى ... أتعنين أيتها المرأة أنك تحتفظين بسلاح محشو فى منزلك ؟

السيدة بنسر — كلا إنه غير محشو

كوكس — إذن فعلينا به (تخرج السيدة بنسر)

بوكس — ولكن ما رأيك يا سيدى فى القتال؟ أتظن أن أمثالنا من الفضلاء يتقاتلان على تلك الصورة .

كوكس — كلا . . . لا أظن هذا ! . . . فالأفضل أن نحل النزاع بالتفاهم . إن لدى لفكرة .. وهى أن يقذف كل منا بقطعة من النقود فاذا سقطت قطعتى ورأس الملك إلى أعلى فأنا الفائز .

بوكس — وإذا سقطت قطعتي ورأس الملك إلى أعلى فأنا الفائز ... وإذا سقطت القطعتان على الوجه الآخر فلا فائز بيننا .

كوكس — فكرة نيرة (يخرج من جيبه قطعة من النقود)

بوكس — (يخرج من جأبه قطعة أخرى) أأنت على أهبة ... إذن دعنا نبدأ

كوكس — (يقذف قطعته إلى أعلى فتسقط فينظر إليها) : رأس الملك .

بوكس — (يقذف قطعته) : رأس الملك

كوكس — يجب أن نقذفها ثانية

الاثنان معاً — (يقذفانها ثانية) : رأس الملك

— (يقذفانها ثالثة) : رأس الملك .

كوكس — إن هذا عجيب . . . دعنى أر قطعتك يا سيدى آه . لك الخزى ... إنها كما ظننت ليست قطعة حقيقية إنها تحمل رأس الملك على الوجهين ... إن هذه خيانة ... ألا تخجل من ذلك ؟

بوكس — دعنى أر قطعتك يا سيدى . . . آه إن قطعتك تحمل رأسين أيضاً . . . ألا تخجل من خيانتك

كوكس — أتدعونى خائنا؟ ... إنك أنت الخائن

بوكس — كيف تجرؤ أن تقول ذلك

(يبدآن فى التشاجر)

الاثنان معاً — هل انتهيت من إعداد الحجرة الأخرى أيتها السيدة بنسر

السيده بنسر — ليس تماماً يا سادتى ... لم أتمكن من الاتيان بالسلاح ولكني أتيت بخطاب

(يأخذ السير كوكس الخطاب وتخرج السيدة بنسر)

كوكس — إنه من بنلوب آن

بوكس — إذن أعطه لى ... (ينظر السير بوكس إلى الخطاب من فوق كتف كوكس) إنه معنون باسمي ب . و . ك . س « بوكس »

كوكس — إنه معنون باسمى وهذه الكاف واضحة ظاهرة للعيان

بوكس — وأنا أقول لك إن هذه الباء يراها الأعمى

كوكس — إذن دعنا نقرأه سويا

(يفتح الخطاب وينظر فيه)

كوكس — أخبار محزنة ؟

بوكس — أية أخبار ؟

كوكس — أخبار مفزعة

بوكس — دعنى أر . . .

كوكس — دعنى أر ثانية . . . لعلى أخطأت

(يقرأ)

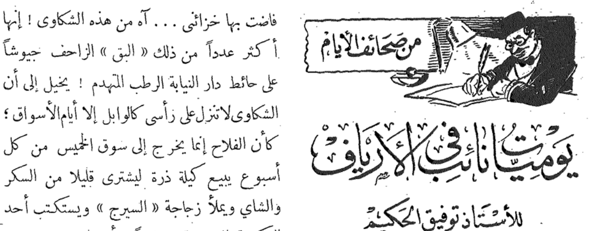
« عزيزى السير كوكس »

بوكس — بوكس

كوكس — عزيزى السير كوكس — بوكس»

« إن عندي لك خبراً محزناً ...

« فانى أرى أن مشاربنا تختلف ونزعاتنا تتباين



يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

٢٢ اكتوبر . . .

استيقظت اليوم متأخراً . فقد سهرت أكثر الليل فى التهام الأوراق المتأخرة . إذ بعد أسبوع تبدأ السنة القضائية الجديدة . ومعنى هذا أنه لاينبغى أن تبقى عندى قضية واحدة لم يتم التصرف فيها من قضايا العام المنصرم . ومعنى هذا أيضاً أنه يجب على أن أحبس نفسى طول هذا الأسبوع حتى أنظر فى المتأخر من أكداس « الشكاوى » التى فاضت بها خزائنى . . . آه من هذه الشكاوى ! إنها أكثر عدداً من ذلك « البق » الزاحف جيوشاً على حائط دار النيابة الرطب المتهدم ! يخيل إلى أن الشكاوى لاتنزل على رأسى كالوابل إلا أيام الأسواق ؛ كأن الفلاح إنما يخرج إلى سوق الخميس من كل أسبوع يبيع كيلة ذرة ليشترى قليلا من السكر والشاي ويملأ زجاجة « السبرج » ويستكتب أحد الكتبة العمومية « بلاغاً » أو « عريضة » ضد مأذون الناحية أو العمدة أو وكيل شيخ الخفر . ولعل هذا أصبح بنداً ثابتاً معتاداً فى ميزانية كل خارج إلى السوق من هؤلاء الفلاحين . لست أدرى لذلك من سبب . أهو الظلم حقاً ! أم هو داء الشكوى استوطن دم الفلاح على مدى أحقاب من الجور مرت به حقيقة ! على أى حال ماذنبى أنا أجرع مافى هذه الأوراق من سخف . يظهر أن حضور جلسات المحاكم وضبط قضايا التلبس فى النهار ، وقيد وارد

حتى لا سبيل إلى الاتفاق

« وأنا أحرر لك هذا الخطاب لأخبرك أنه قر عزمى على الزواج من السير بوكس وهو رجل فاضل ثري من أماثل المدينة ... آمل أن توافقني على ذلك ... وأتمنى لك حياة سعيدة » (بناوب آن)

بوكس — أظن أنني لا أكون مبالغاً إن قلت أنني كنت أمقت هذه الفتاة من كل قلبي

كوكس — وهكذا كنت أنا أيضاً فانى لم أكن مشتاقاً إلى هذا الزواج

السيدة بنسر — (خارج الغرفة) لقد انتهيت من إعداد الغرفة الأخرى أيها السيدان

بوكس — هيا أيها السير كوكس

كوكس — هيا أيها السير بوكس

بوكس — ولكن ياسيدى أرى أننا متفقان فى كثير من مشاربنا ونواحى حياتنا . أليس كذلك؟

كوكس — أجل يا سيدى ... إنى أرى هذا

بوكس — إذن أليس من الغباء أن نفترق على تلك الصورة ؟

كوكس — أجل إنى لا أوافق على أن نفترق

بوكس — إذن أتوافق أن نعيش سويا ؟

كوكس — أجل إن ذلك يلائم حياتى

بوكس — إنه يلائم حياتى أيضاً

(تدخل السيدة بنسر وقد سمعت حديثهما في الخارج)

السيدة بنسر — وأنا يسرنى أن أقول إن نصف هذا الأجر يلائمنى

الاثنان معاً — ويلائمنا أيضا « ستار »

(اسكندرية) أحمد فتحى مرسى

الجنح والمخالفات فى المساء ، والانتقال لتحقيق وقائع الجنايات بالليل ، كل هذا لا يكفي وكيل النيابة فى الأرياف . فهو ما زال يجد وقتاً يتنفس فيه . . . فلتسد عليه إذن مسالك الهواء بأكوام الأوراق التافهة الآتية من المركز باسم « الشكاوى » و « العوارض » و « الأحوال » . ومعنى هذا أيضاً أنى أنا الشخص الضعيف الجسم والبنيـة الدقيق الحس والشعور الذى يتوق الى نصف الساعة يفرغ فيها إلى مطالعة كتاب جميـل ، ينبغي لي أن اقرأ أيضاً ما جرى بين « ست الدار » وجارتها « قطايف » من تبادل « الردح » والسباب وما تلقاه المركز من بلاغات فقد الأختام و « محاضر » البحث الجارى عن جحش هرب من أمام الباب ، وإصابة قدم طفل داس على قطعة زجاج ، وسقوط فرع جميزة على رأس كبش الحاج هباب ! إني والله لأعذر ذلك النائب فى الصعيد الذى قيـل إنه كان يعبر النيل فى قارب للوصول إلى مقر عمله وكان معه حمل من هـذه « الشكاوى » حار فى أمره ، فأومأ إلى صاحب القارب ، فمال بقاربه على أحد جنبيه ميلاً أسقط « الشكاوى » فى الماء ! ويزيد فى بلائى أكثر من هذا الحاج عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائي . فهو المنوط بإرسال « كشوف » القضايا فى مواعيدها إلى النائب العام ووزارة الحقانية . هـذا الرجل لا أرى له عملا عندى غير التنقل بين الحجرات حاملا فى يده ورقة يأمر هنا وينهى هناك . حتى عملية « التنفيذ » التى من نصيبه قد ألقى بعبئها على غيره من مرؤوسيه واكتفي هو « بمهمة » الصياح فى الكتبة والحجاب . وهو أول من ينصرف من الموظفين واضعاً على طرف أنفه عويناته الذهبية ، يرسل من خلالها نظرات صريحة إلى المجتمعين فى أروقة دار النيابة من وكلاء المحامين وأرباب القضايا كأنما يستحثهم على الوقوف له . ولا حديث عنده إلا ذكر علاقاته وصلاته بكبار الموظفين ، يقول ذلك فى زهو وانتفاخ . ولطالما طلبت اليـه حسابا عن عمله فيجيبنى دائما :

— أنا والله الحمد رجل لا أميل إلى الأبهة ولا إلى الفخفخة !

ترانى سألته فى ذلك ؟ لم يحدث قط . يخيـل الى أن من الناس من يلقى الكلمة يدفع بها عن نفسه فاذا فيها الاتهام الصارخ . ولعل كل منهم يحمل فى طيات كلامه دليل إجرامه ، كما يحمل المريض فى دمه جراثيم دائه !

لا بد إذن من العمل المضنى حتى تختم السنة القضائية على خير . وقد أمرت بإغلاق أبوابى على حتى أنفرد لهذه الملفات أتصرف فيها باليمين وبالشمال ، ومضيت أعمل وأنا أقول : « خد من التل يختل » ! ولـكن الذى وضع هذا المثل كان يقصد بالتل النقود والذهب . أما أوراق « الشكاوى » فهى تل دائم النمو ، لا يختل ولا يزول .

وهل تنقطع للإنسان « شكوى » على هذه الأرض ما دام هو إنساناً . ونسيت نفسى فى العمل ، فلم أسمع طرقة خفيفة قيل إنها وقعت على الباب . ولـكنى رأيت رجلا أنيقاً فى وسط الحجرة يبتسم لى وخلفه حاجب يحمل حقيبتين . عجباً ! هذا زميلى وكيل نيابة طنطا ! ماذا أتى به ؟ وما هذه الحقائب ؟ ولم يترك لى زميلى وقتاً للتساؤل . فقـد أشار إلى حاجبه أن يضع الحقيبتين على الأرض وينصرف . وما إن صرنا وحدنا حتى جثا على قدميه أمامى فى حركة تمثيلية وقال :

— أنا وقعت من السما وأنت تلقفتني !

فنظرت إلى يدي الهزيلتين ثم إلى جسمه الممتلئ

— أنا تلقفتك ؟ ونزلت « صاغ » سليم !

— اسمع ! الموضوع جد . أنت رجل معروف بيننا جميعا أنك صاحب همة ومروءة و . . .

هنا لعب فى « عبى الفار » ! وأدركت أن هذا الزميل قد ترك مقر عمله طنطا في هذا الوقت العصيب وقت مولد السيد البدوى وما يتبعه من ازدحام المدينة بأفواج الوافدين وكثرة الحوادث والوقائع التى تصحب عادة كل مولد وكل ازدحام . ترك ذلك وأتى إلى يطلب ولا شك إلى همتى ومروءتي معونة كبرى ترى ما نوع هذه المعونة ؟ وخامرنى قلق ، وأردت أن أعرف سريعاً ما يريد منى حتى اطمئن فقلت :

— أنا في خدمتك !

فما كاد يسمع هذه الكلمة المشجعة حتى قام إلى رأسى يقبله ويقول فى صوت كصوت «الشحاذين»

— ربنا يخليك ويبقيك ويمد فى عمرك و ...

ثم تركنى وأسرع إلى حقائبه وقال لي :

— تسمح ؟

فقلت له وقد حمدت له فى نفسى ذوقه ومراعاته اللياقة فى الزيارة :

— والله ما كان فيه لزوم تكلف نفسك هدية

وفتح إحدى الحقيبتين وأنا أتوقع أن أرى فيها تلى الأقل حمصاً من حمص السيد البدوى وفى الأخرى حلاوة المولد . . . ولكنه أخرج أحمالا من أوراق « الشكاوي » ووضعها على مكتبى وهو يقول فى تواضع :

— هديتنا على قدنا :

فنظرت إلى الأوراق فى روع وتمتمت :

— أعوذ بالله !

وجعل هـذا الضيف يخرج الأكداس تلو الأكداس وهو يقول :

— النبي قبل الهدية !

فلم أجد ما أقول لهذا الانسان الذى يصر على أن يسمى هذه «السخرة» هدية ، ولعنت فى نفسى قولهم إن « النيابة لا تتجزأ » . هذا المبدأ الذى نسير عليه ؛ وهذا النظام الذى يفرض التضامن بين كل أعضاء النيابة ، ويعطى الحق لوكيل نيابة أسوان أن يتصرف فى قضايا وكيل نيابة الأسكندرية دون أن يبطل تصرفه اختصاص مكاني أو زمنى . لعنت ذلك ولعنت الضيف ولعنت نفسى إذ أن لى حقيقة من سوء حظي صيتاً بين زملائى بأنى من أصحاب الهمم بخصوصاً فى الشكاوى الإداريةوسرعةالتصرف فيها . وقد نقل عنى الكثير من إخوانى أعضاء النيابة طريقتي فى قراءة الشكاوى . فهم يقولون إنى أقرأ الشكوى من آخرها لا من أولها . وهذا صحيح فأنا لست مجنوناً حتى أقرأ الأوراق من أولها كما يقرأ الناس والعقلاء»! لو فعلت ذلكلما انتهيت ، ولكنى أضرب صفحاً عن الديباجة وما فيها من « أنتم يا ملاذ العدل ويا نصير الحق ويا مبيد دولة الظلم و يا ما حق . . . الخ الخ » وأنظر فى الحال إلى السطر الأخير ففيه عادة لب الموضوع . وهذا اللب أيضاً قلما أجده لباً ، وكثيراً ما يجرى فيه قلمى بالكنس أي « بالحفظ » في سرعة وجرأة وهمة أطمعت فىّ الزملاء الموروطين الغارقين فى بحار هذا «الواغش»، ولكني اليوم آخر من يعين الناس . نى أنا نفسى فى حاجة إلى المعونة . وإن هبوط هذا « الضيف » علىّ كما تهبط المصيبة لأمر شاق على النفس . ولم

أتمالك ، وتجهمت للشكاوى الخارجة من الحقائب وقلت فى سخرية المغيظ :

— ياسلام ! ياسلام على حمص المولد ! حاجة تشرح القلب صحيح !

فقال الضيف وهو ينفض يديه من آخر ملف :

— كان غرضي أجيب لك شوية حلاوة ...

فقاطعته صائحاً مرتاعاً :

— من الصنف ده ؟ !

فاستمر فى قوله باسما :

— لكن والله غاب عن فكرى فى آخر لحظة...

— الحمد لله ! جاءت سليمة ! . .

فضحك الزميل المحترم . وجاءت القهوة فشرب هنيئاً . ثم قام فدار دورة فى الحجرة واقترب من النافذة كعادته التى أعرفها عنه وأطلق بصره فيما حولنا من منازل قليلة وغمز بعينه :

— فى البيت ده بنت حلوة !

فبادرت إليه وجذبته من ذراعه بعيـدا وأنا أقول له :

— كنت فاكرك عقلت وبطلت الهلس !

فقال باسماً وهو يعود إلى الحجرة ويجلس على مقعد :

— أبطل ازاى ؟ «البصبصة» فى دمي !

وجعـل يذكرنى بأيام « ديروط » حيث كنا نعمل معاً فى نيابتها . وطلب مني سيجارة طفق يدخنها ويقول :

— فاكر فى ديروط لما كنا نقف فى الشبابيك نبحث بعيننا فوق الأسطح عن قميص حريمى مشغول « بالتنتنة » لأجـل بس نطمئن على وجود صنف النسوان فى البلد !

الواقع أنها بلاد قريبة من الفطرة والوحشية . هذا الوجه القبلى من مصر شيء مخيف لساكن الوجه البحرى . إن المرأة هناك شبح لا يرى ولا ينبغى أن يرى . وهي مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل . كلاهما شيء لا أثر للرقة فيه . وكلاهما فى الجسم والطبع والروح كتلك الأرض السوداء التى يعيشان عليها وقد جف عنها النيل فى زمن التحاريق ! آدميون قد جف عن تركيبهم ذلك الماء الذى فيه سر امتياز الآدميين

ونفخ صاحبي الدخان من أنفه وفمه ثم استطرد :

— لعنة الله على دى بلد ! أنا أراهن أن تسعة أعشار أهالي ديروط لو تكشف روسهم تلقي معمول لهم جميعاً عمليات « طربنة » من ضربهم فى بعض بالنبابيت !

فصادقت برأسي على قوله ثم زدت :

— وأبنوب ؟

— ألعن !

قالها فى إشارة من يده أضحكتني وذكرتني بشيء قرأته عن هذه البلدة : إحصائية صدرت في أوروبا أو أمريكا (لست أذكر على التحقيق) غرضها بيان الاجرام فى العالم : ورد فيها أن « شيكاجو » أكثر بلاد الأرض في عدد جرائمها ، وتليها مباشرة « أبنوب » ، وبعدها بقية مدن العالم الشهيرة . وقد حسبت وقتئذ أن « أبنوب » هذه مدينة فى أمريكا . لولا ملحوظة في هامش الاحصائية ذكرت أنها من بلاد الوجه القبلى بالقطر المصرى . دهشت عند ذلك أن يكون لهذه البلدة الحقيرة الصغيرة هذا المقام العظيم بين مدن الدنيا الشهيرة ،

وإن كان هذا المقام فى عالم الاجرام ! « شيكاجو » و « أبنوب » ! قطبا الغريزة السفلى على هـذه الأرض . الأولى إجرام الحضارة ، والثانية إجرام البداوة ! كل له طابعه ومميزاته . إجرام الحضارة ، قد ارتدى هو أيضاً ثوب الحضـارة بأسلحتها وأغراضها وأسبابها !

هنا لك الجريمة المتحضرة تخرج فى سيارتها المصفحة حاملة « المسدسات » و « المتراليوزات » و « المفرقعات » لتهجم على أضخم « البنوك » وبيوت المال ثم تعود إلى مكمنها بثروات طائلة من الجنيهات ! وهنا الجريمة الفطرية تخرج متدثرة فى عباءتها حاملة هراوتها أو فأسها أو بندقيتها لتسفك دم رجل ضعيف انتقاماً لعرض أهين فى نظر التقاليد والعادات . هنا لك الثروة والمال ، وهنا التقاليد والعادات . هذا هو الفرق بين الحضارة والفطرة ، بين ما يشغل بال الرجل المتحضر وما يشغل بال الرجل المتأخر ! نعم إن الشر هو دائماً الشر . ولـكن الشر الناتج عن سبب كبير لأجدر بالتقدير من شر نشأ عن سبب تافه حقير ! إن الحضارة العظيمة لا تزيل الشر ولا تمحو الجريمة ، ولـكنها توجد الشر العظيم والجريمة العظيمة !

والتفت إلى زميلي المطرق وقلت له :

— أنا روحي طلعت خلاص ! زهقت من حاجة اسمها أرياف ! زهقت من أصناف « اللبد » !

— إزهق على كيفك !

— أنا اشتقت لمصر ! نسيت شكل عاصمة بلادي ! أحب ياناس أغير نوع الجريمة ، وأشتغل مع مجرمين لابسين سترة وبنطلون !

— حركة التنقلات فى نوفمبر .

— أظن علىّ الدور أنتقل لمصر .

— النقل لمصر مش بالدور ياحبيبي . عندك واسطة ؟ ؟

— لأ .

— حاتعيش وتموت فى الأرياف .

— وإخواننا اللى قاعدين متمتعين فى مصر بقى لهم سنين ؟

— تشملهم كذلك حركة التنقلات . لـكن على الوجه المفهوم وعلى الطريقة المعتادة : وكيل نيابة الموسكي ينقل إلى نيابة الأزبكية . ووكيل شبرا إلى نيابة الخليفة . ووكيل السيدة زينب إلى كلية مصر ؛ يعنى تنقلات مع مراعاة عدم خروجهم من الجنـة العاصمة . ومع ذلك تجد حضراتهم غير راضين . لأن بعضهم يقول لك : « شبرا ! ياسلام شبرا بعيدة جدا جدا عن بيتى فى الزمالك ! » والآخر يقول لك : « إزاى أروح نيابة السيدة ! ؟ حى ديموقراطي قوى ! ! » أما حضرتك وحضرتى ، فأنت إن شاء الله من هنا إلى « الفشن » من غير كلام . وأنا من طنطا إلى « طما » أو « منفلوط » من غير كلام . وإن فتح واحد منا فمه بالشـكوى أو الاحتجاج هبوا فينا : إيه دلع أعضاء النيابة ده ! تفضلوا روحوا نياباتـكم بلا دلع ! !

فأطرقت طويلا فى حزن وغم ؛ ولم أجد فى يدى غير التمسك بالصبر حتى لا أضيف على بلائى بلاء وقلت متنهدا :

— أمرنا لله ! لنا رب ! لـكن ده شيء يصد النفس عن الشغل . . .

لفظت ذلك وقد وقعت عيني على أكوام الأوراق التى لابد من إنجاز التصرف فيها فأحسست أن رغبتى فى العمل قد فترت . فقال صديق :

— الشغل . . . هو آخر شئ يهم أسيادنا الرؤساء الكبار ! المحسوبية أولاً ، ومصلحة العمل أخيراً ، وكون نفس حضرتك تنسد أو تنفتح للشغل مسألة غير مفهومة بالمرة ولا مهمة بالمرة عند أسيادنا الكبار !

ونظر الزميل فى ساعته ثم نهض سريعاً مستأذناً فأمسكت به فى لهفة . ففى وجودنا معاً وتقليب ذكرياتنا بعض الراحة والعزاء :

— أقعد ! أنت رايح تتغدى عندي النهارده !

— مستحيل ! نيابتي فاضية ووقت مولد . أرجوك تسامحنى . . .

وشكر لي ومد إلي يده وودعني بسرعة وهو يقول مشيرا إلى ملفات الشكاوى التى جاء بها :

— على الله نفسك تنفتح على الكم ورقه الهدية . . . ويبقى لك عندى المرة الجاية الحلاوة . . حلاوة بصحيح : حمصية وسمسمية وبالجوز واللوز والفستق و . . .

— طيب رح بقى ، ريقى جرى مقدماً . . .

وشيعته باسماً إلى باب حجرتى حتى اختفى . فرجعت إلى ما كنت فيه ولكن فى شيء من التثاقل والضيق والكآبة . وألقيت نظرة أخرى على « الشكاوى » . ورأيت أن أمضى فى عملى وأن لا أضيع الوقت فى تبرم لافائدة منه ، لا يشعر به أحد ولا يراه أحد غير تلك الحيطان الأربعة التى تحبس روحى وأنفاسى . وأمسكت بالقلم . وتناولت من الكوم ملفاً وفتحته . وقرأت « ياملاذ العدل . . » فما تمالكت أن ضحكت بصوت مرتفع ضحكة مرة . أنا ملاذ العدل ؟ أين هو العدل ؟ إنى لا أعرفه ولم أره . لأن أحدا لم يعطنيه ! إنهم يطلبون إلي أن أنظر فى شكاوى الناس ولا يتنازلون هم إلى النظر فى شكواى وشكوى المئات من زملائى ! وأجريت القلم فى الأوراق أوسعها « حفظاً » ! ودخل على عبدالمقصود افندي يحمل ملفات ضخمة فقلت مرتاعاً :

— إيه كل ده ؟

— الجنح الباقية على التصرف . .

ثم التفت خلفه ونادى الحاجب :

— هات الجنايات يا جدع !

ونظر إلى قائلا :

— حانعمل إيه فى الجنايات الباقية . . .

ووضع أمامي ملفات قرأت على غلاف أحدها قضية « قمر الدولة علوان » . فتذكرت أن الفاعل في هذه القضية لم يعرف . لم يعرف ، طبعاً لم يعرف ولن يعرف . وكيف يراد منا أن نعرف متهما في قضية غامضة كهذه القضية وكل من المأمور والبوليس « ملبوخ » من رأسه إلى قدمه في تزييف الانتخابات ، وأنا « ملبوخ » فى قراءة شكاوى وجنح ومخالفات وحضور جلسات . لو أن لدينا « بوليس سرى » على النظام الحديث ، و « قاضى تحقيق » ينقطع لقضايا الجنايات كما هو الحال في أوروبا والعالم المتحضر ! إنهم هناك ينظرون إلى أرواح الناس بعين الجد . أما هنا فلا أحد يأخذ ذلك على سبيل الجد . وإن الأموال لتنفق هنا بسخاء في التافه من الأمور ، أما إذا طلبت لأقامة العدل أو تحسين حال الشعب فإنها تصبح عزيزة شحيحة تقبض عليها الأكف البريحفة كأنها ستلقى في البحر هباء . ذلك أن « العدل » و « الشعب » . . . الخ الخ كلمات لم يزل معناها غامضاً عن العقول فى هذا البلد . كلمات كل مهمتها أن تكتب على الورق وتلقى فى الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنوية التى لا يحس لها وجود

حقيق . فلماذا ينتظر منى أنا أن آخذ على سبيل الجد روح « سى قمر الدولة علوان » ! إن هذا المجنى عليه قد مات وانتهى مثل غيره من مئات المجنى عليهم فى هذا المركز والمراكز الأخرى فى القطر ، ذهب دمهم جميعاً أرخص من المداد الذى حبرت به محاضر قضاياهم ، وانتهى ذكرهم عندنا « رسميا » بذلك الاجراء الأخير البسيط : « تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ويكتب للمركز باستمرار البحث والتحرى » . فيجيب المركز بعبارة مألوفة محفوظة يحررها كاتب الضبط فى حركة آلية وهو يقضم «شرش جزر » : « جارى البحث والتحرى.. » وهي كلمة الوداع التى تقبر بها القضية نهائياً . لقد كان فى قضية قمر الدولة « قمر » مضى ميز فى أعيننا هذه القضية عن غيرها وحبب إلينا العمل والجهد فى سبيلها . ولقد اختفى هذا القمر إلى الأبد وترك القضية ومحققها فى الظلام ! بل إنه بذهابه قد زال عنها ذلك الاعتبار الخاص فأصبحت قضية عادية كمئات القضايا التى لا يعنينا من أمر أشخاصها شئ . وللقضية أى لذلك « الملف » المادى من الورق المكتوب « شخصية » قائمة بذاتها فى نظر رجال العدل . وإن ما يعنى جهاتنا الرئيسية هو ذلك « الملف » وسرعة التصرف فيه. وإنه لن يعيبنا شئ إذا حفظنا القضية ، ولكن العيب كل العيب أن تظل هذه القضية باقية قيد التصرف ويثبت ذلك فى « الكشوف » المرسلة إلى النائب العام والوزارة فى آخر السنة القضائية . أى عار عند ذلك وأي إهمال ينسبان إلى وكيل النيابة ؟! وأي مكاتبات مستعجلة وغير مستعجلة تسقط على رأسه من جميع الجهات عن سبب بقاء هذه القضية قيد التصرف ؟ فاذا أجاب بأنه لم يستوف بعد أبحاثه فيها للوصول إلى معرفة الفاعل وأنه مواصل بحثه ومصر عليه لا يعتبر ذلك عذراً ، وسفهه زملاؤه وحسبوه «غشيما » ونصحوه بأن « يحفظ » القضية «مؤقتاً» حتى تعتبر «متصرفاً فيها» ؛ فالجهات العليا يهمها ويطمئنها «التصرف» في القضايا أى «نفض» اليد والفراغ منها كما يفرغ النجار من كراسى صنعها ، حتى تستطيع تلك الجهات أن تدون في الاحصائيات: « وقع في القطر هذا العام عدد كذا جنايات . . . تم التصرف في عدد كذا منها . . . الخ » . وكلما كان عدد القضايا التى تم فيها التصرف كبيراً كان ذلك دليلا ناصعاً على نشاط رجال العدل وغيرتهم على استتباب الأمن وحسن سير الدولاب الحكومى ! !

وأشار عبد المقصود أفندى بأصبعه إلي الملفات وقال :

— قبل كل شئ ياسعادة البك تصرف لنا فى الكم جناية الباقين لأجل أن أسدد كشف الجنايات وأصدره للباشا النائب والوزارة ! . .

— بس كده ؟ حاضر !

وغمست القلم فى المداد وتناولت القضية الأولى وهي قضية « قمر الدولة » :

— طالب تصرف ، خد تصرف !

ثم كتبت فى ذيل المحضر الاشارة المعهودة :

« تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ... الخ الخ»

وسحبت « الجنايات » الأخرى وفعلت بها مثل ذلك وناولتها رئيس القلم الجنائى وأنا أقول له فى نبرة خرجت ساخرة مريرة على الرغم منى .

— مبسوط ! أدحنا خلاص سددنا كشف الجنايات !

(انتهى)

توفيق الحكيم

أجلافين وسيليزيت

رواية تمثيلية في خمسة فصول

للكاتب البلجيكي موريس ماترلنك

بقلم الدكتور محمد غلاب

أشخاص الرواية

تظهر فى هذه الرواية خمس شخصيات ، ثلاث منها تلعب دوراً جوهريا ، واثنتان قليلتا الأهمية ، فأما الثلاث الأول فهى شخصية « سيليزيت » وشخصية « ميلياندر » زوجها و « أجلافين » أيم شقيق « سيليزيت » ؛ وأما الشخصيتان الثانويتان فى هذه الرواية فهما شخصيتا « ميلنجران » جدة « سيليزيت » و « إيسالين » الفتاة الصغيرة .

الفصل الأول

المنظر الوحيد : يجرى هذا المنظر فى إحدى قاعات قصر « ملياندر » حيث تشاهد الجدة العجوز مستغرقة في النوم على كرسى طويل ذى مسند عال فى نهاية القاعة .

ملياندر — سيليزيت :

ملياندر ممسكا بيده الرسالة التى وردت إليه من أجلافين يقرأ :

« لا تخرج لمقابلتي ، بل انتظرنى فى نفس القاعة التي تنتظر فيها عادة سماع دقات ساعات الراحة حتى لا أحس أننى أجنبية : إنى أكتب إليك هذه الرسالة على أثر نزولى من الباخرة التى كانت تحملنى إليك. لقد كان هذا السفر سعيداً وموفقاً ، غير أننى حين نزلت إلى الشاطىء وجدت الطريق مفعما بمياه الأمطار الغزيرة ، ومن المحتمل أن الشمس ستغرب قبل أن ألمح برج ذلك القصر العتيق حيث سيليزيت الحيرة

أرادت أن تستقبل (أيم) شقيقها

سيليزيت مصفقة :

أوه ، الشمس آذنت بالمغيب ، أنظر إذاً ، لا بد أن تكون قد اقتربت ، سأرى . ولكن « ميلياندر » يمنعها من الخروج بإشارة ويستأنف القراءة .

« أنا لم أرك إلا مرة واحدة « يا ميلياندر » وكانت فى وسط الحيرة والارتباك ، لأنها كانت في يوم عرسى ، ذلك العرس البائس الذى مع الأسف لم نلمح فيه ذلك الضيف [1] الذى لا يدعوه أحد ، ولكنه كان يجلس دائماً فى مكان السعادة التى تنتظرنا . لم أرك إلا مرة واحدة منذ ثلاثة أعوام ، ومع ذلك فاننى أجىء نحوك بلا قلق كأننا كنا ننام منذ الطفولة فى مهد واحد . إننى متأكدة أنى أجد فيك أخا شقيقاً . نحن لم نتحادث معاً تقريباً ولكن الكلمات القليلة التى قلتها لى كان لها في مسمعى نبرات تغاير جميع النبرات التى سمعتها حتى الآن . »

سيليزيت — لا تقرأ سريعاً إلى هذا الحد

ميلياندر مستمراً فى القراءة : « كم أنا أشتهى

(١) المراد بالضيف الموت .

أن أقبل سلزيت ! لا بد أن تكون غاية فى الخيرية وغاية فى الجمال مادمت تحبها وهي تحبك . سأحبها حتما أكثر من حبك إياها ، لأن التعاسة علمتنى كيف أحب . والآن أنا سعيدة بأن تألمت كثيراً ، وأستطيع أن أقاسمكما الخير الذى يناله الأشقياء أثناء آلامهم . يخيل إلى أن الفداء الذى دفعته أنا يكفى لأن يفتدينا نحن الثلاثة ، وأن القدر لن يطالبنا بعد بشيء ، وأننا نستطيع منذ الآن أن نتحقق من وجود حياة قيمة ، وأننا لن ننشغل بعد ذلك إلا بالسعادة ؛ فأنت وأنا وسيليزيت كما نبأتنى عنها نظفر بالسعادة ، لأن السعادة لا تنبع إلا من نواحى الخير التى فى داخل أنفسنا . سوف لا يكون عندنا ما يشغلنا إلا أن نصبح غاية فى السمو حتى يحب كل منا الآخر أكثر مما يحبه الآن ، وحتى نصير أخياراً بقدر ما نتحاب فيما بيننا . إننا سنشغل نفوسنا ونحوط أشخاصنا بالحب حتى لا ندع فيها مجالا للشقاء ولا للحزن ؛ وإذا أراد الشقاء والحزن أن يتدخلا بيننا على رغم كل هذا فيجب أن يصيرا عذبين قبل أن يطرقا بابنا »

سيليزيت — هل هى جميلة ؟

ميلياندر — من هى ؟

سلزيت — أجلاڤين

ميلياندر — نعم هى جميلة جداً .

سيليزيت — من تشبه ؟

ميلياندر — إنها لاتشبه أية واحدةمن النساء . إنه جمال من نوع آخر ، وهذا هو كل ما أقول . إنه جمال أكثر غرابة وأكثر سموا . إنه جمال ذو نواح متعددة . إنه جمال يدع الروح دائما تنعكس على الوجه دون أن يحول بينها وبين ذلك الانعكاس مرة واحدة ، وسترين أن لها شعرا يصح أن يكون المفرد العلم فى بابه ، شعرا يضحك حين تكون سعيدة ويبكى حين تكون حزينة ، على حين أنها هى شخصيا قد تجهل ما إذا كان ينبغى لها أن تكون سعيدة أو حزينة . وأنا لم أر قط شعرا تنبعث منه الحياة كهذا الشعر . إنه يخدعها فى جميع الأحيان إذا صح أن نسمى إظهار الفضيلة المراد إخفاؤها خداعا ، لأنها ليس لديها ماتحاول أن تخفيه إلا الفضيلة.

سيليزيت — أنا أعرف أني لست جميلة

ميلياندر — لاتقولى هذا الكلام أثناءوجودها هنا ، لأنه ليس من الممكن أن يقال أمامها كلام غير مجد كهذا الكلام ، إذ أنها تطفئ بقوتها كل ما يخالف الحقيقة حولها .

سيليزيت — إنها تطفئ بقوتها كل ما يخالف الحقيقة حولها ... !

ميلياندر — سيلزيت ؟

سيليزيت — ميلياندر ؟

ميلياندر — إنه قد مضت علينا أربعة أعوام ونحن نعيش معا .

سيليزيت — إن العام الرابع سيكمل فى نهاية هذا الصيف .

ميلياندر — ها هى ذى أربعة أعوام قد مضت وأنا أجدك بجانبي دائما جميلة ودائما محبة ووديعة ، والبسمة الحلوة التى تنم عن السعادة العميقة لاتفارق ثغرك . أنت لم تبك كثيرا فى هذه الأعوام الأربعة . أليس كذلك ؟ اللهم إلا حين يفر من بين يديك أحد طيورك المحبوبة ، أو حين تشاكسك جدتك ، أو حين تذوى إحدى زهورك المنتقاة فتسكبين بضع عبرات قليلة ، ولكن عند مايعود الطائر وتهدأ الجدة وتنسى الزهرة تعودين إلى القاعة ضاحكة مستبشرة دافعة الأبواب والنوافذ ، قافزة فوق ركبتى مقبلة خدى كأنك طفلة تعودين من المدرسة . وأحسب أنه بناء على هذا يمكن أن نقول : إننا كنا

سعداء ، ومع ذلك فانني أراني مضطرا أحياناً إلى أن أسأل نفسي : هل يعيش كل منا قريباً من الآخر؟ ولست أدرى هل أنا الذي يعوزه الصبر لكي أتبعك أو أنت التي تهربين مني بسرعة فائقة ، ولكن الذى لاشك فيه هو أنى حينما أريد أن أحادثك كما حدث منذ لحظة ، فانك فى أغلب الأحيان تكونين كأنك تجاوبينني من الطرف الآخر للعالم حيث تفرين مني وتبحثين عن مأوى آخر ، ولا أعرف لشيء من هذا كله سببا . فهل حقا أن أرواحنا تروع إلى هذا الحد من المواقف الجدية أو من ذكر الحقائق التي تتعلق بالحب ؟ ثم ألم يحل هذا التباعد الروحى بيننا وبين بعض الأشياء التى كانت تستطيع أن تربط بيننا أكثر من قبل الشفاه ؟ أنا لست أدرى لماذا أحس هذا الاحساس الليلة أكثر من كل وقت آخر ؟ هل السبب فى هذا الاحساس هو ذكريات « أجلافين » الأكثر حيوية ، أو هو رسالتها التى بين أيدينا ، أو هو قدومها الذي أصبح مناقاب قوسين أو أدنى ؟ ذلك القدوم الذي سيستخلص حتما بعض الشيء من قلوبنا .

يخيل إلى أننا قد تحابينا بقدر مايستطيع النوع الانسانى أن يتحاب ، ولكن حينما تحضر « أجلافين » سيزداد حبنا ، وسيكون من نوع آخر أكثر عمقا ؛ ولهذا السبب على الأخص ، أنا سعيد بقدومها ، أما وأنا وحدى فلا أستطيع هذا النوع الجليل من الحب ، لأنى لا أملك القوة التى عندها وإن كنت أرى الأشياء كما تراها . إنها إحدى هذه الكائنات التى تعرف كيف تجمع القلوب إلى منابعها ، وحينما تكون هنا سوف يشعر كل واحد منا بأنه لافرق بين ما هو عليه وبين الحقيقة .

سيليزيت — أحبها ، فاذا أحببتها فسأنصرف

ميلياندر — سيليزيت ... !

سيليزيت — أنا أعرف أننى لا أفهم ذلك

ميلياندر — أنت تفهمين ياسيليزيت — وإن كنت لاتريدين أن تعترفي بذلك — ولولا أننى واثق من هذا لما حدثتك عن كل ذلك ؛ إن لك روحا أعمق مما تظهرين لى ، وهذه الروح العميقة هي التى تتلهين باخفائها عنى حين أبدأ فى البحث عنها لاتبكي ياسيليزيت فليس ذلك تأنيبا لك من جانبى

سيليزيت — أنا لا أبكى ، ولماذا أبكى ؟

ميلياندر — ومع ذلك فأنا أرى شفتيك ترتعشان

سيليزيت — إننى كنت أفكر فى شىء آخر لا علاقة له ألبتة بما تقول ، هل كانت شقية حقاً ؟

ميلياندر — نعم إنها كانت شقية بسبب شقيقك

سيليزيت — لعلها تستحق

ميلياندر — أنا لا أدرى إذا كان فى العالم سيدة تستحق أن تكون شقية

سيليزيت — ماذا عمل لها أخى ؟

ميلياندر — إنها توسلت إلى ألا أنبئك بشىء مما فعله أخوك معها

سيليزيت — هل كنتما تتراسلان ؟

ميلياندر — لقد أريتك رسائلها أكثر من مرة ولكنك لم تكونى تهتمين بقراءتها

سيليزيت — لا أتذكر ذلك

ميلياندر — ولكنى أنا أذكره جيداً

سيليزيت — أين رأيتها آخر مرة ؟

ميلياندر — أنا لم أرها إلا مرة واحدة ؛ ولقد قلت لك ذلك آنفا ؛ ولقد كان ذلك فى حديقة قصر شقيقك تحت الأشجار الوارفة الظلال

سيليزيت — فى المساء ؟

ميلياندر — نعم فى المساء

سيليزيت — ماذا كانت تقول ؟

ميلياندر — لقد قلنا يومئذ شيئاً قليلا و لكننا استطعنا أن نرى أن غايتنا واحدة

سيليزيت — وهل تعانقنا

ميلياندر — متى ذلك ؟

سيليزيت — فى نفس ذلك المساء

ميلياندر — نعم تعانقنا فى ساعة الفراق

سيليزيت — آه . .

ميلياندر — أنا لا أظن أنها ستمكث بيننا زمناً طويلا يا سيليزيت

سيليزيت — بلى ، أنا أريد أن تمكث

بينما الزوجان على هـذه الحال إذ سمعا ضجيجاً خارج المنزل فصاحت الزوجة قائلة : إنها جاءت ثم قفزت إلى النافذة وقالت إنه يوجد فى الممر الأسفل مصباح ، ثم تلت ذلك لحظة من السكون فتح الباب على أثرها وظهرت على عتبته « أجلافين » التى لم تلبث أن دخلت واتجهت نحو سيليزيت بعد أن نظرت إليها نظرة قصيرة فاحصة

ميلياندر — تعانقا

أجلافين — نعم . وعانقت سيليزيت ثم اتجهت نحو ميلياندر وعانقته قائلة : وأنت أيضاً

الفصل الثانى

المنظر الأول

يجرى هذا المنظر فى حديقة القصر حيث يجلس ميلياندر وأجلافين على مقعد فى هذه الحديقة

ميلياندر — لم يمض بعد أسبوع على مقامنا تحت سقف هذا القصر ، ولـكنني لا أستطيع أن أتخيل أننا لم نولد فى مهد واحد ، يخيل إلى أننا لم نفترق قط وأننى عرفتك قبل أن أعرف نفسى ، إنك تظهرين لى سابقة على كينونتى نفسها . إننى أحس بروحك أكثر مما أحس روحى . إنك أكثر قرباً إلىَّ من كل ذاتى . ولو أنه قيل لى : بِعْ حياتك لبادرت إلى تنجية حياتك أنت لـكى أحيا بها ؛ ولو أنك لم تـكونى هنا لما استطعت أن أرى نفسى . أنا لا أجد شخصيتى ولا أبتسم لنفسى ، بل أنا لا أحبها إلا فى ذاتك أنت . يخيل إلى غالباً حين أعانقك أننى أعانق باكياً جزء نفسي الذى ليس من هذا العالم الأرضى .

أجلافين — وأنا أيضاً أقول بدورى ياميلياندر حين أعانقك أننى أعانق نفسى بعد أن أصير أكثر جمالاً ؛ أنا لست حقيقة من الحقائق إلا حين تكون بجانبىْ ، ولا أسمع صوت نفسى إلا ممتزجاً بصوتك .

إننى أبحث عن نفسى خارج ذاتى فلا أجدها إلا ممثلة فيك . أنا لم أعد أعرف إذا كنت أنت ضوئى أو أنا نورك . إن امتزاج ذاتينا قد وصل إلى حد لايستطاع معه تمييز أين يبدأ أحدنا وأين ينتهى الآخر . إنى أشعر أننى أُزْهِر فى نفسك كما تزهر فى نفسي ، وأن كلاً منّـا يتوالد فى نفس الآخر بدون انقطاع .

ميلياندر — إنه لايوجد شئ يباعد بيننا قليلا إلا تلك الدهشة التى تخالج نفسينا .

أجلافين — هذا حق ! إنى أدهش نهاراً وليلا من أن كائناً مثلك يوجد فى الحياة الواقعية .

ميلياندر — وأنا أيضاً أعترف بأن جميع حواسي لم تعد كافية لأن أفهمك . إننى أحسبنى أحلم حين أراك ، وأحسبنى أحلم حين أسمعك ، وأظن أننى فى حلم حين لا أراك . وأعتقد أننى مخدوع حين لا أسمعك . فأتجـه نحوك ظناً أننى لا أزال مخدوعاً فأراك وأسمعك وأعانقك ، وفى هذه اللحظة نفسها أريد أن أفر ، لأبحث عن شئ أكثر تأكداً من هذا .

أجلافين — وأنا أيضاً حينما أكون بجانبك أود أن أبعدك عنى لـكي أراك اكثر امتزاجاً بى حين أكون منفردة ، ولـكننى حين أكون وحدى

أشعر بشيء يجذبني إلى البحث عنك ، لأنني أعتقد أن روحك تنتظرني بحالة أكثر عمقاً ألف مرة مما أستطيع أن أتخيله . أنا لم أعد أعرف ماذا ينبغي عمله في وسط سعادة كسعادتنا . إنه ليخيل إلى أحياناً أنني شقية من فرط السعادة .

ميلياندر — أين كنت توجدين أثناء السنين التي مرت قبل أن يعرف كل منا الآخر .

أجلافين — أنا كنت أفكر في أن أوجه إليك هذا السؤال نفسه ، لأن روحينا تتكلمان غالباً قبل أن ينفرج ثغرانا عن ألفاظ .

ميلياندر — ومع ذلك فانك حين تتكلمين فانما هو صوتي أنا الذي أسمعه للمرة الأولى .

أجلافين — وأنا حينما تتحدث إلي فانما هو قلبي الذي أستمع إليه ، وحينما أصمت فانما أستمع إلى قلبك . أنا لا أستطيع أن أجد قلبي دون أن أتلاقى مع قلبك ، ولا أستطيع أن أبحث عن قلبك دون أن أجد قلبي .

ميلياندر — إن روحينا كان يجب من غير شك أن تكونا في جسم واحد ، ولكن لست أدري لماذا وضعهما الإله في جسمين مختلفين .

أجلافين — أين إذاً كنت أثناء هذه الأعوام التي كنت أحياها منفردة ؟

ميلياندر — كنت أنتظرك منفرداً أيضاً وإن كان ذلك بلا أمل .

أجلافين — وأنا أيضاً كنت أنتظر منفردة ، ولكنني كنت أؤمل .

ميلياندر — ولكن من الذي قال لك : إن أحداً من هذا النوع ينتظرك .

أجلافين — لم يقل لي أحد شيئاً ، ولم أك أعرف شيئاً إلا أن يكون المرء يعرف دون أن يعرف ، ولقد كنت أعرفك دون أن أراك .

ميلياندر — ولكن هل كنت تستطيعين أن تحبيني كما أحبك قبل أن تريني ؟

أجلافين — وأنت هل رأيتني كما رأيتك قبل أن ألتقي بك ؟

ميلياندر — أنا لا أصدق أن مايحدث لنا الآن قد حدث لأحد غيرنا وأن توجد حياة أخرى تشبه حياتنا

أجلافين — آه إنني أعتقد أحياناً أن ذلك مستحيل

ميلياندر — وأنا أيضاً ، ولهذا أرتاع .

أجلافين — مِنْ ماذا أنت مرتاع ؟ لقد وجد كل منا صاحبه ، فماذا يمكن أن يخشى بعد ذلك ؟

ميلياندر — بالعكس إنما يجب على المرء أن يرتاع أكثر حينما يكون سعيداً . إنه لا يوجد شيء يهدد الانسان أكثر من السعادة ، وإن كل قبلة تتبادل بين الحبيبين يمكن أن توقظ عدواً جديداً ، وفوق ذلك فان هناك شيئاً آخر .

أجلافين — ماهو ؟

ميلياندر — هي سيليزيت .

أجلافين — ثم ماذا ؟

ميلياندر — هل فكرت في سيليزيت ؟

أجلافين — نعم

ميلياندر — أو ليس يروعك هذا ؟

أجلافين — لا . هذا لم يعد يروعني

ميلياندر — إنها يمكن أن تتألم

أجلافين — ألا أستطيع أن أحبك كشقيق ياميلياندر ؟

ميلياندر — ومع ذلك فاذا بكت فماذا يكون ؟

أجلافين — إنها لن تبكي طويلا إذا صعدت إلى صفنا . لماذا لا تصعد معنا إلى الحب الذي يتجاهل صغائر الحب ؟ إنها لخير مما نعتقد يا ميلياندر ، إننا سنمد إليها يدينا ، وإنها ستعرف كيف تلحق بنا ، ومتى تحقق لها ذلك ، فإنها لن تبكي . إنها ستبارك كنا

بدموعها ، لأن بعض الدموع خير من القبل .

ميلياندر — هل تصدقين أنني أحبك كأخت؟

اجلافين — آه !

ميلياندر — وهل تعتقدين أنك تستطيعين أن أن تحبيني كأخ ؟ .

أجلافين — حينما تسألني عن هذا لا أعرف عنه شيئاً .

ميلياندر — لم أعد أستطيع أن أصدق ذلك ، إننا سنجاهد وسنقاوم وقتا طويلا ، وإن أبدع قوانا التي سنكسبها من الحب النفيس أو من الجمال النقي أو من الحقيقة العميقة ستنهك في هـذه المغالبات العابثة، وبقدر ما نقاوم سنجد بيننا رغبة تشبه ستاراً تزيد كثافته شيئاً فشيئاً حتى تتناهى في الظلمة . ولا شك أن أسمى نواحي نفسينا ستنعدم أمام هذه الرغبة. يخيل إلى أنه لا يوجد في أعماق كل هذا إلا أشياء تافهة بين روحين وبين سعادتهما . هل النجوم والأزهار ، أو المساء والصباح . أو الفكر والدموع . لا تتطور تبعاً للقبل التي نتبادلها معاً ؟ بل هل الليل نفسه له في نظر الأخت عين العمق الذي هو في نظر العشيقة ؟ ينبغي ألا نغلق الباب دون الحقيقة العميقة فنور حياتينا سيتضاءل أمام هذه الكذبة الصغيرة . أنت لست أختي يا أجلافين ، وأنا لن أستطيع أن أحبك كأخت .

أجلافين — إنه لحق أنك لست أخي ، وهذه نقطة آلامنا من غير شك .

ميلياندر — أنت أيضاً إذاً تحبين الألم العابث

أجلافين — أنا لا أحب إلا الألم الذي أحتمله عن الآخرين .

مليلندر — وأي ألم ذلك الذي نحمله هنا عن الآخرين دون أن نفقد أنفس ما لدينا ؟

اجلافين — نحن لا نعرف ذلك حتى الآن ، ولكن يجب ان نعمل كما لو كنا نعرف ، وإذا كان لابد من الخطأ فالأفضل ان يخطىء الانسان على نفسه

ميلياندر — أنا أعرف ذلك ، ولكن كيف العمل ؟ .

أجلافين — إن القدر قد قرب بيننا فتعارفنا بهيئة قد لا يكون أحد سبقنا إليها ؛ لقد أحب كل منا الآخر حباً لا يستطيع شيء في الدنيا أن يغيره فيمنعك من أن تحبني أو يمنعني من أن أحبك .

ميلياندر — إنني أعتقد ما تعتقدين ولا أرى شيئاً في العالم . . . . .

أجلافين — ومع ذلك فلو أنني أبكيت كائنا طاهرا، هل ستظل تعرفني ؟ .

ميلياندر — إنه من غير الممكن أن يبكي أحد بسببك إلا إذا كان مخدوعا .

أجلافين — إن الدموع التي تنسكب خطأ هي مؤلمة أيضاً .

ميلياندر — إنه لم يبق لنا إلا أن يغادر كل منا صاحبه يا أجلافين ، ولكن هذا مستحيل ،لأني لا أستطيع أن أتخيل أن حبنا ولد ليفنى في الدموع ؛ وفوق ذلك فأنه يجب علينا أن نؤدي واجبنا نحو أنفسنا

أجلافين — أنا أعتقد ذلك أيضاً يا ميلياندر، وأعتقد أن هناك شيئاً أفضل من الفراق ، لأن هذا الحب الجميل لم يولد ليموت .

ميلياندر — أنا لا أعرف لماذا ولدت هذه الأشياء، ولكني أعرف أن الدموع تجيء على غير انتظار .

أجلافين — إذا كان هناك أحد يجب أن يتألم فينبغي أن نكون نحن . إن هناك ألف واجب ولكني أعتقد أن الانسان لا ينخدع إلا نادراً حينما يجتهد في ان يرفع الألم عن الضعفاء ، ليحتمله هو نفسه

ميلياندر — (ضاما إياها بين ذراعيه) : إنك لجميلة يا أجلافين .

أجلافين (ضامة إياه بدورها) : إني أحبك ياميلياندر .

ميلياندر — هل أنت التي تبكين يا أجلافين ؟

أجلافين — لا ، لست أنا ، وإنما نحن .

ميلياندر — وهل نحن أيضاً الذين نضطرب؟

أجلافين — نعم

(في هذه اللحظة أخذ الحبيبان يتعانقان بحرقة وإنهما لـكذلك إذ سمعا صيحة ألم ثم رأيا سيليزيت فارة نحو القصر والهواء يعبث بشعرها)

ميلياندر — ها هي ذى سيليزيت .

أجلافين — نعم .

ميلياندر — إنها سمعتنا وفرت نحو القصر .

أجلافين — (قائلة وهى تشير إلى سيليزيت) : إذهب إليها .

ميلياندر — نعم

(قال هذا وانفلت مسرعاً نحو سليزيت بينما استندت اجلافين إلى شجرة من أشجار الحديقة وأخذت تبكي بكاء صامتاً)

المنظر الثانى

يقع هذا المنظر فى حديقة القصر على شاطئ حفرة مفعمة بالمياه حيث ترى اجلافين نائمة على مقعد من الحجر ملاصق لحافة الحفرة .

سيليزيت تحادث نفسها قائلة : « سيليزيت الصغيرة لاينبغى أن تبكي ، إنه يشفق عليّ ، لأنه لم يعد يحبنى ، وأنا كذلك لم أعد أحبه ، إنهما يعتقدان أننى سأظل هادئة ، وأنه حسبى أن يعانقني وهو متجه إلى ناحية أخرى .

سيليزيت — سيليزيت ، هـذه الكلمة تقال بحنان ، وبحنان أكثر من المعتاد ، إنه ينظر إلى شيء آخر حين يعانقنى الآن ، أو هو ينظر إلى كأنما يسألنى الصفح عنه ، وحينما يتعانقان يجب أن أختفى كما لو أننى كنت قـد سرقت شيئا . إنهما قدخرجا أيضا هذا المساء ، لقد غاب عنى أثرهما فى الحديقة . إن سيليزيت الصغيرة لا علم لها ألبتة بسرهما ، وإنه لم يعد يتحدث إليها أحد منهما إلا باسماً ولا يتقدم إليها إلا بقبلة فوق الجبهة أو بشيء من الزهور أو الفواكه . إن سيليزيت الصغيرة محمية الآن بهذه الأجنبية ، إنهما يعانقانها باكيين ، ليقولا فيما بينهما وبين أنفسهما : أوه ! يا للمسكينة الصغيرة ! إنها لن تنصرف ، ولـكنها لن ترى شيئا . على أثر ذلك يتناول كل منهما يد صاحبه ، نعم نعم إلى هذه اللحظة . . . صبرا صبرا . . . إن سيليزيت سيكون لها يوما ، إنها لاتعرف إلى الآن ماذا تفعل ، ولـكن صبراً صبراً ، سنرى »

وبينما هى كذلك إذ بها تلمح أجلافين نائمة على المقعد الملاصق للحفرة ، فاقتربت منها قائلة : إنها منفردة أيضا ، وهذا الذى على وجهها ؟ أهو شعاع القمر ؟ أم هو نصيفها [1] الأبيض ؟ إنها نائمة ، ماذا سأعمل ؟ إنها لعلى شاطىء الحفرة من حيث لاتدري ، فلو أنها تحركت أقل حركة لسقطت في الهوة ، وفوق ذلك فقد أمطر المطر ، وإنها قد غطت رأسها ، ولـكن صدرها ظل مكشوفا ، إنها مبللة بالمياه وستصاب بصدمة برد ، لأنها لا تعرف جو هذه البلاد ، هل سقطت على هذا المقعد أو هي مريضة ؟ آه . إنها تضطرب فى نومها ، سأعطيها معطفى ، ثم غطت أجلافين بمعطفها وأزاحت النقاب عن وجهها . إنها تنام نوماً عميقاً . أنا أظن أنها بكت ، إنها لاتلوح عليها علامة السعادة ولا يظهر على وجهها أنها أسعد منى ؛ إننى أرى أنها لاتزال

(١) النصيف : النقاب

تبكي ، إنها لجميلة حين تكون ممتقعة هكذا حتى لكأنها ممتزجة بأشعة القمر ! لا ينبغي إيقاظها بغتة لأنها يمكن أن ترتاع فتسقط فى الهوة . قالت هذا وانحنت عليها برقة ثم نادتها بهدوء: أجلاڤين أجلاڤين!

أجلاڤين (مستيقظة) : آه ! الجو مضيء

سيليزيت — خذى حذرك إنك على الشاطيء ، لا تتحركي فيأخذك الوهم .

أجلافين — أين أنا ؟

سيليزيت — إنك على حافة خزان المياه الحلوة للقصر ، ألم تكوني تعرفين ذلك ؟ وهل جئت وحدك إلى هنا ؟ كان ينبغي أن تحتاطي ، إن هذا لهو المكان الخطر .

أجلافين — إنى لم أكن أعرف ذلك ، لأن الجو كان مظلما فلم أر إلا هاتيك الشجيرات التى حالت بيني وبين رؤية الماء ، وإلا هذا المقعد ؛ وقد كنت حزينة ومتعبة فنمت .

سيليزيت — هل أصابك البرد ؟ أحكمي على جسمك المعطف .

أجلافين — ما هذا المعطف ؟ إنه لمعطفك يا سيليزيت ، إنك أنت التي غطيتني حينما كنت نائمة ، لكن أنت التي أصابك البرد ، تعالى هنا لأدثرك أيضا . إنك ترتعشين أكثر مني. قالت هذا والتفتت نحو الحفرة ثم صاحت : آه . . . الآن قد أشرق القمر ، فأنا أرى الماء يلمع بين جدران الهوة فلو أنني تحركت أدنى حركة ... هل أنت ... ياسيليزيت ... (ثم نظرت إلى سيليزيت)

سيليزيت — لا تمكث هنا ، هذا هو مكان الحمى

أجلافين — لا ينبغي أن نضيع فرصة مثيلات هذه اللحظات ، لأنها لا تتكرر .لقد رأيت روحك ياسيليزيت ، لأنك أحببتني بالرغم منك حين أيقظتني آنفا .

سيليزيت — إننا سنصاب بالبرد يا أجلافين .

أجلافين — أنا أرجوك ألا تحاولى الفرار فى اللحظة التى كل ما فى كينونتك من عمق وسعة قد أراد أن يتجه نحوى . هل تعتقدين أننى لا أسمع المجهودات التى تتفاعل الآن فى نفسك ؟هل تعتقدين أن كلاً منا سيكون أكثر قربا إلى صاحبه في أى وقت آخر منه الآن ؟ لا ينبغى أن نضع كلمات تافهة تشبه الشوك بين قلبينا المسكينين. فلنتحدث ككائنين مسكينين من بنى الانسان كما هى حالتنا وكما يتكلم كل كائنين بقدر ما يستطيعان، أى بأيديهما وأعينهما وروحيهما كلما أرادا أن يتحادثا عن شيء أكثر حقيقة من ان تسمو إليه الألفاظ . هل تعتقدين أنى لا أسمع قلبك حين ينبض بمختلف العواطف وشتى الاحساسات ؟ عانقيني فى هدوء هذا الليل ودعيني أحوطك بذراعى ، وإذا لم تستطيعي ان تجاوبيني فلا تهتمي لذلك ، لأن فى داخل نفسك شيئاً انا اسمعه كما تسمعينه انت سواء بسواء .

سيليزيت — (باكية) أجلافين . . .

أجلافين — (باكية) وأجلافين أيضاً تبكى ، إنها تبكى ، لأنها تحبك ولأنها هى أيضاً لا تستطيع أن تقول بالضبط ما ينبغى لها أن تعمل وما ينبغى لها أن تقول . ها نحن أولاء وحدنا يا سيليزيت المسكينة ؛ ها نحن أولاء وحدنا ، فلتضم كل واحدة منا الأخرى في هذه الظلمة . إن السعادة أو البأساء اللتين ستنزلان بنا قد يوضع تصميم مصيرهما فى هذه اللحظة في داخل أنفسنا ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يعرف ذلك ، وإننى كلما أسائل المستقبل عما يكنه لنا لا أجد جواباً على سؤالى إلا الدموع . أنا أعتقد أننى أكثر حكمة ، وحينما يجيء اللحظة التى تنبغي فيها المعرفة فسأشعر أنني محتاجة إليك أكثر مما تحتاجين إليَّ . ولهذا السبب أنا أبكى ، ولهذا السبب أنا أعانقك هكذا حتى يقترب كل واحد منا من صاحبه بقدر المستطاع

طبقاً لما يتركز فى نفسينا من عواطف ، لقد آلمتك كثيراً في هذا الصباح .

سيلبزيت — لا لا ، أنت لم تؤلمينى .

أجلاڤين — لا . ، بل آلمتك كثيراً فى هذا الصباح ، وأريد ألا أقدم إليك شيئاً من ذلك فى المستقبل ، ولكن ما ذا ينبغى أن يعمله الانسان حتى لا يؤلم من يحبه ؟ لكأنى بالحب هو منشأ الألم ، إذ لا يكاد المرء يحب الآخر حتى يكون هذا الحب مجلبة لآلام المحبوب ، وهكذا في اللحظة التى أحسست فيها بأنى أحببتك أكثر من ذي قبل ، طبعت على خدك القبلة التى أبكتك للمرة الأولى .

سيلبزيت — لقد بكيت يا أجلاڤين ، ولكننى لم أكن عاقلة ، وسوف لا أبكي بعد الآن

أجلاڤين — يا سيلبزتى المسكينة : إن الشخص لا يعرف بالضبط متى يكون عاقلا ؛ ولا ينبغي أن نسأل الذين يبكون : هل هم متعقلون أو غير متعقلين؟ وإنما يجب أن نبحث بكل بساطة عما ينبغي أن يتخذ من الوسائل لمنعهم من البكاء .

سيلبزيت (باكية) — أجلاڤين . . . !

أجلاڤين — ماذا حدث؟ إنك لشديدة الاضطراب

سيلبزيت — إننى لم أكن قد رأيتك نائمة قبل الآن يا أجلاڤين .

أجلافين — سترينني نائمة منذ الآن كثيراً يا سيلبزيت .

سيلبزيت — إنه لم يتحدث إليَّ أحد قط بهذه الطريقة .

أجلافين — بلى ، بلى ، يا سيلبزتى المسكينة . من المحتمل أن يكون قد قيل لك ما يقال للناس جميعاً ، لأن كل أحد يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام متى أراد ، ولأن كل كائن لا بد أن يظفر بسماع مثل هذا الأسلوب متى انتهز فرصة الحديث الضرورى له ، ولكنك أنت لا تعرفين إلى الآن كيف تسمعين ذلك .

سيلبزيت — إن المستقبل لا يشبه الماضى فى هذه الناحية ، بل إنه شيء آخر يغايره تماماً .

أجلافين — إن هذا الذى كنت لا تسمعينه يا سيلبزيت لا يمكن أن يسمع بالأذن ؛ وهذا الذى تسمعينه الآن لا تسمعينه بأذنك حقاً ، لأنك في الحقيقة لا تسمعين الألفاظ التى أقولها لك ، وإنما تسمعين أنى أحبك .

سيلبزيت — وأنا أيضاً أحبك

أجلافين — ولهذا أنت تسمعين وتفهمين جداً ما لا أستطيع أن أقوله : ليس يدانا وحدهما هما اللتين تتعانقان الآن يا سيلبزيت المسكينة ، ولكن ملياندر يحبك أيضاً ، فلماذا لا تستمعين إليه ؟

سيلبزيت — إنه ليس مثلك يا أجلافين .

أجلافين — إنه خير منى ، إنه لا بد أن يكون قد تحدث إليك أكثر من مرة وبأسلوب لا أستطيع أن أصل إليه .

سيلبزيت — لا لا ، ليس الأمر واحداً فى الحالتين ؛ اسمعى : أنا لا أستطيع أن أقول لك بالضبط ما معنى هذا ؟ وإنما كل ما أعرفه أنه حينما يكون موجوداً أختبىء فى داخل نفسى ، أنا لا أريد أن أبكي ولا أريد أن يعتقد أنى أفهم ما يجرى ، لأننى أنا أحبه أكثر مما ينبغي .

. . . .

سيلبزيت — أوه ، إنني بدأت أحبك يا أجلافين

اجلافين — أنا أحبك منذ وقت طويل يا سيلبزيت

سيلبزيت — أما أنا فلا ، لأنى حين رأيتك للمرة الأولى لم أكن أحبك ثم أحببتك مع ذلك . لقد تمنيت لك سوءاً فى وقت من الأوقات ، ولكننى لم أكن أعرف أنك هكذا ، لو أنى كنت فى مكانك لكنت مؤذية .

أجلافين — لا لا يا سيلبزتى المسكينة ، إنك فى داخل نفسك لست خبيثة ولم تكونى لتصبحى

مؤذية ، وإنما فقط كنت لا تعرفين كيف يكون الانسان خيّراً حينما يكون شقياً . يحتمل أنك كنت تظنين إذ ذاك أن واجبك يقضي عليك بأن تكوني مؤذية مادامت الشجاعة تعوزك لأن تكوني خيّرة يتمني الانسان الشر لجميع الذين يهينونه ولكن عند ما يحدث لهم أقل ألم تنعكس الآية ، ويتمنى أن يمنحهم كل مالديه من سعادة حتى يحول بينهم وبين البكاء ، ولكن لماذا لا يحبهم قبل ان يصبحوا تعساء ؟ لا يخطئ الانسان إذا أحبهم مقدماً ، لأنه لا يوجد في هذه الحياة كائن واحد يستمتع بالسعادة طول حياته.

سيليزيت — أريد أن أعانقك مرة أخرى يا أجلافين . . . . إن هذا لشيء عجاب ، في مبدأ الأمر لم أكن استطيع ان اعانقك . كنت ارهب فمك ولا ادرى لماذا . والآن ، هل يقبلك غالباً ؟

اجلافين — هو . . . ؟

سيليزيت — نعم

اجلافين — نعم ياسيليزيت ، هو يقبلني ، وانا اقبله ايضاً .

سيليزيت — ولماذا ؟

اجلافين — لأنه توجد اشياء لايمكن ان تقال إلا فى حالة العناق ، وذلك لأن اكثر الأشياء عمقا ونقاء لا يمكن ان تبرز من الروح إلا حين تدعوها القبل للبروز .

سيليزيت — أنت تستطيعين أن تقبليه أمامى يا أجلافين .

أجلافين — أنا لن أقبله بعد الآن إذا كنت تريدين ذلك ياسيليزيت .

سيليزيت — (باكية فجأة) وتستطيعين أن تقبليه دون أن أراكما .

(قالت هذا وانحنت على كتف اجلافين واستمرت فى البكاء) .

أجلافين — لا تبكي يا سيليزيت ، لأنك خير منا نحن الاثنين .

سيليزيت — أنا لا ادرى لماذا ابكى، انا لست شقية ، انا سعيدة بأن ايقظتك يا اجلافين .

اجلافين — وانا ايضاً سعيدة بأن ايقظتك يا سيليزيت[1] . تعالى ننصرف من هنا ، إذ لا ينبغى المكث طويلا فى نفس المكان الذي سعدت فيه روحانا بما لم يتح للنوع الانسانى ان يسعد به .

المنظر الثالث

يقع هذا المنظر فى جناح من اجنحة القصر حيث تشاهد سيليزيت وميليجران جدتها العجوز فى نهاية القاعة يتحادثان تحت ستار الظلام

ميليجران — انت لم تعودى تقوين على الاحتمال ياسيليزيتى المسكينة ، لاتقولى : لا . لاتهزى راسك مجففة دموعك .

سيليزيت — ولكن ياجدتى انا قلت لك : إننى ابكى لأننى سعيدة .

ميليجران — لا يبكى الانسان هكذا حينما يكون سعيداً .

سيليزيت — بلى ، إن السعيد يبكى هكذا ما دمت أنا أبكى هكذا .

ميليجران — إستمعي إلى يا سيليزيت ، لقد سمعت ما كل قصصته على هذا المساء فى موضوع أجلافين ، أنا لا أعرف أن أتكلم مثلها ، أنا لست إلا امرأة عجوزا لا تعرف شيئاً كثيرا ، ولكننى تألمت أيضاً فى شبابى . أنا ليس لى فى العالم إلا أنت ، وإننى أقترب من القبر ، وكل هذه العوامل تظهر لنا من الحقائق ما قد يكون أقل جمالا مما تحدثنا عنه أجلافين ، ولكن ليس من اللازم دائماً أن تنتصر الحقائق الأكثر جمالا على الحقائق الأكثر بساطة

(١) المراد بالجملة الأولى هو إيقاظ سيليزيت لأجلافين من فوق حافة الهوة والمراد بالجملة الثانية هو إيقاظ أجلافين لسيليزيت من الناحية الروحية .

وشيخوخة . أنا لا أرى إلا شيئاً واحداً يا سيلزتي المسكينة وهو أنك — بالرغم من ابتساماتك التي تظهرينها — عندما تعتقدين أنك منفردة تتقعين وتبكين . لا ينبغي للانسان أن يغالب قواه النفسية إلى هـذا الحد . عبثا قيل : إن البكاء برهان عدم التعقل ، إذ حين يصل الانسان مثلي إلى نهاية الحياة يكون قد رأى كثيراً أن البكاء هو وحده برهان الحقيقة ، لأن القدر هو الذي يتحدث من خلال الدموع ، وأن الدموع التي تصعد إلى أعيننا إنما تجيء إليها من أعماق المستقبل

(إنهما لـكذلك ، وإذا بأجلاڤين تدخل عليهما دون أن يلمحاها)

ميليجران ـ (مستمرة في الحديث) لقد بكيت كثيراً يا سيلزتي المسكينة فبماذا تريدين أن ينتهي كل هذا ؟ لقد فكرت طويلا في هذا كله ، وأنا في هـذه الزاوية واجتهدت أن أتحدث إليك بلهجة هادئة بالرغم مما أعانيه من ألم حين أراك تتألمين ظلما . إنه لايوجد من الحلول الانسانية لعقدة هذه الأحزان إلا حل واحد ، وهوأن تختفي واحدة منكما إما بالموت وإما بالانصراف . ومن التي يجب أن تنصرف إذا لم تكن تلك التي أتى بها القدر متأخرة

سيلزيت — ولماذالاتكون التي أتى بها القدر متقدمة

أجلاڤين ـ (متقدمة نحوهما وهي تقول): لايجيء أحد قبل الأوان يا سيلزتي المسكينة ، وإنما يجيء كل في ساعة معينة ، وإنني أعتقد أن الجدة محقة

سيلزيت — إذا كانت الجـدة محقة ، فاننا سنصير تعيسات

أجلاڤين — وإذا كانت الجدة مخطئة ، فاننا سنبكي أيضاً . ماذا تريدين يا سيلزيت ونحن لا نملك إلا الاختيار بين دموعنا فحسب ؟ ولو أنني لا أستمع إلا إلى تعقلي الضعيف لقلت لك : إنه ينبغي أن نختار الحل الذي هو أكثر جمالا ، والأكثر جمالا هنا هو ذلك الذي تسكبينه ، ولـكنني قلقة منذ بضعة أيام ، ولقد قلت لنفسي أكثر من مرة : إن وراء هـذه الحقيقة التي يمكن أن ندركها حقيقة أخرى أكثر خطراً وعمقاً وإنها تنتظر في أعماق نفوسنا ساعتها المحددة ، وإن كل كلماتنا لاتستطيع أن تمحو بسمتها ولا أن تجفف الدموع من عينيها ، وإنني أعتقد أنني وجدت اليوم هذه الحقيقة التي تصيرنا برغم مجهوداتنا . وداعاً يا سيلزتي ، قبليني فقد تقدم بنا الليل ، وميلياندر ينتظرك

سيليزيت — ألا تجيئين لتقبليه معي

أجلافين — أنا لن أقبله بعد الآن، أنا سأقبلك أنت حين ستكون معا ، وسأستطيع أن أقول له كل ما ينبغي أن يقال له كما لو كنت أقبله

سيلزيت — ماذا حدث ؟ إن عينيك تلمعان كأنك تخفين عني شيئاً

أجلافين — بالعكس إن عيني تلمعان ، لأني لم أعد أخفي شيئاً ، لقد عرفت أنه يحبك ، إنه يحبك بهيئة أعمق مما كان يظنه هو نفسه

سيلزيت — وهل قال لك ذلك ؟

أجلافين — لا، ولوأنه قاله لي لما كنت متأكدة منه مثل تأكدي الآن

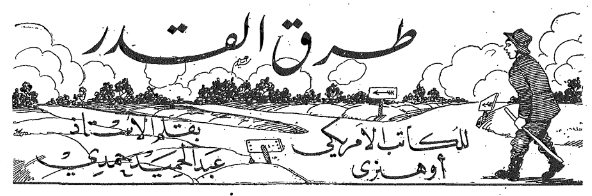
سيلزيت — لكن ، وأنت ؟ ألم يعد يحبك ؟

أجلافين — إنه يحبني أقل مما يحبك

سيلزيت — أوه يا أجلافيني المسكينة إن هذا غير ممكن ، لماذا هو يحبك أقل مني ؟ ماذا تريدين أن أفعل ؟ ينبغي ألا تظلي وحدك هـذا المساء إذا كنت تعتقدين أنك لست سعيدة ، هل تريدين أن أمكث معك ؟ سأقول له ....

أجلافين ـ إذهبي! إذهبي، أسرعي ياسيليزيت، أنا لن أكون أبداً أكثر سعادة في أي وقت مني في هذا المساء . قالتا ذلك ثم تعانقتا في صمت وخرجتا متتابعتين

(البقية في العدد القادم) محمد غلاب



إني أسير في طرق كثيرة باحثاً عما سيكون .
أحمل قلباً صادقاً قوياً يضيئه الحب
فهل ترى تقودني هذه الطرق ، في معركة الحياة ،
إلى إصابة ما كتب لي في لوح القدر
أم إلى تفاديه أم إلى تلطيفه أم إلى تسويته ؟

« من الشعر غير المطبوع لداود ميجنوت »

انتهت الأغنية ، وكان المغني هو داود ، وكان المكان احدى قرى الريف ، فصفقت الجماعة الصغيرة الملتفة حول مائدة الحانة تصفيقاً حاداً هو صدى حماستهم القلبية ، فقد دفع الشاعر الصغير ثمن الشراب . ولم يشذ عن الجماعة غير موسيو بابينو مسجل العقود ، مكتفياً بأن هز رأسه عند سماع ذلك الشعر ، لأنه من أهل العلم ولم يكن قد شارك القوم في احتساء الخمر .

وانطلق داود إلي الطريق الرئيسية في القرية حيث أطار هواء الليل مابقي في رأسه من أثر الخمر فذكر أنه وإيفون قد تشاجرا في أثناء النهار ، وأنه قد اعتزم أن يغادر بيته تلك الليلة ليبحث عن الصيت والشرف في العالم الواسع وراء هذه القرية الضيقة .

وقال الفتى يحدث نفسه في شيء من الزهو البهيج :

« ومتى جرى شعري على ألسن الناس جميعاً فقد تفكر يومذاك في الكلمات الشديدة التي خاطبتني بها هذا النهار »

وفيما عدا الفتية الصاخبين في الحانة كان جميع أهل القرية في فراشهم نائمين ، فتسلل داود في هدوء إلى غرفته في بيت أبيه ، وجمع متاعه القليل في حزمة حملها على عصا وانطلق في الطريق الخارجة من فرنوى .

ومر بغنم أبيه وقد تجمعت في حظيرتها الليلية — وهذه الغنم هي التي كان يرعاها كل يوم فيتركها مشردة بينما هو يكتب الشعر على قصاصات من الورق ، فرأى نوراً لا يزال مضيئاً في نافذة إيفون ، فزعزع عزيمته شيء من الوهن المفاجيء . ومن الجائز أن يكون معنى ذلك النور أنها قد ندمت ، ساهدة ، على مابدا من غضبها ، وأن صباح الغد قد يحمل معه ... ولكن لا ! لقد استقرت عزيمته ، فليست فرنوى بالمكان اللائق به ، فما فيها من إنسان واحد يشاطره آراءه وأفكاره . وهناك على مدى هذه الطريق يقوم حظه ومستقبله .

وكانت الطريق تمتد مسافة ثلاثة فراسخ في خط مستقيم كأخدود المحراث ، وهي مسافة قطعها الفتى في الظلام . وكان أهل القرية يعتقدون أن هذه الطريق تصل على الأقل إلى باريس . واسم باريس هو الاسم الذى كان الشاعر يهتف به لنفسه في أغلب الأحيان كلما مشى من مكان إلى مكان . ولكن

داود لم يبتعد من قبل عن قريته مثل هذه المسافة الطويلة .

طريق الشمال

قطع الفتى ثلاثة الفراسخ فى خط مستقيم ، ثم وقف متحيراً ، فقد التقت الطريق بطريق أخرى أوسع منها ترسم معها زاوية قائمة . فبقى لحظة لا يستقر على رأى ، ثم سلك طريق الشمال .

وفى هذه الطريق العامة الأعظم شأناً من سابقتها رأى الفتى آثار عجلات حديثة المرور ، وبعد نصف ساعة رأى العربة التى خلفت هذه الآثار ، وهى عربة هائلة ثقيلة غرزت عجلاتها في مجرى موحل عند قاعدة تل شديد الانحدار ، وكان السائق ومساعدوه فى ضجة وصخب يشدون لجم الخيل فى عنف ليستحثوها ولكن على غير طائل . وقد وقف على إحدى جانبي الطريق سيد ضخم الهامة يرتدى السواد ، وإلى جانبه سيدة هيفاء القوام متشحة بعباءة طويلة خفيفة .

وأدرك داود افتقار الخدم إلى المهارة فيما يبذلون من جهد لإخراج العربة من وحلها ، فتقدم فى هدوء يتولى إرشادهم إلى ما يجب أن يعملوا ، فطلب من الخدم الواقفين خارج العربة أن يكفوا عن صخبهم وأن يوجهوا جهدهم وقوتهم إلى العجلات وأن يكتفي السائق وحده بتحميس الخيل بصوته العادى . وأسند داود كتفه القوية إلى مؤخرة العربة ودفعها دفعة شديدة حركتها فاجتازت العجلات المجرى الموحل إلى الأرض الصلبة ، فأسرع الواقفون فى الخارج بالتسلق إلى أماكنهم .

ووقف داود لحظة على قدم واحدة ، فلوح الرجل الضخم الهامة بيده في الهواء وقال في صوت ضخم كهامته ولكنه يرققه بالصناعة والعادة :

« لتدخل إلى العربة » ، ولم يكن سامع هذا الصوت ليستطيع غير الطاعة ؛ وعلى الرغم من أن تردد الفتي لم يطل ، فإن تكرر الأمر من السيد قضى على كل أثر للتردد ، فارتفعت قدم داود من تلقاء نفسها إلى سلم العربة وقد رأى فى الظلام سيدة جالسة على المقعد الخلفى ؛ وبينما هو يتأهب للجلوس على المقعد المقابل إذا بصوت السيد الضخم يخضعه لأمره من جديد وقد قال :

« لتجلس إلى جانب السيدة »

وجلس السيد على المقعد المقابل ، ومضت العربة تصعد المرتفع . وكانت السيدة منكمشة فى مكانها صامتة لا تنطق ولا تتحرك . ولم يكن فى مقدور داود أن يحكم من منظرها إذا كانت صغيرة أو كبيرة ، ولكن شذا عطرياً رقيقاً انبعث من ملابسها ألقى فى روع خياله الشعرى أن وراء ذلك السر الغامض شيئاً جميلا . إذن هو على باب إحدى تلك المغامرات التى كثيراً ما حلم بها ، ولكنه حتى هذه اللحظة لم يهتد إلى مفتاح ذلك الباب ، إذ لم ينبس أحد بكلمة فى أثناء جلوسه مع رفاقه الصامتين

وبعد ساعة لاحظ داود من خلال النافذة أن العربة تجتاز طريقاً فى إحدى المدن . ثم وقفت العربة أمام بيت مغلق مظلم ؛ ونزل أحد الخدم من العربة فدق الباب دقاً عنيفاً سريعاً ، ففتحت نافذة مشبكة من الطابق العلوى وأطل منها رأس معصوب وسمع صوت يقول :

« من أنتم يا من تقلقون الأشراف النائمين فى مثل هذه الساعة من الليل ؟ إن بيتى مغلق . وليست مثل هذه الساعة هى الساعة التى يبقى فيها السائحون

الأخيار خارج الأبواب . فكفى طرقاً على بابى وانصرفوا »

فصاح الخادم فى صوت يقرب من الصراخ :

« افتح . . افتح للسيد المركيز دى بوبيرتيز »

فصاح الرجل المطل من النافذة :

« آه . عفواً ألف مرة يا مولاى . إنى لم أستطع معرفتكم ـ فالساعة متأخرة ـ سيفتح الباب فى الحال وسيكون البيت رهن أمر مولاى

وسمع من الداخل رنين سلسلة من الحديد وصوت تحرك المزلاج وفتح الباب على مصراعيه ، ووقف صاحب بيت القنينة الفضية على عتبة الباب منتفضاً من البرد والخوف ، يحمل شمعة فى يده وهو نصف عار .

وخرج داود من العربة وراء المركيز الذى ألقى إليه بهذا الأمر :

« ساعد السيدة في النزول »

فأطاع الشاعر الأمر وأحس بيد السيدة ترتجف وهي تهبط السلم . ثم دوى فى أذنيه صوت المركيز ملقياً إليه بهذا الأمر الجديد :

« ادخل البيت »

وكانت الغرفة التى دخلوها غرفة مائدة الفندق المستطيلة . وقد وضعت فى وسطها مائدة كبيرة من خشب البلوط . فجلس السيد الكبير الهامة على كرسى عند أدنى طرفيها إليه ، وجلست السيدة على كرسى بجوار الجدار ، وقد بدا عليها أثر الضجر الشديد . ووقف داود يفكر فى أصلح الطرق للاستئذان في الانصراف والانطلاق فى طريقه

وقال صاحب الدار وقد انحنى حتى كاد جبينه يلمس الأرض :

«مولاى ... لو كنت على علم بقدمكم لأعددت ما يجب لمقامكم الرفيع من أسباب التكريم . وعندى الآن خمر ودجاجة باردة وقد يكون هناك . . . »

فقال المركيز وقد بسط أصابع يده الغليظة البيضاء:

« الشموع . . . »

قال الرجل : « أمرك يا مولاى »

وأحضر ست شمعات أشعلها ووضعها فوق المائدة وقال :

« لعل مولاى يتفضل بتذوق نوع من خمر بورجندي فعندى قنينة . . . »

فقال السيد باسطا أصابعه :

« الشموع »

قال الرجل :

« أمرك يا مولاى . . . فى الحال سأطير بها إلى مولاى ... »

وجاء الرجل باثنتى عشرة شمعة أخرى أشعلها فأضيئت الغرفة . وكان جسم المركيز الضخم قد غطى الكرسى الذى يجلس عليه ، وكان يرتدى من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ملابس رقيقة سوداء فيما عدا الزركشة البيضاء حول معصميه وعنقه . وحتى قبضة سيفه وغمده كانا أسودين . وكانت ملامح وجهه تنم عن كبرياء ساخرة . وكان سبالاه المعقوصان إلى أعلى يكادان يلامسان عينيه الهازئتين

وجلست السيدة جامدة لا تتحرك ، وقد لاحظ داود على ضوء الشموع أنها صبية وأنها ذات جمال محزون جذاب . وقد قطع عليه تأمله في حسنها صوت المركيز القوى وقد صاح به :

« ما اسمك وما صناعتك ؟ »

« اسمى داود ميجنون ، وأنا شاعر »

فازداد سبالا المركيز دنواً من عينيه وقال :
« وكيف تعيش ؟ »
فارتفع رأس داود وعلا الاحمرار وجنتيه وقال :
« وإنى أعمل راعياً أيضاً ؛ أرعى قطيع أبى »
« إذن اصغ أيها السيد الراعى الشاعر إلى الحظ الذى عثرت به الليلة . هذه السيدة هى ابنة أخى الآنسة لوسى دى ڤارين . وهى من سلالة نبيلة وتملك دخلا سنويا قدره عشرة آلاف فرنك لاشريك لها فيه . أما محاسنها فيمكنك أن تقدرها بنفسك ، فاذا وقعت نتيجة الفحص من قلب الراعى موقعاً حسناً فانها تمسي زوجك بكلمة واحدة . لاتقاطعنى ؛ لقد ذهبت بها الليلة إلى قصر الـكونت دى فيلمور ، وكان موعوداً بالزواج منها . وقد استكمل عدد المدعوين ، وجلس القسيس ينتظر عقد زواجها على الرجل الذى يماثلها نسباً وثروة ، ووقف العروسان أمام المذبح ، ولـكن هذه الفتاة التى تراها هنا وديعة مطيعة ، قد التفتت إلى ، وقد انقلبت لبؤة ، فاتهمتنى بالقسوة وارتكاب الجرائم ، وفسخت أمام الراهب المنذهل العهد الذى قطعته عنها . عندئذ أقسمت وأنا فى موقفى بعشرة آلاف شيطان أن أزوجها من أول رجل نصادفه فى طريقنا بعد مغادرة القصر سواء أكان هذا الرجل أميراً أم موقد حطب أم لصاً . وانت أيها الراعى أول من صادفنا فى الطريق ؛ وهذه الفتاة لابد أن تتزوج الليلة إن لم يكن منك فمن سواك . وأنى أمهلك عشر دقائق للتفكير والاختيار ، فلا تضايقنى بالكلمات والأسئلة . عشر دقائق أيها الراعى ، والدقائق تمضى سريعاً »

نقر المركيز بأصابعه البيضاء نقراً قوياً على المائدة . ثم جلس ينتظر فى صمت يحيطه الغموض . وكأنما هو بيت هائل قد أغلق جميع أبوابه ونوافذه فى وجه القادمين . وكان من أمانى داود أن يتكلم ولـكن منظر الرجل الهائل قد عقد لسانه . فوقف إلى جانب كرسى السيدة وانحنى وقال — وقد عجب فى نفسه من انطلاق لسانه فى سهولة أمام مثل ما تحلت به الحسناء الغريبة من عظمة وجمال :

« أيتها الآنسة . لقد سمعتنى أقول إننى راع . كذلك يلقي فى روعى أحياناً أننى شاعر . وإذا كان من نزعات الشاعر أن يعبد الجمال ويجله فان هذه النزعة قد قويت الآن فى نفسي . فهل فى مقدورى أن أقدم اليك ياسيدتى خدمة ما فى أية ناحية من النواحى ؟ »

فنظرت الفتاة إليه بعينين جافتين محزونتين . ولـكن ما رأت على وجهه من أمارات الصراحة والاشراق ، ومظهر الجد الذى نشأ عن خطر المغامرة التى واجهها ، وما تمثل لها من قوة جسمه واستقامته وما لحظت فى عينيه من شفقة متدفقة ، ولـكن ذلك كله وقد تضاف إليه أيضاً حاجتها الملحة إلى المساعدة والشفقة اللتين حرمتهما منذ زمان طويل ، قد بعث إلى عينيها بالدموع المفاجئة ...

وقالت الفتاة فى لهجة خافتة :

« سيدى ، إنه ليبدو عليك أنك صادق شفيق ؛ وهذا الرجل هو عمى شقيق أبى ، وقريبى الوحيد فى الحياة . ولقد أحب أمى فهو يبغضنى لأننى أشابهها . ولقد أحال حياتى إلى فزع طويل . وإنى لأخاف مجرد نظراته ، ولم أجرؤ قط من قبل على مخالفة أوامره . ولـكنه الليلة كان على وشك أن يزوجنى من رجل تبلغ سنه ثلاثة أمثال سنى ؛ ولعلك تسامحنى إذ أبعث إلى نفسك الغضب بمثل هذا

الـكلام وأحسبك سترفض ، دون ريب ، ذلك الأمر الجنوني الذي يحاول أن يفرضه عليك قسرا . ولـكن اسمح لي أن أشكر لك على الأقل ، ما وجهت إلي من كلمات كريمة ، فاني لم أسمع منذ زمان طويل أحداً يخاطبني بمثل هذه الـكلمات »

وهنا نطقت عين الشاعر بشيء أكثر من الـكرم . وما من شك في أنه كان شاعراً ، فقد نسي إيفون ، وقد تملكته هذه الحسناء الجديدة بما وهبها الله من عظمة ونضارة ، وقد أثار الشذا الجميل المنبعث منها عواطف غريبة في نفسه . فنظر إليها نظرة رقيقة أغضت لها متعطشة لما فيها من حنان وقال داود :

« لقد منحت عشر دقائق للبت فيما كنت أجعل للبت فيــه عدة من السنين . ولا أقول إنني أشفق عليك أيتها الآنسة ، لأنني لو قلت ذلك لما كنت صادقاً - فاني أحبك . وما أستطيع بعدُ أن أطلب منك مقابلة الحب بالحب ، ولـكن اسمحي لي بأن أنقذك من هذا الرجل القاسي ، وسيجيء الحب مع الزمن ؛ وإني لأظن أن لي مستقبلا ، فلن أكون راعياً طوال عمري . وسأحيطك في الوقت الحاضر بكل ما في قلبي من القوى لأخفف من أحزانك الموجعة ، فهل تودعين حظك آمنة بين يدي يا سيدتي ؟ »

« آه ! ستضحي بنفسك شفقة علي ! »

« لا ، ولـكنني أتقدم إليك باسم الحب ، والزمن كفيل في الغالب بكل شيء يا آنسة »

« إنك ستندم على ذلك وستحتقرني وتزدريني »

« سأقف حياتي على إسعادك وعلى رفع نفسي إلى المستوى اللائق بك »

فتسربت يدها الرقيقة الصغيرة من تحت معطفها حتى أمسكت بيده وقالت متنهدة :

« سأثق بك وأضع حياتي بين يديك . و ... والحب - قد لا يكون بعيداً كما تظن . فأجبــه . ومتى بعدت عن قوة عينيه فقد أنسى »

فمشى داود حتى وقف في وجه المركيز . فتحرك الهيكل الضخم ، ونظرت عينــاه الساخرتان الى الساعة الـكبيرة المعلقة على الجدار وقال :

« لم يبق غير دقيقتين . أيحتاج الراعي لثماني دقائق ليقرر اذا كان يقبل أو لا يقبل الزواج من عروس ذات جمــال وثروة ؟ تـكلم أيها الراعي ، أتوافق على أن تمسي زوج الآنسة ؟ »

فبدت الـكبرياء على داود وقال :

« لقد شرفتني الآنسة بأن قبلت رجائي في أن تمسي زوجي »

فقال المركيز :

« لقد أحسنت التعبير . وان في نفسك أيها السيد الراعي لروح النــديم . وكان من الجائز أن تقع الآنسة في شر من هذه النتيجة . والآن لننته من هــذا الأمر بأسرع ما تسمح به الـكنيسة والشيطان »

وضرب المركيز المــائدة بقبضة سيفه ضربة شديدة ، فأقبل رب الدار مضطرب المفاصل حاملا شموعاً جديدة متوقعاً سلفاً ما يأمر به المركيز ، ولـكن المركيز فاجأه بقوله :

« أحضر لنا قسيساً . . قسيساً أفهمت ؟ في عشر دقائق يجب أن تحضر القسيس الى هنا وإلا ... »

فألقى الرجل بالشموع وجرى

وجاء القسيس مثقــل الجفون من أثر النوم

مترنحاً ، فأجرى الطقوس التي أمسى بها داود ميجنوت ولوسى دى فارن زوجين ؛ ثم دس فى جيبه قطعة من النقود الذهبية ألقى بها المركيز اليه ، وغادر البيت من حيث جاء دالفاً فى الظلام

فبسط المركيز أصابعه الكبيرة فى وجه رب الدار وصاح به :

« هات خمراً »

فلما جاءه بالخمر قال :

« املأ الكؤوس »

ووقف على رأس المائدة فى ضوء الشموع ، فكان أشبه بجبل أسود من الضغينة والغرور . وعند ماوقع نظره على ابنة أخيه بدا فى عينيه شئ كذكرى الحب القديم وقد انقلب سما قاتلاً . . ورفع كأسه فى يده وقال :

« مسيو ميجنوت ! اشرب بعد أن أقول لك هذه الكلمات : لقد تزوجت من فتاة ستملأ حياتك غشاً وتعاسة ، فالدم الذى يجرى فى عروقها هو سيل موروث من الأكاذيب السود والدمار الأحمر . فستجلب لك العار والهواجس . فالشيطان الذى انحدر إليها بالوراثة كامن هناك فى عينيها وجلدها وفمها الذى ينزل حتى لخداع رجل فلاح . هذا هو ماوعدت به أيها السيد الشاعر من الحياة السعيدة . اشرب خمرك . وأنت أيتها الفتاة لقد تخلصت منك آخر الأمر »

وشرب المركيز كأسه ؛ وخرجت من بين شفتى الفتاة صرخة محزونة كأنها منبعثة من جرح مفاجئ ، فتقدم داود وكأسه فى يده ثلاث خطوات ثم وقف من المركيز وجهاً لوجه . فلم يكن في منظره ما يشبه منظر الرعاة ، وقال فى هدوء :

« لقد شرفتنى فى هذه اللحظة بأن دعوتنى « السيد » هل آمل إذن أن يكون زواجى من الآنسة قد رفعنى إلى مكانة تدنو قليلا من مكانتك ؟ ولتكن مكانة الظل من الأصل — فيسمح لى ذلك بأن أقف موقف الند من السيد المركيز فى شأن صغير معين أحمله فى رأسى ؟ »

فقال المركيز ساخراً :

« قد تأمل فى ذلك أيها الراعى »

فألقى الفتى بكأسه بين عينى المركيز الساخرتين اللتين تهزآن به وقال :

« اذن ، قد تتنازل فتبارزني »

فتجلت ثورة السيد العظيم فى لعنة مفاجئة انفجرت من بين شفتيه كنفخة البوق الكبير . وجرد الرجل سيفه من غمده وصاح برب البيت المضطرب :

« جيء هذا الجلف بسيف ! »

ثم التفت إلى السيدة ضاحكا ضحكة أرجفت قلبها وقال :

« انك تحملينني كثيراً من المتاعب أيتها السيدة ؛ ويلوح لى أنه لابد من أن أزوجك وأرملك فى ليلة واحدة »

فقال داود وقد احمر وجهه لاضطراره الى هذا الاعتراف أمام زوجه :

« أنا لا أعرف استعمال السيف »

فقال المركيز فى لهجة الساخر :

« أنا لا أعرف استعمال السيف ! أتبارز اذن كالفلاحين بهراوات البلوط ؟ مرحى ! أحضر يافرانسوا غدارتي ! »

فأسرع أحد الخدم وأحضر من العربة غدارتين

كبيرتين لامعتين قد زينت أيديهما بالفضة المنقوشة. فألقى المركيز إحداهما فوق المائدة على مقربة من يد داود وصاح به :

« الى الطرف الآخر من المائدة . وحتى الراعى قد يستطيع أن يطلق الغدارة . وقليل منهم هم الذين ينعمون بشرف الموت بسلاح دى بوبرتيز »

وتواجه المركيز وداود من طرفى المائدة . وأصاب الجزع رب الدار فأخذ يخبط الهواء بيديه ويقول مترنحاً :

« سيدى . . . سيدى ، بحق المسيح لا تفعل ذلك في بيتى ! لا ترق الدماء هنا ـ فيدمر ذلك سمعتى ويقضي على مستقبلى . . »

ولكن نظرة المركيز التهديدية اليه عقلت لسانه، وقد صاح به الرجل :

« كفى ثرثرة أيها الجبان ، وهيىء لسانك الطويل ليعلن كلمة القتال »

ولكن ركبتى رب الدار كانتا قد لامستا الأرض ، وقد ذهل عن كل شيء فهو لا يكاد يسمع أو يعى ولكنه كان مع ذلك لايزال يستجدى السلام باسم سمعة بيته والحرص على عملائه .

وقالت السيدة فى صوت جلى :

« سأعطى أنا الكلمة »

ثم تقدمت إلى داود فقبلته قبلة رقيقة . وكانت عيناها تبرقان وقد علا الاحمرار وجنتيها . ووقفت بجوار الجدار وصوب الرجلان غدارتيهما أحدهما إلى الآخر منتظرين أمرها باطلاق النار :

« واحد . اثنان . ثلاثة ! »

وخرج الطلقان فى وقت واحد على التقريب فلم يضطرب لهب الشموع غير مرة واحدة ووقف المركيز باسماً وقد استندت أصابع يده اليسرى إلى المائدة . وبقى داود منتصباً فى مكانه ؛ ثم أدار رأسه فى بطء شديد باحثاً بعينيه عن زوجه ، ثم إذا هو يسقط فجأة كتلة جامدة كما يسقط المعطف عن المشجب .

فجرت العروس الأرملة ، وقد صرخت صرخة الجزع واليأس ، فانحنت على جثة زوجها القتيل ، وعثرت على جرحه ، ثم نظرت نظرتها القديمة الجامدة من الحزن الموجع وقالت هامسة :

« فى صميم قلبه ، أواه ! فى قلبه ؟ »

فدوى صوت المركيز المرعب فى أرجاء الغرفة :

« تعالى لنذهب إلى العربة ! ولن يراك الفجر بين يدى ، فستزوجين مرة أخرى ، فى هذه الليلة ومن زوج حى . وسيكون هذا الزوج أول رجل نصادفه فى الطريق ، عظيما كان ذلك الرجل أم فلاحاً حقيراً . فاذا لم نصادف فى الطريق أحداً فستزوجين من البواب الذى يفتح أبواب قصرى . هلمي إلى العربة ! »

خرج المركيز الضخم الجثة المتحجر الضمير ، تتبعه السيدة ملتفة فى معطفها الذى يحيطها بالأسرار، وحولها الخدم يحملون السلاح ـ خرجوا جميعاً إلى العربة الواقفة فى الانتظار ، فلم يلبث دوي عجلاتها الكبيرة أن تردد صداه فى أرجاء القرية النائمة ؛ بينما صاحب بيت « القنينة الفضية » منحن فوق جثة الشاعر القتيل شارد الفكر يدق يداً بيد ، ولهيب الأربع والعشرين شمعة المضاءة فوق المائدة يرقص متأججاً فى الهواء

* * *

طريق اليمين

قطع الفتى ثلاثة الفراسخ في خط مستقيم ، ثم وقف متحيراً ، فقد التقت الطريق بطريق أخرى أوسع منها ترسم معها زاوية قائمة ، فبقي لحظة لا يستقر على رأى ، ثم سلك طريق اليمين

لم يكن داود يدرى إلى أين تقوده هذه الطريق ولكنه كان قد اعتزم أن يبتعد الليلة عن فرنوى ما استطاع . وبعد أن قطع فرسخاً في الطريق الجديدة مر بقصر تدل الظواهر على أنه عمر باحتفال حديث ، فقد كانت الأنوار بادية من جميع نوافذه ، وكانت آثار عجلات العربات التي حملت الضيوف واضحة ممتدة من داخل الباب الكبير إلى طول الطريق

وبعد ثلاثة فراسخ أخرى أحس داود بالتعب ، فجلس يستريح ثم رقد على كومة من الأعشاب إلى جانب الطريق . واستيقظ بعد فترة فواصل السير إلى حيث لا يدرى .

وعلى هذه الصورة قضى الفتى خمسة أيام ماشيا في هذه الطريق الواسعة الطويلة ، ينام على فراش الطبيعة فوق ركام الفلاحين ، آكلا من خبزهم الأسود السخى ، شاربا من الجرادل أو أكواب الرعاة الكرماء .

وأخيراً عبر جسراً كبيراً فوضع قدمه على أرض المدينة الباسمة التي حطمت أو توجت من الشعراء عددا يزيد على مجموعة الشعراء في أى مكان آخر . وجرى تنفسه سريعاً عند ما غنت له باريس في صوت خافت أغنية الترحيب — وهي أغنية عناصرها همهمة الأصوات ووقع الأقدام ودوي العجلات .

واستقر الفتى في غرفة صغيرة فوق سطح منزل قديم بشارع كونتى ، فدفع أجر الاقامة ، وجلس على كرسى من الخشب منكبا على اشعاره ، وكان الشارع الذى يقيم فيه من الشوارع التى هجرها أهل الجد والعمل ، فاصبحت مسرحاً للذين يسرحون في فترة الانحدار .

وكانت البيوت عالية ، يبدو عليها أثر العظمة الزائلة ، وكان أغلبها خالياً إلا من الأتربة والعنكبوت ، ولم يكن يسمع في الليل غير جلجلة الحديد وصراخ المشاغبين المتنقلين من حانة إلى حانة ؛ وفي الجملة أصبح ذلك الحى الذى كان مسرح السادة الأشراف مأوى للرعاع المجرمين ، ولكن داود وجد في هذا الحي المسكن المناسب لماله القليل ، ولم يره نور النهار ولا ضوء الشموع إلا منكباً على الأقلام والورق .

وفي ذات مساء كان داود عائدا من جولة في الأحياء الفقيرة حاملا شيئاً من الخبز والأدام وزجاجة من النبيذ الخفيف ، وفي منتصف درجات السلم التقى — أو بعبارة أخرى وقع على — سيدة فتية ذات جمال يعطل حتى خيال الشعراء . ترتدى معطفا أسود خفيفاً ينفرج عن ملابس غالية تنم عن الثراء ، وكانت عيناها تتغيران في سرعة مدهشة وفاق ماتدور في رأسها من آراء . ففي لحظة تراهما مستديرتين لا أثر للصناعة فيهما كأنما هما عينا طفل برىء ، وفي لحظة أخرى تراهما مستطيلتين خداعتين كعيون نساء الغجر ، وقد رفعت إحدى يديها طرف ثوبها كاشفة عن حذاء عالى الكعب محلول الرباط ، وهي في وقفتها مخلوقة سماوية غير خليقة بالانحناء ، فهي إنما خلقت لتسحر الناس ولتأمر فتطاع ! ولعلها قد رأت داود يصعد الدرجات فانتظرت ليقدم اليها ما تود من مساعدة .

آه ، أيغفر لها السيد وقوفها في الطريق ، ولكن

الحذاء ! — ذلك الحذاء الشقي الماكر ! أسفا ! إنه لا يبقى على ربطته . آه ! لو أن السيد تفضل بتقديم مساعدته الكريمة !

وارتجفت أصابع الشاعر وهو يعقد الرباط . ثم لكأنه حاول الهرب الذي يواجهه فى حضرتها ، ولكن عينيها قد استطالتا خداعتين كعيون الغجر فشلتا حركته . فمال على حاجز السلم ممسكا بزجاجة الخمر الردىء .

وقالت السيدة مبتسمة :

« لقد كنت كريما يا سيدى ، فلعلك من سكان هذا البيت . »

« نعم يا سيدتى ... أنا — أنا اظنني كذلك . »

« لعلك إذن تسكن الطابق الثالث ؟ »

« لا ، يا سيدتى ، بل أعلى من ذلك . »

فحركت السيدة أصابعها حركة تدل على شيء من الضجر وقالت :

« عفواً فما أنا طفيلية فى سؤالى ، وإنى لأرجو السيد أن يسامحني ، فما أقصد حقاً أن أعرف أين يسكن . »

« لا تقولى ذلك ياسيدتي ، فإننى أسكن فى .. »

« لا ، لا ، لا ، لا تقل لى ، فانى مدركة الآن أنني قد أخطأت ، ولكنني لا أستطيع أن اتغلب على اهتمامى بأمر هذا المنزل وكل ما يتصل به ، فلقد كان بيتى يوما ما . وانى لأحضر إلى هنا فى أغلب الأوقات ، ولكن لمجرد التمتع باستعادة ذكريات تلك الأيام السعيدة . فهل تقبل منى هذا العذر ؟ »

فقال الفتى مترنحا :

« لتصغى إلى إذن ، فما بك من حاجة للاعتذار ، انى لأسكن فى الطابق الأخير فوق سطح الدار — فى الغرفة الصغيرة التى يميل السلم أمامها . »

فادارت السيدة رأسها ناحية وقالت :

« فى الغرفة الأمامية ؟ »

« فى الخلفية يا سيدتى »

فتنهدت السيدة كأنما قد شعرت بشيء من الارتياح . وقالت وقد استدارت عيناها وضاع منهما كل أثر للصناعة :

« لن أؤخرك اكثر من ذلك يا سيدى . وعليك أن تحافظ على منزلى . أسفا ! إن ذكرياته هى كل ما أملك منه الآن . وداعا وتقبل شكري لما قدمت لي من مساعدة »

واختفت السيدة عن نظر الفتى غير تاركة وراءها إلا ابتسامة والا شذا حلوا منعشا . وتسلق داود السلم تسلق النائم يسير فى المنام ، ولكنه لم يلبث أن استيقظ ، ولازمته الابتسامة والشذا ولم يبد أن أحدهما قد فارقه بعد ذلك أبداً ، فقد أحاطته هذه السيدة بكل ما يحيط به الملاك الساحر الشاعر الرقيق الحس من مغريات .

وما من شك فى أنه كان شاعراً ، فقد نسى إيفون ، وقد تملكته هذه الحسناء الجديدة بما وهبتها الطبيعة من عظمة ونضارة . وذلك الشذا الجميل الذي انبعث منها بعث عواطف غريبة فى نفسه

* * *

وفي ليلة ما اجتمع ثلاثة أشخاص حول مائدة في غرفة بالطابق الثالث من هذا البيت نفسه . ولم يكن في الغرفة من أثاث غير الثلاثة الكراسى والمائدة والشمعة المضيئة فوقها . وكان أحد الأشخاص رجلا ضخم الهامة يرتدى السواد ، تدل تقاسيم وجهه على ما في نفسه من كبرياء ساخرة ،

وكان سبالاه المفتولان الى أعلى يكادان يلامسان عينيه الهازئتين . وكان الشخص الثانى سيدة صبية جميلة ، ذات عينين تراهما حينا مستديرتين لا أثر للتصنع فيهما كأنهما عينا طفل برىء ، وتراهما مرة مستطيلتين خداعتين كعيون الغجر ولكنهما كانا ساعة هذا الاجتماع حادتين تنطقان بما فى نفسها من مطامع كعيون غيرها من المتآمرين ؛ أما الشخص الثالث فكان رجل عمل ، وكان محاربا شجاعا صبوراً فعالا يستنشق أنفاسه خلال النار والحديد ، وكان صاحباه يدعوانه الكابتن دزرول .

ضرب هذا الرجل المائدة بيده وقال فى صوت ثابت قوي :

« الليلة . . الليلة حين يذهب لصلاة نصف الليل. لقد تعبت من التآمر الذى لا يؤدى إلى نتيجة . وانى لأختنق من الاشارات والرموز والاجتماعات السرية ومثل هذه الهمهمة التى نتحدث بها . فلتكن خونة أشرافا ، فاذا كان لابد لفرنسا أن تتخلص منه فلنضرب ضربتنا علناً ، غير مخادعين ولا ملتجئين للحبائل والاشراك . فالليلة كما قلت . وكما أكرر القول، الليلة ستضرب يدي هذه الضربة الواجبة ، الليلة عند ما يذهب لصلاة نصف الليل »

فنظرت اليه السيدة نظرة تقدير واعجاب . والمرأة وان انغمرت فى المؤامرات لا تزال أبدا تنحنى أمام مثل هذه الشجاعة المندفعة . وبرم الرجل الضخم شاربيه وقال في صوت غليظ يلطفه بحكم العادة :

« إنى متفق معك فى هذه المرة ، أيها الكابتن العزيز ، فليس هناك ما نجنيه من وراء الانتظار ، فبين حرس القصر من أصدقائنا العدد الكافى لضمان نجاح مشروعنا » .

فضرب الكابتن دزرول على المائدة مرة أخرى وقال مكرراً كلماته الأولى :

« الليلة . . لقد سمعتنى ، ياسيدى المركيز ، أقول إن يدي ستضرب الليلة الضربة الواجبة »

فقال الرجل الضخم الجثة في شيء من الرقة :

« ولكن الآن يعرض لنا هذه المسألة : يجب أن نرسل كلمة لأصدقائنا فى القصر الملكي ، وهناك إشارة متفق عليها . ويجب أن يصحب رجالنا المخلصون عربة الملك . فمن هو الرسول الذى يستطيع فى هذه الساعة أن يتوغل حتى الباب القبلى ؟ فمركز ريبوت عند ذلك الباب ، فمتى وصلت الرسالة الى يده فسيتم كل شيء على ما نحب »

فقالت السيدة :

« سأتولى أنا إبلاغ الرسالة »

فرفع المركيز حاجبيه وقال :

« أنت يا كونتس ؟ إننا نعرف أن اخلاصك عظيم ولكن . . . »

فوقفت السيدة واتكأت بيدها على المائدة وقالت:

« أصغ الى ، فى غرفة بأعلى هذا المنزل مسكن شاب من الريف مخلص وديع كالخراف التى رعاها هناك ، ولقد قابلته على السلم مرتين أو ثلاثا . وسألته عن مسكنه خيفة أن يكون قريباً من الغرفة التى نجتمع فيها ، وإنه لطوع يدي إن أردت ، فهو يكتب الشعر فى غرفته وأظن أنه يحلم بى . وسيفعل ما أطلب منه فعله ، وسيحمل الرسالة إلى القصر »

فوقف المركيز وانحنى ثم قال :

« إنك لم تسمحى لى يا كونتس بأن أتم جملتى فلقد كنت أريد أن أقول ان اخلاصك عظيم ولكن ذكاءك وحسنك لاحد لعظمتهما » .

وبينما كان المتآمرون مشغولين بهذا الحديث فى غرفتهم كان داود يهذب بعض أبيات من الشعر وجهها إلى « حسناء السلم » ولم يلبث أن سمع طرقاً خفيفاً على باب غرفته ، وما كاد يفتحه حتى اضطرب قلبه إذ رأى الحسناء الذى يتغنى بها واقفة على عتبته تلهث مفتوحة العينين بريئة النظرات كالطفل ، وكأنما هى فى ضيق شديد وما رأته حتى قالت فى صوت متقطع :

« سيدى ، إنى أجيئك الآن جازعة ، وإنى لأعتقد أنك طيب صادق ولا أعرف سواك من ألجأ إليه للمساعدة . ولو رأيتنى وأنا أجري فى الشوارع وسط الرجال المختالين بأنفسهم ! ولكن دفعنى إلى ذلك ياسيدى أن أمى فى حالة النزع ؛ وخالى ضابط فى حرس الملك ؛ ولا بد من أن يسرع إليه أحد فيأتي لى به . وإنى لأرجو »

وهنا وضعت السيدة فى يد الفتى رسالة مختومة ومضت تقول :

« اذهب إلى الباب القبلى — الباب القبلى لاتنس ذلك — وقل للحرس الذين تجدهم هناك : « لقد غادر البازى وكره » وعندئذ يسمحون لك بالمرور ، فاقصد إلى مدخل القصر القبلى وكرر الجملة نفسها ، وسلم هذا الخطاب للرجل الذى يجيبك بقوله : « دعه يضرب متى أراد » فهذه كلمة المرور التى أطلعني عليها عمي ياسيدى ، لأنه فى وسط الاضطراب الحاضر فى البلاد ، وبينما يوجد قوم يتآمرون على حياة الملك لا يستطيع أحد بدون هذه الكلمة أن يدخل إلى القصر بعد هبوط الظلام ؛ فاذا أنت حملت إليه هذا الخطاب ياسيدي فستتمكن والدتى من رؤيته قبل أن تغمض عينيها إلى الأبد »

فقال داود متحمساً :

«هات الكتاب ياسيدتى ، ولكن هل أتركك تعودين وحدك فى الشوارع فى هذه الساعة المتأخرة ؟ أنا ... »

فقالت السيدة وقد استطالت عيناها وبدتا خداعتين كعيون الغجر :

« لا . لا — أسرع أنت ، فكل لحظة تمر كأنها جوهرة نفيسة ؛ وسيأتى الوقت الذى أحاول فيه أن أشكر لك طيبتك »

فدس الشاعر الخطاب فى صدره واتجه إلى السلم فهبطه مسرعاً . فلما انصرف عادت السيدة إلى غرفة المتآمر .

فكانت حركة حاجبي المركيز تنم عن سؤالها عما حدث فأجابت :

« لقد ذهب بالكتاب أبله غبياً كإحدى الغنم التى يرعاها »

فاهتزت المائدة مرة أخرى باحدى ضربات الكابتن دزرول وصاح :

« يالله ! لقد نسيت غدارتى ، ولا أستطيع أن أثق بغيرها »

فسحب المركيز من تحت معطفه غدارة كبيرة لامعة مزينة قبضتها بالفضة المنقوشة وقال :

« خذ هذه فما هناك من غدارة آمن منها ، ولكن حافظ عليها جيداً فانها تحمل اسمي وشعارى ، وأنا بالفعل مشتبه فى أمرى . وفيما يختص بى سأبتعد الليلة عدة فراسخ عن باريس . وسيشرق علىّ صباح الغد فى قصرى ، تفضلى ياسيدتى الكونتس »

ونفخ المركيز الشمعة فأطفأها ، ولفت السيدة نفسها جيداً بمعطفها وهبط الثلاثة السلم فى هدوء ، ولم يلبثوا أن اندسوا بين المارة على إفريز شارع كونتى

وأسرع داود حتى وصل إلى الباب القبلى لقصر الملك ، وهناك صوب أحد الحرس حربته إلى صدره ، ولكنه لم يلبث أن حولها عنه بهذه الكلمات :

« لقد غادر البازى وكره »

فقال الحارس :

« مر يا أخى ، وأسرع »

وعند الدرج الجنوبى للقصر تحرك الحرس للقبض عليه ، ولكن كلمة المرور لم تلبث أن فتحت له الطريق . وتقدم أحد الحرس منه وقال : « دعه يضرب . . . » ولكن حركة عنيفة وسط الحرس أنبأت عن أمر مفاجىء ، فقد شق الطريق فجأة وسط الحراس رجل حاد النظر عليه سيماء الجندية وأمسك بالخطاب الذى كان داود يحمله فى يده ، وقال له :

« تعال معى »

ودخل به إلى الردهة الكبرى ، وهناك فض غلاف الخطاب وقرأه . ثم أشار إلى رجل فى ملابس الفرسان اتفق مروره فى هذه اللحظة ، وقال :

« كابتن تيترو . . . أسرع بالقبض على حرس المدخل الجنوبى وأودعهم السجن ، وضع مكانهم رجالا ممن لا شك فى ولائهم »

ثم وجه الحديث إلى داود فقال :

« وأنت تعال معى »

ثم قاده فى ممر وصل منه إلى غرفة صغيرة تؤدى إلى حجرة فسيحة حيث جلس فى كرسى كبير من الجلد رجل تبدو عليه أمارات الحزن يرتدى ملابس مائلة للسواد وقد انحنى إلى الأمام . وقال يخاطب ذلك الرجل :

« لقد رفعت إلى مسامعك يا مولاى أن القصر يموج بالخونة والمتآمرين كما تموج السراديب بالفيران . ولقد كنت تظن يا مولاى أن ما أقول ليس إلا من نسيج خيالى . وهذا الرجل استطاع الوصول إلى أبواب حجراتك بإغضاء الحراس ، وكان يحمل خطاباً أخذته منه . وهأنذا قد جئت به إلى حضرة جلالتك حتى لا تظن غيرتى مبالغاً فيها

فأجفل الملك فى كرسيه ونظر إلى داود بعينين أثقلتهما غشاوة معتمة وقال :

« سأسأله بنفسى »

فثنى الشاعر ركبته . وسأله الملك :

« من أين جئت ؟ »

« من قرية فيرنوى فى مقاطعة إيرايه لوار يا مولاى »

« وماذا تعمل فى باريس ؟ »

« أو .. أود أن أكون شاعراً »

« وماذا كنت تعمل فى فيرنوى ؟ »

« كنت أرعى أغنام أبى »

فأجفل مرة أخرى وانزاحت الغشاوة عن عينيه وقال :

« آه — فى الحقول ! »

« نعم ، يا مولاى »

« كنت تعيش فى الحقول وتخرج فى نسيم الصباح الطرى فترقد على الحشائش داخل السياج . وهناك ينتشر القطيع على جانب التل . وتشرب أنت من ماء النهر المنعش ، وتأكل خبزك الأسود اللذيذ فى الظل ، وتصغى دون شك للطيور السوداء وهى

تغنى بين الأحراج . أليس ذلك هو شأن الراعى ؟ »

فأجاب داود متنهداً :

« هو ذاك يا مولاى ، وكذلك يصغى إلى النحل فوق الأزهار ، وقد يصغى كذلك إلى جناة العنب وهم يغنون »

« نعم ، نعم ، قد يصغى إلى جناة العنب ولكن الذى لا شك فيه أنه يصغى للطيور السوداء ، فهى غالباً ما تغنى فى الأحراج ، أليس أمرها كذلك ؟ »

« إنها لا تغني فى مكان آخر بأحلى مما تغنى فى إرايه لوار . ولقد حاولت أن أصف غناءها فى بعض الأشعار التى أنشأتها »

فسأله الملك فى لهفة شديدة :

« أتستطيع أن تكرر على سمعى هذه الأبيات ؟ فمنذ زمان بعيد أصغيت للطيور السوداء . وإنه لأكبر من الملك أن يستطيع إنسان تصوير غنائها تصويراً صادقاً ... وكنت فى المساء تدفع الأغنام إلى حظيرتها ثم تجلس فى هدوء واطمئنان ، فتأكل خبزك الهنى ! هل تستطيع أن تكرر هذه الأبيات أيها الراعى ؟ »

فقال داود فى حماسة ملؤها الاحترام :

هذه هى يا مولاى :

« أيها الراعى الكسول ! انظر خرافك الصغيرة
« وهى تثب مرحة فوق الأعشاب
« وانظر إلى فرائها تهتز فى النسيم
« واصغ إلى إله الرعاة ينفخ فى أرغوله
« فيترجم أقوال الطيور وهى تقول : —
« اصغ إلينا ونحن نصيح فوق الغصون ،
« وانظر إلينا ونحن ننقض على أغنامك
« لنلقط منها الأصواف التى تدفىء أوكارنا
« على فروع الـ . . . . »

هنا قطع هذا الحديث صوت أجش يقول :

«أيأذن لى مولاي أن أسأل هذا الوزان سؤالاً أو سؤالين . فليس لدينا من وقت نضيعه قبل أن نعمل . وإنى لأسأل مولاى العفو إذا كان اهتمامى بسلامة جلالتكم قد أدي إلى هذه المقاطعة التى قد تسوءكم »

فقال الملك :

« إن اخلاص الدوق دومول أكبر من أن يسبب لى أى امتعاض أو غضب »

ثم غاص الملك في كرسيه وعادت الغشاوة فاستولت على عينيه . فقال الدوق :

« وسأبدأ بأن أقرأ لجلالتكم الخطاب الذى حمله هذا الفتى وهذا هو :

« الليلة هى ليلة ذكرى وفاة ولى العهد . فاذا خرج كعادته لحضور صلاة نصف الليل على روح ابنه ، فان البازي سيضرب ضربته عند زاوية شارع اسبلاناد ، فاذا كانت هذه هى نيته فضع نوراً أحمر فى الغرفة العليا فى الركن الجنوبى الغربى من القصر حتى يأخذ البازى أهبته »

ثم قال الدوق فى شدة :

« أيها الفلاح ، لقد سمعت هذه الكلمات ، فمن الذى أعطاك هذه الرسالة لإيصالها إلى القصر ؟ »

فقال داود فى لهجة الجد :

« سأخبرك يا مولاى الدوق ، لقد أعطتنى هذه الرسالة سيدة قالت إن أمها مريضة وإن هذه الرسالة تستدعى خالها ليقف إلى جانب فراش أختها وهي تموت . ولم أكن أعرف مايحتوى عليه

خطابها ، ولكننى أستطيع أن أقسم أنها جميلة وطيبة »

فقال الدوق آمراً :

« صف لنا المرأة وقل كيف أصبحت رسولها الأبله »

فقال داود مبتسما ابتسامة رقيقة :

« أصفها ؟ انك بذلك تأمر الكلمات أن تأتى بالمعجزات ! انها يا مولاى مخلوقة من شعاع الشمس تحيطها هالة رائعة ، هيفاء كشجرة الحور ، إذا خطرت اكتنفتها العظمة من كل ناحية ، وعيناها تتغيران وهى تحدثك ، فهما فى لحظة مستديرتان ، وفى لحظة أخرى نصف غامضتين كما تطل عين الشمس من بين سحابتين . إذا جاءت فالسماء حولها ، وإذا ذهبت تركت وراءها شذاً يسحر النفوس ، لقد جاءتنى فى شارع كونتى رقم ٢٩ »

فالتفت الدوق إلى الملك وقال :

« إنه البيت الذى كنا نراقبه ، فشكراً للسان الشاعر ، فقد رسم لنا صورة من الكونتس ليبيدو مفضوحة السمعة »

فقال داود فى لهجة الجد :

« صاحب الجلالة ، ومولاي الدوق ، أرجو ألا تكون كلماتى التعيسة قد ظلمت أحداً . لقد نظرت إلى عيني هذه السيدة ، وإنى لأراهن بحياتى على أنها ملاك دون نظر إلى أمر هذا الخطاب »

فأحدق الدوق فيه النظر وقال فى هدوء :

« إنى سأختبرك ، فستلبس ملابس الملك ، وتذهب بنفسك فى عربته لحضور صلاة نصف الليل ، فهل تقبل هذه التجربة ؟ »

فابتسم داود وقال :

« لقد نظرت إلى عينيها ، فبرهانى فى يدي ، ولك أن تجرى تجربتك على ماتريد »

وفى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين مساء وضع الدوق دومول بيده مصباحا أحمر فى نافذة بالركن الجنوبى الغربى من القصر ، وفى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين خرج داود من الحجرات الملكية مرتدياً ملابس الملك من قمة رأسه لأخمص قدمه متكئاً على ساعد الدوق حانياً رأسه إلى الأمام حتى وصل إلى العربة المنتظرة أمام السلم الخارجى ، فساعده الدوق فى دخولها وأقفل الباب . فسارت العربة فى طريقها إلى الكاتدرائية .

وفى نقطة (كي فيف) أمام بيت فى زاوية شارع اسبلاناد اختبأ كابتن تيترو مع عشرين من رجاله مستعدين للانقضاض على المتآمرين عندما يظهرون

ولكن يظهر أنه لأمر ما عدل المتآمرون فى خطتهم تعديلا طفيفاً . فما وصلت العربة الملكية شارع كريستوفر ، وهو أقرب فى الطريق من شارع اسبلاناد ، حتى اندفع منه كابتن دزرول وعصابته التى عقدت النية على قتل الملك ، فهاجموا العربة . وعلى الرغم من أن الحراس المحيطين بالركب قد بوغتوا بهذا الهجوم المفاجىء فانهم ترجلوا وقاتلوا المهاجمين مستبسلين . واسترعى تقارع الأسلحة وضجيج القتال أنظار كابتن تيترو ورجاله فاسرعوا لنجدة اخوانهم ، ولكن حدث فى الوقت نفسه أن ثارت نفس كابتن دزرول ، بعد أن استولى عليه اليأس ، فانقض على باب العربة وفتحه بعنف وصوب غدارته إلى صدر

الهيكل الأسود القابع فى داخلها وأطلق النار .

والآن ، وقد أقبلت النجدة من الجنود المخلصين فقد علا الضجيج والصياح مصحوبا بقعقعة السلاح . على أن الخيل الجافلة قد اندفعت بالعربة على غير هدى وعلى فراش العربة رقدت جثة الملك الكاذب المسكين والشاعر الراعى ، وقد قتل برصاصة من غدارة السيد المركيز دى بوبيتريز .

الطريق الأصلية

قطع الفتى ثلاثة الفراسخ فى خط مستقيم ، ثم وقف متحيراً ، فقد التقت الطريق بطريق أخرى أوسع منها ترسم معها زاوية قائمة . فبقى لحظة لا يستقر على رأى ، ثم جلس ليستريح على جانب الطريق .

لم يكن الفتى يعرف إلى أين تؤدى هذه الطرق ، وخيل اليه أن وراء كل منها دنيا واسعة مليئة بالفرص الحسنة وبالاخطار أيضاً . وبعد أن جلس فترة يفكر وقعت عينه على نجم متلألىء فى السماء ، وهو نجم اتفق هو وإيفون على أن يسمياه نجمهما . فحولت رؤيته أفكاره إلى إيفون ، فساءل نفسه ألم يتسرع فى مغادرة القرية على هذه الصورة ؟ وهل يصح أن يترك حبيبته وبيته لغير سبب إلا أنه تبادل وهذه الحبيبة بضع كلمات حارة ؟ وهل كان الحب شيئاً هشا تقصفه الغيرة — وهى دليل صدقه — بمثل هذه السهولة ؟ وذكر أن الصباح يحمل دائما الشفاء للرؤوس التى يصدعها المساء . ورأى أن الوقت لا يزال متسعاً أمامه للعودة دون أن يشعر أحد من أهل القرية النيام بخروجه منها . لقد كان قلبه ملكا لإيفون فهناك فى القرية حيث عاش طوال عمره يستطيع إلى جانب حبيبته أن يقول الشعر وينعم بالسعادة .

وهب داود واقفا فنفض عوامل القلق والفكرة الحوشية التى استولت عليه ، وأدار وجهه إلى طريق القرية وعاد من حيث أتى . وما كاد يقطع الطريق حتى كان قد زال من نفسه كل أثر لفكرة الهجرة والبعد عن وطنه ، ومر بحظيرة الغنم التى ريعت من وقع أقدامه فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فأحس من حركاتها بحرارة الحنين الى الوطن فتسلل فى هدوء إلى غرفته الصغيرة حيث رقد على فراشه شاكراً لله أن نجت قدمه هذه الليلة من الانزلاق فى طرق المخاطر .

وما كان أعرف الفتى بقلب المرأة ! ففى المساء التالى كانت إيفون واقفة مع الفتيان والفتيات المتجمعين حول البئر للاشتراك مع القسيس فى الصلاة ، وكانت الفتاة تنظر من طرف عينها باحثة عن ... ولو أنه يخيل إلى من يرى فمها الجامد أنها قاسية لم ترحم ، ورأى داود نظرتها ورأى على فمها ما يناقض النظرة فادرك أنها تحاول أن تخفى بحركة فمها حقيقة شعورها فلاطفها ، وبعد فترة حظى — وهما عائدان فى الطريق — بقبلة من ذلك الفم الذى اصطنع الجفاء

وبعد ثلاثة أشهر من تاريخ ذلك اليوم تزوج الحبيبان ، وكان أبو داود ميسر الحال كريما ، فأقام لزواجها عرساً سمع بعظمته الناس إلى مسافة ثلاثة فراسخ . وكان العروسان محبوبين من أهل القرية جميعاً ، فمر الموكب فى الطرق وأقيم المرقص فوق الأرض الخضراء ، وأحضر من بلدة درو بعض اللاعبين لتسلية الضيوف .

ومضى عام ومات والد داود ، وورث الفتى عنه البيت والقطيع . وكانت زوجه دون شك ألطف

وأليق امرأة فى القرية ؛ شديدة العناية بأوانى اللبن وأوعية الطهي ، فهى دائماً نظيفة لامعة ، وكانت إلى جانب ذلك ناعمة الصوت إذا غنت أشجت السامعين .

ولـكن جاء يوم فتح فيه داود درجاً مقفلا منذ زمان ، فأخرج منه أوراقاً وقرض بأسنانه طرف قلم من الرصاص ، وكان الربيع قد أقبل وحرك أوتار قلبه ، وما من شك فى أنه كان شاعراً ، فقد نسى ايفون وهام قلبه بجمال الطبيعة وما تمثل فيها من بهاء وعظمة . وقد أثر فى نفسه تأثيراً غريباً ذلك الشذا الجميل المنبعث من الغابات والمراعى . وكان من قبل يذهب كل يوم بقطيعه ويعود به فى المساء سالماً إلى حظيرته . أما الآن فقد ألف الرقاد إلى جانب السياج يرص الكلمات بعضها إلى جانب بعض على صفحات القرطاس ، تاركا الغنم تشرد فى كل مكان ، وأدركت الذئاب أن انهماك الراعى فى صياغة الأشعار تيسر لها الانقضاض على فرائسها المشتهاة ، فكانت تتسلل من الغاب إلى المرعى تخطف ماتشاء من الخراف .

ونمـا محصول داود من الشعر وتناقص عدد قطيعه ، وتسربت الحدة إلى أخلاق إيفون وقلت عنايتها بأوانيها ولـكن عينيها ما زالتا محتفظتين ببريقهما . ولقد صارحت زوجها بأن إهماله قد أدى إلى نقصان عدد القطيع وأنه سينزل الدمار بالبيت فاستأجر داود غلاماً يرعى الأغنام عليه ، وحبس نفسه فى غرفته الصغيرة بأعلى البيت مكباً على صياغة الأشعار . وكان الغلام الذى استأجره لرعاية الغنم شاعراً بطبيعته ولـكنه لم يكن يعرف الـكتابة فكان يقضى وقته ناعساً . وأدركت الذئاب أن صياغة الشعر والنعاس صنوان من الوجهة العملية ، فواصلت حملتها على القطيع ، واستمر عدد الخراف فى النقصان وازداد خلق إيفون سوءاً تمشيا مع ازدياد ما يهدد حياتها البيتية من شقاء ، فكانت أحياناً تقف فى الفناء وترفع صوتها لتسمع زوجها القابع فى غرفته ماتنهال عليه من ألفاظ قاسيات .

وكان مسيو بابينو المسجل العجوز رجلا شفيقاً يتدخل فى شئون أهل قريته ينصح لهم بما يفيدهم ؛ وقد رأى ما صارت إليه حال داود فقصد إليه يوماً وقال : —

« ياصاحبي ميجنوت إني أنا الذي ختمت شهادة زواج أبيك ، لذلك يؤلمني أشد الألم أن أضطر يوماً لنشر ورقة تعلن إفلاس ابنه ؛ ولـكن هذه هى النتيجة التى أراك سائراً نحوها . فاصغ الآن لما أقول لك ، وثق أني أخاطبك كصديق قديم : إنى أراك عاقداً عزمك على مواصلة حياة الشعر والخيال . ولى صديق فى درو اسمه مسيو بريل — جورج بريل وهو عالم يعيش وسط الـكتب والأوراق . ويزور باريس كل عام ، وله مؤلفات عديدة . وهذا الصديق العالم الخبير هو الذى يحسن النصيحة لك متى اطلع على شعرك ، فإما نصح لك بالمضى فيه أو نصح لك بالعود إلى العناية بامرأتك وأعمالك ، فان شئت كتبت له خطاباً تحمله اليه وتصغى لما يدلى به إليك »

فقال داود :

« أكتب الخطاب وإنه ليؤلمنى أنك لم تخاطبنى بذلك قبل هذا اليوم بزمان »

وعند شروق شمس اليوم الثانى كان داود يسير

فى طريق درو متأبطاً حزمة شعره النفيس . وعند ذلك نفض التراب عن نعليه أمام بيت مسيو بريل . وفض الرجل العالم غلاف خطاب مسيو بابينو ، فلما قرأه أدخل داود إلى مكتبه وأجلسه على مقعد كأنه الجزيرة وسط بحر من الكتب .

وكان مسيو بريل رجلا حى الضمير ، تناول حزمة الورق التي تحتوى شعر الفتى فكسر خاتمها وأخذ يقرأ ما فيها بسرعة العالم الخبير ودقة الناقد الصادق .

وكان داود فى الوقت نفسه جالساً يضطرب فى وسط ذلك البحر من العلوم ، وقد خيل إليه أن نصف العالم لا بد أن يكون من المؤلفين .

وانتهى مسيو بريل من قراءة المجموعة كلها فرفع نظارتيه عن عينيه ومسحهما بمنديله وسأل داود :

« هل يتمتع صديقى بابينو بصحة جيدة ؟ »

فأجاب داود :

« إن صحته على خير ما يكون »

« كم عندك من الغنم يا مسيو ميجنوت ؟ »

« ثلاثمائة رأس وتسعة رؤوس عند ما عددتها أمس . وقد أصاب القطيع سوء الحظ فانحدر إلى هذا العدد بعد أن كان عدده ثمانمائة وخمسين رأساً »

« ولك زوج وبيت وتعيش فى رخاء تدر الغنم عليك الخير الوفير وتذهب يومياً إلى الحقل فتستنشق الهواء الجيد وتأكل الخبز الأسمر اللذيذ . وليس عليك أن تتيقظ وتتكىء هناك على صدر الطبيعة مصغياً إلى صفير الطيور السوداء بين الأحراج . . . فهل أنا مصيب الحقيقة ؟ »

فقال داود :

« لقد كان الأمر كما تقول »

فقال مسيو بريل وعيناه تدوران فى بحر كتبه كأنهما تسبران مدى الأفق :

« لقد قرأت شعرك فانظر من خلال هذه النافذة وقل لى ماذا ترى هنالك على الشجرة يامسيو ميجنوت »

فنظر داود وقال :

« أرى غرابا »

فقال مسيو بريل :

« هنالك طائر ، وهذا ما يساعدنى على أداء واجبى ، فهل تعرف هذا الطائر يامسيو ميجنوت ؟ إنه فيلسوف الجو ، إنه سعيد بقناعته بحظه ، وليس هناك من هو أسعد منه بنعيبه وعينيه المتقلبتين وخطواته الطروب المرحة ، والحقول تزوده بما يطلب ، وهو لا يحزن أبداً لحرمانه من ريش جميل بهيج اللون كريش الصفارة الجميل . ولقد سمعت يامسيو ميجنوت النغمة التى خصته بها الطبيعة . فهل تظن أن البلبل أسعد من هذا الطائر حالا ؟ »

فهب داود واقفا ، ونعب الغراب نعيبا عالياً من موقفه فوق الشجرة وقال داود فى بطء :

« شكرا لك يامسيو بريل ، إذن لم تجد نغمة واحدة من نغمات البلبل بين كل هذا النعيب ؟ »

فقال مسيو بريل متنهدا :

« لو وجدتها لما خفيت على . لقد قرأت كل كلمة . فدع الشعر أيها الرجل ، ولا تحاول أن تعالجه مرة أخرى »

فقال داود ثانية :

«أشكر لك نصيحتك وسأعود الآن إلى غنمى»

« ألا تتناول الغداء معي فأريك ماخفي عليك ؟ »

« لا . إذ يجب أن أعود إلى حقلى فأرعى قطيعي »

وعاد داود في طريق فيرنوى متأبطا شعره . فلما وصل إلى قرية مال إلى حانوت يهودى من أرمينيا اسمه زيجلر يتجر بكل مايصل إليه من أنواع البضائع وقال له داود :

« يا صاحبى . إن الذئاب تأتى من الغابة فتسطو على غنمى وتخطفها ولا بد لى من سلاح لأحميها . فأى نوع لديك من السلاح ؟ »

فمد زيجلر يديه وقال :

« إن هذا اليوم من أسوأ أيامى ياصاحبى ، إذ أرانى مضطرا أن أبيعك سلاحا لن تدفع فيه عشر ثمنه . ففي الأسبوع الماضى فقط اشتريت من بائع متجول عربة من البضائع ابتاعها فى مزاد على لحساب التاجر . وهو مزاد فيه قصر وأمتعة سيد عظيم — لا أعرف لقبه — كان قد نفى لتآمره على حياة الملك . وبين هذه البضائع مجموعة من الأسلحة النارية القيمة . وهذه الغدارة التى أقدمها اليك خليقة بأن تكون سلاح أمير من الأمراء ! ولن أتقاضى منك ثمنا لها أكثر من أربعين فرنكا ياصاحبي ميجنوت ، وبذلك أخسر عشرة فرنكات من ثمن المشتري ، ولكن قد تراها من الطراز القديم.. فقال داود وهو يلقى الثمن على مائدة التاجر :

« إنها كافية ، فهل هى محشوة ؟ »

قال الرجل :

« سأحشوها وإن دفعت عشرة فرنكات أخرى أعطيتك كمية من الذخيرة والرصاص »

وضع داود الغدارة تحت معطفه وسار إلى بيته فلم تكن إيفون هناك فقد تعودت في العهد الأخير أن تكثر من مغادرة البيت والجلوس مع الجيران . ولكن النار كانت مشتعلة فى موقد المطبخ ، ففتح داود باب الموقد وألقى بشعره فوق الفحم المتقد . فكان لاحتراق الأوراق صفير خشن فقال الشاعر :

« هذا نعيب الغراب »

وصعد إلى غرفته فأقفل عليه بابها . وكان الجو هادئاً فسمع كثير من الرجال صوت الطلق النارى ، فجروا هناك وهناك ، وصعدوا درج السلم حيث استرعى نظرهم الدخان .

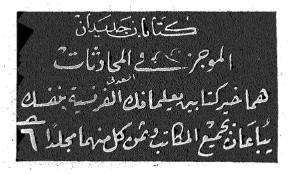
ووضع الرجال جثة الشاعر فوق فراشه ، محاولين أن يخفوا عن الأعين ريش الغراب الممزق : وتحدثت النسوة معبرات فى سيل من الألفاظ عما شعر به من شفقة وأسف ، وجرت بعضهن يحملن الخبر إلى إيفون .

وكان أنف مسيو بابينو الذى يشم رائحة شئون الناس قد جذبه إلى دار القتيل فى طليعة القادمين فالتقط الغدارة ففحص يدها المحلاة بالفضة فحص الخبير وقد بدت عليه أمارات الأسى .

وقال يخاطب القسيس :

« أرى على هذه الغدارة شعار السيد المركيز دي بوبيرتيز »

عبد الحميد حمدى



شجرة عيد الميلاد

للقصصي الروسي فيدور دستويفسكي
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

منذ أيام شاهدت عرساً . . . ولكن لا ، فلن أتكلم عن العرس بل عن شجرة عيد الميلاد . . . لقد كانت حفلة العرس جميلة وأحببتها حباً شديداً ولكن حادثة شجرة عيد الميلاد أجمل ، ولا أعرف لماذا أتذكر شجرة عيد الميلاد كلما رأيت عرساً . . . ولكن هذا هو الذى حدث :

منذ خمسة أعوام كاملة دعاني إلى حفلة راقصة أقيمت للأطفال خصيصاً رجل من أغنياء التجار له قراباته ، وله معارفه وله أيضاً دسائسه . وقد ظهر لى أن تلك الحفلة لم تكن إلا ذريعة لكى يجتمع الآباء والأمهات ويتحدثون فيما يهمهم بتلك النزاهة المعتادة

وكنت دخيلاً في هذه الحفلة لأنه لم يكن لى بأحد شأن خاص . لذلك كان فى استطاعتى أن أقضى هذه الحفلة بينهم وأنا بمعزل عن كل واحد منهم . وكان بين الجلوس واحد يشابهنى فى ذلك ، فكان لهذا السبب أول من استرعى انتباهي ، ولم يكن مظهره دالاً على أنه ابن أسرة كبيرة أو أنه نبيل المولد . وهو طويل القامة نحيل جداً ، تبدو عليه علائم المبالغة فى الجد والوقار . وهو شديد الاناقة فى ملبسه ، ويظهر أنه لم يكن يميل إلى هذه الاجتماعات العائلية ولم أكد أدنو منه فى الركن الذى هو جالس به حتى تزايلت ابتسامة كانت مرتسمة على وجهه . وعلا وجهه العبوس . ولم يكن يعرف أحداً ممن بالحفلة غير صاحب المنزل ، وقد أبدى كل علامة على السأم والملالة وإن كان قد بقى إلى نهاية الحفلة وبه من الشجاعة ما بأى إنسان يقاوم نفسه حتى يحملها على ماتكره . وقد علمت فيما بعد أنه من أهل الأقاليم ، وأنه جاء إلى العاصمة فى أمر شديد الخطر والخطورة ، وأنه كان يحمل خطاب توصية إلي مضيفنا ، فدعاه هذا من باب المجاملة إلى حضور الحفلة . ولكن أحداً لم يدعه إلى لعبة الورق ولم يقدم إليه لفافة تبغ ولم يبدأ معه حديثاً . ولعلهم كانوا ذوى فراسة فعرفوا الطائر فى مسبحه بالجو من لون ريشه . لذلك قضى الليل فى فتل شاربيه . وكان شارباه جميلين ، ولكنهما كانا كبيرين حتى ليخال من يراه أن الله خلقهما أولاً ثم خلق هذا الرجل تابعاً لهما لكي يفتلهما

وكان من المدعوين رجل آخر استرعى انتباهى ، ولكنه من نوع غير هذا النوع ، فان مجرد النظر إليه يدل على أنه صاحب شخصية . وكانوا يدعونه جوليان ماستا كوفتش

وكانت النظرة الأولى إليه تدل على أنه موضع الحفاوة والتكريم ، وأن مركز صاحب المنزل منه كمركز صاحب الشاربين الطويلين من صاحب المنزل . فقد كاد لا ينقطع سيل الفكاهات والطرائف التى يتحدث بها إليه صاحب المنزل وزوجه ، وهما كثيرا

الالتفات إليه يدنوان منه ويحومان حوله ويستجمعان الضيوف لتقديمهم إليه . ولكنهما لا يقودانه ليقدماه إلى أى إنسان . وقد رأيت الدموع تترقرق فى عيني صاحب المنزل وفى عيني زوجه لما قال جوليان ماستا كوفتش إنه قلما قضى ليلة سارة كهذه الليلة . وقد أخذت بعد انتهاء الحفلة أشعر بالسأم من هذا الضيف فانصرفت إلى الأطفال أتسلى بملاحظتهم ، وكان خمسة منهم يستحقون النظر والملاحظة ، فهم شهادة بعناية أمهاتهم بهم ؛ ثم تركت الغرفة بعد ذلك إلى الغرفة المجاورة ولم يكن فيها أحد ، فجلست فى طرفها المجاور للمكان الزجاجى المعد لحفظ الأزهار فى غير فصولها

وكنت لا أزال من مكانى هذا أراقب الأطفال والحق أن رؤيتهم تسحر

لقد كانوا يأبون محاكاة من أهم أكبر منهم على الرغم من الجهود التى كانت تبذلها أمهاتهم ومربياتهم ؛ ولم تمض ساعة حتى نجح هؤلاء الأطفال فى تجريد شجرة عيد الميلاد من أوراقها وأعوادها وفى كسر أكثر من نصف الألاعيب المعلقة فيها قبل أن يقتسموا تلك الألاعيب بينهم

وكان أحد هؤلاء الأطفال فتان الحسن أسود العينين مجعد الشعر ، وقد أصر فى عناد على تصويب بندقيته نحوى ، وقد استرعى نظرى كثيراً ، ولكن أخته استرعت نظرى أكثر مما استرعاه . وهي فى عامها الحادى عشر ، ولا يقل جمالها عن جمال كيوبيد ؛ وتبدو عليها علائم الهدأة والتفكير . وعلى عينيها الواسعتين وسم الأحلام ؛ وقد أغضبها الأطفال لأمر ما فتركتهم وانسحبت إلى الغرفة التى كنت جالساً فيها فجلست فى ركن منها وفى يدها الدمية تلاعبها

وكان كل من الضيوف يحدث جاره بأن أباها من أغنى التجار وبأنه منذ الآن قد أعد لها بائنة قدرها ٣٠٠ ألف روبل

ولما التفت إلى الجماعة الذين سمعتهم يتحدثون بهذا وقع نظرى على جوليان ماستا كوفتش فوجدته واقفاً ينصت إليهم ويداه مشتبكتان خلف ظهره ، ورأسه مائل إلى أحد الجانبين . وكنت طول هذا الوقت أعجب من الذكاء الذى أبداه صاحب المنزل فى توزيع الهبات على الأطفال ، فالطفلة التى أعدلها أبوها بائنة كبيرة تهدى أحسن لعبة ، وسائر اللعب تقسم وفق مراكز الآباء فى الحياة الاجتماعية

وكان آخر طفل دعى لتقدم إليه هدية يبلغ من العمر عشرة أعوام ، وهو هزيل أحمر الشعر ضعيف البنية . وكانت هديته كتاب قصص ليس فيه صور ولا رسوم . وهو ابن المربية ، وهي أرملة مسكينة . وشكل الطفل دال على الحزن ، وعليه كساء رث ، فتناول كتابه وانساب فى بطء بين الأطفال حاملي اللعب

وقد كان يود أن يبذل أى شئ ليلعب معهم ولكن كيف وليست له لعبة ؟

إننى من الذين يحبون أن يراقبوا الأطفال ليروا كيف تناضل أرواحهم روح الجماعة

وقد لاحظت أن ألاعيب الأطفال كانت سحراً وفتنة فى نظر الطفل الأحمر الشعر . وشرع الأطفال يلعبون فأصر على أن يلاعبهم وعلى أن يناضل لو منعوه ؛ فابتسم وسار نحو واحد منهم فأقامه من مكانه

وجلس بذلك لأن الأطفال كانوا قد جلسوا فى دائرة ولم يتركوا له مكاناً .

ولكن ذلك الطفل حمل عليه فلطمه لطمة قوية فلم يلبث أحمر الشعر حتى رفع صوته بالبكاء ، وجاءت أمه فنهته عن اللعب معهم فانسحب نحو الغرفة التى كنت جالساً بها مع الفتاة التي تقدم ذكرها وتركته الفتاة يجلس بجانبها واشتركا فى إلباس الدمية ثوبها

ومضى نحو نصف ساعة ، وكاد النعاس يدركنى وأنا جالس أنصت حيناً إلى حديث الطفل أحمر الشعر ويشرد ذهنى حيناً . وعلى حين فجأة دخل جوليان ماستاكوفتش وكان قد انسحب من غرفة الجلوس التى أنا فيها عند ما اشتد ضجيج الأطفال .. ولم يغب عنى وأنا جالس أراقبه من الركن الذى أنا فيه أنه كان فى الفترة الأخيرة من الوقت يتحادث مع والدة الطفلة الجالسة معى فى الغرفة .

وظل واقفاً بعد الحديث يفكر وكأنه يعد على أصابعه ــ ثلاثمائة ــ أحد عشر ــ اثنا عشر عاماً ــ خمسة أعوام ــ سعر أربعة فى المائة ــ خمسة أضعاف ، ستون وأربعمائة ــ

ويظهر أن هذا الخبيث يعجبه الحساب على سعر أربعة فى المائة ، ثم أعاده على حساب ثمانية ، ثم على حساب عشرة .

وخرج من الغرفة فأطال النظر إلى الطفلة . وقد تخطانى نظره فلم يرني ؛ ويظهر أن الحساب هو الذى أغفله عنى ، ثم مسح يديه وأخذ يتنقل من مكان إلى مكان وهو لا يزال يزداد اضطراباً .

وأخيراً تمكن من ضبط عواطفه وألقى نظره على عروس المستقبل وهم أن يتجه نحوها ، ثم وقف يمثل حالة المخطىء الذى يؤنبه ضميره وانتصب على أطراف أنامله أمام الفتاة وانحنى يقبلها وهو يتبسم وقد كان إقباله نحوها على غير انتظار حتى أنها صرخت ، عند تقبيله إياها صرخة فزع .

قال لها بصوت خافت وهو يقرص خدها : « ماالذى تفعلين هنا يابنية ؟ فأجابته : « نحن نلعب » فقال بلهجة المستنكر : « مع من ؟ مع هذا ؟ » وأشار إلى ابن المربية ثم قال له : « يجب أن تذهب إلى الغرفة الأخرى »

ظل الطفل صامتاً وهو ينظر محملقاً فى وجه الرجل ، فدار جوليان ماستاكوفتش بنظره فى الغرفة ثم أكب على الفتاة وقال : « ماذا معك ياعزيزتى ؟ دمية ! » فأجابته : « نعم ياسيدى » وقد قطبت حاجبيها وهي تجيب . قال : « دمية ؟ ومن أي شيء تصنع الدمى ؟ ! »

فأحنت رأسها وقالت : « لا أعرف ياسيدى »

قال : « تصنع من الخرق » ثم نظر إلى الطفل وقال : « إذهب أنت إلى الغرفة الأخرى التى فيها الأطفال » .

وكانت نظرته إلى الطفل فى هذه المرة نظرة قاسية ، فقطب الطفلان وتشبث كل منهما بالآخر وأبيا أن يفترقا ، فقال جوليان وهو يخفض من صوته : « وهل تعرفين لماذا أعطوك هذه الدمية ؟ » فقالت : لا .

قال : « لأنك كنت طيبة ــ طيبة جداً طول الأسبوع » قال ذلك ثم عراه اضطراب شديد ونظر حوله فقال بصوت خافت يكاد لا يسمع وبلهجة شديدة الدلالة على فقدان الصبر : « إذا جئت إلى

منزلكم لزيارة أبيك فهل تحبينني ياعزيزتي ؟ »

وحاول أن يقبلها على أثر هذا السؤال، ولكن الطفل الأحمر الشعر أمسك بيدها كمن يريد أن يحميها وبكى بأعلى صوته كالمستجير . فأثارت حركته هذه غضب الرجل وصاح : « اذهب ! اذهب إلى الغرفة الأخرى حيث يلعب رفاقك » فقالت الطفلة : « لست أريد أن يذهب، فاذهب أنت ودعه هنا »

وكادت الطفلة تبكي . وسمع وقع أقدام من ناحية الباب فانزعج جوليان، وكان الطفل الأحمر الشعر أشد منه انزعاجاً فترك يد الطفلة وتسلل إلى غرفة المائدة . وكي لا يسترعي جوليان نظر أحد ممن بغرفة الجلوس تسلل هو أيضاً إلى غرفة المائدة، وكان وجهه قد صار من الاحمرار في مثل لون الحناء، حتى أن نظرة واحدة منه إلى وجهه في المرآة تكفي لازعاجه . وكان سبب الاضطراب كله أن حسابه أضله فأوهمه أن الطفل عقبة في سبيل الثروة التي تنتظره . نعم إنه الآن لايزال في العاشرة فهو قليل الخطر ولكنه سيصبح خطراً بعد خمسة أعوام أو نحو ذلك . وتتبعتهما بنظري فوجدت نظرات جوليان صارت كأنها نظرات ثعبان، وأصبح صوته مسمما . وأخذ يتوعد الطفل . وكان الطفل يتراجع أمام هذا الوعيد حتى لم يعد مكان يتسع لتراجعه، وكان جوليان يصيح به :

اخرج من هنا ! ما الذي تصنعه هنا ؟ تسرق الفاكهة ! أليس كذلك ؟ اذهب من هنا يادميم إلى أمثالك ! »

وأدرك اليأس هذا الطفل المسكين فانكمش ودخل تحت المنضدة فحار مطارده ثم أخرج منديله وفتله فجعله كالسوط وضرب به الطفل ليخرجه من مكمنه .

ولا بد هنا من الملاحظة أن جوليان كان قوي البنية ضخم الخدين تبدو عليه علائم التغذية الجيدة . وكانت أطراف أصابعه كأنها لضخامتها حبات البندق وقد أحالته كراهيته (أو لعلها غيرته) نحو الطفل إلى الجنون المحض .

ضحكت من أعماق قلبي فالتفت جوليان ولعله ذكر في هذه اللحظة احترامه نفسه وكبر أهميته . وفي الوقت نفسه ظهر صاحب المنزل عند الباب وخرج الطفل من تحت المنضدة فأخذ يمسح ذراعيه وركبتيه وأسرع جوليان فجمع منديله الذي كان مفتولاً كالسوط وجعله تحت أنفه .

ونظر صاحب المنزل إلى ثلاثتنا نظرة المرتاب، ولكنه وهو رجل يعرف الكثير من شئون الدنيا قد انتهز هذه الفرصة لينال من ضيفه الكبير الأهمية أكثر مايستطيع أن يناله منه فقال : « هذا هو الطفل الذي حدثتك بشأنه وأنا أعتمد على فضلك فيما يتعلق به » وأشار إلى الطفل الأحمر الشعر .

ولم يكن جوليان قد استرجع إلى الآن سيطرته على نفسه فقال وهو شارد الذهن : « أهذا هو ؟ »

قال صاحب المنزل : « هو ابن المربية، وهي فقيرة مسكينة وقد كان زوجها موظفاً شريفاً، فان كان في وسعك . . . » فصاح جوليان مقاطعاً : « مستحيل مستحيل ! أرجو أن تعذرني يا فيليب ألكسيفتش فلا توجد محال خالية، وفي قوائم المرشحين نحو عشرة

أحق منه . . . إننى آسف »

فقال صاحب المنزل : « مسكين ! مسكين ! »

قال جوليان : « إنه شقى شرير . أخرج من هنا أيها الوغد الصغير . لماذا بقيت حتى الآن ؟ أخرج إلى سائر الأطفال »

ونظر إلىّ نظرة جانبية وهو عاجز عن السيطرة على نفسه وأنا أيضاً عاجز عن السيطرة على نفسى ، فضحكت فى وجهه ساخراً منه ، فالتفت إلى المضيف وسأله بصوت يكفى لبلوغ مسمعي عمن عسى أن أكون . وتهامس الرجلان وخرجا من الغرفة غير مباليين بى .

واهتز جسمى من شدة الضحك وخرجت أيضاً إلى الغرفة الأخرى . وهناك رأيت الرجل العظيم محاطاً بالآباء والأمهات وهو يتكلم باهتمام مع سيدة قدمت إليه فى تلك اللحظة . وكانت تلك السيدة ممسكة بيد الطفلة ، وكلام جوليان كله إطراء للطفلة وثناء عليها ، فهو يتنقل من مدح جمالها إلى مدح مواهبها إلى مدح تربيتها والأم تصغي إليه ولا تكاد تمنع دموع السرور أن تفيض ، والأب يبدى علامة لشكره ابتسامة عذبة .

وكان السرور شاملا فاشترك فيه كل إنسان حتى الأطفال، ووقفوا اللعب حتى لا يشوشوا على المتحدثين . وسمعت أم الطفلة وهى تتخير المنتقى من اللفظ فى مخاطبة ذلك الرجل داعية إياه أن يتنازل فيشرف منزلها بالزيارة ، وسمعته يقبل الدعوة فى تحمس لا يحاول أن يخفيه ، ثم تجمع المدعوون من أرجاء الغرفة مقلبين نظرهم بين والدة الفتاة وبين جوليان .

وسألت جارى بصوت عال سمعه الجميع : « هل هو متزوج ؟ »

فنظر إلى جوليان نظرة مسمومة وقال لى جارى : « كلا » ولكن سؤالى وإن أجاب عليه سلباً قد أثار اهتمام الجميع

* * *

ومنذ عهد غير بعيد مررت بكنيسة فرأيت عند بابها جمعاً كبيراً قد احتشد ليحضر حفلة عرس — وكان اليوم مكفهراً وقد بدأ المطر يتساقط . واخترقت الصفوف فدخلت فرأيت العريس بديناً مرهلاً تبدو عليه علائم التغذية الدسمة . ورأيت رجلا قصيراً يروح ويغدو من طرف الكنيسة إلى الطرف الآخر وهو لا يكف عن إصدار الأوامر

وأخيراً سمعت أن العروس مقبلة فاندفعت فى وسط الزحام ، ورأيت جمالاً عجيباً قد اكتسى بعلائم الحزن العميق

كانت العروس شاحبة مضطربة حتى لقد خلت أن عينيها حمراوان من أثر البكاء . وتحت مظهرى الجمال والحزن طهارة الطفولة التى كانت كأنها تضرع وتتوسل طالبة الرحمة

وكانوا يقولون إن عمرها ستة عشر عاماً . ونظرت إلى العريس محققاً مدققاً فعرفت أنه جوليان ماستا كوفتش الذى لم أكن قد رأيته فى الأعوام الخمسة الماضية . ثم نظرت إلى العروس ورحماك يا رب ولطفك !

رأيتها فوليت فراراً من باب الكنيسة على عجل ، وسمعت الناس يتحدثون عن غنى العروس وعن بائنتها البالغة ٥٠٠ ألف روبل .

قلت فى نفسى : « لقد صدق حساب هذا اللعين » . وأسرعت فى مشيتى فراراً

عبد اللطيف النشار

من اعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لالفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الثالث

الفصل السادس

وكنت فى ذات ليلة عند مدام بيارسون وكان قد مر على ثلاثة أشهر لم يفتني منها يوم دون أن أجتمع بها ، وما أذكر من هذه الأيام إلا أنى كنت أراها ؛ وقد قال لابروييـر : يكفى الانسان أن يوجد قرب من يهوى سواء استغرق فى تفكيره أو تكلم ، وسواء اتجه فكره إليه أو إلى أى موضوع كان .

كنت عاشقاً . مرت علينا ثلاثة أشهر ونحن نتمتع بالتنزه ساعات طويلة فاطلعت على أسرار أعمالها المبرورة ؛ وكنا نجتاز الغابات وهي ممتطية مهراً وأنا أمشي وراءها وبيدى عصا صغيرة ، فكنا نذهب حاملين همنا وحبورنا لنقرع أبواب الأكواخ

وكان على مدخل الغاب مقعد خشبي كنت أذهب فأجلس عليه كل مساء بعد العشاء فألتقى بها هنا لك كأن الصدفة تسوقنا إلى هذا المكان بلا موعد .

وفى السهرة كنا نلعب بالورق مع عمتها قرب الموقد كما كان الحال فى عهد والدى ، وهكذا كانت أمامى فى كل آن ومكان تملأ ابتساماتها جوانب قلبي

بأى قضاء قدتنى إلى الشقاء أيتها العناية العلياء ؟

وماذا كان علىّ أن أقتحم من قبل لأصل إلى هذه الحياة الحرة ، إلى مثل هذا الولاء والراحة حيث تنبثق أوائل ذرات الآمال .

على م يشكو الناس الحياة؟ لهم الله ! أليس لديهم الحب ؟ وهل من شئ أعذب من الحب ؟

أفما يكفي الحب إحساناً أنه يجعل الانسان شاعراً بالحياة مدركا بأنه خليفة ربه ؟

حذار أن تشك فى الحب فهو سر لن تجد له تفسيراً ؛ ومهما قيده الناس بأنواع الاغلال وأحاطوه بالدنايا والأقذار ؛ ومهما تراكم فوقه من المعتقدات السخيفة مايشوهه ويفسده فانه ليبقى بين هذه الأقذار القوة العنيفة المسيطرة ، والناموس السماوى الذى يتساوى بقدرته وتعاليه عن الادراك ، والناموس الذى رفع الشمس فى أفلاكها . .

ماهي هذه الرابطة التى تشد الناس بقيود أصلب وأمتن من الحديد وهى لاتلمس ولا ترى ؟

يصادف رجل امرأة ، فما هي إلا نظرة وكلمة فاذا هذه المرأة راسخة فى تذكاره لايجد إلى محوها من صفحاته سبيلا .

من الذى قضى بأن يحدث هذا الانطباع من ذات هذه المرأة دون سواها ؟

ارجع إلى العقل والاعتياد والحس ؛ الجأ إلى رأسك وإلى قلبك وعد بالايضاح إذا تمكنت منه ، فانك لن تجد أمامك إلا جسدين يواجه أحدهما الآخر وليس بينهما إلا الهواء والمدى .

ما أسخف من يعتقد بانسانيته ويجسر على اقتحام الحب لتحليله ، أرأيتم الحب لتصفوه ؟

إن أحداً يره ، بل شعرتم به شعوراً منكم لم

لقد تبادلتم النظرات مع شخص مجهول مر بكم فشعرتم فجأة بانطلاق شيء منكم لايحيط به اسم ولا يحدده تعبير ، فوقف الهوى بكم يشد بأعراقكم إلى الأرض كأنكم حبة الحنطة تشعر بالحياة تستنبت منها سنابل الحصاد .

وكنا جالسين سوية أمام النافذة المفتوحة نطل على حديقة يخر فى طرفها ينبوع صغير تصل سقسقته إلى آذاننا . ولكم أتمنى لو أننى أعيد الآن ما أسالت هذه العين من قطرات ونحن نتبادل الحديث ؛ تلك أويقات كنت أثمل منها حتى لاأعى

يقولون إنه لا شيء أسرع إلى القلب من الشعور بالنفور ، غير أننى أرى أسرع منه إلى القلب الشعور بالتفاهم وبترصد الحب للمتفاهمين . فان لكل كلمة فى هذه المرحلة الأولى قيمة تفوت كل تقدير وما يقف الفكر عند ما تنطق به الشفاه عند ما تتجاوب فى أحاديثها القلوب .

لله ما أحلى هذه النظرات الأولى يبادلها العاشق نظرات امرأة تجتذبه ! ولله أوائل حديث كأنه محاولات تفكير متردد وتجاوب بيان ؛ ثم يشعر العاشقان بفرح غريب إذ يتحقق كل منهما أن صوته قد أهاج صدى كامناً فى قلب الآخر فيحيا حياة مزدوجة يدهشه تقاربها وتلامسها ، وإذ يثق أحدهما بالآخر ويتيقن من حبه ويعلم أنه ظفر بالتآخى المنشود تفيض الروحان غبطة فتتعطل لغة الكلام إذ يسبقها الحس الباطن بياناً وإدراكا وإذا تخاطبت الروحان أسكت تخاطبهما الشفاه . فيالها من أويقات صمت يمحى فيها من التذكار كل الوجود .

وكان الحب قد قبض على مشاعرى منذ أول لقيا وتزايد حتى بلغ الهيام ! ولكننى استحييت من هذه المرأة فوجمت أمامها لا أبدى ولا أعيد .

ولو أن هذه الحسناء لم تفتح لى بيتها بمثل هذا الولاء لكنت عززت عاطفتى بشيء من الاقدام ولم أكبت هذه الأشواق العنيفة التي كانت تهزنى هزاً كلما فارقتها ولو إلى حين . ولكن ما كان يبدو لى من صراحة وإخلاص فى معاملتها لي كان كافياً لصدى عن كل إقدام ؛ وفضلا عن ذلك فان مدام بيارسون لم تبذل لى صداقتها إلا استناداً إلى اسم والدى ، وما كان هذا الاعتبار إلا ليزيد فى احترامى لها وفى ميلي إلى المحافظة على كرامة هذا الاسم .

قيل « إن مَنْ تحدث عن الغرام فقد كاشف من يحدثه بغرامه » لذلك لم أذكر الغرام إلا عرضاً فى حديثي ؛ وكنت كلما تعرضت لكلمة الحب أرى جليستى تقتضب الكلام وتتحول إلى موضوع آخر ، وما كنت لأعرف لذلك سبباً ، غير أننى كنت فى مثل هذه المواقف ألمح على وجهها التجهم المتألم ؛ وما كنت سألتها شيئاً عن حياتها الماضية ولا خطر لي أن أفاتحها فى هذا الأمر لذلك ضربت صفحاً عن كل محاولة .

وكان يقام مرقص فى كل يوم أحد فى القرية فكانت تذهب إليه فى أغلب الأحيان ؛ وما كانت لتبدل شيئاً من بساطة ملابسها لهذه المناسبة بل كانت تكتفى بوضع زهرة تربطها على شعرها بشريطة زاهية فتزيد فى رونق شبابها . وكان الرقص يثير فيها المرح لأنها كانت تحبه كرياضة بريئة . وكان لها مقعدها الخاص قرب جوقة الموسيقى ، فكانت تتوجه إليه قافزة ضاحكة لتجتمع بصويحباتها ثم تندفع إلى الرقص دون انقطاع . وكنت ألاحظ زوال الكلفة بيني وبينها فى هذه الأوقات ؛ وما كنت أشترك فى الرقص لأننى لم أزل فى مدة الحداد . ولكم خطر لى حين أراها مرحة أن أنتهز الفرصة لأبوح

لها بحبي . ولكنني ما كنت أحاول ذلك حتى أشعر برهبة لا أستطيع مقاومتها فأعود إلى موقفي الجدي . وعزمت مراراً أن أكتب إليها ولكنني مزقت جميع رسائلي قبل أن أصل إلى نصفها .

وفي هذا المساء كنت تناولت العشاء معها فكنت أنظر إلى ما حولي من هدوء وسلام وأفكر في الراحة التي ذقتها منذ تعرفت إليها ، فقلت في نفسي ولماذا أطلب مزيداً على هذا ؟ أفما يكفيني ما أتمتع به ؟ فما أدري لعل الله لم يقدر لي مزيداً . ولعل هذه المرأة تصدني إذا أنا أعلنت حبي لها فأحرم مشاهدتها . وهل إذا قلت لها إنني أحبها سأزيد في سعادتها ؟ وهل أبلغ أنا سعادة أوفر من التي أتمتع بها الآن ؟

وكنت أفكر في هذه الأمور وأنا مستند إلى البيانو فشعرت بحزن شديد يستولي علي ، وبدأ الغسق يمد ظلاله ، فأوقدت شمعة ثم عادت نحو مقعدها فرأت دمعة تتدحرج على خدي فقالت : — مالك ؟ فأدرت وجهي

والتمست عذراً فما عثرت على ما أعتذر به . وحاذرت أن تقع عيناها على عيني فتوجهت نحو النافذة . وكان الهواء يهب بليلا والقمر يطل مرة وراء أشجار الزيزفون حيث كنت رأيتها لأول مرة فحكمني الذهول ونسيت كل شيء حتى وجودها هي ، ورفعت ذراعي نحو السماء فخرجت زفرة كأنها الأنين من أعماق فؤادي

ونهضت من مكانها فإذا هي واقفة ورائي تقول :

— ما هذا ؟

فقلت لها لقد تذكرت أبي وفجيعتي بموته عند ما رأيت هذه الأشجار

واستأذنت بالانصراف وخرجت

وما كنت أعرف سبباً لإصراري على الصمت ، وبدلا من أن أتوجه إلى مسكني ذهبت شارداً في القرية وفي الغاب ، فكنت أجلس حيث أجد مقعداً ثم أنهض فجأة . وما انتصف الليل حتى رأيتني أقترب من بيت مدام بيارسون فرأيتها مطلة من النافذة فارتعشت وأردت أن أنكص على أعقابي فوقفت كالمأخوذ ثم تقدمت على مهل وقعدت تحت نافذتها ولا أعلم إذا كانت عرفتني . ومرت دقائق على وجودي فسمعت صوتها الناعم الرنان يتعالى بنشيد هيام ، وشعرت بزهرة تسقط على كتفي فإذا هي وردة كانت تحلي بها صدرها في المساء ، فرفعتها إلى شفتي فقالت :

— من هنا في مثل هذه الساعة ؟ أهذا أنت ؟

ونادتني باسمي . وكان الحاجز مفتوحاً فنهضت دون أن أجيب ؛ ودخلت الحديقة ، وإذ وصلت إلى وسط المرج توقفت لأني كنت كسائر في المنام لا أعي ما أفعل

ولاحت على باب الدرج وهي تحدق بأشعة القمر وقد بدا التردد على ملامحها . ومشت نحوي فتقدمت إليها وعصاني الكلام فانطرحت جاثياً أمامها وقبضت على يدها

فقالت : اصغ إلي . أنا عارفة . ولكن إذا كان بلغ الأمر منك هذا الحد فيجب أن تذهب . أنت تجيء كل يوم فنرحب بك . أفما يكفيك هذا ؟ وما بوسعي أن أفعل من أجلك ؟أفما بذلت لك صداقتي ؟ ولكم كنت أتمنى لو أنك حافظت على صداقتك لي إلى أمد أطول

***

الفصل السابع

قالت هذا وسكتت كأنها تتوقع جواباً . وإذ رأتني لا أزال متهدماً تحت وقر أحزاني سحبت يدها من يدى على مهل وتراجعت خطوات ثم وقفت لحظة وتولت إلى بيتها

وبقيت على المرج وكنت أتوقع أن أسمع منها ما سمعت ، لذلك لم أتردد فى التصميم على الذهاب . وقفت وفى قلبي غصة وانطلقت أجوب أنحاء الحديقة وأنا أحدق بالمسكن وبنافذة غرفة مدام بيارسون ؛ ثم عدت أدراجى إلى الحاجز وخرجت مغلقاً الباب ورائي ؛ وقبل أن أبتعد وضعت شفتى على القفل وقبلته طويلا

وعند ما وصلت إلى مسكنى طلبت من لاريف أن يعد متاعى لأنني أزمعت السفر فى الصباح ، فدهش المسكين لهذه المفاجأة ، فأشرت إليه بأن ينفذ الأمر دون أى استفهام . فأحضر صندوقاً كبيراً وأخذنا نضع المتاع فيه

وكانت الساعة الخامسة صباحاً وقد لاحت تباشير الصباح فوقفت أسأل نفسى الى أية جهة سأسافر ؟ وما كان خطر لي هذا الأمر حتى الساعة، فاضطربت له ووهى تجلدى ، فسرحت أنظاري على الحقول وما وراءها من آفاق فاستولى الوهن عليّ فاستلقيت على مقعد وتبلبلت أفكاري . رفعت راحتي الى جبيني فاذا هو يتصبب عرقاً . وشعرت بحمى شديدة تهز جميع أعضائى ، فنهضت أطلب فراشى وأنا أستند الى ذراع لاريف . وطرأ عليّ الذهول فما كنت أذكر شيئاً مما جرى لي . ومر النهار وأمسى المساء فاذا بنغمات موسيقية تصل الى أذنى فتذكرت أن اليوم يوم أحد ، فأدركت ان المرقص قد دار فأرسلت لاريف ليرى ما اذا كانت مدام بيارسون موجودة فيه . فعاد لاريف قائلاً : انها ليست هنالك . أرسلته الى بيتها فرأى النوافذ مقفلة ، وقالت له الخادمة ان سيدتها سافرت مع عمتها لقضاء بضعة أيام عند أحد الأنسباء فى مدينة . . . وهى مدينة صغيرة تبعد مسافة ليست قصيرة عن القرية . ودفع اليّ لاريف بكتاب سلمته إياه الخادمة جاء فيه ما يأتى :

« منذ ثلاثة أشهر لم أنقطع عن مشاهدتك ؛ ومنذ شهر اتضح لي أنك أُخذت بالعاطفة التي يدعوها من فى سنك غراماً . وكنت أحسب انك مصرٌّ على كتمان أمرك والتغلب على نفسك . لقد كنت أحترمك وليس لي أن أوجه أية ملامة اليك عما حدث وعلى فشل عزمك .

ان ما تحسبه حباً ليس إلا شهوة ؛ ولا أجهل ان كثيرات من النساء يحلو لهن تنبيه مثل هذه الشهوة وكان الأجدر بهن أن يرضين كبرياءهن باكتساب الاعجاب دون اثارة الشهوات ، ولكنني أرى الآن ان هذه الكبرياء نفسها خطرة وقد أسأت باندفاعى معها تجاهك .

انني أسبقك فى مرحلة العمر بسنوات ، فاطلب منك ألا تحاول الاجتماع بي لأن من يستسلم لضعفه لن يجد بعد ذلك للنسيان سبيلاً . ان ما جرى بيننا لا يمكن العود اليه ولا يمكن أن يُنسى تماماً .

اننى لا أفارقك بلا حزن ، فأنا سأتغيب عدة أيام . فاذا بارحت البلد أثناء غيابي فانني لأشكرك على ذلك كدليل على ما تشعر به نحوي من صداقة واحترام . »

بريجيت بيارسون

الفصل الثامن

وألزمتني الحمى الفراش أسبوعا كاملا . ولما استعدت قواى كتبت إلى مدام بيارسون أقول لها إننى أطيع أمرها ، وكتبت هذا العهد وأنا عازم على القيام به غير أننى مالبثت حتى عدلت عنه .

استقللت عربة فسارت تبعدنى عن القرية حتى إذا أصبحت منها على مسافة ميلين صرخت بالسائق فأوقف السير وترجلت أتمشى على الطريق وأنا معلق أبصارى على البلد الذى قررت مبارحته ، ووقفت تتناز عنى عوامل بلبلت من خاطرى ، فشعرت بأنى أعجز من أن أتابع طريقى وأن مواجهتى الموت فى مكانى أسهل علي من ركوب العربة المولية . وأصدرت أمرى الى السائق بالنكوص وبدلا من الاتجاه نحو باريس انطلق الفرسان يقطعان الابعاد إلى قرية . . . حيث تقيم مدام بيارسون .

وصلت إلى هذه القرية عند الساعة العاشرة ليلا ، وما كدت أنزل فى الفندق حتى طلبت من الخادم أن يدلنى على بيت نسيب بريجيت . فذهبت إليه ، وإذ قرعت الباب قابلتنى الخادمة فقلت لها أن تبلغ سيدتها أن رسولا من قبل دسبريس كاهن القرية يطلب مواجهتها .

وتوارت الخادمة فى الدهليز فوقفت فى الباحة وكان المطر يتساقط ، فتقدمت إلى قبو تحت الدرج أتقى فيه البلل ؛ وبعد فترة نزلت مدام بيارسون تتبعها خادمتها فما رأتنى وأنا فى الظلمة ، فتقدمت إليها ووضعت يدى على ساعدها فرجعت مذعورة ونادت: « ماذا تريد منى ؟ »

وكان صوتها يرتجف ؛ وإذ تقدمت الخادمة بالنور رأيت وجهها ممتقعاً إلى درجة حسبتها نافرة منى لولا أننى ملت إلى الظن بأن ارتياعها ناشىء عن المفاجأة ليس إلا .

ولكنها تمالكت روعها وكررت كلمتها بكل هدوء ، فقلت لها : أطلب إليك أن أراك للمرة الأخيرة . فاننى سأسافر وأترك هذه البلاد فأصدع بأمرك بل أذهب إلي أبعد ماتقصدين . أقسم لك بأننى سأبيع بيت أبى وكل مايملك لأهاجر إلى البلاد الأجنبية ! ولن أنفذهذا القسم إلا إذاقبلت رجائى ، وإلا فاننى أبقى . . لاتخافى . فاننى مصمم على هذا .

فقطبت حاجبيها وأجالت نظرات غريبة إلى ما حولها ثم قالت فى شيء من اللطف : تعال غداً فى النهار فأقابلك . وذهبت .

ذهبت إليها فى اليوم التالى عند الظهر فأدخلتنى الخادمة إلي غرفة قديمة الرياش حيث وجدت مدام بيارسون وحدها فجلست تجاهها وقلت : ـ ما أتيت لأشرح ما أعانى أو لأنكر مافعل حبك بى . لقد قلت لى فى كتابك إن ماجرى بيننا لايمكن نسيانه فما أصدق ماعبرت عنه ؛غير أنك قلت بعد ذلك إن اجتماعنا على ما كنا عليه من قبل أصبح مستحيلا ، وهذا مالا أراك على حق فيه . أنا أحبك وما فى ذلك إهانة لك ،فموضعك لم يتغير مادمت أنت لا تحبيننى؛ فاذا ماعدت إلى الالتقاء بك فلن يكون مدار الأمر إلا على وحدى وحبي لك كافل لك صيانتك .

وأرادت أن تقاطعنى فلم أتوقف بل تابعت قائلا :

ــ بحقك اسمحى لي أن أذهب إلى آخر حديثى. إننى أعلم ولا يعلم أحد أكثر منى أن حبى سيتغلب على كل ما لك من حرمة عندى وعلى كل عهد أقطعه تجاهك على نفسى . وأنا أكرر لك القول بأننى ما أتيت لأنكر عليك مايضمره فؤادى؛ وأنت أعلنت لى أنك عارفة بحبى منذ زمان فما الذى ردني حتى

اليوم عن إعلان هذا الحب لك ؟ إن ما ألزمنى الصمت إنما كان خوفى من فقدك وحرمانى من الاجتماع بك، وهذا الذى حاذرته قد وقع . فأنا أرضى بشرطك على أن توصدى بابك فى وجهى إذا ما بدرت منى بادرة تنحرف عن احترامى الشديد لك . لقد تمكنت من السكون فيما مضى فلن أتكلم بعد الآن . أنت تظنين أننى أحببتك منذ شهر . لا ، لقد أحببتك منذ أول يوم . وأنت عرفت حبى فما دعاك ذلك إلى منعى من مشاهدتك . فاذا كنت فى هذه الأثناء واثقة من أن حرمتك لن تجيز لى أن أسيء إليك فلماذا تفقدينى هذه الثقة اليوم ؟ لقد أتيت مطالباً بهذه الثقة فما الذى ارتكبته تجاهك ؟ ألأننى طويت ركبتى على الأرض دون أن أنبس بكلمة أعد جانياً ؟ وهل عرفت من هذه الحركة شيئاً كنت تجهلينه قبلها ؟ لقد وهنت قواى لأننى كنت متألماً فاصغ إلىّ يا سيدتى . إننى فى العشرين من عمرى ومع ذلك فقد رأيت من الحياة ما أورثنى كرهها حتى غدوت لا أرى لى فيها مقاماً أرتاح فيه ، لا بين الناس ولا فى العزلة والانفراد ؛ وليس لى من مستقر أتنفس الحياة فيه إلا هذا المدى الذى تحده جدران حديقتك . إنك دون سواك الكائن الذى أومن قربه بالله . ولقد كنت أعرضت عن كل شىء قبل أن عرفتك ، فلماذا تريدين حرمانى من الشعاع الوحيد الذى منحنى الله إياه من الشمس ؟ فاذا كان الخوف يدعوك إلى هذا الاحتياط فهل أتيت ما يبرر هذا الخوف ؟ وإذا كان سببه نفرة منى فبأى عمل استحققت هذا النفور ؟ أما إذا كان ما دعا إلى هذه المعاملة إشفاقا على ما احتملته من الآلام فانك منخدعة فى اعتقادك بامكان شفائى . لقد فات إمكان الشفاء منذ شهرين ، ولكننى فضلت أن أحتمل آلامى بقربك . ولست بنادم الآن ولا غداً على هذا مهما فعلت بى الأيام . إن الشقاء الذى أحاذره هو فقدانى إياك . ألق التجارب علىّ فاذا ما بلغ بى الألم حدا لا قبل لى باحتماله فاننى لن أتردد فى الرحيل . وأنت واثقة من خضوعى لاننى مستعد اليوم للسفر تنفيذاً لأمرك .

وتوقفت أنتظر جوابها ، فنهضت من مكانها فجأة ثم عادت فاستلقت على مقعدها وبعد صمت قصير قالت :

— كن واثقاً من أن الأمر ليس على ما تظن .

ولحظت أنها تتلمس فى تذكارها كلمات تخفف من صرامة بيانها فوقفت وقلت لها :

هى كلمة واحدة لا غير أطلبها منك . أنا لا أعرف من أنت فاذا كان فى قلبك رحمة فأنا أشكرك عليها . قولى هذه الكلمة فان حياتى متوقفة عليها .

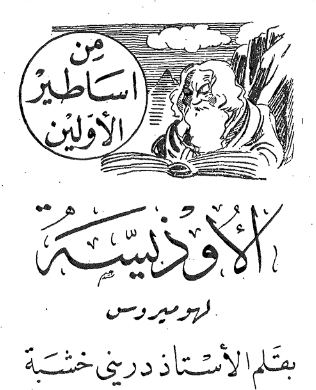
وهزت رأسها بتردد ، فاردفت قائلا : إنك نظنين أننى سأشفى وأنا أسأل الله ألا يحرمك من هذا الظن . إذا أنت طردتنى الآن .

ونظرت إلى الأفق فرأيت العزلة تنتصب أمامى ورأيتنى طريداً شريداً فشعرت بتجمد الدم فى عروقى ونظرت إليها وأنا واقف أعلق عليها أبصارى وأنتظر جوابها وكانت كل حياتى معلقة على شفتيها .

فقالت : اصغ إلىّ . إن قدومك إلىّ كان مجازفة ، فيجب ألا يعلم أحد أنك أتيت من أجلى وسوف أعهد إليك بمهمة تقوم بها ، فاذا ما رأيت السفر فى هذه المهمة طويل الأمد فلك أن تقصره ؛ ولكن إلى حد ، وعلى كل حال أرى سفرك إلى حين سيسكن من اضطرابك

إنك ستذهب إلى « الفوج » ومنها إلى ستراسبورغ وعندما تعود بعد شهر أو على الأصح بعد شهرين تطلعنى على نتيجة مهمتك وعندئذ أتمكن من أن أعطيك جوابى بأصرح مما يمكننى أن أفعل الآن

(يتبع) فيلكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصول السابقة

« بعد أن وضعت الحروب الطراودية أوزارها عاد الأبطال اليونانيون إلى ديارهم ما عدا أوديسيوس ملك إيثاكا ، وكانت زوجته بنلوب من أجمل غادات هيلاس فطمع فى التزوج منها جميع أمراء البلاد ، ولكنها وفت لزوجها ولولدها تليماك فمطلتهم ولكنهم حاصروا بيتها ليرغموها على تخير واحد منهم بعلالها . ولما شب تليماك أبحر إلى بيلوس وأسبرطة ليبحث عن أبيه وقد أخبره ملك أسبرطة أن أباه ما يزال سجيناً عند عروس البحر كاليبسو — وقد غيظ العشاق لما علموا بسفر تليماك فتربصوا له ليغتالوه فى عودته . أما أوديسيوس فقد سافر من عند كاليبسو بأمر كبير الآلهة نريوس على رمث ظل يشق به عباب البحر حتى كاد يغرق بالقرب من شاطىء مملكة شيريا بلاد الفياشيين؛ وقد نجا بعد جهد ولقى ابنة الملك تلعب وتلهو فى ربرب من أترابها فسألها أن تدله على بيت الملك فدلته عليه ، ولقى ثمة الملك ألكينوس الذى أكرم مثواه وأقام له حفلا رياضياً تبجيلا له ، وقد أبدى أوديسيوس فى هذا الحفل من ضروب القوة ما بهر القوم ولكنه بكى بكاء طويلا حينما سمع المنشد الأعمى — مطرب الملك — ينشد ماحدث عن طراودة ويتغنى بشجاعة أوديسيوس؛ فلما سأله الملك من هو وما سبب بكائه أخذ يسرد



هوميروس

قصته منذ غادر طروادة وكيف غزا إزماروس وما كان من أصحابه فى بلاد اللوتوفاجى — أكلة اللوتس — ثم ما كان بعد ذلك من حبسهم فى كهف السيكلوب ونجاتهم منه بعد أن أكل منهم عدداً وفيراً — ثم ما حدث لهم فى أرض المردة الآخرين ، ورسوهم بجزيرة ربة السحر سيرس وكيف سحرت بعض أصحابه إلى خنازير ثم ذهابه لأنقاذهم من سحر هذه الربة وغرامها به ثم نصيحتها له أن يرحل إلى الدار الآخرة للقاء الكاهن الطيبي تيرزياس ليعرّف له عن مستقبله ورجوعه إلى بلاده — وهو فى الفصل التالى يقص كيف قام بهذه الرحلة إلى هيدز وكيف لقى الكاهن ولقى روح أمه . . . الخ »

رحلة أوديسيوس

إلى الدار الآخرة

« وذهبنا إلى الشاطىء فأنزلنا الفلك إلى الماء ، ثم أصلحنا القلاع ونشرنا الشراع ، ووضعنا القرابين على السطح ، وذرفنا من الدموع ما شاءت لنا الهموم والآلام . . . وأقلعنا . . . وأرسلت سيرس

بين أيدينا ريحا رخاء كانت خير معوان لنا وخير رفيق فى سفرتنا الرهيبة هذه، حتى لتركنا لها مقاليد الفلك ، وانسدحنا[1] فوق السطح من غير ما عمل . ولم تزل تجرى بنا طول هذا اليوم حتى إذا أوشكت الشمس أن توارى بالحجاب ، وقارب الظلام أن يلقى أردانه على الكون الهادىء ، أشرفنا على تخوم البحر الأعظم ، حيث تنهض مدينة السمريين التى ينعقد من فوقها دجن[2] كثيف وظلمات داجية ، فلا تنفد إليها شعاعة من نور ، ولا يحييها رسول من شمس هذه الدنيا العاملة الدائبة ، التى يسطع فى سماواتنا ركبها الفخم ؛ فهي أبداً فى ليل متصل مدلهم ، لا تنجاب عنها غواشيه . وهنا ، ألقينا مراسينا ، وأنزلنا الكبش والشاة إلى البر ، وانطلقنا فوق سيف البحر إلى حيث أمرتنا سيرس الإلهية ، وتركنا يوريلوخوس بن بريميد عند القربانين ، وعنيت أنا باحتفار الوهدة فجعلتها ذراعاً فى ذراع ، ثم شرعت أصب تقدمات الشراب باسم الموتي ، فبدأت بمزيج اللبن والعسل المصفى ، وأتبعته بالخمر المعتقة ؛ وثلثت بالماء القراح ؛ ثم نثرت على ذلك كله دقيق الشعير ؛ وصليت من أجل الموتى ، ونذرت — إن عدت إلى إيثاكا — أن أضحي لهم بعجل جسد ذى خوار يكون أسمن وأقوى ما فى قطعاني ؛ أذبحه وأحرقه فى نار مجللة بكل ما يشوق الأشباح من أرواح وطيوب . وخصصت الكاهن الطيبى (تيرزياس) فنذرت أن أضحي له بأحسن كباشي وأعظمها منة . ثم شمرت عن ساعدى ، وذبحت القربانين ، فتدفق الدم فى الوهدة . . . وهنا . . . أهرعت الأشباح من كل فج ، وأقبلت مهطعة كأسراب الدبى . . . يا للآلهة ! ! هنا ، ذرافات العذارى جزعن كأس الحمام فى ميعة الصبا ؛ وهنا ، جموع الشباب اليانع كأفواف الزهر غالهم عادى الردى ؛ وثمة ، عرائس سادرات تسربلن سواد الحزن ، فجأتهن المنايا ليلة الزفاف ؛ وهناك ، أطفال كأكمام الورد لما تفتح قطفتهن أيدى المنون ؛ وعن كثب ، وقفت كواكب المحاربين الذين لطخوا بالدماء وجه البسيطة . . . والآباء والأمهات والأجداد . . . أقبلوا يتدافعون نحو الوهدة صائحين صاخبين ، قاذفين فى قلوبنا الرعب . . . ثم إنى هتفت برجالى فشرعوا يحرقون القرابين ويصلون لرب هذه الدار — بلوتو — ولزوجه ، ورحت أنا أذود الأشباح الهائمة عن دم الضحايا بسيفي أضرب به ههنا وههنا ، حتى لمحت روح رفيقي إلپنور[1] الذى تركناه فى أرض سيرس دون أن نقيم له شعائر الموت لما كنا بسبيله من هموم ... لمحت روح رفيقي فتصدعت ، ثم ذرفت عبرات وعبرات ، وكلمته قائلاً : «إلپنور ! يا صديقي ! كيف وصلت إلى ظلمات هذه الدار الآخرة فى مثل هذه السرعة ، ولم تحملنا إليها سفينتنا إلا بعد لأى ؟ عمرك الله هل سبحت فى الهواء ؟ أم طويت إليها الرحب ماشياً ؟» وانهمرت من عينيه دموع ودموع . ثم قال يجيبني : يا ابن ليرتيس النبيل ، المعروف فى العالمين بالحكمة ودقة الفهم ، لقد أودى بى السكر فسقطت من سطح سيرس فدق عنقى ، وأسرعت من ثمة على درج الظلمات إلى هيدز ... على أننى أستحلفك بكل عزيز عليك ، بينلوب ، بالنار المقدسة

(١) انسدح نام وفرج بين ساقيه .
(٢) السحاب المظلم

(١) الثمل الذى سقط من السطح فوق عنقه (الفصل السابق)

التى تتأجج عن قبسها حياتك ، بولدك الأوحد تلماك أن يجمع ما تبقى من سلاحى وعتادى إذا عدت إلى أرض سيرس ، وإنك إليها لعائد حين ترجع أدراجك من عالم هيدز ، وأن تحرق جثمانى فى نيران هذا العتاد ، ثم تصلى لى ، وتضرع للآلهة من أجلى حتى أقر هنا ، وتهدأ فى تلك الظلمات روحى ، وأن تغرس فوق الكومة التى تشمل رفاتى ، مجدافى العزيز الذى عملت به فى البحر تحت إمرتك ، وفى ذرى سلطانك وقيادتك ، حتى يذكرنى فى العالم الفانى الذاكرون » . ووعدته أنى فاعل . ثم لم أزل أذود الأشباح عن الدماء المتدفقة . وفجأة لمحت بين أرواح الموت شبح أمى ! أمى المحبوبة أنتكليا ابنة الشجاع أوتوليكوس ، التى تركتها يوم يممت شطر طروادة قوية « شابة » غريضة الصبا ريانة الشباب . وما وقعت عينى عليها حتى أجهشت وأجهشت ، ثم انهمرت من مقلتى أحر العبرات . . . ومع ما كان يعتلج به صدرى من الأسى عليها ، فقد ذدتها عن الدماء كذلك ، وبى من الهم لتلك الفعلة ما أوهننى وأضوانى . ثم أقبل بنو طيبة وكاهنها الجليل ، يتوكأ على عصاه الذهبية ؛ وما كاد يحملق فىّ قليلا حتى عرفنى وخاطبنى يقول : « لم غادرت الدنيا الدافئة المشرقة أيهذا التعس ، وقدمت لترى هؤلاء الموتى ولتضرب فى ظلمات هذا العالم العبوس ؟ ! ولكن نح هذا السيف قليلا حتى أجرع من تلك الدماء ، وإنى لمحدثك حديث الصدق عما جئت من أجله . » وأغمدت سيفى ، وانحنى الكاهن فعب من الدماء ما شاء ، ثم نهض فقال لى : « أوديسيوس ! إنك تجتهد أن تعود أدراجك إلى بلادك ، غير أن طريقك إليها محفوفة بالمكاره ، ممتلئة بالعقبات ؛ وإن لك فيها لعدواً لدوداً يتأثرك ، ذلك هو نبتيون الذى أسخطته بما سملت عين ولده السيكلوب (بوليفيم) ؛ على أنك واصل بعد أهوال جسام إلى وطنك ، فانك إن كبحت جماح شهواتك ، أنت ومن معك ، فإنك واصل يوماً إلى شطئان تريناشيا ، وتكون قد أفلت من روع اليم وأرزائه ، فإذا كنت ثمة ، فاحذر أن تمس قطعان رب الشمس السائمة فى الجزيرة بأذى إن كنت جد حريص على العودة إلى بلادك سالماً ، مهما اقتحمت بعد ذلك من عُباب وعِقاب . فإذا مسها منكم أحدٌ بأذى ، فويل لكم جميعاً ! إن فلكك تغوص إلى الأعماق ، ويغرق رجالك أجمعون ؛ أما أنت فتنجو بعد جهد ، وتلتقطك سفينة عابرة وتعود بك بعد شقاء وبلاء ، وعناء أيما عناء ، إلى وطنك الذى ينتظرك فيه ألف ويل وويل ! ستجد قصرك المنيف محتلا بطغمة أشرار من عشاق زوجك الوفية لك ، يُريغون خيرك ويُذبِّحون شاءك ، ويُغْرُون بنلوب بالعطايا والرشى لتختار من بينهم بعلاً لها . . . ولكنك ستنتقم منهم وتنتصف لما قدموا من سوء ، وستبيد جموعهم ؛ فاذا تم لك النصر عليهم فانطلق من فورك إلى الشعب الذى لم ير البحر أحد من أهله ولم يذق الملح أحد منهم قط ، وليكن معك مجذاف عظيم يدلك عليهم فانهم إن رأوه عجبوا من منظره ، وظنوه مذراة مما يذرى به القمح ؛ فاذا عرفتهم فاغرس المجذاف فى أرضهم ، وضح لنبتيون رب البحار بعجل جسد وكبش سمين وخنزير كِناز [1] ، ثم تبتل إليه وأخبت ، وانطلق إلى وطنك ، وضحِّ بأحسن

(١) بالكسر سمين

ما تملك من الشاء والنعم للآلهة ، وصل لكل منها واخشع ، تعش آمناً غانماً ، وتمت بعد حياة هادئة موتة قريرة ناعمة بعد حكم عادل طويل ، وشيخوخة هانئة موفورة . . . هذا من أنباء الحق عرّفتها لك . »

وقلت له : « أنا لا أكذبك يا تيرزياس فيما كشفت لى من أنباء الغيب ؛ ولكن حدثنى جعلت فداك : إنى ألمح شبح أمى جاثماً بالقرب من الدم دون أن تتعطف بكلمة واحدة على ابنها الحبيب . فمن ذا الذى يشعرها أنى ـ أنا ابنها الأوحد ـ قريب منها ! » فقال : « لا أيسر من ذلك يا بني ! فانك إن تركت أيًّا من هذه الأشباح يرشف رشفة من ذاك الدم ، فإنه يتحدث إليك بعد ، وينبئك بما تشاء . » ثم غاب شبح الكاهن فى ظلمات مملكة بلوتو ، وسمرت أنا مكانى أنتظر شبح أمى ، التى ما كادت تتذوق الدم حتى عرفتنى ، وانطلقت تكلمنى فى ترفق وحنان : أى بُنى كيف أتيح لك الضرب فى دياجير هذه الدار الآخرة وأنت ما تزال حياً تدب على رجليك ؟ ! ألا ما أشق هذا على بنى الموتى من أهل الدار الأولى ! إن ههنا أنهاراً من حميم يدور بعضها على بعض ، وقد تطغى على شطئانها بعباب حمىء ، ويحيط بها البحر الأعظم الذى لا تشق أجباله فُلك ، بَله قدم سائر عابر ! أواه ! لقد ذرعت البحار شرقاً ومغرباً فى رحلتك من إليوم ، أنت ومن معك ، ولما تصل إلى إيتاكا العزيزة ! » وسكتت قليلا ، فسألتها : « الظروف القاسية وحدها يا أماه هى التى قادتنى إلى مملكة بلوتو ، ليعرف لى الكاهن الصالح الطيبى تيرزياس ، ولقد تجشمت الأهوال الثقال منذ توجهت مع أجا ممنون للقاء أبناء طروادة . . . وهأنذا منذ ذلك اليوم لم تطأ قدماى أرض وطنى ... ولكن ... نبئينى يا أماه أية ضربة أودت بحياتك الغالية ؟ هل سفك دمك أحد ؟ أم أصابك سهم من ديانا ؟ . . . وحدثينى كذلك عن أبى السند الشيخ ، وعن ولدى تليماك ، وحدثينى عن ملكي وعتادى ، هل غلب عليها أحد من سادات البلاد ، حين يئس الكل من عودتى ؟ وخبرى عن زوجى ، أما تزال تعيش مع ولدى مخلصة وفية لى ، أم تزوجت من أحد أمراء هيلاس ؟ ! » وقال الشبح الكريم يجيبنى : حاشا يابنى ! إنها لاتزال وفية لك ، مبقية على ذكراك ، مقيمة فى قصرك ، وإن تكن تقضى لياليها وأيامها فى حزن ممض عليك ، ودموع جارية من أجلك ، وآلام ماتنتهى لبعدك . أما أملاكك فما تزال لك ، وما يفتأ ولدك يغلها باسمك ، وما يفتأ يغشى الولائم فى أبهة الأمراء ، ورُواء الأماثل العظماء ! ولم يزل أبوك مقيما فى مزارعك ، عزوفاً عن المدينة وبهرجها ، وأرائك القصور وزرابيها ، وهو يقضى أيامه يصطلى نار المدفأة فى الشتاء ، قابعاً على فروته الفقيرة المتواضعة ، غارًّا فى أسماله ومزَقه ، فاذا جاء الصيف ، أو فجأه الخريف ، اعتكف فى ناحية ، وانطرح على الهشيم المسَّاقط من الأشجار ، وراح يعالج من الحزن عليك ، والبكاء بسببك ، مايوهيه ويضنيه ، طوال تلك السنين السوالف ؛ وهكذا هلكت أنا الأخرى من طول التفجع عليك ، والتصدع من أجلك ، فلا ديانا أصمت فؤادى بسهم ولا اعتدى علىَّ معتد . . . بل الحزن وحده

يا أوديسيوس ، والوحشة والضنى ، وطول الوجد ، وذكراك فى كل حين ؛ كل أولئك يابنى اختصر عود حياتى ، وعجّل إلى مماتى ! » وما كادت تفرغ من حديثها حتى أزرفتُ [١] إليها أود لو ضممتها إلى صدرى ، بيد أنى فشلت مرة وأخرى وثالثة ، إذْ كانت تنفتل فى كل مرة من بين ذراعى كما ينفتل الظل . أو كما يسرى الحلم . ولم أطق على ذلك صبراً فقلت لها : « لماذا تأبين علىّ عناقك يا أماه وقد نتداوى به مما بنا من شجو ، ولو كنا هنا فى مملكة بلوتو ؟ ! أم ياترى أرسلت إلى پرسفونيه شبحاً يعبث بى ويتضاحك على ؟ ! » قالت : « أواه يابنى ، يا أتعس بنى الموتى ! أبداً ماحاولت ربة هيدز أن تعبث بأحد ، ولكنها طبيعة الموتى هنا ، فهم لاعضل ولا لحم ولا عظم ، ولا ماذهبت به النار بعد الموت فى الدار الأولى . . . بل هم أرواح تشبه الظلال أو الأحلام فى خفتها وسرعة انفلاتها . . . ولكن هلم فعد أدراجك إلى النور . . . فلقد جاءك من الحق ماهو حسبك » . ثم هممت حولى أشباح العذارى والأزواج من بنات هيدز ، سعين من عند برسفونيه ، فامتشقت سيفى ، وطفت أذودهن فلا يقربن الدم إلا باذنى ، واحدةً بعد واحدة ، لتقص علىّ كل منهن قصة حياتها . ولقد كلمت أول من كلمت تيرو [٢] الحسناء ، كريمة المحتد ، طيبة الأعراق فذكرت لى أنها ابنة سالمون وزوجة كريتيوس بن إيولوس ـ وأن أينپوس إله السلسبيل ، أعذب أنهار الدنيا ـ قد كان مشغوفاً بها حباً ، وأنها طالما كانت تغشى شطئانه النضر ، وخمائله الخضر ، من أجل ذلك . وأنها كانت يوماً تلعب هناك ، فاذا شبح جميل كأنه شبح حبيبها يظهر فجأة ثم يأخذها بين ذراعيه ، ثم يعلو طوفان من اليم فيطويهما معاً ، ثم تفيق فترى نفسها بين ذراعى نبتيون الجبار رب البحار الذى يشا كيها غرامه هو الآخر ويبثها حبه ، ولاعج قلبه ، ثم يهوى بها إلى أعماق مملكته السحيقة ، ويعاشرها كزوجة ، ثم يرسلها بعد أن يوصيها بولديه التوأمين منها ، ثمرة الحب السرمدى المقدس . . . ويغوص فى اليم . وتعود هى إلى بلدها فتضع ولديها العظيمين — وزيرى جوف الأكبر ـ پلياس ونليوس ـ ويشب پلياس ويضرب فى الأرض ، فينتهى إلى مروج إياؤلحوس ويرعى ثمة بهمه وقطعانه ؛ أمانليوس فيسكن البلقع الجدب من أرض پيسلوس . . . وتتزوج من كريتيوس بعد ذلك كله ، فتنجب منه أبناءها الثلاثة الآخرين [١] ، ذوى الشهرة والمجد . ثم كلمت انتيوب ابنة آسوب التى راحت تفخر بما كان بينها وبين جوف — كبير آلهة الأولمب — من هوى وصبابة وحب ، وأنها أنجبت له ولديه العظيمين أمفيون وزيتوس منشئى طيبة العظيمة ذات القلاع والتلاع والأبواب السبعة . . . ولقيت بعدها ألكمينة ابنة أمفتريون حبيبة جوف ، وأم هرقل الحديدى الجبار ... ولقد ذكرت لى أنها تزوجت من كريون بعد ، فأنجبت له ابنته ميجارا ، زوجة ابن

(١) أسرعت

(٢) لم نشأ أن نغفل أحاديث أوديسيوس مع بنات هيدز كما فعل بعض مترجمي هومر ، بل آثرنا إثباتها كما هى ، ونحن نُجل القارىء عن الملال لأن الأوذيسة أعلى من أن تمل

(١) حذفنا هنا الأسماء مؤقتاً

أمفتريون ... ؛ ؛ ... ولقيت الحسناء أبيكاست[1] أم أديبوس الملك التاسع ، الذى تزوجها وهو لا يدرى أنها أمه ، بعد أن ذبح أباه ، فصبت عليه السماء سياط عذابها ، وذهب على وجهه فى الأرض حيران ؛ أما أمه ، فقد سبقت روحها إلى هيذر بعد إذ شنقت نفسها في سقف بيتها ، تاركة ولدها لربات العذاب يسمنه الخسف ويجرعنه الأوصاب . . ولقيت الغادة الحُسَّان خلوريس التى هام بها نليوس ونثر تحت قدميها هداياه ، فأسلست له ورزق منها أبناءه الثلاثة نسطور وخروم وپركل ، الميامين ذوى المجد . . . ثم كلمتنى ليدا زوجة تندار ، أم كاستور الصنديد وپوللكس اللاكم العتيد ، إنهما ينعمان بنعمة زيوس أبى الآلهة ، فهما يتبادلان الموت والحياة ، سنةً فسنةً[2] ، وفاء منهما ومحبة وإعزازاً . . . ؛ . . . ثم رأيت إفيميديا الحبيبة التى فخرت بهيام نپتيون والتى أنجبت له طفليه الجميلين أوتوس وإفالت اللذين بزا بجمالهما كل من دب على وجه الأرض ، باستثناء أوريون . . . يا لهما من طفلين ! ! لقد شبا نيران الحرب على آلهة السماء وحاولا رفع أوسا إلى قمة الاولمب فجعلا پليون على أوسا ركاما ، وقد أوشكا أن يفلحا لولا أن ذبحهما زيوس وولده أپوللو ليكونا عبرة لغيرهما ... فيا للموت ! هذا المعتدي على شبابهما الغض فأذبل الخدود وأذوى الورود !

ورأيت بعد ذلك فيدرا ، ولقيت آريادن المفتان وپروسيز اللعوب ، أما آريادن فقد حملها ثيذيوس من كريت إلى فراديس أثينا . . . ولكن وا أسفاه ! إنها ما تمتعت ثمة قليلا ولا كثيراً ، فقد أصمتها ديانا الغادرة بسهامها ، وشهد فعلتها النكرة باخوس العظيم . . . فى ديا

ورأيت ميرا . . . وكليمنيه . . وإريفيل التاعسة التى قبلت أن تنال ثمن روح زوجها من الذهب

والآن ! ! وقد أوشك الليل أن يلقى علينا طيلسانه فما أحسبنى أستطيع أن أحصى زوجات الأبطال العظام وبناتهم اللائى لقيت فى هيدز ، فحبذا لو أمر الملك فانطلقت لأستريح فى سفينتى . . . أو هنا إن أذن . . . وكلى ثقة فيكم ، وإيمان بالآلهة ، أنكم ستدبرون أمر إبحارى إلى وطنى حتى الصباح . . .

(يتبع) دريني خشبة

(1) جوكستا

(2) وردت عنهما أسطورة رائعة سننشرها قريباً

(طبعت بمطبعة الرسالة والرواية بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧)


الرواية

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة



تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الرابع عشر ٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٦ — ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٧ السنة الاولى

فهرس العدد

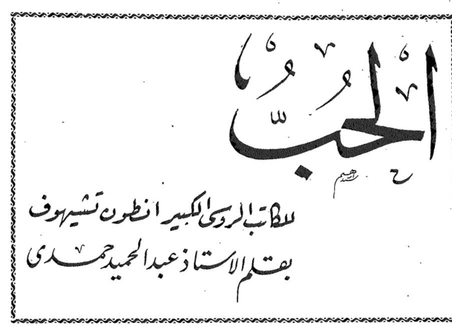
مسابقات الرواية

١ — مسابقة القاتل في مذكرات نائب في الارياف

اشترك في هذه المسابقة قرابة ألف كاتب، ولكن أحداً منهم لم يوفق إلى الحل الذى انتهت به هذه القصة في العدد الماضى من الرواية وهو حفظ القضية لعدم معرفة القاتل. ولذلك لم يظفر أحد بالجائزة

٢ — مباراة الأقصوصة

تجمع لدينا في هذه المباراة ثلاث وسبعون وأربعمائة أقصوصة من مختلف الأقطار العربية. ولما كان الأساتذة الذين ستؤلف منهم لجنة التحكيم قد تركوا القاهرة للاصطياف في أماكن متفرقة، اضطررنا إلى تأجيل تأليف هذه اللجنة إلى أول الخريف. على أننا نستطيع أن نعلن من الآن أن اللجنة ستؤلف من الأساتذة: توفيق الحكيم، محمد فريد أبو حديد، ابراهيم عبد القادر المازنى، محمود تيمور ثم رئيس تحرير هذه المجلة.



« الساعة الثالثة صباحاً ، وليلة إبريل الهادئة الصافية تطل عليّ من نوافذ غرفتي ، غامزة لى بنجومها ، فى رقة وفى لطف ، وما أستطيع أن أنام فانى لجد سعيد !

« وإن كيانى كله من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ليفيض بشعور غريب لايدرك العقل كنهه ، ولست بقادر على أن أحلل هذا الشعور — فى ساعتى هذه — فوقتى لايتسع لهذا التحليل ، وإنى لكسول مغرق فى الكسل ؛ ثم إن هناك إلى جانب ذلك ... ألا بعداً للتحليل ! وهل من الميسور أن يفسر الرجل شعوره وهو يهوى على قمة رأسه ساقطاً من فوق قبة ناقوس ؟ أو هل يستطيع الرجل أن يفسر شعوره فى اللحظة التى علم فيها أنه قد ربح مائتى ألف من الروبلات ؟ أو يكون مثل هذا الرجل فى حال تسمح له بالتحليل ؟ »

***

هذه هي ، على التقريب ، الكلمات التى بدأت بها خطاب غرامي إلى «ساشا» وهي فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها وقعت فى أشراك حبها . لقد بدأت كتابة هذا الخطاب خمس مرات ، وكنت فى كل مرة أمزق الورق وأمحو صفحات كاملة وأعيد كتابتها ، ولقد قضيت فى كتابته من الوقت ما يكفى لكتابة قصة كاملة وتهذيبها . ولم يك ذلك لأننى حاولت أن أزيد الخطاب طولا أو أن أبالغ فى تنميقه وإذكاء نار حماسته ، ولكن لأننى أردت أن أطيل إلى غير نهاية زمن الكتابة بينما أنا جالس في هدوء مكتبي أناجى نفسى بأحلام يومى ، وليلة الربيع الجميلة مطلة عليّ من خلال نوافذى ، ولقد كنت أرى فى ثنايا الأسطر طيفاً محبباً إلى نفسى ، وخيل إليّ أن على المائدة التى أنا جالس عليها أرواحا هى مثلى فى سذاجة سعادتها ، وفى غفلتها ، وفى ابتسامتها الهنية . ولقد مضيت أكتب فى استمرار ، ناظراً إلى يدي التى ما زالت تتوجع فى لذة حيث ضغطتها يد « ساشا » فى آخر مرة التقيت بها . ولما حولت عينى عن يدى تخيلت منظر الشعرية [١] الخضراء على الباب الصغير . فمن خلال هذه الشعرية نظرت « ساشا » محدقة إليّ بعد أن ألقيت إليها بكلمة الوداع ، وعند ما كنت أودعها لم أكن أفكر فى شئ ، ولم يكن مستولياً عليّ غير شعور الاعجاب بقوامها إعجاب كل رجل محترم بامرأة جميلة . ولما رأيت من خلال فتحات الشعرية عينيها

(١) الشعرية شبكة من الاخشاب الدقيقة توضع فى الطاقة أو غيرها لحجب النظر من الخارج إلى الداخل .

الواسعتين تحدقان بى علمت ، فجأة كما لو كان قد أوحى إلى ، أننى وقعت فى شرك الغرام ، وأن الأمر كله قد سوّى بينى وبينها ، وأن كل شىء قد استقر بالفعل فلم يبق علىّ ما أعمله غير إتمام اجراءات شكلية معينة .

وإنه لمن بواعث الابتهاج أيضاً أن يختم الانسان خطاب غرام ، وأن يلبس فى بطء قبعته ومعطفه ، وأن يغادر البيت في هدوء ، حاملا هذا الكنز النفيس إلى صندوق البريد . والسماء فى هذه الساعة خالية من النجوم التى اختفت وحل محلها ، من جهة الشرق ، خيط أبيض طويل ، تقطعه فى أكثر من ناحية ، سحب تعلو سطوح البيوت الصغيرة الحقيرة ، ومن هذا الخيط غمرت السماء كلها بضوء خفيف باهت . . والبلدة نائمة ولكن عربات الماء قد خرجت إلى الطرقات ، وفى ناحية بعيدة يدوى فى الجو صفير أحد المصانع لايقاظ النائمين من العمال . وإنك لعلى يقين من أن تجد إلى جانب صندوق البريد المبلل قليلا بندى الليل ، هيكل أحد البوابين الضخم على كتفيه رداء من جلد الماعز وفي يده عصا يستند إليها ، وهو أشبه ما يكون بالتمثال الجامد لايتحرك ، وما هو بالنائم ولا بالصاحى ولكنه بين الحالتين .

ولو عرفت صناديق البريد كيف يلجأ إليها الناس فى أغلب الأوقات لتعرّف ماينتهى إليه مصيرهم لما رضيت بما يبدو عليها من سيماء التواضع . ولقد كنت على كل حال أقبل فى أكثر المرات صندوق بريدى ، وكنت كلما نظرت إليه ذكرت أن مصلحة البريد هى أعظم النعم التى حظي بها الانسان .

وإنى لأرجو أى إنسان وقع يوماً فى شرك الغرام أن يذكر كيف يسرع الانسان إلى بيته ، بعد إلقائه خطاب غرامه إلى حبيبته فى صندوق البريد ، وكيف يسرع فى الدخول إلى سريره وفي جذب اللحاف حتى يغطى وجهه ، معتقداً الاعتقاد كله أنه متى استيقظ من النوم فى الصباح فستغمره ذكريات اليوم السابق ، وسينظر نظرة تفيض فرحاً وسروراً إلى النافذة حيث يندفع ضياء النهار من خلال ستائرها فى قوة وحماسة .

وإليك الواقع ... فى منتصف نهار اليوم التالي جاءتني خادم « ساشا » تحمل الرد الآتى : « تأكد أننى مفروحة إذا تفضلت وحضرت عندنا اليوم وسأنتظرك . حبيتك س »

ولم تكن فى الرسالة أية علامة من علامات الترقيم ، وهذا الاهمال فى الكتابة ، والخطأ فى كتابة كلمة فرحة ، وما فى الكتاب كله من ضعف فى الانشاء ، وحتى المظروف الطويل الضيق الذى وضعته فيه ، كل هذا ملأ نفسى بشعور من الحنان . ولقد رأيت فى ثنايا خطها المفرطح الحى خيال مشيتها وطريقتها فى رفع حاجبيها إذا ضحكت ، وحركة شفتيها ولكن نفسى لم تقنع بما تضمنه كتابها . . . وأول ما آخذه عليها أن كتب الغرام الشعرية لا يرد عليها بهذا الأسلوب ، وإنى لأتساءل بعد ذلك لماذا تدعوني إلى زيارة بيتها حيث أبقى تحت رحمة أن تتفضل أمها الرشيقة أو إخوتها أو أقاربها المساكين بتركنا منفردين فى الغرفة ؟ فمثل هذا الخاطر لن يدخل رؤوسهم أبداً ، وليس أبغض إلى الانسان من أن يكبح جماح عواطفه لسبب واحد بسيط هو الحياء من تطفل امرأة عجوز نصف صماء أو طفلة صغيرة توجه إليه من الأسئلة المضجرة ما لا يرى معدى من الاجابة عليه . . . لهذا بعثت مع خادم « ساشا » جواباً على رسالتها سألتها فيه أن تتخير أحد الميادين

أو المتنزهات فتضرب لي فيه موعد اللقاء ، ولقد قوبل اقتراحي بالرضا في غير تردد ، فقد ضربت على الوتر الحساس كما يقول المثل .

وفيما بين الساعتين الرابعة والخامسة من مساء ذلك اليوم اتخذت طريقي إلى أقصى حدود المتنزه العام وأكثر نواحيه ازدحاماً بالأشجار وأكثفها نباتاً . ولم يك في المتنزه كله مخلوق واحد ، ولعله كان من الأنسب أن يضرب الموعد في مكان أقرب كأحد الشوارع الكبرى أو تحت إحدى مظلات الحدائق الصغيرة ، ولكن النساء لا يردن أن تكون أعمالهن فيما يتصل بالخيال والغرام بين بين ، فهن يجرين وراء خيالهن الشعرى إلى آخر المدى — فاذا ضربن موعد اللقاء ضربنه في أبعد الأدغال وأوعرها طريقاً ، حيث يتعرض الانسان لخطر الاصطدام بشرير خشن أو سكير معربد .

ولما وصلت إلى المكان الذى تخيرته ساشا وجدتها واقفة وقد ولت ظهرها نحوى ، وكان في مقدورى أن أقرأ في ذلك الظهر كثيراً من الأسرار الشيطانية ؛ ولقد خيل إليّ أن ظهرها ، وخلف عنقها ودثارها ، والنقط السوداء على ردائها ، كل ذلك يقول : صه ! ... كانت الفتاة مرتدية لباساً بسيطاً من القطن ألقت فوقه دثاراً خفيفاً ، ولتبالغ في إحاطة نفسها بجو من الأسرار غطت وجهها بنقاب أبيض ولكى لا أفسد أثر هذا المظهر السحرى تقدمت منها مشياً على طرفى قدمي ، وتكلمت في صوت أدنى إلى الهمس منه إلى الصوت المسموع

ومما أتذكره الآن أنني لم أكن — إلى حد ما — بيت القصيد في هذه المقابلة إذا نحن تناولناها بشيء من التفصيل ، فلم يكن اهتمام ساشا بالمقابلة في ذاتها كاهتمامها بما يحيط المقابلة من الأسرار الشعرية الخيالية ، فقبلاتي وصمت الأشجار المظلمة والمواثيق التي أقطعها على نفسى . . . فلم تمر دقيقة نسيت فيها نفسها ، أو غلبها شيء على ما تفكر فيه ، أو سمحت للمعنى السرى البادئ على وجهها أن يفارقه . والحق أنه لو كان في مكاني في تلك اللحظة إنسان سواى كائنا من كان لما كانت في حضرته بأقل شعوراً بالسعادة منها في حضرتي . وكيف يستطيع الإنسان في ظرف كهذا الظرف أن يعرف إذا كان محبوباً أو غير محبوب ؟ وكيف يستطيع أن يعرف إذا كان الحب هو « الشيء الحقيقي » أو لا ؟

ولقد أخذت « ساشا » من المتنزه إلى بيتى . وليس حضور المرأة التى يحبها الانسان إلى بيته — وهو أعزب — بأقل في نفسه أثراً من الخمر أو الموسيقى . والمألوف في موقف كهذا أن يبدأ الانسان بالكلام في المستقبل ، وهو إذا تكلم في هذه الناحية لم يقف عند حد فيما يبدى من ثقة واعتزاز بالنفس ، وانك عندئذ لتضع المشروعات وترسم الخطط وتتكلم في حماسة عن رتبة القائد وإن لم تكن قد وصلت بعد إلى رتبة الملازم ، وفى الجملة أنك لتهذى بمثل هذا السخف الضارب إلى العلاء ، حتى ليتطلب تصديق سامعك لما تقول أن يكون مغرماً بك إلى أقصى حدود الغرام وأن يكون كذلك جاهلا إلى أقصى حدود الجهل . ومن حسن حظ الرجال أن النساء اللواتى يحببن تعميهن عواطفهن دائما عن رؤية الحقائق فلا يعرفن شيئاً من شئون الحياة . وإنهن لبعيدات جداً عن أن يكذبن ما يسمعن ، وإنهن ليشعرن فعلا بشيء من الرهبة المقدسة فتهرب الدماء من وجوههن ، وتفيض نفوسهن احتراماً ويتعلقن في شره بالكلمات البادية الحماقة والجنون . ولقد أصغت إلي «ساشا» في تنبه شديد

ولكنني لم ألبث أن تبينت على وجهها أثر التفكير الشارد . فهى لم تفهم شيئاً مما قلت لها ، ولم يكن المستقبل الذى تحدثت عنه ليهمها إلا من وجهته الظاهرة فقط . ولقد كنت أضيع وقتي فى عرض خطتي ومشروعاتي عليها . فقد كان همها كله منصرفا إلى معرفة أية الغرف ستكون غرفتها ، وأى نوع من أنواع الورق ستغطي به جدران هذه الغرفة ، ولماذا فضلت البيان [1] المرتفع على البيان الضخم الذى يشغل حيزاً كبيراً من الغرف . . وهكذا . وفحصت فى دقة جميع الأشياء الصغيرة الموضوعة على المائدة ، ونظرت إلى الصور الفوتوغرافية وشمت القنانى ونزعت طوابع البريد القديمة عن المظروفات قائلة إنها تحتاج اليها لأمر ما .

وقالت وقد تجهم وجهها :

« أرجو أن تجمع لى الطوابع القديمة ! ومن فضلك لا تنس ذلك »

ثم وجدت على قاعدة النافذة بندقة فكسرتها بصوت عال وأكلتها .

ونظرت إلى خزانة الكتب وقالت :

« لماذا لا تلصق بطاقات صغيرة على ظهر كتبك؟ »

« لماذا ؟ »

« أوه . . لكي يحمل كل كتاب رقمه . . . ثم أين أضع كتبي؟ فإن لي أنا أيضاً كتباً كما تعلم »

فسألتها :

« أى نوع من الكتب عندك ؟ »

فرفعت ساشا حاجبيها وفكرت لحظة ثم قالت :

« جميع الأنواع . »

ولو أنه خطر لي أن أسألها عن نوع تفكيرها وما تعتنق من المذاهب وعن الاهداف التى ترمى إليها لما كان هناك من شك فى أن ترفع حاجبيها وتفكر لحظة ثم تقول كما قالت أولا :

« جميع الأنواع »

ثم أوصلت ساشا إلى بيتها وصرت أزورها وأغادر دارها فى انتظام ، وقد تمت الاجراءات الرسمية للخطبة ، ووقفت موقف الانتظار حتى يحين يوم الإكليل . ولو سمح لى القارىء أن أحكم على الأمور بمجرد تجاربي الشخصية لقلت إن « الخطبة » من الأمور الموحشة جداً ، فالإنسان في أثنائها يكون أبعد جداً من أن يكون زوجاً أو أن يكون شخصاً غريباً لا علاقة له على الاطلاق بالخطيبة . فليس الرجل فى هذه الحال بالزوج ولا بالرجل الغريب ، فقد ترك إحدى ضفتى النهر ولم يصل إلى الضفة الثانية ، فلا هو بالمتزوج ولا من الممكن أن يسمى أعزب

وصرت — فى كل يوم — إذا وجدت لدى فترة فراغ من العمل قصدت إلى دار خطيبتي . وكنت كلما قصدت إليها حملت معي مقداراً عظيما من الآمال والرغبات والنيات والاقتراحات والعبارات المختارة . وكنت دائماً أتصور ، لشدة ما أشعر به من الضيق والكآبة ، أن الخادمة لا تكاد تفتح الباب حتى أغوص إلى عنقى فى بحر من السعادة المنعشة . ولكن الأمور كانت دائماً تنقلب إلى العكس من ذلك فى الواقع . ففي كل مرة قصدت إلى زيارة خطيبتي وجدت أن أسرتها وكل من يحويه الدار مشتغلين بأمر « الجهاز » السخيف . (وعلى فكرة أقول إنهم كانوا منهمكين بالعمل فى الجهاز منذ شهرين انهماكاً شديداً فجهزوا أشياء تقدر بأقل من مائتى روبل) . . . وهناك يشم الإنسان رائحة المكاوى ، ودهن الشموع ودخانها . وترتطم قدمه

(١) استعملت كلمة البيان بكسر الباء منذ سنوات تعريباً لكلمة بيانو

بكرات الخيط وتحطمها . وكانت الغرفتان الرئيسيتان مشحونتين بالوسائد المصنوعة من التيل وغيره من الأقمشة الناعمة . من بين هذه الوسائد أطل رأس (ساشا) الصغير وبين أسنانها خيط معلق ، ورحب جميع من فى الدار من المشتغلين « بالجهاز » بصيحات السرور والابتهاج ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدخلونى إلى غرفة الاستقبال حتى لا أعطل عملهم وحتى لا أرى ما لا يجوز أن يراه غير الأزواج . ولقد اضطررت ، وإن كان ذلك لا يتفق وشعورى ، أن أجلس فى غرفة الاستقبال متحدثاً مع بيمنيوفنا إحدى قريبات ساشا الفقيرات . وكان القلق والانفعال باديين على ساشا فكانت تمر بى مسرعة ما بين لحظة وأخرى حاملة فى يدها بعض أدوات التطريز أو غيرها من الأشياء التى تضايقني ، وتقول مجيبة على نظراتي المتوسلة السائلة :

« صبراً ، صبراً ، فلن أغيب عنك أكثر من دقيقة ، ولكن انظر كيف أتلفت اللعينة استيبانيدا مشد لباس الزفاف ! »

وبعد أن أنتظر عبثاً أن تفى بما تفضلت به من وعد ، يضيق صدرى وتثور أعصابى وأترك البيت لأتجول في الطرقات مصطحبا عصاي الجديدة التى ابتعتها منذ عهد قريب

وكنت قد تقت مرة إلى اصطحاب خطيبتي فى نزهة على الأقدام أو فى عربة ، فلما وصلت إلى دارها وجدتها واقفة بالفعل مع أمها فى ردهة الدار تعبث بمظلتها مستعدة للخروج . ولقد بادرتنى بقولها :

« أوه . . إننا خارجتان إلى السوق فلا بد من أن نبتاع كمية أخرى من الكشمير ، وأن نغير هذه القبعة »

ولقد شعرت عندئذ كأن صدمة قوية قد أصابت مقدم رأسى . فلقد كنت مضطراً أن أصحب السيدتين إلى السوق ، وإنه لما يهد أعصابى ويضايق صدرى أن أصغى إلى النساء وهن يبتعن شيئاً من الحوانيت ، فيساومن البائع المتنبه محاولات أن يغلبنه . ولقد كنت أخجل عند ما أرى ساشا بعد أن تقلب كمية هائلة من البضائع وبعد أن تنزل بالثمن إلى النهاية الصغرى ، تخرج من الحانوت دون أن تشتري شيئاً على الاطلاق ، أو تطلب من التاجر أن يقطع لها من القماش مالا يزيد ثمنه على نصف روبل

وإذ خرجت خطيبتى وأمها من الحانوت أخذتا وقد بدت على وجهيهما علامات الغضب والجهد ، تتناقشان فى أنهما قد أخطأتا فابتاعتا نوعاً ليس هو المطلوب ، لأن الوردات فى القماش الجديد شديدة السمرة أو ما إلى ذلك

نعم إن فترة الخطبة لمن أثقل الفترات وأجلبها للضيق ، وإنه ليسرنى أن قد انتهت هذه الفترة بسلام

والآن أنا متزوج . وهذا هو المساء قد أقبل ، وأنا جالس فى مكتبي أقرأ أحد الكتب ، وقد جلست ساشا ورائي على الصفة تمضغ شيئاً فى فمها فى صوت مرتفع ، وإن بى لحاجة إلى قدح من البيرة فأقول :

« ابحثي يا ساشا عن فتاحة القنانى ، فقد تجدينها فى مكان ما هنا »

فتهب ساشا من مكانها وتفتش مبعثرة رزمتين أو ثلاثا من الورق ، وتسقط علبة الكبريت على الأرض ، ودون أن تجد الفتاحة تعود فتجلس صامتة لا تنبس بحرف . . .

وتمضى خمس دقائق ثم عشر . . وتبدأ أعصابى تثور من العطش والغضب ، فأقول ثانية :

« أرجو يا ساشا أن تبحثى عن الفتاحة »

فتثب ساشا مرة أخرى وتعود إلى بعثرة الأوراق

القرية مني ، فيؤثر فيّ صوت مضغها واحتكاك الورق تأثير السكاكين إذا حكت بعضها ببعض لإرهافها . فأقوم من مكاني وأبحث بنفسي عن الفتاحة فأجدها آخر الأمر ، وأفتح زجاجة البيرة . فتجلس ساشا بجوار المائدة وتبدأ تحدثني في موضوع طويل لا ينتهي . فأقول :

« يحسن أن تقرأي شيئاً يا « ساشا »

فتتناول كتاباً وتجلس في مواجهتي وتبدأ تحرك شفتيها . . . فأنظر إلى جبهتها الصغيرة وشفتيها المتحركتين وأستغرق في التفكير . فأقول في نفسي :

« لقد قاربت العشرين من عمرها ... فلو قارنها الانسان بفتى في سنها من الطبقة المثقفة فيا لعظم الفارق الذي يجده بينهما ! فسيجد الفتى على شيء من العلم والمبادئ والذكاء »

ولكنني لا ألبث أن أغتفر هذا الفارق اغتفاري جبينها المائل وشفتيها المتحركتين . وإني لأذكر أنني في الأيام الماضية ، يوم لم أكن واقعا تحت سلطان الحب ، كنت أنفر من المرأة إذا رأيت بقعة على جوربها ، أو إذا سمعت منها كلمة بلهاء ، أو لأنها لا تحسن تنظيف أسنانها ، والآن أراني أغتفر كل شيء ! المضغ ، والعبث بالأوراق عند التفتيش عن الفتاحة ، وعدم اتساق الملابس ، والكلام الطويل فيما لا فائدة منه . أغفر ذلك كله على غير شعور أو إرادة مني ودون أن أحمل إرادتي أي مجهود في سبيل ذلك . كأنما أغلاط ساشا هي أغلاطي الشخصية . وهناك كثير من الأشياء التي كانت في الماضي تزعجني وتثيرني قد أصبحت اليوم تبعث إلى نفسي الحنان والاشفاق ، بل إنها لتغمرني أحياناً بعواطف الغرام .

وتفسير هذا التسامح في كل شيء منطو في حبي ساشا ، ولكن ما هو تفسير الحب نفسه ؟ الحق أنني لا أستطيع أن أفسر الحب .

ترجمة عبد الحميد حمدى

شبح كانترفيل

للكاتب الانجليزى اسكار وايلد

بقلم الأستاذ بشير الشريقى

حينما ابتاع السيد هيرام . ب . أوتس الوزير الأميركى قصر كانترفيل الصيفى خطأه الناس أجمعون وقالوا له إنك تتصرف تصرفاً سخيفاً لأن القصر مسكون لا يشك فى ذلك أحد ، حتى لورد كانترفيل نفسه الرجل الطيب النبيل قد رأى أن من واجبه أن يلفت نظر السيد أوتس إلى هذه الحقيقة حينما شرع يبحث معه ثمن القصر .

قال لورد كانترفيل — لقد أهملنا سكنى هذا القصر منذ اليوم الذى أغمى فيه على عمتى العجوز إغماءة لم تشف منها أبداً متأثرة من يدين عظيمتين وضعتا على كتفها وهى ترتدى ثوب الغداء — وأرانى مضطرا أن أخبرك يا سيد أوتس أن أفرادا من عائلتنا عديدين قد شاهدوا الشبح ، كما أن أسقف الأبرشية أوغسطس دامبير قد شاهده أيضاً ، وأنه يعد حادث عمتى المزعج لم تعد تجرأ خادمة من خادماتنا الشابات على المكث عندنا ؛ وكذلك نفت هذه الأصوات المبهمة التى تتصاعد كل ليلة من الممر والمكتبة الرقاد عن عينى ليدى كانترفيل .

فأجاب الوزير : سأدفع ثمن الشبح ياسيدى اللورد كما أدفع ثمن رياش القصر . أنا من عالم يبتاع فيه المال كل شيء ويطغى شبانه على العالم القديم من حين الى حين يصبغونه بالحمرة ويحملون إلى بلادهم أشهر ممثلاتكم وأعظم عقيلاتكم . وانى لأقرر هنا أن هذا الشيء الذى تتحدث عنه إذا عد شبحاً في أوروبا فانا نضعه فى بلادنا فى أحد المتاحف العمومية فى وقت قصير أو فى الطريق ليتفرج عليه الغادى والرائح

قال لورد كانترفيل مبتسما — أخاف أن يكون الشبح موجوداً . إنه معروف منذ ثلاثة قرون : أعنى منذ سنة ١٥٨٤ ؛ ومن عادته أن يظهر قبل موت أى فرد من أسرتنا .

— حسن . هذا هو اعتقاد العائلة فى هذه المسألة ؛ وفى رأيى أنه ليس هناك من شبح ؛ وأحب أن أصارحك ياسيدى أن قوانين الطبيعة لا يمكن أن تكون يوماً من الأيام خاضعة للأرستقراطية الانكليزية

أجاب لورد كانترفيل دون أن يدرك تماما مغزى الملاحظة الأخيرة : إذا كنت لاتكترث بالشبح يقيم فى المنزل فهذا حسن ، ولكن أرجو ألا تنسى أنى حذرتك .

وبعد هـذا الحديث بعدة أسابيع تمت صفقة البيع ؛ وفى مطلع فصل الصيف قصد الوزير وعائلته قصر كانترفيل ، وكانت العائلةمؤلفة من السيدة أوتس وهى التى اشتهرت بجمالها الساحر فى شبابها ، ولا تزال وقد بلغت منتصف عمرها جميلة العينين جذابة الملامح ، ومن ولدها البكر وشنجطون وهو شاب جميل الوجه حقاً ، جميل القد ، جميل الشعر ، دقيق الحس رقيق العاطفة ، ومن الآنسة فرجينا وهى فتاة صغيرة فى سن الخامسة عشرة لطيفة فى عينيها الزرقاوين الواسعتين حرية مستحبة ، وكانت إلى جانب ذلك مسترجلة سابقت فى أحد الأيام وهى راكبة على مهرها لورد بيلتون العجوز فسبقته وكانت حلبة السباق تمتد من تمثال (اشيل) إلى حيث وقف دوق شيشر الشاب الذى أعاده رواده إلى (ايتون) فى الليلة ذاتها باكيا على فراق فرجينا ؛ ثم التوأمان الهيجان وكانا أشهر أفراد العائلة إذا استثنينا الوزير الخطير .

ولما كان قصر كانترفيل يبعد عن محطة (اسكوت) سبعة أميال فقد خاطب السيد أوتس هذه المحطة ليهيئوا لهم عربة ؛ حتى إذا وقف القطار فى (اسكوت) كانت العربة فى انتظارهم فركبوها مغتبطين .

لقد كان مساء جميلا من امساء تموز وقد لطف الجو عبير غابات الصنوبر ، وكانوا يسمعون من وقت لآخر قمرى الغاب يرجع أغانيـه العذبة ، ويلمحون السناجيب الصغيرة ترمقهم من أشجار الزان حين يمرون بها ، والأرانب تندفع مسرعات فى الأجمة وأذنابها البيضاء فى الهواء ثم سرعان ماتختفى عن الأبصار .

ولـكن السماء خجبت فجأة بالغيوم حين وصلوا إلى مدخل القصر الذى غرست الأشجار على جانبيه ، واستولت على الجو سكينة رهيبة ، وطار فوق رؤوسهم سرب عظيم من الغربان ، ثم تدفقت أمطار غزيرة حين وقفت بهم العربة عند باب القصر ؛ وكانت فى انتظارهم على الدرج امرأة عجوز فى ثياب من الحرير الأسود وقبعة بيضاء ومئزر هى السيدة (أمنى) قهرمانة المنزل التى انحنت لهم حين أقبلوا انحناءة الاحترام وقالت بلهجة قديمة أنيقة : (لقد حللتم أهلا) ؛ ثم سارت أمامهم وهم يتبعونها فمروا بالبهو الفخم ثم دخلوا المـكتبة فاذا هي غرفة واطئة طويلة قد سودت جدرها بأخشاب السنديان ، وفى نهايتها نافذة كبيرة قد ثبتت ألواح الزجاج فى ردفتيها ؛ وفى هـذه الغرفة وجدوا الشاى قد هيئ لهم فخلعوا ماتدثروا به من ثياب وجلسوا يديرون أبصارهم في الغرفة والسيدة أمنى قد وقفت رهن إشارتهم .

وفجأة لفت نظر السيدة أوتس بقعة على البلاط حمراء قاتمة قريبة من الموقد فقالت للسيدة أمنى وهى غافلة تماماً عن الجواب : ما أحسب إلا أن شيئاً أريق هنا .

أجابت القهرمانة العجوز هامسة : نعم ياسيدتى لقد أريق دم فى هذه البقعة .

صاحت السيدة أوتس — ياللفظاعة ! أنا لا أطيق أبداً أن أرى بقع دم فى غرفة الجلوس . يجب أن تزال حالاً .

ابتسمت العجوز وأجابت فى نغمـة هادئة مبهمة : إنه دم الليدى ألينورا كانترفيل التي قتلها زوجها السير سيمون كانترفيل فى نفس هذه الغرفة وعند هذه البقعة سنة ١٥٧٥ وقد عاش زوجها بعد

ذلك تسع سنين ثم اختفى فجأة على أثر حوادث غامضة ، ولم تكتشف جثته ، ولكن روحه الشريرة لا تزال تسكن القصر ؛ وكثيراً ما أثارت بقعة الدم هذه استغراب السائحين واستغراب سواهم خصوصاً وهي باقية لا تزول أبداً

صاح وشنجطون أوتس : هذا كله هراء . إن قليلا من هذا الدهان سيزيلها في الحال . وقبل أن تعترض القهرمانة المروعة ركع على ركبته واخذ يفرك بسرعة أرض البلاط بعود صغير كأنه مثال أسود وفى لحظات قليلة لم يبق أثر لبقعة الدم

فأعلن وشنجطون وقد غلبته نشوة الظفر : لقد كنت موقناً أن (دهان بنكرتون) سيجعلها أثراً بعد عين . قال ذلك وهو يجيل بصره في أهله الذين تملكتهم الدهشة ، ولكنه ما كاد يفوه بكلماته هذه حتى أضاء الغرفة وميض خطف الأبصار ، وقصفت الرعود قصفاً مخيفاً هزهم هزاً عنيفاً وأوقع السيدة امنى مغشياً عليها

قال الوزير الأميركي وهو يشعل سيجاره الطويل بكل هدوء : ياله من جو مزعج ! لقد كنت أحسب ان انكلترة هى خير بلد للسياحة فاذا بها مكتظة بالسكان وإذا بالمرء لا يجد فيها جواً معتدلا

صاحت السيدة اوتس — ياعزيزى هيرام ما الذي نستطيع أن نفعله لامرأة أغمى عليها ؟

أجاب الوزير — فنشى عن الذي سبب لها الاغماء ثم داوها به فلا يغمى عليها بعد ذلك . وفى الواقع فقد استيقظت السيدة أمنى بعد لحظات ولكنها كانت ترتعش رعباً ، وقد أخطرت السيدة أوتس بحرارة المفجوع أن يحذر أموراً مروعة لا بد أن تقع فى المنزل .

قالت : لقد شاهدت بعينى رأسى أشياء يقف لها شعر كل مسيحى . وما أكثر الليالي التى لم يغمض لي فيها جفن هلعاً من حوادث مريعة كانت تقع هنا

وعلى كل حال فقد اطمأن السيد أوتس وزوجه هذه السيدة الطيبة القلب وأكدا لها أنهما لا يخافان الشبح ؛ وهى بعد أن توسلت إلى الله أن يحفظ سيدها الجديد وسيدتها وبعد أن بحثت معهما فى زيادة مرتبها سارت وهى ترتجف إلى غرفتها .

* * *

لم تهدأ ثورة العاصفة طوال الليل ولكن لم يقع من الحوادث ما يستحق الذكر .

وفى الصباح نزلت الأسرة لتناول الفطور فوجدوا بقعة الدم المزعجة على البلاط للمرة الثانية . فقال وشنجطون : لا أظن أن الخطأ خطأ (دهان بنكرتون) لأننى جربته فى كل شيء ، بل إنه الشبح . وعاد يمسح البقعة مرة ثانية ولكنها ظهرت فى الصباح الثانى ، وكانت فى مكانها فى صباح اليوم الثالث على الرغم من أن السيد أوتس قد أقفل بنفسه فى المساء باب المكتبة وحمل معه المفتاح .

والآن تجلس الأسرة بأجمعها تتفكه بالأحاديث ، فالسيد أوتس يعترف أنه غالى فى إنكار وجود الشبح ، والسيدة أوتس أعلنت عزمها على الانضمام إلى (الجمعية الطبيعية) ، وأعد وشنجطون رسالة مطولة فى موضوع (ثبات البقع الدموية حين تتصل أسبابها بجريمة) وهكذا زال من بال الجميع فى تلك الليلة كل شك يتعلق بوجود الشبح .

كان النهار مشرقاً دافئاً وقد ركبت العائلة للنزهة فى نفحة المساء البارد ولم يعودوا إلى المنزل إلا فى

الساعة التاسعة ،فتناولوا طعاماً خفيفاً ثم دار الحديث فلم يصل إلى الأشباح من أى طريق . تحدثوا عن ساره برنار كفنانة بلغت قمة الشهرة ، وعن صعوبة الحصول على دقيق وكعك وعسل حتى فى أحسن البيوت الانكليزية ، وعن أهمية بلدة (بوسطن) فى حركة النشاط العالمي ، وعن فوائد نظام (الأمتعة فى سكة الحديد) ، وعن حلاوة اللهجة النيويركية إذا قيست بتشدق لندن ، ولم يرد فى أحاديثهم ذكر لخوارق الطبيعة ولا للسير سيمون دى كانترفيل أصلا . وعند ما دقت الساعة الحادية عشرة قامت الأسرة ، لتنام وبعد نصف ساعة أطفئت الأنوار؛ وبعد قليل استيقظ السيد أوتس على صوت مزعج فى الممر خارج غرفته أشبه بقعقعة الحديد . وكان الصوت يدنو شيئاً فشيئاً فنهض فى الحال وأشعل عود ثقاب ونظر فى ساعته فاذا هى واحدة بعد منتصف الليل. لقد كان فى كامل هدوئه فجس نبضه فلم يجد أثراً لحمى ، ولكن لم ينقطع الصوت المبهم وها هو يسمع معه بوضوح وقع أقدام ، فتدثر بثيابه وتناول من صندوق فى الغرفة قارورة مستطيلة صغيرة وفتح الباب فاذا به يشاهد أمامه على ضوء القمر الباهت رجلا عجوزاً فى مظهر مخيف يقدح الشرر من عينيه الحمراوين وقد انسدل على كتفيه شعر طويل أشيب أشعث، عليه عباءة من طراز قديم قذرة كالحة يتدلى من رسغيه وكاحليه أغلال ثقيلة وسلاسل صدئة .

فبادره السيد أوتس قائلا: ياسيدى العزيز! أرانى مضطراً أن ألح عليك أن تزيّت هذه الأغلال وقد أحضرت لك لهذه الغاية قارورة صغيرة من زيت (تامنى) المعروف بفائدته العاجلة ؛ وإنك لتجد فى اللفافة عدة شهادات على حسن تأثيرها. وها أنا أضع لك القارورة إلى جانب شمعات غرفة النوم، ويسرني أن أقدم إليك ما تحتاجه من مقادير أخرى . قال الوزير هذه الكلمات وهو يضع القارورة على المنضدة الرخامية ثم أغلق باب غرفته وعاد إلى فراشه .

وقف الشبح لحظة جامداً فى غيظ طبيعي ، ثم رمى القارورة على البلاط اللامع فحطمها واندفع فى الممر يصعد أنفاساً ثقيلةوينشر ضوءاً أخضر شاحباً، ولكنه لم يكد يصل إلى أعلى السلم الكبير حتى فتح باب وظهر فيه وجهان صغيران أبيضان ودوت وسادتان فى رأسه ، ولكنه كان مستعجلا لا يقدر على التأخر لحظة فغاب فى باطن الجدار وعمت السكينة القصر .

ولما وصل الشبح إلى غرفة سرية صغيرة فى الجناح الأيسر وقف متكئاً على الحائط أمام أشعة القمر ليسترجع أنفاسه ،وأخذ يفكر ويتأمل في حاله . إنه لم يهن مثل هذه الاهانة قط خلال ثلاثمئة عام مرت متلألئة هادئة . لقد فكر فى الدوقة (داوجر) التى أغمى عليها من الخوف بينما كانت واقفة أمام المرآة فى أشرطتها وجواهرها ، وفى الخادمات الأربع اللاتى أصبن بالصرع لمجرد أن حرق أسنانه لهن من خلال ستائر إحدى غرف النوم ، وفى أسقف الأبرشية الذى أطفأ له شمعته فى إحدى الليالي التى عاد فيها متأخراً من المكتبة فقضى عمره تحت عناية السير وليام شهيد اضطراب عصبي، وفي سيدة (تريمولاك) العجوز التى استيقظت مبكرة في صباح أحد الأيام فشاهدت هيكلا عظيما يجلس فى كرسى كبير إلى جانب النار يقرأ فى مذكراتها اليومية فظلت طريحة الفراش على أثر هذا المشهد ستة أسابيع تحرقها

حمى دماغية ، ولما شفيت لزمت الكنيسة وانقطعت عن (فولتير) الدهرى ذي السمعة السيئة .

لقد استعرض فى مخيلته كل أعماله العظيمة فذكر أيضاً هذا الخادم الذى أطلق على نفسه النار فى بيت المؤونة لأنه أبصر يداً خضراء تنقر على زجاج النافذة ؛ وليدي (استوتفيلد) الجميلة التى اضطرها إلى أن تلف عنقها دائما بعصابة من مخمل أسود لتخفى أثر خمس أصابع طبعت بالنار فوق بشرتها البيضاء والتى انتحرت آخر الأمر بأن أغرقت نفسها فى بحيرة السمك .

ثم بعد هذا كله يأتيه أمريكي متجدد حقير فيقدم إليه بكل برود (زيوت تامنى) ثم يكون فى القصر من يقذف رأسه بوسائد . إن هذا لا يطاق أصلا ؛ وفوق ذلك فان التاريخ لا يذكر أن شبحاً عومل مثل هذه المعاملة ، ولهذا قد صمم على الانتقام وظل حتى الفجر يقلقه التفكير العميق

***

حينما جلست عائلة أوتس لطعام الفطور فى صباح اليوم التالي تناولت حديث الشبح من بعض الوجوه ، فوزير الولايات المتحدة قد أغضبه قليلا رفض هديته وقد قال : إننى لا أضمر للشبح إلا كل خير ، ولا أريد أن يزعجه أحد ، وأرانى مضطراً إلى أن أقول إن رمى الشبح بالوسائد وهو الذى أمضى كل هذا الزمن الطويل في القصر ليس من الذوق فى شيء . إنها لملاحظة دقيقة يؤسفنى أن أصرح بها . وهنا انفجر التوأمان عن هدير من الضحك واستمر الوزير يقول : ومن جهة أخرى فانه إذا كان يرفض حقيقة استعمال زيوت تامنى فسنضطر إلى نزع السلاسل عنه إنه لمن المستحيل أن يتمكن أحدنا من الرقاد ومثل هذه الأصوات لا تنقطع خارج غرف النوم .

وعلى كل فقد قضوا بقية أيام الأسبوع دون أن يزعجهم أحد ، ولكن الشيء الوحيد الذى كان يثير انتباه الجميع هو ظهور بقعة الدم على بلاط المكتبة ظهوراً متوالياً ؛ وهذا لعمر الحق مستغرب لأن السيد أوتس كان يقفل الباب كل ليلة ويحكم إغلاق النوافذ ، وكذلك كان تغير لون بقعة الدم كتغير الحرباء محل ملاحظة وانتقاد ، ففى صباح يكون معتما ، وفى آخر أحمر فاتحا ، ثم أحمر فاقعا ، ثم بنفسجيا ؛ وكان إلى ذلك موضوع تسلية للعائلة ومراهنات حرة كل مساء ، ولكن الصغيرة فرجينا كانت الوحيدة التى لم تشترك فى هذا المزاح ، وكانت تظهر عليها علائم الامتعاض لسبب مجهول كلما شاهدت بقعة الدم حتى أنها كادت تبكي فى صباح أحد الأيام الذى ظهرت فيه البقعة خضراء لامعة .

وفى مساء يوم الأحد ظهر الشبح للمرة الثانية ، وذلك أن الأسرة بعد أن ذهبت إلى الفراش بقليل إذا بها تنتفض فجأة على صوت سقوط جسم ثقيل فى القاعة فاندفعوا جميعا إلى الطابق السفلى فاذا بدرع قديم قد حل من موضعه فى الحائط وسقط على البلاط ، وإذا بشبح كانترفيل قد جلس فى مقعد كبير يفرك ركبته وقد ارتسمت على وجهه صورة النزع الأخير ، فسدد التوأمان فى الحال سهام اللعب التى أحضراها معهما ورمياه بسهمين بمهارة من أمضى وقتاً كبيراً يتمرن على ظهر الأستاذ وهو على اللوح ، بينما رفع وزير الولايات المتحدة مسدسه فى وجهه وطلب إليه على الطريقة الكاليفورنية أن يرفع يديه ، فنهض الشبح يصيح من الغضب صياحاً

وحشياً ونشر حولهم ما يشبه الضباب ، وحينما مر بوشنجطون أطفأ له شمعته فتركهم جميعاً فى ظلام حالك؛ ولما وصل إلى أعلى الدرج وكان قد ملك وعيه واسترجع قواه صمم أن يضحك ضحكته الجنونية التى أتت له فى مناسبات عدة بأحسن الثمرات ، هذه الضحكة التى ابيض لها شعر (لورد ريكر) المستعار ، وأكرهت القهرمانات الفرنسيات الثلاث على ترك الخدمة قبل انقضاء الشهر . ضحك ضحكته التقليدية المرعبة فاهتز لها السقف المعقود القديم، ولكن الصدى المخيف تلاشى حين فتح باب وخرجت منه السيدة أوتس فى جلباب أبيض أزرق وقالت تخاطب الشبح :

- أخشى أن تكون مريضاً ؛ لهذا أحضرت لك قارورة من (اكسير الدكتور روبيلى) فاذا كنت تشكو سوء الهضم فانك ستجد فيها الدواء الشافى.

فحملق فيها الشبح مغيظا ، وما كاد يهم بتحويل نفسه إلى كلب أسود كبير حتى سمع وقع أقدام تقترب منه ، فعدل عن تنفيذ ما صمم عليه واكتفى بأن حول نفسه إلى ضباب باهت ، ثم تلاشى خلال أنين عميق وكان ذلك فى الوقت الذى وصل فيه التوأمان . وحين دخل غرفته ارتمى خائر القوى فريسة لأشد أنواع القلق . أما فظاظة التوأمين وبلادة السيد أوتس وماديته فما يتعب حقاً ، ولكن الذى زاد فى سخطه أنه لم يستطع أن يرتدى الدرع وكان يعلق على ارتدائه آمالا كبارا لأنه يحسب أن منظر الشبح فى الدرع يرعب حتى الأميركى المتجدد؛ وفوق ذلك فإن الدرع درعه قد ارتداه فى مبارزة (كيت لورث) فكان فيه مثال البهاء والجلال فما باله الآن قد انهد تحت ثقل الصدرية النحاسية الضخمة والخوذة الفولاذية ؟

وقد ظل بعد ذلك عدة أيام يشكو المرض الشديد ملازماً غرفته لم يخرج منها إلا ليطبع بقعة الدم فى مكانها الخاص ، ولكنه شفى أخيراً بفضل عنايته الشديدة بنفسه وصمم على تجربة ثالثة يفزع بها وزير الولايات المتحدة وأسرته وقد اختار يوم الجمعة ١٧ أغسطس موعداً لظهوره منفقاً معظم هذا اليوم فى النظر إلى خزانة ثيابه ؛ وأخيراً قر رأيه على قبعة متهدلة ذات ريشة حمراء ، وعلى كفن مكشكش عند الرسغين والرقبة، وعلى مدية ذات حدين. وفى المساء هطلت أمطار غزيرة وعصفت الرياح عصفاً شديداً اهتزت لها أبواب القصر القديم ونوافذه فكان الجو تلك الليلة هو الجو الذى يرغبه الشبح ؛ وكانت خطة عمله : أن يجعل طريقه إلى غرفة وشنجطون أوتس رأساً فيرطن عند أقدامه وهو راقد فى سريره . إنه يحمل لوشنجطون حقداً من نوع خاص لاعتقاده أنه هو الذى اعتاد أن يزيل كل مرة بقعة الدم المشهورة بواسطة دهان (بنكرتون) ، وبعد أن يترك هذا الشاب فريسة للفزع الأكبر يتقدم إلى الغرفة التى يشغلها وزير الولايات المتحدة وزوجه فيضع يداً دبقة على جبين السيدة أوتس ، ثم يهمس فى أذن زوجها المرتجفة أهول أسرار المقابر ؛ أما فرجينا الصغيرة فانه لم يقطع فى شيء يتعلق بها لأنها لم تؤذه أصلا وكانت جد مؤدبة ولطيفة ، وقد اعتقد أن أنات قليلة يصعدها من خزانة الثياب هى فوق الكفاية ، حتى إذا لم تستيقظ لمس لحافها بأصابع مشلولة. أما ما يختص بالتوأمين فقد صمم على أن يعطيهما درساً أى درس؛ وأول ما سيفعله بهما هو أن يجلس على صدريهما ليخنق أنفاسهما، ومن ثم يقف بين فراشيهما المتقاربين فى صورة جيفة خضراء مثلجة، وأخيراً يخلع كفنه ويحبو حول الغرفة

بعظامه الصفراء المبيضة وعينه الواحدة الكروية المائرة . وعندمنتصف الساعة الحادية عشرة ونصف سمع حركة الأسرة ذاهبة إلى الفراش وظل بعد ذلك برهة تزعجه قهقهات التوأمين الرنانة، ولكنهم أخلدوا إلى السكينة جميعا عند حوالى الساعة الحادية عشرة وعند منتصف الليل انبرى لهم . وكان البوم ينقر على زجاج النافذة والغربان تنوح من شجرة السنديان العتيقة، والرياح تئن حول المنزل كالروح التائه، ولكن أسرة أوتس كانت تنام ملء أجفانها غافلة عما يخبيء لها القدر ؛ وكان بامكان الشبح أن يسمع غطيط وزير الولايات المتحدة يرتفع خلال المطر المنهمر والصواعق القاصفة .

انسل الشبح من الخزانة وعلى فمه الصلب المتغضن ابتسامة شيطانية، وحينما مر بشرفة النافذة خبأ القمر وجهه فى الضباب وأظهر الليل البهيم اشمئزازه ؛ وفجأة خيل إليه أنه يسمع شخصاً يصيح فوقف ولكن لم يكن هذا الصياح إلا نباح كلب آت من مزرعة قريبة فاستمر فى سيره يقذف شتائم القرن السادس عشر الغريبة ويلوح بخنجره فى الهواء دائماً أبداً ؛ وأخيراً بلغ زاوية الممر المؤدى إلى غرفة وشنجتون السيء الحظ فوقف هناك لحظة والرياح تعبث بغدائره . عندئذ دقت الساعة ربعاً بعد منتصف الليل فأحس أن قد آن الأوان فضحك فى سره وتحول إلى الزاوية ، ولكنه ما كاد يتقدم خطوة حتى تراجع إلى الوراء يولول من الخوف وخبأ وجهه الأبيض بين يديه الطويلتين العظميتين فقد وقف أمامه شبح جامد كالتمثال المنحوت مخيف كأحلام مجنون، وكان أصلع الرأس مصقوله، مستدير الوجه ضخمه، تقلب سحنته إلى كشرة دائمة ابتسامة مرعبة، وينبعث من عينيه أشعة ضوء قرمزى، وكأن فمه بئر واسعة من نار قد وضع على صدره لوحة عليها كتابات غريبة ورفع فى يده اليمنى حساماً قصيراً من فولاذ .

لقد كان خوفه شديداً لأنه لم يسبق له أن شاهد شبحاً من قبل فألقى نظرة ثانية خاطفة على الشبح المرعب ثم تراجع هارباً إلى غرفته يتعثر في أذيال كفنه الطويل، وحين وصل إلى جناحه الخاص رمى نفسه على سرير صغير وخبأ وجهه باللحاف ؛ وبعد زمن تمالك شبح كانترفيل الشجاع نفسه فصمم أن يعود حين يطلع النهار ويكلم الشبح الآخر. وعلى ذلك ما كاد الفجر يلمس التلال بأصابعه الفضية حتى عاد إلى المكان الذي وقع فيه نظره لأول مرة على الشبح الهائل تدفعه فكرة خطرت متأخرة على باله أن شبحين خير من شبح واحد وأنه سيتمكن بفضل صديقه الجديد من التغلب على التوأمين . وحين وصل إلى المكان وقع نظره على مشهد مزعج . لقد حدث للشبح حادث ، فقد انطفأ النور الذى كان ينبعث من عينيه الجاحظتين وسقط من يده الحسام الفولاذى اللامع؛ ثم ما باله يتكيء على الجدار فى وضع متخاذل؟ فاندفع إلى الأمام وقبض على ساعديه بيدين مضطربتين فسقط الرأس وتدحرج على البلاط ، وإذا بشبح كانترفيل يعانق سريراً مجللا بنسيج أبيض قد ارتمى عند أسفله ساطور مطبخ ومكنسة ورأس لفت كبير، فلم يستطع أن يفهم شيئاً من هذا التغير العجيب ؛ وبسرعة المحموم أنشب مخالبه فى اللوحة فاذا به يقرأ على ضوء الصباح الباهت هذه الكلمات المخيفة :

شبح ب . أوتس

هو وحده الشبح الحقيقي الطبيعي

احذروا من التقليد

لقد انكشف له كل شيء . إنه خدع وهزم وغلب على أمره فشد على لثتيه ، وعادت نظرة كانترفيل القديمة إلى عينيه ، وأقسم رافعاً فوق رأسه يديه المتغضنتين على أسلوب المدرسة القديمة الغريب أنه عند ما يصيح الديك صيحته الثانية لتكتبن وثائق الدم وليخطرنّ القتل في القصر بخطى موزونة . وما كاد ينتهي من هذا القسم العظيم حتى صاح الديك فضحك ضحكة طويلة خرساء مرة وانتظر الصيحة الثانية . لقد انتظر ساعة أثر ساعة ، ولكن الديك لسبب ما لم يعد للصياح . وأخيراً بلغت الساعة السابعة ونصفا وحضرت القهرمانة فاضطره حضورها إلى أن يضع حداً ليقظته ، فعاد يسير على حذر إلى غرفته يفكر في أمله الضائع ورجائه الخائب . ولما دخل غرفته استشار عدة كتب تبحث في الفروسية القديمة وكان بها مغرماً فاذا به يجد الديك يصيح صيحته الثانية عند كل قسم من نوع قسمه . فتمتم قائلا : الويل لهذا الخبيث الغبي ! سيأتي اليوم الذى أمزق فيه حلقه بسهمى . ثم استراح إلى تابوت رصاصى رحب فمكث فيه إلى المساء .

* * *

أصبح الشبح فى اليوم الثانى مريضاً تعباً ، فقد أخذ يظهر عليه أثر الاضطراب المزعج الذى لم يفارقه خلال الأسابيع الأربعة الأخيرة . لقد توترت أعصابه فاذا به يجفل من ألطف الأصوات ، ولزم غرفته لم يغادرها طيلة خمسة أيام . وأخيراً قر رأيه على التخلي عن بقعة الدم التى اعتاد أن يطبعها على بلاط المكتبة ، فاذا كانت أسرة أوتس لاترغبها فمن الواضح أنها لاتستأهلها . إنهم فى هذا الوجود فى مستوى وضيع لا يستطيعون معه تقدير قيم الأشياء الرمزية ولا فهمها .

لقد كان من واجبه المقدس أن يظهر فى الممر مرة فى الأسبوع وأن يرطن من النافذة الكبيرة ذات الشرفة يوم الأربعاء الأول والثالث من كل شهر ، فلم يجد طريقة شريفة تخلصه من تعهداته هذه . حقيقة أن حياته شر فى شر ، ولكنه كان من ناحية أخرى أميناً على كل مايتصل بخوارق الطبيعة ، وعلى هذا فقد ظل أسابيع ثلاثة يجتاز الممر كعادته يوم السبت من كل أسبوع مابين منتصف الليل والساعة الثالثة محاذراً كل الحذر أن يسمعه أو يراه أحد ؛ وفى كل مرة كان يخلع نعليه ويسير على رؤوس أصابعه مرتديا عباءة فضفاضة من المخمل الأسود ، وكان يكثر العناية بتزييت سلاسله بزيوت (تامنى) . وهنا أرانى مضطراً أن أصرح أن الشبح لم يوافق على قبول هذا النوع الأخير من التحفظ إلا بعد مشقة عظيمة . فقد تسلل فى إحدى الليالي والأسرة تتناول طعام المساء إلى غرفة نوم السيد أوتس وحمل معه القارورة . لقد شعر أول الأمر بشيء من المذلة ولكن سرعان ما طوى هذا الاختراع وأدرك أنه أفاده إلى حد ما .

وعلى الرغم من كل شيء فانه لم يترك وشأنه وهم لا يزالون يزعجونه ويقلقونه فقد نصبوا حبالا على طول الممر وعرضه كان يتعثر بها في الظلام وقد سقط مرة سقطة مؤلمة وهو فى زي (اسحق الأسود) متزحلقاً بالسمن الذى فرشه له التوأمان من مدخل غرفة الصور إلى أعلى الدرج ، فأغضبه كثيراً هذا

التحرش الأخير فصمم ليقوم بعمل جديد يسترجع به اعتباره ومركزه الاجتماعى فيزور الصغيرين السفيهين فى الليلة الآتية فى زيه المشهور (روبرت الطائش) . إنه لم يظهر فى هذا الزى منذ سبعين عاما أى منذ أن أخاف به الليدى (برباره مودش) الجميلة فاضطرت أن تفسخ خطبتها من جد لورد كانترفيل الحالى وتفر مع (جاك كاتيلون) الظريف معلنة أنه لايوجد فى العالم من يكرهها على الاقتران من أسرة تسمح لمثل هـذا الشبح المخيف أن يخطر فى القصر عند الغسق . مسكين جاك ! لقد قتل على أثر ذلك فى مبارزة نشبت بينه وبين لورد كانترفيل ثم ماتت بربارة محطمة القلب فى بلدة « تنبردج » قبل نهاية العام وكان ذلك من توفيق الشبح .

كانت عملية التنكر جد متعبة إذا جاز لنا أن نستعير هـذا التعبير المسرحى لندل به على ما يتصل بأحد المظاهر الغامضة الخارقة للطبيعة ، فقد قضى ثلاث ساعات وهو يستعد ؛ وأخيراً كان كل شيء على أحسن حال فارتاح كثيراً لمظهره ؛ غير أن (حذاء) الركوب كان واسعا قليلا ولم يجد إلا مهمازاً واحداً ، ولكنه كان على العموم راضيا كل الرضاء. وعند الساعة الواحدة وربع انسل من خزانة الثياب وزحف إلى الممر ، وحين بلغ الغرفة التى يشغلها التوأمان وكانت تسمى غرفة النوم الزرقاء لكثرة ما فيها من الأشرطة والصور الملونة بهذا اللون ، وجد الباب منفرجا قليلا ولكى يجعل دخوله مؤثراً انقض على الباب وفتحه على مصراعيه ، ولكنه لم يشعر إلا بجرة ماء ثقيلة قد صبت عليه فغسلت كل جسمه ، ثم سمع رنين ضحكات عالية آتية من الفراش . لقـد هزت الصدمة كيانه المتوتر هزة جعلته يفر راكضا إلى غرفته بكل ما أوتى من قوة ، وإذا به فى صباح اليوم الثانى طريح الفراش يشكو الزكام القوى ويتسلى عن همه أن رأسه لم يكن معه فى هذا الحادث وإلا كانت العاقبة وخيمة جداً

لقد قطع الآن كل أمل من تخويف هذه الأسرة الأميركية الفظة الغليظة القلب وأقنع نفسه بالزحف حول الغرف وفي الممرات بخف خفيف وبملحفة حمراء خشنة يلفها حول عنقه تقيه البرد ، وبغدارة صغيرة يصد بها هجوم التوأمين .

وفى اليوم التاسع عشر من سبتمبر جاءته آخر صدمة ، فقد هبط الطابق السفلى إلى البهو العظيم موقناً أنه سوف لا يجد هنالك ما يزعجه معللاً نفسه بتسجيل ملاحظات هجوية على صورتى الوزير الأميركي وزوجه اللتين حلتا محل صوز عائلة كانترفيل ، وكان يرتدي كفناً بسيطاً طويلا قد طرز بطين المقبرة وربط شدقه بقطعة مستطيلة من الكتان الأصفر ، ويحمل قنديلاً صغيراً فى يد وفأس سادن الكنيسة فى يد ، وكانت الساعة تبلغ الثانية والنصف صباحاً والكل كما كان يتصور نيام ؛ فبينا هو متجه نحو المكتبة ليرى هل بقي أثر لبقعة الدم وإذا شخصان يقفزان عليه فجأة من زاوية مظلمة ويلوحان ساعديهما حول رأسيهما وينفخان فى أذنه (بو) ، فاحتاطه الفزع واندفع نحو السلم ولكنه وجد وشنجطون ينتظره هنالك ومعه محقن الحديقة . ولما رأى نفسه محاصراً بأعدائه من كل جانب ومكرهاً على التسليم غاب فى الموقد الحـديدى الكبير الذى كان لحسن حظه غير موقد، وكان عليه أن يجعل طريقه إلى غرفته خلال معاقد الدخان فوصل الى غرفته فى حالة يرثى لها من الوسخ والاضطراب واليأس

وبعد ذلك لم يشاهد الشبح ثانية في حملة ليلية وقد ترقبه التوأمان فى مناسبات عدة ولكن بلا جدوى . ومن الواضح أن شعوره المجروح هو الذى منعه من الظهور ؛وعندئذ عاد السيد أوتس إلى تحرير كتابه العظيم (تاريخ الجماعات الديمقراطية) وهيأت السيدة أوتس سمكة مجففة عجيبة أدهشت أهل المقاطعة،وأخذ الأولاد يلعبون ألعابهم الأميركية الوطنية، وكانت فرجينا تركب مهرها وتسير فى أزقة المدينة برفقة دوق شيشر الشاب الذى عاد من مدرسته ليقضى أيام العطلة فى قصر كانترفيل

لقد ظن الجميع أن الشبح قد رحل عن القصر فكتب السيد أوتس إلى لورد كانترفيل كتاباً بهذا المعنى ، فجاءه الجواب يعلن فيه اللورد سروره العظيم بهذه الأخبار ويرسل أجمل تهانيه إلى زوج الوزير الصالحة . لقد خدعت عائلة أوتس؛ فالشبح لايزال فى القصر ، وهو وإن كان مريضاً لا يستطيع أن يترك الأمور تسير سيرها الهادئ الطبيعى خصوصاً بعد أن سمع أن بين الضيوف دوق شيشر الشاب الذى سبق أن تراهن عمه العجوز لورد (فرنسيس استيلتون) مع الكولونيل (كابورى) بمائة جنيه على أنه يستطيع أن يلاعب شبح كانترفيل النرد ؛ وقد وجدوه فى صباح اليوم الثانى طريح أرض الغرفة مشلولاً شللاً لا أمل فى شفائه منه؛ وهو وإن عاش بعد ذلك إلى أن بلغ أرذل العمر فقد ظل لا يستطيع أن يتكلم سوى كلمة واحدة (دوشيش) ولهذا فقد كان طبيعاً أن يهتم الشبح بالظهور بمظهر الذى لم يفقد نفوذه على أسرة (استيلتون) التى تربطه بها أواصر المصاهرة

وعلى ذلك فقد استعد أن يظهر لحبيب فرجينا الصغير فى دوره المشهور (الراهب مصاص الدماء) هذا الدور الذى بلغ من فظاعته ان ليدى (استارتاب) حينما شاهدته فيه فى مساء عام ١٧٦٤ الجديد المشؤوم أخذت تصرخ صراخا حاداً مزعجاً انتهى بها إلى داء السكتة ثم ماتت فى ثلاثة أيام بعد أن حرمت كانترفيل من إرثها وكان أقرب أقربائها ، وأوصت بكامل ثروتها إلى صاحب (صيدلية لندن) . ولكن خوفه من التوأمين منعه في آخر لحظة من الخروج من غرفته فنام الدوق الصغير بسلام فى غرفة النوم الملكية تحت المظلة المزخرفة يحلم بفرجينا

وبعد ذلك بعدة أيام ركبت فرجينا وفارسها إلى روضة (بروكلى) فاذا بها تدخل فى السياج فتمزق ثيابها ؛ وفى عودتها قررت أن تدخل القصر من الباب الخلفى حتى لايراها أحد ، وبينا هي مسرعة إلى غرفتها مرت بغرفة الثياب فاتفق أن كان بابها مفتوحاً فلمحت فى داخلها شخصاً ظنته خادمة والدتها فدخلت عليها لتأمرها أن تخيط لها ثوبها فاذا بها تفاجئ شبح كانترفيل نفسه ، وكان يجلس إلى جانب النافذة يراقب الأشجار الصفراء الباهتة صاعدة فى الهواء والأوراق الحمراء ترقص مجنونة عند مدخل القصر ، ويسند رأسه بيده فى وضع متخاذل كئيب

لقد ملأ منظر الشبح البائس المخزول قلب فرجينا الصغيرة شفقة فاذا بها لا تفر إلى غرفتها وتغلق خلفها الباب بل تصمم ان تدخل عليه لتؤنسه وتعزيه وقد بلغ من خفة خطواتها وثقل آلامه أنه لم يشعر بوجودها إلا حين كلمته

قالت : إنى لأتألم لك ، ولكن إخوانى ذاهبون إلى إيتون غداً وحينئذ لا يعكر أحد عليك صفوك

أجاب الشبح وهو ينظر مشدوها إلى هـذه الفتاة الجميلة الصغيرة التى جرؤت على مخاطبته : إن من العبث أن تطلبى إلى صفو العيش . من العبث حقاً، فأنا مكتوب علىأن أقرقع فى أصفادى ، وارطن من ثقوب المفاتيح ، وأخطر فى المساء ، فكيف تطلبين منى أن أريح نفسي من أمور لم أوجد إلا من أجلها؟

— ليس من معنى لهذا الوجود . وفوق ذلك فأنت تذكر أنك اقترفت جريمة فظيعة . لقد أخبرتنا السيدة (إمنى) فى اليوم الأول من وصولنا أنك قتلت زوجتك

قال الشبح محتداً : حسن ! إنى أعترف بذلك ولـكن الحادث كان عائلياً بحتا وليس له علاقة بأحد

أجابت فرجينا : إنه لأجرام أن تقتـل أى شخص

— إنى لأكره الشدة الرخيصة فى التأديب . لقـد كانت زوجتى جد مهملة فهى لا تحسن يوماً تنشية قبائى ولم تكن تعرف شيئاً عن الطبخ . لماذا؟ أنا مخبرك ؛ لقد اصطدت يوماً غزالا من أجمة (هوجلى) أتدرين كيف وضعته على مائدة الطعام ؟ ولـكن لا ليس من الضروري الآن . لقد انتهى كل شيء ، وإنى لا أحسب أنه يجمل باخوانك أن يميتونى جوعاً لأنى قتلتها

— يميتونك جوعاً ! آه يا سيدى الشبح ! لا بل أريد أن أقول السير سيمون ! هل أنت جائع ؟ إن فى صندوقي (سندويتش) أتحب السندويتش ؟

— لا ، أشكرك . إنى لا آكل شيئاً الآن على كل حال . هذا لطف عظيم منك . وإنك لأفضل من بقية أسرتك الفظة الغليظة البربرية الغادرة

— صاحت فرجينا واقفـة على قدميهـا : اسكت ! إنك أنت الفظ الغليظ البربرى الغادر . ألست أنت الذي سرقت مساحيق من صندوقي لتطبع وتزخرف فى المكتبة بقعة الدم ؟ لقد أخذت بادىء ذى بدء اللون الأحمر بأجمعه وأخذت معه اللون القرمزى وبذلك لم يعد باستطاعتى أن أتزين بألوان الغروب؛ ثم أخذت اللون الأخضر الزمردي والأصفر وأخيراً لم تترك لى سوى اللون النيلي والأبيض الصينى ؛ وهكذا لم يعد فى مقدورى أن أتزين إلا بألوان ضوء القمر، هذه الألوان التى لا تسر الناظر والتى ليس من السهل اتقانها . إننى لم أشكك على الرغم من ألمى الشديد . وقد أغضبنى أكثر من كل شيء أن تجعل بقعة الدم خضراء قرمزية ؛ فهل سمع أحد أن دماً يمكن أن يكون أخضر قرمزياً ؟

قال الشبح متلطفاً : فى الواقع أنك على حق ، ولـكن ما الذى أصنعه ؟ إنه لمن الصعب جداً أن يحصل المرء على دم حقيقى فى هذه الأيام ؛ وما دام أخوك قد أخذ على عاتقه إزالة البقعة (بدهان بنكرتون) فاني لم أجد بداً من أخذ مساحيقك . لقد كان دم أسرة كانترفيل أزرق وأشد زرقة من كل دم فى انـكلترة ، ولـكنى أعلم أنـكم معاشر الاميريكيين لا تكترثون بالأشياء التى بهذا اللون .

— إنك لا تعرف شيئاً عن ذلك ؛ وأرى أن توسع مداركك وتثقف عقلك ؛ وأعتقد أن والدى لا يمانع فى سفرك إلى أميركا . انك ستلاقى نجاحا عظيما فى نيويورك ؛ وإنى لأعرف جماعة هنالك يدفعون الف دولار لو يكون لهم جد ، ويدفعون أكثر من هذا

المبلغ بكثير لو يحصل لهم شرف الانتساب إلى عائلة بين أفرادها شبح .

— ما أظن أنى أسر فى أمريكا .

قالت فرجينا مقرعة : طبعاً لأنه لا يوجد عندنا خرائب ولا تحف .

أجاب الشبح : لايوجد عندنا خرائب ولا تحف ؛ عندكم أسطولكم وعندكم بحارتكم .

— فلتصبح على خير ! أنى ذاهبة لأرجو والدى أن يحصل للتوأمين على إجازة أسبوع آخر .

فصاح الشبح : أرجو ألا تذهبي أيتها الآنسة فرجينا . إننى وحيد وجد تعيس ولا أدرى ماذا أصنع . إنى أحب أن أذهب لأنام فلا أستطيع .

— هذا غير معقول . يكفى أن تذهب إلى الفراش وتطفىء الشمعة . إنه لمن الصعب جداً أحيانا أن تظل يقظاً وعلى الأخص فى الكنيسة ولكن ليس فى النوم صعوبة .

قال الشبح متألماً : إننى لم أنم منذ ثلاثمائة عام ، فانفتحت عينا فرجينا الزرقاوان الجميلتان استغراباً ! لم أنم منذ ثلاثمائة عام وكم أنا فى عذاب

إستولى الحزن على فرجينا وارتعشت شفتاها الصغيرتان ارتعاش أوراق الورد فدنت نحوه وتفرست فى وجهه المتغضن وتمتمت : مسكين مسكين أيها الشبح أليس لك من مكان تنام فيه ؟

فأجابها فى صوت هادىء حالم : هنالك بعيداً وراء غابات الصنوبر يوجد حديقة صغيرة ينمو فيها العشب طويلا عميقاً ويغنى العندليب طيلة الليل ، طيلة الليل يغنى ، والقمر الرزين الفضى يتطلع من عليائه ، وشجرة الصفصاف تبسط سواعدها الطويلة القوية فوق الراقدين

أظلمت عينا فرجينا بالدموع وخبأت وجهها فى يديها ثم قالت متمتمة :

— إنك تعنى حديقة الموت

— نعم الموت ! يجب أن يكون الموت جميلا كل هذا الجمال . جميل أن يستريح الانسان في الأرض الناعمة السمراء والعشب يتموج فوق رأسه مصغياً للهدوء الشامل . جميل ألا يكون لنا أمس ولا غد ! جميل أن ننسى الزمن ونعفو عن الحياة فنظل فى سلام . إنك تستطيعين مساعدتى لأن الحب معك دائما والحب أقوى من الموت .

ارتعشت فرجينا وسرت فى جسمها قشعريرة باردة وسادت السكينة لحظات قليلة . لقد شعرت كأنها فى حلم مزعج .

عندئذ عاد الشبح إلى الكلام وكان صوته أشبه بأنين الريح :

— هل قرأت مرة النبوءة القديمة المنقوشة على نافذة المكتبة ؟

فصاحت الفتاة الصغيرة رافعة بصرها : أوه كثيراً ماأقرأها ، وأني لأعرفها جيداً . إنها منقوشة بأحرف سوداء غريبة ومن الصعب قراءتها وهي ستة أسطر ونصها :

« حينما تستطيع فتاة كالعسجد أن تستخرج
صلاة من بين شفتى الخطيئة ؛
حينما تحمل شجرة اللوز اليابسة ،
وتسخر طفلة صغيرة بالدموع ؛
عندئذ يعم القصر الهدوء
ويعود السلام إلى كانترفيل »

ولكنى لا أعرف ماذا تعنى هذه الأبيات .

فأجاب باكتئاب — تعنى أنك يجب أن تبكي

من أجلي ومن أجل ذنوبي لأنه ليس لدى دموع ، وتصلي من أجل نفسي لأنه ليس عندي إيمان ؛ وعندئذ يرحمني ملك الموت من أجل جمالك وصلاحك وأدبك . إنك ستشاهدين في الظلام أظلالا مخيفة ، وستهمس أرواح خبيثة في أذنك ، ولكنها سوف لاتؤذيك لأن قوى جهنم لن يمكنها أن تتغلب على طهارة طفلة صغيرة

— لم تجب فرجينا . ففرك الشبح يديه بيأس قاتل وهو ينظر إلى رأسها المنحني الذهبي ، ولكنها وقفت فجأة شاحبة اللون ينبعث من عينيها نور غريب وقالت في حزم : إنني لا أخاف وسأطلب إلى الملك أن يرحمك

فنهض من مقعده يصيح صيحة غبطة لطيفة وانحنى على يدها يقبلها بلهفة ورشاقة . كانت أصابعه باردة كالثلج، وشفتاه مشتعلتين كالنار، ولكن فرجينا لم تتلكأ حين أخذ يقودها وسط الغرفة المظلمة

لقد أخذ الصيادون الصغار الذين طرزت صورهم على القماش المعلق الباهت ينفخون بأبواقهم ذات الذيول ويشيرون إليها بأيديهم الصغيرة لترجع: (ارجعي يافرجينا ارجعي) ولكن الشبح شد على يدها وأشاحت هي عنهم بوجهها ثم أطلت من مدخنة في الجدار حيوانات هائلة بأذناب سحابة وعيون جاحظة ترمقها وتتمتم: (كوني على حذر يافرجينا الصغيرة ! كوني على حذر ! قد لانراك مرة ثانية) ولكن الشبح انسل مسرعاً، ولم تصغ فرجينا لأحد. وحين وصلا إلى نهاية الغرفة وقف يتمتم ببعض كلمات لم تفهمها ففتحت عينيها وأبصرت الجدار ينقشع شيئاً فشيئاً كما ينقشع الضباب فاذا أمامها كهف عظيم أسود، وإذا بريح شديدة باردة تكنس ماحولهما ، وإذا بها تشعر كأن يداً تجذبها من ثيابها، فصاح الشبح: (اسرعي اسرعي وإلا وصلنا متأخرين) وفي لحظة أغلق الجدار ذو النقوش خلفهما وخلت الغرفة .

* * *

وبعد عشر دقائق دق الجرس لتناول الشاي فلم تحضر فرجينا ، فأرسلت السيدة أوتس أحد الخدم في طلبها فعاد بعد قليل وقال إنه لم يجد الآنسة فرجينا في أى مكان . ولما كان من عادتها أن تخرج إلى الحديقة كل مساء لتقطف ورداً لمائدة الطعام فان السيدة أوتس لم تهتم بادىء ذي بدىء ، ولكنها أخذت تضطرب حين دقت الساعة السادسة ولم تظهر فرجينا ، فأرسلت الأولاد ليفتشوا عنها خارجاً بينما أخذت تفتش هي وزوجها في كل غرفة في القصر وقد عاد الأولاد عند الساعة السادسة والنصف يقولون إنهم لم يتركوا مكاناً لم يفتشوه ولكنهم لم يجدوا أى أثر لشقيقتهم .

إنهم الآن جميعاً في أشد حالات الاضطراب لايدرون ماذا يصنعون ؛ وفجأة تذكر السيد أوتس إنه سمح لجماعة من النوَر منذ أيام قليلة أن تخيم في جهات القصر وإن هذه الجماعة قد رحلت إلى ضاحية (بلاك فيل) ، فركب في الحال هو وولده البكر مع خادمين إلى تلك الضاحية ليتحرى بين النور عن الفتاة وقد طلب الدوق شيشر وكان عظيم القلق على فرجينا أن يسمح له بالذهاب أيضاً ، ولكن السيد أوتس لم يأذن له بمرافقتهم لأنه كان يخشى وقوع اصطدام هنالك .

وحين وصلوا المكان وجدوا النوَر قد رحلوا، وكانت الآثار تدل على أنهم رحلوا فجأة ومنذ وقت

قصير ، لأن نارهم كانت لا تزال فى اشتعال وعدداً من أطباقهم ملقى على الحشائش ، فأرسل الوزير ولده والرجلين ليطوفوا فى المقاطعة منقبين ، وعاد هو إلى المنزل على عجل وكتب برقيات إلى جميع مفتشى البوليس فى المقاطعة يطلب إليهم أن يتحروا عن فتاة صغيرة خطفها المتشردون أو خطفها النور . ومن ثم طلب أن يهيأ له جواده ؛ وبعد أن ألح على زوجه وأولاده أن ينزلوا ويتناولوا غداءهم ركب وسار فى طريق (اسكوت) يرافقه السائس . وما كاد يسير ميلين حتى سمع شخصاً يعدو خلفه ، فنظر حوله فأبصر الدوق الصغير قائماً على مهره مغبر الوجه عارى الرأس .

لهث الولد قائلا: إني لآسف جداً ياسيد أوتس ولكني لا أقدر أن أتناول أى غداء وفرجينا ضائعة. أتوسل إليك ألا تغضب على . لو كنت وافقت فى العام الماضى على عقد خطبتنا لما حدث شيء من هذا الازعاج.سوف لا تأمرني بالرجوع. أتأمرنى؟ إنى لا أستطيع أن أعود ولا أريد أن أعود .

لم يتمالك الوزير نفسه من الابتسام لمرأى هذا الشاب الطائش الظريف وقد أثر فيه حبه العظيم لفرجينا فانحنى عن جواده وربت بلطف على ظهره وقال : حسن ياسيسيل ! إذا كنت لاتريد أن تعود فمعنى ذلك أنك تحب أن ترافقنى ولكن على أن أبتاع لك قبعة من (اسكوت) .

صاح الدوق الصغير مبتسما : أوه لا تزعج نفسك بقبعتى إني أريد فرجينا .

وسارا ينهبان الأرض إلى محطة سكة الحديد ، وهناك سأل السيد أوتس مدير المحطة إذا كان أحد شاهد فتاة بأوصاف فرجينا على الرصيف ، ولكنه لم يعلم منه شيئاً ؛ غير أن المدير أبرق لجميع المحطات وطمأن السيد أوتس أنهم سوف لا ينقطعون لحظة عن التحرى عنها . وبعد أن ابتاع السيد أوتس قبعة للدوق الصغير من أحد المخازن وكان صاحبه على وشك إغلاقه اتجه إلى (ميكلى) وهى قرية تبعد أربعة أميال عن (اسكوت) ويخيم فيها النور عادة ؛ فلما وصلوا إليها قصدوا البوليس الريفى ليستعلموا منه عن فرجينا، ولكنه لم يفدهم شيئاً.وهم بعد أن تنقلوا فى كل الساحات العامة والخاصة حولوا أعنة خيولهم إلى القصر وقد أنهكهم التعب وحطم قلوبهم الفشل فوجدوا وشنجطون والتوأمين فى انتظارهم عند مدخل القصر يحملون المصابيح

لم يظهر أثر لفرجينا . لقد قبض على الغجر فى مرج (بروكلي) ولكنها لم تكن معهم وقد عللوا رحيلهم المفاجئ أنهم أخطأوا فى تاريخ موسم (تشورتين) فاضطروا إلى الرحيل على عجل خوفاً من التأخر . وفى الحق لقد أظهروا غاية الأسف حينما سمعوا بضياع فرجينا لما يحفظون للسيد أوتس من جميل منذ أن سمح لهم بالاقامة فى أراضيه ، وقد تطوع أربعة منهم للمعاونة فى التفتيش عنها

وأخيراً وبعد أن ذهب كل مجهود عبثا أصبح فى حكم الثابت أن فرجينا قد فقدت .

دخل السيد أوتس والأولاد القصر فالتقوا فى القاعة بجماعة الخدم الفزعين، ثم دخلوا غرفة المكتبة فاذا بالسيدة أوتس قد ارتمت على المقعد الكبير يكاد الحزن يفقدها الوعى ، والقهرمانة تفرك جبينها بماء الورد ، فألح عليها السيد أوتس أن تتناول قليلا من الطعام وأمر بتهيئة العشاء للجميع . لقد جلسوا للطعام وهم فى حزن لا يوصف ؛ حتى التوأمان كانا

واجمين ذاهلين . وحينما انتهوا أمرهم السيد أوتس أن يذهبوا جميعاً إلى الفراش قائلا إنه لم يعد فى الأمكان عمل شيء آخر الليلة . وأنه سيبرق فى الصباح إلى (اسكوتلاند يارد) لتنشر العيون فى كل مكان .

وبينما هم خارجون من غرفة الطعام دقت ساعة البرج مشعرة بانتصاف الليل، وحينما دقت الدقة الثانية عشرة سمعوا صوت انكسار أعقبته صرخة رنانة، ثم هز القصر هزيم رعد مخيف، وطاف فى الهواء لحن علوى، وإذاً بفتحة تظهر فى الجدار عند أعلى الدرج ، وإذا بفرجينا تخرج منها شاحبة اللون جداً وفى يدها قبعة صغيرة فاندفعوا نحوها جميعاً وطوقتها السيدة أوتس بذراعيها فى حنان ، وكتم الدوق أنفاسها بقبلة متقدة، وأخذ التوأمان يرقصان حولهم رقصاً غريباً.

قال السيد أوتس مغضباً حاسباً أنها كانت تمازحهم — يا إله السماء ! وأين كنت أيتها الطفلة ؟ لقد ركبت أنا وسيسيل نفتش عنك المقاطعة بأسرها ، وكاد يقضى الأسى على والدتك . يجب ألا تعودى إلى مثل هذه المهازل بعد الآن .

صاح التوأمان وهما يقفزان — إلا مع الشبح إلا مع الشبح .

تمتمت السيدة أوتس وهى تقبل الطفلة المرتعشة وتمسح على رأسها : أشكر الله ياعزيزتى أنا وجدناك . يجب ألا تتركى جانبى بعد الآن .

قالت فرجينا مبينة : لقد كنت مع الشبح يابابا ! لقد مات ويجب أن تشاهده . لقد اقترف ذنوباً كثيرة ولكنه تاب أخيراً توبة نصوحا وقدم لى هذا الصندوق المتلىء بالجواهر قبل أن يموت

تفرست فيها الأسرة بدهشة خرساء، ولكنها كانت تتكلم برزانة وجد؛ ثم تحولت قليلا وسارت إلى فتحة الجدار تقودهم فى ممر ضيق سرى وفى يد وشنجطون قنديل تناوله عن المنضدة . وأخيراً وصلوا إلى باب كبير من سنديان قد رصع بمسامير غليظة فما لمسته فرجينا حتى فتح على مصراعيه ، فاذا بهم يجدون أنفسهم فى غرفة صغيرة واطئة معقودة السقف قد تمدد على أرضها الحجرية هيكل عظمى هزيل ، فركعت فرجينا إلى جانبيه وأخذت تصلى بهدوء ضامة يديها الصغيرتين إلى بعضهما والأسرة تنظر دهشة إلى هذه المأساة المزعجة التى أخذ ينجلى لها سرها .

وفجأة أعلن أحد التوأمين وهو يطل من النافذة ليتحقق فى أى جناح من القصر قامت الغرفة . اسمعوا ! إن شجرة اللوز الكبيرة اليابسة قد نورت ؛ إني أرى الأزهار واضحة على ضوء القمر .

قالت فرجينا برزانة وهى تنهض على قدميها ونور جميل يضيء وجهها : لقد غفر الله كل ذنوبه

صاح الدوق الصغير : يا لك من ملاك طاهر ! وطوق عنقها بذراعيه وقبلها .

* * *

بعد هذه الحوادث المفجعة بأربعة أيام خرجت جنازة من قصر كانترفيل حوالى الساعة الحادية عشرة مساء وكان النعش محمولا على عربة يجرها ثمانية جياد سود ومغطى ببساط أرجوانى ثمين قد طرز عليه بالذهب ثوب كانترفيل الحربى . وسار الخدم إلى جانب النعش والعربة يحملون المصابيح . وفى الحق كان الموكب يبعث الرهبة والخشوع فى النفوس .

وكان اللورد كانترفيل الذى حضر من (ويلز) ليشترك فى الجنازة أول المؤبنين وقد جلس

فى العربة الأولى مع الصغيرة فرجينا ، ثم تأتى فى الترتيب عربة وزير الولايات المتحدة وزوجه ، فعربة وشنجطون والأولاد الثلاثة ؛ وأخيراً عربة السيدة أمنى التي كانت تحدث نفسها والعربة تسير بها إلى الكنيسة أن من حقها أن تشاهد نهاية هذا الشبح الذى ظل يرعبها خمسين عاما كاملة .

لقد حفروا له قبراً عميقاً فى ساحة الكنيسة تحت شجرة الصفصاف القديمة وألقى أغسطس دامبير دعاءه بلهجة جد مؤثرة ، وما كاد ينتهي حتى أطفأ الخدم مصابيحهم عملا بعادة متبعة عند عائلة كانترفيل ،وحينما شرعوا ينزلون الناووس إلى القبر خطت فرجينا إلى الأمام ووضعت عليه صليباً كبيراً صنعته من أزهار اللوز البيضاء والحمراء . وفى تلك اللحظة برز القمر من وراء الغيوم وغمر ساحة الكنيسة بضوئه الفضى ، وأخذ العندليب يغنى من الشجيرات البعيدة . ففكرت فرجينا فى وصف الشبح لحديقة الموت فأظلمت عيناها بالدموع ولم تنبس ببنت شفه أثناء عودتهم إلى القصر .

في صباح اليوم الثانى وقبل أن ينزل لورد كانترفيل إلى المدينة أخذ السيد أوتس يبحث معه فى موضوع الأحجار الكريمة التى قدمها الشبح إلى ابنته فرجينا فقد كانت هذه الجواهر ممتازة جداً لا تقدر قيمتها بثمن، لهذا احتار السيد أوتس كيف يسمح لابنته أن تقبلها

قال — ياسيدى اللورد أنا اعلم ان الوقف فى هذه البلاد يجوز على المصوغات كما يجوز على الأرض؛ وإنه لظاهر لدى تماماً ان هذه الجواهر هى أو يجب أن تكون إرثاً في اسرتكم ، ولهذا فانى أرجوك أن تأخذها معك إلى لندن على اعتبار انها جزء من ثروتك أعيدت إليك فى حالات خاصة غريبة . ان ابنتي لا تزال طفلة ويسرنى أن أقول أيضاً انها قليلة الاهتمام بزخرف الرفاء الباطل ، وكذلك فقد علمت من السيدة أوتس أن هذه الجواهر عظيمة القيمة جداً وأنها إذا عرضت للبيع أتت بثمن كبير ، ولهذا ترى يا حضرة اللورد كيف يستحيل على أن أسمح ببقائها فى ملكية أي فرد من اسرتى. وفى الحق أن كل هذه اللعب البراقة سواء كانت لازمة أو ضرورية لشرف الارستقراطية الانكليزية لا محل لها عندنا نحن الجمهوريين البسطاء

لقد أصغى لورد كانترفيل بانتباه شديد إلى خطاب الوزير القيم وكان ينتش شاربه الأشيب من وقت لآخر ليخفى ابتسامة اضطرارية . وحينما انتهى السيد أوتس هز يده بأخلاص وقال له : يا سيدي العزيز إن ابنتك الفاتنة الصغيرة قد قدمت لجدي السيء الحظ السير سيمون أعظم خدمة . وإنى وأسرتي لمدينون لشجاعتها العجيبة وإقدامها بالشيء الكثير. إن الجواهر هى لها ولا شك ، وأنا أعتقد أنى إذا تغالظت وأخذتها فان صاحبنا العجوز الشرير سيخرج من قبره بين عشية وضحاها ويزج بى فى داهية أما إنها موقوفة فلا ، لأن الوقف لا يتم إلا بموجب وصية أو صك قضائى ،وهذا لم يقع ،بل أكثر من من ذلك أن هذه الجواهر مجهولة لا يعرف أحد منا شيئاً عنها . وإنى لواثق أن فرجينا سيسرها كثيراً أن تجد فى حيازتها عند ما تكبر حلية تلبسها؛ وفوق ذلك هل نسيت ياسيد أوتس أنك ابتعت الشبح كما ابتعت رياش القصر، وأن كل شيء يخص الشبح قد دخل فى ملكيتك ما دام التابع تابعاً ،والتابع لا يفرد فى الحكم كما يقول رجال القانون ؟

لقد ضاق السيد أوتس كثيراً برفض لورد كانترفيل هذا ورجاه أن يراجع رأيه ، ولكن اللورد النبيل ظل مصراً على رأيه ، فاضطر الوزير أخيراً أن يسمح لابنته أن تحتفظ بهدية الشبح

وفى ربيع عام ١٨٩٠ حينما مثلت دوقة شيشر الشابة بمناسبة زواجها أمام الملكة كانت حليها موضوع إعجاب العالم أجمع . لقد اقترنت فرجينا بعشيقها الشاب حين بلغت سن الرشد . وقد بلغ من فتنة العروسين وحبهما لبعضهما أن كل شخص اغتبط لهذا القران اللهم إلا مركيزة (دوبيليون) العجوز التى كانت تعمل لاقتناص الدوق زوجاً لإحدى كريماتها السبع الأوانس وقد أقامت لهذه الغاية ما لا يقل عن ثلاث دعوات .

وعند ختام شهر العسل عاد الدوق والدوقة إلى قصر كانترفيل ؛ وبعد ظهر اليوم الثانى من وصولهما زارا قبر السير سيمون ونثرا عليه وروداً جميلة نضرة وبحثا فيما يجب أن ينقش على شاهد القبر ؛ وأخيراً قررأيهما أن يكتفى بنقش اسم السيد القديم والأبيات المطبوعة على نافذة المكتبة ؛ وبعد أن طافا فى محراب الدير القديم الخرب جلست الدوقة على عمود متهدم وتمدد زوجها عندقدميها يدخن ؛ وفجأة رمى سيجارته بعيداً وتناول يدها وقال لها :

— يافرجينا ! إن الزوجة لاينبغى أن تخفى شيئاً عن زوجها .

— ياعزيزى سيسيل إنى ما أخفيت عنك شيئا

أجاب مبتسما — بل إنك لتخفين أنك لم تخبريني ماذا كان بينك وبين الشبح حين اختليت به .

أجابت فرجينا جادة : إننى لم أخبر أحداً بذلك ياسيسيل .

— أعلم ذلك ولكن أنا يجب أن تخبرينى .

أرجو ألا تطلب منى ذلك . إننى لا أقدر أن أخبرك بشئ . مسكين السير سيمون ! إنى لمدينة له بكثير . نعم لاتضحك ياسيسيل. إننى لمدينة له حقاً . لقد أطلعني على سر الحياة والموت وعلمنى كيف يكون الحب أقوى من الحياة والموت .

نهض الدوق وطبع على فم زوجته قبلة حارة وتمتم :

— يمكنك أن تحتفظى بسرك ما دمت أحتفظ بقلبك .

إنك لتحتفظ به دائماً ياسيسيل .

— وإنك ستخبرين أطفالنا يوماً ما. أليس كذلك؟

فاحمرت وجنتا فرجينا حياء .

(شرق الأردن) ترجمة (بشير الشريقى)

الفتاة التي سلبتني ولدي

مترجمة عن الانجليزية

بقلم أميل فرج

« أهي غيرة امرأة أم حب أم الذي جعلها تمقت الفتاة التي أحبت ابنها الحبيب . . . ؟ »

* * *

كان هاري جرانت فقيراً معدماً عند ما تبادلنا حباً جنونياً جارفاً ، وكنت أنا في العشرين من عمري فتزوجنا ... فولد زواجنا في نفسه حلماً رائعاً جميلاً ورغبة ملحة قاهرة في أن يغتني ، ولذلك عزم على مبارحة انجلترا إلى أمريكا ليجرب حظه فيها .

إن صوته الآن ليبلغ أذني من بعيد فيردد قلبي صداه في ثورة مكتومة حبيسة ، وعيناه . . . إني لأراهما ترتفعان في الفضاء أمامي في تساؤل حبيب وهو يقول :

— هل ترافقينني يا لوسي في رحلتي إلى أمريكا . . . ؟

— سأكون معك في أي مكان يا حبيبي . . . سأرافقك إلى أقصى العالم . . . سأتبع معبودي الفريد .

وهناك في أمريكا وبالرغم من كراهيتي للطهي والحياكة ، وبالرغم من مزاجي الحاد المتقلب فقد طابت لنا الحياة ، واغتنينا لأن الحب والشباب كانا يولدان فينا قوة هائلة لا تقهر .

ولكن . . . لم يكد طفلنا هاري الصغير يبلغ من العمر ستة أسابيع حتى مات زوجي العزيز . ففقدت بموته كل أمل لي في الحياة وانهارت الأحلام الذهبية من أساسها وخيل لي في ذلك الوقت أن يداً خفية جبارة تصرعني بقسوة وعنف ، ولكن . . وسط الدموع الغزيرة والأحزان المستبدة تراءى لي وجه هاري الصغير وهو يتسم ابتسامته الملائكية فاسترجعت صوابي وعزمت على أن أعيش . . أجل أعيش من أجل ولدي العزيز لأنه يحتاج إلى حناني .

ونشأ هاري الصغير دون أن يعرف شيئاً عن أبيه الراحل ، ولذلك كنت له أبا وأماً ومنحته كل مجهودي وحيويتي لأني أيقنت أنه مفتقر إليهما . . لقد كان هاري الصغير حياتي التي أحياها . . كان روحي التي تتردد في جسدي . . . كان كل نصيبي في الحياة

وهكذا مرت الأسابيع مملة ثقيلة ، ولكن تمكن طفلي العزيز بعد مدة أن يملأ هذا الفراغ الموحش الذي كان يضايقني ويبدد الظلام الدامس الذي كان يسود حياتي . . ومرت السنون وتتابعت الأيام وأصبح هاري رجلي الحبيب الوحيد وكنت به سعيدة قانعة . . .

واعتقدت في ذلك الوقت أني مثال الأم الرحيمة الحنون . ولكني وجدت نفسي مخطئة فقد منحت هاري حياتي ولذلك أردته ان يكون لي وحدي . . أهي الأثرة وحب النفس الذي جعلني هكذا . . ؟ ربما ، ولكني لم أكن لأدرك هذا في ذلك الوقت إذ

لم يكن يدور فى خلدى مطلقاً أن هاري يتزوج ويذهب مع المرأة الخليقة به ويتركني وحيدة فريدة؛ لقد كنت أوقن فى ذلك الوقت أن هذا اليوم لن يأتى مطلقاً وسيقضى هارى كل حياته بجانبى يضحى بكل حب من أجلي . . . أنا أمه الحبيبة ، ولذلك كنت مستعدة أن أدفع أى ثمن مهما بلغ من أجل بقائه بجانبى . . . فقد تصابيت من أجله . . عملت على أن أكون رشيقة كفتيات المدارس لأروق فى عينيه ، تركت أصدقائى ونبذت حياة الرزانة والكبر وسرت بجانبه فى طريق الشباب وملاهيه ، كل ذلك من أجله . . . من أجل ولدى العزيز .

لقد جاهدت لأستبقيه بجانبى . . . ولكن فى لمحة خاطفة فقدته . . . أجل فقدته

***

ماكاد هارى يحصل على إجازة الجامعة حتى ذهبنا فى رحلة إلى شاطىء الريڤييرا ليستعيد نشاطه وسط المناظر الخلابة والطبيعة الساحرة وهناك شعرت بالتعاسة تجتاح قلبي الكسير بعنف شديد ، وأحسست بالشيخوخة تدب فى أوصالى فتوهنها وتنهكها حتى كرهت جميع الناس . . . كرهتهم في شخص مارى ريفرز تلك الفتاة الرزينة الجميلة التى سرقت هاري وانتزعته من بين أحضانى والتى لم يقو المسكين على مقاومة سحرها ومغالبة نتنها ففتنته اللعينة فى مدى يومين . .

لقد دعتنا للعب البردج دون سابق معرفة فلبي هارى دعوتها مسروراً مرتاحاً ، وبعد انتهاء اللعب وانصراف الناس التفت إلى هارى قائلاً :

— إنها مثال الفتاة العصرية اللعوب لأنها صادقت شاباً صغير السن وامرأة مسنة مغضنة الوجه دون . . .

— فقاطعني هارى بهدوء :

— ربما لم تظن أنك امرأة كبيرة السن يا أماه لأن من يراك يجد فيك شابة مرحة طروباً حتى لأظنها تخالك أختي .

ولكن هذا القول لم يفرحنى بل على النقيض أغضبنى أشد الغضب لأنى رأيت فيه نوعا من التملق الممقوت فقلت :

— إنها فتاة جريئة على كل حال . . .

— هو كذلك ياأماه ، وإنى لأحب هذا النوع من الفتيات

— آه . . . ماذا تقول يا هارى ؟

— إننى أعنى ماقلت ، فاني أحب الأشخاص الذين يعرفون ما يريدون ثم يجاهدون حتى يحصلوا على أمنيتهم

— إنى متأكدة يا هارى أنك لاتميل لفتاة تتصيد الشبان من الطريق . . .

وبعد يومين تأكدت أن قولي هذا كان عديم الجدوى ، لأن هارى ومارى أصبحا لايفترقان فكانا يشتركان فى لعب التنس والسباحة والرقص وكل شيء حتى صار من العسير التفريق بينهما

كان ولدى أعمى . . . أحمق . . . لايدرك ماهو مقدم عليه . . . ولا يعرف أن مصادقته لهذه الفتاة جعلت الثورة تتمشى فى دمائي ، والغضب يستبد بي أشد الاستبداد ، والحزن يسيطر على قلبى ، لأني كنت أمقت هذه الفتاة من كل قلبى . . .

وبعد قليل من الزمن عزمت على أن أحادثها لأفهمها أن هارى لن يفكر فى الزواج فى مثل هذه السن المبكرة ولن تناله مهما فعلت لأنه ولدى ورجلي وحدي فأنا أمه ولى مطلق التصرف فيه . . .

ولكن واأسفاه لم أستطع أن أحادثها ، لا لأنها طائشة غير مؤدبة بل كانت على النقيض مثال الأدب الخجول والشخصية الجذابة المحترمة والشباب المغرى

الفتان ، إلا أن كبرياءها وعزة نفسها أقامتا حاجزاً شفافا بينها وبين أم الشاب الذى تحبه . . .

كانت تخبرنى بأدب وكياسة أن أعنى فقط بشئوني ولا أضايق الآخرين ، فأقول لنفسى حينئذ إنها خبيثة ماكرة ، ولذلك كنت أخشى حبها لولدى العزيز الوحيد .

وفى آخر يوم من أيام نزهتنا فى الريفييرا جلست فى غرفة نومى أنتظره لأبذل آخر مجهود لاسترجاعه إلى أحضانى . فتجملت وتأنقت فى ملبسى حتى أظهر أمامه جميلة مقبولة . وفى منتصف الليل أقبل هارى بابتسامته الحلوة الحبيبة هاتفا :

— هالو ماما . . .

وحينئذ نظرت إليه فشعرت بالدموع تترقرق فى عينى شفقة به ورثاء له ثم قلت :

— أظن يا هاري أن الانسان يجدر به أن يواجه الحقائق كما هى . . . لقد أصبحت لاتحب أمك لأن قلبك قدعلق فتاة تكرهنى كل الكراهة؛ لقد انكسر قلبى وخاب أملي . . .

ونظرت إليه فرأيته ينظر خلال النافذة نظرة حالمة مفكرة ، فقال دون أن يلتفت إلي :

— أنت مخطئة يا أماه فى ماري . . . هى لاتكرهك . . . هى . . . لماذا ؟ ... هى لاتفكر فيك مطلقاً . . .

فقلت متحملة هذه الاهانة بجلد وصبر ، ولكنى لم أتمكن من جعل صوتى مستقيما رائقاً :

— وأنت يا هارى ... ألم تعد تفكر فى أمك العزيزة التى كانت لك كل شىء فى العالم ، فى مدى العشرين سنة الماضية . . . أنسيتني ياهارى . . . يا ولدى العزيز ؟

وانتظرت على مضض ... انتظرت أن يسجد الآن أمام أمه الحبيبة ليعتذر اليها ويؤكد لها حبه وإخلاصه كما كان يفعل هارى من قبل ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث وأخيراً سمعته يقول :

— لقد مضى هذا الوقت يا أماه . . . إنك تتكلمين عن الماضي . . . إننى ابن هذه اللحظة . . . لقد ولدت من جديد . . .

ثم . . . ثم غاب عن نظري . . .

كنت مطمئنة برغم ذلك لأننا سنرجع إلى لندن حيث يستطيع هارى أن ينسي فتاته الظريفة ذات العينين الواسعتين العميقتين والشباب الغض الفاتن، وينظر لأمه المسكينة التى قضت أتعس نزهة فى حياتها

وفى اللحظة الأخيرة قبيل رحيلنا رحت أتلهى بالنظر من خلال النافذة وما كدت أفعل حتى رأيت مارى تميل على هارى وتقبله في وجنتيه فيضمها هو بدوره ضمة حارة ويقبلها قبلة طويلة عميقة

لم أستطع أن أحتمل هذا المنظر لأنى كنت أفضل أن أتعذب أمر العذاب ولا أراها تقبله . . . لقد كرهتها كالموت، ومقتها كجهنم، وشعرت فى هذه اللحظة أن الغيرة تجتاح قلبى فى عنف وثورة

ثم أقبل هارى فرحاً مغتبطاً ولم يعرف المسكين أن كلماته التى فاه بها بعد لحظة قد وقعت على رأسى وقوع الصاعقة . .

— ماما ... ماما ! ستذهب مارى إلى لندن ولذلك سترافقنا فى رحلتنا ...

فأجبته بوحشية ثائرة :

— سوف لاتذهب هذه الفتاة إلى لندن . . سوف لاترحل معنا . . أفهمت ما أقول ؟

— ولكنها سترحل معنا يا أماه وقد وعدتها بذلك . . إنها جميلة ماهرة . . وهى المرأة الوحيدة القادرة على أن تجعل السعادة تغمر قلبى ، فهى تعمل كل شيء في سبيلي ومن أجلي . .

وما كدت أسمع كلماته هذه حتى انتفضت واقفة كحيوان حبيس وقلت صارخة :

— ماذا تعني أيها الطفل ؟

— ستقترن بي ماري

— هاري .. إنك مجنون ياولدى ، لأنك ستتزوج من فتاة لم تعرفها إلا منذ أسابيع . ستلوك الأفواه سيرتك ، وستتناولك الألسن بالهزء والسخرية . . ارجع لصوابك ياهاري وكن ابنى المطيع كما عهدتك . .

— دعيهم يتكلموا يا أماه فانى لا أعبأ بهم ولا بحديثهم ما دمت أحب ماري وهى تحبني . .

عند ذلك انفجرت باكية بكاء مراً لم أعرفه منذ وفاة زوجى العزيز ثم قلت :

— أنت مجنون ياهارى . . مجنون حقاً ...

وكان الحزن قد أخذ منى كل مأخذ ، والغيرة كانت تفرى عظامى بوحشية رهيبة . . وقلبي . . وقلبي شعرت به يقف عن الحركة ، وكأن نصلاً حاداً اخترقه بعنف فتمزق ، لأن هارى سيفر من يدى . . ثم تمالكت نفسي وقلت بحرارة ...

— هارى . . ولدي . . كيف تتزوج من فتاة لاتعرف من هى وما أصلها . ؟ لابد أن تكون فقيرة معدمة ، وإلا لما بذلت هذا المجهود الهائل لاقتناصك . . كل الناس سيقولون إنك ضحية غريرة ضعيفة ...

— هذا لايعنيهم ... مارى يتيمة . . لقد عرفت ماري جيداً وأظنها هي المرأة الوحيدة القادرة على أن تجعلني سعيداً . . سعيداً جداً يا أماه ... سأتزوجها . . أجل سأتزوجها وأرجو أن تحبيها بعد ذلك

— مطلقاً . . مطلقاً . . سأكرهها . . سأمقتها . . ستكون عدوى اللدود . . هارى إنى أمنعك أن تتزوج من فتاة ...

— كفى ياوالدتى . . لاتنطقي بشئ تندمين عليه فيما بعد ...

ثم قال وكأنه ينظر فى آفاق بعيدة مجهولة :

— لقد كنت أفضل أم فى العالم ... ولكن حياتى يا أماه ... سأسير فى الطريق الذى أراه لنفسى ؛ اننى أرجو منك ألا تتدخلى فى شئونى مرة أخرى . . إننى حر ... حر لأن حياتى ملكى وحدى لا ينازعنى فيها منازع ... حاولى يا أماه أن تأخذى الأشياء كما هى .

ثم قال ببطء وصوته يتهدج :

— لقد جاهدت أيتها الأم العزيزة ولكنك فشلت . . وهذا ما يحزننى .

— أيمكن أن يكون هذا حقيقة ؟ هارى العزيز الذى من أجله ضحيت كل حياتى يخاطبنى الآن بهذه اللهجة القاسية ... ما أعظم تعاستى وشقائى ...

وقد تعهدت أمام الله ونفسى ألا أغفر لمارى ريفرز ما فعلت ... سوف لا أحبها ولا أصادقها مطلقاً ... مطلقاً ...

وكان عهدى هذا هو العار الأبدى الذي ظللنى بظله المظلم المقوت طيلة حياتى ، وسيرافقنى لعنة أبدية إلى قبرى . لأنى حافظت عليه . . .

***

ومرت الأيام متتابعة كنغمة تتكرر فى إحدى الأوبرات الثقيلة المملة ، وكنت لاأزورهما منذ تزوجا إلا لماما ، فهارى أدمن الخمر وأصبحت لا أراه إلا قليلا ، ومارى أخذت تلهو بسيارتها الصغيرة تقودها بسرعة جنونيه مخيفة هابطة نحو المدينة أو آتية منها طيلة النهار

وفى يوم من أيام الربيع الجميلة زارنى هارى وزوجته وقد عزما على أن يقضيا يوم عطلة فى إيست بورن . . .

كانت مارى جميلة فى هذا اليوم بكل مافى هذه الكلمة من معان ، رائعة فاتنة . . فكانت فى شعرها الأسود الجميل وعينيها اللامعتين اللتين تنطقان

بمعان عميقة بعيدة . . ويديها الرقيقتين وقدها الرشيق الساحر . . . كانت تمثل ملاكا من الحسن والجمال هبط الى الأرض ليؤدى رسالة حية خالدة في الفتنة والاغراء .

وقبلني هارى ضاحكا فرحا ، ولكنى شممت رائحة الخمر تنبعث بشدة من فمه ، ثم قال لى إنه يريد أن يخبرنى بخبر سار عند رجوعه من نزهته ، وما كادت مارى تسمعه حتى ابتسمت ابتسامة رزينة ولم تنبس بكلمة لأنها لا تحادثنى إلا قليلا ... فكانت رزانتها ونظراتها الثابتة العميقة تزيد من حنقي عليها وكراهتى لها ... وأخيراً ذهبا لنزهتهما

***

لا أدرى كيف أكتب البقية الباقية من سلسلة عذابى المرير . . . أهى الذكرى أسطرها لتفرج من كربتي أم هي حياة حافلة بالظلم والغيرة قضيتها واسترجعها الآن فى مخيلتى لأشعر باللعنة تسحق عظامي والندم يكوى قلبي ؟ . . لا أدرى . وإنما أدرى أنى معذبة شقية . . .

وفى عصر هـذا اليوم المشئوم فوجئت بزيارة الطبيب بورنت الذى ساعدنى فى ولادة هارى ، كانت نظراته حزينة كئيبة رأيت خلالها ها دفينا وحزناً بالغا فسألته جافلة :

— ما الذى حدث يا دكتور . . ؟ أجبنى بربك ماذا حدث . . ؟

— لا شيء يا عزيزتي . . . إنما هناك حادث مروع

عندئذ صرخت من أعماق قلبي :

— هارى . . . هارى . . . أخبرنى بسرعة هل هاري بخير ؟ . . .

— هارى سعيد يا سيدتي ... آه ... لقد ... لقد ... مات ولدك المسكين ...

— مات ... مات ... ماذا تعني أيها الرجل ..؟ من الذى مات . . . ؟ من الذى ذوى كشمعة فى مهب الرياح ؟ ... لا يمكن أن يكون هارى . . . هارى الذى كان مثلا حياً جميلا للشباب الغض اليانع . . . ؟ لا . . . لا . . . لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً . أخبرنى ثانية يا دكتور . . . أخبرنى ثانية ماذا تعنى . . . ؟ !

وأخيراً وقف الرجـل أمامي وأخبرنى بحزن عميق أن مارى كانت تسوق السيارة بسرعة جنونية عندما اعترضها حاجز مرتفع فانقلبت بهما السيارة ، فهاري مات ومارى أصيبت ببعض جروح . . .

— هارى يموت ومارى تبق حية ؟ ! كانت تسوق السيارة . أجل هي التى قتلته باهمالها الفظيع . ليعاقبها الله ... ليعاقبها الله ...

فأجابني الدكتور بصوت خافت مرتعش :

— لقد عوقبت يا سيدتى ... لقد كسر ظهرها

ثم أمسك بيدى المتصلبتين بوحشية مريعة وجعل يكفكف الدموع الغزيرة التى انهمرت كالمطر الغزير . . .

كم أنا حزينة ... وكم أنا شقية ... لقد قتلته اللعينة ... لقد قتلت وحيدى .. حياتى ... رجلي ...

ومرت على ساعات مظلمة حالكة مليئة بالأحزان طافحة باللوعة ... كنت أخاطب نفسى فيها قائلة :

— سأنتقم لك يا هارى ... سأنتقم لك يا ولدى لقد قتلتك الملعونة فعليها لعنة الله

وقد رأيتها واقفة أمام المحكمة تدلى بجريمتها ، فاعترفت أنها كانت تقود السيارة بسرعة جنونية ، ولكنها عند ما قيل لها إنها هي المسئولة الوحيدة عن وفاة زوجها ... اهتزت الفتاة ... اهتزت من الأعماق وصار وجهها باهتاً ترتسم عليه علامات الألم الصارخ والحزن العميق ... ثم انتهت المحاكمة وبرئت الفتاة المجرمة التى قتلت ولدي ... عند ذلك لم أحتمل الصدمة

فجلست على مقعد خارج المحكمة فرأيتها أمامى شاحبة الوجه منكسرة النفس ... فنظرت إليها وصرخت فى وجهها بعد أن هززتها هزاً عنيفاً ثم صحت بها :

— سأقتلك أيتها المجرمة ... سأقتلك لأنك قتلت ولدى الوحيد ...

كانت الفتاة أقوى منى لأنها شابة في عنفوان الشباب ... كانت تستطيع أن تطرحني أرضاً ولكنها ظلت صامتة حزينة ، وكان وجهها الحزين يمثل الألم الصامت النبيل وترتسم عليه علامات غريبة غامضة كافية لأن تبعث فى أقسى القلوب الشفقة والرحمة ثم ... ثم رأيتها تترنح وتسقط على الأرض بقامتها المديدة ووجهها النبيل أبيض كالثلج ... لقد تمددت على الأرض فاقدة الوعى ، وكانت حتى فى إغمائها نبيلة هادئة رزينة

أجل لقد انتقمت بعض الشيء ... لقد جعلتها تتألم ... لقد جعلتها تعرف أنى سأنتقم ، حسن ، سوف نرى ...

لا أدرى أيهما يستحق عطف الناس وأيهما يستحق سخطهم ... أهى الأم التى تحزن لوفاة ابنها وتنتقم له من قاتلته ... أم الفتاة التى قتلت زوجها ؟ لا أدرى . . ولكنى حالما ترنحت مارى رأيت وجوهاً كثيرة ترتفع أمامي ساخطة لاعنة ، وعيوناً تنظر إلىّ باشمئزاز وجفاء ... ولكن هذه الوجوه وتلك العيون الظالمة راحت تواسى تلك الفتاة المجرمة الممددة أمامي ... راحت تعطف عليها وتتعهدها بالرعاية والحنان ... ربى ! أى عدالة تلك التى تعاقب البرىء وتبرىء المجرم ؟..

وفى هذه اللحظة سعى إلىّ الدكتور — صديق القديم — متجهم الوجه ، وفي صوته رنة مريرة من التأنيب والغضب

— ماذا فعلت يا سيدتى ؟ .. كان يجب أن ترحمي هذه الأرملة البائسة .. لقد سلكت معها مسلكاً شائناً

— لن أرحمها .. لقد أذاقتنى مر الحياة ، ولذلك سأعذبها .. سأمقتها

— إنك لا تعذبينها وحدها يا سيدتى .. فإن امرأة ابنك ستصير أماً عما قريب

— ما .. ماذا تقول يا دكتور ! .. ماذا تقول ؟

شعرت فى هذه اللحظة أنى أهتز بكليتي اهتزازاً عنيفاً كأننى ريشة فى مهب الرياح ... إذن الخبر المهم الذي أراد هارى أن يقوله لى هو .. هو هذا الخبر . يا إلهى لم يعش هارى العزيز حتى يرى ابنه وفلذة كبده يدرج على الأرض ... لم يتمتع بشبابه ولم ير السعادة التى تصبو إليها نفوس الآباء ...

ولأول مرة في حياتي صرخت من الأعماق وبكيت بدموع الحزن الذى لا يفنى ، والألم الذى لا يسكن ... بكيت من أجل ذلك الطفل اليتيم الذى حرم عطف الأبوة ... فما أشقاني من امرأة رمتها الأيام ذرة مضطربة فى هذا المحيط الواسع الشاسع فتقلبت فى أجواء قاتمة مظلمة ، وراحت تتقاذفها أعاصير الحياة القاسية المريعة بوحشية وقسوة . بكيت بحرارة ولكنى لم أبك من أجل مارى ، لأنى لن أنسى لها جريمتها ، ومع ذلك تمنيت لها الشفاء من أجل الطفل اليتيم الذى يعيش فى أحشائها ... ولذلك انتظرت قرار الدكتور الذي أخبرني أن مارى فى حالة سيئة ، وستلد بصعوبة ... وبهذه الكلمات القاسية امتلأ كأس شقائى حتى فاض وأغرقنى ، ولم أعد أحتمل ... لم أعد أحتمل

لم أستطع أن أجلس إليها إلا بعد مدة . . . وكانت وقتذاك مضطجعة على ظهرها بهدوء على فراش المستشفى البسيط . . كانت كالحمامة الهزيلة الضعيفة . . . ولكن عينيها ظلتا عميقتين ساحرتين لم يخب بريقهما ولم ينطفىء نورهما ... وشعرها الاسود الجميل ... كان متهدلا بإهمال لطيف فوق الوسادة .. كانت نبيلة فى رقدتها رائعة فى نظرتها ... حينئذ لم

أتمالك نفسي من أن أحنو عليها قليلا فقلت لها :
— إننى آسفة ...
فقاطعنى بابتسامة لطيفة صافية
— لا تأسفى فكل شيء قد مضى . . . مضى كلم رائع داعب خيالى حينا ثم ولى ... ولى ياعزيزتى كما ولى الرجل الذى أحببناه معا ... هناك طفل ... طفل سيتطلب حنانك وعفوك ...
— لا تخافى ياماري ...
— ولكن كيف ... كيف ؟
— لقد أعددت كل ما يلزم وستنتقلين إلى منزلي حالما تستطيعين الحركة وتعيشين معى حتى تتحسن حالتك وتلدى ...
وعند ذلك أجابتنى بانفعال وقد تصاعد الدم إلى وجهها الشاحب الجميل :
— لا يمكننى أن أذهب معك يا سيدتى ... لا . . لا يمكن أن أكون عالة على غيرى ؛ أجل لا أحب أن أكون حملا ثقيلا بغيضاً فوق أكتاف المرأة التى كرهتني
قالت ذلك بكبرياء وأنفة كأميرة متكبرة أهينت فى الصميم ... ودون أن أدرى وجدت نفسى أضغط على يديها المتصلبتين من الانفعال والغضب وقلت لها بحنان وعطف :
— حقا ما تقولين يا مارى ... ولكن يجدر بنا ياعزيزتى أن نفكر فى ابن هارى ، لننس أحقادنا فقد قاسيت كثيراً يافتاتى المسكينة ... فهل لك أن تصفحي عنى يا مارى . . . اصفحى عن المرأة التى أساءت إليك فكانت مخطئة عمياء ...
عند ذلك صرخت المسكينة صرخة مزقت نياط قلبها . . . صرخة تعيسة مريرة جمعت كل صنوف الشقاء وحوت كل ألوان التعاسة . صرخت المسكينة قائلة :
— هارى ... هارى ... !

أجل لقد كانت تحب ولدى كما أحبه ، وفى هذه الصرخة التى مازال طنينها يتجاوب فى فضاء قلبى كأنه جرس رهيب فى معبد مهجور . . . وفى هذه الصرخة ألف الأسى بين قلبينا وطهر الحزن نفسينا وعشنا مدة من الزمن كأننا شخص واحد وروح واحدة وقلب واحد يخفق من أجل شخص حبيب عزيز . . .
وهكذا قبلت مارى أن تنتقل إلى منزلى وهناك بالرغم من العناية الفائقة كانت دائما شقية تعيسة ودائما حزينة باكية ...
وفى يوم جلست أحدثها عن طفولة هارى العزيز وكنت قد منعتها من ذكر سيرته فلمحتها تفكر بحزن ثم قالت :
— يظهر أنك جعلته الشيء العزيز الذى ملأ عليك حياتك ... أهذا حقيق ؟
— هذا حقيق ... لأنه حين مات زوجى كان هارى كل مالى فى الحياة ، فقد اشتغلت وتعبت وضحيت من أجله وحده . . . كان كل كنزى فى حياتى الحزينة ... كان ذلك الشعاع الذى أضاء حياتى المظلمة ... كان الخيط المتين الذى ربطني بالسماء والحياة ... ولذلك صرت له أما وأبا وأختا ، وكان هو لى وحدى لا ينازعنى فيه منازع
وغابت مارى فى تفكير طويل عميق ثم قالت :
— إنى لا أصدق ذلك ... يخيل إلى يا سيدتى أن حبك لشيء ما خطر فظيع
— خطر . . ؟ ؟
— أجل يا سيدتى . . . عند ما تحبين شخصاً تريدين أن تستولى عليه وحدك ، وهذا سر بغضائك لى عند ما قاسمتك هارى العزيز ... أما أنا فسوف لا أكون كذلك مع طفلى ... سأدعه يعيش الحياة التى يريد أن يحياها ...
عندذلك فتحت فمى لأقول شيئاً قاسياً ، ولكنى أمام

نظراتها الرزينة الحالمة، وعينيها الواسعتين في كبرياء، وعظمتها المغرية الجذابة ... صمت ولم استطع النطق
ومرت الأيام وفى ليلة زرتها في فراشها فوجدتها تبكي بتعاسة مرة ثم راحت تنظر إلى باشفاق ورثاء وأخيراً قالت :

— أريد أن أحادثك يا سيدتى ... لقد حلمت حلماً سريعاً عن ذلك اليوم المشئوم الذى مات فيه هاري ... إن الصمت يقتلني ياسيدتى ... إن الوحدة تعذبنى عذاباً أليما ... لماذا لاتسمحين لى أن أتحدث عنه ؟ ... لقد بنيت حاجزاً منيعاً بيننا ... إننى وحيدة فى هذا العالم ... وحيدة

عند ذلك أجبتها ببرود وخشونة حتى لا أدع مجالا لها فى التحدث عنه :

لماذا نتحدث عنه وهو موضوع مؤلم لكلتينا ..؟

فأجابتنى بوحشية ثائرة كأنها نمر محبوس

— إننى أحبه أيتها المرأة وما زلت أحبه ولن أجد أحداً سواك أتكلم معه عن هارى حبيبى العزيز ... إنك لا زلت تكرهيننى لأنى سلبتك وحيدك ولأنى قتلته أيضاً . أيتها المرأة القاسية ! ارحمى .. ارحمى ضعفي وحزنى ...

— إنك تجهدين نفسك بدون طائل ... عندما يولد الطفل وتتحسن حالتك سأ ...

— سيكون الوقت متأخراً ... أخبريني ياسيدتى ... أخبرينى بربك ... ألا يمكن أن تصفحى عنى ؟

ثم مدت يديها الجميلتين النحيلتين في ضراعة واستغفار ... وعيناها ... آه إنى لأراهما تنظران إلي بوحشة وباشفاق وتساؤل وقد انتظرت جوابى ، كان يخيل إلى أن أميل عليها وأقبلها قبلة طويلة تنسى فيها شقاءها ... ولكنى تذكرت هارى وميتته الشنعاء ... وخسارتى الفادحة التى لا تعوض ، فقلت لها بصوت منخفض :

— إننى آسفة ... سأحاول أن أصفح

ثم ... ثم خرجت هاربة من الغرفة ... تمنيت أن أسترجع هذه الكلمات ولكن كبريائى المقوتة وغيرتى القاتلة منعتاني من استرجاعها وإصلاح مافعلت وعند ما دخلت حجرتها مرة ثانية رأيتها راقدة ووجهها إلى ناحية الحائط تبكى بكاء أمر أصامتاً فقسوت عليها مرة ثانية وخرجت دون أن أتكلم لأنها لا تستحق الشفقة والرحمة ... فهل أنا ملاك حتى أغفر لها جريمتها ؟ كلا ... كلا ستكون عدوتى للنهاية ...

* * *

وفى ليلة حزينة كئيبة سمعت صوتاً خافتاً كأنه حشرجة ميت منبعث من غرفة مارى ، أنين موجع أليم يصل إلى أذنى فيحرمنى النوم والراحة ... صوت حزين حملني على أن أقوم من نومى وأذهب إلى غرفة مارى فأراها مستلقية على ظهرها مغمضة العينين ، ولكن الصوت الحزين ينبعث من بين شفتيها الجميلتين . وبرغم إرادتي كنت إلى جانبها أنظر إليها بعطف وحنان وهمست فى أذنى :

— أظن من الأحسن استدعاء الدكتور بالتلفون

— كم من الوقت قضيته على هذه الحال ؟

— منذ ... منذ غادرتنى فى أول الليل

شعرت بالخزى والألم يجتاحان قلبى المحطم لأنى تركتها وحيدة فى مثل هذا الليلة . كم أنا قاسية وكم أنا شريرة مجرمة ...

كانت مارى لاتستطيع الحركة ولا الجلوس .. كانت تتألم ألماً لاتقوى أشد النساء على احتماله ... وعيناها الذابلتان تنظران إلي لاشىء وجبينها الملتهب الجميل .. كل ذلك جعل منها صورة مجسمة حية للألم العميق والتعاسة البالغة ... فقلت لها بحنان عظيم حتى أعوض مامضى :

— هلا استطعت أن أفعل شيئاً ؟

— لقد مضى ... لقد مضى ... إذهبي ونامى ياسيدتى ... سأستريح عما قليل ...

لقد أجهدها الكلام وكان وجهها أصفر شاحباً . . . كانت وحيدة . . . وحيدة وسط صحراء شاسعة مترامية الأطراف ومع ذلك كان النيل ينشر عليها لوناً ساحراً جذاباً يجعل أقسى القلوب ينكسر ويتمزق تحت أقدامها . . حينئذ أردت أن أسامحها وأغفر لها . . أردت أن أسكب فى أذنيها كلمات الحب والعطف التي حرمتها . . ولكن . . . ولكن منعنى من ذلك دخول الطبيب والمرضة .

كل إنسان يعلم خطورة هذه الساعة على أى أم ولكن حالة ماري كانت أردأ الحالات وأعقدها فوقف الدكتور أمامها متعباً منهكاً لأنها كانت مهمة ثقيلة على قواه الضعيفة .

وما دقت الساعة الرابعة صباحاً حتى سمعت صرخة طفل صغير . . . فقفزت من مكاني من فرط السرور ، وبعد قليل دخلت غرفتى المرضة حاملة الطفل بين يديها قائلة :

— ها هو ذا حفيدك ياسيدتى ...

حاولت أن أتناوله بين يدى ولكن سخافتى منعتنى من ذلك ... ولماذا أسر ؟ إنه ابن هارى الذى قتل ورجل ... ولكن ماري ... ربما تموت المسكينة دون أن أسمعها كلمة الغفران والحب لأنهم لن يسمحوا لى أن أدخل غرفتها الآن ... وبعد برهة أقبل الدكتور وقال :

— إنها لا تريد أن تشفي يا سيدتى . . . إنها قوية ويحق لها أن تفتخر بقوتها حينما تخرج من هذا المأزق ولكنها لم تحاول ذلك ... لن تحاول...

وما كدت أسمع ذلك حتى هلع قلبى وارتجفت أعضائى ، وفهمت ماذا يعنى فأجبته :

— أنت مخطىء يادكتور ... إننى أريد ... أن تشفي ... لقد صفحت عنها ...

— تصفحين عنها ... يا إلهى ... أتعرفين ماذا فعلت هذه الفتاة عندما ولد الطفل ؟ ...

لقد قالت خذ الطفل يا دكتور إلى جدته العزيزة فربما تصفح عنى الآن ...

لم أستطع أن أحتمل هذا العذاب فرحت أكرر بغباوة ومرارة ...

— لقد صفحت عنها... أجل لقد صفحت ...

كان يبدو على الدكتور علامات التعب المضنى ... كأن فى عينيه بريقاً هائلاً ؛ كأنه يحمل فيهما سراً يريد الكشف عنه ... وفجأة جلس على مقعد وأجلسنى بجانبه ثم أمسك بيدى وهو يقول . . .

— سيدتى ... سأدلى إليك الآن بشىء مقدس عاهدت ماري منذ ستة شهور مضت أن أخفيه في طيات قلبي الحزين

— أى عهد يا سيدى ؟ ... أى عهد ؟ !

— إنها عاهدتنى ألا أقول لك كيف مات هارى ... ولكنى سأنقض هذا العهد وأقول لك ما منعتنى مارى المسكينة من قوله حتى تتمنى أن تبعثيها من قبرها إن ماتت ... إنها شريفة ونبيلة يا سيدتى ...

عندئذ عيل صبري ولم أعد أحتمل التلميح فقلت :

— ما الذى تعهدت من أجله ... قل بربك

— إنك تعلمين ياسيدتى كما يعلم جميع الناس أن مارى هى التى كانت تقود السيارة وقت وقوع الحادثة ، ولكن هذا خطأ ... خطأ وظلم ... هارى ... هارى ... ياسيدتى هو الذى كان يقود السيارة وقت وقوع الحادثة المؤلمة ... فقد كان ثملاً ...

— أتقول الصدق حقيقة يا دكتور . ؟ هارى لماذا ؟!... لماذا ؟!...

— لأنها وجدتك مغرمة غراماً جنونياً بهارى

لأنها خافت أن تهدم ذلك الحلم الرائع الذي يداعب خيالك... لأنها رأت أن إخبارك بالحقيقة كسر لقلبك وتعاسة لنفسك ففضلت المسكينة أن تنال سخطك وكراهيتك وتقع تحت طائلة عقابك وعقاب العدالة على أن تشوه تلك الصورة القدسية الحبيبة التي تحتفظين بها لماري ... لقد ضحت فكانت في تضحيتها نبيلة ، وأحبت فكانت في حبها مخلصة ... لقد خافت عليك ياسيدتي ، ولم ترد أن تشوه سعادتك لأنها رأت أن سعادتك هي أن تكون سيرة ابنك نقية ومكانته سامية في نفسك إلى الأبد

صمت رهيب نشر ألويته فوقنا عقب كلمات الطبيب الدامية . . . فحاولت أن أتخلص من هذا الكابوس المروع وأتحرر من هذا الجو البغيض ولكني لم أفلح وظل صوت الضمير يعلو . . ويعلو حتى صار أشبه بقرقعة المدافع تدوي في الميدان ، وبصرخات الجنود تطلب الرحمة . . الرحمة وأخيراً قلت بغباوة وبسخافة :

— أأستطيع أن أقابلها . . . يجب أن أقابلها يا دكتور .

— لك ما تريدين يا سيدتي . . . لك ما تريدين

وفي لحة كنت في غرفتها فركعت بجانب فراشها ورحت أتمتم . . .

— إلهي . . . إلهي . . . أنقذ ماري . . . اجعل ماري تعيش مدة أطول حتى أستطيع أن أكفر . . .

لم تتحرك المسكينة ولم تفتح عينيها . . . كان وجهها الشاحب يحمل معاني هائلة من الألم والشقاء وكان جبينها النبيل الصافي يلتهب من الحمى . . . وأخيراً تحركت حركة ضعيفة فهتفت :

— ماري . . . ماري . . . امكثي معنا . . . لا تفارقينا . . . أنا والطفل سنحتاج إليك أيتها العزيزة . . . إننا نحبك يا ماري . . . ماري . . . ماري . . . أجيبي يا حبيبتي . . .

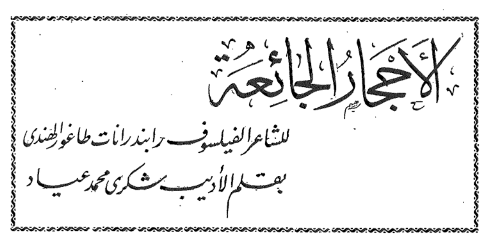
ولكنها لم تسمعني . . . إذن لماذا لا يسمعني الله . . . سأبتهل إليه . . . وانكببت على وجهي أبتهل إليه بحرارة وإيمان لم أعرفهما من قبل وبعد أن فرغت من الصلاة مددت يدي إلى وجهها أتحسسه . . . ولكن . . . ولكن وجدت أن الأمر قد انتهى . . . وكطير مكدود هزيل وسط عاصفة هوجاء . . . سقطت ماري المسكينة وسط زعازع الحياة وشقاء الانسانية . . . لقد ماتت كما يموت الجندي الشجاع وسط صحراء شاسعة رهيبة وحيداً ... منفرداً ... لقد ماتت ... أجل ... لقد ماتت ... وإني موقنة أنها سعيدة بهذا الموت سعيدة.

***

والآن وأنا أسير بخطوات واسعة نحو نهايتي... أعيش مع حفيدتي العزيزة ماري التي كثيراً ما أجلس الساعات أحدثها عن أبيها الجميل وأمها النبيلة الشجاعة . . . وإن كنت أحدثها عن أمها حديثاً جميلاً حاراً فاني أجد نفسي أشد احتياجاً من هذه الطفلة إلى هذا الحديث لأجعل الندم واللوعة يخففان من ثقلهما على صدري الضيق المهموم . . . أيتها التعاسة . . .

إذا كانت هذه القصة تمس الناحية الشريرة في الانسان فقد أدت غرضها المقصود . . . لأنها قصة امرأة شريرة غيورة ، كما أنها قصة امرأة نبيلة النفس كبيرة القلب . . . لقد قلتها لتحكم الأجيال بعدي على هذه الفتاة الصغيرة الراقدة الآن بجانبي كالملاك والتي تشبه أمها كل الشبه فكأنها قطعة حية منها ... وإني لأتمنى أن يكون الحكم عادلاً ... شريفاً ...

أميل فرح



كنت قافلاً وقريبي من رحلتنا فى پوچا عند ما لقينا الرجل فى القطار . ولقد طالعنا من ملبسه ومسلكه ما جعلنا نراه بادىء الرأى مسلماً من أهل الأقاليم العليا . ثم راعتنا منه جهارة منطق ، وعذوبة حديث . فقد كان واسع فنون القول ، متشعب أطراف الكلام . وكنا قبل ناعمى البال لا نعلم أن قوى خفية تعمل ؛ وأن الروس قد أصبحوا منا قاب قوسين ؛ وأن سياسة الإنجليز تنطوى على أسرار ، وتدور على عمق ؛ وأن الخلاف بين الزعماء القوميين قد بلغ منتهاه ، وأشرف على مداه . ولكن صاحبنا الجديد قال وهو يبتسم ابتسامة ماكرة : « إن فى السماء والأرض لأحداثا تجل عما تذكره الصحف » . وإذ كنا قبل عاكفين على ديارنا لا نفارقها فقد دهشنا لحديث الرجل ؛ كان يطرق الموضوع السائر فيخلطه بالعلم ، ثم يعلق على الكتب المقدسة ، ثم يردد رباعيات لشاعر فارسى . وكان قريبي رجلا من المتصوفة ، فاعتقد اعتقاداً لا يخالجه شك أن صاحبنا مزود بقوة مغناطيسية خفية من لدن جرم فى السماء ! فكان إذا سمع تافهاً من القول تسقطه شفتا الرجل العجيب ابتسم معدِّراً ، وألقى السمع جذلا . ويخيل إلي أن الرجل لاحظ منه إعجابه ، فطرب له وارتاح .

وفى الساعة العاشرة مساء بلغنا المحطة حيث يجب تغيير وجهة السفر ، وقصدنا إلى غرفة الاستراحة فسمعنا باحتمال تأخر القطار لارتباك أصاب الخطوط فهيأت لنفسي فوق النضد فراشا ، وتأهبت لأسلم عيني لإغفاءة مريحة . ولكنني لم أهجع تلك الليلة لغوباً ووصبا ، فقد جاء الرجل يغتزل غزله ، ويحيك خيوط هذه الأقصوصة . .

حينما ألجأتني الخلافات الإدارية إلى اعتزال منصبي في چنجارا ، ودخلت فى خدمة نظام حيدر أباد — كنت فى ضحوة شبابى ، وعنفوان قوتى ، فاختارونى جابياً لضرائب القطن فى باريش

وباريش بلد جميل ، يعزف السوستا فيه ألحانه على مجري حجرى وحصباء مفروشة ، فيمسها مساً رقيقاً ، كأنه أقدام راقصة ماهرة مُفْتَنَّة ، ثم يسير بين الآجام متثنياً مرحجنا . ويرتفع منه سلم درجاته خمسون ومائة ، يجثم فى أعلاه قصر من رخام أقيم على سفح الهضبة ، وأشرف على شاطئ النهر ، وأقام فى مكانه ذاك منعزلاً وحيداً . . فما كان حوله موطن لبشر ، بل خلفته منازل القرية فريداً .

فمنذ مائتين وخمسين عاماً على التقريب ابتنى السلطان محمود شاه الثانى قصره ذاك ليجعله آية ترف وموطن نعيم ، فماء الورد منبجس من نافوراته ، وغيد الفرس يفترشن رخام الأرض فى حجراته ، وشعورهن للاستحمام مرسلة محلولة ، وأقدامهن الناعمة عارية مبلولة ، تعبث فى الماء ، فتنطلق حناجرهن بالغناء ، ويرددن أصوات فارس على ألحان القيثار . ثم صوح جمال القصر وذهب عزه ،

فلا ماء الورد ينبجس من نافوراته ، ولا الصوت الرخيم يرن فى جنباته ، ولا الأقدام البيض تتيه بمرمرى أرضه وحجراته ، صار لجباة الضرائب مستقراً ومقاماً ، وأولئك رجال حرموا دل النساء فهم فى وحشة سادرون .

ولقد طالما حذرنى الحاج « كريم خان » من أن أتخذ فى ذلك القصر مقامى . فقد قال لى : « إن شئت فمضِّ هناك يومك ، ولكن إياك أن تبقى فيه ليلك ! » فضحكت منه بنفس لاهية وقلب جرىء . ورضى الخدم أن يعملوا هناك نهاراً على ألا يبيتوا فيه ليلا ، فوافقتهم دون مناقشة . فان للبيت اسما يبعث الرهبة حتى فى قلوب اللصوص ، فلا يجرؤون أن يقربوه متى حماه الليل بدرعه

ولقد جثمت على صدرى أول الأمر وحشة القصر المهجور ، فكنت أحب البقاء خارجه ، وأغرق نفسى فى العمل أطول مدة أستطيع ؛ فاذا أبت فى المساء كنت منهوكا مكدوداً ، فأنطرح على الفراش فتهجع عيني وتنام .

ولكن قبل أن ينقضى على ذلك أسبوع بدأ المكان يرينى من سحره عجباً ، حتى ليلتاث على الوصف ويعجزنى الأمر فما أعرف كيف أستطيع حمل الناس على التصديق . ولكني شعرت كأنما كان البيت كائناً حياً يمتصنى دون شعور ، ويخدرنى بافراز عجيب من معدته ! ولعل البيت بدأ عمليته مذ وطئته قدماى أول مرة ، ولكنى أذكر جيداً ذلك اليوم الذى عرفت فيه ماهو بسبيله .

كنا فى بواكير الصيف ، وكانت السوق راكدة فلم يكن لى ما أعمله ؛ وقبيل الغروب كنت جالساً على كرسى مريح على ضفة الماء قرب سلم النهر ، وكان السوستا قد أجفل ، فانحسر إلى أسفل ، فامتد على الضفة المقابلة كثيب من الرمل يشع بأضواء المساء . والحصباء تحت المياه الضحلة براقة ملتمعة ، وقد خمد الهواء وهمد فما تحس نفخة ريح ولا نفحة نسيم ، وتحمل برائحة قابضة نفثتها شجيرات توابل تنمو على التل المصاقب . وعند ماغابت الشمس وراء التل انسدل على مسرح النهار ستار طويل . وتعجلت التلال المحدقة ظلمة المساء فأجهزت على الشمس ، وابتلعت فترة الغروب حينما يشعشع الليل أضواء النهار . فخطر لى أن أذهب راكباً فى نزهة . وبينا أنا موشك على النهوض إذا بوقع خطوات على الدرج ورائي ، فالتفت فلم أجد أحداً ، فعزوت ما سمعت إلى وهم خداع وخيال غرار . وجلست وما كدت أفعل حتى تخيلت جمعاً كبيراً يهبط الدرج ، فأخذتنى رجفة من سرور ، وهزة من خوف . ولئن لم تبصر عيناى أحداً فقد خيل إلى أنى رأيت سرباً من عذارى كواعب يهبطن الدرج ليستحممن فى السوستا . تلك الأمسية من أمسيات الصيف . وما كنت تسمع فى السهل أو النهر أو القصر صوتاً يبدد السكون ، أو نأمة تخفف الرهبة ، ولكن أذنى نقلت إلىّ فى وضوح ضحكات العذارى ، مرحة سعيدة . وحينما ذهبن إلى النهر يتطاردن لاعبات كنتُ أسمع هديراً كهدير ارتطام ينبوع بمائة شلال . ولكنهن لم ينتبهن لوجودى ولعلهن لم يرينني كما قصر عنهن بصرى . وكانت صفحة النهر ساكنة هادئة ، ولكنى شعرت كأنما حركتها أيد كثيرة ، توسوس فيها الأساور ، ويأتلق فيها الذهب . ثم ضحكن فدافعن موجاً عاشقاً فما خلاهن إلا الموج عاشق . فتقاذفن برشاش الماء فرحات ، وضربن الموج بأرجلهن الصغيرة فانطلق فى الهواء حبات من لؤلؤ ؛ فارتجف قلبى عجباً ، وخيل إلىّ أنى أستطيع بشحذ الحس أن أسمع كل مايقلن ، فما سمعت إلا زقزقة العصافير فى الدغل القريب .

وخيل إلى أن ستراً من مائتين وخمسين عاماً قد قام من دونى ، فوددت لو رفعت منه ركناً ،

فأختلس النظر مرتعداً . ولكن الجمع ظل خفياً عن عيني ، يشمله الظلام فلا أراه . ثم هبت عصفة ريح فاجئة فأزاحت كابوس الليل ، وجعدت صفحة النهر ، فتلوى كشعر حورية . وانبعثت من الغابة المظلمة همهمة فكأنها أفاقت من حلم أسحم ...

فليكن ما رأيت حقيقة ، أو فليكن حلماً ، أو فليكن سراباً التمع من وراء مائتين وخمسين عاماً ، ثم خبا في مثل ومضة البرق ، أو لمحة البصر . ولكن هاتيك الكائنات السحرية التي ادّلفت من حولي ، تخطو بلا جسد ، وتضحك بلا صوت ، ثم ألقت بنفسها في النهر لم تعتصر أثوابها النضاحة بالماء عند ما همت بذهوب . بل حملها الريح على أجنحته ، كأنها عبير الزهر طوحت به أنفاس الربيع . فأفعمني خوف محبب ، وخشيت أن تكون عروس الشعر قد عابثتني ، فرأت وحدتي ، فاحتوتني ... وكأنما أتتني الساحرة لتحطم في شيطاناً فقيراً يتعيش من جمع ضرائب القطن ! فاعتزمت أن أهيئ لنفسي عشاء طيباً ، فالمعدة الفارغة موطن كل داء عياء . فبعثت في طلب الطاهي ، فأمرته باعداد عشاء فاخر .

وفي اليوم التالي بدا لي الأمر كله خيالاً عجيباً فتقبعت فرحاً وركبت إلى عملي . وكان على أن أكتب تقريري ذلك اليوم ، فتأهبت لعود متأخر . فلما آذنت الشمس بالمغيب إذا بي أجد نفسي مسوقاً إلى البيت لعلة لا أدريها . وإنما كنت أشعر «أنهم» جميعاً في انتظاري ، فلا يليق أن أتأخر أكثر مما تأخرت . فقمت والتقرير لم يتم ، ثم تقبعت وشرعت أطوي الطريق الكئيب بعربتي حتى شارفت القصر الواسع المنعزل ، الرابض في سفوح الهضاب

وكان سلم الطابق الأول يؤدي إلى بهو فسيح شيد سقفه على ثلاث أقواس منقوشة ، يحملها ثلاثة صفوف من أعمدة ضخمة ، والسقف متصل أنينه ، رازح تحت ثقل وحدته . وكان النهار قد آذن بزوال ولما تضأ المصابيح . فما كدت أدفع الباب حتى ابتدرني لجب وضوضاء ، كأن أقواماً يتدافعون مسرعين ، ويهرعون إلى الأبواب والنوافذ والدهاليز والشرفات والحجر ، ويستبقون إليها هاربين ... ولكني لم أر أحداً ، فوقفت مأخوذ اللب مشدوهاً . وقد قف شعر رأسي من نشوة مجنونة ، وسطعت في أنفي رائحة العطور والأدهان وقفت في ذلك البهو العريض المنعزل ، والظلام يكنفني ، وصفوف الأعمدة القديمة تحدق بي . فتبينت صوت نافورات تسفع بمائها رخام الأرض ، ولحناً غريباً يعزفه القيثار ، وخشخشة حلي ، ووسوسة خلاخيل ، ورنين أجراس تعد الزمن ، واصطفاق البلور في علائق الثريات ، وتغريد البلابل من أقفاص في الدهاليز ، ولقلقة اللقالق في الحدائق . تخلقت أصواتها حولي موسيقى غير أرضية

ثم أدى بي الأمر إلى الاعتقاد بأن هذه الرؤى التي لا تمس ولا تبلغها يد ولا تنتسب لأرض إنما هي الحقيقة الفريدة في هذا العالم . وليس ما عداها إلا حلما . فلقد كنت أذكر أن اسمي سرجوت بن طيب الذكر فلان ، وأني أتقاضى مرتباً قدره أربعمائة وخمسون جنيهاً ، جزاء وظيفة جامع لضرائب القطن ، وأني أركب كل يوم إلى مقر عملي في عربة صغيرة ، وسترة قصيرة ، وقبعة عريضة ، فلا أرى كل ذلك إلا وهماً عجيباً يبعث على السخرية ، فأنفجر ضاحكاً في صوت أجش ، وأنا واقف وسط البهو المظلم

وفي تلك اللحظة يدخل خادمي وبيده مصباح مضاء من الكيروسين . ولست أدري إن كان يحسبني مجنوناً ، ولكني كنت أفيء إلى عقلي وأثوب إلى رشادي ، فأومن أني حقاً سرجوت بن طيب الذكر فلان ، ومهما قال الشعراء إن على الأرض أو خارجها أصقاعاً تنبجس فيها نافورات لا تبصرها العين ، وتعزف أصابع غير مرئية على أوتار لا تسمعها الأذن ، مهما قالوا فأنا ولا ريب أجمع ضرائب القطن

من سوق باريش ، وتدر على مهنتى أربعمائة وخمسين جنيهاً في العام . ثم أضحك مما كنت أسبح فيه من وهم وضلال ، وأجلس إلى منضدتى الصغيرة فأقرأ الصحف على ضوء مصباح الكيروسين ، ثم أفرغ من صحيفتى ، وأتم عشائى ، وآوى إلى مضجعي فى غرفة صغيرة جانبية ، وأنظر من النافذة فاذا نجمة وضيئة تطالعنى من فوق تلال (آفالى) ، تحدق من ملايين الأميال إلى السيد الجامع ، راقداً فى فراشه الصغير المتواضع ... ! وأفكر فى ذلك وأطيل التفكير ، فيملأنى التفكير سرورا ، فلا أدرى كيف أغفلت عيني وران النوم على جفونى ، بل أهب فأقعد متفزّراً ، ولكنى لا أسمع صوتاً ولا أرى أحداً ، لاشئ إلا أن النجم خبا ، وضوء القمر الباكر يتسلل من النافذة المفتوحة كأنه خجلان من اندفاعه ، خزيان لتطفله ... !

لم أبصر أحداً ولكنى أحسست كأن يداً رفيقة تدفعنى ، فلما صحوت لم تنبس بكلمة ، بل أومأت إلى بأصابعها الخمس المحلاة بالخواتم أن اتبعني واحذر واتئد . فانتهضت لا أحدث صوتا ، ولم يكن فى القصر سواى ، فكنت فريداً فى أجنحته العتيدة ، نجياً لأصواته النائمة ، وأصدائه الحالمة . ولكننى كنت أخشى مع كل خطوة أن أوقظ أحداً . وكانت أغلب غرف القصر على الدوام مغلقة لا أطرقها أبداً . فاكتتمت أنفاسى ، وتبعت قائدتى التى لا أراها ، لا أدرى الآن إلى أين ... ! لله ما أحلك الظلام ، وما أطول الطريق ، وما أبعد المدى ... ! ولكم جزت من حجرات عليها مسحة الجلال ، ومررت بزنازين فيها خشوع الرهبة ، واتخذت من الظلام جلابيب سودا ! لم أك أري دليلتى الفاتنة ، ولكنى أبصرتها بعين خيالى ، عربية عذراء لها ذراعان قويتان لامعتان كالمرمر ، تبدوان من بين طيات كمها الفضفاض وقد ضربت على وجهها خماراً رقيقاً ، وتمنطقت خنجراً ملوياً . فخيل إلى أن ليلة من ألف ليلة قد أقبلت على من دنيا الخيال ، كأنها نفحة العطر يحملها نسيم الربيع . وكأنما كنت أسير في دروب بغداد النائمة والليل مظلم بهيم ، ميمما شطر مجتمع يحف به الزرايا .

وأخيراً توقفت قائدتى الحسناء قبالة ستر أزرق عميق الزرقة ، ثم كأنى بها أشارت إلى شئ أسفله . وما كان هناك من أحد ، ولكن جمد الدم فى قلبى من فزع ورهبة ، فقد خيل إلى أنى أبصرت على الأرض بين طيات الستر عبداً خصياً ، لابساً حلة من حرير مشجر ، وساقاه ممدودتان قدامه ، والسيف مسلول على فخذه . فمشت صاحبتى تسترق الخطي ، ورفعت من الستر ركنا ، فلمحت غرفة فرشت بأبسطة فارسية ، فيها سرير توسدته غادة لم أر منها إلا قدمين بديعتى التكوين ، فى كوث مذهب عجيب الصنعة ، تطلان من منامة سابغة فضفاضة زعفرانية اللون ، وتستريحان على بساط من مخمل برتقالى الصبغ ، وإلى جانبها طبق بلورى يتأهب لاستقبال زائر قريب ، بما فيه من تفاح وبرتقال وعنب وكمثرى وسكرية مذهبة ، وهفهف حوالىّ شذا بخور عطر فكان يغيب عقلى ، ويرين على حواسى

وتقدمت والقلب واجف والطرف طارف لأتخطى أقدام الخصي ، فهب مذعوراً فسقط السيف من على فخذه فرن على رخام الأرض . فصرخت مرتعباً فإذا أنا قاعد على الفراش أتصبب عرقاً ، والهلال يبدو شاحباً ، وقد كسفه ضوء النهار ، كعليل أشرف عليه الفجر ، ولم يهجع منه الطرف ولا نام . ومامر على المعتوه يصيح صيحة كل صباح : « مكانك ! مكانك ! إنك لفى ضلال ! إنك لفى ضلال ! » ويطوى بقدميه وحشة الطريق .

وكذاك ولى حلم ليلة ، ولكن بقى ألف حلم ، وتنافرت أيامى ولياليّ ، ففى الصباح كنت أذهب إلى عملى منهوكا مكدوداً ، لاعناً سحر الليل وبرقه الخلب ، فإذا أقبل المساء خلعت بردة النهار ،

وتقنعت بقلنسوة من مخمل أحمر ، وارتديت منامة فضفاضة وصداراً موشى ، وقفطاناً سابغاً هفهافاً . فإذا أخذت زينتى جلست على كرسى واتكأت على حشايا ، واستبدلت بلفائف التبغ « نارجيلة » ملواة ملؤها ماء الورد ، فكأنى أتأهب لاستقبال عشيقة موموقة ، وإن البيان ليقصر عن وصف ما تكشفت لى عنه ظلمة الليل من عجائب وخوارق

وبين موج الحلم الجميل ، وشذا الزهر العاطر ، ورنين القيثار الطرب ، وهفهفة النسيم المعرف ، كان الطرف يسنح فيلمح غادة وضاءة ، هى تلك التى رأيتها قبل فى منامة زعفرانيــة اللون ، وأبصرت منها قدمين بيضاوين ناعمتين ، فى كوث موشى بالذهب ، مَلْوِىّ مقدمه ؛ وكانت تتمنطق بنطاق من ذهب ، وتتقبع بقلنسوة حمراء تنوس حافتها على خد فى بياض السوسن ، وجبين فى صفاء الثلج . ولقد والله أخذت بلبى . فكنت أطاردها من حجرة إلى حجرة ، وأتأثرها من ردهة إلى ردهة ، وأتقفاها من بهو إلى بهو ، فى منعطفات خلقها الخيال ، ومنعرجات أوغلت فى ابتداعها الأحلام ، فكأنى أهيم فى الأرض السفلى ، أو أضرب فى طرقات الجحيم ! فأحس فى أريج الجو قبلات هائمة ، وبسمات حائمة ، ورنوات حالمة ، وتدليلا وعناقاً ، وقلباً خفاقاً ، وهمساً فى الأذن ! ثم تطوق جسدى أفعى عجيبة وتلف حويّاتها حولى ، فأفقد الحس وأروح فى نوم عميق

وذات مساء أزمعت الخروج على صهوة جوادى ولم أصغ لتوسل أو رجاء ، ولكن أى توسل ؟ وأى رجاء ؟ وكانت على المشجب قبعتى وسترتى ، فبينا أنا موشك أن أنتزعهما هب إعصار فاجىء محمل برمال السوستا ، وهشيم الأوراق الذابلة الساقطة على تلال آفالى ، فأطاحهما ودار بهما دورات عديدة فجلجلت ضحكة مرحة مُرِنَّة ، تعالت وارتفعت فياضة بالحبور والسعادة ، ثم تلاشت على تخوم الغروب ! فلم يعد عن البقاء محيص ولا متحول .

وفى اليوم التالى ألقيت — قانطاً — بقبعتى وسترتى فلما أدبر النهار ونشر الكون ذوائبه الطاخية ، سمعت فى هدأة الليل ولولة مكتومة تشق المرائر ، وكأنها صادرة من تحت الفراش ، من تحت أرض الحجرة ، من تحت أحجار ذلك القصر العظيم ، من أعماق هوة دامسة ، من أغوار جدث أسحم ! وسمعت صوتاً يستغيث : « أواه ! أنقذنى ! تخط أبواب الوهم ، وجز طرقات النوم العميق ، والحلم العقيم ! خذنى إلى جانبك على صهوة جوادك ، ثم ضمنى إلى قلبك ، وطِرْ بى فوق الربى والحزون ، واطو الغاب والنهر ، وجز رجام البيد ! خذنى إلى علاك المضيء ، وشمسك الصاحية ، وهوائك الطلق »

وفجأة فى تلك اللحظة صاح ماهر على المجنون : « مكانك ! مكانك ! إنك لفى ضلال ! إنك لفى ضلال » ! ففتحت عينى على ضوء يفيض فيغمرنى ، وإذا بخادمى قد أقبل بخطاباتى ، والطاهي ينتظر أوامرى ! فقلت : « كلا ! لن أبقى هنا بعد الآن »

وحزمت فى ذلك اليوم حقائبى ، وتحولت إلى مقر عملى ، فابتسم كريم خان ابتسامة طفيفة ، فاحتدمت غيظاً ولكنى لم أنبس بكلمة ، وانهمكت فى العمل ؛ فلما أقبل الليل شت منى الفكر وشعرت كأنى كنت ضربت موعداً لابد أن أوفيه ، وبدت لى مراجعة ضرائب القطن شيئاً تافهاً لا غناء فيه ، ثم خلت الحاضر وهما ، والسعى في سبيل العيش ضلالا وجرياً وراء عرض تافه . فألقيت القلم وطويت الدفاتر ، وركبت عربتى الصغيرة . ولاحظت أنها توقفت من تلقاء نفسها أمام بوابة القصر الرخامى ، وكان الشفق يكلل جبين الأرض ، فحثثت الخطى صاعداً الدرج ثم داخلا الحجرة . وكان يرين عليها

صمت عميق ، وقد ساد الظلام غرف القصر فبدت غاضبة معرضة . وامتلأ قلبي ندماً ولكنى لم أر أحداً أفضى إليه بسر فؤادى ، أو أسأله العفو والمغفرة ؛ فجست فى ظلمة القصر موزع الفكر مشتت الذهن ووددت لو كان لى قيثار فأضرب على أوتاره ،وأزجى منه الألحان إلى غادتي المجهولة : « أيتها النار ! إن الفراشة الضالة التى أرادت لتبتعد عنك قد عادت لترى بهاءك ، فاغفرى فانما هى مرة واحدة ، والهبى جناحيها بجذوتك! » وفجأة سقطت دمعتان فانحدرتا على جبينى ، وحلقت على تلال آفالى سحب سوداء، والأحراج الكئيبة تنتظر ، ومياه السوسنا القاتمة تترقب في قلق وسكون مخيف . ثم مادت الأرض، ومار الماء واهتزت السماء ،وهبت فى الغابة المهجورة عاصفة ثائرة ، ففرقعت أبواب القصر

وكان الخدم كلهم في مكتب عملي ، فلم يبق منهم أحد فيضيء المصابيح ، وكانت السحب منعقدة والقمر ممتحقاً ، فأحسست فى الظلام الدامس امرأة منبطحة على وجهها فوق سجادة تحت الفراش ، تشد بأصابع يائسة شعرها الطويل المتناثر ، وقد تسايل الدم على جبينها الوضاء ؛ وهي آناً تضحك ضحكات قاسية ، وآونة تصرخ صرخات مدوية

ولم تنقطع الريح طوال الليل ولا خمدت تلك الصيحة الأليمة ، فطفقت أهيم فى الظلام من حجرة إلى حجرة ، وقد سعر الهم قلبى ، وأظلم الحزن نفسى ... من أواسي ولا أحد بجنبي ؟ ومن هى تلك التى جن جنونها من عذاب وألم ؟ ومنذ متى جثم على قلبها ذلك الحزن المقيم ؟

وصاح الرجل المعتوه : « مكانك ! مكانك ! إنك لفي ضلال ! إنك لفي ضلال ! » فاذا النور قد انبثق ، والفجر قد بزغ ، وماهر على يطوف بالقصر يصيح صيحة فى ذلك الطقس اللعين ، وخطر لي أنه ربما كان قد عاش فى ذلك القصر أيضاً ، ثم لم يعقه عن المجيء جنونه ، فصار يأتى كل صباح ويحوم حوله مفتوناً بسحر المارد المرمرى ، فاندفعت إليه لا أبالي بالزوبعة الثائرة والمطر المنهمل ، ولم يجب الرجل ، بل نحاني عن طريقه ، وظل يحوم صائحاً صيحته المجنونة، فكأنه طائر يرفرف مسحوراً حول أنياب ثعبان، فغدوت إلى مكتبي وسط المطر المنهمر، فكأنى مجنون ذاهب العقل مسلوب الرشاد . وسألت كريم خان: «خبرني ما معنى كل هذا ؟» فقال: إن جدران هذا القصر ضمت عواطف كبتت ، ونزوات كتمت ، وشعلا من اللذة ثارت والتهبت ؛ فتصاعدت منه دعوات ولعنات من قلوب مكلومة ، وآمال محطمة ، فصيرت كل حجر منه جوعان ظمآن ، فكأنه غول جائع يتبلع كل من يدنو منه . فلم يستطع الإفلات من أنياب هذا القصر كل من أقام فيه ثلاث ليال متتابعة ، إلا ماهر على الذى دفع عقله ثمناً لنجاته

فسألت : « أما من خلاص ؟ » فأجاب الرجل العجوز : « هناك طريق واحد فحسب ، ولكنه صعب وعر ، وسأرشدك إليه ، ولكنى سأسمعك قبلاً قصة عذراء فارسية عاشت فى ذلك القصر الفخيم ، وإنها لقصة لم تعرف الأرض أفخم منها»

وفي تلك اللحظة تناقل السافرة أن القطار قد أقبل . هكذا سريعا ؟ وطفقنا نرتب أمتعتنا عجلين ، وبينما كان القطار يزفر زفيره وهو داخل المحطة ، رأينا رجلاً انجليزياً يطل من نافذة فى الدرجة الأولى ويحاول أن يقرأ اسم المحطة . وما كاد يلمح صاحبنا حتى ناداه وحياه وأخذه في رفقته . وكانت تذاكرنا للدرجة الثانية ، فلم نعرف الرجل ولا خاتمة قصته . فقلت : « من الواضح أن الرجل ظن فينا البلاهة والسذاجة فاتخذنا هزأة وملهاة ، فالقصة خيال من مبدئها إلى منتهاها »

شكرى محمد عياد

أجلاڤين وسيليزيت

رواية تمثيلية في خمسة فصول

للكاتب البلجيكي موريس مترلنك

بقلم الدكتور محمد غلاب

الفصل الثالث

المنظر الأول

يقع هـذا المنظر فى حديقة القصر بين « ميلياندر » و « سيليزيت »

سيليزيت — عفواً يا ميلياندر ، فأنت تريد أن تكون منفرداً ، وأنا دائماً مبعث من مباعث أحزانك ، ولكنني سأنصرف حالا . أنا خارجة الآن من غرفة « أجلاڤين » إنهـا نائمة وقد قبلتها فوق شفتيها وبالرغم من أن النجوم تسطع فوق سريرها فإنها لم تستيقظ . أنا لن أعوقك وقتاً طويلا وسنذهب معاً لنوقظها بعـد قليل ، لأنها تبكى فى حلمها ، وأنا لم أجرؤ على إيقاظها وحدى ، ولكنني أريد أن أتحدث إليك عن شئ ، ولا أدرى أمحقة أنا فيه أم مخطئة ؟ كما أنى لا أدرى أخير ذلك الشئ أم شر ؟ ولا أريد أن أسأل عنه « أجلاڤين » ولكنني أسألك الصفح عنى إذا كنت خاطئة

ميلياندر — ماذا حدث ياسيليزيت ؟ تعالى هنا ، تعالى على هذا المقعد واجلسى على ركبتى ، لأداعب شعرك أثناء حديثك معى ، ومن حيث أن الظلام سيحول بينك وبين رؤية وجهى فلن ترتاعى من شئ . أنا أعتقد أن لديك شيئاً ثقيلا يجهد قلبك

سيليزيت — ليس هذا الشئ فوق قلبي ، وإنمـا هو فوق أنا ، ولا أستطيع أن أقول : أين هو ؟ إنه يمكن أن يكون فوق روحى ، وإنه لشئ ثقيل ، وهو يلهم الفهم ، وإن كنت لا أدرى ما هو موضوع ذلك الفهم غير أنى أرزح تحت هذا الثقل

ميلياندر — لقـد تغيرت كثيراً يا سيليزيت ، وأنا أيضاً لدى كلام أريد أن أتحدث به إليك ، أنا لم أعد أرى وجهك السابق ، وأما زهرتاوجنتيك فلم تعودا تنتعشان تحت قبلاتى كما كانت الحال قبل الآن إذ كنت تضحكين كلما قبلتك

سيليزيت — فيما مضى كنت أضحك فى أغلب الأحيان ، أما الآن فأنا أكثر سعادة

ميلياندر — لا أدرى أحقاً ماتقولين أم غير حق ياسيليزيت ، إذ قد يحدث أحياناً أن تشعر الروح بالسعادة بينما يكون القلب قد وصل إلى أقصى حدود الاحتمال ، ولكن فلندع كل هـذا ولتقولى لى قبل كل شئ : ما الذى يعذبك هذا المساء ؟

سيليزيت — هو أن أجلاڤين سترتحل

ميلياندر — أجلاڤين ؟ هل قالت لك ذلك ؟

سيليزيت — نعم

ميلياندر — متى ذلك ؟ ولماذا ترتحل ؟

سيليزيت — هى لم تنبئنى بالسبب ، ولكنها تؤكد أنها سترتحل مادامت تعتقد أن هذا هو الشيء الذى ينبغي عمله ، ولهذا أنا أسائل نفسى : أليس الأفضل أن أكون أنا التى يجب عليَّ أن أرتحل ؟ .

ميلياندر — أنت ؟ ماذا حدث ؟ .

سيليزيت — لم يحدث شيء ، وانى أرجوك — إذا لم ترد أن تبكيها بدون سبب — ألا تتحدث إليها بذلك . ولكن أرأيت ياميلياندر أنى فكرت فى كل هـذا حينما كنتما معا ، وأنا كنت بجانب جدتى ؟ . عند ما كنتما تعودان من النزهة سعيدين مرتبطين ، كان كل من يراكما على هذه الحال يصمت بالرغم منه ، أما أنا فقد كنت أقول لنفسى فى أغلب الأحيان : إنني لست إلا شيئاً صغيراً ضئيلا غير قمين باصطحابكما ، ولكنكما كنتما دائماً خيِّرين نحوي بدرجة لم أتبينها إلا فيما بعد ، وفى أكثر الأحيان كنتما ترغبان فى أن أرافقكما ، لأننى كنت حزينة ، وحينما كنت أصطحبكما كنتما تظهران أكثر غبطة من المعتاد ، ولكن روحيكما لم تكونا تحتفظان بسعادتهما ، وكنت بينكما أجنبية فاترة ، ومع ذلك فليست هذه غلطتكما ولا غلطتى أنا أيضاً . أنا أعرف جيداً أننى لا أستطيع أن أفهم كل ذلك .

ميلياندر — ياعزيزتى سيليزيت الخيرة ، إن أجلافين محقة فيما تقوله عنك ، وإننى لم أكن أعرف أنك نقية إلى هذا الحد ، ولكن ما الذى تظنين أنك لم تفهميه ؟ هل تظنين أن هناك شيئاً نفهمه نحن ، وأنت لاتفهمينه ؟ أنا آسف ياسيليزتى المسكينة ، فالفرق بين الأشياء ضئيل إلى حد أن الإنسان لايستطيع أن يعلل لماذا هو يحب أو يبغض ؟

ولكن من حيث إنك استطعت أن تقولى ما قلته الآن ، فأنت لم تعودى فى حاجة إلى أن تفهمى شيئا جديراً ، وإنما أنا وحدى الذى لم أكن أفهم .

سيليزيت — لا لا يا ميلياندري المسكين . إن خيريتك هى التى تتكلم الآن . إننى أعرف ما الذى ينبغى أن يكون ، ومع ذلك فأنا لن أستطيع أن أكون مثلكما .

ميلياندر — أنا لم أعد أعرفك يا سليزيت كأننى لم أكن قد رأيتك قبل الآن . إننى لم أكن أفهمك ، لست أدرى من أية سماء أنت تنزلين عند ما تتكلمين بهذا الأسلوب ؟ ! .

سيليزيت — إننى أنزل من أجلافين يا ميلياندر .

ميلياندر — إننا جميعاً ننزل من أجلافين ياطفلتى إذ أننا منذ عرفنا أجلافين لم يعد لدينا منبع مشتهى لإطفاء غلتنا إلا منبع الجمال ، ولكن هل تظنين أنه يوجد فرق كبير بين روحك وروح أجلافين ؟.

سيليزيت — نعم أنا أظن أنه يوجد بين روحينا فرق عظيم .

ميلياندر — أنا لا أظن ذلك ، ولا سيما حينما كنت ألمح ما كان يختبئ فى نفسك وراء ضحكات تشبه ضحكات الطفولة البريئة . إن الانسان يتجه عادة إلى الأرواح التى تعرف كيف تظهر نفسها ، على حين يجب عليه أن يعرف جيـداً أن الأرواح التى لا تظهر نفسها قد لا تقل نبلا عن الأولى ، بل يمكن أن تفوقها فى السمو ما دامت هى واثقة من نفسها.

سيليزيت — لا لا ، مهما أعمل فسيكون عملى نوعاً من العبث ، إنه ليس مماثلا لعمل أجلافين من جميع الوجوه ياميلياندر ؛ وحينما أعمل شيئاً تحبه فإنما أكون قد حاولت أن أقلد فيه أجلافين .

ميلياندر — سيليزيت . . . .

سيليزيت — أوه يا ميلياندر أنا لم أقل هـذا الـكلام لئؤنبك ، فهل فهمته كذلك ؟ أنا لم أعد كما كنت سابقاً ولن أقدم فى المستقبل تأنيباً إلى أحد . أنا لا أعرف ما الذى غيرنى هكذا . ولو أن قائلاً قال لى منذ زمن : إننى سأكون سعيدة بصيرورتى أكثر حزنا أو أنني سأضع شفتي فوق شفتي تلك التى تحبها لما صدقت من ذلك شيئاً ، ومع ذلك فأنا أفعـله .

ميلياندر — أنا لا أدرى ما الذى تخبئه السماء للرجل الذى تحوطه بمثل هذه الظروف .

سيليزيت — أنا لست إلا شيئاً ضئيلاً ، ولـكننى أريد أن أكون خيراً مما أنا الآن ، وأريد أن أكون محبوبة ، وأن يبكى من يحبنى كما تبكى أنت حين تعجب بها .

ميلياندر — عمن تتكلمين ؟

سيليزيت — أنا أتكلم عن التى أنت تفكر فيها بدون شك كلما تكون صامتاً .

ميلياندر — حينما أكون بجانبك فانما فيهـا أفكر ، وحينما أكون بجانبها فانما بك أحلم .

سيليزيت — لقد رأيت جيداً أن الحالة ليست واحدة ، وأن الدموع التى تذرفها علىّ ليست هي الدموع التى تسكبها عليها ، وأن هذه الأخيرة تجئ من أمكنة أبعد من أمكنة الشفقة التى تجئ منها الدموع المسكوبة علىّ ، ولأني أعرف أنها منبعثة عن أسباب غير قابلة للنسيان . وحينما تقول لى : إنك تحبنى ، لـكي أكون أقل حزناً لن تستطيع ألبتة أن تقول لى ما تقوله لأجلافين .

ميلياندر — أنا لا أدرى ما إذا كنت أقول لك نفس الـكلام يا سيليزيت ، لا يقول الانسان ما يريده بالضبط ، وحينما يريد أن يتحدث إلى من يحبه ، فانه لا يزيد على أنه يجيب عن أسئلة نفسية لا تسمعها الأذن ، وهذه الأسئلة النفسية لا تتشابه فيما بينها ، ولذلك تختلف أحاديثنا دون أن نعلل ذلك أو أن نفهمه ، غير أن أسئلتك النفسية المشتملة على براءة الطفولة لا تقل جمالاً عن أسئلة أجلافين وإن كان النوعان ليسا من منبع واحد ، ولهذا ينبغي ألا تحزني ، كما ينبغى ألا توجـد الغيرة بين الأرواح . هل تعتقدين أنى لا أتحدث إليك الآن كما لو كنت أتحدث إلى أجلافين ؟ وهل تظنين أنه يمكن أن يتحدث أحد إلى أى كائن بشىء آخر غير ما أتحدث به إليك ؟ . أوه ياسيليزتى المسكينة ! لو أن ملـكا نزل من السماء بين ذراعى ليأخذ مكانك لـما فتحت له قلبى بنفس البساطة والعمق اللذين أفتح بهما قلبى لك . ولم يبق مما ينبغي أن أقوله لك بعد الذى قلته إلا ما لا يقال فى هذه الحياة الدنيا . فلننتظر ياسيليزيت فاما أن ترتحل أجلافين أولا ترتحل ، إذ هى وحدها التى تعرف ذلك ، وهى لاتضل فيما تعمل ، ولـكن سواء أمكثت أم ارتحلت ، فانها عرفت كيف تكشف لي عن كنزك وكيف تعلمنى أن أحبك بطريقة لم أكن أعرف قبل ذلك سلوكها ، وعلى أي حال من الأحوال ياسيليزيت إذا كان هناك أحد ينبغي أن يظل يبكى فليس هو اياك ، وفوق ذلك ، هل تظنين أننا نصير سعيدين لو ارتحلت أنت يا طفلتى ؟ وهل تظنين أن سعادة تؤسس على ألم كائن صغير نقي وديع مثلك تـكون سعادة طويلة الأجل أو جديرة بنا ؟ وهل تظنين أننى أستطيع أن أقبل أجلافين أو أنها تستطيع أن تحبنى إذا قبل أحدنا هـذه

السعادة المؤسسة على شقائك ؟ نحن نتحاب حبا يفوق شخصيتنا سمواً . ومنذ زمن لم يعد يمكننا أن نحبك دون أن نراك . تعالىَ إلي وأعطيني شفتيك . أنا أقبلك قبلة روحية هذا المساء ياسيليزيت . تعالى فأنا أظن أن الساعة الثانية عشرة تدق الآن . هلمى بنا لنرى هل أحلام أجلافين لاتزال تبكى فى نومها؟

المنظر الثانى

(يقع هذا المنظر فى أحد أجنحة القصر بين أجلافين وميلياندر اللذين يدخلان فجأة)

أجلافين — هل تسمع صوت هذا الباب الذى يغلق ؟

ميلياندر — نعم .

أجلافين — إنها سيليزيت وقد سمعتنا وأرادت أن تتركنا وحدنا .

ميلياندر — لقد قالت لى إنها ستصعد فوق البرج فى هذا الصباح ، لأنها علمت أن طائراً عجيباً قد وفد إليه .

أجلافين — إنى متأكدة أنها كانت هنا ، وأن كل شيء فى الغرفة يلوح عليه أنه ينتظر عودتها . أنظر هذه الأدوات الصغيرة التى تستعملها فى الحياكة والنسج ، فانها لا تزال موضوعة فى النافذة مع الخيوط الحريرية : الفضية والذهبية ، ومع الأحجار التى ترصع بها ملابسها .

ميلياندر — وها هو خاتمها الذى كتب عليه اسمانا ، وها هى بنفسجتها ، وها هو منديلها . قال ذلك ثم تناول المنديل دهشاً حينما وجده مبللا .

أجلافين — ما ذا حدث ؟

ميلياندر — ماداً إليها المنديل : خذى هذا المنديل وانظرى كيف هو .

أجلافين — آه .

ميلياندر — إنها احتفظت لتنا بحرارة دموعها

أجلافين — أنت ترى جيداً أنها ما دامت لا تتكلم فان هذه الأشياء الصغيرة ستتكلم نيابة عنها لتقول لى : إن الوقت قد أزف . دع لى هذا المنديل ... أيها البرهان الصغير : إن من لا يفهمك يجب أن يكون ميتاً .

ميلياندر — يناديها محاولاً تقبيلها .

أجلافين — لا تقبلنى اليوم وأحببها جيداً يا ميلياندر .

ميلياندر — أنا لا أدرى ما ذا أعتقد . يخيل إلىَّ أحياناً أنني أحبها كما أحبك ، وأحياناً أخرى أكثر منك ، لأنها أبعد منك عنى ، وأكثر غموضاً أمام فهمى ؛ ثم حينما أراك ينمحى كل ماحولها فلا أعود ألمحها ، ومع ذلك ، فلو أنى فقدتها إلى الأبد ، فانى سوف لا أستطيع أن أعانقك بدون حزن .

أجلافين — أنا أعرف جيداً أنك تحبها ، ولأجل ذلك ينبغى أن أرتحل .

ميلياندر — أنا لا أحبها إلا فيك ، وإذا ارتحلت فلن أحبها بعد الآن .

أجلافين — أنا أعرف جيداً أنك تحبها وأعرف ذلك إلى حد أننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أشتهى أحياناً مثل هذا الحب الذى تمنحه إياها . ينبغى ألا تظن أننى كاملة من جميع الوجوه . إذا كانت سيليزيت لم تعد كما كانت فى الماضى فأنا أيضاً قد تغيرت بمقامى بينكم . لقد جئت إلى هنا ، وأنا أكثر حكمة مما ينبغى أن أكون . لقد كنت مقتنعة ، بأن الجمال لا ينبغى له أن

ينشغل بالدموع التى تذرف بسببه ، وقد كنت أظن أن الخيرية لا مرشد لها إلا الحكمة ، ولكننى الآن أعترف أن الخيرية لا ينبغى أن تكون حكيمة دائما وأن الأفضل لها أن تكون إنسانية ومجنونة . لقد كنت أعتقد أننى أجمل النساء . والآن أنا أعترف أن أصغر الكائنات قد تساوينى فى الجمال ، وإن كانت لا تعرف ذلك . أنا حين أنظر إلى سيليزيت أسائل نفسى فى كل لحظة : أليس كل ما تتخبط فيه روحها البريئة أعظم وأطهر ألف مرة من جميع ما يمكن أن أفعله أنا ؟ إنها لجميلة إلى درجة تعجز كل تعبير ؛ وليس عليها لاكتشاف جمالها إلا أن تنحنى قليلا ، فانها إن فعلت وجدت فى قلبها كنزا عظيما ، فاذا عثرت على هذا الكنز ، أفاضته على من يحوطونها دون علم منها كأنها عمياء صغيرة تملأ يديها بالجواهر ثم توزعها وهى لاتدري ماذا توزع .

ميلياندر — إن هذا الأمر عجيب . حينما تتحدثين إلي عنها فانما أنت وحدك التى أعجب بها والتى أحبها أكثر من ذي قبل ، وأنه لايستطيع شيء فى العالم أن يحول بينك وبين الاتصاف بجميع هذه المحامد التى أفضتها عليها ولو أن إلها تدخل فى الأمر لما استطعت أن أحبها كما أحبك .

أجلاڤين — إن هذا لهو ظلم الحب . فلو أنك أثنيت على أخيك ، لعرفت أنك الذى صرت أكثر جمالا . إننى أريد أن أعانقك وأن أبكى يا ميلياندر . إنه من المستحيل إذاً أن يسلو المحبان عن حبهما

ميلياندر — أنا أظن أن ذلك مستحيل . وقد رأيت هذا بنفسى آنفا حينما كنت أتحدث إلى سيليزيت ، لأنى حينما كنت أتحدث إليها كنت أشعر أن الحب لا يريد أن يتصل بما كنت أقوله أو أفكر فيه ، ولابما كانت تقوله هي أوتفكر فيه

أجلاڤين — حينما جئت إلى هذا القصر كنت أعتقد أن كل شيء ممكن ، وأن أحداً لن يتألم ، ولكننى اليوم أرى أن الحياة لاتريد أن تخضع لمشروعاتنا الجميلة ، وإننى أعرف فى نفس الوقت أننى إذا بقيت إلى جانبك وكان هذا البقاء مؤلما لأحد فإننى لن أكون جديرة بك . وإذا أنت أقررت ذلك ، فلن تكون جديراً بى ولن يكون حبنا إذ ذاك شبيها بحبنا الحاضر .

ميلياندر — قد يكون هذا حقا ، ولكن ألا نكون مصيبين لو أننا فعلنا ذلك ؟

أجلاڤين — إن الصواب فى مثل هذا الموقف شيء تافه . وإننى أعتقد أنه ينبغي للانسان أن يظل طول حياته مخطئا فإن ذلك خير له من أن يبكى المخطئين . أنا أعرف كذلك كل ما ينبغى أن يقال ، ولكن لماذا يقال لنا ذلك مادمنا نعرف جيداً أنه لا يستطيع أن يغير شيئا من تلك الحقائق العميقة التى لا تصغي إلى معسول الكلمات ؟ يجب ألا نستمع إلا إلى ذلك الداعى الذى يدعونا دون أن يؤلف جملا . إن الذى يقتاد حياتنا بالرغم من ألفاظنا وأفعالنا إنما هو بساطة الأشياء ، وإن الانسان ينخدع دائما كلما أراد مقاومة البساطة . من يدرى لأى سبب تلاقينا فى هذا الوقت المتأخر عن الأوان ؟ ومن يجرؤ على القول بأن القدر الذى فعل هذا ليس هو منتهى الحكمة الإلهية . . . . إننا عاقلان فى هذه اللحظة ياميلياندر المسكين إلى حد أن من يسمعنا نتكلم فى هذه الآونة لا يتردد فى أن يقول : إنهما يتحابان حبا فاتراً ، وإنهما يجهلان الحب الحقيق جهلاً تاماً ، وما ذلك إلا لأننا قد تحابينا حبا أعلى

من أن يفكر فيه المحبون العاديون .

ميلياندر — إننى أحبك يا أجلافينى ، وإن الحب الذى من هذا النوع هو أرقى أنواع الحب

أجلافين — إننى أحبك يا ميلياندرى ، وإن هذا الحب يعد الخالد حقا .

ميلياندر — والآن قد فكرت فيما ستكون عليه حياتنا حينما يفترق كل منا عن الآخر ولا يبقى لنا من هذا الحب إلا تذكار صغير يظل يضؤل مع الزمن شأن كل الذكريات التى تعفيها الأيام . ماذا سأعمل أنا هنا ؟ وماذا ستعملين أنت هناك فى العام المقبل ؟ لاشك أننا سنتعب الأيام والشهور بمدأذرعتنا في الفراغ عبثاً وبدون فائدة . من المؤسف أننى لا أريد أن أبكى مع أن أقل تفكير فى حالتنا هذه يدعونا إلى أن نتعانق حتى تنفطر قلوبنا . عبثاً نحاول أن نقنع أنفسنا بأن حبنا سيظل كما هو رغم السنين والغابات والبحار التى ستفصل بيننا . إنه يوجد فى حياتنا كثير من الأوقات التى لاتستطيع فيها أحلى الذكريات أن تعزى المحبين عن الفراق الطويل المدى .

أجلافين — أنا أعرف جيداً أن القول بأن الحب مع الفراق يظل كما هولا يعزى إلا لفظيا فحسب، إذا بقينا معا فسعادتنا ستكون أمراً ممكناً ، وإذا افترقنا فشقاؤنا سيكون شيئاً محققاً ، ومع ذلك فنحن الاثنان نشعر أن ما سأفعله أنا ، وهو الرحيل فهو ما ينبغى أن يفعل ، ستبكى منه وقتاً طويلا ، وأنا سأبكى إلا الأبد ، لأنه لا يكفى المرء أن يفكر فى أنه قام بعمل نبيل لكي يحول بين عينيه وبين سكب الدموع ، ومع ذلك ، فينبغي لأولئك الذين استطاعوا أن يحبوا ما لم يستطع غيرهم حبه أن يحتملوا مالا يحتمله غيرهم . إنه لا توجد على مثل عواطفنا هذه مكافأة ، وإننا نحن أيضاً لا ننتظر مكافأة .

المنظر الثالث

(يقع هذا المنظر فى أسفل أحد الأبراج القديمة العالية بين أجلافين وميلياندر)

أجلافين — لقد رأيتها هذا الصباح فوق البرج وحولها عدد من الطيور البحرية تصيح بأصوات عالية . إنها تصعد فوق هذا البرج بدون انقطاع منذ يومين أو ثلاثة أيام ولا أدرى ما هو الأثر الذى يحدثه ذلك العمل فى نفسى . إنها تظهر فى نفس الوقت أكثر قلقاً وأقل حزنا ، وكأنما هناك شئ يجهز في داخل هذا القلب الصغير العميق .

ميلياندر — يخيل إلي أنها أخذت تبتسم من جديد لحياتها القديمة الشبيهة بحياة الطفولة التى كانت تحياها قبل حضورك إلى هنا . ألم تلحظي أنها أخذت تغنى وتنتعش ؟ إنها تسير أمامنا كما لو كان هناك نور غير منتظر يضئ لها الطريق . ألا ينبغى أن نترك الحديث الآن فى أمر رحيلك إلى أن تسترد هدوءها وأن يثبت فى نفسها هذا التطور الجديد ؟ .

أجلافين — لا ، أنا أريد أن أعلن لها رحيلى اليوم .

ميلياندر — ولكن كيف ستعلنين لها ذلك وألا تخشين أن هذه الطفلة التى اقتربت كثيراً من قلبينا والتى لم تعد تحيا إلا فيك — تتألم من رحيلك كما تتألين أنت لو أنك رأيت كائناً أسمي منك يضحى بحظه فى الحياة فى سبيل حظك الذى هو أدنى منه ؟

أجلافين — ليس لنا الحق فى أن نزن أو نقدر حظوظ الآخرين ، ولكننى أيضاً فكرت فيما ينبغي أن أقوله لها . فى أول الأمر فكرت فى أن أكذب

عليها حتى لا تتألم . لا تبتسم يا ميلياندر . حقاً إنني لست امرأة عادية ، ولهذا أنت تتصور أنني لا أكذب ، ولكنك تغالي في هذا ، فأنا أملك فن الكذب وأعرف لجميع أخواتي النساء كيف أكذب كلما أعلن الحب أن الكذب أمر ضروري ، لقد كان في نيتي أن أقول لها : إنني لم أعد أحبك وإنني كنت مخدوعة فيك ، وإنك أنت أيضاً لم تعد تحبني إلى غير ذلك مما ينقصني في عينها ، ويجعلني غير قمينة باحترامها ، وبالتالي يبدد أسفها علي ؛ أردت كل هذا ، ولكنني شعرت أمام عينيها الواسعتين الطاهرتين أنه من المستحيل على أن أقول لها ذلك مادام يخالف الحقيقة . استمع : إنني أسمعها تغني وهي نازلة على سلم البرج . انصرف أنت ودعني أتحدث إليها وحدي ، لأنها تقول لي ما لا تستطيع أن تقوله لك ؛ ثم إن الحقيقة لا تنزل من سمائها أجمل ما تكون إلا حين تستطيع أن تأخذ مكانها بين كائنين اثنين.

(يخرج ميلياندر ويسمع صوت سيليزيت وهي تقترب من أجلافين شيئاً فشيئاً مترنمة بأنشودة حزينة ينتهي آخر مقطع منها بهذه الكلمة : إنني أرى الموت لايزال ينتظر !)

أجلافين — أوه يا سيليزيت ما أوسع عينيك ! وما أكثر نورهما في هذا الصباح ! .

سيليزيت — هذا لأن لدي اليوم فكرة جميلة يا أجلافين .

أجلافين — نبئيني بها ياسيليزيت ، لأن الانسان لا ينبغي له أن يخفي الفكرة الجميلة التي تسعد الناس جميعاً .

سيليزيت — لا أستطيع حتى الآن أن أنبئك بها

أجلافين — حدثيني عنها مع ذلك فقد أستطيع أن أساعدك في تنفيذها .

سيليزيت — إن ذلك لهو منشأ عذابي ، فأنا أشتهي أن أحيط أحداً بها علما ، لأنني لا أعرف شيئاً وحدى ، ولكنني إذا أخبرت بها أحداً صارت أقل جمالا من ذى قبل .

أجلافين — أنا لا أدرى ما عسى أن تكون هذه الفكرة ، ولكن يخيل إلى أن أية فكرة تزيد جمالا كلما زاد الاعجاب بها .

سيليزيت — وها هي ذى سيليزيت الصغيرة أيضاً لديها سر تعرف كيف تحتفظ به ، ولكن ما ذا كنت تعملين في مثل موقفي هذا لو أنك كنت سيليزيت الصغيرة ثم رأيت أجلافين الأكثر منك جمالا تقبل زوجك ؟

أجلافين — أنا أعتقد أنني في مثل هذا الموقف كنت أحاول أن أكون سعيدة كما لو أن أحداً حمل إلى منزلى نوراً جديداً ؛ وكنت أجتهد في أن أحب تلك السيدة كما تحبيني الآن يا سيليزيت

سيليزيت — أما كنت تصيرين غيورة ؟

أجلافين — أنا لا أدرى فقد يكون من الممكن أن تمر بي لحظات أحس فيها بالغيرة ، ولكن لو وقع لي شيء من ذلك لما تعدى أعماق نفسي ولاجتهدت في أن أكون سعيدة .

سيليزيت — لقد أوشكت أن أكون سعيدة يا أجلافين .

أجلافين — لا ينبغي أن تشعري دقيقة واحدة بعد الآن أنك شقية يا سيليزيت .

سيليزيت — لو أنني كنت متأكدة من أن فكرتي حسنة لأصبحت في منتهى السعادة .

أجلافين — لماذا لا تكون فكرة حسنة ما دامت ستصيرك سعيدة ؟ .

سيليزيت — إن من الصعب على أن أعرف ذلك ، وإننى وحيدة .

أجلافين — ولكن لماذا لا تتحدثين بها إلى وأنا واثقة من أنني أستطيع مساعدتك .

سيليزيت — نعم نعم أنت ستساعدينى ولكننى أريد أن تفعلى ذلك دون أن تعرفيه .

أجلافين — أنت إذاً تريدين أن تخفى عنى شيئاً

سيليزيت — سأخفي عنك شيئاً ، ولكننى أخفيه ، لكى أظهره عند ما يصير جد جميل .

أجلافين — متى سيصير ذلك الشيء جميلا ؟

سيليزيت — عند ما سأعرف ، عند ما سأعرف ستحبانني أنتما الاثنان حباً أقوى من حبكما الحاضر

أجلافين — وهل يمكن الانسان أن يحب أكثر من هذا الحب يا سيليزيت ؟

سيليزيت — كم أنا أشتهى أن أعرف ماذا كنت ستعملين لو أنك فى موقفى ؟ !

أجلافين — إنى مستعدة لأن أقول لك ذلك

سيليزيت — أما أنا ، فلو أنى قلت لك ما سأفعله لما كانت حالتك بعد القول مماثلة لحالتك قبله ولأبيت أن تنبئينى بالحقيقة .

أجلافين — ألم أقل الحق دائماً ؟

سيليزيت — بلى ، أنا أعرف جيداً أنك تقولين الحق ، ولكنك فى هذا الموقف كنت لا تستطيعين أن تقولى الحق .

أجلافين — أنت عجيبة فى هذا الصباح ، ويجب أن تحذرى من أن تكونى مخدوعة .

سيليزيت — لا ، لا ، تعالى أقبلك يا أجلافين ، إذ بقدر ما أقبلك أكون واثقة من أنى لا أنخدع

أجلافين — عندى ما سأقوله لك .

سيليزيت — ماهو إذاً ؟ كأنك أنت أيضاً لا تجرئين أن تقولي لي ماعندك ، أيمكن أن يكون مماثلا لما عندى ؟

اجلافين — وما هو الذى عندك ؟

سيليزيت —لاشيء ، لاشيء ، أنا أثرثر ، ولكن قولى حالا : ما الذي عندك ؟

أجلافين — إن ذلك يحزنك ، ومع ذلك فقد كان ينبغى أن يسعدك .

سيليزيت — أنا لن أبكى بعد الآن أبداً ، بعد الآن يا أجلافين .

أجلافين — ماهذا ؟ إنك تقولين ذلك الكلام وعلى وجهك مسحة يخيل إلى أنها غريبة .

سيليزيت — لكن لا ، لكن لا . أنا لن أبكى بعد الآن ، وهذا هو كل شيء . أليس ذلك طبيعياً ؟ .

أجلافين — دعيني أنظر فى عينيك .

سيليزيت — انظرى انظرى ؛ ماذا ترين ؟ .

أجلافين — عبثاً أكد الناس أن أرواحنا تظهر من خلال أعيننا ، إذ الحقيقة هى أنه كلما نظر أحد إلى العينين خيل إليه أن الروح تفر من أمام نظراته ، وحينما أغمس نظراتى فى ماء عينيك النقى يخيل إلي أن هاتين العينين هما اللتان تسألانى قائلتين : ماذا تقرئين فينا بدل أن تجاوبا على سؤال لا أستطيع أن أوجهه إليهما .

سيليزيت — ماذا عندك فتنبئينى به ؟ . .

أجلافين — تعالى بين ذراعى ياسيليزتي الصغيرة التى كدت أحرمها من أعز مالديها .

سيليزيت — أأنت حزينة يا أجلافين ؟

أجلافين — لا ، أنا لست حزينة ، لأنك ستكونين سعيدة .

سيليزيت — إن فى عينيك قطرات من الدموع أريد أن أجففها .

أجلافين — لاتنشغلي بهذا ، وأنت إذا بكيت فسأتولى تجفيف دموعك قبل أن أنشغل بدموعى . والآن لنجلس هنا على عتبة البرج كما جلسنا فى ذلك المساء الذى تحدثنا فيه للمرة الأولى . أتذكرين المساء الذي كنا فيه على حافة خزان المياه ؟ لقد مضى على ذلك أكثر من شهر وجدت اثناءه أشياء وانعدمت أشياء وأصبحت أرواحنا أبعد نظراً من ذى قبل . أعطيني شفتيك ياسيليزيت فلن نفوز بلحظات أخرى تشبه هذه اللحظة ، لأنني سأرتحل غداً ، وكل مانعمله فى اللحظة الأخيرة يظهر أمام قلبينا البائسين أكثر جدية وعمقاً من كل ماحدث أولا .

سيليزيت — أسترتحلين غداً ؟ .

أجلافين — نعم غداً ياسيليزيت ، وهذا ما كنت أريد أن أقوله لك . لقد أردت فى أول الأمر أن أخفي عنك ذلك وأن أكذب عليك لكى أؤخر ألمك بعض الشىء ، ولكنى أراك جميلة وأحبك حباً عالياً يستطيع ألا يحول بينك وبين ألم يقربك منا . وفوق ذلك ، فاذا عاش أشخاص ثلاثة أشهر تحت ظلال الحقيقة كما عشنا تبدلت حالهم وأصبح الجو الذى يعيشون تحته غير قابل لكل مايخالف الحقيقة ، ولأجل هذا أنا أعلن لك أنني سأرتحل غداً ، لكى تصيرى سعيدة ، وإننى أقول لك هذا الآن لتعلمى أنى أتألم كثيراً من ارتحالى على هذه الصورة فتتألمي بدورك ، وهذا الألم هو نصيبك من التضحية ، لأن كلاً منا نحن الثلاثة يضحى بنصيب فى سبيل شىء لايعرف اسمه ، ولكنه فوق قوته . ولكن أليس غريباً ياسيليزيت أننى أحبك وأحب ميلياندر ، وميلياندر يحبنى ويحبك أنت أيضاً ، وأنت تحبيننا نحن الاثنين ، ومع ذلك فلا نستطيع أن نحيا سعداء ، لأن الساعة التى يستطيع فيها بنو الانسان أن يحيوا هذه الحياة لم تحن بعد . والآن أنا أرتحل راجية إياك أن تقبلى هذا الرحيل بمثل القلب الذى أنا أقدمه به . فاذا قبلت ذلك ياسيليزيت فانك ستعملين عملا لايقل جمالاً عما أعمله وتضحين تضحية قد تكون أكبر من تضحيتى مادام من المفهوم أن الشخص المخلص هو أكثر سعادة من الشخص المقدم إليه هذا الاخلاص . ألا يخيل إليك عند ما تلقى كل منا بنفسها بين ذراعى الأخرى ، وعند ماننغمس فى وسط الحقيقة البسيطة — أننا نلمس شيئاً أعظم منا ؟ .

سيليزيت — لا ترحلى غداً

أجلافين — لماذا لا ينبغي أن أرتحل غداً مادام الرحيل واجباً ؟

سيليزيت — أنا أسألك ألا ترتحلى قبل أن أقول لك ما وعدتك به

أجلافين — وهل ستقولين ذلك عما قريب ؟

سيليزيت — نعم الآن قد صرت متأكدة من ذلك . وهل ميلياندر يعرف ما اعتزمته ؟

أجلافين — نعم

سيليزيت — أنا لم أعد حزينة يا أجلافين

أجلافين — ماذا كنت تعملين لو أننى ارتحلت دون أن أنبئك بشىء ؟

سيليزيت — كنت ألحق بك وأعيدك إلى هنا ثانية

أجلافين — وإذا كنت لم تجدينى ؟

سيليزيت — كنت أبحث عنك طول حياتى

أجلاڤين — أنا أخشى أنك ترتحلين قبلى ، وأن تكون هـذه الفكرة هى التى كنت تتحدثين عنها آنفاً

سيليزيت — كانت تكون فكرة سيئة ، أما الآن فلدى فكرة سعيدة

أجلاڤين — لـكن الآن سوف لا ترتحلين

سيليزيت — لا لا يا أجلاڤينى ، أنا لن أغادر هذا القصر

أجلاڤين — أمن أعماق نفسك تعدينني بهذا ؟

سيليزيت — إنه من أعماق نفسي وأقسم لك عليه بسعادتى الأبدية يا أجلاڤين

أجلاڤين — أنا لا أدرى ما إذا كان الأفضل هو عدم مجيئى من أول الأمر إلى هذا القصر

سيليزيت — لو أنك لم تجيئي إلى هنا لما كنت أنا شقية ولا سعيدة ، بل لمـا كنت شيئاً مطلقاً

أجلاڤين — من يدرى إذا كان إيقاظ النائمين من الأمور المسموح بها لاسيما إذا كان نومهم طاهراً ولذيذاً ؟

سيليزيت — ينبغى أن يكون ذلك مسموحاً به ما دام أولئك النائمون لم يعودوا يرغبون فى النوم . قبل أن تجيئى إلينا كنت أقبل ميلياندر كأننى عمياء صغيرة وكنت لا أعرف أننى كذلك . ولـكن هل من جريمتى أن أكون صغيرة ؟ أما الآن فأنا فى حالة أخرى ، إنه كان نائماً هذه الليلة بينما كنت ساهرة أنظر إليه وكنت أقبله دون أن يستيقظ ، وفي نفس الوقت كنت أنظر إلى النجوم من خلال النوافذ ترصع صفحة السماء الزرقاء كأنها قد أرادت أن تتخذ لها من روحى سماء تسطع فيها . أوه يا أجلاڤين أنت لا تعرفين ذلك لأنك لم تمرى بهـذه الظروف إذ لم تكونى مثلى جاهلة ثم عرفت بعد ذلك . أنا لا أدرى لمـاذا أنا أشتهى أن أرحل أو أموت لأجلـكما . أنا سعيدة وأريد أن أموت لأكون أكثر سعادة

أجلاڤين — إنه من الخطر أن يفكر الانسان في الموت عندما يكون سعيداً . هل ينبغي لى أن أعترف بمـا هو فى نفسى ؟ إن الخوف قد اعترانى مرة ، إذ تخيلت أن الفكرة التى تتحدثين عنها هى..

سيليزيت — نعم ... ...

أجلاڤين — ... لقد خشيت أن تكون هذه الفكرة ... ...

سيليزيت — لا تخافى يا أجلاڤين فلن تكون هذه الفـكرة إلا فكرة فتاة صغيرة

أجلافين — نعم لو وجدت لـكانت فكرة قلب صغير أعمى لايستطيع أن يبرهن على الحب إلا بالموت. ينبغى على العكس أن يعيش الانسان إذا كان يحب ، إذ بقدر ما يحب يجب أن يحيا ؛ ثم أنا أعرف جيداً أنك تحبيننا كثيراً حتى تفعلى بنفسك هذه الفعلة . وحينما يفـكر الانسان تفكيراً صحيحاً ، يتضح له أنه لايوجد لجلب الشقاء لـكائنين طريقة أقسى من إيجاد موت برىء بينهما

سيليزيت — هل تريدين أن أعترف لك أنا أيضاً بشىء يا أجلافين ؟

أجلافين — ينبغى أن تعترفى بكل شىء كما اعترفت لك بكل ما عندى ياسيليزتى الصغيرة . إنه لايوجد بين الـكائنين المؤتلفين شىء أجمل من ألا يخفى كل عن صاحبه أية فكرة ولو خلف زهرة .

سيليزيت — لقد فكرت فى ذلك حيناً .

أجلافين — أفكرت فى الموت ؟

سيليزيت — نعم فكرت فى ذلك منذ وقت

مضى ، ولكنني عدت فقلت فى نفسى ماتقولينه أنت الآن ، وبناء على ذلك وجدت شيئاً آخر .

أجلافين — وماذا وجدت ؟

سيليزيت — إنه شيء آخر تماماً وإنه في جانب الحياة ، غير أن الساعة الملائمة لا يضاحه لك لم تجىء بعد ، وسترين . . . . . . أنا أقبلك . . . . أنا لا أدري ماذا عندى ؟ كأن روحى — كما قيل — ثملة فى جسمى ؛ ثم إنى عرفت أخيراً ماذا كنت تعملين لو كنت فى موقفي . (قالتا هذا وخرجتا متعانقتين)

الفصل الرابع

المنظر الأول

(يقع هذا المنظر فى طنف من أطناف أحد أجنحة القصر المطلة على البحر بين أجلافين وسيليزيت)

أجلافين — الشمس تشرق على البحر ، هل ترين ذلك السرور الهادئ العميق الذى يفيض على الأمواج ؟ إن هـذا اليوم سيكون من أجمل الأيام يا سيليزيت ، وأنت أيضاً ما أجملك الآن ! بل إن جمالك ليتضاعف مع إشراق فجر كل يوم . ألا تقولين لى ما الذي جعلك تتطورين هكذا حتى آخذ بنصيبي منه قبل أن أرتحل ؟ أهى روحك الثملة بالطهر والبراءة ؟ أو هل دعوت إلها لا أعرفه ؟ أو هل هو شيء لاعهد لك به ؟

سيليزيت — نعم أنا أعتقد أننى أحب أكثر من ذى قبل .

أجلافين — لقـد جئت لمقابلتك لأنى رأيتك من نافذة غرفتى . ولقد روعنى إذ ذاك منظرك وأنت منحنية فوق الحائط الآيل للسقوط من البرج حتى ظننت أنى أرى أحجاره تضطرب فامتقع لونى وتجمد الدم فى أعضائى إلى درجة لم أكن أتصور أن أحداً يصير إليها ، وقد شعرت بأن حياتى تائهة حول شفتى تحاول الخروج بلا عودة ، وهذه هي المرة الأولى التي أحسست فيها بطعم الحياة والموت معاً فى فمي . لقد فتحت النافذة وصحت بك وقتا طويلا لأحذرك ، ولكنك لم تفهمى أو لم تسمعى . لاينبغى أن تحومي حول الحظ السيء الخطر . ماذا كنت تعملين فوق البرج ؟ هاهي ذي المرة الثالثة التي أراك فيها هناك . يخيل إلى أنك كنت تحركين الأحجار بيديك . ماذا كان هناك ؟ إنه كان يلوح عليك أنك تبحثين فى الفراغ عن شيء مفقود

سيليزيت — كنت أبحث فى الواقع عن شيء . ولكن لا ترتاعى فليس هناك ما يدعو إلى الخوف . البرج العتيق متين وسيظل شامخا وقتا طويلا بعد موتنا جميعا . لماذا نحنق عليه ؟ إنه إلى الآن لم يسيء إلى أحد . أنا أعرف أكثر من غيرى أن أحجار البرج لاتتحرك ، وأنت مادمت لم تريه فلا تعرفين ما يقع بعيداً عنك . لقد وصل إلينا منذ خمسة أوستة أيام طائر مجهول ، وهو لا يزال يطير حول البرج دون أن يحس بالتعب ، له جناحان أخضران خضرة غريبة مشربة بصفرة لا يمكن شرحها ؛ ثم إن في هذا الطائر شيئا أكثر غموضا من الأول وهو أنه يكبر فى كل يوم ، وأن أحداً لم يستطع أن يقول لى من أى الجهات هو يجيء . أنا أعتقد أنه عشش فى جحر من الحائط عند نفس المكان الذى رأيتني منحنية عليه .

أجلافين — هل ذلك المفتاح الكبير المذهب الذى تعبثين به هو مفتاح البرج ؟ وهل تتكرمين باعطائى إياه ؟ .

سيليزيت — أعطيك إياه ؟ وما تصنعين به ؟

أجلافين — أريد أن أحفظه معي إلى ساعة الرحيل .

سيليزيت — ولماذا هذا يا أجلافين ؟

اجلافين — لاأعرف ذلك بالضبط . لاتصعدي إلى قمة البرج إلا بعد رحيلي ولا تنشغلي بعد الآن بالطائر ذى الجناحين الأخضرين ، إذ قد رأيت رؤيا مزعجة مر فيها ذكر هذا الطائر

سيليزيت — ها هو ذا المفتاح . أنا لاأتمسك به لأنه ثقيل .

أجلافين — إنه لثقيل فى الواقع .

سيليزيت — قبليني فقد آلمتك .

أجلافين — لا ، إلى هنا أنت لم تؤلمى أحداً . إن عينيك مغرورقتان بالدموع .

سيليزيت — إن ذلك جاءنى من تحديق إلى الشمس أثناء كنت أقبلك . أنا أريد أن أرى ميلياندر . قال لي : إنه سيستيقظ مبكراً . إلى اللقاء يا أجلافين.

أجلافين — ببطء : إلى اللقاء يا سيليزيت .

(على أثر ابتعاد سيليزيت وقفت أجلافين وحدها وتأملت فى المفتاح لحظة ثم قذفت به إلى البحر وخرجت من الطنف بدورها) .

المنظر الثانى

(يقع هذا المنظر في أحد أجنحة القصر حيث ترى « ميليجران » الجدة العجوزة نائمة وتشاهد سيليزيت وأختها « إيسالين » تدخلان عليها) .

يقع هذا المنظر فى أحد أجنحة القصر حيث ترى « ميليجران » الجدة العجوز نائمة وتشاهد سيليزيت وأختها « إيسالين » تدخلان عليها .

سيليزيت — سنبدأ قبل كل شيء بمعانقة جدتنا التي سوف لا يعانقها أحد بعد رحيلنا ، ومع ذلك فهى فى حاجة إلى العناق مثل غيرها ، ولكن لاتقولى شيئاً . قد أخذت أجلافين مفتاح البرج ، لأنها كانت تخشى من تركه معى ، ولكننى سأجد المفتاح الذى كان يظن أنه فقد وسنصعد إلى أعلى البرج دون أن يعلم بصعودنا أحد ، وسأمسك الطائر الأخضر

إيسالين — وهل ستعطينني إياه حالا ؟

سيليزيت — سأعطيك إياه إذا لم تحدثى أحداً عن صعودنا . احذرى فسأوقظ جدتنا . هل تلوح عليّ ملامح الشقاء يا إيسالين ؟

إيسالين — ما ذا ينبغى أن أقوله لكى تصيري سعيدة يا أختى ؟

سيليزيت — يجب عليك أن تنبئيني بالحقيقة ، إذ ينبغى ألا تتصور الجدة أنني شقية . إنه أحياناً حينما يكون الانسان سعيداً ينخدع الناس ويظنون أنه كان يبكى . ألا يرى على وجهى أننى كنت أبكى ؟

إيسالين — انتظرى حتى أراك بدقة يا أختى .

سيليزيت — ألا يرى على شيء ؟

إيسالين — إنحنى قليلا يا أختى ، لأنه لا يعرف بالضبط متى تبكين ، إذ أنت تبكين دائماً بكاء صامتا

سيليزيت — لكن أنا لم أبك مطلقاً . أعتقد أنه قد دخل فى عينى رماد أو شيء غير مرئى ، فإذا سألك فى المستقبل سائل عنى وقال لك : ماذا فعلت ؟ وماذا قالت ؟ وهل كانت ممتقعة أو حزينة ؟ فلا تجاوبى باندفاع على هذه الأسئلة عند ما ترين الذين يحوطونك مروعين أو ممتقعين أو محزونين ، ولكن ينبغى أن تلاحظى أننى كنت دائماً مسرورة ، لأن ذلك شيء واضح ، فأنا أبتسم على ممر اللحظات ! وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي أن تخفى الحقيقة . والآن ، لنكن عاقلتين ، فأنا سأقترب من الجدة . آه كم تلوح على وجهها أمارات الوحدة والهجران !

(ثم تناديها مقبلة إياها : جدتى ، أنا التى أناديك يا جدتى كم هي مستغرقة فى نوم عميق ! جدتى : إننى جئت لأودعك)

ميليجران — أوه هو أنت يا سيليزيت ؟

سيليزيت — نعم يا جدتى . أنا جئت أقبلك مع إيسالين الصغيرة قبل أن نذهب للنزهة فى الأرياف

ميليجران — أين تذهبان ؟

سيليزيت — لم أعرف بعد . ولكننا نريد أن نذهب إلى أبعد من المعتاد ، ولن نعود قبل المساء . أعندك كل ما يلزمك يا جدتى ؟ إن أجلافين ستعنى بك بدلى . أتريدين أن أنظم المساند قبل أن أخرج ؟ إنه لا يوجد أحد يعرف كيف يرفعك[1] دون أن يؤلمك إلا أنا وحدى ، ولكن أجلافين ستتعلم ذلك على ممر الأيام . إنها لخيرة وستتعلم ذلك حالا إذا مكنتها منه ، أتريدين أن أدعوها لك الآن ؟

ميليجران — لا لا ، أنا سأنام إلى أن تعودى .

سيليزيت — وداعا يا جدتى وداعا .

ميليجران — إلى اللقاء يا سيليزيت وعودى قبل أن يدخل الليل .

(تخرج سيليزيت قابضة على إيسالين الصغيرة)

المنظر الثالث

(يحدث هذا المنظر فى أحد دهاليز القصر حيث يلتقى ميلياندر بسيليزيت وأختها)

ميلياندر — أين تذهبين مسرعة إلى هذا الحد يا سيليزيت ؟ .

سيليزيت — لا أذهب إلى مكان معين يا ميلياندر وإنما نبحث عن مأوى من الشمس .

ميلياندر — حقاً يخيل إلينا أن الأحجار اليوم تنصهر فى بواتق الحوائط من قوة الشمس ، وأن البحر قد صار بحيرة من النار ، وأن الهواء الرطيب الذي ينبعث دائما من الغابة قد أضحى كأنه ينبعث من ظلال حطب تلتهمه النار ، وأن الشمس تلوح عليها ملامح أسد مزعج يريد أن يلتهم السماء . قبليني يا سيليزيت ، لأن قبلاتك هى كل ما بقى لنا من ندى الفجر الرطيب .

سيليزيت — لا ، ليس عندى وقت ، لأن ورائى من ينتظرنى الآن وستقبلني هذا المساء .

ميلياندر — ماذا عندك يا سيليزيت ؟

سيليزيت — آه هو شىء بسيط وسيمر سريعاً .

ميلياندر — ماذا تقولين ؟ .

سيليزيت — لا شيء . قبلنى سريعاً .

(قالت هذا وقبلته بعنف)

ميلياندر — لقد جرحت فى شفتى .

سيليزيت — ماذا ؟ .

ميلياندر — الدم يقطر من شفتى قليلا . أسنانك الصغيرة الجميلة جرحتنى جرحاً بسيطاً يا سيليزيت .

سيليزيت — أوه إننى لذئبة صغيرة . أأنت متألم يا ميلياندر ؟

ميلياندر — بالعكس . لا شىء . انتهى كل شىء

سيليزيت — أوه ، إننى لذئبة صغيرة . . . كم الساعة ؟

ميلياندر — إنها تقترب من الظهر .

سيليزيت — الظهر ؟ أوه ليس عندى وقت . إنهم ينتظروننى . وداعا يا ميلياندري .

ميلياندر — سيليزيت ، سيليزيت أين تذهبين ؟

(ولكن سيليزيت تبتعد مسرعة وهى تتغنى بتلك الأنشودة الحزينة التى مرت بك آنفاً بينما ميلياندر ينظر إليها وهى مبتعدة ثم يخرج بدوره)

(البقية فى العدد القادم) محمد غلاب

---

(١) يلاحظ أن الجدة العجوز كانت مشلولة ، وأن سيليزيت هى التى كانت تعنى بها

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الثالث

الفصل التاسع

وأرسلت لى مدام بيارسون فى المساء كتاباً موجهاً إلى ر. د. فى استراسبورغ ، وما مضت ثلاثة أسابيع حتى كنت قد قمت بالمهمة وعدت من سفرى . وما كنت انقطعت عن التفكير فيها أثناء غيابى فعلمت أن لا أمل لى فى نسيانها يوماً . غير أنني كنت مصمماً على الاحتفاظ بصمتى أمامها ، لأن ما أقدمت عليه من المجازفة وما تلاها من خطر فقدى لها وما تحملت من الآلام فى موقفى ، كل ذلك كان يصدنى عن التعرض مرة أخرى لهذه الأخطار ، وما كان احترامى لها ليدع مجالاً لارتيابى بإخلاصها ، وما خطر لى قط أن إقدامها على مبارحة البلاد كان تصنعاً ، ولذلك كنت على ثقة من أن أول كلمة غرام أتفوه بها ستكون سبباً لا يصادها الباب فى وجهى

ولما لقيتها رأيتها شاحبة متغيرة وكانت بسمتها كأنها ترتمى ارتماء على شفتيها المتقعتين .

وقالت لى إنها كانت مريضة

ولم يدر بيننا أى حديث عما جرى . وكان يلوح لى أنها تتحاشى تناول ما وقع ، وما كنت أنا لأعود إلى البحث فيه . ومع ذلك فقد كان ما بيننا شيء من الاحتراس بالرغم من أننا عدنا إلى ما كنا تعودناه من علاقات الجوار . فكان فى عدم تقيدنا شيء من الكلفة . وكأننا كنا نسرّ إلى نفسنا : «لقد كانت الحال على هذا المنوال من قبل فلنستمر عليه »

وكانت تمنحني ثقتها كأنها تعيد إليّ حرمتى فأرى فى صنعها شيئا ترتاح نفسى إليه . غير أن أحاديثنا تولاها شيء من البرود لأن عينينا كانتا تتناجيان خلسة فلا يبقى وراء الحديث ما يتكلف الفكر اكتشافه . وقد كان كل منا يحاول من قبل أن ينفذ بحديثه ما يجول فى خاطر الآخر فأصبحنا ولا تقدير لكل منا يتجسس به ما تنطوى عليه الكلمات وما تضمره العواطف . وقد كانت تعاملنى بكل لطف فأحاذر لطفها ، وكنت أذهب متمشيا معها فى الحديقة ولكنني انقطعت عن مرافقتها إلى الخارج فلم يعد لنا أن نجتاز الغابات والوديان معاً . وعندما كنت أنفرد بها كانت تفتح البيانو وتنشد ؛ غير أن صوتها لم يعد يثير فى قلبي من الشباب ما يستخفه ليدفع بأنين كأنه هتفة الآمال .

ولما كنت أخرج من بيتها مودعاً كانت تمد يدها إلى ؛ وحين أقبض على أناملها أحس أن لا حياة فيها . فلقد كان فى ارتياحنا كثير من المجالدة ، وفى كلامنا كثير من التفكير ، ويسود كل ذلك كثير من الأسى المكبوت .

لقد كنا نشعر بأن ما بيننا ثالثاً هو حبي لها ، وما كنت لأبديه بأية إشارة منى ، غير أن وجهى كان ينم عنه . وفقدت مرحى وقوتى وما كان على خدى من نضارة العافية . وما مضى شهر عليّ حتى تبدّل حالى ولم يبق من شبه بينى وبين من كنته

غير أنى كنت لا أزال أذكر كرهي للعالم ونفورى من العودة إليه . فكنت أحاول جهدى أن أقنع مدام بيارسون بأنها تحسن صنعا بارجاعى إليها . وكنت أصور لها أحياناً ما مرّ من أيامى بأقتم الألوان ، ملمحاً لها بأنى سألجأ إلى عزلة خير منها الفناء إذا ما اضطررت يوماً إلى الافتراق عنها ؛ وكنت أقول إنني أكره المجتمع فيؤيد قولى ما كنت سردته لها تفصيلاً من وقائع حياتى . وكنت أحياناً أتظاهر بمرح كاذب لا يصدقه قلبي كأنى أريد أن تعلم أنها أنقذتنى من أفظع المصائب . وكنت كلما ذهبت لزيارتها لا أغفل عن تكرار شكرى لها لأتمكن بذلك من العودة إليها فى المساء وفى صباح اليوم التالى ، فكنت أقول إن جميع آمالى ومطامحى محصورة فى الحديقة الصغيرة التى تقطنين ، فليس لى أن أحيا إلا حيث الهواء الذى تستنشقين .

وما كانت آلامى لتعزب عن شعورها فأراها لا تستطيع مقاومة إشفاقها على ما أبدى من مجالدة وحزم ، فكانت كل حركاتها وسكناتها أمامى تنم عن لينها ، فانها كانت تشهد العراك القائم بين جنبيّ فتبدو فخورة باطاعتى لها ؛ غير أن شحوب وجهي كان يثير فى قلبها ما انطوى عليه من إشفاق المرضات فكانت تبدو أمامى فى بعض الأحيان مضطربة إلى حد الدلال فتقول بلهجة مداعبة : — لن أكون هنا غداً . أو تعين يوماً تمنعنى الحضور فيه . وإذا كانت ترانى مستغرقاً فى الحزن تتلطف قائلة : لا أعلم ؛ على كل حال تعال . أو تزيد فى رقتها وتذهب لتشيعنى حتى الحاجز فتزودنى بنظرة تترقرق العذوبة فى حزنها.

وكنت أقول لها : ثقى أن العناية قادتنى إليك ؛ ولو أننى ما عرفتك لكنت عدت إلى ضلالاتى . لقد أرسلك الله ملاك أنوار رفعنى من اللجة المظلمة فما رسالتك إلا سبيل الخير ، ومن يدرى إذا حكم علىّ بالابتعاد عنك إلى أية المهاوى تطرحنى أحزانى وما اختبرته من الحياة في أوائل صباى وما سيفعل بى تضجرى وملالى .

وكان لهذه الفكرة التى أعبر عنها باخلاص شديد التأثير على امرأة لها مثل هذه التقوى ومثل هذه الروح المضطرمة فى عقيدتها .

وكنت أستعد يوماً للذهاب إليها فاذا بالباب يقرع وبمركانسون يدخل علي وهو الكاهن الذي كنت رأيته من قبل فى حديقتها. فبادرنى باعتذارات أثقل من شخصيته عن إقدامه على زيارتى دون سابق معرفة . فقلت له إننى أعرفه وأعرف عمه كاهن القرية وسألته عما يريد .

فظهرت عليه الحيرة وبدأ يقلب عينيه يمينا وشمالاً ويداعب الأوراق الموجودة على الخوان أمامه كمن يفتش على ما سيقول ، وأخيراً وفق إلى القول إن مدام بيارسون مريضة وإنها كلفته أن يبلغنى عدم إمكانها مقابلتى فى ذلك اليوم .

فقلت : أمريضة هي ؟ وكيف ذلك وقد فارقتها أمس فى ساعة متأخرة وهي على أحسن حال .

وانحنى الكاهن مسلماً فاستوقفته قائلاً : هب أنها مريضة فهل من موجب لإرسال من يبلغنى ذلك ؟ وهل بيتها بعيد عنى لتقصد توفير العناء بوصولى إليه ؟

وبقى صامتاً وبقيت مستغربا فقلت له أخيراً :

— لا بأس ! سأراها غداً فتطلعنى على جلية الأمر

وعاد إلى حيرته فقال إن مدام بيارسون قد عهدت إليه أيضاً بابلاغى أنها جد مريضة ولا يمكنها أن تستقبلنى إلى أسبوع .

وانحنى مسلماً وولى .

ولم يكن من ريب عندى فى أن وراء هذه الزيارة سراً . إن مدام بيارسون تريد ألا أقابلها لسبب لا أعرفه ، فهل كان مركانسون يقوم بهذه المهمة من تلقاء نفسه ؟

ومضى النهار وتبعه الليل فنهضت مبكراً وقصدت بيت مدام بيارسون فوجدت الخادمة أمام الباب ، وإذ استوضحتها الأمر قالت إن سيدتها مريضة وحاولت عبثاً أن أجرها إلى الاعتراف حتى بنفحها شيئاً من المال فلزمت الصمت ولم تبح بشىء .

وفى عودتى إلى القرية صادفت مركانسون على المتنزه وحوله تلامذة عمه فدعوته إلى كلمة أقولها له على انفراد ، ومشيت فتبعنى إلى الميدان ، وهنالك رأيتنى متردداً حائراً لا أعلم ما أقول له لأنتزع منه سره . وأخيراً قلت : أرجوك يا سيدى أن تعلن لى الحقيقة عما أخبرتنى به أمس : أهى مريضة أم إن هنالك أمراً آخر ؟ فأنت تعلم أن ليس فى هذه الجهات طبيب يعتمد ، وفوق ذلك فان لدى أسباباً أخرى لها أهميتها تدعونى إلى الوقوف على جلية الأمر

فصمد الرجل بوجهى لا يحول عما قاله أولاً ، وأضاف إلى ذلك قوله إنها هى دعته إليها وكلفته إبلاغى ما أعلنه لى . وكنت وصلت وإياه إلى ممر ضيق عند مدخل الشارع وضقت ذرعاً بهذا الرجل المتصلب فقبضت على ساعديه فجأة فذعر وقال : أتريد إرغامى بالقوة ؟

— لا ولكننى أريد أن تتكلم .

— إننى لا أخاف أحداً وقد قلت ما يجب أن أقوله .

— لقد قلت ما يجب لا ما تعلم . إن مدام بيارسون ليست مريضة .

— وكيف عرفت ذلك ؟

— عرفته من الخادمة . فما هو السبب يا ترى فى إيصادها الباب دونى وفى إرسالك بمثل هذه المهمة إلى ؟ ورأى مركانسون أحد الفلاحين ماراً بنا فناداه باسمه قائلا له : لى معك كلام فانتظر .

وتقدم الفلاح نحونا وكان ذلك ما يرجوه الكاهن لعلمه بأننى لن أتمادى فى الحديث أمام ثالث ؛ وهكذا اضطرنى إلى سحب قبضتى عن ساعده ولكننى دفعته بشدة حتى أنه تراجع فجأة واصطدم ظهره بشجرة وقته السقوط . فحرق الأرم وذهب دون أن يفوه بكلمة .

ومضى الأسبوع على وأنا على أحر من الجمر ، أذهب كل يوم إلى باب مدام بيارسون فأراه موصداً بوجهى ، وتلقيت أخيراً منها كتاباً تقول فيه إن تكرر زياراتى لها قد أصبح موضوع قال وقيل فى البلد ، فهي لذلك ترجو أن أقلل من عدد هذه الزيارات. وكان كتابها مقصوراً على ذلك فهى لم تأت على ذكر مرضها ولا على ذكر مركانسون .

وكدت لا أصدق أن الكتاب منها لأول وهلة لما أعلمه من أخلاقها وعدم مبالاتها بكلا قال وقيل وترفعها عن إخضاع ضميرها لغيرها ، ولكننى اضطررت أخيراً إلى إرسال كتاب أقول لها فيه إننى لا أجد بداً من إجابة نداء قلبي والخضوع ، وما كانت عباراتى إلا لتنم عن مرارة لم يسعنى كتمانها

ولم أذهب لزيارتها فى اليوم الذى سمحت لى فيه بالقدوم اليها لأثبت لها أننى لم أخدع بخبر مرضها وما كنت لأعرف السبب الذى دعاها إلى اقصائى عنها ، فذهب بى الحزن كل مذهب حتى سئمت الحياة ، وخطر لى أن أتحرر منها فكنت أمضى طوال الأيام فى الغاب حتى مررت ذات يوم صدفة حيث كنت

فرأتني على أسوأ حال وما جسرت على طلب الايضاح منها إلا تلميحاً. فلم تجب بصراحة، وهكذا أكرهتني على ألا أحاول تناول الموضوع مرة أخرى.

وكنت أعد الأيام التي تفصلني عنها حتى إذا جاء ميعاد الزيارة هرعت اليها وأنا مصمم على الانطراح أمام قدميها لأشرح لها حالي وما وصلت إليه من اليأس آملا إثارة إشفاقها، ولكنني كنت أذكر ما فعلت أولا ويتمثل أمامي رحيلها وقسوتها فيستولي على الذعر وأحاذر فقدها وكنت أفضل الموت على هذا البلاء.

وهكذا كان مقضياً علي أن أتعذب ولا أتنفس بالشكوى فما طال بي الحال حتى تهدمت قواي، وكنت أحس بوهن ركبتي عن حملي إلى بيتها لأنني كنت أشعر بأن ليس فيه غير ما يستذرف دمعي؛ وما عدت مرة من زيارتها إلا لأطلق عنان مدامعي كأنني أبارحها كيلا أراها بعد.

أما هي فكانت تخاطبني بلهجة لم أعهدها فيها من البرود فتسألني رأيي في مبارحتها البلاد ولا تتردد في أن تقول لي إنها أصبحت تشتهي الرحيل. فأقف واجماً أمام هذه المحادثة وأنا أقرب إلى الموت مني إلي الحياة. وما كانت تعود لحظة إلى حالتها الطبيعية حتى أراها ترتد فجأة الى تصنع البرود القتال. وخانني الجلد يوماً فتساقطت دموعي أمامها وشكوت بالرغم مني فرأيت الاصفرار يعلو وجهها. ولما وقفت على بابها مودعاً قالت: إنني سأذهب غداً الى سان لوس « وهي قرية على مسافة غير بعيدة » وبما أنني أفضل الذهاب راكبة فاحضر غداً على فرسك لمرافقتي إذا لم يكن لديك ما يمنعك.

وحضرت في الميعاد المضروب مبكراً، وكنت قضيت الليل متقلباً على مهاد السرور ولكنني عندما خرجت من مسكني شعرت باستيلاء الحزن علي. وكنت لا أعلم ما تقصد هذه المرأة من اعادتها إلي ما سلبتني إياه من معاملة، وأرى في عملها شيئاً من القسوة لأنها إذا كانت لا تزال على حالها ولا حب في قلبها فأية تسلية كانت تطلبها من تحدي مجالدتي وهي تعلم أنني أهواها.

وتسلطت هذه الفكرة على فبدلتني تبديلا، وما وضعت راحتي تحت رجلها لأساعدها على اعتلاء صهوة جوادها حتى شعرت بخفقان شديد في قلبي وما عرفت أكان هذا القلب يختلج شهوة أم غضباً. وكنت أقول في نفسي: « إذا كانت هذه المرأة أصيبت بدائي فلمَ هذا التجني؟ وإذا كانت سليمة فلمَ هذا الدلال؟ »

وهكذا هم الرجال. ولاحظت هي لأول وهلة أنني أرمقها شزرا وأن في سيمائي تغيراً. وانتحيت الجهة الثانية من الطريق وسرت لا أنطق بكلمة. وكنا نقطع السهل فأراها هادئة تدير لحاظها نحوي من حين إلى آخر لتتأكد أنني ما أزال أتبعها. ولكننا ما بدأنا نصعد الجبل متوغلين بين الأشجار وما بدأت حوافر فرسينا تقرع الصخور حتى رأيتها ترتعش فجأة. وتوقفت حتى أصبحت على مقربة منها فانطلقت مسرعة وأنا أتبعها حتى وصلنا إلى المنحدر فاضطرت إلى تخفيف السير، وعندئذ اقتربت حتى حاذيتها وكنا كلانا مطرقين فشعرت بأن الزمن قد حان فقلت:

— هل أتعبتك شكواي يا بريجيت؟ وهل أزعجك مني أنني بعد أن عدت إلى مشاهدتك لا أرجع من مسكنك إلى مسكني مرة دون أن أسأل نفسي ما إذا كانت لم تزل بعيدة عن الموت؟ لقد قضيت شهرين وأنا أذوق الأمرين وأكتم ما أعانيه

من هذا الحب الذى يرتعي حشاشتي ويقتلنى ، وأنت سلهية كأنك لا تعلمين بحالى . إرفعى رأسك قليلاً وانظرى إلى . أفى حاجة أنت لأبثك ما ألقى من الأوصاب وما تفعل بى الليالى أقضيها باكياً على نفسي

لقد مررت يوماً فى هذا الغاب المروع فرأيت شقياً موجعاً أسند جبينه إلى راحتيه ؟ أفما نظرت إلى رشاش دمعه فوق هذه الأعشاب ؟ انظرى إلى وإلى هذه الجبال أفما خطر لك أننى أهواك وقد عرفت بتولهي هذه الصخور وهذه الأرجاء المقفرة وكلها شهود غرامى .

لماذا أتيت بى أمام شهودى عليك ؟ أفما كفاك ما أتحمل من بلاء ؟

أيخوننى الجلد الآن ؟ أفما ترين أنى ذهبت إلى أبعد مدى فى طاعتك ؟

إلى أى التجارب تعرضيننى ؟ بل أي تعذيب تعدينه لي على جناية لا أعرفها ؟ ماذا أتيت تفعلين هنا إذا كنت لا تحبيننى ؟

فصاحت : فلنذهب من هنا . أرجعنى من حيث أتيت .

فقبضت على زمام فرسها قائلا : لا لن نعود ، لأننى بحت بما أضمر ، فاذا رجعنا فقدتك إلى الأبد ؛ وهذا ما لا أجهله وأنا أعرف مقدماً ما ستقولينه لى عندما ندخل بيتك . لقد أردت ابتلاء صبرى وتحديت آلامي ولعلك قصدت بذلك إيلاء نفسك حق طردى . لقد أتعبك هذا العاشق الحزين ، يتحمل آلامه كاتماً أمره كارعاً حتى الثمالة كأس احتقارك . وكنت تعلمين أننى إذا ما انفردت بك أمام هـذا الغاب فى هذه العزلة التى نشأ فيها غرامى ونما لن أتمكن من التغلب على نفسى ، فأردت أن تعرضى نفسك للاهانة . اصغي إلي ياسيدتى وليكن ما أقوله سببا لفقداني إياك . لقد كفانى غرامى دموعاً وآلاما وقد طال الأمد عليّ وأنا أكتم حبا جنونيا برى أحشائى ، وقد بلغت بك القسوة . . .

ورأيتها تتحفز للوثوب من صهوة جوادها فتقدمت والتقيتها بذراعى ملصقاً شفتى بشفتيها . وعلا وجهها الاصفرار فأطبقت جفونها فسقط الزمام من يدها وارتمت على الأرض .

وصحت : يا لله ! إنها تحبنى

وكانت قد بادلتنى قبلتى فسارعت إلى رفعها عن المرج ففتحت عينيها ومشى الارتعاش فيها يهزها هزاً فدفعت يدي عنها وانهمرت دموعها فهبت تطلب الفرار .

وكنت لا أزال واقفاً جنب الطريق أنظر اليها وهى أجمل من الضحى وقد استندت إلى جذع شجرة وانحل شعرها متساقطاً على كتفيها ويداها ترتجفان وقد علا الاحمرار وجهها كأنه الأرجوان تلتمع عليه لآلئ الدموع .

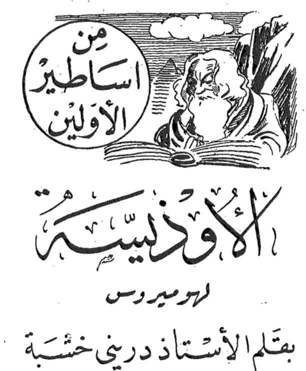
وصاحت : لا تقترب منى . لا تتقـدم خطوة واحدة نحوى .

فقلت : لا تخافى يا حبيبتى ! إذا كنت أسأت إليك فأنزلى بى عقابك . لقد تولانى ثائر الألم لحظة فافعلى بى ما تشائين ولك أن تذهبي الآن ، كما لك إرسالى إلى أية جهة تريدين ، فأنا أعرف الآن أنك تحبيننى يابريجيت فأنت في هذا المكان تتمتعين بأمان لا يتمتع به الملوك فى قصورهم المنيعة .

ونظرت إلي عنـدئذ بعينيها الداميتين فرأيت سعادة الحياة تغمرنى ، فتقدمت إليها وجثوت أمامها

وما يحب الحب الجم من بوسعه أن يتذكر الكلمات التى أعلنت بها من يهوى أنها تهواه .

فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصل السابق

« أبحر أوديسيوس إلى الدار الآخرة (هيدز) ليلتى تيرزياس الكاهن الطيبي كي يعرف له عن عودته إلى بلاده . فبعد أن ضحى لآله الموتى وزجه وجزر القرابين للأشباح الهائمة فى دار الفناء أقبل إليه تيرزياس فأخبره بما سعى إليه ، ثم رأى شبح أمه فكلمها وقد أخبرته بما تم فى بيته من أحداث وطمأنته على وفاء زوجه بنلوب وعدم خضوعها لما أراد العشاق قسرها عليه وحدثته عن ابنه تليماك وما أخذ نفسه به من صيانة ممتلكات أبيه ثم أنبأته عن والده الرجل الشيخ الذي اعتزل الدنيا فى ركن سحيق من حقوله باكياً على أوديسيوس . وقد لقى أوديسيوس طائفة من عذارى اليونان وأزواجها اللاتى توفين فى غضارة الشباب ونضارة العمر فكلمنه وروين له قصصه . وهو يسرد فيما يلى طائفة أخرى من مشاهداته فى هيدز »

أوديسيوس يروي قصته (٢)

وسكت أودسيوس ، وصمت الجمع المحتشد في الردهة الملكية فكأن على رؤوسهم الطير من روعة ما حدث ، حتى نهضت أريتا الملكة ، ذات الدراعين العاجيتين ، فقالت : «أيها الفياشيون كيف أنتم وهذا المهاجر النبيل الذى زادته الآلهة بسطة في العقل والجسم ، وأضفت عليه هذا البهاء وذاك الرواء؟ إنه ضيفي ، بيد أنكم تشركونني فى ضيافته والاحتفاء به ، فخليق بكم ألا تسرحوه على عجل كما يجب ، بل حرى بكم أن تستبقوه أياماً حتى تخلعوا عليه ، وتقدموا له أطرف الهدايا وأعز الهى ، وتفيئوا عليه مما حبتكم السماء ، فكلكم غنى جم الغنى ، ثرى واسع الثراء » . وتكلم البطل إخنيوس ، أكبر أمراء فياشيا وأتلدهم ذكراً فقال : «إن مليكتكم ذات المجد والكبرياء يا أصدقاء ، لا تبدى رغبةً فحسب ، بل هى تصدر عن إرادة عالية وأمر سني ، فحبذا لو أصختم وصدعتم ... على أن كل شيء هو رهين بمشيئة الملك ، فلير إذن رأيه . » وقال الملك : « إنى أوافق على مارأت الملكة ، زهرة فياشيا سيدة البحار ليبق الضيف إلى غد إذن ، برغم ما يحدوه من الشوق إلى بلاده ، حتى أسبغ عليه ، وأدبر أمر عودته التى يُعنى بها الجميع » وكأنما صادف مقال الملك هوى فى فؤاد أودسيوس فنهض وقال : « ألكينوس ! يا ملك فياشيا العظيم ! بودى لو بقيت هنا عاماً بأكمله ليتم الملك نعمته على ، وليدبر أمر عودتى سالماً إلى أرض الوطن ... فما أجمل أن أعود بالعطايا والهدايا والنعم ، لأملأ عيون مواطني ، ولأكسب احترامهم وأنال محبتهم بعد طول النأى وفدح البعاد »

فأجابه الملك : « لله ما أروع ما حدثت يا أودسيوس! ويكأنما حدثت بلسان ساحر عليم يبهرج القصص ويوشى الأخبار ، ويروّق ويزوّق ، فى زكانةٍ وفطانةٍ وحذق وترتيب ؟! أبدا ما حملت هذه

الأرض ألب منك ولا ألبق فى رواية وتحديث ؛ وأبداً تساكبت الموسيقى والنغم الحلو من لسان كلسانك الذرب الحبيب ! ولكن ماذا عندك من أخبار الأبطال الأغريق ، الصيد الصناديد ، الذادة المذاويد ؟ حدث يا أودسيوس ! قل ، قص علينا أخبارهم ؛ أرأيت أحداً ممن شهد معك وقائع طروادة؟ إن الليل ما يزال فى عنفوان يا صاح ، وما بأعيننا من سنة فنأوى إلى فراشنا فى مثل تلك الساعة ؛ هلم فحدثنا ، فبنا من حديثك شغف ، وكلنا إليه شوق ، ولو حدثت حتى مطلع الفجر ، إن لم ينل منك وصب أو يعيك ملال »

وقال أوديسيوس : « بورك سيد فياشيا الملك ألكينوس! ما يزال فى الوقت متسع للحديث والنوم معاً ، وإن شئت حدثتك طائفة من الأحاديث عن أبطال الأغريق سواء منهم من ثوى تحت أسوار طروادة ومن أفلت من الموت ثمة فترصدته المنايا فى أرض وطنه ، صبياً من كف زوجة الأثيم الزنيم ! إليك إذن... وحينما هتفت برسفونيه ـ ربة هيدز ـ بأشباح العذارى وأرواح الحسان فتكبكبن وانثنين عنى إلى ظلمات دار الفناء ، بدا لي طيف أجا ممنون — بن أتريوس — ومن حوله كوكبة من أشباح الذين قتلوا معه فى داره بيد إيجستوس ... أهرع إلى الدماء فرشف منها رشفات ، ثم نهض فعرفنى ، وكأنما شاعت فيه رعدة من الدهشة والذعر ، وتحدرت دموعه الحرار السخينة فوق خديه ، ثم مد إلى ذراعيه يود لو عانقنى ، ولكن ... واأسفاه! وهل يعانق الشبح إنسياً ؟ ! ونال منى الحزن فبكيت لهذا المنظر الفادح الأليم ، وقلت أكلمه فى أسلوب بائس وعبارة باكية : «ويحك يا ابن أتريوس يا ملك الدنيا العظيم ؟ ! ماذا جرعك كأس المنايا ؟ خبرنى ! هل جرعتها في قرار أليم مفرقا بيد نبتيون أم فوق ظهر الأرض حين كنت تسوق قطعانك ، أم قتلت وأنت تحارب من أجل بنات أخايا إذ هن محاصرات خلف أسوار مدينتهن ؟! » فقال يجيبنى: « أودسيوس الزعيم النبيل ؛ يا ابن ليرتس الحكيم: أبداً ما مت مغرقاً بيد نبتيون ، ولا فوق ظهر الأرض فى حومة حرب زبون ، بل ذبحنى اللئيم إيجستوس بعد أن دبر غيلتى مع زوجتي الآثمة ، حين ملق [1] لى وبالغ جهده فى الاحتفال بى ، ثم ذبحنى كما يذبح الثور فى مذوده ، وكر على رجالى فذبحهم كما تذبح الخنازير لوليمة في عرس أو فى حفل لزعيم عظيم . أوه أودسيوس ! لا جرم أنك قد شهدت ألف معركة ومعركة جندلت فيها أبطال وراء أبطال ، بيد أنها جميعاً لم تك شيئاً فى ذلك الحديث الرهيب ! لقد هوينا نتخبط فى دمائنا التى ضرجت الأرض ، تحت أخاوين [2] حافلة بأطيب الآكال وأشهى الأشربات . . . . ثم . . . جلجلت فى أذنى الصرخة الرهيبة ، صرخة ابنة بريام ، فكانت ما أروع وما أفدح ! لقد انبطحت على الأرض إلى جانبى كاسندرا ، قتيلة بيد زوجتى كليتمنسترا . . . ومع ذلك لم أفقد الأمل يا صديق بل حاولت أن أمتشق جرازى ، لكن الخائنة انسحبت كالأفعى ، ولم تعبأ بى ، بل لم تشأ أن تغمض عينى ، أو تسند ذقنى ، فى اللحظة التي أوشكت أطرق فيها أبواب هيدز ؟ ! ويلاه ! ويلي على المرأة التى طاوعتها يداها

---

(١) ملق فلاناً وملق له تودد .
(٢) أخاوين وخون وأخونة جمع خوان .

فأتت هذا المنكر ، وارتكبت إثم قتل زوجها ورفيق صباها ! !

لقد حسبت حين عدت أدراجي أنني سأقابل بالأهل وبالسهل ، من أبنائي وأهلي وحاشيتي ، ولكنها ... الفاجرة الغادرة ، التي بزت بفجورها كل صنوف الفجور ، قد سحبت على نفسها أذيال العار والخزى ، بل هي قد سحبت أذيال العار والخزى على كل أنثى لم تر النور بعد ، وعلى كل الصالحات الطيبات من بنات جنسها . »

وسكت أجاممنون ، فقلت بدوري : « ياسماء !! ما أقسى ما قضت يد زيوس على بيت أتريوس ، منذ البدء ! كله من الأنثى !! الأنثى دائماً ! لقد قتلنا فى غير رحمة ولا رفق من أجل هيلين [1] ؛ وتدبر لك كليتمنسترا تلك الفعلة بينما أنت نازح بعيد عن ديارك ! ! »

قال : « من أجل ذلك أوصيك ألا تلين عريكتك لامرأة قط ، وألا تجعلها موضع سرك ومحل ثقتك ، بل إن أسررت لها بشىء ، فخبىء عنها أشياء ، هذا وإن تكن زوجك وفية خالصة لك ، لا يخشى عليك منها رهق ، ولا غدر كهذا الغدر ، لأنها ابنة إيكاريوس وحسب ذات الحصافة واللب ، لقد غادرناها ولما تزل عروسا يوم غادرناها إلى اليوم ، وعلى صدرها الوفى ولدك الحبيب ، الذي شب ليحمل اسمك ، ويعلى فى الخافقين ذكرك ، والذى ينتظرك لهفان ليضمك إلى صدره يوم تعود إلى إيثاكا ... وإنك إلى إيثاكا لعائد ، وبذا قضت الآلهة . . . أما أنا فوا أسفاً على أورست ، ولدى المسكين ، الذى قتلتنى الغادرة قبل أن أتزود منه نظرة ! اسمع يا أودسيوس ، إصغ إلىّ ، إنى سأفىء عليك من كنوز خبرتى وتجاريبى ، عليك بالسر فى أوبتك إلى وطنك . واستعن على رحلتك بالكتمان لأنه لا ثقة فى امرأة بعد اليوم [1] .. ولكن اصدقنى ربك ، أين يأوي ولدى الآن ؟ هل يقيم فى پيلوس ؟ أم يثوى فى أرخومينوس ؟ أم هو يستذرى بذرى جدته ، أمى الحبيبة ، فى قصرها المنيف بأسبرطة ؟ إنه ما يزال حياً يرزق ، ولم يأو بعد إلى دار الظلال هيدز . » واعتذرت إليه أنى لا أعلم إذا كان حياً يرزق أو أنه غدا من أشباح هيدز ، وظللنا نتحدث شجون الحديث ، ونذرف الدموع على كل ذكرى حتى وافى شبح أخيل البطل ، ابن پليوس العتيد ، وفى إثره شبح تربه بتروكلوس العظيم ، وبمقربة منه طيف أنتيلوخوس يتدهدى مع طيف البطل المغوار أجاكس الذى امتاز ببسطة الجسم وجبروت المظهر على الجميع ما عدا بيليدس وحده . . وعرفنى شبح العدّاء الكبير إياسيدس [2] فقال يخاطبنى فى خفة وظرف : « أودسيوس يارجل الدهاء والخدع أى تدبير ليست فيه تدابيرك الماضية وحيلك السوالف شيئاً ما ، أتى بك إلى هذه الدار أضيف أنت ؟ أم هو طيشك وقلة مبالاتك جعلاك تضرب فى دياجير هيدز ؟ هيدز الرهيبة بيت الأرواح والظلال والأشباح ؟ » ووجهت الجواب عن تساؤله إلى أخيل فقلت : « أخيل ! يا ابن پليوس العظيم ، يا أشجع أبناء أخايا قاطبة ، لقد سعيت إلى هنا لألقى الكاهن الطيبي

(١) التى فر بها پاريس وكانت سبباً فى حروب طراودة

(١) وهكذا عاد فاستمسك برأيه فى النساء حتى فى بنلوب

(٢) قد يكون أخيل .

وعز ، وتجلبك الناس كأحد آلهتهم ،وها أنت تحكم هنا وتنهى وتأمر على جميع هؤلاء الموتى ، فما أجدر بك ألا تأسى لأنك مت هذه الموتة فى الدار الأولى » وأجابنى على الفور : « أودسيوس ياذا الذكي ، لا تخالنّ عزاء يخفف من وطأة الموت ! لقد كنت أوثر لو أعيش فى الدنيا كأحقر الأجراء الأذلاء ، وأتبلغ بلقمات قليلات لاتقيم أوَدَ الشيخ الفانى ، على أن أقيم هنا مملكا فى جميع هـذه الأشباح والتهاويل ! ! ولكن تعال ؛ هلم فحدثنى عن ولدي الحبيب ، هل وصل ما انقطع من حياتي الحربية ، أم هجر السيف وطلق المعمعة ؟ وحدثنى عن أبى پليوس الكريم ، أما يزال يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم وحب الميرميدون [1] وفدائهم ، أم تجرد من الأبهة ونزل على حكم المشيب والكبر ، والأيام التى أوهنت عظامه ؟ أواه يا أبتاه ! ليس لك اليوم أخيل كان ينشر الرعب فى جنبات طروادة ؛ أواه لو وسعنى أن أعود إليك لحظة ، إذن لقسرت الناس على الخضوع لك ، ولأرغمت كل جبار عصي على تمليقك وذل العبودية لك بدل الثورة بك ، وقلة الاحتفال بشيخوختك . » وقلت أجيبه : « أنا لا علم لى بما كان من أمر پليوس أبيك ، ولكنى ذاكر لك ما ترامى إلى من أخبار ولدك نيوپتلموس لأنى حملته على سفائنى من سكيروس إلى الجيوش تيرزياس ليعرف كيف أصل إلى شطئان إيثاكا الصخرية لأنى عييت بالزوابع والعواصف في عرض اليم ، فما استطعت أن أصل إلى أخايا أو أن أرسو فى بلادى.. إنى أغبطك يا أخيل من أعماقي ! فلقد عشت فى هناء

(١) جنود أخيل فى حروب طروادة

الحاشدة من أخايا ؛ ولقد كنا نجتمع للشورى [1] تحت أسوار إليوم فما كان يتكلم إلا لماماً ، وما كان ينطق عن الهوى إذا فعل ، وإذا استثنينا نسطور.. و . . . وأنا . . . فما كان أحد ينهض إلى مقامه أو يقارن به من جميع الأبطال الأغريق . . . وكنا نكر حول طروادة ونفر ، فما أعرف أن أحداً كان أجرأ منه كرًّا ولا أحذق فرّا . . . ولقد جندل من أبناء طروادة الصناديد أقراناً وفرساناً حتى ما أستطيع سَرْد أسمائهم جميعاً ،بيد أنى أذكر فيمن أذكر منهم يوريپيلوس بن تلفوس البطل الذى أغرى على خوض غمار الحرب فى صفوف الطرواديين بمارشا (پريام) نساءه وعذاراه ، فمازالوا به حتى خاضها هو وجنوده السيتيون ... لله ما كان أجمل وما كان أروع ! ! أبدا مارأيت زعيما ولاسيد قوم ، باستثناء ممنون ، أبهى منه ولا أصفى جمالاً ! وما أنس لا أنس يوم حصان إپيوس الخشبى ، يوم قمت أتخير الصناديد المزاويد من أبناء هيلاس ليكونوا معي داخله ، وكنت على أن أظل عند بابه السرى لأرى فى فتحه أو إغلاقه ما أرى . . . . لا أنسى ما كان من هلع أبطالنا وذعرهم وذهاب نفوسهم وتحدر دموعهم من هذه المهمة رعباً وفَرَقا؛ أما ولدك ، فياما كان أشجع ، وياما كان أربط جأشا ! ! إن عبرة واحدةً لم تنسرق من عينيه ، بل إنه كان يحثني ويحرص جد الحرص على أن أختاره ، حتى إذا فعلت تقدم متبختراً يجر رمحه الظمئ ، ويغلى صدره بنار الانتقام يود لو يصبها على طروادةوأبنائها جميعا ! ! وما إن فتحت طروادة

(١) يحسن بالقارئ أن يذكر أن أخيل قتل قبل سقوط طروادة .

علينا ، وأبنا منها بالغنائم والأسلاب والسبي نظرت إليه قبل أن يحر فما وجدته يشكو رَمِيَّةً ، ولا يئن من جرح ، ولا أثر فى جسمه لخدش مما تصنع الحرب ، وما يثبت فقال مارس . »

وزُهي أخيل من كثرة ما أثنيت على ولده فراح يتخايل ويدل وسط شجر البَرْواق[1] ... وكانت جموع من أشباح الموتى تملأ الرحب ، وقد جلس كلٌّ أوهام على وجهه يبكي ويشكو بثه لغير سميع ... وقد رأيت بينهم شبح صديقي التيلاموني – أجاكس – وكان يحدجني فى الفينة بعد الفينة ، ولكنه لم يشأ أن يكلمني ! ! آه ! إنه ما يزال ينقم عليَّ ما شجر بيني وبينه من نزاع على عُدة أخيل (بعد مقتله) ، وما كان من طلب زيتيس[2] ألا يلبس دروع ولدها سواى ، ثم ما كان من تأييد مينرفا للأم الرؤوم فيما طلبت . لقد كان انتصاراً لي ، كم كنت أوثر ألا يكون ، لأنه كان فيما يبدو سبب مقتل أجاكس العزيز ، أجاكس المغوار ، الذى لم يكن فينا من هو أشجع منه إلا أخيل نفسه ... ولقد وجهت اليه ألين الخطاب لِأَفلّ من سورة غضبه . فقلت له : « أيها العزيز أجاكس ، يا ابن تيلامون المجيد ، أما تستطيع أن تغضى ، وأنت فى الدار الآخرة ، عما شجر بيننا بسبب هذه العدة المشئومة ؟ لعنتها الآلهة من عدة كُتبت فوقها صحيفة موتك ، فخسرنا فيك أشجع فرساننا وأعظم مقاتلينا ! إنا ما نفتأ نبكيك ونشكو رُزْأنا فيك ، ونعد فقدك كفقدنا أخيل نفسه ! ولكن لا تثريب على أحد قط ، فجوڤ ، كبير الآلهة ، الذي ماينفك يصب لعنته على جيوش آخايا ، هو الذى قضى عليك بالموت . أيها البطل هلم نحوى كيما تسمع إلى الكلم الطيب الذى أجهد أن أرضاك به ؛ لتخمد جذوة الغضب عليّ فى نفسك ، ولتحسم ما بيننا من خصام! » بيد أنه ما حرّك شفتيه ، بل لوى عنانه وانخرط فى جماهير الأشباح الهائمة ، وترك الرغبة الملحة المشتعلة فى صدرى شوقاً إلى تكليمه تنطفىء رويداً ... فقلبت نظرى فى الأرواح القريبة عسى أن أعرف منها أحداً فأتحدث اليه ، فلمحت بينها مينوس سليل جوڤ الأكبر ، وكان يجلس على عرش ممرد للقضاء بين الموتى ، وفى يمينه صولجانه الذهبي الثمين ، ومن حوله زرفت جموع سكان هيدز ، فمنهم الواقف ومنهم الجالس ، ومنهم المنتصب يشرح للقاضى شكواه ، ويبثه بلواه ، بينا قد أهطعت الرؤوس وانحبست النفوس ، وتكأكأت الموتى عند البوابات الكبيرة الهائلة تنتظر دورها ... ثم راعنى أن أرى بين تلك الجموع أوريون الجبار يسوق قطعانه التي ذبحها بيديه فى الدار الأولى ، وهو يرعاها على أوراق البرواق ... ورأيت فيمن رأيت تيتوس الجبار ، سليل هذه الغبراء ، وقد كان منبطحاً على الأرض بحيث يشغل فضاء تسعة أفدنة ؛ وعلى كل من جنبيه أفعوان هائل أرقمّ يغتذى بِمِضَغٍ من كبده الكبير الدامى ، ويَنغبُ من أحشائه الغِلاظ ، جزاء بما حاول أن يستذل لاتونا اللعوب الطروب ، عشيقة جوڤ سيد أولمپ ، التى فرت من وجهه فى بطائح پيتو الى فراديس بانوپيوس . ثم رأيت تانتالوس فى ضعف من العذاب ! رأيته يتخبط فى عينٍ حمئةٍ من حميم ، وقد غاص فيها الى

---

(١) شجر كان يزرعه اليونانيون على قبور موتاهم وقد ذكره الفيروزابادى .

(٢) أم أخيل وهى إحدى عرائس الماء .

ذقنه ، والموج يضرب وجهه ويسعفه ، وهو مع ذاك يلهث من الظمأ ، لا يجد ما يبل به غلتـه ، أو يطفىء جُوَاده وصداه ! فهو إن حنى رأسه غمره الحمم ، وإذا رفع جسمه كَزَّت الأرض على قدميه بأمر ربها ، فهو فى عذاب مقيم . . . ولله أشجار الفاكهة دانية قطوفها فوق رأسه ، من رمان حلو وتفاح عطري ، وتين معسول وزيتون ، كلما اشتهى أن يقطف ثمرة وكاد ، هبت الرياح عاتيةً فذهبت الغصون عاليـةً فى السحاب ! ! . . . ثم رأيت سيسفوس ذا الأنياب يضني ويشقى ويتعذب ؛ يدفع أمامه حجراً جلموداً عظيما فيجعله فى رأس جبل ، حتى إذا انتهى إليه غاضت الأرض من تحته بقوة خفية فكانت بئراً عميقة ، فيهوى الحجر من علٍ ، فيعود المسكين إلى نَصَبِه عوداً . . . على بدء ، ويتحدر عَرَقه على جسمه العظيم ، ويتبخر من رأسه كأنما ينقذف من بركان ! . . . ثم شهدت هرقل الحديدى القوى الجبار . . . شبحه فقط ، لأنه هو قد منح بركة الآلهة وخلودها ، فهو أبداً يحضر ولائمهـا في شعاف الأولب . . . شهدته يحتضن ابنة چوف الجميلة المفتان ، هيب ، ذاتَ القدمين الناصعتين ، والفعلين الذهبيتين ؛ رأيته وأشباح الموتى ترف من حوله صافَّاتٍ كالطير ، ثم يَقْبضْن . . . وراعني أن أراه عابساً كالحاً كقطعة من الظلام ، وقد حملق بعينيه فى الأرض وفى يديه قوسه وسهامه يوشك أن يرميها ، وعلى وسطه حزامه الرائع المموه بالذهب ، وقد نقشت عليه صور مئات من الدببة والذؤبان والسباع ، ينقدح الشرر من عيونها وتدأب في عواء وزئير وتقائل ونهش ، صنعةً معجزةً لم يقدر على مثلها أحد من قبلُ ولا من بعد . . . وما كاد يتبينني حتى عرفني ، وظل يقلب فىّ عينيه السادرتين ، ثم قال لي : « آه ياابن ليرتيس النبيل ذا المجد ما أتعسك ! ! ما أظنك إلا معنياً ببعض المجازفات التى كنت أشغف بها في حياتكم الدنيا . . . ها أنت ترانى هنا ، فى ظلمات هيدز ، عبداً رقيقاً لإله أحقر منى شأناً وأقل قدراً ، لأننى وأنا ابن چوف الأعظم ، قد كتب علىّ أن أشقى هنا لِأَصِل آلام الحياة ولأواءها . . . أتصدق أنه يأمرنى أحياناً أن أسوق كلبه ، مع ما فى هذا الأمر من سخرية وتحقير ؟ ولـكني لن أنسى أنى جذبته من مملكته هيدز إلى نور الحياة الدنيا بمساعدة أخى هرمز ، وبمعونة مينرڤا ذات العينين اللازورديتين » ثم هام على وجهه فى ظلمات مملكة پلوتو . . . ثم تلبثت أنا مكانى راجياً أن ألقى غير من لقيت من أرواح الأبطال الذين عرفتهم فى الدار الأولى ، أولئك العظماء ذوى العزة والمجد ... وكم وددت أن أرى پيريثوس وثيذيوس سليلي الآلهة . . . بيد أن جموع الموتى الحاشدة التي أقبلت تصرخ قذفت الرعب فى قلبي . وخفت أكثر أن ترسل پرسفونيه ملكة هيدز ، رأس الجرجون من ظلمات هيدز فتفعل بى الأفاعيل . . . فآثرت أن أسرع إلى مركبي ، وأمرت الملاحين فأقلعوا ، وجلسوا على الظهر ، وحملنا تيار سريع عبر البحر المحيط بعد أن أعملنا المجاذيف وقتاً غير طويل .

« يتبع » دريني خشبة

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الخامس عشر — ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦ — ١ سبتمبر سنة ١٩٣٧ — السنة الاولى



فهرس العـــدد



مجـلة الآداب الرفيعة والثقافة العاليـة

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

نمر مسز باكلتيد

للكاتب الانجليزي ساكي

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

كان من أقوى بواعث السرور إلى مسز باكلتيد ومن أشهى أمانيها أن تصطاد نمراً ، لا لأن شهوة القتل قد استولت فجأة على نفسها ، ولا لأنها شعرت بأنها تترك الهند — عند مغادرتها إياها — آمن وأهنأ مقاماً مما وجدتها عند قدومها إليها إذا هي أنقصت من عدد وحوشها الضارية بنسبة جزء من وحش إلى مليون من السكان ؛ إنما نشأت هذه الرغبة المفاجئة الملحة في اقتفاء خطوات ذلك الوحش النمرود على أثر ما سمعته عن لونا بمبرتون التي ركبت منذ عهد قريب طيارة مع أحد الطيارين الجزائريين قطعت بها في الجو أحد عشر ميلا ؛ ولم يكن للونا من حديث غير حديث هذه الرحلة الجوية الجريئة . وهذا حادث لم يكن لمسز باكلتيد بد من أن تكسفه بحادث من جانبها أشد منه جرأة وأدعى إلى الاعجاب بأن تصطاد نمراً تحمل جلده معها عند عودتها ، وبأن تنشر الصحف مجموعة من صورها الفوتوغرافية لمناسبة هذا الحادث العظيم

ورسمت مسز باكلتيد في رأسها بالفعل صورة لمأدبة غداء تأدبها في بيتها بشارع كرزون استريت لغاية ظاهرها تكريم لونا بمبرتون ، وباطنها أن يرى المدعوون جلد النمر الذي اصطادته يغطي القسم الأكبر من أرض الغرفة ، وأن يستغرق حديث هذا الصيد كل الوقت الذي يقضيه الضيوف في هذه الوليمة . كذلك رسمت في رأسها صورة المشبك المصنوع من مخلب النمر الذي تقدمه هدية للونا بمبرتون في عيد ميلادها المقبل . وكانت مسز باكلتيد امرأة شاذة في عالم مفروض فيه أنه واقع تحت تأثير الجوع والحب ، فكانت تتأثر — إلى مدى بعيد — في أغراضها وحركاتها بكرهها للونا بمبرتون .

وساعدت الظروف مسز باكلتيد ، فقد عرضت أن تدفع ألف روبية لمن يهيء لها فرصة اصطياد نمر دون التعرض لخطر جدي ودون بذل مجهود شاق . وقد اتفق أن إحدى القرى المجاورة كان في مقدورها أن تفخر بأنها الملتقى المحبب إلى وحش محترم الأصل اضطره ضعف الشيخوخة أن ينصرف عن تحصيل قوته بافتراس حيوانات الغاب ، وأن يعوّد معدته القناعة بالحيوانات الصغيرة الأليفة . فحركت الألف روبية الموعود بها غريزة القرويين الرياضية التجارية ، فرابطوا ليل نهار على الحدود الخارجية للغابة المحلية ليبقوا النمر داخل هذه الحدود ويحولوا بينه وبين الخروج منها سعياً وراء ميدان جديد

للصيد . وأخذوا يتركون الأنواع الرخيصة من الغنم مهملة عن عمد فى دائرة تجوله ليقنع بالبقاء فى حدود هذه الدائرة . وكان أخوف ما يخافونه أن يموت ذلك الوحش بمرض الشيخوخة قبل حلول الأجل الذى حددته مسز باكلتيد لاصطياده . وكانت النسوة وهن عائدات من أعمالهن فى الحقول يحملن أطفالهن على سواعدهن يكتمن غناءهم إذا مررن بالغابة حتى لايقطع على سارق الغنم المحترم نومه الهادئ المريح .

وأقبلت الليلة التى جعلت أجلا للصيد . وكانت ليلة مقمرة صافيــة ، وكان القرويون قد أعدوا مصطبة مريحة فوق إحدى الأشجار القائمة فى نقطة تناسب عملية الصيد ، وعلى هـذه المصطبة قبعت مسز باكلتيد ورفيقتها المأجورة مس ميبن ، وكان القرويون قد عقلوا فى المكان المناسب شاة وهبتها الطبيعة القدرة على الثغاء الذى لا ينقطع حتى لو أن نمراً كان نصف أصم لسمعها دون شك فى الليلة الهادئة . وانتظرت المرأة الرياضية صابرة صبر الكرام مجيء الصيد المشتهي ، وكانت مزودة ببندقية مجهزة أدق تجهيز لإصابة المرمى ، كما كانت تحمل معها رزمة من ورق اللعب لقطع الوقت فى غير ملل .

وقالت مس ميبن :

« أحسبنا معرضتين لشيء من الخطر ؟ »

ولم تكن مس ميبن فى الواقع قلقة من ناحية الوحش المفترس ، ولكنها كانت ذات طبيعة تأبى أن تؤدى ذرة من العمل فوق القدر الذى أجرت على أدائه .

وقد أجابتها مسز باكلتيد :

« كلام فارغ ! فهذا النمر عجوز جداً ولن يستطيع أن يثب إلينا هنا حتى لو أراد ذلك » .

فقالت صاحبتها :

إذا كان نمراً عجوزاً فمن رأيى أن تحصلي عليه بأرخص من هذا الثمن ، فان الألف روبية مبلغ كبير » .

وكانت مس لويزا ميبن متطبعة بطبع أخت لها كبرى شديدة الحرص فيما يتصل بمسائل المال على العموم دون نظر إلى الجنسية والدين . وكان تدخلها المستمر سبباً فى اقتصاد عدد كبير من الروبيات فلا تبدد « بقشيشاً » فى بعض فنادق موسكو ، كما كانت الفرنكات والسنتيمات تلتصق بأيديها التصاقاً طبيعياً فى ظروف من شأنها أن تنتزعها دون تعب من أيد أقل من أيديها شفقة . وقطع عليها ملاحظتها على الثمن الذى تشترى به جثة النمر ووجوب تخفيض هذا الثمن ظهور النمر نفسه على المسرح . . . على أن ذلك الحيوان الشيخ المحترم لم يكد يقع نظره على الشاة المعتقلة حتى انبطح على الأرض هادئاً ، لا رغبة فى أن يحتاط على إخفاء نفسه عن نظرها ، حتى لا تهرب منه ، ولكن حرصاً على أن يرتاح قليلا قبل أن يبدأ حملته الهائلة على فريسته

فقالت لويزا ميبن فى صوت عال باللغة الهندوستانية لتسمع رئيس القرية الذى كان مختبئاً على شجرة مجاورة :

« إنى أعتقد أنه مريض »

فقالت مسز باكلتيد :

« صه ! »

وفى اللحظة نفسها أخذ النمر يسير متخطراً إلى فريسته .

فقالت مس ميبن فى شئ من اللهفة :

« إذا النمر لم يمس الشاة فليس ما يدعونا إلى أن ندفع ثمنها . . . »

وكان لهذه الشاة المعدة طعما للنمر ثمن خاص

وهنا دوى فى الجو صوت الطلق النارى مسبوقا بوميض خاطف للأبصار ، فوثب الوحش الكبير مائلاً على أحد جنبيه ورقد ساكناً سكون الموت . فلم تمض لحظة حتى احتشد حول الفريسة عدد كبير من الأهالى المتلهفين، ولم يلبث صياحهم أن حمل الخبر السار إلى القرية ، فدقت الطبول دقة النصر . وكان لتهليل النصر وأغانى الابتهاج صداها الجميل فى قلب مسز باكتيد . وبدا لها فى الحال أن وليمة الغداء فى شارع كرزون استريت ستكون أقرب مما قدرت

وكانت لويزا ميبن هي التي لفتت الأنظار إلى أن الشاة المسكينة تعانى آلام الموت من أثر إصابتها بطلق نارى بينما لا يوجد فى جسم النمر أي أثر للرصاصة التى أطلقت من بندقية الصيادة الماهرة . فكان من الواضح أن الطلق النارى قد أصاب الحيوان غير المقصود ، وأن الوحش الضارى قد مات بهبوط القلب من أثر صوت الطلق المفاجئ ، وقد ساعد على ذلك انحلال الشيخوخة . وقد ارتاعت مسز باكتيد ارتياعاً ظاهراً من كشف هذه الحقيقة ولكنها على كل حال قد أصبحت مالكة نمراً ميتاً ، أما القرويون الذين كان لعابهم يسيل على الألف روبية فلم يروا بأساً فى أن يتغاضوا عن خرافة اصطياد الوحش . وأما مس ميبن فكانت رفيقة مأجورة . وعلى ذلك واجهت مسز باكتيد آلات التصوير طروبة القلب ، وطار صيتها المصور من صفحات جريدة « تكساس وسكلى اسنابشت » إلى ملحق يوم الاثنين المصور لجريدة « نوفوى فريميا »

أما فيما يتصل بلونا بمبرتون فقد بقيت عدة أسابيع آبية النظر إلى أية صحيفة مصورة . وكان الخطاب الذى بعثت به إلى مسز باكتيد تشكر لها فيه إهداءها إليها مشبكاً من مخلب النمر مثالاً للانفعالات المكتومة ، وقد رفضت فى الوقت نفسه حضور وليمة الغداء ، فان هنالك حدوداً إذا تخطتها الانفعالات المكتومة كان ذلك هو الخطر المحقق

وانتقل جلد النمر من شارع كرزون استريت إلى « مانور هاوس » حيث فحصه رجال البلدية فحصاً قانونيا وأعجبوا به إعجاباً شديداً . ولقد كان من عوامل الزهو فى نفس مسز باكتيد ذهابها إلى حفلة تنكرية فى مرقص البلدية في لباس ديانا إلهة الصيد . ولقد أبت مع ذلك أن تميل إلى اقتراح كلوفيس المغرى عندما اقترح إقامة مرقص على طراز العصور القديمة يلبس فيها الراقصون جلود الحيوانات التى اصطادوها حديثاً . ولقد قال كلوفيس عندئذ :

« وسأكون فى هذه الحال كالطفل الرضيع لا أجد ما ألبسه غير جلد أرنب أو أرنبين »

ثم قال وهو ينظر إلى تقاسيم وجه ديانا نظرة خبيثة :

« وإن قوامى ليشبه قوام ذلك الطفل الروسى الراقص »

وبعد أيام قليلة من ليلة المرقص قالت لويزا ميين تخاطب مسز باكلتيد :

« ما أبلغها فكاهة أن يعرف الجميع حقيقة ما حدث ! »

فسألتها مسز باكلتيد مسرعة :

« ماذا تقصدين بذلك ؟ »

فاجابت مس ميين وهى تبتسم ابتسامتها الممضة :

« أقصد لو عرفوا كيف أصبت الشاة خطأً وأمت النمر خوفاً »

فقالت مسز باكلتيد ، وقد تقلبت الألوان على وجهها فى سرعة مدهشة :

« لن يصدق إنسان ذلك القول »

فقالت مس ميين :

« ولكن لونا بمبرتون تصدقه فى غير تردد »

فاخضر وجه مسز باكلتيد اخضراراً غريباً وقالت :

« أظننى على يقين أنك لن تخونينى ؟ »

فأجابت مس ميين فى لهجة ذات معنى :

« لقد رأيت على مقربة من دور كنج داراً خلوية لقضاء نهاية الأسبوع وإني لأحب أن أبتاعها، ولكنهم يطلبون ثمناً خالصاً لها ستمائة وثمانين جنيهاً وهو مبلغ مناسب لقيمة الدار ولكني لا أملكه »

وأصبح الأصدقاء جميعاً معجبين بالدار الجميلة التى أطلقت عليها مس ميين اسم « الأمواج » وهي دار صيفية جميلة تحيط بها حديقة غناء تحوى مجموعة من الأزهار البديعة .

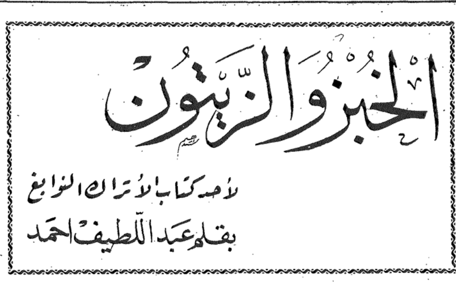
وقد حكم الجميع بأن لويزا قد أبدعت الابداع كله فى اعداد دارها وتجميلها .

وقررت مسز باكلتيد ألا تغامر فى رياضة الصيد مرة أخرى

وكانت تجيب أصدقاءها إذا سألوها عن السبب فى ذلك الاحجام بقولها :

« لأن الصيد يتطلب أكلافاً عرضية باهظة ! »

عبد الحميد حمدى



كانت فتاة ممشوقة القوام ، عليها ملابس رثة باهتة اللون ، وكان شعر رأسها الغزير الجعد مرسلاً على كتفيها المرمريتين ، فكان الناظر إليها لا يشك فى أنه يرى المثال التام للفقر والجمال

أطلت من نافذة مخدعها العتيق المظلم وهي سابحة فى بحر لجىّ من الأفكار ، وكانت فى استغراقها وذهولها أشبه بشخص محكوم عليه بالاعدام ينتظر جلاده . هتفت هذه الشابة بغتة صائحة : يا رباه ! . . ولم تلبث أن استجمعت نفسها بسرعة اهتزت لها ركبتاها ونهضت واقفة ، ثم أطلت متدلية من النافذة وجعلت تنادى :

صابرة ! صابرة !

وما كاد يسمع رنين صوتها حتى وقفت سيدتان أنيقتان كانتا تسيران وأخذت إحداها — وهى التى كانت أكثر رشاقة وأطول قداً — تبحث عن مصدر النداء مستغربة حائرة ؛ ثم شخصت ببصرها نحو النافذة وقد قطبت حاجبيها الأسودين ، وضربت بقفازيها فخذها التى كانت تبدو شبه عارية كسائر تقاطيع جسمها تحت إزارها الزاهي الشفاف ، ثم سألت :

— من المنادى؟

— أنا يا صابرة .

— فمن أنت ؟

— أنا ناجية

وقبضت صابرة على قفازيها براحتها وأخذت تعصرهما من فرط الحيرة ، ثم اتجهت نحو النافذة منفعلة وكررت سائلة :

— أية ناجية تعنين ؟

— بنت سعيد أفندى

— فمن سعيد أفندي هذا ؟

— صراف البندر

— ماذا تقولين؟

— أجل . أجل . أنا هى

وقفت صابرة برهة وعيناها شاخصتان ، ثم أخذت تحدق في تلك الغرفة الأرضية وفى الخراب البادى عليها . كان زجاج النوافذ محطما قد ألصق فى مكانه أوراق الجرائد ، وكان كل شىء فى هذه الغرفة ينبىء بحقارته عن شظف عيش هذه الشابة التى عصف الزمن بها

قالت صابرة :

— قولى بربك ماذا تصنعين هنا ؟

— لا شىء

— ما معنى لاشيء ؟

— هذه دارنا

— أتقولين إن هذه داركم ؟

— نعم

فاستولى على صابرة وعلى رفيقتها الدهش ، وما لبثتا أن تبادلا النظر واستغرقتا فى الضحك كأنهما كانتا تستمعان إلى مزاح مثير للضحك

ثم قالت صابرة :

— ناجية ، أيتها اللعوب ، الكذوب ، هلا فتحت الباب لأرى ؟ فانى لا ألبث أن أستجلى دواعى وجودك هنا ..

ثم تقدمت إلى عتبة ذلك الباب المهدم المشوه بما رسم عليه أطفال الحى من صور الطيور والحيوانات المختلفة ، فتخطتها بخطوات عجلى

كانت صابرة وناجية صديقتين أيام الطفولة ، ولكن ما كادت الحرب تنتهى بالهزيمة حتى أخذ أبواها — وكان أحدها قاضياً للبندر والآخر صرافه — طريق الهرب ، وضلت كل من الأسرتين سبيل الأخرى ومضت أعوام ثمانية لم تتقابل الصديقتان فى أثنائها إلا بهذه المصادفة .

دخلت صابرة الردهة ، وما إن رأت ما على صديقتها من الأطمار الممزقة حتى صرخت تقول :

— ماذا أرى ..؟! أعضك كلب عقور يا ناجية؟

وكانت ناجية تنظر إلى صديقتها وإلى مئزرها الأنيق وإلى خاتمها الذهبى بفصه الزبرجدى الكبير ، ثم تدير بصرها إلى يدها الأخرى فتراها ممسكة بمحافظة نقودها الفاخرة ذات المقبض الذهبى . ولم تلبث أن شملها الخجل لما هى عليه ، ثم حركت شفتيها لتجيب على سؤال صديقتها ، فاستطاعت أن تقول بعد الجهد :

— إنه الفقر يا عزيزتى ...

أجالت صابرة عينها حول الردهة ، فرأت الجدران قد سقط بعض لبناتها ، والسقف قد تصدعت أركانه ؛ ثم أدارت وجهها وحدقت فى ناجية طويلا ، وقالت لصاحبتها التى كانت بجانبها :

— جمال رائع ! أليس كذلك ؟

فأجابت الأخرى بشئ من التكلف :

— بلى ، هى مثل أعلى للجمال

وكانت صاحبتها هذه لا تزيد على صابرة فى السن إلا شيئاً يسيراً ؛ على أنها كانت آنق من صاحبتها وأكثر تعاظما ، وكان يبدو على وجهها الشديد البياض غرور الجراكسة بأجلى معانيه . وقفت تنظر من عتبة الردهة ولم تدخلها كأنها كانت تشعر بغضاضة تمس كبرياءها إذا هى دخلت داراً كهذه متهدمة حقيرة ...

قالت صابرة بصوت تدل نبراته على أثر الشفقة التى أخذتها على ناجية :

— وا أسفاه عليك يا ناجية ! واحسرتاه ! أبلغت الحال بك إلى هذه الغاية ؟ أين أمك ؟

— ماتت .

— فأبوك ؟

— توفى

— فأخوك ؟

— لحق بهما .

— وأنت ماذا تصنعين هنا ؟

— هنا دار زوجى .

— تقولين دار زوجك ؟

— نعم . . .

— وما صناعة زوجك هذا ؟

كان بنّاء ولكنه الآن هو جندى في فرقة العمال ، هنا فى المدينة .

سكتت النسوة الثلاث ملياً . وكانت الشابة البائسة تخجل من دعوة هاتين الأنيقتين إلى الجلوس فى غرفتها ، ولكن صابرة تظاهرت بالتواضع الذى كان الصلف يطل من ورائه ، وقالت وهى تضحك على غرار الفتيات المترفات :

— لهفى عليك يا ناجية ! هلم نجلس ولنتحدث قليلا .

ثم التفتت إلى صاحبتها وقالت :

— ها أنت ذى ترين هذه الشابة ، أرأيت قط امرأة يحاكى جمالها هذا الجمال ؟ بربك تكلمى ، انظرى إلى هذا الشعر الفاحم ، وهذا التجعد الطبيعي الذى لا أثر للصنعة فيه . . . آليت عليك إلا أنعمت النظر . . .

كانت صاحبتها المتعاظمة تتظاهر بالاعجاب المتكلف ، فتبتسم تارة وتضحك أخرى ، وتقول :

— ماذا تريدين أن أقول فى وجه سلب الشمس ضياءها وجمالها ؟

مرّتا بالردهة الضيقة القذرة المظلمة ، ودخلتا الغرفة وشاهدتا فيها مدى البؤس المخيم عليها فظلتا جامدتين كالجليد ، لفرط ما ألم بهما من الدهشة ، ولم تكونا لتستطيعا أن تجلسا إذ لم تجدا مكاناً للجلوس ، فازدادت ناجية ارتباكا وخجلاً ووقفت منكسة الرأس كثيرة الاطراق . . .

كان فى أحد أركان الغرفة فراش عتيق ممزق ، وإلى جانبه صندوق قذر عليه جرة ماء كبيرة ، يليها صحن ملىء بالزيتون ، وكانت إلى جانب النافذة التى لا ستار عليها خشبة مرتفعة عن الأرض باللبِن الذى وضع تحتها من الجانبين فبدت كأنها مقعد للجلوس .

قالت ناجية وهى تشير إلى هذه الخشبة

— اجلسا عليها فانها نظيفة .

وجلست السيدتان وأخذت صابرة تحدث صديقة طفولتها وراحت الأخرى تجيل نظرها فى الغرفة المصدعة الأركان وما عليها من مظاهر البؤس

قالت صابرة :

— تعالى إلى جانبنا .

فجلست ناجية بجانبهما على تلك الخشبة .

— ما هذا ؟ ما ذا جرى لك يا ناجية حتى بلغت هذه الحال ؟

— هو كما ترين .

ثم أخذت تسرد حكايتها : كان أبوها قد مرض أثناء المهاجرة ولم يكد يمضى على وصوله إلى الأستانة شهر واحد حتى قضى نحبه ، فاستأجرت أمها غرفة فى (اسكدار) فآوتا إليها فترة من الزمن هادئتين مطمئنتين . ولكن المرض لم يلبث أن اهتدى إلى تلك الغرفة وأبت ذات الرئة إلا أن تختطف أمها منها . ولما أصبحت وحيدة لا عائل لها ولا موئل أشفقت عليها ربة الدار الأرملة فسعت إلى رجل أعزب تعرفه فزوجتها منه فلم تجد فيه ما يسيئها ؛ وقد مضى على زواجها منه أربع

سنين ، والرجل طيب وديع إلا أنه شديد الفقر . كان يكسب قبل الحرب ريالاً من عمله ، ولما جندته الحكومة خصصت لها فى الشهر ثلاثين قرشاً ، وهو يحصل على إجازة مرة أو مرتين فى الأسبوع ؛ وربما حمل إليها فى هذه الأثناء آنية ملأى بالحساء، وختمت حديثها بالشكر لله على ما أفاض عليها من فضله . . . عندئذ لم تتمالك صابرة نفسها من الغيظ وصرخت فى وجهها قائلة :

— أتحمدين الله على هذه الخطوب وأنت ترزحين تحت عبئها ؟

— نعم وأشكر فضله .

— ما كنت أحسب أنك بلهاء إلى هذا الحد ! إنك تأكلين الخبز قفاراً فاذا وافاك الحظ بحبتى زيتون حمدت الله على هذا وشكرت فضله ! ثم التفتت بغتة إلى رفيقتها وقالت :

— ها أنت ذى تشاهدين يا منيرة ! كم لله من عباد أصفياء ، وعلى الأصح من مخلوقات أغبياء . ثم أخذتا تتأملان فى ناجية طويلا بعيون تشف عن شدة الريب . كيف احتمل هذا الجسم الغض الجميل هذا العناء والبؤس والجوع ولم تزل فيه هذه النضارة الرائعة ؟ وكيف لم تحطم خطوب الزمن كيانه وقد انصب عليه من ويلاته ما لا يقوى على احتماله أحد من الناس مهما كان قوياً . فانهما ومعظم الفتيات المترفات يأكلن من الأطعمة أشهاها ويشربن من الأشربة أسوغها ، وبرغم هذا كله لم يسلمن من فقر الدم . . .

سألت ناجية متلجلجة خجلة :

— أين الآن أبوك يا صابرة ؟

فأجابت : — إنه فى إحدى مدن الأناضول لا أعرفها بالذات . . .

— فأمك ؟

— معه .

نظرت ناجية فى عينى صابرة نظرة عميقة تنم عن شعور يعجز عن وصفه القلم وقالت :

— فأنت ؟

— أتسألين عنى ؟ إن قصتى طويلة . كنت اقترنت بضابط فى الجيش ثم افترقنا .

— والآن مع من تقيمين ؟

— مع ذوي قرابتى .

لكن ناجية لم تكن تعلم أن لصابرة فى مدينة استانبول ذوى قرابة أثرياء . ولم تبحث صابرة قط ولا أهلها قبل المهاجرة عن مثل هؤلاء الأقرباء . سكتت ناجية رغبة منها عن توجيه أسئلة أخرى إلى رفيقتها . أما هما فكانتا ترنوان اليها متعجبتين مأخوذتين ، وكانت تمتد بين آونة وأخرى يد إحداهما تعبث بشعرها الفاحم الأثيث وتربت على كتفها وتدللها . ولم تستطع صابرة أن تملك نفسها عن الميل على عنقها الجميل البض تلثمه مرة إثر أخرى ، وناجية حائرة واجمة من فرط الخجل . وظلت المرأتان تغلظان فى العتب على الحظ وقسوته والسخط عليه ، إذ أخنى على صاحبة هذا النحر الجميل ، والقد الرشيق ؛ وأخذتا تذكران من عرفتا من النساء الدميمات اللائي قدر لهن أن يسعدن بالغنى وينعمن بالرفاهية .

قالت صابرة لصاحبتها :

— إنك تعرفين زينب وعزيزة وبهيجة وخالدة وتذكرين كيف ينعمن بالسرور والهناء فى بحبوحة من العيش مع ما هن عليه من الدمامة والقبح . والآن انظرى إلى ناجية هذه وماهى فيه من شظف العيش ، ثم احكمى إن طاوعتك نفسك بعدالة الطبيعة . ترين لو قدر أن يرى (فصيح بك) امرأة كصاحبتنا هذه فماذا كان يصنع ؟ — كان لا يصدق عينيه — حقاً إنه ما كان يصدق عينيه .

التهب خدا ناجية من فرط الخجل ، وشاع الحزن فى وجهها ، واضطرب صدرها بشتى الآلام حينما تبينت بوضوح البون الشاسع بين أبهة الماثلتين أمام عينيها فى مطارف العز ، وبين مهانة البؤس الذى شملها فى أطمار الذل .

سألت صابرة ناجية قائلة :

— اصدقينى الحديث يا ناجية ، هل أنت حقاً تستطيعين أن تعيشى بالمبلغ الزهيد الذى ذكرته لنا ، أعنى الثلاثين قرشاً فقط ؟

— في العام الماضى كنت أخيط لبعض الجنود قمصانهم ، ولا أعلم لماذا انقطعوا هذا العام عن المجيء

— يالك من بائسة ! ومع ذلك فاننى لا أستطيع أن أطمئن إلى صدق حديثك .

عجيب هذا ولعمر الله ! كيف استطعت ولازلت تستطيعين أن تعيشى بهذا المبلغ اليسير التافه ؟

— هي العادة التى ألفتها ياصديقتى .

— نحن لم نستطع اليوم أن نشترى عصفوراً واحداً من الكناريا بثلاثين قرشاً فى حين أنك تؤكدين أنك تتزودين بمثل هذا المبلغ شهراً كاملاً !

كيف ؟ كيف هذا ؟ ....

— إن زوجى يحاول جهده أن يأتى فى كل أسبوع بنصف أقة من الزيتون ، وأنا الأخرى أقتصد ما وسعنى الاقتصاد .

لم يبدد صدق حديثها ما خامر صابرة وصاحبتها من الشك . إذ كيف تتصوران وهما تبصران خادماتهما يأنفن أن يأكلن الخبز إذا بات يوماً واحداً ، فى حين أنهما تريان الخبز الأسود على الصندوق أمامهما وهو ما تأكل منه ناجية ، ولا ريب أنه قد أصبح على مر الأيام يابساً كالعظم .

هزت منيرة رأسها يمنة ويسرة وابتسمت ابتسامة تشف عن حيرتها وقالت :

— إنها لدينا عجيبة . وهل يستطيع الانسان أن يستسيغ مثل هذا الخبز مأكلا ؟ أقسم بالله إننى أعطيت مرة خبزاً أجود من هذا لكلبنا « بوبى » فأبى أن يأكله وكشر عن أنيابه وكاد أن يهجم علينا وأخذ ينبح نباحاً شديداً حتى ظننا أنه جن .

قالت صابرة وكانت تبدو شديدة التأثر :

والله ما أنا بتاركتك هنا يا ناجية . هيا انهضي

— إلى أين ؟

— إنا ذاهبتان بك إلى دارنا .

— ماذا تقولين ؟ أيمكن هذا ؟

— ولم لا ؟

— أقبل أن أستأذن زوجى ؟

— دعى هذه البلاهة وهيا . أفتقوم القيامة لو أنك جئت معنا ولبثت عندنا بضعة أيام ؟ ألا تستطيعين العودة إلى هنا مرة أخرى ؟ وهل

يعد خروجاً عن طاعة الزوج أن تأكلى وتشربى بعض الشىء ، وأن تبدلى الهواء ؟ …

— يالها من جرأة …

— أقول لك هيا وأقلعى عن التردد .

كان عقل ناجية لا يستسيغ أن يهون لها مجرد الخروج من كنها دون إذن بعلها ، فكيف بما تشير به عليها صابرة وفيه ما فيه من خروج على العرف والتقاليد ؟ وهل هذا فى الامكان ؟ هاتان السيدتان أشفقتا على ناجية ولا سيما بعد أن عرفتا حقيقة حالها وعلمتا أن هذه الغرفة لم يدخلها طعام ساخن منذ أربع سنين ، فرغبتا فى مواساتها وتهوين خطبها . وقد كان من حسن الاتفاق أن جاءتا اليوم بالمركبة من « قاضى كوي » وعرجتا على هذا الحى لتبحثا فيه عن طاهية بدل التى عندهما ، لأنها شرسة الطباع ، ميالة إلى النزاع ؛ وأرادتا أن ترتبطا مع هذه قبل صرف الأولى والاستغناء عنها فلم تهتديا إلى مسكنها .

دار الحديث حول الطعام وعددت منيرة ووصفت أصناف الطعام والحلوى التى أوصت باعدادها ثم استطردت فى الكلام حول المشروبات وأنواعها ، ولم تستطع ناجية أن تصدق أذنيها حينما علمت أن صديقة صباها وصاحباتها يحتسين كل ليلة من الشمبانيا والويسكى ما يتراوح ثمنه بين الخمسة والعشرة جنيهات . ولما أخذتا تسهبان فى حديث الطعام وأنواعه من المشويات والمقليات والفطائر والحلوى خيل إليها أن معدتها أخذت تتخدر ، وكانت كلما أسهبتا فى الحديث ازدادت شعوراً بنكد طالعها ومدى هوانها ، واستيقنت أن هوة الشقاء التى هوت إلى أغوارها أشد عمقاً مما كانت تحس به من قبل . وكانت كمسافر خالى البال لا يشكو بأساً فى سفره الشاسع ثم شعر بعد الشقة بغتة ، وتبين أنه ذو أهوال ومخاطر . فهتف بها هاتف نفسى : « مالك ترفضين هذه الدعوة رفضاً ، وتنفضين يديك من إجابتها نفضاً ؟ هلا قبلت الدعوة فأصبت من أطايب الطعام ونفائسه ؟ ! » انتابتها حمى لاتقاوم ، ولكن هذه الحمى مستكنة فى أعماق النفس لا يقدر أن يشخصها الأطباء ولا المتنطسون ، وإنما يستطيع أن يستشفها ويعرف كنهها من استبد بهم البؤس ورزحوا تحت وطأته أمداً طويلا . . وأخيراً قبلت ناجية الدعوة لليلة واحدة . . ولكن ما العمل ؟ وتذكرت أن ليس لديها إزار تأتزر به فلم تجد بداً من الاعتراف بالواقع وقد اعتراها ارتباك وخجل ؛ فحدقت الصديقتان إحداهما فى الأخرى حائرتين متسائلتين عن حل هذه العقدة . قالت صابرة :

— نأخذ ناجية ونذهب بها إلى (عزيزة) فنستعير منها لناجية أفخر ملابسها إذ هما لا تكادان تتفاوتان فى القد والقامة .

أجابت الأخرى :

— أصبت ، وربما نأخذ تلك المجنونة معنا .

قالت هذا ثم نهضت ، فنهضت الأخريان على أثرها . ولكن ناجية لم تكن قد ذاقت من الصباح حتى تلك اللحظة من الطعام شيئاً تسكن به سورة الجوع ، كأنها قد عافت ذلك الطعام الذى عندها

وتقززت منه . ألم يكفها أنها داومت عليه أربعة أعوام ؟ هذا إلى أنها الآن قد اتسع خيالهـا من حديث هاتين المرأتين حول الشواء ، والفطير ، والحلوى ، ولم تجد هذه البائسة ، من تلك الفكرة المخيمة على خيالها متسعاً حتى تفكر فى هذه الضيفة التى أتت دارها بغتة وتتساءل كيف أصبحت ثرية . وكانت فكرة الطعام شغلت من ذهنها حيزاً كبيراً إذ صارت تتخيل أنها على كثب من مائدة من فضة نضدت عليها أطباق ذهبية ، احتوت كل ما تلهفت عليه شهيتها وتحلب له ريقها من كل ما لذ وطاب من ألوان الطعام ؛ وأثر خيالها على حواسها بحيث كان يخيل إليها أنه لم يكن بينها وبين تلك الأطايب إلا أن تمد يدها فتتناول منها . وبينا هى على هذه الحال إذ نهضت صاحبتاها ، فاستوت هى الأخرى قائمة واندفعت بتأثير الفرح المبهم الذى استولى عليها نحو الفرش فأخرجت من ثناياها مئزراً أسود مرقعاً لبسته وهى تحاول عبثاً إخفاء خجلها ، لأن صابرة كانت ترنو إليها وتلتفت إلى صديقتها وتقول :

— بربك تأملى ! ألا يخيل لرائيها برغم أسمالها أنها مليكة ذات تاج ؟

خرجن من الدار وغادرنها وهن يسرعن الخطا ، ولم يكدن يصلن إلى أول الشارع حتى ركبن مركبة كانت تنتظر هنالك ، وقالت صابرة للحوذى عند ركوبها :

— اذهب بنا إلى « دوغا بجيلر »

وجلست ناجية أمام الأخريين ودار الحديث أثناء سير المركبة حول الملاهي ، والملابس ، والأزياء المستحدثة ، وناجية لاتكاد تسمع الحوار لأن خيالها كان يشط بها عن الموضوع ويرغمها على الجلوس إلى جانب المائدة المتخيلة . . .

وبينا المتحدثتان تقطعان الطريق تارة فى الحديث وأخرى فى اجتلاء مشهد جمالها إذ لفت نظر السيدة منيرة ساعدا ناجية فتناولت ذراعها وقالت :

— هذه الذراع وهذه اليد لم ينلهما التعب والنصب بسوء كأنهما تغسلان كل يوم باللبن . والحق أن وضاءة بشرة يديها وبضاضة ساعديها وبديع انسجام كل أولئك كان خليقاً أن يخلب ألباب الفنانين ؛ على أنهـا ما كانت تغسل بدنها مساء إلا بالمـاء الذي تحمله من صنبور الحيّ وتحتال ما أمكنها على تلافي نقصان الصابون الذى كانت لاتساعدها حالها على كثرة استعماله .

أمرت صابرة الحوذى بالوقوف أمام دار عظيمة فى زقاق أكثر دوره عتيقة متهدمة ، وكانت هذه الدار بينها كأمير ضلّ سبيله فاضطرته ظروفه الملحة أن ينزل ضيفاً على الصعاليك .

سألت صابرة الخادم التى فتحت الباب :

— هل سيدتك بالدار يامارِيكة ؟

— نعم

— هيا اصعدى إليها وأخبريها بقدومنا

— تفضلى ، تفضلى

فدخلن الردهة فأخذت الخادم تعدو أمامهن ، وبيناهن يصعدن السلم ، إذ استقبلتهن امرأة يخيل

إلى من يراها لأول مرة أن بها مساً من الجن .
وقالت وهى تقهقه :

— أية ريح عصفت فألقت بكن إلى هنا ؛ ومن أين يا عديمات الوفاء ؟

ثم فتحت ذراعيها واحتضنت منيرة أولاً وثنت بصابرة فقبلتها

— احزرى من أين ؟

— أنى لى أن أعلم ؟ فهل تقمن الليلة هنا ؟

— لا

كانت هذه المرأة مفرطة فى تجميل وجهها ، وعلى رغم تقدمها فى السن كانت بادية الجمال

حدقت فى ناجية ثم طبقت عينيها النجلاوين المكحلتين وفتحتهما وقالت :

— من تكون هذه الغانية المتنكرة ؟

— هي ليست متنكرة ، إنما هذه ملابسها

— لا تمزحا

— نحن لا نمزح . ولقد جئنا لنأخذ لها من عندك ثياباً ومئزراً وحذاء ، فهي الليلة ضيفتنا

— تكذبان ، وأقسم أنكما تكذبان

— بل نحن نقسم أنا نقول حقاً

وكانت المرأة ترنو إلى ناجية وقد علا خدها الاحمرار ، ولم تستطع أن تقنع نفسها بصحة حديثهما ثم قالت على غرار الرجال ، وقد رفعت عقيرتها .

— ما أروع هذا الجمال . . !

فما لبثن أن التفتن إليها جميعاً وحدقن فيها . فقالت منيرة :

— دعوها تلبس ما دق ورق من حر الملابس ، وما راق وفاق من الحلل والنفائس ، وعندئذ تبصران كيف تكون الروعة

فأخذها النسوة الثلاث إلى حجرة اللباس وجعلن يخلعن عنها ثيابها المهلهلة . ولما جردنها من ثيابها وأبصرنها عارية اعترتهن دهشة . وطفقت ربة الدار تضرب فخذها بيدها وتقول :

— رباه ! ليتنى كنت رجلاً ...

ألبسنها غلالة رقيقة من الحرير الأبيض الثمين ، ولما أخذن يلبسنها الجورب وشاهدن ما لقدميها وساقيها من الانسجام ولبشرتها من الوضاءة لم يستطعن أن يكبحن أنفسهن عن التصايح بالإعجاب والإكبار . رجّلن شعرها الفاحم الجميل ورتبنه . ولم يكدن ينتهين حتى أجلسنها على كرسى هزاز ، فأخذن يمتعن أبصارهن بتلك الدمية التى أكملن زينتها ، وهن يشعرن بما يشعر به الفنانون حين ينظرون مأخوذين بما أبدعته أيديهم وابتكرته عبقريتهم من آيات الفن . وكانت ناجية تبتسم دون أن تنبس ببنت شفة ، وهي لاتشك فى أن ما تبديه صواحبها من إعجاب وإكبار لجمالها إنما كان من قبيل المبالغة والمغالاة ، ولكنها على رغم هذا أرادت أن تتبين مدى الصدق فيما زعمن ، فكانت تنظر خلسة وعلى مهل إلى صورتها فى المرآة .

دخلت الخادم المخدع وهى تحمل بين يديها صحفة من الفضة عليها إبريق الشاى وحوله الفناجين ، فنهضن وأخذت كل واحدة منهن كرسياً وأحدقن بالمنضدة وناجية أمامهن ، ثم أشعلن لفائف التبغ

وجعلن يتحدثن ؛ على أن حديثهن كله لم يكن يتعدى موضوع الرجال . واتفق أن ناجية كانت تصغي إلى حديثهن ، وهي وإن لم تدرك نوع الصلة التي جمعت تلك النسوة وأحكمت الوشيجة بينهن ، قالت في نفسها بمنطق المرأة الساذجة : « يغلب على ظني أن هؤلاء النسوة لسن صالحات ، لكنهن يتمتعن بكل مظاهر الأبهة والترف . لباسهن من حرير ، ومقاعدهن من حرير ، حتى البساط الذي يلمع تحت أقدامهن يبدو من لينه كأنه حرير أيضاً . ترى كيف تكون موائدهن ؟ »

كانت تنظر إلى علبة السكر الموضوعة على الصحفة وتبصرها مطعمة بالذهب الخالص ، فيذهب بها الخيال شتى المذاهب ، خيال من لم يتناول صاحبه من الصباح لقمة سائغة بل ولا غير سائغة . وبينا هي تحلق في جو من الأحلام بمخيلة الصائم طفقت تتجشأ . لا ريب أنها ستأكل كل هذه الليلة من الأطعمة الساخنة كل ما لذ وطاب . وكانت وهي تتجشأ تهتز اهتزازاً . فخجلت من هذا الذي اعتراها على كره منها ، وغلب على ظنها أنه ينافي الأدب ، فأجهدت نفسها لمنع تكرره . وبينما هي تبذل الجهد ، طرق سمعها حديث صابرة وصاحبتها بشكل استرعى أذنيها وأرهفهما كأنهما حديثتا عهد بالسمع

— لا ريب أن فصيح بك يعطي هذه الشابة مائة جنيه لليلة واحدة

فردت (معزز) تقول :

— ما أظن أنه يعطي هذا المبلغ ؛ فإن هذا الرعديد يباهي بالقول ويفاخر ، فاذا دعي إلى العمل يجبن ويتضاءل

— إنه أعطى ميلوديج ألف جنيه لليلة واحدة

— تلك مسألة أخرى

— ولماذا كانت أخرى ؟

— لأنها كانت مسألة عناد

— إذن لو رآها الحاج ابراهيم ماذا يصنع ؟

— يبادر إلى شراء القصور والحلي ولكنه لا يعطي نقوداً

ولما أيقنت ناجية أن المرأة التي يدور حديث المساومة حول ثمنها إنما هي هي ، امتلأ قلبها هماً ووجيباً وراعها ذلك كثيراً ، وعرتها الرعدة كأنما دهيت ، فعم فؤادها المطعون الحزن ، واجترف قلبها المكلوم الألم . إذن سيقدمنها إلى الرجال وربما في تلك الليلة !

فاستجمعت قواها وهمت بالنهوض لتخلع ثيابها القشيبة وتلبس ملابسها القديمة ، وتخرج من تلك الدار هاربة لا تلوى على شيء . ولم تكد تتحرك حتى امتدت لها يد احداهن بلفافة تبغ فرفضت ، وألحت الأخرى فأقسمت أنها لن تدخنها ، فامتنعن عن الالحاف ، وفي تلك المدة اليسيرة كان رأيها قد تغير . وجدت نفسها مطمئنة إلى نفائس حللها ، وكان الحرير يلمس جلدها لمساً ليناً رقيقاً ؛ ولانت لحديث نفسها إذ حدثتها : « ماذا يمكن أن يحدث في ليلة واحدة ؟ فهل تبلغ بهن النذالة حتى يلقين بي من أول ليلة في أحضان الرجال ؟ لا أظن . إذن لأصبرن الليلة حتى آكل فيها طعاماً ساخناً ، ثم أهرب منهن غداً ومن كل من يلوذ بهن »

وبيناهي تتحدث إلى نفسها ، كانت معدتها تجب وجيب القلب ، ولم يعد يسترعي سمعها شيء من حديثهن إذ سبح خيالها في ذكريات الأطعمة التي طالما أكلت منها قبل المهاجرة ، وأمست تتلهف عليها فلو أنها خرجت متبرمة منهن وهربت مغاضبة فماذا تستطيع أن تأكل في مخدعها ؟ وما لبثت أن تمثل أمام عينيها إناء الفخار الأخضر ، وبدا لها ما بداخله من الحبوب السوداء ، فتقززت وانتفضت انتفاضة العصفور بلله القطر . رفعت رأسها وهي تتمتم : « مهما كانت الحال فانها ستلبث الليلة بين هؤلاء النسوة » ثم قالت : « لأجل الطعام. نعم لأجل الطعام » ولم ترد أن يخطر ببالها شرفها الذي كان معرضاً لأعظم خطر في حياتها . هذا على أن منيرة وصابرة أخذتا تبديان لها ما انطوت عليه عزيمتهما ، ولم تخفيا عليها الغرض من جلبها ، إذ كانتا تقولان إنهما سيقدمانها إلى بعض البكوات وهما مطمئنتان إلى أنها ستسلب منهم ألبابهم بجمالها الساحر . وأخذت (معزز) تحثهن على المبادرة قائلة :

— عجلن واركبن المركبة حتى تدركن ركب باخرة الساعة الرابعة عند خروجهم منها ، وتنزهن في حديقة « مودا » فانكن ولا ريب ستصادفن أناساً ممن يرغبون فيكن وترغبن فيهم .

فما لبثن أن نهضن وائتزرن ، وقبل أن يغادرن الدار قبلت صابرة ومنيرة السيدة معزز قبلات حارة ذات أنفاس طويلة ، ودارت هي الأخرى فقبلت ناجية ، ثم شيعتهن جميعاً حتى الباب . في هذه المرة لم تشأ السيدتان أن تستوي ناجية كما سبق على المقعد الأمامي ، ولذا ضيقتا على نفسيهما وأجلستاها في وسط المقعد الخلفي بينهما . طفق الجوادان يعدوان كأنهما يسابقان الرياح ، وكان يبدو على ناجية أنها تصغي إلى حوارهما ؛ على أنها كانت منهمكة بما ينسجه خيالها من نسيج لا يعدو سداه ولحمته الطعام . وصلت المركبة إلى « حيدر باشا » وجعلت تجرى من الافريز الذي يلي ساحل البحر وناجية تنظر حواليها بعينين زائغتين لا تبصران شيئاً . لم تشاهد «قاضي كوي» قط ، ولما كانت عيناها اعتادتا أن تشهدا في غدوها ورواحها دور اسكدار الضيقة المهدمة وأزقتها الموحلة ، فقد أذهلتها من هذا الحي دوره الشامخة ، وأبنيته الباذخة ، وأرصفته الممهدة ، وأرضه المعبدة ؛ وخيل إليها أنها حلت بأرض أجنبية . وأبصرت في أثناء سير المركبة رجالاً في غاية الأناقة كانوا يطأطئون رؤوسهم اجلالاً لمن بداخلها ، ولم تلبث المركبة أن وقفت أمام ميدان فسيح .

وكان الناظر من خلال هذه الأشجار يرى بحراً خضما لا يحده البصر . ومما لفت نظر ناجية في هذا المتنزه اختلاط الرجال والنساء اختلاط الأسرة الواحدة ، يتنزهون ، ويركضون ، ويقهقهون . وبينما هي تسرح نظرها حولها إذا بصوت صابرة تهمس إلى أحد ، فالتفتت فأبصرتها تكلم شاباً أصفر اللون حليق الشاربين ، أنيق الهندام ، كان يقول :

— أقسمت عليك إلا قلت من هذه

وكانت صابرة تجيب على سؤاله بابتسامة دلال :

— إنني لا أعرفها ، فانها ركبت مركبتنا على جهلنا حقيقة أمرها .

أرهفت ناجية أذنها ولم تكد تصوب طرفها إلى الشاب حتى أغمض عينيه وأدار وجهه صوب منيرة وعجب لأمر هذه الشابة التى صعقته بنظرة واحدة منها ، ودهش لما تبديه فى أطوارها من وقار وما يتجلى فى نظراتها إليه من عدم اكتراث به ، كأنها لم تسمع عنه شيئاً ولم تشاهده قط .

— بربك يا صابرة من هذه ؟

— هاهي ذى أمامك كما ترى ، إنسانة !

— عجيب والله ! كأنك تخشين أن تقولي إنها ملاك .

— نعم إنها ملاك .

— — أتوسل إليك ياصابرة بكل عزيز لديك أن تقدمينى إليها .

— أى حملي الوديع ! هى لا تحادث الرجال ولا تستأنس بهم

— آليت عليك بربك

— إذن تعال إلينا الليلة

— إن حفلاتك يا صابرة لابد لها من اللهو العاصف الأهوج ولا تخلو من الزحام ، وأنا جئت بآخر باخرة متعباً وقد تعشيت ، ولا تجهلين أني لا أستطيع أن أحتسي شيئاً بعد الطعام ، فاذا جئت فسأكون بينكم متفرجاً فحسب

— حسن ! فهلم والبث بيننا متفرجاً

— لست ممن يعبثون بدقائق حياتهم ويضيعونها سدى

— ويحك ! أتريد أن تأخذ هذه الحورية وتذهب بها كيلا تكون سيادتك عابثاً ؟ماأروع ذكاءك ؟ ؟

— صابرة لاتعاكسينى . إن عائلتى فى جزيرة الأمراء وليس فى القصر من أحد ، وإن هذه الفرصة لن تسنح لى مرة أخرى . دعينى أتمتع فى ظلها الوارف بعودها الريان ، ولا ريب أنى سأعد هذا الصنيع منك منة كبرى ويداً لاتنسى . وكانا يتكلمان بهمس ، ولكن ناجية على الرغم من دقات قلبها ، كانت تسمعهما دون أن يفوتها من حديثهما شيء

— فان أسديت إليك هذه اليد فبماذا تكافئني

— ماذا ترومين ؟

— أنا لا أخصص

— أعطيك الآن خمسين جنيهاً

— مهلا ، مهلا ، فلست بها أهلا

— ثمانين جنيها

— هيهات ، هيهات ، قل لى بربك أأنت فى سوق المزاد ؟ إذن خير لك أن ترفع القيمة قرشاً قرشاً ...

— هل تعترضين أيضاً إذا ما قدمت إليك مائة وخمسين جنيهاً ؟

— أنعم النظر يا عزيزى فى هذا الجمال الذى تتقاذف نحوه القلوب وتشرئب إليه النفوس ،وتأمل بأى جوهرة كريمة ستتمتع ، وبأى لؤلؤة يتيمة ستتحلى ، واذكر ميلوويج تلك المرأة التى فاتت الأربعين وتضحيتك لها بما عز وهان . هلا صنت حرمة الجمال ؟ اصعد ، اصعد .

— مائتين .

— وما ذا ستعطي لها ؟

— لا شأن لك فى هذا

— لا بل يجب أن تقول .

— أقسم يا صابرة أننى لم أر طيلة حياتي امرأة لها مثل هذه الروعة . ربما أتخذها خليلة أو حليلة

— اخسأ ! إنك منذ ثلاث سنين تمنى كل من تشاهدها بالمخالة ! أنسيت أنك استغفلتنى بالقاء مثل هذه الأمنية فى روعي ؟

— لكن هذه لا تقاس بغيرها فانها أجمل من كل جميلة .

كانت المساومة ولا ريب تدور حولها فضاقت الأرض فى عينيها بما رحبت ، وخطر لها مرة أخرى أن تقفز من المركبة وتهرب ، ولكن إلى أين ؟ إنها لا تستطيع أن تذهب وهى وشيكة السقوط على الأرض مغشياً عليها من الجوع . فتذكرت دارها ، ولكن هذه لم تزدها إلا اضطراباً شف عن يأس شديد . وما لبثت أن عاودتها روائح الأطعمة الزكية فطفقت تتجلد . كان صديق صابرة الشاب دعاهن إلى التنزه والتمس من منيرة ألا ترفض فنزلن من المركبة . وانثنت صابرة التي تقدمت بضع خطوات على عقبها بسرعة غريبة وقالت :

— صديقة الطفولة السيدة ناجية

وقالت لناجية :

— فصيح بك الشاب الذى عكف على إتلاف ثروة أبيه وبذلها فى أودية الهوى بأريحية وسماحة ، وأخذت تضحك حتى بدت نواجذها وتقوس ظهرها . وابتسمت ناجية ابتسامة منقبضة من فرط حيرتها

جرفهن الزحام في تياره ، وكن أثناء سيرهن محط أنظار الفتيات والفتيان . وبينما الجوع قد بلغ من ناجية حداً جعلها تشعر بمغص وتضور شديدين ، وقد خيل إليها أنها ترى نقطاً سوداء تتطاير أمام عينيها من فرط الاعياء ، كانت الشمس أخذت تغيب وراء الأشجار . فقالت صابرة :

— لنعد أدراجنا ، فاني شعرت بالتعب وأخشى أن يكون المدعوون لمأدبة الليلة قد حضروا وأخذوا فى انتظارنا

قالت منيرة :

— أيأتى معنا فصيح بك أيضاً ؟

— وجهى القول إليه . أظن أنه لا يريد المجىء

فأجاب فصيح بك :

ألتمس المعذرة فانى لا أستطيع المجيء

قالت صابرة :

— فصيح بك ! إن داري ستكون الليلة غاصة بالمدعوين وناجية لا عهد لها بمثل هذا الزحام والضجيج فهلا أخذتها عندك هذه الليلة ؟

— إنى أعد هذا منها مكرمة . وحبذا لو تنازلت بتشريف دارى

لم تستطع ناجية أن تجيب واكتفت بابتسامة مصطنعة وحدثتها نفسها بأنها إن ذهبت مع صابرة فلا بد أن مجال الطرب والرقص والسمر كل هذا سيسترق من الوقت ما يتجاوز ثلثي الليل ثم يباشرون الطعام ، هذا على أن الليل قد حل ولا سبيل إلى الفرار من يد هذه الطائفة لو أرادت

ذلك . أما الشاب فلا ريب أن داره خالية من الزوار ، وإن ذهبت فلا تلبث أن تجلس إلى المائدة وتشبع بطنها ثم تتمحل الأعذار وتحتال حتى يتنفس الصبح ؛ وعند الصباح يحمد القوم السرى . فالأرجح إذن هو أن تختار الذهاب مع هذا الشاب ... وعندها انصرفت صابرة ومنيرة وأسرع الشاب وتأبط ذراع ناجية وأركبها المركبة ، وطفق يثنى على جمالها النادر وحسنها الرائع ، ويغالى فى إطرائه ويحاول بأنواع المغازلات العجيبة أن يثير فيها رغبة الحديث ، ولكن ناجية كانت فى شغل شاغل عنه وعن مغازلاته ، إذ كانت تفكر فى المائدة التى ستجلس اليها عما قريب . إن رب دار يجود للمرأة التى قدمتها فحسب بمائتين من الجنيهات لا عجب أن تجمع مائدته أفخر الأطعمة وأطيب الأغذية .

بينما هى مستغرقة فى مثل هذه الخيالات والمركبة تركض فى أهم شوارع الحى ، كان الشاب أيضاً يتأمل محاسنها التي زادها استغراقها فى أحلامها حسناً على حسن . وما لبث أن قال :

— بربك يا سيدتي فيم تفكرين ؟ هل تشكين ألماً ؟

— لا يا سيدى .

— إذن فلم هذا الاستغراق فى الفكر ؟

— لا لشىء .

وأوشكت أن ترجوه إذا ما بلغا الدار ألا يلبث لحظة واحدة قبل أن يجلسا إلى المائدة . ولكنها لم تستطع أن تكاشفه بما فى نفسها . وما إن وقفت المركبة حتى اهتزت ناجية كمن استيقظ من نوم عميق ، وقفز منها فصيح بسرعة ومد لها يده :

— تفضلى !

ومشيا بضع خطوات ثم وقفا أمام باب حديدى وكان يبدو للناظر من داخله المظلم طريق صفت على جانبيه الأشجار ، وفى نهايته شبح قصر . أخذ فصيح ينادي بصوت عال :

— آدم ! آدم !

أجابه من الداخل صوت رجل يبدو من لهجته أنه ألباني :

— نعم يا سيدى .

— أسرع وأشعل مصابيح البهو .

وكان يبدو من زى هذا الرجل الطويل الذى ظهر أمامهما أنه بستانى القصر :

التفت فصيح إلى ناجية وقال لها :

— ليس فى الدار من أحد غير هذا البستانى فأرجو أن تأخذى نصيبك من الحرية دون خجل .

— سأفعل ...

صعدا ، وكانت المصابيح أشعلت وبدا البهو رائعاً بما احتواه من الأثاث والرياش الثمينة ، ولم تكد ناجية تبصر هذه العظمة حتى أخذتها الدهشة وكادت تنسيها الجوع وآلامه ، إذ كانت الطنافس والأبسطة النادرة والرسوم البديعة التى تحلت بها الجدران والستائر الغالية من أنفس ما اجتلته الأنظار ؛ وكان فصيح بجانبها قد أصبح بلبلا غريداً لا يكاد يسكت ولا ينفك يعطرها وابلا من أحاديثه التى لم تفهم منها شيئاً ، وتحدث إليها عن الحب الأزلى ، والزواج ، وعن ثمرة الهناء من رفاء وبنين وعدد لها

أنواع المتع والسعادة التى سيجنيانها . استرسل فى مثل هذا الحديث حتى فاجأها بقوله :

— هلم يا عزيزتى نصعد إلى فوق

فسألته ناجية وقد كان ذهنها غاصاً بذكريات الأطعمة :

— إلى أين !

— إلى غرفة نومنا

فقالت فى ذعر : — « ولكن ... »

— ماذا يا روحى ؟

فاستطاعت أن تقول بشق النفس :

— لو أكلنا شيئاً يسيراً !

فصرخ فصيح وقال :

— الله ! لا ريب أنى مغفل ، بل حمار ، ولكن لى بعض العذر بجمالك الذى أذهلنى عن هذا الأمر . إنى أتوسل إليك راجياً العفو عنى . لقد أفرطت فى تناول الطعام قبل عودتى في « سركه جى » حتى لم يخطر لى الطعام ببال . فاسمحى لى أن أعد شيئاً . ونهض ثم خطا نحو النافذة فأطل منها ورفع عقيرته ينادى :

— آدم ! آدم !

— نعم !

— أسرع فآتنا بشىء من الطعام .

أرهفت ناجية أذنها عند ذكر الطعام وسمعت الخادم يقول :

ما ذا أصنع ياسيدى ؟

— اصنع ما يمكنك صنعه وأحضر طعاما .

— نحن الآن يا سيدى فى منتصف الليل ، ولا يوجد حانوت مفتوح

— لاتصدع رأسى بثرثرتك ، بل ابذل جهدك واعمل المستحيل حتى تجد طعاماً ، ولا تتلكأ فى إحضاره إلى غرفة الطعام . . . .

— أسرع ! أسرع ! ولا تنبس بكلمة .

— ياسيدى ! ماذا أستطيع أن أصنع وكل الحوانيت موصدة ؟

— قلت لاتنبس بكلمة . أفأنت تتعمد عصيان أوامرى ؟ هيا أسرع وأحضر طعاماً .

فلما ذهب الألبانى التفت فصيح إلى ناجية وقبض على يمينها البيضاء ، وطفق يطبع عليها قبلات الاستعطاف ، ويقول بحنان يوشك أن يسيل رقة :

— أرجوك العفو ياقرة عينى ، فوالله لأتلافين هذا الأمر غداً .

— لقد شرد لبى وطار صوابى حين وقع بصرى عليك فأنسيت كل شىء فاصفحي عنى .

— عفواً ياسيدى !

— حقاً إني كنت عديم الذوق بل مغفلا .

— العفو !

طرق سمعها وقع أقدام الخادم ، وكان قد دخل البهو ، فما كانت تصغى إلى حديث الشاب إلا قليلا . جاء الخادم وقال من خارج الباب :

— قد أعد الطعام ياسيدى

نهضا ، وتقدمها الشاب حتى بلغ بها إلى غرفة

الطعام الواسعة المؤثثة على أفخر طراز وأشار إليها يقول :

— تفضلي ياسيدتي

فدخلت ، وكان حول المائدة كرسيان متقابلان وضع أمام أحدهما صحفة واحدة ، فأجلسها هذا على الكرسي ، لكنها لم تكد ترى مافي الصحفة حتى انتفضت انتفاضة الدهشة ، وعلا وجهها شحوب مخيف ، كأنها أبصرت فيها شيئاً لا يقوى الانسان على احتمال رؤيته . وصرخت بأعلى صوتها

— يالله !

فما كانت الصحفة تحتوي إلا زيتوناً ، وما كان بجانبه شيء غير ذلك الخبز الأسود الذي اعتادت أكله منذ أربع سنين !

أسندت ذراعيها على المائدة ، وغطتهما برأسها ، وفاضت عيناها بالدموع ، وكان إجهاشها ونشيجها يفصحان عن القنوط واليأس ، وينبئان بأشد حالات التأثر والألم . ولم يستطع فصيح أن يدرك من هذا الانفعال المفاجئ شيئا ، لأنه كان ينظر إلى جيدها الشفاف الذي بدا واضحاً لدى انكبابها على المائدة ، فأعماه عن رؤية الزيتون والخبز الأسودين اللذين لم يجد الخادم سواهما في المنزل

اشتدت بناجية الحال وتجهم وجهها ، وتوترت أعصاب صدغيها ، وزاد ضغط فكيها . ولم يكن فصيح قد استرجع رشده الذي أفقده إياه هذا التغير المفاجئ فأخذ يقول :

— ماذا دهاك ياحبيبتي؟ ماذا بك يا إنسانة عيني؟

فنهضت ناجية ، وقالت :

— ليس بي شيء

وأخذت تمشي نحو الباب . فهم فصيح ليمنعها فصرخت في وجهه ، وجعلت تحدق فيه تحديقة حقد وبغض شديدين . وقالت :

— أرجو أن تتركني وإلا أسأت إليك .

ثم أشاحت عنه ممتعضة . وكانت عيناها الجميلتان قد جحظتا حتى كادتا تخرجان من محجريهما فتجنبها الشاب ولبث فاغراً فاه مدهوشاً وهو يبصرها تسرع الخطا حتى خرجت من الباب .

ولما سمع وقع أقدامها على حصا الحديقة ، جعل يقول في نفسه :

— ما أعجب هذه المرأة ! إنها لغز . إنها ولاريب مصابة بالهستريا .

انطلقت ناجية هائمة على وجهها ، راكبة رأسها تعدو في عرض الفضاء ، يحيطها الظلام الدامس ، ولماذا لا تعدو وقد أوشكت الليلة أن تضحي بشرفها من أجل أكلة طعام واحدة . وها هي ذي تلج تلك الدور الشامخة وترتاد هذه الحدائق الغناء ، وتتناول بيدها أواني الذهب والفضة ، ثم لم يكن نصيبها من هذه الذخائر والكنوز التي حوتها غرفة الطعام ، إلا الزيتون الأسود والخبز الأسود ! ظلت تتغلغل في أحشاء الظلام ، ولم تبك بعد ، كأن قلبها قد تحجر ، ولا ريب في أنه تحجر ، إذ أحست بثقله في صدرها . ولم تزل على حالها تلك ، تعدو ما وسعها العدو ، تجر وراءها ذيول القنوط واليأس من طريق

إلى آخر دون أن تعرف مذهبها ، ومستقرها ، حتى وجدت نفسها فى مكان طرق سمعها فيه صوت أمواج البحر ، فجعلت تمشي صوب الصوت فأبصرت ظلا بارزاً يمتد إلى البحر فأخذت تمشي فوقه، واسترسلت فى المشى حتى أحست بريح قارسة ، وكانت قد بلغت غاية هـذا الظل الممدود ، فوقفت ، وطفقت تنظر إلى البحر ملياً ، ثم أطبقت جفنيها ، وأخذت تفكر . أرجعت البصر كرة أخرى فأطالت النظر فى البحر ··· نعم ! لا مندوحة لها عن إلقاء نفسها فى أعماق هـذا البحر ، فإنها حتى لو فازت بدخول الجنة ، فلا ريب أن البؤس سيبرز لها هنالك أيضاً ويراوحها بالأشجان والآلام ، وسيقبض عليها من تلابيبها ، فلن يترك خناقها ، فلماذا إذن تطمع فى الحياة ؟ ···

ولـكن ها هى ذى قد ضعفت فجأة لما انتابها من نصب وإعياء ، فهى تحاول المشى فلا تستطيع التقدم خطوة .

وهى تحس بسحابة الغشية تدنو من عينيها ولا تلبث حتى تحيط بها ، فتكتئب حولها الدنيا ويزداد الظلام .

وهى تحس إحساساً عنيفاً أن الرعدة تطارد قواها ، فتتقهقر هذه من أطرافها إلى ناحيـة قلبها الذى اختبل .

وهنا يشتد الضيق فى صدرها ، ويثقل عليها جسمها الخفيف ، فتهن عن احتماله ، فتتغيب عن هـذا الوجود ، وتسقط مغشياً عليها

··· ··· ··· ··· ··· ··· ··· ··· ··· ···

تحس ناجية أنها فى حلم ، وأن صوتاً مبهماً خفيفاً يهمس فى أذنيها ، ثم يدنو منها وكأنه كان يناجيها عن بعد ، ثم يزداد ويشتد فتفيق بعض الافاقة وتعرف أنه صوت الموج .

تدور بعينيها صوب البحر ، فيلوح لها من عرضه ضوء المنارة كأنه الـكوكب الدرى ، فتشعر — وهى شاخصة إليه — كأنه يعيد إلى قلبها حب الحياة رويداً رويداً .

عبد اللطيف أحمد

فديريجو

للكاتب الفرنسى بروسبير ميريميه

بقلم الدكتور حسن صادق

زعموا أنه كان بإحدى المدن الايطالية رجل يسمى فديريجو ، وسيم الطلعة رائع القسمات بديع التكوين ، إلى أدب جم وحديث عذب وحلم مستطاب . ولكنه كان ماجناً مستهتراً يألف الرجس والفجور . كان كلفاً بالنساء مولعاً بالميسر لايطيق الصبر عنه . ولم يكن يؤدى قط (فريضة الاعتراف) أو يذهب إلى الكنيسة إلا ليبحث فيها عن فرص تعبد له سبل الخطيئة .

شاء له الحظ أن يربح فى الميسر أموال اثنى عشر شاباً من أسر كريمة ، وأن يضرب عليهم ذل الفاقة وظلم الخراب ، فاضطروا إلى الاندماج فى سلك الجندية المأجورة ، وماتوا وهم يحاربون القواد المأجورين الذين يستخدمهم الملك ، محرومين من الاعتراف والطقوس الدينية الأخيرة .

دارت الأيام دورتها وخسر فديريجو كل مار بح ثم جميع مايملك ، فانحدرت عنه النعمة ولم يبق له إلا بيت عتيق قائم فى مكان هادئ خلف بعض التلال ، فذهب إلى هذا البيت وفى صحبته الاكتئاب والحسرة ليعتزل الاجتماع ويخفى بؤسه عن الناس .

عاش فى هذه المحنة ثلاث سنين كان فى أثنائها يخرج إلى الصيد نهاراً ويلعب الورق ليلا مع فلاح يزرع له الحديقة الصغيرة على أن يأخذ نصف غلتها أجراً له .

وفى أحد الأيام ، عاد إلى البيت مبتهجاً لأنه وفق فى الصيد إلى درجة لم يعهدها من قبل . وما أن استقر به المقام حتى طرق المسيح ، ومعه إثنا عشر رسولاً عليه بابه وسأله الضيافة .

سرت بنفس فدريجو عبقة من السرور حين رأى ضيوفاً يطرقون بابه فى يوم أصاب فيه صيداً كثيراً ، وأدخل الضيوف فى بشر وإيناس وأعد لهم كل ماعنده من ألوان الطعام ، ثم رجا منهم أن يلتمسوا له المعذرة إذا رأوا فيه العجز عن أن يعاملهم كما يتطلب قدرهم لأن الزيارة جاءت على غير انتظار .

نظر إليه المسيح الذى يعرف دون ريب الغرض الذى يقصد إليه من زيارته ، وغفر له هذا الشعاع البسيط من الزهو فى سبيل إظهار ميله الشديد إلى إكرام ضيوفه ، ثم قال له : « سنكتفى بما عندك ، فمر باعداد العشاء لأننا فى وقت متأخر » ثم أشار بيده إلى القديس بطرس وقال : « وهذا جائع إلى أقصى درجات الجوع »

أسرع فدريجو إلى إجابة هذا الطلب ، وأراد

أن يقدم إلى ضيوفه شيئاً آخر فضلا عن صيده ، فأمر الفلاح أن يذبح الجدى الذي يملكه وأن يشويه على السفود .

ولما هيىء الطعام وجلس الضيوف إلى المائدة شعر فدريجو بأسف ، لأن نبيذه لم يكن جيداً إلى درجة ترضيه ، فقال للمسيح : « سيدى ، بودي لو يكون النبيذ أجود من هذا ، ولكنى أقدمه إليكم كما هو بقلب خالص »

لم يتكلم المسيح ولكنه ذاق النبيذ وقال « كيف تقول ؟ ! ومم تشكو ؟ ! نبيذك بلغ الغاية في الجودة . وإنى أسأل الرأى هذا الرجل » وأشار بأصبعه إلى بطرس الرسول .

ذاق بطرس النبيذ واستمرأه وأعلن أنه حلو جيد ، ثم طلب من مضيفه راجياً أن يشرب معه فأقر فدريجو رأى بطرس بإيماءة من رأسه ، وقد أخذ قوله وقول المسيح على سبيل المجاملة والأدب ؛ ثم تناول جرعة ، فعراه الدهش الشديد ، لأنه وجد أن النبيذ ألذ طعما من كل نبيذ ذاقه في حياته ، حتى أيام كان يملك الثروة الضخمة ، ويغشى أفخر المشارب . فعرف من هذه المعجزة أن « المنقذ » في بيته ، فنهض من مكانه فى إجلال وخشوع كأنما هو غير جدير بأن يأكل مع هذه الجماعة المقدسة .

ولكن المسيح أمره بالجلوس فأطاعه فى احترام وفير . وبعد انتهاء العشاء ، انسحب المسيح ورسله إلى الحجرات التى أعدت لهم ، وبقى فدريجو مع الفلاح يلعب الورق كعادته ويشرب ما تبقى من النبيذ .

وفى صباح اليوم التالى اجتمعت الجماعة المقدسة فى الردهة فقال المسيح لفدريجو : « نشكر لك استقبالك الجميل ونريد أن نجازيك عليه أحسن الجزاء ، فتمنّ علينا ثلاثة أشياء نستجب لك ، لأننا قد منحنا كل قوة فى السماء وعلى سطح الأرض وفى مستقر الأرواح »

فلما سمع ذلك فدريجو ، أخرج من جيبه الورق الذى يحمله معه دائماً وقال : « أيها المنقذ العظيم ، أريد أن أربح فى كل مرة ألعب فيها بهذا الورق » فأجابه المسيح فى هدوء : « لك ما تريد »

وكان بطرس الرسول جالساً إلى جانب فدريجو فقال له بصوت خافت : « كيف تطلب هذا أيها الخاطىء التعس ؟ ! ينبغي أن تسأله السلام لروحك وأن يغفر لك ذنوبك وخطاياك » فأجاب فدريجو مطمئن النفس : « إنى لا أشغل بالى كثيراً بسلام روحى » فقال المسيح : « لك عندى شيئان آخران تسألنى إياهما »

— سيدى بما أنك كريم إلى هذا الحد فانى أرجو منك إذا شئت وتفضلت شيئاً يسيراً خلاصته أن أي شخص يتسلق شجرة البرتقال التى تظلل بابى وتمتد فروعها إلى نافذتى ، لا يستطيع النزول إلا بإذنى ومشيئتي .

فأجابه المسيح إلى ما طلب . وفى تلك اللحظة ضرب بطرس الرسول فدريجو على مرفقه ضربة قوية وقال مغمغما : « أيها الخاطىء الشقي ، ألا تخاف عذاب جهنم الذى تقودك إليه خطاياك ؟ ! لم يفت الوقت بعد ، وفى استطاعتك أن تسأله مكاناً

فى جنة الخلد » فأجاب فدريجو : « ليس هذا بالأمر الذى يتطلب العجلة » ثم ابتعد عن القديس بطرس حتى لا يضايقه بملاحظاته .

وطلب المسيح من مضيفه أن يسأله الأمنية الثالثة ، فقال فدريجو : « أريد أن أى مخلوق يجلس على هذا المقعد المجاور للموقد لا يستطيع أن ينهض إلا بإذنى ومشيئتى » . فاستجاب المسيح لهذا الطلب وغادر البيت هو ورسله .

وما إن اجتاز آخرهم عتبة الباب حتى أراد فدريجو أن يجرب فضيلة الورق ، فاستدعى الفلاح ولعب معه دوراً دون أن يلقى باله إلى اللعب ، فربح ؛ ثم لعب عدة مرات حتى ثبت لديه أن أمنيته قد تحققت .

غادر بيته وذهب إلى المدينة ، واستأجر أجمل جناح فى أفخم الفنادق . وانتشر خبر وصوله فى سرعة عجيبة ، فتقاطر عليه رفاقه الأقدمون فى اللعب والمجون وقالوا : « كنا نعتقد أننا لن نراك أبداً لأن بعض الناس قالوا فى صيغة اليقين إنك زهدت فى مسرات الحياة وأصبحت ناسكا ! » فأجاب فدريجو وعلى شفتيه ابتسامة غامضة : « وهم على حق » فسأله أحد رفاقه : « إذن كيف كنت تقضى وقتك أثناء الأعوام الثلاثة التى لم يرك فيها أحد ؟ » فأجاب فدريجو فى لهجة الورع : « فى الصلاة يا أصدقائى الأعزاء ، وها هو ذا كتاب الصلاة » ثم أخرج من جيبه الورق الذى يحرص عليه الحرص كله .

أثار هذا الجواب ضحكاً عالياً واعتقد كل فرد من السامعين أن فدريجو قد أصاب ثروة فى بلاد أجنبية على حساب مقامرين أقل مهارة منه ، وشعروا بالرغبة الشديدة فى الحصول على هذه الثروة الجديدة فى أقرب وقت مستطاع .

وأراد بعضهم أن يجره فى الحال إلى اللعب ، ولكن فدريجو رجا منهم أن يرجئوا اللعب إلى المساء

وانتقل بالجماعة إلى بهو كبير مدت فيه موائد الطعام والشراب بأمره ، فوقع ذلك من نفوسهم موقعاً حسناً ونال جميل إعجابهم .

كان هذا الغداء أكثر بشراً من عشاء الرسل . وقدم فدريجو إلى رفاقه أجود أنواع النبيذ وأشهى صنوف الطعام . وقبل مجيء هؤلاء الرفاق كان فدريجو قد حصل على ورق يماثل الذى معه تماما حتى يستطيع عند الحاجة أن يحله محل الآخر وأن يخسر مرة في كل ثلاث مرات أو أربع فلا يمر بأذهان رفاقه أية خلجة من الشك فى اللعب . وكان يحمل الورق الأول فى جيبه الأيمن ويحمل الآخر فى جيبه الأيسر .

ولما انتهى الغداء اجتمعوا حول منضدة خضراء وضع عليها فدريجو الورق العادى ، وحدد زمناً للعب ومبلغاً معقولاً من المال . وأراد أن يشعر بلذة اللعب ، وأن يعرف مبلغ قوته ومهارته ، فلعب الدورين الأولين فى حرص شديد ، ولكنه خسر وشعر فى دخيلته بألم وحسرة ، ثم طلب للجميع نبيذاً وانتهز فرصة انهماك الرابحين فى احتساء الشراب نخب ربحهم الماضى والمستقبل ؛ وأخفى باحدى يديه الورق العادى ووضع فى مكانه بيده

الأخرى الورق المبارك . وفى الدور الثالث لم يعط فدريجو أقل التفات للعب ، واستطاع أن يلاحظ الآخرين فوجدهم يغشون فى لعبهم ويسرقون . وهذه المعرفة الباغتة بعثت فى نفسه سروراً كبيراً وجعلته يعتقد أنه يستطيع أن يحصل على ما فى جيوبهم وهو هادئ الضمير ، لأن خرابه الماضى كان منشؤه غشهم لا حسن لعبهم أو ضخامة ثروتهم. وفى تلك اللحظة جالت بخاطره ذكرى ثروته الماضية وذكرى الاثنى عشر شاباً الذين أقام يسره على عسرهم وخرابهم ، وآمن بأنهم كانوا أشرف اللاعبين الذين صادفهم فى حياته ، وندم للمرة الأولى على النجاح الذى أحرزه عليهم . ثم حلت فى وجهه سحابة قاتمة محل أشعة الفرح ، وتنهد تنهدة عميقة وهو يربح الدور الثالث .

اتصل هذا الدور بأدوار ربح أخرى لفدريجو واستطاع فى ذلك المساء أن يجمع مبلغاً وفيراً من المال دفع منه ثمن الغداء الفاخر وأجر جناحه في الفندق شهراً كاملاً . وكان هذا كل ما يريد فى ذلك اليوم . وأصاب الكدر الشديد رفاقه ، ولكنهم وعدوه قبل أن يغادروا الفندق بالعودة اليه فى اليوم التالى .

وفى الأيام التالية عرف فدريجو كيف يخسر ويربح فى اللحظات الملائمة ، فجمع فى وقت قصير ثروة هائلة دون أن يشك أحد فيه أو يدرك سبب ربحه الحقيقي . ثم غادر الفندق ليعيش فى قصر كبير اشتراه ، كان يقيم فيه من حين إلى آخر أبهج الحفلات وأفخمها . وأصبحت أجمل النساء يتشاحن فى سبيل نظرة من نظراته ؛ وكان يقدم للزائرين فى كل يوم أفخر أنواع النبيذ وأبدع ألوان الطعام ، واشتهر قصره بأنه معهد المسرات .

وبعد عام قضاه فدريجو في لعب لا يدعو إلى الشك فيه ، عزم على أن يجعل انتقامه كاملا فظيعاً من جميع كبار الأغنياء فى البلد ، ثم استبدل بالجزء الأكبر من ذهبه أحجاراً كريمة ، ودعا هؤلاء الأغنياء إلى حفلة شائقة منقطعة النظير ، وأعلن أنه سيجلب إليها أعظم الفنانين والمغنين ، وأنها ستختم بمقامرة جسيمة هائلة ، فحضر بعضهم ومعه كل ما يملك من الذهب ، والبعض الآخر اقترض المال الكثير من اليهود . وفى تلك الليلة ربح فدريجو كل هذا المال وسافر به بعد انصراف المدعوين

ومنذ ذلك الوقت اتخذ لنفسه قاعدة لا يحيد عنها ، وهى ألا يلعب بالورق المبارك إلا مع اللاعبين ذوى النية السيئة ، لأنه يستطيع بمهارته أن يلعب مع الآخرين بالورق العادى . زار مدناً كثيرة مقامراً فى كل مكان رابحاً فى كل موطن ، وكان يشترى من كل بلد ما ينتجه من البدائع . وبرغم ذلك لم ينس قط صرعاه الإثنى عشر شاباً ، وكانت هذه الذكرى الأليمة تكدر عليه صفو حياته وتبلبل باله فى كل حين .

ولما ضاق ذرعابها ،عزم ذات يوم على أن ينقذهم أو يهلك معهم ، فرحل إلى جهنم تنفيذاً لغرضه وبيده عصا وعلى ظهره حقيبة ، ولم يصحب غير كلبته العزيزة عليه (مارشسلا) .

بلغ صقلية وتسلق جبل (جبيل) ثم هبط من فوهة البركان إلى جوفه ، وظل يتعمق فى الهبوط إلى مسافة تماثل ارتفاع الجبل حتى أشرف على فناء

كبير يؤدى إلى باب الجحيم .

وكان يحرس هذا الفناء كلب ذو رؤوس ثلاثة فاجتازه فدريجو دون مشقة . وبينما كان الكلب يغازل مارشسلا ويتألفها ، قرع فدريجو الباب ، فلما فتح سأله بليتون خازن النار :

— من أنت ؟

— المقامر فدريجو

— وماذا تريد ؟

— بليتون ، إذا كنت تقدر أن أول وأمهر مقامر على سطح الأرض يكون جديراً بأن يلعب معك ، فانى أقترح عليك ما يأتى : نلعب عدداً من الأدوار كما تشاء ، فاذا خسرتُ دوراً واحداً كان لك روحى ملكا حلالا تضمه إلى الأرواح الأخرى التى تعمر دولتك . وإذا ربحتُ كان لى الحق فى اختيار روح من رعاياك فى كل مرة أحمله معي

— لك حكمك

وطلب ورقاً للعب فقال فدريجو فى لهفة : « هاهو ذا الورق » وأخرج من جيبه الورق المبارك وشرعا يلعبان .

ربح فدريجو الدور الأول وطلب من بليتون روح (ستفاند جاني) أحد الإثنى عشر الذين يريد إنقاذهم ، فأجيب إلى طلبه فى الحال . وضع هـذا الروح فى الحقيبة ثم ربح دوراً ثانياً وثالثاً إلى الدور الثانى عشر ، وفى كل مرة كان يتسلم الروح الذى يريد ويضعه فى الحقيبة .

ولما تم له ما أراد ،عرض على بليتون أن يواصل اللعب ، فأجابه وقد أخفى تذمره : « بكل سرور ، ولكن لنخرج قليلا لأنى لا أدرى أية رائحة كريهة قد انتشرت الآن فى هذا المكان » وهو فى الواقع كان يبحث عن وسيلة للخلاص من فدريجو . فلما اجتاز هذا الباب ومعه حقيبته وعصاه ، صاح خازن النار أن أغلقوا الباب خلفه . عاد فدريجو إلى بيته القديم المنعزل ، وعزم على قضاء بقية عمره فيه . وبعد عودته ببضعة أشهر ، وضعت كلبته مارشسلا عدداً كبيراً من الشياطين غريبة التكوين ، فألقاها جميعاً فى الماء .

وبعد انقضاء ثلاثين عاماً (وقد بلغ فدريجو السبعين من عمره) جاءه الموت وأنذره وطلب إليه أن يعد ضميره لأن ساعته قد حانت . فقال له فدريجو المحتضر :

— إنى على أتم استعداد ، ولكن قبل أن تختطف روحى أيها الموت ، أرجو أن تعطينى برتقالة من هذه الشجرة التى تظلل بابى . حقق لي هذا الرجاء فأموت راضياً ممتناً

— إذا لم يعوزك غير هـذا ، فأنا لا أرفض تحقيق رجائك

ثم تسلق الشجرة ليقتطف برتقالة . وحين أراد النزول عجز لأن فدريجو أراد له هذا العجز . فصاح الموت :

— آه ! لقد خدعتنى يا فدريجو ! إنى الآن فى قبضة يدك وتحت سلطانك . رد إليّ الحرية أعدك بعشرة أعوام تقضيها في الحياة

— عشرة أعوام ! ما أشد بخلك يا عزيزى ! إذا أردت النزول يا صديقي وجب عليك أن تكون أكثر سخاء من ذلك

— أهب لك عشرين عاماً

— أتهزأ بى ؟ !

— أعطيك ثلاثين

— لم تصل بعد إلى الثلث

— أتريد إذن أن تعيش قرناً ؟ !

— نعم يا صديقي

— أنت هازل يا فدريجو لا تعرف الاعتدال

— ماذا تريد ؟ أحب الحياة

— إذن اتفقنا على مائة عام ما دام الظرف يحتم الوصول إلى هذه النتيجة

وبعد هذا الاتفاق استطاع الموت أن ينجو بنفسه. وما إن غادر البيت حتى نهض فدريجو فى صحة كاملة وبدأ حياة جديدة فى قوة شاب وتجربة شيخ . واستمر فى إرضاء شهواته وعلى الأخص الجسدية منها دون أن يفعل إلا قليلا من الخير كلما سنحت له الفرصة ، دون أن يفكر فى سلام روحه ، أى عاش كما كان يعيش فى أيامه الأولى

مضت المائة عام وجاءه الموت ووجده طريح الفراش فقال له : « هل أنت على استعداد ؟ » فأجاب فدريجو : « نعم . لقد أرسلت فى طلب قسيس يتقبل اعترافى . اجلس على هذا المقعد قليلا . إنى لا أنتظر غير إنجاز الطقوس الدينية الأخيرة ثم اندفع معك نحو الخلود »

فجلس الموت على المقعد شفقة على فدريجو وانتظر ساعة كاملة ولم يحضر القسيس . ولما سئم الجلوس قال :

— أيها الشيخ ، ألم تجد من الوقت فى الزمن الطويل السابق ما تنظم فيه رحيلك ؟

— أقسم لك أنى كنت لاهياً عن ذلك بعمل آخر

ثم تبسم فى سخريته

فقال الموت وقد تملكه الغضب من تبجح فدريجو : « إذن ليس لديك إلا دقيقة واحدة تحياها » وحاول النهوض من مقعده . فقال فدريجو « رباه ! أعرف بالتجربة أنك شديد الدقة فى عملك ، ولكن أتضن علىّ ببعض أعوام أخرى ؟ »

اهتاج الموت وبذل جهداً كبيراً فى النهوض وقال : « بعض أعوام يا شقى ! » فأجاب فدريجو « نعم . وثق بأنى لا أبالغ فى طلبي هذه المرة . أريد أربعين عاماً فقط للشوط الثالث »

أدرك الموت أنه عاجز عن النهوض ، كما كان عاجزاً حين تسلق شجرة البرتقال ، وأن الذى يعجزه قوة غير طبيعية . ولكنه فى غضبه وهياجه لم يشأ أن يجيب فدريجو إلى ما طلب

فلما رأى فدريجو عناده ، قال له : « أعرف وسيلة تذهب بعنادك » ثم ألقى فى النار ثلاث قطع من الخشب فاشتعلت بعد لحظات وملأت النار جوانب الموقد . ولم يلبث الموت أن شعر بالحرارة الشديدة تكاد تحرق جلده فصاح قائلاً : « الرحمة ! الرحمة ! أعدك بأربعين عاماً ! »

ولما نطق بهذه الكلمات ، أشار له فدريجو أن ينهض من مكانه ففر هارباً وحرارة النار تكوى ضلوعه

مضت الأربعون عاماً فعاد الموت إلى فدريجو ، وقد كان فى انتظاره وإلى جانبه الحقيبة . فقال الموت « حانت ساعتك فلا تحاول الإفلات منى بلا جدوى ... ولكن ماذا تريد أن تفعل بهذه الحقيبة ؟ »

— إنها تشتمل على أرواح الاثنى عشر شاباً الذين أنقذتهم من الجحيم فى الزمن السالف

— ليدخلوها معك

وأخذ فدريجو من شعره وانطلق به فى الهواء نحو الجنوب ، وتغلغل بفريسته فى هوات جبل (جيبل) حتى بلغ باب جهنم وطرق الباب ثلاث مرات ، فقال بليتون :

— من الطارق ؟

— جئتك بفدريجو القامر .

فصاح خازن النار وقد تذكر فى الحال الاثنى عشر روحاً التى خسرها : « لا تفتحوا ! إن هذا الخبيث إذا دخل مملكتى خربها ! »

فحمل الموت فريسته مكرهاً إلى باب « المطهر » ولكن ملاكه الحارس أبى أن يقبله لأنه فى حالة الخطيئة الكبرى .

أسف الموت جد الأسف لإفلات فريسته من جهنم والمطهر وعرف أنه مضطر إلى حملها إلى الجنة

فلما رآى القديس بطرس فدريجو قال له : « أتجرؤ على المجيء فى الحالة التي أراك عليها ؟ ألا تعرف أن السماء مغلقة فى وجوه أمثالك ؟ ! ما هذا ؟ إنك لست جديراً حتى بالمطهر وتريد مكاناً فى الجنة ؟ ! »

فأجاب فدريجو : « هل استقبلتك بمثل هذه الشدة حين طرقت بابى أنت والسيد المسيح ورفاقك منذ مائة وثمانين عاماً ؟ ! »

فقال بطرس الرسول فى لهجة التأنيب المشوبة بالرقة والحنان : « جميل قولك هذا ، ولكنى لا أستطيع أن آخذ على عاتقي أمر الإذن لك فى دخول الجنة ، سأحمل إلى المسيح خبر حضورك وسنرى ما يقول »

ولما عرف المسيح الخبر ، خرج إلى باب الجنة ووجد فدريجو واقفاً على العتبة ومعه الحقيبة ، فى كل عين منها ستة أرواح ، فاستدر هذا المنظر شفقته وقال : « آذن لك يا فدريجو فى الدخول ، ولكن ضميرى لا يسمح بدخول الاثنى عشر روحاً التى تطالب بها جهنم »

فقال فدريجو : « كيف ذلك ؟ ألم أستقبلك فى بيتى ومعك اثنا عشر شخصاً وأكرمتكم ما استطعت إلى الاكرام سبيلا ؟ ! » .

سكت المسيح هنيهة ثم قال : « لا سبيل إلى رفض ما يطلب هذا الرجل . إذن ادخل مادمت قد استطعت الوصول إلينا » .

حسن صادق

كردعلى

للقصصى الروسى بوشكين

بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار

« كرد على » بلغارى بمولده . وهذا اللقب فى اللغة التركية يطلق على ذوى الجرأة والقوة ، ولا أعرف ما هو أصل الاسم الذى يتسمى به بطل هذه القصة فقد أطلق عليه لقب « كرد على » وعرف به وأصبح شخصية مخوفة مرعبة فى أنحاء « مولدافيا » لكثرة ما ارتكبه من العدوان

ولما أعلن اسكندر أبسلانتى الثورة وأخذ فى حشد المتطوعة جمع له كرد على أصحابه القدامى من قطاع الطرق ومن على شاكلتهم . وكان هؤلاء لا يدركون حقيقة السبب فى نشوب الثورة فقد كان مثيرها يبغي من ورائها تحرير اليونان . ولكنهم كانوا يرون فى الحصول على الثروة من أسلاب الأتراك أو أهل مولدافيا سبباً كافياً لنشوب أية ثورة

وكان اسكندر أبسلانتى شجاعاً ، ولكن لم يتوافر لديه من الصفات ما يكفى لتنفيذ المهمة التى اضطلع بها ، فلم يستطع السيطرة على رجاله الذين لم يكونوا يحترمونه ولم يكونوا يثقون به

وبعد الموقعة التى أفنى فيها زهرة الشباب اليونانى أشار عليه يورداكى ألبيوتي بالتخلف . وتولى هو مكانه . وهرب أبسلانتى إلى حدود النمسا ثم أرسل لعناته إلى الشعب الذى كان يقوده واصفاً رجاله بأنهم خونة جبناء أسافل

ولكن هؤلاء الموصوفين بالخيانة وبالجبن هلكوا تحت أسوار معبد سيكوا أو على ضفاف نهر بروث وهم يدافعون دفاع المستميت جيشاً يربو عدده على عشرة أمثال عددهم

وكان كرد على فى فرقة جورج كانتا كوزين الذى يصح أن يقال عنه ما قيل عن ابسلانتى

وفى الليلة التى حدثت فيها موقعة أسكولانا استأذن كانتا كوزين السلطات الرسمية ، وتخلف عن فرقته منضماً إلى جيشنا فبقيت فرقته بغير قائد ، ولكن كرد على وسفيا نوس وكانتا جونى وغيرهم لم يكونوا بحاجة إلى قائد

ولم توصف موقعة اسكولانا على ما يظهر بالوصف الذى تستحقه فتخيل سبعمائة رجل من الألبان واليونان والبلغار وحثالات كل الأجناس وليس فيهم من يعرف شيئاً عن فنون الحرب . . . تخيل هؤلاء أمام خمسة عشر ألف

فارس من فرسان الجيش التركي العظيم

عسكرت هذه الفرقة أمام نهر بروث وأمامها مدفعان قلّ في الفرقة من يعرف كيف يستعملان . وكان بود الأتراك أن يبدأوا باطلاق النار ولكنهم في تشبث وعناد أرادوا أن نكون نحن البادئين

وكان قائدنا بحمد الله لم يسمع قط صوت رصاصة تطلق ، فلما بدأ الجيشان باطلاق الرصاص في الهواء نفر سمعه ، ونفد صبره ، وتقدم جيشنا متوعداً الجيش التركي بسبابته ثم ارتبك فلم يعرف ماذا يفعل . ثم بدا له أن يجرى فجرى على شاطىء النهر وجرى وراءه جيشه . وفى أثره كتلة الجيش التركى .

وكان هذا القائد الذى هدد جيش الترك بأصبعه يدعى خوتشفسكي ولا أعرف ماذا صار إليه أمره

وفى اليوم التالى هاجم الأتراك جيش الثوار . وعلى خلاف عادة الترك لم يستعملوا المدافع ، بل استعملوا السلاح الأبيض ، فكنت ترى الرمح فى يد كل جندى . ولم يكن الأتراك قد استعملوا الرماح من قبل ، وكانت رماحهم روسية سلبوها من جنودنا في موقعة سابقة . جرح كرد على فى تلك الموقعة ، وقتل سفيانوسى . وكان كانتاجونى عظيم الجسم فأصابته حربة فى بطنه فاستل سيفه باحدى يديه ، وقتل نفسه حتى لا يموت بسلاح العدو .

وبانتهاء هذه الموقعة تم النصر للأتراك . وخلت مولدافيا من الثوار إلا ستمائة ألبانى تشردوا فى أنحاء بساربيا . ومع أنهم كانوا لا يكادون يحصلون على القوت فانهم كانوا شاكرين حماية روسيا . وكانوا يرون جلوساً فى المقاهى الصغيرة في بساربيا التركية الروسية وعلى أفواههم أقداح القهوة . وقد أخذت الرثاثة تبدو على أكسيتهم الملونة وأحذيتهم الحمراء . ولكن طرابيشهم الحمراء المطوية ذات الزر الطويل كانت لا تزال مائلة إلى أحد الجانبين . وكانت الخناجر والمسدسات لا تزال على مناطقهم ، ولكن أحداً لم يشك فيهم ، فقد كان من المحال أن يتصور إنسان أن هؤلاء المساكين بقية من ثوار مولدافيا زملاء كرد على وأن كرد على نفسه كان بينهم

على أن الباشا التركى علم بهذه الحقيقة وطلب إلى السلطات الروسية عملاً بالمعاهدات أن تسلمهم إليه فاعتقلتهم ولم ينكر كرد على شخصيته ولم ينكر ماضيه وقال :

« ولكننى منذ عبرت نهر بروث على أثر الموقعة لم أمد يدى على أى إنسان ، وقد يكون الأتراك وأهل مولدافيا محقين فى عداوتهم إياى لأنى كنت أقطع الطريق عليهم ، ولكننى ضيف على الروس فلماذا يسلموننى إلى أعدائى ؟ »

وبعد هذا القول لزم الصمت وانتظر فى هدأة ما تقضى به الأقدار فى شأنه . ولم يطل أمد انتظاره فان السلطات لا تنظر إلى قطاع الطرق نظرة العطف التى يلقيها عليهم الكتاب والشعراء لا نصرافهم

إلى الجانب الروائى من حياتهم . ومن أجل ذلك سيق كرد على مكبلاً بالحديد إلى السجن فكان يبدو من النظر إلى وجهه أنه ابن الثلاثين . وقد كان طويل القامة عريض الكتفين عظيم القوة عليه علائم الخشونة ، وفى نظراته زهو وهدأة .

ودخل غرفته فى السجن موظف تركي أحمر الوجه أشيب الشعر يرتدى ثوباً عسكرياً قد سقطت منه ثلاثة أزرار . وفى وجهه كتلة حمراء من اللحم مثقوبة تقوم فى ذلك الوجه مقام الأنف . وكان فى يده أوراق أخذ يتلوها وهو بين حين وحين ينظر إلى كرد على وهو يصغى إليه باهتمام .

وبعد أن فرغ الموظف من القراءة طوى الأوراق وصاح في خشونة بأن يحمل السجين إلى مدينة جاسى ، فالتفت كرد على إلى الموظف وتمتم فى صوت يتهدج ، وقد تساقطت من عينيه العبرات وتغير شكله تغيراً عظيماً ؛ وعرته رعشة جعلت لأصفاده وأغلاله رنيناً أزعج الموظف فتقهقر ثم صدع السجين بالأمر فاستسلم للجنود الذين حملوه إلى عربة جرت به فى الطريق .

قال موظف صغير لذلك الموظف العسكرى : « ما الذى قاله لك كرد على؟ » فأجاب وهو يبتسم: « لقد طلب إليّ أن أعني بزوجته وبابنه اللذين يعيشان غير بعيد فى مدينة كيليا وهي من قرى بلغاريا فإنه يخشى أن تؤذيهما الجماهير بسببه فإن الجماهير حمقاء .

ووصل كرد على إلى مدينة جاسى فحوكم أمام الباشا فحكم باعدامه ، ولكنه أرجأ موعد التنفيذ إلى يوم عيد . وحجز المحكوم عليه فى السجن إلى أن يحين الموعد .

وتولى حراسته فى السجن سبعة أتراك هم فى صميم أنفسهم لا يختلفون شيئاً عن كرد على لأنهم قطاع طريق مثله . ولذلك كانوا يحترمونه ويصغون فى دهشة ولذة إلى ما يقصه عليهم من الأحاديث

ونشأت بين السجين وبين حراسه مودة وصداقة . وفي يوم من الأيام قال لهم كرد على : « أيها الاخوان ! إن ساعتى قريبة وليس يستطيع إنسان أن يفر مما قدر عليه ، فسأترككم ولكني أريد أن أترك لكم أثراً تذكروننى به »

أرهف الأتراك آذانهم ليسمعوا ، واستمر كرد على يقول : « أيها الاخوان ! منذ ثلاثة أعوام كنت من قطاع الطريق فى منسر ميخالاكي . ودفنا بالقرب من هذه المدينة آنية مملوءة بالمال . ثم منعتنا ظروف الثورة والحرب عن أن نستردها وسأدلكم عليها فهي لكم »

كاد الأتراك أن يفقدوا حواسهم ، وكان السؤال الوحيد الذى يخطر ببال كل منهم هو كيف يستطيع الوصول إلى مكان هذه الآنية . ورأوا أنهم لا يستطيعون ذلك إلا بارشاد السجين نفسه . فلما أقبل الليل ، فكوا الحديد عن يديه ورجليه وربطوه بحبل ثم أطلقوه وساروا خلفه خارجين من المدينة

قادهم من مكان إلى مكان فمشوا مسافة طويلة .

وأخيراً وقف أمام صخرة عظيمة . وقال : هنا تحت هذه

وقف الأتراك يتدبرون . ولما استقر رأيهم أخرج أربعة منهم الخناجر ، وأخذوا يحفرون بها حول الصخرة . وبقي ثلاثة منهم في الحراسة . وجلس كرد علي فوق الصخرة ينظر ويترقب ؛ ثم قال بعد مدة : ألم تجدوها ؟ فقالوا : كلا

فأظهر أنه فقد صبره وقال : من أي نوع من الناس أنتم حتى حفر الأرض لا تستطيعونه ؟ إنني كنت أفرغ من عملكم هذا في دقيقتين . حلوا وثاقي وأعطوني خنجراً

فكر الأتراك ثم قالوا ؛ أي ضرر في إجابته إلى ما يطلب ؟ نحن سبعة ؛ فلنحل وثاقه ولنعطه خنجراً .

وما أغرب الشعور الذي شعر به عند ذلك ! لقد تناول الخنجر وأخذ يحفر . وفي أثناء عمله أغمد الخنجر في صدر أحدهم وتركه في صدره واختطف من منطقة المصاب مسدسين

وما يزال كرد علي إلى اليوم يقطع الطريق بالقرب من جاسي ، وقد كتب منذ أيام إلى حاكم المدينة يطلب إليه أن يترك في مكان عينه خمسة آلاف ليق ، متوعداً بأنه إن لم يرسلها فهو ميت لا محالة

وقد أرسل إليه هذا المبلغ

وهذا هو كرد علي

عبد اللطيف النشار

عودة الروح

للكاتب الفرنسي تيودور دي بانفيل

بقلم السيد محمد العزاوي

استكملت السيدة هورتنس دافراي في ١٨٨٢ ربيعها العشرين ، وليس في قولي « السيدة » تجانفا مني ولا ميْناً . فقد كانت هورتنس زوجة ؛ بل أرملة بائسة لا ولد لها يسهر عليها ولا قريب يؤويها إلا جدتها « مدام دي بريل » . استقدمتها تلك الجدة لتشاطرها العيش في مسكنها بشارع ليل . وكانت هورتنس تنشق — بقرب جدتها — آخر نسمات العيشة العائلية الهادئة تهب عليها في وَنًى وهدوء . قد مضى الآن حولان كاملان على وفاة جدتها الطيبة التي ماتت حزينة قلقة على مصير حفيدتها إذ تتركها وحيدة في غياهب الفقر وأمواج الحياة . . إنها عُمِّرت ثمانين عاماً رأت فيها من تحب يتزوجون ، ومن تعرف يرحلون ، ولم يبق منهم أحد تعهد إليه بحفيدتها البائسة .

ولما أحست مدام دي بريل بأجلها يقترب، رتبت أمرها في شهرها الأخير ، كي لا تقلق بال حفيدتها . ولقد غالت الجدة في ذلك، فكانت ترمي أوراقاً كثيرة في النار وتحفظ الأخرى. وكانت الجدة تحتفظ — طوال مرضها — بصندوق صغير في دولابها الكبير . وكانت تضع مفتاحه في خيط من الحرير تحت الوسادة الحائلة . وكثيراً ما كانت الجدة تمسك الصندوق ساعات طوالا ، كأنما تريد أن تنتهي من أمره إلى حل، وتتخذ حيال ما فيه قراراً . ودهمتها سكرة الموت قبل أن تقرر مصيره أو تتخلص منه

واستشعرت السيدة دافراي قلقاً يساورها عند ما عثرت يداها الباحثتان على الصندوق الصغير .

وقررت أول الأمر أن تحرقه — أمانة منها وإخلاصاً — دون أن تعرف ما فيه من أسرار . ولكنها لم تفعل ذلك خشية أن تضيع — بحرقه — أداء واجب عليها أداؤه ، أو وصية لا بد منها . وهكذا فتحت الصندوق وألفته مليئاً برسائل جمة ؛ لا تحمل العنوان على الأغلفة كما هي الطريقة الحديثة ، ولكن تحمله على شرائح من ورق رفيع . وقد علمت — بعد أن بصرت بأول خطاب — أنها ليست رسائل جدتها مدام دي بريل ، ولكنها رسائل أم جدتها — السيدة إيود كسي تيرين . وقد رأت هورتنس تلك الجدة العتيدة . فانها لم تمت إلا أخيراً في سنة ١٨٧٢ . ولها من العمر خمسة وثمانون عاماً .

على أنها تستطيع أن ترى خيالها كل حين إن أرادت ، فأسرتها تحتفظ لها بصورة رسمها البارون جروس، في ميعة شبابها ووفرة صباها . وقد كان عن طريق غريزة ركبت فينا ، نشعر بها ولا نستطيع أن نكيفها ، أن رأت هورتنس دافراي بينها وبين

صورة الجدة — التى صورت من ثلاثة وخمسين عاماً خلون — شبهاً قوياً . بل لتكاد — إذ تنظر إليها — ترى وجهها فى مرآة صافية !

ذلك بأن الطبيعة يحلو لها فى فترات مختلفة وفى أسرات خاصة ، أن تعيد خلق وجوه درست وثوت بالتراب من أمد بعيد . . . تعيد خلقها كما كانت ؛ كأنها مثال يأخذ عدة أشكال من قالب واحد . ولكن المرء يسائل نفسه فى تلك الأحوال : إلى أى حد يبلغ الشبه ؟ أيقتصر على الوجه والخلقة ؟ أم يسيطر على الأفكار والمشاعر ؟ أم ينفذ إلى سواد الفؤاد ؟ ! . . تلك مشكلة من مشاكل العلم الحديث يرمينا بها فتفتح أمامنا آفاقاً واسعة غير ذات بر ولا حدود . . .

وقبل أن تقرأ السيدة دافراى أولى الرسائل لمحت سكة كبيرة تتدحرج فى الصندوق بجوار جداره الرقيق . فالتقطتها ، وتفقدتها ، فاذا بها رسم ملازم شاب ، من ضباط الدولة الأولى ، ذى شعر وحف جعد ، وعينين يلمع فيهما بريق الشهامة وبأس الشباب . وجبهة قسمتها ندبة جرح طولى إلى قسمين عريضين . ينبسط أكبرهما من حاجبه الأيمن إلى منبت الشعر بوسط المحيا . وجبهته عامة جبهة شجاع جسور . وأدمنت هورتنس النظر فى الصورة ، فجذبها بريق العينين ، وفتنها سحر الجمال ، وأخضعها بأس الهوى ! فاستشعرت فى قلبها آلافا من المشاعر المتضاربة المركبة ، آلافا من خوف وأخرى من سرور ، إنها تحب ! ولكن ويلها من تحب ! ؟ فتى مرت على وفاته حقب وأعوام ، وتوالت على قبره أجداث ورجام ! فتى دالت دولته ، وراحت صولته ؛ وقدر لها ألاَّ تراه على الأرض حيا ! .... ولكن كثيراً ما لعبت الجذوة التى تلهبنا بالحقائق والأفكار !

وكثيراً ما كانت الحقيقة شيئاً مستحيلا ، فليس ضرورة أن يكون الشىء ممكناً حتى نقول بأنه حقيقة

وإنه لمن الضلال البعيد أن نقول بأن هورتنس قد فجأها الحب بغتة ، ولكنها كانت تشعر فى قلبها بحب قديم ، له آلامه وآماله ، ولسبب ما خمد وانطفأ بل نزع من القلب والذهن انتزاعاً . ولكنه استعر فجأة ، وقفز إلى ذهنها وقلبها معاً يعذب هذا بالذكريات ، ويكوي ذاك بالشوق والألم

وتفقدت الرسائل فاذا بامضاء واحدة تذيلها جميعاً . وقرأتها فى شغف وجنون . ثم كانت لاتنى عن القراءة والإعادة كأنها محمومة . ولم يكن عسيراً أن يجمع المرء خيوط القصة التى أنجبت تلك الرسائل

تزوجت جدتها السيدة إيودكسى تيرين من أحد متعهدي الجيوش . وكان كهلا أنانياً ، أفسدته الخلاعة ، وأضواه المجون . وقد مكنتها مهنة زوجها من الاتصال بضباط الجيش . فهام بحبها ملازم شاب من جند نابليون ، يدعى بول فيراديير وجرفها تيار هواه . فلم تستطع أن تقاوم أو تتشبث . فسارت التيار في هوادة وإخلاص . فكان جميلاً أن ترى عاشقين شفهما الهوى وبرح بهما الغرام يتعاطيان كؤوس الوصل مترعة هنية ، وينهلان من منبع الحب الخالص ، فيحلمان بسعادة خالدة ، ونعيم مقيم . غير أنهما — طوال الوقت — يشعران بأجنحة الموت السوداء تصفق فوقهما كأجنحة الخفاش الأعمش ، ويأنسان بمسوح الردى الطخياء تهددهما بالبعد والحداد .

وسرعان ما تبددت الأحلام ، وحلت المخاوف ! لقد فرق الدهر المشتت بينهما أيام « أوسترلتز » وإيينا وإيلو ؛ أيام فريدلند ووجرام . . . وكانا قليلا ما يلتقيان — فى تلك الأعوام العصيبة — لحظات

معدودات . ولكن فرانديير كان يختلس ما بين واقعتين أو مابين نصرين فيسطر لها — وهوأشعث أغبر — آيات الحب والهيام . ويبثها وقدة الشوق وجذوة الهوى . يسطر لها رسالات مترعة أسى وعذاباً ، تقرؤها الآن حفيدتها الصغرى بين دمع واكف وقلب خافق ؛ بين صدر يعلو ويهبط كالموج، وأنفاس حرى تذهب وتجيء . كان من أجل إيودكسي — كما كان من أجل نابليون — أن خاض فرانديير المعارك الدامية ، وشرق فى البلاد وغرب ، وقاسى كثيراً واصطبر . كان يريد أن ينصر العاهل حتى النفس الأخير ، وأن يكسب لايودكسي عرشاً فخما .

ومات فى تلك الأثناء زوجها . وجن فرانديير الأمل ، وحن إليها ففكر فى الرجوع إلى الوطن . وبينما الأمل ينمو ويوطد الجذور ، والشوق يستعر والقلب خفاق، إذا به يقع في الميدان يتشحط فى دمه المغرم ، وإذا برصاصة تخترق صدره العاشق وتسكت قلبه الخافق . فثوى فى حزون سمولنسك الباردة وحيداً ، لا قلب يخفق له ، ولا دمع يترقرق فى المحاجر أسى عليه . ونعى فرنديير زميل ائتمنه على سر قلبه وذات صدره . وكان خطاب الزميل مع الرسائل الأخرى فى الصندوق الصغير .

ما فى هـذا الأمر من شيء غريب . ولكن الغريب حقاً أن يتراءى لهورتنس دافراى أن التوسلات والذكريات التى حفلت بها الرسائل ، وأن الجوى والهيام كل ذلك لها هى من دون جدتها إيودكسى تيرين . واندفعت روحها الظامئة ناشدة ذلك الحب ، تاركة وراءها الحقيقة ونواميسها ؛ وحلقت بالغرام في الخيال غافلة عن الواقع ونظمه ، وتمادت فى ذلك فاستباحت لنفسها أن تخلق المعدوم وأن توجد المستحيل ! ولم تكتف بذلك بل وهبت نفسها لفرنديير هذا دون أن تفكر لحظة أنه مات منذ أمد بعيد ، فى تيه المجد وضجة النصر المبين . واعتقدت أنه يوماً موافيها ، وأنها ملاقيته بعد أمد قريب أو بعيد ، وأنها مسلمة عليه ومصغية لحديثه الحنون، ولم يخامرها فى يقينها هـذا شك ، ولا وجدت على عقيدتها غباراً ... رأت فأحبت فأغرمت فتعذبت ثم راحت تنتظر الحبيب بثقة واطمئنان !

لو رأى النائم المعجزات فى حلمه لما استغرب ، لأن النفس تكون متطلقة من الواقع ونظمه ، والحقيقة وأشراطها . وكذلك لم تستغرب هورتنس دافراى — حينما كانت تزور مدام دى سيمور — أن تعلن الخادم قدوم السيد بول فرانديير !

رأته يدخل ؛ هو بعينه الذى أحبت وتحب : بول فرانديير ! بول فرانديير بشعره الوحف المجعد ، وعينيه السوداوين ؛ ثم بندبة الجرح فى جبهته العريضة ... لم يكن هناك فرق سوى أنه يرتدى زى ملازم من مدفعية الفوج الافريقى الأول ... كلا ! لم تعجب مدام دافراي إذ تراه ، فقد كانت تنتظره بصبر واطمئنان . على أن قلبها غاص فى حنايا صدرها البض ، وراح يحطم ضلوعها بخفقه الشديد، وودت أن لم تكن بين ذلك الجمع من الرجال المتأنقين وتلك الثلة من النساء ذوات الأساور والحلى ، فتقفز كالغزال إليه ، ثم تغيب فى أحناء صدره الرحيب قائلة « هأنا ذى » !

وانحنى فرانديير لعمته مدام دى سيمور . ثم يرى هورتنس فجأة ، فيبهت ، لا يعرف لديه ولا نكر ؛ وغاض لونه واصفر وجهه ، واستطاع بعد لأى أن يعتمد على الحائط ويجر قدمه الواهنة إلى مخدع كان لحسن الحظ خالياً ، فتخاذل وارتمى على بساطه

الثمين . ودهشت مدام سيمور من سلوكه الناشز عن العرف والتقليد ، فتعقبته إلى حيث تداعى يئن أنيناً . ودخلت المخدع ساعة رانت عليه صفرة الموت وغاب عن الوجود

واستدعت عمته طبيباً مشهوراً من أضيافها . ولكنها أحست — بغريزة المرأة —أن هناك سراً لا يحسن أن تُفَضّ غُلُفه لأحد غريب . فجثت على العليل تدلك رأسه وصدغيه ، وتنشقه بعضاً من ملح قوى مفيق . ثم رفعت رأسه براحتيها واضعة تحتها وسادة من حرير غال

ولما أن أفاق وثاب إليه الوعى، دس يده فى جيب صداره وأخرجها تحمل رسماً على ورق قديم ، حمله قبلات والهة ، فأراه عمته ، ثم صاح فى فرح المجنون وطرفه غريق فى الدمع الهتون : « أي بلانش ! بلانش! إنها تحيا ! » فأجابته عمته : بلانش ! بالطبع! إن هورتنس دافراى تحيا ، وهى فوق ذلك صديقتى . ولكن قل لى لم تدخل فى زى الدولة الأولى ؟ على أنك لم ترها مرة واحدة ! فما معنى تلك النوبة التى انتابتك من لحظة ؟ فقال فرانديير :

— إنى لم أرها إلا الآن ولكن روحى هامت بها من زمن بعيد ، وأوسعتها حباً وعشقاً . وقد استقر حبها بين جوانحى وفؤادى ، وسرى بين لحمى وعظمى . لم يفارقنى ذلك الرسم منذ خلص إلى وتناهي من ثلاثة أعوام خلون . واصطحبنى فى الفتح والحروب ، فى النفق والخنادق ؛ فكان رسول السلام إلى قلبى المولە الجازع إذا ما اشتد النزال وحمى الوطيس ؛ وكان بشير الحصانة إذا ما رنق على الرؤوس الموت ليختار على أى يقع . كان فيض الأمل ونبع الحياة ؛ كان كل هذا برغم ما كنت أعلم عن موت صاحبته . ولكنى لا أملك من أمرى شيئاً . وكنت أعلل نفسى أنى ملاقيها فى جنان الرحمن حيث لا تعجز اللقيا ... ولم يكن خيالى يستبيح لنفسه — وهو الشرود الجموح — أن يتصورها حية فى عصرنا هذا . فهو إن صورها يصورها نائمة بجلال بين الورود والزهور في جدثها العاطر . فيطير لبي شعاعا ، وتنسرق نفسى هياماً وحبا ! ...

— هذا حسن ! ولكنك لم تحدث لي من أمر الصورة ذكراً . كيف تناهت إليك ؟

— ذاك أمر بسيط ! فقد كان لدى أبى — فى مكتبته — مكتباً مهجوراً . طلبته منه كى أستذكر عليه فأعطانيه ولم يمهل . وقال لى إنه من مخلفات — سمي — عمه الأكبر پول فرانديير . كان ملازماً في جيش الدولة الأولى . ومات فى سمولنسك فى السابع عشر من أغسطس سنة ١٨١٢ . وكانت مفاتيح المكتب ضائعة فاضطررت إلى كسر أغلاقه ، وفى أحد أدراجه الخفية عثرت يداى المجدودتان بتلك الصورة المقدسة ، ولقد عشقتها من ذلك الحين .

— حقاً إن فى ذلك الحادث جانباً كبيراً من الغموض والابهام ، وعلى أية حال فأنت شاب طليق وهى فتاة حرة . فلا مانع يفصلكما من الحب ويحرمكما الزواج .

ولكن الأمانى كانت سراباً . فقد ادّكر كل من پول وهورتنس صاحبه ، فتذاكرا العهود وجددا الغرام ، فنعما بجنة الحب لأمد قصير . ولكن پول ذهب فى فوجه إلى « تونكين » وهناك مات — كجده — برصاصة شقت الصدر وباتت فى الفؤاد . . . أي بؤس وعذاب ! . . .

« شبين الكوم » سيد محمد العزاوى

أُجلافين وسيليزيت

رواية تمثيلية في خمسة فصول

للكاتب البلجيكي موريس ماترلنك
بقلم الدكتور محمد غلاب

تتمة الفصل الرابع

المنظر الرابع

(يقع هـذا المنظر فوق قمة البرج حيث ترى « سيليزيت » وأختها « إيسالين » الصغيرة)

سيليزيت — ها نحن أولاء فوق قمة البرج يا إيسالين ، وفي هذه الآونة يجب أن نعرف ما ينبغي عمله ... أوه ما أكثر النور في السماء وعلى الأرض وفوق سطح البحر ! ثم لماذا هذا اليوم هو أكثر جمالاً من جميع الأيام الأخر ؟ .

إيسالين — أين هو ذلك الطائر الأخضر ؟

سيليزيت — إنه هنا ، ولكنه لم يُرَ بعد ، وسننحني بعد قليل على الحائط ، ولكن انظري هنا قبل كل شيء ، إننا نرى كل القصور والحدائق والغابات . إن جميع الزهور قد تفتحت على شواطئ الجداول ، أوه ! ما أبدع خضرة الأعشاب في هذا الصباح ! . . إنني لا أجد « أجلافين ... ولكن هل ترين هناك «ميلياندر» إنه ينتظرها ... اخفضي قامتك ، فلنختبئ ، إذ لا ينبغي أن يكتشف وجودنا ههنا . إنه على حافة الخزان ، ذلك المكان الذي أيقظت فيه « أجلافين » آنفاً

إيسالين — شقيقتي ، انظري من هنا ، إنني أرى البستاني الذي لا يزال يغرس زهوراً حول القصر

سيليزيت — إنك سترينها تكبر وتتفتح يا إيسالين وستقطفينها لأجلي[1] ... تعالي تعالي ، أنا لم أعد أستطيع النظر إلى ذلك ، فلننظر من هذه الجهة الأخرى التي لا يرى منها إلا البحر الأكثر بعداً عنا من القصر ... إن البحر لجميل أيضاً ! إن الإنسان لا يستطيع أن يجد فيه مكاناً حزيناً في هذا الصباح ، إنه قد بلغ من الخضرة والعمق إلى حد أن الانسان لا يجد الشجاعة الكافية ... ثم إن كل ما يمكن أن يحدث لا يستطيع أن يحول بينه وبين ابتسامته هذه إلى المساء . هل ترين هذه الموجة الصغيرة التي تتكسر على الشاطئ ؟ أنا لا أستطيع، أنا لا أستطيع ، قلت لك : إن الزهور والبحر يمنعانني من عمله . لا أستطيع أن أفعل ذلك أثناء النهار

إيسالين — هذه هي الطيور البحرية يا أختي، إنه يوجد منها آلاف مؤلفة

سيليزيت — إنها تجيء معاً من الجانب الآخر

(١) عبر المؤلف هنا بجملة تدع القارئ يفهم أن سيليزيت تقصد أن أختها ستقطف الزهور لتضعها على قبرها دون أن تصرح بهذا حتى لا تتنبه الفتاة الصغيرة إلى ما ترمي إليه شقيقتها

للبحر كأنما تحمل معها أخباراً جديدة …

إيسالين — لا لا ، إنها تحمل أسماكا يا أختى ، وإن صغارهن تصيح فى أحجار حوائط البرج ، إن مناقير تستوى مع أجسامهن في الطول . هل ترين ذلك الطائر الكبير الذى يحمل ثعبان البحر ؟ انظري إنها قد انتهت من أكله . … … … … … …

… … … … … … … … … … …

سيليزيت — ماذا قلت لجدتى يا إيسالين ؟

إيسالين — لماذا تبكين يا أختى ؟

سيليزيت — أنا لا أبكى ، وإنما أفكر … أنا أفكر … هل قبلت جدتى قبل أن أنصرف ؟

إيسالين — نعم أنت قبلتها ساعة انصرافك

سيليزيت — كم مرة ؟

إيسالين — مرة واحدة يا أختى ، لأننا كنا معجلتين

سيليزيت — أنا أعتقد أننى لم أكن وديعة معها

إيسالين — لقد كنا على عجل يا أختى

سيليزيت — لا لا ، أنا لا أستطيع أن أفعل هكذا ، إنها ستكون وحيدة ، وإنها سوف لا تذكر إلا شيئاً واحداً ، وهو أننى لم أكن وديعة ألا ترين أنه حين يرحل الانسان ولم يكن ساعة رحيله أكثر وداعة منه قبل الرحيل ، فإن من حوله يظنون أنه لم يعد يحبهم ؟ ولكن العكس هو الذى ينبغى أن يعتقد في مثل هذا الموقف ، لأن الانسان الذى يفرط فى الحب هو الذى يخشى أن يكون وديعاً . حقاً إن هذا المحب الذى يأبى أن يكون وديعاً في اللحظة الأخيرة هو مخطىء ، لأن من يحوطونه لو عاشوا بعده ألف سنة لما تذكروا من كلامه إلا الكلمة الأخيرة . ولقد رأيت أنا نفسى حينما توفيت والدتي ولم تبتسم لى فى اللحظة الأخيرة ، فانى لا أزال أتمثل أمامى أنها لم تبتسم لى كأن كل أيام الحياة لا يعتبر منها إلا هذه اللحظة الأخيرة . ثم ما ذا قلت لها عن أجلافين ؟ إننى لم أعد أتذكر . . ينبغى أنّ أرى جدتى ثانية ، أما الآخرون فأنا أفعل كل هذا لأجل سعادتهم ، فينبغى ألا يعلموا شيئاً . لكن هي منفردة ، وليس لأجلها أنى صعدت فوق البرج أو أني سأنزل من فوقه . أنت تفهمين أنه من غير الممكن أن أتركها هكذا . تعالى تعالى ، سنعانقها عناقاً أكثر قوة من قبل .

المنظر الخامس

(يقع هذا المنظر في أحد أجنحة القصر حيث توجد الجدة العجوز نائمة وترى « سيليزيت » و « إيسالين » داخلتين عندها)

سيليزيت موقظة « ميليجران » : جدتى . .

ميليجران — ها أنت فى النهاية قد عدت بعد أن انتظرتك طويلا .

سيليزيت — اصفحى عنى أيتها الجدة ، فأنا أعتقد أننى لم أكن وديعة حين فارقتك منذ زمن

ميليجران — بلى ، لقد كنت جد وديعة ، ما ذا حدث ؟ يخيل إلى أنك مضطربة .

سيليزيت — أنا لست مضطربة ياجدتى، ولكننى كنت محتاجة لأن أقول لك : إنى أحبك .

ميليجران — أنا أعرف ذلك يا سيليزيت ، ولقد برهنت لى عليه أكثر من مرة فى حياتك ، وأنا لم أرتب قط فى هذا الحب .

سيليزيت — نعم ياجدتي ، ولكننى لم أكن أعرف ذلك حتى الآن .

ميليجران — اقتربى منى أكثر من ذلك

يا طفلتي ، لأنك تعرفين أنني لا أستطيع أن أعانق من أحب ما دامت ذراعاى السكينتان لا تطيعاني . أنت تظهرين لى غريبة هذا اليوم . ألم تكوني تعرفين إلى الآن أنك تحبينني ؟

سيليزيت — بلى ، أنا كنت أعرفه كما يعرف الانسان أحياناً دون أن يعرف ، ثم يعود فيقول فى نفسه : إنه لم يكن خيّراً ، وإنه كان يمكنه أن يفعل أكثر من ذلك ، وإنه لم يحب كما كان ينبغي أن يحب ، ثم هو بعد ذلك يريد أن يستأنف قبل أن يمضي الوقت وتضيع الفرصة . أنا ليس لى أب ولا أم يا جدتى ، ولولا وجودك لما عرفت كيف تكون الأم . أنت لم تهجري قط سيليزيتك الصغيرة. ولقد كان يسعدنى أن أعرف إلى من أتجه حينما تنزل بي عادية من عاديات الشقاء .

ميليجران — لكن لا .. لكن لا ياسيليزيت بل أنت التي لم تهجريني . لقد كانت تلوح عليك علائم الجد المرير بعد ظهر اليوم ، ومع ذلك ، فأنا لا أظن أنك حزينة .

سيليزيت — لقد كنت دائماً سعيدة ، والآن أنا أعرف ما يمكن أن تكون السعادة .

ميليجران — أو لم تفقديها على الأقل ؟

سيليزيت — بالعكس ، أنا أعتقد أنني وجدتها. وأنت يا جدتى أكنت سعيدة أيضاً ؟

ميليجران — متى ذلك يا سيليزيت ؟

سيليزيت — فى الزمن يا جدتى .

ميليجران — عن أي زمن تتكلمين يا طفلتى؟

سيليزيت — أنا أتكلم عن زمن الحياة يا جدتى

ميليجران — لقد مرت بى أيام سيئة لجميع الذين يعيشون فوق الأرض ، ولكنني أستطيع أن أقول : إنني كنت سعيدة ما دمت أنت لم تغادري المنزل الذى أحيا فيه .

سيليزيت — لا ينبغي أن تتعلق السعادة بهذا يا جدتى . أكنت تصيرين شقية لو لم أكن أعيش معك ؟

ميليجران — ستستطيعين أن تكوني سعيدة حين لم أصبح موجودة ياطفلتى ، لأنه سيتبقى لك بعدى أشياء كثيرة .

سيليزيت — إذا فقدتني فستكون لديك أجلافين

ميليجران — إنها لم تنم قط على ركبتي ياسيليزيت

سيليزيت — أحبيها بالرغم من ذلك ياجدتي .

ميليجران — أنا أحبها مادمت تحبينها ياطفلتي

سيليزيت — يجب أن تحبيها على الأخص لأنها هي التي صيرتني سعيدة . إنها جميلة أيتها الجدة إلى حد أنني منذ عرفتها من قلبي وأنا أعيش إلى جانبها ، وعيناى دائماً مبللتان بالدموع .

ميليجران — إن يديك محرقتان اليوم ياسيليزيت!

سيليزيت — هذا لأنى مُفْرِطةٌ فى السعادة أيتها الجدة . هل آلمتك أحياناً ؟ .

ميليجران — أنا لا أذكر ألبتة شيئاً من ذلك ياطفلتى .

سيليزيت — بلى ، بلى ، لابد أنك تتذكرين ، لأن الانسان لايخلو من أن يؤلم من يحبه أحياناً ، لكن ينبغي أن تقولى لى : متى قدمت إليك أكبر الآلام ؟ .

ميليجران — أنت لم تقدمى إلىّ إلا قليلاً من الألم كلما كنت تبكين ، وحينما كنت تبكين لم تكن هذه غلطتك ، وهذا هو كل ما أذكره .

سيليزيت — أنت لن تريني باكية بعد الآن أيتها الجدة .

ميليجران — إعرفي جيداً ياسيليزيت أن السعادة تغدو وتروح بين أفراد بني الانسان أشبه شيء برقاص الساعة ، ولهذا ينبغي أن يؤجل الانسان بكاءه إلى آخر وقت ممكن .

سيليزيت — أنت محقة ياجدتي ، وحينما تعود إليكم السعادة ، أنت وهما ستجمعينهما ذات مساء حولك وستقصين عليهما قصة حفيدة ... ...

ميليجران — ماذا تقولين ياسيليزيت ؟ ؟

سيليزيت — لاشيء ، لاشيء أيتها الجدة ، إنني كنت أفكر في الوقت الذي كنت فيه صغيرة جداً

ميليجران — وأنا أيضاً أفكر في ذلك الوقت يابنيتي ، إنني لم أكن إذ ذاك مريضة ، وكنت أستطيع أن أحملك فوق ذراعي أو أن أتبعك ، وقد كنت تذهبين وتجيئين وتضحكين في القاعات وتفتحين الأبواب صائحة بصوت منزعج قائلة : « إنها تقترب ، إنها تقترب ، إنها هنا » ولم يكن أحد يعرف عمن كنت تتكلمين بهذا الانزعاج ، بل إنك أنت نفسك لم تكوني تعلمين ، ولقد كنت أنا أجاريك في هذا وأتبعك مخترقة الدهليز إلى الحديقة ، ولكن كل ذلك كان شيئاً تافهاً ولم يكن له غاية معينة ، ولكن المهم أننا كنا نتفاهم ونبتسم طيلة اليوم ، وهكذا بفضلك أنت عدت فأصبحت أمًّا مرة ثانية بعد أن فقدت جمالي . وأنت ستعرفين يوماً أن النساء لا يتعبن أبداً من أن يكن أمهات ، وأنهن يهزن الموت نفسه إذا جاء لينام في حجورهن ، ولكن كل شيء يمر قليلا قليلا ، والطفلات الصغيرات يصرن كبيرات .

سيليزيت — أنا أعرف ذلك ياجدتي ، والآلام أيضاً تمر وتذهب وتعود أكثر كبراً مما ذهبت ، ولكن الجمال يبقى ، وهناك قوم آخرون سعداء .

ميليجران — من قال لك ذلك ياطفلتي ؟

سيليزيت — إن أجلافئين هي التي قالت لي كل ذلك أيتها الجدة .

ميليجران — ما أشد لمعان عينيك ياسيليزيت ! أنا أعتقد أنك تبكين ياطفلتي .

سيليزيت — لا لا ، أنا لا أبكي ، وإذا بكيت قليلا فانما من السرور أبكي .

ميليجران — قبليني ياسيليزيت ، قبليني بقوة وامكثي بالقرب مني .

إيسالين — أيتها الأخت أنا أريد أن أعانقها أيضاً

سيليزيت ، مبعدة إيسالين بيديها : لا لا ياإيسالين دعيني أعانقها وحدي اليوم ، سيأتي عما قريب اليوم الذي تعانقينها فيه بدورك منفردة ... وداعا أيتها الجدة وداعا

ميليجران — سيليزيت ! ماذا حدث ؟ أين تذهبين ؟

سيليزيت — وداعا أيتها الجدة وداعا

ميليجران — سيليزيت ، امكثي هنا ، أنا لا أريد ، أنا لا أريد مطلقاً أن تنصرفي

(قالت هذه الجملة وهي تحاول في جهد شديد أن تمد ذراعيها في الفضاء)

أنا لا أستطيع ، أنا لا أستطيع ؛ وأنت ترين ذلك جيداً يا سيليزيت

سيليزيت — وأنا أيضاً لا أستطيع أيتها الجدة . وداعاً نامي في سلام هذه الليلة ولا تحلمي أحلاماً مزعجة . وداعاً أيتها الجدة وداعاً .

(قالت ذلك وخرجت مسرعة ، ويدها قابضة على يد أختها الصغيرة)

ميليجران — سيليزيت ! ... ... سيليزيت ! ... ثم أخذت تبكى بكاء خافتاً فى وسط الظلمة الحالكة التى جعلت تعم وتشمل كل شئ) .

المنظر السادس

(يقع هذا المنظر فى أحد دهاليز القصر حيث كانت سيليزيت مارة مع شقيقتها الصغيرة ثم لمحت أجلافين قادمة نحوها فحاولت أن تختبيء ولكنها لم تنجح فى هذه المحاولة إذ لمحتها أجلافين فاقتربت منها قائلة : هل هو أنت ياسيليزيت؟ لماذا أنت تختبئين ؟)

سيليزيت — أنا لا أدرى بالضبط لماذا أنا أختبئ . لعلى ظننت أنك تريدين أن تكونى منفردة.

أجلافين — أين كنت ذاهبة ؟ ها هي ذي إيسالين الصغيرة تنظر إلى نظرات تدل على أنها تخفى شيئاً ، لا بد أنكما قد تآمرتما على شئ .

سيليزيت — نعم لقد أعطيت وعداً يجب علىّ أن أتمسك به .

أجلافين — إلى أين أنت تقودين سيليزيت يا إيسالين ؟ .

(ولكن إيسالين لم تجب على هذا السؤال)

أجلافين مستمرة : ألا تريدين أن تقولى لى ذلك ؟ وإذا جعلت أقبلك حتى تنبئينى فماذا أنت فاعلة؟

سيليزيت — أوه! إنها بدأت تعرف كيف تحتفظ بالسر كأنها شخص كبير .

أجلافين — أنت تظهرين لى الآن ممتقعة ولا أدرى أذلك مسبب عن ظلمة المساء أو عن شئ آخر؟

سيليزيت — أنا أشتهى أن أقبلك يا أجلافين .

(قالت هذا ثم تعانقتا)

أجلافين — إن شفتيك غضتان وعذبتان فى هذا المساء .

سيليزيت — وشفتاك أيضاً ، وفوق ذلك فإن فيهما قوة عجيبة .

أجلافين — إنك تظهرين لى منيرة الليلة كأنك مصباح صغير يا سيليزيت .

سيليزيت — ألم ترى جدتى ؟ .

أجلافين — لا ، هل ينبغى أن أراها ؟ .

سيليزيت — لا لا ، إن هذا عبث ، لأنها نائمة فى هذه اللحظة ، هل أنت ذاهبة الآن لتقابلى ميلياندز؟

أجلافين — نعم ، وأنت يا سيليزيت ؟ .

سيليزيت — حينما ترينه قبليه بالنيابة عنى . أنا سعيدة بأن أفكر فى أنه سيقبلك أنت حينما لا أوجد أنا . ولكن ألا ترين أن إيسالين يعوزها الصبر وأنها تجذبنى من يدى ؟ وداعاً يا أجلافينى ! سترينى فى المستقبل .

(قالت هذا وخرجت مع أختها إيسالين وأخذت تبتعد مترنمة بتلك الأنشودة الحزينة السابقة التى طالما رددت فيها اسم الموت ثم انقطع الترنم فجأة وخرجت أجلافين بدورها .)

المنظر السابع

(يحدث هذا المنظر فوق قمة البرج حيث تشاهد سيليزيت وإيسالين تدخلان)

سيليزيت — والآن هى الساعة يا إيسالينى الصغيرة ، وأنا لن أزل بعد ذلك لأبتسم لهما مرة أخرى . إن الطقس بارد الليلة فوق قمة البرج ، وإن ريح الشمال هى التى جعلت موج البحر يلمع الآن هكذا . لم يعد الانسان يرى الزهور ولا يسمع أصوات الناس ، وكل شيء صار الآن أكثر حزناً منه فى هذا الصباح .

إيسالين — والطائر ، أين هو أيتها الأخت ؟

سيليزيت — ينبغي الانتظار حتى تهبط الشمس فى عمق البحر وتموت جميع الأضواء فى الأفق ، لأن الطائر يخشى النور ، ولأنه هو والشمس لم يتلاقيا قبل الآن

إيسالين — وإذا وجدت النجوم أيتها الأخت ؟

سيليزيت — وإذا وجدت النجوم ؟ ! ولكن النجوم لم تظهر بعد فى السماء ، وإن كانت مستعدة لأن تثقبها عما قريب ؛ ولهذا ينبغى الاسراع لأنه حينما تظهر النجوم يكون ذلك أكثر رعباً وإزعاجا .

إيسالين — أنا أشعر كثيراً بالبرد أيتها الأخت .

سيليزيت — لنجلس هنا إلى جانب الحائط الذى سيحمينا من الهواء إلى أن ينطفئ آخر خط أحمر فوق سطح البحر . أترين كيف تنغمس الشمس فى المـاء ببطء ؟ . عند ما تغرب سأذهب لأري . دعينى ألفـك فى إزارى الأبيض الذى لم أعـد محتاجة اليه .

إيسالين — أنت تقبليننى بعنف أيتها الأخت .

سيليزيت — هـذا لأننى فى غاية السـعادة يا إيسالين . أنا لم أكن قط أكثر سعادة منى الآن؛ ولكن انظرى إلىّ جيداً . ألست الآن أكثر جمالاً منى فى الماضى؟ . أنا أبتسم ، أنا أبتسم وأشعر بذلك. وأنت ؟ ألا تبتسمين لى ؟ .

إيسالين — لا ، أنت تتكلمين سريعاً جـداً أيتها الأخت .

سيليزيت — هل أتكلم سريعاً ؟ .

إيسالين — نعم ، وفوق ذلك فأنت تمزقين الزهور .

سيليزيت — أية زهور ؟ آه ، هذه ؟ لقـد نسيت أنها زهورك .

إيسالين — أنا لا أريد أن تبكى أيتها الأخت .

سيليزيت — لكن أنا لا أبكي يا إيسالينى الصغيرة، وهذا على الأخص هو الذى ينبغي ألا تتخيليه؛ إنما من الإفراط فى الابتسام تظهر على ملامح البكاء .

إيسالين — ولكن لماذا عيناك كأنهما تبكيان ؟

سيليزيت — أنا لا أستطيع أن أعرف ما تفعله عيناى ، ولكن احفظى جيدا ما يأتى : إذا قلت لأحد إننى كنت أظهر حزينة فستعاقبين زمناً طويلا

إيسالين — ولمـاذا ؟

سيليزيت — لأسباب ستعلمينها يوما ما ، ثم لا ينبغي أن توجهى إلىّ هذه الأسـئلة فأنت لست إلا شيئاً صغيراً لا يستطيع أن يفهم ما يفهمه الآخرون ؛ وأنا أيضاً فى مثل سنك لم أكن أفهم بل وبعد ذلك بوقت طويل ، فإذا رأيتنى أفعل هذا أوذاك ، فليس ما ترينـه هو الأكثر أهمية . هل ترين يا إيسالينى الصغيرة ؟ . أنا لا أسـتطيع أن أتحدث به . ومع ذلك فسأكون فى حاجة إلى أن أقوله لأحـد ، لأنه من المحزن أن ينفرد الانسان بمعرفة مثل هذا .

إيسالين — لم يعد الانسان يرى الشمس تقريباً أيتها الأخت .

سيليزيت — انتظرى ، انتظرى أيضاً يا إيسالينى الصغيرة ، لأن شيئاً آخر يقترب بقدر ما تبتعد الشمس ، وبقدر ما يقترب هذا الشىء تنكشف أمامى الحياة بشكل أوضح ، أنا لم أعد أعرف إذا كنت أحسنت العمل باحضارك معى إلى قمة هذا البرج ومع ذلك فقد كان ينبغي أن يحضر أحد إلى هنا ، لأنه يوجد من الناس من يشتهى أن يعرف كل شىء وإن كانوا لا يصيرون سعداء إلا بأن يجهلوا هذا .

وفى الوقت الحاضر أيتها الأخت الصغيرة أنت لا تحفظين كل ما أقوله لك . نعم ولكن سيجيء اليوم الذي ستفهمين فيه كل شيء وسترين كل مالا ترينه الآن أثناء عرضه عليك . وإذ ذاك ستصيرين حزينة ولن تستطيعى أن تنسى ما ستلمحه عيناك المسكينتان عما قريب . ومع ذلك أفلا ينبغى أن ترى دون أن تفهمى حتى لا يفهم الآخرون ؟ ولكنك لن تستطيعي أن تمنعي نفسك من البكاء حينما ستكبرين وقد يثقل هـذا المنظر حياتك ، ولذلك أنا أسألك أن تصفحى عني اليوم دون أن تفهمى ما سيؤلمك عند ما تفهمينه جيداً فى المستقبل

إيسالين — إن قطعان الحيوانات تعود من الحقول أيتها الأخت .

سيليزيت — وغداً ستعود القطعان أيضاً .

إيسالين — نعم أيتها الأخت .

سيليزيت — وغداً ستغنى الطيور أيضاً .

إيسالين — نعم أيتها الأخت .

سيليزيت — وغداً ستتفتح الزهور أيضاً .

إيسالين — نعم نعم أيتها الأخت .

سيليزيت — لماذا ينبغى أن يكون الأصغر هو الذى ... ... ؟

إيسالين — لم يعد باقياً إلا الخط الصغير الأحمر أيتها الأخت .

سيليزيت — أنت محقة ، لقد جاء الوقت ... ... إنما أنت التى تدفعيننى ، وكذلك النجوم يعوزها الصبر . وداعا يا إيساليني ! إنى لسعيدة جداً جداً .

إيسالين — وأنا أيضاً أيتها الأخت أسرعى ، فان النجوم ستظهر .

سيليزيت — لا تخافى يا إيسالين إنهم لن يرونى بعد الآن . قفى ، تعالى ، إجلسى فى هـذه الزاوية ودعيني أربط طرف إزارى على صدرك ، لأن الهواء أمسى بارداً ... ... هل أنت أحببتنى حقاً ؟ لكن لا لا ، لا تجيبى على هذا السؤال فأنا أعرف الجواب جيداً . أنا أريد أن أضع هنا أربعة أحجار ضخمة ، لأحول بينك وبين الاقتراب من الفتحة التى سأنحنى عليها . إذا أنت لا ترينني ، فلا تخافى ، لأنى سأكون قد نزلت من جهة أخرى ... ... لا تنتظريني حينئذ وانزلى وحدك من السلم الحجرى ، وعلى الأخص لا تقتربى من الحائط لترى ماذا أفعل ، وإذا فعلت ذلك فلن ترى شيئاً وستعاقبين . أنا سأنتظرك تحت البرج ... ... قبليني يا إيسالين وقولى لجدتنا ... ...

إيسالين — ماذا ينبغى أن أقول لها أيتها الأخت ؟

سيليزيت — لا شيء لا شيء ، لقد كنت أعتقد أنى نسيت شيئاً .

(قالت هذا وتقدمت نحو الحائط المتهدم بجانب البحر ثم انحنت عليه قائلة : أوه ، إن البحر يظهر بارداً وعميقاً !)

إيسالين — أيتها الأخت ؟

سيليزيت — إنه هنا ، أنا أراه ، لا تتحركى من مكانك .

إيسالين — أين هو ؟

سيليزيت — انتظري انتظري ... ... يجب أن أنحنى أكثر من ذلك ... ... يا إيسالين ... ! يا إيسالين ... ! إن الأحجار تضطرب ! إنى أهوى ! ... أوه ... ...

(لم تكد تنهى هذه الكلمات حتى انخلع جانب من الحائط وسقط معها إلى أسفل البرج فسمع له ضجيج ممتزج بصوت ضعيف مؤلف من ألم وخوف

وحزن ثم تلا ذلك سكون طويل عميق) .

إيسالين، صائحة : أيتها الأخت ... أين أنت؟ ... إننى خائفة أيتها الأخت ! ... ...

(ثم أخذت تبكى وحدها فوق قمة البرج)

الفصل الخامس

المنظر الاول

(يحدث هذا المنظر فى أحد دهاليز القصر حيث يشاهد « ميلياندر » و « أجلافين » داخلين)

ميلياندر — إنها الآن نائمة ، وإن كل توسلاتى إلى الطبيب ذهبت عبثاً ، إذ لم أستطع أن أنتزع من فمه كلمة أمل واحـدة ، وهو قد غادر القصر . إنها سقطت على ربوة من الرمال كأن هواء البحر قد جمعها هـذا المساء إلى جانب البرج ، كأنما فعل ذلك خصيصاً ليستقبلها فى وداعـة ولين . هناك قد وجدها الخدم فى نفس الوقت الذى كنت تظنين فيه أنك ستذهبين للاقاتها عند طريق القرية . لم يظهر بها أى جرح، وكأن جسمها الصغير لم يمسه أى شىء، ولا يرى عليها شىء غير عادي إلا ما ينساب من الدماء من بين شفتيها . وحينما فتحت عينيها ابتسمت لى دون أن تنبس ببنت شفة .

أجلافين — لكن إيسالين ماذا قالت ؟ قد قيل لى إنها كانت معها .

ميلياندر — لقد سألتها . إنهم وجدوها فوق قمـة البرج تضطرب هلعاً وبرداً . إنها تردد باكية أن الحائط قد انفتح بينما كانت سليزيت منحنية لتقبض على طائر كان يمر فى تلك اللحظة ... حينما قابلتها بعد ظهر اليوم فى هذا الدهليز نفسه ، بل وبين هذين العمودين كانت تظهر لى أقل حزناً من ذي قبل » .

آه ! . أليست هذه الجملة نفسها هى التى تديننا نحن الاثنين وتلقى علينا المسئولية ؟ ... والآن كل ما قالت لنا من كلمات ، وكل ما قامت به أمامنا من أفعال يصعد من جديد إلى نفسى فى شكل ارتياب وحشى مخيف سينتهى بتحطيم حياتى ... إن الحب لا يقل قسوة عن البغض ... أنا لم أعد أصدق ، أنا لم أعد أصدق ! ... إن كل آلامي قد تحولت إلى تقزز ... إننى أبصق على الجمـال الذى يجلب الشقاء ... أنا أبصق على العقل الذى يريد أن يكون قيما أكثر من اللازم . أنا أبصق على الحظ الذى لا يريد أن يلين أو يتسامح فى شىء ... أنا أبصق على الـكلمات التى لا تخدع إلا الجانب الحيوانى فى الإنسان ... أنا أبصق على الحياة التى لا تريد أن تستمع إلى الحياة ، أو على الأثرة التى لا تريد أن تستمع إلى الإيثار .

أجلافين — ميلياندر ... ...

ميلياندر، في جفاف وقسوة : ماذا تريدين منى ؟؟

أجلافين — تعال تعال ، أنا أريد أن أراها لأن هذا غير ممكن ... ينبغى أن نعرف ... إنها لم تعمل ذلك بإرادتها ، لأنها لا تستطيع أن تفعل ذلك ، وإلا لـكانت إذاً ... ...

ميلياندر — إذاً ، ماذا ؟ .

أجلافين — ينبغى أن نعرف ... تعال تعال ... لا أهمية للوسيلة التى يجب أن نعرف بها ... لابد أن تكون قد تألمت كثيراً حتى تصل إلى درجة الانتحار ! . أنا لن أعرف ذلك ولن أستطيع أن أعرفه أبداً .

(نطقت بهذه الجملة ثم جذبت ميلياندر بغتة إلى حجرة سيليزيت)

المنظر الثانى والأخير

(يقع هذا المنظر فى حجرة سيليزيت المحتضرة المطروحة على سرير الموت حيث يشاهد ميلياندر وأجلافين يدخلان . سيليزيت محاولة النهوض من سريرها فى ضعف شديد وهى تقول : هل هو أنت يا أجلافين ؟ هل هو أنت ياميلياندر ؟ . . . . . . لقد كنت أنتظركما لكى أسعد بمرآ كما .

ميلياندر يلقى بنفسه على السرير باكياً ، منتحباً وهو يصيح : ياسيليزيت ياسيليزيت)

سيليزيت — ماذا عندكما ؟ إنكما تبكيان .

أجلافين — سيليزيت ، سيليزيت ماذا فعلت ؟ إننى لتعسة .

سيليزيت — ماذا حدث يا أجلافين ؟ إنك تظهرين لى قلقة ، هل أنا فعلت ماصيرك بائسة ؟ .

أجلافين — لا لا ياسيليزتى المسكينة ، لست أنت التى تسلبين من الناس سعادتهم ، وإنما أنا التى أجذب الناس نحو الموت ، أنا التى لم أعمل ما كان يجب عمله .

سيليزيت — أنا لا أفهم هذا . ما ذا حدث ؟

أجلافين — لقد كان يجب علىّ أن أعرف ذلك ، بل أنا أظن أننى عرفته بالفعل يوم كنت أتحدث اليك عنه . ها أنذى أسمع منذ أكثر من أسبوع صوتاً يصيح من غير انقطاع فى داخل قلبى مردداً صدى هذا الحادث ، ولكنى لم أعرف ما ذا أعمل ولم أستطع الحصول على شىء ؛ على حين أن أقل الجمل فى هذا الموقف كانت تستطيع أن تنجى حياة ذلك الكائن الذى لم يكن يطلب إلا أن يحيا ، وإن أصغر الناس شأناً كان يمكنه أن يجد بسهولة تلك الجمل التى تحفظ الحياة .

سيليزيت — ولكن ماذا كنت تعرفين إذاً ؟

أجلافين — حينما تحدثت إلى عن الفكرة التى كانت عندك منذ أيام ، بل وفى هذا الصباح ، بل وبعد ظهر اليوم أيضاً كان يجب علي أن أغمس يدى في أعماق روحك ، لأبحث فيها عن الموت الذى كنت أتمثله حيا فى داخل نفسك . كان ينبغي أن أستعين بالحب لأنتزع من نفسك الاعتراف ، ولكننى لم أعرف شيئاً . ولقد كنت أنظر دون أن أري بالرغم من كل ما أرى ، ولكن أتفه فتاة من بنات هذه القرية كانت تستطيع أن تجد من القبل ما تنجى به حياتنا جميعاً ، وبالأحرى ، إنها كانت تستطيع أن تفعل خيراً مما فعلته أنا فى هذا الموقف . أنا إما أن أكون سافلة إلى درجة لا يمكن التعبير عنها ؛ وإما أن أكون عمياء إلى حد لا يدرك مداه . ! إننى فى هذا الموقف قد فررت من الحقيقة للمرة الأولى فى حياتى كما تفر الأطفال . أنا لم أعد أجرؤ على أن أسائل نفسي . اصفحى عنى ياسيليزيت لأنى لن أكون سعيدة بعد الآن .

سيليزيت — أنا أؤكد لك أنني لا أفهم هذا .

أجلافين — لا تهربى من الحقيقة بدورك ، فقد رأيت ماذا يحدث للانسان حينما لا يطيع ما يسمعه في أعماق نفسه .

سيليزيت — ماذا سمعت إذاً فى أعماق نفسك ؟

أجلافين — لقد كنت أسمع نهاراً وليلا أنك تبحثين عن الموت .

سيليزيت — أنا لم أبحث عنه يا أجلافين ، وإنما هو الذى دفعنى دون أن أذهب لملاقاته .

أجلافين — إن الموت كان مشفقاً علينا جميعاً ، ولهذا أنت ترين أنه لم يبحث عنك ما دام قد فر منك حينما كنت تتعقبينه .

سيليزيت — لا لا يا أجلافينى ، إنه بكل بساطة

ينتظر حتى تكونى أكثر سعادة .

أجلافين — إذاً فسينتظر زمناً طويلا ياسيليزتي المسكينة .

سيليزيت — استمعى إلى : إننى لجد مسرورة من مجيئك إلى على الفور ، لأنى أحس أننى لن أبقى متعقلة وقتاً طويلا ، إذ لدى الآن شيء يحدث فى عينى اضطراباً خفيفاً ، لكن ما سأقوله بعد قليل ، أنا نفسى لا أعرفه ، لأن من يحتضرون — كما تعرفين جيداً — لهم أفكار غريبة . . . لقد رأيت فى الماضي من يموتون ، والآن هذا دورى ، وعلى ذلك ، فلا تلتفتى إلى ما سأقوله عما قريب ولا تعبئى به ألبتة ، أما الآن فأنا أعرف ما أقول ، وهو وحده الذي يجب عليك أن تتمسكى به . أنا أظن أنك مرتابة يا أجلافين .

أجلافين — واحر قلباه ! إنها يقينيات لا شكوك .

سيليزيت — أتظنين أن . . .

أجلافين — نعم . . .

سيليزيت — أتظنين أنني لم أسقط بارادتى ؟

أجلافين — أنا متأكدة من ذلك يا سيليزيت

سيليزيت — يقال إن الانسان لا يستطيع أن يكذب إذا حضره الموت ، ولأجل هذا أردت أن أنبئك بالحقيقة .

أجلافين — أنا أعرف أنك تحبيننا الحب الذى يشجعك على أن تقولى لنا الحقيقة .

سيليزيت — لقد هويت دون أن أريد ذلك... هل هو أنت الذى تنتحب هكذا يا ميلياندر ؟ .

أجلافين — استمعى إلى بدورك يا سيليزيت ، أنت تعرفين أننا نعلم الحقيقة ، وإذا كنت أسألك فى هذه اللحظة ، فليس معنى هذا أنى أرتاب ، ولكننى كنت أرغب فى أنك أنت لاترتابين ... يا سيليزتى المسكينة إنى أركع أمامك ، إنك بكل بساطة فعلت أجمل ما يمكن أن يفعله الحب حينما ينخدع ... ... ولكن الآن ، أنا أسألك باسم حبنا الذى لاينخدع أن تفعلى شيئاً أسمى مما فعلت . أنت تحوين الآن بين شفتيك الصغيرتين جوهر الهدوء العميق فى حياتنا جميعها .

سيليزيت — عن أى هدوء تتكلمين يا أجلافين؟

أجلافين — أنا أتكلم عن هدوء شديد الحزن وشديد العمق !

سيليزيت — ولكن كيف يمكن أن أستطيع أنا منحكم هدوءاً عميقاً ؟ أنا لاأرى فى نفسى الموطن الذى أستطيع منه الحصول على هذا الهدوء ،فكيف أمنح مالم أحصل عليه ؟

أجلافين — ينبغى أن تقولي لنا بكل بساطة إنك أردت أن تموتى ، لتسعدينا .

سيليزيت — كنت أشتهى أن أقوله لك ، ولكن هذا مستحيل ما دام غير حقيقى . هل تعتقدين أن الانسان يكذب هكذا فى ساعة موته ؟

أجلافين — أنا أرجوك ياسيليزيت ألا تفكرى فى موتك ... ... عند ما أقبلك هكذا ، فأنا أنزل لك عن حياتى كلها ، وليس من الممكن أن يموت الانسان ما دامت روح أخرى تنغمس فى أنفاس حياته . يا إلهى ... ماذا ينبغي عمله لوقف روحك عن الخروج ؟ .. لو أن الموت كان هنا لفهمت أنك قد تكذبين ، ولكنه بعيد عنا ، وإن الحياة هى التى تريد الحقيقة ، حقيقة حبك الجميل ، لأجل أن تصيرى محبوبة أكثر مما كنت . لا تقولي : لا ؛

لا تهزي رأسك ، لأنك تعرفين أن الانسان لا ينخدع حينما يتحدث بهذه اللهجة .

سيليزيت — ومع ذلك فأنت تنخدعين ياأجلافين

أجلافين — إذاً ، فسنظل نبكي وكل منا بينها وبين صاحبتها بعد ألف مرحلة ما دمنا لانتفاهم .

سيليزيت — ولماذا لا تصدقين الحقيقة ؟

أجلاڤين — لأنه لاتوجد كلمة واحدة ولا فعل واحد مما حولنا يؤيد عكس ما أذهب إليه ولو عند أصغر طفل .

سيليزيت — وما هو ذلك الذي حولنا ؟ .

أجلاڤين — لماذا كنت ذاهبة لتودعي جدتك ؟

سيليزيت — لكن أنا كنت أودعها في كل مرة أخرج فيها .

أجلاڤين — لماذا ... ولماذا كل شيء ياسيليزتي ؟ ! . أليس من الشقاء أن يوجه الانسان مثل هذه الأسئلة عند ما يفقأ الموت العيون لاسيما وأنني أعرف جيداً أن الحقيقة هنا تحت يدي وعلى مقدار إصبعين من قلبي ؟ .

سيليزيت — أنا كنت أظن أنني سعيدة ، ولكنك ستحزنينني إذا ارتبت فيما أقول . ماذا ينبغي أن أعمل ، لكي لاتشكي ؟ .

أجلاڤين — لاتوجد إلا الحقيقة ياسيليزيت .

سيليزيت — لكن أية حقيقة أنت تريدين إذاً يا أجلاڤين ؟ .

أجلافين — إنما أنا التي قذفت بك من فوق البرج دون أن أعرف .

سيليزيت — لا لا لم يقذف بي أحد[1] ... ...

أجلاڤين — إن كلمة واحدة تكفي لإضاءة الحياة ، وإنني أسألك راكعة أن تنطق بهذه الكلمة . قوليها لي بصوت منخفض إذا أردت أو أشيري بعينيك ؛ وميلياندر نفسه لن يعرفها .

ميلياندر — إن أجلافين محقة ياسيليزيت فأنا أطلب ذلك أيضاً .

سيليزيت — لقد هويت وأنا أنحني ... ...

أجلاڤين — لقد سألتني كثيراً عما كنت سأفعله لو أني في موقفك

سيليزيت — لقد هويت وأنا أنحني

أجلاڤين — ألا تعرفين لماذا أنا أسأل هكذا ؟

سيليزيت — أجلاڤين ! ... ...

أجلاڤين — سيليزيت ماذا حدث ؟ أنت تمتقعين ! أتتألمين أكثر من ذي قبل ؟

سيليزيت — لا ، أنا أتألم من فرط السرور ... أوه كم أنت تنتحب يا ميلياندر !

ميلياندر — سيليزيت . . .

سيليزيت — لاتبك هكذا يا ميلياندري المسكين ، إنما الآن فقط يتحاب الناس ولا داعي للدموع ، وسترى بعد قليل أنني سأبتسم لك حينما أصير جثة هامدة ، ولن تستطيعا إذ ذاك أن تصدقا أنني ميتة مما تريانه على وجهي من السعادة ، وأنا لا أفهم كيف أني — مع صغر شأني إلى هذا الحد — أستطيع أن أجد في قلبي فردوساً عظيما إلى هذه الدرجة ؛ ولهذا أنا أخشى أحياناً أن أرتحل حاملة

---

(١) يقصد المؤلف بقذفها إياها من فوق البرج أنها هي التي تسببت لها في الانتحار .

معي جميع السعادة التي أحس بها دون أن أترك شيئاً لمن سيبقون بعدى

ماذا ؟ أتبكين أنت أيضاً يا أجلاڤين ؟

أجلاڤين — إمنحينا السلام العميق ياسيليزيت

سيليزيت — أنا أرد إليك السلام الذي منحتني إياه يا أجلاڤين

أجلاڤين — أنت تستطيعين منحه ، ولكنك لا تفعلين

سيليزيت — إن ما لدى هو مع ذلك عظيم جداً

أجلاڤين ، باكية : لو كان القدر نفسه ضدك لكان خاطئاً يا سيليزيت

سيليزيت ، هاذية بصوت متغير : جدتى كانت تقول لى : لماذا أنت ترتحلين ؟ لماذا ترتحلين يا طفلتى ؟

— إننى أرتحل بسبب المفتاح الذى وجدته يا جدتى

أجلاڤين — سيليزيت ! ......

سيليزيت ، مستفيقة : إيسالين ..... ماذا أنا قلت ؟ قولى لى : ماذا قلت ؟ ليس هذا حقاً .... لقد تكهنت بذلك ونبهتك إليه

أجلاڤين — لا شيء ، لا شيء ، أنت لم تقولى شيئاً ، لا تعذبي نفسك يا سيليزتى المسكينة

سيليزيت — لقد نبهتك إلى أن كل ما يمكن أن أقوله عما قريب سوف لا يكون صحيحاً . ينبغى الصفح عنى ، لأن روحى ضعفت . هل أنا تكلمت عن جدتي ؟

أجلافين — نعم

سيليزيت — نعم أنا كنت أريد أن أقول لك : ينبغي أن تنهضيها دون أن تلمسى ذراعيها ... لقد كنت أريد أن أعلمك هذا ، ولكن الوقت لم يردْ ، أوه إحذرى يا أجلافين

أجلافين — ماذا يا سيليزيت ؟

سيليزيت — لا شيء لا شيء ، هـذا سيمر ، لقد كنت أظن أنني لن أقول الحقيقة

أجلافين — أنا لن أطلبها بعد الآن يا سيليزيت

سيليزيت — عندما أقول لك غير الحقيقة ، ضعى يدك على فمى ، عدينى بذلك ، أنا أرجوك

أجلافين — أنا أعدك بذلك يا سيليزيت

سيليزيت ، إلى ميلياندر : إن لدى شيئاً أريد أن أقوله لها يا ميلياندر

(لم يكد ميلياندر يسمع هـذا حتى يبتعد فى سكون)

سيليزيت — إنه حزين ، إنه حزين ، ستقولين له ذلك يوماً فى المستقبل حينما يحل النسيان محل الذكريات ... ضعى يدك على شفتى يا أجلافين إننى أتألم فجأة

أجلافين — قولى لى ، قولى لى ياسيليزيت .

سيليزيت — لقد نسيت كل ما كان ينبغى أن يقال ... لم يكن ذلك هو الحقيقة وإنما الكذب هو الذى كان يصعد إلى فمى ... ضعى يدك فى نفس الوقت على عينى يا أجلافين . ينبغى أن تغلقيهما كما فتحتهما .

أجلا فين — سيليزيت ! ... ...

سيليزيت فى ضعف شديد : إننى ... إننى هويت وأنا أنحنى ...

(ثم ماتت)

أجلافين، صارخة معولة : ميلياندر ميلياندر ..

ميلياندر ينكب منتحباً فوق جثة سيليزيت صائحاً : سيليزيت ، سيليزيت !

« انتهت »

محمد غلاب

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الثالث

الفصل العاشر

لو أننى كنت صائغاً وأردت أن أقدم عقداً من اللؤلؤ مما اكتنزت لما كان يبلغ سرورى أشده الا إذا أنا قلدته بيدى للمهدى إليه ، ولو كنت أنا من يتقبل الهدية لكنت أفضل الموت على أن أنتزعها انتزاعاً من مقدمها

ولكم رأيت من الناس من يسارعون إلى وصال من يعشقون من النساء ، أما أنا فكنت أسير على عكس هذه الطريقة مدفوعاً إلى اختيارها بداهة لا تعملاً وقصداً فإن المرأة التى تحب قليلا وتقاوم لم يبلغ الحب منها مداه ، أما التى يتملكها الهيام فإنها لا تقاوم إلا لشعورها بعدم تكامل الحب فى قلب مراودها .

وازدادت ثقة مدام بيارسون بى وما كنت أعهد بها مثل هذا الاستسلام من قبل أن تعترف لى بحبها . وما كان ما أبديه لها من احترام إلا ليثير فيها سروراً شديداً تظهر أماراته على وجهها الصبوح فكأنه زهرة تنور من انتعاش فؤادها ، وكانت تذهب بعض الأحيان بسرورها إلى المرح الصاخب لتقف فجأة مستغرقة فى التفكير ثم تعود إلى معاملتى كأننى طفل تداعبه فلا تلبث حتى تغرورق عيناها بالدموع فتجهد خيالها لتخترع كلمة أو حركة ملاطفة تعلل بها حالها وتبتعد بعد ذلك عنى منتحية مقعداً لتستسلم عليه لتفكيرها .

أفى العالم مشهد أجمل من هذا المشهد ؟ وكنت كلما التقينا تحت ظلال الشجر أهتف بها قائلا :

— إن الله نفسه ليسر مما تثيرين بى من حب لك .

وما كنت مع هذا لأتمكن من إخفاء ما تفعل بى أشواقى وما أعانى من مغالبة شهواتى .

وكنت عندها ذات ليلة فقلت لها إنه بلغنى أننى خسرت دعوى هامة لها شأنها فى أعمالى

فقالت : أتخبرنى بمثل هذا وأنت ضاحك ؟

فقلت : لقد أعلن أحد شعراء الفرس أن من تحبه حسناء لا ينال منه القدر .

فأطرقت ولم تجب ، وحاولت أن تظهر بمظهر السرور أكثر من عاداتها ذلك المساء ؛ وجلست إلى عمتها ألعب بالميسر فكانت هى تداعبنى وتعمل على نكايتى منتقدة ضروب ألعابى ، وراهنت ضدى حتى خسرت كل ما كان معى من المال .

وعند ما انسحبت العجوز إلى غرفتها خرجت بريجيت إلى الشرفة فلحقت بها ، وهنالك شملنا الصمت أمام ذلك الليل الرائع وقد جنح القمر إلى مغربه ولمعت النجوم فى قبته ، وقد اكفهرت آفاقه الزرقاء ، وسكن النسيم عن الأشجار فما لاح لها أملود ، فعبق الجو بعطر الأزهار .

وكانت مسندة ذراعها إلى متكأ الشرفة متطلعة إلى السماء ، فانحنيت إلى جنبها أتفرس فى ملامحها

فجُذِبت عيناى إلى هدف عينيها فى العلاء ، وشعرنا كلانا بنشوة من عبق الأزهار ونحن نشيع بأبصارنا آخر ما أبقى القمر على الأفق من نوره الباهت وهو يتوارى وراء كتل غاب الكستنا السوداء .

وتذكرت اليوم الذي شخصت فيه إلى هذا الأفق الوسيع الباهر حين قبض اليأس على مشاعري فلم أجد فيه غير الفراغ ، فارتعشت وأنا أراه الآن ولا فراغ فى أية ناحية فيه . وخيل إلى أننى أسمع نشيد الحمد يرتفع من قلبى ، وأن غرامنا يتعالى مع هذا النشيد إلى عرش الله .

وطوقت محبوبتى بذراعى فأدارت وجهها نحوى على مهل وقد انهمرت من عينيها الدموع فالتوى خصرها وارتمت بشفتيها المنورتين على فمى وتوارى أمامنا الوجود ...

الفصل الحادى عشر

من له أن يصف ما فى صمتك من معان أيها الملاك الناشر جناحين أبداً على ليالى الملذات . أيتها القبلة تتساقى الشفاه بها الرضاب المسكر كأساً تندفق على كأس ، لأنت خالدة كمبدأ الوجود

يا لنشوة الغرام ، وأنت حافزة كل كائن وصلة جميع الكائنات ! بأى بيان تناولك من تجشموا وصفك؟ لقد دعوك عاطفة زائلة وأنت الدائمة المبدعة ، فقالوا إنك التماعة خاطفة أنارت وشيكا أيامهم الدابرات . قالوا إنك كلمة أقصر من لفظة الحياة على شفاه المدنفين، بل هتفة حيوان يهزه الشبق ويعجب لقصر بقائه ناظراً إلى شعاع المصباح الأبدى نظرة إلى شرارة تنقدح من حصاة

لا عجب إذا دنس الناس اسمك أيها الحب وأنت روح الوجود ، وأنت الشعلة المقدسة قضت الطبيعة على نفسها إمدادها بالوقود فى هيكل الله فلا يخبو لها نور.

أنت محور الوجود أيها الحب وبك قوام كل موجود ، وما تنفخ روح الغناء عليك إلا لتغنى . إنى لا أعجب أن يدنس اسمك من جهلوك إذ حسبوا أنهم عاينوك لأنهم فتحوا عيونهم على الحياة ، وأنت عندما تمر بتابعين أخلصا لك تجمعهما بقبلة وتأمر أجفانهما بالانسدال على أحداقهما كيلا يبصرا بالسعادة على هذه الغبراء

ولكن أنتِ يا من نراكِ وأنتِ لنا ، أيتها البسمات المتراميات على الشفاه، أيتها اللمسات الحائرة ، أيتها المناغاة الأولى المترددة على شفة الحبيبة ، أمحررة أنت من سلطان الله بأكثر من سائر ما فى الوجود ؟ وهل أنت إلا ملاك يرف فى مأوى عاشقين لينزع النوم من أجفانهما فينتبها من السبات الذى ألقاه الله عليهما ؟

أى بنات نشوة الهوى .. لكم أنتن عزيزات على قلب أمكن . أنت أيتها النجوى بين عاشقين تتلمسين أوائل الأسرار باللمسات المرتجفة متملصة على مهل من عفافها وبالنظرات الجائعة ترسم على صفحات القلب أوائل الخطوط الغامضة لصورة المحبوب

أيتها الملكة العظمى القائمة على الفتح المبين ، إن فى أرجائك وتحت أعلامك ينشأ العاشقون

وأنت أيها التاج الذي يعصب رأس المحبين بالغبطة والحبور فيلقون من تحته أول نظرة على الوجود فينجلى لهم من خلال عاطفتهم الثائرة ؛ وأنت أيتها الخطوات الأولى يسير بها العاشق إلى قرب من يهوى ، من يقدر على تناولك ببيانه ؟ وأية كلمات

بشرية تصل إلى تصوير أضعف لمساتك ؟

إن من خرج في صبيحة بليلة بغضّ إهابه من باب سرى تدفع مزلاجه يد محبوبه ، فمشى بخطواته الحائرة إلى حيث لا يدرى فاجتاز مجتمع الناس ولم يسمع صوت صديق يناديه واتجه إلى مكان منعزل ضاحكا باكياً دون أن يعلم ما يضحكه وما يبكيه ومسح وجهه بكفه مستنشقاً آثار ما عبق عليه من عبير ؛ ونسي فجأة جميع ما أتاه على الأرض إلى ذلك الحين ، إن من وجه خطابه إلى الأشجار النائمة على جانب طريقه وما يرفرف عليها من أطيار ثم رأى نفسه بين الناس مضيعاً رشده فى حبوره فجثا شاكراً ربه على ما أنعم عليه ، لعاشق له أن يموت غير متذمر من القضاء لأنه امتلك المرأة التي يحبها

الجزء الرابع

الفصل الأول

عليّ أن أقص الآن ما آل إليه غرامى وما طرأ على نفسى من تغيير وأنا عاجز عن تعليله ، ولكنها الحقيقة آليت ألا أكتمها

وما كان مضى على استسلام مدام بيارسون لى أكثر من يومين ، وكنت خرجت من الحمام فى الساعة الحادية عشرة ليلا وسرت أجتاز المتنزه قاصداً بيتها وقد استولى علي المرح حتى جعلنى أقفز على الطريق قفزاً ويداى ممدودتان نحو السماء

ووجدت بريجيت واقفة على قمة السلم مسندة ذراعها إلى عارضته وأمامها شمعة تتقد وقد كانت فى انتظاري ، فما لمحتنى حتى سارعت إلى لقياى ، وما مضت لحظة حتى كنا فى غرفتها وقد أوصدنا الباب علينا

وبدأت تعرض علي ما بدلت من زى شعرها مجاراة لذوق ، وتشير إلى إطار أسود نزعته عن الجدار لأننى رأيته قاتماً محزناً ، وإلى ما وضعت من الأزهار فى جوانب الغرفة ؛ وأخذت تسرد على مافعلت إذ كانت تشهد عذابى مؤكدة لى أنها أرادت مراراً مبارحة البلاد هرباً من غرامها ، ولجأت إلى كل حيطة تقيها منى ، واستشارت عمتها ومركاسون والكاهن ، وأنها كانت حلفت أن تموت ولا تستسلم ، وعادت تذكر من كلماتي ولفتاتى ماجعل كل هذا الحذر هباءً . وكانت ترفق كل قسم من اعترافاتها بقبلة تلقيها على وجهي . وكنت أبديت استحسانى لبعض مافى غرفتها من التحف فأصرت على إعطائى إياها لأضعها على رف غرفتى ، وطلبت منى أن أضع لها منهاجاً تسير عليه في حياتها اليومية لأن ما يهمها فى الحياة إنما هو رضاى فما تعبأ بأقوال الناس ؛ وصرحت لى بأنها إذا كانت فيما مضى تعللت بالقيل والقال ، فما كان ذلك إلا بقصد إبعادى عنها ؛ أما الآن فهى تضم أذنيها عن كل صخب ولا تسمع إلا لهاتف قلبها يحدو بها إلى التمتع بالسعادة ، إذ أنها بلغت الثلاثين وما يفسح العمر لها مجالا طويلا للتنعم بحبى لها . كانت تقول هذا ثم تسألنى : هل ستحبنى طويلا ؟ أصادقة هذه الكلمات العذبة التى أسكرتنى بها ؟

وتعود عاتبة علي لتأخرى فى الحضور إليها ، وتنتقد العطر الذى يفوح منى فتراه حيناً قوياً وآونة ضعيفاً ؛ ثم تقول إنها ألقت الخفين عن رجليها لأرى أن بياضهما يضاهى بياض يديها ؛ ثم تستدرك قائلة إنها ليست جميلة وتتمنى لو أن لها أضعاف هذا الجمال ، وقد كانت على مثل ما تتمنى وهي فى الخامسة عشرة من سنيها

وكانت تتكلم وهى تخطر فى الغرفة يطير بها المرح ويشعل خديها الغرام فكأنها لم تكن تعلم ما يجب أن تقول وأن تفعل لتهب روحها وجسدها وكل مالها

وكنت مستلقياً على المقعد أستمع إلى أقوالها فأشعر عند كل عبارة من عباراتها أن ساعة سوداء من ساعات حياتى الماضية تنفصل عني ، فكنت أتطلع إلى كوكب السعادة يطل من الأفق علي وكأننى شجرة جرى فى أعراقها نبع الحياة فهى تنفض أوراقها الجافة لتكتسى خضرة جديدة

وجلست إلى البيانو وقالت إنها ستعزف مقطوعة « ستراويلا » وكنت ولا أزال أحب الموسيقى الخاشعة ، وكانت أسمعتنى هذه القطعة من قبل فهزت أوتار قلبى

وبعد أن أتمت عزفها التفتت إليّ وقالت : إن هذه القطعة من تأليفى أنا

— أأنت واضعة هذه الأنغام ؟

— أجل وكنت أوهمتك أنها من موضوعات « ستراويلا » لأعلم رأيك فيها ، وما تعودت أن أوقع على البيانو الأنغام التى أتوصل أحياناً إلى تأليفها ، وقد أردت هذه المرة أن أعرف مبلغ نجاحى ، وقد جاء انخداعك مؤيداً حسن ظنى

يا للإنسان وما فيه من غرائب !

إن هذه الحيلة البريئة التى تخطر لولد يريد مفاجأة معلمه نشرت أمام عينى غماماً ؛ ولحظت هي أن سحنتى تغيرت فسألتنى فأخفيت عنها ما بى وزجوتها أن تكرر العزف

وبدأت أخطر ذهاباً وإياباً فى الغرفة وأنا أستمع إلى الأنغام فأمرر راحتى على جبينى كأنى أحاول طرد ما يخيم على عينى من ضباب ، فكنت أضرب الأرض بقدمى وأهز كتفى كأننى أوقع على ما يساورنى من جنون . وجلست أخيراً على وسادة على الأرض فهرعت بريجيت إلى وأنا أنازع تفكيرى فيما يجتاحه من لبدات الظنون فقلت لها :

— الحق أنك ماهرة فى الكذب . أأنت واضعة هذه الأنغام ؟ أبمثل هذه السهولة تكذبين ؟

فنظرت إلى باستغراب متسائلة عما يدور فى خلدى وهى لاتصدق أن بى من الجنون ما يدفع بى تقريعها على مثل هذا المجون البرىء . وكانت تعلم تفاهة السبب فى كدرى فزاد هذا الكدر أهمية فى تقديرها . ولاح لها أننى أردت مقابلة مجونها بمثله ، ولكنها رأت على جبيني من الشحوب مامنعها من الأخذ بهذا الافتراض فانفرجت شفتاها وانحنت فوقى وقد خانتها القوى فقالت :

— يا لله ! أهذا ممكن ؟

لقد تبتسم أيها القارىء وأنت تطالع هذه الصفحة ولكننى أنا كاتبها لا أزال أرتعش منها حتى الآن .

إن للمصائب ما للأمراض من أعراض تدل عليها ، ولا شىء أشد خطراً فى البحر من نقطة سوداء تلوح على أفقه .

ولما طلع الفجر وضعت بريجيت فى وسط الغرفة خواناً صغيراً أعدت عليه طعام العشاء أو بالحرى فطور الصباح ، لأن العصافير كانت بدأت بالزقزقة فى الحديقة وأسراب النحل بدأت بالطنين .

وما كنت أرفع الكأس إلى فمى قبل أن ترطب مرشفه بشفتيها

واخترق نور الضحى الستائر المفوفة فاستقر على مافى وجهها من بهاء، وما على جفونها من استرخاء، وشعرت بالنعاس فألقت رأسها على كتفى تقبل عنقى متمتمة كلمات هيامها .

وغُلبت على شكوكى أمام هـذا الاستسلام فحسبتنى تخلصت من أشباحها المزعجة فطلبت العفو عن لحظة ثار فيهـا جنونى قائلاً بكل إخلاص : يؤلمنى أن أكون وجهت إليك التقريع فقد ظلمتك من أجل مزاح برىء ؛ غير أننى أطلب إليك إذا كنت تحبيني ألا تكذبى على حتى فى أتفه الأمور فلا شئ أفظع لدى من الكذب وما لى طاقة باحتماله .

وانطرحت على سريرها تطلب الوسن فأردت البقاء إلى جنبها إلى أن تنام ، ورأيت جفنيها ينسدلان على جمال عينيها ، ولاحت ابتسامة الهجوع على شفتيها فانحنيت ملقياً على وجهها قبـلة الوداع ؛ وخرجت مرتاح القلب أعلل النفس بالتمتع بسعادتى دون أن أعكر صفوها .

وفى اليوم الثـانى قالت لى بريجيت دون أن تقصد : إن لدى كتاباً أدون فيه مذكراتى وما يعن لى من خواطر ، وسأعطيك هـذا الكتاب لتقرأ فيـه ما كتبته فى الأيام الأولى التى تعرفت فيها إليك .

وقرأنا سوياً ما يتعلق بى وأضفنا إليه ماعنّ لنا من سانحات ، وأخذت بعد ذلك أقلب الصفحات بحركة آلية فاذا بنظرى يقع على عبارة كتبت بأحرف كبيرة فقرأت بعض كلمات ليس فيها ما يسترعى الاهتمام حتى إذا تجاوزتها استوقفتنى بريجيت قائلة : لاتقرأ هـذا . فرميت الكتاب إلى الخوان قائلا : لك الحق فمـا كنت أعلم ما أفعل ، فقالت — وقد لاحظت امتعاضي — أتواجه هذا أيضاً كأنه جد ؟ خذ الكتاب فانى أريد أن تقرأ . فقلت : لنضرب صفحاً عن هذا فما عسانى أجد مما يثير اهتمامي فى هذا الكتاب ؟ إن أسرارك تعنيك أنت ياعزيزتى .

وبقى الكتاب على الخوان ؛ غير أن عيني كانتا منصبتين عليه . وسمعت فجأة صوتاً يهمس فى أذنى ؛ ولاح لى أننى أرى وجه ديجنـه فى قساوته وعلى شفتيه ابتسامته المتجمدة فى صقيعها .

فتساءلت عما أتى يفعل ديجنه هنا ، كأنني رأيته منتصباً أمامى حقيقة لا خيالا . وقد ظهر لى كما رأيته ذات ليلة وقد انحنى جبينه أمام شعاع مصباحى واندفع يلقى بصوته الأجش دستور العاشقين

وكنت لاأزال معلقاً أبصارى على الكتاب وقد ترددت على حافظتى بعض كلمات مبهمة لا أذكر أين سمعتها ، فقبضت على فؤادي وشعرت أن روح الشك الحائمة حول رأسى قد قطرت سمها الزعاف فى عروقى وتصاعدت أبخرة هذا السم إلى دماغى فأورثتنى دوار السكر القاتل .

أى سر تخفيه بريجيت عنى ؟ وكنت أعلم أن ليس على إلا أن أمد يدى لأفتح الكتاب ، ولـكننى ما كنت أعرف أين يجب أن أفتحه لأصادف الصفحة التى وقعت أنظارى عليها .

وقد كنت فضلا عن ذلك أرى كبريائى تحول دون رجوعى إلى فتح الكتاب . ولـكن هل الكبرياء وحـدها كانت السبب فى امتناعى عن اقتحامه ؟

واجتاحني حزن شديد فهتفت في نفسي قائلا : هل الماضي هو طيف يبعث من الفناء ؟ فيالله لشقوتي ! هل سأقف عاجزاً عن الشعور بالحب فيما بعد؟

واجتاز خاطري فجأة جميع ما كنت رددته من أمثال احتقار النساء والهزؤ بهن أيام كنت ضارباً في بيداء الفحشاء . ومن الغرائب انني في ذلك الزمن كنت أردد هذه المأثورات مباهياً بها دون أن أعتقد بصحتها . فأصبحت الآن أعتقد أنها تصور حقيقة ما يقع الآن أو على الأقل ما يقع فيما مضى

وكانت مضت أربعة أشهر على تعرفي بمدام بيارسون دون أن أعرف شيئاً عن حياتها الماضية ودون أن أسألها شيئاً عنها . فكنت مستسلماً لحبها بثقة عمياء فأجد لذة في تمنعي بالصمت تجاهها وتجاه كل من يتعلق بها . وما كان في طبيعتي أن تساورها الشكوك وتحكمها الغيرة ، لذلك كنت أشد استغراباً من بريجيت لما تجلى بي من غيرة وشكوك . وما كنت يوماً في سابق غرامي أو معاملتي للناس رجل محاذرة ووساوس ، بل كنت مقداماً أذهب في طريقي صريحا لا أحاذر شيئاً ولا أظن السوء في شيء ، ولولا أنني رأيت بعيني خيانة عشيقتي لما كان خطر ببالي أنها تخدعني . وقد كان ديجنه وهو يلقي على مواعظه يضحك من سذاجتي ويراني أسهل الناس انخداعا ؛ وما كانت وقائع حياتي كلها إلا دليلا على سلامة طويتي وبعدي عن كل وسواس. لذلك شعرت وأنا أحدج كتاب مذكرات بريجيت بعين الارتياب أن شخصية غريبة مثلت في ذاتي ، وأن تفكيري يتمرد على هــذا الحافز وقد أرعبني الهدف الذي رأيته يدفعني إليه

فكأنني وجدت نفسي فجأة تجاه ما كنت أحسبه قد توارى في من أوجاع تحملتها ، ومن ذكرى مخادعات شهدتها ، ومن دواء كان أفظع من العلة في نتائجه ، ومن أقوال رددها الأصحاب على مسامعي ،ومن انطباعات ألقاها عليّ المجتمع الذي مررت بفجائعه ، ومن مفاسد أدركتها استنتاجا بنافذ بصيرتي ،وأخيراً تجاه الفحشاء واحتقار الحب والافراط في كل شيء . وهكذا بينما كنت أؤمل الرجوع إلى الأمل والحياة هبت من نفسي هذه القوى الكامنة ثائرة تقبض على عنقي لتصيح بي قائلة : أنا لم أزل هنا

ومددت يدي ففتحت الكتاب ثم طويته ورميت به إلى الخوان . وكانت بريجيت شاخصة إلي وليس في لحاظها ما يدل على عزة جريحة أو بادرة غضب ، بل كان بها ما ينم عن اضطراب أمّ تنظر إلى طفل مريض ؛ وقالت وهي تطوقني بذراعها : أتحسب أن لدي أسراراً ؟ فقلت : لا ، إنني لا أظن شيئا وليس بي إلا اعتقاد واحد وهو أنك جميلة وأنني أود أن أموت وأنا غارق في بحار حبك

وعدت إلى مسكني . ولما جلست لأتناول طعامي قلت لخادمي لاريف : من هي مدام بيارسون ؟

فالتفت إلي والدهش باد على محياه ، فقلت : إنك في هذه البلاد منذ سنوات عديدة ، ولا ريب في أنك تعرفها أكثر مني . فماذا يقول أهل القرية عنها يا ترى؟ وماذا كانت حياتها قبل أن عرفتها؟ ومن هم الأشخاص الذين ترددوا عليها ؟ فقال لاريف : والله ياسيدي إنني ما رأيتها يوما تفعل إلا ما تفعله في هذه الأيام ، فهي تذهب إلى النزهة في الوادي ، وتلعب بالورق مع عمتها

وتقوم بأعمال البر محسنة إلى الفقراء . ويدعوها القرويون بريجيت الوردية ، وما سمعت قط كلمة سوء عنها ؛ فكل مايقال أنها تتجول فى المزارع وحدها نهاراً وليلاً لغاية حميدة ، فهى رسول العناية فى هذه البلاد .أما معاشروها فهما الكاهن والمسيو دالانس وذلك أثناء العطلة

— ومن هو دالانس هذا ؟

— هو صاحب القصر القائم وراء الجبل وهو لا يزور هذه الأرجاء إلا للصيد

— أهو شاب ؟

— نعم ياسيدى

— أبينه وبين مدام بيارسون صلة قرابة ؟

— لا بل كان صديقاً لزوجها

— أمنذ زمن طويل مات زوجها ؟

— في عيد جميع القديسين يكون قد مر خمس سنوات على وفاته ، وقد كان رجلا طيب الخلال

— وهل سمعت أن المسيو دالانس يتحبب اليها ؟

— والله ياسيدى ... قال هذا وسكت متردداً

— تكلم

— قال الناس هـذا وما قالوه ... أما أنا فما رأيت شيئاً

— قلت لى أولا إن أحداً فى القرية لم يقل شيئاً عن مدام بيارسون

— لم يقل أحد شيئاً ، وكنت أعتقد أن سيدى عارف بالأمر

— وأخيراً هل تكلم أحد عن هذا ؟

— أجل ، أظن أن الناس تكلموا

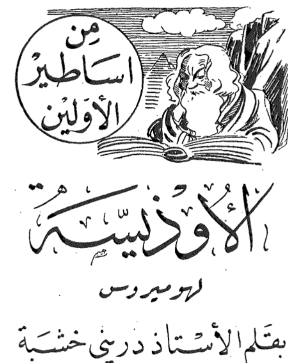
نهضت عن المائدة وسرت إلى المتنزه فوجدت مركاسون هناك وحسبت أنه سيتحاشى ملاقاتى فرأيته يتقدم نحوى قائلا :

لقد أظهرت نحوى ذلك اليوم من الغضب مالا يمكن لمثلي أن يذكره حاقداً . فأنا أقدم إليك الآن اعتذارى لاضطرارى إلى القيام بمهمة مكدرة فكنت مشوشا فى الأمر على غير مناسبة .

فأجبته متلطفاً ظاناً أنه سيذهب عنى ولكنه تابع مسيره إلى جنبى .

فبدأت أردد فى ذهنى اسم دالانس قائلا فى نفسى إن لا ريب لم يقل لى عنه إلا ما يمكن لخادم أن يسرد نقلا عن خادمة أو عن مزارعين ، وأنا أريد شاهداً يكون رأى هذا الرجل عند مدام بيارسون . وتحكمت هذه الفكرة فى دماغى فقررت أن أفاتح بها ماركاسون .

« يتبع » فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة قصة أودسيوس

« لما وضعت حرب طروادة أوزارها أقلع أودسيوس — بطل الأوذيسة — بسفنه قبل أن يقدم القرابين للآلهة فقضت عليه أن يشقى طويلا فى عرض البحر — وقد أغار فى طريقه على مدينة إزماروس ولكن أهلها كروا عليه فأخرجوه ورجاله من مدينتهم — ثم مر بأرض اللوتوفاجى وهم قوم يأكلون اللوتس العجيب الذى ينسى آكله كل ماضيه ولا يقبل حين يأكله أن يعود إلى وطنه — وقد أكل بعض رجاله من هذا الثمر ولم يرضوا مغادرة الجزيرة حتى ذهب إليهم وأعادهم إلى سفنه بالقوة — ثم أرسوا على جزيرة السكالبة ، وهم مخلوقات عجيبة ولكل منهم عين واحدة ، وقد حبسهم أحدها فى كهفه وراح يغتالهم طائفة بعد طائفة حتى دبر أودسيوس حيلة سمل بها عينه وفر ببقية رجاله من وجهه — وأرسوا بعد ذلك بجزيرة عروس البحر سيرس التى سحرت بعض رجاله فأصبحوا خنازير إلا واحداً فر ليخبر أودسيوس الذى لقى هرمز رسول السماء فنصحه وزوده بعشبة لا يسحر حاملها بسحر ساحر . وقد استطاع أودسيوس قهر سيرس فأعادت رجاله إلى صورهم ونزلوا فى ضيافتها جميعاً بعد أن أقسمت أغلظ الأقسام ألا تلحق بهم أذى — وقد نصحت لأودسيوس أن يذهب فى رحلة إلى الدار الآخرة — هيدز — ليعرف له الكاهن الطيبى تيرزياس عن المصاعب التى لابد من تجشمها قبل أن يصل إلى بلاده — وقد عرف له الكاهن ثم لقى أمه وكلمها فأخبرته عما صنع عشاق زوجه بنلوب بقصره وما كان من ولده تلياك — ثم كلم أشباح طائفة كبيرة من عذارى اليونان وأبطال الحرب الطروادية أمثال أخيل وأجاكس وأجاممنون — وعاد أدراجه إلى جزيرة سيرس — وهو هنا يتم قصته »

أودسيوس يتم قصته

١ — السرينات المغنيات

٢ — سكيللا الهولة

« والآن ، وقد احتملنا العباب ذو الثبج وذرعنا اليم المترامي ، وعتمنا نضرب فى موج كالجبال ، فقد وصلنا بعد لأى إلى جزيرة إيايا المرجانية حيث ترتع أورورا ابنة الفجر الوردية وتلعب ، وحيث مطلع الشمس وراء البحر المضطرب . . . وألقينا مراسينا ، وتلبثنا فوق رمال الشاطئ نرقب انبلاج الفجر ، حتى إذا لاحت تباشيره أرسلت طائفة من رجالى إلى قصر سيرس فأحضروا جثمان إلينور (الذى خر من السطح فدق عنقه) ، ثم إننا بكينا عليه أحر البكاء ، وجمعنا له من الحطب والخشب ما وسعنا ، وطرحناه وسط الكومة التى صنعناها من هذا الوقود ، وطرحنا معه سلاحه ، وأقمنا إلى جانبه مجدافه العظيم ؛ ثم أدينا له الشعائر الجنائزية التى أرويناها بأزكى دموعنا ، وأشعلنا النيران بعد إذ أقمنا له نُصُباً جليلا ، تحية وذكرى . ولم تعلم بعودتنا سيرس ؛ بيد أنها مع ذلك أقبلت فى ربرب من وصيفاتها الحسان الأتراب يتهادين نحونا ، حاملات دناناً من أكرم الخمر . . . ووقفت بيننا العروس الهيفاء ، ثم قالت : « ويحكم أيها الأشقياء

كيف حَلاَ لكم أن تموتوا مرتين بينا يموت جميع الناس مرة واحدة ؟ ولكن تعالوا ، هلموا إلى طعامكم ، وتحَسَّوا من هذه الخمر لتقضوا يومكم فوق رمال هذا الشاطئ في شراب وآكال ، فإنكم ضاربون في ظلمات ذاك البحر فَجْر غد . وإني منبئتكم عما يروعكم في طريقكم عسى ألا تضل بكم . ويا ما أكثر ما تتجشمون من أهوال في البر والبحر! ولبينا دعوة الربة المضياف، فأقبلنا على طعام شهي وشراب رَوِي طيلة يومنا ، حتى إذا توارت ذُكاء بالحجاب ، وشملنا ظلام الليل ، تطرح رجالي فوق الرمال النائمة ، ثم انتحيت أنا وسيرس ناحية ، وجلست قبالتها ، وراحت هي تحدثني وتقول : « أما وقد أوشكت متاعبك أن تنتهي ، فاصغ إلى ؛ إفقه ما أقوله لك وتدبره ، فهو وحي يوحى إليك من السماء ينفعك إذا جد بك الجد ، وأزفت حولك الآزفة ... ستصل أول ما تصل في رحلتك عَبْرَ هذا البحر إلى جزيرة السيرينات الشاديات اللائى يسحرن بغنائهن القلوب، ويخلبن بجرسهن الألباب ، ويطَّبين[1] كل من أوصله سوء حظه إلى جزيرتهن بحلو تطريبهن وجميل شَدْوهن حتى ليلصق بأرضهن وينسى آله وأوطانه ، ولا يخطر في باله أن يعود إلى بلاده ليهنأ بلقاء زوجه الحبيبة وأولاده الأعزاء ، بل يجمد مكانه من الشاطئ حيث يكون بمسمع من السيرينات وتكون عن يمينه وشماله رفات الضحايا الكثيرين الذين عرجوا من قبل ليشنفوا آذانهم بغناء أولئك العذارى فجمدوا مثله ، وذهلوا عن أنفسهم حتى ذووا ، وذبلوا وضووا ، وحاق بهم الفناء بينا يخطر السيرينات بين شجر البرواق متهاديات فوق السندس الحلو الجميل ... فأوصيك أن تفرغ في آذان رجالك من سائل الشمع قبيل أن تبلغ أرضهن ، فإنهم بذلك لا يسمعون شدوهن ولا يسحرون بغنائهن . أما أنت ، فلك أن تنصت إلى ذاك الغناء إن شئت ؛ بيد أنه ينبغي أن يشد رجالك وثاقك في قلع سفينتك شداً قوياً محكما ، فيربطون ذراعيك وساقيك بأمراس وأحبال، حتى لا يسبيك ما يُشنف أذنيك من غناء وشدو فلا ترضى إلا أن تثوى بأرض السيرينات ؛ فإذا اشتد بك الوجد من سحر ما تسمع وطلبت إلى رجالك أن يخلوا عنك لزم أن يزيدوا في رباطك ويحكموا وثاقك أضعاف ما فعلوا بك من قبل . . . فإذا جُزْتم تلك الجزيرة وغابت مناظرها عن أبصاركم ، فلرجالك أن يطلقوا سراحك ... على أنني لا أدري أي السبل ينبغي أن تسلكوا بعد هذا ، فهنالك طريقان أحلاهما مر ، وأيسرهما عناء وضر ، وإني واصفة لك كليهما ، وأدع لذكائك أن يختار لك . . . إنكم بالغون في سبيلكم إلى صخور هائلة ناتئة في البحر ، تتكسر فوقها أواذيُّه ، وترتطم بجلاميدها أمواجه ، وتدافعه على أحيادها أمفتْريت (زوجة نبتيون) الجبار . وقد أطلق الآلهة على هذه الصخور اسم (إبراتيك) وهي قلال موحشة لا يستطيع مخلوق أن يقترب منها ، ولا يجسر الطير أن يهبط فيها ، بل طير أبينا جوف نفسه الذى يحمل إليه غذاءه الإلهيّ المقدس ، لم يجازف مرة فحط فيها يستجم من سفر ، لما يعلم من أنها مهلكةٌ زَلِقَةٌ . ولم ترسُ عندها سفينة قط إلا ارتطمت فوق نتوئها وهوت إلى القاع بمن حملت ، أو ابتلعتها العواصف

[1] إطبى القوم فلانا خالوه وقتلوه

الهوج فغابت حيث لايدرى أحد . ولا يعرف أحد سفينة جازت مهالك هـذه الصخور إلا السفينة (آرجو) التى حاطتها جونو (١) برعايتها رحمـة بجاسون وحناناً من لدن سيدة الأولب ، حين أقلعت من جزيرة إيايا ؛ وقوام تلك الصخور هضبتان شامختان شاهقتان ، تمثل إحداهما صنما هـولة ضخما يضرب فى السماء برَوْقَيْه وتتراكم فوقه منذ الأزل ثقال السحاب التي لايذيبها خريف ولا صيف ، لأن الشمس لم تنشر عليها أشعتها قط .. ولو أن أحداً من العالمين له عشرون يداً وعشرون رجلاً ما استطاع أن يرقى عليها أبداً ، لأنها ملساء ناعمـة كأنما صقلتها يدا مثال صَناع . . . وإن فى سَنَدِه الغربى لـكهفاً سحيقاً نُقِر ثمـة باسم إربوس (٢) ، وإني لأحذرك أن تقترب منه حين تجوز به يا أودسيوس ، بل كن بنجوةٍ منه ، بعيداً بقدر ما تستطيع ، أو على الأقل على مرمي سهم مراش من سفينتك إلى وصيده ؛ ذلك لأنه مأوى سكيللا المخيفة التى تُدَوِّى بصوتها وعوائها ، ويفرق الناس والآلهة من وجهها المكلثم القبيح ؛ وحسبك أن تعلم أن لها اثنتي عشرة قدماً كلها أمامية ، وأن لها ستة أعناق طوال ينتهي كل منها برأس كبير فظيع ، سلح بثلاثة صفوف من أنياب حِـدَادِ أصلها ثابت ، وحشوها سم زعاف . وهى تربض فى غور كهفها السحيق ، بينما أرؤسها بارزة من فوهة الـكهف تبحث فى الماء عن الدلافن وكلاب البحر ودواب المـاء وجميع حيوان مملـكة امفتريت . . . وليس يجسر بحار أن يفخر بأنه نجا مرة من شرها فهى تنقض كالصاعقة على السفينة العابرة ، وتلتقم بأفواهها الستة الجائعة ستة من بحارتها مرة واحدة تقضمهم قضما . . . وتلقاء هـذه الهضبة ، هضبة أخرى على مرمي سهم يا أودسيوس ، وقد نَمَتْ فوقها تينة برية كبيرة ذات أفنان وعساليج حانيات فوق المـاء ، وتحتها عين خارِبْدِيس الحمئة التي يغيض فيها ماء البحر كله ثم تعود فتمجه ثلاث مرات فى اليوم . ويْلك أودسيوس ! خذوا حذركم ! فوالله إنكم إن دنوتم منها فإنها تبتلعكم ، ولا يستطيع نبتيون نفسه بعد ذلك أن ينجيكم . وإنى أرى أن تدنوا من الصخرة الأولى فتلتقم سكيللا ستة منكم ، فهو خير لـكم من أن تغرقوا جميعاً » وسكتت سيرس ، وقلت أسائلها : « بحق الآلهة عليك يا ربة أن تُخَبِّرى : أما أستطيع أن أنقذ رجالى المسـاكين من سكيللا إذا نجونا من خاربديس ؟ » فقالت تجيبنى : « أيها التعس ، أما تفتأ تحن إلى مجازفات الحرب وخوض غمار الوغى ؟ إنه لا سلطان للآلهة نفسها على سكيللا ، وهى ليست مخلوقاً مما يجوز عليه الفناء ، بل هى غول سرمدى شديد المراس ، شكس شديد الشراسة ، لايغالب أحداً إلا غلبه ؛ فأطلق سفينتك للريح ، ولذ منها بالفرار . وإياك أن تفكر فى التسلح لها ، فهى لابد ملتقمة ستة من رجالـكم إذا حاولت مدافعتها فإنك منهم ! ! فإذا بعدت فاضرع إلى كراتيس ، أم هذه الهولة التى هى إلى الأبد طاعون للبشر ، أن ترد كيد ابنتها عنكم فلا تتبعكم فى سبيلـكم ولا تلتقم منكم أكثر ممـا فعلت . . . وإنكم بالغون (تريناشيا) بعد هذا حيث ترعى الربتان الحسناوان : لمپتيا وفيتوزا ابنتا هبريون من عروس الماء نيرا ،

(١) هى حيرا زوج زيوس كبير الآلهة .
(٢) إله الظلماء الذى تزوج من أمه (ليله)

قطعانَ أبيهما السبعة التى يشمل كل منها خمسين شاة ذوات صوف ناصع كالثلج . . . وكل هذه الشـاء يرعى ثمة باسم رب الشمس العظيم . فإذا كنتم حقاً تتشوقون لبلادكم ، وتتحرقون شوقاً إليها ، فاحذروا أن تصيبوا تلك القِطعان بسوء ، فإنكم إن فعلتم غرقت بكم سفينتكم وذهب رجالك أباديد . أما أنت ، فتنجو بعد لأْى وبعد نضـال وأهوال ، فتصل إلى بلادك ملوماً محسوراً ! »

وتنفس الصبح الندى الرخى فذهبت تتبختر وتجرر أذيالها إلى قصرها المنيف ، وذهبت أنا إلى الشاطىء فأيقظت رجالى وأمرتهم فجروا السفينة حتى استوت في الماء ، ورفعت مراسيها ، ثم جلس كل إلى مقعده ، وأعملوا أيديهم فى مجاذيفهم فتدافعت الفلك فى البحر ، وما هي إلا لحظة حتى أرسلت سيرس ، الربة المقدسة ، نسيما رُخاءً كان خير رفيق لنا ، إذ كفانا عناء التجديف ، فتطرحنا فى المركب ، واشتدت الريح فى غير عصف فأسرعت بنا دِرَاكا . . . ثم كلمت رجالى وفي قلبي وجيب فقلت : « أيها الأصدقاء تعالوا أحدثكم عما تنبأت به سيرس لنا فى رحلتنا هذه ، فانه سيان إن أفلتنا من العذاب أو تردّينا فيه ؛ بل أردت أن أطلعكم على ما خبأته المقادير لنا لتأخذوا حذركم ، وتبرموا أمركم ، ويكون كل على نفسه وكيلا . لقد حذرتنى أن يستمع أحدكم إلى غناء السيرينات الشاديات وحلو تطريبهن ، وأجازت لى وحدى أن أصغى إليهن ؛ بيد أنها أوصتنى أن أخبركم أن تشدوا وثاقى بأمتن الأمراس فى سارية السفينة فلا تطلقوا سراحى حتى نبعد عن جزيرتهن . وكلما رجوتكم أن تخلوا عنى شددتم وثاقى أكثر فأكثر (هذا إن أردتم أن نكون بنجوة من الهلك في تلك الأرض الملعونة) » . وهكذا نبهت غافلهم بتحذيرى. ثم إننا انطلقنا فى اليم ، وأخذنا نقترب من جزيرة السيرينات ، وعرفت ذلك لـما هدأت الريح فجأة ، ونام الموج ، وخفتت أنفاس الطبيعة ، وشمل الركود كل شيء حولنا ، كأنما مسحت يد مقدسة علوية كل هذا الوجود الرحب . ونشط اللاحون إلى مجاذيفهم فالتمع تحتها بساط الماء ، ثم نشطت أنا إلى قَدْر من الشمع فعالجته بسكين ، ثم كوّمْته براحتي وتركته كى يلين قليلا فى أشعة الشمس ، ثم جعلت منه فى آذان رجالى واحداً فواحداً . . . واستسلمت لهم بعد هذا فشدوا وثاقى فى شراع السفينة شداً محكما ، وجلس كل إلى مجدافه ، وانسربت الفلك فى المـاء تشقه وتجرجر فيه . . . وصرنا على مدى ما يبلغ الصوت من الجزيرة إلى آذاننا فأصغيت وأصغيت ، وإذا السيريناتِ الشاديات يتغنين هكذا :

« أودسيوس أيها الزعيم ! يا من لهج بذكره كل لسان »

« ألق فى جزيرتنا مراسيك يا فخر اليونان »

« تلبَّثْ عندنا أيها العزيز وشنف أذنيك بأغانينا »

« فما من أحد جاز بجزيرتنا حتى عرج يتزود من هذا الغناء »

« ثم يقلع أسعد ما يكون ، وأفطن ما يكون »

« ذلك ونحن نعلم من أنباء ما أصابك كل شيء »

« ما خضت من معمعان طروادة ، وما أصابتك الآلهة من مصيبة ، وما لقى قومك فى كل مكان »

« تعال تعال . . . هلم نحدثك فعندنا علم كل شيء » .

وهكذا شرع العذاري يسكبن إرنانهن الجميل في قلبي ، وكأنما كن ينفثن فيه السحر فيصغي ويصغي وتلح عليه الرغبة فى الإصغاء ، ورحت أنا أضرع إلى قومى أن يفكوا قيودى ويطلقوا سراحى ويخلوا بينى وبين أولئك السيرينات المطربات ، فلم يسمعوا لإشاراتى ولم يستجيبوا لتوسلاتى ، بل هب يوريلوخوس وپرميديس فضاعفوا أغلالى وشدوا على حبالي . . . ثم بعدنا . . . وظللنا نبعد ونبعد ، حتى إذا كنا حيث لا يصل إلينا من شدو السيرينات شيء ، نهض رجالى فأزالوا ما كنت قد جعلته فى آذانهم من الشمع ، ثم عمدوا إلي فأطلقوا سراحى... وما كادوا يفعلون حتى أبصرت فى ظلام البعد موجاً كالجبال كأنه ظلمات بعضها فوق بعض ، ودخاناً كثيفاً ينعقد فى الجو ، ثم إذا بى أسمع رعداً قاصفاً يصم الآذان ! وقد ذهل رجالى عن أنفسهم ، وطارت المجاديف من أيديهم فلم تعد تجدهم نفعا ، ووقفت السفينة كأنها الأرجوحة على أرؤس الموج ؛ وذهبت أنا أشجعهم رجلاً فرجلا : « أيها الرفاق ! ها نحن نلق أولى عقباتنا ، وهى ليست على كل حال أشد هولا من مصيبتنا يوم حبسنا السيكلوب فى كهفه السحيق ، وكيف احتلت لفرارنا من وجهه ؛ وسيأتي يوم نذكر تلك الشدة الفاجئة بمثل الغبطة التى نذكر بها الشدائد السوالف . . . هلموا إذن ، اثبتوا فى أماكنكم ، واصمدوا لهذا اللج المصطخب ، واضربوا فيه فى جلد وصبر ، عسى أن يكلأكم چوف ربكم فينجيكم منه . وأنت أيها الربان أصغ إلى ، إنك تقبض على ناصية الحال ، فتحاش أن تقترب من هـذا الدخان وتلك الأمواج الثائرة . . . إبتعد ما استطعت عنها ، وخذ سبيل هذه الصخرة ، ذلك أدنى ألا تقذف بنا فى حمأة الخطر ... » وظللت أنفخ فيهم روح الصبر حتى فاءوا إلى أمرهم فاستقتلوا فى مجاهدة الأمواج استقتالا . . . وتسلحت أنا بكل ما استطعت من عدة ، وجعلت فى يدى رمحين طويلين ، ووقفت أرقب سكيللا الهولة من بعد ، ولم أجسر أن أذكر كلمة عنها لرفاق حتى لا تفرغ أفئدتهم فرقاً فيهربوا من عملهم ويكتظوا في بطن السفينة مخافة أن يمسهم منها أذى . . . وشرعنا نعبر البوغاز ، . . . ولشد ما أفزعنى أن أرى سكيللا ترمقنا وتتلمظ ، وقد انتصبت كالموت على الشاطىء القريب ، ثم أرى في الوقت نفسه خاربديس على الشاطىء الآخر تحشرج فى حلقها الرحب الفظيع عباب الماء ثم تمجه ، فكأنما تقذف من جوفها ماء فائراً يعلو فى الجو كالجحيم ، ثم ينهمر وبله فى كل فج ، وتعود فيغيض البحر فى بلعومها ، ثم تقذفه ، وهكذا دواليك ... ياللروع ، ويا للفزع الأكبر ! تالله لقد كنا ننظر ما تبدى خاربديس وما تعيد فى جزع وفى هلع ، بينما كانت سكيللا تتوثب وتتوثب ، ثم ترسل أرؤسها الستة فتلتقم ستة من رجالنا كانوا وا أسفاه أشجعهم جميعاً ، وكان قلبى يتمزق حين راحوا يهتفون بى ، وينادوننى باسمى وأنا كالذى أسقط فى يديه ، ما استطيع شيئا فأصنعه ، بل أنظر إلى أذرعهم وأرجلهم تتقلب فى الهواء وهم يصيحون ويعولون ، وأنا ساكن ذاهل أقلب كفى ولا أفعل شيئاً آخر ! واحزناه ! ! ما كان أشبه سكيللا المتوحشة بصائد السمك الذى أطعم سناره وأرسلها من فوق صخرة تداعب السمكة المسكينة ،

حتى إذا حان الحين جذبها إلى عل تترنح هنا وهناك . هكذا كانت هـذه اللعينة التى جذبت إلى كهفها أشجع رجالنا وراحت تقتات بهم بين الصراخ والبـكاء ، وبين التوجع والأنين ، وكلهم يمد إلى ذراعيه مستنجداً مستغيثاً فى قنوط ويأس ! ! أبداً ماوقعت عيناى فى مشارق البحار ومغاربها ، بل فى جميع مخاطراتى ، على منظر أبعث للأسى ، وأمض للنفس ، وأجرح للفؤاد ، من ذلك المنظر الرهيب !

وما كدنا نفلت من سكيللا وخاريديس بعد تلك الفاجعـة حتى اقتربنا من أرض الشمس ، حيث ترعى قطعان هيبريون[1] الجميلة الـكثيرة ذات الفراء الناصعة ... ولقد كنت أسمع ثغاءها ورغاءها إذ أنا على ظهر سفينتى فى عرض البحر . وسرعان ما ذكرت ما قاله لى الـكاهن الطيبي الأعمى ، تيرذياس فى هيدز ، عن هذه القطعان ، ثم ما أنذرتني به سيرس سيدة إيايا من وجوب الابتعاد عن هذه الجزيرة التى كانت منذ الأبد غواية للبشر ، حتي قمت فى رجالى فجعلت أحذرهم وأقول : « أيها الرفاق اسمعوا ؛ هذه هي جزيرة الشمس الهائلة التي حذرنا تيرذياس الكاهن الطيبي من الرسو بها أو الاقتراب منهـا . وكذلك حذرتنى منها سيرس ربة إيايا ، فان كل ما لقينا من أهوال ليس شيئاً إلى الهول الذى يحيق بنا إذا حللنا بها . فاسمعوا نصحى وسيروا بنا نذرع هذا البحر نسلم من شر مستطير ، وبلاء لا يجيرنا منه مجير » وكانوا يصغون إلى في حيرة وذهول ، وما كدت أفرغ حتى انتصب يوريلوخوس يرد على في جفوة وضيق : « أوديسيوس ، أيها القاسى الطاغيـة ، أما أوهنت كل تلك الشـدائد جلدك ؟ أمخلوق أنت من حـديد فما ترق وما تلين ؟ أتأبى على رجالك الموهونين الـمكدودين أن يرسوا بهذه الجزيرة الفيحاء المعشبة ليريغوا مما بهـا من آلاء ، وليطعموا من خيرها الـكثير ؟ أتصرفنا عنها بنزقك وقلة بصرك لنخبط طول الليـل فى هذا البحر الأجاج خبط عشواء مع ما تـكون الريح عليه حينئذ من شدة وعنف ؟ خبرنا أيها الأحمق ما ذا نصنع إذا عصفت بنا نـكباء من الجنوب تحطم فلـكنا ولا ينجينا من بطشهـا حتى الآلهة ؟ أليس الأفضل لنا أن نرسو فى هـذه الجزيرة فنقضي بها ليلنا ، حتى إذا انفلق الإصباح أقلعنا منها على هدى ؟! »

وحبذ الملاحون ماقال ، فدار فى خلدى أن لابد مما ليس منه بد ، وأن لابد من وقوع القارعة الـكبرى بنا ، فقلت فى كلمات يائسات : « لا ضير يا يوريلوخوس ! وليس بى من بأس أن أخضع لما ترى الجماعة ؛ ولـكن تعالوا جميعاً فأعطوني موثقـكم ألا تذبحوا شاة ولا تجزروا نعمة مما هنا من هذه القطعان ، مهما ألح عليكم السَّغَبُ ، وأضوا كم الجوع ... بل يكون حسبكم ما حملتم من آكال من عند سيرس »

وأقسموا أغلظ الأقسام أن يفعـلوا ، ثم يمموا بالفلك فى جون هادىء ترتفع فى وسـطه نافورة رائعة ؛ فأرسوا ثمـة ، وتدفقوا إلى الشاطىء ، وراحوا يعدون وجبـة المساء ؛ بيد أنهم سرعان

---

(١) فى بعض المصادر أن الشمس غير هيبريون ، وفى بعضها أنها هو ، وفى بعضها أنه أحد سواس عربتها

مانهوا مسغبتهم حين تذكروا إخوانهم الذين غالتهم سكيللا ، وراحت تغتذى بهم أمام كهفها السحيق فأخذوا يبكونهم ويذرفون عليهم دموعهم حتى غلبهم النعاس ، فناموا ... وفى الهزيع الثالث من الليل ، حين عبرت النجوم فكانت فى كبد السماء ، ساق چوف رب السحاب الثقال ريحا جابت البر والبحر ، وغمرتهما بماء منهمر ، ثم عقد فى الكون ظلمات فوق ظلمات يتدجى بعضها فى بعض ... ثم أشرقت أورورا الوردية ، فنهضنا من مراقدنا ، وسحبنا الفلك إلى غار كان لبعض عرائس البحر يرقصن به أو يستروحن فيه ؛ وما كاد شملنا يجتمع ثمة حتى نهضت فى رجالى أقول : « أيها الرفاق إننا ما ينقصنا غذاء ، وما بنا من حاجة إلى أكل ، فمعنا من ذلك الشيء الكثير ، فإياكم وأن تمسوا هذه القطعان بأذى ؛ وحسبكم أن تعلموا أنها ملك خالص لربة الشمس التى تراكم أينما كنتم » وهكذا أيقظت فى نفوسهم النخوة . ثم إنا لبثنا فى تلك الجزيرة شهرا ما نريم عنها وما كان لنا إلى غيرها متحول ؛ ذلك لأن الدَّبور [1] ظلت تهب من الجنوب فى صرامة وشدة ، فإذا هدأت ، لم تهدأ إلا لتهب ريح شرقية أشد منها عنفا . لم يمسوا قطعان الجزيرة السائمة بأذى مادام لم ينفد ما كان معهم من طعام . فلما تناقصت ميرتهم راحوا يتلمسون صيد البر والبحر ، أما أنا فكنت أجوس خلال الجزيرة عسى أن ألتقى إلـها أضرع اليه فيجعل لنا من أمرنا مخرجا ... وبينا أجوب الجزيرة إذا بى أبعد كثيرا عن رفاقى ، فبدا لى أن أسكن إلى منعطف دافىء هادىء على سيف البحر ، فأغسل [1] يدى مما علق بهما من قذر ، ثم جلست أصلى للآلهة ، وأدعوها واحداً بعد واحد أن تهيىء لنا من شدتنا مرفقاً ، ولكنها جميعاً — وا أسفاه — أصمت آذانها عن دعائى ، ثم أرسلت علىّ طائفاً من الكرى . . . فنمت نوماً عميقاً . . . بينما كان يوريلوخوس التعس يوسوس إلى رفاقه فيقول : « أيها الأصدقاء ! أنا أخوكم فى البلاء فاسمعوا وعوا . ليس أشنع من الموت إلى النفس ، ولكن الموت جوعاً هو أشنع ألوان المنايا التى يرتجف منها الانسان . . . هلموا . . . لنذبح من هذه الشاء والنعم ، ولنضح للآلهة أضخم ثيران الشمس ، ولننذر أن نبنى للرب المبارك هيبريون هيكلا عظيما حالما نصل سالمين إلى إيثاكا ، ولننذر أيضاً أن نجعل فى الهيكل من الطرف والتحف ما يرضى الآله ويكفر عن سيئتنا . أما إذا آثر أن يغرق فلكنا وتضافرت معه جميع الآلهة على ذلك ، لأننا ألحقنا أذى بعدد من قطعانه ، فانى أول من يجاهر بقبول الموت مرة واحدة فى أعماق هذا اليم ، على أن أموت هذا الموت البطىء جوعاً ! » وزين لهم ما قال ، فاستاقوا أسمن ما فى القطعان التى كانت ترعى العشب قريباً منهم ، ثم أطعموها أنضر أوراق الشجيرات الباسقة إذ فرغ كل ما لديهم من الشعير ، ثم

(١) ريح الجنوب ضد الصبا

(١) كان غسل اليدين كالوضوء عندنا شرطا لا تصح الصلاة اليونانية بدونه

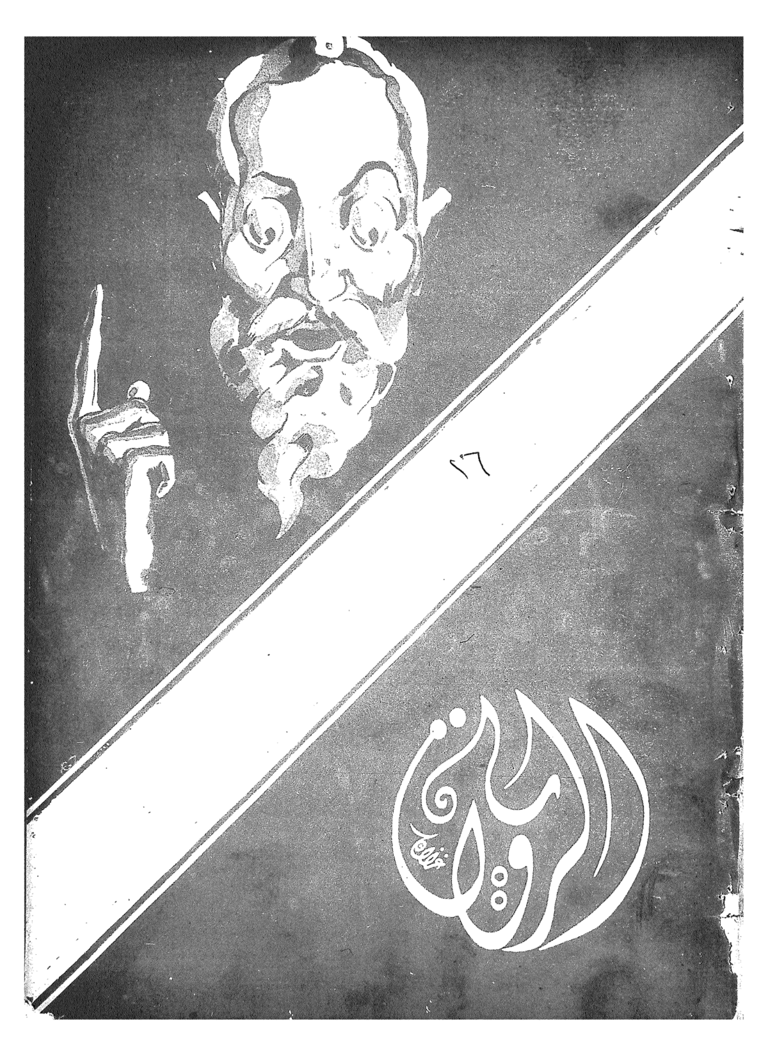
صلوا للآلهـة ، وجزروا الحيوانات البائسة ثم سلخوها ، وفصلوا الأفخاذ والشحم ، وقذفوا بها إلى النار تقدمة للآلهة وقرباناً . . . ولم يكن معهم خمر ليتموا بها الشعائر القدسية ، فقذفوا فى النار بدلاً منها ماء قراحاً . . . وجلسوا بعد هذا يعدون شواءهم من الحوايا [1] والكبد وما إلى ذلك مما فى جوف البهيم ؛ حتى إذا طعموا ملء بطونهم انطرحوا فى مراقدهم بينما استيقظت فجأة من سباتي ونهضت لأنطلق فى طريق صوبهم . وما كدت أشرف عليهم حتى ملأ خياشيمى قتار [2] ما فعلوا ، فوجمت وجوماً شديداً ؛ ثم أجهشت ، ثم استخرطت فى بكاء طويل وضرعت إلى الآلهة وظللت أقول : « أهكذا ياأرباب السماء تلقون علىّ ذلك الطائف من الكرى فيفعل أصحابى ما فعلوا إذ أنا أغط فى نوم عميق ؟ » . .

وطارت لمتيا بالخبر المشئوم إلى إله الشمس فثار ثائره وطفق يصخب ويهتف بالآلهة ويقول : « يا جوف العلى ، وأنت يا آلهـة السموات ! إثأرى لما فعل السفهاء من رجال أودسيوس . لقد اجترأو فجزروا من نعمي وشائى التى هى بهجتى وأنسى والتى أرمقها أبداً من علياء السماء ؛ فإن لم تنتقمى لى فوعزتى لأهبطن بشمسى إلى هيدز فأنير آفاقها ، وأضفى أضوائى على الأشباح ثمة (وأدع هذا العالم المشرق الجميل يضرب فى دياجير ما مثلهـا دياجير . »

وأجابه رب السحاب الثقال فقال : « يا إله الشمس على هينتك ؛ بل ظل مشرقا على بنى الموتى الدائبين فى تلك الأرض ، وإنى مسخر صواعق على سفينتهم فى عرض البحر فى مثل لمح البصر فتذهب بها وبهم أباديد » . . . أما من أخبرنى هذا فقد نبأتنى به كاليبسو ، فقد حدثها به هرمز رسول الآلهة ... ثم وقفت فيهم أنتهرهم وأنعي عليهم ، ولكن ... واأسفاه ! أى انتهـار وأي نعي وقد سبق السيف العذل؟! ثم حدثت المعجزة!! وبدأت السماء تشهد آياتها فقد تحركت الجلود الملقاة على الأرض وزحفت نحونا ثم سمعنا مضغ اللحم الغريض سواء منها ما ظل دون أن يمس وما علق منها بالسفافيد ، وقد أرسل ثغاء وخواراً كأنها ما تزال على قيد الحياة ! ... وهكذا ظل رفاقى يجزرون كل ثور حنيذ من ماشية إله الشمس ويغتذون بحواياها طوال ستة أيام، حتى إذا كان السابع أمر جوف العاصفة فهدأت، والبحر فتطامن، فأهرعنا إلى الفلك فأنزلناه فى اليم ، ونشرنا الشراع ، وأقلعنا حيث لا ندرى ماذا يراد بنا ! ! ثم غابت الأرض عن الأنظار ، ولم يكن إلا البحر من ورائنا وأمامنا وعن شمائلنا وأيماننا . . . ثم السماء من فوقنا . . . ثم شرع زفيروس [1] يهب ويهب ، ويقلب اللج من حولنا ، ثم اشـتد واشتد ، وصار ريحاً عاصفاً هوجاء ، كسرت قلاعنا وحطمت سكّـاننا ، وذهبت بقلب الربان المسكين فلم يعد له صبر ولا جلد ... ثم سلط علينا جوف صواعقه فقصمنا ، وحطم سفينتنا فترنحت أول الأمر ، ثم غاصت إلى الأعماق ،

(١) الأمعاء .
(٢) ريح الشواء .

(١) إله الصبا .


الرواية

وطفونا على سطح البحر الغاضب بلا أدنى أمل فى أى شىء بله العودة إلى بلادنا . . . ولقد كنت أرقب حطام الفلك يطفو معنا ويغوص ، حتى عن لى أن أعلق بالهراب القريب منى ، فطويت عليه قطعة من الشراع الممزق وجعلته لي تماماً لصقت به ، بينا نامت الشمال لسوء حظى ، وأخذت الجنوب تهب فى عنفوان وبأس ، وتدفعنى بقسوة وقوة حتى خيل لى أنها ستنتهى بى إلى عين خاربديس الحمئة ... يا للهول ! لقد مضى على ليل أيما ليل ... حتى إذا أشرقت ذكاء ، رأيتني ويا للأسف عند صخرة سكيللا ، وعلى مسافة من عين خاربديس . ولحسن حظى كانت اللعينة قد ابتلعت كل مياه الشاطئ ... ثم دفعتنى موجة من الأعماق فاستطعت أن أعلق بأحد أغصان التينة الهائلة النامية فوق صخرتها ، فبقيت لاصقاً به كالخفاش لا يمكننى أن أهبط أو أن أتسلق لعظم ما كانت الأغصان تبتعد من الأرض وتمتد من حولى ، ولأنها كانت تعرش من فوق خاربديس ، حتى كنت أرتعد من فزع وهلع عند ما كنت أبصر تحتى فأرى العين الحمئة الملعونة تبتلع الموجة إثر الموجة ؛ ثم رأيت الهراب وقطعة الشراع التى كنت عالقاً بهما ينقذفان نحوها ويكونان تحتى فطربت ولو أن هذا جاء متأخراً حتى ريع قلبي ووهنت قواي ؛ وغمرني شعور الذى انفرجت أزمته ، وكُشفت عنه غمته ، فهويت إلى الماء ، وتعلقت بهما بقبضتين مستميتتين ... ويلاه علىّ ! ! أواه ! لو لمحتنى سكيللا الهائلة طافياً هنالك ! إذن ما استطاع إنقاذي رب الأرباب نفسه من مخالبها وأنيابها !! ثم بقيت هكذا تسعة أيام بلياليها . . . يصرعنى البحر وأصرعه ، ويناضلنى الموج وأناضله ، حتى رثت الآلهة لحالي فساقتنى فى العاشر إلى أوجيجيا ، جزيرة عروس الماء كليپسو ، فرسوت ثمة فى ليلة ليلاء ، مظلمة طخياء . . . وقد نالنى من كرم العروس وجميل معروفها ما رد إلى قواي ، وأثابني عما لقيت من شقوة وأرزاء ...

ولكن لم هذا ؟ لقد تممت قصتى مع كليپسو من قبل ، إذ رويتها للملك ولزوجه أمس ، وإنى لأكره الحديث المعاد »

(تمت قصة أوديسيوس)

(يتبع) دريني خشبة

تصحيح

نأسف ونعتذر لأن أربعة أسطر فى صفحة ٩٠٢ من العدد الماضى وهي التي فى أول العمود الأيمن وضعت مكان أربعة الأسطر التى فى آخره فاختل السياق وضاع المعنى . وتصحيحها بالطبع أن تنقل الأسطر الأربعة التى فى آخر العمود إلى أوله ، وتنقل الأربعة التى أوله إلى آخره ، فيتصل الكلام

« طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧ »



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء ـــ القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد السادس عشر ١٠ رجب سنة ١٣٥٦ — ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣٧ السنة الاولى



فهرس العـــدد

على الحديدة

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

« كيف نطبخ ؟ »

فرفع عينه إليها فلم يرتح إلى نظرتها وهيئة وجهها ، وآثر السلامة فعاذ بالتجاهل وقال « إيه ؟ »

فصاحت به وهى متكئة على المائدة بيد ، ويدها الأخرى فى خصرها : « ألم تسمع ؟ إني أسألك كيف نطبخ وقد قطعت الشركة عنا الماء ؟ »

فقال وهو يتكلف التهوين من الأمر : « آه . . صحيح . . ألا يمكن أن نستغنى عن الحساء غداً ؟ »

قالت : « لا تمزح ! . . إنى أتكلم جادة »

فقال : « هل هناك أمل كبير فى الطبخ حتى تزعجى نفسك إلى هذا الحد ؟ »

قالت: « وغداً يقطع عنا تيار الكهرباء أيضاً »

فقال : «هذا أهون . . على كل حال . . يعزينا أن الانسان لا يمكن أن يجد فى الدنيا كل ما يشتهى»

فقالت وهي تهم بأن تمضي عنه : « هذه الفلسفة لن ترد إلينا الماء ولن تعيننا على احتمال هذا الكرب »

فقال : « اسمعى . . سأذهب وأملأ لك بعض الجرار والمواعين من الجيران »

فارتدت إليه وعينها تقدح شرراً وصاحت به : « إياك أن تفعل . . . الجيران ؟ أتريد أن يعرفوا ما نحن فيه من الضيق ؟ والله إن فعلت هذا . . »

فقال بسرعة : « لا لا لا ... إنما كان خاطراً.. لا لا لا ... لا تخافى لن أصنع شيئاً من هذا »

فمضت وهى تتلفت إليه وتهز إصبعها محذرة منذرة . ودفع يده فى جيبه بحكم العادة ثم أخرجها فارغة فتنهد ونهض إلى الباب وهو مطرق ، فقد كان هذا خامس يوم لم يدخن فيه سيجارة ولم يشرب فنجان قهوة . وخرج يستأنف البحث عن عمل ، وأكبر ظنه أنه سيرجع كما يرجع كل يوم بالخيبة المرة وإن كان لم يترك باباً إلا طرقه . ولو كان معه شيء من المال لغامر به فى تجارة ما . ولكن دخله كان قليلا وكان يكفيهما بفضل تدبير زوجته وحسن تصرفها

وإنه لماض وعينه على الدكاكين والمكاتب وإذا بسيارة فخمة تقف بجانبه ويناديه سائقها وصاحبها ، فالتفت فاذا صديق له ، فدعاه إلى الركوب فركب وهو يحمد الله فقد كانت قدماه قد ورمتا قليلا من كثرة المشى . وسأله الصديق : « كيف حالك ياسى أحمد ؟ »

فقال أحمد « بخير ولله الحمد »

فعاد يسأل : « لسنا نراك فى هذه الأيام فأين تختفى ؟ وماذا تصنع بنفسك ؟ »

فهرب أحمد من الجواب وقال : « لاشىء . . . كالعادة »

وبلغا بيت الصديق وكان شقة صغيرة فى حى جديد زاخر بالناس ودخلا ، والصديق ينظر إلى أحمد من طرف خفى ، ويتأمله ويجيل عينه فى ثيابه ،

وإن كان لاعيب فيها إلا أنها غير مكوية ، وصفق جميل — فقد كان هذا اسمه — فأقبلت خادمة شابة فقال لها : « إني ميت من الجوع ... فهاتي لي بسرعة شيئاً يؤكل »

وكان لا يكف عن التحديق في وجه أحمد فقد راعه اصفراره ثم سأله :

« هل كنت مريضاً ؟ »

فقال أحمد وهو يتكلف الاستخفاف : « لا . . أبداً . . تعب بس »

فسأله : « العمل كثير ؟ . . »

فزل لسان احمد وقال وهو يضحك « لا كثير ولا قليل » وأراد أن يتدارك الأمر فقال : « شيء بسيط على كل حال »

ففطن جميل إلى الحقيقة كلها وأدرك أن هذا اصفرار الجوع

وأعد الطعام فجلسا إلى المائدة ، ولم يكن جميل يموت من الجوع كما قال لخادمته فجعل همه أن يتكلم ، وأن يحث أحمد على الأكل ؛ وأقبل أحمد على الطعام في أول الأمر متعففاً يتناول بقدر ولكن الطبيعة غلبته ، فما ذاق طعاماً حسناً كهذا منذ أسبوعين ، فلم يعد يبالي أن يتكلف أو يتظاهر بالزهد . وكان ربما تذكر زوجته وهو يلتهم اللقم فيتمنى لو استطاع أن يحمل إليها بعض ما أمامه من الألوان . ولكن كيف يصنع ذلك ؛ ويحدث نفسه انها لو كانت خرجت معه لكانت الآن تأكل بلا حرج أو خجل . ولم يخطر لأحمد أن جميلا عرف حقيقة حاله . نعم زل لسانه بما يفيد أنه لاعمل له الآن ولكن هذا ليس معناه أنه هو وزوجته لايكادان يجدان الكفاف وأنهما يستعينان على العيش برهن أشياء مما في البيت حتى لم يبق إلا الفرش والأوعية والأدوات التي لايستغنى عنها ولا يجيء رهنها بشيء . وهذا كله لايعرفه — ولا يمكن أن يعرفه — جميل

وفرغا من الطعام فاضطجع أحمد في كرسيه ، وقد امتلأ ورضى عن الدنيا ، فناوله جميل سيجارة فأشعلها وراح يدخن مسروراً ، فدار رأسه وزاغ بصره ، كما هي العادة إذا انقطع المرء عن التدخين وقتاً ثم عاد إليه . ولمح جميل ذلك فهز رأسه آسفاً ، وعز عليه ماصار إليه أمر صديقه . وكان يعرف في احمد الاباء والعفة فاتقى أن يصارحه بشيء أو أن يلح عليه بالأسئلة لئلا يجرح إحساسه .

وقال جميل : « والآن . . ما قولك ؟ . . هل تريد أن تذهب إلى مكان معين فأحملك إليه ؟ »

فقال أحمد وقد شعر أن ليس في وسعه بعد هذه الأكلة الهنية أن يحفى قدميه بالمشي بحثاً عن عمل : « لا . سأرجع إلى البيت »

***

وعاد إلى بيته يمشي الهوينى ، وفي قلبه سكينة؛ وامتدت يده إلى جيبه — عفواً لا عمداً — فأحس شيئاً صلباً فيه ، فدهش وأخرجه فاذا هو علبة سجاير ! » فوقف مكانه ، وقد تفصد جبينه عرقا ، فقد كبر في ظنه أن يده لا بد أن تكون قد امتدت إلى هذه العلبة وتناولتها ودستها في جيبه وهو غير مدرك لما يصنع ! فوا خجلتاه ! وماذا عسى أن يقول جميل حين يفتقد علبته ؟ لن تأخذه حيرة في الاهتداء إلى الذى أخذها ومضى بها ، فما كان معه في البيت سواه ، وهذه الخادمة الصبية التي لا يعقل أن تكون من المدخنات ؛ ومهما كانت منهن فان جميلا ما كان يحتفظ بها لو أن يدها كانت طويلة ؛ ثم إن العهد بها قديم ، فلا وجه للاشتباه فيها . ولا نكران أن جميلا كريم عظيم المروءة ، ولكنه ليس من الكرم أن يكون المرء غرض اللصوص ؛ ولو أنه طلب منه العلبة لما تردد في تركها له ، فلاداعى للسطو ، ولكن كيف فعل هذا ؟ إنه لا يذكر أنه خطر له أن يأخذ العلبة ، بل لا يذكر أنه عنى بأن ينظر اليها ، وكل

مايئم كره أنه كان قرير العين جداً وهو يدخن السيجارة بعد أن زال عنه الدوار ، حتى الدوار الذى اعتراه لم يكن يخلو من لذة

والآن ماذا يصنع ؟ لم يتردد أحمد في أن الواجب هو أن يحتفظ بالسجاير ليردها إلى جميل متى سنحت له فرصة يزوره فيها ، وعليه أن يعجل بذلك ليمحو من نفس جميل ما عسى أن يكون قد دار فيها ، وبذلك يصبح الأمر مدعاة للضحك

وبلغ البيت وهو مبرم العزم على ذلك ، فألفى زوجته جالسة إلى المائدة وفى يدها قلم ، وأمامها ورقة عليها أرقام شتى ، فضحك وهو يقول :

« ما أغرب أن يغرى المفلسون بالحساب !! أم تراك وجدت رزقاً يا امرأة ؟ »

فقالت وهى متجهمة : « أقعد . أين أوراق الرهن ؟ »

فسألها : « ما حاجتك اليها ؟ »

قالت : « سبحان الله ! أريد أن أعرف حساب البيت على وجه الدقة »

قال : « أى بيت ؟؟ ما بقي من البيت لنا ، أم ما انتقل إلى ذلك المرابي ؟ »

قالت : « هات بس ! »

فدس يده فى جيبه فأخرج علبة السجاير ، ثم دسها مرة أخرى ليخرج الظرف الذى يحفظ فيه أوراق الرهن ، فلم يجد شيئاً ! فبهت واصفر وجهه وزاغت عيناه ؛ ورأت منه ذلك فسألته : « مالك »

قال : « مالى ؟ ضاع الورق ! »

قالت : « ياخبر أسود ! ضاعت أشيائى كلها ، ومصوغاتى جميعاً ! »

فنهض أحمد ، وجعل ينفض جيوبه واحداً واحداً بلا فائدة ، فانحط على كرسي وقد أيقن أن الظرف وقع منه حينما أخرج علبة السجاير ، وأخبرها بذلك ، وقال إنه سيرجع أدراجه لعله يعثر على الظرف حيث سقط ولا نحتاج أن نقول إنه لم يجد شيئاً !

***

ومضى يومان انقطع فى خلالهما تيار الكهرباء ، وازدادت الحالة سوءاً ، وكان شر ما فيها وأشقه على الزوجة أن لا ماء فى البيت ، وأن الالتجاء إلى جار أو غيره يفضى إلى الفضيحة وهتك السر ؛ ولم تكن تدرى أن ما تحرص على كتمانه معروف ، وأن الجيران لا يلغطون بشىء كلغطهم به ، وأن هذا أمتع ما تدور عليه أحاديثهم فى مجالسهم وسهراتهم ، وكانوا ينصفونها ويحمدون منها تعففها وتجلدها وتسترها ، ولكنها هى كانت لا تعرف هذا ، ولا يعنيها إلا أن من الواجب أن تستر هذه الخلة حتى تنفرج الأزمة وتتفتح أبواب الرزق . وكانت تنفق ما تحصل عليه من رهن أشيائها على الطعام ، وكان الأمر يحتاج إلى التقتير الشديد ، والحساب الدقيق ، لقلة ما تأخذه من المرابى الذى كان يعطيها القروش وكأنه يسكها من جلده . وقد نفد ما يسعها رهنه ، ولم يبق إلا الأثاث وما إليه ؛ وكان الجزع ينتابها حين تفكر فى أنها ستضطر أن تخرج هذه الأشياء فيراها الجيران ويعلمون إلى أين تذهب ؟؟ وإذا طالت بطالة أحمد أسابيع أخرى فلن يصبح من الميسور الاحتيال لتدبير أجرة البيت ، وحينئذ ماذا يكون المصير ، ولا صبر لأحد على مفلس ؟ ؟

ودخل الليل والرجل وامرأته جالسان ، ساهمين لا يتكلمان ، وإذا بباب الشقة يدق دقاً عنيفاً ، فذعرا وتبادلا نظرات الاستغراب . ومن ترى يكون الطارق فى هذا الوقت ؟ ؟ وماذا يبغى ؟ ؟ وماذا عسى أن يقدما إليه إن كان زائراً ؟

وتوالى الدق وتعالى ، فنهض أحمد وهو يقول لامرأته :

« ما العمل ؟ ليس عندنا نور . . . ولا جاز ولا شمع ... لا حول ولا قوة إلا بالله »

ولم تستطع المرأة أن تبقى لتواجه القادم ، كائناً من كان ، ولو كان أباها أو أخاها ، فقد كانت تكتم الأمر حتى عن أهلها ، فهربت إلى غرفة النوم ، وتركت أحمد يفتح الباب ويتصرف كما يلهمه الله .

وفتح أحمد الباب محاذراً وأطل بوجهه ليرى من القادم وإذا به يبصر جميلا وأربعة من جماعته — وهم جميعاً يعرفون أحمد — فارتد عن الباب مضطرباً ، وقد دار بنفسه أن هؤلاء آخر من كان يطيق أن يعرفوا حاله فإنهم من أهل الثراء ، ثم إنهم خمسة فماذا يصنع ؟

وألهمه الله أن يقول لجميل « جميل بك ؟ تفضل ! ولكن أرجو أن تلزموا السكينة ! الست متعبة وراقدة ؟ تفضلوا ... بيتكم ، ولكن في سكون من فضلكم ... واعذروني إذا لم أقدم لكم قهوة أو شيئاً ، فأني لا أعرف كيف أصنعها ... ولا مؤاخذة ؟ تفضلوا ... أهلا وسهلاً »

وارتاح وخلصت أنفاسه بعد أن قال ذلك ، وأحس أنه استطاع أن ينجو من الفضيحة ، وأنه ستر الحال على خير وجه وأبعثه على الرضى

ولكن أصحابه لم يلزموا السكينة ، ولم يحرصوا على راحة المريضة المزعومة ، فقد كانوا أعرف بالحقيقة من أن يصدقوا ذلك ، فدخلوا يغنون ، ووقف جميل في وسط « الصالة » يقول :

« أيها الأتباع المخلصون . . . ضعوا مامعكم ، ورتبوا السفرة ! » والتفت إلى أحمد وقال :

« تفضل بدعوة السيدة الكريمة فقد جئنا متطفلين لنتعشى على مائدتها ... ولن يطيب لنا طعام بغيرها »

وكان الأربعة قد شرعوا يعدون المائدة ويخرجون الأطباق ويضعونها عليها ، ويفكون الربطات التي يحملونها بعد أن أوقدوا شموعاً جاءوا بها معهم ، فخرج احمد والدمع يترقرق في عينيه وعاد بزوجته ذاهلة مرتبكة ، وكان كل شيء قد أعد ، فاستقبلها الجمع بالتحية والبشر ، وأجلسوها في الصدر ، وجلسوا هم كيفما اتفق ، وبدأ الأكل ...

***

ولكن شيء آخر .

نهض الخمسة ، عن كراسيهم ، وودعوا أحمد وزوجته ، وانصرفوا بمثل الضجة المرحة التي دخلوا بها ، وأغلق الباب ، فوقف الرجل وامرأته ينظران إلى المائدة التي تركها القوم مثقلة بما يكفي المدبر المقتصد بضعة أيام .

وشرع أحمد يرد الكراسي إلى مواضعها على حين كانت زوجته ترفع الطعام وإذا به يرى ظرفاً على كرسي فتناوله بيد مرتعشة وفتحه فقرأ فيه :

« غزاك إخوانك ، وكروا عليك هذه الكرة الباغتة لأنك أخفيت عنهم أمرك ، وحرمتهم أن يؤدوا لك بعض الواجب . ولا خير فيمن لا يعرف صديقه إلا في حال يسره واستغنائه ؟ وليس ذنبك أنك تبطلت أياماً أو أسابيع فان كل امرئ عرضة لذلك ، والدنيا مثل الخيارة . . .

غداً تستطيع أن تقابل مدير مصنع الزجاج ... ليكل إليك العمل الذي استطعنا أن نجده لك على عجل ، وهذه دفعة على الحساب ، تردها متى وكيف شئت .

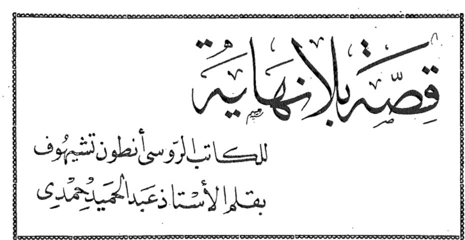
وسيعود الماء والنور غداً . . .

رئيس الرابطة : جميل

فسالت الدموع على خدي أحمد ودفع بالكتاب إلى زوجته ، في صمت ، وهم بالخروج فوقعت عينه على ربطة صغيرة في زاوية ، فوقف يتأملها هنيهة ثم مد يده إليها وفكها فاذا فيها كل ما كان مرهوناً عند المرابي !

في هذه اللحظة فقط أدرك أنه لم يسرق (سجائر) ولم يفقد أوراق الرهن . . . .

ابراهيم عبد القادر المازني



منذ سنوات عديدة ، وفى الساعة الثانية صباحا اندفعت طاهيتى إلى مكتبي — على غير انتظار — باهتة اللون مضطربة ، وخبرتنى أن السيدة ميمونيه العجوز ، مالكة البيت المجاور لبيتى جالسة فى المطبخ. وقالت الطاهية وهى تلهث :

« وهى ترجو يا سيدي أن تذهب إليها ، فقد أصاب السوء نزيل دارها ... فقد أطلق على نفسه الرصاص ، أو هو قد شنق نفسه »

فقلت :

« وماذا أستطيع أن أفعل .. فلتذهب إلى الطبيب أو إلى البوليس ! »

قالت الطاهية :

« وكيف تستطيع هى أن تبحث عن طبيب ! إنها لا تقدر على التنفس إلا فى عناء وجهد ، ولقد تجمعت منكمشة تحت الموقد . . فهى هالعة لا تملك أعصابها .. فمن الإحسان أن تذهب إليها يا سيدى »

فارتديت معطفى وقبعتى وقصدت إلى بيت السيدة ميمونيه . وكان الباب الخارجى الذى اتجهت إليه مفتوحاً ، فوقفت بجواره لحظة متردداً فيما أفعل ، ثم تخطيت عتبته داخلاً إلى فنائه غير باحث عن جرس البواب .. وفى الظلام تحت السقيفة المتهدمة وجدت الباب الداخلى غير موصد ، ففتحته ومررت إلى المدخل فلم أر أى بصيص من الضوء ، فقد كان الظلام حالكا . وفى ذلك الظلام شممت رائحة بخور يملأ الجو.

وبينا أتحسس طريقى للخروج من المدخل صدمت كوعى بشىء مصنوع من الحديد ، وتعثرت فى الظلام بمائدة لم أتبين نوعها فكادت تسقط على الأرض . واهتديت آخر الأمر إلى الباب المغطى بقماش من الصوف الخشن ، فاجتزته إلى ردهة صغيرة

وما أكتب الساعة قصة خيالية ؛ وأبعد ما أفكر فيه هو إثارة مخاوف القارىء ، ولكن الصورة التى وقع عليها نظرى وقد تخطيت عتبة الباب ، صورة شبحية لاتستطيع غير يد الموت رسمها . فلقد كان فى مواجهتى مباشرة باب يؤدى إلى غرفة انتظار صغيرة . وكان فى الغرفة ثلاث شمعات من النوع الرخيص موضوعة فى صف واحد ، تلقى ضوءاً ضئيلا على الجدران المغطاة بورق رصاصى باهت اللون . وفى وسط الغرفة مائدتان وضع عليهما نعش . على جانب رأسه شمعتان لايكاد يكفي ضوؤهما لإظهار معالم وجه أصفر قاتم نصف مفتوح الفم مدبب الأنف . وقد لفت الجثة بقماش من الموسلين فى غير نظام ، من الرأس إلى أطراف القدمين ، وقد برزت من بين هذا الكفن يدان صفراوان جامدتان قابضتان على صليبين من

الشمع . وكانت أركان الغرفة الصغيرة المظلمة القابضة للنفس ، والأياقين القائمة وراء النعش ، والنعش نفسه ، وفى الجملة كل شىء فى الغرفة ، غير بصيص الضوء الخفيف ، كان ساكناً سكون الموت ، كأنها القبر

فقلت فى نفسى وقد ألجمتنى هذه الصورة غير المنتظرة من صور الموت :

« ما أعجب هذا ! ولماذا هذه العجلة ؟ إن نزيل هذه الدار لم يكد ينتهى — على ماعلمت — من شنق نفسه أو من إطلاق الرصاص عليها . . وهذا نعشه قد أعد بالفعل ! »

والتفت حولى فرأيت إلى الشمال باباً نصفه من الزجاج ، ورأيت إلى اليمين مشجباً مائلاً علق عليه معطف رث من الفراء

وسمعت أنين إنسان يقول :

« المـاء . . . »

وجاء الأنين من جهة الشمال من وراء الباب الزجاجى ، ففتحت ذلك الباب ودخلت إلى الغرفة الصغيرة ذات النافذة الوحيدة التى تسرب من خلالها ضوء خفيف منبعث من مصباح الطريق

فقلت متسائلا :

« أيوجد أحد هنا ؟ »

ودون انتظار للجواب أشعلت عوداً من الثقاب وهاك ما رأيت على ضوئه : رأيت رجلا جالساً عند قدمى فوق الأرض الملطخة بالدماء . ولو أن خطوتى كانت أوسع لوطأته قدماى ؛ وكانت ساقاه ممدودتين إلى الأمام وكفاه تضغطان الأرض ، باذلاً بهذه الحركة جهده لرفع وجهه الجميل وقد غطاه شحوب وسط لحيته حالكة السواد ؛ وقد قرأت فى عينيه الكبيرتين اللتين رفعهما نحوى صورة معجزة الوصف من الفزع والألم والتوسل ؛ وكان العرق المتحدر من جبينه ، والمعنى البادي على وجهه ، وارتجاف يديه اللتين اتكأ عليهما ، وتنفسه الثقيل ، وأسنانه المتقلصة ؛ كان ذلك كله ناطقاً بأنه يعانى من الألم ما لا تحتمله القوة البشرية . ورأيت المسدس ملقى على مقربة منه وسط بركة من الدم

فلما انطفأ عود الثقاب سمعت صوتاً خافتاً ينادينى :

« لا تذهب ، وستجد شمعة فوق المائدة »

فأشعلت الشمعة ووقفت وسط الغرفة لا أدري ما أنا فاعل بعد . وقفت أنظر إلي الرجل الجالس على الأرض وقد خيل إلى أنى رأيته من قبل

وقال الرجل هامساً : الألم فوق ما أحتمل ... وليس بى من القوة ما يمكننى من إطلاق الرصاص على نفسى مرة أخرى . . وهذا عجز فى الارادة غير مفهوم ... »

فطرحت معطفى عن كتفى وانحنيت على الرجل الجريح أعنى بأمره ... فحملته كالطفل بين ساعدىّ وأرقدته على الصفة المغطاة بالجلد الأمريكى ، وخلعت عنه ملابسه فى عناية ورفق ، وقد ارتجف برداً عند ما عريته . ولكن الجرح الذى رأيته لم يكن ليتفق مع رجفته ولا مع الذي بدا على وجهه من معانى الألم . فقد كان جرحاً صغيراً ، وقد مرت الرصاصة بين الضلعين الخامس والسادس فى الجانب الأيسر فلم تزد على أن قطعت الجلد واللحم ، وقد وجدت الرصاصة نفسها مستقرة فى طيات بطانة سترته بالقرب من الجيب الخلفى . فوقفت النزيف بخير ما استطعت من الوسائل ، واصطنعت له ضمادة وقتية من قماش إحدى الوسائد ومنشفة ومنديلين

وقدمت له قدحاً من الماء ثم غطيته بمعطف الفرو المعلق على المشجب ، ولم ينبس أحدنا بكلمة واحدة فى أثناء هذه العملية . فقد مضيت فى عملى بينما هو راقد لا يتحرك ينظر إلي بعينين مسبلتين كأنما هو يشعر بالخجل من فشله فى الانتحار ومن التعب الذي سببه لى .

ولما انتهيت من تضميد جرحه قلت له :

« والآن أرجو أن تسكن فى مكانك فلا تتحرك ، حتي أذهب إلى الصيدلية فأحضر بعض الشيء »

فأمسك بكمى وفتح عينيه الواسعتين وقال :

« ليس ثمت ما يدعو إلى ذهابك »

وقرأت فى عينى الرجل معانى الفزع ، ولقد كان خائفاً من ذهابى ، ثم عاد يقول :

« نعم ليس هناك ما يدعو إلى ذهابك ، فابق هنا خمس دقائق أخرى . . أو عشراً . . إذا لم يكن فى ذلك ما يضايقك . أرجو يا سيدى أن تبقي إلى جانبي »

وكان وهو يرجونى يرتجف وأسنانه تصطك . فأجبته إلى ما أراد وجلست على حافة الصفة . ومرت عشر دقائق فى سكون تام ، فقد جلست صامتاً أنظر حولى إلى الغرفة التى جاء بي القدر إليها على غير انتظار . فياله من منظر ينم عن الفقر المدقع ! فهذا الرجل ذو الوجه النسائي الجميل واللحية الكثة المعنى بها ، لم يكن حوله من المتاع ما يمكن أن يحسده عليه أفقر العمال : صفة مغطاة بالجلد الأمريكى الممزق ، وكرسي رخيص قذر ، ومائدة مغطاة بقطع من الورق ، ولوحة قديمة معلقة على الجدار . . . هذا هو كل ما رأيت . أما جو الغرفة فكان رطباً قابضاً

وقال الجريح وعيناه مغمضتان :

« ما أشد الريح ! وما أقسى صفيرها ! »

فقلت :

« نعم إنها شديدة . . . والآن يخيل إلى أننى أعرفك » ألم يكن لك دور فى المرسحية الخاصة التى مثلت بدار الجنرال لوهاتشف فى السنة الماضية ؟ »

ففتح عينيه وسأل متعجلا :

« وماذا فى هذا ؟ »

وكأنما قد غشت عينيه سحابة قاتمة

فقلت :

— « إنى على التحقيق قد رأيتك هناك . أليس اسمك فاسيلييف ؟ »

— « إذا صح ذلك فماذا وراءه ؟ إنه لن يحسن من حالى أن تعرفنى »

— « لا ولكنه مجرد سؤال »

وأطبق فاسيلييف عينيه ، وكأنما هو قد امتعض فأدار وجهه إلي ظهر الصفة . وقال متمتما :

« لست أفهم معنى لهفتك . ولعلك تسألني بعد ذلك عن السبب الذى دفعنى إلى الانتحار ! »

وقبل أن تمضى دقيقة واحدة أدار وجهه إلى مرة أخرى وفتح عينيه وقال فى لهجة باكية :

« أرجو أن تغفر لي لهجتى . ولكنك ستقرنى على أننى مصيب ! فليس من الكرم أن تسأل محكوما عليه كيف دخل السجن ، ولا أن تسأل متنحراً لماذا أطلق الرصاص على نفسه . . . نعم ليس ذلك من الكرم ولا من الرقة . . . أن يشفي الانسان لهفته البليدة على حساب أعصاب إنسان آخر ! »

فقلت للرجل متلطفاً :

« ليس هناك ما يدعوك لأن تثير أعصابك ... فلم يخطر لي قط أن أسألك عن تصرفاتك »

« لقد أوشكت أن تسألني ... وهذا ما يعمله الناس دائماً ، ولو انه ليس هنــاك من فائدة فى السؤال . على انى لو أخبرتك لما صدقت أو لما فهمت ... ويجب أن أعترف انى أنا نفسى لا أفهم من الأمر شيئاً ... هناك عبارات تستعمل فى إدارة البوليس وفى الصحف مثل قولهم : « الفشل فى الحب » و « الفقر المدقع » ولــكن الأسباب غير معروفة . . . غير معروفة لى أنا وغير معروفة لك أو لإدارات الصحف حيث يتبجحون بأن يكتبوا « يوميات منتحر » والله وحده هو الذى يعرف حالة نفس الانسان الذى يقتل نفسه ، ولــكن الناس لا يعرفون شيئاً من ذلك »

فقلت :

« كل هذا حسن ، ولــكنك فى حالك هذه يجب أن تلزم السكون فلا تتكلم »

ولــكن لم يكن من الميسور أن أمنع جريحى من الــكلام ، فقد أسند رأسه إلى كفه ، ومضى فى الحديث بلهجة أستاذ عظيم فقال :

« لن يستطيع الانسان أبداً أن يفهم العوامل النفسية التى تحمل المنتحر على ارتكاب جريمتــه ! وكيف يستطيع الانسان أن يتكلم عن الأسباب ؟ فقد يدفعنى اليوم سبب من الأسباب إلى اختطاف مسدس وإطلاقه على نفسى ، بينما هذا السبب نفسه لا يحملني غداً على التضحية ببيضة فاسدة ، فالأمر كله متعلق فى الغالب بالحالة الخاصة التي يكون عليها الانسان فى اللحظة المعينة ... ولأضرب المثل بنفسى ؛ فمن نصف ساعة مضت كنت أرغب رغبة ملحة فى الموت . أما الآن وقد أشعلت الشمعة وأنت جالس إلى جانبي فانني لا أنــكر حتى في ساعة الموت ، فلتفسر لى هذا التغير إذا استطعت ! هل تحسنت أحوالى ؟ أم هل بعثت امرأتي من الموت فانتفضت ناهضة من نعشها الذى ترقد فيه على بضع خطوات من هذا المــكان ؟ أم ترى هو تأثير الضوء فى نفسى وحضور شخص غريب إلى جانبى ؟ »

فأجبت لمجرد أن أقول شيئاً :

« لا شك فى أن للضوء تأثيراً ؛ وتأثيره فى التركيب العضوى للانسان ... »

فقاطعنى بقوله :

« إننا نسلم بتأثير الضوء ... ولــكنك تعلم أن هناك أناساً ينتحرون على ضوء الشموع . ! وإنه ليكون من الشائن حقاً لأبطال رواياتك أن يستطيع شيء تافه كالشمعة تغيير مجرى مآسيهم مثل هذا التغيير المفاجئ ... وربما أمكن تفسير كل هذا السخف ، ولــكن لسنا نحن الذين نستطيع تفسيره ؛ ومن العبث أن يسأل الانسان أسئلة ما ، أو أن يقدم معلومات ما فيما لا يفهمه ... »

قلت :

« عفواً . . . ولــكننى أستطيع ، مما يبدو على وجهك ، أن أحكم بأنك فى هــذه الساعة . . . تصطنع ما تقول »

فاجفل فاسيلييف وقال :

« نعم هذا جائز جداً ! فإننى بطبيعتى « أبله مغرور » ! فيحسن أن تفسر لي ذلك إن كنت واثقاً بقوتك في قراءة الوجوه ! فمن نصف ساعة أطلقت

الرصاص على نفسي . . . وفى هـذه الساعة تراني أصطنع ما أقول . . فسر لي هذا إن استطعت . . »

نطق فاسيلييف بهذه الكلمات الأخيرة فى صوت خافت متداع ، فقد أنهكه التعب ، ثم رقد صامتاً . ومرت فترة سكون . فتدققت النظر فى وجهه ، وقد علته صفرة الموت ، وبدا لى كأنما شعلة الحياة قد انطفأت فى نفسه ، وأن مظاهر الألم الذى أحس به الرجل « الأبله المغرور » كانت هي وجـدها التى أظهرته فى صورة من لا يزال حياً . . وكان من المؤلم أن ينظر الانسان إلى هذا الوجه . . . ولـكن ما هو شأن فاسيلييف نفسه الذي مازال يحتفظ من القوة ما يمكنه من الجدل ، ومن الاصطناع إن لم أكن مخطئاً ؟ »

ورفع الفتى نفسه فجأة على مرفقه وقال :

« أنت هنا . . أما زلت إلى جانبي ؟ بالله ! أصغ إلى هذا ! »

فأصغيت وكان المطر ينهمر على النافذة المظلمة ولا ينقطع لحظة واحدة ، وكانت الريح تهب عنيفة مولولة ، ولقد سمعت السيدة ميمونيه تقرأ فى الغرفة المجاورة هذه الـكلمات فى صوت خافت متعب :

« وسأكون أشد بياضاً من الثلج وستسمع أذناي نغمات السرور والفرح » .

ولم تكن نبرات السيدة ميمونيه لترتفع أو تنخفض فهى تقرأ هذه الـكلمات الجافة على وتيرة واحدة مملة

وأدار فاسيلييف عينيه الجازعتين نحوى وقال هامساً :

« أليس ذلك مما يدعو إلى الانشراح ؟ ! يا لله ممـا يرى الانسان ومما يسمع ! ولو كان من الميسور أن نطبق هذا الهرج على قواعد الموسيقى لأمكن كما يقول هملت :

« أن نلعن الجاهل وأن نغمر حواس البصر والسمع بأسباب المتع »

وما كان أجدرنى عندئذ بأن أفهم هذا النوع من الموسيقى ! وكم كنت أستطيع أن أشعر بما فيه من جمال ! ولـكن قل لى فى أى ساعة نحن ؟ »

قلت :

« نحن الآن فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين »

قال :

« إذن لا يزال الصباح بعيداً . وفى الصباح تشيع الجنازة . وقد وضع لها برنامج لطيف ! وسيتبع الانسان النعش وسط الوحل والمطر . ولا يرى فى طريقه غير السماء الملبدة بالغيوم وغير المناظر الـكريهة وفتيان الدير والحانات النائية والوعول النافرة . . . وتغرق سراويل الانسان فى الطين إلى الركب . . . والشوارع التى لا نهاية لها . . ويمر الوقت فى بطء كأنه الأبدية . . . والرجال الغلاظ القلوب . . . وفى وسط الأحجار نجد حجراً . . ! »

وصمت لحظة ثم قال فجأة :

« هل مضى عليك وقت طويل منـذ رأيت الجنرال لوهاتشيف لآخر مرة ؟ »

« لم أره منذ الصيف »

« إنه مغرم بالتنقل ، ولـكنه عجوز ضئيل الجسم

ظريف . أوَ مازلت تكتب القصص ؟ »

« نعم أكتب قليلا »

فقال الرجل :

« آه ! أتذكر كيف كنت أمرح كالأخرق الأبله ، كالحمار الجامح فى تلك القطع التمثيلية عند ما كنت أتودد إلى زينا ؟ لقد كان ذلك سخفا منى ولكنه كان جميلا ، وكان فكها . . . وإن مجرد ذكراه لتبعث أنفاساً من الربيع .. والآن !ما أقسى تغير المنظر ! هاك موضوعا تكتب فيه ! ولكن لاتحاول أن تكتب « يوميات منتحر » فهذا فضلا عن خشونته تقليد لشيء سابق . فلنستخرج من هذا الموضوع شيئاً اجتماعياً فكها »

فقلت :

« أراك مرة أخرى . . . تصطنع ما تقول ، فليس فى موقفك هذا شيء فكه »

فاستوى فاسيلييف جالساً وقد ترقرق الدمع فى عينيه ، وبدا على وجهه الباهت معنى الحزن العميق وارتجف فكه وهو يقول :

« ليس فيه شيء مضحك ؟ تقول ليس فيه شيء مضحك ؟ »

ثم توقف لحظة عن الكلام وعاد يقول :

« إنك تضحك من غش الكتبة الغشاشين والزوجات الخائنات ، ولكنك لن تجد كاتباً غشاشاً ولا زوجة خادعة قد غشا إنسانا بمثل ماغشني القدر ! لقد خدعت بما لم يخدع بمثله قط أحد المودعين أموالهم المصارف أو أحد الأزواج المغفلين ! فلتتأمل إلى أى حد قد خدعني الحظ ! فلقد شهدت بعيني رأسك أنني في العام الماضى لم أكن أعرف ما أفعل بنفسى من فرط السعادة . والآن هأنذا أمام عينيك ... »

وغاص رأس فاسيلييف فى الوسادة وضحك ثم مضى يقول :

« ليس من الممكن أن يتصور الانسان ما هو أشد من هذا التغير حماقة وسخفاً . فالفصل الأول يحتوي على : الربيع والحب وشهر العسل ، شهر العسل حقاً . والفصل الثانى : البحث عن عمل ومكتب الرهون والشحوب والصيدلية . . والغوص غداً فى الأوحال فى الطريق إلى المقبرة »

ثم ضحك مرة أخرى . فشعرت بضيق شديد وصممت على الخروج من ذلك المكان . فقلت :

« أرجوك ثانية أن ترقد هادئاً وسأذهب إلى الصيدلية »

فلم يجبنى ، فارتديت معطفي وخرجت من الغرفة ، وعند اجتيازي الممر نظرت إلى النعش والسيدة ميمونيه تقرأ عليه . وحددت النظر عبثاً فلم أتمكن من أن أتعرف فى وجه زينا الأصفر القاتم ذلك الوجه الفتان المملوء حياة ، الذى رأيته فى اجتماع دار الجنرال لوهاتشيف

فقلت فى نفسى :

« طريق الانتقال . . »

وعلى هذا غادرت البيت غير ناس أن آخذ السدس معى ، وذهبت إلى الصيدلية . ولكن كان يجب ألا أذهب ، فقد وجدت ، بعد عودتي فاسيلييف راقداً فوق الصفة فى حال إغماء ، وقد

انتزعت الضمادات بعنف عن الجرح فانفتح وسال منه الدم من جديد، وقد أشرق الصباح قبل أن أتمكن من إفاقة الجريح ورد الصواب إليه، وكان يهذى فى أحلامه، مرتجفاً ينظر فى أرجاء الغرفة بعينين لاتبصران، حتى أقبل النهار وسمعنا صوت القسيس يتلو الصلاة مسرعاً على رأس الميتة

ولما ملئت غرفة فاسيلييف بالعجائز وفتيات الدير ونقل النعش من مكانه وحمل إلى الفناء الخارجى نصحت للفتى بأن يلزم البيت، ولكنه لم يستمع إلى نصحى على الرغم من ظلمة الجو وانهمار المطر ومما يعانى هو من ألم . وسار وراء النعش عارى الرأس صامتاً طوال الطريق إلى المقبرة، ولم يكن ليستطيع نقل قدم عن قدم إلا بجهد شديد، وكان ماببن فترة وأخرى يضغط جنبه الجريح بكف عصبية متقلصة؛ وكان المعنى المادى على وجهه يدل على فقدان الشعور . ولم يحدث، غير مرة واحدة عندما أيقظته من سباته بسؤال تافه، أن حول نظره عن الأرض والسور الداكن، فرأيت فى عينيه لحظة بريق الغضب الحزين

وقرأ على لوحة الارشاد كلمات :

« مل إلى اليمين » مكتوبة خطأ من ناحية الهجاء فقال :

« يالهم من جهلة أميين، فليأخذهم الشيطان ! »

ولقد صحبته من المقبرة إلى البيت

***

مضى عام واحد على هـذه الليلة، ولم يكد فاسيلييف يبلي النعلين اللتين غاص بهما فى الوحل وراء نعش امرأته

وفى هذه اللحظة التى أختتم فيها هذه القصة يجلس فاسيلييف فى غرفة استقبالى يعزف على البيانو ويرى السيدات كيف تغني الفتيات الريفيات أغاني الحب، والسيدات يضحكن مما يريهن، وهو أيضاً يضحك ممتعاً نفسه بما يحيط به من مظاهر السرور

وإنى لأدعوه للحضور إلى غرفة مكتبي، فيبدو عليه أثر الامتعاض لحرمانه ذلك الاجتماع الهنيء، ويقبل على فيقف أمامي وقفة الرجل الذي ليس لديه من الوقت مايضيعه فى حضرتى . وإنى لأعطيه هذه القصة وأسأله أن يقرأها . وإذ كان دائماً يتفضل بالخضوع لسلطاني فانه يتنهد تنهد القارئ الكسول ويجلس على كرسي كبير ثم يبدأ القراءة . فلا يلبث أن يقول وهو يبتسم :

« تباً لذلك كله .. يالها من أهوال ! »

ولكنه كلما أمعن في القراءة ازداد وجهه تجهماً، وأخيراً تحت تأثير الذكريات الموجعة يصفر لونه اصفراراً مروعاً، ويهم واقفاً ويستمر فى القراءة وهو واقف، حتى إذا انتهى من القراءة خطر فى الغرفة من ركن إلى ركن .

وإنى لأسأله :

« كيف تنتهى هذه القصة ؟ »

فيقول متسائلا بدوره :

« كيف تنتهى ؟ . . . . »

ثم ينظر إلى الغرفة، وإلى، وإلى نفسه ... فيرى رداءه الجديد المصنوع على أحدث طراز، ويسمع ضحكات السيدات فى الغرفة المجاورة و.. يرتمى على أحد الكراسي ويبدأ يضحك كما ضحك فى تلك الليلة ثم يقول:

« ألم أكن على حق عند ما قلت لك إن الأمر كله عبث ؟ يالله ! لقد كان على أن أحمل أثقالا تقصم ظهر الفيل، والشيطان يعلم مبلغ ماقاسيت من ألم.. وليس في الوجود من إنسان كان يستطيع أن يحتمل

من الآلام فوق ما احتملت فيما أظن ، فأين هى آثار ذلك كله ؟ إن الأمر ليدعو إلى الدهشة . لقد كدت أظن أن الأثر الذى تتركه الآلام القاسية في نفس الإنسان لا يمكن أن يمحى وتطمس معالمه وأنه لابد باق أبداً . ومع ذلك أرى هذا الأثر يبلى بأسهل مما يبلى النعلان الرخيصتان ، ولم يبق منه شيء ولو تافهاً ضئيلاً ، حتى ليخيل إلى أننى لم أتألم قط فى ذلك الحين ، بل لكأننى كنت أرقص رقصة المازوركا . إن كل مافى الوجود زائل ، وهذا الزوال نفسه عبث باطل ! وإنه لميدان واسع للروائى الاجتماعى ! فلتضع لقصتك ، ياصديقى ، خاتمة فكهة ! »

وهنا وصل إلى سمعى صوت السيدات القلقات ينادين على بطل قصتى :

« بيتور نيكولايفتش ، ألا تأتى فى الحال ؟ »

فيجيب الرجل « المغرور الأبله » وهو يسوى رباط رقبته :

« فى هذه الدقيقة »

ثم يتم حديثه معى فيقول :

« إن كل شىء عبث يدعو إلى الأسف ياصديقى . نعم عبث يدعو إلى الأسف ، ولكن ماذا يستطيع الانسان أن يفعل ؟ إن كل شىء زائل ، وإنى لأشكر — على كل حال — لأمنا الطبيعة عملها فى تحويل المادة . ولو أننا احتفظنا بذكرى موجعة لما يتتابنا من آلام الأسنان ومن جميع الأهوال التى لابد أن يقاسيها كل واحد منا ، ولو أن كل هذه الأمور كانت باقية أبدية لقضينا نحن الفانين المساكين أسوأ الأوقات فى هذه الحياة الزائلة »

وإنى لأنظر إلى وجهه الباسم فاذكر ما كانت تفيض به عيناه منذ عام من معانى اليأس والفزع عند ما كان ينظر إلى النافذة المظلمة . وإنى لأراه وهو يلبس دوره العادى فى تمثيل المحدث الذكي اللبق ، مستعداً لأن يعرض أمامي نظرياته البليدة كنظرية « تحويل المادة » وأذكر فى الوقت نفسه جلسته فى وسط بقع الدماء رافعاً إلىّ عينيه الذابلتين المتوسلتين.

واني لأسأل نفسى فى صوت عال :

« كيف تنتهي هذه القصة ؟ »

فيصفر فاسيلييف ويسوى رباط رقبته ويسير متجها إلى غرفة الاستقبال فأنظر إليه محنقاً . ولسبب ما آسف على ما شهدت من آلامه الماضية ، آسف على كل ما شعرت به أنا نفسى نحو ذلك الرجل فى تلك الليلة الفظيعة الهائلة وأنه ليخيل إلى كأننى قد فقدت شيئاً ...

عبد الحميد حمدى



فرغ الطبيب من الكشف على الزائر الخامس فى صباح ذلك اليوم ، ولبث ينتظر المريض السادس ، فدخلت سيدة مقنعة رشيقة القامة وسفرت عن وجه غاب جماله البهي خلف تجعدات الألم كوردة بيضاء سفا عليها عجاج الخمسين ، وقد بادرته هاتفة :

« الغوث أيها الطبيب ! »

فدنا منها وعلى وجهه ابتسامة تبعث الطمأنينة وسألها :—

« ما بك يا سيدتى ...؟ »

فارتمت على مقعد بين يديه وراحت تروى له قصة ذلك المرض الوبيل الذي فجأها لدى الصباح فاضطرها إلى أن تقصد إليه دون أن تتريث لحين أوبة زوجها من الوزارة . واستمع الطبيب إليها فى دهشة وحيرة وهو يحاول عبثاً أن يوفق بين ما يروى له ، وبين هيئة السيدة المتزوجة التى تنطق بالحشمة والصون

ثم أدى واجبه الدقيق بعناية فثبت لديه ما كان منه فى ريب واكفهر وجهه وهو يقول :—

« سيدتى ... إنه لأمر مؤثر ... لقد أصبت بمرض خبيث ... بمرض سرّى ... »

فانتفضت المرأة قائمة وجحظت عيناها من الهلع والذعر ، وقد ضاع ألمها المبرح فى تيار الخوف الجديد وصاحت به : « مرض سرّي ... ؟ »

« نعم ياسيدتى .. إنى أعنى ما أقول ، ولكن هدئى روعك واملكى زمام نفسك حتى لا تجر هذه الكارثة وراءها كوارث أخرى أشد إيلاما .. أقلت إنك متزوجة ..؟ »

فأحنت رأسها أن نعم وهي لا تدرى ؛ فاستطرد الطبيب قائلا :—

« وآسفاه ، إن الشهوات تعمى الرجال حتى المتزوجين منهم ! ومهما يكن من شيء فالواجب يحتم عليك أن تجابهى زوجك بالحقيقة ، وقد كان الواجب عليه أن يصونك من عواقب مغامراته . أما وقد وقع المحظور فلا محيد من تنبيهه واصطحابه إلىّ وإلا ذهبت محاولة علاجك سدى ... »

ولكن خرجت من المرأة صرخة مبحوحة وقالت بسرعة وهى تلهث :—

« كلا ... كلا ... لا يمكن أن يكون ذلك ... بادر إلى علاجى ودع أمر زوجى ... »

« ولكن ... »

« بالله لا تجادلنى ... لا ينبغي أن يعلم زوجى من الأمر شيئا . . أدّ واجبك وسينتهى الأمر إلى خير حال إن شاء الله ... »

فاستولت الدهشة على الطبيب وأنعم النظر فى الوجه القلق الذى طغت آلام نفسه على آلام جوارحه ، فطالع فيه الهلع والرعب والاثم ... يا للهول! أيمكن أن يكون مالم يقع له فى حسبان أبداً ...

أيمكن أن تكون هى الجانية على نفسها ، وربما على زوجها أيضاً ... ؟

وما من شك فى أن الزوج مهدد بخطر عظيم ، إن لم يكن أدركه بالفعل فهو على وشك أن يدركه ، وربما وقع فى متناول الأذى أطفال أبرياء يحبون ... فما العمل ؟ وكيف يتأتى له أن ينقذ هذه النفوس مما يوشك أن يحيق بها من غير أن يهتك ستر هذه المرأة الآثمة الهلعة المتألمة ... ؟

وأحاط به هم التبلبل والحيرة حتى ضاق صدره فحدّث نفسه : لماذا أزج بنفسى فى شئون الناس وآلامهم ..؟ إنى طبيب وما ينبغى لى أن أجاوز حدود مهنتي .. وبين يدي امرأة ملوثة فلأشرع فى معالجتها والأمر من بعد ذلك لله ...

واطمأنت نفسه إلى هذا الرأى وهم بمباشرة عمله، ولكن سرعان ما عاودته أفكاره وقسرته نفسه على مراجعة التفكير فى أمر هذه الأسرة المهدّدة فرأى أن يتخذ طريقاً وسطاً فقال :—

« سيدتى ... ينبغي أن تعلمى أن زوجك فى خطر عظيم ... وأن اخفاءك الأمر حيناً لن يمنع الحقيقة من الظهور »

فاختلجت عيناها كالزئبق المترجرج وقالت :—

« كم يقتضى العلاج من الزمن ... ؟ »

« أسبوعين على أقل تقدير ومع أكبر عناية »

« أواه ... إنه الدمار »

« فإصابة زوجك محتومة ... »

« من الميسور أن أدعى توعك المزاج هذه الفترة وأن أباعد ما بينى وبينه حتى أبرأ »

« فإن كان السيف قد سبق العذل ...؟ »

« أواه ياسيدى ... لا يمكن أن أنتحر مختارة ثم إن زوجى رجل مستقيم يصعب علىّ صكه بالحقيقة المروعة ... فدع الأمور تجرى على مشيئة الله ... فلعل الله حفظه من الأذى ؛ وعسى أن يجعل من بعد عسر يسرا »

وساد سكون عميق مؤلم ... وكأن المرأة تذكرت شيئاً فجأة فنظرت إلى الطبيب جزعة وسألته :

« سيدي ... هل يبقى هذا سراً مكتوماً ...؟ »

« طبعاً ... طبعاً ... اطمئنى إلى كل الاطمئنان ، فصدر الطبيب مقبرة للأسرار لا تنبش أبداً »

فتنهدت من قلب مقروح وقالت : —

« إذا فلنبدأ من الساعة ... وسأوالى الحضور إلى هنا كل صباح إلا يوم الجمعة ... ولأنتظر ماقدرلي »

ولما انتهى من عمله وهمت بالخروج استمهلها لحظة وجلس إلى مكتبه وسألها : —

« ما اسم السيدة ... ؟ »

فبدا على وجهها الرعب وسألت :—

« ولم هذا ... ؟ » فقال يطمئنها : —

« لا تخافى ولا تحزنى ... إنها تقاليد متبعة ... أنظرى إلى هذا الدفتر تجديه مزدحماً بأسماء المرضى وعناوينهم ... لا تخشى شيئاً واذكرى أني طبيب لا أكثر ولا أقل ... »

فقالت وهى تتنهد :—

« حرم محمد عباس أفندى مهندس بوزارة الأشغال »

***

وفى صباح اليوم الثانى جاءت السيدة وقد قالت للطبيب إن ما يبدو على وجه زوجها من الهدوء والصحة ينعش الأمل المحتضر فى صدرها »

فلما أن كان المساء دخل على الطبيب زائر جديد

فى الثلاثين ، مليح القسمات ، طويل القامة ، تسم وجهه آيات الذكاء والجسارة فحيا الطبيب قائلا :

« مساء الخير »

« مساء الخير »

فضحك ضحكة جهد نفسه أن تكون مرحة طبيعية ولكنها لم تستطع أن تخفى القلق المساور لنفسه وقال :—

« أصبت يا دكتور »

« بمه ... ؟ »

« بالذى يصاب به من يقصدونك »

« وآسفاه ! »

« أتأسف حقاً يا دكتور . . . أيرضيك أن يزدجر الناس عن الهوى وأن تخسر جمهور المترددين عليك ... ؟ »

« لا أظنك قد جئت إلى هنا لتتفلسف . . . اتبعني إلى هذه الحجرة . . . ولكن انتظر لحظة ، أرجو أن تملى علىّ الاسم الكريم »

محمد عباس ... أنا جارك يادكتور ... وإن شئت أن تعرف صناعتى فأنا مهندس بوزارة الأشغال

يا للمفاجأة ! كادت تفلت من بين شفتيه آهة دهشة وانزعاج ، وهمّ أن يرفع رأسه عن الدفتر بحالة عصبية تنم عما يضطرب فى صدره ، ولكنه ذكر تحرج الموقف واشتماله على ما يهدد بالويل ، فصر بأسنانه وأحنى رأسه حتى كاد يلمس الصفحة المبسوطة أمامه ليخفى معالم وجهه عن القاعد تجاهه

إذن هذا هو الزوج المنكوب ، وقد أصيب بما كانت تشفق زوجه عليه وعليها منه ... ترى كيف كان وقع البلاء على نفسيهما ... ؟ كيف اكتشف المرض وكيف تحسس مصدره ... ؟ وماذا جرّ ذلك على حياتهما الزوجية ... ؟ وأين ياترى المرأة الآن ... ؟ وكيف قرعتها الفضيحة وكيف تتجرع عواقبها ... ؟ ليته يعرف كل شىء ...

أما الآن فما عليه إلا أن يؤدى واجبه . وخطا بالفعل نحو الحجرة الداخلية ولكنه سمع المهندس يقول له بلهجة حزينة : —

« إني أخشى يادكتور أن تعقب هذا المرض مأساة أليمة »

فسأله وهو مايزال شارد اللب : —

« وله ؟ »

« لأنى زوج ... ورب أسرة »

فقطّب الطبيب جبينه وبدت عليه آيات الدهشة وفهم الرجل دهشته على غير حقيقتها فقال : —

« هكذا ترى أنه ليس العزاب فقط هم الذين يأثمون ... »

« أتعنى أن زوجك مهدّدة ... ؟ »

« طبيعى يادكتور ... إن موقفى غاية فى الحرج ... والذى يضاعف لى الآلام أنها سيدة طيبة لاتستحق أن تجزى هذا الجزاء السيء . . . فما العمل . . . ؟ »

ياعجبا ! . لقد وضح وبرح الخفاء كلا الزوجين آثم ، وكل منهما ينحى باللائمة على نفسه . وكاد يستسلم لتيار أفكاره لولا أن سمع الرجل يلح عليه فى السؤال ويكرر قائلاً : —

« ما العمل ياسيدى الطبيب ... »

فقال له : —

« بالحكمة تستطيع أن تصرف الأمور المعقدة إلى خير العواقب ، فحاول أن تصحبها إلىّ من غير أن تثير شكوكها »

فبدت على وجه الرجل الحيرة وقال وهو ذاهل عن نفسه : —

« أحاول »

وحدّث الطبيب نفسه بعد أن غاب المهندس عن ناظريه : ان الله يريد الخير بهذه المرأة . . . وكأن الأمور تسير وفق مشيئتها ، فسيأتى بها إلىّ وأكشف عليها وأعلنه باصابتها فيوقن فى نفسه أنها ضحيته دون سواه ، ويبرآن على يدىّ ويعود الرجل بزوجه رافعاً يديه حمداً لله وطلباً لغفرانه وهو يجهل أن زوجه فرطت فى حقه أضعاف ما فرط فى حقها . . . فيا لرحمة الله . . .

ولكن أليس من الظلم أن يغشى الله بستره خبيثة هذه المرأة الآثمة ... ؟

فيالحكمة الله ...

***

وحان موعد مجيء المرأة ولم تحضر فترجح لدى الطبيب مجيئها مع زوجها عند المساء ، ولكن المهندس أتى وحده وكان بادي التغير منكفئ الوجه ، مصفرّ اللون ، منطفيء البصر كأنه تقدم فى الكبر أعواماً فتوقع الطبيب مفاجأة وبلاء وسأله : —

« ما بك . . ؟ »

فهز رأسه بحزن وقال : —

« ماذا تحدّس . . ؟ »

« لعلك راودتها على المجيء فأبت وعصت ... »

« كان يهون ... »

« آه إذا قد انفضح أمرك ولم تتقن تمثيل دورك ... ونلت جزاءك على يديها ... »

فسها الرجل لحظة ثم قال بصوت تقطعه حشرجة اليأس : —

« يا بؤس هذه الدنيا ... »

فهز الطبيب كتفيه إستهانة وقال : —

« كثيراً ما أسمع هجاء مريراً يصب على رأس الدنيا ولكنى أعتقد أن الانسان هو الخالق الأول لهذه الآلام التى يتملص من تبعتها ويلقيها على عاتق الدنيا . . . »

« كما تشاء . . . اعلم ياسيدى الطبيب أنى فى الفترة القصيرة التي تغيبتها عنك أحدثث فى حياتى حدثاً هائلا ، فقد فصل الطلاق بيني وبين زوجي وحرمنى نور أطفالى حينا سأخاله دهراً مديداً . . .

ياللهول ... ترى ما الذى حدث ... ؟ وكيف حدث ... ؟ فان قلبه يهمس له بفحواه ولكنه لايدرى تفاصيله ولا يستطيع أن يرجم بما قلب منطق الحوادث وجعل عاليها سافلها ...

واستولت عليه الدهشة وباتت عيناه تلحان بالسؤال بأفصح مما يبين اللسان .. فقال المهندس: —

« إليك قصتى بكل إيجاز : غادرتك ليلة الأمس وقد صدقت نيتى على دعوة زوجى إلى زيارتك كى يطمئن قلبي ، ولكني كنت مضطرباً لا أدرى كيف أبدأ باقتراح الأمر عليها ولا علم لى ، إن أنا اقترحته بما أبرره به ، فاتخذت مكانى على مقربة منها بادى الهم والفكر ، وللحال لاحظت طواريء الهم والاضطراب ترحف عليها زحفاً ، فظننته صدى لاضطرابى وهمى واستجابة لها ، وتلبثت أنتظر أن تبدأ بسؤالى عما يساورنى فلم تفعل ، فضقت بالأمر ضيقاً استفزنى إلى طرح هذا السؤال (ألا تشكين من شيء ... ألا تحسين

بألم ما ... ؟) فحملقت فى وجهى بعينين هالعتين وقالت باضطراب : (كلا ... كلا ... والحمد لله) فتمالكت نفسى وقلت كاذباً (ألاحظ عليك هذه الأيام بعض الاصفرار والتغيير وقد رأيت أن أقترح عليك زيارة طبيب ... فما رأيك ..؟) فردّت بحدّة وبلهجة من يتحمس لدفع خطر مروع : (كلا . . كلا . . أنت واهم ولا لزوم لذلك ألبتة .. إننى أكره الأطباء ويهيج وساوسى الاستماع لنصائحهم) .

فطال طلابي وطال رفضها ، فالححت عليها فأصرت ، فرجوت وتوسلت فعندت وازدادت تشبثاً ؛ وعبثاً حاولت أن أثنيها عن رأيها حتي دهشت لاصرارها وضقت صدراً بها وبنفسى فاهتاجنى المرض والغضب وصحت بها بجنون جعلنى استهتر بكل شئ : (يجب أن تصغى إلىّ ... تعالى معي إلى الطبيب لأنى مصاب وأريد أن أعرف ...) ولم أتم كلامي لأنها انتفضت قائمة متصلبة كالأفعى المتوثبة للافتراس وجحظت عيناها ولم تتمالك نفسها فسرت فى جسدها رعشة شديدة فأدهشنى ذلك وسألت نفسى : مالها . . ؟ ، وهممت أن أعاود الكلام فى ملاطفة مصطنعة ولكنها قطعت علىّ الطريق بهزّة رأس عصبية ما زالت تكررها بعنف جنونى حتى تلبست صورتها هيئة غريبة تنذر بالويل ، فازدادت بى الحيرة وسألتها : (ما الذى يرعبك ؟ لم تخشين الطبيب ؟) فصاحت بصوت ملتو لا تكاد تميز نبراته : (الرحمة ... الرحمة ...) ولكن عاودنى الغضب بحالة لم تأذن للرحمة أن تأوى إلى مستقرها فى قلبي ، فخطوت نحوها أهدر غاضباً ساخطاً فصرخت : (محمد ... الرحمة ... الرحمة ... لقد كشف الله خبيئتى ... أنا الجانية على نفسي وعليك ... أنا أعرف أنك تعلم ذلك ولكنى أستحلفك بالله ألا تمسنى ... طلقنى ولكن لا تمسنى ...) ثم ارتمت بين قدمى مغمى عليها

مامعنى هذا ... لقد تسابقت الظنون إلى قلبى ، وانصبت الشكوك فى عقلى ، واكتظ بها رأسى فانصهر من الحرارة والالتهاب ، وخلت أن شعر رأسى يقف ويتصلب كشعر القنفذ .

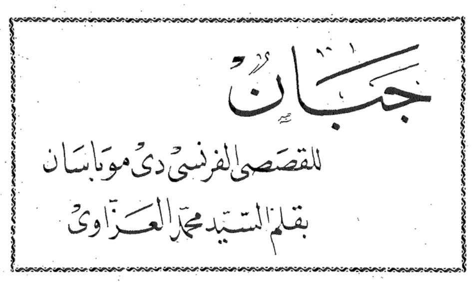
إن المرأة لتبهظ الرجل وتثقل كاهله وهى تؤمن بأنها لم تجاوز بعض حقوقها ، أما إذا اعترفت بأنها جانية وسألت الرحمة ووقعت مغشياً عليها فلن يكون ذلك إلا لأمر واحد .

يا عجباً ... فقد ذهبت جانياً آثماً فاذا بى مجنىّ عليه . رحت أكفر عن ذنبى فاذا بي ضحية تعسة ! ما ذا يمكن أن يفعل رجل فى مكانى ..؟

نعم لقد قارفت من الذنب ما قارفت ، وسقطت فى الهاوية التى ابتلعتها ، فهل من المستطاع أن أسدل ستاراً كثيفاً على تاريخ الاثم كله ؟ وأن أتحمل عقاب الله الصارم فى صبر ، وأروض نفسى على العفو والصفاء ... ؟

إنه حل روائي قد يستحسنه غيرى ويعطف عليه نفر غير قليل من الناس . أما أنا فقد انسقت مع طبيعتى وأصخت إلى صوت الغضب فى قلبي ، فهويت بالطلاق على رابطة الزوجية : فخرب بيتى وانتزعت الحضانة مني أطفالاً أعزة كانوا نور حياتى المشرق ؛ فسبحان الله أعدل الحاكمين ... »

نجيب محفوظ



كان المجتمع يكنّيه « بسنيول الجميل » . أما اسمه فكان الفيكونت جونتران جوزيف دي سنيول

وقد يسر له غناه ويتمه أن يعيش عيشة ضاحكة راضية ... كان له أسلوب وشخصية . وله في اللسان طلاقة توهم الناس بأنه على حظ من التوفيق عظيم . كانت له عزة وأنفة ، ووداعة يوحي بها طرفه العف ؛ وجرأة ينم بها شاربه الصغير . وداعته تكلف بها النساء ، وتعشق حسنه الغيد الحسان .

كانت « الأبهاء » تجد في طلبه ، والراقصات الغيد يقفون أثره ، وتنشدنه أني يجلس أو يرقص ، فكان بذلك يثير على شفاه الرجال بسمة طالما ترفرف عليها حين يمر بهم فتى جميل وسيم ، وبأفئدتهم تهماً بعلائق عدة ، لا تليق إلا بأعزب مثله على مثل حظه من غنى وجمال . كان يحيا باسماً حراً يضحي في نعيم وغبطة ، ويمسي في بلهنية وخلو بال ؛ وكان فوق ذلك مبارزاً جباراً طوق الآفاق سمعه ؛ يحارب بكل سلاح ، وبخاصة المسدس ، فهو به أشد على الغريم وأعتى . وكثيراً ما قال « إن كان لا بد من النزال فاني أخو الرصاص ، لأني به على خصمي قوي مكين »

وفي إحدى الأماسي اصطحب صديقتين إلى مسرح واصطحب معهما زوجيهما . وبعد أن انتهى التمثيل دعاهم إلى مشرب « تورتوني » ليتناولوا بعض مرطبات . ولم يلبثوا في المشرب إلا قليلاً حتى أخذ أحد الجلساء يحدق في وجه إحدى ضيفتيه بوقاحة وشره . وبدا على وجه الغادة قلق واضطراب فغضت من بصرها ، ونادت زوجها :

— إن هذا الرجل ليحدق في وجهي . وإني أجهله ، فهل تعرفه ؟

فصعّد الزوج الغافل فيه نظرة وأجالها . ثم قال : « كلا . فأنا لم أره يوماً . »

فقالت الزوجة باسمة ضجرة :

— ليس هذا بجميل ، فهو يكاد يلتهمني ويفسد عليّ ما آكل

فهز الزوج كتفيه ثم قال :

— إن كان علينا أن نهتم بمن نلقى من الأراذل فسوف لا نسر ولا نهدأ ، لا تراعي ولا تلقي له بالاً ...

ولكن سنيول لم يستطع على هذا صبراً ، فما يهون عليه أن يضايقهم دخيل غريب وما اعتاد أن ترى إهانة في وجهه عمداً وإصراراً ، إن الغريب يضايقه هو لا هي لأنه المضيف ، إذن فالاهانة تلحقه دون سواه ، فوثب إلى الرجل قائلا :

— أيها السيد ! إنك تحدق فيهما بعين لا تدرك

المذوق معنًى ، وإنى لا أطيق عليك صبراً ، فلطف من شراهتك ، واغضض من بصرك !

فما لبث الأجنبى أن قال :

— ألا فاذهب إلى الشيطان !

فزمجر الفيكونت :

— حذار أيها السيد ! وإلا فأنت دافعي إلى أن أتعدى حدود الأدب

ولم يجب السيد إلا بكلمة هازلة ماجنة ، ردد المشرب صداها ، وجعلت كل فرد يثب وثوبا ، فاستدار من ولاهما ظهره ، واشرأبت رؤوس النازلين واستوقفت ثلاثة خدم ، ثم جعلت سيدتين تثبان عن متكأيهما كأنما لولبان واثبان

وأعقب ذاك سكون عميق ، شقه صوت حاد ، إذ صفع الفيكونت الرجل يبلغه دعوة المبارزة ... وتدخل الناس فى الأمر ، وتبادل الطرفان بطاقتين

وما عاد الفيكونت إلى بيته حتى جد فى ذرع الأرض جيئة وذهابا . لم يكن يفكر فى أمر على حدة لأنه كان مضطربا ... ولكن ثمة فكرة كانت تحوم على ذهنه وهى « المبارزة ! المبارزة » ولم تثر الفكرة شيئاً فى نفسه ، فقد ألفها وأحبها . حقاً إنه عمل ما حق أن يعمل ؛ وقد ظهر بما يجب أن يظهر به فيكونت عظيم . سوف يتحدث النـاس عنه ، ويؤيدون سلوكه وفعله ، ثم يلقونه فرحين مهنئين ... وصاح محدثاً نفسه ككل من ضاق صدره ، وشغل ذهنه بأمره :

— أى وحش كان الرجل !

ثم جلس وطفق يقدر ويفكر ... إذن لا بد له من اختيار وكيلين مع الصبح ، فمن يختار ؟ ومن ينتقى ؟ لقد فكر فى أصدقائه الذين ينعمون بين الناس بسمْع كريم . فاصطفى من بينهم « بوردين » القائد والمركيز دى لاتوار نوار . لقد انتقى قائداً وشريفاً . إن هذا لعظيم ! ولسوف تقع أسماؤهما فى الصحف موقعاً ما أجمله وأحسنه ... وأحس بأنه ظمآن ، فشرب من المـاء شرب الهيم ؛ ثم تابع الذرع والتفكير ... وأنس من نفسه بطشاً وقوة . فلو أنه تعاظم واشتط كأن يبدي رغبته فى إبلاغ الأمر نهايته ، ويطلب شروطاً صارمة قاسية ؛ أو يصر على نزال عنيف ، إذن لتخاذل غريمه ولرد البطاقة ثم اعتذر

واختطف البطاقة — بعد أن جذبها من جيبه ورماها على النضد — فقرأها مثلما قرأها فى المشرب أول مرة ، وكما قرأها في العربة حين العودة مرة أخرى ؛ ومثلما قرأها على ضوء كل مصباح منير :

« چورج لاميل ، ٥١ شارع مونسى »

وعاد يمتحن الحروف ؛ لقد تراءت له غريبة غامضة فى ثناياها معنى مبهم أجوف ! چورج لاميل ! من هو ؟ وماهى حرفته ؟ وما كان يبغي من التحديق فى الغادة ؟ وأعاد سنيول تعجبه « أى وحش ! »

إنه الآن يقف جامداً كالصنم لا تسمع له نأمة ، ولا يختلج له عضل ، وعيناه مثبتتان على البطاقة ... إنه يفكر ... وتمكن من قياده غضب جموح ، وقلق عظيم .. أى جنون قد أتاه وأى فعل قدمه ؟ وتمكن منه كره للبطاقة وصاحبها ، فأمسك بمدية ماضية وقدّ

بها البطاقة فى صميم الذى تحمل ، كأنما هو يطعن غريما

إذن فلابد لى أخيراً من نزال ؟ ! أأختار الرصاص أم السيف ؟

إذن فقد اعتبر نفسه الطرف المهان . إنه يخاطر إذا ما اختار السيف . ولكنه موقن بانسحاب غريمه إن كان الرصاص . إن مبارزة بالسيوف قلما كانت شافية حاسمة . إذ فى مقدور المتنازلين أن يتحاشيا الطعنات القاتلة بشىء من حذر وسرعة ، ولكن الرصاص كان على الغريمين بلاء . فهو رهان بالحياة والأمانى جميعاً . فغالب أو مغلوب ، وإن كنت الثانى فبئست الوكسة وسوء المآب ، أو الأول فثمّ نصر وفخار

— لأكن حازماً جباراً ، كي يخاف ويخشى .

ولكنه ارتجف إذ سمع صوتا من حوله . فالتفت عن يمين ويسار . لقد استشعر خوفاً وهلعاً . فاجترع كوباً من ماء ؛ وطفق يخلع رداءه متأهباً للنوم . ووثب إلى السرير ، فأطفأ المصباح ، فأغمض أجفانه ، وراح فى فكر عميق

— إن لدى طول الغد أرتب فيه شأنى فلأنم الآن حتى أصبح قوياً نشيطاً

وآنس الدفء بين طوايا الفراش الوثير . ولكنه ما استطاع أن يهجع قليلاً أو كثيراً ، إذ كان يتثنى ويتقلب ، فينام على ظهره فترة ، وينقلب إلى عطفه الأيمن ؛ فلا يلبث إلا رد الطرف حتى يفزع إلى الأيسر . ولج به العطش فقام يشرب . وإذ ذاك طرقته فكرة متعبة :

— أيمكن أن أكون خائفاً ؟

لم يقفز قلبه هلعاً من أى صوت ينبعث ؟ حتى من صوت الساعة إذا حان دقها ... كانت حالة سيئة بائسة ... وبدأ يحاور نفسه فى ذلك الأمر : أصحيح أن بى خوفاً وفزعاً ؟ كلا ! إنه ليس بخائف ولا مخلوع القلب . فما عهده بقلبه إلا شجاعاً لا يخاف ولا يوجل ولكن ماله يحس بقلق مغير ؟ أيمكن أن يخاف المرء رغماً عنه وقهراً ؟

وتمكن هذا الشك من نفسه ، وانصب هذا الريب فى قلبه . ماذا يحدث لو غلبته على أمره قوة قاهرة أشد منه صلابة ومراساً ؟ نعم ماذا يحدث ؟

لا مناص له من النزال ولا محيص ؛ ذلك بأنه هو الذى رغب النزال وأكده . لنفرض أن يده ترددت فاهتزت . أو لنفرض أنه راح فى نوبة إغماء . أى بؤس إذن وأى شقاء ! أي ذكر يطيح وأى مجد يزول !

ولجت به إحدى الفكر أن يرى وجهه فى المرآة فلباها ، ووقف لدى المرآة ثم أضاء المصباح ، فأنكر خياله ؛ إذ يرى شخصاً غريباً لا عهد له به ، أشعث الشعر مرتعد الشفاه . أصفر الوجه كثير الغضون

وطرقته وهو أمام المرآة — فجاءة — فكرة عصفت به عصف الريح العاتية :

— ربما كنت قتيلاً فى مثل هذا الوقت من بعد غد !

واختلج قلبه لذلك حينا وجفل ...

— ماذا ؟ ربما كنت فى مثل الساعة من بعد غد قتيلاً ! ! ذلك الخيال ! خيالي الذى أرى ... ماثلاً بين يدي ... بعد حين لا يكون ! ! أأقف هنا —

أمام المرآة — موقناً بحياتي ووجودي وبعد أربع وعشرين ساعة أكون منطرحاً على الفراش قتيلاً ؟ جثة باردة لاحياة فيّ ولا حراك ؟ ! وتبقى عيناي مسبلتين أبداً لاتنفرجان لترى الدنيا وبهجتها ! ؟

والتفت إلى السرير ، وتصور نفسه وهو على الفراش مسجى ، يضمه السرير وتحضنه الأغطية . ثم عاود النظر في المرآة . فألفى خدّيه يغوران كما غارت خدود الموتى ، ويديه معروقتين لاتلبثان على حال

وشعر حينذاك بخوف من السرير شديد . ودّ لو لم ير السرير من قبل أو يذق به طعم الكرى . ثم دخل حجرة التدخين كيلا يبصره وأشعل لنفسه سيجاراً دون وعى منه ، وجد في ذرع البساط مراراً . لقد كان بارد الأعطاف مختل القوى ، فسار نحو الجرس ليوقظ خادمه ولكنه امتنع في نصف المسافة قائلاً :

— سيدرك خوفي ذلك الخادم

ولم يقرع الجرس ، بل أضرم لنفسه النار بيده وكانت يداه ترتجف إذ هي تلمس الأشياء جميعاً ، كم عصفت برأسه العواصف ! وتلونت أفكاره الوجلى بلون الحزن والسواد ، بل رانت على فؤاده غشية كأنها غشية المخمور ... وكان يسائل نفسه بلا انقطاع :

— والآن ماذا أفعل ؟ والآن ماذا أفعل ؟

وارتعدت لذاك فرائصه ، وارتهكت مفاصله فانتفض وعدا نحو النافذة فأزاح عنها الستائر والحجب . لقد تنفس الفجر ، وأشرق يوم جميل صائف ... كانت السماء الدامية تعكس على الأفق والمنازل لونها الذهبي فتكسب الجو جمالاً ورقة وأرسلت ذكاء فوجا من نورها يحضن الكون ، ويهبه فيضا من يقظة وحياة ، وأرسل إلى الفيكونت التعس قبساً من أمل ... أهو مجنون حتى يبيح للخوف أن ينصب في قلبه ويفسد عليه نفسه وهو بعد لايدرى هل قابل وكيلاه وكيلي چورچ لاميل فكتب عليهما القتال ، أم يجد الله له من كل ذلك مخرجاً ؟

وأخيراً قام، فارتدى ثيابه ، فترك الدار بعزم جديد وكثيراً ماردد في نفسه أثناء سيره :

— عليّ أن أكون حازماً ... حازماً جهد الحزم ! لأثبتن إني على البلاء قوى مكين ...

وجاءه وكيلاه، فلما سلما جلسا يبحثان الشروط فقال القائد :

— أتود أن يكون النزال صارماً ؟

— صارماً جباراً

— وما زلت تصر على الرصاص ؟

— نعم !

— أتدعنا نرتب لك باقي الأمر ؟

فأجابه الفيكونت في صوت جاف خفيض :

— عشرون خطوة ... إطلاق الرصاص لدى الاشارة ... رفع الذراع بدلا من خفضه ... تبادل الطلقات حتى يجرح أحدنا جرحاً بليغاً ...

— شروط جيدة ... وإنك لمن خير الرماة ؛ وإنك لعلى حظ عظيم .

ولما افترقوا عاد سنيول إلى بيته مرة أخرى : وكانت حاله تزداد سوءاً كل حين . فقد كان يستشعر رعْدة تتمشى في ساقيه وزنديه وفي صدره . ولم يكن يستريح إلى جلوس أو رقاد . وكان يدير لسانه في شدقيه من حين لآخر ثم يمر به سريعاً

على شفتيه ليزيل ما علاها من زبد الخوف والوجل
وقد حاول أن يفطر فلم يستسغ طعما . وسنح له أن يشرب ليجدد قواه الخائرة ، فاجترع ستة من الأكواب الصغيرة بعضها يكسع بعضاً فأنس الدفء فى جسمه وصفت روحه

— هذا حسن ! لقد عثرت على الطريق !

ولكنه أفرغ الزجاجة فيما يقرب من الساعة ، وحاله لا تهدأ ولم يقر بها قرار ؛ وأحس برغبة جامحة تلح عليه أن يتمرغ فى الأرض ويعضها ثم يبكى !!

وطوى الليل النهار

ودق وكيلاه الجرس ، وكانت دقة الجرس هذه كفيلة بأن تثبته على السرير هلوعاً جزوعاً لا يستطيع حراكا ولا قولا ، فلم يقدر على السلام ولا التحية ، بل لم يجرؤ ،خشية أن يعرفوا من رجفة الصوت حاله ، وقال القائد :

— لقد تم كل شىء حسبما تريد وترتضى فقد كان غريمك يقول بأنه الطرف المهان

ولكن سرعان ما أقلع عن هذا ورضى الشروط القاسية ! ووكيلاه رجلان من رجال الجيش

— شكراً لكما

واعتذر المركيز قائلا : « أتسمح لنا بالخروج لنرتب الأمور الباقية، فلا يزال أمامنا أن نأتى بطبيب، فأنت تعلم أن الرصاص ليس من الأمور الهينة ،وأن نبحث عن حومة النزال متوخين فيها القرب من البيوت العامرة ، ليتسنى لنا نقل الجريح لو دعت الحال»

ونجح الفيكونت فى أن يقول مرة أخرى : « شكراً لكما »

وعاد القائد يسأله :

— أأنت على ما تحب من الهدوء ؟

— نعم ! أشكرك !

وانسحب الرجلان على الأثر

ولما جنه السكون مرة أخرى ظن أنه مجنون ... وأخيراً جلس إلى مكتبه يخط بعض الرسائل ، وادكر فهم يخط وصية فلم يزد على قوله: « ألا إن تلك رغبتى ... » حتى قفز عن المكتب مؤمناً بأنه لا يقوى على ربط فكرتين معاً ، ولا يستطيع تقرير شىء مهما صغر ، أو الاجابة على سؤال مهما قل

إذن فلا مناص له من النزال . لقد أضحى اجتنابه فوت يده ... إنه يريد النزال مصراً عليه ، ولكنه يعلم بأنه على رغم جهود ذهنه وعزم إرادته لن يستطيع أن يحتفظ بقواه الكاملة ؛ أو حتى بقواه التى تحمله إلى حومة النزال ... وحاول أن يتصور المبارزة وكيف يدخلها فيؤديها فيخرج منها . أيخرج جريحاً طريحاً أم يخرج سليما نخوراً ؟ ... وكانت أسنانه تصطك من حين لآخر ... وأراد القراءة فأمسك بقانون شاتو فيللار المدنى ولكنه عاد يسائل نفسه :

— أغشى غريمى حلبات النزال كثيراً ؟ وهل هو معروف؟ ومن أى الطبقات هو ؟ من لى بكل هذا ؟

وادكر إذ ذاك كتاب البارون دى فوكس عن مشاهير الرماة . أتى به وتصفحه ورقة ورقة ولم يكن به اسم ذلك الچورچ لاميل . على أنه لو لم يكن من خير الرماة لما قبل الشروط القاسية ، ووافق على السلاح الخطر . وكان بقرب المكتب فأخرج من درجه مسدسه الكبير ، ورفع يده كمن يسدده إلى هدف بعيد ، ولكنه كان يرتجف من فرعه لأخمص قدمه . لو استمر على تلك الحال لخسر الدنيا والآخرة فلا هو منصور ولا هو خالد ! وقال فى نفسه : « إن هذا مستحيل ! لا أستطيع النزال » وأمسك بالمسدس يفحصه ويخبره ... حدق ملياً فى فوهته العميقة تلك التى تقذف الموت الأحمر لمن يريد ومن

لا يريد ... وازدحمت حينذاك برأسه الأفكار ... فكر في عاره إذا غلب على أمره فهو جريح أو قتيل ... فكر في لغط النوادي وهمس الصحاب وغمز العيون. وفي سخرية الصالونات ... وفي بسمات الهزء ايماءة الرؤوس ... وطفق يصور ما سوف يجسر على قوله الجبناء ... وماسوف تكتبه الصحف ... وما سوف تقوله الغيد الحسان ...

وظل محدقاً في فوهة السلاح مدة. ثم دفع «سلم الأمان» إلى الأمام استعداداً للعمل، ولم يكن يرى ضرورة لحشوه؛ فقد كان موقناً بأن ما به من الرصاص يكفي

وأحس بفرح مضطرب يغمره ويغمر فؤاده الرعديد ...

حقاً إنه لو أفلح في فرض الرهبة على قلب الغريم فقد فاز فوزاً عظيما. وإلا فقد ضاع ضياعاً مبيناً. ذلك بأن الهزؤ يلاحقه، والنوادي تلفظه، والمحافل ترفضه، والغواني تبغضه ... كان يحس بكل ذلك، ولكنه لم يكن يملك لنفسه من غريها شيئاً. ومع ذلك فقد كان نبيلاً شجاعاً لأنه يريد النزال ويطلبه. لقد كان نبيلا شجاعا لأنه ...

لم تكن تلك الفكرة التي استولت على ذهنه لتكمل ... ففغر فاه، وصوب بفوهة السلاح إلى فيه، ثم ضغط على الزناد فخر قتيلاً يتشحط في الدماء القانية

وأهرع خادمه إليه حين سمع الدوي فألفاه لدى الباب قتيلا، وألفى الدم قد سال منه على ورقة فوق النضد. لقد كانت بيضاء كتب بأعلاها:

« ألا إن تلك رغبتي ... ... »

سيد محمد العزاوي

فاوست

للكاتب الروسى تشيركوف

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

استيقظ كل من فى الدار وإيفان ميها لوفتش فى فراشه لايجد القوة على النهوض ، فيتكئ على وسادة ينفث دخان سجائره وفى نفسه القلق والاضطراب لأنه لا يشعر بالرضا ولا يحس فى نفسه بالقناعة ؛ فهوقد برم بحياة تدفعه دائماً إلى أن يسرع فى كل ما يعمل صباحاً : فى ارتداء ملابسه وترتيب شعره وتناول طعام الافطار ؛ ليطير إلى عمله فى المصرف ...

لقد سمع إيفان — وهو فى مكانه — زوجته تأمر ابنه : « إذهب فأيقظ أباك ! » واندفع الطفل إلى أبيه : « أبى ، ألا زلت نائماً ؟ » فأجاب الأب فى غلظة وجفاء : « لا ، لا ! »

وعلى المائدة جلس إيفان وقد غمره الكسل والفتور ، وأثقلته أفكار سوداء تضطرب في خياله فما استطاع أن يقول شيئاً ولا أن ينظر إلى أحد ؛ فراحت المرأة ترمقه فى أسى وحسرة وهي تقول لنفسها : « لعله خسر كل ما معه فى النديّ فهو لا يجد مالا ! »

لقد دأب إيفان على أن ينطلق إلى عمله فى العاشرة من كل صباح ويعود فى الرابعة مساء ، وقد أنهكه العمل وأضناه الجوع ، فيجلس إلى غدائه يلتهمه فى شراهة ونهم ؛ ثم يدلف إلى حجرة الطالعة فيستلقى على أريكة هناك ويذهب فى سبات عميق يغط غطيطا يزعج الأطفال ويبعث فى نفوسهم الرعب ؛ وكانت المربية تتخذ من هذا الصوت المنكر أداة تخيف بها الأطفال وتضطرهم أن يركنوا إلى الهدوء والسكون إن هم صاحوا أو تشاجروا ، فتقول لهم : « أفتسمعون صوت الدب النائم فى الحجرة سأغريه بكم إن لم تمسكوا ... » ويهب الرجل في الثامنة فيصيح بصوته الأجش : « لماذا لم توقظونى؟ » فتجيب الزوجة في خضوع : « لقد فعلنا مرات ومرات فما زدت على أن قلت : نعم ، نعم ! » ثم هو يجلس إلى نضد يقرأ صحيفته وزوجته كزينيا باڤلوڤنا تصب الشاى ، وأمها ماريا بيتروڤنا فى الناحية الأخرى من النضد تداعب طفلا ، وقد هدأ المكان إلا من بعض أوامر يقذف بها الرجل فى وجه زوجته السكينة ... ثم ينطلق إلى الندى يلعب الورق فلا يعود إلا فى الثانية بعد نصف الليل ، وقد نام الجميع سوى حماته ماريا تنتظره لدى الباب فتحييه تحية جافة تشيع فى جنباتها أنات الألم والحزن ...

ما كانت الزوجة لتنتظر زوجها ، وما كانت تألم لغطيطه ، ولا تأسى على غيبته ، أما الحماة فكانت لاتستطيع أن تكتم بعض ما يؤلمها من شذوذ الرجل وقسوته فتندفع إلى الزوجة تُسرّ إليها بحديث تنفّس به عن نفسها : « حقاً ، إنه زوج ظريف ؛ إن كل

ما تستمتعين به منه هو قميصه المعلق على المشجب ! »
فتصرخ الزوجة فى وجهها في غضب وغيظ : « لا يا أماه ، هـذا هو دأب كل زوج ... ! » ثم تدلف إلى حجرة الاستقبال وهى تترنم :

من وراء الأفق أرض جميلة ...

* * *

اعتاد إيفان وزوجته وأمها أن يستقبلوا الزائرين مرتين كل شهر ؛ وهم جماعة قضوا أعمارهم فى مناصب الحكومة ، فى هدوء الدواوين ، وخمود الوظيفة ؛ لم تصقلهم الحياة ولا حنكتهم التجارب ففيهم الغباء وفيهم الركود ... فكانوا يجلسون إلى إيفان وزوجته يتحدثون عن حياتهم المنزلية ، وعن أطفالهم ، ثم عن الجو ؛ ومازيا تعد الشاي والمربى والكعك ... ثم يتدافعون — وقد شربوا الشاى — إلى المائدة الخضراء يلعبون الورق ويدخنون ريثما تهيء الزوجة وأمها طعام العشاء ، والخمود يستولى عليهم رويداً رويداً ... ثم ينطلقون جميعاً إلى الطعام والشراب فى صخب ولجب ، وقد استخفهم الطرب ، ودب فيهم النشاط والمرح ، فيجلس إليهم إيفان يقص قصة زواجه من كزينيا وقد عبثت برأسه الخمر « لقد أحب كل منا صاحبه حباً يكاد ينشق له القلب وأنا ما أزال — حتى الساعة — أذكر لقاءنا فى حديقتهم الجميلة فى ضوء القمر ، فنجلس ساعات فى كن هناك ، وقد نامت عين الرقيب والواشى . لقد كان قلبى يدق دقات عنيفة متوالية ... » وكزينيا على خطوة منه يتصاعد دم الخجل إلى وجنتيها وتشير إليه بطرف العين أن أمسك ، وهو يغضى لا يعنيه ما يبدو على وجهها من سمات الألم والحياء ...

ثم ... ثم ينتهى العشاء ومن بعـده الشاى وينسل الزائرون لا يخلفون من ورائهم إلا سحب الدخان منعقدة فى سماء الحجرة وإلا صحاف الطعام وفناجين الشاى وزجاجات الخمر فارغة متناثرة هنا وهناك ، وإلا بقايا الدخائن ملقاة في نواحى المكان ؛ ثم يسود الدار سكون عميق وكزينيا على كرسى فى ركن تحس فى مفاصلها ألم الاجهاد والتعب ؛ وأمها تجول فى أرجاء الحجرات تفتح النوافذ وتلتقط بقايا السجائر من أصص الزرع ، غضبى مغيظة : «أما كان يقنعهم أن أنثر (الطقاطيق) على المناضد فينصرفون عنها إلى الأصص ؟ » ثم تندفع تنظم ما تشعث ؛ وإيفان يضطرب بين الحجرات وقد أمضه ما رأى وهو يقول فى غضب : « لقد نامت الدواب على نهر الفولجا ، أما نحن ... » ثم يستلقى على فراشه ينتظر زوجتـه فى قلق ... ويناديها فى قسوة ، فما يسمع سوى عويل طفل يرتفع فى الناحية الأخرى وزوجته تهدهده ، وحين ينفذ صبره يجذب الغطاء وينطوى إلى نفسه وقد أدار وجهه إلى الحائط ...

وكانوا هم يخرجون إلى دار أحد أصدقائهم مرة أو مرتين فى الشهر ليشهدوا مثل هـذه الضوضاء ومثل هذا الاضطراب . . .

* * *

ومرت الأيام جرداء ممحلة ، فبدت الحياة فى عينى كزينيا جافة قاسية لا لذة فيها ولا متعة ؛ مظلمة لا نور فيها ولا سلوة ؛ وسُلِّط عليها الملل والضيق فانطوت على شعور غريب فيه الضجر والقلق . ماذا

تستطيع أن تفعل وهى في سجن من دارها وسجن من أولادها ؟ أفتستطيع أن تجد مهرباً مما هى فيه ؟ وترقرقت العبرات فى عينيها ...

واستشعرت الأسى والألم فى نفسها حين بدا لها أن سجنها يكاد يضمها بين جدرانه فيقضقض عظامها ويفرى جلدها . إنهـا ترى الناس يغدون ويروحون فى نشاط ومرح ، فيهم الأناقة والذكاء والخفة ؛ أما هى . . . أما هى فقـد استولى عليها الفتور والخمول ، وبدا عليها التشعث والغباء من طول ما اعتزلت الناس

وجلست الزوجة إلى الشباك وخيالها يحلق فى متاهات لا يجد الهداية ... وارتدت إليها ذكريات الطفولة الجميلة ، وأيامها الباسمة ، وحياتها المشرقة ؛ حين كانت ترى العالم كله يضطرب فى قلبها وتضطرب معه آمال كبار تتراءى لهـا من وراء الأفق فيها السعادة ... سعادة الحب فتبسم فى رضا واطمئنان ، وهى تنتظر المستقبل الجميل .

ولـكن ... ولـكن ها هى الحقيقة مرة لذاعة ، إن العالم كله الذى عاش فى قلبها سنين لم يبق منه سوى شارع ضيق قذر قصير ، فى أحد طرفيه دكان البدال وهم له مدينون ، وفى الطرف الآخر الدار حيث تطوى هى أيامها لا تجد إلا الأطفال وصراخ الأطفال ، وعويل الأطفال ، وإلا عملها فى الدار ، وإلا جماعة من العجائز يلعبون الورق بين الحين والحين فى ضجة وضوضاء وإلا الزوج العنيد يشاكس زوجته ويذلها فى غلظة وفظاظة ، لا يرعى حقها ولا يعنى بأمرها ؛ ثم زوجة تنفر من زوجها وتضيق به ذرعاً ، وهى لا تستطيع أن تجهر ببعض ما يتسعر فى قلبها فتكتمه على مضض . أما الحب ؟ أما السعادة فى الحب والزواج فخيالات لفتها الأيام لتنشر مكانها ما تكابد فى دار زوجها من هم ونكد ...

واصطرعت فى نفسها خواطر مؤلمة كادت تعصف بعقلها ، غير أن شبحاً بدأ فى الظلام يقترب منهـا رويداً رويداً يجذبها من أخيلتها ... إنه هو إيفان ميها لوفتش فى قميصه الأبيض جاء يلقى بنفسه على كرسى إلى جانبها ، وراح يتثاءب ويقول : « لقد أكلت طعاماً شهياً ونمت نوماً هادئاً ، ولـكن فيم تفكرين ؟ » قالت : « لا شيء ... لقد كنت أفكر ... إن هـذه الحياة جافة يا إيفان ! » قال : « أفيكون لك ثلاثة أطفال ثم تزعمين أن حياتك جافة ؟ » قالت : « إنها مملة لأنها على نمط واحد ! » فقال الرجل بغيظ وهو يلوح بيده فى الفضاء كأنما ينحي عنه شيئاً يريد أن يلصق به : « أفتعيشين عمرك مضطربة كئيبة ؟ » ثم انطوى وخلفها إلى أحزانها تبسم فى حسرة ثم تنزو بها نزوات الألم فتجهش إلى البكاء ...

وصاح إيفان ـ بعد حين ـ « ما هذا ... ؟ » ثم نادى زوجتـه يطلب ماء ، غير أن الحماة اندفعت إليه وفى قلبهـا شهوة الانتقام وهى تصيح : « ما هذا ؟ ما ذا صنعت ؟ ما ذا صنعت ؟ » قال : « لا شيء ، إننى لا أستطيع أن أفهم ابنتك ولا ما تريده ! » قالت وهي تضطرب : « ما ذا ؟ ما ذا صنعت ، ما ذا قلت ؟ » قال : « لاشيء ، إنها

انفجرت ضاحكة على حين بغتة ثم راحت تبكي ! » قالت : « لا ، أنا لا أصدق ، هذا عبث ، لابد أن تكون جرحتها ! » قال الرجل فى حدة : « لقد قلتُ إن شيئاً لم يكن ... ! » ثم انطلق ... انطلق إلى الندىّ يلعب الورق ...

وزاغ بصر المرأة فراحت تذرع الأرض وهى تضطرب وفى نفسها الغيظ والغضب ، ثم جلست إلى ابنتها تحدثها : « لقد تخاصمتما ، فلماذا ؟ ماذا فرط منه ؟ » قالت الزوجة : « لا ، لاشىء ! » قالت الأم : « لعله امتهنك وأغضبك ! » قالت الزوجة : « لا » قالت الأم وقد هدأت من ثورتها فبدا الحنان فى رنات صوتها : « ياعزيزتى لا تكتمى عنى شيئاً ، أنا أعرف أنه أنانى ، فلا تثيرى غضبه » قالت الزوجة ومن عينيها تتدفق العبرات : « حقاً ، حقاً ! ثم إنه غبي ! » وثارت ثائرة الأم فقالت فى شدة : « إن امرأة تحدثت عن زوجها هذا الحديث فما بعده سوى الشر المستطير ! » وراحت تدفع عن الزوج فى لباقة وذلاقة : « إن زوجاً يبذ إيفان لم يخلق بعد . أفلا تعتبرين بسواك ؟ إن زوجة كابيتا لينا المسكينة تحمل أثقالها وأثقال زوجها فى صبر وصمت ، ثم هي لا تسب زوجها ولا تحقره . إن بعض ما أنت فيه هو السعادة يابنتى ... ! » غير أنها لم تظفر بكلمة واحدة فانطوت على همها تنتظر الزوج ...

***

وعاد إيفان يدق الباب فى عنف ، فقالت ماريا لنفسها وهى تفتح الباب : « لعله سكران ! » ثم قالت تحدثه فى لطف وهى تشير إلى المائدة : « ها هو طعامك » فما أجاب الرجل ، وما ألحت المرأة ... وأخذ إيفان يطوّف مايطوف فى حجرات الدار كأنما يريد أن يُشعر كل من فى الدار أنه السيد الآمر ؛ وبعد لأى دلف إلى حجرة المطالعة ليستلقي على أريكة هناك ، وأرادت ماريا أن ينزل عن رأيه فلا ينام فى حجرة المطالعة فلم تفلح ...

وكان الكلب (نورما) يطمئن إلى إيفان ويهفو نحوه ، لأنه كان يحبوه بعطفه وحنانه ؛ والآن — حين رأى سيده يدخل حجرة الطالعة وحين سمع ما كان بينه وبين ماريا — انطلق إليه فى هدوء يداعبه كأنه يريد أن ينزع عنه بعض ما أحزنه ؛ وراح هو يداعب كلبه فى مرح ونشاط ، ونادت ماريا من خارج الحجرة : « نورما ، نورما ! » ولكن الكلب لم يأبه ؛ وتردد الصوت : « نورما ، نورما ! » ففزع إيفان عن مكانه وأغلق الباب فى شدة وعنف فأسكت الحماة عن النداء ، وذهبت فى انكسار إلى فراشها وهى تحدث نفسها : « أفينام مع الكلب ؟ هذه هى ثالثة الأثافي ! »

***

لقد كانت حياة ضنكاً ، فيها الاضطراب والقلق ، وفيها القسوة والشدة ، تشتد قسوتها فى العشرين من الشهر حين يتقاضي إيفان مرتبه الشهرى ويجلس يحسب ديونه وهى تربو على مرتبه ، وهو يرى مصيبته فى امرأتين قُيِّد هو بهما وهما تسعيان للحرية ولا تصلحان لتدبير شئون الدار ؛ ثم يقلب صفحات دفاتره وهو يقول: « لاضير ، إنهما يريدان

الحرية » فتجيب الزوجة : « وماذا بين الحرية وبين هذا ؟ » فيقول هو : « إن الشيطان يعرف لماذا يعلمونكن الجغرافيا والجبر والحساب وحساب المثلثات والهندسة ! ماذا يفيد كل هذا وأنتنّ لا تستطعن أن تنظمن حياة رجل ؟ لعلكن تتعلمن هذه العلوم لتطالبن بالحرية فى إصرار وإلحاح ! » فتقول ماريا : « إننا ولا ريب نستطيع أن نوازن بين دخلك وحاجاتنا إن أنت اطمأننت إلى الدار فلم تذهب إلى النديّ » فيقول هو : « وأنى إذن أجد المال ؟ أفأزيفه ؟ » وهكذا يتنازعون بينهم أمرهم ، ويؤنب أحدهم الآخر ثم يستشعرون جميعاً الخزى والعار فى حديثهم ، ثم.. ثم تمر الأيام والخمود يستولى على نفس الزوجة ويدب فيها الفتور والكسل فينمحي من عينيها بريق الغبطة والسرور ، وتبدو وهى فى حركاتها واهنة ضعيفة كأنها فى تشعثها وهزالها عجوز شمطاء تدب إلى القبر وهى ما تزال فى أيام الصبا

على المرء أن يسعى جهده إلى الراحة والاستجمام بعد العمل المضنى ، ليبدأ عملاً جديداً فى قوة وفتوة . وكان إيفان يرى الاستجمام فى كؤوس من الخمر تذهله عن متاعبه حيناً ثم هو يقول : « يجب أن يطرح الإنسان عن نفسه بعض ما يثقلها ليجد النشاط والقوة » أما كزينيا فكانت لا ترى الراحة إلا فى الملهى وقد حُرمته زماناً ، فهى دائماً تطلب إلى زوجها أن يصحبها إليه فينطوى عنها وهو يذكرها بزيارتها للأوبرا فى سانت بطرسبرج حين كانا عروسين منذ سنوات تسع ثم يتركها فى سجنها ليذهب هو إلى النديّ

***

وظهرت رواية (فاوست) على مسرح المدينة . فانطلق إيفان إلى المسرح يحجز له ولزوجته كرسيين ، وارتد يقول وهو يلقى بالتذكرتين على المنضدة وعلى وجهه سمات الغضب : « سنذهب الليلة إلى الملهى ، لنرى (فاوست) ! وصرخت الزوجة فى حبور وقد تدفق دم الشباب فى وجنتيها : «فاوست ، فاوست !»

وانطلقت كزينيا ترتدى ملابسها وتصفف شعرها وإيفان ينظر إليها وينتقد كل ما تعمل . إنه يريدها جميلة جذابة يفخر بها وبجمالها ، وكانت هي أيضاً تريد أن تبدو أمام الناس خلابة آسرة ثم ... ثم انطلقا جنباً إلى جنب صامتين لا يشعران بالمرح ولا السرور ، وذراعاً فى ذراع ويود كل منهما لو سحب ذراعه من ذراع صاحبه ...

ودلفا معاً إلى بهو المسرح والموسيقى تعزف الألحان الأولى وإيفان يمشى الخيلاء وإلى جانبه كزينيا مطأطئة ذاهلة كأنها تساق إلى المقصلة ... وأطفئت الأنوار ، ورفعت الأستار ، وبدا فاوست فى ملابس رمادية وقبعة كبيرة ولحية بيضاء طويلة ، يغنى :

عبثا ، عبثا ما أحاول أن أعثر عليه بطول السهر والكد

وكزينيا فى مكانها جامدة لا تحركها الأغاريد وتشجيها الموسيقى ، ثم بدا ميفستوفليس أحمر قانياً يتلهب ، يعلن أنه يستطيع أن يأتي بكل شيء حتى

الشباب والمال . وتراءى إلى كزينيا اليوم العشرين من الشهر وما فيه من عراك وشجار ، ودوّى فى مسمعيها صوت إيڤان : « الحرية ، الحرية ! » وحين ارتدت إلى ما يمثل أمامها كان فاوست قد خلع لحيته وملابسه ليبدو شاباً أنيقاً جذاباً يتسم ويغنى :

أيها الشباب ، هات مرحك اللانهائى . . .

ثم هو يقفز فى نشوة وطرب ، والزوجة جالسة تأسى على شبابها المفقود ، ثم زفرت زفرة عميقة وهى ترمق زوجها وقد مال رأسه فى صلف ، وعلى وجهه الحليق الناعم وشاربه المفتول سمات الجد والحزم

وانتهى الفصل الأول فخرجا معاً إلى المقصف وإيڤان يزعجه أن يرى شعر زوجته لم يرتب كما يريد هو ، وأن يخيل إليه أن وجهها ليس طرياً ناعماً كوجوه النساء حوله ، وأن عينيها قد انطفأ ما كان ينبعث منهما من أشعة آسرة ؛ ثم هى فاترة خاملة والنسوة من حوله يمرحن فى خفة وطرب

ورجعا فى صمت وكل يعيش فى عالمه هو ، لا يعنيه ما يضطرب فى نفس صاحبه ؛ وكانت الأنوار الكهربائية تنعكس على ثياب السيدات فتزيد البهو رونقاً وجلالاً ، والمكان يعج بأصوات الناس ، وكزينيا ترى فيما حولها أسباب حزنها وألمها ، فلم ترفع بصرها لترى فى البهو أشياء حرمتها زماناً ، ولكنها انطوت على آلام فى نفسها مبرحة وإلى جانبها زوجها لا يسرى عنها بعض ما يضطرب فى خيالها . وحين ابتدأ الفصل الثانى اطمأنت هى إلى ما ترى فنفضت عنها ما يمضها وما يحزنها ، ونسيت الغضب والتهكم والديون و ... وما ران على حياتها من ألم وضيق ، فبدت روحها صافية طروباً ؛ واندمل جرح فى قلبها نكأته الحياة المرة التى تعيشها

وفى الفصل الثالث طارت خواطر كزينيا بعيداً عما حولها إلى ضوء القمر ، إلى الحديقة الغناء ، إلى أيام الحب والسعادة ... السعادة التى راحت تنمو فى خيالها رويداً رويداً حتى غمرتها إلا غلالة صفيقة من حزن ؛ وهى ترى مرغريت الجميلة الجذابة فى غدائرها الذهبية اللامعة تجثو عند قدمى حبيبها الشاب فاوست تستعطفه فى سذاجة وصفاء ؟ ثم سارت إلى جانبه تحت ضوء القمر الجميل وفى نفسها الخوف والأمل وهى تغنى أغانى الطرب تناجى بها الكواكب اللامعة ، وتنشر أمامها أسرار سعادتها ، والليل هادئ والحديقة ناعسة ، ورنات صوتها العذب الساحر تشق طريقها إلى السماء كأنها تسبيحات عابد يتهجد فى غسق الليل

لقد لمست فتاة المسرح كل قلب فأثارت الشجون وهزت أفئدة الذين خانتهم السعادة فألقت بهم فى قرارة البؤس ، فوجم الجميع وبدا المكان هادئاً ... واضطربت كزينيا حين رأت مرغريت تمثل دوراً مثلته هى حين تغلغل فى قلبها حب إيڤان

ورن فى جنبات البهو صوت ميفستوفليس يضحك فى تهكم « ها ، ها ، ها ! » وفى صوته القسوة والخشونة ، وراع كزينيا أن يجذبها هذا الصوت الأجش من أحلامها فبدت مغيظة محنقة

وإلى جانبها زوجها إيڤان يقول فى هدوء : « لا بأس ، لا بأس ! » وألقت السيدة على زوجها نظرة خافتة ثم أرسلت أنة عميقة حين تراءى لها أن الرجل الجالس إلى جانبها كان هو فاوست حين كانت هى مرغريت... ثم جاءت الغلطة الأخيرة ... الزواج ... لقد تزوجت منه لتشيد صرح سعادتها فهدمت حياتها وهناءتها

ودوى هتاف الاستحسان حين أسدلت الأستار ثم رفعت مرة أخرى فاذا فاوست ومرغريت وميفستوفليس يداً فى يد يبتسمون للجمع الحاشد ؛ ثم هم يبدون من رأس كزينيا أخيلة كانت قد سيطرت عليها حين خيل إليها أن ما ترى حقيقة لا مرية فيها

ونادت كزينيا زوجها : « تعال ، يا فانيا ! » ثم انطلقا إلى المقصف يشربان الشاى ويأكلان البرتقال ، وقال إيفان وهو يقدم إلى زوجته برتقالة : « أنا ظمآن ! » وأحس هو أن قلبه قد نفض عنه ما علق به من بغض وكراهية فقال : «أهذه البرتقالة حامضة ؟ » قالت الزوجة فى رقة : «لا ، إنها جميلة حلوة !» وأكلت الزوجة البرتقالة وهى ترقب الرجال حولها وتحدث نفسها : « ليس فيهم من يشبه زوجى ، كلهم يذهبون إلى الندى ، ولكن زوجى خيرهم » ثم قالت لزوجها : « كيف وجدت مرغريت ، يا فانيا ؟ » قال : « لا بأس ، ولكن ألمافوستر تفوقها » قالت : « أفسمعت ألما ؟ » قال : « أفلا تذكرين ؟ لقد سمعناها سوياً فى سانت بطرسبرج » قالت : « لقد كان ذلك منذ أمد بعيد » قال : « طبعاً ، لقد رأيتها مراراً ، وأستطيع أن أراها مرات كثيرة ، إن الحياة تنعكس كما لو كانت فى مرآة » ثم انحنى يهمس فى أذن زوجته فى رقة ولطف : « أفتذكرين . . . هناك فى الحديقة ! »

وشاع الخجل فى وجه الزوجة حين ذكرت كزينيا وإيفان حبيبين يتلاقيان على ميعاد فى حديقة الدار ثم همست فى أذن زوجها : « كأنه حلم ! » وجاء صديق يحييهما : « كيف حالكما ؟ » فأجابه الزوج : « إننا لا نجد ما يحزننا ، فالحمد لله ! وأنت ؟ » قال الصديق : « لا بأس ، شكراً لك ، إنى أرى كزينيا تبدو أنيقة جميلة » فملأها الغرور والكبرياء ثم قالت : « عجيب أن أسمع منك هذا وأنا أرى أنني أفقد جمالى رويداً رويداً » وردد إيڤان بصره فى زوجته وهو يحدث نفسه : « حقاً إنها جميلة جذابة » . ثم قال فى كبرياء وصلف : « إن فوق مكتبى رسماً لها حين كنا خطيبين أفرأيته ؟ لقد كانت أجمل من مرغريت ! »

وفى الفصل الأخير اضطربت فى رأس إيڤان خواطر : لقد تراءى له أن زوجته ستلقى ما لقيت مرغريت فتدفقت الشفقة والرحمة فى قلبه ... لقد كان هو فاوست فى وقت ما وكانت هى مرغريت . أما الآن ، أما الآن ...

***

الدار وهى تبدو فى عينيه سجناً مظلماً ؛ والأرض الحجرية ؛ والقش المتراكم فوق السقف ؛ والمرأة المسكينة التى تلمس القسوة والفظاظة فى زوجها فتخضع وتستكين وهي لاتستطيع أن ترد عن نفسها بعض مايضنيها ؛ ثم الماضى الجميل وقد

أترعت أيامه باللذاذات والسعادة ؛ كل أولئك ارتد فى خيال إيڤان فجأة فأنّ أنّة كادت تتقطع لها نياط قلبه ، ثم نظر إلى زوجته فرآها واجمة حزينة والعبرات تترقرق فى محاجرها فآلمه ما رأى واستقر فى نفسه أنه هو الجانى . وعادت إليه أول ذكريات حبه حين جلس إلى التى أحب يترنم وقد نشر الظلام مسوحه على الحديقة فى وسط هذا العالم الصاخب ...

ومن حولها البلابل تسجع والسماء صافية

وغادرا الملهى وهما يحسان أن حملاً ثقيلا قد انحط عن قلبيهما فعادا حبيبين كما كانا منذ سنوات وسنوات ... وطارا إلى الدار وإيڤان يطوق زوجته بذراعه كأنه يخشى أن يفقدها ، وهى تخفى وجهها فى فراء معطفها وعيناها تلمعان من بين الفراء الكثيف والقبعة البيضاء الكبيرة . . . واندفع يجول فى أنحاء الدار مرحاً مسروراً وهو يغنى :

دعينى أحدّق فى هذا الوجه الذى أمامى . . .

فقالت ماريا : « كلْ ثم حدّق كيف شئت ! »

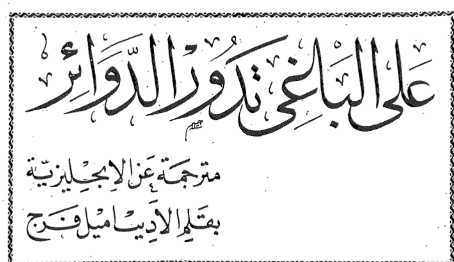
وجلس الثلاثة يتناولون الشاى ويتحدثون فى هدوء واطمئنان وإيڤان يستشعر فى نفسه السرور واللذة ، ويحدق فى زوجته وقد أبدلت ثياباً بثياب فبدت فى صورة ملائكية رائعة جذّابة . . . ثم انطلقت إلى أولادها تنظر إليهم — وهم نيام — فى حنان وشفقة وقد خيل إليها أن هؤلاء هم الملائكة الصغار الذين حملوا روح مرغريت إلى جنة الخلد .

وداف إليها إيڤان فبدا له أنه يقف بإزاء فتاته الأولى حين كان قلبه يتمنى أن تكون له . . . له وحده ، فقال : « إنك تشبهين مرغريت فى سجنها » وغضتْ كزينيا من بصرها وقد ابتسم قلبها لأن صدى صوت أيام الشباب الجميلة رنّ فى أرجائه ؛ ثم راح يودعها وهو يقبلها : « نعمت بنوم هادىء يا مرغريت » فقالت هي فى حياء : « حرستك العناية الإلهية يافاوست ! »

وانطلق إيڤان إلى حجرة نومه يخلع ملابسه فى بطء وتلكأ وهو يغنى :

لكم السعادة يامن تعيشون فى رضى وقناعة ... !

كامل محمود حبيب



ذكريات ... ذكريات بعيدة تداعب خيالي الآن كما تداعب يد طبيب ماهر جرحاً قارب الشفاء فتؤلمه ألماً محتملا مقبولا ...

هأنذا أرى نفسي يافعاً يسعى فى طراءة سنه لكسب عيشه فيصبح عاملا فى مصنع كبير يحوى أغلب شبان المدينة ... وكان لترددى على مدرسة ليلية لأتعلم مسك الدفاتر الفضل فى رضا المستر فوستر صاحب المصنع علىّ، وبذلك فتح أمامى باب الرقى حتى بلغت درجة رئيس قسم من أقسامه الكبيرة. لقد كان صاحب المصنع رجلا عصامياً عطوفاً فشملنى بعطفه، وكلأنى بعنايته، فكنت به معجباً وله مخلصاً، وكان بي فخوراً ولى أباً حنوناً ...

لن أنسى هذا الرجل ماحييت ، لأنه استطاع بلطفه وحنانه وحبه العجيب لعمله أن يطبع فى نفوس موظفيه وخاصة فى نفسي ذكرى لاتمحى ... فكان الرجل النبيل العطوف فى حياته ، والشخص المقدس الخالد فى مماته ...

كنت سعيداً مغتبطاً بهذا المنصب الكبير الذى أسند إلىّ وبفضله صرت من رجال المدينة البارزين ؛ وكان من أسباب سرورى وجود دافيد فوستر وحيد هذا الرجل النبيل ... فكان يمر كل يوم منذ التحق بمصنع أبيه ليحييني ويبش فى وجهي دون سائر الموظفين فزاد ذلك فى تعلقى بعملى وإخلاصى له ...

ماهذا ... ؟ ! المستر فوستر يموت بعد التحاق ابنه بالمصنع بسنتين . !! الرجل العصامي ذو الأعصاب الفولاذية والعينين البراقتين الصريحتين يختفي فجأة ولم نعد نراه يطوف بعماله المخلصين فيملأ نفوسهم أمناً وهدوءاً واستقراراً ، ولم نعد نسمع صوته يتجاوب فى فضاء المصنع صداه فى رنة متزنة حنون ، ولم تعد عينه تطالعنا وترعانا فى حنان وعطف عجيبين ... مات فتولى ولده منصبه وسارت السفينة تحمل ركابها كما كانت ... وأخذت المطارق تطرق طرقاتها التقليدية المتكررة ... فقد أفل نجم وسرعان ما أشرق نجم ... ولكنه كان قاسياً عنيداً ...

وفى سبتمبر من السنة التالية تزوجت فتاة أحلامى : مارى جاكسون وكانت تشتغل فى المصنع بجانبي . وكانت مارى ولا تزال أجمل فتاة فى العالم فى نظرى ، ولم يكن وجهها جميلا فحسب ، بل حباها الله نفساً كريمة وقلباً كبيراً ... فتبادلنا ثقة خالصة وحباً جماً جعلانا فى أقصى درجات السعادة والهناء ... واشترينا منزلا أنيقاً بنيناه بخيالنا قبل أن نشتريه فصار فردوس غرامنا ومهد أحلامنا ، وكانت حديقته الغناء مسرحاً يلهو فوقه طفلنا العزيز

بيتر فيملأها مرحاً وحياة فما أسعدنى بالحياة بين هذين القلبين الحبيبين ...

ولم يكد بيتر العزيز يبلغ من العمر سنتين حتى تزوج دافيد فتاة جميلة مرحة وهى ابنة أحد أثرياء جنوب انجلترا . وكانت تبعث فى الجو حولها لوناً جميلاً من الصراحة والألفة . فتصادقت هى ومارى ؛ وكانت أحب الساعات إلى هذه السيدة الكريمة تلك الساعة التى تداعب فيها طفلنا الحبيب ، لأنها كانت لا تتمنى شيئاً فى الحياة إلا أن يرزقها الله طفلا جميلا . . . وهكذا نالت أمنيتها وولدت طفلة جميلة ظريفة سمتها — أديث — وكانت قرة عين والديها ومعقد آمالها ...

ومرت السنون متتابعة وأقبلت علينا الحياة بوجهها الضاحك الصبوح ، واستطعنا فى هذه المدة أن ندخر مبلغاً لا بأس به ليكون لنا عوناً على تعليم ولدنا بيتر . . . وكنت فى ذلك الوقت راغباً فى أن أصير أباً لأطفال كثيرين ولكن الله شاء أن يجعل بيتر زهرتنا الوحيدة فقصرنا جهودنا على أن نوفر له السعادة والسيادة ··· وشب بيتر صبياً جميلاً رأيت من خلال عينيه الصافيتين معانى الرجولة النبيلة والأخلاق الدمثة . وكذلك نشأت أديث ابنة دافيد فوستر حلوة جميلة كأمها واعتادت الفتاة أن تذهب إلى مدرسة للبنات بجانب مدرسة بيتر — فكانت تمر فى طريقها بمنزلنا فتحيينا تحية رقيقة ثم تمضى . وما مضت مدة طويلة حتى أصرت إديث على أن يصحبها بيتر في عربتها كل صباح ويرجع برفقتها كل مساء ··· وهكذا كان ··· وكنت أنا ومارى نراقب صداقة الطفلين بسرور ونؤمل مايؤمله كل أب وأم عند ماريان تلك الصداقة المتينة تنشأ بين طفلين ذكر وأنثى . وقد كان من الطبيعى أن نري بيتر فى الرابعة عشرة من عمره السعيد لايفارق أديث إلا فى وقت المذاكرة والنوم . أى فخر كان يملأنى عند ما أرى الصداقة تزداد متانة بين الطفلين ! إنها أمنيتى ··· إنها سعادتى ··· إنها حلمى اللذيذ ··· ولكن الدهشة كادت تصرعنى فى عصر يوم من أيام الصيف الهادئة عند ما فاجأنى دافيد بزيارة فى مكتبى وقال بعد عبارات المجاملة المألوفة :

— ألا تعلم ياهيبرن أن ولدك يركب العربة مع ابنتى أديث فى ذهابها وإيابها من المدرسة كل يوم ··· ؟

فابتسمت وأجبته بهدوء :

— أجل ... لقد عرفت ذلك منذ بضع سنين

— لا أرى أن هذا من اللائق المستحسن ... خير لك أن تمنع ولدك من الركوب مع ابنتى

وبدون انتظار لجواب ... خرج مسرعاً من غرفتى وبقيت أنا ذاهلا بضع دقائق أفكر فى لاشيء ، لقد دعت الفتاة بيتر لمرافقتها من تلقاء نفسها فما سر هذا الامتناع ؟ ... لا بد أن يكون دافيد فوستر مخطئاً ظالماً ... لقد صار كل من الطفلين للآخر ضرورة من ضرورات الحياة ...

وعند ما أخبرت مارى بما جرى أجابتنى فى هدوء ورزانة :

— هذه هي غريزة الأبوة ... لا شيء سوى أن أبا أراد أن يحمي ابنته الوحيدة

فأجبتها ثائراً :

— كلا ! كلا !

ولكنها ابتسمت ابتسامة رزينة وقالت :

— بلى يا عزيزى إنه السلوك الوحيد الذى ينبغى لأب مثل دافيد أن يسلكه

— ولكن كيف تستطيعين منع بيتر ؟ ... كيف تخبرينه عند ما يجىء ... ؟

ولما جاء بيتر فى الساعة الثامنة مساء بعد أن انتهى من واجباته قالت له أمه :

— هناك شىء مهم أريد أن أفضى به اليك يا عزيزى بيتر

— ماذا يا أماه ؟

— مسألة ركوبك العربة مع إديث يا بيتر ... إنى أراها ياعزيزى أنانية منك لأنك تركب كل يوم معها فى حين أن هناك أطفالاً فى سنها يودون الركوب معها كذلك

— سوف لا أركب معها ثانية يا أماه ، لأنى أرغب فى التأخر في المدرسة بعد انصرافها لأمارس بعض الألعاب الرياضية وهي لا تمهلنى حتى ألعب ، بل تظل تصرخ فى الخارج حتى أترك ألعابى وأذهب معها . سوف لا أرافقها مرة ثانية ...

— ماأطيب قلبك يابيتر ...

وكذلك أمر دافيد ابنته أن تمتنع من دعوة بيتر للركوب ... وقد امتثلت أمره بعد عصيان وتمرد شديدين .

وفى سن السابعة عشرة ترك ولدى المدرسة وعزم على دراسة الطب ... وما كان أشوقنى إلى أن أرى ابنى العزيز طبيباً شهيراً فأكون بذلك قد حققت أعز أمانى فى الحياة .

ولم يكن غريباً أن أرى بيتر الشاب المراهق وأديث الفتاة الناهد يسيران جنباً إلى جنب فى إحدى الغابات للنزهة والنجوى بعيداً عن أعين الرقباء ... وقد أخبرت زوجتى بهذا الحادث ولكننا كسائر الآباء ينشدون الخير لأولادهم، فابتسمت مارى وأيقنت فى هذه اللحظة أن حرمان أديث من مرافقة بيتر كما تحب شجعها على مرافقته سراً بين الغابات وفى الخلوات ... وعلى كل فقد تركنا الأمور تسير كما يشاء الله ...

***

وفى الليلة التالية فوجئت بزيارة دافيد لمنزلى . وما كادت مارى ترى العلامات الغامضة التى ارتسمت على وجهه وبريق الحنق يشع من عينيه القاسيتين حتى توقعت شراً .

وواجهنى دافيد بوجهه المتجهم قائلا :

— ألا تعلم يا هيبرن أن ابنك رآه الناس يخرج مع ابنتى فى كثير من المناسبات إلى الغابات ويخلو بها ... قد تكون يا عزيزى علاقتهما مجرد صداقة بين فتى وفتاة ، ولكن الصداقة فى مثل سنهما لا تحمد عواقبها .

عند ذلك أجبته باقتضاب :

وبعد ؟ !

— يجب أن يبتعد بيتر عن أديث لأنى أخاف عليها كلمات الحب التى تعد فى مثل هذه السن المبكرة جريمة .

لم أجد شيئاً أقوله فى هذه اللحظة ، ومع ذلك تمتمت قائلا :

— سأمنع بيتر من الاختلاط بابنتك يا مستر فوستر ؛ وعلى كل حال سيرحل ابنى عما قريب للالتحاق بكلية الطب . وفى خلال السنوات الست المقبلة لا يتمكن بيتر من رؤية ابنتك ...

فأجابنى الرجل ورنة الفرح تهز كيانه :

— هذا حسن ... هذا جميل يا صديقى ... إننى أشكر لك فضلك ...

ثم انصرف الأب بعد أن اطمأن على مستقبل ابنته كجندى غادر ميدان القتال منتصراً مزهواً ...

أى انتصار أيها الرجل القاسى ... ؟! أتفخر أنك حرمت ابنتك الحب وقيدتها بقيد ، وضننت على ابني أن يتذوق السعادة ؟ أنت مخطىء ... بل مجرم ...

وفى هذه الليلة الثقيلة الحزينة أفضيت إلى بيتر بما جرى بينى وبين المستر فوستر ورجوته أن يكف عن لقاء ابنته .

ظل بيتر صامتاً يفكر ... ثم نظر إلى الأرض نظرة شاردة وقال كأنه يخاطب نفسه :

— لقد أحببت أديث يا أبي أكثر من أى فتاة فى العالم ... فهى ... فتاة عجيبة ، لقد رغبت فى أن أكون طبيباً شهيراً فى يوم ما ، وقد عزمت على انتظارى حتى أسجل اسمى بين الأطباء بحروف من جد ومجد ...

ومرت فترة صمت قصيرة قطعتها مارى قائلة :

— حقاً إنها فتاة عجيبة ، فهى من النوع الذى يولد الحرارة والاقدام فى نفوس الشباب ...

— هو كذلك يا أماه ... كنا أصدقاء ، وكنا عازمين على أن نظل أصدقاء حتى ...

ثم أطرق المسكين حزيناً ولكن أمه قالت مسرعة :

— حتى تصير طبيباً شهيراً

فأومأ بيتر موافقاً ثم طوق أمه بذراعيه وقال لها متسائلا :

— لقد فهمت يا أماه . . ! لقد فهمت . ؟ . .

— أجل يا ولدى العزيز . . . لقد فهمت . . .

إن العالم جميل ساحر فى عينيك وعينى أديث . . . كلاكما في شبابكما الغض الجميل يرسم صوراً فاتنة للمستقبل الزاهر ... أجل يا بيتر ، قد تكون الأحلام رائعة يا ولدى ولكنها تكون أروع وأدهش لو تشبعت بالحقيقة . . . إنني أرجو يا ولدى العزيز أن تستمر ذكرياتك عن أديث عزيزة محبوبة كما كانت لأنها ستحفظك نقياً . . . صادقاً . . . شريفاً فى معمعة الحياة وزوابع الشباب . . . احتفظ بذكرياتك . . . واجعلها تعويذتك المقدسة فى إبان نضالك فى الكلية . . وبعد ذلك عند ما تبلغ أمنيتك وتصير أديث امرأة ناضجة ستعرفان قيمة هذه الذكريات . . . وتعرفان أنها السلاح الماضي الذى حاربتما به حادثات الدهر ونوائب الزمان . . . ولدى ولدى . . .

ثم ضمته إلى أحضانها وراحت تقبله بحنان وعطف ... وأخيراً قال :

— سوف لا أراها يا أماه ... سأحرم نفسى لقاءها ...

وعند ما تركنا لينام شعرت بالفخر يلمس قلبي فى عذوبة وليونة لأن بيتر أصبح رجلاً نبيلا ... فما أسعدني بك يا ولدي ! ليباركك الله وليبارك رجولتك

***

وبعد شهر قضاه المستر دافيد فى الأجازة خارج المصنع ، وفى يوم رجوعه إلى المدينة من مصيفه استدعانى إلى مكتبه الخاص ، وبعد التحية العادية خاطبنى قائلا :

— إننى أريد أن أدلى اليك بشىء يا هيبرن . وقبل ذلك هل لى أن أسألك عما إذا كنت سعيداً فى وظيفتك فى هذا المصنع ...

فأجبته مندهشاً :

لماذا ... ؟ ! ... أجل يا سيدى فالمصنع منبع رزقي الوحيد فهو كل شيء لي فى العالم ... ولن أنسى سعادتى التي وجدتها بين جدرانه

— هذا حسن ··· والآن لنعالج متاعبنا . رجلا أمام رجل ··· لقد أصرت ابنتى على حب ولدك ، وقد رفضت أن تتعهد بالامتناع عن لقائه

— ولكن ألا ترى أيها الصديق أنها حماسة الشباب المتهور ؟ ···

— لا ··· لا أظن ذلك ، فإديث فتاة رزينة عاقلة وخاصة فى مثل هذا الأمر ، وقد كانت فى خلال نزهتنا الطويلة تبتسم وتتكلم معي بصعوبة شديدة ، وكلما حادثتها أجابتنى بأنه ليس من حق أن أنكر عليها حقها فى حب الرجل الذى اختارته

— إن ابنى لم يكاشفها مطلقاً بحبه

— أجل يا صديقي ... فهى تعتبر العلاقة للآن مجرد صداقة عزيزة ، ولكنها عزمت على أن تتزوجه بمجرد حصوله على أجازة الطب . سأكلمك بصراحة يا هيبرن ... ابنك شاب ذكي طموح وهي تحب هذا النوع من الرجال ... ولكن مركزك أقل من مركزى في المدينة ... فمحال أن يتزوجا

— ولكن آمالها آمال أطفال يا مستر دافيد ستزول بمجرد أن تكبر أديث وتفهم العالم على حقيقته

— أنت مخطىء ياسيدى ... لقد عزمت على إرسال أديث إلى مدرسة داخلية لتكون بعيدة عن ولدك ... ومع ذلك أرجو أن تعمل أنت شيئاً من جانبك ....

فأجبته دون أن أتوقع ما سيحدث :

— بكل سرور يا سيدي ...

— وظف ابنك فى مصنعي ودعه ينس فكرة الطب ...

فنظرت اليه نظرة شاردة ولم أستطع أن أفهم ما قال ...

— أوظفه بمصنعك ... ؟ ! ... ولا يدخل كلية الطب ؟ ... إننى متأكد يا مستر دافيد أنك لا تعنى ما تقول ...

— إنني أعنى ماقلت ··· وسيرث ابنك منصبك. سأكون صريحا معك . يجب أن أعنى بمستقبل ابنتى الوحيدة ··· فإذا التحق ابنك بمصنعى لم تعد ابنتى تعتبر ولدك زوجها الكفء . . .

— تريدنى أن أضحي بمستقبل ولدى من أجل حب صبيانى يتلاشى كما تتلاشى سحب الصيف ··· ست سنين يا سيدي كافية لأن تنزع أعمق الحب من قلب المرأة إذا جفاها حبيبها

— إن كلمة أضحى قاسية يا صديقى ··· لأنك قد صرت من رجالات المدينة المتقدمين بفضل منصبك هذا ، فلماذا لا يخلفك ابنك ؟

فأجبته ببرود :

— إذا كان حقاً ما تقول، وسيتمتع ابنى بهذه المكانة السامية فلماذا لا توافق على زواجهما ؟ . .

فأجابنى ببطء شديد :

— لأن مركزى فى المدينة يخالف مركزك

فنظرت إليه باشفاق عليه راثياً له وقلت :

— وهل يعبأ الحب بالفوارق الاجتماعية ؟ ... وهل تظن يا سيدى أنك قادر على أن تسلبهما الحب متى شبا وكبرا . ؟ !

فأجابني بصوت قاس صلب ...

— سأريق دمي فى سبيل الحيلولة دون هذا الزواج

عند ذلك تصاعد الدم حاراً إلى رأسى وامتلأ قلبى بالغيظ ولكنى استطعت أن أملك نفسى وأحتفظ بصوتى رائقاً هادئاً كما كان وقلت :

— مستر دافيد ... إننى أحب الرفعة لولدى كما تحب السعادة لابنتك ... إن مستقبله هورسالتى فى الحياة فلابد أن أؤديها بأمانة وإخلاص . . . لقد أراد أن يصير طبيباً فرأيت سعادتى وسعادته فى اختياره المهنة التى أرادها ... فالطب هو مهنته التى خلق لها ولن ينجح إلا بممارستها ، فجعله فى وظيفتى وهو يريد خدمة المجتمع جريمة هائلة ... محال ياسيدى أن أقترفها ...

عند ذلك نفث دافيد دخان سيجارته بشراهة ثم قال ...

— إذن أنت ترفض أن تدخل ابنك مصنعي .. أليس كذلك ؟ . . . لعلك خلتنى مغفلا متهوراً عند ما طلبت منك هذا الطلب

— متهور ... ؟ أجل ، فطلب مثل هذا يستند إلى حب صبياني تافه هو عين التهور والقسوة . . .

— حسن . . . ولكننى مازلت متمسكا بمطلبى وتستطيع أن تشاور زوجتك وتخبرنى عما استقر عليه رأيك . . .

— لا حاجة لى بمشاورة زوجتى . . . فانها سترفض طلبك كما رفضت

— على كل حال . . . دعنى أعرف قرارك فى الغد ، وإذا كان بالرفض فأرجو أن أتاقى معه استقالتك

فأجبته بهدوء قائل :

— ولماذا تنتظر للغد . . . ؟ لك أن تعتبرنى مستقيلا من الآن ... سيذهب ولدى إلى الكلية ..

ولأول مرة فى حياة هذا الرجل القاسى الجبار رأيته يحيد عن جادة الصواب ويخرج عن حد اللياقة إذ قال لى بانفعال :

— إنك رجل غر مغفل لأنك لا تدرى من أين يأتيك خبزك . . .

عند ذلك لم أستطع أن أحتمل ... فرميته بنظرة قاسية متكبرة ، ثم مضيت خارجاً من غرفته ساعياً كالآلة الصماء إلى مكتبي حيث شعرت بالتعب والضعف يستوليان على أعصابي ورغبة ملحة فى البكاء . . . واستولت علىّ الأفكار السود فقلت فى نفسى

الرجل الذى طوقنى بعطفه وإحسانه شاباً ورعانى بحنانه ورضاه رجلا يطردنى ولده الآن ! كأن ذلك التاريخ الجميل وتلك الذكريات العذبة لم تستطع أن تحمله على أن يحترم شيخوختى ويذكر صادق خدماتى لأبيه . . .

ولم يكن من السهل على رجل مثلي مضى أمام مكتبه أجمل أيام شبابه ورجولته أن يترك ذلك المكتب العزيز إلى الأبد . . وقد كانت الساعة السادسة مساء عند ما خرجت حزيناً تاركا ورائى مجال الشباب ومرتع الرجولة . . . وسعيت ببطء قاتل نحو منزلى لأخبر زوجتى المسكينة بهذا الخبر الفظيع . . .

وقضينا مدة طويلة فى ترتيب المستقبل الصالح لبيتر العزيز . . . وكانت النقود التي ادخرناها طيلة

هذه المدة كافية بأن نبلغ بولدنا المكانة التى تصبو إليها نفسه . . .

وفى الصباح سألنى بيتر . . . لماذا لم أذهب إلى المصنع كالعادة ؟ فأجبته بأن خلافاً بسيطاً حدث بينى وبين المستر دافيد استقلت على أثره من وظيفتى .

لم يصدقنى ولدى فكرر السؤال على مارى فأجابته نفس الاجابة بدون اكتراث . . . ثم ابتسمت فابتسم بيتر وقال :

— إذا كنتما أنتما أصحاب الشأن لا تهتمان فلماذا أهتم أنا ؟ . . . إننى أستطيع أن أرى إديث الآن . . . إذا أردت . . .

— لا يابيتر . . . لن تراها . . . ! إن الرجل لا يخيس بوعده . .

— كما تريد يا أبى . . . لن أراها . . .

ثم خرج بعد أن شملنا بنظرة حنون ملأت قلبينا راحة وسكينة وجعلتنا نثق بالمستقبل الذى كان منذ لحظة مظلماً كريهاً

وبعد خروجه استطاعت مارى أن تقنعنى أن نحل بيتر من وعد لا مبرر له الآن فقد امتنع عن رؤية إديث لأنك كنت موظفاً عند والدها، ولكنك الآن حر طليق ، فمن الحرام أن يتقيد شاب فى مثل سنه بقيد ثقيل على قلبه الشاب . . . ثم اتفقنا على إخباره بذلك القرار عند رجوعه

ولكن ... ولكن ما كاد بيتر يلج باب المنزل فى عصر هذا اليوم . . . ولم يكد يطالعنا بوجهه المنقبض الحزين وعينيه الباكيتين الشاكيتين حتى أدركنا أن هناك أمراً محزناً قد وقع لولدنا الحبيب .

نهضت الأم الحنون مهرولة إلى غرفة ولدها ، ولما رجعت بعد نصف ساعة رأيت جفنيها مخضلتين بالدموع

— لقد لقى بيتر إديث فى الطريق ولما لم يكلمها كما وعدنا . . . أسمعته كلاماً جارحا وقالت له إن حبه لم يعد يساوى شيئاً لديها . . .

فأجبتها باستغراب :

— لقد تحدثا عن الحب ؟ . . !

—أجل .. لقد بكى المسكين فى أحضانى .. وإنها لأول مرة أراه فيها يبكى منذ سنين ... لقد بكى لأن الفتاة احتقرته وآلمته ... ولذلك أخبرته أنه فى حل من وعده ... وله أن يقابلها فى الغد ويشرح لها كل شئ ... ولكنه رفض ...

لم أجد شيئاً أقوله فى هذا الوقت ، ولكن مارى استطردت تقول بصوتها الحزين :

— لابد أن يكون دافيد فوستر مستريحاً الآن ... لقد حقق الشقى غرضه على أنقاض ذينك القلبين الشابين ... وسيذهب بيتر إلى كلية الطب واللوعة ترافقه لأن الفتاة التى أحبها احتقرته ... وكم كنت أتمنى من صميم قلبى أن ترافق بيتر فى سفره ذكرياته العزيزة وحبه الطاهر الشريف ليقابل حياة الاغتراب بقلب محصن ونفس جزلة ...

ثم قالت أخيراً بصوت منكسر :

— قد يظن المسكين أننا حرمناه متعة الحب فيرمينا بالقسوة

فأجبتها بلهفة وحزن :

— ألا يمكن يا مارى أن تخبرى أديث بالحقيقة

حتى تتصافى القلوب وترجع المياه إلى مجاريها

— لقد فات الوقت ... وأريد الآن أن نفكر في مستقبله لا فى حبه ..

وفى الغد رأيت بيتر شاحب الوجه ... ذابل العينين ... حزين النفس من جراء ما قاساه البارحة فظل طيلة اليوم مفكراً صامتاً ...

* * *

ومرت السنون متتابعة متشابهة ... نال بيتر في خلالها أجازة الطب ... وأنا لم أرجع إلى مصنعى القديم ، ودافيد فوستر لم يسأل عنى وكأنه لم يعرفنى

لقد قاسيت كثيراً فى بادىء الأمر حتى التحقت بمصنع للأثاث ... وكان مرتبي ضئيلا إذا قورن بذلك المرتب الذى كنت أتقاضاه من مصنعى القديم.. ولكنى استطعت أن أعيش به مستريحاً قانعاً حراً بعيداً عن سطوة ذلك الرجل الكريه ... فتعلم ابنى كما أراد وحقق آماله وآمالنا ...

وبينما كان بيتر يسعى فى تلك السنين نحو المجد والنجاح ... كانت رفيقة صباه أديث تسعى نحو الزهو واللهو ... فاندمجت فى حياة صاخبة ماجنة ...

كانت لا تذهب إلى الكنيسة ... لأنه من العسير أن توفق فتاة لعوب بين رغبات الجسد الجامحة ... ونداءات النفس الصالحة ... لقد هجرها بيتر ومضى يسعى لمستقبله ومجده يقوده صوت الضمير اليقظان فراحت تثأر لحبها وتنتقم لنفسها من ظلم القسوة القاهرة . . . فكرهت والدها وأصبحت لا تكلمه إلا قليلا

وبعد مضى ست سنوات أقبل اليوم الذي ضحيت من أجله ما ضحيت . واحتملت فى سبيله ما احتملت ... اليوم الذى ذهبت فيه إلى المحطة لأستقبل بيتر العزيز يحمل لقبه الساحر « دكتور »

وقد استقر رأينا على أن يلتحق بيتر بمستشفى فى الجنوب ليكتمل تمرينه ، فى عصر يوم أقبل الدكتور كرولي طبيب العائلة وقال إنه يود أن يلحق بيتر بمستشفى مدينتنا الذى بناه والد دافيد منذ زمن بعيد ... وفيه ثلاثة أطباء حطمتهم السن العالية ولا يقوون على مشاق السفر ليلا لإسعاف المرضى... حينئذ قالت مارى وبريق الاعجاب والزهو يشع من عينيها :

— إننى أريدك بجانبي يا بيتر العزيز ...

فأجابها بصوت منخفض حنون :

— سأبقى بجانبك يا أماه .. سأعمل بالمستشفى.

وفى خلال سنة اشتهر الدكتور بيتر شهرة مستفيضة . . وأصبح طبيب جميع العائلات المحترمة في المدينة وخاصة فى الحالات الخطيرة المستعصية .

ومما هو جدير بالذكر أن بيتر لم يحادث أديث فى خلال السنتين اللتين قضاها فى المستشفى كما أنه لم يذكر اسمها أمامه إلا مرتين ... وفى كل مرة كانت تغشى عينيه سحابة من الحزن الدفين . وأظنه كان عالماً أنها سافرت منذ أن حل بالمدينة فى رحلة طويلة لتكون بعيدة عنه . . . وكان أبواها هما اللذين دبرا ذلك . . .

* * *

لا أدرى أية دهشة استولت علينا أنا ومارى فى عصر ذلك اليوم الجميل من أيام الربيع الهادئة حينما دخل علينا المنزل دافيد فوستر وهو يبتسم ابتسامته البغضية القاتلة ... ويقول من غير مقدمة :

— لم تكن زيارتي منتظرة بلا شك . . .

— فأجبته ببرود وبطء :

— أجل . . . لم أكن أظن أنى سأكلمك ثانية

فأطرق الرجل إطراقة حزينة ثم قال :

— لقد أيقنت أنى أخطأت . . . وجئت إليك الآن أقرر خطيئتي وأسألك المعونة من أجل ابنتي إديث . . .

— معونتي ؟ ! . . . بأى طريقة يمكن أن أساعد ابنتك ؟

— لم أصلح أن أكون أباً . . . لقد أحببت أن تصير إديث زهرة يانعة في المجتمع لتتزوج رجلا شهيراً ذا مكانة . وكان هذا هو أملي وحلمي . . . ولكنها نبذتني وكرهتني منذ أن حرمتها لقاء ولدك . لقد أبت أن تتزوج . . وفضلت أن تسير فى الطريق التى رسمها لها خيالها المكدود المتعب . . . صارت الفتاة تسمع لتلك الأصوات المغرية الفاتنة فى همس عاشق حبيب ، فانخدعت المسكينة بحلو الحديث وروعة الهمسات الخافتة . . . وتراءت لها أضواء المدينة متلألئة صارخة منادية . . . فلبت الشقية النداء . .

لم أستطع ، وهو يقول هذه الكلمات فى حماسة ومرارة كأنها قطعة رثاء يلقيها ، إلا أن أظل صامتاً ناظراً إليه فى بلادة . . لم أفهم ما قال . . ولم أفقه ما ذا عني . . . غير أنى أدركت أننى أمام رجل محطم ذليل . . . كسرت قلبه فكرة خاطئة . . . ذهبت ضحيتها فتاة بريئة طاهرة . . فراح يتلوى من الألم والنــدم . . لم يستطع المسكين أن يخفى شيئاً فراح يرسل نفثاته المسمومة فى جو الحجرة الحزين فكانت كلماته كالنصال الحادة تتناثر فى الفضاء فتحوله إلى جحيم . . ثم استمر يقول :

— لقد ذهبت زوجتى لتزور إديث لأنها أبت أن ترجع إلى المنزل . . وهناك وجدت الأم طفلتها المسكينة تخجل أن ترجع إلى المدينة لأنها . . . قاربت أن تصير . . . أ . . . أما . . .

فتمتمت فى حشرجة قائلة :

— أماً ! . . . أماً . . . ؟ !

فأجابنى بايماءة حزينة

— من أجل هذا أتيتك ... لقد عادت زوجتي بأديث اليوم إلى منزلنا وهناك قصت الشقية قصتها المخزية على أمها ... حياة صاخبة ... ووعود كاذبة وعلاقات آثمة

— ولكن ماذا أستطيع أن أساعدك به يا سيدى ...

لقد تردد وبدا له أن يتراجع لأنى رأيت فى عينيه بقية من كبرياء ... ومع ذلك خضع وقال :

— تستطيع يا سيدى أن تحمل ولدك على استعمال فنه فى إنقاذ ابنتى من العار

— تعنى عملية إجهاض ؟ . . .

لم أستطع فى هذه اللحظة أن أتمالك نفسى . تراءت لى حياة الفقر التى عشتها بفضل ظلم هذا الرجل الذليل الواقف أمامى الآن ... لقد علمنى حياة الحرمان ... وأساءنى فى أعز شىء لدى ... وعلى ذلك أجبته بخشونة :

— لن أسأل ولدى ذلك ... لماذا أتيت الآن ذليلا تطلب معونة الرجل الذى طعنته فى الصميم ..؟ لقــد فصلتنى من وظيفتى التى أفنيت فيها شبابي وكهولتي ... وأردتنى على أن أحرم ولدى متعة العلم

وسعادة الحياة ... ثم تريدنى الآن على أن أنقذ اسم ابنتك وسمعة أسرتك ..؟ كلا ... فلن يدنس ولدى مهنته الشريفة ...

عند ذلك قام كنمر مفترس محبوس فى قفص ضيق مريع ، ثم واجهني واقتربت عيناه من عينى وراح يحملق فيهما بشراهة غريبة ثم قال :

— هل تعني ماذا يعنى رفضك هذا ... ؟ ألإذا أعدتك إلى وظيفتك تحمل ولدك على أداء ما طلبته منك ؟ ...

— كلا ... وإن ما يدهشني الآن أنك أتيت إلى أنا ... لماذا لم تذهب إلى طبيب آخر ...

— لقد ظننت أنني أجد المساعدة منك أنت

— إنك لا تقدر خطورة سؤالك هذا ... إنك تريد أن تجعل ولدى يدنس شرف مهنته ... إن الأطباء لم يخلقوا ليحطموا الحياة بل لينقذوها

عند ذلك دنا الرجل مني حتى التصق بي ونظر إلى نظرة ذليلة ثم قال :

— أنسيت ما صنعه أبي لك ..؟ ربما أكون قد عاملتك بقسوة وها نذا أعترف بأنني كنت مخطئا وقاسياً ، ولكن أبي قد استخدمك صبياً وصادقك رجلا فاستطعت بفضل معونته ومحبته أن تشترى منزلك الذى تسكنه ... وتعلم ابنك المهنة التى أرادها هل نسيت هذا ؟ ... هل أستطيع ياسيدى أن أتقدم اليك بطلبي باسم تلك الذكريات العزيزة التى ربطتك بوالدى برباط مقدس جليل ... ما ذا كان لك أبى ؟ وماذا فعلت من أجله ... ؟

ونظرت إليه بصمت حزين ... ثم قلت بصوت منخفض تشوبه ارتعاشة خفيفة :

— إننى أقدس هذه الذكريات يادافيد فوستر ... وإنى لمستعد أن أساعدك فى كل عمل شريف ولكنك تطلب مني أن أمالئك على عمل دنىء

فقال بعد أن رمانى بنظرة ذليلة كسيرة :

— سأذهب إلى ابنك نفسه وأقدم إليه أجراً يكفيه أكثر حياته ...

— تستطيع أن تجده ياسيدى في المستشفى

وفجأة دق جرس التلفون فتناولت السماعة وإذا بصوت بيتر يصل إليّ من خلال الأسلاك الدقيقة متهدجاً ... مضطرباً :

— هالو . . . بابا . . . إننى أعتذر عن العشاء فى هذا المساء لأنى ذاهب إلى منزل دافيد فوستر فان ابنته إديث على وشك أن تموت

وسمعت ولدى يضع السماعة ولكني لم أجد القوة لأضعها ... وكان دافيد فوستر يمشى فى الغرفة بخطوات بطيئة تعبة منكساً رأسه فى حزن عميق فناديته . . .

— دافيد . . . دافيد فوستر . . . انتظر . . . انتظر دقيقة . . .

التفت المسكين بسرعة ونظر إلى نظرة متسائلة .. متوسلة . . . فشعرت في هذه اللحظة أن الرجل قد تحطمت كبرياؤه وتقطع قلبه وتقدم عشرين سنة فبدا شيخاً حزيناً ذليلا . . . وأمام هذا المنظر وهذه الشيخوخة التعسة . . . تندت عيناى بالدموع ثم قلت :

— لقد قال لى ولدى الآن أن زوجتك استدعته بالتلفون فأجابني باكياً :

— استدعى إلى منزلى . . . آه . . . ألم تمت

إديث ؟ . . أخبرنى . . . لقد قالت إنها ستنتحر . . . أخبرنى بربك . . . أخبرنى . . .

فأجبته ببطء :

— لا أعرف سوى أن بيتر فى طريقه إلى منزلكم . . .

عند ذلك تطرح السكين على مقعد بجانبه ثم راح يتمتم فى همس حزين :

— ابنتى الصغيرة . . . ابنتي الصغيرة . . . لقد عزمت على أن تفارقنا للأبد . . . للأبد . . .

— دعنى أوصلك إلى منزلك ... ربما تكون فى حالة خير مما تظن . . . إن كان هناك أمل فى شفائها فبيتر سينقذها حتما . . .

فأجابنى كرجل نائم تحت تأثير حلم هائل :

— سينقذها بيتر . . .

وقد ساعدته على النزول وأركبته العربة . . . وفي أثناء الطريق راح يتمتم فى حشرجة مخيفة . . . « سينقذها بيتر »

وعنـد ما بلغنا المنزل . . . شعرنا بجو من الكآبة يكاد يخنقنا . . . شعور مبهم لاندري كنهه ولـكنه تحقق حين رأينا الخدم واقفين بوجوم وحزن . . . بعضهم ذاهل وبعضهم يبكى

لا أدرى كيف قدت الرجل المحطم إلى داخل منزله . . ؟ ولـكنى أفقت حينما رأيت زوجته جالسة كحيوان عاجز كسير حرم أطفاله قسراً . . . ولـكنها حين رأتنا وقفت بكبرياء عجيبـة . . . وكجندى فى ميـدان الحرب لايجد بداً من إبداء شجاعته وإلا هلك ، وقفت تواجهنا بوجهها الأصفر الهزيل وعينيها الباكيتين . . . عنـد ذلك همس دافيد فوستر بصوت مبحوح كصوت نصل حاد يجري على شيء صلب قاس:

— إديث . . . إديث

فأجابته المرأة الشجاعة بصوت أرادت أن تجعله قويا حاسما فكانت منها كذبة هائلة لأنها لم تستطع المقاومة فقالت :

— لقد ··· ماتت ابنتك منـذ ساعة كما قال بيتر ··· لقد انتحرت

عندئذ نظر إليها زوجها ببلادة وبلاهة كمن لا يدرك حقيقة موقفه وقال :

— ماتت ؟ كيف .. ؟ أريد أن أراها ... أريد أن أرى ابنتى الصغيرة العزيزة ، أريد . . .

فأجابته زوجته بحنان :

— نستطيع أن نراها بعد برهة قصيرة يادافيد . إن بيتر معها في الغرفة ... لقد ماتت وصورته لاصقة بصدرها ...

— أجل ... بيتر هيبرن ... لقد ذهبت إديث بحبه إلى السماء ...

ما هذا ... ما هـذا الشقاء الذى حاق بهذين الرأسين الأشيبين ؟ لقد شعرت بالدموع تنهمر على خدى فرأيت من خلالها دافيد فوستر يقف ذاهلا كرجل ضعيف تحت تأثير منوم مغناطيسى... حينئذ قالت الأم الحزينة :

— يجب أن ندع بيتر يتناول حبيبته الصغيرة الميتة بين ذراعيه برهة قصيرة ...

فانفجر دافيد من الحزن والحنق وأراد أن يقول شيئاً ولـكن زوجته أسكتته بنظرة صارمة حازمة ثم قالت :

— إن الله معهما الآن يا دافيد ... وسيعلم بيتر أن ابنتى قد أحبته ... وأن روحها نقية طاهرة .. لأنها أحبته ...

وجلس دافيد فوستر بجانب الأم الحزينة وأسند رأسه فوق صدرها كطفل تعب متهدم ينشد الراحة بين أحضان أمه الحنون ، ثم دفن وجهه فى صدرها وراح يهتز كريشة في مهب الرياح ... ثم بكى ...

وفى هذه اللحظة خرج بيتر من الحجرة أصفر الوجه ، ساهم العينين ، غائب الحواس ، كأنه إنسان صناعى يسير بقوة أجنبية عنه ... ودون أن يدرى تقدم نحو السيدة فوستر ففتحت المسكينة له ذراعيها فاستقر بينهما ... وهو يهمس بصوت أبح :

— أشكر لك يا سيدتى عطفك علىّ هذه الليلة..

فأجابته المسكينة :

— ليباركك الله يا ولدى العزيز ...

كنت أود أن أحبك كولدى ... كنت أود...

فلم أقو على احتمال هذا المنظر ولا على سماع هذا الكلام ، فخرجت وكأننى أخرج من قبر مظلم ، ثم لحق بى بيتر وقال وهو يبتسم ابتسامة باكية متجلدة :

— سأذهب للمستشفى الآن. . وسألحق بك إلى المنزل ... إلى اللقاء ياوالدى ...

***

ودار الفلك دوراته المنتظمة المتعاقبة وما زال ولدى فى المستشفى لا يبرحه

وقد خيط فى رأسه الشيب ولم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره .. وقلما تجده مشغولا بغير مهنته..

ويستطيع كل زائر أن يرى سيدة جميلة وقورة تزور المستشفى كل يوم ترجو من الدكتور بيتر أن يقول لها إذا كان في الناس من يحتاج لشيء ... أمٌّ شابة تحتاج إلى مال أو ملابس ... روح معذبة مظلومة تنشد الراحة والهناء ... كذلك كان زوج هذه السيدة قد اعتزل العالم وأصبح زاهداً فيه ... يتردد بين عمله ومنزله ... وقد عرف أخيراً أنه هو المحسن العظيم الذى بنى جناحاً آخر للمستشفى وأنه الكريم الذى لا يرد سائلاً ، ولا يخيب راجياً ... يساعد اليتيم ، وينصف المظلوم ، ويعاون الأرامل على العيش ، ويساعد الفقراء على الزواج

يرجو بذلك أن يكفر عن ذنب اقترفه .. إذ سلب ابنته الحب والحياة ... وسلب ابنى الراحة والسعادة

يريد أن يكفر ... أجل يكفر ... ليبلغ سلام النفس وما هو ببالغه

رباه ! فى أي حال نحن أسعد . . ؟

أفى الحب ؟ . . . أم فى الاحسان ؟ . . . أم فى الموت ؟ . . .

أميل فرج

إنها أمي

للأستاذ محمود خيرت

كنت أجد صالة البيوع هاجعة ، يخيل إلىّ وأنا أمرّ فى مماشيها الملتوية بسبب تكدّس محتوياتها أنها خالية من القائمين عليها . ومديرها منزوٍ فى ركن مظلم وقد أرخاه الكسل وغلبه النعاس ، وكذلك عماله ، لوقوف حركة البيع والشراء بسبب دخول فصل الصيف

أما المكان فكان مكتظًّا بمختلف المعروضات ، فهنا أثاث قديم ولكنه من طراز لويس الخامس عشر أو السادس عشر ، وهناك فى بعض الأركان تماثيل من الجص والطين المحترق والبرنز استوقفني من بينها تمثال من المرمر لغادة عارية تناهى جسمها فى الحسن ودقة النسب ، وعلى كتفيها دراعة يمتد طرفها فيغطى أحد نهديها وأعلى فخذيها وهي من نفس المرمر ، ولكنك مع ذلك تكاد تلمح من خلالها محاسن هذا الجسم الفتان الناعم . وفي مكان آخر قفص أسلاكه من النحاس به ببغاء لاتنطق ولا تتحرك كأنها من بعض التماثيل الخ . الخ

ولكن الصالة فى ذلك اليوم كانت تموج بالناس وبأيديهم بيان مطبوع يقفون منه على ما سيتناوله المزاد ، وكان المدير وعماله يتنقلون فى أرجاء الصالة وقد امتلأوا نشاطاً وحركة ، حتى إذا مادنا الموعد ودق الجرس أخذ الدلال يصيح بصوت عال : سرير بلدكان الباجا بوصه ٣ طراز لويس الرابع عشر كان مخصصاً لنوم البارون دى ... وعند ذلك يتبارى الراغبون فيه فتسمع تحاورهم فى المزايدة : خمسة جنيهات ... ونصف ... سبعة ... ونصف ... عشرة

وعندئذ يصيح العامل فى أسف :

عشرة جنيهات بسْ ! مين قال حداشر ... راح نبيع ... راح نِنكسّب ... ألاَوّنه . ألاَ تْريه . مبروك عليك يَفندى

أما أنا فكنت فى شاغل عن هذه الحركة بمداعبة الببغاء ، أحدّثها فتسكت ، وأستنطقها فلا تجيب . وقد خطر لي أن أغريها بقطعة من السكر من مقهى قريب بيني وبين صاحبه صلة ، ولكنها مع ذلك لزمت صمتها بالرغم من إلحاحى ؛ وكأن صبرها فرغ فرفعت فى وجهى عينيها المستديرتين الصغيرتين ثم فتحت منقارها الأصفر صائحة فى غضب : لأ . لأ ... وعند ذلك أقبل الدلال ونقلها إلى مائدة في وسط المكان فأخذ الحاضرون يتدافعون حولها ثم طرحها فى المزاد ، حتى إذا وقف عند سبعة جنيهات صاحت الببغاء من داخل القفص وهى تقول : (ثمانيـة) فضحك الناس إلا واحداً من بينهم كان يُسمع له أنين وبكاء ، وكان رجلا قصير القامة ذابل العينين فأخذ يقول وقد اخضلّت لحيته البيضاء بالدموع : إنها تساوى أضعاف ذلك لأنها تعرف أربع لغات ؛ وكانت أنيسى فى غيبة زوجتى وأولادى بأثينا ، ولولا هذه الحرب القائمة لما عزمت على اللحاق بهم ولا

اضطررت إلى التفريط فى هذا الطير الذى يحبني وأعبده . ثم يعود إلى البكاء

أما فى هذه المرة فقد كان المعروض صورتين زيتيتين لرأسيْ رجل وأمرأة طاعنين فى السن ، وما كانت مساحة كل منهما تتجاوز عشرين سنتيمترا فى عشرة

أخذ المنادى يصيح : الثمن الأساسى جنيهان لكل صورة . والمزاد عليهما معاً . ولكن الناس أعرضوا عنهما مع ما كانتا عليه من دقة الصنع وروعة الفن ، وأخيراً أعادهما إلى حيث كانتا وأخذ في إشهار المزاد عن معروضات أخرى

لقد كانت هاتان الصورتان آيتين من آيات الفن الحديث ومع ذلك غفل الناس عن التفكير فى اقتنائهما وما كان المزاد ليرسو فيهما بأكثر من بضعة جنيهات ولكنهم أحجموا ولهم العذر ، وما كانت النفوس فى مصر قد استعدت وقتئذ لفهم مثل هذه الآثار وتقديرها والشغف بها ؛ ولو أننى كنت فى ذلك اليوم أملك أكثر من جنيهين كانا كل ما معي لما ترددت لحظة في الظفر بهما لأنني بالرغم من اشتغالى بالمحاماة كنت أيضاً مولعاً بالتصوير أتاقى فيه درساً على المرحوم باولو فورشيلا أستاذ مدرسة الفنون الجميلة . بل إننى كنت أيضاً أكثر من الاطلاع على بعض مجلات هذا الفن وعلى بضعة من الكتب الموضوعة فيه ومنها أجرومية شارل بلان التى هى بالنسبة للفنون الجميلة أشبه بمقدمة ابن خلدون بالنسبة لتاريخ العمران ، ولذلك كانت نفسى مهيأة إلى حد ما لإدراك مالهاتين الصورتين من القيمة الفنية حتى أننى بعد أن أعادهما المنادى إلى مكانهما لبثت أنظر إليهما فى خشوع وأنا يغمرنى سيال لطيف من السرور والنشوة

وكان يتنازعني عندئذ عاملان قويان امتزج فيهما سلطان الفن بسلطان العاطفة ، لأن الطريقة التى اتبعها المصور فيهما حديثة يطلقون عليها اسم Impressionnisme أي رصد الأثر الوقتي الذى تشعر به النفس . والمصور على أساس هذه الطريقة يقذف بألوانه فوق لوحته قذفاً لكى لا يتبدد الأثر الذى تكون النفس قد شعرت به فى لحظات تأملها . ولذلك لا تجد نفسك أمام لوحة مستوية مصقولة بل أمام مايشبه أطواداً وأغواراً من ألوان متحجرة لو أنك مررت عليها بأصابعك لتفززت نفسك عند لمسها . ولكنك إذا نظرت إليها من بعيد هالك ما يتجلى فيها من جمال الطبيعة الحى فتسحرك سحراً وتفتنك فتوناً .

على أن نفسى أخذت بعد ذلك تنحدر فى اتجاه آخر وأنا أتساءل عن حقيقة هذين الشخصين : أكانا أخوين ؟ أم كانا زوجين؟ لأن الذى صورهما شخص واحد (ج . موستاكيس) ولما بين الصورتين من الوحدة فى الوضع والالتفات والقياس والإطار . كما أن الصالة اشترطت أن لاتباع إحداهما دون الأخرى؛ ثم إنى لمحت فوق جمال المرأة وسموها الباديين من خلال شيخوختها وفوق مايشعُّـه وجه الرجل من دلائل القوة والنبل أنه يحمل معطفا من معاطف الجندية لا يرتديه إلا ذو مقام فيها . وعندئذ يذهب خاطرى إلى أنهما كريما المنبت ، وكانا فى بسطة من العيش فلما كشّر لهما الحظ سلكا سبيل ذلك النفر الذى يفقره البؤس وتفنيه الشيخوخة بما تحمل معها من أجسام مترهلة ووجوه مغضنة مما يسعى إليه الفنانون فى دراساتهم ، ولذلك دفعت بهما الحاجة إلى الوقوف أمامهم كنماذج

وكثيراً ما كنت أمر على تلك الصالة فأجد الصورتين فى مكانهما وأساوم صاحبهما فيهما أو فى إحداهما فيأبى ، وأخيراً قبل أن يأخذ فى واحدة منهما ثلاثة جنيهات ، فاخترت المرأة وحملتها إلى منزلي وأنا أشعر بأنى أحمل كنزاً .

كنت فى ذلك اليوم أشعر بالسعادة تهبط علىّ من جميع النواحى وأحس وأنا أعلقها على أحد جدران مكتبي بحيث تقع عيني دائما عليها أنني ظفرت بأسمى تحفة من تحف الفن . نعم إن زوجتى حين أبصرتها كادت تستلقى على ظهرها من الضحك ، وهى تدهش لأننى قد دفعت فيها ذلك الثمن مع أنها لا تساوى فى نظرها قرشاً . ولكنى كنت فى شاغل عنها بما يفوح به ذلك الوجه المغبر وتلك البشرة المتجعدة من عبير الجمال والإبداع مما زاد فى ثورتها ، فجمعت حولى أولادها وهى تقول : أنظروا ماذا جاء به أبوكم اليوم ! ومن الغريب أنه كثير الإعجاب بها ويقول إنها من أجمل الصور التى رآها ! وعند ذلك ينفجرون بالضحك ويصيحون : إيه إيه ! دى جميلة ، دى زيّ ستنا العجوزة اللى ماتت . مش كده ياماما . وعند ذلك تتشمّخ بأنفها كأنها قد تم لها الانتصار علىّ وأنا فى نفسى أضحك عليها وعلى هذا الجهل الذى غمرها حتى طاب لها الاستنجاد بهؤلاء الصغار

وياليتها اكتفت بذلك فقد أخذت تروي قصتى هذه لكل من تجتمع بهن من السيدات سواء فى دارنا أو فى دورهن فى أيام زيارتها لهن حتى علم من يعرفوننا بخبر تلك الصورة وحتى أقبل أحدهم ليزورنى وليرى بعينيه ذلك الأثر الذى أقام كل هذه الضجّة ، وكانت زوجتى حاضرة مجلسنا وهى تحدث نفسها بأن هذا الزائر سوف ينصفها وينتصر لها ولذلك أخذت تعدّ نفسها هذه المرة لتصفع كبريائى وجهلى الصفعة الأخيرة . ولكن كم كانت دهشتها حين رأته على غير رأيها وأن مادفعتُه ليس بالكثير فى جانب هذه اللوحة القيّمة . وعند ذلك خيّل إليها أنه إنما يمزح أو أنه مثلى مجنون ؛ ثم أرادت أن تتبين أمره فقالت له : إذن خذها بالثمن الذي دفعه زوجى فيها فقال : بل إننى أدفع فيها عشرين جنيهاً لو أنه يرضى . أما أنا فرفضت ، وأما هى فخرجت مغضبة

والواقع أننى ما كنت لأقبل فيها ثمناً ما مهما كان مع أنها ما كانت إلا قطعة بسيطة من القماش فى إطار قديم لا تساوى معه بضعة قروش . ولكن القيمة فى الفن الذى كساها ، واليد الموهوبة الماهرة التى أخرجتـه عليها . والفنان ، الذى وهو يصور نموذجيه ، تجرد عن كل شىء إلا عن التفكير فيهما فامتزجت نفسه بنفسيهما حتى لتلمس فى هذه الخرقة البالية وفى أختها خفقات قلبه ، وحرارة أنفاسه ، وهيامه بفنه ، وتلاشيه فيه . فما هى إلا وحى أرسلته خواطره ، وأبدعته ألوانه الخاضعة وأصابعه الجبارة . وإذن فكيف أفرط فيها ولا أكون ضنيناً كل الضن بها ؟ إن البخيل ليكتنز الدينار لذهبه ، ولكن الفنان أو المولع بالفن يحتفظ به للنقش البديع الذى على وجهيه . وقد يكون هذا النقش على قطعة من الحديد لا تساوى شيئاً ولكنه لا ينزل عنها ولو عُوِّض فيها سبيكة من الذهب الخالص

كنت سعيداً كل السعادة بهذه الصورة لا أخرج إلا إذا عرجت على غرفة مكتبي لأملأ عيني منها ولا أعود حتى أسرع نحوها لأطمئن عليها . أما زوجتى فما عادت تكلمنى فى شأنها ولكن أثر

الحزن كان بادياً على وجهها وعلى حركاتها . ولعلها الغيْرة التى أحدثت ذلك والنساء يغرن حتى من صورة ، وحتى من صورة لامرأة عجوز

على أن هذه السعادة لم تدم طويلا . فلقد كنت ذات ليلة مستغرقاً فى النظر إليها فانتقل خاطرى فجأة إلى صالة البيوع وإلى الصورة الأخرى التى بها . وعند ذلك غمرنى حزن خفى وشملنى ذهول مشوش وخيل إلى أن الصورتين إن هما إلا روحان قربت بينهما تلك الصالة فكانتا سعيدتين بهذا القرب ، أما وقد فرقت بينهما فقد هدمت بعملى هذا تلك السعادة .

وعند ذلك رفعت بصرى إليها فهالنى ما صوره لى وهمى وكأن الحزن يرج الإطار رجاً ويهز الصورة التى بين أعواده هزاً عنيفاً ، كما خيل لى أن شعرها السنجابى تحول إلى بياض ناصع ، وأن السطور الأربعة التى ارتسمت على جبينها أصبحت مضاعفة وأن تينك العينين الذابلتين اللتين كان يشع منهما النور واللطف والسكون أصبحتا أكثر ذبولا ، وانبثق منهما شعاعان ضعيفان يحملان فى ذراتهما كل معانى الظلمة والأسى والاضطراب . وعند ذلك اتجه خاطرى إلى صورة ذلك الجندى الحبيس فى ظلام تلك الصالة ، فكاد يغمى علىّ لما صار إليه وقد فعل فيه البعد مافعل بأخته أو زوجه ، حتى أننى لما أصبح الصباح عقدت العزم على اقتناء تلك الصورة وأنا أقول لأختها فى نفسى : لن تحزنى فسيكون إلى جانبك بعد قليل ، ولكن صاحب الصالة أفهمنى أنها بيعت من يوم ، وأنه لا يعرف أين يقيم ذلك الذي اشتراها . فعدت ، وقد توزّعت خواطرى وبَطُؤت خطواتى وثقل همى ، ولكنى ما كدت أجتاز عتبة الدار حتى ناولنى خادمي كتاباً قال إن رجلا تركه وسيعود

سيدى المحترم

لم يسبق لي أن حظيت بمعرفتك . ولكن سراً أليماً هو الذى جعلنى أقصدك وأطمع فى عونك وأنت محام تنصر الحق ويفيض قلبك بالرحمة . فى سنة ١٨٩٨ كنت أتهيأ لامتحان السنة النهائية للفنون الجميلة بمدرسة أتينا . وكان من بين اللوحات التى يجب أن أتقدم بها صورتان لشخصين مما يعبر عنه بالمحاولة (Etude) فرأيت أن تكونا صورتي أبي وأمي الشيخين . ولما نجحت حجزوا تلك اللوحات إلا صورتيهما فقد احتفظت بهما لمعزتهما علىّ . ولما قامت الحرب العالمية الأخيرة وقف عملى وضاقت يدى فاضطررت إلى بيعهما وأنا أبكي . ولكنى وقد تهيأ لى سبيل العمل رأيت من الواجب أن أستعيد هذين الأثرين اللذين أفرغت فيهما مواهبي وحبي . وقد عثرت على إحداهما أمس فقط باحدى صالات البيع وعلمت أن الأخرى عندك . . . فهل تحول بينها وبينى ؟ إنها أمي . . .

ج . موستا كيس

وما كدت أنتهى من تلاوة هذا الكتاب حتى سرّى عنى وخف عبء الهم الذى كان يضغط على صدرى ؛ وكان الرجل قد أقبل فسبقته إلى غرفة مكتبي وأخذت الصورة من مكانها وأنا أقول لها فى نفسى : هأنذا أبر بوعدى فأردك لا إلى زوجك فحسب ، بل إلى حظيرة ولدك أيضاً . ثم ناولته إياها فشكرنى بلسان مضطرب ثم طبع على خدى قبلة شعرت أنها هى التى طبعتها .

(القاهرة) محمود ضيرت

الثعلب الفضي

للقصصية الألمانية ڤيكى باوم
بقلم الأديب احمد فتحي مرسى

ربما كان فى طوق « مابيل » أن تحصل على الثعلب الفضي لو تسلّفت النظر قليلا إلى الأمام قبل أن ينبت لها ضرس العقل الذى بذلت فى سبيله كل ما فى يدها . . .

وكان الثعلب الفضي معروضاً فى واجهة أحد محال الفراء فى شارع واردر ، وكان من عادة مابيل أن تتلبّث أمامه برهة من كل صباح ، تسرّح البصر فى أطرافه وأعطافه ، وقلبها مجلان الخفق، عميق الوجيب، ملء شغافه أمل التحلى بذلك الفراء الجميل ... وكانت تدعوه في أحلامها «ثعلبي الفضى»

وفي كل صباح من أصباح العمل فى الساعة التاسعة والدقيقة الثالثة تلقى مابيل على ثعلبها نظرة التزوّر والوداع ثم تنطلق في سبيلها إلى محل عملها فى شركة « بارسون — مانتون » حتى تصل إليه قبل وصول « السيدة بلاكنى » مساعدة المدير . . .

وتهرول مابيل فى طريقها حتى تصل إليه أخيراً واهية لهثى وقد أعياها السير، وجهدتها العجلة.. ولكنها تجد نفسها — على الرغم من ذلك — وصلت مستأنية متأخرة عن موعد وصول السيدة بلاكنى التى تسارقها النظر الشزر خلال ساعات العمل . . .

ومابيل — إلى جانب ماتقدم — غادة فى ربيعها العشرين جميلة القسمات ... ولكن هذا لا يكفى ... فهناك جموع زاخرة من الفتيات قد تحشّدن فى الطرق وكلهن جميلات رائعات ... فما الذى مازها منهن؟.. نعم ! لقد مازها منهن لون عينيها وشعرها...

ولدت فيكى باوم فى فينا فى ٢٤ إبريل سنة ١٨٨٨ وكانت فى مبدأ حياتها تعزف على العود Harp فى أحد مسارح فينا . . . وكان للموسيقى ولصلتها الوثيقة بالمسرح أثر بين فى حياتها القصصية حتى ليرى متقصص أثرها الأدبى أن معظم أعمالها الأدبية التي سبقت قصتها «الفندق الكبير» تصف الحياة المسرحية وصفاً دقيقاً رائعاً . . . وقد بلغت أوج مجدها الأدبى بعد قصة « الفندق الكبير » . وهى تعد الآن من أكبر كاتبات القصة فى العصر الحديث « فتحى »

فإنك إذا ماثنيت إليها الطرف راقك منها التقاء شعرها الجثل وعينها الصافيتين عند لون واحد هو اللون البني الضارب إلى الذهب

هذا عن مابيل . . .

أما عن ثعلبها الفضى ... فقد كان لين الحاشية كمخمل الديباج ، ناصع اللون كروائع الشيب ، وله من الفضة وهجتها والتماعها ، وكان عندما رأته مابيل للمرة الأولى — متوسطاً للواجهة وقد نقش عليه ثمنه « أربعون جنيهاً » ثم عصفت به عواصف السوق فانتبذت به أحد أركان الواجهة وقد نقش عليه « ثلاثة وثلاثون » جنيهاً

وظل الثعلب مرقوماً بذلك الثمن ثلاثة شهور دون أن يتقدم أحد لاشترائه . . . ثم تخفض فجأة إلى « ثلاثين جنيهاً » ثم أقبلت طلائع الصيف فهبط إلى عشرين . . . وأصبحت فرصة ثمينة لمن ينهزها .

ورأته مابيل فكأنما تنزل عليها الفراء من السماء . . . إن عشرين جنيهاً مبلغ ليس بالهين ولكنه أيضاً ليس ممتنعاً عليها كل الامتناع . . . ومضت تفاول نفسها وقد استبد بها جنون الحصول عليه ، وخيل لها أن كل ماحواليها من النساء حاليات العطف بالفراء وهى وحدها العاطلة

فها هنا قرينات أصحاب الشركة الثلاث تمايد على أعطافهن الثعالب الفضية وتوشى حلل الخريف المنضرة ... وها هنا زائرات الشركة تنوس على أكتافهن ذيول الثعالب وتتثنى فى هينة ورفق ... وها هنا ثلاث عاملات من زميلاتها يتخطرن فى تدلل وقد تزين بالفراء الجميل ... نعم ... إن ثعالبهن صغيرة وقصيرة ولكنها ثعالب فضية أيضاً ...

وفى ذات صباح من أصباح الخريف الضاحية أقبلت السيدة بلاكني تزيف فى خطرتها ، وقد تطوق عنقها بثعلب فضى جميل كان هدية المدير إليها في عيد ميلادها الخمسين .

وكان هذا هو اليوم الذي قر فيه عزم مابيل على شراء ثعلبها الفضى الذى عقدت أسبابها به هذه الشهور الطويلة ... فبدأت تقتصد فى مالها

وأخذت مابيل تقضى أمسياتها فى المنزل عازفة عما خلاه وقد ارتسمت فى مقلتيها صورة السيدة بلاكنى وقد التمع فراؤها الفضى على كتفيها وتوهجت عيناه الدقيقتان من بين طوايا الشعر الغزير

وما أكملت ما بيل اثنى عشر جنيها حتى دهاها ما دهاها من ضرس العقل ... وأنت أعلم بما ينتاب الانسان فى مثل هذه الحال ... يتولاه الألم ، ثم يبرح به ، ثم لا يستطيع مضغاً ولا حركة ، ثم يفحصه الطبيب ، ثم يستزيره يوماً ثانياً ثم يوماً ثالثاً ، ثم ينتهى الأمر بخلع الضرس . ثم يعطيه الطبيب بطاقة صغيرة عليها الأجر .

إلى هنا لم يبق مع مابيل إلا سبعة جنيهات ، فخلت إلى نفسها حزينة يائسة ... وأقبلت عليها صديقتها ليليان . تسرى وترفه عنها ... وكانت ليليان فتاة فى مثل سن مابيل تعمل في أحد محال التجميل ، وكانت على النقيض من مابيل فتاة فارعة جميلة مرحة — من هؤلاء الفتيات الباسمات اللائى يجتذبن قلوب الرجال من النظرة الأولى — وكان جمالها يقوم على التصنع والتطرية إلى حد ما ... فوجه ناصع البياض ، وأظفار شديدة الحمرة ، وشعر منسق مصفف ... الخ ...

ولعل من العجيب أن تجمع الصداقة بين هاتين

الفتاتين على ما فيهما من تباين الأهواء والمنازع ... ولكن لا عجب فى ذلك فقد جمعهما منزل واحد وألفهما سن واحدة ، وضمهما أجر متقارب ... فكانت مابيل تشغل جانباً من قلب ليليان ، وكانت ليليان تشغل جانباً من قلب مابيل ... قالت ليليان :

— يجب عليك أن تحصلى على المال من طريق غير الاقتصاد .

— فهل تسمحين يا عزيزتي أن تصفى لي الطريق إلى ذلك ؟

— إننى مقدمة على شراء ورقة نصيب ... فهلا تقاسمناها .

وكانت ليليان طموحة مغامرة في أمثال هذه النواحى وكثيراً ما كان يواتيها الجد فتربح ... ... فأجابت مابيل :

— إذا كان الأمر كذلك فسأبتاع بدورى ورقة أخرى .

ولإجمال الحديث أقول إنهما ابتاعتا ورقتين ربحت إحداهما اثنى عشر جنيها .

وقد يبدو لأول وهلة أن مابيل غمرها الفرح بالربح ولكنها كانت على النقيض من ذلك حزينة يائسة لأن نصيبها لا يقوم بابتياع الثعلب الفضى ... فقالت ليليان :

خفضى عليك يا عزيزتى ... إننى أخشى عليك أن تمسك مواسُّ الجنون من جراء ذلك الثعلب اللعين .

— إننى أود أن تريه أولا يا ليليان

وانصاعت « ليليان » للرجاء وذهبت — فى طريقها إلى محل عملها — فألقت عليه نظرة خاطفة فتعلقته وعادت إلى مابيل قائلة :

— لو استطعنا أن نشترك معاً فى شرائه ؟

وسقطت هذه الكلمات العذبة الطلة على قلب مابيل سقوط الندى على الزهر فندّت أطرافه ، وأثلجت شغافه ... فقالت مرددة :

— لو استطعنا أن نشترك معاً في شرائه ! ولكن لمن يكون الثعلب ؟

— لنا على السواء

وطربت مابيل لهذه الفكرة وصحبت ليليان فاشترتا الثعلب الفضى ... وأصبح ملكهما على السواء ... تطوّق به مابيل اليوم ... وتأخذه ليليان غداً ... ثم مابيل بعد غد ... وهكذا ...

والواقع أن ليليان كانت سخية من جانبها عازفة بعض الشيء عن الثعلب ... فكثيراً ما كانت تلتمسه منها مابيل فى غير وقتها فلا تمانع قائلة ...

— خذيه يا عزيزتى ... فسأرتدي اليوم فرائى الأخضر .

***

ولبث هذا النظام معمولا به بينهما في رقة من الجانبين ، وصفاء القلبين من اليوم السادس عشر من نوفمبر عند ما ابتاعتا الثعلب إلى ذلك الاثنين من إبريل عند ما ظهر الرجل فى القصة

في صباح يوم من ابريل رخىّ النسيم ، أقبلت سيارة رمادية أنيقة إلى « صالون السيدة هيلينز » للتجميل وهبط منها شاب يمم شطر المديرة وسألها عن السيدة هاريس ... وأرسلت المديرة ليليان للسؤال عنها داخل الصالون ، وبعد برهة أقبلت ليليان تقول : إن العاملة تقومها بعملية تمويج الشعر

وإنها ربما تستغرق نصف ساعة ... فقال الشاب في خفوت :

— سأعود ثانية

وقبل أن تضم ليليان شفتيها بعد تلك البسمة التي شيعته بها اختفى الشاب وسيارته ... وعاد الشاب بعد ثلث ساعة وجلس ينتظر مع ليليان التى علمت منه أن السيدة هاريس ليست زوجته وليست أخته وإنما هي والدته وأنه يسكن معها فى «تونبريدج» وأنه يشتغل مهندساً فى المدينة .

وكان جيمس شاباً ريق الشباب لدن المعاطف فارع القامة لطيف المدخل ، لا يستطيع أحد أن يَفرِقَ بينه وبين بسمته اللطيفة الوادعة ...

وانتهت السيدة هاريس من عملية التمويج ، وخرجت تعبق أردانها بالأنسام العاطرة ، وشعرها الرمادى مموّج ، مصفف ، معطر ، وصحبت ولدها إلى السيارة فانطلقت بهما إلى « لونبريدج » . . . ولم ينس جيمس هذه المرة أن يشيع ليليان بابتسامة عذبة جميلة ... ...

* * *

وعادت السيارة الرمادية إلى الصالون مرة أخرى خلالَ ذلك الأسبوع ثم مرة ثانية ثم ثالثة ... ثم كانت صداقة بين جيمس وليليان ... ودعاها جيمس بعد ذلك للعشاء معه ... وطربت ليليان لهذه الدعوى وقبل أن تتخلج شفتاها بالقبول ذكرت مابيل فقالت :

— بكل سرور ... إذا أمكننى أن أصطحب صديقة لي

وقبل جيمس ذلك فرحاً ... ثم قال فى ابتسام :

ولكن متى يكون ذلك ...

السبت ؟

ولكنه كان يقضى السبت والأحد دائماً فى « تونبريدج » مع والدته ... فقال :

— وماذا عن « الاثنين » ؟

— الاثنين ؟ ... حسن ... إلى اللقاء

وكان ذلك يوم الخميس ... وكان يوم مابيل للتحلى بالثعلب وستأخذه منها ليليان صباح الجمعة ، ثم مابيل السبت ، ثم ليليان الأحد ، ثم ... آه إنه لمابيل يوم الاثنين

وفى صباح الأحد دخلت ليليان على مابيل فى مطرفها اليابانى الموشى :

— أأنت فى حاجة اليوم إلى الفراء ياعزيزتى ؟

— كلا ... فلن أغادر الغرفة اليوم

وفى المساء قبيل موعد النوم بقليل أقبلت ليليان تقول لمابيل فى بسمة جميلة :

— آه ... لقد نسيت أننا مدعوتان للعشاء غداً

— مدعوتان ؟ ... ولكن من دعانا ؟

— جيمس

— ومن جيمس هذا ؟

— سترينه ... شاب لطيف

— ولكن كيف يدعونى جيمس هذا وأنا ...

فقاطعتها باسمة :

— رأيت من الأفضل أن نذهب معاً

— أيحبك هذا الشاب ؟ ...

— يلوح لى ذلك

— وأنت ؛ أتحبينه ؟

— ربما ... قالتها فى ضحكة عالية مرنة

— ولكن حدثينى ياعزيزتي ... من هو ذلك

الشاب ؟ ... أهو جميل ؟ ... وماذا يعمل ؟ ... وأين نقابله ؟ ... وأى ثوب أرتدى ؟

وأغرقتها مابيل فى فيض من هذه الأسئلة ... فأجابتها ليليان :

— سترين ... إنه سيمر علينا غداً فى سيارته عمي مساء يا عزيزتى

وخرجت ليليان تتخطر فى مشيتها بعد أن حملت الثعلب الفضى ... ولم تفطن مابيل أول الأمر إلى ذلك ، ولكنها ذكرت أخيراً أن يوم الاثنين من نصيبها ... وفى مساء الاثنين بين السادسة والسادسة والنصف هبت العاصفة ، وابتدأ الشجار ... إذ نبهت مابيل ليليان إلى أن الثعلب من نصيبها ذلك اليوم ... ولكن ليليان أصرت على أنه من نصيبها هى الأخرى وقالت :

— إننى لم أتطوق به البارحة

— هذا لا يعنينى ... ولكنه كان يومك. فقالت ليليان محتدمة :

— لقد دفعت نصف ثمنه ... أو لم أفعل ؟ .. ولم أستعمله إلا زهاء ربع المدة ، لقد كنت سخية فيه معك أكثر مما ينبغى

ونزلت هذه الكلمات على مابيل كالسم الوَحِىِّ ، حقاً لقد كان معها الثعلب أكثر المدة ... فقالت فى استخذاء :

— ولكن كيف أصحبك ؟ وليس لدىّ إلا ثوبى الأزرق القديم .. ؟ أما أنت فلديك الكثير ويمكنك أن ترتدى ثوبك الأخضر الجديد

ولكن ليليان لم تعرها التفاتاً . . . وطفقت تتزين أمام المرآة

***

وصمتت مابيل وأخذت طريقها إلى الحمام فأوصدت خلفها الباب ثم نظرت فى المرآة ، وقد تكفأ لونها ، واستَدْمَعَت عيناها من التأثر ...

وأقبل جيمس أخيراً وكانت مابيل تلوح فى ثوبها البسيط جميلة رائعة ، وقد ندت الدموع وجنتيها ووردت طرف أنفها . . . أما ليليان فكانت ترتدى ثوباً أحمر مزيناً بالريش ، وعلى كتفها الأيسر يَنُوس الثعلب الفضى ، وعلى الأيمن طاقة صغيرة من الزهور وعلى جيدها سمط منضّد من اللؤلؤ ... وركبوا جميعاً السيارة ، فعبق جوها بأعطار ليليان ... وانطلقت فى طريقها إلى المطعم حيث كان جيمس ينتظر قدوم صديق له فاختار منضدة قريبة من المدخل حتى يلحظ قدومه ...

ورأت ليليان ألا تمر بجمع حفيل كهذا دون أن تلفت لحاظ من حولها ... وبهزة خفية من كتفها سقط الثعلب الفضى على الأرض فتثنى جيمس والتقطه ثم انتهض واقفاً وأعاده إلى كتفها وهو حانق مغيظ ، فقد كان لا يحب أن يلفت إليه الأنظار ... وجلست ليليان تتحدث وتتحدث وتسهب وتستفيض ومابيل معقودة اللسان صامتة ... وأخذ جيمس الملال من الحديث ، فطفق يسارق مابيل النظر ... ونظر جيمس فإذا يداها على المنضدة ... فجعل يقارن بين هذه الكفّ المطلية الأظفار التى يفوحُ من أَنْمُلِها العطر ... وبين هذه الكف الرَّخْصة ، الرقيقة الأنامل ، الوردية الأظفار دون طلاء ... ...

وفجأة ... ودون أن يدرك جيمس حقيقة ما يفعل رفع تلك الكف الجميلة إلى فمه وطبع عليها

قبلة هادئة ... ثم أعادها إلى مابيل كما لو كان يعيد شيئاً ثميناً يخشى عليه التلف

***

وأقبل صديق جيمس أخيراً وهو شاب فى مقتبل العمر ، وعندما قدم جيمس اليه صديقتيه تبدت له ثلاثة أمور جديدة ، أولها أن اسم مابيل ينتهي بكلمة « سوتون » . وثانيها أنه يذكر ذلك الاسم منذ أيام دراسته فى « اكسفورد » وهو اسم صديق له يدعى « ريتشارد سوتون » . وثالثها أن صديقه ريتشارد سوتون أخو صديقته مابيل سوتون ...

وجلس جيمس يفكر فى تلك الفتاة الصغيرة الجميلة التي تجالد الحياة وتستدفع الفقر بيديها ليتربى أخوها الأكبر فى « اكسفورد » ... إنه لعمل جليل حقاً ... وإن مثل تلك الفتاة لجديرة بالاكبار والاجلال ... ...

وعزفت الموسيق وبدأ الرقص ، فرقص جيمس مع مابيل أولا ثم مع ليليان ، ثم مع مابيل ثانياً ... ثم جلسوا جميعاً ، وجعلت ليليان ترسل النكات الفارغة الواحدة تلو الأخرى ... وجلست مابيل تجاه جيمس بوجهها الباسم الحالم ، وعيناها وشعرها تفيض ذهباً ... ...

ورتب جيمس الأمور على أن يصحب صديقه ليليان إلى المنزل ، وأن يصطحب هو مابيل فى سيارته على أن تتولى القيادة ذراعه اليمنى ، لأن الذراع اليسرى لايمكنها أن تغادر تلك المعاطف اللدنة

وقبل أن تهبط مابيل من السيارة أمام المنزل دعاها جيمس لزيارته فى « تونبريدج » لترى والدته فأجابت بالموافقة .

والظاهر أن السيارة الرمادية الجميلة جالت عدة جولات قبل وصولها إلى المنزل ... لأن مابيل وجدت ليليان قد وصلت قبلها وأوصدت عليها باب غرفتها ... ...

من يعلم ؟ ... ربما لو ازينت مابيل تلك الليلة وتطوقت بالثعلب الفضى لتبدل الموقف وصار غير ماهو عليه الآن ... ونظرت مابيل .. فاذا الثعلب الفضى ملق على سريرها ينظر إليها بعينيه الوهاجتين فى دهاء ومكر ... كما لو كان حياً .

« اسكندرية » فتحى

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الرابع

الفصل الأول

وما تمكنت أن أعرف يوماً حقيقة خلق مركانسون وفطرته من المراوغة أو السذاجة ، غير أنني ما ارتبت قط فى أنه يضمر لي البغضاء ويعمل على نكايتي ماوسعه . أما مدام بيارسون فكانت تنيل هذا الرجل قسطاً مما تبذل من مودة لعمه الكاهن وهو جدير بالاحترام . وتملك مركانسون شيء من الغرور لالتفات مدام بيارسون إليه فأصبح غيوراً ، وبعض الناس لا يملكون أنفسهم من الافتتان لكلمة عطف أو لابتسامة تبذل لهم من شفة تفتر عن نور الجمال

ما طرحت أول سؤال على مركانسون حتى بدت عليه من دلائل الدهشة ما بدا على خادمى لاريف وما كنت أنا أقل اندهاشاً منهما مما أفعل ، ولكن مَن من الناس يدرك ما فى أغوار نفسه ؟ ...

وعرفت من أول جواب أورده مركانسون أنه نفذ إلى قصدى وقرر ألا يرضيني إذ قال :

— أنت تعرف مدام بيارسون منذ زمن طويل وتزورها بلا كلفة فكيف لم تصادف المسيو دالانس عندها ؟ ولعل لديك الآن أسباباً أجهلها تدفع بك إلى الاستعلام عنه ، أما أنا فكل ما بوسعى أن أقول عن هذا الرجل هو أنه كريم المحتد ومن أهل الصلاح والبر ، وقد كان مثلك يا سيدى يزور مدام بيارسون بلا كلفة وهو صاحب أملاك واسعة ومضياف فى بيته ، وكان مثلك يعزف أجمل القطع الموسيقية عندها وما أعلم أنه قصر فى شيء من واجباته فى سبيل الإحسان ، فقد كان أثناء وجوده فى هذه البلاد يرافق مدام بيارسون فى رحلاتها كما ترافقها أنت ياسيدى ، ولأسرة هذا السيد سمعة طيبة فى باريس ؛ وكنت كل مرة أزور فيها مدام بيارسون أصادفه عندها ، والمعروف عنه أنه حسن السيرة والأخلاق وما أعنى بالصداقة التى ذكرتها إلا الصداقة الشريفة اللائقة بأمثال هذا الرجل . وأظن أنه لا يأتى إلى هذه الأرجاء إلا للصيد وقد كان صديقاً لزوج الأرملة ، ويقال إن دالانس ذو ثروة كبيرة وأنه جد كريم ، أما أنا فأكاد لا أعرفه إلا بما سمعت عنه...

بمثل هذه العبارات المشوشة كان هذا الجلاّد الثقيل يجهز على . ونظرت إليه وهو يتكلم وقد استولى الخجل على فما قدرت أن أوجه إليه أى سؤال كما عجزت عن وضع حد لثرثرته فذهب فى أقواله ، وقد أوردت مثالا منها ، إلى أبعد حد من النميمة والاغتياب دافعاً بنصله المتعرج إلى قلبي حتى إذا اخترقه إلى أقصاه تولى عنى ، فما تمكنت من إمساكه ، فذهب وكأنه لم يقل لى شيئاً

وبقيت وحدى على طريق المتنزه أرقب الظلام ينسدل على تلك الارجاء وأنا أتردد بين عاطفتى الغضب والأسى إذ لم يكن بوسعي أن أعتقد فى ضلال هذه الثقة العمياء التى استسلمت لها فى حبي لبريجيت فذقت منها مثل هذه اللذة الصافية ، وكنت أرى فى

اندفاعى نحو هـذه المحبوبة اندفاعاً شلت مقاومتى أمامه دليلاً كافياً على أنها أهل لتعلق بها ، لذلك كان يصعب على التصديق بأن هذه الأشهر الأربعة الطافحة بالسعادة لم تكن إلا أحلاماً

وتساءلت فجأة فى سريرتى عما إذا كانت هذه المرأة مخلصة عند ماظهرت فى مظهر التمنع فى حين أنها استسلمت بعد ذلك بسرعة وقد كفت كلة واحدة لتبديد مقاومتها . ولاح لى أن من شغلتنى لم تكن إلا واحدة من بنات الدلال المغريات أو أن الدلال وسيلة كل امرأة تريد أن تتبع غريزة الدفاع أسوة بكل أنثى

أفما باحت بريجيت بغرامها من تلقاء نفسها فى حين اعتقدت أنها أفلتت إلى الأبد من يدى ؟

أفما رضيت فى أول يوم عرفتها فيه أن تستند إلى ذراعى قبل أن تعرف من أنا بشىء من الخفة كان على أن أتنبه له لتنبيه ريبتى

إذا كان هذا الدعو دالانس قد توصل إلى امتلاكها فالأرجح أنه لم يزل يتمتع بها حتى الآن ، فان من هذه العلاقات مالا بداية لها ولا انتهاء فى المجتمع ، فاذا ما التقى عاشقان قديمان استسلما لما تعوداه ، وإذا افترقا نسى أحدهما الآخر

إذا كان هذا الرجل يأتى إلى هذه الارجاء فى كل موسم صيف فانها ستجتمع به عند قدومه وقد لا تقطع علاقتها بى

من هي عمة هذه المرأة ياترى ؟ وما معنى هذه الحياة السرية المستترة وراء أعمال البر والاحسان ؟

ألا تكون هذه المرأة وعمتها من مشعوذات المجتمع تتوسلان إلى اكتساب المقام السامى بهذا البيت الصغير والتظاهر بالوداعة والحكمة ؟ إننى ولا ريب قد علقت فى شرك غاوية وأنا مغمض العينين أحسب أن فى قلبها حباً وهياماً . فما على أن أفعل الآن وليس أمامي سوى هذا الكاهن الذى يتذرع بالابهام تجاهى وإذا أنا لجأت إلى عمه فلا بد أن يكون أشد تكتما منه ؟

من سينقذني من هذه الورطة ؟ من سيمزق ستار الريب فتنجلى الحقيقة لعينى ؟

بهذا كانت تخاطبنى غيرتى ، فتنسينى كل ماذرفت من دموع وما تحملت من أوصاب ، فأصبحت وما مر يومان بعد على استسلام بريجيت لي أضطرب لتوصلى إلى التمتع بها وما كنت فى هذا إلا كسائر المتشككين ، أضرب صفحاً عن العواطف والأفكار لأصارع الوقائع نفسها مقدماً على تشريح من أهوى كأنها جثة لا روح فيها

وكانت تجول هذه الأفكار فى دماغى ورجلاي تقودانى إلى مسكن بريجيت ، ولما اجتزت الحاجز الحديدى لاح لى نور من نافذة المطبخ وخطر لى أن أستجوب الخادمة فاتجهت نحوها وأنا أتلمس بعض القطع الفضية فى جيبى ، غير أننى ماوصلت إلى العتبة حتي وقفت واجماً . وكانت هذه الخادمة امرأة مسنة ناحلة حفر العمر فى وجهها أثلاماً وأصبح ظهرها مقوساً لفرط ما انحنى، ونظرت إليها فاذا هى تعمل فى غسل الأوانى على مصب قذر وفى يدها شمعة ترتجف أشعتها وحولها أوعية الطبخ والصحون وبقايا طعام يحدجه كلب دخل ورائي متجسساً خجولا . وكانت تفوح من الجدران الرطبة رائحة تعفن تملأ المكان ، وما لمحت الخادمة وجودى حتى ابتسمت ابتسامة معنوية لأنها كانت رأتنى منسلاً من غرفة معلمتها عند الفجر ، فارتعشت

والاشمئزاز يملأ نفسى مما أتيت أطلب في هذا المكان من أمر يشبه حقارته . فوليت الأدبار هارباً من هذه المرأة ومن غيرتى كأن الروائح الكريهة المنتشرة هنالك خارجة من قلبي

وكانت بريجيت أمام النافذة تسقى أزهارها وبقربها طفل إحدى جاراتها جالساً بين المساند اللينة وقد أمسك بكمها وهو يسرد لها حديثاً طويلا لا يفهم وفمه محشو بالحلوى ، فتقدمت وقبلت الطفل على خديه كأنني أستعيد لنفسى بعض الطهارة منهما

فاستقبلتني بريجيت بشيء من الحذر لأنها رأت شخصها منطبعاً فى عيني وقد غشيتها الشكوك وكنت من جهتى أحاذر أن ألتقى بنظراتها لأنني كلما أمعنت فى جمالها ومظاهر اخلاصها أذهب إلى القول بأن هذه المرأة شيطان رجيم إذا هي لم تكن ملكا كريماً . وكنت أستعيد فى ذهنى كلمات مركانسون لأقابل بينها وبين ملامح عشيقتى وإشراق وجهها الرائع فأقول فى نفسى « إنها لبديعة الحسن ولكنها جد خطرة إذا هى أتقنت المخاتلة ولسوف تجد خصما عنيداً يقاتلها بمثل سلاحها »

وبعد أن صمت طويلا قلت لها : قبل أن أجيء إليك تلقيت كتاباً من صديق يسألني نصيحة فى أمره وهو شاب ساذج يقول إنه اكتشف أن المرأة التى تستسلم له تستسلم أيضاً لعاشق آخر

— وبماذا أجبته ؟

— ألقيت عليه سؤالين وهما : أهي جميلة ؟ وهل أنت تحبها ؟ فان كنت عاشقاً لها فاتركها ، وإن كانت جميلة ولست ولوعاً بها فاحتفظ بها وتمتع بجمالها ، ولك أن تسرحها حين تشاء إذ ما الفرق بينها وبين سواها ؟

وما سمعت بريجيت كلماتى حتى ابتعدت عن الطفل ومشت أمامى إلى الغرفة وجلست على مقعد لا تصل إليه أشعة القمر ، وكنت أنا أشعر بشدة ما ألقيت من كلمات وقد امتلأ فؤادى مرارة من معانيها القاسية .

وذعر الطفل فبدأ ينادى بريجيت وينظر إليها من بعيد بعين ملؤها الحزن ، وما لبث حتى سكت عن مناغاته واستغرق فى النوم على مقعده ، وهكذا حكمنا الصمت نحن الثلاثة ومرت غمامة على القمر حجبت أنواره .

وبعد هنيهة دخلت خادمة تحمل مصباحاً لتأخذ الطفل من مرقده ، فوقفت وبريجيت فى آن واحد ورأيتها تربط على قلبها براحتيها وتهوي إلى الأرض أمام السرير فهرعت إليها مذعوراً وكانت لم تزل محتفظة بوعيها فرجتنى ألا أدعو أحداً وقالت إنها تصاب أحياناً بالخفقان منذ صباها دون أن يكون من هذه النوبات التى لم تجد لها علاجا أقل خطر على حياتها ؛ وجثوت بقربها ، ففتحت لي ذراعيها فألقيت رأسى على كتفها ، وعندئذ قالت لى : إننى أشفق عليك ياصديق . فهمست فى أذنها : يا لشقاوتى ويا لجنونى ! ولكنني لا أستطيع كتمان أمر تضمره سريرتى . من هو يا ترى المسيو دالانس الذى يقطن الجبل ويأتى لزيارتك أحياناً ؟ ولاحت دلائل الاستغراب على وجهها عند سماعها هذا الاسم فقالت : دالانس هو صديق لزوجى

وحدجتنى كأنها تريد الاستفهام عن سبب سؤالى وقد امتقع لونها فعضضت شفتى بأسنانى وقلت فى نفسى : إذا كانت ترمي إلى مخادعتى فقد أساءت التصرف بإعلان ما أضمرت

ونهضت بريجيت متثاقلة تتمشى فى الغرفة

مستروحة بروحتها وقد تهدجت أنفاسها ، وشعرت بأنني رميتها بسهمي فحكمها الصمت وتلاقت نظراتنا وفيها برود وفيها شيء من العداء . وتوجهت إلى مكتبها وفتحت الدرج وأخرجت منه لفافة أوراق مربوطة بشريط من حرير فألقتها إلي دون أن تفوه بكلمة .

وبقيت ذاهلاً عنها وعن رزمة الأوراق التي ألقتها إلي إذ كنت مستغرقاً كمن طرح حجراً في هاوية وصمد يتنصت إلى دويه

ولاحت لأول مرة أمامي أمارة الكبرياء الجريحة على وجه بريجيت وقد محت عنه سطور الاضطراب والاشفاق فشعرت أنني منها تجاه شخص غريب . وقالت اقرأ هذا

فتقدمت نحوها ماداً يدي فكررت قولها : اقرأ هذا — بلهجة باردة .

وشعرت وأنا أقبض على الأوراق أن شكوكي قد زالت فاعتقدت ببراءة بريجيت ورأيتني ظالما يخترق الندم قلبه .

وقالت : أنت تذكرني بأن عليّ أن أسرد تاريخ حياتي ، اصغ إلي لأقص عليك . وبعد ذلك تفتح أدراج مكتبي لتقرأ كل ما فيها من رسائل كتبتها أنا وكتبها سواي .

وجلست مشيرة إليّ بالجلوس ورأيتها تتجلد لتبدأ بحديثها وقد علت وجهها صفرة الموت وتشنج عنقها فتهدج صوتها .

فصحت بها : بريجيت ... بريجيت . أستحلفك ألا تتكلمي ويشهد الله أنني ما خلقت على ما ترين وما كنت من قبل لا متشككاً ولا متحدياً . لقد ضللني الناس وأفسدوا قلبي ، لقد مرت بي غيرة مفجعة ألقت بي إلى الهاوية ، فأنا منذ سنة لا أرى من الحياة إلا شرورها . ويعلم الله أنني ما كنت ، حتى صدمني هذا الاختبار ، لأعتقد بامكان استسلامي إلى الغيرة وهي أفظع ما يمثله الانسان من أدوار الحياة . ليشهد الله أنني أهواك وليس لسواك أن يشفيني من علل أيامي الماضيات وما عرفت فيها من النساء إلا من خدعتني وكن قاصرات عن إدراك الحب . لقد عشت فيما مضى كعاشق وفي قلبي من التذكارات ما لا قبل لي بمحوها . فما الذنب ذنبي إذا كانت أضعف التهم وأبعدها عن التصديق تقرع من هذا القلب أوتاراً لم تزل تهتز بآلامها وهي مهيأة لقبول أية ضربة لتستنطق الأوجاع .

لقد ذكر هذا المساء أمامي اسم رجل لا أعرفه ولا علم لي بوجوده وقيل لي إن شائعات لا طائل تحتها دارت حولك وحوله وأنا الآن لا أسألك شيئاً عن هذا الأمر الذي آلمني لأنني ارتكبت فيه ذنباً لا يغتفر وأتيت معترفاً به أمامك ، وبدلا من قبول ما تعرضينه على سألقي بهذه الأوراق إلى النار

بحقك لا تحاولي تبرير نفسك لئلا أسأل أمام نفسي . لاتنزلي بي العقاب وما لي من ذنب غير فجيعتي وآلامي .

وهل لي أن أرتاب فيك وأنت على هذا البهاء وعلى هذا الاخلاص ؟ فان لفتة واحدة منك تحمل من الإفصاح ما لا يمكن أن أستجلي بنفسي لتثبيت هيامي . آه لو تعلمين بما ابتلي من الفجائع والأكاذيب هذا الفتى الماثل أمامك الآن ! لو تعلمين كيف عامله الناس وكيف هزأوا به وبخير صفاته ، وكم اجتهدوا لتعليمه كل ما يقود إلى الشكوك والغيرة واليأس !

وآسفاه أيتها الحبيبة ! إنك لاتعرفين من هو هذا

الذى تعشقينه . لا توجهي إلى اللوم والتقريع بل تجلدى وأشفقى على إذ لا بد لي من أن أنسى وجود كل كائن على الأرض إلاّ اياك فان أمامي مآزق من الآلام يجب عليّ اجتيازها وما كنت أتوقع أن أراها معترضة على سبيلى تتحدى قواى للمجادلة والنضال . إننى ما عرفت ما فى ماضيّ إلا منذ ضممتك بين ذراعى إذ شعرت وأنا أضع قبلاتي على شفتيك بما على شفتى من أوضار . المعونة يا بريجيت ؟ إنني ألجأ إليك فساعدينى بحق ربك على الحياة فان ربك قد خلقنى خيراً ممـا ترينى الآن .

وفتحت بريجيت معصميها وضمتنى إليها طالبة منى اطلاعها على الوقائع التى أدَّت بى إلى هذا الموقف ، فما سردت لها إلا ماقاله لاريف لأنني جبنت عن الاقرار لها بأنى استنطقت مركانسون . وعادت فأكرهتنى على سماع إيضاحها فقالت : إن دالانس أحبها ولـكنها رأت ما هو عليـه من خفة وتقلب فأعلنت له أنها لا تقصد الزواج ورجته ألا يعود إلى ذكـر عواطفه لتخضع لارادتها ، ومنذ ذلك الحين أصبحت زياراته نادرة حتى انقطع عنها .

قالت هذا وسحبت من الرزمة كتاباً عرضته على وهو يحمل تاريخاً حديثاً فـا ملـكت وجهى من الاحمرار إذ رأيت فيه إثبات ما أعلنتـه من الحوادث

وأكدت لى أنها تعفو عنى غير أنها فرضت على كعقاب أن أوافيها بلا إبطاء بكل ما يدعو إلى تبين شكوكى فيما بعد وتبادلنا العهد بقبلة ، وعند ما بارحتها عند انبثاق الفجر كنا نسينا أن فى الوجود رجلا يدعى دالانس .

الفصل الثانى

إن للعاشقين شيئاً من الركود والأسن يطفو عليه مرح كله مرارة وألم ، وما حالتهم هذه إلا نتيجة حياة تتحكم فيها شاردات الأهواء لا حاجة الأجساد فما جسد الفاسق إلا مطية تفكيره الجموح وما تقيه الارادة وقوة الشباب مغبة التفريط إلاّ إلى حين ، لأن للطبيعة انتقامها الدساس الخفى وإذا انتبهت القوة يوماً لاستعادة ما هدر منها فإنها تجد الارادة المشاولة تترصدها لتدفع بها من جديد إلى التفريط

إن الفاسق الذى أفلت زمام التمتع من يده لا يجد غير ابتسامة الازدراء يقابل بها كل ما كان يثير شهواته فهو يقتحم ملاذه بثورة الأعصاب لا برصانة القوة . وما يستولى الفاسق على ما يحب إلا عنوة واغتصابا ، وقد أصبحت حياته ملتهبة محمومة فيلجأ إلى المسكر وإحياء الليالى فى المواخير ليرتفع بأعضائه المنهوكة إلى مستوى الملذات

إن مثل هذا الرجل يحس فى أيام ضجره وتراخيه بالمجال السحيق بين قوته وشهوته بأكثر مما يشعر به أى رجل آخر ، وإذا ما أراد مقاومة ما حوله من مغريات فإنه يلجأ إلى الـكبرياء مستمداً منها الاعتقاد الوهمى بأنه يزدرى هذه المغريات ولا يأبه لها

وهكذا لا ينى الفاسق متنقلا على ولائم حياته وقد قبض الغرور على عنقه ليجره جراً بين سعّار شهوته وكربته حتى يدفعه إلى هاوية الفناء . وبالرغم من أننى كنت أفلت من زمرة الفاسقين فان جسدى تذكر فجأة أنه كان محشوراً بينهم ، وما كنت لأشعر بمثل هذا الانبعاث من قبل ، حين اجتاحنى الحزن الشديد لوفاة والدى ثم جاء الحب المبرح يشغلنى فارتد الملل

عني وأنا فى عزلتى وما يهم المنفرد إن دار به الفرح أو ساورته الأحزان

إن « الزنك » لا يدفع بالشرر الكامن فيه إلا إذا احتك « بالنحاس » النقي وقد جاءت قبلات ريجيت كهذا النحاس تقدح ما كمن فى أعماق فؤادى فكنت وأنا أواجهها استجلى حقيقتى فأعرف نفسى

وقد كنت أصبح أحياناً وأنا شاعر بحالة جد غريبة في تفكيرى فأحسبنى قضيت ليلى فى وليمة ترك بي طعامها وشرابها ما أنهك قواى فتتعبنى أضعف المؤثرات الخارجية وكل الأشياء التى أعرفها واعتدت النظر إليها تورثنى الملل والنفور ، فاذا تكلمت سخرت بأقوال الناس وبخواطري نفسها فكنت أستلقى على مقعد ، مستسلماً للكسل ، معارضاً فى تنفيذ ما قررناه من تنزه ، مستعيداً ما كنت قلته فيما مضى لحبيبتى من كلمات التودد والاخلاص ، مفسداً بذلك تذكار أيام الهناء

وكانت ريجيت تنظر إلي حزينة وتقول : بالله دع هذا يا أوكتاف ، إذا كنت تضمر شخصيتين مختلفتين أفما بوسعك أن تدع الشخصية الطيبة وشأنها عندما تتبين فيك الشخصية الشريرة

وما كانت معارضة ريجيت لضلالى إلا لتزيدنى استغراقا فى مرحى المزعج ، وما أغرب طبيعة الانسان المتألم فهو يرمى أبداً إلى إيلام من يهوى . وهل من داء أفظع من داء العجز عن التحكم فى الذات

وما أشد ما تحتمل المرأة إذ ترى الرجل الذى ضمت إلى صدرها ينقلب هازئاً بلا مبرر بأقدس ما فى ليالى الهناء من أسرار . وكانت ريجيت تتجلد فلا تهرب منى بل تبقى إلى جنبى منحنية على قطعة تطرّزها وأنا ذاهب بمهازلى القاسية أنال من الحب وأنزل به أوجع الاهانات وهي تنظر بصبر إلى فمى ولما يزل مرطبا بقبلاتها يتدفق تحقيراً وجنوناً

وكنت فى الأيام التى تجتاحنى فيها مثل هذه النوب أندفع إلى ذكر ما قضيته فى أيام الفحشاء فى باريس فأصورها كأنها خير حياة ، فأقول لبريجيت : ما أنت إلا قانتة متعبدة ، وهل لك أن تعرفي ما هي هذه الحياة فليس فى الناس خير ممن لا تنالهم الهموم إذ يمارسون الحب دون أن يعتقدوا به

فكأنى كنت أعلن لها بصراحة أننى لا أعتقد بالحب أنا أيضا

وتقول لى ريجيت عندئذ : إذا كان الأمر على ما تقول فما عليك إلا أن تعلمني ماأرضيك به ؛ ولعلى لست أقل جمالاً من معشوقاتك اللواتى تأسف لفراقهن . وإذا رأيت أننى محرومة من المعرفة التي كن يبدينها لتسليتك على طريقة خاصة فأنا مستعدة لاقتباسها . لتكن معاملتك لى كأنك لا تحبنى ودعنى أحبك دون أن أعلن لك حبي . فما أنا أقل عبادة فى هيكل الحب منى فى هيكل الصلاة . قل لى ما يجب أن أفعل لتؤمن بما أقول

وأراها بعد ذلك تقف إلى مرآتها لترتدى فى رائعة النهار ملابس السهرات والمراقص متظاهرة بالتدلل — وما هي من بنات الدلال — محاولة تقليدى فتضحك وتطفر فى الغرفة قائلة : أترانى على ذوقك الآن ؟ وأية خليلة من خليلاتك أشبه ؟ أفما بى من الجمال ما يكفى لاقناعك بامكان الاعتقاد بالحب ؟ . أفما تلوح على دلائل من لا يبالون بالحياة ؟ وإذا بى أرى الأزهار المكللة ضفائر شعرها المعقوص ترتجف وهي متولية ظهرها لاخفاء تصنعها فأنطرح على قدميها قائلا :

— كفاك تقليداً إنك لتذهبين بعيداً في محاكاة من لم يتورع فمي عن ذكرهن أمامك . انزعي هذه الأزهار ، واخلعي هذا الثوب ، ولنغسل هذا المزح بدمعة صادقة ، دعيني أنسى ... إنني الولد الآبق فقد كفاني ما أتمثل من ماضي حياتي

غير أن هذا الندم نفسه كان جافياً إذ يبين لها ما لأشباح الماضي من رسوم متغلغلة في سريرتي . وما كان ما أبديه من اشمئزاز إلا ليعلن لها الدنس المروّع في الصور التي كانت تحاول تقليدها لإرضائي

وكنت أجيء إلى بيت بريجيت وقلبي طافح سروراً وأنا أقسم أن أنسى بين ذراعيها آلام أيامي الماضيات ، فأجثو أمامها مبدياً كل دلائل الاحترام وأزحف خاشعاً إلى سريرها كأنني أدنو من هيكل الصلاة ماداً اليها ذراعي والدموع تنهمر في عيني ، غير أنني كنت أراها عند ذلك تتفوه بكلمة أو تخلع ثوبها بحركة لها طابع خاص فينتصب أمامي فجأة خيال غانية تفوهت بمثل هذه الكلمة أو أتت بمثل هذه الحركة وهي تتجه إلى سريري

يا لك من روح مخلصة ؛ وياللعذاب الذي تحملته عند ما كنت أفتح ذراعيّ لضمك إلى صدري فتسقطان — كأن لاحياة فيهما — على كتفيك الناعمتين ، وعند ما كانت تنطبق شفتاك على شفتي فأحس بأن نظرات الهيام في عيني وهي شعاع من نور الله تتراجع عن هدفها كأنها سهام هبت الريح عليها فلوتها في انطلاقها

أواه يابريجيت ! لكم انهمرت لآلئ في أحداقك عند ما كنت تسقين براحتيك ذلك الحب الحزين الشغوف من معين أرفع بر وأصدق إحسان

وتوالت الأيام ما كدر منها وما صفا وأنا فيها ذلك المتقلب المنتقل من الجفاء والاستهتار إلى العطف والولاء ، ومن الكبرياء والقسوة إلى الندم والخضوع

وكان وجه ديجنه الذي تجلى أمامي أولاً كأنه ينذرني بما سأفعل لا يبارح توهمي فأناجيه في أيام شكوكي وبرود هيامي ، ولكم قلت في نفسي بعد توجيه التقريع إلى بريجيت مستهزئاً جافياً : لو أن ديجنه مكاني لذهب إلى أبعد من هذا

وكنت إذا ماتهيأت للذهاب إلى بيت بريجيت أنظر إلى وجهي في المرآة وأنا أضع قبعتي على رأسي فأقول : — أي شر في هذا ؟ أنا لي خليلة استسلمت إلى فاسق فعليها أن ترتضي به

وكنت أصل إليها والابتسامة على شفتي فأستلقي على مقعد متراخياً عن قصد لأنظر إليها تتقدم نحوي بعينيها الواسعتين وقد ملأهما الاضطراب فاقبض على راحتيها الصغيرتين لأذهب تائهاً في أحلامي

أيمكن لأي بيان أن يأتي باسم لشيء لا اسم له ؟ فهل أصف نفسي بطيبة القلب أم بسوء النية . أحزماً كان ما أفعله أم جنوناً ؟ مايفيد التبصر ؟ فما علي إلا السير على السبيل المخطوط

وكان لنا جارة تدعى مدام دانيال ، عليها مسحة من الجمال وفيها شيء من الدلال وهي فقيرة تحاول الظهور بمظهر الغنى ،وكانت تأتي لزيارتنا وتلعب الميسر مضاربة معنا بمبالغ كبيرة فإذا خسرت صعب الأمر عليها فلجأت إلى الانشاد بصوت ليس فيه شيء من الجمال . وقد كانت هذه المرأة التي اضطرتها المقادير لتمضية حياتها في هذه الغابة الضائعة بين الجبال ظامئة إلى المسرات والملاذ ، فما كانت تتكلم إلا عن باريس حيث تذهب لتمضية ثلاثة أيام كل سنة وكانت تدعي أنها تتبع الأزياء الحديثة فتساعدها بريجيت بآرائها

وهى تبتسم شفقة عليها . وكان زوج هـذه المرأة موظفاً في دائرة تسجيل الأملاك فيذهب بهـا أيام الأعياد إلى مركز الناحية لترقص بكل ما فى قلبها من شوق مع ضباط الفصيلة فى قاعـة الحكومة . وكانت تعود من هـذه المراقص وقد وهنت قواها وازداد بريق عينيها فتهرع إلينا لتخبرنا بما صادفت من نجاح وبما أثارت من أشجان . أما ما تبقى لهـا من الوقت فكانت تقضيه بمطالعة الروايات غير ملتفتة إلى شيء من مشاغل بيتها .

وكنت كلما التقيت بهذه المرأة أسخر بها لغرابة حياتها ، ولكم قاطعتها فى حديثها عن المراقص لأسألها عن زوجها ووالده وهى تكره الأول لأنه زوجها والثـانى لأنه من زمرة الفلاحين كما تقول . وهكذا لم يخل أى اجتماع لنا بها دون أن ينشأ بيننا خلاف شديد .

وخطر لى فى أيامي السوداء أن أتحبب إلى هذه المرأة نكاية ببريجيت فأقول لهذه : أفما ترين أن مدام دانيال تفهم معنى الحياة فهى ناعمة البال مرحة وأراها خير معشوقة يتمناها الرجال .

وهكذا كنت أبدأ بالثناء على هـذه المرأة فأصف ثرثرتها بسهولة البيان ودعواها العريضة بميل بديهي إلى التمتع بالحياة وأرى أن لا ذنب عليها إذا كانت فقيرة ما دامت تعترف بهذا الفقر إلى أن أقول أخيراً إنها لا تسمع مواعظ الناس ولا تبذل المواعظ لهم . ثم أطلب من بريجيت أن تتخذ هذه المرأة مثالا تحتذى به مدعياً أن هذا النوع من النساء يوافق ذوقى .

ولاحظت مدام دانيال أن في نظرات بريجيت بعض الأسى ، وكانت هذه المرأة طيبة القلب مخلصة إذا هى تملصت من فكرة الأزياء التى كانت تثير حماقتها ، فأقدمت على عمل سداه الاخلاص ولحمته الحماقة إذ انتهزت فرصة اختلائها ببريجيت فى نزهة لتقول وهى تعانقها ، إنها لاحظت ميلاً منى للتحبب إليها وإننى أسمعتها بعض كلمات لا مجـال للارتياب فى مقصدى منها وأضافت إلى ذلك قولها إنها عارفة بأنى عاشق لامرأة أخرى وأنها تفضل الموت على إتيانها أمراً يهدم سعادة صديقة لها .

وقد رأت بريجيت أن تشكر مدام دانيال على صراحتها فذهبت هذه مرتاحة الضمير غير أنها لم تنقطع عن إرسال لحظاتها إلىّ لتزيد فى نكايتى

وبعد أن بارحتنا مدام دانيال عند المساء أخبرتنى بريجيت بلهجة قاسية عما جرى فى المتنزه بينها وبين هذه المرأة . وطلبت إلىّ أن أوفر عليها تحمل مثل هذه الاهانة فيما بعد قائلة : إننى لا أعلق كبير أهمية على مثل هـذه المهازل ولا أصدقها غير أنني أرى من الفضول إذا كنت تحبني أن تدع امرأة أخرى تشعر بأن محبتك لا تحتفظ بمستواها كل يوم . فأجبتها ضاحكا : أيمكن أن يكون لهذا الأمر شأن عندك ؟ أفما ترين أننى لا أقصد سوى الهزل لتمضية الوقت ؟ فقالت : أواه يا صديقى إن من البلية أن يرى الانسان ضرورة لتمضية وقته .

وبعد أيام عرضت علىّ بريجيت أن نذهب إلى قاعة الحكومة لمشاهدة مدام دانيال فى رقصها فقبلت على مضض وبينما كانت ترتدى أثوابها قرب الموقد بدأت أوجه إليها اللوم لأنها تخلت عن مرحها القديم فقلت لها ، وأنا لا أجهل حالها : مالك يا بريجيت لقد أصبح القطوب مستحكما فى ملامحك فاذا دام الحال على هذا المنوال فلا بد من أن يسود الحزن

ساعات انفرادنا . لقد عرفتك من قبل أكثر مرحا وحرية وصراحة . وليس مما يوجب افتخاري أن أكون أنا علة هذا الانقلاب الطارىء على أخلاقك ، ومع ذلك فانني أتوسم فيك خلال أهل الزهد فكأنك خلقت لسكنى الدير

وكان ذلك اليوم يوم أحد فاستقللنا عربة وسرنا ، حتى إذا وصلنا إلى المتنزه رأت بريجيت رهطاً من صديقاتها بنات الحقول سائرات إلى مرقص أشجار الزيزفون ، ونضارة الشباب تدفق من وجوههن فاستوقفت عربتها وحيت الفتيات ، وإذ استأنفنا السير أطلت من نافذة العربة مشيعة بأنظارها رهط الصبايا ، كأنها تتشوق إلى المرقص القديم ، وإذ توارين عنا رأيتها ترفع منديلها إلى عينيها

وصلنا إلى مرقص الحكومة فرأينا مدام دانيال تطفر فرحاً وحبوراً ، فبدأت بالرقص معها وكررت ذلك بصورة تسترعى الانتباه ، وكانت لها عبارات الاعجاب فكانت تجيب على مجاملتى بمثلها . وكانت بريجيت تتبعها بأنظارها أنى سرنا . ويصعب عليّ أن أصف ما شعرت به فى ذلك الحين ، إذ تمازج سرورى بألمى لما تجلى لى على سيماء بريجيت من غيرة فكأن هذه الغيرة كانت تحفزنى إلى التمادى فى إضرامها

وتوقعت بعد عودتنا أن تلجأ بريجيت إلى لومي ولكنها بقيت ممعنة فى جمودها وصمتها فى اليوم التالى وما بعده ، فكانت تستقبلنى بقبلتها المعتادة ثم نجلس وكل منا مستغرق فى نفسه فلا نتبادل الكلام إلا قليلا . وفى اليوم الثالث عيل صبر بريجيت فاندفعت تهاجمنى بعبثها المر قائلة : إنها لا تجد ما تبرر به معاملتى ولا يسعها إلا الاعتقاد بزوال حبي ؛ ثم أعلنت لى بصراحة أنها أصبحت لا تطيق هذه الحياة وقد عزمت على الالتجاء لأية وسيلة تنقذها من أطوارى الشاذة ومعاملتى الباردة . ورأيت الدموع تنسكب من عينيها بغزارة فكدت أجثو أمامها لأطلب عفوها ، غير أنها استمرت على إرسال تقريعها متفوهة بكلمات ذهبت إلى كبريائى فجرحتها وثار ثائرى فأجبتها بكلمات من طراز كلماتها حتى اتخذت مناقشتنا شكل جدال لا هوادة فيه . فقلت لها : إن من المستغرب ألا يكون عندها من الثقة ما يجيز لي إتيان أبسط الأمور فلا بد إذاً أن يكون هنالك سبب آخر غير السبب الذي تتمسك به لأنها تعلم أنني لا أبالي بمدام دانيال فليس تقريعها لي إلا الاستبداد بعينه ؛ ومع ذلك فاذا كانت متعبة من هذه الحياة ففى وسعها أن تضع حداً لها بالفراق .

فقالت : « ليكن ما تقول لأنك تنكرت لغيني منذ بذلت لك نفسي ، فقد لعبت دورك بمهارة لاقناعى بحبك لي ؛ وها قد أتعبك هذا الدور فلا تجد من الأعمال إلا ما تسيء به إليّ . لقد ارتبت فى إخلاصي لكلمة واحدة مرت على أذنك ولاحق لي بتحميل نفسى ما توجهه من إهانة إليها . لقد تبدلت فما أنت الرجل الذى أحببت

— إنني لا أجهل نوع آلامك وأراها ستتجدد لكل خطوة فى حياتى وسوف لا يطول الأمر حتى أحرم حق التكلم مع أى مخلوق سواك فأنت تتظاهرين باحتمال سوء المعاملة لتجيزى لنفسك توجيه التقريع إليّ وما تشكين استبدادى إلا طلباً لاستعبادى . أما وقد أصبحت أشوش عليك

حياتك فاستعيدى السكينة لها . إنك لن تريني بعد الآن

وافترقنا على غضب ؛ ومر النهار دون أن أراها

وفى اليوم التالى شعرت عند انتصاف الليل بحزن لم أجد لاحتماله سبيلا فذرفت الدموع سخينة وأخذت ألوم نفسى وألعنها قائلا : إن من الجنون المطبق أن أعذب أشرف النساء وأطيبهن قلبا . ثم نهضت راكضاً إلى بيتها لانطرح عند قدميها

دخلت الحديقة وإذ رأيت النور من نافذة غرفتها ساورتنى الشكوك فيها فقلت : إنها لا تنتظرنى فى مثل هذه الساعة ومن يدرى ماتفعل ؟ لقد تركتها أمس غارقة بدموعها ولعلنى أراها الآن مشغولة بالغناء غير مبالية بى وغير شاعرة بوجودى، بل لعلها ترتدي أثوابها وتجمل وجهها كتلك المرأة ... لأدخلن إذن متجسساً فأطلع على الحقيقة

وتقدمت على حذر وكان باب غرفتها مفتوحاً فتمكنت من مشاهدتها دون أن ترانى

وكانت جالسة إلى خوان تكتب فى مجلد المذكرات التى كانت مبعث ارتيابي بها . وكان فى يدها اليسرى علبة صغيرة من الخشب الأبيض تنظر اليها من آن إلى آن بارتعاش عصبي ظاهر

ولا أدرى أية روح مروعة كانت تسود هذه الغرفة فى جوها الهادىء ، وكانت رفوف المكتب مفتوحة وقد صفت عليها رزم الأوراق كأنها رتبت فى برهة وجيزة .

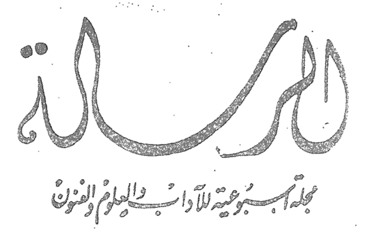
ودقت الباب فنهضت وأقفلت أدراج المكتب وأتت إلى والابتسام يعلو فمها قائلة :

— نحن طفلان يا أوكتاف ، ياصديق ، وما كان لعراكنا من سبب ولا معنى ، ولولم تأت إلى لذهبت اليك فى هذا الليل . اغفر لى فالذنب ذنبي أنا . إن مدام دانيال ستأتى غداً لتناول الغداء فلك أن تفتح سبيلا لندمى عما تسميه استبداداً فى معاملتى . إن سعادتى متوقفة على حبك لى فلننس ما مضى ولنحتفظ بسعادتنا

(يتبع) فيلكس فارس

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧)


الرواية


الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

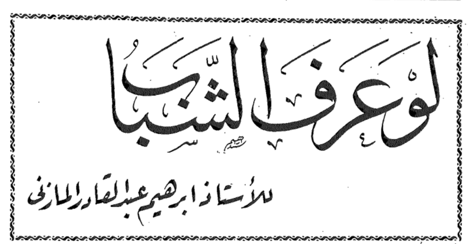
الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد السابع عشر ٢٥ رجب سنة ١٣٥٦ — أول أكتوبر سنة ١٩٣٧ السنة الاولى



فهرس العدد



كان أبوها تاجراً حسن الحال، وأقبلت عليه الدنيا فأقبل على تجارته يوسعها ولكن بلا تدبر، وعلى المال ينفقه بلا حساب؛ وأُغرى بالقمار فأفضى به الأمر إلى الخراب الوحىّ، فتجلد وراح ينشد العمل فى متجر، ولكن سيرته فى أيام النعمة خوفت منه التجار وزهدتهم فى استخدامه، فلم يبق له إلا الاحتيال على صفقات قليلة يوفقه الله إلى عقدها ويخرج منها «بعمولة» ضئيلة لا تغنى. وكان فى أثناء ذلك يبيع حلى زوجته، ثم أثاث بيته؛ فلما أتى على هذا وذاك ولم يبق إلا الموت جوعاً شرب خمراً رخيصة فى ساعة يأس وألقى بنفسه في النيل وترك امرأته وبنته — وكانت فى الثامنة من عمرها — تعيشان أو تموتان. فأما الأم فقضت نحبها بعده بشهور، وأما الفتاة فسمع بخطبها رجل طيب كان يعرف قومها فأقنعهم بأن يدعوه يتبناها ويأنس بها ويستعين بها على ضعف الشيخوخة، وكان هو أيضاً تاجراً، فلما ارتفعت به السن قنع بما أفاد وصفى تجارته؛ وكانت زوجته قد ماتت من غير أن تعقب نسلا، فاتخذ فقيرة من قريباته لتدبير أمر بيته، وكانت امرأة صالحة فرعته وجعلت له من نفسها خادماً وأمًّا واختاً ووصية أيضاً

وقال لها عصر يوم وهي تقدم له القهوة وتدنى منه «طاولة» صغيرة عليها «منفضة» للسجاير: «ياحليمة.. اسمعى يابنتى... أنا منتظر رقية..»

فقالت مستفسرة:

«رقية؟.»

قال: «رقية... نعم... بنت المرحومة الست خديجة.. ستقيم عندنا إلى..»

ثم كأنما رأى أن التحديد عسير فترك هذا وقال: «أظن من السهل عليك إعداد الغرفة الجنوبية لها... هه؟»

قالت: «سهل طبعاً... لكن بنت صغيرة...؟ يمكن تتعبك»

فقال محاولا أن يزيل دواعى القلق الذى يساورها: «بنت صغيرة؟... هذه بنت عشر...! شابة!»

فلم تزد حليمة على أن قالت: «طيب»

وجاءت الفتاة بعد قليل مع رسول من قوم أمها يحمل لها أشياءها القليلة، وكان وجهها أصفر متهضما وعظام وجهها بارزة، ونظرتها ساهمة، فقبلت يد الشيخ فتناول وجهها بين كفيه المعروقتين وقبل جبينها وأجلسها إلى جانبه، وشرع يحدثها ويلاطفها حتى أنست به وهشت له، ثم تركها لحليمة تعنى بها

ومضت الأيام ووجدت رقية فى الشيخ سليم عوضاً عما فقدت. وزالت الغضاضة التى كانت تجدها فى أول الأمر وصارت حين تقول له: «ياعمى» تشعر أنه عمها حقاً وصدقاً، وتفتح لها قلبه الكبير

وأنزلها منه فى حبته ، وذاق فى شيخوخته العالية ما حُرِمهُ طول حياته من حلاوة الأبوة ونعمة البنوة البارة ، فقد صارت رقية هى التى تعنى به وتعد له حاجاته وتسهر على راحته وتبقى إلى جانبه حتى يصرفها إلى مرقدها بعد أن يدعو لها ويمسح شعرها ويقبلها

ولكن حليمة لم ترض عن رقية ، وكان رأيها فيها أنها فتاة عنيدة وأن أبويها أفسداها بالتدليل وأن الشيخ سليم يزيدها فساداً باسرافه فى إظهار التعلق بها والحنو عليها ، وكان يسوؤها على الخصوص أن لسان رقية حاد ، وأنها لا تفعل إلا مايطيب لها ؛ وكانت حليمة صريحة فلم تكن تكتم رقية سوء رأيها فيها ، أو تتقى أن تنذرها بمستقبل أسود « كالحبر » وكثيراً ما كانت تقول لها إن الشيخ يسىء إليها بهذا التدليل

وكان هذا الكلام وأشباهه يهيج رقية فى أول الأمر ويطلق لسانها بما يخطر لها ساعة الغضب ، ولكن ثرى نفسها كان خصباً فلم يخل كلام حليمة من أثر ، فقالت ذات ليلة لعمها وهى جالسة على ذراع كرسيه :

« عمى »

فرفع إليها وجهه المغضن وسألها : « نعم ؟ »

قالت وهي تداعب شعر لحيته : « إنك تفسدنى بالتدليل . لماذا لا تربينى كما ينبغى ؟ »

فدهش الرجل وقال : « من وضع فى رأسك الصغير هذا الكلام ؟ حليمة بالطبع »

قالت : « هى على حق ... شف ... لى هنا نحو سنة ... وقد نسيت ما تعلمته في المدرسة »

قال : « آه ! صحيح ... الحق معك ... صحيح ... هل تريدين أن تتعلمى حقيقة ؟ »

قالت : « آه »

قال : « إن شاء الله »

وخطر للشيخ وهو راقد على سريره فى تلك الليلة أن رقية مسكينة ، وأنها مستوحشة فى هذا البيت الكبير الذى ليس فيه إلا هو وحليمة والخادم الكهل الذي يقضى الحاجات ، وأن رغبتها فى التعلم من مظاهر إحساسها بالوحشة ، وأن الواجب ... ولكنا نسبق الحوادث

وجاءت المعلمة وبدأت الدروس فشغلت بها رقية عن كثير مما ينغص على حليمة ، ولكن الشيخ لم يقنع بهذا ولم ير فيه الكفاية وإن كان لم يفته أن حليمة أصبحت أقل شكوى وتذمراً من رقية . وكانت عادة الشيخ أن يخرج إلى صلاة الفجر فى مسجد سيدنا الحسين ثم يشرب الشاى فى إحدى القهوات الكثيرة المشهورة بصنعه هناك ، ولا يعود إلا فى الضحى فيتناول شيئاً يسيراً من الطعام ويرتاح قليلاً ثم يعود فيخرج ويمر بإخوانه التجار فى دكاكينهم ولا يرجع إلا وقت الغداء ؛ وإذا خرج فى العصر فقلما كان يعود إلا بعد صلاة العشاء فى (الحسين)

وقال ليلة وهما جالسان إلى الطعام : « أظن يا رقية أنك تستوحشين هنا ... »

فقالت : « كيف تقول يا عمى ؟ »

قال : « الوحدة ... ليس لك أنيس من سنك ... والبيت واسع كبير كالربع ... وليس فيه إلا نحن والعفاريت »

وسره كلامه فضحك فقالت : « بسم الله الرحمن الرحيم ... قل لى يا عمى ... هل فى البيت عفاريت ؟ »

قال وهو يبتسم : « هل تخافين العفاريت ؟ »

فأجابت بسؤال : « ألا تخاف أنت ؟ »

قال : « الله هو الحافظ ... لقد خطر لي شيء ... أريد أن أدفن فى بلدى »

فصاحت به وقد خفق قلبها : « أعوذ بالله ! لماذا تقول هذا الكلام ؟ »

قال : « يا بنتي الموت حق ... دعى هذا ... قريتنا جميلة ... لي فيها أرض ودار لا بأس بها ، والحياة هناك أشرح للصدر وآنس للقلب . ناس كثيرون ... أهل ومعارف ... لا يمل الانسان ... والمناظر جميلة ... الحاصل ... سنذهب إلى البلدة ونترك هذا البيت الموحش ... ما داعى أن أبقى فى مصر ؟ »

قالت : « أمرك يا عمي »

قال : « ألا يسرك ؟ يمكننا أن نعود إذا لم ترتاحى هناك ... الأمر سهل »

وبعد أيام من هذا الحديث حملها معه إلى البلدة وترك حليمة والخادم الكهل ليرسلا أثاث البيت ويلحقا بهما

ولم يبالغ الشيخ فقد كانت القرية جميلة والدار رحيبة تقوم في وسط بستان ثمر وزهر ، ولكن العناية بالزهر كانت ضئيلة فلم يكن هناك إلا بضعة أعواد من الورد ؛ أما الأشجار فكانت كثيرة وكان ثمرها وفيراً ، فطاب المقام لرقية ، ووجدت فى الحديقة الواسعة ملهى ومرتعاً . وكان فتى من أقرباء الشيخ فى السابعة عشرة من عمره هو الذى يتعهد الحديقة ، وكان مبيته فى الدار أيضاً ولكن فى إحدى الغرف التحتية . ولم تكن رقية ترتاح إلى هذا الفتى ولكنه كان قريب الشيخ ، وكانت تدرك أنه لابد للحديقة من رجل يتعهدها ، فاذا كان عمها قد آثر أن يكل هذا إلى قريب له فهو على حق ، والأقربون أولى بالمعروف . وهى أجنبية — ولا ينبغى لها أن تنسى هذا — فليس من حقها أن تكره وتحب . وما شأنها هى على كل حال ؟ وإذا كانت لا ترتاح إلى محمود هذا فان فى وسعها أن تتجنبه ، وأن تتقى لقاءه بلا عناء . غير أنها — لسبب ما — كان يسخطها عليه ما ترى من بلادته وجموده وبطء حركته ، وأن وجهه لا ينطلق قط . وقد سمعت أنه حفظ شيئاً من القرآن وأنه قضى بمدرسة ابتدائية بضع سنوات فهو ليس جاهلا كأكثر الفلاحين .. فماله ؟ .. ما خطبه ؟

وكانت ربما لقيته فى بعض جولاتها فى الحديقة فيضيق صدرها بجهامته ، ولا تملك إلا أن تصيح به : « يا شيخ اتلحلح شوية ! » فينظر إليها ممتعضاً ولا يزيد على أن يقول لها — حين يقول شيئاً — « وانت مالك ؟ » ويستأنف ما كان فيه غير عابئ بها أو مكترث لها فكأنها غير موجودة

وكان الشيخ يلاحظ حبها للحديقة فقال لها يوماً : « لعلك مسرورة »

فطوقته بذراعيها وقبلته ، فاستغرب الشيخ إحساسه بذراعيها وتنبه إلى أن هزالها قد زال ، وأن وجهها قد امتلأ ، وأن ذراعيها صارتا بضتين ، وأنها — ولم يمض عليها عنده إلا عام وبعض عام — قد طالت قامتها وعلا ثدياها على صدرها .. بالاختصار أصبحت شابة ... لا يمكن أن يخطر لأحد أنها فى الثانية عشرة من عمرها فقط ...

وقال لها وهو ينحى ذراعيها عن عنقه برفق : « كيف وجدت محموداً ؟ »

فعبست وسألته : « هل تحبه ؟ »

فقال كأنما أراد أن يلخص لها موقفه منه فى أوجز عبارة : « أمه بنت خالتى »

فأدهشته بقولها : « هل كنت تحب بنت خالتك ؟ »

فقال : « أ ... أ ... أحبها ؟ .. آه بالطبع .. بنت خالتي ... طبعاً »

قالت : « لا أعني هذا »

فزاد عجبه منها وأراد أن يغير الموضوع فسألها : « ما رأيك في محمود ؟ »

فقالت : « بإيجاز بليد ... »

فسألها بلهجة المشفق : « هل قلت له هذا ؟ »

فضحكت وقالت : « لا تخف ... هو أيضاً لا يكتمني رأيه فيّ »

فهز الشيخ رأسه آسفاً وأطرق قليلا ولكنها ردته إليها بقولها :

« قل لي يا عمي ... لماذا تسألني عن محمود ؟ »

فنظر إلى عينيها الواسعتين العميقتين قبل أن يجيب وكأنما رأى أن لاخير في اللف والمغالطة مع هذه الفتاة فقال : « لا شيء ... ولكني رجل كبير وأحياناً أحلم بأشياء ... كله بيد الله .. قومي هاتي لي حصيرة الصلاة »

فجاءته بها فوقف ورفع يديه إلى أذنيه وكانت هي عند الباب فقالت له وهي تهم بالخروج :

« اذكر يا عمي أنه هو أيضاً لا يحبني »

فما استطاع الشيخ أن يتوجه بقلبه في صلاته إلى الله وحده إلا بجهد

***

وخطر للشيخ بعد مدة أن الأولى أن يبعد محموداً عن الحديقة ، وأن يكل إليه عملاً آخر في الغيط ، فإن البعد رحمة في بعض الأحيان ؛ وأخلق بهما إذا قل لقاؤهما أن يفتر بينهما هذا العداء ؛ ثم من يدري ؟ ... لعلهما حينئذ يتحولان إلى ... ولكن من يدري ؟ . من يدري ؟ . على كل حال هذا خير من قرب يثير بينهما حربا ...

غير أن الأقدار لم تمكنه من إمضاء عزمه ، فقد أصابه برد ثقلت وطأته على جسمه المتهدم فأحس الرجل بدنو الأجل ؛ ودعا إليه رقية ، وأدناها منه على سريره ، وقال : « قلت لك يا رقية إني كنت أحياناً أحلم بأشياء ... وأخشى أن أكون قد أسأت من حيث قدرت أن أحسن . ولست أحب أن ألقى الله بضمير مثقل بهذه التبعة . نعم كان يسرني أن أوفق بينك وبين محمود ... هو أيضاً ليس له غيري ، ولكني لا أحب أن تشعري أن عليك أن تفعلي شيئاً لا لسبب إلا ظنك أن هذا يرضيني . إن حياتك أمامك فاصنعي بها ما تشائين . كنت أحب أن يطول عمري حتى تكبري فأتركك مطمئناً ولكنه لا راد لقضاء الله ... وقد تركت لك أكثر ما أملك واحتطت فلن ينازعك أحد . وتركت له مافيه الكفاية ، فاحرصي على مرضاة الله ثم مرضاة وجدانك ، ولا تجعلي بالك إلى ما تظنين أنه يرضيني ... هذا ما أردت أن أقوله لك ... »

فلم تستطع أن تقول شيئاً فقد انهمرت دموعها وخنقها البكاء

وبعد يومين ذهب الشيخ الكريم في سبيل من عبر ...

وظهر أنه وقف ماله فترك لها نصف الأرض ولمحمود النصف الآخر . أما الدار التي في القرية والبيت الكبير في مصر فجعلهما فيهما شريكين بحيث لا يستطيع أحدهما أن يحدث فيهما شيئاً — كائناً ما كان — إلا باتفاقهما على ذلك ؛ وآثرها على الفتى

بيت صغير آخر تحته دكانان . وجعل النظارة لتاجر من أصدقائه ، ولكل منهما على نصيبه بعده

وبعد الأربعين خفت الفتاة والفتى إلى مصر إجابة لدعوة الشيخ سعيد ناظر الوقف . وقد قابل كلا منهما على حدة

وقالت الفتاة بعد أن سلمت وجلست : « لست أفهم شرط عمى فيما يتعلق بالبيتين »

قال : « الأمر سهل ... إذا أردت مثلاً أن تسدى شباكا فلا يجوز لك هذا إلا بموافقة محمود . وإذا أراد محمود أن يفتح باباً أو يبيض جداراً فلا يكون له هذا إلا باذنك وموافقتك »

فقالت : « ولكن لماذا ربطنا على هذا النحو ؟ إن الاتفاق بيننا مستحيل »

فابتسم الشيخ سعيد وقال : « لا حل لهذا الإشكال الذى أورثكما إياه إلا الزواج »

فصاحت الفتاة مستنكرة : « أتزوج محمود ؟ أعوذ بالله ... مستحيل »

قال وهو لايزال يبتسم : « حل آخر ... وطنى نفسك على التنازل له فى المستقبل »

فقالت : « أتنازل له ؟ ولا فى المنام »

قال : « إذن لا حيلة إلا الصبر »

ودخل عليه محمود بعدها فسأل بعد كلام : « ما العمل فى حل هذا الاشكال الفظيع ؟ »

فقال الرجل : « أحسن حل أن تتزوجها »

فقال الفتى : « يا ساتر يارب ! »

فقال مقترحا : « تنازل لها إذن »

فصاح الفتى : « أتنازل لها ؟ لها هى ؟ هذا شىء لا يكون »

قال : « صبراً إذن يا بنى »

ومضت الأيام وكرت الأعوام والفتى فى بلدته والفتاة فى البيت الكبير بمصر ومعها حليمة والخادم الكهل ، والوصى الأمين يرعاها ويحدب عليها ولا يغفل أمر محمود . وكان ذكر محمود لايرد على لسان الشيخ سعيد إلا فى الندرة القليلة ، فسألته يوماً : « ما أخبار البلد ؟ »

فقال : « أنا خائف على محمود »

فقطبت وقالت : « ماله ؟ »

قال : « شديد على الناس ... أصبح أعداؤه كثيرين »

فاستزادته مستفسرة ، فقال لها : « إن الفلاحين يهملون أحياناً فيشتد عليهم ويقسو بهم ويعاملهم بالعنف . وقد سرق أحدهم أخيراً كيسين من القطن فضبطه وضربه حتى كاد يميته...وأمثال هذا يحدث كثيراً ... وهم يخافونه ولكنهم يكرهونه وأخشى أن يتربصوا به »

فلم تقل شيئاً ، ولكنها بعد أسبوع سألت الشيخ سعيد : « هل أستطيع أن أزور البلدة ؟ »

قال : « طبعاً ... ما المانع ؟ »

قالت : « ربما استاء محمود ... هو مرتاح من وجودى كل هذا الزمن »

قال : « ولكنه لايستطيع أن يعترض على وجودك »

فقالت : « ليست المسألة مسألة اعتراض »

قال : « ماذا إذن ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « لا أدرى »

وسافرت بعد أيام ومعها حليمة التى انقلبت تحبها كأنها بنتها . وكان محمود فى الغيط ، فلما علم بحضورها خف إليها ورحب بها ، فاستغربت وقالت له : « لقد صرت ظريفاً »

فضحك وقال : « لقد كبرنا يا رقية ... كنا أطفالا »

فقالت ضاحكة : « أحسبنا ما زلنا أطفالا »

فقال وهو مطرق : « حملنا الهم قبل الأوان علمنا ... الحمد لله على السلامة ... يا أهلا وسهلا »

وتبادلا الأخبار عن البيت الذى فى مصر والدار التى فى القرية فقال لها : إنه محتاج إلى مخازن وليس هناك مكان يتخذه مخزناً إلا الجانب القبلي من الدار ، يهدم ذلك الجانب كله ويبنى من جديد فيصلح به البيت من فوق وتقوم المخازن المطلوبة ، فاعترضت على هذا بشدة وقالت : إن هذا الجانب فيه الغرفة التى كان ينام فيها عمها فيجب أن تبقى كما هى ، وقالت: إن الذى يحتاج إلى عمارة هو بيت مصر ... واسع جدا بلا ضرورة ولا ينتفع به أحد ، فيحسن أن يشطر البيت شطرين ، واحداً يبقى لسكناها والآخر يؤجر . فاعترض الفتى وقال : إن هذا يفسد البيت . فقالت : إن الأمر على كل حال للشيخ سعيد وستقنعه بذلك ومتى اقتنع الشيخ سعيد فان الأمر يكون له . ولم يستطيعا الاتفاق ولا التفاهم وإن كان الأمر كما قالت للشيخ سعيد فكل خلاف عبث . وقام محمود مغضباً يائساً من إمكان الوفاق مع هذه الفتاة العنيدة . وجاء الليل واجتمع محمود في الساحة أمام الدار بالفلاحين يحدثهم فى شئون الأرض ويحاسبهم ويتلقى منهم أخبار مافعلوا في يومهم ، وكان لا يزال متأثراً بخلافه مع رقية فخرج عن طوره مع أحد الرجال وتفاقم الأمر ، فقام محمود وضرب الرجل واجتمع الخلق عليهما وعلت الأصوات ، وكانت الليلة مظلمة حالكة السواد ولا ضوء هناك إلا ضوء مصباح غاز في ردهة فى الدار ، فانطفأ المصباح فجأة فهاج الناس وماجوا ، واشتد اللغط ، وسمع صوت يقول : « أوع يا أحمد ! حاسب » وارتفع صوت محمود يصيح : « ترفع العصا عليّ يا كلب يا ابن ... أنا أقتلك »

ولكن الرجال دخلوا بين المتعاركين وردوا بعضهم عن بعض وحملوا محموداً إلى الدار وأغلقوا وراءه الباب ، فصعد إلى فوق ولم يكد يصير إلى مكان فيه نور حتى وقف ينظر إلى يديه مستغرباً .

وكانت رقية واقفة أمامه فسألته : « مالك ؟ هل أصابك شيء ؟ »

قال : « لا ... ولكن هذه السكين ؟ كيف صارت فى يدى ؟ لم يكن معي شيء ؟ »

فابتسمت رقية وقالت : « ألم تضربه بها ؟ »

فسألها متعجباً : « أضربه ؟ أضرب من ؟ »

قالت : « الرجل الذى رفع عليك العصا »

فقال وهو لا يزال يتعجب : «أضربه بالسكين ؟ »

قالت : « لقد وضعتها فى يدك لهذا الغرض »

فصاح وهو مذهول : « أنت وضعت السكين فى يدي ؟ »

قالت : « بالطبع ... من كنت تظنه فعل ذلك غيرى ؟ لقد نزلت وخفت أن يرانى الرجال فأطفأت المصباح ؛ ولما رأيت أن الأمر متفاقم خفت ، وكان الشيخ سعيد قد أخبرنى أن الفلاحين يكرهونك لأنك شديد عليهم ، فجريت وجئت بالسكين وتسللت فى الظلام ووضعتها فى يدك ... لم يرنى أحد فى الظلام ... ظنونى على الأرجح رجلا منهم »

فقعد محمود ولم يستطع أن يقول شيئاً ، وطال صمته ، فهزته رقية وسألته : « مالك ؟ » فقال : « مالى ؟ الحمد لله على كل حال ... لو كان هناك نور

ورأوا السكين ؟ نهايته ... حصل خير »

وقالت وهي مضطربة : « هل أخطأتُ ؟ قل لى الحق ... لقد كنت خائفة عليك »

فنهض وهو يبتسم وقال : « حصل خير . حصل خير ... ربنا ستر »

***

ولما أرادت أن تعود إلى القاهرة رافقها إلى المحطة ، وهناك تركا حليمة مع الأشياء وراحا يتمشيان فى انتظار القطار وقال لها فى بعض حديثهما : « حكاية السكين هذه ... ماذا أغراك بها ؟ »

قالت : « كنت خائفة عليك من الفلاحين ؟ »

قال : « مدهش ! »

قالت : « هل كنت تظن أنى سأتركهم يقتلونك وأنا أتفرج ؟ »

قال : « لم أكن أتصور أن تخافى على ... مدهش ! »

قالت : « ما هو المدهش ؟ »

قال : « سأسافر معك ... أريد أن أقابل عمى الشيخ سعيد »

قالت : « من أجل المخازن ؟ »

قال : « إيه ... حاجات كثيرة »

قالت : « اسمع ... مسألة المخازن فى محلها ... افعل ماتريد »

قال : « ولكن الأمر بيد الشيخ سعيد »

قالت : « نعم ولكنه لايخالفني »

فأطرق ، وبعد برهة سألها بلهجة المتردد : « بيت مصر ... هل صحيح أن لك رغبة فى قسمته ؟ »

قالت : « هذه فكرة ... بالطبع لا أستطيع الآن »

قال : « لماذا ؟ الشيخ سعيد لايخالف لك رغبة »

قالت : « صحيح ... ولكن ... لا أريد الآن »

قال : « لأنى اعترضت ؟ »

قالت : « آه »

قال : « أظن أن رأيك أصوب »

فصاحت وهى فرحة : « صحيح ؟ »

قال : « بالطبع ... كل مايرضيك افعليه ... وهل لى غيرك ؟ »

قالت : « ولا أنا »

فقال : « المرحوم كان حكيما »

فقالت : « عمى ... أوه جدا »

قال : « كان غرضه ... »

فلم تمهله وقالت مقاطعة : « كان مدهشاً ... عرف كيف يحتال علينا بعد وفاته »

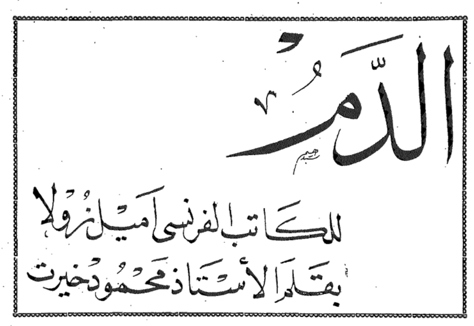
فسألها : « ما قولك فى تحقيق رغبته ؟ »

فأطرقت حياء ؛ فكرر عليها السؤال فقالت : « اسأل عمى الشيخ سعيد »

***

ولم تكن سن الزواج لها حد فى تلك الأيام ففرح الشيخ سعيد بتحقيق أمل صديقه

ابراهيم عبد القادر المازنى



ها أنت ذى لا زلت بين أشعة الشمس وأرج الأزهار . ألم تسأمى هذا الربيع المستمر يا نينون ؟ دعينى إذن أغمض جفنيك الناعستين على تلك القصة الكثيرة الهول ، فان النفس متى ملّت طول النشوة قد تسكن إلى صوت الأهوال

— ١ —

فى اليوم الذى انتصر فيه الجند أخذ أربعة منهم مقاعدهم عند ركن من ميدان القتال وقد التف من حولهم الظلام وهم يتناولون طعامهم بين جثث الموتى

وكانت ألسنة اللهب التى يشوون طعامهم عليه تنعكس أشعتها على وجوههم وترسل من خلفهم ظلالاً ضخمة إلى مسافات بعيدة حتى أن سيوفهم كانت تتألق من وقت لآخر تحت شرارات تلك النار، وحتى أن الناظر كان يلمح فى قلب الظلام جثث القتلى وهى نائمة جاحظة العيون

أما رفاقنا فكانوا فرحين يضحكون فى جوف الليل غير شاعرين بتلك العيون المحملقة فيهم . ولعل لهم عذراً من هول ما رأوا فى يومهم الدابر ، ومن الهول الذى ينتظرهم فى الغد . فأخذوا يحتفلون بتلك الساعات القليلة التى جاد بها عليهم حسن الحظ غافلين عن ظلام الليل وظلام الموت وأجنحتها التى تحلق فوق هذا الميدان فتهز سكوت الفضاء

ولما انتهوا من طعامهم تاقت نفس أحدهم إلى الغناء واسمه «جنوص»، ولكن نبرات صوته كانت تمزق غشاء الهواء القاتم الحزين ، وكانت أغنيته إذا خرجت من شفتيه امتزجت بالصدى فكانت كتنهد عميق . وعند ذلك شق حجاب الظلام صرخة مزعجة دوت فى الفضاء فاضطرب حتى أنه كلف رفيقه « إلبرج » ليذهب ويرى فلعل إحدى تلك الجثث عادت إليها الحياة . وهكذا ابتعد إلبرج على ضوء مشعل أخذه معه ورفاقه يشيعونه بعيونهم لحظة على قدر ما يسمح به امتداد الضوء فأبصروا به وقد انحنى من بعيد يسائل الموتى ويفتش بينهم بطرف سيفه ثم اختفى

وبينما هم سكوت صاح جنوص بزميله الثانى « كليريان » أن يذهب فى أثره خوفاً عليه من الذئاب

وهكذا اختفى هذا أيضاً فى الظلام

أما جنوص وفيلم فبعد أن طال بهما الانتظار ارتديا معطفيهما واستسلما للنوم إلى جانب تلك النار وقد شارفت على الانطفاء . وما كادا يغمضان أجفانهما حتى سمعا تلك الصرخة من جديد وكأنها تمر من فوق رأسيهما حتى أن فيلم انتصب فزعاً

واتجه إلى تلك الجهة التي اختفى عندها رفيقاه

وهكذا لبث جنوص وحده وقد أخذ شبح الخوف يتمثل لعينيه كلما وقع بصره على تلك الهوة السوداء التي كانت تدوى بحشرجة الموتى . وعندئذ ألقى في النار بعض الحشائش اليابسة لعل اشتعالها يبدد شيئاً من ذلك الرعب الذى تملكه

ولقد أخذت ألسنة اللهب ترتفع أخيراً حمراء كالدم فأضاءت الأرض على مسافة مستديرة واسعة كان يخيل إليه أن حشائشها أخذت ترقص من فوقها ، وكأن أصابع خفية كانت تحرك جثث القتلى

على أن القمر أخذ بعد ذلك يظهر قرصه عند الأفق فتبدد أشعته الضئيلة مخاوف تلك الأهوال التى كان الليل يخفيها فى جوفه . وكانت الصحراء جرداء خالية إلا من بعض أشلاء منطرحة تحت أكفان من النور

أما جنوص الذى كان العرق يتصبب من جسمه فقد فكر فى الصعود فوق رابية هناك وهو يسائل نفسه : لم أشباح أولئك الموتى لاتنتصب من مكانها وقد أخذت تحملق فيه . وهكذا أخذ جمودها أيضاً يرسل إلى قلبه عوامل الرعب فأغمض عينيه . وبينما هو فى مكانه جامد شعر بحرارة تدب فى قدمه اليسرى فانحنى ليتبين أمرها ولكنه رأى سلسالا رقيقاً من الدم يعلو وينحدر بين الحصى ، ولجريانه خرير ناعم لطيف

وكان هذا السلسال يخرج من الظلام ويتلوى تحت أشعة القمر ليعود ثانية إلى الظلام ، فكان كالثعبان الملطخ ببقع سود تتتابع كالحلقات بخفة وبلا انتهاء . وعندئذ تراجع إلى خلفه وقد تمردت أجفانه فلم يستطع إطباقها من هول ما رأى . أما السلسال فأخذ يتسع مجراه حتى استحال إلى جدول ثم إلى نهير ثم إلى سيل يسمع له وهو يجرى صوت أصم وقد أخذ يقذف على جانبيه زبداً أحمر ، وأخيراً استحال إلى نهر واسع يكتسح أمامه هذه الجثث

ولكن كيف خرج كل هذا الدم الغزير من جروح أولئك الموتى حتى غمرهم ؟ وعلى كل حال فقد اضطر جنوص إلى التراجع أمام تلك اللجة الصاخبة وقد غاب عن نظره الشاطئ البعيد ، كأنما تلك المسافة المترامية الأطراف قد استحالت إلى بحيرة واسعة ، حتى خطر له أن يفر لولا أنه وجد نفسه فجأة عند كوم من الصخور وأمواج الدم ترتطم بفخذيه ، وكأنما الأشلاء التى يجرفها التيار أمامه تلعنه كلما أبصرت به فى طريقها ، وكأن كل جرح من جراحها فم يزدريه ويسخر من رعبه . أما البحر الزاخر فكان يعلو ويعلو حتى بلغ صدره ، وعندئذ استجمع ما فى نفسه من قوة وأخذ يتعلق بالفجوات التى بين الصخور حتى غاص إلى كتفيه والقمر الحزين الباهت ينظر كيف يبتلع هذا البحر أشعته كلما انعكست فيه ، وكأن ظلمته ودويه يخرجان من فوهة هوة سحيقة

— ٢ —

ولما بزغ الفجر عاد إلبرج فأيقظ جنوص وكان قد ضل السبيل فى الأحراج فغلبه النوم أيضاً عند شجرة حيث رأى من غريب المشاهد ما كانت صورها لاتزال عالقة بذهنه

قال : رأيت كأن العالم لايزال فى طفولته والسماء تبتسم والأرض بكر تنبت فيها السنبلة وتنمو ، حتى أن شجرة البلوط العالية عندنا لا تعد بجانبها شيئاً . والأشجار الباسقة تملأ الفضاء بأوراقها العريضة التى لا يحصيها عد ؛ والحياة تجرى صافية فى شرايين

الكون ؛ والماء عذب غزير حتى إذا أخذت الاشجار كفايتها منه سال بين أحشاء الصخور

وكانت الآفاق تمتد ساكنة متشعبة ، والطبيعة كالطفل يجثو عند الصباح ليحمد الله على نعمة النور وتمجده هي أيضاً بأريج الأزهار وتغريد الأطيار

كنت أراها زاهية خصبة تفيض بخيراتها من غير ما نصب ، والأشجار ذات الثمر تنمو وحدها ، وسنابل القمح تكسو جوانب الطريق كما يكسوها الآن الشوك . وكنت أستنشق الهواء فلا أشعر بأن عرق ابن آدم أخذ يتصبب فيمتزج بأنفاس السماء ، لأن الله كان يهيئ كل أسباب الحياة لخليقته

كان الانسان كالطير يعيش مما تخرجه له الطبيعة فيأكل من ثمارها ، ويرتوي من أنهارها ، وينام إذا دجى الليل تحت أشجارها حامداً الله ؛ وقد عافت عيناه مرأى الدم ، فظل طاهراً ، ورفعته طهارته فوق جميع المخلوقات

نعم كان الوئام سائداً بين الناس ، والسلام خافقة رايته في كل مكان ؛ حتى أن الطيور ما كانت لتحرك أجنحتها فزعاً من خوف ، ولا كان البغي يدفع أحداً إلى الالتجاء للغابات والأحراج ، كل له حصة من حرارة الشمس ، والجميع أسرة واحدة شريعتها المحبة

ولقد خيّل إليّ وأنا أمشي بين الناس أنني أصبحت أطهر وأقوى مما أنا عليه الآن ؛ وكان صدري يستنشق طويلاً نسيم تلك السماء البليل بعد أن كان يستنشق نسيم جونا الفاسد ، فأشعر بنشوة الطفل وهو يصعد رويداً رويداً في الفضاء

وبينما هذه الأحلام تهزني انتقل خاطري إلى غابة فوقع بصري على رجلين يقطعان طريقاً ضيقاً تعانقت من فوقه غصون الأشجار ؛ وكان أصغرهما متقدماً على رفيقه ووجهه يفيض بالاطمئنان ، ونظراته تداعب كل سنبلة تقع عليها عينه ، وهو بين لحظة وأخرى يلتفت إلى زميله وعلى شفتيه ابتسامة صافية لم تكن غير ابتسامة أخ

أما زميله فكان صامتاً يرسل إليه وجهه المكفهر نظرات حارة ملؤها الحقد ، وهو يتعثر كلما أسرع من خلفه كأنه يقتفي أثر فريسة فرت منه

وعندئذ قطع فرعا من شجرة أخذ يسوى منه هراوة أخفاها تحت ثوبه ، ثم اندفع وراء صديقه الذي وقف ينتظره وقد أخذ يقبله عند ما اقترب منه كما يقبل الانسان صديقاً حمما طالت غيبته عنه

وهكذا عادا إلى سيرهما وقد آذنت الشمس بالمغيب ، والفتى مسرع وهو يبصر من بعيد خطاً لطيفاً أصفر عند سفح الجبل لم يكن غير تحية المساء ترسلها الشمس للطبيعة . أما صاحبه فظنه يتهرب منه ، حتى إذا التفت إليه وعلى طرف لسانه كلمة حلوة أراد أن يستر غرضه بها كانت الهراوة على وجه ذلك الفتى المسكين فهشمته

ولقد صادفت أول نقطة من دمه بعض الحشائش فنفضتها عنها إلى الأرض مرتاعة فامتصتها هذه وهي لا تقل ارتياعاً منها ؛ وقد خرج من بين أحشائها أنين مؤلم يحمل إلى السماء صوت سخطها ومقتها حيث طفح الرمل ذلك الشراب القاتل على صورة زبد خالطه دم

وما كاد القتيل يصرخ من ألم الضربة حتى تشتت الخلائق هولاً ، وأخذت تهيم على وجوهها في الأرض ، وأقوياؤها في مفارق الطرق يصرعون الضعفاء منهم . وعندئذ أيقنت أن الكون قد بدأ فيه نذير الاضطراب والانحلال

وهكذا استعرضت عيناي مناظر هذا الاعتداء المطرد ، فكان الباشق يهوى على القبرة ، وهذه على

الذبابة ، والذبابة على جروح القتلى ؛ فلم يترك الفزع أحداً من الدودة إلى الأسد كأنما قد استحالت الخليقة إلى عقرب أخذت تعض ذنبها بفمها فغابت فى ظلمة الفناء

وعلى أثر ذلك انتابت الطبيعة هزة طويلة كسرت خط ذلك الأفق الصافى ، وشوهت جمال الشفق بما اعترضه من السحب الحمراء

وكذلك البحار أخذت تضطرب بين قصيف الأمواج وهزيم الرياح من خلال الأشجار وقد التوت سيقانها وأخذت تنفض عنها كل سنة حلة أوراقها

— ٣ —

وما كاد البرج ينتهى من حديثه حتى ظهر كليريان وهو يقول : لست أدرى إذا كان ما سأقصه عليكم حلماً أو حقيقة ، لأن ما رأيت فى نومى يكاد يكون حقيقة ، ولأن الحقيقة من بعده تكاد تكون حلما

رأيت كأننى فى طريق يشق المسكونة على جانبيه المدن والأمم تقطعه مثلى ، وهو مكسو ببلاط أسود انعقد فوقه دم كانت قدماى تنزلقان من فوقه

أما الناس فقد كان الآباء منهم يقتلون بناتهن ليكون من دمائهن قربان لله ، فكانت تلك الرؤوس الفتية الجميلة تحزّ تحت مداهم وقد هرب لونها على أثر هذه القبلة التى كانت شفة الموت تضعها عند أعناقهن

وفى مكان آخر كان العذارى يصنّ عفافهن بالانتحار جاعلات من القبور الكفن لبكورتهن

وعلى مسافة من هذا المكان كنت أرى العشيقات تفيض أرواحهن تحت قبلات المحبين ، هذه تنوح ثم تسقط جثة هامدة عند الشاطئ وعيناها تنظران إلى روحها وهي تصعد حاملة معها مهجتها ، وتلك تتجرع كأس الموت على صدر رفيقها مطوقة عنقه بذراعيها تودعه الوداع الأبدى

وكذلك كنت أرى من بين الناس من سئموا الحياة وملوها فودعوها لعل أرواحهم تذوق طعم النعيم فى عالم آخر

أينما كنت أذهب كان أثر أقدام الملوك (١) مرسوماً محفوراً على ذلك البلاط القانى ... فمنهم من كان يمشي على دم أخيه ، ومنهم من كان يسير على دم شعبه ، فتترك أقدامهم من خلفها أحرفاً ناطقة : هنا مر ملك !

أما القساوسة فكانوا يخفون السيوف فى مطاوى أثوابهم الكهنوتية وأصواتهم تعلن الحروب باسم الانسانية وباسم الله

كان العالم كله ثملا بخمرة البطش ، يضرب كل منهم أخاه بسيف ذى حدين ، والأرض عطشى تكرع من الدم ولا ترتوى

— ٤ —

وعند ذلك صاح جنوص لقد هلت تباشير الصباح ، ولكن طرق آذانهم صوت بوق بعيد لم يكن غير أمر للمتفرقين من الجند بالاجتماع تحت علمهم ، فنهض الثلاثة حاملين أسلحتهم ثم ابتعدوا وهم يرسلون إلى موقدهم نظرة وداع أخيرة . غير أنهم لمحوا رفيقهم الباقى مقبلا وقدماه معفرتان بالتراب فاستوقفهم يقص عليهم ما رآه :

قال : إننى أجهل من أين أتيت لأنى كنت أعدو عدواً وكأن الأشجار لجزعها تعدو مثلى حتى غلب على سلطان النوم فنمت حيث رأيت نفسى فوق تل منفرد وقد كادت قدماى تحترقان من حرارة الشمس

(١) أى الظالمين منهم

وبينما أنا أثب من صخرة إلى أخرى لمحت رجلا صاعداً نحوى وعلى رأسه تاج من الشوك وعلى كتفيه معطف ثقيل والعرق يتصبب من وجهه فى حمرة الدم .وكانت حرارة الشمس قد أثرت فى قدمى فأخذت فى الصعود حيث أنتظره تحت كل شجرة فوق رأس التل ، حتى إذا اقترب منى وجدته يحمل صليباً ففرحت إذ لم أجده ملكا

ولكن جنوداً كانت تجد فى أثره وهم يهددونه بحرابهم ، حتى إذا ماأدركوه صلبوه فوق تلك الشجرة ودموعه تسيل وعلى شفتيه ابتسامة صفراء تنم عن مبلغ ما حل به من الحزن

هالنى هذا المشهد ولكننى رأيت الرجل عظيما فى موته فتأكد لي أنه غير ملك . ولذلك أشفقت عليه وأنا أصيح بهم : اطعنوه فى قلبه حتى لا يطول عذابه . وعندئذ وقفت حمامة على الصليب وأخذت تنوح ونبرات صوتها تصل إلى سمعى فتصورها لى عذراء لم تملك نفسها من البكاء وكأنها تقول :

« ما لى أرى الدم قد صبغ الهيب والفضاء والأشجار ؟ وما لساقي تغوصان من تحتي فى الرمل القانى ؟ وما لجناحى حين لمسا هذه الأغصان صبغتهما الحمرة ؟

لقد صادفت في طريقى رجلاً صالحاً فتبعته حتى إذا اغتسلت فى المنبع خرجت وثوبى طاهر نقى ولذلك كنت أقول لريشى : قر عيناً فانك فوق كتفيْ هذا الرجل لن تحمل هماً ولن تدنسك آثام . أما اليوم فقد أصبح نشيدى :

نوحى يا حمامة وابكى ثوبك الذى لطخه دم من اتخذت حماك بين ثدييه . إنه جاء ليصون لك بياض ثوبك ولكنه تحت حكم أولئك القساة بلّل ريشك بندى جروحه

هأنذى أنوح على ثوبى الملطخ فأين أجد أخاك أيها المسيح ليفتح لي طرف ثوبه فأحتمى فيه ؟ ومن ذا الذي يغسل بعد الآن ريشى الذى صبغه دمك ؟ »

وكأن المصلوب كان يستمع لنواح تلك الحمامة وريح الموت تحرك جفنيه ، وسكراته تلوى شفتيه ؛ غير أن نظراته اتجهت فجأة إليها كأنها توجه لها لطيف العتاب . ثم صرخ صرخة مالت عندها رأسه إلى صدره فذعرت الحمامة وفرت ، وقد اغبر وجه السماء واهتزت الأرض ، ثم أخذت تبتعد حتى اختفت فى ثوب الظلام

أما أنا فأخذت أعدو وقد بزغ الفجر واستيقظت الطبيعة باسمة من خلال ضباب الصباح ، وقد اختفت زوابع الليل فعاد للسماء صفاؤها ، وعادت للأشجار نضرتها ؛ ولكن الطريق كانت لا تزال تكسو جانبيها الأشواك ، ولا تزال ساكنة فى فجواتها الزواحف التى كانت تقف فى طريق سيرى بالأمس . نعم إن دم المسيح جرى فى شرايين الأرض القديمة من غير أن تعود إليها نضرتها الأولى

على أن البوق كان لا يزال يسمع صوته من بعيد فصاح جنوص فى رفاقه قائلا :

« ألم تشعروا يا أولادى بقسوة هذه المهنة ؟ لقد أزعجتكم تلك الأشباح فى نومكم كما أزعجتنى مثلكم ساعات طويلة . إن لي الآن ثلاثين سنة لم أقضها فى غير قتل بني جنسى حتى سئمت نفسى . وإننى أعرف أن هنالك أراضى واسعة فى حاجة إلى سواعد ومحاريث ، فهلا ترون أن نتذوّق بعد ذلك طعم الخبز الذى يخرج من كدّنا ؟ »

وعند ذلك صاحوا جميعاً : نعم

ثم أخذوا يهيئون حفرة يدفنون فيها سلاحهم وبعد أن اغتسلوا فى النهر اختفوا بين ثنايا الطريق

« المترجم » محمود خيرت



لم يطلع الفجر إلا وقد تجمع الحاصدون فى حقل الشعير ، ذلك الحقل الكبير القائم الزوايا الذى يملكه جيمس ما كدارا المهندس المتقاعد . ويبتدئ الحقل من منحدر أحد التلال ثم يهبط فى ميل خفيف حتى ينتهى إلى طريق الشاطئ المغطى بالرمال يحيط به سور غير مرتفع من الحجر تدلت عليه رؤوس عيدان الشعير الصفراء متكاثفة تغطيه فلا يكاد يظهر لأحجاره من أثر ، يخبط بعضها بعضاً فتحدث حفيفاً خفيفاً كلما هبت عليها نسمات الصباح .

وكان ما كدارا نفسه — وهو شيخ أبيض الشعر — واقفاً خارج السور فى سراويله الرمادية يلوح بعصاه متحدثاً إلى نفر قليل من الناس اجتمعوا حوله فى هذه الساعة المبكرة من النهار مدفوعين بحب الاستطلاع ، وكانت أمارات الاهتمام بادية على وجهه المشرب بالحمرة وهو يحدثهم فى صوت مرتفع يقول :

« لقد مسحته يوم أمس على أدق الوسائل ؛ وأقسم بشرفى أن ليس هناك من فارق ولو بوصة واحدة بين مساحات الأقسام الثلاثة . وانظروا لقد رسمت خطوطاً على طول الحقل حتى لا يضل أحدهم طريقه فلتتقدموا لتروا بأعينكم »

وقاد الرجال من طرف الحقل إلى الطرف الآخر فأراهم كيف قسمه إلى ثلاثة أقسام متساوية ، وكيف وضع خطوطاً تبين معالم كل قسم من هذه الأقسام وصاح الرجل فى نشوة أشبه بنشوة تلميذ المدرسة :

« لا يمكن أن يكون هناك ما هو أعدل من هذا ، وعندما أطلق النار من مسدسى سيبدأ الجميع العمل فى لحظة واحدة ، والزوج الذى يسبق فى حصد شقته يحصل منى على ورقة من ذات الخمسة الجنيهات

وهز الفلاحون رؤوسهم ونظروا إلى الشيخ ما كدارا نظرة الجد على الرغم من أن كل واحد منهم كان يعتقد فى نفسه سفه ذلك الشيخ الذى ينفق خمسة جنيهات على حصد حقل يمكن حصده بجنيهين لا أكثر ؛ على أنهم لم يكونوا مع ذلك أقل من ما كدارا نفسه اهتماما ولهفة ، فإن الثلاثة المتفوقين بين الحاصدين فى جزيرة انفيرارا كلها قد تقدموا إلى هذه المسابقة ، وكانوا فى هذه اللحظة واقفين عند رأس الحقل كل فى شقته مستعدين للعمل ، وكان كل منهم مستصحباً زوجه لتحزم ما يقطع من الشعير وتربطه ولتقدم له الطعام أيضاً

أما اختيار الشقة التى يعمل فيها كل منهم فكان عن طريق الاقتراع إذ سحب ثلاثتهم ورقة ملفوفة من قبعة ما كدارا ، حتى إذا عرف كل شقته وقف على رأسها منتظراً إشارة البدء فى العمل ؛ وعلى أن الشمس لم تكن بعد قد بعثت بحرارتها إلى

الأرض ونسيم البحر كان لايزال ندياً رطباً ، فان الرجال الثلاثة قد خلعوا أرديتهم إلا الأقمصة المفتوحة الصدر ، وقد طووا أكمامهم ورفعوها إلى سافوق المرافق ، وكانت الأقمصة مصنوعة من الصوف الرمادى ، وقد تمنطقوا بأحزمة من الصوف منسوجة باليد ؛ أما سراويلهم فكانت من قماش أبيض تدخل نهاياتها تحت جوارب طويلة من الصوف محلاة رؤوسها بمختلف الألوان ، وقد انتعلوا نعالاً خفيفة من شأنها أن تقى أقدامهم وتسهل عملهم ؛ وكان ثلاثتهم عارى الرؤوس ، أما نساؤهم فقد ارتدين سترات حمراء وربطن حول رؤوسهن شيلاناً صغيرة

وكانت الشقة اليسرى من نصيب ميخائيل جيل وزوجته سوزان . وكان ميخائيل رجلا طويل القامة صلب العود قوى البنية ، أشقر شعر الرأس ، أقنى الأنف ، يحرك فى استمرار فكه الأسفل إلى الأمام وإلى الوراء ؛ وكانت عيناه الزرقاوان الصغيرتان محدقتين باستمرار إلى الأرض ، حتى لاتكاد أهدابه البيضاء الطويلة تلمس عظمتى وجنتيه كما لو كان نائماً ، وقد وقف جامداً يحمل فى يده اليمنى منجل الحصاد ممسكا حزامه باليسرى ، وكان يرفع أهدابه ما بين فترة وأخرى مصغياً يتوقع انطلاق المسدس ؛ وكانت امرأته تكاد تدانيه طولاً ولكنها كانت بدينة محمرة الوجه ، وكانت امرأة صموتاً وقفت فى هذه اللحظة تفكر فى طفلها الذى لم يتجاوز الشهر الثامن من عمره وقد تركته فى البيت فى عناية أمها

وكانت الشقة الوسطى من نصيب جونى بودكن ، وقد وقف متكتفاً مفرشخاً يتحدث إلى امرأته فى لهجة جدية خافتة ، وكان رجلاً كبير الهامة غليظ الأطراف والعنق ، أسود الشعر ضرب الصلع فى مقدم رأسه ، وكانت جبهته شديدة البياض وخداه شديدى الاحمرار ؛ وكان كثير التقطيب يحرك حاجبيه السوداوين ، وكانت امرأته مارى قصيرة القامة نحيفة ، شاحبة الوجنتين ، تبرز أسنانها العليا إلى الخارج قليلا على شفتيها السفلى

ووقف على رأس الشقة اليمنى «بات كونسيدين» وامرأته « كايت » ، وكانت « كايت » كبيرة الهامة مفتولة العضل ، مرقشة الوجه ، نبت على شفتيها العليا شاربان يسترعيان النظر ؛ شعرها غزير يضرب لونه إلى الصفرة القاتمة وقد تركته مرسلا غير ممشط ، وكانت تتحدث إلى زوجها فى صوت عال فيه خشونة صوت الرجال ، تميزه نغمة تنبىء عن طيب الخلق والوداعة . وكان زوجها على العكس منها رجلاً قصير القامة، ضئيل الجسم ، بدأت التجاعيد ترتسم على وجهه ولما يبلغ الأربعين بعد . وكان وجهه فى وقت ما مشرباً بالحمرة الداكنة ، أما الآن فقد بدأ يعلوه الشحوب ، وقد فقد أغلب ثناياه ، وكان فى هذه اللحظة واقفاً فى غير اكتراث يبتسم لما كدارا ، وكانت ضآلة جسمه ونحوله يخفيان ما ركب فى ذلك الجسم من قوة ، ثم هز ما كدارا عصاه ، ورفع ساعده وأطلق النار من مسدسه فبدأ سباق الحصاد ؛ وبحركة واحدة ركع الرجال الثلاثة على ركبهم اليمنى كما يركع الجنود ساعة المران على إطلاق النار ، وفى نفس هذه الحركة أطبقت كفوفهم اليسرى على حزم من عيدان الشعير وارتفعت مناجل الحصد فى الهواء ، ثم سمعت أصوات قطع تشبه الأصوات التى يحدثها أكل البقر الجائعة

الحشيش المبكر في الربيع . ثم إذا بثلاث حزم صغيرة ملفوفة من الشعير تاقى على الأرض المنداة بجوار السور، وراء كل ساق مثنية من سوق الحاصدين الثلاثة حزمة منها ؛ وكانت النسوة الثلاث ينتظرن فى لهفة عصبية الحصدة الأولى ، فهذه الحصدة قد تكون بشيراً بالنصر أو نذيراً بالهزيمة ؛ وتكونت حزمة واثنتان وثلاث وأربع ... وكان جونى بودكن يغط كالجواد الثائر ماقيا بالحزم التى يقطعها فى غير توقف . ولم يلبث أن رفع منجله عالياً فتفل عليـــه صائحاً فى صوت عال صيحة الانتصار يقول : «الحصدة الأولى !» فأطبقت امرأته بكلتا يديها ، وبدأت عملية الحزم فى سرعة ومهارة تدعوان إلى الدهشة والإعجاب، وكأنما كانت أصابعها الطويلة فى أثناء هذه العمليــة تلعب بإبر التطريز . ولم يتوقف الحاصدان الآخران وزوجاهما لينظروا ما حدث ، فقد انتهى الحاصدون الثلاثة من قطع حصدتهم الأولى ، وانهمكت زوجاتهم راكعات على ركبهن فى عملية الحزم .

واستمر بودكن فى الحركة العنيفة التى بدأ بها ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى كان قد تقـدم منافسيه بمسافة غير قصيرة ؛ وكانت ضرباته فى قطع سيقان الشعير غير منتظمة فكان يترك وراءه بقايا هي أثر لعدم انتظام الضربات ، ولـكن السرعة التى كان يعمل بها والقوة التى بدت فى حركاته أدهشتا المراقبــين أكبر الدهش ، فكانت يداه تعملان بالمنجل عمل الجبابرة ، وكان جسمه الـكبير يتحرك فى قوة ، فكان فى حركته أشبه بفيل يدب وسط إحدى الغابات . ولـكن المشاهدين كانوا يرون فى حركات أطرافه التى لاتهدأ توازناً لا يخلو من الجمال ؛ وكانت امرأته من ورائه تحزم في استمرار مايحصد فى سرعة تدعو كذلك إلى الاعجاب ، وقد تجمعت عضلات وجهها فى تقطب جدى أشبه بالرجل المنهمك فى حل مسألة كبيرة الخطر

ويأتى بعد « بودكن » كونسيدين وامرأته ، وقد أبدى هذا الرجل الضئيل الجسم ، بعد أن انهمك فى العمل ، قوة مدهشة وخفة فى الحركة تشبه خفة الجديان . وعند ما كان ساعداه النحيفان الطويلان يعملان فى قطع الشعير كانت العضلات تبرز فوق ظهره كسلسلة من اللوالب المضغوطة . وكان كلما اعتمد على ركبته اليمنى ليتقدم إلى الأمام فى خط الحصاد ينفرج فمه عن صوت أشبه بالأنين المقطوع ؛ وكانت امرأته التى غمر العرق جبينها تتحرك في أعقابه تحزم ما يقطع وتشجعه على العمل ضاحكة مازحة بصوتها المرتفع كعادته الخارج من أعماق قلبها

وكان آخر الثلاثة ميخائيل جيل وامرأته . وقد بدأ ميخائيل عملية الحصاد فى حركة متأنية متزنة كآلة ميكانيكية تبدأ حركتها بقوة دفع خفيف . وقد مضى فى عمله فى خطوات متساوية لا يغيرها أبداً ولا يرفع رأسه مطلقاً ليرى إلى أين وصل منافساه؛ وكانت يداه الطويلتان تتحركان في سكون فلا يسمع لحركاتهما صوت غير صوت احتكاك أسنان المنجل لسيقان الشعير . ولم ينظر وراءه قط ليرى إذا كان قد حصد ما يكفى لجمعة واحدة ، حتى يبدأ فى الجمعة الثانية ، فقد كان مقدراً جميع حركاته من قبل تقديراً صحيحاً ، فهى حركات ثابتة متماثلة دقيقة غاية فى الدقة وحتى تنفسه كان شبيها بحركاته هادئا لا يخرج إلا من أنفه كتنفس النائم السليم من الأمراض . وكانت امرأته تسير وراءه في مثل هدوئه تحزم الحصدات فى تأن وكثير من العناية لا يبدو عليها أي أثر للانفعال أو الاجهاد

وإذ تقدم النهار أقبـل الناس من كل ناحية

ليرقبوا حركات الحاصدين . وارتفعت الشمس فى كبد السماء ، واشتدت الحرارة ، وانقطع الهواء ، وجمدت سيقان الشعير فلم تتعد تتحرك كما كانت تتحرك فى أول النهار بعمل نسيم الصباح ، بل وقفت منتصبة ثابتة أشبه برماح من الذهب تحمل أسنة من الفضة البيضاء . وكان قسم كبير من الشعير قد حصد تاركا مكانه فراغا يزداد اتساعاً ما بين لحظة وأخرى ، وقد انتثرت فيه نقط خضراء هى نبات بعض البذور التى اختلطت ببذور الشعير عند زرعه ؛ وكان المشاهدون يتحدث بعضهم إلى بعض فى أصوات مرتفعة ، ولكن ارتفاعها لم يكن ليغطى على صوت المناجل الحاصدة

وقبل أن ينتصف النهار بقليل كان بودكن قد انتهى من حصد نصف شقته ، وكان صاحب الحقل قد وضع قطعة من الحجر على الخط الفاصل بين النصفين ، فما وصل بودكن إلى هذا الحجر حتى رفعه بيده عالياً وصاح :

« هذا هو الدليل على أنه لم يولد بعد فى جزيرة انفيرارا رجل فى مهارة جوني بودكن »

فأجاب المشاهدون الواقفون وراء السور على هذا التفاخر بصيحات التهليل . ولكن كايت كونسيدن حملت حزمة من الشعير فهزتها فى الهواء وقالت بصوتها الخشن وفى لهجتها الفكاهية المعهودة :

« إننا لا نزال فى طليعة النهار يا بودكن الناعم اللحم . »

فارتفعت فى الجو ضحكات السامعين لهذه الفكاهة . ولكن بودكن لم يجب ، فلم يكن حاد الذكاء حاضر البديهة ليقابل هذه الدعابة بمثلها . أما جيل وامرأته فلم يلتفتا إلى ما حدث ، ولم يرفعا أعينهما عن عملهما

وكانت امرأة بودكن أول من أعد طعام الغداء فأحضرت وعاء مملوءاً بالشاى البارد وفطيرة كبيرة من الدقيق الأبيض فقطعتها قطعاً كبيرة وغطت كل قطعة منها بطبقة كثيفة من الزبد ، وقد أعدت إلى جانب ذلك أربع بيضات مسلوقة . ولم يكن لبودكن وامرأته أطفال ، لهذا كان فى مقدورهما أن يعيشا فى شيء من السعة ، أو على الأقل كانا أرفه حالاً من أمثالهما من الفلاحين ، فما وقع نظر بودكن على الطعام حتى ألقى بمنجله وأقبل يأكل فى شره فازدرد فى لحظة ثلاث بيضات بينما امرأته التى لم تكن لتقل عنه جوعاً أكلت الرابعة ؛ ثم أقبل بودكن على الفطيرة المحملة بالزبد والشاى البارد يلتهم الجميع بمثل السرعة التى كان يحصد بها النبات . ولم يحتج الزوجان لأكثر من دقيقتين وثلاثة أرباع الدقيقة لالتهام كل هذه الكمية الكبيرة من الطعام والشراب . وكان الدكتور جالاغر الواقف على الشاطىء بين المراقبين يحسب الوقت مدفوعاً إلى ذلك بحب الاستطلاع ، وما انتهى الزوجان من الأكل حتى عادا يحصدان بمثل العنف الذى كانا يعملان به من قبل

وكان كونسيدين قد تساوى ببودكن فى اللحظة التى استأنف فيها هذا عملية الحصد ، وبدل أن يجلس كونسيدين وامرأته للطعام تناولاه على عادة مألوفة بين فلاحى انفيرارا فى مثل هذه المواقع ، فكانت كايت تطعم زوجها في أثناء عمله بقطع من فطير الشوفان المدهون بالزبد ، وكانت من فترة لأخرى تناوله وعاء الشاى فيشرب منه قليلا ، وبهذه الوسيلة كان عند انتهائه من الأكل لايزال فى مستوى بودكن ، وقد أعجب المشاهدون بما رأوه من حماسته وتنبأوا له بالفوز

ولم يهتم أحد من المشاهدين بجيل وامرأته فلم

يكن فى حركاتهما ما يسترعى النظر أو يثير اللهفة ؛ على أن هذين الزوجين لم يقطعا عملهما ليأكلا ، وكانا يقتربان في انتظام من منافسيهما ؛ وعلى الرغم من أنهما كانا لايزالان متأخرين قليلا عن مستوي هؤلاء ، كان يبدو عليهما النشاط الهادىء ، فكانا فى هذه الساعة من النهار مثلهما عند ابتداء السباق لايبـدو عليهما أى أثر للتعب أو الاجهاد ، بينما مظاهر التعب قد أخذت تبدو على بودكن الذى أثقله الطعام الدسم ، وفى حين بدأ على كونسيدين أنه قد أخذ ينفق من قواه الاحتياطية . وإذ وصل جيل إلى الحجر المميز لخط النصف من شقته وضع منجله فى هدوء وطلب من امرأته أن تحضر الطعام فأحضرته من جانب السور وكان مكوناً من خبز الشوفان المدهون بالزبد الخفيف ، وزجاجة مملوءة باللبن الطازج وشيء من دقيق الشوفان فى قاع الزجاجة ، وأكل الزوجان طعامهما على مهل ثم استراحا فترة من الوقت . فلما رأى المشاهدون ذلك بدأوا يتهكمون عليهما ، ولـكنهما لم يعبآ بهذا التهكم ولم يلقيا إليه بالا . حتى إذا مرت عشرون دقيقة عادا يستأنفان عملهما ، فارتفعت فى الجو عبارات السخرية وصاح شيخ عجوز :

« إنك لتلوث اسمي يا ميخائيل »

فصاح ميخائيل جيل :

« لا عليك يا أبي فان السباق لم ينته بعد »

ثم تفل على يده وأمسك بمنجله من جديد

ثم بدت على المشاهدين آثار الدهشة البالغة فقد رأوا جيـل وامرأته يستأنفان عملهما بنشاط جم وسرعة هائلة ؛ وكانت حركاتهما منتظمة آلية كما كانت من قبل ولـكنهما الآن كانا يعملان بضعف السرعة التى عملا بها فى أول النهار ، فانقلبت صيحات الاستهزاء إلى هتاف الإعجاب ، وأخذ السادة من المشاهدين يتراهنون على من سـيكون الفائز . ولم تكن اللهفة إلى هذه اللحظة قد بلغت حدها ، فقد كان الجميع واثقين من فوز بودكن الذى كان يتقدم منافسيه بمسافة طويلة . ولـكن هـذا التفوق لم يلبث أن تهدده الخطر ، فعلى الرغم من تقدمه على جيـل إلى مدى بعيد كان التعب قد أخذ منه وقد بدت عليه آثاره واضحة ، وكان من أظهرها خطأ ضربات منجله ما بين فترة وأخرى ، إذ كان سنه يضرب الأرض فيخرقها ، وكان جسمه كله يتصبب عرقاً ، وشرع ينظر وراءه إلى جيل متضايقاً من صيحات المشاهدين وتهليلهم

وقبل الساعة الرابعة بقليل سقط كونسيدين فجأة مجهودا فحملوه إلى ما وراء السور ، وأحاط به فريق من المشاهدين . وسقاه مستر روبرتسون القسيس قليلا من النبيذ أعاد إليه شعوره فحاول أن يعود إلى العمل ولـكنه لم يستطع النهوض . فقالت امرأته غاضبة :

« ابق حيث أنت فقد قضى عليك . وسأستأنف أنا العمل »

وشمرت المرأة ساعديها ثم حملت المنجل واندفعت إلى الحقل صائحة وشرعت تحصد فى قوة وعنف . وصاح ماكدارا :

« مرحى ! مرحى ! »

ثم وجه كلامه للدكتور جالاغر ، وقد لمس كتفه :

« سأعطى المرأة جائزة خاصة يا جالاغر ، فهي بعد من النسل الإيرلندى .. وإنك لتفهم ما أعني .. إنها من النسل النشيط ! »

ولـكن اهتمام المشاهدين انصرف كله إلى المعركة بين بودكن وجيل . فقد ثار بودكن ثورة هائلة فبذل مجهوداً رائعاً ، واستطاع أن يتقـدم تقدماً جديداً

وكان جسمه الثقيل يتحرك يمنة ويسرة وإلى الوراء فى خط الحصاد ، فكأنما كان ينتزع عيدان الشعير بفعل ساحر . وكان كلما انتهى من حصدة تناولتها امرأته فحزمتها . ولكن عند ما وقف بودكن فى الساعة الخامسة ونظر إلى الوراء رأى جيل لا يزال يتقدم فى اطراد منتظم مخيف . وأحس بودكن فجأة أن متاعب اليوم كله قد استولت عليه فى هذه اللحظة

أحس بادئ الأمر بعطش شديد ، فأرسل امرأته لتحضر له من جوار السوز وعاء الشاى الاحتياطى ، فلما عادت به شرب فى شره شديد . وكان كلما شرب ازداد شعوراً بالعطش . فصاح به أصدقاؤه من المشاهدين محذرين ، ولكنه جن بالعطش ، فلم يعد يعى شيئا ، فاستمر يشرب ، وكان قد أصبح على بضع خطوات من خط الفوز ، فنظر إليه ذاهلاً وهو يلوح بمنجله فى الهواء ، ثم عاد يشرب حتى بلدت حواسه ، وأثقل النعاس رأسه ، وأصبحت حركاته حركات لا شعورية ، فكان يرى أمامه الجدار الذى ينتهى عنده السباق ويجاهد فى الوصول إليه ، وشرع يحدث نفسه ، ووصل بالفعل إلى الجدار فى إحدى نهايتى خط الحصاد ، ولم يكن عليه إلا أن يحصد الشعير على طول الجدار وينتهى الأمر . وما هى إلا ثلاث حصدات ثم ... ثم يصبح أمهر حاصد فى أنفيرارا ... ويحصل على الورقة ذات الخمسة جنيهات ...

وما وصل فى حديثه لنفسه إلى هذا الحد حتى اخترقت صماخ أذنيه صيحة التهليل والاعجاب تدوى فى الجو :

« لقد فاز چيل »

فسقط بودكن على الأرض يئن أنين الموجع المقهور

عبد الحميد حمدى



كان اسمها روز . وعجيب أن تسمى رُوز ابنة البادية!

وأعجب من هذا أن أهلها كانوا يجهلون معنى هذا الاسم وقت ميلادها . فهم أصدقاء الطبيعة الساذجة يعرفون للزهور أسماءها وللأعشاب أنواعها؛ ولم تكن إلى ذلك الوقت قد آذت حاسة سمعهم تلك الكلمات الأعجمية التي يستعملها فى عربيتهم غير الناطقين بالضاد . فكانوا يعرفون أن ملكة الزهور هى الوردة ، وكانوا يجهلون تماماً أن كلمة « روز » هي اسم هذه الزهرة العطرية عند الفرنجة

ولكن هى الحرب العالمية التى تغلغل أثرها إلى نفوس أهل الدعة والسكينة ، عشاق الجمال الخالص من كل تصنع ، رفقاء الشمس فى بكورها وأصيلها وشفقها ، والقمر فى هلاله وبدره

نعم هى الحرب الضروس التى قضت ظروفها السيئة أن يطأ بنو التاميز أرض مريوط حاملين إليها سموم مدنيتهم ومدنيات أتباعهم ، أولئك النفر من مرتزقة الأمم الغربية الأخرى الذين كانوا يلازمون الجيوش فى تنقلاتهم ليغنموا من بيع سلعهم أكبر الفائدة

وهكذا أراد القدر أن يعسكر البريطان بالعامرية وأن تتخذ أسرة بسكوالي الايطالية المرتزقة مسكنها بالكنجي بجانب خيمة أسرة مدكور العربية الخالصة

ولم يكن الدهر وقتئذ لآل مدكور عبوساً ، فالسحب فى كل عام ممطرة ، والشعير وفير ، والشاء والنياق منتجة غزيرة ألبانها ، والحياة رغدة مغدقة يزيد فى هنائها صفاء السماء فى الصيف وجفاف الجو في الشتاء

وكانت « مَنْبِيَّة » إحدى زوجات مدكور الأربع على وشك الوضع حين شيدت أسرة بسكوالى بجانب خيمتها أول منزل أقيم فى تلك الجهة ؛ فلما وضعت منبية طفلتها أوحت إليها امرأة بسكوالي أن تدعوها « روز » فقبلت ، وكان الإسم أول طغيان للمدنية الظالمة على قدسية ما بنته الطبيعة بيدها الطاهرة

وجاءت « روز » آية فى الجمال تجمع كل ما فى معنى الوردة من حسن وبهاء ؛ فالوجه لطيف الملامح وسيم ، والجسم متسق الأعضاء غض ، والبشرة بيضاء نضيرة

وذهبت الأيام بآثار الحرب المشئومة إلا ما أوغلت من مدنية في بقاع مريوط الشاسعة وتركت من تعاليم الحضارة الفاسدة فى نفوس سكانها

فالخيام الآن مضروبة فى نقطة الكنجى حول مساكن من الخرسانة المسلحة خططت أبدع تخطيط تحفها الفرندات وتحيط بها الحدائق التى تروى بما تنزحه أحدث المحركات الزيتية والهوائية من مياه الآبار

وكأن تلك الخيام وهي قائمة حول هذه المساكن التى تموج بضوضاء السرعة الآلية ومرح أهل الحضارة المتكلف الممزوج بكثير من الرياء

والاستهتار تنكس هامتها ذلا وخنوعاً بعد أن كانت فى فضاء الله الحر عالية الرأس عزيزة الجانب

ولقد شاء نحس الطالع أن تمعن هذه الخيام فى ذلها وأن يخضع ساكنوها لسلطان المدنية القاهر تحت ضغط الفاقة ، فالسحب نادرة المطر منذ خمس سنوات، وما أشقى أهل البادية إذا شح القطر وحرمت حياضهم من ري الديم المحسنة

ولم ينج مذكور على رغم سعة العيش التى كان يتمتع بها من مخالب البؤس . فلا شعير يكدس حول خيامه ، ولا أعشاب تكسو التلال البعيدة فتشبع قطعانه . وتوالت عليه النكبات عامين متواليين فقتله الحزن وأودى تاركاً من ورائه نسوة لا عائل لهن ، وعدداً كبيراً من الذرية لا يجدون من القوت إلا الكفاف

وآل إلى مَنْبيَّةِ وأولادها مما تبقى من مال زوجها شاة وناقة وجمل وما بخيمتها من متاع قليل

ولم تشأ أسرة بسكوالى — وقد احتمت فى جوار هذه الخيمة إذ كان العز يرفرف فوقها — أن تتخلى عن حمايتها فى أيام محنتها فجعل ربها من مَنْبيَّةِ حارسة لمصيفه وما حوله من أراض أورق شجرها وطاب ثمرها أثناء إقامته بالأسكندرية ، وخادماً تقوم بنظافة المنزل وتعاون ربته فى الطهى أثناء راحته بمريوط

وكانت روز تعاون أمها في كل هذه الأمور ، فإذا لجأت اسرة بسكوالى إلى مصيفها فى يومى السبت والأحد من كل أسبوع كعادتها أخذت فى تنظيف الحجر وإعداد الأسرة وغسل أدوات الطبخ وحمل الماء العذب من صهريج المحطة وإعداد المائدة فى أوقات تناول الطعام

فإذا انتهى أفراد الأسرة وضيوفهم من تناول الطعام وأفرغوا من زجاجات الخمر المعتقة ما أفرغوا أمر بسكوالى وهو فى نشوته ومرحه أن تعطي فضلات الوليمة إلى مَنْبيَّةِ فتتلقاها المسكينة فرحة وتحملها إلى أولادها وهى تحمد الله أن منّ عليهم بقوت يومهم فى سعة

وكثيراً ما كانت « روز » تحجم عن مشاركة إخوتها فى تناول تلك الفضلات وكانت أمها تعرف سبب إحجامها — فبسكوالى الشاب أكثر عطفاً عليها من أبيه على « مَنْبيَّةِ » فهو لا يرضى أن يراها تأكل من فضلات طعامه ، وقد شاركته اللعب طفلاً وشاطرته المرح والابتهاج بمناظر الطبيعة مراهقاً ، وهى لا تألو جهداً فى إرضائه وخدمته ، وقد صار شاباً ترهف من عواطفه الرعاية والزلفى

فإذا ما جلس إلى المائدة ورأى فى حديث المجتمعين حولها ما يشغلهم عنه ، اختلس اللحظة ونهض إلى حجرة الطبخ ليتحف رفيقة طفولته بنصيب من لذيذ الطعام فتأخذه شاكرة وتنتحى ناحية وراء المنزل لتلتهمه بشغف بعيدة عن أعين الرقباء

ولم يكن عطف بسكوالى الشاب قاصراً على إطعامها قدر استطاعته، بل كان يتعدى ذلك فى بعض الأحيان فينقلب حنواً شديداً يتجلى فى مظاهر التدليل التى كان يحيطها بها — فكم من مرة مسح على كتفها وهي فى معزل تقوم بعملها المنزلي ، وقال لها فى لطف جم : « أنت جميلة يا روز ! وحرام أن يضيع هذا الجمال وسط الصحراء »

وكانت روز تصغي إلى هذه الكلمات العذبة وهى مطأطئة الرأس فتحمر وجنتاها من خفر ، وتمتلىء نفسها عجباً وزهواً — وكيف لا تفعم هذه النفس البريئة الصافية بالخيلاء وها هو ذا ربيب المدنية والجاه ، يردد على مسمعها عبارات الاطراء فى لهجة تنم عن صدق وإيمان قويين . هو أدرى بتقدير جمال النساء لأنه يرى من أنواعهن المختلفة فى شتى الأزياء ما يجعله دقيق التقدير صادق الحكم . فهى إذن جميلة وجديرة بأن تكون من ربات تلك

القصور التي كثيراً ما وصف لها بسكوالي الشاب داخلها وما تضم من أثاث فاخر وزينة

كان يصور لها تلك القصور تصويراً رائعاً خلاباً فإذا عجزت عن إدراك دقائق التعبير بالنسبة لأحد أجزائها اتخذ من حجر مصيفهم مثلا مصغراً فيقول لها : « أرأيت قاعة الاستقبال وما بها من رياش ؟ إنها لا تذكر بجانب قاعات الاستقبال فى قصور الأغنياء وليس بين نسائهم من تضارعك حسناً و نضارة!

كل هذه التأثيرات من إطراء ووصف وإغراء كانت تتغلغل رويداً رويداً فى نفسها المطمئنة فتجعلها فريسة الاضطراب ، وتهيج فى قرار عقلها الباطن عوامل الطموح إلى الجاه والرغبة فى المتعة بمظاهر الحيـاة وحب الوصول إلى مكانة تتفق وما حبتها الطبيعة من جمال ؛ وتحت هذه التأثيرات أصبحت « روز » — وهى ابنة الصحراء القانعة من العيش بالكفاف ، ومن المتاع بأقل من الضروري — ترى فى فضاء مريوط سجناً ضيقاً ، وفى الخيمة التى أبصرت فيها الحياة مأوى حقيراً لا يليق بحسناء مثلها

إلا أن هذا الغرور لم يكن قد استولى بعدُ على كل إرادتها الناشئة ؛ فكانت كلما رجع بسكوالى الشاب إلى المدينة ثابت إلى حقيقة أمرها ، وطردت الأوهام الباطلة من مخيلتها ، فتعود إليها ابتسامتها الحلوة ومرحها الساذج ، وتتاق « حِمِيْدَه عبدالكريم » خطيبها المدله ببشاشة تزيل من نفسه الكآبة واليأس من حبها

وفى بعض الأحيان كانت تذهب فى النظر إلى الحياة نظرة فلسفية رصينة إلى أبعد من هذا الحد ، فتأخذ فى تأنيب نفسها على طموحها الأهوج ونفورها من حِمِيْدَه كلما أراد التقرب إليها ، فتتساءل فى دهشة : « لِمَ أحاول التخلص منه وهو شاب جميل الطلعة طيب القلب غنى ؟ أوَ ليس فى سحر عينيه الواسعتين ، وبشرته النحاسية اللطيفة ، وقامته العالية وقوة ساعديه ما يعادل محاسن شبان الحضر ؟ أوَ لا ألاقى منـه عطفاً وحناناً يوازيان عطف بسكوالي وحنانه ؟ أوَ ليس أبوه سيد عشيرة « أولاد على » وعميدها المحترم ؟ فماذا أبغى من الدنيا أكثر من أن أكون له زوجة ؟ » وفى الواقع كل هذه الصفات وهذه المميزات تجتمع فى حِمِيْده عبد الكريم ؛ ففيه الجمال البدوي البهيج ، وفى أسرته كرم المحتد والسيادة بين عشائر مريوط العربية

فأبوه الحاج عبد الكريم تحتكم الأسر فى الخصومة إلى سديد رأيه وعدله ، ويلجأ الغريب إلى خيامه فيجد من كرم الضيافة مايجعله يلهج بفضله . — ورث عن آبائه جنتين يتعاون أبناؤه الثلاثة على ريها من بئر رومانية فتؤتي كل منها محصولها وفيراً : تيناً وزيتوناً وعنباً . وكلما حان وقت قطاف الثمار راح حِمِيْدَهْ وأخواه يبيعون جزءاً منها فى قرى الكنجي والعامرية والهوارية ، وتولى الحاج عبدالكريم بيع الباقى إلى تجار الفاكهة ممن تعودوا شراء غلاته . أما الغنم فيرسلها إلى مراعى البحيرة حتى إذا جاء عيد شم النسيم أو عيد الأضحى ساقها أحد أبنائه إلى الاسكندرية فيربح من ثمنها كثيراً

وكانت أمنيته الملحة أن يرى قبل موته خيمة حِمِيْدَهْ — ابنه الأصغر — مضروبة الأطناب بجانب خيمتى أخويه يرفرف فوقها الهناء الزوجى بجناحيه . واستغل حِمِيْدَهْ هـذه الرغبة فى نفسه فتعجل الحوادث وجعل أخاه الأكبر يفاتح أباه بما يكن قلبه لروز من الود الصادق ، فوافق على هذا الاختيار ، ولا سيما أن المرحوم مدكور كان من أخلص أصدقائه

ومنذ ذلك الحين أخذ حِمِيْدَهْ يهيىء الظروف المناسبة لعقد الخطبة بقراءة الفاتحة فى حفل من الشهود ، فذهب إلى مَنْبِيَّةٍ ورجاها الموافقة على الزواج من ابنتها فوافقت مغتبطة ؛ وحدد لعقد الخطبة موعداً ضربه فهرولت إلى صديقتها « ناجيـة »

وطلبت إليها أن ينوب زوجها آدم عن والد روز في الاجتماع لما له من الأفضلية بحق الجوار فقبلت وقبل الزوج شاكراً

وفى عصر اليوم المحدد كانت خيمة مَنْبِية وما جاورها من الخيام في عيد ومرح ،فلبست النساء زينتهن وبدت « روز » بينهن فى أجمل ما لديها من الملابس كالوردة الغضة وسط الروض الزاهر ، والتحف الرجال بشاملهم الحريرية والصوفية وحملوا بندقياتهم وساروا فى موكب يحفه الوقار نحو خيام « أولاد على » يتقدمهم آدم

وكان الحاج عبد الكريم وشيوخ أسرته وأخصاؤه ينتظرونهم عند منتصف الطريق ، فلما اقتربوا منهم أفرغوا بندقياتهم فى الهواء لتحيتهم فردوا عليهم التحية بمثلها ، واجتمع الفريقان وكان سلام وكان كلام إلى أن دخلوا الخيمة

ولما استراحوا قليلا وضعت أمامهم أطباق الثريد فأصابوا منها ما اشتهوا ، ثم دارت عليهم كؤوس الشاى فشربوا حتى قلبها الجميع علامة على الاكتفاء . وعندها تربع الحاج عبد الكريم بعد اتكائه ففعل الكل مثله ورفع بالكفين فرفعوا ، وقرئت الفاتحة

وقع كل ذلك فى غيبة بسكوالي الشاب ، فلما علم به ثارت ثائرته وصمم على الالتجاء إلى كل سبل الإغراء لمنع هذا الزواج . فاستعمل للوصول إلى غايته كل ما أوتي من ذكاء ودهاء ، وأخيراً أفلح فى تنفيذ ما عزم عليه

فما هى إلا أيام قلائل بعد حفلة الخطبة حتى كانت فكرة الفرار قد اختمرت فى رأس روز ، وفى ذات ليلة ابتعدت عن خيمتها ولم تعد إليها

اختطفها بسكوالى فى سيارته وعهد بها إلى عجوز أفرنجية تؤجر حجراً مفروشة فى حى وجيه من أحياء الاسكندرية . فدخلت الحجرة التى أعدت لها وهى وجلة مرتعدة الفرائص نادمة على فعلتها التى أخذت شناعتها تتجلى لها أثناء رحلتها بالسيارة ، ولكن الأمر قد وقع ولم يعد ندمها ليغنيها فتيلا . فقد تركت الصحراء وهى تعلم أن الرجوع إليها مستحيل إذا الموت المؤكد دونه

ولم تأل العجوز جهداً فى تهدئة روعها ، فجعلت تساعد بسكوالى فى رطانتها المشوهة على تصوير المستقبل أمامها باهرا . ولكن الصدمة كانت قوية فى نفسها فلم تع من عباراتهما إلا حديثاً مبهماً مملا . ولما كابدته من إجهاد عقلى شاق ، وعناء جسمى شديد ، رجتهما تركها وحيدة ؛ وما أن أغلقا عليها باب الحجرة حتى ارتمت على سريرها وأجهشت فى البكاء ، ثم تغلب عليها النعاس فنامت ، وكان نومها متقطعاً تتخلله الأحلام المزعجة

وفى الصباح الباكر حمل إليها بسكوالى ما ابتاعه لها بالأمس من أحدث الملابس الإفرنجية نمطا . فلبست منها ونظرت إلى نفسها فى المرآة فعاودها غرورها وطموحها وابتسمت ، وكانت ابتسامتها أولى علامات الرضا بطورها الجديد فى حياة المجون

نعم لقد بدأت « روز » منذ تلك الآونة تبيع نفسها إلى شيطان الهوى فجرها إلى وهدة الدعارة وهى صاغرة مستسلمة

فلم يمض زمن طويل حتى كانت لبسكوالى خليلة تعاقره الخمر ، وتصاحبه إلى أماكن الفسق . وما هي إلا أشهر بعد ذلك حتى نبذها خليلها فراحت ترتمى فى أحضان كل فاجر

ودخل اليأس من الحياة قلبها فأدمنت على تناول المخدرات ، وبدل الشقاء من نفسيتها فصارت شرسة فظة ، ومحت الهموم وسموم الخمر أكثر ملامح الجمال من محياها ، فبدت آثار الدمامة عليها واضحة ، ورضيت أن يدعوها طلابها بغير اسمها فأصبحت تدعى « وزة العربية »

ولم يقف بها شقاؤها عند هذا الحد من التعاسة

بل بلغ بها القمة فأوصلها إلى السجن مرات لتلاقى بين جدرانه أفظع ما يمكن أن تتحمله المرأة من بؤس

ومضت الايام وذهب الهم بذكائها وطمست السموم البيضاء حافظتها وتصورها ، فأصبحت بلهاء تقطع الشوارع فى ذهول طول النهار، فاذا ما أسدل الليل حجابه قادها أحد السوقة لتقاسمه طعامه الحقير وليهريق فى مقابل ذلك بعض ما أبقت أيام الشؤم فى وجهها من ماء الحياء

***

واقترب عيد الأضحى فأمر الحاج عبد الكريم ابنه حِمِيْدَهْ أن يذهب إلى الاسكندرية ليبيع غنمه مع أخيه الأكبر ، فدخلها وهو منقبض الصدر برغم شوقه القوى إلى رؤيتها ، فهو وإن كان قد وجد فى زوجه المخلصة بعض العزاء عن حبه الضائع ، وفى صادق ودها بعض السلوة لقلبه المكلوم ، إلا أن شبح « روز » لا يزال يعاوده فيعكر عليه صفو عيشه الآونة بعد الأخرى — وهو وإن كان يحتقر هذه المرأة الفاسدة الخلق التى لم ترع لحبه الطاهر ذمة ولا لشرف أسرتها حرمة ، لا يزال يهواها ، ولا يزال قلبه يخفق عند ذكر اسمها . فكم من ليلة مقمرة هام فيها على وجهه يقطع المسافات الشاسعة مبتعداً عن مضارب الخيام ليخلو لنفسه وليستعيد الذكريات الماضية والأحلام اللذيذة التى كانت تعلل نفسه بحلو الأمانى فيتمثل حبيبة قلبه وكأنها ما برحت تسير إلى جانبه تبادله الغرام وتردد على مسامعه فى لهجة التوكيد عبارات الفرح بمشاركته الحياة ، ثم يثوب إلى رشده فيلعنها ويقفل راجعاً إلى خيمته كئيب النفس كاسف البال

وها هوذا الآن يجوب المدينة التى تضم أرجاؤها هذه المخلوقة التى يمتزج حبها فى قلبه بعاطفتى البغض والازدراء — فكيف إذن لا ينقبض صدره وتستولى الكآبة على نفسه؟ وربما قدر له أن يراها أثناء تجواله وماذا يكون موقفها منه تأثير هذا الموقف الرهيب على شعوره ؟ إنه لحزين مبلبل الوجدان يتمنى لو تبعده الظروف عن لقائها فى قرارة نفسه أن يراها ويمتع النظر ولو برهة قصيرة ببهيج محياها

وانقضت أيام ثلاثة وهو فريسة لهذه الخواطر المتناقضة تتنازعه رغبتان ملحتان : الفرار من الوقوف أمامها ، والبحث عنها . إلى أن كان اليوم الأول من العيد

فبينا هو يجمع العدد القليل الباقى من الغنم فى ناحية من ميدان المحطة لمح امرأة تجلس على مقعد قريب من مقاعد الحديقة وتأتى بحركات غير عادية فتطوح برأسها وتلوح بذراعيها فى الهواء ، ثم تخلع قبعتها البالية عن رأسها وتعيدها بعنف وهى تكيل الشتائم لأناس مجهولين فى لهجة بدوية

وتبين حَمِيْدَهْ فى وضح النهار وجه هذه المعتوهة البائسة فى ثيابها الأفرنجية الممزقة فاذا به أمام فاتنته المفقودة ، فعقدت الدهشة لسانه هنيهة ثم صاح متوجعاً :

— روز ! أإلى هذا الحد أوصلك الشقاء ؟

فرفعت روز عينيها الشاردتين وتفرست فى وجهه طويلا ثم طفقت تقهقه قائلة :

— روز ! روز ! لا تدعونى بهذا الاسم البغيض فأنا « وزة العربية »

ثم انقطع ضحكها فجأة ومدت يدها بحركة آلية وقبضت على جرابه الجلدي المزركش بخيوط الفضة وطلبت منه فى تضرع قائلة ! — اسعفنى بنشقة !

— نشقة ماذا ؟ — نشقة كوكايين ...

فلم يقو حَمِيْدَهْ على تحمل المصاب أكثر من ذلك فجرى كالمجنون نحو غنمه وهش عليها بعصاه فى غضب وترك الميدان هارباً

يوسف فهمى

عضو جماعة نشر الثقافة بالاسكندرية

سالومي

مأساة فى فصل واحد

للكاتب الانجليزى أوسكار وايلد

بقلم الدكتور حسن صادق

الأشخاص

(١) هيرودس أمير يهودية من أعمال فلسطين
(٢) يوحنا المعمدان ، النبي
(٣) السوري الشاب ، رئيس الحرس
(٤) تيجالان ، شاب رومانى
(٥) نوبى
(٦) الجندى الأول
(٧) الجندى الثانى
(٨) غلام هيرودية
(٩) عبد
(١٠) نعمان ، الجلاد
(١١) يهود وأشخاص من الناصرة
(١٢) كابا دوس (رجل من بلد بآسيا الصغرى)
(١٣) صدوقى (نسبة إلى رجل سيأتى ذكره)
(١٤) هيرودية ، زوج هيرودس
(١٥) سالوما ، بنت هيرودية من زوجها الأول
(١٦) جند وعبيد وإماء

المنظر

(شرف Terrasse كبير في قصر هيرودس فى نهايته باب يؤدى إلى ردهة الحفلات والولائم ، وفي الجهة اليسرى سلم كبير ، وفى نهايتها صهريج عتيق يحيط به جدار من الشبه الأخضر ، وعند حاجز الشرف عدد من الجند متكئين عليه بمرافقهم ... القمر بازغ) .

السورى الشاب — ما أجمل الأميرة سالوما هذا المساء !

غلام هيرودية — أنظر إلى القمر ! ما أغربه الليلة ! يخيل إلىّ أنه امرأة خارجة من القبر... إنه أشبه شيء بامرأة ميتة . كأنى به يبحث عن موتى

السورى الشاب — نعم . القمر الليلة ما أغربه ! إنه كأميرة صغيرة على وجهها نقاب رقيق أصفر اللون ، ولها قدمان من فضة ، إنه كأميرة لها قدمان كيمامتين صغيرتين ناصعتى البياض ... كأنى به يرقص

غلام هيرودية — إنه كامرأة ميتة . أنظر إليه كيف يسير فى بطء شديد !

(يسمع ضوضاء فى ردهة الولائم)

الجندى الأول — ما هذه الجلبة الشديدة ؟ من هؤلاء الذين يصيحون كأنهم الذئاب العاوية ؟

الجندى الثانى — إنهم اليهود وهم يحدثون ضوضاء في كل مجلس ، ويتجادلون في دينهم أينما حلوا

الجندى الأول — ولماذا يتجادلون فى دينهم ؟

الجندي الثانى — لا أدرى . هذا طبعهم الذي يصحبهم فى كل موطن ، فالفريسيون منهم يؤمنون بوجود الملائكة ، والصدوقيون (نسبة إلى صدوق ، رجل يهودى عاش فى القرن الثالث قبل المسيح وأنشأ مذهباً (دينياً عرف باسمه) ينكرون وجودها

الجندى الأول — الجدال فى مثل هذه الأشياء لغو وسخف

السورى الشاب — ما أجمل الأميرة سالوما هذا المساء !

غلام هيرودية — إنك تطيل النظر إليها وتلتهمها بعينيك ! لا يجوز أن تحدق فى الناس بهذه الطريقة المنكرة ... قد تقع بنا ملمة !

السورى الشاب — إنها فاتنة فى هـذا المساء رائعة

الجندى الأول — الأمير مكتئب

الجندى الثانى — نعم يبدو عليه الا كتئاب

الجندى الأول — إنه ينظر إلى شىء

الجندى الثانى — إنه ينظر إلى شخص

الجندى الأول — إلى من ؟

الجندى الثانى — لا أدرى

السورى الشاب — ما أشد اصفرار الأميرة ! لم أرها قط ممتقعة اللون إلى هذا الحد ! كأنها انعكاس وردة بيضاء إلى مرآة من الفضة !

غلام هيرودية — كف عن النظر إليها . إنك تحدق فيها كثيراً !

الجندى الأول — ملأت هيرودية كأس الأمير

الكابادوسى — أهى الملكة هيرودية تلك التى تلبس قلنسوة سوداء مرصعة باللآلىء ، وقد نشرت على شعرها مسحوقاً أزرق ؟

الجندى الأول — نعم، إنها هيرودية زوج الأمير

الجندى الثانى — الأمير مولع بالنبيذ ، ولديه منه أنواع ثلاثة ! الأول من جزيرة ساموتراس ، أرجوانى اللون كعباءة قيصر

الكابادوسى — لم أر قط قيصر

الجندى الثانى — والثانى من مدينة قبرص ، أصفر اللون كالذهب

الكابادوسى — أحب الذهب كثيراً

الجندى الثانى — والثالث من صقلية أحمر اللون كالدم

النوبى — آلهة بلادى يحبون الدم ويكلفون به ، ونحن نقدم إليهم قرابين من الفتيان والعذارى مرتين فى كل عام : مائة عذراء ، ونصف هذا العدد من الشبان فى كل مرة . ولكن يظهر أننا لا نقدم إليهم من الدم ما يطفىء غلتهم لأنهم برغم ما نفعل يشتدون فى قسوتهم علينا إلى حد بعيد

الكابادوسى — بلادى خالية من الآلهة فى الوقت الحاضر ، لأن الرومان قد طردوهم منها . ومن الناس من يقول إنهم لجأوا إلى الجبال ، ولكنى لا أعتقد ذلك . لقد قضيت ثلاث ليال فى الجبال أبحث عنهم بحثاً دقيقا ولكنى لم أجدهم ، ثم ناديتهم بأسمائهم فلم أسمع جواباً على ندائى . والرأى عندى أنهم قضوا نحبهم جميعاً

الجندى الأول — اليهود يعبدون إلٰهاً لا تراه العيون

الكابادوسى — لا أستطيع أن أفهم ذلك

الجندى الأول — خلاصة القول أنهم لا يؤمنون إلا بما لا يرى

الكابادوسى — فى إيمانهم سخف كبير

صوت يوحنا — سيأتى من بعدى آخر أكثر قدرة مني . إنى لست جديراً حتى بأن أحل سيور نعاله حين يأتى . ستخضر الأرض الجرداء وتزدهر ، وترى عيون العمى ضوء النهار ، وتسمع آذان الصم مختلف الأصوات ... سيضع الوليد الجديد يده على بيوت التنين ويقود السباع من أعناقها

الجندى الثانى — مره بالسكوت . إنه يقول دائماً هراء

الجندى الأول — ولكنه رجل طيب القلب ، نقى السريرة ، وديع الخلق ؛ كل يوم أعطيه يأكل وهو يقدم إلىّ الشكر دائما

الـكابا دوسى — من عسى أن يكون ؟

الجندى الأول — إنه نبي

الـكابا دوسى — ما اسمه ؟

الجندي الأول — يوحنا المعمدان

الـكابا دوسي — من أين جاء ؟

الجندى الأول — من الصحراء ... غذاؤه فيها الجراد والعسل البري . وكان يستر جسده بوبر الابل ويحمل فى وسطه حزاماً من الجلد ؛ وكانت هيئته رهيبة موحشة ، ولـكن عدداً كبيراً من الناس كان يتبعه ... كان له فضلا عن ذلك أتباع وتلاميذ

الـكابا دوسي — عن أى شي يتكلم ؟

الجندى الأول — لم نعرف قط . وفى بعض الأحيان ينطق بكلام مزعج مخيف ، ولـكن من المستحيل إدراكه

الـكابا دوسى — هل من الجائز رؤيته ؟

الجندى الأول — كلا . هذا أمر لا يبيحه الأمير

السورى الشاب — أخفت الأميرة وجهها خلف مروحتها . يداها الصغيرتان البيضاوان تتحركان كيمامتين تطيران نحو عشهما ... إنهما كفراشتين ناصعتى البياض .. ما أشبههما بفراشتين بيضاوين !

غلام هيرودية — ما لك ولهذا ؟ ! لماذا تنظر إليها ؟ ينبغي أن تقلع عن النظر إليها ... قد تحجعج بنا ملمة !

الـكابا دوسى — (مشيراً إلى الصهريج) أى سجن عجيب !

الجندي الثاني — أنه صهريج عتيق

الـكا دوسى — صهريج عتيق ؟ ! إنه ردئ وبيل ، مافى ذلك شك

الجندى الثانى — كلا . لقـد مكث فى هذا الصهريج شقيق الأمير الأكبر وزوج الملكة هيرودية اثنتى عشرة سنة سجيناً ولم يمت ، فاضطر الأمير فى النهاية إلى خنقه

الـكابا دوسي — خنقه ؟ ! من ذا الذى جرؤ على هذا العمل ؟

الجندى الثانى — (مشيراً إلى الجلاد وهو عبد ضخم) هذا الرجل ، نعمان

الـكابا دوسى — ألم يشعر بالخوف ؟

الجندى الثانى — كلا ، لأن الأمير أرسـل إليه الخاتم

الـكابا دوسى — أى خاتم ؟

الجندى الثانى — خاتم الموت ، ومن أجل هذا لم يشعر بخوف

الـكابا دوسى — ومع ذلك فإن من الفظاعة خنق ملك

الجندي الأول — لماذا ؟ ليس للملوك إلا عنق واحدة كغيرهم من الناس

الـكابا دوسى — يخيل إليّ أن ذلك عمل بشع رهيب

السورى الشاب — نهضت الأميرة وغادرت المائدة وعلى وجهها سمة الضجر . آه ! إنها تسير إلى هذه الناحية . نعم إنها مقبلة علينا . ماأشد اصفرارها ! لم أرها قط مصفرة إلى هذا الحد !

غلام هيرودية — لا تنظر إليها ، أرجو ألا تحدق فيها

السورى الشاب — إنها كاليمامة التى ضلت ... إنها كزهرة نرجس يتلاعب بها الهواء ... ما أشبهها بزهرة من فضة !

(تدخل سالوما)

سالوما — لن أبقى . لا أستطيع البقاء . لماذا ينظر إليّ الأميرُ دائماً بعيني أرعن فاجر تحت هدبين مضطربين ؟ غريب أن ينظر إليّ زوج أمي بهــذه العين ! لا أدري ماذا تعني نظرته هذه ... في الواقع نعم . أعرف معناها ومرماها .

السوري الشاب — أتركتِ الوليمة أيتها الأميرة؟

سالوما — الهواء هنا منعش ما أجمله ! آه ! هنا أتنفس بعــد ضيق ! في الردهة يهود من أورشليم يقتتلون جدالا في شأن طقوسهم السخيفة ، وبرابرة يشربون بلا انقطاع ويلقون بالنبيذ على أرض الردهة ، ويونانيون من أهل أزمير قد موهوا عيونهم وزينوا خدودهم بالأصباغ وجعدوا شعورهم وجعلوها جدائل متفرقة ، ومصريون يستطيعون الصمت والرزانة السامية ، على أصابعهم وشم وعلى أجسامهم عباءات سمراء ، ورومانيون تصحبهم خشونتهم وجمودنسيمهم وكلماتهم الجافة الغليظة ! آه لشد ما أكره الرومان ! إنهم من حثالة الناس ويتخذون لأنفسهم هيئة العظماء !

السوري الشاب — أتريدين الجلوس أيتهــا الأميرة ؟

غلام هيرودية — لماذا تخاطبها ؟ لماذا تحدق فيها بعينيك ؟ أوه ! سيقع خطب لا محالة

سالوما — ما أجمل أن يرى الإنسان القمر ! إنه يشبه الدرهم الأخاذ . كأني به زهرة صغيرة من الفضة ... القمر بارد نقي الإزار ... أعتقد تمــام الاعتقاد أنه كالفتاة العذراء ، له جمالها وطهرها . نعم إنه عذراء لم تدنس نفسها ولم تستسلم قط للرجال كالربات الأخريات

صوت يوحنا — لقــد أتى السيد ! أتى « ابن الإنسان » فاختبأ القنطورس (أي السنتور نصفه آدمي ونصفه الآخر حيواني) في الأنهار ، وغادرتها بنات الماء ورقدت تحت الشجر في الغابات

سالوما — من هــذا الذي نطق صارخا بهذه الكلمات ؟

الجندي الثاني — إنه النبي أيتها الأميرة

سالوما — آه ! النبي ... أهو الذي يخافه الأمير؟

الجندي الثاني — هــذا أمر لا نعرفه ... إنه النبي يوحنا

السوري الشاب — أتريدين أن أطلب لك هودجك أيتها الأميرة ؟ الجو جميل في الحديقة

سالوما — إنه يقول عن أمي أشياء فظيعة ، أليس كذلك ؟

الجندي الثاني — إننا لا نفهم مايقول يامولاتي

سالوما — إنه يرميها بأشنع الأقوال

عبد — الأمير يامولاتي يطلب منك راجياً أن تعودي إلى الوليمة

سالوما — لن أجيب هذا الرجاء

السوري الشاب — عفواً أيتها الأميرة ... قد يقع خطب إذا أصررت على رفض العودة

سالوما — هل النبي شيخ كبير ؟

السوري الشاب — أيتها الأميرة ، يحسن أن تعودي ... أسألك الإذن في أن أصحبك إلى هناك

سالوما — النبي ... هل هو شيخ كبير ؟

الجندي الأول — كلا . إنه في زهرة العمر وميعة الصبا

الجندي الثاني — هــذا أمر مجهول . يقول بعض الناس إنه إلياس النبي

سالوما — ومن هو إلياس ؟

الجندى الثانى — نبي قديم من أنبياء هذه البلاد

عبد — أى جواب أحمله إلى الأمير يامولاتى؟

صوت يوحنا — ضربت عليك الذلة يا أرض فلسطين ، فلن تتمتعي أبداً لأن عصا الذى ضربك قد كسرت وتحطمت . سيخرج من سلالة الثعبان صل ، وما يولد منه سيلتهم الطير

سالوما — ما أغرب هذا الصوت ! إن شوقاً ملحاً يدفعنى إلى مخاطبته

الجندى الأول — أخشى أن يكون هذا مستحيلا أيتها الأميرة . الأمير لايريد أن يكلمه أحد ، متى إنه حظر على الكاهن الأكبر التحدث إليه

سالوما — أريد أن أكلمه

الجندى الأول — مستحيل أيتها الأميرة

سالوما — أريد ذلك

السورى الشاب — يجمل بك أيتها الأميرة أن تعودى إلى الوليمة

سالوما — أخرج النبى

الجندى الأول — لانجرؤ

سالوما — (تدنو من الصهريج وتنظر إلى داخله) سجن ما أظلمه ! إنه لفظيع ، كما أعتقد ، أن يقيم الانسان فى ثقب حالك الظلمة مثل هـذا ... إنه كالقبر ... (إلى الجند) ألم يصل إلى سمعكم ما قلت؟ أخرجوه ، أريد أن أراه

الجندى الثانى — أسألك ضارعا أيتها الأميرة ألا تطلبي إلينا ذلك

سالوما — إنكم تبطئون في إنفاذ أمرى

الجندى الأول — أيتها الأميرة ، حياتنا ملك لك ، ولكننا لانستطيع إنفاذ ما تطلبين ... وفضلا عن ذلك فاننا لسنا نحن الذين ينبغي أن توجهى إليهم طلبك

سالوما — (تنظر إلى السورى الشاب) آه !...

غلام هيرودية — أوه ! أى شئ سيحدث ؟ إنى مستيقن بأن مصيبة ستحدث

سالوما — (تدنو من السورى الشاب) ستفعل ذلك من أجلى ، أليس كذلك ؟ ستفعله فى سبيلى . أنسيت أنى أحسن معاملتك فى كل حين ؟ إذن ستفعل ما أطلب إرضاء لى . أريد فقط أن أراه ، هذا النبى العجيب . لقد كثر الكلام عنه ، وسمعت الأمير يتحدث فى شأنه جملة مرات ، وأظن أنه يخافه ويخشاه ... أوقن بأن الأمير يخشاه . هل تخافه أنت أيضاً ؟

السورى الشاب — كلا أيتها الأميرة . إنى لا أخاف أحداً . ولكن الأمير يحرم تحريماً قاطعاً رفع غطاء هذا الصهريج

سالوما — ستفعل ما أريد ، وغدا حين أجتاز بهودجى باب بائعى الأصنام ، سأدع زهرة صغيرة تسقط من يدى على الأرض ، زهرة صغيرة خضراء يانعة ، هي لك

السوري الشاب — أيتها الأميرة ، لاأستطيع ، لا أستطيع

سالوما — (باسمة) ستفعل ذلك فى سبيلى . أنت مستيقن بأنك فاعل ذلك من أجلى ، وغدا حين أسير بهودجى على جسر مشترى الأصنام سأهدى إليك نظرة خلال الستائر الرقيقة . وقد أبتسم لك أيها الشاب . أنظر إلىّ ... آه ! أنت مستيقن بأنك فاعل ما أطلب . تعرف ذلك جيداً ، أليس كذلك ؟ ... أما أنا فاني أعرف جيداً

السورى الشاب — (يشير إلى جندى ثالث) أخرج النبي ... الأميرة سالوما تريد أن تراه

سالوما — آه !

غلام هيرودية — أوه ! ما أغرب شكل القمر ! كأنه يد ميتة تحاول أن تغطى نفسها بكفن !

السورى الشاب — عليه سمة الغرابة . كأنى به أميرة صغيرة ، لها عينان من عنبر ... إنه يبتسم خلال السحب الرقيقة كأميرة صغيرة

(يخرج النبي من الصهريج . تنظر إليه سالوما وتتراجع)

يوحنا — أين ذلك الذى امتلأت كأسه بكبائر الاثم حتى فهقت ؟ أين ذلك الذى سيموت ذات يوم أمام الشعب فى ثوب فضى ؟ قولوا له أن يأتى حتى يستطيع أن يسمع صوت الذى صرخ فى الصحارى وفى قصور الملوك

سالوما — من يعنى بقوله ؟

السورى الشاب — لايستطيع إنسان أن يعرف أيتها الأميرة

يوحنا — أين تلك التى رأت على الجدران صور كلدانيين ملونة فاستقادت لشهوة عينيها ، وأرسلت إلى بلادهم الرسل والسفراء ؟

سالوما — إنه فى شأن أمى

السورى الشاب — كلا

سالوما — بلى ، انه عن أمى يتكلم

يوحنا — أين تلك التى استسلمت لرؤساء الجند الأشوريين الذين في أوساطهم حمائل للسيوف بهيجة وفوق رؤوسهم تيجان ذات ألوان متباينة ؟ أين تلك التي استسلمت لشبان من المصريين أقوياء الأجسام يلبسون ثياباً من كتان محلاة بالزمرد ويحملون دروعاً من ذهب وخوذاً من فضة ؟ قولوا لها أن تنهض من فراش فجورها ، فراش وطء المحرمات حتى تستطيع أن تسمع صوت الذى يهيء طريق السيد ، وحتى تندم على خطاياها وتكفر عن جرائرها إنها لن تكفر أبداً ، وستظل غارقة فى الاثم والفواحش ، ولكن قولوا لها برغم ذلك أن تأتى لأن السيد يحمل فى يده ميزانه .

سالوما — هذا فظيع ... فظيع .

السورى الشاب — أتوسل إليك أن تغادرى هذا المكان .

سالوما — العينان على الأخص مخوفتان ، ما أفظعهما ! كأنهما ثقبان أسودان تركتهما مشاعل على ديباجة بيضاء إنهما كالكهوف السوداء التى تسكنها الأفاعي ، كهوف مصر السوداء التى تجد منها الأفاعي ملجأ وملاذا ، ما أشبههما ببحيرات سوداء ، قد بعثت فيها الاضطراب أقمار عجيبة مستبهمة ! أتظن أنه سيتكلم بعد ذلك ؟

السورى الشاب — غادرى هذا المكان أيتها الأميرة ، رجائى إليك أن تعدلي عن البقاء هنا

سالوما — ما أشد هزاله ! إنه كتمثال نحيل من العاج ... كأنى به خيال من الفضة . أعتقد أنه فى طهره كالقمر . ما أشبهه بشعاع من الفضة ؟ لابد أن يكون جسده شديد البرودة كالعاج ... أريد أن أراه من كثب .

السورى الشاب — أيتها الأميرة ! أيتها الأميرة

يوحنا — من هذه المرأة التى تنظر إلىّ ؟ لا أريد أن توجه إلىّ بصرها ... لماذا تحدق فىّ بعينيها الذهبيتين بين جفونها الموجة بلون الذهب ؟ إنى لا أعرف من هى ، ولا أريد أن أعرف ، قولوا لها أن تذهب ، فليست هى التى أريد أن أكلمها .

سالوما — إنى سالوما بنت هيرودية ، أميرة يهودية .

يوحنا — إلىالوراء يا بنت بابل ! لا تقتربى ممن اختاره السيد . لقد ملأت أمك أرض الكروم بالآثام ، وبلغت صرخة خطاياها آذان السماء

سالوما — تكلم يا يوحنا ، فان صوتك أثملنى

السورى الشاب — مولاتى ! مولاتى

سالوما — تكلم … تكلم يا يوحنا وحدثنى عما ينبغى أن أفعل .

يوحنا — لا تقتربى منى يا بنت سدوم ولكن ضعى على وجهك حجاباً وعلى رأسك تراباً ثم اذهبي إلى الصحراء وابحثي فيها عن « ابن الانسان » (أى المسيح عليه السلام)

سالوما — من عساه يكون ابن الانسان ؟ أهو جميل مثلك يا يوحنا ؟

يوحنا — إلى الوراء ! إلى الوراء ! إنى أسمع فى القصر ملاك الموت يضرب بجناحيه الهواء

السورى الشاب — أيتها الأميرة ، أتوسل إليك أن تعودى إلى الوليمة

يوحنا — يا ملاك الله ماذا تفعل هنا بسلاحك الرهيب ؟ عمن تبحث فى هذا القصر الملوث ؟ … لم تحن بعد ساعة ذلك الذى سيموت فى ثياب فضية

سالوما — يوحنا !

يوحنا — من المتكلم ؟

سالوما — يوحنا ! إني لمشغوفة بجسمك ! جسمك أبيض كزنبقة المرج لم يقربها بشر . إنه أبيض كالثلوج التى تستطيب الرقاد فوق الجبال ، كالثلوج التى تهبط على جبال يهودية ثم تسقط فى الأودية على مهل ناصعة … الورود فى حديقة ملك العرب ليست فى مثل بياض جسمك … لا الورود فى حديقة ملك العرب ولا أقدام الفجر التى ترقص على أوراق الشجر ، ولا صدر القمر حين يرقد على سطح البحر … لا شىء فى العالم يماثل جسمك فى بياضه … دعنى ألمسه

يوحنا — إلى الوراء يا بنت بابل ! إن الشر لم يدخل العالم إلا بوساطة المرأة . لاتكلمينى . لا أريد أن أسمع إلى قولك … إنى لا أنصت إلا لأقوال السيد

سلوما — جسمك بشع . إنه كجسم المريض بالجذام . إنه كجدار من الجص مرت به الصلال والأفاعى … كجدار من الجص اتخذت منه العقارب أجحارا . إنه كقبر أبيض الجدران زاخر بأشياء عفنة كريهة … جسمك بغيض ما أبشعه ! شعرك هو الذى يستهوينى يا يوحنا … شعرك كعناقيد من عنب ، كعناقيد من عنب أسود فيها جمال وفيها سحر مستبد … إنه كأشجار الأرز اللبنانية الكبيرة التى تبسط ظلها على السباع واللصوص الذين يريدون الاختباء أثناء النهار … الليالى الطويلة السوداء المحرومة من القمر ، ليست في سواد شعرك … السكون المقيم فى الغابات لا يماثل فى سواده شعرك … ليس فى العالم شىء فى مثل سواد شعرك … دعنى ألمسه …

يوحنا — إلىالوراء يا بنت سلوم ! لا تلمسينى ! لا يجوز أن يدنس معبد السيد

سلوما — شعرك بشع . إنه مغطى بالوحل والتراب ، كأنه إكليل من الشوك وضع على جبينك كأنه ذنب حيــة سوداء يهتز حول عنقك . إنى لاأحب شعرك … ثغرك هو الذي يستهوينى ويملك علىّ حسى يا يوحنا . ثغرك كشريط قرمزى على برج

من العاج . إنه كحبة رمان شقت بسكين من العاج . الجلنار الذى ينبت يانعاً فى حدائق « تير » الغناء أشد حمرة من الورود ولكنه لايبلغ فى لونه ثغرك . الصرخات الحمراء ، صرخات الطبول التى تعلن قدوم الملوك وتبعث الرعب فى قلوب الأعداء ، أقل حمرة من ثغرك . إنه أشد حمرة من أقدام الذين يهرسون النبيذ فى المعاصر . إنه أكثر حمرة من أرجل اليمام الذى يسكن المعابد وتغذيه القسس . إنه أكثر حمرة من أقدام الإنسان العائد من غابة موحشة بعد أن قتل فيها أسداً ورأى نموراً فى لون الذهب . ثغرك كغصن من المرجان يجده الصيادون فى غبش البحر ويحفظونه هدية للملوك ! انه كقوس ملك الفرس ، عليه نقوش قرمزية وله قرنان من المرجان فى طرفيه ... لاشيء فى الدنيا يبلغ فى حمرته ثغرك ... دعنى أقبله

يوحنا — كلا يا بنت بابل ! يا بنت سدوم ! لن يحصل ذلك أبداً !

سالوما — سأقبل ثغرك يا يوحنا ... سأقبله

السورى الشاب — أيتها الأميرة ، ياطاقة من الزهر ، يايمامة اليمام ، لاتنظري إلى هذا الرجل ! لاتقولى له مثل هذه الأشياء ! يؤلمنى سماعها جد الألم ! أيتها الأميرة ، أيتها الأميرة ، لاتنطق بمثل هذه الأشياء

سالوما — سأقبل ثغرك يا يوحنا

السورى الشاب — آه !

(يقتل نفسه ويسقط على الأرض بين سلوما ويوحنا)

غلام هيرودية — قتل السوري الشاب نفسه ! قضى على نفسه رئيس الحرس الشاب ! سفح دمه الرجل الذى كان لى صديقاً ! لقد أهديت إليه علبة صغيرة من العطر وأقراطاً من الفضة ، والآن أراه أمامى قتيلا ! آه ! ألم يتنبأ بوقوع مصيبة ؟ ! ولقد توقعت حدوثها أيضاً ! عرفت أن القمر كان يبحث عن ميت ، ولكنى لم أدرك أنه كان يبحث عن السوري الشاب . آه ! لماذا لم أخفه عن القمر ؟ لو أخفيته في كهف لعجز القمر عن أن يراه !

الجندى الأول — أيتها الأميرة ، لقد قتل رئيس الحرس الشاب نفسه منذ لحظة

سالوما — دعني أقبل ثغرك يايوحنا

يوحنا — ألم تشعرى بالخوف يابنت هيرودية ؟ ألم أقل إنى سمعت فى القصر ملاك الموت يضرب بجناحيه الهواء ؟ ألم يأت الملاك كما قلت ؟

سالوما — دعنى أقبل ثغرك

يوحنا — يابنت الزنا والفجور ، ليس في الوجود إلا رجل واحد يستطيع إنقاذك ، وهو الذي حدثتك عنه . إذهبي وجدي فى البحث عنه . إنه فى بحر الجليل على ظهر فلك يتحدث إلى تلاميذه . إركعى على ساحل البحر وارفعي صوتك منادية باسمه . وحين يلبى نداءك ، كما يفعل مع جميع الذين ينادونه ، اسجدي عند قدميه واضرعى إليه أن يغفر لك خطاياك

سالوما — دعنى أقبل ثغرك

يوحنا — عليك اللعنة يابنت أم تستحل المحرمات ... عليك اللعنة !

سالوما — سأقبل ثغرك يايوحنا

يوحنا — لا أريد أن أراك . لن أنظر إليك . إنك ملعونة ، ملعونة ياسالوما !

(يعود إلى الصهريج)

سالوما — لأقبلن ثغرك يايوحنا ... لأقبلنه

الجندى الأول — ينبغى نقل الجثة إلى مكان آخر . الأمير لايحب أن يرى الجثث ... لايحب أن يرى إلا جثث الذين يقتلهم بيده

غلام هيرودية — كان لى أخاً وأعز علىّ من أخ . لقد أعطيته علبة صغيرة تشتمل على أنواع من العطر ، وخاتماً من عقيق كان يحمله دائماً فى أصبعه ... كنا نستريض فى الماء على شاطىء النهر بين أشجار اللوز ، وكان يحدثنى كثيراً عن بلاده فى صوت منخفض كعادته فى كل حين . آه ! رنين صوته كان يشبه صوت الناي ، وكان شديد الكلف أيضاً باطالة النظر إلى صورته في صفحة النهر ، وكثيراً ما أخذت عليه هذا الكلف

الجندى الثاني — أنت محق . ينبغى إخفاء الجثة حتى لايراها الأمير

الجنـدى الأول — لن يأتي الأمير ... لن يخرج إلى الشرف ... في نفسه من النبى خوف شديد

(يدخل هيرودس وهيرودية وجميع أفراد البطانة)

هيرودس — أين سالوما ؟ أين الأميرة ؟ لماذا لم تعد إلى الوليمة كما طلبت منها ؟ آه ! ها هى ذى !

هيرودية — ينبغى ألا تنظر إليها . إنك تحدق فيها دائماً !

هيرودس — ما أغرب شكل القمر هـذا المساء ! ألا ترين أنه غريب إلى حد بعيد ؟ لـكأنه امرأة مضطربة الأعصاب تبحث عن عشاق فى كل مكان ! إنه عار أيضاً لايستره شيء . السحب تحاول أن تلقى عليه من نفسها رداء ، ولـكنه يرفض ويأبى وهو يهتز خلال السحب كامرأة أخذتها نشوة الخمر... أعتقد أنه يبحث عن عشاق ... ألا ترين أنه يهتز كامرأة لعبت برأسها الخمر ؟ انه يشبه امرأة مهتاجة الحس مضطربة الأعصاب ، أليس كذلك ؟

هيرودية — كلا . القمر يشبه القمر ، هذا كل شيء ... فلندخل ... ليس لديك من عمل هنا

هيرودس — سأبقى . ياغلام ، ضع بعضاً من الطنافس هنا ، وأشعل المشاعل ثم أحضر الموائد العاجية والفضية . الهواء هنا عذب جميـل ، وسأشرب نبيذاً مرة أخرى مع ضيوفى لأن سفراء قيصر يستحقون كل حفاوة وإجلال

هيرودية — ليس من أجلهم تريد البقاء فى هذا المكان

هيرودس — نعم الهواء عذب جميل . تعالي يا هيرودية ، فان ضيوفنا فى انتظارنا ... آه ! انزلقت قدماى ! انزلقت على الدم ! هذا نذير شر ! نذير شر مستطير ! لماذا أجد هنا دما ؟ وهذه الجثة ؟ لمن هى ؟ أتظنون أنى كملك مصر الذى لايقيم وليمة من غير أن يعرض جثة على ضيوفه ؟ تكلموا ، من عساه يكون صاحب هذه الجثة ؟ لا أريد أن أراها

الجندى الأول — إنه رئيسنا يا مولاى الشاب السورى الذى رفعته إلى هـذه المكانة منذ ثلاثة أيام فقط .

هيرودس — لم يصدر عنى أى أمر بقتله .

الجندى الثانى — قتل نفسه يا مولاى

هيرودس — لـماذا ؟ قد جعلته رئيساً !

الجندى الثانى — لا ندرى يا مولاى . ولـكنه سفك دمه بيده .

هيرودس — هذا عمل يبدو غريباً . كنت أظن أن حكماء الرومان فقط هم الذين يقتلون أنفسهم بأيديهم ، أليس كذلك يا تيجالان أن الحكماء فى روما يقتلون أنفسهم ؟

تيجالان — بعضهم يفعل ذلك ، وهم الرواقيون إنهم قوم فيهم غلظة وخشونة ، إلى شذوذ وسخف كبير ... إنى لأجدهم ذوى سخف شديد .

هيرودس — وأنا أيضاً ، من السخف أن يقتل الانسان نفسه .

تيجالان — الناس فى روما يسخرون منهم ويضحكون ، وقد وضع الامبراطور فى شأنهم شعراً لاذع التهكم يرويه الناس فى كل مكان .

هيرودس — آه ! وضع فى شأنهم شعراً لاذع التهكم ؟ قيصر رجل عظيم يستدر غاية الاعجاب . إنه قادر على كل شىء ... غريب أن يقتل السورى الشاب نفسه . ما أشد أسفى ! نعم ، آسف لموته جد الأسف ، لأنه كان جميلا ... كان بديع التكوين رائع القسمات . وكان له عينان ناعستان كسيرتان وأذكر أنى رأيته ينظر إلى سالوما بطرف ناعس كسير ، حقاً إنى أجد أنه أطال إليها النظر .

هيرودية — من الناس غيره من يطيلون إليها النظر .

هيرودس — كان أبوه ملكا فطردته من بلاده وكانت أمه ملكة فجعلت منها يا هيرودية جارية ذليلة وكذلك كان بيننا كضيف . ومن أجل هذا جعلته رئيساً للحرس . آسف لموته جد الأسف ... ولكن لماذا تركتم الجثة في هذا المكان ؟ ينبغى نقلها إلى جهة أخرى . لا أريد أن أراها ... احملوها ... (تحمل الجثة) الجو بارد هنا ، والرياح شديدة . ألا ترين أن المكان كثير الرياح ؟

هيرودية — كلا ليس فى المكان رياح .

هيرودس — بلى ، الحق ما أقول ... أسمع فى الجو صوتاً كصفق أجنحة ، كصفق أجنحة هائلة ألا تسمعين ؟

هيرودية — لا أسمع شيئاً .

هيرودس — لم أعد أسمعه ، ولكنى سمعته . كان صوت الهواء من غير شك . لقد سكت ... ولكن لا ... إني أسمعه مرة أخرى ... ألا تسمعين ؟ إنه حقاً صوت أجنحة تضرب الهواء

هيرودية — أقول لك لا حقيقة لما تتوهم . أنت مريض . فلندخل

هيرودس — لست مريضاً . ابنتك هى المريضة ... عليها سمة المرض . لم أرها قط مصفرة إلى هذا الحد

هيرودية — قلت لك لا تنظر إليها

هيرودس — صبوا النبيذ (يحضر الخدم نبيذاً) سالوما ، تعالى واشربى معى قليلا من النبيذ . عندى نبيذ عذب لذيذ الطعم ، أرسله إلى قيصر نفسه . اغمسى في الكأس شفتيك الصغيرتين القرمزيتين ثم دعينى أفرغها في جوفى حتى الثمالة

سالوما — ليس بى ظمأ أيها الأمير

هيرودس — أتسمعين كيف ترد علىّ ابنتك ؟

هيرودية — أجد أنها على حق . لماذا تنظر إليها دائماً ؟

هيرودس — أحضروا ألوان الفاكهة (يحضر الخدم الفاكهة) تعالى كلي معى فاكهة ، من أحب الأشياء إلى نفسى أن أرى في الفاكهة أثر أسنانك الصغيرة . أقضمى جزءاً صغيراً من هذه الفاكهة ، وما يتبقى منها سألتهمه التهاماً

سالوما — لا أشعر بالجوع أيها الأمير

هيرودس — (إلى هيرودية) أنظرى كيف ربيت ابنتك !

هيرودية — ابنتي وأنا من سلالة ملكية . أما

أنت فإن جدك كان يرعى الإبل ! وكان فضلا عن ذلك لصاً كما تعلم !

هيرودس — تكذبين !

هيرودية — تعرف جيداً أنى قلت الحقيقة

هيرودس — سالوما ، تعالى واجلسى على مقربة منى . سأعطيك عرش أمك

سالوما — لست متعبة أيها الأمير

هيرودية — إنك ترى جيداً رأيها فيك

هيرودس — أحضروا ... ماذا أريد ؟ لا أدرى آه ! آه ! أذكر ...

صوت يوحنا — حان الوقت ! يقول السيد لقد وقع ماتنبأت به . هاهوذا اليوم الذى تكلمت عنه

هيرودية — أسكتوه . لا أريد أن أسمع صوته . هذا الرجل يقذفنى دائماً بالسباب

هيرودس — لم يقل شيئاً ضدك . إنه نبى عظيم

هيرودية — لا أومن بالأنبياء . هل يستطيع إنسان أن يعلم الغيب ؟ هذا أمر لا يعلمه أحد . إنه يكيل الشتائم لى فى كل حين ، ولكني أعتقد أنك تخافه ... أعرف جيداً أنه يبعث فى نفسك الخوف

هيرودس — إني لا أخافه ولا أخاف أحداً فى الحياة

هيرودية — بلى إنك تخافه . وإذا كنت لا تخافه فلماذا لا تسلمه لليهود الذى مضى عليهم ستة أشهر وهم يلحون فى طلبه منك ؟

يهودى — فى الحق يامولاى ، يحسن أن تسلمه إلينا

هيرودس — كف عن الكلام فى هذا الموضوع فقد أعطيتك جوابى قبل الآن ، وهو لا يتغير ، لا أريد أن أسلمه إليكم . إنه رجل رأى الله

يهودى — هذا أمر مستحيل لا يثبت عليه العقل من بعد إلياس النبي ، لم ير الله أحد . إنه آخر إنسان رأى الله . فى وقتنا هذا لا يظهر الله نفسه ، إنه يستخفى ، ومن أجل ذلك تتوالى على البلاد المصائب والملمات

يهودى آخر — فى الواقع لا يدري أحد أرأى النبي إلياس الله حقاً أم لا ؟ . إنه على الأرجح رأى ظل الله فقط

يهودى ثالث — الله لا يستخفى مطلقاً . إنه يظهر نفسه دائماً فى كل شيء . الله فى الشر وفى الخير على السواء

يهودى رابع — ينبغي ألا تقول ذلك . هذه فكرة شديدة الخطر ، فكرة جاءت من مدارس الإسكندرية حيث تعلّم الفلسفة الإغريقية ... والاغريق قوم ذوو رقة ، حتى إنهم يعرضون عن الختان وينفرون منه

يهودى خامس — الإنسان عاجز عن أن يعرف كيف يعمل الله ويدبر لأن أساليبه شديدة الغموض قد يكون ما نسميه شراً هو الخير ، وما نسميه خيراً هو الشر . لا يستطيع الانسان أن يعرف شيئاً ؛ ومن الضرورى الذى لا مفر منه أن نخضع لكل شيء . الله قوى إلى أبعد حد ، وهو يحطم الضعفاء والأقوياء فى وقت واحد . إنه لا يهتم لأحد مطلقاً

اليهودى الأول — هذه حقيقة لا ريب فيها . الله جبار . إنه يسحق الضعفاء والأقوياء كما يُسحق القمح بين شقي الرحى ، ولكن هذا الرجل لم ير الله ؛ لم يره أحد من بعد إلياس النبى

هيرودية — أطلب إليهم أن يكفوا عن الحديث ؛ إنهم يغمزون على الملل

هيرودس — ولكني سمعت بعض الناس يقولون إن يوحنا نفسه هو نبيكم إلياس

يهودى — هذا لا يمكن أن يكون . لقد مضى على إلياس النبى أكثر من ثلثمائة سنة

هيرودس — بعض الناس يقولون إنه إلياس النبي ...

ناصرى — (نسبة إلى الناصرة) أعتقد أنه إلياس النبى

يهودى — كلا

صوت يوحنا — جاء اليوم ، يوم السيد ، وإني لأسمع فوق الجبال وقع قدمى من سيكون منقذ العالم

هيرودس — ما معنى هذا ؟ منقذ العالم ؟

تيجالان — هذا لقب يتخذه قيصر لنفسه

هيرودس — ولكن قيصر لن يأتى إلى يهودية. تسلمت بالأمس رسائل من روما ، وليس فيها ما يدل على عزم قيصر . وأنت يا تيجالان لقد كنت فى روما ومكثت بها الشتاء كله ، ألم تسمع شيئاً عن هذا الأمر ؟

تيجالان — حقاً لم أسمع شيئاً أيها الأمير . إنى أفسر اللقب فقط ، إنه أحد ألقاب قيصر

هيرودس — إنه لا يستطيع المجىء . قيصر مصاب بداء النقرس ، ويقال إن له ساقى فيل نتيجة المرض ، فكيف يقوى على السفر ؟ يضاف إلى هذا السبب أسباب أخرى مأتاها أعباء الدولة وسياستها والمعروف أن من يغادر روما ويتغيب عنها يفقدها . لن يأتى قيصر ولكنه صاحب الأمر على كل حال ، سيأتى إذا شاء ، ولكن يغلب على ظني أنه لن يأتى

الناصرى — ليس عن قيصر تكلم النبى ، أيها الأمير

هيرودس — ليس عن قيصر ؟

الناصرى — كلا أيها الأمير

هيرودس — عمن تكلم إذن ؟

الناصرى — عن المسيح الذى ظهر

يهودي — لم يظهر المسيح

الناصرى — جاء المسيح، وهو يأتى بالمعجزات فى كل مكان

هيرودية — أوه ! أوه ! المعجزات ! إنى لا أومن بالمعجزات . لقد رأيت منها أكثر مما ينبغي !

(إلى غلامها) مروحتى يا غلام

الناصرى — هذا الرجل يأتى بالمعجزات الحقيقية ، فهو مثلا قد أحال الماء إلى نبيذ في عرس أقيم بمدينة صغيرة من مدن الجليل . وقد حمل إلىّ هذا الخبر قوم رأوا بأعينهم ما حدث فى ذلك العرس ثم رأى أيضاً مريضين بالجذام جالسين أمام باب « كفر ناحوم » فلمسهما بيده فزال عنهما المرض

ناصرى آخر — كلا ، الشخصان اللذان شفاهما فى كفر ناحوم لم يكونا مريضين بالجذام ، ولكنهما كانا ضريرين

الناصرى الأول — أخطأت الصواب . كانا مجذومين ، وقد رد البصر أيضاً على كثير من العمى ، ورؤى على جبل يتحدث إلى ملائكة

صدوقى — ليس للملائكة وجود

فريسى — الملائكة كائنة ، ولكن لا أعتقد أن هذا الرجل يحدث إليها

الناصرى الأول — رآه كثير من السابلة يتحدث إلى ملائكة

صدوقى — ليس إلى ملائكة

هيرودية — ما أشد ضيق بهؤلاء الناس ! إنهم

أغبياء كالبهائم ! لا فرق بينهم وبين الأنعام !
(إلى غلامها) أين مروحتي ؟ (يعطيها الغلام المروحة)
أنت ذاهل تحلم ، وهذا لا يجوز . الحالمون مرضى
يا غلام (تضربه بالمروحة فى رفق)

الناصري الآخر — وهناك أيضاً معجزة فتاة
يبروس

الناصرى الأول — نعم هذه حقيقة لا يمكن
إنكارها

هيرودية — الجند يستبد بهؤلاء الناس ! لقد
أطالوا النظر إلى القمر . قل لهم أن يكفوا عن الثرثرة

هيرودس — وما هى معجزة فتاة يبروس ؟

الناصرى الأول — كانت ميتة فأحياها

هيرودس — هل يحيى الموتى ؟

الناصرى الأول — نعم أيها الأمير ، إنه يحيى
الموتى .

هيرودس — لا أريد أن يفعل ذلك . أحرم
عليه هذا العمل . لا أبيح لأحداً أن يحيى الموتى .
ينبغى البحث عن هذا الرجل وإخباره أنى لا أسمح
له أن يحيى الموتى . أين هو الآن ؟

الناصرى الآخر — إنه فى كل مكان أيها الأمير
ولكن من العسير العثور عليه .

الناصرى الأول — يقال إنه الآن فى السامرة

يهودى — من الجلي أنه ليس بالمسيح إذا كان
فى السامرة ، لايمكن أن يأتى المسيح للسامريين لأن
عليهم اللعنة ، إنهم لا يهدون إلى المعبد القرابين

الناصرى الآخر — غادر السامرة منذ أيام ،
واعتقادى الشخصى أنه الآن فى ربض من أرباض
أورشليم .

الناصرى الأول — كلا . إنه ليس حيث تقول
إنى قادم من أورشليم ، ولم يسمع عنه حديث منذ
شهرين .

هيرودس — الخلاصة أن هذا الجدال ليس
بذى شأن . ولكن ينبغى العثور على هذا الرجل
وإخباره من قبلى أنى أحرم عليه إحياء الموتى . إحالة
الماء إلى نبيذ وشفاء المجذومين والعمى ، هذه أمور
يستطيع أن يقوم بها إذا شاء . وفى الحق أن شفاء
المجذومين عمل كله خير ، ولكن لا أسمح له أن يحيى
الموتى ... فظيع أن تعود الموتى إلى الحياة !

صوت يوحنا — المستهترة الملوثة ! آه ! البغى
آه ! بنت بابل ذات العينين الذهبيتين والجفون المموهة
بلون الذهب ! هذا ما يقول السيد . أثيروا عليها
عدداً كبيراً من الناس . فليرجمها الشعب بالأحجار

هيرودية — أسكتوه !

صوت يوحنا — فليطعنها رؤساء الجند
بسيوفهم وليسحقوها تحت النعال .

هيرودية — هذه بذاءة لا تحتمل !

صوت يوحنا — كذلك سأمحو من الأرض
الجرائم ، وستتعلم النساء جميعاً ألا تحاكى آثام هذه
المرأة .

هيرودية — أسامع أنت إلى ما يقذفنى به ؟
وهل تتركه يسب زوجك ؟

هيرودس — ولكنه لم ينطق باسمك .

هيرودية — وما قيمة ذلك ؟ إنك تعرف جيداً
أن سبابه موجه إلىّ ، وأنا زوجك أليس كذلك ؟

هيرودس — أنت زوجى يا هيرودية العزيزة ،
وقد بدأت سلسلة حياتك بأن كنت زوج أخى

هيرودية — أنت الذي اقتلعتنى من بين ذراعيه
اقتلاعاً .

هيرودس — في الحق أنى كنت الأقوى ... ولـكن دعينا من هذا الموضوع ، لا أريد أن أطرقه ومن أجله نطق النبي بكلمات هائلة ، وقد تحدث من أجله مصيبة . فلنتجنب الحديث في هذا الشأن ياهيرودية النبيلة ، لقد نسينا ضيوفنا ، صبي لي النبيذ يا أعز الناس عليّ . املئى الأقداح الـكبيرة الفضية والزجاجية بالنبيذ . سأشرب نخب قيصر وصحته . هنا فئة من الرومان ، وينبغى أن نشرب نخب صحة قيصر .

الجميع — قيصر ! قيصر !

هيرودس — إنك لاتلاحظين مبلغ اصفرار ابنتك

هيرودية — وما ذا يهمك ؟

هيرودس — لم أرها قط مصفرة إلى هذا الحد

هيرودية — ينبغى ألا تنظر إليها

صوت يوحنا — فى ذلك اليوم ، ستصبح الشمس سوداء ككيس من شعر فاحم ، والقمر أحمر كالدم ، وستسقط نجوم السماء على الأرض كما يسقط التين الأخضر من الشجرة ، ويملك الرعب قلوب الملوك

هيرودية — آه ! آه ! ما أشد شوقى إلى رؤية ذلك اليوم الذى يتحدث عنه ، حين يصبح القمر كالدم وتسقط النجوم على الأرض كالتين الأخضر ! هذا النبي يتكلم كرجل ثمل ... ولـكنى لا أستطيع احتمال صوته . إنى أكره صوته وأمقته . مره بالسكوت

هيرودس — كلا . إنى لم أفهم ما قال ، ولـكن ربما يكون قوله كاشفاً عن الغيب

هيرودية — لا أومن بهذا الهراء الذى يسمونه كشفاً عن الغيب . إنه يتكلم كرجل لعبت بعقله الخمر

هيرودس — ربما يكون ثملاً بخمر الله

هيرودية — ما نوع خمر الله هـذا ؟ من أى كرم استخرجت ؟ في أى معصرة توجد ؟

هيرودس — (نظره عالق بسالوما لا يفارقها) تيجالان ، حينما كنت في روما أخيراً ألم يتحدث إليك الامبراطور فى شأن ... ... ؟

تيجالان — فى أى شأن أيها الأمير ؟

هيرودس — فى أى شان ؟ آه ! لقد وجهت إليك سؤالا ... أليس كذلك ؟ نسيت ما كنت أريد معرفته

هيرودية — ما تزال تنظر إلى ابنتى . لا يجوز أن تنظر اليها . سبق أن قلت لك ذلك

هيرودس — إنك لا تقولين شيئاً آخر

هيرودية — وأكرر ما أقول

هيرودس — وإصلاح المعبد الذى كثر الحديث عنه ؟ هل فى النية إنقاذ شيء ؟ يقال إن برقع المحراب قد فقد ، أليس كذلك ؟

هيرودية — أنت الذى أخذه . مالى أراك ذاهلاً مضطرباً فى سبل الحديث ؟! ألا أريد البقاء هنا ... هلم ندخل

هيرودس — سالوما أرقصى أمام عينى إرضاء لى

هيرودية — لا أريد أن ترقص ابنتى

سالوما — لا أشعر بأقل ميل إلى الرقص أيها الأمير

هيرودس — سالوما يا بنت هيرودية ، أرقصى إرضاء لى

هيرودية — دعها ولا تكدر هدوءها

هيرودس — آمرك أن ترقصى يا سالوما

سالوما — لن أرقص أيها الأمير

هيرودية — (ضاحكة) أرأيت كيف تطيعك ؟ !

هيرودس — وماذا يهمنى إن رقصت أو رفضت؟ هذا أمر لاقيمة له عندى . إنى سعيد فى هذا المساء .. سعيد إلى حد كبير ... لم أكن قط سعيداً إلى مثل هذه الدرجة

الجندى الأول — يبدو الاكتئاب على الأمير ألا ترى أنه غير مبتهج ؟

الجندى الثانى — عليه أمارات الهم والاكتئاب

هيرودس — ولماذا لا أكون سعيداً ؟ قيصر ، وهو سيد العالم ، سيد كل شيء ، يحبنى كثيراً . وقد أرسل إلىّ فى الأيام الأخيرة هدايا عظيمة القيمة ووعدنى فضلا عن ذلك بأن يدعو إلى روما ملك كابا دوس عدوي الألد . ربما يصلبه فى روما . قيصر يستطيع أن يفعل كل ما يريد . إنه سيد العالم بلا جدال . من هذا ترون أن لى الحق فى أن أكون سعيداً . لا شىء فى العالم يستطيع أن يكدر سرورى أو يفسد علىّ ابتهاجى

صوت يوحنا — سيكون جالساً على عرشه فى ثياب أرجوانية وقرمزية ، وسيحمل فى يده إناء من ذهب مملوءا بضروب تجديفه . سيضربه ملاك السيد ، وسيكون للديدان طعاما

هيرودية — أسمعت لما يقول عنك ؟ يقول إنك ستكون طعاماً للديدان

هيرودس — لم يتكلم عنى . إنه لا ينطق بشىء ضدى ألبتة . إنه يعنى بقوله ملك كابا دوس عدوي ، وهو الذي سيكون طعاماً للديدان ، ولست أنا أمير يهودية . لم يقل النبى شيئاً ضدى قط ، سوى أنى أخطأت بالزواج من امرأة أخى . ربما يكون على حق . والحقيقة التى لا تقبل الشك أنك عاقر

هيرودية — عاقر ! وتقول هذا ، أنت الذي لا يكف عن النظر إلى ابنتى ، أنت الذى أراد أن ترقص ابنتى ابتغاء سروره ولذته ؟ ! من السخف أن تقول هذا . لي عقب تراه أمام عينيك ، أما أنت فلم تعقب قط ، حتى ولا من أجدى جواريك ، أنت المصاب بالعقم ولست أنا

هيرودس — أسكتى . أقول إنك عاقر . لم تلدي لى ولداً ، ويقول النبي إن زواجنا ليس زواجا صحيحاً . يقول إنه زواج محرم ، زواج سينتج الويلات والمصائب ... أخشى أن يكون على حق فيما يقول . أعتقد أنه على حق . ولكن ليس هذا وقت الكلام فى مثل هذه الأشياء . أريد أن أكون سعيداً فى هذه اللحظة . وفى الواقع أنى سعيد ، سعيد إلى أبعد حدود السعادة . لا شىء يعوزنى

هيرودية — يسرنى أن أراك صافى المزاج فى هذا المساء . ليس من طبعك هذا المزاج الجميل . ولكن الليل قد أمعن فى سبيله ، فهلم ندخل . أنسيت أننا سنخرج جميعاً إلى الصيد عند شروق الشمس ؟! ينبغي الاحتفاء بسفراء قيصر جهد المستطاع ، أليس كذلك ؟

الجندى الثانى — ما أشد اكتئاب الأمير !

الجندى الأول — نعم إنه مكتئب

هيرودس — سالوما ، سالوما ، أرقصى أمام عينى . أضرع إليك أن ترقصى . إنى حزين هذا المساء . نعم حزين جداً هذا المساء . لما وطئت هذا المكان انزلقت قدماى فى الدم ، وهذا نذير شر . وسمعت ، وأنا واثق بأني سمعت فى الجو صفق أجنحة هائلة ، لا أدرى ما معنى ما سمعت ... إنى حزين هذا المساء ، ومن أجل ذلك أريد أن ترقصى أمام عيني

أرقصي إرضاء لي . سالوما ، أضرع إليك . إذا رقصت لى ، فإن فى استطاعتك أن تسألينى كل ما ترغب فيه نفسك ، وسأعطيك كل ما تطلبين ، ولو كان نصف ملكي

سالوما — (تنهض) ستعطيني كل ما أطلب أيها الأمير ؟

هيرودية — لا ترقصي يا ابنتي

هيرودس — كل شيء ، ولو طلبت نصف ملكي

سالوما — أتقسم أيها الأمير ؟

هيرودس — أقسم يا سالوما

هيرودية — يا ابنتي لا ترقصي

سالوما — بأى شيء تقسم أيها الأمير ؟

هيرودس — بحياتى وتاجي وآلهتي ، سأعطيك كل ما تطلبين ولو كان نصف ملكي ، إذا رقصت لى أوه ! سالوما ! سالوما ! أسعديني بالرقص أمام عيني

سالوما — لقد أقسمت أيها الأمير

هيرودس — أقسمت ياسالوما

سالوما — كل ما أطلب ولو كان نصف ملكك ؟

هيرودية — لا ترقصي يا ابنتي

هيرودس — ولو كان نصف ملكي . ستكونين ملكة رائعة الجمال خلابة المنظر إذا سرك أن تطلبي نصف ملكي . ألا ترين ياهيرودية أنها تكون رائعة الجمال إذا غدت ملكة ؟ آه ! الجو بارد هنا ! الجو شديد البرودة ، وأسمع ... لماذا أسمع فى الجو صفق أجنحة ؟ أوه ! يخيل إلىّ أن طائراً هائلا أسود اللون يحلق فوق الشرف ! لماذا لا أستطيع رؤية هذا الطائر ؟ صفق جناحيه رهيب مخيف ، والهواء الذي يأتي من جناحيه رهيب مرعب . إنه هواء بارد ... ولكن لا ... ليس الجو بارداً ، بل هو على النقيض من ذلك شديد الحرارة . أختنق من شدة الحر . صبي على يديّ ماء . أعطني ثلجاً آكله ، حلي عباءتى . أسرعي ، أسرعي ، حلي عباءتي ... كلا ، دعيها كما هي . إنه تاجي الذي يؤلمني ، تاج الورد هذا . لكأن هذه الورود قد خلقت من نار . إنها أحرقت جبيني (ينتزع التاج من رأسه ويلقيه على المائدة) آه ! الآن أتنفس . ما أشد حمرة هذه الورود ! كأنها نقط من الدم على غطاء المائدة الأبيض . ليس هذا شيئاً مذكوراً . ينبغي ألا يرى الانسان رموزاً فى كل شيء يقع عليه بصره حتى لا تكون الحياة مستحيلة الاحتمال . الأفضل أن يقال إن نقط الدم جميلة كالورود . أفضل كثيراً أن يقال ذلك . ولكن دعونا من هذا الموضوع ... الآن ، إني سعيد إلى أقصى حد . لى الحق فى أن أكون سعيداً أليس كذلك ؟ سترقص ابنتك إرضاء لى . سترقصين لى ياسالوما ، أفى ذلك شك ؟ لقد وعدت بأن ترقصي لى

هيرودية — لا أريد أن ترقص

سالوما — سأرقص لك أيها الأمير

هيرودس — أتسمعين إلى قول ابنتك ؟ سترقص لى . أنت على صواب ياسالوما فى إجابة طلبي والرقص أمام عيني . وفى نهاية الرقص لا تنسى أن تسأليني كل ما تصبو إليه نفسك . كل ما ترغبين فيه ، سأعطيك إياه ، ولو كان نصف ملكي . لقد أقسمت ، أليس كذلك ؟

سالوما — أقسمت إلى أيها الأمير

هيرودس — ولم أخلف قط وعدي . لست من هؤلاء الذين ينقضون كلمتهم ويخلون بعهودهم . لا أعرف كيف أكذب . إني عبد كلمتي ، وهي كلمة

ملك . ملك كابادوس يكذب دائماً ، ولكنه ليس ملكا حقاً . إنه جبان ضعيف الخلق ، ودليلي على ما أقول أن لى عنده مالا لا يريد أن يبرىء منه ذمته ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أمعن فى الصفاقة وأهان سفرائى ونطق بأقوال جارحة مريرة . ولكن قيصر سيصلبه فى روما حين يذهب إليها الجبان . إنى واثق بأنه سيصلبه ... إيه ! سالوما ، أفى انتظار شيء أنت ؟

سالوما — أنتظر جواريّ يحضرن إليّ الطيب والبراقع السبعة ، ويخلعن نعلى (الجوارى يحضرن الطيب والبراقع السبعة ويخلعن نعلى سالوما)

هيرودس — آه ! سترقصين عارية القدمين ؟ هذا حسن ، جميل . ستكون قدماك كيامتين ناصعتى البياض . إنهما أشبه شيء بزهرتين صغيرتين ناصعتى البياض ترقصان على غصن شجرة ... آه ! لا ... سترقص على الدم ! على الأرض دم . لا أريد أن ترقص فى الدم . إنها لو فعلت لكان ذلك نذير شر وشؤم

هيرودية — وماذا يهمك من رقصها على الدم؟ لقد سرت أنت فيه ولوثت به نعليك

هيرودس — وماذا عليّ من ذلك ؟ ! آه ! أنظرى إلى القمر ! لقد صار أحمر كالدم ، آه ! النبى تنبأ بذلك . قال إن القمر سيصير أحمر كالدم ، أليس كذلك ؟ لقد سمعتم إلى قوله جميعاً . صار القمر أحمر كالدم ، ألا ترونه ؟

هيرودية — أراه جيداً ، والنجوم تسقط كالتين الأخضر ، أليس كذلك ؟ والشمس ستغدو سوداء كـكيس من شعر فاحم ، وملوك الأرض يستولى عليهم الرعب . هذا ظاهر واضح على الأقل . النبى كان على حق للمرة الأولى فى حياته . ملوك الأرض يستولى عليهم الرعب ... يحسن أن ندخل . أنت مريض ، وسيقال لأهل روما إنك مجنون ... هلم ندخل

صوت يوحنا — من هذا المنحدر من عيساف ابن إسحق القادم من بصرى (بلد بالشام كانت تحت حكم الرومان) فى ثوبه الأرجوانى ، المشرق الطلعة فى جميل ثيابه ؟ من هذا الذى يمشى فى قوة هائلة أخاذة ؟ لماذا ثيابك ذات ألوان قرمزية ؟

هيرودية — هلم ندخل . صوت هذا الرجل يهيج أعصابى ويبعث الضيق فى صدرى . لا أريد أن ترقص ابنتى وهو يصرخ على هذه الصورة ، لا أريد أن ترقص ابنتى وأنت تنظر إليها هكذا

هيرودس — لا تنهضي يا زوجى ، يا مليكتى ، فلن يكون لإصرارك أية ثمرة . لن أبرح مكانى حتى ترقص ابنتك . أرقصى يا سالوما ، أسعدينى بالرقص كما وعدت

هيرودية — لا ترقصي يا ابنتى

سالوما — إليك الرقص أيها الأمير

(ترقص سالوما رقصة البراقع السبعة)

هيرودس — آه ! رقص فخم رائع ! إنك ترين أن ابنتك قد رقصت لى . اقتربى يا سالوما ! اقتربي حتى أستطيع أن أعطيك أجر ما فعلت . إنى كريم مع الراقصات إلى حد كبير . وسأعطيك من الأجر ما يرضيك . سأعطيك كل ماتطلبين . ماذا تريدين ؟ تكلمى

سالوما — (راكعة) أريد أن يقدم إليّ الآن فى طست من الفضة ...

هيرودس — (ضاحكا) فى طست من الفضة ؟

نعم في طست من الفضة دون شك . إنها فاتنة خلابة أليس كذلك ؟ ما الذى تريدين أن يقدم إليك فى طست من الفضة يا عزيزتى الجميلة سالوما ، يا أجمل فتيات يهودية ؟ تكلمى . مهما يكن الشئ الذى تطلبين ، فاني أعطيك إياه . كنوزي بين يديك وهى ملك لك . ماذا تطلبين يا سالوما ؟

سالوما — (تنتصب على قدميها) رأس يوحنا

هيرودية — آه ! قول صائب يا ابنتى

هيرودس — لا . لا

هيرودية — أحسن ما يقال يا ابنتى

هيرودس — كلا ، كلا ياسالوما . إنك لاتطلبين ذلك . لاتستمعى إلى قول أمك . إنها تقدم إليك دائما الرأى المعوج والنصح السئ . لا تعيرى قولها التفاتاً .

سالوما — إنى لا أتبع نصح أمي ، ولكنى أطلب رأس يوحنا فى طست من الفضة تحقيقاً لمسرة نفسي . لقد أقسمت يا هيرودس . لا تنس أنك أقسمت

هيرودس — أعرف ذلك . أقسمت بآلهتى . أعرف ذلك جيداً ، ولكنى أضرع إليك يا سالوما أن تطلبى منى شيئاً آخر غير الذي طلبت . اطلبي مني نصف ملكي أمنحك إياه . ولكن لا تسأليني ما طلبت

سالوما — أسألك رأس يوحنا

هيرودس — كلا ، كلا ، لا أريد

سالوما — لقد أقسمت أيها الأمير

هيرودية — نعم أقسمت أمام الحاضرين جميعاً وبلغ القسم مسامعهم

هيرودس — أسكتى إنى لا أوجه إليك الحديث

هيرودية — ابنتى على حق فى طلب رأس هذا الرجل . إنه قذفنى بالسباب ورمانى بأبشع الأقوال لا تنزلى عن طلبك ياابنتى . لقد أقسم أمام الحاضرين جميعاً

هيرودس — أسكتى . كفى عن مخاطبتى ... أصغي إلي ياسالوما ، ينبغي أن يتغلب العقل على الهوى أليس كذلك ؟ أفزعى إلى العقل فذلك أجدى عليك . إنى لم أقس عليك قط ولم يبد منى إساءة تأخذينها علىّ . لقد أحببتك فى كل حين ... وربما ذهبت فى حبك إلى حد الغلو والاغراق ، ومن أجل هذا أرجو أن تعدلى عما طلبت . إن ماتطلبين بشع مخيف. وفى الحق أنى لا أعتقد أنك جادة فى طلبك . رأس إنسان مقطوع ، هذا شئ دميم ، أليس كذلك ؟ هذا شئ لايجوز أن تراه عذراء . أى سرور يبعثه فى نفسك هذا المنظر الفظيع ؟ إنه لا يبعث فى النفس غير التقزز والاكتئاب . كلا ، كلا ، إنك لاتريدين ذلك ... أصغى إلي لحظة . عندى زمردة ، زمردة كبيرة مستديرة أرسلها إلىّ أقرب المقربين إلى قيصر . إذا نظرت خلال هذه الزمردة استطعت أن تشاهدى أشياء تقع على مسافة هائلة . قيصر نفسه يحمل زمردة تماثلها تماماً حين يذهب إلى القرق (أى السرك) ولكن زمردتى أكبر . أعرف جيداً أنها أكبر . إنها أكبر زمردة فى العالم . إنك تريدينها أليس كذلك ؟ أعطيك إياها فاطلبيها منى .

سالوما — أطلب رأس يوحنا

هيرودس — أنت لاهية عني لا تسمعين لقولي أوه ! دعيني أتكلم يا سالوما

سالوما — رأس يوحنا

هيرودس — كلا ، كلا ، إنك لا تريدين ذلك . تقصدين بطلبك هذا إلى إيلامي ليس غير ، لأني أطلت إليك النظر هذا المساء . إيه ! نعم نظرت إليك المساء كله ... جمالك بعث فيّ الاضطراب ... جمالك غمز عليّ الاضطراب الشديد ، وقد حدقت فيك أكثر مما ينبغي ، ولكني لن أعود إلى مثل هذا العمل . ينبغي ألا ينظر الانسان إلى الأشياء ولا إلى الأشخاص ... لا يجوز النظر إلا في المرايا لأنها لا تظهر لنا إلا أقنعة ... أوه ! على بنبيذ ! الظمأ يستبد بي ... سالوما ، سالوما ، فلنكن صديقين ... تفهمي قولي ... ماذا كنت أريد أن أقول ؟ في أي شأن كنا ؟ آه ! أذكر الآن ! ... سالوما ، كلا ، اقتربي أكثر من ذلك . أخشى ألا يصل صوتي إلى سمعك ... سالوما ، تعرفين طواويسي البيضاء الجميلة التي تمرح في الحديقة بين الآس البري وأشجار السرو الكبيرة ، مناقيرها ذهبية والحب الذي تأكله ذهبي أيضا ، وأرجلها في لون الأرجوان . إذا صرخت هطلت الأمطار ، وإذا تبخترت وعقدت ذيلها على شكل مروحة بزغ القمر ؛ وهي تسير اثنين اثنين بين أشجار السرو والآس البري الأسود ، ولكل طائر منها عبد يقوم بشأنه . وفي بعض الأحيان تطير خلال الشجر ، وفي أحيان أخرى ترقد على العشب وحول البحيرة . ليس في العالم طير لها مثل سحرها ، ليس في العالم ملك يملك طيراً عجيبة مثل هذه . أعتقد أن قيصر نفسه لا يملك طيراً رائعة الجمال مثل هذه . سأعطيك خمسين طاووساً منها ، فكيف ترين ؟ ستتبعك أينما سرت ، وستكونين بينها كالقمر وسط سحابة كبيرة بيضاء ... سأعطيك كل ما أملك منها . ليس عندي إلا مائة ، وليس في العالم ملك يملك طواويس مثل التي عندي ، ولكني سأعطيك إياها جميعاً . وينبغي في مقابل هذا أن تحليني من كلمتي وتعدلي عما طلبت

(يفرغ كأس النبيذ في جوفه)

سالوما — أعطني رأس يوحنا

هيرودية — أحسنت القول يا ابنتي ! أما أنت فانك شديد السخف بطواويسك

هيرودس — أسكتي ، إنك تصرخين دائماً . تصرخين كحيوان مفترس . لا يجوز أن تصرخي هكذا . صوتك يبعث في نفسي الملل . ربما يكون هذا الرجل مرسلا من قبل الله . أعتقد أنه مرسل من قبل الله . إنه لرجل طاهر مقدس . لقد لمسه الله بأصبعه ، ووضع في فمه كلمات مخيفة هائلة . الله دائماً معه ، في القصر وفي الصحراء على السواء ... هذا ممكن على الأقل لا نستطيع أن نجزم ، ولكن ليس بمستحيل أن يكون الله معه يحبه ويشد أزره . ومن أجل ذلك قد تحدث مصيبة إذا مات هذا الرجل ... ألم يقل إنه في اليوم الذي سيموت فيه ستنقض مصيبة على أحد من الناس ؟ قد لا تصيب غير شخصي . أذكري أني انزلقت على الدم حين دخلت الشرف ، ثم سمعت صفق أجنحة في الهواء . حدثان ينذران بالشر من غير شك ... هيه ! سالوما إنك لا تريدين أن تصيبني مصيبة ، أليس كذلك ؟ أوه ! استمعي ؟

سالوما — أعطنى رأس يوحنا

هيرودس — أترين أنك لاتصغين إليّ ؟ ! ولكن تملق الهدوء . أنظرى إليّ ، إنى هادىء إلى أقصى حد . أصغى إلي ، عندى حلى مخبأة هنا لم يرها أحد ، وأمك نفسها لم يقع عليها بصرها قط ، حلى عجيبة تدهش العقل وتبهر النظر . عندى عقد من اللؤلؤ ذو أربعة صفوف ، من يرى هذه اللآلىء يخيل إليه أنها أقمار قد سلكت فى أشعة من فضة . لكأنها خمسون قمراً فى أسر خيط من ذهب ، وقد حملته فيما مضى ملكة على صدرها العاجى . أما أنت فانك حين تضعينه على صدرك ستكونين جميلة رائعة كملكة . عندى نوعان من جوهر عجيب ، أحدهما أسود اللون كالنبيذ ، والآخر أحمر اللون كالنبيذ إذا مزج بالماء . عندى أحجار كريمة من الزبرجد الأصفر كعيون النمور ، ومن الزبرجد الوردي كعيون الحمام ، ومن الزبرجد الأخضر كعيون القطط ، عندى أحجار لبنية تضىء دائماً بشعلة باردة لا أثر للحرارة فيها ، وأحجار لبنية أخرى تحزن الأفكار وتخشى الظلمات . عندى كثير من أحجار الجزع Onyx تشبه إنسان عين امرأة ميتة . عندى أحجار زبد القمر Selenites تتغير حين يتغير القمر وتصير صفراء مبهوتة حين ترى الشمس . عندى صفير [١] كبير الحجم كالبيض ، وأزرق اللون كالأزهار الزرقاء ، البحر يموج فى داخله والقمر لايعكر البتة زرقة أمواجه . عندى أنواع كثيرة من الزبرجد والياقوت والحجر اليمانى والأخليدونيا ، وسأعطيك كل هذا لا أنقص منه شيئاً ، وسأضيف إليه أشياء أخرى . أذكر الآن أن ملك الهند أرسل إليّ منذ أربعة أيام مراوح مصنوعة من ريش الببغاء ، وأرسل إليّ ملك نوميديا ثوباً مصنوعاً من ريش النعامة . عندي مرآة من البللور لايجوز للنساء أن تراها ، والفتيان أنفسهن لايجوز أن يروها إلا بعد أن يضربوا على ظهورهم بالعصى والقضبان . وعندى فى خزانة من الصدف ثلاثة أحجار من الفيروز عجيبة فتانة ، إذا وضعها الانسان على جبينه استطاع أن يتصور أشياء لا وجود لها ، وإذا حملها فى يده استطاع أن يضرب العقم على النساء . إنها كنوز نفيسة لاتقدر بثمن . وليس هذا كل شىء . عندى في خزانة من الأبنوس قدحان من عنبر كتفاحتين من ذهب ، إذا صب فيهما عدو سما ، صارا كتفاحتين من فضة . وعندى فى خزانة مرصعة بالعنبر نعال مرصعة بالزجاج . عندي عباءات ثمينة وأساور محلاة بالياقوت واليشم Gade من صنع مدينة الفرات ... تكلمى ، ماذا تريدين ياسالوما ؟ أفصحى عما ترغبين فيه حتى أعطيك إياه . سأعطيك كل ما تطلبين إلا شيئاً واحداً . سأعطيك كل ما أملك إلا حياة واحدة . سأعطيك عباءة الكاهن الأكبر . سأعطيك برقع المحراب

اليهود — أوه ! أوه !

سالوما — أعطنى رأس يوحنا

هيرودس — (يغور فى مقعده) ليكن لهاماتطلب حقاً إنها بنت أمها !

(الجندي الأول يقترب . هيرودية تأخذ من يد الأمير خاتم الموت فيتناوله منها الجندى ويحمله سريعاً إلى الجلاد . الجلاد يبدو عليه الفزع)

(١) ياقوت أزرق

من ذا الذى أخذ خاتمى ؟ كان فى يدي اليمنى خاتم . من ذا الذى شرب نبيذى ؟ كان في قدحى نبيـذ ... أوه ! ستحدث مصيبة من غير شك (الجلاد ينزل إلى الصهريج) آه ! لمـاذا أعطيت كلمتى وقطعت على نفسى عهـداً ؟ يجب على الملوك ألا يعدوا أو يقطعوا على أنفسهم عهداً . فظيع إذا أخلفوا ولم يوفوا ، وفظيع أيضاً إذا بروا بوعدهم ..

هيرودية — أجد أن ابنتى قد أحسنت صنعا

هيرودس — ستحدث مصيبة من غير شك

سالوما — (تنحنى على الصهريج وتنصت) لا أسمع صوتاً . لماذا لا يصرخ هذا الرجل ؟ آه ! لو حاول أحـد أن يقتلنى لصرخت وقاومت ... اضرب اضرب يا نعمان . إنى لا أسمع شيئاً فى الصهريج سكون رهيب ! سقط على الأرض شيء . سمعت شيئاً يسقط ... إنه سيف الجلاد . استولى الخوف على هذا العبد ، ينبغى إرسال جند (ترى غلام هيرودية فتخاطبه) تعال هنا . قل للجند أن ينزلوا إلى الصهريج ويحضروا لى ما طلبته ، ما وعدنى به الأمير ، ما هو ملـكى (الغلام يتراجع مذعوراً ، فتخاطب سالوما الجند) أيها الجند ، انزلوا إلى الصهريج وجيئونى برأس ذلك الرجل (الجند يتراجعون) أيها الأمير ، أيها الأمير ، مر جنودك أن يأتونى برأس يوحنا (يد كبيرة سوداء يد الجلاد تخرج من الصهريج حاملة رأس يوحنا على رمح من الفضة . تتناول سالوما الرأس . هيرودس يخفي وجهه بعباءته هيرودية تبتسم وتهز مروحتها . الناصريان يركعان ويشرعان فى الصلاة) . آه لم تشأ أن تدعنى أقبل ثغرك يا يوحنا إذن سأقبله الآن . سأعضه بأسنانى كما يعض الانسان فاكهة ناضجة . نعم سأقبل ثغرك يا يوحنا . قلت لك إنى سأقبله أليس كذلك ؟ إذن سأقبله الآن ... ولـكن لماذا لا تنظر إلىّ يا يوحنا ، عيناك الجبارتان المخيفتان اللتان كانتا مليئتين بالغضب والازدراء ، أراهما الآن مغلقتين ، ولماذا أراهما مغمضتين ؟ افتح عينيك ، ارفع جفنيك يا يوحنا . لماذا لا تنظر إلي ؟ هل أبعث فيك الخوف فلا تريد أن تنظر إلي ؟ ... ولسانك الذي كان كثعبان أحمر ينفث السم ... إنه ساكن لا يتحرك هذه الحية الحمراء التى رمتنى بسمها . لا تقول الآن شيئاً ، هذا غريب ، أليس كذلك ؟ كيف حدث أن الحية الحمراء لم تعد تتحرك ... ؟ لم تشأ أن أدنو منك وألمسك لقد رفضت ودي يا يوحنا وكلت لى الأقوال الشائنة وعاملتني كمستهترة ، كبغى ، أنا سالوما بنت هيرودية أميرة يهودية! ها أنا ذى يا يوحنا ما أزال على قيد الحياة أما أنت فانك ميت ورأسك فى حوزتى وملك لي ، وفى استطاعتى أن أفعل به ما أشاء ؛ فى استطاعتى أن ألقيه للـكلاب ولطير الهواء ، فتنهشه الـكلاب وتلتهمه طير الهواء . آه! يا يوحنا، يا يوحنا، أنت الرجل الوحيد الذى أحببته ... كنت جميلاً يا يوحنا ... جسمك كان عموداً من العاج على قاعدة من الفضة كان حديقة تموج باليمام وأزهار السوسن الغضة . كان برجاً من الفضة مزداناً بقوائم من العاج . ليس فى العالم جسم فى مثل بياض جسمك . ليس فى العالم شيء يماثل شعرك فى سواده . ليس فى العالم كله شيء يضارع ثغرك فى حمرته . كان صوتك مبخرة ينتشر منها عبير غريب ، وحين كنت أنظر إليك ،

كنت أسمع موسيقى عجيبة ! آه! لماذا لم تنظر إليّ يا يوحنا؟ خلف يديك وسبابك وشتائمك ، أخفيت وجهك . لقد وضعت على عينيك عصابة ذلك الذي يريد أن يرى آلهة . إذن رأيت ربك يا يوحنا ، أما أنا ، فانك لم ترني قط . لو رأيتني لأحببتني كما رأيتك يا يوحنا وأحببتك . أوه ! لشد ما أحببتك وما أزال أحبك يا يوحنا . لا أحب سواك ... إني متعطشة إلى جمالك ، متلهفة على جسمك ، ولن يهدهد رغبتي نبيذ أو فاكهة . ماذا أفعل الآن يا يوحنا ؟ لا الأنهار ولا البحار تستطيع أن تطفئ غلة هواي . كنت أميرة فازدريتني ، وكنت عذراء فقضيت على نضرتي ، وكنت على طهر فملأت عروقي بالنار ... آه ! آه ! لماذا لم تنظر إليّ يا يوحنا ؟ لو نظرت إليّ لأحببتني . أعرف جيداً أنك لو نظرت إليّ لأحببتني ، وأن لغز الحب أكبر من لغز الموت . لا ينبغي النظر إلا إلى الحب

هيرودس — إنها وحش بشع . ابنتك وحش مفترس . إن ما فعلته لجريمة كبرى من غير شك . أعتقد أن ما فعلته جريمة ضد إله مجهول

هيرودية — أقر عمل ابنتي وأريد البقاء هنا الآن

هيرودس — (وهو ينهض) آه ! الزوجة الآثمة التي تتكلم ! المرأة التي تقر المحرمات ! هيا لا أريد البقاء في هذا المكان ... ستحدث مصيبة لا محالة ... ماناس ، أساكار ، أوزياس ، أطفئوا المشاعل حتى لا أرى الأشياء ولا تراني . أطفئوا المشاعل . إحجبوا القمر وانشروا على النجوم غطاء! هلم نختبئ في قصرنا يا هيرودية فقد بدأت أشعر بالخوف

(العبيد يطفئون المشاعل . النجوم تختفي . سحابة كبيرة سوداء تمر بوجه القمر وتحجبه تماماً . المسرح يغمره ظلام دامس ويشرع الأمير في الصعود على السلم الكبير)

صوت سالوما — آه ! لقد قبلت ثغرك يا يوحنا كان على شفتيك طعم حريف لاذع . أكان هذا طعم الدم ؟ ربما كان طعم الحب . يقال إن للحب طعما لاذعاً ... ولكن ماذا يهم ؟ لقد قبلت ثغرك يا يوحنا

(يسقط على سالوما شعاع من ضوء القمر وينيرها)

هيرودس — (يلتفت إلى الخلف ويرى سالوما) اقتلوا هذه المرأة !

(الجند ينقضون على سالوما بنت هيرودية أميرة يهودية ، ويسحقونها بسلاحهم)

(تمت)

عربها

حسن صادق

البائعة الصغيرة

للكاتب الدانمركي هانز أندرسون

بقلم شكري محمد عباد

كان البرد يشتد ، والثلج ينهمل ، والظلام يحلولك ، والليل يسدف لينبلج عن صبح عام جديد . وكانت تضرب في بهمة الليل وصبارة القر فتاة حاسرة الرأس عارية القدمين : كانت تنتعل خفين عندما غادرت منزلها ، ولكنهما كانتا واسعتين فقد كانتا قبل لأمها . وبينا هي تعبر الطريق أمام عربتين مسرعتين أضاعت خفيها . فأما الأولى فلم تجد لها أثراً ، وأما الأخرى فقد خطفها طفل وجرى . فراحت الطفلة تجوب الطرقات وقد تعرت قدماها ، واحمرتا من برد وازرقتا . وكانت تحمل في جيب ثوبها العتيق حزماً من الثقاب ، وفي يسراها حزماً ، وقد أدبر النهار وما باعت منها شيئاً ، ولا حصلت ليومها فلساً

كانت تقضقض من البرد وترتعد من الجوع ، وتسير متحاملة على نفسها تجر قدميها جراً ... كانت صورة من التعاسة تلك الفتاة المسكينة ! وقد تغطى بالثلج شعرها الأصفر المسترسل الجميل ، وتدلت منه خصلات ناست على جيدها الأبيض الناصع . ولكن تلك الفكرة لم تكن لتطيف بذهنها إذ ذاك ، فقد كان النور يشع من النوافذ ، ورائحة الأوز المشوى تفوح في الفضاء مؤذنة بميلاد عام جديد . فانتبذت ركناً منزوياً فجثت على ركبتيها ، وتقبعت في مكانها ، والبرد يسرى في أعضائها قارساً لذّاعاً . ولكنها لم تكن لتجرؤ على الذهاب إلى منزلها ، وما باعت من ثقابها شيئاً ، فعصا الأب تترقب ، وسقف البيت مهدم خاوٍ تعبث به الريح ، ويصفر فيه الهواء

كان البرد يخدر يديها الصغيرتين ، فتفكر في عودٍ من الثقاب تأخذه من الحزمة ، فتشعله في الحائط ، فتدفئ يديها على لهبه . وما تمالكت أن فعلت فأضاء العود بلهبٍ ساطعٍ كنور الشمعة ، فخيل للفتاة أنها جالسة بإزاء موقد ذي ألوان ، له قاعدة من نحاس وغطاء من نحاس لامع . ما أجمل النار تبعث الدفء في الأطراف ، والطمأنينة في النفس ! ولكن اللهب الضئيل لم يلبث إلا قليلاً حتى خبا . فتبخر في الهواء موقدها النحاسي اللامع ،

يعد هانز كرستيان أندرسون عميد الأدب الدانمركي بغير منازع . وقد ذهب سمعه فيما وراء وطنه . واشتهر بين كتاب الغرب قصصياً له مذهب خاص في القصة . وكثير من النقاد يحذف « الخرافة Faiay Stery » من القصة . إلا ما كتب أندرسون ، وقليلون غيره ، في هذا الباب . « والبائعة الصغيرة » على الرغم من قصرها قطعة رائعة من الأدب ، ومثال دقيق من فن ذلك الأديب .

ولم يبق بيدها سوى رماد العود المحترق . فأشعلت عوداً ثانياً ، فالتهب فوقع نوره على الحائط ، فصيّره كقناع شفّ استطاعت أن ترى الحجرة من خلاله . رأت مائدة بسط عليها قماش أبيض صفت عليه آنية العشاء ، وتوسطته أوزة مشوية يفوح منها بخار له نكهة وطيب ، ويملأ جوفها تفاح وبرقوق مجفف . ثم يا للعجب ! لقد قفزت الأوزة من الطبق وتهادت على أرض الحجرة ثم أقبلت على الطفلة وفى صدرها شوكة وسكين ! ثم انطفأ العود فلم تبصر الفتاة إلا حائطاً رطباً سميكا بارداً ، فأشعلت عوداً آخر فاذا هي جالسة تحت شجرة جميلة من أشجار عيد الميلاد تشتعل على أوراقها آلاف من الشموع ، فتغمر بنورها صوراً ملونة جذابة كتلك التى كانت تراها فى المكتبات ، فمدت الفتاة يديها نحوها فانطفأ العود، وارتفعت أنوار عيد العام ، فرأتها الفتاة نجوماً فى السماء ، سقط أحدها فرسم خطاً طويلا من النار ، ففكرت الفتاة الصغيرة : الآن أحد يموت . فكذاك علمتها جدتها العجوز التى درجت إلى القبر وما كان للطفلة غيرُها يحبها ويرعاها . وأشعلت الفتاة فى الحائط عوداً جديداً ، فسطع الضوء مرة أخرى ، فتمثلت لها جدتها تشع نوراً وحناناً . فصاحت الطفلة : « جدتاه ! خذينى معك ! سوف تذهبين إذا ما خبا نور الثقاب . ويزول طيفك الحبيب مثلما ذوت النار الدافئة ، والأوزة الشهية ، وشجرة عيد الميلاد » . وأقبلت على الثقاب تشعله كيلا تذهب جدتها ، فتلتهب بنور أسطع من الشمس وضحاها . وتتمثل لها جدتها أبهى مما كانت وأجل ؛ ثم أقبلت الجدة على الطفلة فاحتضنتها ، وطارت بها في عالمٍ من البهاء والسرور ، وحلقت بها فى السموات العلى ، وحملتها من الأرض إلى حيث لا برد ولا جوع

غير أن الطفلة كانت تجلس فى ركنها ، مستندة إلى الحائط وقد احمرّت وجنتاها ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة سعيدة ، هناك كانت ترقد أيبسها القر ، وقد احترقت علبة من ثقابها ، فقال الناس : « لقد أرادت أن تدفىء نفسها » وما علم الناس أى جمال رأت ، ولا بأى احتفال حملت إلى السماء ليلة العيد ...

شكرى محمد عياد
كلية الآداب

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الرابع

الفصل الثالث

وشعرنا عند صلحنا بما لم نشعر بمثله في خصامنا ؛ ولاح لى أن بريجيت تضمر أمراً لم أدرك كنهه أولا ، ثم رأيت الاضطراب يستقر في نفسي ويعكر عليها صفوها ، فكنت كلما مرت بى الأيام ينجلى فى ويتفوق على مقاومتى عنصران من الشقاء أورثتنى إياهما ضلالات ماضىّ : أحدهما غيرة ثائرة تتدفق لوما وتحقيراً ، وثانيهما نوع من المرح القاسي والخفة المصطنعة أذهب بها إلى اهانة كل عزيز علي ، فكنت وأنا أستسلم تارة إلى الغيرة وطوراً إلى المرح الساخر أعامل بريجيت كأنها خليلة خائنة أو كأنها امرأة مستأجرة ، فما لبثت حتى تولاها من الأسى ما جلل حياتنا بالسواد . ومن الغرائب أننى كنت أتململ من سيادة الحزن علينا وأنا لا أجهل مصدره ولا أقوى على انكار جنايتى فيه

كنت فى ريعان العمر ميالا إلى السرور فثقل على أن أنفرد كل يوم بأمرأة أكبر منى سناً تتألم ويتزايد تحولها وأمارات الجد على وجهها فأحس بتمرد شبيبتى على وتطلعها إلى ما مضى آسفة على مرحها وحريتها .

وكنا عند ما نتمشى على مهل في الغاب على ضوء القمر نشعر كلانا بالوحشة تتغلغل فى أحشائنا فتنظر بريجيت إلىّ وفى عينيها كثير من الاشفاق ، ونتجه إلى صخرة مرتفعة تطل على واد مقفر حيث نستعرض الساعات تمر بنا بطيئة فأحس بعينى خليلتى وقد غشاهما الأسى تغوران فى عينىّ نافذتين إلى قلبي ثم تردهما عني لتسرحهما على صفحة السماء ومسالك الوادي فتقول :

— إننى أشفق عليك يا بنى فأنت لا تحبنى .

وكانت الصخرة تبعد مسافة مرحلتين عن القرية فنضطر إلى قطع أربعة مراحل ذهاباً وإياباً . وما كانت بريجيت تخاف السير فى الليل فكنا نجعل مجيئنا عند الساعة الحادية عشرة لنعود منها عند بزوغ الفجر . وكانت فى هذه الرحلات ترتدى سترة زرقاء وسروال رجل قائلة إن أثوابها العادية لا تليق لمثل هذه المغامرات بين الأشواك . وكانت تتقدمنى على الطريق الرملية بخطوات ثابتة فأرى فيها ليونة الأنوثة تشدها أقدام الطفولة ، فما أتمالك نفسي من الوقوف فى كل فترة لأنظر إليها معجباً وهى مندفعة فى سيرها كأنها مقدمة على القيام بواجب صعب تفرضه عقيدة مقدسة .

وكانت وهى مندفعة إلى الأمام منشدة بأعلى صوتها كالجندى المهاجم تقف بغتة لتعود أدراجها إلىّ مدغدغة وجهى بقبلاتها .

وفى عودتنا كانت تتكىء على ساعدى فلا تركض ولا تغنى بل تناجينى بعبارات رقيقة تسرها إلى بصوت خافت كأنها تحاذر أن يسمعها أحد ونحن

نمشي منفردين في الأماكن المقفرة ، ولا أذكر أن كلمة واحدة من هذه الأحاديث شذت عن دوائر الحب والولاء .

وسلكنا في إحدى الليالي مسلكا نحو الصخرة افترضناه في الغاب غير المسلك المطروق ، فذهبت ريجيت أمامي تختط السبيل وعلى رأسها قبعة صغيرة من القطيفة تنفر من تحتها غدائر شعرها الأشقر ، نخيل إلى أنها ليست امرأة بل غلاماً يافعاً يقتحم الصعاب . ولكم سبقتها في تسلق الصخور فعلقت بنتوآتها مستنجدة بي وقد عجزت عن الارتقاء ، فكنت أرجع إليها لآخذها بين ذراعي قائلاً : أنت ياسيدتي من أبناء الجبال ، لك القوة والرشاقة ، ولكني لا أرى بدأً من حملك بالرغم من عصاك الثقيلة وحذائك المصفح .

وصلنا إلى محجتنا وقد تهدجت أنفاسنا وكنت شادًّا حقويّ بنطاق تتدلى منه قربة ، وإذ طلبت ريجيت مني هذه القربة ، تبينت أنها سقطت مني مع زناد كنا نقدحه لإنارة معالم الطريق وقراءة لوحاتها حذراً من الضلال ، وكثيراً ما كنا نضل فأتسلق الأعمدة وأقدح الزناد مراراً فأتمكن من قراءة ما كتب في أعلاها

وقالت ريجيت : علينا أن نمضي الليل هنا فقد أضعنا الزناد وأنا متعبة من طول السير ؛ غير أن هذه الصخرة قاسية فلنلق عليها من الأوراق اليابسة ما يحولها إلى فراش وثير

كانت هذه الليلة من أروع الليالي سكوناً وجلاءً وقد زادها روعة ظهور القمر من ورائنا فعلقت ريجيت أنظارها عليه وهو يتملص على مهل من سواد الأشجار المكللة أعلى الرابية ، وانطلقت توجه إليه إنشادها ، ولكنها ما رأت الكوكب يتعالى حتى خفت صوتها وأصبحت نبراتها حزينة هادئة فارتمت على كتفي وطوقتني بذراعيها قائلة :

لا تظن أن حقيقة قلبك خافية عليّ فما أنا بلائمتك على ما تحملني من عذاب ، وما أنت بالمذنب إذا خانتك قواك فعجزت عن نسيان حياتك الماضية . لقد أحببتني بكل إخلاص ؛ ولن آسف ، ولو قتلني حبك ، على استسلامي إليك . لقد ظننت أنك ستبعث حيا بين ذراعيّ فتسلو من أوردتك الهلاك من النساء

ولقد تلقيت بالابتسام ما اعترفت لي به من اختبارك الحياة وأنت تسرد ما مرّ عليك متباهياً كالأطفال في غرورهم لأنني اعتقدت أن إرادتي ستكفي لهدايتك ، وأن قبلة واحدة على شفتيك ستجذب إليهما ما ثوى من قلبك . لقد اعتقدت أنت أيضاً اعتقادي فضللنا كلانا .

إن في قلبك جرحاً يتمرد على الشفاء فقد نالت المرأة التي خدعتك مالم أنله أنا من حبك ، وها إن حبي المسكين لا يقوى على محو صورتها من تذكارك وإذا كان إخلاصي لك لا يجديك نفعاً الآن فما ذلك إلا لأن هذه المرأة قد ذهبت في خيانتها إلى أقصى ما تبلغ قسوة الخائنات . ومن يدري ما فعلت الأخريات من بنات الشقاء حتى نفثن السم في أزهار شبابك ؟ إلى أية درجة بلغت الملاذ التي ابتعتها منهن حتى تطلب مني الآن أن أتشبه بهن ؟ وانهن يراودن تذكارك وأنت بالقرب مني ، وذلك أشد ما أقاسيه منك يا بنيّ . إنني أفضل أن أراك مستبداً في ثورة غضبك فترمي بوجهي ما يمكن لك أن تتصوره بي من سيئات وهمية منتقماً لنفسك مما جنته عليك خليلتك الأولى

على أن أراك ذاهباً فى مرضك القبيح وعلى وجهك إمارات المتهتك المستهزئ منطبقة على سحنتك كأنها قناع يحول بين شفتيك وشفتى

لم تحملنى مثل هذا يا أوكتاف ؟ ولم هذه الأيام التى تتناول فيها الحب بأحقر بيان هازئاً حتى بأعذب ما فى استسلامنا من ملذات ؟ ما فعلتْ بأعصابك الحساسة يا ترى هذه الحياة التى خضت عبابها حتى تركت على شفتيك هذه اللعنات تخفق بينهما حتى الآن ؟ إنك تقذفها مرغماً لأن قلبك طيب كريم ، ولأن حمرة الخجل تعلو جبينك فما تتفوه به ، فأنت ولا شك متألم في حبك لى إذ تشاهد ما تحملنى من عذاب

إننى أعرفك الآن ، ولكننى يوم رأيتك لأول مرة على مثل هذه الحال ملكنى رعب يصعب على وصفه لأننى حسبتك مخادعاً يتظاهر بحب لايشعر به

وحقك ياصديق ، لقد فكرت فى اقتحام العدم فى ذلك اليوم ، ومرت على ليلة هى أشد ليالىّ روعاً ويأسا ...

أنت تجهل حياتي ولا تعلم أن اختباراتى في الحياة لم تكن أقل مرارة من اختباراتك . ويلاه ! إن الحياة مريرة لا يستعذبها إلا من يجهلها

لست يا أوكتاف الرجل الأول الذى أحببت فإن فى قلبى حدثاً مشئوما أريد أن تعرفه

كان أبى قرر وأنا طفلة بعدُ أن يزوجنى من ابن وحيد لأحد أصدقائه القدماء . وكان هذا الصديق صاحب أملاك مجاورة لأملاكنا ، وكانت الأسرتان على اتصال دائم ؛ ومات أبى ، وكانت أمى قد ماتت قبله بزمن طويل ، وهكذا بقيت تحت رحمة عمتى التى تعرفها ، واضطرت عمتى إلى التغيب مدة فأسلمتنى إلى والد خطيبى الذى كان يدعوني دائماً بيا ابنتى ، وكان قد اشتهر فى البلد أمر زواجى قريباً بابنه فأصبح هذا يتمتع بأوسع حرية فى معاشرتى

وكان الشاب — ولا فائدة لك من معرفة اسمه — عشيراً لصباى فانقلبت مودة الطفولة بيننا إلى محبة . وكان ينتهز فرصة انفرادنا ليذكرنى بما سنلاقى من سعادة بعد الزواج ويشكو تباريح الانتظار. وكان يكبرنى بسنة ؛ وله صديق من عشراء السوء ينقاد اليه ، فقرر أن يخدع أباه وينكث بعهده بعد إيقاعى فى فخاخه ، وهكذا استغلَّ جهلى وعبث بطفولتى

ودعانا والده ذات صباح ليبلغنا أمام أفراد أسرته أن يوم زواجنا قد تعين . وما أسدل الليل ستاره حتى لقينى فى الحديقة واندفع يشرح هواه قائلا : إنه يعد نفسه زوجاً لى ما دام يوم العقد قد تعين ؛ وإنه فى الواقع زوجى أمام الله منذ كان طفلا ؛ واستعان على بثقتى وجهلى فاستسلمت له قبل أن يعقد له علىّ ؛ غير أنه هجر بيت أبيه بعد هذا الحادث بثمانية أيام هارباً مع امرأة كان صديقه قدمها له ، وأرسل إلينا كتاباً يقول فيه إنه مسافر إلى ألمانيا ، واختفى عنا منذ ذلك الحين

هذه هى قصتى وقد عرفها زوجى كما عرفتها أنت الآن . لقد عزت نفسى علي فعاهدتها فى وحدتي ألا أعرضها مرة أخرى للشقاء . لقد نكثت بهذا العهد عند ما رأيتك فنسيت عهدى ولكنني ما نسيت أوجاعى. إن كلينا مريض يا أوكتاف ؛ فليعالج أحدنا الآخر بلين وتؤدة . أفلا ترى أننى أنا أيضاً أعرف ما هى ذكريات الماضى ؟

ولكم تروّعنى هذه الذكريات وأنت قريب

منى ؛ غير أنني أشد شجاعة منك ، ولعلنى أتفوق عليك بالحزم لأن آلامى كانت أشد من آلامك . لقد كانت حياتي ساكنة هادئة فى هذه القرية قبل قدومك ؛ وكنت وعدت نفسى بألاّ أبدّل من حالها؛ وهذا مايجعل هذه النفس شديدة الشكيمة علىّ . ولكن ما يهمنى كل هذا ، فأنا لك . أفما قلت لى فى أويقات الصفاء : إن العناية قد عهدت إلىّ بالسهر عليك كما تسهر الأم على ابنها فما أنا خليلة لك كل يوم ، فأنا أكثر الأيام أمك لأننى أريد أن أكون أمًّا لك . إننى لا أرى فيك العاشق عند ماترهقنى بالتعذيب ، بل ولداً مريضاً يساوره الحذر أو يستخفه الطرب فأبذل جهدى لمداواته وشفائه طامحة إلى استعادة الرجل الذى أحب وأريد أن أحب إلى الأبد

ورفعت عينيها إلى السماء قائلة :

ليعززنى الله بهذه القوة وهو السميع المجيب لدعاء الأمهات والعاشقات فأتمكن من إتمام هذا الواجب ولو هلكت في سبيله ، حتى ولو أصبحت معزة نفسى المتمردة وقلبى المنكسر وكل حياتى ...

وشرقت بدمعها فاختنقت الكلمات فى صدرها

وإذا هى جاثية على الصخر وقد شبكت أنامل يديها وهزها الهواء كما يهز عاشقات الشجر حولنا

يالها من مخلوقة تجللها العظمة فى ضعفها وهي تتوسل إلى الله من أجل حبها

ورفعتها إلى صدرى قائلا لها : —

أى صديقتى الوحيدة ! ياخليلتى ويا أمى ويا أختى ! توسلى إلى الله من أجلى أيضاً ليهبنى قوة أحبك بها قدر استحقاقك . اطلبى لى الحياة ليغتسل قلبى بدموعك فيصبح قرباناً لادنس فيه نقتسمه أمام الله

واستلقينا على الصخر وساد الصمت حولنا ولمعت السماء فوق رؤوسنا بكل كواكبها ، فقلت لبريجيت : —

أفما تذكرك هذه الآفاق النيرة بأول استسلام ؟

إننى أشكر الله لأننا لم نعد منذ ذلك الليل إلى تلك الصخرة فبقيت هيكلا طاهراً تمر وحدها بخيلتى مجللة بالبياض بين أشباح حياتي

الفصل الرابع

ومررت ذات ليلة بساحة القرية فلمحت رجلين يتحادثان وسمعت أحدهما يقول بصوت بلغ أذنى : إنه يعاملها معاملة سيئة .

فقال الآخر : الذنب ذنبها ؛ فما كان أغناها عن اختيار مثل هذا الرجل الذى لم يعاشر حياته سوى بنات المواخير ؛ أما وقد جنت هذا الجنون فلتتحمل نتائجه .

وتقدمت فى الظلام لأتبين من هما المتكلمان ولأتمكن من استماع تتمة الحديث ؛ غير أنهما لحظا اقترابى فابتعدا .

ذهبت إلى مسكن بريجيت فرأيتها جد مضطربة لمرض جديد انتاب عمتها ، فما زاد حديثنا على بعض كلمات ، وما تسنى لى أن أراها بعد ذلك ، بل عرفت أنها استقدمت طبيباً من باريس . ومضى أسبوع فاذا هي تدعونى إليها لتقول لي إنها فقدت بموت عمتها آخر قريب لها ، وانها أصبحت وحيدة فى العالم ، وستضطر إلى مغادرة القرية .

فقلت لها : وأنا ألست شيئاً معدوداً فى نظرك ؟

فقالت : أنت عارف بحبى لك كما أننى أنا أعتقد بحبك لى فى كثير من الأحيان . ولكن أنى لى أن أعتمد عليك وما أنا إلا خليلتك دون أن تكون أنت

خليلي . وآسفاه ! لكأن شكسبير قدعناك عندماقال: « اصطنع لنفسك رداء من النسيج المتموج لأن قلبك شبيه باليشب يشع بآلاف الألوان » أما أنا فهاك ثوبي وقد ثبت فيه لونه الأسود إلى زمن طويل

— لك أن تبارحي هذا البلد فأنا وراءك أو أنتحر .

وانطرحت جاثياً أمامها :

— أواه يا بريجيت ! لقد حسبت أنك أصبحت وحيدة فى العالم عند ما ماتت عمتك . إن فكرتك هذه لأشد عقاب يمكنك أن تنزليه بي ، فما شعرت قط كما أشعر الآن بسكنة حبي لك . أنكرى هذه الفكرة على نفسك فانها تقتلني وإن كنت أستحقها . أفلا أكون فى حياتك شيئاً معدوداً إلا لإلحاق الضرر بك وتعذيبك ؟

— إننى أجهل من هم الناس الذين يترصدون لنا ، فقد شاعت عنا فى القرية شائعات لها غرابتها فقال البعض : إننى أقضى على نفسى لتساهلي وجنونى. وقال آخرون : إنك رجل قاس يكمن فيك الخطر عليّ . فلا أدري كيف نفذ الناس إلى أقصى سرائرنا فاكتشفوا جميع ما ظننته متجلياً لى وحدى من تقلبك فى معاملتى وما نشأ عن هذا التقلب من تكرر الخلاف بيننا ، حتى إن عمتى نفسها فاتحتنى بالأمر وكانت مطلعة على حالنا منذ مدة طويلة ولم تقل شيئاً ومن يدري ؟ لعل هذه الأشاعات عجلت فى القضاء عليها .

وقد لاحظت برود صديقاتى أو ابتعادهن عنى كلما صادفتهن فى المتنزه . بل إن الفلاحات أنفسهن اللواتى أحببننى كثيراً يهززن اكتافهن عندما يرين مقعدى خالياً فى مرقص الأحد .

كيف يقع هذا ؟ إننى أجهل السبب ولعلك تجهله أنت أيضاً ، وعلى كل يجب أن أسافر فقد عيل صبرى فى هذا الموقف بعد أن مر الموت على مسكنى وأصبحت وحيدة أمام هذه الغرفة المهجورة .

أواه يا صديقي ! لا تتخلَّ عني .

واستخرطت فى البكاء ؛ وتطلعت فإذا فى أرض الغرفة صندوق السفر وجميع ما يدل على الاستعداد له . فاتضح لى أن بريجيت كانت قد عزمت على الرحيل وحدها على أثر موت عمتها دون أن أعلم بخانتها القوى . ورأيت على وجهها دلائل الخور وأدركت صراحة هذا الموقف الذى زججتها أنا فيه ، فما كفى ما تحتمل من العذاب حتى زاد عليه تحقير الناس لها ؛ وما كان الرجل الوحيد الذى يجب أن تستند إليه وتتعزى به إلا منشأ أشد اضطرابها وأفظع ما فى عذابها .

ومثلت سيآتى أمامى فخجلت من نفسى إذ رأيت ما فعلت فى مدى ثلاثة أشهر بتلك الوعود والأمانى . كنت أحسب أن فى قلبي كنزاً فما استخرجت الأيام منه إلا مرارة الغسلين وأشباح أحلام وشقاء المرأة التى أعبدها .

لأول مرة فى حياتى شعرت أننى أجابه ذات الحقيقية وجها لوجه . وما كانت بريجيت توجه إليّ أقل ملامة بل كانت تريد أن تتوارى عن عيانى فتخونها قواها وتقف متأهبة لمصارعة أحزانها . وخطر لي فجأة أن من واجبي أن أتوارى لأنقذها من مصائبها بإنقاذها مني .

نهضت متوجهاً إلى غرفة بريجيت فجلست على

صندوقها مسنداً رأسي بيدى وأنا مضعضع الحواس أنظر إلى ما حولى من رزم لم تزل مفتوحة ومن أثواب مبعثرة على الرياش ؛ وما كانت قطعة من القطع غريبة عني وفى كل ما لمس حبيبتى شيء من قلبي .

وذهبت أحاسب نفسى على ما سببت من شرور فانتصب أمامى خيال بريجيت عندما رأيتها لأول مرة تحت أغصان الزيزفون وجديها الناصع البياض يراكض وراءها . وناجيت نفسي قائلا : — بأى حق تجرأت على الدخول إلى هنا لتتسلط على هذه المرأة ؟ من أجاز أن يتعذب الآخرون من أجلك ؟

إنك تقف أمام مرآتك وتسرح شعرك لتذهب بخمولك تتلمس السعادة قرب خليلة يحيط بها الشقاء فترتمى على المساند التى ركعت عليها موجهة إلى الله توسلاتها من أجلك ومن أجلها فتأخذ راحتيها لتدغدغها ضاحكا ولما تزالا في رجفة الصلاة

إنك لذو مهارة لاشعال جذوة الخيال فى رأس متألم فتندفع إلى الثرثرة محموماً بغرامك كأنك محام يخرج محملق العينين من موقف دفاعه عن قضية خاسرة ، فما أنت إلا الولد الآبق يتلاعب بالألم ويتسلى بالعذاب فيحلو لك أن ترتكب جريمة القتل فى مجلس أنس بوخزات الإبر

بأية كلمة ستقف أمام إلهك الحي عندما تكمل عملك ؟

إلى أين مصير المرأة التى تهواك ؟

إلى أية هاوية تنزلق بهذه المرأة التى تستند إليك ؟

بأي وجه ستقف أمام الشمس عند ما تدرج بيديك فى اللحد عاشقتك الناحلة الشقية كما أدرجت هى آخر سند لها فى الحياة ؟

لاريب فى أنك ستدفع بها إلى الغير لأن محبتك محرقة قاتلة

لقد سلطت على هذه المرأة هاأنجات أعصارك وهى المطالبة بتسكين ثائرها فإذا ما تبعتها فأنت لا شك قاتلها

كن على حذر ياهذا ، فإن ملاك عاشقتك يترصد وقد ألقى ضربة الموت على هذا المسكن ليطرد منه هذه الأهواء الجامحة فى مهب العار . وها هوذا يلهم بريجيت الفرار ؛ ولعل مايسر به إليها هو آخر نجواه

احذر أيها القاتل ، أيها الجلاد فإنك تجاه حياة وتجاه موت

بهذا كنت أخاطب نفسى عندما حانت مني التفاتة فرأيت على المقعد ثوباً مخططاً طوى وأعد ليدرج فى الصندوق ؛ وكان هذا الثوب قد شهد يوماً من أسعد أيامنا فأمررت يدى عليه ولمسته قائلا: أبوسعى أن أفارقك أيها الرداء الصغير ؟ أفتريد أن تتخلى عنى فتذهب وحدك ؟

لا ، إننى لا أقوى على ترك بريجيت ؛ فإذا فعلت فى مثل هذه الظروف كنت غادراً لئيما . لقد ماتت عمتها، وهاهى ذي وحيدة تصدمها سعايات عدو مجهول؛ ولعل هذا العدو مركانسون بعينه . فقد يكون تحدث إلى الناس عن مقابلتى له واستفهامى عن دالانس مستنتجاً من غيرتي ما جعله أساساً لإشاعاته.

ما هذا الرجل إلا حية رقطاء تقطر سمها الزعاف على زهرتى . فعلىّ أولا أن أعاقبه ثم أتحول إلى رد ما سببته لبريجيت من إضرار

ما أشد حماقتي ! فانني أفكر فى التخلى عنها فى حين يجب علىّ أن أكفر عن ذنوبي نحوها فأعوضها سعادة وحباً عما ذرفت من دموع

أما أنا سندها الوحيد فى العالم بل صديقها الأوحد وسلاحها الذى تتق به هجمات الدهر؟ فعليّ أن اتبعها أيان ذهبت فأحميها بجسدى وأعزيها عن حبها واستسلامها لى

ودخلت إلى الغرفة التى بقيت بريجيت فيها وحدها وقلت لها أن تنتظرنى فى ساعة ريثما أعود

فسألتني : إلى أين أنت ذاهب ؟ فقلت : انتظريني. لاتذهبي بدونى واذكرى كلمات راعول : « إلى أية جهة ذهبت سيكون شعبك شعباً لى وسيكون إلهك إلهى فأموت حيث تموتين وأدفن حيث تدفنين »

وخرجت مسرعاً قاصداً مركانسون فقيل لى إنه خرج من بيته . وجلست أنتظر عودته أمام مكتبه الأسود القذر ؛ وطال انتظارى فعاودنى تذكار مبارزتي لأجل عشيقتى الأولى فقلت لنفسى : لقد أصبت بطلقة عيار نارى فجننت وسخر الناس بى فماذا أتيت أفعل هنا الآن ؟ ولن يقبل هذا الكاهن النزول إلى ساحة المبارزة ؛ فإذا ماتحديته أجابنى أن ثوبه يمنعه من سماع أقوالى . وهكذا ينفتح أمامه مجال التوغل فى أحاديثه وإشاعاته على أثر هذه المقابلة

وعلى كل فأية أهمية لهذه الإشاعات وهى تدور على معاملتى لها وعلى عذابها ؟ فهل تعنى هذه الأمور أحداً سوانا ؟ إن خير وسيلة فى مثل هذه الحالة إنما هى عدم المبالاة . وهل بوسع أحد أن يمنع القيل والقال فى القرى ويرد هجمات العجائز عن امرأة تتخذ لها عشيقا ؟

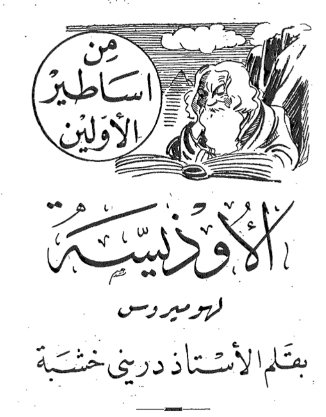
يقولون إننى أعامل بريجيت معاملة سيئة فما علي إلا إثبات عكس الأمر بالتى هى أحسن لا بالزجر والمكابرة . إن تعرضي للمجادلة مع مركانسون وقصدى مغادرة القرية لمن مستدعيات السخرية يجب أن أبقى حيث أنا لأننى إذا تواريت أفتح مجالاً للمتقولين للادعاء بصحة إشاعاتهم

إننى سأبقى ولا أبالى

وعدت إلى بريجيت بعد مرور نصف ساعة غيرت في أثنائها رأيى ثلاث مرات فأقنعتها بالعودة عما قررت بعد أن أخبرتها بما فعلته عندما غبت عنها ، وما توصلت إلى إقناعها إلا بشق النفس ، وهكذا اتفقنا على أن نحتقر أقوال الناس فلا نغير شيئاً من حياتنا . . وأقسمت لها أن غرامى سيعزيها فتسلو به جميع أحزانها ، فتظاهرت بعودة الأمل إليها وأكدت لها أن هذه الحوادث قد جلت لى موقفى منها وأبانت إساءتى ، ووعدتها بتطهير نفسى من جميع ما رسب فى قلبى من جراثيم أيامى الماضيات فلن تتعذب بعد الآن من كبريائى وجموح عواطفى

وطوقتنى بذراعيها وهى تخضع حزينة صابرة لخطرة من خطرات اهوائي كنت أحسبها أنا ومضة من العقل هدتنى سواء السبيل

« يتبع » فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصول السابقة

« عاد أبطال اليونان إلى بلادهم بعد انتهاء حروب طروادة إلا أوديسيوس ملك إيثاكا فقد ضلت به الفلك فى البحر اللجي لأنه لم يعقر القرابين للآلهة قبل إبحاره فوقف له نبتيون رب البحار بالمرصاد وأغرق سفنه وسبح البطل حتى كان فى جزيرة كليبسو عروس الماء التي هويته وأولعت به واحتجزته عندها سنين عدة حتى تحركت الشفقة فى قلب مينرفا ربة الحكمة فسألت أباها كبير الآلهة أن يأمر باطلاق سراح أوديسيوس ففعل وأبحر البطل على رمث من عند كاپبسو — ولمحه نبتيون عدوه الألد فأغرق رمثه ، ولكنه سبح هذه المرة أيضاً حتى كان فى شاطىء شيرا مملكة الفياشيين ، وهناك لقيته ابنة الملك ألكينوس فأخذته إلى بيت أبيها الذى أكرم مثواه وأقام له حفلا كبيراً أبدى فيه أوديسيوس من ضروب الشجاعة ما بهر الفياشيين وخلب ألبابهم ، ولما عرفوا أنه أوديسيوس سألوه أن يقص عليهم ما عنده من قصص فأخذ يسرد قصته العجيبة الرائعة فذكر قيامه من طروادة وغزوه إزماروس ورسوه فى جزيرة اللوتوفاجى — أكلة اللوتس — ونزوله فى أرض السكالب وكيف حبسهم السيكلوب فى كهفه ثم نجاتهم منه بعد أن أكل منهم عدداً وفيراً ، ثم نزولهم بجزيرة الساحرة سيرس التى مسخت بعض رجاله إلى خنازير وما كان من احتياله حتى ردتهم إلى صورهم ، ثم قص رحلته إلى هيدز — الدار الآخرة — وذكر من لقى هناك من أبطال الاغريق الذين قتلوا فى طروادة وكيف كلم شبح أمه وأرواح العذارى اليونانيات ... ثم عاد إلى سيرس وأبحر من عندها مرة أخرى ليصل إلى بلاده ، وما لقى من الهول في طريقه بالصخرتين الموحشتين سكيلا — الهولة التى أكلت ستة من رجاله — وخاربديس التى تبلع البحر وتلفظه — وما كان من رسوه بأرض الشمس واعتداء أصحابه على قطعانها — الأمر الذى أغضب رب الشمس وكان سبباً فى غرق سفينة أوديسيوس وموت جميع أصحابه وكيف نجا من هذا الغرق إلى جزيرة كليبسو » وفى تلك الظروف كان أمراء إيثاكا قد طمعوا فى زوجة أوديسيوس لجمالها الفتان فحاصروا بيتها لتختار من بينهم بعلا لها ولبثوا هنالك أعواماً يريغون من خير البطل ثم ذهب تليماك ابنه الحبيب ليسأل الملوك عن والده فعلم أنه حبيس كليبسو المذكورة — وروع العشاق لما علموا بسفر تليماك فتربصوا له ليغتالوه فى الطريق »

أوديسيوس يصل الى ايثاكا

وفرغ أوديسيوس من حديثه ، وجلس القوم فى الردهة ذات الظُّلَلِ مسبوهين مشدوهين من روعة ما حدث ، ومن غريب ما روى ، حتى تكلم الملك فقال: « أوديسيوس ، يا أيها العزيز ! صفا بالك وطاب حالك ، واستذريت من ذرى هذه القبة الشماء بركن ركين ، فلن ينالك أذى بعد اليوم ، ولن تقدر عليك الرياح الهوج في رحلتك الآمنة إلى بلادك ، وإن يكن مثلك لا يبالى الحدثان ، ولا يأبه لصروف الزمان ، بعد إذ رضع لبانها ، وتقلب طويلا فى أحضانها ... وإنه والله ليس أحب إلينا من أن تقيم آخر الدهر عندنا فتتحسى ما شئت من أكرم هذه الخمر ، وتشنف أذنيك بما يتغنى مطربنا الحبيب الإلهى ؛ وإلا ، فذاك صندوقك العزيز وفيه أذخار

الهدايا وأعز الحلى ، من مطارف الديباج ، ومكنون الذهب الوهاج ... ولكن على رسلك ، هلموا يامعاشر الفياشيين فليحضر كل منكم للنازح الكريم طُرْفةً من أبَرّ الطرَف ، وتحفةً من أجل التحف ، ولتكن ركيزةً من الذهب وأصيصاً صغيراً للزهر ؛ وليساهم الشعب فى هـذا ، ذلك أدنى ألا تطيقوا ثمنها[1] »

وصادفت مقالة الملك هوى فى قلوب السادة زعماء الفياشيين ؛ ثم نهضوا فتفرقوا إلى منازلهم يلتمسون الراحة ، وينعمون بطيب المنام ؛ ونضرت أورورا ابنة الفجر جبين المشرق بأفواف الورد فهب الزعماء العظام من مراقدهم ، وبادروا إلى السفينة بهداياهم التى وصف الملك . وقد كان ألكينوس نفسه ينتظرهم ثمة ؛ وكان يتناول كل هدية بيده فيضعها موضعها الأمين تحت مقاعد المجدفين حتى تكون بنجوة من ضرر يصيبها ، أو أذى يلحق بها ، حين يكون الملاحون مشغولين فيما هم بسبيله من عمل البحر ومصارعة الموج ... حتى إذا أسلموا تذكاراتهم عادوا مع الملك إلى قصره المنيف لوليمة الوداع الفاخرة وقد قرّب إلى جوف الكبير المتعال رب الأرباب ورب السحاب الثقال ، بثور جسدٍ عظيم ؛ وأُعدّ من فخذيه شواء شهي أقبل عليه القوم يأكلون ويرَوّغون[2] ، بينما يسكب فى آذانهم غناءه ديمودوكوس مطربهم الحذق الحبيب . وكان أوديسيوس يرنو بطرفه المشتاق إلى الشمس يود من أعماقه لو عجلتْ إلى خدرها ، وكان يضجره منها جريانها الوئيد ، فهو دائماً يرقب مغيبها بعينىْ ذلك الزارع الشقى الجوعان الذى أجهـده طول النصب فى حرث حقله ، فعلق بصره بالشمس يتمنى لو هبطت فجأة فى المغرب ليلوى أعنة بهائمه إلى كوخه ، وليتبلغ هنالك بلقيمات ! وما كادت تتوارى بالحجاب حتى وجه الخطاب لزعماء الفياشيين فى شخص الملك ، فقال : « مولاى الملك الجليل ألكينوس ! يا فخر شيرا وعماد الفياشيين ! حبذا لو أديت الصلاة الخمرية يامولاي وتفضلت فأذنت لى فى وداعكم ، مادمتم قد أعددتم لى الهـدايا والحلى ، والأبطال الصناديد من رجالكم الملاحين ... وإنى لأضرع إلى الآلهة أن ترعانى في رحلتى فى اليم ، وأن أصل إلى بلادى فألقى فيها آلى وعشيرتى سالمين ، كما أسأل أرباب الأولمب أن ترعاكم وأن تقر أعينكم جميعاً بذويكم ، وأن تفىء عليكم من نعماتها ، وتحفظ بلادكم من عاديات الزمان وملمات الحدثان » وسر الجميع من مقالته فهتفوا له ، ورجوا الملك أن يأذن له فى السفر ، فالتفت ألكينوس إلى مشيره وقال : « هلم يابُنْتُون فأدهق الزق واحمل الخمر إلى جميع أضيافنا ليريقوها خالصةً لوجه سيدى الأولمب ، كى تتأذن لأوديسيوس بالرحيل إلى دياره » ولبي المشير ، وأخذ كل كأسه ، ولم ينتظر أوديسيوس حتى يصل الندمان إلى الملكة المبجلة الوقور ، بل هب مسرعاً وقدم إليها كأسه الهائلة ، وقال : « وداعاً يامولاتى الملكة أحر الوداع ! وداعاً إلى آخر العمر ! وليكن عمراً موفوراً مُخْفرَجاً تقرين فيه بمولاى الملك والسادة النجب أبنائك المحبوبين وشعبك الأمين » وَحيًّا وَبَيًّا ، ثم أهرع إلى المرفأ ومشير الملك يسعى بين يديه ، وثلاث من وصيفات الملكة يتهادين

(١) فى الأصل : يقول الملك إنه سيكلف الشعب بعض الضرائب لسداد الثمن ولا ندرى كيف يسيغ ملك أن يقول ذلك . (٢) يدسمون اللقمة

فى إثره ؛ أما أولاهن فكانت تحمل الثوب الديباجىّ الموشّى ؛ وأما الثانية فكانت تحمل الصندوق الثمين ذا الأذخار ؛ وحملت الثالثة مئونةً حافلةً من أشهى الآكال وأطيب الشراب ... حتى إذا كن عند السفينة ، سلّمن ماحملن للملاحين الشجعان واثنين من حيث أقبلن ... واشتغل بعض البحارة بإعداد فراش وثير فى قمرة خلفية من أجل أوديسيوس ... الذى آوى إلى منامته واستغرق ثمة فى سبات لذيذ ، بينما كان الملاحون دائبين فى فك الحبال ورفع المرساة من صخور الشاطئ ، حتى إذا انتهوا توزعوا إلى مجاديفهم وأعملوا فيها أيديهم ، فهمت الفلك واحتواها الماء ، وأقلعت تشق الأمواج ، واتخذت سبيلها فى البحر سرباً ... هذا بينما كان النائم البرىء قد استسلم لطائف من الكرى يشبه طائف المنون

وعمرك الله هل رأيت أربعاً من صافنات الجياد تتبارى في حلبة ، ، وقد أذن المؤذن فاندفعت تنهب الرحب ، وأرسلت فى الهواء أعرافها ؟ لقد كانت السفينة تتواثب على أعراف الموج مثلها ، والعباب الزاخر يصطخب من ورائها ، واللجة من بعد اللجة تجيش وتضطرب تحتها ، كأنما تتحدى اليم فى طمأنينة وثبات ، أو تسابق فى الجو البواشق البزاة !! وكيف لا ، وقد حملت رجلاً لا كالرجال ، وبطلاً بز الأبطال ، وحكيما ترباً [١] للآلهة فى المكرمات وعظيم الفعال ، وقرناً ليس كمثله قرن في يوم كريهة أو نزال ؛ لم يَغْفُ من قبل هذه الغفوة الناعمة التى باعدت بينه وبين ماتجشم من آلام وأحزان وأشجان ...

(١) الترب بالكسر اللدة أو المشبه

وتلألأت فى الأفق الشرقى نجمة الفجر الصادق ، حينما كانت الفلك قبالة الأرض الموعودة ... إيتاكا ... بعد إذ أتمت رحلتها الخاطفة فى جنح الليل ... وهناك في شاطىء المدينة ، أُنشىء مرفأ أمين باسم فورسيز رب الأعماق يُدخل إليه بين حاجزى أمواج ممتدين على مدى الجون الجميل ، بين ذراعى الميناء ، فما تستطيع ريح أن تعبث بما فيه من سفين وقد بسقت أشجار الزيتون على الشاطىء وامتدت امتداداً هائلاً إلى كهف حرىّ تأوى إليه طائفة من عرائس البحار يقال لها النَّيَاد . وثمة ، أي فى هذا الكهف المقدس ، صُفت أباريق من حجر وجرار كثيرة ، يأتى النحل فيودع فيها شهده ؛ وقامت فيه أيضاً عمد من حجر يقال إن عرائس الماء تنسج عليها أثوابها العجيبة . وفيها أيضاً عيون من ماء زلال تسقى ساكنيه . ويؤدى إلى الكهف طريقان عظيمان ، أُحِل أحدهما للناس يضربون فيه مايشاءون ؛ أما الآخر فلا تطؤه إلا قدم إله كريم ، ويعرف بطريق الجنوب المقدس

ويمم البحارة بفلكهم شطر الميناء ، ثم أرسوا فيه ، وجنحت السفينة بنصف حيزومها على رماله ... وحملوا أوديسيوس الزعيم دون أن يوقظوه ، ووسدوه على فراش [١] وطأوه على الشاطئ ، ثم حملوا كل متاعه وأذخاره فجعلوها إلى جانبه خلف زيتونة ضخمة تحجبها عن أنظار المارة ، حتى لا يعبث بها عيّار إذ هو غرق فى نومه العميق ... وركبوا الفلك بعد هذا وعادوا أدراجهم إلى شيرا ... وأحس نبتيون الجبار رب البحار وعدو أديسيوس الأكبر بما فعل الفياشيون فثار ثائره وقال يعتب على زيوس : « أيها

(١) فى نسخة أنهم حملوه بفراشه

الإلـه الأعظم الأبدى ، أبداً ما أحسبنى أنال نصيبي من التقديس والتبجيل بين الآلهة منذ اليوم ، مادام شعب فياشيا لم يأبهوا أن يحقرونى أو يبالوا بي ، فقد كنت عولت على ابتلاء أوديسيوس بأروع صنوف البلايا قبل أن تطأ قدمه أرض بلاده ، ولم يكن في تصميمى أن أحول بينه وبين العودة إليها لأنك كنت قد وعدت بتمهيد السبيل لهذه العودة ، ولكنهم حملوه على فلكهم غارًّا في أحلى المنام ، ثم حملوه على الشاطئ الإيثاكى بما معه من العطايا والأذخار ، وطرف النحاس ، وتحف النضار ، ومطارف الديباج ، وما حمل من كنوز لم يكن يحمل شيئاً منها حتى لو عاد بنصيبه من أسلاب طروادة ! وا أسفاه ! وا أسفاه ! » وقال يجيبه رب السحاب الثقال : « ماذا تقول يا مزلزل الشطئان والخلجان ، يا ذا الملكوت والجبروت ، يا أيها العظيم نبتيون ؟! لا عليك يا أخى ! لا عليك ، فإنه لن تحقرك الآلهة ولن تستخف بك ! فإذا استخف بك ملأ ضعيف من بنى الموتي — عبادنا البشر — فما يضيرك ؟ أليس في يديك ألف فرصة للبطش بهم والانتقام منهم ؟ اربع عليك يا نبتيون ، وصل ملاذك ، فإنك لست عبداً لأحد » قال نبتيون : « جوف يارب السحاب إنه ليس أحب إلى من أن أبطش بهم كما أشرت ، ولكنى لا أخشى إلا تحديك لى دائماً بغير حق ، وإنى أرجو أن أعصف بسفينتهم فى دأمأي اللجىّ حتى لا يحملوا ضارباً فى البر والبحر مثل أوديسيوس مرة أخرى ، وإنى مقتف آثارهم الآن ، فضارب فلكهم اللعين ، فساحره فى الحال إلى طود عظيم ينهض بروقيه أمام مدينتهم حتى ليحجبها عن كل سارب فى البحر فلا يراها أحد أبدا ! » فقال جوف يجيبه : « هلم يا أخى فاصنع ما بدالك ، وافعل فعلتك التى رسمت ، ولكن ذلك حينما يقتربون من مدينتهم حتى يرى أهل شيرا ما يحل بسفينتهم لتكون لهم آية ! » . وانطلق مزلزل الأعماق فى أثر الفياشيين حتى إذا كانوا قاب قوسين من الشاطئ أرسل يده تحت فلكهم فضربها ضربة هائلة أرسلتها فى الهواء وهوت بها إلى اللج ، ثم تركت مكانها جبلاً عالياً أشم ، ولوى عنانه إلى أرجاء ملكه الرحب

ووقف الفياشيون — ملوك البحار — على شاطئ البحر مسبوهين دهشين يسأل بعضهم بعضا : من ذا الذي أرسى هذا الجبل الهائل مكان سفينتهم تلقاء المدينة حتى ليحجبها عن أنظار السفن العابرة فى اليم ؟ والتفت الملك وكان واقفاً بينهم فقال : « يا للآلهة ! لقد ذكرت نبوءة قديمة قصها على والدى فيما غبر من الزمان ... فلقد ذكر لى أن شعبنا المجيد مأذون له من نبتيون أن نحمل الناس من كل فج ، من ضل سبيله منهم إلى بلادهم مهما تناءت . وقد ذكر أيضاً أن سفينة من سفننا بعد إذ ترتد من رحلة لها إلى بلد رجل غريب نازح ، ستغرق فى اليم ويبسق مكانها جبل عظيم شاهق يحجب شيرا عن البحر ... وها قد تحققت النبوءة ، فهلموا نقرب الإله البحار نبتيون باثنى عشر عجلاً جسداً تكون أعظم عجولنا وأعلاها قيمة ، عسى أن يرثى لنا فيكشف عنا هذه الغمة ولا يحول بين البحر وبين مدينتنا بهذا الطود الكبير الراسى . وتفزع زعماء الفياشيين ، وبادروا إلى عجولهم فجزروها باسم نبتيون ، وتكبكبوا حول مذبحه فصلوا له ، وسبحوا بذكره ... أما أوديسيوس فقد هب من نومه وهو لا يدرى أين هو ؟ ومع أنه كان ينام ألذ النوم فوق شاطئ بلاده ، فإنه لم يعرفها

لطول ما شطت به النوى ولأن مينرفا الكريمة ، سليلة چوف العظيم ، كانت قد ألقت حوله ظلالاً تحجبه عن أعين المارة مخافة أن يعرفه أحد منهم قبل أن تلقنه من حكمتها ما هو ضرورى له فى حالته هذه ... كأنما أرادت ألا يستبينه أحد من مواطنيه ولا من أصدقائه وذويه حتى يبطش البطشة الكبرى بالعشاق الفُسّاق الذين استباحوا عرضه واستحلوا بغير الحق زاده وخيره ، وعمروا كالشياطين داره ..

لذلك موّهت مينرفا كل شيء فى عينى أوديسيوس فالطرق مستقيمة مستطيلة ، والموانئ رحبة مترامية ، والجبال ذاهبة فى السماء ، والدوح باسق يطاول الجوزاء وكل شئ ليس كأى شيء مما عهده البطل فى بلاده ..

ووقف يقلب عينيه فى المشاهد المحدقة به ، ثم تنهد من أعماقه ، وبسط كفيه إلى السماء ، وضرب بهما فى برم على نخذيه ، وأنشأ يقول : « ويلاه علىّ وألف ويل ! أى شعب من الشعوب يقيم بهذه الأرض ترى ؟ أأجلاف ظلمة هم ، أم أطهار أخيار يخبتون للآلهة ؟ ليت شعرى أين أخبىء هذه الكنوز والأحراز ؟ وَىْ ! بل أيان أذهب أنا ؟ لعمرى لقد كنت أوثر ألا أنال شيئاً منها من هؤلاء الفياشيين على أن أكون قد حللت بأرض ذى نخوة وذى نحيزة من ملوك الأرض غير هذا الملك ألكينوس ، فكان يرسلنى آمنا سالما إلى بلادى ! ماذا أصنع يا ربى ؟ أأترك هذه الثروة الطائلة هنا ؟ أأدعها فريسة حلالا لغيرى من الناس ، وأهيم فى هذه البطحاء على وجهى واأسفاه ! أهكذا يغرر بى الفياشيون فيلقوننى فى شاطئ غير شاطئ بلادى ، وقد وعدوا أن يهبطوا بى مرفأ إيثاكا الأمين ؟ اللهم يا چوف العظيم ، يامن إليه يجأر أبناء السبيل والمهاجرون والمساكين ؛ إنتقم لى يا رب الأرباب من هؤلاء الخونة المبطلين ، ولكن ... يجدر بى قبل كل شئ أن أحصى أذخارى لأرى هل سلبنى منها هؤلاء اللصوص شيئاً ؟ » ثم راح يحصر كنوزه ، فما وجد شيئاً منها ناقصاً أو غير موجود ، وزاد ذلك فى أشجانه ، فأخذ يندب حظه ، ويبكى على ما لقى من زمانه ، وينشج نشيجاً مؤلما لهذه الهجرة الظالمة عن أوطانه وجعل يروح ويغدو على سيف البحر المضطرب ، وحيداً معنى ، ويرسل دموعه وزفراته حتى بدت له آخر الأمر مينرفا فى صورة راع صغير غض الأهاب عجيب الثياب جميل المحيّا ، كأبناء الملوك ، ملتفعاً حول عنقه ومن فوق صدره بشفيف [1] صفيق طُوى حولها طيتين وفى قدميه نعلان متواضعتان ، وفى قبضته حربة ناعمة لامعة ... وكانت مفاجأة سارة فوجئ بها أوديسيوس فخطا خطوات عاجلة إلى الشاب وراح يسائله : « مرحباً أيها الغُرانق الجميل ! لقد كنت أول إنسى ألقاه هنا ، فبحق هذا عليك أن تحمينى وتحمى أذخارى هذه ، وألا تلحق بأينا أذى ! إنى أتوسل إليك كما لو كنت أتوسل إلى أحد الآلهة أن تصدقنى فيما أسألك عنه : أية بلاد هذه ؟ وأى قوم يعيشون فيها ؟ أهى جزيرة آهلة ، أم حَدُور من بلاد مترامية ؟ أخبرنى بأربابك أيها الفتى . »

وقالت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين تجيبه : « أيها الغريب اللاجىء كم أنت ساذج ! كيف تسائل عن هذه البلاد كأنك لست من أهلها ؟ إنها بلاد ذات ذكر فى المشارق والمغارب ، ومنها وإليها تصدر الركبان إلى كل فج ، ثم هى ليست بهماء مجهولة ، بل هى جنة مأهولة ، زاخرة الخيرات

(١) الثوب الرقيق

موفورة البركات ، ففيها أنضر سهول القمح ، وأبهج عرائش الكروم ، وأخصب المراعى الخضر الحافلة بقطعان النَّعم والشاء ؛ تسقى من ماء معين ، وأنهار وعيون ... هذه يارجل إيثاكا ... إيثاكا المباركة ، التى استطالت شهرتها ، واستطار ذكرها حتى ملأ الخافقين ، وجاوز طروادة ذات المجد ، التى لاتبعد شطئانها من آخايا »

وشاع البشر فى نفس أوديسيوس لما سمع الراعى الجميل يؤكد فى لهجة قاطعة أن هذه البلاد هى إيثاكا الموعودة ، وهز السرور أعطافه لما رأى من زهو الشاب وافتخاره بها ... بيد أنه مع ذلك راح يتجاهل ، ويبدى عدم معرفته لهذه البلاد ، ويحاول أن يخدع الفتى عن نفسه ، وما يخدع إلا نفْسَه هو ... قال : « أجل ... لقد سمعت عن إيثاكا فى أقاصى البحار ... والناس يعرفونها حتى فى كريت التى وصلت منها اليوم بعتادى هذا ، تاركاً فيها أبنائى وذوى رحمى ، فاراًّ بنفسى من الفعلة الهائلة التى فعلت ... ياويح لى !! لقد قتلت العدَّاء المعروف أرسيللو بن أيدومين العظيم ، الذى لم يكن يباريه فى سرعة عدوه أحد . لقد حدثته نفسه أن يسلبنى ماغنمت من كنوز طروادة وأسلابها وما حصلت عليها إلا بعد قتال شديدولظى حرب ، وركوب أهوال فى ذاك اليم ... وذاك لأنى أبيت أن أقاتل تحت لوائه ، أولواء سيده ومولاه ، بل قدت فيلقاً من الجند فظفرت وانتصرت ، فكبر عليه هذا ، وحفظها لى ، وأضمر فى نفسه الغدر ، فلما عدنا أدراجنا إلى أرض الوطن ، حاول أن يسرقنى كنوزى ، فأقصدته [1] برمحى فأرديته ، وكان معه زميل له شرير فذبحته ، واستعنت عليهما بدجى الليل ودُجُنَّته ؛ ثم هربت تحت أستار الظلام بأحرازى إلى الشاطىء ، حيث حملتنى سفينة فياشية رجوت ملاحيها أن يبحروا بى إلى شاطىء بيليا ، أو إلى مرفأ إيليس ... لكنهم واأسفاه اضطروا إلى الإرساء هنا لأن ريحا عاصفاً قسرتهم على ذلك ، فوصلنا هنا برغمنا فى جنح الليل البهيم ، ولقينا عناء عظيما فى النزول بالمرفأ الأمين ؛ ومع شدة حاجتهم إلى الطعام ، فإنهم لم يستأنوا ، بل تركونى وحدى ، وأبحروا على عجل ، بعد إذ نمت على الشاطىء من الإعياء ، وبعد إذ حملوا إلى هنا متاعى ... وهم الآن فى طريقهم إلى سيدونيا ... وهأنذا وحدى هنا ، لا أعرف أين أذهب ، ولا أين أمضى !! »

وسكت أوديسيوس .. ولكن الراعى الشاب الجميل أخذ يتحول فى فتون وسحر إلى صورة خلابة أخرى ... لقد أصبح امرأة حسناء هيفاء ... وها هى ذى .. تلك المرأة الحسناء الهيفاء .. تبدو فى صورة مينرفا — ربة الحكمة — التى اقتربت من البطل فى تبسم وظرف ، وأخذت تعبث بلحيته الكثة الشعثاء فى دلال وسخرية ، وراحت بدورها تجيبه : « مرحى أوديسيوس ... مرحى مرحى ! ! ما أحسب أن أحداً — حتى من الآلهة — يفوقك فى مكرك وبراعة حيلتك يا ابن ليرتيس ! ! أما آن أن تقلع عن مراوغاتك التى حذقتها مذ كنت يافعاً وعن توشية الأحاديث الملفقة التى حذقتها واشتهرت بها فى العالمين ؟ ! ولكن ... تعال ... ليدع كلانا ما يحاول أن يزوق به كلامه ، فكلانا بارع فى ذلك صناع ... أنت بفصاحتك . ودقة فهمك وطريف

(١) أقصد : طعن

حيلتك بين الناس ؛ وأنا بحكمتي وقوة تدبيري بين الآلهة ... وما أحسبك تجهل مينرفا ابنة جوف الأكبر ، التي كانت رائدك ورفيقك في كل ما حاق بك من مكروه ... فلقد كنت أقذف الشجاعة في قلبك في مواقف شدتك . كما كنت أثير الحمية في أفئدة الفياشيين الذين وصلوا بك إلى هنا وهأنذي طويت إليك فدافد الرحب لأخلو ساعة بك ، ولأن لي حديث نصح معك ، بودي أن أمحضك إياه ... وقبل هذا ينبغي أن تخبيء كنوزك التي أسبغت عليك بمشورتي ... ثم إني محدثتك عما يتحيفك من أرزاء ، وما يدبر لك من كوارث تحت سقف بيتك ، ونصيحتي أن تحتمل ما يصيبك أول الأمر بقلب جليد وصبر ثابت وطيد ، واحذر أن يعلم أحد ، رجلا كان أو امرأة — بوصولك إلى إيثاكا وحيداً شريداً لا حول لك ، كما وصلت ، بل اصمت كلما حاول أحد أن يتعرفك ، واحتمل الأذى كلما امتدت به يد إليك . » وقال أوديسيوس ، وقد أسقط في يديه : « لله درك يا ربة ! ما أبرعك في تغشية العيون وتضليل الأبصار ، والتشكل في أي صورة شئت ! بيد أنك برغم ذلك حليمة رحيمة كعهدي بك دائماً ألا كم نصرت أبطال أخايا الذاويد ، وأظفرتهم بأعدائهم في ميدان طروادة ... ولكني لن أنسى مذ أقلع أسطولنا من مياه تلك المدينة ، بعد سقوطها في أيدينا أنك لم تظهري لنا قط ، ولم تبادري مرة إلى إنقاذي من إحدى الرزايا التي كانت تحيق بي والتي كنت أحتملها بقلب حديد ، وصبر شديد ، حتى رثت الآلهة لحالي فجعلت لي منها مخرجا وأنقذتني إلى برفياشيا ، حيث أثرت في صدري النخوة ، وأوليتني الشجاعة ، وكنت دائماً دليلي ورائدي ... ولكن ... أصدقيني بأبيك يا ابنة جوف ، هل وصلت حقاً إلى إيثاكا ؟ أم أنا في صقع سحيق عنها وإنما أنت تسخرين مني وتعبثين بي ؟ أصدقيني بأبيك يا ربة ، هل هذه بلادي العزيزة إيثاكا ؟ هل هي حقاً ؟ » وقالت ذات العينين الزبرجديتين تجيبه : « دائماً حذر يا أوديسيوس ، وإلى الأبد يملأ الوسواس صدرك ، برغم ما أوتيت من حكمة وتبيان ورجاحة فكر وسلامة جنان ! بيد أنك معذور يا صاح ، إذ أي رجل لا يتشوف لرؤية زوجه وأبنائه ولا يتحرق شوقاً للقياهم ، بعد هذا النوي الطويل ، والبعد الممض ، والأهوال الجسام الجمة ؟ غير أنه أفضل لك ألا تعلم شيئاً ولا تسأل عن شيء حتى تلمس بنفسك مقدار ما تكنه لك من الحب ، تلك الزوجة الوفية المخلصة التي ذهب شبابها عليك حسرات ، والتي ذرفت دموعها من أجلك آناء الليل وأطراف النهار طوال تلك السنين الباكية الحزينة الموحشة .. إني لم أتركك يا أوديسيوس كما تظن ، بل كنت أعلم أنك راجع دون ماريب إلى بلادك ، وإن فقدت كل رجالك ورفاق سفرك الطويل الشاق ... غير أنني أشفقت أن أثير حنق نبتيون ، عمي وأخو أبي ، الذي يحز الأسى في قلبه من فعلتك التي فعلت بعين ابنه السيكلوب ... ولكن هلم ... إني سأقطع شكك باليقين ، وسأدلك على علائم تؤكد لك أنك في إيثاكا ... فهذه هي ميناء فورسيز حكيم البحار ، وها هي الزيتونة الكبرى عند رأس المرفأ وعلى مقربة منها ذلك الكهف المقدس الإلهي الذي تأوي إليه عرائس البحر المعروفة باسم النياد ، وقد

طالما كنت تجزر القرابين والأضاحي باسمهن عندو صيده،
وهاك جبل نيريتوس وأولئك غاباته الشجراء .. »
ثم رفعت ربة الحكمة الغشاوة عن عينيه فعرف دياره
ولم ينكر شيئاً منها ، وهكذا شاءت العناية أن يشهد
البطل المكدود بلاده الحبيبة مرة أخرى ، وهكذا
خر أودسيوس جاثياً يقبل ثرى الأرض المقدسة ،
ثم رفع يديه يصلي لعرائس الماء كسابق دأبه :
« يا عرائس البحر يابنات جوف الأعظم ، لقد قنطت
قبل هذا من أن أراكن ، فهأنذا أعود إليكن بألف
نذر وألف تحية وسلام ... لكن القرابين الغوالى
إذا مدت أختكن — مينرفا الحكيمة — فى أيامى
وباركت رجولة ولدى ومعقد أحلامى »

وقالت ابنة جوف تؤيده : «تشجع يا أودسيوس
لا طائل لهذه الوساوس التى تعذبك ! هلم ! البدار
البدار ! لنخبئ هذه الكنوز فى أغوار ذاك الكهف
السحيق لتكون في مأمن من عبث عابث ، ثم هلم
أدبر الأمر معك » وانطلقت الربة فى ظلمات الكهف
تتكشفه بينما حمل أوديسيوس أذخاره فوضعها حيث
أشارت مينرفا ، ثم حملت بيديها الجبارتين صخراً
عظيما فأحكمت به غلق المدخل الرهيب . وجلسا عند
أصل زيتونة باسقة ، وشرعا يرسمان الخطط ويحكمان
التدبير لهلاك العشاق الفسّاق المناكيد ، فقالت
مينرفا : « أودسيوس ، يا ابن ليرتيس المجيد ، هلم
فاعمل فكرك الآن في الوسيلة التى تبيد بها أعداءك
الذين لا يستحون ، أولئك العشاق الذين استبدوا
بأسرتك طوال أعوام ثلاثة ، واستباحوا حماك ،
وتكالبوا حول زوجتك كل هذه السنين يغرونها
بالوعود ، ويزخرفون لها الأمانى ، ويعسلون لها كلمة
الفسق ، وهى ما تزداد إليك إلا تحرقاً ، وما ترقأ
دموعها من أجلك ، فتحتال لهم ، وتعد هذا وتوشى
المنى لذاك ، معللة نفسها بعودتك لتسحقهم جميعاً ! »
واستعبر أوديسيوس قليلا وقال : « أوه ! كأن
القضاء الذي أسكت نأمة أجا ممنون يكاد يحيق بى
أنا الآخر فى صميم دارى ! ولكن.. وَىْ ! أضرع
إليك أيتها الربة أن تشيرى على وتنصحى لى وتلقنينى
كيف أثأر من هؤلاء الطغاة ؛ وأتوسل إليك أن تقذفى
فى قلبى الشجاعة كما قذفتها فيه تحت أسوار طروادة ،
فإنى بعونك أدوخ المئين من أعدائى ، مادامت يدك فوق
يدى ، فإنى مستأصل شأفتهم جميعاً » قالت مينرفا :
«اطمئن ياأوديسيوس ، فسأكون معك وإن لم يمتد
إلى طرفك حتى تغتالهم أجمعين ، وحتى تطيح رؤوس
أكثرهم على أرض قصرك ... ولكن تعال ،
ألق بالك إلى ، إنى سأغير من صورتك ، وأحور من
شكلك حتى لا يعرفك منهم أحد ؛ فهاتان الوفرتان(١)
تستطيلان حتى تغطيا كتفيك وحتى تتصلا باللمة(٢)
وسأدثرك بدثار مرقع رث يثير التقزز فى نفوسهم
فلا يمدون أبصارهم إليك ، وسأحدث أوراماً حول
عينيك تزيد فى تنكرك ، حتى ليحسب من يرى
إليك من أعدائك أنك وأهلك بعض المساكين
الذين لا يفتأون يضربون فى الأرض ... على أنه
ينبغى أن تاتى راعيك الأمين (إيوماوس) الرجل
الوفى الذى ما يزال يخلص لك ، ويفى لابنك ، ويؤثر

(١ — ٢) الوفرة مابلغ شحمة الأذن من الشعر واللمة ما ألم بالمنكب منه

بأصفى وده زوجك ... فاذهب إذن إلى جُبيل كورا كس المطل على نبع أريثوزا ، تجد قطعانك ترعى العشب الحلو ثمة ، وتسقى من السلسبيل المجاور ؛ وتجد راعيك الشيخ يتشوف إلى رؤيتك ، فحيه واجلس إليه ، واسأله عن كل ماترى أن تعرف من أنباء بيتك وأهلك وعقارك ، وتلبث معه حتى أعود إليك بابنك من أسبرطة ... ابنك تلماك الذى ذهب يذرع الرحب سائلا عنك ، متحسساً أخبارك حيث حل ضيفاً كريماً على الملك منالوس ، الذى أرسله إلى ليسديمون ليرى هل ما يزال أبوه حيا يرزق ؟ »

قال أوديسيوس : « وا أسفاه عليك يا ولدى !! ولم أيتها الربة المحيطة بكل شيء لم تخبريه أننى حى أرزق وأننى لا بد عائد إليه ، فكنت كفيته بلاء الرحلة فى تيه البحر ، بينا هؤلاء الكلاب يستنزفون ثروته وماله ؟ » فقالت تجيبه : « لا تأس على ولدك هكذا يا أوديسيوس ؛ لقد أرسلته أنا ثمة ينشد الشرق وينشر ذكره بين الناس ... إنه لايلقى عنتاً هناك ، بل هو ينعم بالرعاية فى قصر أتريدس ! واعلم أن فريقاً من عشاق بنلوب يتربصون به ، ويترصدونه فى طريقه ابتغاء أن يقتلوه قبل أن يبلغ أرض الوطن ... ولكن لا ... خاب فألهم ... إنهم لن يمسوه بأذى حتى تكون الأرض قد رويت من دمائهم ، وغيبوا جميعاً فى بطونها ؛ أولئك السَّفلة الذين يستحلون زادك وعتادك الآن » . ثم مَسَّته بعصاها السحرية فبدت عليه بدوات الكبر ؛ فهذا جلده قد تغضن ، وهاتان وفرتاه ولمته قد استطالت حتى بلغ شعرها قدميه ، وها هى ذى تضفى عليه الدثار المرقع الرث ، وهاهى ذى تحدث الأورام حول عينيه وتزوده بمزق قذرة قد علق بها التراب والسخام [1] وها كها تضفي عليه بعد ذلك جلد ظبي قديم غليظ وتدفع إليه بعكازة طويلة يتوكأ عليها ، وتمده بمزود [2] تدلت منه أوشية قبيحة ، وأحيط بسيور من جلد عتيق ...

وافترقا ... فهو إلى حيث يلقى راعيه ... وهى إلى حيث تلقى تلماك فى مملكة ليسديمون .

« يتبع » دريني خشبه

(١) الفحم أو مايعرف بالعامية بالهباب (٢) خرج

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧



الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية

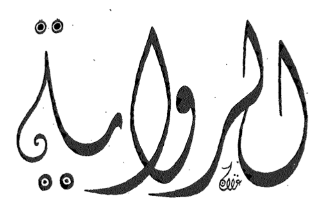
الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الثامن عشر ١١ شعبان سنة ١٣٥٦ — ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٧ السنة الأولى



فهرس العدد



على الشاطئ الشرقى من النيل عند ساحل (أثر النبى) لسان بارز فى النهر يترك إلى يمينه مرفأ متوسطاً على شكل نصف دائرة ، يبدأ عنــد ركنه الجنوبى من جهة الشاطئ هذا اللسان الذى يأخذ فى الصعود حتى ينتهى إلى ربوة مرتفعة يقوم على مسافة من حافتها بناء متهدم لم تبق الليالى منه غير زاوية يمتد أحد ضلعيها فى اتجاه ذلك الطريق الصاعد ، والثانى فى اتجاه مجرى النهر . ويقوم عند ملتقى هذين الجدارين جانب من برج عال متصدع فوق شرفة مستديرة أشبه بمظلة من خشب قديم متفحم . وبأسفل هذه الشرفة (مشربية) كوجه بارز يعلوه فتحتان أفقيتان كالعينين كسا كر السنين زجاجها بطبقة من خضرة مغبرة ، بحيث إذا نظرت بعد منتصف النهار إلى هذا البرج وقد انعكست أشعة الشمس عليه وعلى زجاجه خُيّل إليك وأنت فى وسط النهر أنه شبح قائم فى أعلى تلك الربوة يحدق فى الفضاء بعينين تنتثر من فجوتيهما شرارات خضر . وأما إذا نظرت إليه فى ليلة يطرح القمر على فضائها شبكة من نور وسنان ضئيل تمثــل لك كأنه راهب أشعث فى جلبابه الأسود انتصب فوق تلك الربوة وهو ينظر فى سكون الليل إلى أمواج النهر تتدافع من تحته ولها قصيف متقطع كأنات الحزين تخرج من جوف الماء فتمزق صمت ذلك السكون

ولو أنك رجعت القهقرى إلى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لرأيت رجلاً مقوساً حطمه الكبر وبيضت لمته أحداث الزمن معروف باسم « الشيخ حسن » اعتاد كل ليلة قبـل الفجر أن يسلك رويداً رويداً ذلك الطريق الصاعد وهو يرتكز فى خطواته على قدميه ارتكازاً كأنه يحاول بضغطهما أن يرسم فى تراب الطريق صورة من حمل السنين التى أثقلت ظهره

من عساه أن يكون هذا الشيخ البائس ؟ وما الذى يدفع به كل ليـلة وهو من الضعف بحيث لا تستطيع أن تحمله ساقاه إلى ذلك البرج وكأنه فى خشوعه مُقبلٌ على محراب ؟

طلل من بنى الانسان كان لا تهدأ نفسه إلا إذا سعى إلى زيارة الطلل الصامت وقد كان قسيمه فى أحلام الشباب كما كان قسيمه فى نحوس الأيام !

* * *

فى ذلك العهد كانت هذه المنطقة آهلة بالسكان عامرة بالحركة يقوم فوق ربوتها قصر منيف على الطراز البيزنطى العربى ، له من جهة ذلك الطريق مدخل ذو باب فخم ضخم من خشب السنديان رُكزت فيه مسامير غليظة هى ومقبض ساعته من النحاس الأحمر . وكان له فى جهاته الأربع (مشربيات) رشيقة على مثال (مشربية) ذلك البرج ، كلها من خشب القرو التركى المخروط الضيق العيون مما يساعد على استرواح الهواء الهادئ واستقبال النور اللطيف

وكانت جدرانه من الداخل مكسوة بالقاشانى

المختلف الألوان الجميل النقوش . وسقوفه تزينها زخارف عربية غائرة وبارزة بديعة التنسيق ، بعضها مدهون بألوان يتحكم فيها اللازورد ، وبعضها مموّه بالذهب الهادىء اللمعان . وكان يتدلى منها ثريات مثمنة الأضلاع معلق فى زواياها قناديل مخروطية من زجاج أخضر يتخلله عروق على هيئة أوراق الشجر جميلة الشكل . وبأركان الحجرات أوان من الفخار المحترق المكسو بطبقة من المينا أو من النحاس المنقوش المكفَّت بالفضة أعدت للزهور

أما البسط ومختلف الطنافس والرياش والتحف فلا حاجة إلى محاولة وصفها لأن كل وصف يتناولها لا يسمو مهما بلغ من دقة التعبير إلى الإلمام بحقيقة جمالها ودقتها ؛ ويكفى أنها كانت آية من آيات الصناعة ودليلا ناطقاً بميسرة صاحب الدار وسلامة ذوقه

ولا تنس إيوان القصر وهو بطبيعة الحال يشغل الطابق السفلى على ارتفاع متر من مسطح الأرض ، ويصعد الزائر إليه بثلاث درجات عريضة عند طرفى كل منها أصص من الزهر

ويرتكز سقف الإيوان فى جانبى هذه الدرجات على أربعة عمد أسطوانية من الرخام تيجانها على هيئة نواقيس تربط أبدانها بهذه العُمُد نُطُق من النحاس، وقد توسط أرض الإيوان المزينة بالفسيفساء نافورة رشيقة من المرمر يحيط بها أوان أثرية بها زهور جميلة . وعلى كل حال فقد أعد هذا الإيوان لزوار الدار يقطعون فيه سهراتهم مع صاحبها بين مجامر الطيب وأكواب الشراب وعلى أصوات المغنين وأنغام الدف والطنبور والناى

أما النهر حول هذا القصر فكان بين وقت وآخر يموج بالسفن الشراعية الكبيرة المعدة لنقل الأخشاب والحبوب مما يتجر به صاحبه تجىء بها من الصعيد ومن الوجه البحرى حيث ترسو عند هذا المرفأ وخدام السفن فى حركة لا تنقطع يجرون من هنا ومن هناك لطىّ الشُرُع ولتفريغ المحمول ونقله إلى مخازنه ، وهم يجتازون ذلك الطريق الصاعد رويداً رويداً فى جلبة من الغناء والتهليل

***

فى مستهلّ القرن السادس عشر كان على « حلب » حاكم من المماليك اسمه خير بك لم يغفل السلطان سليم حين وفد إلى مصر عن المساعدة التى قدمها إليه وهو يمده سراً بالميرة والمال فعمَّله على القاهرة بعد أن تم الأمر فى مصر على يده للعثمانيين . فخير بك هذا هو أصل هذه الأسرة والجد الأول لمحمد بك نصر الدين خير ذلك التاجر الذى جئنا على ذكره

وكان لمحمد بك هذا أخ أكبر منه سناً قُتل غيلة فى بعض الليالى فتعهد ولده حسن فى هذه الدار بالرعاية والتربية مع ابنته نادر كُل (أى الورد النادر)

وكانت هذه الفتاة يتيمة من أمها ، ولم يكن لأبيها سواها ، فكانت محببة إليه عزيزة عليه لا يصبر على فراقها ، ويتحاشى أسباب الأساءة إليها أو الغلظة فى معاملتها إلى حدّ أنه لم يفكر يوماً فى التزوج بعد أمها حتى لا يحزنها أو يجرح شعورها . وهكذا نشأت هي وابن عمها الذى أصبح فيما بعد ساعد أبيها الأيمن فى تجارته ، على الألفة والحب

وكان كلاهما على قسط وافر من الوسامة وجانب كبير من حسن التقدير وسلامة الذوق ؛ وقد تجانست ميولها واتحدت غايتهما فكان من ذلك وحدة شفافة متألقة تجعل من زواجهما جنة وارفة الظلال ملؤها النعيم والسعادة

وكانت لاتنظر إلا بعينه ، ولا تنصت إلا بسمعه، ولا يخفق قلبها إلا له وبه ، حتى أنه كان إذا رحل فى

شأن من شؤون التجارة انسدل على وجهها قناع قاتم من الحزن ، وأحست فراغاً موحشاً تضطرب له خواطرها وأحلامها . فتلزم (مشربية) ذلك البرج وترسل نظراتها إلى قبة السماء الصافية لا لتتفقد نجومها ولكن لتظفر في خيالها بذلك الكوكب الأنيس الغائب عنها

وكانت رحلته تمتد أحياناً إلى أسبوعين ، وقد تنتهي فى أقل من ذلك تبعاً لبعد النواحي التي تحمل السفن عروض التجارة منها فكانت تقدر على وجه تقريبي ذلك اليوم السعيد الذى يعود فيه . وعند ذلك تلزم نافذة البرج ترقب منها أشباح السفن النائية وما كانت لتخفى عليها لعلامات فيها تميزها عن غيرها ، حتى إذا ما هلت غمر السرور نفسها ورد إليها بشاشتها والسفن تهتز سارياتها كأنها نشوى ، وتخفق شرعها فوق الماء كأنها مناديل النازحين يلوحون بها من بعيد إشارة إلى العودة واقتراب ساعة اللقاء . ولم لا والسفن والدور والأثاث وكل ما يتصل بالانسان تنبثّ فيه ريحنا ، وتسكنه ذرّات خفيّة من خواطرنا وأحلامنا وأنفاسنا وأرواحنا ، فتصبح كأنها منّا تحس بحسّنا وتشعر بشعورنا ؟

للدّور أرواحٌ تحِنُّ لأهلها
وتطوف من خلل الحواجز حوّما
وضاءةً بهمُ الزمانَ فإن همُ
نزحوا تغشّاها الظلام وخيّما

وهكذا تظل (نادركل) نشوى بهذا القرب حتى إذا دنت السفن من المرفأ ورفع حسن بصره إلى (المشربية) يحييها بغمزة من حاجبيه اندفعت إلى رأس السلّم تستقبله وتطبع على فمه قبلة حارة يغيب صوابهما عندها

وما كان يخاف على أبيها ما توثق بينهما من علائق هذا الحب ، بل إنه كان يشعر بالغبطة كلما اكتشف دليلاً جديداً على توثّقه ، وليس لحسن خير منها ولا لها خير منه وهو ربيبه وابن أخيه والمشرف على إدارة شؤونه

وكانت هى أيضاً لا تجهل نواياه هذه نحوها ونحو هذا الذى كانت لا تشعر بالسعادة إلا إلى جنبه وفى ظل الزواج منه ، ولكنها مع ذلك كانت تفرّ من هذا الزواج فلا تلمّح لابن عمها به ولا تتعجّله فيه ، بل لقد كانت كلما حاول استدراجها إلى الكلام فى أمره أفسدت عليه محاولته وأسرعت فغيرت مجرى حديثه عنه ، ولكن فى أسلوب لين مستطاب لا يشعر عنده بأنها تقصد إلى ذلك

وفى الواقع أنه لمِنَ الغريب أن يجد الجائع سبيله إلى الطعام ثم تعاف نفسه أن تمتد يده إليه ، وإذا سألته فى ذلك انتقلت خواطره فجأة إلى عالم آخر ، وكذلك كانت نادركل إذا خاطبها حسن فى شأن الزواج ظهر عليها الاضطراب وصبغ وجنتيها الخجل ثم انتقلت فوراً إلى هذا العالم وقد دبّ فى نفسها شعور مبهم جعلها تعتقد أنها لن تبلغ أمنيتها من هذا الزواج مع أن كل ظواهر الحياة فى تلك الدار كانت لا تدل على أن هناك عقبة ما فى سبيله . وهكذا كانت إذا همّت تكاشف حبيبها به وقف لسانها فى فمها وأحست كأن يداً خفيّة جبارةً تسترجعها وتحول بينها وبين النفوذ إلى غرضها

أما هذا الشعور فقد خالط خواطرها على أثر ليلة رأت فى حلمها أن أمها سقطت فى النهر وكانت تتوسل إليها وتستصرخها فألقت بنفسها فيه ، ولكن التيار كان شديداً فغلبها وجرفها معها

ولقد نشأت نادركل نشأة صالحة تحفظ كثيراً من آيات الكتاب وتحرص على الصلوات فما ذهب ظنها إلى أن ما رأته كان من قبيل أضغاث الأحلام ، بل لقد استقرّ فى ذهنها أن روح

أمها قلقة عليها منزعجة لها ، وأنها لم تكن غير تلك القوة الخفية التى تجـذبها وتستوقفها والأرواح مكشوفة عنها الحجب فهى ترى فى هذا الزواج ما لا تراه عينها التى غشّت عليها كثافة المادة وملأ فراغها زخرف الحياة . وقد يكون لهذا الحلم أيضاً مجرد معنى التنبّؤ بأن هذا الزواج لن يتم ؛ وعلى كل حال فقد كانت من تلك الليلة وهى تحت سلطان هذا الحلم لا تفارق نافذة البرج ترسل إلى النهر نظرات زائغة حزينة كأنها تفتش فى لججه عن مكان تلك الأم التى كانت تستنجد بها

وكان يخيل إليها تارة أن سطح الماء أخذ يرتفع كأنه تحت تأثير مدٍ قوى ، حتى إذا اقترب من وجهها وهو يلمع كالمرآة أبصرت فيه عينى أمها وقد أخذتا تتسعان وتقتربان ثم تختلطان ، فاذا ما استحالتا إلى عين واحدة كهوة واسعة سحيقة انحدرت روحها إليها وغاصت فى ظلامها

وتارة كانت ترى الماء ينخفض رويداً رويداً ثم يجف فينكشف لها قاع الوادي وقد تبعثرت فيه جثث لفتيات فاتنات ما زلن حافظات لنضرتهن حاليات بعقودهن الملونة وأقراطهن الذهبية ، وعلى شفاههن ابتسامات ، وفى عيونهن استقرار وهدوء ؛ وعند ذلك يذهب خاطرها سريعاً إلى أنهن من عرائس النيل اللائى كان القدماء يزفونهن كل عام إليه

وكانت هذه الخواطر لا تفارقها حتى فى الليالى المقمرة والبدر فى كبد السماء يصب على سطح النهر المرتجف رذاذاً ناعماً من النور فيستحيل إلى قطع مبعثرة متألّقةٍ من ماسٍ متحرك . على أن حسن لم يخف عليه أمرها ولا محاولاتها ، ولـكنه كان فى حيرة ، وهى بالرغم من ذلك تصفيه حبها ولا تـكتم عنه شيئاً من خصائصها حتى كأنه حيالها عند كتاب مفتوح . وقد أدركت نادركل قلقه هذا فأرادت أن تضع حداً لعذابه ، وكانت الفرصة مواتية وقد أقبل عليها وهي لا تزال إلى جانب تلك النافذة

ومما يحسن ذكره هنا أنه كان لأبيها فى تجارته شريك اسمه « احمد أغا » وهو رجل فى الستين من عمره قصير القامة بدين الجسم شاربه الغزير يكاد لطوله يصل إلى أذنيه ، وأنفه كبير معوج كمنقار النسر ؛ أما شفتاه فغليظتان تنفرجان عن أسنان صفر تنخر فيها السوس ؛ وأما حاجباه فـكثيفان يُظلان عينين لا يدرى الناظر إذا كانتا غائرتين أو جاحظتين ، ولـكنهما كانتا تبرُزان كلما توثّب إلى غرض من الأغراض ، وتغوران إذا فـكر فى تدبير أمر من الأمور .

ولقد قضى هذا الرجل حياته تاجراً ؛ وكان بخيلا يحرص كل الحرص على الذهب لأنه فى عينه الغلة التي لا تتأثر بأحداث الزمان . ولذلك كان فى نبوة عن التفـكير فى الزواج أو الانصراف إلى غيره من أسباب اللهو . ولـكنه وقد أثرى واجتمع لديه من سيد المعادن آلاف الدنانير فـكر فى الترفيه عن نفسه ، فكان لا يحلو له السهر إلا عند شريكه ، فوقع نظره مرة على نادركل وأدرك ماهى عليه من الملاحة التى جرت فى ذلك العهد مجرى المثل والناس يطلقون عليها اسم « جمال نادركل » أى جمال الورد النادر ولذلك افتتن بها وتوله فيها . وكثيراً ما كان يطلبها من أبيها والحاضرون من المحسوبين عليه يساعدونه فى ذلك وهو صامت ممسك عن الجواب فيكتفى احمد أغا بذلك وفى هذا الصمت دليل الرضى

وما كان حسن يحضر مجلس عمه ، لأن الأدب التركي ينفر من ذلك ، ولأنه فتى غمر قلبه الصلاح

لا يغشى مثل هــذه المجالس . على أنه سمع ذات ليلة أحمد أغا يلحّ على عمه فى قبول زواجه من نادر ، فاضطرب خاطره واشتغل باله وكاد يمسك بطرف الخيط من سر استخفافها بالزواج

— دائماً إلى جانب هذه النافذة يانادر ؟

— ولم لا وأنا أطلّ منها على هذا النهر الصافي والنسيم يداعب سطحه بأنامله الخفية الناعمة ، والشمس تنسج له من خيوطها الذهبية هــذه الحلة المتموّجة البديعة ، وهذه السفن بشرعها البيضاء تمخر فيه كأنها أوز عائمات ؟

— ولم لا تطلين من نافذتي عينيّ هاتين فـكنت ترين ما أعددته لك بقلبي مما يسمو على كل هذه المشاهد ؟ إنك تجدين فيه محراباً أعددته لعبادة هذا الحسن فيه ، وتجدين جوانبه يغمرها نور غير هذا النور لأنه معنى من معانى حبك ؛ ولـكنك تجدين أيضاً إلى جانب كل هــذا ركناً مظلماً خصصته لشقائى ومدامعي ، وأنا لا أجد معنى للحياة إلا بك وفى ظل رضاك

— وما الذى لمسته فيّ يدفع بك إلى هــذا الركن الذى لم يكن إلا من صنع خيالك . لقد آن أن أفهم إذن أنك لا تزال تجهل ما أحفظه لك فى نفسى من الاعجاب والتقدير

— والحب ؟

— والحب يا حسن

— ولـكن لسانك وحده هو الذى جرى بهذه الكلمة

— بل قلبي الذى أرسل بها إليه ليحملها إليك

— إذن لم تتحولين ؟

— اسمع يا قبلة أملي وخذها مني كلمة صريحة أشهد الله عليها وهى أننى لن أكون فى حياتى يوماً ما لغيرك .

وعند ذلك طرق سمعها نشيد بعض الملاحين فأطلت من النافذة بينما هو فى مكانه ذاهل مفـكر ، ثم التفتت إليه كالظبية تقول : ما أسعد هؤلاء الناس يقضون حياتهم بين المـاء والسماء ويستنشقون من عليل النسيم ما صفا من عواصف الأكدار !

ومرة أخرى صعد إليها ينبئها باقتراب يوم الاحتفال بوفاء النيـل فتهللت على وجهها بشاشة خالطها حزن ، ولـكنها سرعان ما حالت بينه وبين الشعور به سائلة فى استنكار :

— ولم هــذا الاحتفال والنيل فى هذا العام شحيح ؟

— إنها عادة يا نادر

— ولـكن قصد بها تـكريم النيل إذا ما جاد بفيضانه حتى قالوا كما قلت أنت الآن : « الاحتفال بوفاء النيل » فهل حتى مع عدم وفائه يكون استمرار هذه العادة مما لا بأس به ؟

وعنـد ذلك أُرتج عليه ووقع فى حيرة وقد فوجئ بهذا الاعتراض الذى لا رد عليه ولا حيلة فيه ، ولـكنها هونت عليه موقفه قائلة :

— وإذا كانت ظواهر الحال تدل على أنه لا يبشر هذه السنة بفيضان فلم لا يهيئون له عروساً كتلك التى كانوا يزفونها إليه من قديم ؟

وعند ذلك انفجر حسن فى ضحكة طويلة منقطعة وهو يقول : هى أن القوم على استعداد لإحياء تلك العادة من جديد فمن هي التى ترضى الآن بأن تـكون تلك العروس ؟ فصاحت : أنا ... أنا ، فما أبهى هــذا اليوم الذى أنال فيه هذا المجد ، ويقام لى فيه

مثل ذلك المهرجان ويشير إلى الناس عنده من جميع النواحى وهم يتهامسون : تلك هى العروس ، تلك هى عروس النيل

وما كانت اللحظة متسعة ليفعل هول هذه الخواطر فعله فيه لأنها كانت تنتفض كالقصبة وقد تصبب جبينها عرقاً ثم سقطت فوق الوسادة التى إلى جانبها مغشيًّا عليها

* * *

ولقد كان هذا الحادث وما سبقه من الأحاديث كافياً ليضع حسن يده على الحلقة المفقودة من موقف ابنة عمه معه . إنها تحبه وتعبده لاشك فى ذلك ، ولكن هناك إلى جانب هذا الحب حائلا تحاشت الإشارة إليه فى أحاديثها ، وإلا فلم حين ضيق عليها الحصار بصدد هذا الزواج ولم ترَ وسيلةً هذه المرة إلى الإفلات منه تخطته إلي ذكر غيره فقالت : « لن أكون فى حياتى يوما ما لغيرك» لأنه لو لم يكن هناك شخص ثالث يزاحم فيها لما أشارت فى وعدها إليه ولقالت له فى صراحة : « ثق يا ابن عمى أنك لي وأنى لك فلا مانع عندي من هذا الزواج » ولذلك أيقن بأن مطمع ذلك الشريك وصل إلى علمها من طريق آخر

ولقد كان أبوها هو نفسه الذى باح لها به لأنه من زمن غير قصير لاحظ بوادر الخطر على الحالة الاقتصادية في الوجهين البحري والقبلي وقد ازدادت هذه الحالة سوءاً بسبب قلة الفيضان كما شاع أن الجراد أخذ أيضاً يتحفز للهجوم على الصعيد وقد لايلبث أن ينتقل بعد ذلك إلى الوجه البحرى مما ينذر بقحط مروع يعم جميع البلاد

ولقد كانت كل أموال الشركة فى أيدي الناس وقد بدأو بالفعل يمسكون عن الوفاء بها نقداً أوعيناً فرأى من الحكمة لهذه الاعتبارات كلها ألا يتردد فى قبول رجاء شريكه لأنه غنى ، ولأنه رجل الساعة فى تلك الأوقات العصيبة . وهكذا عقد له عليها بصفته ولى أمرها ، ثم اختلى بها ليوقفها على مسلكه وهو واثق — بعد بيان كل تلك العوامل السيئة — من رجاحة عقلها وطاعتها

— أراكِ لا تجيبين يا نادر

— وما الفائدة وقد وقع المحذور ؟

— وهل إذا وضعتُ نفسى فى إحدى كفتى الميزان وكان ابن عمك فى الكفة الأخرى رجّحته علىّ ؟ ...

— كلا . ولكن الذي كان يوضع فى الكفة المقابلة لكفته إنما هو ذلك الصهر الجديد لا أنت ؛ إنه هو الذى بعتنى إليه بيعاً كأننى من بعض السلع أو من سقط المتاع . أوَ نسيت يا أبى أنه هو الذي قتل من قبل أخاك ؟

— إشاعة لم تلبث أن تبددت كالدخان

— وهل ثمة دخان بغير نار ؟ إنه هو وحده الذى قضى على عمى ؛ وهذا أنت تمكنه من القضاء على ولده ومن القضاء علىّ أيضاً . وقد أقدمت على ذلك وأنت هادئ قرير البال ، لأن ابنتك البريئة المظلومة لم يعد لها حساب ولو ضئيلاً فى إحدى هاتين الكفتين

— نادر ...

— ويا ليتك حين فعلت بى ما همّ سيدنا ابراهيم أن يفعله بولده ، كنت مثله فى حسن القصد وما أراد إلا وجه ربه ؛ أما أنت فما أردت إلا وجه هذا المعبود الذى انصرف إليه الناس من دون الله ... المال ...

المال الذى أصبح فى عينيك كل شئ . بل يا ليتك أنت الذي هممت بذبحي بيدك ، فكنت لك نعم الفداء وأنا راضية أضع قبلتي على حد مديتك قبل أن تمتد إلى عنقى . إنك نسيت كل ذلك وتركتنى إلى هذا الغليظ العاتى تدفن شبابى عند شيخوخته القاسية . والآن — بعد أن قضى الأمر — فليكن ما أردت ؛ ولكننى سأعرف كيف أختار القبر الذى أوسد فى ترابه هذا الشباب

— أنت ؟

— نعم

— وكيف ؟

— هذا شأني

— ابنتى ...

— أنا الآن زوجة أحمد أغا ...

وعند ذلك اندفعت إلى غرفتها وأغلقت بابها من دونها . أما هو فحملوه إلى حجرة نومه بين حى وميت

***

وكانت الأخبار ترد من شتى البلدان منذرة بسوء الحال لوقوف حركة الأخذ والعطاء ، وعجز التجار عن الدفع ، والمتعهدين عن تسليم مافى ذممهم من أعلاق التجارة ؛ فلم ير محمد بك إلا أن يقوم ابن أخيه فى الحال يطوف بالمتعاملين معه لإنقاذ ما يمكن تحصيله من الحقوق ، ولذلك كانت رحلته في هذه المرة طويلة شاقة

على أنه ما كاد يمضى على سفره يومان ـ وكان ذلك فى وقت الضحى ـ حتى استحال هدوء المنطقة وما جاورها إلى حركة مدوية ، وقد ارتفعت الأصوات ، وانفجر الصراخ ، وهرع الناس ينقرون بكل مايصادفهم من عصى وقضبان على ما يقع تحت أيديهم من الطبول أو الأوانى النحاسية أو غيرها ، وهم يصيحون : الجراد الجراد ، ثم يهللون ويكبرون

ومن كان ينظر يومئذ إلى السماء — وهى تكاد تشتعل من الحر — كان يرى سحاباً مقبلاً من بعيد، وكان نحاسى اللون مندمجاً بعضه في بعض وهو ينوح كالريح العاتية إذا صادمتها فى انطلاقها غابة كثيفة

وما كان هذا السحاب إلا ذلك الجراد متماسكاً بأجنحته الصلبة المنبسطة — وبالرغم من ذلك الصراخ والتهليل وقرع الأوانى والطبول — فإنه كان يتقدم دائماً نحو هذه المنطقة ، وقد أرسل من تحته على السهل وعلى سطح النهر ظلاً متحركاً فسيحاً ...

ولما أن سامَتتْ تلك الكتلة الرؤوس أخذت أطرافها فى الضمور شيئاً فشيئاً تاركة فيما بينها فراغاً متقطعاً حتى أصبحت كأنها موشاة بخيوط تتدلى منها على هيئة ذوائب . وعند ذلك أخذت تنفصل عنها وحدات كالرذاذ الذى تمطره السحب ، وقد بدأ يتحدد شكلها وتظهر للعين حمرتها ، ثم أعقب ذلك تهتك الكتلة كلها وانهيارها كوابل خشن له صوت أجش مدوّ ؛ فكانت الحقول على مرمى الأنظار مغطاة بطبقة كثيفة من هذا الجراد . وعند ذلك بدأ الاقتتال وقد علا صياح مختلط مزعج ودوت فرقعة وهرس ؛ وكأنما الناس بمعاولهم وفؤسهم يتصارعون مع تلك الأرض المتحركة المائجة

على أن الدور لم تسلم من هذا الضيف الثقيل أيضاً ، فقد كان ينساب إلى داخلها من أبوابها ونوافذها ومداخنها ، وقد أخذ يتعلق بحوامل الأستار ، أو يختبئ فى قماشها وهو يقرضها ويهشمها بينما طوائف منه تثب بين أركان الغرف وتزحف فوق الجدران وقد امتد ظلها إلى جانبها تاركاً فوقها صوراً مزعجة مخيفة

وعند ذلك أيقن محمد بك باستحالة النهوض من هذه العثرة التى قضت على ثروته وآماله . وكان لا يزال مريضاً على أثر تلك الحادثة التى تقدم ذكرها ؛ فكانت هذه الصدمة الجديدة القاضية على حياته ، وقد احتقن وجهه وعسر تنفسه ، ثم سقط فى نوم ثقيل لم يفق بعد منه ...

أما أحمد أغا فكان فارس الميدان يصول ويجول فى الدار بحكم الشركة وبحكم المصاهرة . وكانت نادركل — وهى فى ثوب حدادها — تفكر فى أمر هذا الزوج العاتى معها وفى غيبة حسن عنها ، ولكنها كانت لا يزال أمامها شهر حتى تنقضى مدة الأربعين التى تنتهى بها أيام الحداد ؛ وقد يعود حسن في خلال ذلك فتدبر معه أمر الخلاص من هذا الرجل ، ولكنّ حسناً لم يعد ؛ وأخذ أحمد أغا يلح عليها ويستعجلها ، وهي تسوف وتنتحل المعاذير لهذا التسويف

وفى عصر يوم من الأيام كان فى حانوت الخشب القائم على حافة المرفأ من الجهة المقابلة للدار وبيده مقبض النارجيلة ينفث دخانها منه فى الهواء ، وهو يفكر فى أمر تلك الفتاة الحرون ، ويعجب كيف — وهو القوى البطش القوى السلطان — تغلبه على أمره ، وتضع بينه وبين ساعة العمر التى ينتظرها سداً من تلك الأسباب والمعاذير ؟

وعند ذلك ثارت ثائرته وصعد الدم إلى وجهه فنبذ النارجيلة بعيداً ، ونهض مسرعاً نحو الدار غير شاعر بأن حركته هذه قلبت النارجيلة ، وبعثرت قطع فحمها الملتهبة فوق أرض الحانوت

***

فى تلك اللحظة كانت نادركل عند النافذة والشمس تؤذن بالمغيب ، وقد مدّت على سطح الماء بساطاً وردىّ اللون تتخلله شرارات حمر كأنها فصوص الياقوت . وكانت الريح قد أخذت تشتد مقبلة من الشمال ، وقد كاد يختفى قرص الشمس خلف الأفق ، والأمواج يطغى بعضها فوق بعض وهي ترتطم بالشاطئ تحت نافذة البرج

فى تلك الساعة الرهيبة شعرت نادر بوقع أقدام ثقيلة تقترب مقبلة من جانب السلم ، فانحنت لترى ذلك القادم فإذا به أحمد أغا ، والغضب ينطق فى وجهه ، والشرر ينبثق من عينيه ؛ وكان على غير عادته يحمل فى حزامه الغليظ غدارة وخنجراً برز طرفه فوق سرواله العنّابى فأيقنت أنها عند ساعتها الأخيرة مع هذا الرجل الذى جعل أبوها منه لها جلاداً لا زوجاً

ولم يمض على حواره معها أكثر من دقائق حتى استل خنجره من غمده وانقض عليها كالنمر الجائع

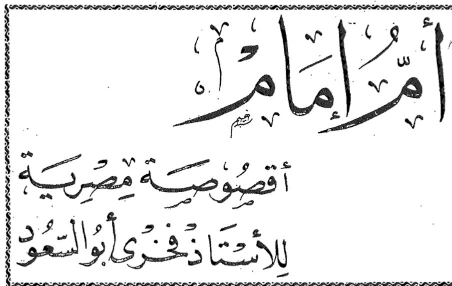
فى تلك اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت أو بين الشقاء والراحة طاف بخاطرها ذلك الحلم القديم وأمها تناجيها وتستصرخها ، فاندفعت من نافذة البرج نحو النهر

وعند ذلك أسرع خلفها من نافذة قريبة منه تطل على المرفأ ، وكان سبّاحاً ماهراً ، ولكنه صادف فى هبوطه مسماراً غليظاً فى حافة زورق مثبت فى الشاطئ فنفذ فى مخه ، فذهب غير مأسوف عليه

وكانت النار قد اتصلت بأخشاب الحانوت وزاد هبوبها اشتداد الرياح ، فالتوت نحو القصر بحيث لم تمض ساعات حتى استحال إلى شعلة هائلة كأنها خارجة من فوهة بركان

وهكذا لم يبق من هذا القصر الذى كان زينة القصور إلا هذا الطلل القائم يندبه حسن ويبكيه !

(القاهرة) **محمود خيرت**



كان القمر يرمي شعاعه من طاقة فى الدار على جسم مضطجع بين الجلوس والرقود ، مشتمل بجلابيب سوداء ، ومضى هزيع من الليل وقامت جلبة بين الأوز فى حظيرته ، فانتبهت صبيحة من غفلتها بين النوم واليقظة ، بين أحلام النوم المخيفة وهواجس اليقظة المؤلمة ، ورفعت الثوب عن وجهها فبدا جميلاً فاتناً أبيض ممتلئاً ، وإن كان الهم والقلق مرتسمين فى عينيها ، وقامت إلى جانب من الغرفة مظلم قليلا ، وكانت تستطيع أن ترى من بعد أن الفراش الذى أعدته هناك كان ما يزال كما أعدته لم يمس ، ولكنها لم تقتنع حتى تحسسته بيدها فوجدته خاليا

وتنهدت واتجهت إلى جانب آخر من الحجرة ، فعثرت بجسم متمدد فأهوت إليه تهزه قائلة : « مبروكة ، بت يا مبروكة ، اصحى يا بت أخوك لسه ما جاش » ، فانتبهت الفتاة بعض الانتباه وقالت : « طب وأنا مالي ؟ حا عمل له إيه ؟ » ومشت صبيحة إلى رف غائر فى الحائط فاستخرجت منه حصيرتها الريفية القديمة العهد ، فالتفت بها وعادت تقلق مبروكة التى كانت قد انقلبت إلى جانبها الآخر وراجعت نومها ، قالت : « قومى يابت نوسيني ؛ قومى نفتش عليه » وهزتها فانفجرت الفتاة غيظاً تقول : « نفتش عليه فين دلوقت والخاليق نايمه ؟ انت انهبلتى والا إيه ؟ »

فلما يئست منها صبيحة صعدت إلى السطح ، وكان ضوء القمر يغمره ويغمر ما عليه من أحمال الحطب و (كيزان) الذرة وأقراص (الجِلَّة) ، ويمتد إلى آخر البلدة . وكان يقوم فى وسط البلدة مئذنتا الجامع القبلى وجامع العمدة البحرى وتتراءى من بُعد أشجار السرو والنخيل ، وانحدرت صبيحة عدداً من الدرجات ومشت إلى الباب وفتحته قليلاً قليلا . فلما تأكدت من انقطاع الرجل خرجت تتلفت يمنة ويسرة ، ثم دلفت إلى الطريق الواسع وكان يسير محاذياً فضاء كبيراً تمتد فيه البيادر ، وما تزال النوارج قائمة فيها كالأشباح القابعة وسط المحصول وتسللت بجانب الحيطان متضائلة ململمة ثيابها لا يبدو منها إلا عين أو عينان حتى صارت على مقربة من دكان قائم بجانب جميزة ضخمة ، تنبسط أمامه بركة واسعة تتلألأ كالفضة فى ضوء القمر الصافى ، ووقفت صبيحة على مدى تستمع إلى حديث القوم المتجمعين أمام الدكان لعلها تميز صوت ابنها ، فقد كان من عاداته أن يسهر هناك ، ولكن لم يطل بها الوقوف حتى لمحها القوم ، وانتصب أحدهم قائماً فسطع ضوء القمر على مقدمة لبدته وفوهة بندقيته المدلاة خلف كتفه ، وصاح : «مين اللي هناك ده ؟ » فارتدت صبيحة على أعقابها مسرعة إلى الدار ، ولكن الخفير ارتاب فى أمرها ولاحقها آمراً بالوقوف مهدداً بإطلاق النار ، فلما

أدركها كشفت عن عينيها قليلاً ونظرت إليه فارتد الرجل القهقرى وقال : « سا الخير يا أم إمام » فسألتـه هل رأى إماماً ؟ فأجابها بالنفى ، فتركته وأسرعت عائدة ، ووقف الرجل يتأملها مليا وهى تبتعد عنه ، ثم عاد إلى رفاقه وهو يتحرق أسى على أن لم يطل حديثه معها أكثر مما كان ، وجعل يصف لأصحابه سحر عينيها وفتنـة منظرها وتأثير كلماتها ويبدئ ويعيد فى ذلك ، وقد أثار وصفه لهفة القوم فاستزادوه ، وراح كل منهم يصف كيف رآها مرة وكيف سحره جمالها ، ولا غرو فقدكانت صبيحة ماتزال تحتفظ بجانب وافر من ملاحتها

* * *

ولدت صبيحة فى بيت عز ، فقد كان أبوها عمدة القرية ثم خلفه أخوها بعد موته ، فنشأت مدللة ناعمة ، وعرفت بالجمال البارع من صغرها ، وجبلت روحها على المرح والحبور ، فكانت قرة عين أهلها ومتعة نفس من رآها ، وكان السرور والضحك يتبعانها حيث ذهبت ، تبتسم لـكل من رأت وتداعب كل من عرفت ؛ على أنها ما كادت تبلغ العاشرة حتى خيف عليها من الحاسدين والأشرار فأسدل عليها الحجاب الذى هو ميزة بنات الأعيان فى الريف ، ولـكن الحجاب لم يتغلب على الحبور المركب فى طبعها ، فكانت تغتنم كل فرصة فى أطراف الليل والنهار لمجالسة أترابها ومفاكهة قريباتها

وتكاثر خاطبوها لما كان يملأ القرية كلها من حديث جمالها ولطفها ، ثم فاز بها مزارع غنى كان أبوها الفانى فى حاجة إلى معونته ليتخلص من بعض ديونه ، وكان ذلك الزوج ، على تقاه واستقامته ، شكس الطباع عبوس الوجه صارم العادات ، لقيت صبيحة المرحة المطراب فى معاشرته عناء ، وكبحت ميولها كبحاً ، وبدأ الوجوم وشرود الذهن يحلان محل مرحها وسرعة بديهتها ؛ وكانت أحياناً تضيق بأفعاله ذرعاً فتغضب وتلوذ ببيت أخيها العمدة الجديد على الرغم منها ، وهناك كانت تقع بين نارين ، فانه لم يكن بين زوجها وأخيها إلا الجفاء والنفور ، وكان كلاهما عنيداً مستكبراً ، فلا هذا يأتى لاسترجاعها ولا ذلك يخاطبه فى شأنها ، وكانت لشعورها بالحرج فى بيت أخيها ترهق نفسها بالامتناع عن الأكل والاحتباس فى بعض الحجرات ، فينال ذلك من صحتها

ورزقت صبيحة من الشيخ ابراهيم ابنتها مبروكة ثم ابنيها جابراً وإماماً ، وإذا كانت الأم تؤثر ابناً على ابن فقد كان إمام لا شك أحب أبنائها إليها ، لأنه كان الأصغر ولأنه على صغره كان يفوق أخاه بسطة جسم ووفرة عقل وشجاعة قلب ، وما تزال تذكر كيف كان فى صغره يتحمل من الآلام ويؤدى من المهمات ما ينكل عنه أخوه ، فهو يوم طُعما ضد الجدري تحمل مبضع الحجام بمنتهى الثبات بينما ملأ أخوه الدار صياحاً ، وهو كان يتطوع بالخروج ليلا لشراء التبغ لأبيه حين يَـفترق أخوه من مجاوزة عتبة الباب ، وهى لا تنسى كيف أرسلتهما يوماً إلى السوق الأسبوعية وعهدت بالنقود إلى جابر لـكبره ، فعادا وقد غبن جابر فى الصفقة ، ولما أراد أن يعطيها بقية النقود اتضح أنه قد فقد الـكيس فى عودته ، فأرسلت إماماً إلى السوق مرة أخرى فأعاد إلى الجزار لحمه النتن ، وفى عودته عثر على الـكيس على قارعة الطريق ، وكان من حسن الحظ أن لم يره أحد من المارة فى ذلك اليوم المزدحم

وازدادت صبيحة تعلقاً بصغيرها لما مات أخوه وصار إمام وحيدها ، وقد واظب أبوه على إرساله إلى مكتب القرية حيث حفظ جانباً كبيراً من القرآن الـكريم ، وكان خاله العمدة يستطيب الاستماع إلى تلاوته ، ولما علم بعزم أبيه على قطعه عن المـكتب واستلحاقه فى عمل المزرعة ، أسف وهم أن يشير على زوج أخته بأن يكمل تعليم ابنه ، ولـكنه كان يعرف

نفسية الرجل ، كان يعلم انه يتعمد مخالفة اشارته كبرياءً وخشية أن يقال إنه ينقاد لآرائه ويأتمر بأوامره لكونه العمدة

وكان للعمدة صديق متعلم من أهل المركز يزوره بين حين وآخر ، وكان يحب إماماً حب العمدة إياه ولا ينسى أن يتحفه بهدية كلما جاء ، وقد ذكر العمدة لصديقه همّام ما اعتزمه أو ما نفذه فعلاً الشيخ ابراهيم ، من قطع إمام عن المكتب وتشغيله في الزراعة ، فنهض همام افندى الى أبي الولد في حقله ، وكان هذا الأخير يجله ويحبه لعطفه على ابنه ، وبعد أن لاطف همامٌ الغلام ودفع اليه هديته المعتادة ، قال لأبيه مترفقاً في الخطاب : « ابنك ده خسارة في الغيط يا شيخ ابراهيم ، ابنك ده ح يبقى باشا انشاء الله ، تعال يا امام باشا ! » فوقع قوله من نفس الرجل موقعاً حسناً ، وبرقت أساريره طرباً وقال : « انت تشوف كده يا حضرة الافندى ؟ » قال : « امال ؟ بإذن الله يمكن مصر تتحرر على يديه ! »

وكان الغلام يعلم أن هماماً يمتدحه امتداحاً كبيراً فأطرق خجلاً وإن لم يدر معنى كلمة « تتحرر » هذه وحار في تفسيرها ، وظنها مشتقة من « الحر » ولم يدر أي علاقة له بمصر ، وإنما ظن أنهم يريدون إرساله إلى مصر القاهرة للتعلم ، وظل بعد ذلك كلما رأى هماماً يتذكر كلمة « تتحرر » هذه ، ويهم أن يسأله عن معناها ، ولكنه ينثني خجلا ، واشترى له أبوه كل ما يلزم ، وتوالى همام إدخاله المدرسة الابتدائية بالمركز ، وانتزع من حضن أمه انتزاعاً ، ولم تكن لترضى بمفارقته لولا صرامة والده التي لا تقبل اعتراضاً ، ولولا لقب الباشوية المنتظر

وغاب إمام عن أمه شهورا ، وكان لا يعود إلى القرية إلا في عطلات العيد ونصف السنة والصيف وكان رغم تفوقه المستمر على زملائه يمقت قيود التعليم ويحن إلى العودة إلى القرية ، إلى الحقول والترع والحرية والنسيم ؛ وكان وهو يتقلب في فراش الداخلية الناعم يتوق إلى الاضطجاع على قبة الفرن ، وإلى الاستيقاظ صباحاً مع الطيور المغردة والأشعة المتوهجة ، فإذا دنا موعد إحدى العطلات راح يعد الأيام عدا وعاد إلى أهله مسرعاً فتتلقاه أمه بذراعيها مفتوحتين وتضمه ضماً طويلاً تشفي قلبها وتدفئ صدرها بقربه

وكان يقضى العطلة في بهجة مستمرة ، يقضى النهار في الحقول يساعد أباه ويقلد الفلاحين في كل ما يفعلون ، يسوق الماشية ويركب النورج ويعزق الأرض ، ويدير البدالة لري الزرع ، ويضطجع معهم ساعة القيلولة تحت ظل الشجر ، ويؤاكلهم ويستمتع بأغانيهم وينصت إلى حكاياتهم ، وهم أشد منه حبوراً بوجوده بينهم ، وأشوق إلى الاستماع إليه . كان يغبطهم على حياة الطبيعة والحرية التي يحيونها ، ويود لو يستبدل الفأس والمقطف بالقلم والكتاب ، وهم يغبطونه على حياة الراحة والدعة والنظافة والتنوّر التي يحياها ويتمنون لو استبدلوها بحياة الكد المستمر

حتى إذا ما قاربت العطلة نهايتها بدأ يعاوده الهم وينكسف باله ؛ وتبدأ أمه في الخبز والطهي والشراء والحزم والربط ، تُعدُّ له زاداً وفيراً من طيبات الريف ينتظره زملاؤه بفارغ الصبر ، وتودعه ويودعها وعبراتهما تجري ، وتظل أياماً بعد ذهابه حزينة القلب دامعة العين ، ويظل أياماً بعد عودته إلى المدرسة وابتداء الدراسة كئيباً آسفاً على دنيا السعادة والحبور التي خلفها وراءه ، مشتاقاً إلى العودة إليها ، مستثقلاً كل علم ، مسترذلاً كل معلم ، نافراً من صحبة زملائه الثراثرة ، ميالاً إلى العزلة ، حتى يتضاءل صدى الريف في ذاكرته شيئاً فشيئاً ، وينغمر في الجو المدرسي من جديد

وإنه ليلعب في الفناء مع زملائه يوماً إذ دعاه ضابط المدرسة وسلمه برقية ، ففضها وقرأها فإذا هي تنعى إليه والده ، فخف سريعاً إلى قريته فوجد

معالم المأتم قد قامت حول داره ، ودخل إلى أمه فقامت إليه تضمه وسط عبراتها المتدفقة ، وكانت قد لبست ثياب الحداد السوداء وشدت على رأسها منديلا أسود بدا فيه وجهها الأبيض شديد الفتنة ، وكانت هي التي أصرت على استدعاء إمام بينما كان خاله العمدة يرى ألا يزعج الغلام بهذا الخبر فجأة ولا يقطع عن دروسه في غير جدوى ، ولكن عاطفة أمه التي أثارها هذا المصاب المفاجئ لم يكن يبردها إلا أن تتعزى برؤية ابنها إمام وضمه إلى صدرها ملياً

استمر المأتم أياماً وتوافد إليه المعزون من أطراف البلدان المجاورة ، ثم انفضت معالم الحداد ومر أسبوع وتلاه آخر ، وإمام وأمه يواظبان على زيارة قبر والده والتصدق على الفقراء عنده وتلاوة القرآن ، وتولى العمدة النظر في شأن الأملاك التي تركها المتوفى ، وترك إمام إليه أمر إدارتها وتأجيرها لمن يشاء ، إذ لم يكن إمام إلى ذلك الوقت إلا حدثاً لا يهتم إلا بمتعات الحياة الروحية ، ولا يلتفت إلى المادة ولا يحفل بالمال ، واستمرأ المقام بالريف واستراحت أمه إلى وجوده بجانبها ، وكانت رؤيته بقوامه المعتدل وزيه الحضرى تملأ نفسها غبطة وتعزيها عن فقدان بعلها ، وهى التى لم تلقَ من بعلها فى حياته ماتطمح إليه أنوثتها من عطف ورعاية

حتى لمح العمدة ابن أخته يوماً يساير بعض الفتيان من سِنّه ، فعجب من استمرار إقامته فى القرية ؛ وفى عصر ذلك اليوم زار أخته فى دارها وألح عليها وعلى إمام فى ضرورة عودته إلى مدرسته ، وكان إمام يهاب خاله ويستحي منه فلم يسعه إلا الإذعان على كرهٍ ؛ بيد أن العطلة الصيفية مالبثت أن حلت وعاد إمام إلى القرية كعادته ، ولم يرجع إلى مدرسته فى مستهل العام الدراسى إلا بعد إلحاف خاله الذى دفع له المصاريف وأعد له كل شيء ، ولكن تكرر بعد ذلك انقطاعه عن المدرسة وعودته إلى القرية ، وكان فى كل مرة يخترع لأمه عذراً مختلقاً ، من ادعاء العطلة أو التظاهر بالانحراف فلا تغلظ عليه بل تسرها رؤيته على كل حال

كان امام قد دخل فى سن المراهقة الذي تتغير فيه طبائع الناشىء تغيراً كبيراً وتتبدل نظرته إلى الحياة ، وكان قد نما جسمه وامتدت قامته وصار شديد العناية بمظهره ، وكان في تلك المرحلة الخطيرة من حياته فى حاجة إلى يد حازمة تلزمه جادة الصواب ، وكان خاله يعلم ذلك ولكن كل جهوده ذهبت هباء أمام حنان الأم الجاهلة المفرط ، وانتهى العام الدراسى بسقوط إمام فى امتحان الشهادة الابتدائية ، وعلم بسقوطه وهو فى القرية فأعلن أنه لا يريد معاودة الدراسة ، وأصر على البقاء فى القرية لإدارة أملاكه التى ورثها عن أبيه

وضرب بنصائح خاله وبغضبه عرض الحائط وتولى بنفسه تأجير الأرض وأشرف على بعضها بنفسه ، وبذل فى ذلك كل جهده ، وأقبل على العمل بحبه المتأصل لأعمال الفلاحة ، وساعده تنوره الذى اكتسبه من الدراسة بحيث نجح فى أعماله فى السنة الأولى نجاحاً طار له لب أمه فرحاً وطال عنقها تيها ، وكان حديث أهل القرية ؛ وفرح له العمدة ذاته وازدهى وزال ما كان بينه وبين ابن اخته من جفاء ، وصار إمام معبود القرية ومكان الاحترام من شيوخها وموضع المحبة من شبانها ، ومطمح أبصار فتياتها ، وما لبث أن صار له من أولئك أصحاب ومن هؤلاء صاحبات

غير أن من صفات الشباب غير المجرب الترجح بين الطرفين ، والتراوح بين النقيضين ، فأعقب النجاح الذى أصابه إمام فى عامه الأول دمارٌ شديدٌ فى عامه الثانى ، فقد اندفع فى طريق الاسراف والتبذير ، وبالغ فى شراء فاخر الثياب وأنيق الأثاث وزاد فأولم الولائم وذاق الخمر وأدمن السهر وغفل

عن شؤونه ، وكانت أمه تنصحه نصحاً ضعيفاً يغري بالتمادي ، وتمانعه ممانعة أنثوية تحرض على العناد والاسترسال ، وكان التعليم الذي ظفر به وحرمته قد رفع عقليته عن عقليتها درجات ، وزاد قوة إرادته على إرادتها أضعافاً ، وأصبح ينظر إليها من عل نظرة يمازجها الرثاء والازدراء

وما راعها إلا أن علمت ذات يوم أن ابنها قد باع فداناً وقبض ثمنه منذ أسابيع ، فهرعت إلى أخيها تستنجده ، فأشبعها تعنيفاً على أن لم تستمع إليه من بادئ الأمر ، وأكد لها أن ابنها لن يفلح إلا أن يعود إلى دراسته ويثابر على ما أعد له وعرض عليها أن يتولى الوصاية عليه ويعيده بالرغم منه إلى المدرسة ، ويتولى عنهما إدارة أملاكهما حتى يشب الفتى فيسلمها إليه ، فارتاحت إلى ذلك الحل وشكرت أخاها ودعت له خير دعاء ، وقصد العمدة من غده إلى المركز واتخذ الاجراءات التمهيدية وقابل بعض أصحابه ليساعدوه على إنهاء العمل بالسرعة المنشودة ؛ بيد أن الخبر تسرب إلى إمام ، فتودد إلى أمه وقدم إليها ما بقي في يده من ثمن الفدان الذي باعه ، وأعلن توبته عن كل ما لا يرضيها وأكد لها أنه سيهجر أصحابه الذين لازمهم في أيامه الأخيرة ويعود إلى الاستقامة التي كانت سبب نجاحه الباهر في عامه الأول ، وخيل الفتى لأمه أن غرض خاله إنما هو الانتفاع بالتصرف في أملاك أبيه ، ثم وضع يده عليها نهائياً

وجاء العمدة بعد أيام يزور أخته ويشرح لها ما اتخذ من خطوات ، وطلب إليها أن تستعد في الغد لترافقه إلى المركز للشهادة وإتمام كل شيء ، فقالت : « أنا مش رايحه ولا جاية ، ح تقعد تجرجرني فين ؟ » قال : « مافيش جرجره ولا غيره ، دى كلمة والرد غطاها ، عشان شغل الميرى كده » قالت : « وأنا إيش زنقني على شغل الميرى ؟ خليني بعيده عن الميرى وشره » ، قال : « مش انت ياولية اللى عايزه الوصاية على ابنك قبل ما يفرتك الفدانين ؟ » قالت : « يفرتكهم يفرتكهم فداه ، وصاية على مين يا خويا خلا الشر ؟ دابقى ماشاء الله طول وعرض . اللى ماحجرنا عليه وهو عيل ح نحجر عليه بعد مابقى أطول منك ؟ »

بهت الرجل لهذا التناقض السريع الذي لا يقدر على مثله إلا النساء ، ولا يكاد يتصوره الرجال ، وكان رغم إخلاصه لأخته وابنها وحرصه على مصلحتهما ، يتوقع بعض النفع من وراء إدارة أملاكهما الواسعة وأحس الآن أن خوف أخته من انتفاعه بالأرض هو سبب تغييرها رأيها ، وغاظه تنبهها إلى نيته ، وهاجه ارتيابها في ذمته ، فقام غاضباً وهو يقول : « أما انت يا صبيحة زدتيها لحد ماخليتى الواحد مش عاوز يبص ف وشك ! ليه ما قلتيش كده قبل ما اسعى واحفى ؟ أودى وشي فين دلوقت من الناس اللى اترجيتهم ؟ معلهش ، النوبة الجاية ابقى تنى ف وشى إذا كنت أنحشر لك فى حاجة والا أعتب باب دارك حتى »

وكان أخوها لا يزور بيتها في حياة زوجها لما كان بين الرجلين من تدابر ، فلما مات الشيخ ابراهيم اصبح العمدة يتردد على صبيحة من حين إلى آخر يؤانسها وينظر في حاجتها ، أما بعد ذلك اليوم فإنه بر بقسمه ولم يدخل بيتها بعد ذلك ، ولا يدخل في شؤونها التي سارت من سيء إلى أسوأ ، فإن إماماً تمادى في غيه ، وأتى التبذير والشراب وزياراته للقاهرة على فدادين أبيه واحداً فوحداً ، فلم ينقض عامان حتى تلاشت تركة أبيه التي تركها باسمه ولم يكتب قيراطاً واحداً منها باسم زوجه ، والتفت الشاب إلى حلى أمه يسرقها تارة ويحتال عليها فيها طوراً ويغتصبها إياها حيناً ، حتى أملقت الأسرة وصارت في شر حال ، وتقلصت عن الدار ظلال النعماء ،

وارتدت كالحة حقيرة المحتويات ، فارغة الحظيرة إلا من بعض دجاجات وأوزات

ولما أعيت إماماً الحيل فى الحصول على النقود اتجر بالمخدرات فربح منها أموالاً طائلة ، وكانت له فى تجارتها مغامرات كثيرة ، واستهدف لأخطار لم يُنجه منها إلا ذكاؤه حيناً ، وإغضاء خاله حيناً آخر ، ثم تمادى فى الفتك فصار يسطو على الدور ويسرق الغافلين ؛ ثم أسرف فصار يؤجر نفسه لمن يريده ليقتل من يطلب إليه قتله نظير عشرات الدنانير وكانت مواهبه الجسمية والعقلية المشهود له بها منذ الصغر خير معوان له على اجتراح آثامه ، وصارت له فى القرية رهبة محوطة بالإجرام ، بعد أن كانت له هيبة محفوفة بالعطف والإعجاب ، ولم يعد أحد يجرؤ على الوقوف فى طريقه ، مخافة لطماته القوية نهاراً ، أو نار بندقيته فى غلس الظلام

***

عادت أم إمام بعد محادثتها القصيرة مع الخفير الذى برز لها من دكان متولى إلى دارها ، ولكن الفزع كان مستولياً على نفسها ، والرحلة القصيرة ونسيم الليل المنعش قد نبها أعصابها ، فلم تحس حاجة إلى النوم، وإنما وقفت برهة وراء الباب الموارب ترقب الطريق ، ثم تعبت فجلست فى مكانها وعيناها شاخصتان إلى الخارج ، ونسيم الليل البارد يضرب حدقتيها وأنفها فتغرورق عيناها بالدموع ، وطال بها الجلوس ومال القمر إلى الأفق وخفت لونه ، ثم تعالى أذان الفجر من المئذنة البحرية يشق أجواز الفضاء فيزيد السكون خشوعاً ورهبة ، وانتبهت أم إمام على صوت المؤذن الصارخ ، فإذا هي كانت قد غلبها النعاس فى موضعها ، وقد حلمت أكثر من مرة أن إماماً قد عاد وأنها عاتبته على طول تغيبه ، وكانت مرة تراه نادماً يعدُها بالإقلاع ، ومرة تراه صاخباً يسكتها ويتهددها وتتابع الأذان : « الله أكبر ! الله أكبر ! »

وجاوبه صدى ضعيف من المؤذن الآخر على الجامع القبلى : «حى على الصلاة ! حى على الفلاح ! » ونهضت أم إمام من جلستها ، وودت أن تستطيع الصلاة ، فتستغفر لابنها وتسأل الله أن يهديه ، وكم توسلت إلى زوجها فى حياته أن يعلمها الصلاة ، فكان يسخر منها ويقول : «ما بقاش إلا النسوان كان رح يصلوا ؟! بكره يعملوك إمامة جامع والا مأذونة !» وإذ حرمت المسكينة هذه الوسيلة للاتصال بخالقها ، لم تجد أمامها إلا الرُّقى والتعاويذ والبخور والنذور ، وقد أنفقت على هذه الأساليب السحرية — قصد هداية ابنها — كل ما استطاعت أن تخفيه عنه من دراهم

وخفقت أقدام الناس فى الطريق مسرعين إلى الجامع ، فلم تر أم إمام بدا من الارتداد عن الباب بعد أن قضت الليل فى عناء ولم تظفر بطائل ، وإذا شاب طويل القامة حسن البزة يلبس (كوفية) بيضاء وحول كتفيه عباءة ثمينة وفى يده (بارودة) ذات (ماسورتين) يندفع إلى الباب ، وقبل أن تراه أم إمام على الضوء الضئيل الذى كان مزيجاً من شعاع القمر الغارب وشعاع الفجر المستهل ، دفع إمام الباب بيده القوية فخبطها الباب فى جبهتها ، فلما تنبه إلى وجودها صرخ فى وجهها : « خبر إيه ياوليه ؟! انت برضك ما مبرّالي هنا زي أم قويق؟! أنا غرضي أفرغ البارودة دى فى بطنك فى يوم من ذات الأيام ! »

ودخل بخطى رحبة قوية ، ودخلت وراءه مهرولة ويدها على رأسها وهى تقول : « الحمد لله ياخويا اللى جيت بالسلامة ! ألف حمد ! دانا كان على نافوخى كابوس وطار ، أجهز لك لقمه ياخويا تاكلها ؟ »

قال : «جاكي سم ف بطنك ! غورى عن وشي بلاش دوشة أنا عاوز أستريح شوية ، وإياك انت والا الغجر بتوعك اللى بييجوا هنا يدوشوني أقوم أقطّع اصداغكم ! » ومشى إلى فراشه الذى كان ينتظره طول الليل ، وعلق البارودة على الحائط ، وأخرج

من جيبه صرة مفعمة وضعها تحت وسادته ، وتنهدت أمه وهي تراقبه ، وخلع حذاءه وجلبابه ، وجر اللحاف على جسمه واستغرق فى النوم

وبدأت خيوط الصباح البيضاء تنتشر فى كل مكان ، وراحت العصافير تسقسق على عيدان القطن الجافة فوق الدار ، ومشت أم إمام إلى ابنتها مبروكة وأيقظتها فى رفق، وأمرتها أن تأخذ (المقطف) وتلحق بزميلاتها ، فقد كانت صواحبها قد وعدنها بالمرور بها صباحاً ليذهبن سويا إلى السوق الأسبوعية ، وخشيت أم إمام أن يزعج ابنها دقهن بالباب ولغطهن. وغسلت مبروكة وجهها فى عجلة وصمت وعبوس ، وخرجت دون أن تحادث أخاها أو يحادثها ، وقلما كانا يتقابلان أو يتحادثان ، بل كان بينهما جفاء ووحشة ، وكانت مبروكة تتقى شره بمجانبته

وظلت أم إمام تروح فى الدار وتجئ وتصعد وتهبط ، تنجز أعمال الدار ، وهى التى لم تعتد معظم حياتها أن تمد يدها إلى خسيس الأعمال التى تزاولها الآن ، حتى اعتدل ميزان النهار ، وجاءت بنت جارتها تستعير منها المنخل ، وشرعت تقص لأم إمام قصة طويلة فطلبت إليها هذه أن تخفض صوتها ، وأخبرتها الفتاة أنها قد عادت من السوق حيث سمعت الناس يتحدثون بمقتل شيخ البلدة المجاورة على يد عصبة من الأشقياء سرقوا معظم ما وصلت إليه أيديهم من أمواله ومتاعه ، فدق قلب أم إمام كعادتها لدى سماعها خبر جريمة أية كانت ، مخافة أن تكون لابنها يد فيها ، حتى لقد صارت إذا حدثها محدث فى أمر جريمة اقترفت تحس كأنه يتهم ابنها أو يتهمها هى بارتكابها وتهم بالدفاع عن نفسها وعن ابنها

وجلست إلى الموقد توقده بعيدان من الحطب و(قوالح) الذرة ، وتروح على اللهب بذيل جلبابها وتنفخ فيه بفمها ، وفكرها سارح فى الأوهام والمخاوف ، وودت أن تنصح ابنها بالإقلاع عن غيه وابتغاء الرزق من وجوهه الحلال ، والرضى بالقليل المبروك عن الكثير المحفوف بالمهالك ، ولكنها كانت تخشى سورة غضبه إذا تقدمت إليه بمثل ذلك المقال ، فجلست تحدث نفسها أمام الموقد بما تود أن تحدثه به وتقول : « ارجع بقى يا ابنى يا حبيبى ! ليه بس الشقاوة دى يا ابنى الله يجازى اللى علموك الشقاوة ! حرام عليك دانا عينى مابقت بتدوق النوم ، طول الليل وأنا قاعدة على العتبة زى الكلبة ! »

وحانت منها التفاتة فاذا إمام واقف وراءها بقامته المديدة مطرق نحوها فى تجهم ، وكان قد سمع طرفاً من حديثها مع الفتاة ونزل السلم قبل أن تحس به أمه ، فلما رأته أجفلت وتفلت فى صدرها

قال : « خبر إيه يا وليه ؟ انت بتخطرفى ؟ »

قالت : « بسم الله الرحمن الرحيم ! طربتنى يا إمام يا ابنى ؟ أنا بجهز لك لقمة أهوه ، احنا بقينا الظهر »

قال : « دفى لي شوية ميه استحمى على ما أوصل لحد دكان متولى وارجع ، وحضرى لى هدومى عشان رايح مصر ، وهمت أن تتكلم وتطلب منه ألا يذهب ، وهمت أن تتبعه ولكنه تركها بخطواته المديدة وخرج

ولم يكد يصل إلى دكان متولى ويطلب تعميره ، حتى أتاه خفير يطلبه لموافاة العمدة فى الدوار ، وفى الدوار وجد ضابطاً وبعض الجنود فى انتظاره ورأى بعض زملائه من الأشقياء مغلولي الأيدي ، ورأى العمدة جالساً يرمقه بنظرة يتطاير منها الشرر ولكنه لم يخف ولم يتلعثم ، وأنكر الاشتراك فى جريمة البارحة أو فى غيرها ، رغم اعتراف الآخرين بعد أن جبهوا بالشهود وصب عليهم الضابط سوط عذابه، وأراد الضابط أن يعامله معاملة الآخرين ، فتطاول على قدميه يريد أن يصفعه ، ولكن إماماً دفع يده فى هدوء وقال : « خليك فى أدبك يا أفندي ولا تمدش إيدك عليه »

ودهش الضابط إذ رأى نفسه هذه المرة أمام شخص متعلم يحترم نفسه ويأبى أن يضرب ضرب

البهائم ، وفيماهو يفكر تقدم إليه شيخ البلد وهمس فى أذنه أن الشاب ابن أخت العمدة ، فبدا الأسف على وجه الضابط ، ونظر إلى العمدة الذى كان مطرقاً صامتاً ، ولم ير الضابط حاجة إلى إطالة الموقف إزاء ثبوت الأدلة ، واستأذن العمدة فى تفتيش دار إمام وعرض عليه العمدة أن رافقه ، ولكن الضابط أعفاه من هذا العمل المؤلم ، وكأنه كان يعلم بيمين العمدة ألا يزور دار أخته أبداً

أدفأت أم إمام الماء كما أمرها ، ولكنه لم يعُد وطال غيابه وعاودها القلق ، فقد كانت حياة المسكينة سلسلة متتابعة من الهواجس والمخاوف ؛ وإنها لكذلك إذ دخل إمام فخفق قلبها ونظرت إليه نظرة البشر والأسف والاستعطاف الممتزجة التى اعتادت أن تستقبله بها ، ولكن ما راعها إلا دخول الضابط وجندى وخفير فى أثره ، وطلب منها ابنها أن تخلى الطريق ، فتقهقرت أمامه مذعورة ، ثم صاحت وهى تنكمش فى بعض الأركان ، وتخفى وجهها بطرف وشاحها : « كده يا إمام مش قلت لك ارجع ! كده جه كلام الأم ف محله والا لأ ؟ تستاهل ! والله بركه ! لاجل تعرف وتحرَّم ! »

وسرعان ما خرج الجميع ثانية وقد حمل الجندى بندقية إمام ورصاصه وصرة النقود التى كانت فى ثيابه ، وما عثروا به من نقود صبيحة المسكينة ، ولم يلبث غضبها الذى ثار على ابنها أن تلاشى ، إذ رأته يخرج أمامها وسط الجنود أعزل صامتا ، فدقت على صدرها وقالت : « يا روحى يا ابنى ! يا عقلى يا خويا ! واخدينك على فين يا ابنى ؟ سايبنى ورايح فين يا امام ؟ » وهمّت أن تخرج جارية وراء القوم ، ولكن خفيراً كان قد تخلف بالباب بإشارة العمدة أو إشارة الضابط ليمنعها من الخروج ، وكان هو الخفير الذى قابلته فى ضوء القمر ، فذابت نفسه حسرة لما رأى فى وجهها الجميل من أمارات الجزع والوله

وذهب المحققون وفيهم العمدة إلى المركز يسوقون الأشقياء أمامهم ، وظل العمدة فى المركز طول النهار فلم يعُدْ إلا فى المساء ، ودخل داره وسار إلى السلم ليصعد إلى غرفته وما فوق همّه هم ولا بعد غضبه غضب ، كان على حالة لا يدانيه فيها ولا يكلمه أحد اتقاء شره ، ولكن أخواته المجتمعات فى فناء الدار وفيهن أم إمام هببْن دفعة واحدة حين رأينه ، وقد قضين اليوم فى مضض وانتظار وتحرُّق إلى أخبار إمام ، وتقدّمْن اليه وفى طليعتهن زوجه التى قالت وهي تمد يدها متذللة : « والنبي يا افندى ! » وعند ذلك انفجر سخط الرجل فركلها بعيداً وصاح فيهن : « إخرسي يا مره إنتى وهيه بلاش دجل نسوان ! سودتوا وشنا قدام الخلق ، جاكوا أرف فى تربيتكو ! يا ريت بايدى وأنا كنت اطلعه المشنقة بنفسى ! »

* * *

وتطاولت أدوار القضية وانتقلت من المركز إلى القاهرة ، وأم إمام فى لوعة وتَلَدُّد لا يهدأ ، تعد الأيام وترقب صدور الحكم كما يرقبه الواثق من البراءة ، وقد تضعضع جسمها فى الحول الذي مضى على ذهاب ابنها ، وذوى جمالها ، وغاض ما بقى من بشرها ، وكان قد تقدم إليها الخاطبون بعد ممات زوجها فردَّتهم جميعاً احتفاظاً بشرفها فإن معاودة الزواج لا تليق بالحرائر في ذلك المجتمع ، لا سيما إذا كان لهن أبناء ؛ وأخيراً أتاها نبأ الحكم وهو السجن خمسة عشر عاماً ، فلطمت خديها وقالت : « يا ضنايا ياعقل امك ياابنى ! كده خالك يرميك الرميه دى يا ابنى ؟! »

قالت ابنتها مبروكة : « وخاله ذنبه إيه ؟ خاله قال لك خليه فى مدرسته كان زمانه اتعلم وبقى واحد أفندى يشرح القلب زى ابن الحاج سرحان ! »

وكان الحاج سرحان هذا هو شيخ البلد ، وكان ابنه مطمع فؤاد مبروكة التى كبرت ولم تتزوج بعد أن تدهورت أسرتها هذا التدهور ، أما العمدة الذى اتهمته أخته برمي ابنها فلعله كان لا يقل عنها كمداً

لذلك الحادث ، لا حزنا على إمام ولكن أسى على ما أصاب شرف أسرته وشرفه من مهانة ، وقد أصيب منذ ذلك اليوم بفالج كان يلزمه الفراش من حين إلى آخر ، وكان الحاج سرحان يقوم عنه بأعمال القرية الرسمية ، ويتمنى موته من يوم لآخر كي يحل محله نهائياً ، وتم له ما تمنى ، فمات العمدة كمداً وكان ابنه ما يزال قاصراً ، فانتقلت العمودية إلى أسرة سرحان

وبذلك اجتمعت المصائب على أم امام المسكينة: فقدت ابنها وضاعت ثروتها ومات ذووها واحداً بعد واحد ، وذوى عودها وانحنى ، وتقدم إلى مبروكة خاطب هو مرسى أحد أصدقاء إمام فقبلته على مضض مخافة ألا تجد سواه من بعده ، وأقامت أم إمام وحدها فى الدار ، وقد تحولت تلك الزهرة اليانعة التى زفت إلى الشيخ إبراهيم منذ نحو ثلاثين عاماً عجوزاً شمطاء يقذيك منظرها وتشمئز من ابتسامها إن هي ابتسمت كما تشمئز من عبوسها ، وما لبثت ابنتها بعد سنوات من الحياة الزوجية المنغصة أن ماتت وفقدت أم امام آخر قريب ، ولم تعد هى نفسها إلا ميتة على ظهر الأرض ، لا حديث لها إلا حديث الحزن والهم والتحسر على مافات ، ولا تنتقل من مأتم إلا إلى مأتم ، ولا يطيب لها إلا البكاء والاشتكاء وزيارة المقابر ، وهى التي كانت في مقتبل عمرها لا تعرف إلا الضحك ولا تألف إلا الطرب

على أن أمل أم امام فى الحياة مازال قوياً كآمال أنضر الشابات وأسعد الفتيات ، يتمثل ذلك الأمل فى إمام ، ويتجمع حديثها حول إمام ، ويتطرق كل موضوع تطرقه معها إلى امام ، فإذا قال لها قائل إن ثمن الذرة ارتفع ، قالت إنه لم يرتفع هكذا منذ ذهب امام ، وإذا سألها سائل ألها مأرب في الحج قالت إنها ستفعل متى عاد امام . فبينما كان إمام بسوء مسلكه فى السجن وتعديه على السجانين يطيل مدة مقامه فيه كانت أمه تقصر هذه المدة في وهمها ، حتى لم يعد بينها وبينه إلا خمسون يوماً ، وكانت دائبة تربى الدجاج والأوز وتتاجر فيها فى كل سوق أسبوعية، وتجمع لها الحشائش من شطوط الترع وأطراف الحقول ، وتقتر على نفسها وتدخر لإمام

وعلمت من سجين عائد أن زيارة ابنها ممكنة، فما هى إلا أن مشت إلى موسى زوج ابنتها المتوفاة تسأله أن يرافقها فى تلك الزيارة ، فأبى وتعلل بكثرة العمل ، ثم رضى على شرط ألا ترافقه وأن يأتيها هو بأخباره ، فاحتفت بصنع أنواع المأكولات وحملها الرجل على حماره ومضى حتى جاوز القرية المجاورة وقد اشتدوهج الظهيرة وخلت السكك من المارة ، وإذا هو يحس إنساناً يتبعه ، فالتفت فإذا أم امام سائرة وراءه ممسكة بذيل الحمار تجتهد فى ملاحقته ، فقال الرجل : « بسم الله من الشيطان ! إنت طلعتي منين يا شيخه؟ » وألح عليها فى الرجوع فلم يفلح، واضطر إلى قبول الأمر الواقع ، وانطلقا حتى بلغا السجن

وسمح لأهل المساجين بالمرور أمام سياج حديدى يطل المسجونون من خلفه ، ولا يسمح باتصال الحديث بين الفريقين أكثر من دقائق معدودة ، ولم يكن إمام متعود أن يزوره أحد ولا كان ينتظر أحدا ولكنه كان واقفاً بين المساجين يتفرج على مايجرى بينهم وبين أقربائهم ، وإذا هو يلمح موسى فجأة فناداه مبتسماً محيياً ، ورأته أمه على ضعف بصرها طويلاً يَفرَعُ الرجال الآخرين عظيم الشاربين يدل منظره على العتو والاعتداد بالنفس ، فلوحت له بيدها صائحة بقول ضاع بين لغط الآخرين : « الحمد لله على سلامتك يا إمام ! إنشاء الله ترجع بالسلامة يا ابنى ! »

ولم يكد إمام يلمحها ويميزها رغم شديد تغيرها فى أعوام سجنه ، حتى انقبضت أساريره وأطبق فمه بعد ابتسام وصاح فى موسى : « إنت جايب دي هنا ليه ؟ روح يا َخىّ ! » ودار وابتعد عنهما وغاب فى داخل السجن قبل أن يستطيع موسى أن يفتح فمه

بكلمة ، فالتفت إلى المرأة وقال : « عاجبك كده؟! » أما هى فكانت تجفف دمعة سرور وأسف معاً جرت على خدها المجعد ، وقالت بصوت يقطعه البكاء : « على رأى اللى قال : قلبى على ابنى انفطر، وابنى قلبه عليّـه حجر ! » وتركا المأكولات تحت رحمة السجانين، وعادت أم إمام منشرحة الصدر قريرة العين ، تخبر كل من تراه أنها رأت إماماً وأنه عائد بعد خمسين يوماً

وكان همام افندى قد نقل من وظيفته فى المركز إلى بلد قاص منذ سنين طويلة ، ولم يشهد تلك التطورات المؤسية التي اختلفت على إمام وأمه منذ غادره غلاماً نجيباً فى المدرسة ، ولعله لو كان حاضراً لـكان له تأثير محمود فى سير الحوادث ، والآن جاء لزيارة صديقه العمدة ففوجئ بخبر موته منذ سنين ، ولم يقابله إلا ابنه الفتى ، وروِّع بأخبار الحوادث سالفة الذكر ، على أنه اختار خير ما فى حقيبته من زجاجات المربى والشهد والعطور ، وعلب الحلوى والصابون ، وطلب من ابن صديقه أن يصحبه إلى دار عمته ليهدى إليها كل ذلك برًّا بها وبذكرى الأيام السالفة

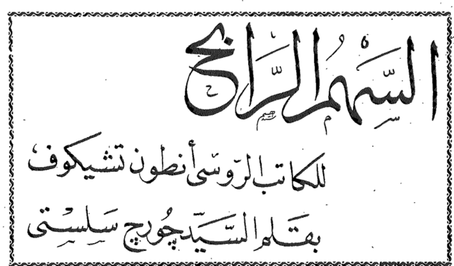
وعارض الفتى فى إهداء كل هاتيك التحف الثمينة إلى تلك العجوز ، وقال لهمام افندى إنها لن تقدرها حق قدرها ، وهل يعرف الحمير طعم الجنزبيل؟ ولـكن هماماً أصر ، وفى الطريق اقتنص الفتى من تلك الهدايا كل ما استطاع أن يدسه فى جيبه ولم يَدُرْ الحديث بين همام وبين العجوز إلا حول إمام طبعاً وحول عودته القريبة ، وأخبرته إخبار الواثق أنه لم يبق على عودة إمام إلا خمسون يوماً ، كانت تقول ذلك لمحادثها وفى وهمها أنها خمسة أيام أو خمس ساعات ، ولم تمس شيئاً من هدايا همام بل احتفظت بها جميعاً لإمام ، يأكل منها ويتطيب يوم عُرسه ، وخبأتها مع ثروتها التى كان يتحدث بها أهل القرية من أبناء الجيل الجديد ، إذ كان كثيرون يعتقدون أن أم إمام تخبيء فى دارها المتهدمة كنزاً ثميناً

وخرج همام من عندها مطرقاً مهموماً يبرم طرف شاربه الأبيض ، وقد هاله ما آل إليه حال أخت صديقه التى كانت من قبل مضرب المثل فى الجمال واليسار ، وأخيراً رفع رأسه وقال للفتى : لقد أذبل الجهل والهم والفقز هـذه المرأة قبل أوانها ، كما أضاع الجهل والاهمال مواهب ابنها هدراً ، وإن من ظلم القدر أن يحظى أمثالنا من متوسطى الذكاء بنعمة التعليم ويتمتعوا بمزاياه ، على حين يخطئه أمثال ذلك الشاب الذي كنت أتوقع له مستقبلاً حافلا

لم يبق على عودة إمام إلا خمسون يوماً : ذلك ما كانت أم امام تحدث نفسها به وهى سائرة على الطريق الزراعية ، تحمل على رأسها قفة قمح تريد أن تطحنه فى (وابور الخواجة) ، وكانت قد ابتذلت حجابها منذ زمان وصارت تسير حافية ، وضعف سمعها وبصرها كثيراً ، وإنها لَتُحدِّث نفسها بالفطائر التى ستخبزها لإمام من ذلك القمح ، إذ دهمتها إحدى السيارات التى بدأت تنتشر إذ ذاك فى الأرياف ، فبطحتها أرضاً وبعثرت قمحها يميناً ويساراً ، وحُملت المرأة إلى مستشفى البندر فاقدة النطق

وبلغ الخبر القرية على لسان بعض المارين الذين شهدوا الحادث ، فأسرع موسى زوج ابنتها إلى المستشفى ، واستعادت المرأة وعيها برهة ، فقال موسى : « شد حيلك يا أم امام ! » فتمتمت كأنها ترجع صدى قوله : « إمام ! » وكان ذلك آخر ما لفظته وأطبقت عينيها إلى الأبد ، وختمت حياتها الحافلة بالعَـناء وكتمان الآلام ، وتجشم القلق والخوف والاصطبار ، ومداراة الأحداث وإنكار الذات ، وطول الـكد والسعي والتعلق بالآمال ، وعاد موسى بجثتها إلى دارها العتيقة ، وتكفل بتشييعها إلى قبرها ، ولاحظ أهل القرية أنه استعاد يسارَه بعد فاقة وعسر ، واشترى قطعة أرض راح يزرعها بهمة واجتهاد

فخرى أبو السعود



لم يكن (إيفان ديمتريش) ميسوراً فى حياته ولا معسوراً ، ولا كان ربّ ثراء يعيش منه فى نعيم ، ولا أخا فاقةٍ يشكو العـوز والفقر ؛ وإنمـا كان يحيا حياة رضيّة هانئة براتب سنوىّ قدره ألف ومائتا روبل . ولم يكن طموحاً بعيد الأحلام بل كان قانعاً بحظه من دنياه راضياً بقسمته منها

ولقد كان جالساً بعد العشاء على الأريكة يتصفح جريدته ويطالع أنباءها عند ماقالت له زوجه وهي ترفع السماط عن المـائدة :

— لقد فاتنى أن أقرأ الجريدة اليوم ، فانظر يا إيفان فلعلّ الأرقام الرابحة منشورة بها فأجابها :

— إنها لمنشورة ، ولـكن ألم يذهب عن بالكِ أن تدفعى بدل الضمان يا ماشا قبل ميعاد السحب ؟ . ثم أنظرى ، ألم تفقديه ؟ !

— لا لم أفقده ، ولقد سدّدت قيمة الضمان يوم الثلاثاء المنصرم

— مارقم السهم الذى تحملين ؟

— رقم السباق ٩٤٩٩ ورقم السهم ٢٦

— حسن ، سنرى ، ٩٤٩٩ و ٢٦

لم يكن إيفان يعتقد أن المرء قد يؤاتيه حسن الطالع فيربح فى النصيب ، ولم يكن ليعتبر هـذا النوع من الأمل إلا ضرباً من الوهم الباطل ، وهو لو كان فى ساعة غير هذه الساعة لمـا أعار قائمـة السحب اهتمامه قط . أما وقد كان فى فترة فراغ ، وكانت الصحيفة بين يديه ، فلا بأس إن هو راجعها ؛ ومن يدري ؟ فقد يسهو الدهر مرة فى العمر عن الزراية به ، وقد يبسم القدر بسمةً واحدة في الحياة ، وقد يكون هذه المرة من أولى الحظ ، فليرَ إذن ولتتبع عيناه جدول الأرقام من أعلاه إلى أسفله واضعاً سبابته تحت كل رقم حتى لا يفوته التدقيق

يا للسعد !

لقد برز الرقم ٩٤٩٩ فى السطر الثاني من الجدول ، ولقد خُيل إليه أن أرقامه ترقص أمام ناظريه ساخرةً من ارتيابه وشكّـه ، هازئةً به وبضعف يقينه وثقته ؛ فأخذته النشوة واستحوذ عليه السرور ؛ ولقد ترك الجريدة تسقط من يديه على ركبتيه دون أن يتحقق صحة ماقرأ ، ودون أن يدقق فيما إذا كان الرقم الذى ذكرته له زوجه مغلوطاً فيه ؛ فقد أحسّ بطراوة منعشة تلج لها صدره ، وبنشوة مثيرة عذبة انتشى لها وطرب

وتمتمت شفتاه بصوت خفيض :

— ماشا ! الرقم ٩٤٩٩ مدرج فى الأرقام الرابحة

وحدقت زوجه فى محياه ، فأدركت من أمائر الدهشة والذهول البادية عليه أنه جادّ فى قوله ، فسرت الدهشة إليها أيضاً وعراها هي الأخرى الذهول ، فسألته وقد امتقع لونها وتركت السماط المطوى يسقط على المائدة :

— الـ ٩٤٩٩ ؟ !

— نعم يا ماشا ، الـ ٩٤٩٩

— ورقم السهم أيضاً يا إيڤان ؟ !

وكأنما كان إيفان فى غيبوبة فأفاق ، وتذكر أن ٩٤٩٩ لم يكن الا رقم السباق وأن عليه أن يرى رقم السهم كذلك ، فتمتم : — آه ! نعم علينا أن نرى رقم السهم أيضاً فلنراجع الجدول إذن ، ولـكن... لحظة من فضلك يا ماشا ، حسبنا لذة الآن وجود رقم السباق فى جدول الربح ، أتفهمين ؟ !

قال ذلك وهو ينظر إلى قرينته ، وقد تجلت على ثغره بسمة عريضة بلهاء كأنه طفل غرير أراه أحد الناس شيئاً يبهر النظر

وبسمت امرأته كذلك ، فلقد كان الأمر لها كما كان له لذيذاً عذباً ، وإن كانت لم تتيقن بعد من معرفة رقم السهم المجدود

وهزتهما الأحلام وهدهدتهما الأماني ، أحلام وأمان ممكنة التحقيق ، فيا للذة المسكرة !

وقال إيفان بعد صمت طويل :

— لقد ظهر رقم السباق فمن المحتمل إذن أن نكون قد ربحنا . إنه محض احتمال ، إلا أنه مستحب

وكأنما عيل صبر زوجته اللجوج فقالت له :

— حسن : لقد آن لك أن تنظر الآن ؟

— دقيقة واحدة فقط ، أتسمحين ؟ إن لدينا من الوقت متسعاً نبتلى فيه بالاخفاق ، ونجابه الحقيقة المرّة إن كنا مخدوعين ، فلم لا ننعم بهذه اللذة السانحة ؟ وصمت لحظة ثم استطرد : وقد تكون أبدية ، فمن يدرى ؟

إن الرقم فى أعلى الجدول وفى السطر الثانى فقيمة الربح إذن خمسة وسبعون ألفاً من الروبلات وليس هذا بالمبلغ القليل ، أجل إنه لثروة !

وألقى على الجريدة نظرة فاحصة كأنما شاء أن يعلم إن كان الرقم ٢٦ موجوداً فيها أم غير موجود ، إلا أنه لم يلبث أن استرجعها دون أن يجلو حقيقة الأمر ، فلقد عز عليه أن يفقد هذه اللذة التى لم يشعر فى حياته بمثلها . وما هي إلا لحظـة حتى تابع القول :

هيه يا ماشا ، اصغي إلىّ . أية سعادة تلك التى ستغمرنا بفيضها الساحر إن كنا قد ربحنا حقاً ؟

فضحكت وضحك معها ثم راحا معاً يتأملان طويلاً فى صمت وهدوء . فاحتمال اقبال السعادة عليهما بوجهها التألق الضاحى بلبلهما وألقاهما فى قلق واضطراب ، فذهلا عن نفسيهما واستسلما للخيال الممتع حتى لم تعد الدنيا لديهما إلا صفحة بيضاء خط عليها بأحرف بارزة كبيرة العددان ٩٤٩٩ و ٧٥٠٠٠

ونهض إيفان من جلسته وجريدته فى يده وراح يتخطر بقامتـه المشوقة وقـد بدت على محياه دلائل التفـكير العميق ولم يلبث أن وقف وقال :

— أجل ياماشا ، أي سرور سيغمرنا إن كنا قد ربحنا حقاً ، وأية حياة جديدة تلك التى سنحياها ، وأى انقلاب سيتناول شؤوننا كافة ؟ إن السهم لك وحدك لا ينازعك فيه منازع ولكن حبذا لو كان لى ؟ إذاً لكنت اشتريت قبل كل شيء عقاراً بخمسة وعشرين ألفاً ، ولبذلت عشرة آلاف لشراء أثاث جديد لمنزلنا ، ولوفاء ما على من دين قليل ، وللسياحة فى بلاد الله الواسعة ؛ وأما الأربعون ألفاً الباقية فأضعها فى المصرف

فأجابته امرأته وقد جلست ويداها على ركبتيها :

— أحسنت يازوجى العزيز ، فالعقار لابد من شرائه ، على أن يكون فى أنحاء (ثولا) أو فى أرباض (الأورول) فنحن لانملك منزلاً نقضى فيه فصل الصيف القائظ ، والعقار عدا ذلك ستدر علينا أرضه الخيرات

وتراكمت فى مخيلته اللوحات والصور ، وكل واحدة أفتن من الأخرى وأعلق بالقلب ، وتخيل نفسه فيها جميعاً يأكل من الأطعمة أشهاها وأهنأها ؛ ويعيش على هواه أرغد عيش وأترفه ، معافى الجسم ، قوي البنية ، مرتاح الضمير ، قرير البال

وتخيل نفسه وقد أخذه الحر الشديد ، غير أنه ما شكا ولا تبرم ، فالمرطبات أمامه والمبردات المنعشة رهن إشارته ، وهو إذ تناول منها ما شاء يرى أن يستلق على ظهره على الرمل المنثور فوق ضفة الجدول الرقراق أو فى الحديقة الوارفة الفينانة ، وقد صحا الجو واعتل النسيم ، وعلى مقربة منه ولداه الصغيران يلعبان معاً على الرمال ويحفران فيها حفراً صغيرة يملآنها بالماء ، أو يلهوان فى أرجاء الحديقة الفيحاء ويلتقطان منها بعض الحشرات من بين الحشائش المخضلة الندية

على هذه الصور الفاتنة غفا إيفان على مهل غير آبه لشيء ولا عابئ بأحد ، وقد شعر من صميم فؤاده بلذة ما بعدها لذة ، وأحس أنه يستطيع أن يفعل ما يحلو له ويطيب ، فهو إذن لن يذهب إلى مكتبه لاغداً ولا بعد غد ، ويرى ليصد عنه النعاس إذا أخذ بمعاقد أجفانه أن يتعهد أصص الورود والرياحين ، أو أن يتجول فى قلب الغابة اللفاء يفتش في حناياها عن الذى يحب ، أو أن يقف على ضفة النهر ينعم بمرأى البؤساء وهم يتصيدون الأسماك

هذا فى الصباح ؛ أما فى المساء ، عند ما تلم الشمس ذوائبها النورانيـة من حواشى الأفق فلا أشهى لديه من الاستحمام فى النهر ، وإنه ليرى نفسه وقد دلف إليه متأبطاً منشفته فما يكاد يصل حتى ينزع ثيابه عنه بتؤدة وبطء ثم يدغدغ صدره العارى بكلتا يديه ما يشاء له أن يفعل . وبعدئذ يلقى بنفسه فى الماء حيث ترتج الأسماك الصغيرة وتهتز ، وحيث تتموج الحشائش المائية وتتمايل مع هبات النسيم الرخىّ ، فيستحم ساعة أو بعض ساعة متنعماً وحده دون الناس أجمعين ، ثم لا يرى بدأ من أن يستجم قليلا وأن يتناول أثناء فترة استراحته شيئاً من الزبدة مع الشاي والكعك ، وما إن ينتهي من

هذا حتى يكون قد آن أوان التنزه في هدأة المساء الرائق ، أو التسلى بلعب الورق مع الصحب والجيران

كان إيفان يسبح من خياله الرحب فى بحر لجيّ عندما قالت له امرأته وقد كانت فى غمرة الأحلام مثله :

— أجل إننا لنحسن صنعاً بشراء عقار يا إيفان.

قالت هذا وصمتت وعيناها عالقتان بالهدف البعيد فما يشك رائيها ساعتئذ فى أنّ الأحلام تسكرها هي الأخرى

وكأنما لم يسمع إيفان ما قالت فما التفت إليها لأنه كان لم يزل يتخيل

وإنه ليرى نفسه فى الخريف ، والخريف فصل حبيب إلى فؤاده ، فهذه السماء مربدة الأفق مكفهرة الأديم ، وهذه الأمسيات كالحة باسرة ، والتنزه فى هذه الفترة من الزمن متعة . فها هو ذا يخرج إلى الحديقة وقد عبثت بأزهارها أيدى الرياح الهوج ؛ وها هى ذى أوراقها الصفراء مبعثرة ها هنا وها هنا كأنها الضحايا أو أشلاء الشهداء فى معترك الشرف فما يتمشى قليلا حتى تنفحه النسمات ؛ وما إن تسرى البرودة فى عروقه وتتمشى فى مفاصله حتى يهرع عائداً إلى منزله فيتناول كأساً من (الفودكا) يدفئ بها أحشاءه ويتلمّظ لقمة أو لقمتين من الخيار المكبوس مع الشمرة أو الفطر الأحمر ثم يجرع كأساً أخرى . . .

وهنا يعدو ولداه عائدين من البستان ومعهما قليل من اللفت والجزر تنث منه رائحة الأرض الرطبة

ويستلق بعدئذ على الأريكة ويطالع على مهل جريدة مصورة ، حتى إذا خدرت أعصاب عينيه واستولى عليه النعاس غطى وجهه بجريدته واستسلم إلى الكرى الهادىء المطمئن بعد أن يكون قد جاء من فك لها أزرار صدريته وخلع نعليه

وهكذا مضى إيفان فى تصوراته ، وانتقل به خياله من الخريف الحزين إلى الشتاء المنتحب الباكى فاذا به يرى السماء ممطرة أبداً لا ينقطع لها معين ، ولا ينضب لها ميزاب ، والأشجار معراة من كساها الحالية النضرة ترتعش أمام صفعات الرياح القرة الباردة ، والدواجن فى المزرعة قد لجأت إلى أوكانها من رذاذ المطر المنهمر خائفة حزينة ، والناس قد أووا إلى منازلهم فلا متنزه يؤم ولا حديقة تقصد ، ويرى نفسه هو قد اضطرته الطبيعة الغضبى أن يبقى فى المنزل كسواه ، فيذرع الغرفة بخطواته المتزنة ذهاباً وإياباً طول النهار ، وأن يتطلع بين الفينة والأخرى بقلق وضجر لا حد لهما خلال النوافذ الزجاجية التى خددها المطر إلى حين

وهنا وقف إيفان فجأة كأنما انقطع تيار خياله الجامح وقال :

— أتدرين يا ماشا ؟ ! إني سأغترب

ثم صمت لحظة تخيل فيها نفسه يتنعم بلذة الهجرة فى أواخر الخريف وهو يتنقل كالطائر من بلد إلى بلد زائراً فرنسا فإيطاليا فالهند ؛ وإنها لرحلة ممتعة شائقة ما فى ذلك ريب

— وأنا أيضاً سأغترب يا إيفان » قالت امرأته بنبرة جازمة ثم استطردت :

أما حان أن تنظر رقم السهم ؟

— دقيقة واحدة إذا تفضلت ، أرجو أن تنتظرى

وراح يتهادى فى الغرفة مفكراً ، وقد سهم وجهه وقطب أساريره ، ويتساءل عما إذا كانت امرأته تعنى حقاً ما تقول وأنها ستغترب معه !

نخير له وأجدى عليه أن يسافر بمفرده من دونها، أو برفقة غانيات رعناوات إن لم يكن للرفقة من بد ، غانيات خفيفات لا هم عندهن ولا غم ولا يعشن إلا للساعة التى هن فيها ؛ أما السفر مع امرأة لا تفكر طول الطريق إلا فى أولادها ولا تتكلم إلا عنهم متأوهة تارة متدللة أخرى ، تحاسبه على كل بارة ، فهذا ما يكرهه ويجتويه

وتمثلت له زوجه فى عربة القطار المكتظة بالرزم والسلال والطرود تتأوه ولا يدرى أحد لماذا، وتشكو الصداع لداع ولغير داع ، وتتذمر من كثرة النفقات، وتتبرم من غلاء الحاجات ، وترغمه فى المحطات أن يهرع ليبتاع لها «سندوتشاً» وليأتيها بالماء ،لأن حضرتها لا تريد أن تتناول غداءها فى المطعم لبهظ الأسعار، وهذا ما لا يرغب فيه . إذن خير لها وله أن تبقى فى منزلها لا تبرحه وان تطلق له حريته ، فالسياحة لم يخلق لها الشحيح الضنين ، وما عسى يستطيع البخيل أن يرى من متع يا ترى ؟؟

ثم إنها عدا ذلك كله ستلازم غرفتها فى الفندق الذى سينزلان فيه

وستحتفظ به حيالها لا يفارقها وهذا ما لا طاقة له به ولا قدرة له على احتماله

وألقى على امرأته نظرة فاحصة عجلى ، فاذا به يراها لأول مرة فى حياته ، قبيحة المنظر ، دميمة الوجه ؛ قد دهمتها بوادر الكبر ، وظهر عليها أثر السنين ، وتفوح منها ــ فوق هذه العيوب ــ رائحة المطبخ الذى قلما تفارقه ؛ فى حين أنه هو مازال فى إبّان الصبا وشرخ الشباب أليق مايكون بالزواج ثانية من خير فتاة

وقال إيفان فى نفسه : إن هذا لمن سفساف القول ولا طائل لى فيه ؛ وإن هذه حقيقة لا أجحدها ولا أنكرها ، ولكن لماذا تريد هذه الملعونة أن تغترب ؟ وماذا تفهم من السياحة والأسفار من تكون (نابل) و (كلين) لديها سواء ؟ !

إنى لأشعر منذ الآن أنه لن يكون لها من عمل إلا مضايقتى وإرهاقى ، وإنى سأكون تحت حكمها لا أعصى لها أمراً . وإنى عدا ذلك ، أدرى الناس بها فى كيفية الاحتفاظ بالدراهم والحرص عليها ؛ فهى ستضعها — شأن أكثر النساء — فى صناديق من حديد وراء عشرات الأقفال المحكمة ، وستخبئها عنى وتحصى علىّ الفلس الواحد ، فى حين أنها ستكون سمحة الكف جوّادة مع أهلها وذوى قرباها

وهنا تذكر إيفان أهل زوجته وأنسباءها ، وكيف أنهم سيفدون إلى دارها متى علموا بالربح يستجدونها فى إلحاح المتسولين وهم يتسمون بعذوبة ورقة ؛ والله أعلم أى لؤم تخفى تلك البسمات ، وأى رياء ؟ ! ...

يا لهم من ذرية سافلة دنيئة ، ومن نسل لا خير فيه ، إذا أعطوا ألحفوا فى طلب المزيد ، وإن رُدّوا نشطت ألسنتهم تغتاب وتقدح ما شاء لها الاغتياب والقدح ، وتمنوا لرادهم كل أذية وبلاء

وتمثل له أهله ، فإذا به يراهم صفيقى الوجوه فى

حين أنه كان — لساعة خلت — يرى تلك الوجوه ذاتها تفيض بالوداعة ، وتتألق بالحياء والبشر

فتمتم : « ياللحشرات ! »

لقد بدت له وجوه أحب الناس لديه وأدناهم إليه بغيضة مكروهة ، وغلى صدره بالحنق عليهم جميعاً ، وتمنى على الله في سره لو لم يوجدوا

وتدنى سروره ، فلقد شابه الكدر ، وعرت جسمه رعشة اشمئزاز من أولئك الأهل المرائين المتسترين تحت ألف نقاب ، ومن تلك الزوجة المقترة حتى على نفسها التي لا تدرك للمال لذة إلا بكنزه فى صناديق من حديد وراء ألف قفل

وتوارت البسمة التي كانت تعلو محياه منذ حين فكلحت منه الأسارير وأصبح لا ينظر إلى زوجته إلا شزراً . وهى ، هى كذلك انتابها منه ما انتابه منها ، فبدا لها بغيضاً ممقوتاً وهو الذى كان بالأمس مطمح آمالها ومحط أمانيها ، فراحت ترمقه بكثير من الحقد ؛ فان لها هي كما له أحلام مذهبة الحواشي ، ولها آراء تعجب بها هي على الأقل إن لم يعجب بها سواها ، ولها خطوط ومشروعات كلها رائعة جميلة ، ولم لا ؟ أيكون زوجها المأفون هذا خيراً منها ؟ ! لا وألف لا ! وإنها لتعلم العلم اليقين فيما ذا يفكر زوجها ، وماذا يتراءى له ، وإنها أدرى الناس به وأخبرهم بطباعه . إنه سيكون أول من يمد رجليه على ظهرها وأول من يتبسط على حسابها هى ، ولقد كانت بنظراتها ــ التى تعنى أنه من الجميل أن يحلم المرء على كيس سواه ــ تنطق بما عمى لسانها عن بيانه . ولقد فهم الزوج معنى تلك النظرات الشزراء وأدرك ما يجول بخاطرها عنه ، وقرأ فى تلك الملامح المغضنة ما أبدته ضغائن القلب الحقود ، فاحتدم غيظه واشتد حنقه ؛ وسرعان ما فتح الصحيفة وألقى على الصفحة الرابعة منها نظرة خاطفة وأعلن لها ، حنا فى مناوأتها فقط ، بصوت الفائز الفخور :

— « السباق ٩٤٩٩ والرقم ٤٦ لا ٢٦ » وصمت على مضض

لقد شاء أن يثير حفيظتها ، وأن يحنقها فتم له ما أراد ، إلا أنه تأثر هو كذلك واستاء . فالأحلام الذهبية تلاشت واضمحلت ، وهوت قصور الأمانى إلى الحضيض هويا ، فتمثل المنزل لهما حالكا قاتماً حقيراً ، وظهر لهما أن العشاء الذى فرغا من تناوله منذ حين لم يكن لذيذاً شهياً ، ولقد شعرا معاً بوطأته على معدتيهما

وتراءت لهما هذه الأمسية طويلة ما تنتهى ، ومملة غاية الملل !

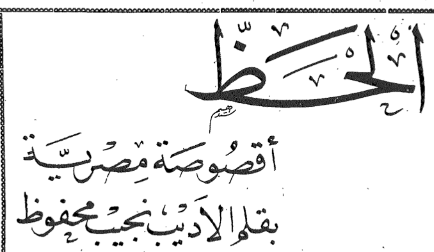
فيا للأجواء المربدة القاتمة وإن لم يكن بها اربداد ولا قتام !

ومشى إيفان مهتاج الأعصاب ثائر النفس وتخطى الردهة بخطي المسرع العجلان وصوته الحانق يجلجل فى أرجائها ، فتتجاوب منه الأصداء :

— ما هذا ؟ لا أدرى ما أدعوه وربى ؛ فأينما أمش لا أر إلا قصاصات الأوراق ، وأتعثر بالأشياء المبعثرة هنا وهناك ، وفي كل زاوية بل فى كل موضع لا تقع العين إلا على فتات الخبز وقشور البيض ، أمزبلة هذا أم منزل ؟؟

يجب أن أنأى عن هذا الجو الموبوء وأن أهجر هذا المحيط الملعون ، سأذهب ، وليحملنى الشيطان ، فأشنق نفسى على أول شجرة أقع عليها في سبيلى

ترجمة جورج سلستى



بدا على وجه محمد أفندى الحلو التهيؤ للتوثب والمغامرة فدس يده فى جيبه وأخرج ريالاً ثم دخل بأقدام ثابتة إلى مكتب جمعية المواساة وتردد لحظة يقلب ناظريه في أوراق النصيب المكدسة ونفسه حيرى وقلبه خافق لا يدرى ما ينبغي أن يأخذ وما ينبغي أن يدع ، وكأنه آثر أن يلقى عن عاتق اختياره التبعة فطلب من موظف المكتب — وهو ينقده الريال — ان يختار له ورقة

واليانصيب مغامرة خفيفة تجذب الناس على اختلاف طبقاتهم ، فيشارك فيه بعض الأغنياء للتلهية ومدافعة الملل وإيقاظ العواطف التى ران عليها الشبع والسقم ، ويساهم فيه آخرون منهم طلباً للمزيد وإشباعاً لغريزة التملك التى لا تعرف الشبع ؛ أما أغلبية مريديه فمن الفقراء الحالمين الذين يرون في ورقته « باسبورت » ينقلهم إلى عالم عماده المصارف وشعاره الترف وآياته زينات الدنيا من النساء والمشاهد والاسفار والمآكل والمشارب . ومن اطلع على وجه محمد أفندى وهو يدفن ورقة اليانصيب فى محفظته فرأى عينيه الحالمتين وسمع تنهدته الحارة وهو يدعو قائلاً : يارب ! — لايشك فى أنه من هذه الجماعة الأخيرة التى أوقعها الحرمان فى الحسرة وردتها الحسرة إلى الحرمان

ينحدر هذا الشاب من أسرة ريفية فقيرة عميدها مزارع بسيط ، فكان منتهى حظه من التعليم شهادة الكفاءة ، وقد حسب أبوه نفسه من المجاهدين الصابرين أن بلغ به هذه المرتبة من التعلم ، فسعى إلى توظيفه بيضعة جنيهات ، وكان فرحه بذاك عظيما ، كما كان ألم الشاب بليغاً ؛ أما الأب فقد فاخر أهل قريته بابنه « الميري » وغبط نفسه على الجنيه الذى أجراه الشاب عليه ، وأما الشاب فكان مجتهداً طموحاً شديد الحساسية ، يطمع فى المراكز العالية ويتحرق على نعيم الدنيا الذى يرى آثاره المغرية فى السيارات المارقة والعمارات الشاهقة والليالي الساهرة ، فسخط وحقد وحمل الدهر والناس ونظام الكون ما يعانى من شدة وبؤس وحرمان وفقر . وإن حق لأبيه أن يباهي به العالمين وهو قابع فى قريته فقد كان ينزوي خجلاً من تفاهته وهو يسير فى القاهرة الصاخبة كنملة على وريقة شجرة باسقة فى غابة شجراء تأوى إليها الأسود والأفيال . يعمل من الصباح إلى المساء يغادر المصلحة مضمحل القوى خائر العزيمة ، مهين النفس ، قذر الجسم ، فيرتمى على فراشه آسفاً قانطاً وهو يتمنى على الله ألا يطلع عليه الصباح إلا وهو فى قبر يريحه من العالم وتعبه وضآلة أمله فيه

ولم تكن هــذه أول مرة يشترى فيها ورقة اليانصيب ، فكم من مرة اشترى وكم من مرات خسر ، وكم ذهب ينير وجهه الأمل وآب تلتوى شفتاه من اليأس ، وكم نام تسعده أحلام الأمانى وصحا على حسرة وخيبة ، وكانت أهون الخسائر المادية مما يدفعه ثمناً للورقة غير هينة على مثله بل كبيرة فادحة ، ولكنه لم ينثن له عزم ولم تفتر له همّة ولم يول عنه أمل

وذهب كعادته إلى مسكنه أو بالأحرى إلى حجرته ووضع الورقة فى ظرف ووضع الظرف تحت رزمة من الظروف والخطابات ، ثم قيد رقم الورقة فى مذكرته وانتظر على اللذة الوحيدة التى يجدها نفسه لذة أحلام الأمانى . وبعد أيام فوجىء بقدم أبيه وقد أوجس قلبه خيفة أن يكون مجيئه لحاجة، وكان صفر اليدين الا من الضرورى ولكن الرجل بادره قائلاً وهو لايتمالك عواطفه :

—أبشر ... لقد ابتسم لك الحظ على يدّى ...

— كيف ... ؟

— قالها بغير توقع عظيم للفرح لأنه يعلم أن والده يحسب ماهو غارق فيه من بؤس نعيما وسؤددا يغبط عليهما . واستمر الرجل قائلا : —

— أتعرف أسرة الجمار ... ؟

— طبعاً أذكرهم فقد نشأت مع أحد أبنائهم عبد الحفيظ وطويت فى صحبته عهد الصبا

— أحسنت فهو من أعنى ... لأنه تقدم فى الأسبوع الفائت إلى عمك طالباً يد ابنته ولعلك لاتعلم أن أسرة الجمار هوت إلى دمار الإفلاس والبوار

— سمعت شيئاً من هذا ؟

— إن ماسمعت لهو دون الحقيقة بكثير ، فلم يبق لهم من متاع الدنيا سوى الاسم القديم ، وهم يطمعون فى أن يشتروا به أموال عمك الطائلة ؛ وكاد عمك يلين لهم لولا أن انبريت له غاضباً وقلت له : خذ حذرك من هؤلاء الطغاة الماكرين واذكر أيام كانوا ينظرون إلينا نظرة المؤمن إلى الكافر ، وهمست فى أذنه : إن الأقربين أولى بالمعروف، وذكرته أن له ابن أخ موظفاً محترماً فعاود فكره ثم قبل...

— ماذا قبل ..؟

— فقهقــه الأب حتى بانت نواجذه الصفر وقال :

— قبل أن يزوجك من ابنته ... ابنة عمك خضرا ، مطمئناً إلى أن يداً غريبة لن تسلبه أمواله ..

وصمت الرجل برهة وهو ينظر إلى ابنه ثم عاد إلى الكلام فقال : —

— الحق أقول ... لقد طمعت فى خضرا منذ زمن بعيــد وتمنيت على الله أن يجعلها من قسمتك ونصيبك ولكنى ترددت كثيراً أن أفاتح أخى فى هذا الموضوع . نعم هو شقيق وقد نشأنا معاً صغيرين يحتوينا الفقر والبؤس ، ولولا الهجرة التى ارتضاها لنفسه والأعمال التى خاضها لبقى فقيراً مثلى ، ولكنه الآن من كبار أغنياء قريتنا ، فما زلت متردداً خائفاً ، أفكر فى الأمر وأراجع نفسى فيه وأهم وأنكمش وأفرج عن شفتىّ مجازفاً بالكلام ثم ألصقهما من الخوف لائذاً بالصمت ، حتى تقدم عبد الحفيظ ففك تقدمه عقدة لسانى فتكلمت وظفرت ... والآن ما عليك إلا أن تسافر معي اليوم أو الغد .

— ولم هذه السرعة ...؟

— خير البر عاجله ... وإنى أريد أن أقطع الطريق على أبناء الحمار ... ولا تنس أن نبأخطبتك لابنة عمك ذاع بين أهل القرية ، فيهمنى أن أعجل بعقدالزواج أويقولون إن عمها قطع خطبتها وولى عنها

— عقد الزواج ... !

— نعم هذا هين ... وأما الدخلة فعلى مهل .. هيا ولا يثنك التقدير فان عمك عليم بحالى وحالك وسنكتب مهراً صوريا فلا تخش شيئاً .

هل يستطيع أن يقول لا فيرفض أفدنة وعمارات وأموالا لايحيط بها الحسبان ؟

أما ابنة عمه فأعوذ بالله من شر ماخلق ... هى كتلة من اللحم المنتفخ ، تضيع فى تهدله قسمات الوجه ومعالم الجسم ، فهى لايعرف لها خصر من ردف من صدر ، جميعها كتلة واحدة كأنما صبت فى برميل نبيذ ، وما يرى من عينيها فشقان ضيقان كأنما يسلط عليهما شعاع شمس لايغيب ، وما يبرز من أنفها فانتفاخة قصيرة كأنها دمل فى إبان الخطر ؛ وهى إلى ذلك ثقيلة الظل ، مظلمة الروح ، شديدة الغباء ؛ وإنه ليذكر أنه داعبها مرة فخاطبها قائلا : « يا أبله خضرا » على طريقة أهل المدن فغابت عنها الدعابة واصفر وجهها وذهبت إلى أمها غاضبة تشكو إليها تهكم ابن عمها وسوء أدبه إذ جعل يخاطبها بما تخاطب به الأخت الكبرى وعبثاً حاول أن يهدئ خاطرها وأن يصرف عنها الموجدة

والأدهى من هذا كله أن أهلها لايعترفون بعيب لها ، فهى لديهم لؤلؤة مبرأة من العيوب ، ولا تفتأ أمها ترمقها فى الجيئة والذهاب بعين الحب والاعجاب ، وما تنفك تحرق حولها البخور دفعاً للسوء وفقأ لعين الحسود

هذه هي زوجه المقبلة أو هى السم الذى وضعته الأقدار في دسم المال وقدمته إليه

وتذكر أمراً فأسرع إلى ورقة اليانصيب وألقى عليها نظرة فاحصة فوجد أن موعد السحب فى شهر اكتوبر وهو ما يزال في يوليو فما من سبيل إلى التسويف إلى أن يتأكد من حظه ، فهى غنيمة من الجنون رفضها ، وهى مصيبة من المستحيل دفعها

وسافر فى صحبة أبيه وعقد على الفتاة بين الزغاريد والأفراح ولبث لديهم يوماً ثم قفل راجعاً إلى القاهرة ، وكانت تنعقد على وجهه كآبة مدلهمة ويتعذب قلبه بألم ممض ، إذ وقر فى نفسه أنه باع نفسه بيع العبيد أو بذلها بذل البغايا ، وأن تلك الفتاة « النشاز » قيدته فى قدميها ككلب مهين ، فياله من فوز كالخسران وأخذ أهون منه الاعطاء ! وكان أمامه عام كامل على أقل تقدير تجهز فيه الفتاة على حساب والدها وحده لأنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنه لو ترك الأمر إلى مقدرته ما فتح بيت الزوجية ولا فى منحدرات الشيخوخة ، فتعزى بهذا العام بعض العزاء وكانت تكتئب نفسه كلما انفرط من عقد أيامه واحد ، ولكنه لم ير بدا من المحافظة على المظاهر . فاتصلت الرسائل بينه وبين عمه وكانت فى طلاوتها الظاهرة رسائل زوج مجدود يترقب بفارغ الصبر يومه الموعود

أما الذى كان سعيداً حقاً فهو والده ، وقد أجزل له شقيقه الثرى العطاء ليبدو فى المظهر اللائق ، فذاقت نفسه المحرومة النعيم على كبر وانغمس فى الرفاهية وامتلأ بالغبطة فسار في الأرض مختالا فخوراً يكاد يهتف بالناس أن انظروا وسبحوا واحسدوا

ولم يلبث الرجل أن أخذ على ابنه المواثيق أن يفسح له وأمه مكاناً رحيباً فى بيته المنتظر وأن يصون شيخوخته عن ذل الحاجة وكدح السعى فوعده خيراً وهو كظيم ، ولم يكن يجد على والده لأنه لم يضطره إلى شيء ولم يرد له إلا الخير ، ولكن كان إذا منّ عليه أو تنجزه ما وعدحنق عليه ثم حنق

وفي صباح يوم الأحد من شهر اكتوبر كان محمد جالساً إلى مكتبه فى المصلحة ، وأمامه اللفات لا تكاد تظهر منه إلا قمة رأسه ، وعلى كرسي إلى جانبه وضعت صينية عليها طبق الفول المدمس والرغيف والفوطة الحمراء ، وكان إلى جانبه زميل يقرأ جريدة الصباح ويعلق على الحوادث والرجال بما يشاء هواه وتفكيره ، ولم يلبث أن اشتمله صمت طارىء ، ثم أسرع بفتح درجه وأخرج ورقة صغيرة أنعم النظر فيها ملياً ، وتردد ناظره بينها وبين صفحة الجريدة المفتوحة أمامه ثم قام إلى محمد وصاح فى وجهه بانفعال جنونى :

« ربحت ... »

وكأنما حملت هذه الكلمة البسيطة إلى نفس محمد كل ماتنفعل به نفس صاحبه فانتفض قائماً كأنه حرر فجأة من قوة جاذبية الأرض وصاح

« حقاً إنه اليوم يعلن اليانصيب ... كم تنسى الهموم ... »

— أرنى رقمك لأتأكد ...

— ها هو ذا ...

— هو بعينه ؟

وانتشر الخبر فى المصلحة وتحدث به كل لسان ، واتسعت له كل عينين ، وانفرجت لوقعه كل شفتين ، وازدحمت الحجرة بجمع خفير من مراجعين وكتبة وسعاة ، هذا يهنىء ، وذاك يطلب «الحلاوة» ، وذلك يشكو الحظ الذى خانه فى رقم أو رقمين ، حتى رئيس القلم خاطب محمداً بلهجة رقيقة لأول مرة ، بل حدثت معجزة فابتسم له وسأله :—

— علامَ عزمت ..؟

— لا أدرى ياسيدى

— أنصحك ألا تستقيل من وظيفتك ... فالعمل أبهج مافي الحياة ، وهو ذخر تدخره للملمات

— أشكرك ياسيدى

قالها ثم سار يترنح كالثمل وقد طلب منه الرئيس أن يكتب طلباً باجازة يوم أو يومين ووعده أن يوافق عليه فلم يسمع له ؛ ونبهه زميل إلى أنه لم يترك ثمن الفول فلم يلتفت إليه وسار يترنح لأن السعادة التى وزعها الله على قلوب البشر هرعت إلى قلبه فى تلك اللحظة كما تهرع حيوية الجسم إلى أحد أعضائه حين اشتداد نشاطه

ومر فى طريقه بمكتب المواساة فساءه ان يجده مغلقاً ، ولكن قيل له إنه يغلق بابه يوم الأحد ، فضاق بذلك وقصد تواً إلى حجرته بل إلى رزمة الظروف بل إلى الظرف الأخير منها وقرأ ورقة اليانصيب مثنى وثلاث حتى اطمأن قلبه فردها إلى المجموعة

وجلس يستريح ويتأمل بعينين يضيئهما نور الظفر ، أركان حجرته الكئيبة وأثاثها البالى الحزين وعروق سقفها البارزة كأوداج المختنق ثم تكلم بصوت عال قائلاً :—

الآن أهجرك إلى غير رجعة ، فوداعاً أيتها الفيران والصراصير . أتمنى لك حظاً سعيداً وساكناً جديداً أجدى مما كنت وأنفع

إلا أن ذكرى سوداء اغتصبت فجأة سعادته

فتجهم وجهه ، وانقبض قلبه وصاح غاضباً : —

« أواه ! خضراً زوجتي . . ! »

فلا مفر من الحقيقة المرة التى توشك أن تبتلعه بنشوته كما يبتلع القبر الحسناء فى ريعان الشباب وميعة الصبا ، فليته اطلع على الغيب من قبل ...

ولكن هيهات أن يدع حزناً فى الوجود ينغص عليه صفوه ، ولن يكون غنياً إذا لم ينهل من مورد السعادة كل شهي وينقى صفحة وجوده من لوثات الألم والشقاء ، وما هي إلا لحظة حتى ابتده عقله الحل الموفق فهرع إلى المائدة وكتب إلى عمه الرسالة التالية:

« عمنا المحترم :

أرسل إليكم مع خطابى هذا وثيقة الطلاق من ابنتكم كما هو مقدور ، وإنها لكبيرة ولكني فكرت فى أمرى طويلا فلم أر عنها محيداً ، فهو تصميم نهائى لا رجعة فيه وأرجو الله أن يلهمكم الصبر وأن ينزل فى قلبكم الرحمة فتغفروا لي »

وطالعه مرات ، وقد بدا له جافا ، ولكنه لم يحاول تخفيف لهجته بل ود لو آتته الشجاعة فجعله أشد قسوة وأنى للمجاملة ، وأخذ ظرفا دسه فيه وكتب عليه عنوان عمه وخرج لا يلوي على شيء يفتش عن المأذون ، ولم يهدأ له قلب حتى سلمه إلى صندوق البريد ونام ليلته سعيداً مرتاح البال ...

***

وفتح عينيه عند استيقاظه فشاهد نور الصباح ينسكب من كوة الحجرة كأنه صدر حسناء تنفرج عنه غدائر شعر حالك السواد ، فقام كأنه يولد من جديد فى عالم جديد ، ودلف إلى رزمة الظروف وأخذ آخرها وهو يقول :

— تعالى أيتها الحبيبة التى ستجعل لى من كل حسناء عاشقة وحبيبة

ولكنه وجده فارغاً ... آه لقد تذكر أنه وضع الظرف السعيد فوق الظروف لا تحتها ، فأخذ الفوقانى وفتحه ولكنه وجده أيضاً فارغاً ... فتصلب جسده وارتعشت يداه وخفق قلبه خفقة الذعر والوجل ، ولعبت يداه فى الظروف تفتشها فرجع من كل بخيبة مريرة ورعب عظيم ، وفتش الدرج كله وقلبه رأساً على عقب ، وبحث فى الثياب والجيوب جميعاً والفراش وأركان الحجرة بل نظر إلي السقف متحيراً ... ودار فى الحجرة وهو يهتف كالدرويش فى حلقة الذكر : « الله ... الله ... »

هل فرت الورقة فراراً ؟... هل لبست « طاقية الاخفاء » ؟ ...

ولكن خطر له خاطر سريع ... ألا يجوز أن يكون قد وضع خطابه إلى عمه وورقة الطلاق فى الظرف المشتمل على ورقة اليانصيب وأرسل الجميع إلى عمه ؟ ...

واأسفاه ! هذا هو الفرض الوحيد الممكن

ولطم خديه ، وشد شعر رأسه وقرع رأسه في عمد السرير ، حتى كاد يشرف على التهلكة ؛ وانتهى به الجنون إلى حالة يموت فيها التدبر ، فارتدى ثيابه سريعاً وخف إلى المحطة ، وكان بينه وبين قيام القطار انتظار نصف ساعة ، فهرع إلى السيارة العمومية التى أسرعت به في طريقها إلى بنها

وكان جزعا ذاهب الحلم ، فثقل عليه طول الوقت ، واشتد به الانتظار ، وطفق يقوم ويقعد وينظر فى ساعته ويهوله ما تدل عليه من الزمن فيسأل جاره وجار جاره

حتى أراد الله أن تنتهي الرحلة ، فجري جريا إلى دار عمه

وكان وصوله عقب وصول خطابه بزمن قليل ، فوجد البيت هائجاً مائجاً ، وصوت عمه يدوى فيقتحم حجراته وأفنيته ، ورأى والده المسكين ماثلا بين يدى الرجل الغاضب ، منكس الذقن ، كسير الفؤاد ، يتلقى سبابه ووعيده فى خشوع وذلة ورهبة

وأحدث دخول الشاب دهشة شديدة غير متوقعة ، فساد صمت وخيم سكون ، فنظر إليه أبوه ومد إليه يديه كأنما يقول له : ماذا فعلت ... ماذا فعلت ... أما عمه فقد حملق في وجهه يتعجب من جسارته ومن الباعث الذى حداه إلى الظهور ، ونسى الشاب كل شيء فقال بصوت مبحوح : —

— ورقة اليانصيب ...

فظل الصمت مخيما ثقيلا غليظا ، فعاد الشاب إلى التوسل بصوته الباكي وقد لمح خطابه فى شمال عمه:

— ارحمنى ... أعطنى الورقة ولك ما تشاء ...

فأفاق الرجل من وقع المفاجأة وتنبه إلى الشاب الواقف أمامه الذى أزعج طمأنينته ولوث شرفه ، فتقدم منه خطوات ولطمه على وجهه لطمة شديدة تركت وراءها آثاراً حمراء وزرقاء ؛ وبدا على محمد أنه لم يشعر بوقع اللطمة وإن ترنح قليلاً من شدتها فاستطرد ذاهلاً :

« الورقة ... »

فانفجر عمه مغيظاً محنقاً قائلاً :

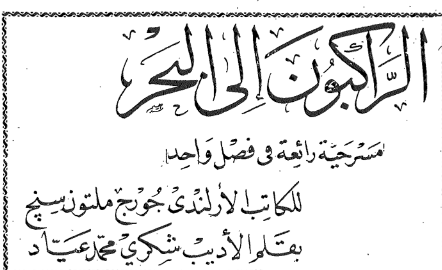
« أهكذا يثمر فيك الجميل ياخسيس؟ ... أهكذا ترد الصنع يا لئيم ... وا فضيحتاه ... وا خزياه ... ستجعلنى أضحوكة للشامتين والحاسدين ؛ وهذا جزاء من تأخذه رحمة بالأدنياء ... أغرب عن وجهي يا مجرم ، ولا ترنى صورتك بعد الآن ... لا أنت ولا أبوك ... أهذه هي الورقة التى جئت من أجلها ؟ خذها إرباً إربا ... إذهب ... أغرب عن وجهى »

وجرى الشاب نحوه يحاول منعه من تمزيق النمرة الرابحة ، فلطمه لطمة أشد من الأولى ، فأمسك أبوه بيده وهو يبكى ، وجذبه خارجاً وهو يصيح به متألماً :

« ماذا فعلت يا محمد ..؟ ماذا فعلت ..؟ »

وكان اليأس قد بلغ به منتهاه فأفلت من يد أبيه وجري شطر الطريق المؤدى إلى النيل ، فارتعب أبوه وجرى خلفه وهو يناديه ، ولكن ضاع نداؤه فى الهواء ، لأن محمداً لم يكن يسمع شيئاً ، فلم يلتفت إلى والده ولا إلى ندائه ، وماله هو ونداء أبيه ..؟ بل ماله ونداء الدنيا جميعاً وهو لم يعد من اهلها ...

نجيب محفوظ



« جون ملتون سنج » كاتب إرلندى كبير . ولد على مقربة من دبلن سنة ١٨٧١ ، وتخرج فى كلية ترنتى عام ١٨٩٢ ، فطفق يجوب ربوع فرنسا وألمانيا بقيثارته ، ويحاول الارتزاق عن طريق الصحافة الأدبية . ثم عاد إلى إرلندا عام ١٨٩٨ وعاش بين فلاحيها بضع سنين ، فأزهرت عبقريته على ربى الوطن وبطاحه ، بعد أن كادت تذوى بين جدران باريس . ثم اضمحلت قواه فأودى به الطاعون عام ١٩٠٩ ، وقد بدأ نجمه يتلألأ ويخطف الأبصار ، وعلى الرغم من ميتته المبكرة وتراثه الأدبى القليل فانه ما زال يعد عميد المسرح الارلندى ونجمه اللامع ، وأعظم كاتب مسرحى انجليزى بعد شكسبير

ومسرحيات سنج مستمدة كلها من حياة الفلاحين الارلنديين وصائدى السمك فى جزائر آران ، « والراكبون إلى البحر » أعظم مسرحياته ، وقد يبالغ بعض النقاد فيرفعها فوق أروع معجزات شكسبير ؛ ففيها وصف دقيق لسطوة الطبيعة على كفاح الانسان وتحليل رائع لنفسية أم سلبها البحر أهلها وبنيها . وجو المسرحية الصوفى الانسانى يرفعها إلى أعلى مراتب « الواقعية السامية » Transcendental Realism كما يسميها الناقد الأمريكى « جرانت أوفرتون »

شخصيات القصة

موريا : امرأة عجوز . بارتلى : ولدها . كاثلين ونورا : بنتاها ، وصغراهما نورا . رجال ونساء

(المنظر : مطبخ كوخ فيه شباك وجلود ومغزل ، وقد استندت إلى الحائط ألواح جديدة من الخشب . كاثلين — وهى فتاة فى نحو العشرين — تفرغ من عجن كعكة وتضعها فى إناء على النار ، ثم تمسح يديها ، وتشرع فى إدارة مغزلها)

نورا (فى صوت غضيض) — أين هى ؟

كاثلين — إنها ترقد ؛ كان الله فى عونها . ولعل عينيها قد هجعتا لو كان للنوم إليهما من سبيل

(تدخل نورا فى هدوء وتبرز صرة من الثياب من تحت وشاحها)

كاثلين (تدير مغزلها مسرعة) — ماذا بيدك ؟

نورا — صرة أعطانيها القسيس الشاب . إنها قميص وجورب لرجل غريق فى دونيجال (كاثلين توقف عجلتها فجأة ، وتشخص متنصتة) وعلينا أن نتعرفهما إن كانا من ثياب ميخائيل ، فبعد قليل نذهب إلى البحر نتفرس فى أمواهه

كاثلين — وكيف تكون تلك ثياب ميخائيل يا نورا ؟ أنى له أن يقطع شمالاً ذلك الطريق الطويل ؟

نورا — لقد ذكر القسيس أنه لمح فيها مشابه من ثياب ميخائيل ثم قال : فان كانت كذلك فخبريها أن الله قد قبضه اليه وأنه مات ميتة طاهرة ، وإلا فلا تذكرن إحدا كما لها شيئاً فتموت أسى ولوعة

(تهب عصفة ريح فينفتح الباب الذى أقفلته نورا نصف إقفال)

كاثلين (تنظر إلى الخارج فى قلق) — وهل سألته هل يمنع بارتلى من أن يذهب اليوم بالجياد إلى سوق جالواى ؟

نورا — لقد قال : إنى لن أمنعه ، ولا تخشين شيئاً . إنها لتقوم الليل حتى نصفه داعية ذاكرة مبتهلة ، والله القدير لن يتركها معوزة بغير بنين

كاثلين — أثائر البحر حول الصخور البيضاء يا نورا ؟

نورا — نصف ثورة ... الله يرحمنا ويرعانا ! فى الغرب زمجرة وإرعاد ؛ وعند ما تهب الريح تزداد الحال سوءاً (تذهب بالصرة إلى المنضدة) أفأبسطها الآن ؟

كاثلين — قد تصحو فتبغتنا

نورا (تذهب إلى الباب الداخلي وتتنصت) — إنها تتقلب على فراشها ، وفى دقيقة تأتى

كاثلين — ناولينى السلم أخبئها فى خزانة الوقود فلا تعلم من أمرها شيئاً . حتى إذا كان المد خرجت ترى إن كان الشرق قد أتي به طافياً على الأمواج

(تسندان السلم إلى زاوية المدخنة ، وتصعد كاثلين بضع خطوات ثم تخفي الصرة فى خزانة الوقود . تأتى موريا من الغرفه الداخلية)

موريا (تنظر إلى كاثلين وتسألها متذمرة) — أفليس عندك من الوقود ما يكفي ليوم وليلة ؟

كاثلين — تلك كعكة أنضجها على النار . (تلق بحزمة وقود من الخزانة) وسيحتاج إليها بارتلى إذا كان المد وذهب إلى كونمارا

(نور تلتقط الوقود وتحيط به الاناء)

موريا (تجلس على كرسى إلى النار) — لن يذهب اليوم والريح تعصف من الجنوب من الغرب . لن يذهب اليوم ولسوف يمنعه القسيس بلا ريب

نورا — لن يمنعه القسيس يا أماه . ولقد سمعت إيمون سيمون وستيفن فيتى وكولم ستون يقولون إنه سوف يذهب

موريا — وأين هو ؟

نورا — ذهب يرى لعل مركباً آخر يبحر فى هذا الأسبوع،وما إخاله إلا آتياً بعد قليل. فقدظهر المد عند الرأس الأخضر وأقلعت الفلك من الشرق

كاثلين — إنى أسمع صوت عابر يتردد بين الصخور العظمى

نورا (تنظر إلى الخارج) — إنه لقادم يغذ السير إلينا

بارتلى (يدخل ويسرح النظر فى الحجرة ، ثم يتكلم فى نبرة حزينة هادئة) — أين الحبل الجديد يا كاثلين ؟ ذلك الذى اشتريناه من كونمارا ؟

كاثلين (هابطة) — ناوليه إياه يانورا . إنه معلق على مسمار بإزاء الخشب الأبيض

نورا (تناوله حبلا) — أهو ذاك يابارتلى ؟

موريا — خير لك أن تدع الحبل معلقاً إلى الأخشاب يابارتلى (بارتلى يأخذ الحبل) فلسوف نحتاج إليه إن عثرنا على ميخائيل صباح الغد أو بعد غد أو فى أى يوم طوال هذا الأسبوع . ولسوف نواريه فى تابوت عميق يرحمه الله

بارتلى — سوف أرسن به فرسى . ولا بد أن أسرع الآن ، فلن يبحر بعد هذا المركب مركب مدى أسبوعين أو أكثر . ولقد سمعتهم يقولون إن السوق نافقة وإن الجياد تباع فيها بيعاً حسناً

موريا — ولسوف يحزننا قولهم إن عثرنا على الجثة ولم نجد رجلاً يصنع الناووس ، بعد أن بذلت ثمناً عالياً فى شراء أخشاب لن نجد خيراً منها فى كونمارا . (تنظر إلى ألواح الخشب)

بارتلى — وكيف تطفو الجثة وقد راقبنا البحر تسعة أيام فما رأينا شيئاً ، والريح تهب آناً من الغرب وآونة من الجنوب ؟

موريا — إن كنا لم نجده فإن الريح لتمير البحر، وإن بإزاء القمر نجماً عالياً ، وإنه لمشرق لألاء . وماجدوى مائة جواد أو ألف جواد وقد فقدت ابناً ماله من بديل ؟

بارتلى (يرسن فرسه) — راقبى الغلال كل يوم يا كاثلين لئلا تأكلها الخراف . وإذا عن لك من يشترى البطة مقسطاً فبيعيه إياها . لسوف تشق علينا الحياة وليس فينا إلا رجل واحد

موريا — ولسوف يضيق بنا العيش عند ما يبتلعك البحر كما ابتلع الآخرين . وكيف أعيش أنا وبنتاي وأنا امرأة عجوز تنتظرني القبور ؟

(بارتلى يلق الرسن ويخلع سترته العتيقة ويرتدى أخرى جديدة من نفس القماش)

بارتلى (مخاطباً نورا) — هل أقبل الفلك إلى المرسى؟

نورا (تنظر إلى الخارج) — لقد مر بالرأس الأخضر ثم أرخى قلاعه

بارتلي (يتناول حافظته وطباقه) — سوف أذهب إلى المرفأ فى نصف ساعة ، وبعد يومين أعود أو بعد ثلاثة ، أو بعد أربعة إن عابثتنا الريح

موريا (تتجه إلى النار ثم تطرح الوشاح على رأسها) — أفليس من ظلم الرجل ألا يصيخ إلى مقال امرأة عجوز تضن به على البحر ؟

كاثلين — فى البحر حياة لشاب يريد أن يعيش ؛ ومن يلقى السمع إلى كلام امرأة عجوز لا تفتأ تردده فى كل حين ؟

بارتلي (يقبض على الرسن) — عليَّ أن أذهب الآن سريعاً . سوف اعتلى صهوة الجواد الأحمر ويعدو المهر الرمادى ورائي .. فى رعاية الله .. (يخرج)

موريا (صائحة وهو بالباب) — لقد خرج الآن . لن نراه يرحمنا الله ... لقد خرج الآن ... وفى بهمة الليل يسلبني البحر أولادى أجمعين ...!

كاثلين — لِمَ لا تباركينه وإنه ليلتفت إليك وهو بالباب؟ أما كفانا حزناً حتى تشيعيه بكلام محزن مشئوم؟

(موريا تتناول (الماشة) وتجمع النار وهى شاردة لا تنظر فيما حولها)

نورا (تلتفت إليها) — إنك تبعدين الوقود عن الكعكة !

كاثلين (صائحة) — فليغفر لنا الله يانورا ! لقد نسينا كعكته ! (تتقدم إلى النار)

نورا — ولسوف ينهكه الجوع إذ يبحر حتى فحمة الليل بغير زاد ، وما طعم شيئاً مذ طلعت الشمس

كاثلين (ترفع الكعكة من على النار) — سوف ينهكه الجوع بغير شك . لقد غفلنا عن ذاك ؛ وحقيق أن يغفل أهل بيت امرأة عجوز لا ينقطع لها حديث

(موريا تتململ فى مقعدها . كاثلين تقتطع شطراً من الخبزة وتلفه فى مزقة من قماش . ثم تخاطب موريا :)

فلتذهبي الآن إلى البئر فأعطيه هذه عند ما يمر بك . سوف ترينه فيذهب سوء فألك ، وتقولين له : رعاك الله يا بنى ! فيهدأ باله

موريا (تتناول الخبز) — أفأستطيع إدراكه ؟

كاثلين — إذا أسرعت الآن

موريا (تقف مترنحة) — لم أعد أستطيع السير إلا بمشقة

كاثلين (ترمقها بنظرات قلقة) — ناوليها العصا يا نورا ، لئلا تنزلق قدمها فتهشمها الصخور

نورا — أى عصا ؟

كاثلين — تلك التى أحضرها ميخائيل من كونمارا

موريا (تأخذ العصا التى تناولها إياها نورا) — فى أرض الله العامرة يموت الكبار ويخلفون لأبنائهم ما يملكون ؛ وفى هذه الأرض الغامرة يموت الأبناء ويخلفون أشياءهم للعجائز الطاعنين

(تخرج فى بطء . تتجه نورا شطر السلم)

كاثلين — على رسلك يانورا . لقد أذهلها الحزن فماذا تحدسين . ماذا تفعل ؟

نورا — هل وارتها الشجيرة ؟

كاثلين (تنظر إلى الخارج) — لقد ذهبت الآن . أسرعى فليس يعلم إلا الله أيان تعود

نورا (تأخذ الصرة من الخزانة) — لقد وعد القسيس الشاب أن يأتى غداً . وقد نذهب إليه ، إن كانت تلك حقاً ثياب ميخائيل

كاثلين (تأخذ الصرة) — هل خبَّرك كيف وُجدت؟

نورا (هابطة) — لقد قال : كان رجلان يجدفان بخمر قبل أن تصيح الديكة ، فعثر بالجثة مجداف أحدهما ، وهما ماران بصخور الشمال السوداء

كاثلين (تحاول حل الصرة) — ناوليني السكين يا نورا ، لقد زادت ملوحة الماء فى شدة الخيط . واسودت عقدته فما تستطيعين حلها فى أسبوع

نورا (تناولها سكيناً) — لقد سمعت أن الصخور السوداء على بعد قصى من دونيجال

كاثلين (تجذ الخيط) — إنها لكذلك . ومنذ برهة كان هنا الرجل الذى باعنا هذه السكين ؛ ولقد قال إنها على مسيرة سبعة أيام من دونيجال

نورا — وفى كم من الزمن تبلغها جثة طافية ؟

كاثلين (تحل الحزمة وتأخذ منها جورباً ومزقة من قميص . الفتاتان تنظران إليهما فى انتباه شديد ثم تهمس كاثلين :) يرحمنا الله يانورا ! أفليس من العسير أن نحكم إن كانت تلك حقاً ثياب ميخائيل ؟

نورا — سآتى بقميصه من على المسمار فنرى إن كان هذا من عين القماش . (تنظر بين الثياب المعلقة فى ركن الكوخ) ليس القميص هنا يا كاثلين . فأين هو إذن؟

كاثلين — ما أظن إلا أن أخانا قد ارتداه فى الصباح ، فقد كان الملح يثقل قميصه (تشير إلى الركن) لديك مزقة من قميص فهاتيها . (تحضرها نورا فتقارنان بين الثوبين) إنه من عين القماش يانورا . ولكنه قد يكون قميص رجل آخر ، فهذا الصنف كثير فى حوانيت جالواى

نورا (بعد أن تتناول الجورب وتعد عيونه) — إنه ميخائيل يا كاثلين ! إنه ميخائيل يرحمه الله ! وماذا تقول أمنا حين تسمع القصة وقد أبحر بارتلى ؟ !

كاثلين (تأخذ الجورب) — إنه جورب غُفْل بغير وسم

نورا — إنه ثانى جوارب ثلاثة صنعتها ، وفيه ستون عيناً أنقصتها عيوناً أربعا .

كاثلين (تعد العيون) — إنها لكذلك يانورا ! آه يا أختاه ! ما أمر على القلب وما أوجع أن طوّح به الموج إلى الشمال القصى حيث لا يندبه أحد إلا عجائز البحر الكئيبة السوداء !

نورا (تترنح ثم تحتضن الثياب) — ما أمر على القلب وما أوجع أن طاح الموت ببحار قوى شديد فلم يبق منه إلا مزقة من قميص وجوربا غير موسوم!

كاثلين (بعد برهة) — خبريني إن كانت قادمة يانورا ... إنى لأسمع صوتاً خافتاً فى الطريق

نورا (تنظر إلى الخارج) — إنها لكذلك يا كاثلين . إنها مقبلة إلى الباب

كاثلين — خبئى هذه الأشياء قبل أن تأتى . ولعلها قد سكنت بعد إذ باركت بارتلى . ولا تخبريها مما تعلمين شيئاً طوال غيبته على البحر .

نورا (تعاون كاثلين فى حزم الثياب) — سوف نضعها فى هذا الركن (تخبئانها فى ثقب فى ركن المدخنة تعود كاثلين إلى مغزلها) — أفتظنينها رائية نحيبي ؟

كاثلين — اجعلى ظهرك إلى الباب يخطئك النور

(نورا تجلس فى ركن المدخنة وظهرها إلى الباب . تدخل موريا فى بطء شديد دون أن تنظر إلى بنتيها ، ثم تجلس على كرسيها إلى الطرف الآخر من النار ، وما زالت اللفافة فى يدها . تتبادل الفتاتان النظرات ، ثم تشير نورا إلى الخبز)

كاثلين (بعد أن تدير مغزلها برهة) — ألم تعطيه اللفافة يا أماه ؟

موريا — (تولول ولولة ضعيفة دون أن تنظر فيما حولها)

كاثلين — هل رأيته راكباً ؟

موريا — (لا تزال تعول)

كاثلين — (فى شىء من الضيق) — سامحك الله ! أفليس أجدى أن ترفعى صوتك وتخبرينا بما رأيت ، ثم لتبكى ماشئت ؟ إنى أسألك : أرأيت بارتلى ؟

موريا (فى صوت خافت) — اليوم برح بى الهم وانصدع قلبى

كاثلين (فى صبر نافد) — أرأيت بارتلى ؟

موريا — لقد رأيت أهول ما رأت عينان

كاثلين (تخلى عجلتها وتنظر إلى الخارج) سامحك الله ! إنى أراه راكباً جواده بإزاء الرأس الأخضر ، والمهر الرمادى يعدو خلفه

موريا (تهب من جلستها ، فيسقط الوشاح عن رأسها وينحسر عن شعرها الأشيب الأشعث ، وتكرر فى صوت مرتعب) — والمهر الرمادى يعدو خلفه !

كاثلين (مقبلة إلى النار) — مابك ؟

موريا (تتكلم فى بطء شديد) — لقد رأيت أهول ما رأت عينان منذ أبصر (برايد دارا) الرجلَ الميت والطفل بين ذراعيه

كاثلين ونورا — أواه !

(تتقبعان قرب النار بازاء المرأة)

نورا — خبرينا ماذا رأيت !

موريا — ذهبت إلى البئر، ثم وقفت أخافت بالصلاة ، حتى أقبل بارتلى راكباً جواده الأحمر ، والمهر الرمادى وراءه (ترفع يديها كأنما لتخفى عن عينيها شيئاً) الله يرحمنا يا نورا !

كاثلين — ماذا رأيت ؟

موريا — رأيت ميخائيل بعينه

كاثلين (فى هدوء) — كلا يا أماه ليس ميخائيل من رأيت . فلقد وجدت جثته في الشمال القصى . ولقد مات موتة طاهرة يرحمه الله .

موريا (فى شيء من التحدى) — لقد رأيته اليوم يعدو مهطعاً بجواده . وكان السابق بارتلي ، بجواده الأحمر . فأردت أن أقول له : الله يرعاك ، فعصانى لساني ، واختنقت الكلمات فى حلقى ؛ وقال بارتلى : فى حراسة الله ، فلم أستطع أن أجيبه ؛ ثم صرخت ونظرت إلى المهر الرمادى يعتليه ميخائيل وقد ارتدى ثياباً قشيبة وانتعل خفين جديدين

كاثلين (مولولة) — اليوم تحطمنا ! اليوم تحطمنا ولا ريب !

نورا — ألم يقل القسيس الشاب إن الله لن يتركها معوزة بغير بنين ؟

موريا (فى صوت خفيض جلى) — إن مثل بارتلى لا يعلم عن البحر إلا قليلا ، ولسوف نفقده الآن . استقدما إيمون فجهزوا من هذه الأخشاب البيضاء ناووساً حسنا . فلن أعيش من بعدهم طويلا . لقد كان لى بعل وكان لى حمٌ وكان لى في هـذا البيت ستة أبناء — ستة رجال أقوياء كانت ولادتهم علىّ عسيرة ! — عثرت على بعضهم ولم أعثر على البعض ، ولكنهم ذهبوا جميعاً ... فأودت الريح الكبرى بولدىّ ستيفن وشون ، وطوحت بهما إلى الفم الذهبى ثم ولجا هذا الباب فوق لوح من الخشب (تصمت برهة وتجفل الفتاتان كأنما سمعتا حفيفا بالباب الموارب خلفهما .)

نورا (فى همس) — هل سمعت يا كاثلين ؟ هل سمعت صوتاً من الشمال الشرقي ؟

كاثلين (فى همس) — إنى أسمع لجباً وصياحاً بإزاء الساحل

موريا (مستلية لا تسمع شيئا) — وفى فحمة الليل فقد ناشيموس وأباه وجده ، ثم أشرقت الشمس على غير أثر خلفوه ... وانقلبت بياتش قارب فغرق ؛ وكنت جالسة هنا وبارتلى نائم على ركبتى — وكان ما يزال طفلا — فرأيت امرأتين فثلاث نساء فأربعة رجال يدخلون ويرسمون الصليب على صدورهم ساهمين ؛ فرميت ببصرى إلى الخارج فرأيت رجالاً مقبلين وراءهم يحملون شيئاً فى شطر قلع أحمر يقطر ماءً فيرسم فى الطريق أثرا ... وكان يوماً جافاً يا نورا ! ...

(تصمت مرة أخرى ويداها ممدودتان إلى الباب . يفتح ببطء وتجوز بالوصيد عجائز يرسمن على صدورهن الصليب ثم يخطون إلى مقدمة المسرح جانيات الظهور وعلى رؤوسهن خمر حمراء)

موريا (نصف حالمة مخاطبة كاثلين) — أباتش ؟ أم ميخائيل ؟ أم أي شيء أرى ؟

كاثلين — لقد عثروا على ميخائيل فى الشمال القصيّ فكيف نلقاه هنا ؟

موريا — تلك قوة الشباب يا كاثلين ... ومن أدراهم أن ميخائيل هو مَن عثروا عليه ؟ إن رجلاً تتطاوح به الريح وتتقاذفه الأمواج تسعة أيام لكالرسم الطامس لا تتعرفه عينا إنسان ؛ حتى أمـه لو رأته لما علمت أى رجل فى إهابه

كاثلين — بلى يا أماه إنه ميخائيل ! لقد بعثوا إلينا من الشمال القصي مِزقاً من ثيابه

(تقدم إلى موريا قميص ميخائيل وجوربه ؛ موريا تقف فى بطء فتأخذهما بين يديها . نورا تنظر إلى الخارج)

نورا — إنهم يحملون بين أيديهم شيئاً ، والماء يقطر فيخلف على الصخور الكبيرة أثرا

كاثلين (فى همس مخاطبة العجوز التى قدمت) — أبارتلى؟

إحدى النسوة — إنه هو يرحمه الله

(امرأتان صغيرتان تجران المائدة . الرجال يدخلون حاملين جثة بارتلى على لوح من الخشب ، وقد تغطت بشطر من قلع ثم يسجونها على المائدة)

كاثلين (مخاطبة النساء) — وكيف غرق ؟

إحدى النسوة — ألقاه المهر الرمادى إلى البحر فغسلناه على أمواج الصخور البيضاء

(تتقدم موريا إلى المائدة ثم تركع عند رأسها النساء يولولن فى صوت خافت ، ويتمايلن فى بطء ؛ كاثلين ونورا يركعان عند الطرف الآخر من المائدة . الرجال يركعون قرب الباب)

موريا (ترفع رأسها ثم تتكلم كأنها لا تبصر من حولها) — لقد ذهبوا الآن جميعاً ، ولم يعد البحر قادراً على أن ينال منى شيئا . لم يبق ما يجعلنى أقوم الليل داعية حين تعصف الريح فى الجنوب ، أو حين تتلاطم الأمواج فى الشرق ، أو حين تتلاطم الأمواج فى الغرب ، أو حين تختلط أصداؤها فى أذنىّ . لن أذهب إلى سامهان لآتى بالماء المقدس ، وحين تعول النسوة لن أهتم لحال البحر . ناولينى الماء المقدس يانورا فما زالت منه بقية فى القنينة

نورا — (تناولها إياه)

موريا (تسقط ثياب ميخائيل عند قدمى بارتلى وترش عليه الماء المقدس) — ما كان ذاك لأنى لم أدع لك الله القدير يا بارتلى ، ولا لأنى لم أبتهل إلى ربك فى فحمة الليل حتى ليبهم عليك قولى ؛ ولكنى الآن قد أشرفت على الراحة إذ أنام فى ليالى سامهان ؛ وإنها الراحة لو وجدنا حفنة من دقيق بليل وسمكة مريحة نأكلها (تركع ثانية وترسم الصلب على صدرها وتهمس بالصلاة)

كاثلين (مخاطبة رجلا عجوزا) — حين تشرق الشمس اصنع أنت وإيمون ناووساولدينا خشب أبيض جميل ، اشترته — كان الله فى عونها ! — ظانة أن سنجد ميخائيل . وسأعطيكما كعكة طازجة تأكلانها إبان عملكما

الرجل العجوز (ينظر إلى الأخشاب) — وهل لديك مسامير !

كاثلين — كلا يا كولم ، فإنا لم نفكر فى هذا الأمر ..

رجل آخر — عجيب ! ألا تفكر فى المسامير ، وقد رأت النواويس كلها كيف تصنع !

كاثلين — لقد أوقرتها السنون وناءت بما حملت

(موريا تقف فى بطء مرة أخرى ، ثم تبسط ثياب ميخائيل بجانب الجثة ، وترشها بما بقى من الماء المقدس)

نورا (فى همس مخاطبة كاثلين) — لقد هدأ روعها الآن وسكنت . ويوم مات ميخائيل كانت تبدو مولولة بين البيت والبئر ... لقد كان ميخائيل أحب إليها ... من كان يظن هذا ؟

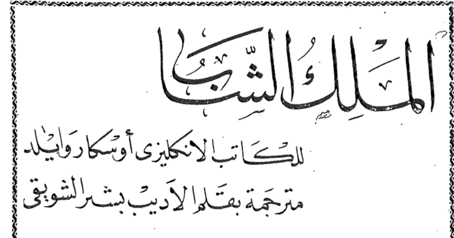
كاثلين (فى بطء وجلاء) — إن امرأة عجوزاً لتمل أى شىء تفعل ... لقد غبرت تسعة أيام تصرخ وتولول وتملأ البيت حزنا

موريا (ترد الزجاجة الفارغة أسفل المائدة ، ثم تضع كلتا يديها على قدمى بارتلى) — لقد ذهبوا الآن جميعاً وانتهى كل شىء . يرحم الله بارتلى وميخائيل وشيموس وپاتش وستيفن وشون (تطأطئ هامتها) ويرحمنى الله يا نورا ! ويرحم الله كل من لا يزال حياً على ظهر هذه الأرض !

(تصمت ويعلو عويل النساء ، ثم يخفت ويتضاءل)

موريا (مستتلية) — لقد مات ميخائيل فى الشمال القصىّ ميتة طاهرة ، وسيثوى بارتلى فى ناووس جميل من الأخشاب البيضاء ، ثم يوارى فى تابوت عميق ؛ ففيم نأمل بعد ؟ لن يخلد على الأرض مخلوق فعلينا أن نرضى (تركع مرة أخرى ، ويسدل الستار رويدا)

ترجمة شكرى محمد عياد
كلية الآداب



هي آخر ليلة تسبق اليوم المعين لتتويج الملك الشاب وكان يجلس وحيداً في غرفته الفخمة ، بعد أن خرج من حضرته رجال بلاطه جميعهم مقبلين الأرض بين يديه تبعاً لعادات ذلك الزمن ، عائدين إلى قاعة القصر الكبرى ليتلقوا آخر درس في المعاشرة من أستاذ التشريفات . لقد كان بينهم من لا يزال محتفظاً ببعض أخلاقه الفطرية ، ومما يؤسف له حقاً أن مثل هذه الأخلاق تعد في البلاط من أكبر الكبائر

لم يأسف الغلام لرحيلهم — أقول الغلام لأنه كان غلاماً حقيقة لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره — بل استلقى على الوسائد الناعمة متنفساً الصعداء وقد كان وهو مضطجع على فراشه ينظر بعينيه المستوحشتين وفمه مفتوح أشبه مايكون بإله الأحراج الأسمر أو بحيوانات الغابة الصغار إذا ماوقعت في فخاخ الصيادين

والواقع أن الصيادين هم الذين عثروا عليه صدفة وهو يجرى عارى الساقين وراء قطيع المعّاز الفقير الذى ربّاه وكان عنده بمنزلة ولده

كان الطفل ابن وحيدة الملك الشيخ ، ولدته على أثر اقتران سرى برجل من العامة ، وقد اختلف الناس في حقيقة ذلك الشخص فبعضهم يقول إنه شاب غريب يعزف على القيثار أوقع الأميرة في شرك جماله ، وآخرون يتحدثون عنه أنه فنان رفيع النسب جاء من « رميني » واختفى فجأة من المدينة تاركا عمله في الكنيسة قبل أن ينتهي . وقد سرق هذا الطفل من جنب والدته أثناء رقادها قبل أن يبلغ سبعة أيام من عمره وعُهد بتربيته إلى قروي يعيش هو وزوجته في طرف غابة تبعد عن المدينة مسير يوم ؛ وماتت والدته الفتاة البيضاء ، فأشاع بعضهم أنها ماتت من الحزن ، وقال أطباء البلاط ماتت من الحمى ، وقال آخرون لا بل ماتت منتحرة بأن تجرعت في ساعة من ساعات ضعفها كأساً من النبيذ المعتق مزجت به كمية من السم الايطالى الزعاف ؛ ويذكرون أنه في الوقت الذي وقف فيه الرسول الأمين بالطفل أمام كوخ المعّاز وطرق بابه الغليظ ، كانت جثة الأميرة تنزل في قبر قد شق في أرض صحراوية خارج أسوار المدينة . ويقال إن جثة أخرى كانت ملقاة في هذا القبر هي جثة شاب خلاّب الجمال أجنبي الملامح قد شدّ وثاقه بحبل متين وأثخن صدره بالجراح الحمراء

بمثل هذه القصة كان يتهامس الناس ، ولكن من الثابت أن الملك الشيخ قد أرسل في طلب الغلام وهو على فراش الموت وأقرّه بحضور مجلس الوزراء ولياً لعهده ؛ وقد يكون الدافع له إلى هذه المبرّة رغبته في التكفير عن جريمته

الفظيعة أو مجرد الحرص منه على إبقاء الملك فى سلالته

وقد أظهر الغلام منذ أن اعترف به أنه قوىّ الشعور بالجمال ؛ وقد كان لشعوره هذا أعظم الأثر فى حياته ، فهؤلاء الذين ألحقوا بخدمته ليكونوا رهن إشارته كثيراً ما تحدثوا عن صرخة الاغتباط التى تكسرت على شفتيه وعن الفرح الأكبر الذى استولى عليه حين رأى الثوب الناعم والجواهر الثمينة تقدم إليه ليستعيض بها عن ثوبه الجلدى الخشن وفروته الغليظة

ولكنه فقد مع الأيام حرية الحياة فى الغابة ؛ وكان كثيراً ما يشكو من حفلات البلاط المضجرة التى كانت تستغرق كل يوم شطراً كبيراً من النهار ؛ غير أنه وجد فى القصر العجيب الذى أصبح الآن سيده ، عالماً جديداً يصلح ميداناً لنشاطه ، حتى إذا سنحت له فرصة للتخلص من مجلس الدولة أو من قاعة العرش ، جرى هابطاً السلم الرخامى الكبير وأخذ يطوف الغرف غرفة غرفة ويتنقل فى الممرات ممراً ممراً كالذي يبحث علّه يجد في الجمال مسكناً لآلامه أو مجدداً لقواه . وكان يرافقه أحياناً فى رحلات الاكتشاف هذه على حد تعبيره وصفاء البلاط الظرفاء بأرديتهم الفضفاضة وأشرطتهم الزاهية الخفاقة ؛ غير أنه كان يفضل الوحدة فى غالب الأحيان ، مدركا بسليقته اليقظة أن أسرار الفن إنما تدرك فى السر أحسن إدراك ، وان الجمال كالحكمة إنما يحب من العابد العزلة

وفى هذا الدور تناقل الناس عنه بعض القصص : ذكروا أن حاكم المدينة الضخم دخل عليه يوماً ليلقى بين يديه خطاباً فى مصالح سكان المدينة فوجده راكعاً فى خشوع حقيق أمام صورة كبيرة قد أحضرت من البندقية منذ لحظات ؛ وأنه افتقد مرة فلم يعرف أحد مكانه ، وأخيراً وبعد تفتيش واسع النطاق وجدوه فى غرفة صغيرة تقع فى أحد أبراج القصر الشمالية محدقاً فى ذهول بتمثال « أدونيس » ؛ وتذهب القصة إلى أنه قد شوهد يضغط بشفتيه على جبين تمثال قديم كان قد اكتشف فى قاع نهر أثناء اشتغال العمال ببناء جسر حجرى ، وإلى أنه أمضى ليلة بطولها وهو يتأمل فى منظر انعكاس ضوء القمر على تمثال « انديميون » الفضى

كان يفتنه كل ماهو ثمين ونادر فيرسل التجار بعضهم إلى مصر ليفتشوا له عن هذا النوع الأخضر من اللازورد الذي لا يوجد إلا فى قبور الملوك ، والذى يقال إن فيه خواص السحر ؛ ويرسل البعض الآخر إلى فارس من أجل الأبسطة الحريرية والخزف المدهون ؛ ويرسل آخرين إلى الهند ليبتاعوا له شفوفاً ودمالج وعاجاً ملوناً ومينا أزرق وأحجار وشم وطيالس من الصوف الناعم

ولكن الذى شغل باله أكثر من كل شيء هو الثوب الذى سيرتديه فى حفلة تتويجه وقد نسج بخيوط من ذهب ، ثم التاج المرصع بالجواهر الوهاجة ، والصولجان ذو الحلقات الماسية المنتظمة صفاً صفاً . لاريب أنه كان يفكر تلك الليلة فى هذه القطع الخلابة وهو مضطجع على أريكته الفاخرة مراقباً حطب الصنوبر وهو يحترق في الموقد

ولقد خُيّل إليه في تلك اللحظة أنه عند مذبح الكنيسة فى حلة الملك الجميلة وابتسامة الطفل قد

ارتسمت على شفتيه فأضاءت عينيه السوداوين بنور بهيج . وها هوذا ينهض من مقعده ويتكىء على بناء الدخنة المقوس ويدير عينيه في الغرفة الباهتة الضوء، وكان يستطيع أن يرى في الخارج قباب الكنائس الضخمة تلوح كالفقاقيع فوق المنازل المظلمة ، والحراس المتعبين يسيرون في الطريق المغشى بالسحاب إلى جانب النهر صاعدين هابطين ، والعندليب يغنى فى حديقة بعيدة ، وعبير الياسمين يفوح من النافذة المفتوحة

لقد رفع خصل شعره الفاحم عن جبهته وتناول القيثار وترك أصابعه تعبث بأوتاره فدمعت أجفانه المثقلة وسرى فى جسمه فتور غريب

إنه لم يشعر بمثل هذا الشوق من قبل ، ولا بمثل هذا الفرح الشامل ، ولا بمثل غموض هذه الأشياء الجميلة وسحرها . وحينما دقت ساعة البرج مؤذنة بانتصاف الليل لمس جرساً فاذا بوصفائه الغيد الأماليد يدخلون عليه وينزعون عنه ثيابه وينثرون الأزهار على وسادته ، وبعد قليل يغادرون الغرفة فيسلم جفنيه للرقاد

***

وقد رأى فى رقاده هذه الرؤيا :

وجد نفسه واقفاً فى حجرة واطئة طويلة فى وسط الدوي المتصاعد من حركة الأنوال الكثيرة ، وضوء الصباح الضعيف يطل على الغرفة من النوافذ المشبكة بقضبان الحديد فيجعله يرى أشباح النساجين قد انحنوا فوق أنوالهم ، والأطفال قد جثموا بأجسادهم الهزيلة المريضة على القاعد المتقاطعة وقد قرص الجوع وجوههم ، وأرجف البؤس أيديهم الصغيرة والنساء النحيلات يجلسن إلى مناضد الحياطة . وكان الهواء فاسداً ثقيلاً ، والمكان قد امتلأ برائحة خبيثة والجدران تنز بالرطوبة

تقدم الملك الشاب نحو أحد الحاكة ووقف إلى جانبه فنظر إليه الحائك غاضباً وقال :

— لماذا تراقبني ؟ أأنت جاسوس أرسلك معلمنا لتتجسس علينا ؟

فسأله الملك الشاب : ومن هو معلمك ؟

أجاب الحائك بمرارة : إنه رجل مثلى ، وفى الحق لا يوجد بيننا من فارق إلا أنه يرتدى أجمل الثياب وأنا أرتدى أحقرها ، وأننى مريض من الجوع وهو مريض من التخمة

قال الملك الشاب : إن رحمة الله واسعة وما أنتم بعبيد

أجاب الحائك : فى الحرب يستعبد القوى الضعيف ، وفي السلم يستعبد الغنى الفقير . يجب أن نشتغل لنعيش . إننا نكدح لهم طول النهار وهم يكدسون الذهب في خزائنهم ، وأطفالنا يذوون قبل الأوان . إننا نعصر العنب ويشرب غيرنا الخمر ؛ ونحصد القمح وبيوتنا فارغة منه ، إننا مصفدون وإن كانت العين لا ترى أصفادنا ؛ وإننا عبيد وإن كان الناس يدعوننا أحرارا

— وهل هذا هو حال الجميع ؟

أجاب الحائك : إنه حال الجميع ، حال الشبان وحال الشيوخ ؛ حال النساء وحال الرجال ؛ حال الأطفال الصغار وحال الطاعنين فى السن . لقد أنقض التجار ظهرنا ، ومن شقائنا أننا مضطرون أن نخضع لأوامرهم . يمر بنا القسيس راكباً جواده

لاعباً بمسبحته ولا أحد يهتم بنا ، زحف الفقر بعينيه الجائعتين فى أزقتنا التى لا ترى الشمس ، تتبعه الجريمة بوجهها البشع ، يوقظنا البؤس فى الصباح ويجلس الذل معنا فى المساء ، ولكن مالك ولهذا ؟ إنك لست واحداً منا ، إن وجهك يطفح بالبشر

وأشاح بوجهه عن الملك الشاب وأخذ يرمى الوشيعة وسط النول ، فرأى الملك أن الخيوط التى شدت إلى النول من ذهب ، فاستولى عليه جزع عظيم وقال للحائك :

— وأى ثوب هذا الذى تحيكه !

أجاب الحائك : إنه الثوب الذى سيرتديه الملك يوم تتويجه . ولكن أنت ما صلتك بهذا ؟

فصرخ الملك الشاب صرخة أيقظته من رقاده فاذا به لا يزال فى غرفته الخاصة ، وإذا به يرى خلال النافذة القمر الملون معلقاً فى الفضاء

***

ولكن الرقاد غلبه مرة ثانية فرأى هذه الرؤيا :

وجد نفسه ممدداً على ظهر مركب ضخم يسيره مائة عبد بمجاديفهم وقد جلس إلى جانبه على بساط ربان المركب وكان أسود كالأبنوس على رأسه عمامة من الحرير قرمزية اللون ، وتتدلى من شحمتى أذنيه الغليظتين حلقتان كبيرتان من الفضة ، ويحمل فى يديه ميزاناً من العاج . وكان العبيد عراة الأجسام إلا من جلود بالية ، قد شد وثاق كل واحد منهم إلى جاره تلفحهم حرارة الشمس وتثخن أجسادهم سياط الزنوج . لقد بسطوا سواعدهم المنحنية ودفعوا المجاديف الثقيلة خلال الماء ؛ وأخيراً وصلوا إلى خليج صغير فوقفوا يسبرون غوره ، وفى تلك الأثناء

هب نسيم عليل من الشاطئ فغطى ظهر المركب والشراع الكبير بغبرة حمراء زاهية . وعندما ألقوا المرساة وطووا الشراع اندفع الزنوج إلى السفينة وأحضروا سلماً طويلاً مصنوعاً من حبال قد أثقلت بالحديد فرماها الربان فى البحر بعد أن ثبت طرفها بدعامتين فى المركب ، وحينئذ أمسك الزنوج بأصغر العبيد سناً فنزعوا عنه قيوده وحشوا أنفه وأذنيه بالشمع وشدوا حجراً كبيراً إلى صدره فدب على السلم تعباً واختفى في البحر

وبعد قليل خرج من الماء والتصق بالسلم وهو يلهث ، يحمل لؤلؤة فى اليد اليمنى فتناولها منه الزنوج ودفعوا به إلى الوراء

كان يغوص العبد فى الماء ويخرج ، ثم يغوص ويخرج ، وفي كل مرة كان يحمل معه جوهرة رائعة فيتناولها منه ربان السفينة ، وبعد أن يزنها يضعها فى محفظة من جلد أزرق

لقد حاول الملك الشاب أن يتكلم ، ولكن لسانه التصق بسقف حلقه وأبت شفتاه أن تتحركا . لغط الزنوج متنازعين على خيط خرز أبيض ، وحام مركبان حول المركب ، وأخيراً خرج الغائص لآخر مرة يحمل جوهرة أضوأ من نجمة الصباح ولكن وجهه كان أزرق زرقة عجيبة وحين ارتمى على ظهر المركب أخذ الدم يتدفق من أذنيه وأنفه . لقد تخبط لحظة ثم سكن سكون الموت . فهز الزنوج أكتافهم وقذفوا بالجسم إلى البحر ، وابتسم الربان من بعيد وحينما وصل إليهم تناول الجوهرة ونظر فيها ثم أدناها من جبينه وانحنى

قائلاً : إنها تليق بصولجان الملك ، وأشار إلى الزنوج أن يسحبوا الغائص . وحينما سمع الملك الشاب ذلك صرخ صرخة عظيمة أيقظته من رقاده فأبصر من خلال النافذة أصابع الفجر الشهباء الطويلة ممسكة بالنجوم الزاوية

* * *

ولكن الرقاد غلبه مرة ثالثة فأبصر هذه الرؤيا : لقد ألفى نفسه تائهاً فى غابة كثيفة تفح فيها الأفاعى وتطير الببغاوات البيضاء من غصن إلى غصن ، وتتمدد السلاحف الهائلة راقدة على الوحل الملتهب ، وكانت الأشجار مكتسية بالقردة والطواويس

وقد ظل يسير حتى وصل إلى نهاية الغابة ، وهنالك أبصر كتلا عظيمة من الرجال يكدحون فى مجرى نهر جاف ؛ لقد تجمعوا كالنمل عند هاتيك الصخور ، يحفر بعضهم فى الأرض ، ويفلق بعضهم الصخور بالفؤوس الضخمة ، ويستأصل آخرون الصبار من جذوره ؛ كانوا يجرون من هنا لهنالك ينادى بعضهم بعضاً وليس فيهم الكسلان

وكان يراقبهم الموت والطمع من ظلمة كهف

قال الموت : إننى متعب ؛ أعطنى ثلث الرجال ودعنى أذهب

ولكن الطمع هز رأسه وأجاب : إنهم خدمى

قال الموت : ماذا تحمل فى يدك ؟

أجاب الطمع : ثلاث حبات من القمح ، ولكن مالك ولهذا ؟

صاح الموت : أعطنى حبة منها لأغرسها فى حديقتى ، حبة واحدة ثم أذهب بعيدا

قال الطمع : بل لا أعطيك شيئاً ، وخبأ يده فى ثوبه الفضفاض

فابتسم الموت وتناول كأساً ثم غمرها فى مجرى الماء فخرجت من الكأس البرداء[1] تسير بين الجمع الحاشد يتبعها ضباب بارد ، وتركض إلى جانبها حشرات الماء ، فوقع ثلث الخلق أمواتاً

وحينما شاهد الطمع أن ثلث الناس قد ماتوا أخذ يضرب صدره ويبكي ، ضرب صدره العارى وصاح بأعلى صوته : لقد ذبحت ثلث خدمى . أغرب عن هذا المكان . إن الحرب مستعرة فى جبال التتر ، وملوك كلا الطرفين المتقاتلين يدعونك . لقد ذبح الأفغان الثور الأسود وهم فى طريقهم إلى المعركة ؛ فما الذى يحبب لك الإقامة فى وادىّ هذا ، أغرب من هنا ولا تعد مرة ثانية

أجاب الموت : لا أذهب مالم تعطنى حبة القمح

ولكن الطمع قبض يده ، وشد على أسنانه وتمتم : لن أعطيك شيئاً

فابتسم الموت وتناول حجراً أسود ورماه فى الغابة فإذا بالحمى تخرج من شجرة برية ضخمة فى ثوب من اللهب ، وسارت بين الجمع الحاشد لا تلمس أحداً إلا صرعته

فارتعد الطمع وحثا على رأسه التراب صائحاً : إنك قاس ، إنك قاس ؛ يوجد مجاعة فى مدن الهند ذات الأسوار ، وقد جفت آبار سمرقند ، وهاجم الجراد مصر من الصحراء ، والنيل لم يعد يفيض على

(١) الملاريا

شطئانه بالخيرات ؛ إذهب من هنا إلى هؤلاء الذين هم فى حاجة إليك واترك لى خدمى

فأجاب الموت : لا أذهب ما لم تعطنى حبة القمح

أجاب الطمع : لن أعطيك شيئاً

فابتسم الموت ثانية وصفر من خلال أصابعه فجاءت امرأة تطير فى الهواء قد كتب على جبينها : « الطاعون » يحف بها سرب هزيل من العقبان ، فغطت الوادى بأجنحتها ولم يبق أحد على قيد الحياة

وعندها اختفى الطمع فى الغابة وهو يصرخ ، ووثب الموت على جواده الأحمر وأطلق له العنان فجرى به يسابق الرياح

وبكى الملك الشاب وقال كمن يخاطب نفسه : ليت شعرى ! من كان هؤلاء الناس وعم كانوا يبحثون ؟

أجاب رجل كان يقف وراءه : عن ياقوت لتاج الملك

فذعر الملك الشاب والتفت حوله فأبصر رجلاً فى ثياب الحجاج يحمل فى يده مرآة فضية ؛ فشحب لونه وقال : لتاج أى ملك ؟

فأجاب الحاج : إذا نظرت فى هذه المرآة فإنك تراه

فلما نظر فى المرآة وأبصر فيها وجهه هو صرخ صرخة عظيمة واستيقظ ، فإذا بنور الشمس اللامع ينساب فى الغرفة ، وطيور الحديقة تغنى وهى على الأغصان

* * *

ودخل عليه كبير الأمناء وأعاظم رجال الدولة فقبلوا الأرض بين يديه ، وأحضر له وصفاؤه الثوب المصنوع من ذهب ووضعوا التاج والصولجان أمامه ، فنظر الملك فى الثوب والتاج والصولجان فأخذ بجمالها ولم يكن يخطر على باله أنها يمكن أن تكون بمثل هذا البهاء ، ولكنه تذكر رؤاه فقال لحاشيته : أبعدوها عنى ! سوف لا أرتديها

فشده رجال البلاط وابتسم بعضهم حاسباً أنه يمازحهم

ولكنه عاد يقول فى رزانة : خذوا هذه الأشياء واخفوها عنى ، لا أرتديها وإن كان اليوم يوم تتويجى ، لأن ثوبى هذا قد نسج بأيدى الألم البيضاء على نول الأحزان . إن الدم فى قلب الياقوتة ، والموت فى قلب اللؤلؤة ، ثم قص عليهم الرؤيا التى شاهدها

فلما سمعها رجال البلاط أخذ ينظر بعضهم إلى بعض ويتهامسون قائلين : فى الحق إنه لمجنون ! فهل الحلم إلا الحلم ؟ وهل الرؤيا إلا الرؤيا ؟ إن هى إلا أضغاث أحلام لا تستأهل الاهتمام ؛ وما علينا أن نفعل فى سبيل هؤلاء الذين يكدحون من أجلنا ؟ هل يجب ألا يأكل الإنسان الخبز حتى يرى الزارع ؟ أو ألا يشرب الخمر حتى يكلم العاصر ؟

وقال كبير الأمناء يخاطب الملك : مولاي صاحب الجلالة ، أتوسل إليك أن تبعد عنك هذه الأفكار السود ، وترتدى هذا الثوب الجميل ، وتضع على رأسك هذا التاج البهى ، إذ كيف يستطيع الشعب أن يعرف أنك الملك إذا لم تظهر له فى حلة الملك ؟

فنظر إليه الملك الشاب وسأله : أحقا ما تقول ؟ أصحيح أنهم لا يعرفونني إذا لم أرتد حلة الملك ؟

فصاح كبير الأمناء : إنهم سوف لا يعرفونك يا مولاي

فأجابه : كنت أحسب أنه يوجد بين الرجال من يرتدي مثل ثياب الملك ، ولكن قد يكون الأمر كما تقول ، غير أنى لن أرتدى هذا الثوب ، ولن أتوج بهذا التاج ، وسأغادر هذا القصر كما جئته

ثم أمرهم أن يغادروه جميعهم إلا وصيفاً كان أصغر منه بعام احتفظ به كرفيق وخادم . وبعد أن اغتسل بماء قراح فتح صندوقاً كبيراً مزيناً بالرسوم وأخرج منه الثوب الجلدى والفروة الغليظة التى كان يلبسها وهو يرعى على جانب التل قطيع الماعز ، فارتداها وتناول فى يده هراوة المعّاز الضخمة ، ففتح الوصيف الصغير عينيه الكبيرتين الزرقاوين استغراباً وقال له وهو يبتسم : إني أرى ثوبك يا مولاى وصولجانك ولكن أين هو تاجك ؟

فقصف الملك الشاب غصناً من شجرة العسلوج البرية التى كانت تتسلق على الشرفة فثناه وجعل منه دائرة ووضعه على رأسه وأجاب الوصيف : هذا هو تاجى

وخرج فى هذا الزى من حجرته إلى القاعة الكبرى حيث كان فى انتظاره النبلاء العظام ، فضحك منه بعضهم وصاح به آخرون : مولانا إن الشعب ينتظر مليكه وأنت تُرى نفسك له شحاذاً

وقال جماعة منهم وقد استشاطهم الغضب : إنه يجلب العار لدولتنا ، وإنه لا يليق أن يكون سيدنا . ولكنه لم يجبهم بكلمة واحدة بل استمر فى سيره وهبط السلم الرخامي وخرج من الأبواب البرنزية وامتطى صهوة جواده واتجه نحو الكتدرائية والوصيف الصغير يجرى إلى جانبه

وابتسم الشعب وقال : إنه لملك مجنون هذا الذى يسير ممتطياً جواده ! وأخذوا يسخرون منه

فشد عنان جواده ووقف يخاطب الشعب بقوله : ولكننى أنا الملك ، وقص عليهم أحلامه الثلاثة . فتقدم إليه رجل من وسط الناس وقال يخاطبه فى مرارة : إن فى طغيان الأغنياء حياتنا ، وأبهة الملك تعلمنا الشيء الكثير ، وأخطاؤه تعطينا خبزنا ، والغربان وحدها هى التى تمدنا بالعون . أتستطيع أنت أن تقول للمشترى اشتر بكذا وللبائع بع بهذا الثمن ؟ أنا لا أظن ذلك ، إذن فارجع إلى قصرك وارتد حلتك الجميلة المزصعة باللآلىء فما أحسبك تستطيع أن تفعل شيئاً من أجلنا

فاغرورقت عينا الملك الشاب بالدموع ولكنه لكز جواده فسار به بين همسات الشعب ، أما الوصيف الصغير فقد داخله الخوف فتركه

وحينما وصل إلى باب « الكاتدرائية » الكبير أشهر عليه الجنود بلطاتهم وقالوا : ماذا تفعل هنا ؟ لا يدخل من هذا الباب إلا الملك

فقال لهم : وقد علت وجهه أمارات الغضب : أنا الملك ، ودفع بلطاتهم عنه ودخل

وحينما شاهده الأسقف العجوز يدخل فى ثياب الراعى نهض عن أريكته مستغرباً وتقدم نحوه وقال له : أين حلة الملك يا ولدى ؟ بأى تاج سأتوجك وأى صولجان سأضع فى يدك ؟ إن هذا اليوم هو يوم فرح لك لا يوم مهانة

قال الملك الشاب : أيمكن أن يرتدى الفرح ما حاكته يد الحزن . وقص عليه أحلامه الثلاثة . وحينما

سمعها الأسقف قطب حاجبيه وقال :

— أي ولدي ! إنني رجل عجوز في آخر أيامي؛ وأنا أعلم أن آثاماً كثيرة ترتكب في هذا العالم الواسع : ينزل قطاع الطرق العتاة من الجبال ويخطفون الأطفال الصغار ، ويبيعونهم إلى تجار الرقيق ، ويجثم الأسود يتربصون القوافل ليثبوا على الجمال ، ويقضم الثعالب الكرمة المتمددة على التلال ، ويخرب قرصان البحر السواحل ، ويحرقون مراكب الصيادين ، ويتجول الشحاذون في المدينة يأكلون طعامهم مع الكلاب . فهل تستطيع أنت أن تحول دون ذلك ؟ أتستطيع أن تجلس الشحاذ في بلاطك ؟ هل ينفذ الأسد أوامرك ؟ وهل يطيعك الخنزير البرى ؟ أليس الذى خلق الأسي أحكم منك ؟ إني لا أوافقك على هذا الذى صنعت . بل أطلب إليك أن تركب وتعود إلى قصرك وتبسط أسارير وجهك ، وترتدى الكسوة التى تليق بالملك . إن متاعب هذا العالم أثقل من أن يحتملها رجل واحد ، وأحزان العالم أعظم من أن يطيقها قلب واحد

قال الملك الشاب : أأنت تقول مثل ذلك ، وتقوله فى هذا البيت ؟

وانصرف عن الأسقف متسلقاً درج المذبح إلى أن وقف أمام تمثال المسيح الذى كان يحمل فى يديه الكأسين الذهبيتين : كأس العشاء الربانى ، وفيه الخمر الصفراء ، وكأس الزيت المقدس ، فركع أمام التمثال والشموع الكبيرة تتألق إلى جانب المزار المرصع باللآلىء ، والبخور المحترق يتصاعد إلى القبة أكاليل صغيرة ، فأحنى رأسه يصلى ، وانسل القساوسة بقبعاتهم الخشنة من المذبح

وفجأة سمع صوت جلبة آتية من الشارع ثم دخل النبلاء وقد تزينوا بشاراتهم الخفاقة وارتدوا دروعهم الفولاذية اللامعة ، وأشهروا سيوفهم وكانوا يصيحون : أين صاحب الأحلام هذا ؟ أين هذا الملك الذى تزيا بزي الشحاذ ؟ هذا الغلام الذى جلب لدولتنا العار ، سنذبحه ولا ريب لأنه لا يصلح حاكماً علينا . أما الملك الشاب فقد أحنى رأسه وصلى ؛ ولما انتهى من صلاته نهض والتفت إلى من حوله يرمقهم بنظرة حزينة . عندها سلك إليه نور الشمس من خلال النافذة وغمره ، ونسجت أشعة الشمس حوله ثوباً حريرياً شفافاً هو أجمل من الثوب الذى نسج له من ذهب ، ونوّر غصن العسلوج الميت فاكتسى فُلاً أضوأ من اللآلىء ، وفتحت العصا الجافة فاكتست ورودا أكثر احمراراً من الياقوت

وقف هنالك فى حلة المُلك ، وقد استولى على المكان مجد الله ، وخيل للجميع أن القديسين يهمون للحركة وهم فى حفرهم ذات النقوش

وقف فى حلة الملك الجميلة فعزف الأرغن أنغامه الشجية ، ودوت الطبول ، وأخذ الصبية يغنون ؛ أما الشعب فقد ركع فى خشوع ، وأغمد النبلاء سيوفهم وأقسموا للملك الشاب يمين الطاعة ، وشحب لون الأسقف وارتجفت يداه وركع يصيح أمام الملك : لقد توجك من هو أعظم مني

ونزل الملك الشاب عن المذبح المرتفع ، ثم سار إلى قصره وسط الشعب المحتشد فعنت لوجهه الأبصار وكان أشبه بوجه ملاك

« شرق الأردن » **بشير الشريقى**

إن تهمل النار يصعب عليك إطفاؤها

للقصصي الروسي الكونت ليو تولستوي

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كان فى إحدى القرى الروسية فلاح يدعى «إيفان سترا تشيا كوف» وهو من أقوى الفلاحين جسما وأسعدهم حالاً . وكان له ثلاثة أبناء : أما أحدهم فتزوج ، وأما الثانى فقد عقدت خطبته تمهيداً للزواج ، وأما الثالث فلم يشغله شاغل عن فأسه ومحراثه

وكانت زوجة إيفان عاقلة صالحة الادارة . وزوجة ابنه مسالمة صبورة على العمل . فعاشت هذه الأسرة فى وئام ولم يكن ليعلو فيها صوت غير صوت الأب عند ما تعتوره نوبة الربو

وكان إيفان يملك فى جملة ما يملكه ثلاث مهارى ولكل منها فصيل . ويملك أيضاً خمسة عشر رأساً من الماشية وبقرة وعجلها . وكانت المرأتان تقضيان ساعات النهار فى صنع الأحذية للأسرة وفى خياطة الثياب والمساعدة فى أعمال الحقل . ويقضى الرجال هذه الساعات فى أعمالهم الزراعية . وإذا ما قل نتاج الأرض فى عام من الأعوام اعتاضوا عن النقص ببيع شئ من المواشى ، وبذلك سارت شئون الأسرة على خير ما يرجى

لكنه لسوء الحظ كان يقيم بالمنزل المجاور رجل اسمه « جبريل شرومى » أو جبريل الأعرج وكانت بينه وبين إيفان عداوة شديدة

وقد كانت الأسرتان فى عهد « جوري » والد جبريل وعهد والد إيفان على صلات حسنة ؛ فاذا احتاج النساء فى أحد المنزلين إلى غربال أو مثل ذلك ، أو احتاج الرجال إلى فأس أو ما أشبهه ، بادر أحد المنزلين إلى استعارة ما يريده من جاره . وكذلك إذا رعت بقرة مما يملكه أحد الفريقين فى أرض الفريق الآخر كان كافياً أن يعالج الأمر بالرجاء إليها أن تمنع الماشية من اجتياز حدود الأرض التى أعددت لها . أما الضن بما يطلب ، وأما اغتيال حاجات الجار فأمران لم يعرفا فى العهد الأول بين أهل المنزلين المتجاورين . فلما مات كبيرا الأسرتين نشأ الخلاف وكان مداره حول صغائر تافهة

كان لزوجة ابن إيفان دجاجة تبيض فى الحديقة ؛ وفى أحد الأيام أزعج الأطفال هذه الدجاجة على ما يظهر فطارت إلى الحديقة الأخرى وألقت ببيضتها هناك ؛ وذهبت زوج الابن كعادتها فلم تجد البيضة ، وسألت حماتها وإخوة زوجها فقالوا إنهم لم يأخذوا شيئا . وزاد أصغر الأبناء واسمه « تارا » على ذلك أن الدجاجة لابد أن تكون قد ألقت بيضتها فى منزل الجيران لأنه سمع الصيحة من هذه الناحية

وأطلت فرأت الدجاجة فى حديقة الجيران تهيئ مع ديك مبيتاً لها فى تلك الحديقة ، فسألت الجارة وكانت إذ ذاك واقفة بالحديقة : أليست هذه دجاجتها؟ فقالت : نعم . وطلبت إليها منعها عن تخطي السور بين المنزلين

قالت : «ألم تضع دجاجتنا بيضها فى حديقتكم؟»
فكان الجواب : « لا علم لنا بشيء من ذلك، وعندنا بحمد الله من البيض ما فيه الكفاية . وهل تحسبيننا نأخذ ما هو ملك الجار ؟ كلا يا جارتي كلا »

غضبت الصغيرة من هذا الجواب وقالت كلمة كان الأولى ألا تقولها ، فردت عليها الجارة بكلمتين من نفس النوع ، واشتدت اللهجة وساءت ، وخرجت زوجة إيفان فاشتركت فى هذه المعركة الكلامية ، ثم خرجت زوجة جبريل فأرت جارتها حدة لسانها ؛ وتحول الحديث العنيف إلى ضجة ، فصارت كل منهن تصيح بأعلى صوتها ؛ وانقلبت المحاجة إلى كلمات من هذا النوع : « أنت كذا ... وأنت كذا ... أنت لصة ... وأصابك الطاعون ... أنت أتلفت غربالى يوم استعرته ... ردى إلى الذى عندك ... »

والتقت الجسوم بعد هذا السباب فتمزقت الثياب، ووصل جبريل فى هذه اللحظة إلى الميدان ، فتولى الدفاع عن زوجته ؛ وجاء إيفان وابناه وانضموا إلى الجانب الآخر ؛ وكان إيفان قوياً ولم يقصر فى إظهار قوته ؛ وجاء الفلاحون من المنازل المجاورة ليفرقوا بين المتشاجرين ، ولكن لم يصلوا إلا بعد أن جرد إيفان جاره من لحيته

وجمع جبريل شعره المنتوف وذهب إلى محكمة الإقليم وهو يصيح : « إننى لم أربِّ لحيتى هذا العمر لكى ينتفها إيفان »

ولم يفت زوجة جبريل أن تذكر جارتها بأن إيفان سيسجن أو ينفى إلى سيبريا من أجل جريمته هذه

كانت هذه بداية العلاقات السيئة بين الجيران ، واستمرت الخصومات منذ ذلك اليوم ؛ وكان قسيس القرية لا يكف عن وعظهما ودعوتهما إلى الصلح ، لكن أحداً لم يصغ إلى دعوة من هذا القبيل

قال القسيس : « إنكما تبديان حماقة عظيمة إذ تأذنان لهذه الخصومة بالاستمرار ، ويكفيكما أن تتذكرا أن سببها بيضة . إن خسارة بيضة ليست بالشيء الذي يؤسف له . ومع أنكما تلحفان فى ذكر العداوة فلا يزال أمامكما مجال للصلح والتفاهم فليذهب كل منكما إلى الآخر طالباً صفحه ، نازلاً عن حقه إن كان يحسب أن له حقا ؛ وليس يبقى الحق كما هو إذا استبقاه المرء فى نفسه ، ولكنه يزيد وينمو على مر الزمن

لم يصغ الفريقان إليه لاعتبارهما إياه غير عالم بتفاصيل الخصومة ، ولأنه رجل اعتاد أن يتكلم عن السلم سواء أكان له موضع أم لم يكن

وكان إيفان يقول لأصحابه : « إنه لم ينتف لحية جاره ، ولكن ذلك الجار نتف لحية نفسه ، وهو الذى مزق قميصى ... الخ »

وتبودلت القضايا بين الفريقين فى المحاكم ، وفى الوقت نفسه فقدت قطعة جديدة من عربة جبريل واتهم نساء جبريل أبناء إيفان بسرقتها ، فنشأت فى المحاكم قضية أخرى ؛ وبمرور الزمن كان كل من الجارين يتهم الآخر بتهمة جديدة ، وتعلم نساؤهما هذه الطريقة ، حتى سئمت القرية وملت من شجارهما وتقاضيهما

وكان أكبر أمل فى نفسى إيفان وجبريل أن يسجن خصمه أو يحكم عليه بالغرامة ، وزادت حياة كل منهما مرارة . وكلنا قد لاحظ أن الكلاب إذ تضرب على المشاجرة تزيد فى مشاجرتها حدة ، وكذلك المتخاصمون من الناس يزيدون لدداً فى

الخصومة إذا عنفهما الناس عليها ، لأن أحدهم يعرف أن سبب هذا التعنيف هو تحدى خصمه إياه ، كما يعرف الكلب أن سبب الضربة التى نالته من يد سيده هي العضة التى نالته من الكلب الآخر

وكذلك كلما حكم على أحدهما بالغرامة أو بالسجن زادت عداوته وزاد عزمه على الانتقام

واستمرت الحال على ذلك ستة أعوام لم تتغير فى خلالها نصيحة القسيس وموعظته فكان لا يزال يقول: « أتركا هذه الخصومة فما تليق بين جار وجار فإن عداوتكما تزيد ما زدتما تعهداً لها »

وظل الجاران لا يصغيان إليه

وفى بداية العام السابع حضرت زوجة ابن إيفان عرساً حضره جبريل وشنعت عليه فيه بأنه سرق جواداً ، وكان جبريل سكران فى هذا العرس فضربها ضربة عنيفة ألزمتها الفراش أسبوعاً لأنها كانت حبلى . وسر إيفان من هذا الحادث سروراً عظيما لأنه أتاح له الفرصة فى رفع قضية جديدة وهو يقول فى نفسه إنه فى هذه المرة سيتخلص من جاره نهائياً بنفيه إلى سيبريا

لكن زوجة الابن شفيت ولم تجهض ، فحزن إيفان على أن القضية لم تقيد جناية ، وعزى نفسه بأن محكمة الجنح قد تحكم على الجانى بعقوبة مخزية ، فرشا كلا من كاتب المحكمة وحاجبها بنصف جالون من الاشربة ليقترحا على القاضى عقوبة الجلد فى هذه الخصومة

وصدر الحكم بالجلد على قارعة الطريق العام فأصبح وجه جبريل عند سماعه شديد الشحوب ، وكان تعليقه عليه بعد خروجه من قاعة الجلسة إنه وإن تكن العقوبة شديدة فهو يأمل أن يذيق خصمه عقوبة أشد منها

وسمع إيفان هذا الجواب فعاد إلى القاضى واستشهد بالجنود ، واستدعى القاضى الخصمين وقال : « لقد كانت جريمة مزرية منك يا جبريل أن تضرب امرأة وهى حبلى . ومهما يكن فى نفسك من الغيظ على جيرانك فليس فى الدنيا ما يبرر هذه الجريمة . ولكن إذا اعترفت بالخطأ واعتذرت عنه واصطلحت مع خصمك فإنى سألغى هذه العقوبة

وهنا تدخل كاتب المحكمة فقال إن المادة ١١٧ من قانون العقوبات لا تجيز إلغاء العقوبة بعد صدور الحكم ، وإن كان الصلح يمحو أثر الجريمة قبل النطق به

لكن القاضى لم يلتفت إلى ملاحظة الكاتب وقال : « يكفى ! أسكت فإن هذه المادة تتعلق بنا لا بك ونحن نراقب الله قبل مراقبة القانون ، وقد أمر الله بالصلح بين الخصوم »

وحاول القاضى أن يقنع الطرفين بالصلح ولكنه لم ينجح لأن جبريل أصر على عدم الصلح مع أنه هو الذى ستنزل به العقوبة ، وكان جوابه : « أنا رجل ليس بينى وبين الخمسين غير عام واحد ولى ابن متزوج ولم أضرب قط منذ كنت طفلا فعند ما يأتى هذا السافل ليقاضينى ويستصدر ضدى حكما بالجلد لا أستطيع أن أطلب الصفح منه ولتنزل بى العقوبة التى أرادها لى ولكنى سأجعله يندم عليها

وهنا خانه صوته ولم يستطع أن يزيد بل التفت وخرج من قاعة الجلسة راغباً إيقاع العقاب بنفسه

وكان بين مكان المحكمة وبين منزل إيفان عشرة فراسخ . ولذلك لم يصل إيفان إلى منزله إلا فى ساعة متأخرة ؛ وفى أثناء غيبته أعاد النساء الماشية من المرعى إلى الحظيرة .

وقبل وصوله إلى منزله جلس فى ظل شجرة يستعرض حادث اليوم ويتخيل حالته هو نفسه لو أنه كان فى مكان جبريل . وفى هذا الحين سمع سعال القسيس بجانبه ، وظل كلا الرجلين يسعل مدة ما ، وأخيراً قال القسيس : « هل أصدرت المحكمة حكمها ؟ »

فقال إيفان : « نعم وقد حكمت بعشرين جلدة على جبريل » فهز القسيس رأسه وقال : « آذيت نفسك يا إيفان أكثر مما آذيته ، وأى فائدة تستفيدها أنت بعد أن يجلد ؟ »

قال إيفان : « أردعه فلا يعود إلى ارتكاب جرائمه » فقال القسيس : « أية جرائم هذه ؟ ألست ترتكب مثلها وشراً منها ؟ »

قال إيفان : « لكننى إنما أريد زجره وقد كاد يقتل زوجة ابنى وتهدد بأن يحرق مزرعتى فلماذا أذعن له ؟ »

فتنهد القسيس وقال : « إن البغض يا بنىّ قد أعماك ؛ أنت ترى خطايا الغير ولكنك لا ترى خطاياك ؛ وأنت تقول إن جبريل قد آذاك فهل يمكن أن تقع خصومة بين اثنين ويكون مثارها جانباً واحداً ؟ أنت ترى أخطاءه ولكنك لا ترى أخطاء نفسك . ألم تنتف لحيته ؟ لقد كانت العلاقات حسنة بين أبيك وبينه ، وكانا يتبادلان المصالح ؛ ولقد حضرت بعض المواقع الحربية وأرى أنك وخصمك أشد عداوة من فريقى الجنود فى موقعة « بلفنا » وليس هذا أسلوباً للحياة . إنك أب ورئيس أسرة ، فأى درس هذا تلقنه أبناءك ؟ لقد رأيت اليوم ابنك « تارا » يهزأ بعمته « أرينا » ولم تصنع أمه سوى أنها ضحكت منه . فهل تريد تربيته على هذه القاعدة : يضرب فيضرب فيرد الضربة ضعفين ويتلقاها أربعة أضعاف ؟ كلا يا بنى فهذه ليست التربية الصالحة . لقد كان يمتنع كل هذا لو أن الخاطىء طلب الصفح . لكن لماذا تسمعنى وتسكت ؟ ألا ترى وجهة الحق فيما أقول ؟ »

لم يجبه إيفان ، وعاد القسيس إلى السعال ثم استأنف حديثه فقال : « انظر إلى العلاقة بيننا وبين الأتراك ، وانظر هل تحسنت العلاقات بعد موقعة بلفنا ؟ وهل كسبنا أو كسب الأتراك شيئاً بسبب هذه الموقعة ؟ إنك وأبناءك أقوياء كالنسور ، وأنتم أغنياء ومع ذلك لا تلتذون لذة الغنى ، ولا عزة القوة ؛ وقد كان عليكم أن تقضوا الوقت الذي تقضونه فى المحاكم بالمزرعة أو فى الدار ، وأن تقضوا ساعات المشاجرة فى سمر وفى حديث . أتخبرني لماذا لم تحصدوا قمحكم إلى الآن مع أن كل جيرانكم قد حصدوا قمحهم ؟ »

ظل إيفان ملازماً للصمت ، واستمر القسيس يقول : « أصغ إلىّ يا بنىّ . اركب جوادك الآن وعد إلى المحكمة فاصفح عن خصمك ، واطلب إلغاء الحكم ، وادع خصمك إلى منزلك فأولم له وليمة . إن غداً عيد العذراء فانتهزه فرصة للتقرب إليها وإلى ابنها

تنهد إيفان وقال فى نفسه : « لاشك فى أن القسيس مصيب ، ولا شك فى أن امتناعى عن المصالحة يرجع إلى جهلى بالطريقة المؤدية إليها

وكأنّ القسيس أدرك ما جال بخاطر إيفان فى هذه اللحظة فقال : « لا تتأخر يا إيفان فان النار إن أهملتها صعب عليك إطفاؤها »

وكان يريد أن يزيد فأقبل نساء أسرة إيفان فرحات مبتهجات بالحكم الذى علمن بصدوره ضد جارهن . وقد انتهزن هذه الفرصة فبدأن مشاجرة

جديدة مع أسرة جبريل . وقلن إن زوجة ابن جبريل تهدد بمخاطبة النائب العام وعرضها عليه هذه القضايا بحذافيرها بل تهددت أيضاً بأن تكتب رسالة إلى القيصر نفسه . وعند ما سمع إيفان هذه الكلمات جمد قلبه وفتر عزمه السالف على الصلح

***

وفى الصباح سمع صوت جبريل وهو عائد إلى المنزل . وكان جبريل يصيح : « سأذهب وإياه إلى الشيطان . لابد من قتله ! »

لكن جبريل لم يقل أكثر من ذلك فاغتاظ إيفان لا لأن هذه الكلمات قيلت عنه ولكن لأن أكثر منها لم يقل . وكانت زوجة إيفان فى هذا الوقت تعد العشاء . ولكن « تارا » لم يكن موجوداً بالمنزل . ودعت المرأة زوجها للعشاء ، ولكنه ظل منتظراً عودة ابنه الأصغر وقد مرت بخاطره كلمة كان جبريل قد قالها وهي أنه يريد أن يحرق إيفان ويحرق أبناءه

وكانت الرياح إذ ذاك تهب عنيفة ، وكان الظلام شديداً فى الطرقات ، وتأخرت عودة ابنه فخرج إيفان للبحث عنه

وفى المزرعة رأى شيئاً يتحرك ثم يختفي وراء شجرة ولم يميز الشبح لشدة الظلام . وذهب إلى حيث رآه فلم يجد شيئاً . وتحسس وأرهف أذنيه ليسمع ولكنه لم يحس وجود شيء

وترك المزرعة إلى الاصطبل فرأى وميضاً يسطع على حين فجأة ثم يختفي ، ورأى رجلاً من الجهة التى صدر منها الضوء وأحس فى قلبه خفقاناً كرفرفة العصفور بجناحيه . وأسرع ليمسك بذلك الشبح فرأى وميضاً آخر من نفس الناحية . وما هى إلا لحظات حتى علت الألاهيب ورأى إيفان حريقاً مضطرماً على حين فجأة ، ورأى فى مثل ضوء النهار رجلاً أعرج ينظر إليه ويجرى فراراً منه

صاح إيفان : « لن تستطيع الفرار منى »

وجرى فأمسك بذيل سترته ، ولكن تلك القطعة من القماش انفصلت عن الثوب وفر الأعرج وصاح إيفان بالخفراء أن يسعفوه

هرب جبريل وجد إيفان فى اللحاق به فلما أعياه وقف . وفى هذه اللحظة سمع صوت فرقعة شديد والتفت فرأى البناء كله أصبح ألهوباً من النار ، وامتدت الظلل والشعب إلى منزله فرفع يديه فى يأس إلى السماء وصاح بالجيران ، ولكن صوته خانه وهو أشد ما يكون رغبة فى موالاة النداء . وأراد الجرى فخانته قدماه وعجز عن الاستمرار على الوقوف فوقع ، وبعد قليل ازدحم المكان بالجيران، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً . وانتقلت النار من الاصطبل إلى منزل إيفان ، ثم انتقلت بسرعة إلى منزل جبريل ثم إلى سائر منازل القرية . واستمر الحريق طول الليل ؛ وكان أهل القرية يتعاونون على إطفائه فى غير منزلى الجارين المتخاصمين . وتولى إيفان وحده إطفاء النار فى منزله بعد أن خرج كل أهله منه وكانوا يحاولون منعه ولكنه لم يكف حتى تطاير شعر لحيته المحترق وحتى احترقت يداه . وكان أبناؤه ينادونه وهو لا يصغى فأيقنوا أنه جن من الحزن

وأقبل الصباح وليس لمنزل إيفان أثر . وجاء القسيس يسأل إيفان : « ألم يصدق قولي يابنى ؟ من الذى أحرق القرية ؟ »

فقال إيفان : « لقد رأيته بعيني رأسى يحرق الاصطبل »

قال القسيس : « إنني يا بنىّ لن أعيش طويلاً وأريد إصلاح بينكما قبل أن أموت فمن منكما المذنب ؟ »

فحملق إيفان فى وجه القسيس ولم يقل شيئاً

فقال القسيس : « تكلم قبل أن يصدر الله كلمته فيك ، من منكما المذنب ؟ »

اندفع إيفان فى البكاء وقال : « أنا المذنب يا أبى » ثم جثا على ركبتيه وقال : « اعف عنى يا أبى فانى خاطيء جارم »

قال القسيس : «عفا الله عنك يا بنىّ» فاشتدت نوبة البكاء وقال : « ولكن يا أبى لا أعرف كيف نعيش بعد حدوث الذى حدث »

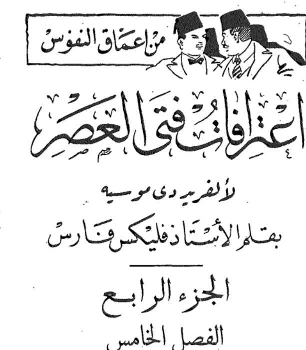
قال القسيس : « ستعيش وستدرك ما فقدته من ثروة إن أخلصت لله بعد يومك وسامحت المسيء »
ثم ابتسم وقال : « انظر يا إيفان ، لا تقل من الذي بدأ بإيقاد النار فإن الله جدير بأن يعفو عن الخاطئين بادئين أو معقبين »

وأجرت الحكومة التحقيق فلم يبلغ إيفان عن جريمة جبريل . ودهش جبريل من امتناع خصمه القديم عن التبليغ ضده . وبدأ شعوره الجديد نحوه بالخوف منه ، ثم ألف منه طباعاً غير التى اعتادها ، ثم امتنعت الخصومة لامتناع الاستمرار على أسبابها . واقتدى نساء الأسرتين برجليهما وجددت كل أسرة بناء منزلها وتجددت المبانى المحترقة واستمر إيفان وجبريل جارين وصارا صديقين

ولم ينس إيفان نصيحة القسيس بأن النار يجب البدء فى إطفائها وهى شرار ، فكان كلما أساء إليه أحد لم يضع الوقت فى محاولة ضبطه متلبساً بجريمته بل يبدأ بإطفاء الشرارة الموقدة

ولم يفت إيفان ، على تقدم السن ، أن يبدأ حياة جديدة ، وأن تكون سعيدة بالعفو وبالتسامح

عبد اللطيف النشار



ودخلت يوماً إلى مسكن بريجيت فرأيت باب الغرفة الصغيرة التى كانت تدعوها المصلى مفتوحا ، وما كان في هذه الغرفة إلا مصلى من الخشب وهيكل يعلوه صليب حوله عدد من المزاهر ؛ وكانت السجف بيضاء كالجدران الناصعة كالثلج ، تلك كانت خلوة بريجيت وقد أصبحت منذ اتصلت حياتها بحياتى لا تنقطع إليها إلا نادرا

ونظرت إلى الداخل فإذا بريجيت جالسة على الأرض بين ما نثرت من الأزهار ، وقد قبضت على إكليل صغير ذوت أوراقه وهى تفرطها بين أناملها

وسألتها عما تفعل ، فارتعشت ونهضت قائلة : لا شيء ، هى لعبة أطفال ، فهذا إكليل ورد قديم جف فى هـذا المصلى ، وقد أتيت لأستبدل هذه الأزهار ...

وكانت تتكلم بصوت مرتجف وتكاد تهوى على الأرض

وتذكرت ما سمعته عن تلقيب بريجيت بالوردية ، فسألتها :

— أليس هذا الإكليل الذى تفتتين أوراقه إكليل لقبك القديم ؟

فعلا وجهها الاصفرار وأجابت سلبا

فصحت بها : أقسم بحياتى إنه هو بعينه ، فأعطنى بقاياه ...

وجمعت الوريقات اليابسة فوضعتها على الهيكل ووقفت أنظر خاشعاً إليها كأنها رفات . فقالت : هب أنه إكليل لقبى ، أفما ترى أننى أحسنت عملا بنزعه عن هذا الجدار حيث علق منذ زمان مديد ؟ أية قيمة للمندثر البالى ؟ إن بريجيت سيدة الورد قد ماتت عن هذا العالم فما هى خير من إكليلها المنفرط البالى

وخرجت فسمعت شهقة بكائها وصرير الباب يقفل وراءها ، فإذا بي منفرد فى المصلى أتهاوى جاثياً معولاً

وعند ما لحقت بها رأيتها جالسة إلى المائدة تنتظرنى لتناول الطعام ، فأخذت مكانى وسكت كل منا عما كان يجول فى ضميره

الفصل السادس

وما كذب الواقع ظنى بمركانسون إذ تأكدت أنه لم يتورع عن التحدث أمام سكان القصور المجاورة وأمام أهل القرية عن مقابلتى له واستفساري عن أمر دالانس ، فاستثمر ما نمّ عليه اضطرابى من شكوك

ولا يجهل أحد ما فى البلدان الصغيرة من سهولة انتشار النميمة فإنها تتطاير من فم إلى فم صائرة إلى أغرب المبالغات ، وما أفلت وبريجيت من جور هذا النظام ، فأصبحنا وكل منا شاعر بأنه أحرج موقف الآخر ، لأن محاولتها مغادرة القرية كانت قد اصطدمت بضعفها ، وشدة إلحاحى عليها أكرهتها على البقاء ،

غير أنى كنت أنا المسؤول أمامها لتعهدى ألا أشوش سكينتها بغيرتى أو بطيشى ؛ ولهذا كانت كل بادرة قاسية منى نكولاً ، وكل لفتة حزينة منها ملامة مبررة ...

وأحست ريجيت فى أول الأمر بلذة فى عزلتها وتمكنها من الانفراد بى فى أية ساعة دون محاذرة وتحوط ولعلها كانت تتظاهر بالاغتباط لتثبت لى أن غرامها أعزّ عليها من سمعتها وأنها نادمة على ما أبدته من الاهتمام بأقوال المرجفين . وهكذا سرنا فى حياتنا لا نلوي على شيء من فضول الناس متمتعين بملء حريتنا فى اتباع أهوائنا

وكنت أذهب إلى بيتها عند ساعة الإفطار وإذا خرجت فلا أخرج إلا بصحبتها ، فأقضي النهار معها حتى العشاء وعند ما يحين ميعاد انصرافى بعد السمر كنا نتعلل بأسباب عديدة للبقاء معاً ونتخذ احتياطات جد تافهة لإخفاء بقائى فى غرفتها ليلا .

وعلى هذا النمط أقمنا دون انفصال مخادعين أنفسنا بأن لا أحد يلاحظنا

وقمت بوعدى برهة من الزمان فداريت عواطف ريجيت ولم تعكر جونا غمامة ، تلك أيام سعيدة هانئة وليس فى مثل هذه السانحات من الدهر ما يستدعى وصفاً وبياناً

وذهبت الإشاعات فى القرية وضواحيها تعلن أن ريجيت تساكن علناً فاسقاً باريسياً يعاملها أسوأ معاملة فيمضيان أوقاتهما بالتقاطع والتواصل ؛ وتوقع الكل أسوأ العواقب لهذه الحياة

وانقلب ما كان يقال من الثناء لريجيت من قبل لوماً وتقريعاً حتى ذهب الناس إلى تأويل ما كان يورث إعجابهم فى حياتها الماضية تآويل تظهر الشر فيها، فأصبحوا يهزأون ببرها بالفقراء وتجولها فى الجبال لمداواتهم . وهكذا كانت تدور الأحاديث عن ريجيت كأنها إباحية تتعرض لأوخم العواقب

وكنت قد صارحت ريجيت بأننى أرى، الإغضاء عن كل هذه التخرصات إذ أردت التظاهر بعدم المبالاة بها فى حين أنها كانت ترهقنى وتبلبل أفكارى

وكنت أذهب فى بعض الأحيان متجولا فى الضواحى أتسقط من الإشاعات ما يمكننى الاستناد إليه للوم ريجيت ومناقشتها الحساب . وعبثاً كنت أرهف السمع لألتقط من الهمس فى المجتمعات ما ينقع غلتى إذ كان الناس لا يبدأون بنهشى إلا بعد أن أتوارى ، فكنت أعود إلى ريجيت لأقول لها إنه لا أهمية لهذه التخرصات التى تصل إلينا ، فليذهب الناس مذاهبهم فينا فما أنا بالمقيم لاغتيابهم وإفكهم وزناً

وما كنت وأنا أتبع هذه الخطة إلا موالياً للناهشين من عرض خليلتى إذ كان علي وأنا موردها هذه الموارد الخطرة أن أهتم للأمر وأقيها مغبناته

وما طال الزمن حتى عدلت عن ذلك إلى المهاجمة فقلت لحبيبتى : — إن الناس يتقوّلون كثيراً بشأن تجولك فى الليالى فهل أنت واثقة من أنهم يفترون ؟ أفلم يقع لك أى حادث على طرق هذه الجبال وفى مغاورها ؟ أفما اتفق لك أن عدت في الغسق مستندة إلى ذراع مجهول كما استندت إلى ذراعى؟ أصحيح أنه لم يكن لك من مقصد غير الاحسان فى اقتحامك ظلمات هذا الهيكل المجلل بالاخضرار ؟

لأول مرة هاجمت فيها ريجيت بمثل هذا

الـكلام ، أرسلت إلى نظرة هزت مشاعري ولن أنساها ما حييت . ولـكنني قلت فى نفسى إذا أنا تعرضت للدفاع عن هـذه المرأة فإنها ستفعل بى مافعلته خليلتي الأولى فتعرضني لهزء الناس وسخريتهم فأجنى الغرم عما غنمت وعما غنم الآخرون .

إن المسافة لجد قصيرة بين الشك والانكار ، وما أقرب المتفلسفين إلى الملحدين . قلت لبريجيت إننى ارتاب بسلوكها الماضى ، فرأيتنى مدفوعاً إلى الارتياب حقيقة ، وما طال الزمن حتى أسلمنى هذا الشك إلى اليقين فتصورت أن بريجيت تخوننى فى حين أننى لم أكن أبارحها ساعة واحدة ، وعمدت أخيراً إلى التغيب عنها من حين إلى حين مقنعاً نفسي أنني أحاول تجربتها وما كنت أقصد بذلك إلا إطلاق العنان لشكوكي ثم أعود بعد تغيبي لأقول لها إننى برئت من غيرتي فأصبحت أهزأ بوساوسى القديمة ، وما كان معنى ذلك سوى اضمحلال غيرتى لوهن طرأ على هيامي

وكنت من قبل أحتفظ لنفسى بما ألاحظه من خالها فأصبحت أجد لذة فى إبداء ما يعن لخاطرى فأقول لها مثلاً : إن ثوبك هذا جد حسن ، وقد كان لإحدى صويحباتى مثله شكلاً ولوناً . فاذا جلسنا إلى المائدة أدعوها إلى الانشاد قائلاً : إن خليلتي القديمة كانت ترسل صوتها بعـد الطعام أفلا يجدر بك التشبه بها ؟ وإذا أرادت العزف على البيانو أبادرها بقولى : أرجوك أن تسمعينى ألحان الرقصة التى كانت منتشرة فى الشتاء المنصرم فإنها تذكرنى بأويقات المرح والسرور

ودام الحال بيننا على هـذا المنوال ستة أشهر لم أنقطع فيها عن اللوم والتقريع وقد تحملت بريجيت أثناءهامن الاهانات مالا يفعله إلاّ فاسق يبغي تتقاضاه أجراً عن تمتعه بها

وكنت كلمـا اقتحمت هذه المشاكسات ملهباً أفـكاري ومقطعاً قلبي بالاتهام والسخرية أتراجع عنها وقد بلغ الهيام بى أشده فأقف أمام خليلتى وقفة الوثنى أمام صنمه

كنت أوجه أشد الاهانات إليها ، ولا يمرّ ربع ساعة حتى أجثو عند قدميها . فإذا ما انتهيت من التقريع بدأت بالاستغفار ، وإذا خرجت من التهكم لجأت إلى ذرف الدموع ؛ وتثملنى سعادتى فأطير فرحاً ، وتثور أعصـابى فأنقلب إلى العنف لا أدرى ما يجب أن أقول أو أفعل للتكفير عما أخطأت به ، فأهرع إلى بريجيت لأضمها إلى صدرى طالباً منها أن تكرر مائة مرة قولهـا إنها تحبنى وتغضى عن إساءتى ، واعداً بالتعويض عما بدر منى مقسماً بأننى سألهب دماغى بقذيفة إذا أنا عدت إلى إهانتها

وكانت الثورة فى عواطفي تمتد الليل بطوله فلا أنقطع عن الـكلام والبكاء والانطراح على أقدامها وارتشاف كأس الغرام ثملاً من ثمالتها حتى إذا بزغ الفجر أجدنى متهدماً فأستسلم للـكرى وأنهض بعد الصباح وعلى شفتى بسمة الساخر الذى لا يؤمن بشىء

وكانت بريجيت فى مثل هذه الليالي المشتعلة بنار الملذات تتناسى شخصيتى الجائرة فلا تنظر مني إلا إلى الرجل الماثل بين ذراعيها ؛ وإذا ما خطر لى أن

أكرر طلب العفو منها تجيبني بقولها : أفما تعلم أنني غافرة لك ؟ وكانت الحمى التي تتأكلني تلهب دمها فلكم أعلنت لى ، ووجهها ممتقع شهوة وهياماً ، أنها راضية بي على ما أنا عليه ، وأن فى ثائرات عواصفي تتنفس حياتها فسعادتها كامنة فيما أؤديه ثمناً لتعذيبي لها، وأنها لن تشكو أية شكوى ما دام فى قلبي شرارة من نار الغرام . ثم تقول : لا ريب فى أنني سألاقى الموت فى هذه الحياة ، ولكنني أرجو أن تلقاه أنت أيضاً فيها ، ولهذا أشعر باللذة تغمرنى من كل ما توجهه إلىّ من إهانة أو تذرفه من دموع ، فهى السعادة التى حفرت قبرى فيها

ومرت الأيام يستفحل بكرورها دائى فأصبحت ثائراً ، إذا ما حكمتني نوبة الجنون صحبتها حمى شديدة تهزّنى فجأة فلا تغادرنى إلى وقد تصبب العرق من جميع أعضائى المرتعشة . وقد كان يكفيني أن يقع بي حادث ليس فى الحسبان أو أشاهد ما يثير دهشتى حتى تسودنى رجفة يرتاع لها كل من يرانى . وكتمتْ بريجيتُ شكواها فنمّ عنها شحوبها وما بدأت مرة بالاساءة إليها بعد هذا إلا خرجت من أمامى دون أن تفوه ببنت شفة لاجئة إلى غرفتها توصد بابها عليها

إننى أحمد الله لأنني ما رفعت يوماً يدى على بريجيت حتى فى أشد هياجى وقد كنت أفضل الموت على هذه الفعلة النكراء

واشتدت العاصفة ذات ليلة وأنا وبريجيت نصغى إلى نقرات الأمطار على زجاج النوافذ المقفلة والمجللة بالسجف فقلت لهـا : إننى أشعر بانبساط ولكن هذه العاصفة تدخل الحزن إلى نفسى بالرغم منى فعلينا أن نتحدّاها

وقمت إلى الثريا أضىء كل شموعها فغمرت الغرفة الصغيرة بالأنوار المتدفقة وكان فى الموقد نار مشبوبة تملأ المكان حرارة وتزيدها نوراً

وتساءلت عما يمكن لنا أن نفعل إلى أن يحين وقت العشاء فتذكرت أيام المراقع فى باريس ومرت فى مخيلتى عربات المساخر تتلاقى على جاداتها الكبرى وضجيج الجماهير يتعالى وهم يخرجون من المسارح ، ومثلت أمامى مشاهد الرقص الخلاعى والأثواب المخططة والكؤوس تتدفق خمراً فانتفض قلبي بكل ذكريات شبابى وبكل عنفوانها . فصحت بريجيت :

— هيا بنا نتنكّر وإن لم يكن أمامنا سوانا وإن لم يكن لدينا ما يفى بالغرض من أثواب فاننا نتدبرها

وأخرجنا من الخزانة ثوبين وأردية وأحزمة وأزاهر صناعية وبريجيت تدرع ـ كعادتها ـ المرح الصبور . وأرادت أن تعصب رأسى بيدها ثم أخذنا من صندوق صغير قديم قد يكون من متروكات عمتها أصباغاً وأدهاناً فدهنا بها وجهينا حتى تنكر كلّ منا لعين الآخر . ومرت ساعات السمر نحييها بالغناء وبالقيام بعديد ما تصورناه من حركات الجنون حتى مضى نصف الليل وحان وقت تناول الطعام

وكانت الخزائن لم تزل مفتوحة بعد أن قلبنا ما فيها . ولما جلست إلى المائدة حانت منى التفاتة إلى

أقربها منى فرأيت على أحد رفوفها السجل الذى أتيت على ذكره وهو سمير ريجيت فى أغلب أوقاتها فقلت لها : أليس هذا مجموعة من خواطرك ؟ فهل لى أن ألقى نظرة عليه ؟

وعند ما فتحت هذا السجل تحفزت ريجيت لمنعى عن القراءة ، ولكننى كنت رأيت بأوله هذه الكلمات : (هذه هى وصيتى) فقلبت الصفحة فاذا أمامى ما دونته بخط متناسق ينم عن الهدوء من وصف دقيق لما احتملته من تعذيبى لها منذ استسلمت إلى ، وقد أعلنت إصرارها على احتمال كل معاملة سيئة منى ما دمت أحبها ، وعلى اقتحام الموت إذا تخليت عنها . واستغرقت فى تتبع ما كتبته يوماً فيوماً عن تضحية حياتها وما فقدت وما كانت ترجو فاذا بها تصف شعورها بالدهشة حتى بين ذراعى ، وتذكر الحوائل التى تتزايد مع الأيام بيننا وما أعاملها به من قسوة وجفاء لقاء حبها وإخلاصها

دونت كل هذا فما أبدت امتعاضاً أو زفرت بشكوى بل حاولت جهدها تبرير معاملتى والمدافعة عنى ، وأخيراً تناولت بوصيتها ما يتعلق بورثائها معلنة أنها ستتجرع السم لوضع حد لحياتها بمحض اختيارها طالبة ألا تكون مذكراتها سبباً لاتخاذ أى اجراء ضدى ، وأنهت كل هذا بقولها :

صلوا من أجله !!!

ووجدت فى الخزانة نفسها التى أخذت سجل المذكرات منها علبة صغيرة تحوى مسحوقاً ناعماً ضارباً إلى الزرقة شبيهاً بالملح

وسألت ريجيت عن هذا المسحوق وأنا أرفع العلبة إلى فى فصرخت وارتمت على فقلت لها : سآخذ هذه العلبة وأتوارى عنك فيقودك السلوان إلى الحياة دعينى أتفادى جريمة القتل فأذهب فى هذا الليل دون ان أطالبك بعفو يرده الله إذا أنت أقدمت على منحه . لم يبق لي ما أرجوه إلا قبلتك الأخيرة

وانحنيت طابعاً قبلتى على جبينها ، فهتفت بصوت مختنق : لم يحن الوقت بعد . ولكننى ألقيتها على المقعد وانطلقت راكضاً إلى منزلى ، وما مضت ثلاث ساعات حتى كنت على أهبة الرحيل وقد وقفت العربة أمام بابى

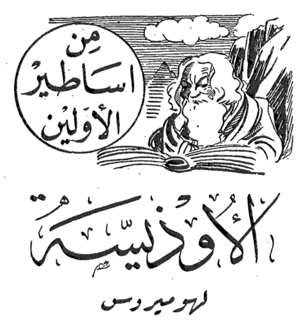
وكان المطر لا يزال يتساقط مدراراً فصعدت إلى العربة متلمساً ، وما ارتميت على المقعد حتى شعرت بذراعين يطوقان عنقى وبفم يزفر بالأنين على شفتى

هى ريجيت أتت تكمن لى لترحل معى ، فحاولت عبثاً إقناعها بالعدول عما نوت حتى أننى وعدتها أن أعود إليها عند ما أكون نسيت ما أوقعت بها من ضرر مؤكداً لها أننى إذا بقيت لن يكون غدنا إلا كأمسنا ، فكأنها — وهي تتمسك بى وأنا على حالتى — تصمم على جعلى مجرماً قاتلاً . توسلت وبذلت الوعود معززة بالأقسام ، وذهبت حتى إلى التهديد فما أجدى كل ذلك فتيلا ؛ إذ كانت ترد كل محاولاتى بجواب واحد قائلة :

— أنت راحل فأنا معك . لنهجر هذه البلاد تاركين ماضينا فيها . لقد امتنع علينا العيش هنا فلنذهب إلى حيث تشاء . إن الأرض لن تضن علينا بزاوية نموت فيها ... لنهنأ فى هذه الحياة فتجد فيَّ سعادتك وأجد فيك سعادتى

ضممتها وضممتها حتى شعرت أن قلبي ينحطم عليها وصحت بالسائق : هيّا بنا ، وسار الجوادان يقطعان الأرض ونحن متعانقان

« يتبع » فيلكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

مع الراعى ...

وسلك سبيله فى طريق وعر محفوف بالأشجار الباسقة إلى مأوى صديقه الراعى الشيخ الأمين ، فوجده جالساً وحده فى مدخل الحظيرة الشاسعة القائمة وسط المرج المعشوشب النضير . ولقد سورها يومايوس ، إذ سيده غائب فى أقصى الأرض ، بسور عظيم ضخم من حجارة قوية نحتها من محجر قريب وجعل على السور فروعاً من قتاد وشوك وجذوعاً من سنديان ، حتى صارت أمنع من عقاب الجو ... كل ذلك دون أن يساعده أحد ... ثم قسمها إثنى عشر زَرْباً[1] جعل فى كل منها خمسين خنزيرة كنازاً ... أما ذُكران الخنازير فقد تركها سائبة فى الخارج ليرسل منها إلى العشاق المعاميد ما يأكلون منه وما يريغون .... وقد بقى منها بعد تلك الأعوام الطوال ستون وثلثمائة . وربض لدى الباب كلاب أربعة كسباع البرية ، تلحظ الحظيرة بأعين كالجمر ؛ وجلس الراعي يعمل لنفسه نعالا من جلد ثور مدبوغ بينما انطلق خدمه ومعاونوه الأربعة يعملون ويدأبون هنا وهناك . وكان رابعهم على وشك أن يترك الحظائر إلى المدينة ، حاملا لحم خنزير حنيذ يذهب به برغمه إلى العشاق الفساق . ولمحت الكلاب أودسيوس فأهرعت إليه ، وظلت تعوى وتنبح ، وترغى وتزبد ، وأوشكت أن تفتك به ، لولا أن هب يومايوس فكسر شرتها بما رماها به من الحجارة ، ولولا أن ترك أودسيوس عكازه يسقط من يده لأن الكلاب لا يغيظها إلا أن يمسك لها أحد عكازاً .. قال الراعى: « أيها اللاجىء العجوز سلمت ! خطوة واحدة ، وكانت هذه الكلاب قد مزقتك إرباً ، وكانت لحقت بى سبة لا تبيد ! ألا كم ترسل علىّ الآلهة من كروب ! وكم ترمينى به من آلام ! أنا ، هذا العجوز الهالك ، الذى أمضنى الحزن ، وشفنى الأسى من أجل سيدى ومولاى ! هأنذا أُسمّنُ قطعانه وأرعاها لينعم بها غيره ، بينما هو نازح غريب يجوب الآفاق ويشتهى كسرة يتبلغ بها ، إن كان ما يزال حياً يرزق ! أوه ! تعال أيها الصديق ، هلم اتبعنى إلى دارى أطعمك ما تيسر ، وأسقك كفايتك من الخمر ، وتخبرنى بعدها من أنت ، ومن أين أقبلت وماذا وراءك ! » وانطلقا ، وقدم إليه الراعى الكريم حشيّته التى كان يجلس عليها ، والتى تخذها من جلد عنز حشاه بالقش ؛ فشكره أوديسيوس ودعا له بما يحب وبكل ما تصبو إليه نفسه . فقال الراعى

---

(١) الزرب : الزريبة للغنم

يجيبه : « أيها الصديق ، ليس أمقت إلى من أن أذود لاجئاً إلى دارى وإن يكن أرث منك حالا ، لأن أبناء السبيل جميعاً هم ضيوف زيوس رب الأرباب وأنا مع ذاك أعتذر إليك إذا لحظت أن زادى قليل وأن حالى رقيقة فلقد مضى زمن العز والعيش الواسع المخفرج وأصبحنا نعانى القُلّ والفاقة والعيش النكد تحت إمرة هؤلاء الرؤساء الأصاغر . آه يا مولاى يا زين الحياة ومؤدب الناس أين أنت ؟ أين أيامك وخيرك الوفر ؟ ليتها دامت ، وليتك ظللت فعشنا فى كنفك ... وليت هيلين وكل من فى بيت هيلين فداؤك ... هيلين التى قتلت سادات هيلاس [1] الذين أبحروا مع أجاممنون لينيلوه النصر فى ميدان طروادة ! » . ثم لم دثاره وذهب إلى الزرب الأول فجاء بخنزيرتين سمينتين فَتَلهما وذبحهما وسلخ جلديهما ، وجعلهما إرْبا إرْبا ؛ ثم أشعل ناراً عظيمة فسوّى على جمرها السفافيد المثقلة باللحم ، وجاء بالشواء فوضعه أمام أوديسيوس ، ثم نثر عليه من الدقيق ، وأحضر زق الخمر ، وجلس قبالته وقال : « هلم يا ضيفى العزيز فكل وارْوَ ... لا تؤاخذنى إذا رأيت الشواء لا سميناً ولا حنيذاً ، فكل سمين وحنيذ يذبح أولاً فأولاً ويرسل إلى العشاق السفلة الذين لا يرعون فى الآلهة إلاً ولا ذمة ، ولا يخافون سماء ولا بَشرا ... يالله من هؤلاء الفجرة ... ألا يلمون شعثهم ويغيرون بخيلهم ورجلهم على بلد قاص فيثوبوا بأسلاب الغزو وسخط الآلهة ؟ أم تراهم أوحى إليهم بموت مولاى فهم ههنا قائمون ما يرعون ولزاده آكلون ومن خمره شاربون ، حتى فرغت

(١) اليونان وتسمى أفايا أيضا

الجرار ، وخوت الدار ، وضؤل الزرع وجف الضرع ! ! أبداً ما ملك أحد مثل ما ملك مولاى ! لقد كانت ثروته تعدل ما يملك عشرة أو عشرون أميراً ؛ وما أزال أذكر مما ملكت يداه اثنى عشر قطيعاً من الأنعام كانت ترعى العشب فى مروج الشاطىء[1] المقابل ، وكثيراً من قطعان الأغنام وأرعال[2] الخنازير وأسراب الماعز ، عليها أجراء وخدم ورعاة لا يحصون ، ورجال مخلصون يزرعون فى حقوله الشاسعة ويحصدون ، ورجال يجلبون من قطعانه كل كناز للذبح ... أما أنا ... فقد عهد إلىّ بهذه الأرعال التى ترى ، أطعمها وأعنى بها ، و ... وا أسفاه ! وأرسل إلى العشاق كل يوم بخيارها »

وصمت الراعى بينما كان أودسيوس يصغى ويلتهم طعامه ويفكر ألف فكرة ، ويدبر ألف تدبير لسحق هؤلاء العشاق المفاليك . حتى إذا انتهى ، قدم إليه يومايوس كأسه دهاقا ، فتقبلها وشرب ما فيها وقال : « ترى ما ذا كان اسم سيدك أيها الصديق ؟ لا بد أنه كان مشهوراً ذا ذكر ، لما وصفت من واسع ثرائه وسمو جاهه وبسطة ملكه . لقد قلت إنه ذهب إلى طروادة مع أجاممنون ، فهل تتفضل فتذكر لي اسمه عسى أن أقص عليك من أنبائه ؟ لقد ذهبت أنا الآخر ثمة ، وسافرت في بلاد شتى ، ومحال ألا أعرف العظماء الذين جاهدوا مع أجاممنون . » فأجابه الراعي : « وا أسفاه أيها الأخ العجوز ! أبداً لا تنطلى الأنباء الملفقة عن

(١) لعله شاطىء آسيا

(٢) جمع رغيل ويجمع على رعال وأراعيل وهو فى الأصل للخيل والبقر

مولاى على زوجه أو ولده ؛ فكم من جواب آفاق مثلك ، محتاج إلى لقيات أو سروال ، قد لقى الزوجة المسكينة فلفق لها قصصاً مكذوباً عن رجلها ثم دلت الأيام على كذبه وزخرفه ، والزوجة فى كل ما تسمع تذرف الدموع وتصعد الآهات كأحسن ما تصنع زوجة وفية من أجل زوجها الذى قضى فى بلد بعيد. وأكبر ظنى أنك تطمع فى كساء تخلعه عليك هذه الزوجة المفئودة الرءوم ، فأربع عليك ، فالرجل قد قضى ، وليس بعيداً أن تكون كلاب البرية وسباعها قد اغتذت به ، أو أنه قد غرق فأكله السمك ، ولفظت عظامه على سيف البحر لتذروها الرياح ، تاركاً وراءه قلوباً تأسى عليه ، أحزنها عليه قلبى. تالله ما وددت أن أرى أبوى اللذين غادرتهما منذ أحقاب كما أتشوف اليوم إلى رؤية هذا الرجل ... آه يا أودسيوس ! أين أنت ... إنك مهما شطت النوى وشحطت الدار فلن أبرح أذكرك وأسبح باسمك وأوقرك ، بما أحسنت إلى وعنيت بشأنى ، يا من فراقك عندى آلم لى من فراق أعز إخوتى وأشقائى !»

وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق لم تيأس من عودة مولاك هكذا ؟ ولم يخامرك الشك في أن رجوعه محتوم لا ريب فيه ؟ إذن فأنا أقسم لك قسماً لا أحنث فيه أنه عائد لا محالة ، ومعاذ الآلهة أن أقسم وأؤكد الأيمان لأنال القميص الذي ذكرت أو الدثار الذى أنا في شدة الحاجة إليه ، بل ليبق القميص والدثار حتى يتحقق قسمى وتبر يمينى فأتسلمها منك ، فإنى أمقت الكاذب الحانث فى يمينه كما أمقت أبواب الجحيم ، والله على ما أقول وكيل ... إطمئن إذن ياصاح ، وثق أن أوديسيوس لابد عائد هذه السنة إلى إيثاكا بل ربما عاد هذا الشهر ، ولن يمضى شهر آخر حتى يكون قد ثأر لعرضه من أعدائه وبطش بهم جميعاً ... أولئك الفجرة الأشرار الذين جسروا على استباحة حماه ، وإهانة زوجه ، وعدم المبالاة بولده ! »

وسخر الراعى وقال : « أهكذا تقسم وتؤكد القسم ياصاح ؟ أبداً لن تنال الرهان أبداً ، فقد أودى أوديسيوس ولن يعود بعد ... هلم هلم تحسَّ كأسك الروية ودع هذا الحديث فإنه يحزننى ويثير شجونى ... خلّ قسمك ، وليقدم أوديسيوس فى خيالك أو فى الحقيقة ، فأنا وزوجه وأبوه وولده ... كلنا نشتهى ذلك ، ونتمناه على الآلهة ... ياويح لك ياتليماك الحبيب ! لقد كنت أرقص طرباً كلما رأيتك تنبت كما نبت أبوك ، وتشب على الفضائل التى شب عليها ! أين أنت ؟ لقد ذهبت إلى ملك پيلوس تتجسس أخبار أبيك ، وها هم العشاق يترصدونك ويتربصون بك ليغتالوك فى الطريق . ألا طاشت أحلامهم ، وحماك چوف الأعظم من مكرهم ، وحفظك لبيت أرسسياس يا أعز الناس ... ؛ ولكن تعال أيها الضيف الكريم ... قل لى بربك واصدقنى فى كل ماتقول : من أنت ، ومن أين أقبلت ، وفيم قدمت ؟ وما بلدك ؟ وأين يقيم أبواك ؟ وأى سفينة حملتك إلى شاطئنا ؟ فلعمرى إنك لن تدعى أنك وصلت إلينا سائراً على قدميك !! »

فقال أوديسيوس يجيبه : « سأقص عليك من أنبائى التى لا يأتيها الباطل مالو لبثت عندك عاماً بين هذه الخمر وذاك الطعام ، بينما يكد الآخرون من

أجلنا ويجهدون ، مافرغت من قصها عليك ... فهى أنباء باكية وآلام متصلة ، شاءت السماء أن أقاسيها ، وأن أجرع غصصها ... إذن أنا ابن كاستور هيلاسيد أحد سراة كريت ، من سُرِّيته المحبوبة التى كان يعزها كزوجه . ولم يكن أبى يفرق بينى وبين إخوتى من زوجه ، بل كان يولينا حبه على السواء ، وكان الناس يبجلونه كأحد آلهتهم لثرائه الواسع ، وحسبه الضخم ، ولأعماله الناجحة ؛ فلما مات اقتسم أبناؤه كل ماترك ، وكان نصيبى منزلاً متواضعاً ، ومالاً كثيراً ، وزوجة غنية ذات مال وجمال . ولم يحاول إخوتى أن يَدعُونى أو يأكلوا تراثى ، لما كنت عليه من كريم الخصال وحميد الفعال ، وجمال المنظر ووسامة المظهر — لا كما ترانى الآن — وا أسفاً على مافات من نضارة الشباب ! تالله لن تستطيع ، ولن يستطيع أحد ، أن يحدس كم شقيت وكم بُليت ، وكم من الآلام والضنك وأوضار الحياة تحملت ؟ فلقد كنت لا أرهب الردى ، وكنت دائماً أخوض خبار المعامع فى حمى مارس ومينرفا فأشك قلوب الأعادى وأبهر القادة والزعماء بجلائل الأعمال ... ولم يكن من دأبى أن أشغل نفسى بأكلاف البيوت ومشاغل الحياة المعاشية الدنيا ، التى هى بالاحداث والغلمان أولى ، ، بل كنت مشغوفاً أبداً بركوب البحار وخوض غمار الوغى ، وملاعبة الأسنة ، وما إلى ذلك مما جعلته السماء غراماً وفرحاً لى ، وضراماً وفزعاً فى فؤاد سواى — والناس كما تعلم فيما يعشقون مذاهب ... ولست أرسل القول على عواهنه ، فلقد قدت إلى طروادة تسعة جيوش ظفرت بفيالقها قبل هذه الحرب الضروس الأخيرة بينها وبين هيلاس ... ولقد حزت الثراء الجم والغنى الوافر من جراء هذه الحروب ، فأصبحت بين شعب كريت المفضل المبجل ... ثم كانت الحرب الأخيرة التى قتل بسببها مئات من السادة الصناديد من رجال الإغريق ، فاختارونى أنا وصاحبى إيدومين قائدين للأساطيل ... ثم حاربنا حول طروادة تسع سنين حافلات مُثْقلات ، وفى العاشرة سقطت المدينة فى أيدينا ، وعدنا أدراجنا نطوى اليم لا ندرى ماذا خبأت لنا المقادير ؛ ومن ثمة بدأ چوف يرسل صيباً من الرزايا فوق رأسى ، حتى إذا وصلت إلى كريت سالماً لم ألبث طويلا هناك ، ولم أمتع النفس بالأهل والوطن إلا شهراً واحداً ؛ ثم أقلعت فى نخبة من رفاقى بأسطولنا إلى مصر بعد أن أولمت لهم وقربت القرابين . وقد أرسلت العناية لنا ريحاً جرت بسفننا رخاء ، كأنما أبحرنا مع تيار نهر لا جبار ولا عنيد ، ولم يحدث لأى من جوارينا سوء حتى بلغنا شطئان مصر فى اليوم الخامس ، واتخذت سفننا سبيلها فى النيل عجباً ... ثم حدث ما لم أود أن يحدث ، إذ سطا رجالى بعد خُلْفٍ فى الرأى وشجار بينهم عنيف على حقول الفلاحين فاستاقوا أنعامهم وسبوا نساءهم ، واسترقوا أطفالهم ثم ذبحوا رجالهم ... بيد أنهم لم يسلموا مع ذاك من شر المصريين ! إذ استيقظت المدينة على صراخ الجرحى وأنين القتلى وتصويت النساء فأقبل أهلها كالجراد ، بين فارس وراجل ، وكل يحمل السيف

البتار أو الرمح السمهري ، فأعملوا فينا ضرباً وتقتيلا واستنقذوا السبي كله ، وشفوا حرد صدورهم منا .. أما أنا ... فيا ليتني قتلت فيمن قتل واسترحت من هذه الدنيا التي جرعتني ضعف هذه الآلام بعد ! لقد كنت أشهد رجالي يهوون إلى الأرض ، وأعلم أن چوف قد أنزل هذا البلاء بهم جزاء لهم وفاقاً ؛ فلما رأيت أنني لا محالة شارب بالكأس التي شرب بها رفاقي ، ألقيت سيفي ، وجريت أعزل من السلاح إلى حيث الملك الكريم ، فركعت بين يديه ، وقبلت الأرض إجلالاً له ، وبكيت ماشاء چوف أن أبكي ، ثم سألته العفو والمغفرة ، فرق لى ، ورثى لحالى ، وأمر بى فأخذت فى جملة خدمه وخوله إلى المدينة . وقد رام رجاله أن يقصدونى برماحهم لولا أن صدهم مخافة من الله الذى أمّن اللائذين به المستذرين بظله . ثم لبثت فى أهل مصر سبع سنين هانئاً سعيداً محبوباً من الجميع . وحدث فى السنة الثامنة أن قدم إلى المدينة رجل فينيق جواب آفاق ، ما زال بى حتى أقنعنى بالفرار معه إلى بلاده ، وأغرانى بأن له ضياعاً وأملاكا ومالا ، ففعلت ، ولبثت معه حولاً بأكمله ، ثم حدث أن كلمنى بعد هذا الحول فى رحلة لا أعرف إلى أين ، كانت أكبر الظن للسطو والقرصنة ، أو على الأقل ، لأباع في بلد قصى بيع الرقيق ، فينتفع بثمنى ... ورحلنا ... ولكن عاصفة جبارة هبت علينا ، وتلاعبت بنا ؛ وعبست السماء ، وكلح الدأماء[1] ، وتمرد من تحتنا الماء ، ثم أرسل چوف صواعقه على السفينة فقصمها ... وغرق الملاحون جميعاً ! ... وأكرمنى الله العلى اللطيف فبعث إلى بقلع السفينة الأكبر فتعلقت به ، ولبثت الصَّبا تقذف بى نحو الجنوب أياماً تسعة ، وفى ظلام الليلة العاشرة ، دفعتنى على شطئان تسپروتيا حيث أكرم مثواى ملكها العظيم البطل فيدون ، وعُنى بشأنى . وذلك أن ولده رآنى طريحاً على الشاطىء أكاد أموت من البرد والجوع ، فحملنى إلى قصر الملك حيث ردت إلى الحياة وأعطيت دثاراً وصداراً ، وخصصت لي غرفة فسيحة ذات أرائك ... وهناك سمعت عن مولاك النازح ، البطل أوديسيوس ، ورأيته بعينى رأسى وقد ذكر لي عن فضل الملك وإكرامه مثواه ، ما برهنت عليه أعماله ؛ ثم أرانى أوديسيوس كنوزه من الذهب والنحاس وطرف الحديد التى جمعها فى أسفاره ، والتى تكفى للنفقة على أسرته عشرة أحقاب... وكان الملك يحفظها له فى غرف كثيرة في قصره إعزازاً له وتكريما ؛ وذكر لى أنه ذهب إلى ددونا النائمة بين أحضان الحور والسنديان ليستوحى كاهن چوف الأكبر إذا كان خيراً له أن يذهب إلى بلاده متنكراً ، أو فى صورته الصريحة الحقيقة بعد هذا الغياب الطويل عن أهله . وقد أكد لى الملك أن المركب الذي سيحمل أوديسيوس إلى بلاده — إيثاكا — معد فى المرفأ — ولولا أني أبحرت قبله لشهدته بعينى يركب الفلك ، ذلك أن فلكا آخر للملاحين من جزيرة دلشيوم كان راسياً فى الميناء ، فأمرهم الملك أن يحملونى معهم ويذهبوا بى بأقصى ما يمكنهم من السرعة إلى الملك أكاستوس . ولكنهم ـ او أسفاه

(١) عبس البحر

تألبوا على فى عرض البحر ، وتآمروا بى ، ونزعوا صُدارى، ونضوا دثارى ، ثم انتهزوا فرصة المد فأرسوا فى شاطىء إيثاكا ، بعد أن ألبسونى تلك البزة القبيحة الخلقة التي ترى . ولكي لا أقاوم أدنى مقاومة ربطوا ذراعى وساقى وشدوا وثاقى فى السارية فلم أبد حراكا ... بيد أن الآلهة رأفت بى وحلت وثاقى فقذفت بنفسى فى الماء وسبحت إلى الشاطىء حيث وجدتهم يعدون عشاءهم ويلتهمونه سراعاً ... وقد اختبأت فى الأدغال الكثيفة فلم يرونى ... وهالهم ألا يجدونى حيث شدوا وثاقي ، فذهبوا يبحثون عنى حتى إذا لم يقفوا لى على أثر ، أقلعوا عجلين ، ونجانى الله منهم ، وساقنى إلى الرجل الصالح الطيب الذى وصل حياتي وأكرم مثواى ... » فتبسم يومايوس وقال: « تالله لقد أثرت في فؤادى مقالتك أيها الضيف الكريم ، وأشجانى مالقيت من أهوال ! ولكنك كما يبدو لى لم تكن جاداً فيما رويت من أنباء أوديسيوس فلم أيها الأخ وعليك من سيما النبل ومخايل الفضل ما عليك ، تلفق مثل هذه الترهات المضحكات ؟ أما والله إنه إن يكن قد نجا من الموت فى ساحة طروادة بما ألب عليه من سخط الآلهة أجمعين ، فأكبر ظنى أنه قد غدا جزر السباع وكل نسر قشعم ... وا أسفاه عليه ! ألا ليته قتل فى سبيل بلاده في حرب عوان يحمي فى وغاها بيضة الوطن ! إذن لبكاه جميع الإغريق ، ولاجتمعت هيلاس كلها تتنافس فى صنع لبنات قبره ، وتخليد ذكره ، ولأورث ولده المجد والخلود ! هأنذا يا صاح ثاو فى هذا المكان ، لاصق بذلك البيت العتيق ، يفد علىّ فى كل آنة غرباء مثلك ، يروون لى القصص ، ويلفقون الأحاديث عن مولاى ، فبعضهم يبكيه ويتحسر عليه ، وبعضهم يوشى الأكاذيب ليغنم بعض الرفد وينال بعض العطاء ، حين أقدمه للملكة الحزينة الكاسفة ، بنلوب ! ولعمرى ما انطلت على يوماً أحاديثهم ، ولا خدعت مرة بما رَوَّقوا وزوقوا ! ! أفتحسبني أصدق ما زخرفت أنت الآخر عن أوبة مولاي مثقلا بأحمال الذهب من كريت ، واهماً أننى بهذا أبالغ فى إكرامك ، وأحرص على التلطف بك ؟ لم تصنع هذا أيها الرفيق بعد أن ترفقت بك الآلهة ، وهدتك إلى شاطئنا ؟ أما والله إنى إنما أكرمتك حباً لجوف ورهبة من بطشه ، ولما جاش فى صدرى من الشفقة عليك والرثاء لك ، والتألم من أجلك . » وقال أودسيوس يجيبه : « لشد ما أوتيت قلباً أفعمته الوساوس ، ونفساً ساورتها الشكوك أيها الشيخ ! هبها أنباء ملفقة ، فما يمينى التى أقسمتها لك إذن ؟ تعال ! هلم نتقاسم أَلِيَّة تكون آلهة الأولب عليها شهداء ، إنه إن آب مولاك إلى بيتك هذا فى أقرب ماتظن من الزمان ، فيكون لى عليك صدار ودثار أصلح بهما شأنى حين أعود أدراجى إلى دلشيوم ... فان لم يؤب كما عاهدتك فتجتمع أنت ورجالك وعمالك وتقذفوا بى من رأس قُلَّةٍ عالية سامقة يخشى أحقر الآفاقيين أن يتربع عليها » وأجابه راعى الخنازير : جميل والله أيها الغريب اللاجىء ! تكون ضيفى ، وتثوا كلنى وأؤاكلك على مائدتى ، وتطمئن إلى ، وتأتمننى ، ثم أقذف بك من حالق ؟ جميل والله

هذا ؟ وتضيع صلواتي ونسكي لدى جوف العلى ! صه ! هلم هلم ، العشاء ياصاح ! لقد آن وقت العشاء ... البدارَ قبل أن يدهمنا عُمَّالنا فيزحمون المائدة ولا تجد لك مكاناً بينهم »

وهكذا تشقق الحديث بين الرجلين ؛ ثم وصلت رعال الخنازير وأهرعت إلى حظائرها حيث ارتفع قُباعُها[1] وعلت ضوضاؤها ... وهتف الراعي بأحد غلمانه فأمره أن يحضر واحداً من أسمنها لعشاء الضيف ولعشاء الرعاة ... « ... أفما نستحق واحداً منها مما تلتهم بطون غيرنا الذين ينعمون بثمار كدنا ونصبنا ؟ »

وجيء بخنزير جسد ، وأُججت النيران واتقد الجمر ، وصلى يومايوس للآلهة ، ودعا لمولاه بالخير ، وتمنى له العود أحمد العود ، ثم أهوى بشاطوره على عنق الحيوان فخر يتلبّط في دمه ؛ وسلخوه بعد ذلك ، وهم به يومايوس فقطعه ، ووضع إرْب اللحم على صِبْغ الشحم ، ونثر من الدقيق على كل ذلك ، ووضع الجميع في الجمر ، وكلما نضج شيء وضعه الغلمان على المائدة ، حتى إذا فرغوا تولى الراعي العجوز توزيع الأنصبة ، فجعل لابن مايا[2] سبعة أسهم ، ولعرائس الماء سهماً واحداً ؛ وجعل لكل من عماله نصيبه بعد أن أتحف أوديسيوس بأجزل الأنصبة جميعاً ، ثم كان يمده بعد ذلك بإمدادات جمة ! ! مما ألهج لسانه له بالشكر وعليه بالثناء ... ورد عليه الراعي في أدب وافر : « إن الله هو مانح كل شيء يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويعطي ويسلب ، له الملك ، لا شريك له » . ثم أدوا صلاتهم الخمرية فهراقوا المدامة للآلهة ، وكذلك صنع أوديسيوس ؛ وهمّ ميسولوس — مولى يومايوس وخادمه الذي اشتراه بماله — فوزع الخبز ، ولبث يخدم ويسقي ، ويجيء ويروح ، حتى إذا فرغوا نظف المائدة وأعاد كل شيء إلى مكانه ؛ وانصرف القوم إلى مضاجعهمليناموا ليلة ليلاء ممطرة شديدة القر ، عظيمة البرد ؛ ونام أوديسيوس قريباً من مضيفه ، ولم يكن عليه من الغطاء ما يقيه هول القرس[1] فلفق هذا الحديث للراعي الشيخ ولمن نام معه من عماله : « لله ماتصنع خمركم بالألباب ياقوم ! لقد أوشكت أهذي وانتفض وأملأ شدق بالضحك ... ولولا هذا القر لقمت فرقصت ، ولكني محدثكم حديثا من أحاديث الشباب فيه هذيان وفيه ثرثرة ، وفيه من حميا سلافكم ما فيه . ألا ما أحلى أيام الشباب وما أروعها لو رجعت !! إن لها لصدى في نفسي يتردد ، وإني ما عشت لن أنسى تلك الليلة القارسة الشاتية التي قضيتها في صدر الشباب وريعان الصبى مع صديقي أوديسيوس ومنالايوس في كمين تحت أسوار طروادة ، في مستنقع آسن ذي قصب ، نرقب من عدونا فرصة تظفرنا به وتنصرنا عليه ، مقنعين في الحديد والزرد ، صابرين لما يصفعنا به بوريس[2] من ريح عاتية وبرد ، ويسفعنا به من قر وبَرْد ، حتى انعقد الصقيع على دروعنا ، وكدت أنا أجمد ويجمد الدم في عروقي ؛ لأني واأسفاه استهنت أول الأمر بما أنذرت به الحال

(١) القباع بالضم صوت الخنازير
(٢) هرمز

(١) القرس البرد الشديد جداً
(٢) ريح الشمال الصبا

من هذا المـآل ، فخرجت فى عدتى وسلاحى ، ولم ألبس معطفى ولم ألتفع رَيْطتى[١] ، بَيْدَنا قد احترز رفاقي فتدثروا بكل ثقيل ... وخفت أن أصبر لهذا البرد فتكون القاضية ، فهتفت بأخي أودسيوس : « أدركني يا ابن ليرتس النبيل فقد أشفيت على الهلاك من ذلك الزمهرير ! أدركني بأربابك فاني قد استخففت بالفصل الذى نحن فيه فلم أحضر معي معطفاً ويكاد يقتلني البرد ويهرؤني الصقيع » . وأسكتني أودسيوس خشية أن يسمعنا أحد فلا نفلت من الموت ، وقال لرفاقه : « أيها الاخوان ! رأيت رؤياً وبودى لو يذهب أحد إلى أجاممنون فيطلب لنا مَدَداً فلقد بعدنا عن الأساطيل ، ولسنا هنا بخير لما ترون من قلتنا ! » ، وانبرى لها أندريمون ، فخلع معطفه وأطلق ساقيه للريح ... وأشار أودسيوس الخبيث إلى ، فلبست المعطف واستدفأت به ، وحمدت الآلهة « أفليس فيكم أيها الأجاويد رجل رشيد ، فينزل لى عن معطفه أتقى به هذا البرد الشديد وأنا فى مثل سنى وأنتم فى ميعة شبابكم ؟ ألا تفعلون ؟ لتكن لكم هذه اليد علىّ تفضلا أو تأدباً ! » وقال يومايوس يجيبه : « لا عليك يا ضيفنا العزيز ... إنك لن تشكو برداً ولا تقصيراً عندنا ... وليس لدى كل منا إلا دثاره وصداره ومعطفه ، وليس لدينا منها كثير نباهي به ؛ ولسوف يعود تليماك بن سيدنا ومولانا فيخلع عليك من الملابس ما يسرك ويبهجك ؛ ولكن رويداً فسأكفيك عادية القر برغم هذا ... وبرغم ما غمزت فى حديثك ولمزت !! » . ثم نهض فجمع شيئاً كثيراً من فراء الغنم وجلد الماعز فجعله ركاماً بالقرب من المدفأ ، ثم جعل عليها ظِهارةً[١] من الصوف ، فصلحت بذلك أن تكون لأوديسيوس وسادة وثيرةً ليس بها من بأس ، نام فيها فاستراح والتحف بفراء أُخر ، وبات ليلته والابتهاج يغمر نفسه لما رأى من حرص راعيه على ذكراه ، وحنينه للقياه ، وعنايته بقطعانه ... أما الراعى العجوز الشيخ ، فكأنما أثرت فيه مقالة أوديسيوس فهب فألقى عليه سلاحه ، وأضفى على كاهله دروعه ، بعد أن خلع معطفه ، وأْتزر بجلد عنز ؛ ثم أجلس بازيه الباشق على كتفه الضعيف ، وحمل حربته التى يذود بها الناس والسباع عن رعاله ، وانطلق فى العراء ، حيث جلس على صخرة مشرفة على السهل ، وذلك ليحرس القطيع النائم ... غير عابىء بقرس الريح ولا وحشة الليلة الليلاء ...

« يتبع » دريني خشبة

(١) الريطة تشبه الكوفية

(١) ظهارة الفراش ونمطه مايفرش عليه كالملاءة

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ
تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

العدد التاسع عشر ٢٧ شعبان سنة ١٣٥٦ — أول نوفمبر سنة ١٩٣٧ السنة الأولى



فهرس العـــدد

صفحة

الطيار الذهبى فى قصر يوسف

للكاتبة الإيطالية ماتيلدا سيراو

بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعه

ماتيلدا سيراو Mathilde Seraw من شهيرات القصصيات الايطاليات . في أوائل هذا القرن عاشت ووضعت كتبها فى مدينة نابولى بأسلوب مبتكر جذاب ، وقد نقلت بضع قصص من تأليفها إلى اللغات الأوروبية ؛ وقد زارت مصر قبيل الحرب ووضعت قصة خلابة تربط بين الماضى والحاضر وتجمع الشرق والغرب وجعلت بعض مناظرها فى ظلال الآثار المصرية الخالدة وبطلها جيوفانى دى نافا طيار إيطالى ومعشوقته لادى شارلوت الانجليزية النبيلة . وقد شادت هذه اللادي السكسونية للقاء حبيبها قصراً وصفته المؤلفة بالقصر اليوسفي إشارة إلى ما فعلت امرأة العزيز ... وقد وقعت فى ذلك القصر حوادث جسام صاغتها المؤلفة القديرة أجمل صياغة وأفرغتها فى أبدع القوالب

وصف القصر كأنك تراه

بدأ الشيخ العربى يروى لى قصة قصر يوسف فى ظلال العمد الشاهقة عند معبد رمسيوم :

« كان السائر على شاطئ النيل بمقربة من « الدير البحرى الذى شادته الملكة المسترجلة حتشبسوت يرى بناء صغيراً يكاد يكون لجماله كالأمير المتخفى ، يدل مظهره البرئ على البساطة والتواضع ، وتنطوى حقيقته على العظمة والفخامة .... فالقصر الصغير الجميل لا يرى من ظاهره ما يدل على ما انطوى عليه من المفاخر والمحاسن وآيات الفن وضروب الجمال ودلائل حسن الذوق ومهارة الصانعين ولباقة لادى شارلوت التي جعلت من هذا البناء الأثري متحفاً للجمال الحي ومصدراً لوحى الفنون التى تجلت فى غرفه . وأول ما يسترعى نظر الرائى جلال الشخصية التى أشرفت على إعداده وتأثيثه وتنسيقه ؛ وإن الزائر ليحار حيال القدرة الجبارة التي تمكنت من إدراك أدق أسرار الفن والجمال التى ازدهرت فى عصر يوسف فنقلت معانيها الخفية والظاهرة ، وأفرغت ثمار النعمة والفنون الحديثة فى قوالبها القديمة الثابتة .

وإن تعليل ذلك ليهين على من يعلم أن عقل مستر « سترينج بيرد » العالم الأثرى الشهير الذى شاد القصر ورفع دعائمه وأنفق فى ذلك معظم ما كان يملك ، وقضى ثلاثة أرباع حياته فى الدرس والبحث والتنقيب والتحقيق حتى وصل إلى الصورة الأخيرة التى نسق عليها القصر ، فتضافر هو وعقل شارلوت على إيجاد تلك المعجزة الفنية التى بنيت من حجر وصخر ومرمر وبلور فكانت إلى وصف المصوغ أقرب ، حتى ليخيل إلى الرائى أنه يمتع نظره بجوهرة يتيمة فذة يرى أضواءها وهو فيها ، ويأخذ ببصره تلألؤها وهو محيط به ، ويشع حوله فيرى كالحالم أنه يتقلب فى فراش من الخز والديباج فى مقصورة من الماس المضىء بذاته لذاته ...

كان الزائر يمر بالمدخل الكبير للقصر بين عمودين من المرمر الناصع البياض مربعين لا معين جلب معدنهما النفيس من الصحراء الغربية ، وإلى

جنب كل منها تمثال لأسد رابض منحوت من الجرانيت القاتم ، وقد جعلا رمزاً للحراسة والحماية واليقظة ، كما جعل على رأس كل عمود تمثال لنسر يهم بالتحليق وقد نشر جناحيــه وخفض رأسه وحدق بعينيه ؛ وكان هذان النسران أجمل رمز لفن جيوفانى ، المهندس الطيار . وإنها لمصادفة عجيبــة فرحت بها لادى شارلوت فرحاً جماً ، فلو أنفقت وزنهما ذهباً ما استطاعت تقدير الفكر الذى أوحى إلى المعمار وضعهما ، فكأنه رأى بعين الخيــال ذلك الرجل السعيد الذي سوف ينزل بالقصر ويكون قلب مالكته ملكاً له

فاذا ما عــبر الداخل عتبة ذلك البهو الفخم المحروس فى أسفله بالأسود وفى قمته بالنسور أخذت عينه وراء كل أسد لبضعة أقدام من أذنابها التى أقعت عليها بتمثالين لعملاقين من الزنوج كأنهما واقفان لحراسة ما وراء المدخل واضاءة سبيل الزائر الذى توسط بستان القصر . وإنه لِمنَ المهندسين المعماريين من تشرف نفوسهم على المستقبل فيلمح أحدهم من بوارق الإلهام ما يقتضي تمام الفن أن يوحى إليه ليخرج العمل الكامل . فإن الفنان قد وضع فى يد كل منهما مصباحاً على شكل رأس امرأة قبض الزنجى بأنامله على ضفائرها ، وتشع من رأسيهما حزمتان من النور الأزرق ، فاذا تحرى الناظر مصدر الضوء وجده خارجاً من أعين المرأتين فكان لذلك فى نفسه رهبة أى رهبة . فإذا فرغ عجبه لهذا المنظر أخــذ بصره بحوض بيضاوى الشكل من المرمر الناصع البياض وعلى رأس كل طرف من أطرافه تمثال بديع لفتاة كاملة الخلق ممشوقة القد ناعسة الطرف قبضت على ثديها بيديها فتفجرت منهما المياه كما يتفجر لبن المرضع فى فم طفلها المحبوب ؛ والماء المتدفق على هذه الصورة العجيبة ينصب فى الحوض راسماً فى طريقه قوساً جميلاً لا يسمع له صوت لدى خريره ، ويزيده بهجة ووراء سقوط أشعــة زرقاء هادئة مسلطة من مدخل البهو على تلك الينابيع الأربعة المتدفقة من أثداء الفتاتين . فإذا ما أشبع الناظر نفسه بالنظر إلى الحوض والنافورة والفتاتين صعد بضع درجات من سلم واسع الأرجاء مصنوع من الجرانيت الوردى زينت أطرافها بآنيات خزفية ملونة تتدلى منها أغصان الأسيرجوس ، كأنها شعور خضراء لرأس خفى . وكان الباب الداخلى مستطيلاً وعلى جانبيه مرآة من المعدن يتبين فيهــا الناظر صورته واضحة جلية ، وعلى حافة كل مرآة تمثال من خشب الجوز التركى لظبى فاتن راقد فى اطمئنان يرنو بعينيه النجلاوين المصنوعتين من الصدف والعقيق الأسود إلى الناظر في المرآة

ثم يستأذن الداخل على بهو فسيح قد صفت على جوانبه مقاعد من الفسيفساء على صور تمثــل الصيد والقنص . أما أرض البهو فــكانت من الفسيفساء ، تمثل بحيرة عظيمة تسبح فيها أسماك شتى الألوان والأشــكال والحركات ، تتخللها أصداف وأحياء مائيــة أخرى كقنديل المــاء والأخطبوط ؛ وفى وسط الصورة الرائعــة الحسن

حوت عظيم فاغر فاه كأنما يريد أن يبتلع مايدنو منه من صيد البحر ، وركبت فى رأسه عينان من الياقوت الأحمر . أما زرقة الماء التى تمثلها الفسيفساء فكانت مصنوعة من شظايا رقيقة من «أزرق البحر» الفائق الجمال

وكانت جدران البهو مزدانة بتصاوير تمثل صيد البر ، فمن طراد بين كلاب سلوقية وغزلان مشردة وبزاة تحلق فوق رؤوس ظباء لتعود إلى صاحبها بالغنيمة الباردة ، إلى مناظر صيد الطيور فى برك المياه وسط الحشائش الخضراء ؛ فكان يخيل إلى الجالس فى البهو أنه متمتع بصيد البر والبحر ، حتى إذا مادعاه رب الدار إلى الدخول رأى أمامه وخلفه وعن يمينه وشماله أبواباً تؤدى إلى مختلف الغرف ؛ فمن يمينه غرفة الجلوس التى جعلها المعمارىّ بيضاوية على شكل حوض البستان وهى تؤدي إلى باب من الحديد المصقول لغرفة الطعام التى جعلت مستديرة على شكل المائدة ، وبينهما حجرة مستطيلة لاتتسع لأكثر من خوان الشراب وحوله مقعدان ، وفى جدرانها ينابيع من الفضـة إذا حركها الساقى سكبت ألواناً من الخمر المعتقة التي أوصت بها لادى شارلوت فى مصانع إيقوسه وشمپانيا وكروم توسكانيا وأڤنيون ؛ وقد صنعت تلك الينابيع بحيث تتصل بخزائن صغيرة تملأ وتستنزف وتثلج من وراء الجدار . ولقاعة الشراب نافذتان تطل إحداهما على حديقة القصر ، والأخرى على منظر من ضفاف النيل ، بحيث يرى المطل الشمس والقمر لدى الشروق والغروب . فإذا ما اتجه الداخل صوب الشمال بدأ بغرفة مثلثة الشكل جعلتها ربة القصر للقراءة والعبادة . ففى رأس المثلث معبد صغير تقف إليه كلما شعرت بالحاجة إلى الاتجاه إلى ربها . ولم يكن جيوڤانى بأقل حاجة منها إلى أوقات يقضيها فى ذلك الركن الركين ذاكراً سيدته العذراء ومولاه المسيح . وإن نعجب لشيء عجبنا للاختلاف بين عقيدته الكاثوليكية وعقيدتها البروتسية وقد جمع الحب بين الروحين ، وسوّى بين المذهبين ، وأزال الفروق كما أجرى فى عروقهما دماء جديدة للحياة التى تتدفق فى الشرايين ؛ والبهجة تدخل القلب فتنعشه ، والآمال تنهض بالنفس الحزينة فتقويها ، دأب الحب الناشيء فى قلبين متعطشين إليـه . وقد حوت هذه المكتبة طائفة من أنفس الكتب القديمة والحديثة ولا سيما مؤلفات توماس هاردى ودانونزيو . ومن فرائد المؤلفات التى احتوتها وعد الزواج لمانزونى ؛ وكان جيوڤاني يطيل قراءته لاعتقاده أنه يبنى الأبطال ، فقد بنى روسينى روسى حتى إنه ليحتفل فى كل عام بتاريخ صدوره

وأحضرت لادى شارلوت كتباً فى فن الطيران لتدخل السرور على قلب حبيبها إذا فاجأته بها . وينتهي رأس « مثلث المكتبة والمعبد » إلى باب صغير يؤدى إلى مخدع الرقاد ، وقد جعل هذا المخدع على هيأة بناء سداسى كأنه احدى خلايا النحل . ولا غرو فى ذلك فان العاشقين طالما تبادلا فيها لذة الحب ، وهي أحلى من الشهد . ولا عجب فان

شارلوت تصلح ملكة ، ولا يصلح جيوفانى إلا لخدمتها ، وقد جاءها طائراً كما تحلق ذكور النحل فى أفق السماء فى أثر الملكة يوم الغزل المشهود . فما أغرب المصادفة التى أوحت إلى المهندس بناء تلك الغرفة على تلك الصورة !

وينتهى أحد أضلاع هذه الخلية الانسانية المعسولة بغرفة الزينة التى جُعلت على شكل محارة رمزاً إلى أن التى تتحلى فيها « درة » تربت فى أصداف غالية ؛ وينتهى أحد الأضلاع المقابلة بخلوة الحمام ، وقد تفننت اللادى شارلوت فى تنسيقها وتزيينها بأحواض من المرمر الملون ومواسير من المعدن الأبيض ومرآة من الفضة المصقولة ، وجعلت فى أركان الحمام رفوفاً من العاج ذات تعليقات وحمالات من المرجان حملتها بأدوات الزينة النادرة المثال ؛ وكانت مربعات القيشانى الفيروزية تعكس على الحوائط ألواناً بهجة

ولما كان مستر سترينج بيرد قد زين غرفة النوم بتصاوير شتى لامرأة العزيز فى مختلف الأوضاع ، فتارة ناهضة من فراشها ، وطوراً راقدة وقد أسندت رأسها إلى معصميها ، فقد صورها فى إحدى اللوحات فى موقف المنتظر المتلهف ترقب موعد يوسف ، وفى أخرى صورة تجمعهما فى فراش واحد جعلتها زليخا فى غيبة يوسف لتفاجئه بها فى اليوم الموعود ، وفى الساعة التى كان لهـا ما بعدها ! وقد شاءت لادى شارلوت أن تجعل لنفسها من زليخا قدوة فلم تترك وضعاً من أوضاعها إلا وقلدتها فيه بتصويرها . وفى الحق أن الذين صوروا زليخا صوراً بارزة وأخرى غير بارزة ، وصوراً ذات ألوان وأخرى ساذجة ، لم يستطيعوا أن يجدوا ما يتفوقون به على صنع الذين صوروا لادى شارلوت . ومما يدل طوراً على الذكاء وتارة على التهوس السكسوني أن لادى شارلوت اتخذت من چيوڤاني يوسف آخر ، فجعلت في تصاويره بجانب صورها فى ملابس نفيسة من قميص إلى جلباب ، ومن قفطان إلى عباءة ، وكل ما اتخذه نبي العفة لباساً خلعته شارلوت على حبيبها بريشة الرسام ...

وكانت تلك التصاوير تزين مخدع النوم ومجلس الشراب وخلوة الحمام . أما غرفة الطعام فكانت مقاعدها من خشب « الأبنوس » المنزّل بالعاج وأسلاك الفضة ؛ وكانت جدرانها مزدانة بتصاوير يوسف وزليخا يتفكهان ويشمان رائحة الأزهار من باقات صفت لديهما على الخوان ، وصورة أخرى أضافتها لادي شارلوت تمثل عقائل المدينة وهن يقطعن أيديهن !!

وكان السرير فى غرفة النوم واطئاً رحباً وثيراً يشعر الراقد عليه بأنه قد أسلم جسمه إلى فراش يكاد لرقته ونعومته وطراوته وليونته يكون أحضان محبوب مشتاق ، وقد حشيت الوسائد والحشايا بأفخر الريش وأغلاه ، وغلفت الوسائد وما إليها بالحرير الأزرق ، وجعلت للسرير ستور من المخمل « الجنزارى » [1]

(١) هو لون الصدأ الذي يعلو النحاس ، وسط بين الأخضر والأزرق

وكان سقف تلك الغرفة شفافاً بحيث يرى الراقد فيها قبة السماء كما لو كان يرقب الأفلاك وهو لا يتكلف مجهوداً قل أو كثر . فكان لبزوغ القمر وتلألئه فى كبد السماء روعة فى نفس من يرى أشعته الفضية تنسكب انسكاب الغدير على الغرفة ومن فيها فتغمرها بسيال فضى ينعكس ضياؤه الأبهى على زرقة الرياش فيكون لذلك منظر من أبدع المناظر وأبهجها وأفتنها

أما غرفة الزينة التى أبدع الصناع زخرفها فقد جمعت بين الفن القديم والفن الحديث فوضعت فى صدرها منضدة من المرمر المعرق صفت عليه أوعية من المرمر الرقيق تحوى أطيب العطور وأروحها ، ومختلف الأدهان والمكاحل وأدوات تنسيق الأظافر وتطريتها ، وألوان ذهبية وياقوتية لتخضيب البنان ، وأدوات لتصفيف الشعر وترجيله وما تحتاج إليه النساء من أسباب التحلى والتزين ، كما حوت صواناً كبيراً للثياب صنع إطاره من خشب القرو ، وركبت ألواحه وجوانبه من البلور المزدوج بحيث لا تحتاج صاحبته للتنقيب عن الثياب فى ظلام الأخشاب . وقد جعلت فى خزائن من خشب عطرى علباوات من الفضة المبطنة بالقطيفة الزرقاء لصيانة جواهرها ومصوغاتها ومعظمها من الدراري اليتيمة واللآلىء النادرة ؛ وكان للياقوت الأزرق والفيروز والزبرجد أكبر نصيب من فصوص الأقراط والخواتم

وكان اللون الأزرق سائداً فى كل مكان . وطالما سئلت لادى شارلوت فى ذلك فأجابت : أليست السماء أجمل شىء فى الكون ، والبحر أبهى الألوان وكلاهما أزرق ؟ ثم بعد فان أولى الهدايا وأعزها عندى كانت ذات لون أزرق فتفاءلت بها وصار هذا اللون شعارنا ؛ وزادنى به تعلقاً أن حبيبى يفضله على ما عداه من الألوان . وفى عرفنا أن الدم الذى يجرى فى عروق ملوكنا أزرق اللون !

العاشقان بين نارين

لم يكن تدمير القصر اليوسفى الذى استقبلت فيه لادى شارلوت محبوبها جيوڤانى دى ناڤا المهندس الايطالى الطيار وليد المصادفة ، بل حدث ذلك التدمير بالنار نتيجة تدبير سابق بعيد الغور

فان لادي شارلوت التى أنفقت فى تنسيق القصر وتزويقه وتأثيثه وتجميله وتصوير جدرانه وتلوينها ما أنفقت من مال وصبر ، ولا سيما قاعة الرقاد التى جعلتها آية من آيات الابداع ومعجزة من معجزات الفن المصرى القديم ، وجمعت لها ما جمعت من أدوات الزينة وثمين الرياش ، وطرزت حواشيها بأنواع المخمل والسندس ، وفرشت أركانها بالدرابى المبثوثة ، وجملت أطرافها بالطنافس الغالية ، وحلت حوائطها بالتصاوير البارزة التى تمثل مناظر العشق وأوضاع الغرام إلى جانب مجالس الشراب ومواقف الغزل ، كانت تظن أنها أعدت لليالى حظوتها بمحبوبها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ؛ وحسبت أن الدهر قد صفا لها وهادنها ، وأن الأيام عاهدتها على الهناء وكفت عن الغدر بها . ولكن لادى شارلوت فطنت إلى شىء وغابت عنها أشياء ونسيت

أن من سره زمن ساءته أزمان ، وأن الدهر قل ما يهادن بغير استعداد لمواقع أخرى قد تكون أشد من الأولى وأقسى ، يعدها ليصلي المخدوعين بأمنه بنار محرقة من جحيمه . وإنها لفي ظلال الهناء ترشف كؤوس الحب مترعة ، فى الليلة الرابعة من ليالى غرامها الخالدة وقد أسدل الظلام ذوائبه على سريرها ، وهى تناجى جيوفاني ، تناوله أشهى القبل وتبادله أرق الحديث وأطيبه ، ولسان حاله يقول :

تبلت فؤادك فى الظلام خريدة

تسقى الضجيع ببارد بسام

وإذا بها تسمع فى الغرفة الملاصقة وقع أقدام خافت ؛ وكانت مرهفة السمع شديدة اليقظة حتى فى سكرات الغرام فنهضت وحاول جيوفانى النهوض ليتبعها ، إلى غرفة الزينة التى اختارت لها اللون الأزرق وهو اللون المحبوب منهما المفضل لديهما على سائر الألوان . وكانت اللادى تلبس للنوم قميصاً من الحرير الأزرق وحول عنقها ذلك العقد الذى تلمع حباته المجموعة من الياقوت الأزرق،ويتدلى على عنقها البلورى وكتفيها الفضيتين شعرها الناعم القسطنى فاجتازت الغرفة بخطوات مسرعة وأزاحت بيدها الستار الذى يسدل فيفصل بين الغرفتين ، فيسمع جيوفانى من ورائه وسوسة الحلى وخرير الماء الدافئ ويشم رائحة العطر . وبقى جيوفانى فى الفراش برهة فى حال غريبة من اللذة والخوف عليها ، وفى انتظار عودتها إلى ذراعيه اللذين جعل إحداهما وسادة لرأسها والأخرى وقاية لصدرها ، دأب كل عاشق يحتضن معشوقته فهو يريحها ويحرص عليها ، يريحها كما تريح المرضع الحنون طفلها ، ويحرسها من خطر موهوم ، فكأنه يخشى أن تفلت منه فى الظلام وهي به جد لاصقة..

ولكنه لم يجرؤ على تخطي مدخل الغرفة الزرقاء لئلا يخالف بذلك رغبتها فسمع همساً ، فعاد أدراجه ووضع يده على مسدسه الذى كان لايفرط فى صحبته مطيعاً فى ذلك نصيحة والده رينا لدي دي دنافا : « عليك يا بنيّ بثلاث تدرأ بها الأخطار : الهندسة والألسن والسلاح ،فالأولى للرزق والثانية للاغتراب والثالثة تلقى بها الرجال »

وقد ابتسم جيوفانى ابتسامة أليمة عند ما قبض على مسدسه ، وتذكر حكمة أبيه وقال فى نفسه : « هأنذا أنفذ وصيتك ياأبتاه ! لقد حذرتنى من ثلاث بثلاث : من الفقر بالعلم ، ومن الغربة بحفظ اللغات ، ومن لقاء الرجال بالسلاح . ولكنك لم تحذرنى من المرأة التى قد تكون سبباً فى كل أولئك »

ولم يكد ينتهي من هذا الخاطر العجيب الذى مر بذهنه بأسرع مما يمرق السهم وأمضي ، حتى سمع صوت رجل يتكلم مخاطباً لادى شارلوت ، فكادت دقات قلبه تقف فجأة لا رعباً من الخطر ، ولكن إشفاقاً على محبوبته التى خيل إليه أنها فى براثن الهلاك . فرفع جيوفانى ذلك الستار بأطراف أنامله ، فرأى رجلاً فى صورة أعيان السكسون ،

يشبه شيوخ السيناتو فى رومة القديمة ولوردات الانجليز فى لندن الحديثة ، وقد بدا فى أشعة مشكاة صغيرة تضىء ظلام الغرفة فى ثياب تشبه ثياب النسّاك ، وله وجه ورأس أشبه الأشياء برأس اللادى ووجهها ، وقد تدلت على صدره لحية لم يستبن جيوڤانى لونها على حقيقته . وكان الرجل على خلاف المألوف فى الانجليز ، أميل إلى السمن منه إلى النحافة ؛ وكان يتكلم بصوت خافت ولكنه صوت الرجل الوديع العالم الذى لم يتعود الصخب ، ولكنه صوت من إذا قال فعل ، وإذا أراد نفذت إرادته ؛ وكان أثناء كلامه يدلف إلى اللادى ثم يعود القهقرى ، فإذا دلف حرك رجليه على هيأة قوس من دائرة يتوهمها ويرسمها بساقيه إذا خطا . ثم يحدق بالنبيلة الانجليزية بعينين ضيقتين ولكنهما براقتان . وكانت اللادى تنصت فى رعب تحاول إخفاءه وراء ثوب شفاف من الهدوء . فلم يجد جيوڤانى سبيلاً لاستعمال مسدسه حيال هذا الشيخ الجليل الثابت الجنان ، ولا سيما بعد أن سمع كلامه بانجليزية بالغة الوضوح نقية اللهجة ، فأصغى جيوفانى فى حال بين اللذة والقلق إلى كلماته متنقلاً بحدقتيه اللتين مدتهما الرهبة ، من وجه محبوبته الشاحب إلى وجه الشيخ الملتهب . كان وجه شارلوت شاحباً ولكنه كان ثابت التقاطيع فلم يعرها ما يعرو الخائفين من رعشة أو اهتزاز أو تقلص فى العضلات . وكان الشيخ يتكلم كما لو كان يملى وصيته الأخيرة قبل ذهابه إلى ساحة القتال . قال الشيخ بصوت يلقى على رقته فى النفس الروع :

« إن وجود لادى شارلوت برنهارت حفيدة دوق مالبرو وسليلة بيت الوردة البيضاء ، صاحبة العفة وربة التقوى وتاج الصون فى هذه البقعة المقدسة لمن أجمل الاشارات إلى هطول البركات ووفور الخيرات ، ولكن التقاليد صريحة فى وجوب إقصاء الذين يلحقهم الدنس وتمسهم شوائب الرجس ، لا فرق فى هذا بين العبد والأمير ، فأستحلفك يابنت برنهارت باسم القوة السماوية التى تستمدين منها وجودك الذاتى لتقولن لى الصدق فيما أنا سائلك عنه : أأنت طاهرة أم ملوثة بأدناس ... العاشقين ؟

قال هذا ووقف تجاه النبيلة يحدّ فيها بصره ، كأنه يريد أن تصل نظراته إلى أعماق نفسها ، فأحفظها القول وغاظها وكسر بالها ، فتبدل شحوبها بحمرة شديدة وغلى دمها فى عروقها ، وأسرع نبضها تبعاً لخفقان قلبها ، وطفق نهداها الرمانيان (اللذان لم يخضعا لقانون التضخم والهبوط بفضل حمّالة من الحرير الأزرق مصنوعة حسب آخر أزياء باريس) طفق هذان النهدان يصعدان ويهبطان استنكاراً لكلام تأبى أن تتقبله من إنسان كائناً من كان ، واستنكاراً لمعاملة لا تليق بكرامتها . واستقر في خلدها أن بعض أعدائها دبر لها مكيدة للوضع من مكانتها ، فصوروا لها رجلا على صورة والدها (لورد رنيڤا نونكل أوف درومدرى أند كولو سترم) ليوهموها بتقمص الأرواح واقتفائهم أثرها لينغصوا عليها حياتها وحبها ، فوطنت النفس على مفاجأة الشيخ بما لم يكن فى حسابه من الشجاعة

ورسوخ القدم والقول المقذع ثم أنشأت تتكلم فقالت :

— ليس من عادة الشرفاء أن يخاطبوا من لاتربطهم بهم علاقة ما — دع عنك أواصر المعرفة الوثيقة ـ بمثل ماتكلمت به أيها السيد المحترم ، فضلا عن أن يدخلوا البيوت من غير أبوابها ، أو يغشوا المراقد فى مثل هذه الساعة من الليل ... أوالصباح!! فان لم تكن أنت ياسيدى قد سمعت صياح الديك فقد سمعتـه أنا وملأت نفسى بعد أذنى بجميل نغمه ... فحدق الشيخ فيها بعين الارهاب والتهديد ، وتربد وجهه تربداً تغيرت به بهجته ، وتنكرت بشاشته ، فأمسكت لادى شارلوت عن الكلام بعد أن ظن جيوفانى أن الغلبة لها ، إلا أن هيبة منظره لم ترعها ، فتجلدت له وأظهرت من ضروب الاستخفاف بتهديده وإرعاده ما جعله يكبر عليه أن يرى لادى شارلوت لاتقيم له وزناً ولا ترعى له حرمة ؛ واحتدمت فى نفسه نار الغيظ وانتفخت بسببه عروق جبهته حتى بدا لونها اللازوردى من خلال بشرته الصافية الأديم ؛ إلا أن الشيخ أو الشبح رأى أن يكظم هذا الغيظ ويأخذ بالأناة في الأمر ، فأعاد السؤال الأول في صيغـة لطيفة الديباجة ظاهرة المعنى فقال :

« أعيد عليك سؤال الأرواح التي أنابتنى عنها في بقعتها هذه : هل جئت إلى هنا تبغين التطهر من الدنس ، أم أنك طاهرة ؟

فأجابت بصوت جهير : سأجاوبك على هـذا السؤال . قال : إذا جاوبت والدك الماثل أمامك فإنما تجاوبين الأرواح ولا أزيد ، وإنى لآمرك أن تبرحى يا شارلوت — بياتريس . روز . بلانش . تيريز — أن تبرحى هذه البقعة المقدسة التى لوثتهـا أقذار الأحياء قبل أن تندلع النيران في أركانه ، وتنقض جدرانه ، وتندك حوائطه ، وتتحطم تحفه ، وتقفر مغانيه ، وتتهدم دعائمه ، وتحترق أشجاره وأعشابه ، فيصير أخضره يا بساً ، وباسمه عابساً

لقد كان في مقدورنا أن ننزل بك ما ننزل دون إنذار كما تمطر السماء بلا إبراق وإرعاد ، ولـكن بقية باقيةمن الشفقةألهمتناهذا التحذير فجئنا به، وستعلمين نبأه بعد حين ! فارتاعت لادى شارلوت لهذا الكلام وقالت : هأنذي ماضيـة فى سبيلى ؛ ثم دنت من الباب فاذا بها تبصر جيوڤانى واقفاً مبهوتاً مرتاعاً ، لأن ما سمعه من قولها ليس من الهنات الهينات ، إذ كان يعـلم أن لادى شارلوت تؤمن بخلود الأرواح وبسطة نفوذها وقوة بطشها ، وتيقن بأن لبعضها غلبة وقهراً تعنو لها جباه الجبابرة ؛ فخشى جيوڤانى أن تكون محبوبته قد خرقت بثبات جأشها وقوة حجتها سياج هـذه القوة الغامضة ، فوضعت من قدر الروح الممثل أمامها فى نظر من سمع هذا الحوار بينها وبينه من خاصة الأرواح المتصلة بالعالم الأرضى ، والتى لم ترتب فى مشاركتها فى استطلاع هذا المنظر الليلى العجيب

هل كان جيوڤاني حالماً ، أم كان يقظاً ؟ هل كان هازئاً ساخراً ، أم مؤمناً جاداً ؟ ولـكنه أيقن

أنه فى صحو وفى يقظة لأنه رآها تومئ له إيماءة أدرك معناها ، وكان المهندس الايطالى (سنيور جيوڤانى كما كانت تدعوه صديقته فى أوقات دعابتها) يحلق بفكره ساعتئذ فى جو الخيال ، فأنبهته الإيماءة من غفلته ، فأخذ يرشق اللادى شارلوت بنظرات تشف عما فى فؤاده من الهيام والخوف عليها . فأيقن الشيخ أن بين الاثنين سراً لا يفسره إلا ارتباط قلبيهما برباط الحب الوثيق ، فارتعد غيظاً وصوّت باللادي شارلوت أن تقف وأن تصغى إليه ، ففعلت ناظرة إليه بعين المستفهم عن سبب استرجاعه إياها وهى ماضية فى طريقها إلى مخرج من حضرته كما أمرها

وطالما سأل جيوڤانى نفسه بعد ذلك هل كانت تنوى العود إلى أحضانه في فراشها ، أم تنوى تغيير قميص الليل بثياب النهار لتغادر ذلك القصر الذى وصفه الشبح الانجليزى بأنه « بقعة مقدسة » ؟ وطالما علل نفسه بسؤالها بعد جوازها تلك العقبة وتخطيها هذه المحنــة التى قصر أمدها وطال ألمها . ولـكن الفرصة لم تسنح له ليلاقى على محبوبته هذا السؤال ، دأب العشاق الذين يشغلون بحبهم عن أنفسهم وعن غير أنفسهم

قلت : ظل الشيخ حينما انكفأت اللادى شارلوت إلى غرفتها يشيعها بنظره فيبصر بها فقال :

« أنت تظاهرين الأرواح بالعداوة والتعدى! »

والمتبادر إلى الفهم أنه لم يزين لك هذه الغواية ويتركك فى هــذه العماية إلا حليف لك هو الآن بمرأى منا ومسمع ، ونظر صوب جيوڤانى فارتعدت فرائصه وخارت قواه ، لا جبناً ولا وهناً ولـكن رهبة من هيبة الشيخ الوقور . ولم ينفعه علمــه بأن لادى شارلوت هي التى أحبته واستغوته واستدرجتــه وبذلت جهوداً جبارة فى رومه ، وفى لندن ، وفى فيرنزة ، وفى برمنجهام ، حتى حولت تيـار المودة بينهما من الصداقة إلى المحبة ، ومن التلذذ بالحديث العذب والمجلس الأنيق فى المثوى الفاخر المنعم إلى الحب العميق والعشق الساحر . ولم يهدئ من روعه علمه بأن لادى شارلوت تكبره بسنتين فهى فى حدود الأربعين وهو ما زال في السابعة بعد الثلاثين ، كما أنها بحكم نشأتها وتعليمها ومحيطها ومستواها تفوقه فى الخبرة والتجارب ؛ ولعلها أذكى منــه خاطراً وأسرع إدراكاً وأحضر بديهة وأوسع اطلاعاً ، فكم مملـكة زارت ، وكم رجل خطير عرفت وعاشرت ، وكم كتاب قرأت ، وكم معضلة عرضت لها فحلت ، دع عنك ما ركز فى طبيعتها من المـكر الحسن ... والسيء ! !

كان جيوفانى رجل حق وصدق ، سليم الفطرة طيب القلب ، أبغض شيء لديه الـكيد والخداع ؛ وكان نابغاً فى عمله يتقنه ويبرز فيــه حتى يبذ معاصريه وقرناءه ، ولـكنه كان يغلب لشارلوت إذا لاعبها الشطرنج أو نازلها فى ميدان التنيس أو سكواش راكيتس ، كان يفوقها فى المنطق وتفوقه في السفسطة والدعابة ، وقد عاشرها على حذر إلى أن استبان إخلاصهـا ووفاءها . والمرأة إذا أحبت أخلصت ووفت ، وكلتا الخلتين رهينتان بحبها ؛ فإذا مات الحب نضب معين الفضائل التى كان الحب يغذيها وينعشها ، أما الرجل فلا ينسيه غروب شمس حبــه شيئاً من مكارم أخــلاقه التى كان يغمر بها محبوبته لعهد الغرام . ولعل شعوره بانتهاء الحب وانحلال الرابطة الوثيقة التى كانت بينه وبين « أنثى » من جنسه ينبه فيه عواطف الشفقة والحنان والرحمة ،

ولو أن المرأة التي كان يحبها أمهلته ولم تعرقل عواطفه بغيرتها وغيظها لرأت منه فوق ما عودها من الرأفة والشفقة ، ولكن المرأة ، ولا سيما إذا كانت ذكية الفؤاد ذات حساسية ، تجعل من القطيعة مسألة نفسانية ذات علاقة بالكرامة ، فلا تقبل من « قطيعها » من الأيادي ما كان يسدى إليها سابقاً ، وتفضل أن تجوع وتعرى على أن تتلق معروفه وجمائله . على أنها فى ذلك لا تتبع إلا خطة ثابتة فى نفسها ، إذ ينـدر أن تلق بالإحسان من كانت تحب ، بل تفتر لدى لقائه وقد تتنكر له ، ولا ينفع معها التذكير والتفكير ، ولا يهمها أن تعود بخاطرها إلى ما كان بينهما من أيام الهناء وليالى القرب الأدنى . ويخطىء من يلومها أو يحقد عليها ، فعذرها تعلقها بحريتها وبغضها الخضوع لسلطان رجل كان بالأمس سيدها بحكم الحب ، وخلعت اليوم نيره راغبة أو مرغمة ، فهى تنتظر أن تلق سواه وتعلق به وتحبه فهى تعد قلبها للإيجار أو للبيع فتفعل ما يفعل المالك عند « خلو » داره من ساكن من غسل ومسح ورش وكنس وتبييض وتلوين وتعليق لوحة للإيجار ... ولا تقل المرأة « الخالية » عن المالك غيرة على استثمار « البيت الخالى » ، فإن طاف بالساكن الجديد محسناً ومعظماً ومبالغاً فى قيمة الدار وزينة الغرف وجمال الوضع وتنسيق البهو وحسن الشرفات فهى الأخرى لا تنى فى إظهار محاسنها الظاهرة والخفية بشتى الوسائل حتى تقنع الراغب أو المرغوب فيه بالسكنى

كل هذه الخواطر مرت بذهن جيوڤانى فى تلك اللحظة الرهيبة وهو يصغي إلى صوت الشيخ وهو يكمل حديثه :

« لهذا أنذرك أيتها العقيلة (وهنا قال جيوفانى عجباً لهؤلاء الانجليز ، حتى أشباحهم لاتنسى آداب الحديث فى أحرج المواقف) الجامحة فى الضلالة بأن الأرواح لا تتجاوز عن ذنبك إلا إذا رجعت إليهم بحسن التوبة » ثم صعد نظره في جيوفانى وأومأ إليه بسبابته قائلاً ، ولكنه قبل أن يتمكن من النطق بحرف واحد بادره جيوفانى بكلمة قاطعة :

« أيها الشيخ الجليل أو الشبح المضيء أو الروح الخالد ، وسامحنى إذا لم أعرف كنهك لأخاطبك باسمك وألقابك ، دع عنك بالله تأنيبي واهدنا أولاً إلى مقر الآنسة دولى برنهارت ، فهى التى بسببها جئنا إلى هذا المكان ، ونزحنا إلى تلك البقعة التى تصفها بالقداسة ، فأنت تعلم أنها مفقودة وأن أمها جاءت تبحث عنها ؛ فان كنت جدها وهي حفيدتك فأنت أولى الناس بالارشاد إلى مستقرها .

الفتاة المفقودة

وقد كان سؤال جيوفانى فى صميم العاطفة ، وصدى للوعة الأم التى قصدت إلى ضفاف النيل لتبحث عن عشيقها ففقدت ابنتها . وكان جيوفانى يلتمس عذر الطيران فى السماء الصافية بحجة البحث عن العذراء الغائبة

فعند ما جبه جيوفاني الشيخ الجليل أو شبح لورد كولوسترم ، والد لادى شارلوت بالسؤال عن (دولى) مستقرها ومثواها ولح له من طرف خفى أن الاستدلال على الفتاة المفقودة خير من الظهور للأم فى سيما والد همليت ، وتقريعها قبيل الفجر على أمور لم تعرف كنهها ولم تقف على مدى خطأها فيها ؛ وظن جيوفانى أنه بهذا التوجيه الكيس قد صدَّ تيار

الغضب فى نفس الشيخ الغيور على طهر كريمته ... ولكن جيوفانى أخطأ فى الحساب ، فلم يكن فى نفس الشيخ منفذ للرضا أو تأدية واجب لحفيدته قبل أن ينقذ روح أمها من الجحيم الخيالى الذي توهمها سائرة إليه بغير مرور بالأعراف ...

فان جيوفاني لم يلبث أن ألقى السؤال الخاص بدولى حتى أجابه الشيخ :

إن صح فى عُرفك أن تمثل دور المشفق على حفيدتى ، فلم يصح بعد فى شرعة الحق أن أنقلب عرافاً أو منجماً ، لأن دولى لم يخطفها أحد طمعاً فى جمالها كما حسبتم ، بل عقاباً وقتياً لأمها على انحرافها عن محجة الصواب وعدولها ولو إلى حين عن جادة الاستقامة ، والتستر ، خصوصاً التستر المفروض على كل سكسونى وسكسونية . أما أنت أيها المهندس الذى تمادى فى البهتان وخضع لوساوس ابليس فعبثاً تطمح إلى استدرار غيوث المكارم الروحانية والفوز بالمغفرة العليا ، فقد أصررت على المغالاة فى حب اللادى ونكثت عهود الزواج ، وحنثت فى الايمان ؛ ومع أن آلهة قومك قد أجزلت لك المواهب وأغدقت عليك العطاء من ذكاء متوقد ، وخاطر سريع ، وإقدام نادر المثال ، فسوف نعاقبك بالحرمان من عشقك ونفرق بينك وبين تلك التى تدعوها معبودتك ونوردك موارد الجحيم ... على الأقل ، تلك الجحيم التى اصطنعها جدكم الأعلى ... دانتى اليجييرى ... وأما هذا القصر وهذه الرياش والمخادع الفاخرة فستعلم نبأها بعد حين

فالتفتت لادى شارلوت إلى جيوفانى وكان واقفاً تجاهها فرأته ساكن الجأش مطمئن النفس . وقد أخذ يتقدم نحوها بقدم ثابتة ففهمت أنه يبغى تبرئة نفسه مما عزاه الشيخ إليه ، وخشيت أن تسبقَ منه كلمة تخشى عاقبتها أو تزل قدمه في عثرة يعسر عليه النهوض منها ، فتقدمت نحو الشيخ وابتدرته بقولها :

إننى وحدى الجانية على نفسى بما تعمدته من الدخول فى هذه المآزق ولا يَدَ لهذا البرىء الذيل من كل ذنب ، الطاهر النفس من كل عيب ، فيما اجترحته من الأخطاء

فقال الشيخ : أتنبرين لتبرئته وأنت تعلمين مقدار مشاركته فى غلطك ؟

قالت : كلا بل إنه أكثر من نصحى أن أتجنب الخطأ فلم تبلغنى عظته ، وزجرنى فلم يعمل الزجر فى نفسى ، فأقلنى من عثرتى وامح مابى من الدنس الذى أصابنى

والذى يعرف أخلاق لادى شارلوت يعلم علم اليقين أنها لم تكن جادة في قولها ، وإنما كانت تمالئ الشيخ لتنقذ محبوبها من قوارع كلمه وزواجر تأنيبه وتعنيفه ، ولتكسب وقتاً تتبادل فيه وحبيبها المشورة والفتوى لعلهما يقفان على حقيقة هذا الشيخ : أهو جزء من مكيدة مدبرة أم ظاهرة روحية عميقة السر غامضة المعنى ؟

ولم تتم اللادى شارلوت هذه الكلمة حتى تجهم وجه الشيخ واربد وقال لها : مهما تبطني من المكر والحيلة نحط به فوراً ، وما أراك إلا منتحلة تلك المذلة حتى ينجو صاحبك من سخطى

قال هذا ثم توارى عن الأنظار . أما جيوفانى فكان لايزال مشرد الفكر وقد لبث فى مكانه كمن أخذته الصيحة حتى طرق سمعه رنين الطبل النحاسى المؤذن بصلاة الصباح كما هى تقاليد القصر التي رسمتها

لادى شارلوت منذ احتلته هي وصاحبها ... صلاة الصباح ولكنها لم تكن صلاة الصبح بل كان إنذار اللهب الذى اندلع فى ناحيات القصر فى لحظة واحدة ، وصفير النار التى اشتعلت فى الأثاث والرياش ، وتحقيق الوعيد الذى جاء على لسان الشيخ الذى قال إن النار المحرقة تطهر كل شئ حتى القلوب التى فى الصدور!

***

وكان الشيخ العربى يقص قصته الخلابة ونفسى سابحة فى عالم الأحلام ، فكنت أغمض عيني لأتخيل الحقيقة التى يرويها . فإذا ما فتحت عيني رأيته فى مجلسه وسمعته يقول :

« أما القصر الذى طالما قرأ القارئ اسمه ، وعلم من أنباء الحوادث التى جرت بها الأقدار في أبهائه وغرفه ما علم ، وإن لم يقف على تفصيل وصفه فقد وقعت لنا صور زيتية وأخرى شمسية تمثل معالمه وأطلاله ، كما وقفنا على نبذ وجيزة وأخرى مسهبة فى وصفه دونت ببعض صحف التاريخ الحديث وروايات أسفار السائحين الذين سعوا إليه وساعدهم الحظ بدخوله والتنقل بين غرفه قبل أن تمتلكه لادى شارلوت لتستقبل فيه حبيبها جيوفاني . فاستخلصنا من تلك المصادر وصفاً صادقاً وإن يكن غير بالغ شأو حقيقته فما راءٍ كمن قرأ أو سمع

«كان السائر على شاطئ النيل بقربة من الدير البحري الذي شادته الملكة المسترجلة حاتشبسوت يرى بناء صغيراً يكاد يكون كالأمير المتخفى »

محمد لطفى جمعة

غادة البحر

مسرحية للكاتب العالمي النروجي أبسن
بقلم الأستاذ خليل هنداوي

مشهد منها

« أليدا هي امرأة الطبيب (فانجيل) تبدو عليها مخايل السعادة . كانت في فتوتها خطيبة ربان سفينة من سفن النقل . ولكنه فجأة توارى ونسيته « أليدا » وتزوجت « فانجيل » ولكن الربان ظهر وأتى (أليدا) يطلب إليها أن تفي بوعدها . فعراها اضطراب وأدركت أن حياتها الحاضرة قائمة على الكذب . فطلبت إلى « فانجيل » أن ينفصل عنها لكي يتسنى لها أن تختار بملء حريتها أحدهما . وهذا المشهد يمثل « الربان » قادماً ليتلقى الجواب النهائي »

(يصل الرجل الغريب من الشمال ويقف على الطريق خارج سياج الحديقة)

الغريب — (مسلماً) عمي مساء ، هأنذا قد جئت يا أليدا !

أليدا — أجل ! دقت الساعة الآن

الغريب — وهل أنت متأهبة للرحيل ؟

فانجيل — ولكنك ترى أنها لم تتأهب له

الغريب — إنني قلق ، لا بسبب رداء سفرها ، ولا لأنها أعدت أمتعتها أو لم تعد ، فإن عندي كل مايجب في الأسفار . وقد أعددت لها حجرة خاصة .. (لأليدا) إنني أسألك هل تأهبت للحاق بي بمحض إرادتك !

أليدا — (متضرعة) لا تطلب إليّ الرحيل ! لا تغرني هكذا !

(يسمع من بعد قرع ناقوس السفينة)

الغريب — هذه القرعة الأولى . الآن يجب أن تقولي : نعم أو لا

أليدا — (باسطة ذراعيها) أأقرر مصير حياتي كلها ؟

الغريب — نعم : تقريراً لا يُرد ؛ بعد نصف ساعة يجيء متأخراً لا نفع وراءه

أليدا — (ناظرة إليه) ولماذا تتمسك بي هذا التمسك الثابت ؟

الغريب — ألا تشعرين مثلي بأن واحدنا يخص الآخر

أليدا — أبسبب الوعد ؟

الغريب — الوعود لا تقيد أحداً ، لا رجلا ولا امرأة ، فإذا تمسكت بك بقوة فذلك لأنني لا أستطيع أن أعمل غير هذا .

أليدا — (باضطراب وارتياح) ولماذا لم تجيء باكراً ؟

فانجيل — أليدا ...

أليدا — (ذاهلة) آه ! إن الذي يغوي ويذهل النفس ويدفع بها نحو المجهول ، هو هذا : البحر

(يتخطى الغريب سياج الحديقة)

أليدا — (عادية وراء فانجيل) ما ذا تحمل ؟ ماذا تريد ؟

الغريب — أليدا ... إننيأنظره ، إنني أسمعه ، هو كما حدثتني عنه ...

بلى ! على الرغم من كل شيء سأ كون أنا الذي يقع اختيارك عليه

ڤانجيل — (ذاهباً نحوه) ليس لامرأتي أي اختيار ... أنا هنا لستبالرجل الذي اختارته فحسب ، وإنما أنا رجلها وراعيها . أجل ! أنا رجلها وراعيها ! فإذا لم تنصرف حالاً إلى غير رجعة لا تدرك أي مأزق تسقط فيه

أليدا — ڤانجيل ! ڤانجيل ! ماذا تريد أن تفعل ؟

الغريب — نعم ! ماذا تفعل ؟

ڤانجيل — أقبض عليك كمجرم . . . الآن قبل أن تعود إلى البحر . إنني أعلم من قتل (سجولڤيكان)

أليدا — أوه ! ڤانجيل . كيف تستطيع ؟

الغريب — ذلكما كنت أنتظره ، (ساحباً مسدسه من جيبه) وقد تجهزت لهذا الغرض

أليدا — (طارحة نفسها أمام ڤانجيل) لا لا ... لا تقتله ، أقتلني أنا

الغريب — لا أنت ولا هو . كوني هادئة . هذا لا ينفع أحداً غيري يعيش ويموت رجلا حراً

أليدا — (بذهول) ڤانجيـل ! دعني أ كلك أمامه ... إنك تريد وتقدر على حبسي في هذا المكان لأنك تملك على القوة والوسيلة الشرعية ، ولكن نفسي وأفكاري ... وكل أهوائي ، وكل رغائبي المتوقدة لا تستطيع أن تقيدها ولا أن تحددها . إنها كلها تفتش عن ذلك السر وتتبعه ، عن ذلك المجهول الكبير الذي خلقت من أجله ، والذي أغلقت أفقه وحجبته عني

ڤانجيل — (متألماً) إنني أراه جيداً يا أليدا ... إنك تفرين مني شيئاً فشيئاً . إن رغبة اللانهاية والمثل الأعلى الذي لا يتحقق سينتهيان بإلقاء نفسك في أطواء الليل العميق

أليدا — نعم نعم ! أحس أن أجنحة سوداء صامتة تخفق فوقي

ڤانجيل — لا ينبغي أن تصلي إلى هنالك . ليس لك إلا سلام واحد . لذلك فسخت زواجنا . فاختاري طريقك بملء حريتك

أليدا — (تنتظره لحظة بدهشة عميقة) أحقاً ماتقول ؟ أصدقاً ماتذكر ؟ أأنت تقرر هذا من قلبك؟

ڤانجيل — أجل ! من كل قلبي البائس الممزق

أليدا — ألك قدرة عليه ؟ أتستطيعه ؟

ڤانجيل — أجل ! أستطيعه ... أقدر عليه بسبب حبي إياك

أليدا — (بصوت منخفض مرتعش) ألي مثل هذا المكان في قلبك ؟

ڤانجيل — ألم نعش معاً مدة أعوام ؟

أليدا — (ضامة يدها) وأنا التي لم أفهم أبداً هذا الرجل

ڤانجيل — كانت أفكارك من قبل مغايرة لأفكارك الآن . وقد انطلقت من نفسك ومن نفسي . لأن حياتك الحقيقية تستطيع أن تجد طريقها الحقيقي وتسلكه . الآن تقدرين أن تختاري بكل حرية

أليدا — (آخذة رأسها بيديها وناظرة إلى ڤانجيل) بكل حرية ! ... وبكل رغبتي وإرادتي ! ... أي تغير هذا ؟

(يقرع ناقوس السفينة ثانية)

الغريب — أو تسمعين يا أليدا ! هذه القرعة

الأولى المنذرة بالرحيل . تعالى ...

أليدا — (تلتفت إليه وتنظره وتقول بصوت متهدج) لن أتبعك بعد اليوم

الغريب — ألا تريدين أن تتبعيني ؟

أليدا — (مقتربة من فانجيل) إنني لن أتركك بعد حديثك هذا !

فانجيل — أليدا ... أليدا ...

الغريب — هل انتهى كل شيء ؟

أليدا — نعم انتهى كل شيء إلى الأبد

الغريب — إنني أرى ... إن هنا شيئاً هو أشد وأقوى من إرادتي

أليدا — ليس لإرادتك سلطان عليّ . أنت عندى الآن رجل هالك عاد من البحر ، وسيعود إليه. أصبحت لا أخشاك أبداً . ولن تستطيع إغوائى بعد

الغريب — وداعاً أيتها السيدة ! (يتخطى السياج) على أنك لن تكونى فى حياتى إلا ذكرى : ذكرى شخص غريق . (يخرج من الشمال)

فانجيل — (ناظراً إليه) أليدا ! أليدا ! إن نفسك كالبحر . لها من البحر مده وجزره . من أين دخل على نفسك هذا التغير ؟

أليدا — انك لا تفهم ان التغير قد صار ، بل يجب أن يصير بقوة منذ تركت لي حرية العمل

فانجيل — وهذا المثل الأعلى ! وهذا المجهول الخفى الذى يجذبك نحوه ؟

أليدا — انه لا يجذبنى ولا يروعنى . اننى أملك القدرة على التأمل فيه ، والحرية في تقليبه على وجوهه والاحاطة به . ولذلك استطعت أن أنكره وأجحده

فانجيل — بدأت الآن أفهمك ... أفكارك وعواطفك هى كألغاز ورموز . والذى يجذبك نحو البحر ، الذى يجذبك نحو هذا ... نحو هذا الشيء الغريب ، هو حاجتك إلى الحرية التى تتيقظ فيك وتنمو فى نفسك

أليدا — لا أعلم ! ولكنك كنت طبيبي الماهر . جرؤت على أن تستعمل العلاج الحقيقى والوسيلة الناجعة التى أنقذتنى

فانجيل — نعم ... نحن الأطباء قد نضحى في المهالك الكبيرة بالكل من أجل الكل . وهكذا تبقين لى يا أليدا

أليدا — نعم يا حبيبي ! يا فانجيل الأمين ! الآن أنا لك ، الآن أقدر على ذلك ، لأننى عدتُ إليك بكل حرية ، كأنى كائن ضامنٌ ما يعمل

خليل هنداوى

الحكم فى مباراة الأقصوصة

اجتمعت لجنة التحكيم فى مباراة الأقصوصة التى اقترحتها مجلة الرواية وجعلت للفائز فيها جائزة قدرها خمسة عشر جنيها ، يوم الأحد الماضى مؤلفة من حضرات الأساتذة : محمد فريد أبو حديد ، توفيق الحكيم ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، محمود تيمور ، ثم صاحب هذه المجلة ، ونظرت فيما تجمع من الأقاصيص المتسابقة ، ثم قررت النظام الذى تتبعه فى قراءتها وفحصها . وستجتمع مرات أخرى متوالية حتى يصدر حكمها فننشره فى الرواية والرسالة وبعض الصحف .

الغرفة الزرقاء

للكاتب الفرنسي بروسبير مريميه

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

أخذ الفتى يذرع فناء المحطة مقبلا مدبراً تبدو عليه سمات الاضطراب والقلق، وهو يجهد أن يخفى معالم وجهه، فهو قد أرخى طرف قبعته على جبهته، ووضع نظارة زرقاء على عينيه، ولف حول عنقه منديلا كبيراً، وفى يمناه منديل يرفعه إلى أنفه بين الحين والحين، وقد حمل فى يسراه حقيبة صغيرة فيها بعض متاعه ... وهو ينطلق إلى باب المحطة بين الفينة والفينة يستطلع خبراً، ثم ينقلب فى لهفة يحدق فى الساعة الكبرى ... لم يكن القطار ليبرح إلا بعد ساعة، ولكنه كان يخشى أمراً.

وابتدأ السَّفْر يفد زُمراً زمراً والفتى يفزع لمرآهم ويحس كأن قلبه ينخلع؛ ثم هو يشعر بالرعدة تسرى فى مفاصله، والكلال يسيطر عليه، فرقاً وخوفاً

وانتظر فطال به الانتظار ... ثم طلعت عليه فتاة فى لباس أسود ونقاب أسود كثيف يغطى معارفها، وخطواتها تبدى عن بعض جمالها وشبابها وفى يمناها حقيبة من الجلد صغيرة. وتلاقيا ... ولبثا حيناً صامتين، يداً فى يد، وعليهما أثر الإعياء والبهر؛ ثم اندفعت الفتاة تحدثه: « ليو! ما كنت لأستطيع أن أثبتك وأنت فى نظارتك هذه! » قال ليو: « وأنا، لقد كدت أنكرك وهذا النقاب يحجبك عنى! » فقالت الفتاة: « لا ضير، فلنتخذ مكاناً هادئاً فى القطار قبل أن يتدفق إليه الناس. » ثم جذبته وهى تقول: « إن واحداً لا يستطيع أن يتعرفنا الآن. أنا الآن مع كلارا وزوجها فى طريقنا إلى الريف — كما يظن الجميع — وسأعود عند ظهر الغد؛ أفهمت؟ إنه لن يتطرق الينا الشك أبداً، ثم ... ثم إذا سئلنا عن أسمائنا فى الفندق؟ » قال الفتى: « السيد دورو والسيدة زوجه » قالت: « لا، لا! لقد كان هذا اسم حذّاء هناك! » قال: « السيد ديموند والسيدة زوجه » قالت: « لا بأس، لا بأس! »

ودق الجرس، بعد أن أصابا مكاناً خالياً كأنما كان مهيأ لهما بخاصة، فصاحا معاً « إننا الآن فى خلوة! » غير أن السرور الذى أفعم قلبيهما حين وجدا نفسيهما وحيدين لم يستقر إلا ريثما يفزعه رجل فى الخمسين من سنى عمره فى ملابس سوداء قاتمة تبدو عليه سمات الحزن والجد وأثر النعمة وهو يدلف إليهما فى هدوء ويلقى بنفسه فى زاوية بإزائهما..

وانطلق القطار. وانتحى الشاب وصاحبته ناحية ثم راحا يتهامسان باللغة الإنجليزية فى حذر. فنظر إليهما الرجل برهة ثم قال في لسان إنجليزى فصيح: « سيدى، إن كان لديك من الحديث ما تشفق أن أسمعه فلا تقله بالإنجليزية لأننى إنجليزى النشأة والمربى؛ ولشد ما يؤلمنى أن أزعجك أو أقطع عليك حديثك، ولكن بالرغم منى ما فعلت، ففى العربة

الأخرى رجل يضيق بمرآه صدرى لأننى أستشعر فيه اليهودية ، ثم إنى قد وطنت نفسى على ألا أسافر مع رجل واحد في عربة واحـدة ! » ثم توسد حقيبته وهو يقول: « سأنام ، وإن لم أستطع فسأقرأ »

وحاول الرجل عبثاً أن ينام ، فأخذ يفتش عن كتاب في حقيبته ، وحين فتحها بدا ما فيها من تشعث واضطراب ؛ وأعجز الرجل أن يجد كتابه ونظارته دون أن يلقى ببعض ما فى الحقيبة جانباً ؛ ثم تناول من بين متاعه حزمة ضخمة من الأوراق المالية الإنجليزية وهزها أمام الشاب وهو يقول : « أفأستطيع أن أستبدل بهذه ورقاً فرنسياً فى (ن ...) ؟ » قال الشاب : « قد تستطيع ، فهذه قرية فى الطريق إلى انجلترا ! »

واضطرب الشاب لأنه هو سيهبط هذه القرية فى صحبة فتاته ليختلسا من الدهر فترة نعيم يتذوقان فيها لذة الهوى المحض ، ويرشفان من رحيق الحياة قطرة صافية حلوة ، ثم لا تمتد يده إلى الثمرة المحرمة ؛ ثم هو أوجس فى نفسه خيفة من هذا الرجل الغريب فما فى (ن ...) سوى فندق واحد صغير . لقد اختلف ليو إلى هذه القرية مرات ومرات وأعجبه ما فيها من جمال وهدوء ، وجذبه إليها ما رأى من روعة وجلال ، فانطلق إليها هو وفتاته يستمتعان بجمال الطبيعة وسعادة الحب . والآن ... الآن حين صحبهما هذا الرفيق الثقيل اضطرب الشاب وفزع وسلبته خواطره بعض ما يستشعر فى نفسه من لذة وطرب ...

ما يزال القطار فى طريقه والرجل الانجليزى منكب على كتابه ، وقد شغله عن كل ما حوله ، والحبيبان يتحدثان حديث القلب فى صوت خافت كأنه لغة الهوى الصامتة . وفى الحق لقد سعى الفتى جهده زماناً ليظفر بالتى أحب ، غير أن عوائق جمة حالت بينه وبين أن يكون زوجاً لها

وبلغ القطار (ن ...) فقفز الرجل الانجليزى مسرعاً إلى الرصيف وخلف ليو يساعد فتاته . ووثب فتى انجليزى من العربة الثانية واشتد فى إثر الرجل الانجليزى وهو يناديه : « أى عمى ، أى عمى ! » فأجابه الرجل في قسوة وغلظة : « دعنى وحيداً ! » فصاح به الشاب : « لا تبذر فىَّ غراس اليأس ! » فالتفت إليه العم ثم ألقى بحقيبته عند قدمى ليو وهو يقول : « أرجو أن تحفظ متاعى ! » ثم سحب الشاب إليه يجره إلى ناحيته ، وانطلق يحدثه فى رفق ثم ناوله بعض الأوراق المالية فاندفع الشاب لا يلوى على شىء ...

* * *

وتلاقى الجميع — بعد حين — فى فندق القرية ، وحبا صاحب الفندق ليو وصاحبته بخير الغرفات عطفاً منه على الفتاة — عادة تعودها الفرنسيون فما يحيـدون عنها ، تنبىء عن بعض ما فيهم من أدب وظرف — ودخلا معاً الغرفة الزرقاء ، وقد لصق بها هذا الاسم منذ سنوات وسنوات لأن كرسيين كبيرين على جانبى المدفأة قد كسيا بالمخمل الأزرق ... ودخلا الغرفة فألفيا فيها — سوى الكرسيين — سريراً من خشب الجوز ، وستائر من قماش ذى ألوان جميلة ، ووجدا جدران الغرفة مغطاة بورق جميل زين برسوم مختلفة وصور أنيقة ، امتدت إليها أيدى النزلاء بالعبث حيناً وبالتشويه حيناً آخر ، فطمست كثيراً من روائها وبهجتها

وحامت خادمات الفندق حول الفتاة ، يبذلن

جهدهن فى إرضائها والعناية بها ، وليو فى المطهى يطلب العشاء . وترامى إلى مسمعيه أن فرسان الفرقة الثالثة سيتناولون غداءهم فى حجرة الطعام الكبرى فارتاع واشتد به الأسى إذ يعلم أنهم لن يخففوا من هرجهم وضجيجهم حتى نصف الليل ، وصاحب الفندق يهدئ من روعه ويقسم أنهم على جانب من الأدب والحياء ...

وراع الفتى أن يجد حجرته بين حجرة الطعام الكبرى وحجرة الرجل الانجليزي الذى أفزعه مرآه منذ حين ... ثم رأى الانجليزي يتحسى الخمر ويحدق فى سماء الحجرة فى صمت وذهول . ستلعب الخمر برءوس الجند من ناحية ، وستعبث بلب الرجل من ناحية أخرى ، وهو بينهما لا يطمئن ولا يهدأ . واضطربت الأفكار فى رأسه وتبلبل خاطره حين رأى فى حجرته أبواباً ثلاثة : واحداً بينه وبين المطعم ، والثانى بينه وبين حجرة الرجل الانجليزى ، والثالث إلى الممشى . ماذا يفعل وقد قذفت به يد القدر إلى حيث لا يستقر وهو يريد الخلوة والهدوء؟ لقد أوثق رتاج بابين وجلس إلى فتاته ...

واستشعر الفتى اللذة والسعادة وهو إلى جانب فتاته يناجيها ويبثها بعض ما يختلج في فؤاده فى غير حذر ولا خوف . أفيستطيع الفتى أن يقول لنفسه : « أنا سعيد الآن ! » وإذا قالها ، أفيرى مايضمره له الغيب وقد نظر إليهما الشيطان اللعين بعينين فيهما السخرية والهزؤ ، وهما يتناولان طعامهما فى دعة وطمأنينة ، ومن حولهما صخب الجند ولجبهم ؟ ويل للانسان من الشيطان ! فهو دائماً يمزج رحيق السعادة بصاب الأسى والألم !

وأراد الشاب أن يجد لفتاته الراحة والهدوء فانطلق إلى صاحب الفندق يوحى إليه بأمر ، وانطلق هذا إلى الجند يتلطف فى الحديث ويطلب إليهم أن ينزعوا عنهم بعض ضجيجهم لأن عروساً مريضة تسكن الحجرة المجاورة ؛ ودوت الأصوات فى أرجاء المكان : « يجب أن تأتى لنشرب نخب صحتها ! » لشد ما أزعج ليو أن يسمع أصواتهم المنكرة تعلو طالبة أمراً . وتراءى له أنهم سيندفعون فى غير هوادة ولا لين يستلبونه من فتاته وهو وحده لا يستطيع أن يكسر شرتهم ولا أن يغلبهم على أمرهم ... ولكن صوتاً أجش ارتفع من أقصى المكان يأمر الجميع بالصمت في صرامة وشدة ، فأطاعوا ، واطمأن ليو وصاحبته وراحا يتحدثان حديث الهوى

* * *

وأخذ الجند يتصدعون — عند نصف الليل — وهم يصيحون لدى باب الغرفة الزرقاء : « عمى مساء أيتها العروس الجميلة ! » وخرج على أثرهم الرجل الانجليزى ينادى : « زجاجة أخرى ، أيها النادل ! » ثم ألقى السكون سجوفه على الفندق ، فأطل ليو وصاحبته من النافذة يستمتعان بالليل الهادىء الجميل ويستروحان نسماته الندية ، وأبصارهما شاخصة إلى أشعة القمر المنبثة بين أشجار الحديقة تكسبها رونقاً وبهاء ... وخيل إلى ليو أنه يرى ابن أخ الرجل الانجليزى يضرب فى أنحاء الحديقة حين رأى رجلاً يسير الهوينى مطرق الرأس يدخن سيجارة فى هدوء ثم ارتدا يريدان النوم ...

* * *

وجلسا يتحدثان والشمعة بإزائهما على المدفأة يضطرب ضوءها ويخبو رويداً رويداً ، ثم جذبهما

عن أخيلتهما أن سمعا كأن جسما ثقيلا ينهد في حجرة الرجل الانجليزى ، وكأن النضد ينقلب ... ثم سمعا آهة عميقة وأنيناً ووعيداً . وسيطر الفزع على الحبيبين ، ولكن الفتى راح يخفف عن فتاته بعض ما أخافها قائلا : « لعل هذا الانجليزى يحلم ! » غير أن الهلع كاد يعصف بما بقى فيه من شجاعة حين خيل إليه أن باب حجرة الرجل الانجليزى يصر صريراً خافتاً ، وأن رجلا ينسل فى حذر خشية أن يشعر به أحد ، فهمس فى أذن صاحبته : « ما هذا الفندق ؟ » قالت الفتاة فى هدوء : « آه ، إنه كالفردوس » ثم ألقت برأسها على كتفه وهى تقول : « آه ، إن النعاس يغالبني فلا أستطيع دفعه ! » ثم راحت فى سبات عميق ...

واستولى على ليو الأرق ، وفى خياله الرجل الانجليزى ملق على الأرض وأوداجه تشخب دماً ، وابن أخيه يقذف بالسكين إلى جانبه ثم يفر هارباً .. واستقرت الفكرة فى خاطره فما يستطيع دفعها ..

وَيْ كأن الشاب الانجليزى تسلق الجدار إلى حيث عمه ليسفك دمه ويستلبه ماله ، ثم يتسلل فى هدأة الليل وسكونه ! يالشناعة الاثم ، ويالجرأة الأثيم!

وتناهبت الفتى الأفكار السود فأقضت مضجعه وسلبته طمأنينته وهو إلى جانب فتاته النائمة . لقد أراد أن يتذوق حلاوة الرضا ، وأن يرى نور السعادة التي افتقدها دهراً من عمره ؛ غير أن القدر شاء أن يقضى ليلته قلقاً ما يستقر ولا يهدأ ... وتعلق بصره بالباب الذى بينه وبين الرجل الانجليزى فراعه أن يرى سائلاً أحمر يتسرب فى بطء من فرجة فى أسفل الباب ، وأن يرى شظية ينعكس عليها ضوء الشمعة فتبدو لامعة وهاجة وسط هذا السائل ؛ فدق قلبه دقات عنيفة ، وأراد أن يبرح مكانه ليرى ... ولكنه لا يستطيع أن يفزع فتاته وهى قد ألقت برأسها على كتفه

* * *

لقد هم ليو أن يندفع إلى حجرة الرجل الانجليزي حين سمع الصوت لأول مرة ، ثم جبن خشية أن يصبح فريسة لجنون القاتل ، ثم رفع يده يريد أن يضغط على الجرس ينبه صاحب الفندق إلى الخطر ، غير أنه سحبها فى رفق حين تراءى له أنه سيزج بنفسه وبفتاته بين أيدي الشرطة والنيابة و .. والمحكمة يسألونه : من أنت ومن تكون هذه الفتاة ؟ ويلحون فى السؤال ... فتكون الفضيحة . وما ذا يضيره إن هو أغضى ليبقى على نفسه وعلى فتاته ؟

وتعلقت عينا الفتى بالشظية والسائل الأحمر ، وذهل عن نفسه حيناً ثم بدت أول ساعة من النهار مخيفة مروّعة فيها الفضيحة والعار . ثم أضاء له بصيص من نور الأمل ، فقال لنفسه يحدثها : « لابد أن نبرح عند الفجر قبل أن يُكشف عن الأمر » واطمأن إلى الفكرة ثم أخذ يبحث عن ميعاد أول قطار يغادر (ن ...) فى الصباح الباكر ، فأفزعه أن يكون أول قطار هو قطار الساعة الثامنة صباحا . أفيطمئن هو إلى أن واحداً لن يدخل حجرة الرجل الانجليزى قبل الثامنة ؟

وأراد أن يبتعد قليلاً عن فتاته لينشر الأمر أمام عينيه فى خلوة أو شبه خلوة ، فسحب ذراعه فى رفق ولكن الفتاة استيقظت . وارتاعت أن وجدت صاحبها يرتجف وقد جمد الدم فى عروقه ، وبردت أطرافه ، فقالت وهى تضمه إليها فى شغف : « ماذا ، ماذا كان ؟ » قال فى صوت خافت مضطرب

« لاشئ ، غير أنى سمعت هزة عنيفة في الحجرة المجاورة ! » ثم سحب نفسه من بين ذراعيها فى رفق ليضع كرسياً بإزاء الباب يخفى به السائل والشظية عن عينى الفتاة ؛ ثم فتح الباب فى رفق يرقب المشى وباب حجرة الرجل الانجليزى فى حذر ، ثم طنّ فى مسمعيه صوت خطوات ثقيلة متزنة تنبئ عن جندى يرقى درج السلم ، فارتد يحدث فتاته حديث خياله ...

مازال الخطر جاثماً على خطوات منهما ... ! واستخرطت الفتاة فى البكاء تذرف الدمع أسى وحسرة على ماخبأ لهما القدر فى ليلة أرادا أن يقضياها عند محراب الهوى ينعمان بهمس القلب ووسوسة القُبل فى منأى عن الواشي والرقيب ، وينشقان فيها نسمات السعادة وقد ضنت عليهما بها الأيام حيناً من الدهر . إن بينهما وبين السجن الساعات القليلة الباقية من الليل فهما فى عيني القانون مذنبان يتضرّجان بحمأة الجريمة ؛ وراح كل واحد يودع صاحبه وداعاً حاراً وقلبه يتفطر لوعة ، وكبده ينشق عن يأس وكمد ، وهما ينتظران النهاية ... النهاية الأليمة

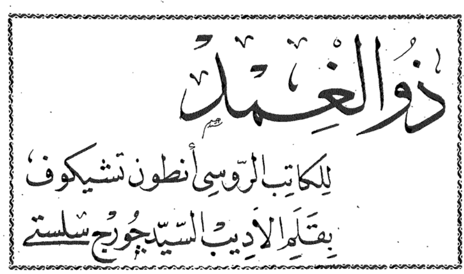
وانتفضا معاً من شدة الذعر حين سمعا خطوات أول إنسان يجتاز المشى . لقد ابتدأ الناس يهبون من مراقدهم عند السادسة ... كيف يجلسان هنا ... في هذه الحجرة طول هذه المدة ... ! إن القطار لا يصل إلا عند الثامنة ! ها هم أولاء الخدم ترن ضحكاتهم فى ردهة الفندق ، والخادمات يغنين ، والجند يروحون ويجيئون يصفرون صفيراً أنغامه متضاربة . إن هذه الأصوات تصك آذان الرفيقين فتنفث فيهما روح الأسى واليأس كأنها تشيعهما إلى النهاية ... وألح الفتى على صاحبته أن تتناول قدحاً من القهوة واللبن فامتنعت عليه لأن الخوف كان قد سلبها كل ما تشتهى النفس

وهبط ليو إلى الطابق الأسفل فى نظارته الزرقاء وإلى جانبه فتاته فى نقابها الأسود ؛ ثم انطلقا معاً إلى صاحب الفندق ليدفعا إليه أجر الغرفة ثم يسرعا إلى المحطة . وراح صاحب الفندق يحدث الشاب حديث الجند وحديث الرجل الانجليزي ، فأطنب وأفاض ، وليو يتحامل على نفسه من أثر الإعياء والجهد ، والفتاة من خلفه تكاد تسقط من شدة التعب والأين ؛ ورأى صاحب الفندق ما يبدو على وجه الفتى من شحوب فقال : استريحا في الوقت متسع . إن القطار لا يصل قبل الثامنة ، وكثيراً ما يتأخر ! » فجلسا وبودهما لو طارا إلى المحطة فراراً من المصيبة التي تنتظرهما في الطابق الأعلى

وفى هذه اللحظة دخلت الخادم وهى تنادي : « هات ماء ساخناً لشاى الرجل الانجليزى وقطعة من الاسفنج أيضاً لأنه حطم زجاجة الخمر فلوثت أرض الغرفة وملأتها ريحاً خبيثة ! »

واهتزت الشابة طرباً ، وابتسم الشاب ، وتبادلا نظرات فيها الدهشة والذهول ، وكتما بين شفتيهما ضحكات تكاد تنفجر قوية عاصفة ، ثم أمسك الفتى بذراع صاحبته وانطلقا معاً إلى الغرفة الزرقاء وهو يقول لصاحب الفندق : « لن نسافر قبل الثانية بعد الظهر ، هيئ لنا غداء شهياً نتناوله في غرفتنا »

كامل محمود حبيب



كان البيطري « إيفان » والأستاذ « بوركين » عائدين من القنص عندما دهمهما الليل فى ذلك السهل الفسيح الأفيح فلم يريا بداً من أن يلتجئا إلى هرى من أهراء القرية القديمة القائمة فى أقصى البلاد لقضاء ليلتهما فيه

وإيفان كان يقطن فى ضاحية المدينة وقد ذهب للصيد ترويحاً لنفسه وتنشيطاً لبنيته ، وأما الأستاذ بوركين فقد كان يصطاف كل عام عند صديقه الكونت ب . ويتصرف فى تلك الناحية على هواه كما يتصرف فى منزله بين أهله ومحبيه

ولم يجد النوم إلى عيونهما سبيلاً ، فجلس إيفان وهو كهل ناحل الجسم حيال الباب المغمور بآراد القمر وأضوائه يدخن غليونه على مهل ، واستلقى بوركين في الداخل على أكوام الهشيم يرى ولا يُرى

وتجاذبا أطراف الحديث ، وحديث الوحدة طويل ماينتهى ، وقصّ كل منهما على رفيقه قصصاً شتى فيها الشائق الممتع وفيها التافه الممل ؛ وتحدث إيفان فيما تحدث عن امرأة تدعى « مافرا » وقال عنها إنها حازمة نشيطة ، وإنها ليست بالحمقاء ولا الساذجة على ما فى عاداتها من شذوذ وفى أخلاقها من نشوز ؛ وإنها لم تبرح القرية قط فهى لم تر المدينة إذن ولا أبصرت القطار ، وإنها منذ عشر سنوات حتى الآن لم تخرج من منزلها إلا ليلاً ، وأما نهارها فتقضيه جالسة حيال الموقد ...

إلا أن بوركين لم يدهشه الحديث عن «مافرا» هذه ولم يجد فى أطوارها ما يستحق الاستغراب فقال مقاطعاً صديقه :

— وماذا ترى فى الأمر من غرابة ؟ ! إن حب العزلة من طبيعة الكثيرين ، وإن بعض الناس كالسراطين لاترغب عن التنسك بديلا ، أو كالحلازين تستطيب أبداً التخبؤ فى أحجارها !

ولماذا التبسط فى الذيول والحواشي وعندى من جوهر الأمر ما يغني عنها جميعاً ؟

فلئن كانت « مافرا » قد شاقتك أطوارها فماذا عساك تقول فيمن بزها فى غرابة الأطوار بمراحل، وفاقها فى شذوذها فوق ما تستطيع أن تتخيل ؟ !

فبالأمس القريب قضى زميلي بيلايكوف نحبه فوارى التراب بموته فذاً من أفذاذ الخلق الناشز والطبع الغريب . ولقدكان رحمة الله عليه حييًّا إلى أبعد حدود الحياء ، ولا إخال إلا أنك سمعت الناس يتحدثون عنه ، فاسمه ملء الأفواه ، وذكره ملء الأسماع ؛ وشهرته هذه لم تكن لعلوّ كعبه فى العلوم والآداب فحسب ، بل لغرابة أطواره ، وشذوذ

عاداته . فقــد كان لا يخرج من منزله إلا لابساً معطفه وحاملاً مظلته ومنتعلاً « كوتشوكه » الواقي سواء لديه أكان الطقس ممطراً أم صحواً ، وسيان عنده بسمت السماء وهش الأفق أم تجهّما واربدّ منهما الأديم

ولا تسل يا صديقي عن تعلقه بالأغطية وشغفه بالاغماد فلقد كان لمظلته غلافها ، ولساعته واقية من الجلد الأشهب ، ولموساه الصغير الذي لا يفارقه غمد يحفظها فيه ، ولـكل شيء عنــده غطاؤه حتى كان يخيل لعارفيه أن لوجهه كذلك وشاحاً يلقيه عليــه أو ستاراً يحتجب وراءه

وقد كان يضع على عينيه نظارتين كثيفتين ويرتدي تحت معطفه صدرة من الصوف ، ويضع في أذنيه قطناً ، ويأبى كلما ركب عربة إلا أن يُنشر غطاؤها ويبسط

والخلاصة أنه كان يتجنب الناس ما أمكنه الأمر وينأى عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فرغبته في الانزواء ملحة قاهرة ، وكان يود لو يستطيع أن يتخذ لنفسه غمــداً يقيه من العوارض الطارئة والمؤثرات الخارجية

فالحقيقة كانت ترهقه ، والاحساس بالوجود يرمضه ، والـكائنات تثير مخاوفه وتقض عليه مضجعه وتجعله في قلق دائم وحزن مقيم

فلقد كان يكره الحاضر ويجتويه ، ويمتدح الماضي ويطريه ؛ وكان غير الموجود حبيباً إلى قلبه والموجود بغيضاً لديه ، ولم يكن ليجد فيــه إلا ما يزيد هلعه ويكثر مخاوفه

واللغات القديمة التي كان يدرسها وينصب على آدابها ويتضلع في فنونها كانت له « كـكوتشوكه » ومظلته ومعطفه التي كان يلوذ بها جميعاً تهرباً من حقيقة الحياة

وما أكثر ما كان يردد هــذه العبارة المأثورة بصوت رقيق عذب :

— « يا لليونانية من لغة جميلة رنانة الألفاظ ! »

ثم كان يطبق عينيه ويرفع سبابته ويردف عبارته هذه بلفظة (انتروبوث)[1]

والأنكى من ذلك كله أنه كان يحاول وهو الذكي أن يبلد من توقد ذهنه ، كأنما كان يضن على فكره أن يظل طليقاً ، ويأبى إلا أن يجعل له حجاباً صفيقاً !

وما أشد ما كانت الفُرص المدرسـية ممقوتة لديه ! فقــد كان لا يراها إلا مدعاة لإثارة الشك والارتياب ، وما أكثر ما كانـــ يشك صاحبنا ويرتاب ! وكان يحس إحساساً قوياً أن الفرص مغلّفة بغموض لا يأنس إليه فكره وإبهام لا يرتاح إليه ضميره

وحتى الرخص كانت بغيضة لديه ، وعند ما كان يُرخّص لأحد ما في المـدينة بانشاء مسرح للتمثيل أو يؤذن له بتأسيس دار للمطالعـة أو فتح ردهة لهو كان يهز رأسه الصغير ويقول بصوت خفيض : « إن هذا حسن ما في ذلك ريب ؛ وإن في هذا العمل لمنتهى الـكمال ولـكن على ألا يقع ما نحاذره ونخشاه ! »

ثم إن نقض العهود والنكث بالوعود والمخالفات على شتى أنواعها ، سواء أكانت متعلقة به أم بسواه كانت تبليه باضطراب الخاطر وانحلال القوى

ولقد كان يسوءه أنـــ يتأخر أحد زملائه الأساتذة عن تأدية فرض من فروض الدين ،

(١) لفظة يونانية معناها رجل

ويحزنه أن تسرى شائعة هزؤ عن أحد الطلبة ، ويؤسفه أن يلتق أحدٌ بإحدى الناظرات عائدةً متأخرة مساء برفقة أحد الضباط . ولشد ما كان يتأثر من هذه الشؤون وأمثالها إذا قُدّر لها أن تحدث ، ويتمتم وشفتاه ترتجفان حنقاً : « على ألا يقع ما نحاذره ونخشاه ! »

أما فى الاجتماعات التهذيبية العامة فقد كان كعادته يرهقنا جميعاً بتحفظه واحتراسه ، بريبته وحذره ، بتصوّرات أقلّ مايقال فيها أنها تصورات (رجل ذى غمدْ !) . وإن قيل له إن الطلبة كانوا يسيئون التصرّف ولا يحسنون السلوك ، أو أنهم يضجون فى صفوفهم ويصخبون كان يردّد عبارته المأثورة :

« آه ! على ألاّ يتصل الخبر بالادارة وعلى ألاّ يحدث شئ ، وإنما لو طرد (بتروف) من الصف الثاني أو (ابيكوروف) من الصف الرابع لكان أحسن »

وبعد فماذا تظن ياصديق بمن كان لا يفتأ يتأوّه من غير سبب ويشكو من غير داع ؟ ومن تحسب من الناس كان عالةً علينا جميعاً ، ومن كان وجهه الصغير الشاحب شؤماً على رائيه ؟ وكنا مع ذلك كله نذعن جميعاً لإرادته ولا نعصى له رغبةً ولا أمراً ؟!!

وما قولك فى أن الأساتذة كانوا يمنحون بتروف وابيكوروف أسوأ العلامات فى دروسهما مداراة لشعوره ، وأن هذين التلميذين قد طُردا أخيراً من المدرسة من غير جريرة ولا ذنب نزولاً عند رغبته وإكراماً لخاطره

وياليت هذا كل مافى الأمر ياصديق ، إذن لخفّت البلوى وضؤل المصاب ، ولكن هناك لنكد الطالع وسوئه ما هو آلم للنفس وأنكى

فقد كان رحمه الله يأبى إلاّ أن يزورنا فى منازلنا على كرهه للزيارات وبغضه لها ، ويأبى إلا أن يفدحنا بطلعته المشؤومة فى دورنا كأنما لم يكن يكفيه طول ماينكبنا بها أثناء ساعات التدريس ، لأنه كان يعتقد أن زيارة الزملاء فرض لامناص له من إدائه ، وواجب لابدّ من القيام به لمن يشاء أن يحتفظ بالعلاقات الوديّة وصلات الاخوة به . وكان يبقى جالساً صامتاً لايتكلم ، إلا إذا أكره على الكلام أو اضطر إليه اضطراراً ؛ ويظل يحدّق فى شيء ما لا يحيد عنه نظره كأنما جاء للتأمل والصمت الطويل ، ويبقى كذلك ساعة أو ساعتين ثم يذهب لشأنه ويمضى لطيّته !

قلت لك إننا كنا نحن زملاءه نجاريه فى رأيه ونداري إحساسه وشعوره كثيراً ؛ وكان رئيس المدرسة نفسه يجاريه فى رأيه كذلك ويداريه مثلنا

لقد كنا جميعاً من أولى التفكير الحر ، التفكير العميق البعيد الغور ، مثقفين التثقيف العالى على أيدى (تورغنيف) و (تشدرين) وأضرابهما من كبار الكتاب والفلاسفة ، إلا أن الذى كان يهز المدرسة منا هزاً ، ويقيمها دون سواه ويقعدها ، هو هذا الذى لم يكن ليتخلى قط عن معطفه ومظلته « وكوتشوكه » الواقي . ماذا قلت ؟ المدرسة ؟ ! إن المدرسة ليست بالتى تذكر ، فقد كان هذا القزم الهجين يسيطر حتى على المدينة بأسرها ، فكثيراً ما استنكفت سيداتنا من تمثيل الروايات على مسرح المدينة كعادتهن كل سبت من أجله ، وحتى كاهن الرعية كان يتجنب أن يفطر أثناء الصوم ، أو يلعب

بالورق أمامه ؛ وهكذا ظل الناس جميعاً خلال العشر أو الخمس عشرة سنة التي قضاها بيننا يرهبونه ويخشونه في كل شيء

وهنا سعل إيفان ليقطع على بوركين حديثه ، ثم أشعل غليونه بعود ثقاب وحدج القمر بنظرة طويلة ثم قال وهو يمط كلماته مطًّا :

« عجبت والله من هذا الذي تحدّثني عنه ياصاح ، رجال من ذوى النظر الثاقب والرأى الحصيف ، رجال تثقفوا بثقافة تورغنيف وتشدرين وأمثالها من قادة الفكر والرأى يخضعون هذا الخضوع المهين ، ويتحملون هذا الذل الشائن ، ويقبلون هذا كله دون أن يتبرموا ؟ !

تابع بوركين حديثه : كان « وبيليكوف » يقطن فى البناية التي أقطنها أنا ، وكنا على سطح درج واحد ، منزلى أمام منزله وبابه تجاه بابى ، وكثيراً ما كنا نتلاقى ، فمن الطبيعي إذن ، وأنا جاره وزميله ، أن أكون أدرى الناس بحياته الخاصة ، فعنده من الأقفاص والمزالج والأقفال وكل ماله صلة بالحماية والأمن والتقييد والحصر والتحظير والمنع ما لا يحصى ؛ فلقد كان كثير الخوف والحذر ، ترعبه فى الليل أقل حركة ، وتفزعه أخف نأمة ، فلا ينام إلا وقد خبأ رأسه تحت لحافه غير عابئ بالدفء الذى يرهقه ، ولا بغاز أنفاسه الزوافر الذى يكاد يخنقه ، فى حين تكون فيه الريح عاصفة مدوية ، ويكون صاحبنا الجزع الرعديد يرتجف تحت غطائه ! فلقد كان هذا الذى يخشاه الناس فى نهاره يخشى كل شيء فى ليله ، يخشى أن يحدث ما يذهب بقلبه ويطير بلبه ، يخشى عصف الريح بالمدخنة ودوى الصوت وهزة الباب ، يخشى أن يدهم اللصوص منزله ، وأن يروّعوه بسلاحهم ، يخشى من خادمه الطاعن فى السن (أفاناسى) أن يزحف إليه ويذبحه . فإذا غفا واستسلمت مقلتاه للكرى جاشت بمخيلته الأحلام تروعه وتخيفه ، وكثيراً ما كان يفيق من سباته مضطرباً مذعوراً . وهكذا كان يقضى المسكين لياليه التى كان يراها على قصرها طويلة ما تنتهى إلا بشق النفس ؛ حتى إذا حانت الساعة السابعة مشى إلى المدرسة مسرع الخطى عجلان لا يلوى على شيء ، شاحب اللون ، مضطرب الفكر ، قلق الروح ، حزين النفس ، مكمد الأسارير ، لاتعلو سيماه بسمة ولا بِشرُ وكان يقول لي كلما رأى التلامذة يضجون فى صفوفهم ويصخبون : « إن هذا لمخيف ! » وكنت أعلم العلم اليقين أن هذه العبارة التى كانت فى ظاهرها تعنى ضجيج الطلبة وصخبهم لم تكن فى جوهرها إلا شكاة نفسه المعذبة التى عبر بها عما كان يشعر به من ضنك وعنت .

ثم أتستطيع أن تتصور ، والحالة كما وصفت ، أن أستاذ اليونانية هذا الذى أحدثك عنه ، أن هذا (الرجل ذا الغمد) كان على وشك الزواج وأهبته ؟!

فالتفت إيفان بحركة عصبية سريعة وقال :

— « أجداً ما تقول أم مزاحاً يا هذا ؟ ! »

— نعم مهما يكن فى الأمر من عجب ، فإن الحقيقة ما أقول ، وإن صاحبنا كان على أهبة الزواج حقاً وهاك جلية الأمر :

عُين السيد « كفالنكو ميخائيل سافتش » أستاذاً جديداً للتاريخ والجغرافيا فى مدرستنا ووصل إلينا حضرته مصحوباً بأخته « ڤارنكا » وكفالنكو

هذا على حداثة سنه طويل النجاد أسمر البشرة أجش الصوت ، إذا تكلم حسبت صوته خارجاً من «برميل» لا من حنجرة . أما أخته ثارنكا فكانت فى الثلاثين من عمرها هيفاء ممشوقة القوام نجلاء العينين وطفاء الأهداب وردية الخدين دقيقة الملاحظة فطنة إلى حد بعيد ، مرحة كثيرة الصخب ، تغنى من غير ملل أغانى شعبية ، وتقهقه بين الفينة والفينة قهقهة عالية مدوية

وكانت المعرفة الأولى التى توثقت فيها صلات الود بين الأستاذ الجديد وأخته وبيننا فى حفلة ساهرة راقصة أقامها الرئيس فى عيده

ومن عباب ذلك المحيط التزمت الرصين ، ووسط الأساتذة الجفاة اللولبين الذين كانوا كأنما اضطروا للبقاء هناك اضطراراً ، انبثقت لنا أفروديت جديدة ساحرة فملأت المكان الذى كان لولاها فارغاً ما فى ذلك ريب ؛ فكانت تارة تضحك ويداها على خاصرتيها ضحكات ساحرة فاتنة ، وطوراً تغنى وهي ترقص بخفة واتزان بصوت رقيق عذب أغانى عاطفية جميلة مسكرة ، وكانت أبلغ أغانيها فى نفوسنا أثراً أغنية : « الريح تعصف » وأشدها تلاعباً بالعواطف تلك القصيدة الباكية التى أنشدتها من قلب محروق ، وسكبت فيها من العذوبة والسحر ما شاء لها الصوت الجميل والفن الرفيع ، فأسكرتنا بها جميعاً بما فينا « بيليكوف » وربما كانت هي المرة الأولى التى ظهر فيها أمامنا طلق المحيا باسم الثغر

وجلس حيالها ، وقال لها وهو يبتسم بصوت حاول جهده أن يجعله ناعماً لطيفاً :

— « إن اللغة الروسية تذكرنا بعذوبتها وجرس ألفاظها باللغة اليونانية القديمة ! »

فألقت عليه نظرة عطف وابتسمت ، وراقته بسمتها فراح ينظر إلى شعرها الناعم المسترسل ، ووجهها الوسيم الصبوح ، وثغرها الباسم المفتر ، وخصرها الدقيق ، وقدها الرشيق نظرات كلها إعجاب وافتتان

وكأنما علمت أى هوى صادفته فى نفسه فمالت إليه وحنت عليه وراحت تحدثه بدل وفخر عما تملكه من عقار وعما تنتجه المزرعة التى تملكها فى (جادياتش) — حيث تسكن والدتها — من خضار وبقول وحبوب ، وعما يحفل به بستانها الثرى من أشجار مثمرة وجنى شهى

واسترعى انتباهنا حديثهما لا سيما وليس فينا جميعاً من كان يحسب أن بيليكوف يستطيع أن يلفت نظر غادة بطلعته أو بحديثه

وأوحى لنا مرآها خاطرة فذة كانت امرأة الرئيس أسبقنا إلى تبيانها فتمتمت :

« جميل والله أن نعقد له عليها ، فهى فتاة تخطت عتبة الثلاثين وهو قد تجاوز الأربعين وإخال أنها تقبله عريسا » وصمتت . ولم يتصد أحد منا للبحث في هذا الموضوع الشائك مع قرينة الرئيس ؛ ولئن يكن قد خطر فى بالنا تزويجه فليس معنى ذلك أن نبحث الأمر جديا ، وكلنا يعلم حق العلم رأي صاحبنا فى النساء والزواج ؛ وكيف تريد أن نخوض فى هذا البحث ولم يكن ليدور فى خلد أحد منا أن رجلاً لا يرتدى إلا ثياب الشتاء فى إبان الصيف ويتحصن لدى نومه خوفاً من طوارئ وهمية ، يستطيع أن يحب ويهوى

وكيف تريد أن نبحث فى أمر زواجه وليس فينا جميعاً من يعتقد أن هذا القزم الجبان أهل للزواج ؟

ولقد خُيّل إلينا للوهلة الأولى أن قرينة الرئيس هازلة فيما تقول فاذا بنا نراها جادّة كل الجدّ ؛ على أن هذا لم يَحُلْ قط دون اعتبارنا كل قول فى هذا الصدد هراء فى هراء وكل بحث فيه من باب التندّر كأكثر الأحاديث التى تتداولها الألسن في مثل هذه الحفلات الساهرة تزجية للوقت ودفعاً للسأم .

وانقضت الحفلة وبودّ صاحبنا ألا تنقضى ، وانفرط عقد الحضور وبودّه أن يبقى منتظما حتى الصباح . فلقد أحسّ للمرة الأولى فى حياته بنشوة علوية لم يسبق له أن شعر بمثلها قط ؛ وأستطيع أن أؤكد لك ياصديقى أنه لم ينم ليلته تلك ، وأنه قضاها وهو يعيد فى ذاكرته ما دار بين ڤارنكا وبينه من حديث ، ويتصور كيف كانت تبسم له وتدل عليه . ولم يخف علينا هذا الميل الذى بدأ يشعر به ولا فاتنا إدراك الرغبة التي تتأجج فى حناياه للاجتماع بالفتاة، فكان أن تلطفت امرأة المراقب ودعته هو وڤارنكا لحضور رواية تمثل على مسرح المدينة فقبلا الدعوة بسرور ، وكانت هي فى ثوبها الزاهر الأنيق ووجهها الطافح بشراً وإيناساً فاتنة أخّاذة . وأما هو فقد جلس حيالها متجمعاً كأنما قد سحب من منزله بالكثيفة[1] سحباً . ولم يمض ردح من الزمن يسير حتى أقمت أنا حفلة زاهية زاهرة ودعوت إليها نزولاً على الحاح السيدات صاحبنا وفتاته . وهكذا بدأت الأمور فى سيرها الطبيعي . والذى كان يبدو لنا أن الفتاة لا تعارض فى الزواج من بيليكوف فيما لو عرضناه عليها ، لأنها تعلم العلم اليقين أن وقت الخيار والانتخاب قد تصرّم وفات ، وأن زمن الفتوة الذى كانت فيه تشمخ بأنفها على طالبي يدها من الشباب قد انقضى ؛ أضف إلى هذا رغبتها الملحّة فى النجاة من هذا الجحيم الذى تعيش فيه مع أخيها . فلقد كانا يتنازعان لأتفه الأمور ويتشاجران دون ما سبب ، ويختلفان على لاشيْ . فالطباع لم تكن متآلفة ، والأخلاق لم تكن متجانسة . وهكذا كانا أبداً فى نفور ، وحياة كهذه كانت تقلقها وترمضها ، وكان كل ماتأمل أن يكون لها منزل خاص تنعم فيه مع زوج رضيّ الخلق ، ومن حق من كانت فى عمرها أن تكون لها هذه الأحلام والأمانى

لهذه الأسباب التى أبنتُها كنا نعتقد أنها تقبل ببيليكوف زوجاً وإن لم ترَ فيه ماتفضله به على سواه

وكان يشوقه أن يراها وأن يجتمع بها من حين إلى حين إلا أنه كان فى زياراته لها كما كان فى زياراته لنا ، ما إن يأخذ مكانه حتى يعتريه الوجوم فيبقى صامتاً لاينبس ببنت شفة

وملتْ ڤارنكا هذه الخلّة المستهجنة فيه فراحت تداويها بالهشّ له والبشّ فى وجهه ، وكثيراً ما كانت تغنى له أغنية « الريح تعصف » أو سواها من الأغانى التى يستسيغها ويستعذبها . أو تجلس بالقرب منه تنظر إليه بعينيها النجلاوين السوداوين نظرات صافية إن خلت من حب ما خلت من عطف ولكنه ما زال كما كان ؛ وما برح — على ما يضطرم فى نفسه من ميول وأهواء ، وبالرغم من هذا التشجيع الذى يلاقيه والأنس الذى تغمره به — فاتراً حييًّا ، ذلك لأنه كان يتهيب إبداء ما يكنه قلبه لها من

(١) الكثيفة ما تدعوها العامة كلابة

أحاسيس وَيرى فى مطارحة أحاديث الوجد نوعاً من التهتك والغزل الأثيم ؛ غير أن أترابه ومعارفه ذكوراً وإناثاً كانوا كلما اجتمعوا به يلقون فى روعه أنه مخطىء فيما يذهب إليه ، وأن الحب سنة الله فى خلائقه وما فى الهوى المشروع إثم ولا حرج ، وأن الزواج خير له وأجدى عليه ، وأنه وقد عدا سني الشباب وتخطى زمن الصبا لم يبق له من الحياة كلها إلا أن تزف إليه تلك التى يصبو إليها ويهفو ؛ وأنها هى — والحق يقال — حسناء تجمع إلى الحسن والجمال خير الخلال وأطيب الخصال ، وأنها مغرية شائقة مرحة تجلو عن القلب المعنى همه وأساه ، وأنها إلى ذلك كله ابنة مستشار فى الدولة ولها من الأطيان والمقتنيات بائنة لا بأس بها ...

كان لعباراتنا فى نفسه ما نرجو من بغيا ، ولكلماتنا فى ذهنه ما نأمل من تأثير ، فقرر فعلاً أن عليه أن يتأهل

وهكذا يا صديقى انقلب المزاح جداً — وكم من جد جره اللعب — وأهدت إليه فارنكا رسمها الحبيب فقبله شاكراً ممتناً وأطّره ، ووضعه على منضدته يتأمل فيه كلما خلا إلى نفسه .

— كان عليكم إذن وقد أقنعتموه بالزواج ، أن تقنعوه كذلك بضرورة تغيير ما هجن من عاداته فينهج نهجاً عادلاً صائباً دون أن يستهدف لسخرية الناس وهزئهم

— أعترف لك يا إيفان أن هـذا الأمر عسير حقاً . وما إخال أنه كان باستطاعتنا نحن أوفى قدرة سوانا أن يجادله فى هذا الشأن دون أن يلحق بنا سخطه وغضبه . ولماذا نلقى بأنفسنا فى مأزق حرج نحن فى غنى عن زجها فيه ؟

ومضت الأيام تترى ، كان فى خلالها يتردد على منزل كفالنكو فيبقى أثناء زياراته ـ شأنه فيما مضى ـ جامداً لا يتحرك . وقد كنا نحسب أن الحب كفيل بتقويم ما فيه من أوَدٍ ، وأن الهوى سيطلق روحه من إسار الأسى والكآبة ، فإذا بالأمر على النقيض مما كنا نأمل ، وأصبحنا لا نراه إلا ساهما مطرقاً حزيناً ، وإذا بجسمه أبداً فى نحول كأنما كان يزداد يوماً بعد يوم إمعاناً فى التلاشى طى غمده الصفيق

وكان يأتى إلىّ فى بعض الأحايين يحدثنى عن الحياة العائلية وعن فارنكا كفالنكو ؛ ولقد قال لى مرة وهو يبتسم فى حياء بسمة حائرة مرتبكة : إنها — أى فارنكا — تروقه وتعجبه وإنه يعلم أن كل شخص سيتزوج يوماً ما ، ولكن أمر الزواج خطير ، ولقد وافاه بسرعة غريبة دون أن يتخذ له أهبتـه ودون أن يفكر فيه التفكير الشامل الوافى ، ثم سألنى قائلاً :

— ألا ترى مثلى أن علىَّ أن أفكر لأجل مستقبلى ؟ فأجبته : تفكر فى ماذا يا عزيزى ؟ تزوج وينقضى الأمر

قال : لا ، إن الزواج لأشد خطورة مما تظن . وعلىّ أن أفكر فى الواجبات المقبلة وفى التبعة التى ستلقى على عاتقى كى لا أقع فيما أحاذره وأخشاه . وهذا ما يقلقنى ويمضنى وينفى عن جفنىّ الكرى . فلقد بتُّ لا أنام إلا لماما

إن لهـا كما لأخيها أسلوباً فى إدراك الأمور مضحكا . ثم إنها حامزة الفؤاد حادة الطبع ، وأخشى أن تكون حياتى معها كحياتها مع أخيها شجاراً دائماً ونزاعاً ما ينقضى

وهكذا كان يزن الأموز ويمحصها ويحسب للمستقبل العتيد ألف حساب . والغريب أنه كان يتنزه — مع ذلك كله — هو والآنسة فارنكا كل مساء تقريباً ، ظناً منه أن ذلك واجب يتحتم عليه القيام به ولا مندوحة له عنه

ويجب ألا أنسى أن أقول لك إن كوفالنكو استسمج بيليكوف وكرهه للوهلة الأولى التي وقعت فيها عليه عينه ، وكان يأنف حتى من ذكر اسمه . وكثيراً ما كان يقول لنا عندما كان يذكر اسمه فى أحاديثنا عَرَضاً : « أنا لا أفهم كيف تستطيعون أن تحتملوا هذا المأفون الواشي فيما بينكم ولا كيف تقدرون أن تعيشوا هنا في هـذا الجو الخانق ؟ تدعون أنكم سادة وأنكم أساتذة وإن أنتم إلا طلاب رُتب وهواة مناصب ، تعيشون في خنوع من مداراة هذا الدعيّ اللئيم . واسمحوا لى أن أقول لكم إنه ما هذا بمعهد علمى وإنما هو مجمع متدينين موبوء !

لا يا زملائى الكرام ، لن أبقى معكم إلا ردحاً من الزمن يسيراً وأعتزل بعده منصبى عندكم وأعود إلى مزرعتى أثقف الأميين فيها وألهو — كلما سنحت لى الفرصة — بالصيد ، وأعيش حراً طليقاً بعيداً عن المداجاة والرياء والتزلف ؛ سأنأى عنكم عما قريب وأما أنتم فستبقون هنا مع يهوذا الخائن ، ألا ليته يموت ! »

ولا أزال أذكر يا صديقى ساعة جاء إلى فى ثورة نفسانية هائلة كان بها أشبه بالأسد الطعين منه بالرجل الرزين . وقال وهو يضحك تارة ضحكاً هادئاً متزناً ، وطوراً ضحكاً موجعاً كئيباً :

« ماله عنـدى حتى يأتى إلى منزلى ؟ ! قل له بالله عليك إننى أكرهه ، وإننى لا أريد أن أبصر له فى بيتى وجهاً بعد اليوم »

ولهذا كنا نتحاشى القول أمامه إنه سيكون صهره العتيد ! بل كنا نتحاشى ذكر اسمه أمامه . ولما قالت له امرأة المراقب فى ساعة من ساعات اللهو البرىء إنه قد حان له أن يزوّج أخته من رجل جد وقور يحترمه الناس ويجلونه ، امتعض وامتقع لونه وتجهمت أساريره ودمدم[1] :

« إن هذا لا يعنينى . وما تعودت يا سيدى أن أبحث فيما لا يتعلق بى ، ولا أحب أن أزج نفسى فى شؤون سواى ... »

والآن أَصخ لما حدث :

لا أدرى أى ماجن دعَّابة رسم صورة بيليكوف (بكوتشوكه) وسرواله المرفوع ومظلته المفتوحة وفارنكا تتأبط ذراعه ، وكتب تحت الرسم : « الأنتروبوس » العاشق

وكان الرسام موفَّقاً فى رسمه إلى حدّ بعيد . ولا ريب فى أنه قضى وقتاً طويلاً فيه حتى استطاع أن يبعث إلى كل أستاذ بنسخة منه . وقـد تلقى بيليكوف نسخته كذلك ، ولا تسل عما كان له فى نفسه من أثر بليغ

وكان اليوم التالي الموعد المضروب لاصطحاب التلامذة للتنزه ؛ فخرجنا أنا وبيليكوف من منزلينا معاً ، وكانت أمائر الإعياء والقلق بادية على محياه الشاحب الهزيل بأجلي مظاهرها . فابتدرنى قبل أن أحييه بهذه العبارة المقتضبة التى هى فى حقيقتها

(١) دمدم فلان على فلان : كلمه مغضباً

شكوى صارخة لما كان يعانيه من ألم نفسانى مرهق :
— ألا ما أردأ الناس وأخبثهم !
عبارة كان لها فى نفسى صداها البعيد فاستدرت رثائى له وشفقتى عليه
ورحنا نمشى الهوينى فى صمت ...
— فلنسر فى الطليعة !
نداء رنَّ فى مسامعنا رنين البوق ، فالتفتنا فاذا بنا نرى ، أو تدرى من ؟ ! كوفالنكو ممتطياً دراجته ووراءه أخته على دراجتها أيضاً ، وقد صاحت به ، وهى تلهث إعياء ، ليتابع تسياره ؛ واندفع كلاهما كالسهم المارق
وأدرت طرفى إلى رفيقى ، فاذا بى أراه قد سُمِّر فى مكانه ، ووقف مشدوها فاغر الفم جاحظ العينين كأنه التمثال المنحوت ، ولم يلبث أن قال فى يأس : هلا تلطفت فأسعفتنى ؟ ! ما هـذا الذى أرى ؟ أغشاوة على ناظرى يا ترى أم غشاوة على خاطرى؟!
قلت : لا هذه ولا تلك ؛ هوّن عليك ، فما فى الأمر ماينافى الأدب ، وليمرحا على هواهما فما هذا بضائرهما .
فقال وقد أدهشته رزانتى وهدوئى :
أأنت تقول هذا القول ؟ أيجدر بالأساتذة أم يليق بالآنسات أن يمتطوا الدراجات فى عرض الشوارع ؟
ولم يشأ أن أناقشه فى الأمر أو أناظره فيه ، وآثر أن يعود من حيث أتى ، موزّع الفكر مضطرب الجنان
وفى الغد كان لايزال شديد التأثر ، وكان يفرك يديه بعضهما ببعض وهو يرتجف كمن عرته البرداء ، ولم يطلْ به الوقت حتى أحس أنه لم يعد يستطيع البقاء ، فترك صفه — ولم يسبق له أن ترك الصف منذ أن زاول مهنة التدريس حتى تلك الساعة — ومضى إلى بيته
وعند الأصيل لبس ثيابه الشتوية مع أن الطقس كان دافئاً كأيام الصيف ، وذهب ببطء لزيارة كوفالنكو ، وكانت فارنكا قد خرجت من المنزل وبقى أخوها وحده فيه
« أرجو منك أن تتفضل وتجلس » هكذا قال كوفالنكو ببرودة ظاهرة وقد قطَّب جبينه ، وكان قد أفاق من رقاده منذ بضع دقائق ، إذ كانت عادته أن ينام بعد الغداء ، وكان على أسوأ ما يكون خلقاً ومزاجاً
واستهل بيليكوف حديثه بعد عشر دقائق قضاها فى الصمت والتأمل فقال :
« ماجئت إليك لألقى عن قلبى بعض اعباء الهم الفادح الذى يرهقه ويضنيه فحسب ، بل لأكشف لك عن رأيى فيك الذى أرجو ألا تحمله منى على غير محمل النصح والارشاد ، فأنت لاتزال فى مطلع الصبا واما أنا فكهل ، وأنت حديث العهد بالأستاذية ، وأما أنا فأستاذ منذ خمس عشرة سنة ، فحرى بى إذن أن أكون أبعد منك نظراً وأوسع إدراكا ؛ وقد كنت ولم أزل منذ أن بدأت أشعر بمعنى الوجود حتى الساعة مثال اللياقة والأدب فى شؤونى كافة »
وظل كوفالنكو جالساً بوجهه الباسر الكالح صامتاً لايحير ، وانتظر بيليكوف قليلا ثم استأنف حديثه الهادئ بصوت لابسته نبرات الحزن :
« ولقد رأيتك أمس ممتطياً دراجة ، وركوب الدراجات من شأن الأولاد ، وإن هذه ألهية لا يليق بمهذب الشبيبة ومثقفها أن يلهو بها

— ولماذا يا سيدى ؟

— أو يحتاج هذا إلى إيضاح باميخائيل وعهدى بك ذكى الفؤاد ؟ لئن ركب الأستاذ الدراجة فما يبق للأولاد إذن أن يفعلوا إلا أن يمشوا على رؤوسهم ؟ ثم ...

— ثم ماذا ؟

ثم إنى لم أصدق عينى عند ما رأيت أختك وراءك على دراجتها ، وليس أقبح من أن يرى المرء آنسة أو امرأة على ذلك الشكل المعيب

— والخلاصة ؟ ماذا تبتغي ؟

— لا أبتغى إلا أن ألفت نظرك إلى تجنب ما يشين سمعتك . فأنت حدث والمستقبل أمامك ، وعليك أن تسلك سبيل الرشاد كما ينبغى للرجل الحكيم العاقل أن يفعل . فأنت تتنزه كثيراً فى الشوارع ، وتحمل معك فى غدواتك وروحاتك كتباً الله أعلم ما تكون ، وتلبس حللاً هى أدنى إلى التأنق الأرعن منها إلى اللباس المحتشم ؛ وجاءت الدراجة ثالثة الأثافى ... » فاحمر وجه كوفالنكو غضباً وصاح به :

— أما أن نمتطى الدراجة أنا وأختى فهذا لا يعنى أحداً سوانا ، وإنى لألقى بمن يتعرض لشؤوني أو لشؤون عائلتى فى جهنم ! والآن إليك عنى أيها المأفون . أغرب من أمامى فما تعودت ، وأنا الشريف ، أن أخاطب رجلاً مثلك . أغرب عن وجهي فأنا أمقت الواشين وأجتويهم

فقام بيبليكوف مضطرباً ولبس معطفه والتأثر يهزه هزاً ، فقد كانت تلك هى المرة الأولى التى أهين فيها في حياته ، وسمع كلاماً جارحاً ماساً بكرامته ، وقال وهو يفتح الباب ليخرج :

« لك أن تقول ما تشاء ، ولكن أرى من واجبي أن أنذرك قبل أن أبارح منزلك . فربما يكون قد سمع حوارنا أحد من الناس ، وخوفاً من أن ينقله إلى المراقب العام مشوهاً أرى أن أنقله إليه بنفسي دون تحريف »

فاحتدم كوفالنكو غضباً وصاح به :

« تنقل الأحاديث أيها الواشى اللعين ؟ » وتقدم منه فأمسك من الوراء بعنقه وقال: « إذهب وانقل هذا إلى المراقب أيضاً » ودفعه وهو يركله برجله على قفاه فراح يتدهور من أعلى الدرج حتى أسفله

وقام المسكين مرضوض الجسم يتلمس فى وجهه وذراعيه مواضع الألم

إلا أنه فى اللحظة التى كان يتدحرج فيها على العتبات كانت ڤارنكا وسيدتان أخريان قد وصلن فوقفن معاً يراقبنه ، وكان هذا وحده عليه شراً من كل أمر سواه ، وكان خيراً فى نظره أن يدق عنقه وتكسر ساقاه من أن يكون أضحوكة فى عين من يهوي . والآن ستدرى المدينة بأسرها بأمره وسيتصل الخبر بالمراقب العام ، وقد يرسمونه فى أوضاع ساخرة شتى — فيالنكد الطالع — وهم إن فعلوا فسيتقدم إلى الإدارة بالاستقالة من منصبه من غير بد

وعند ما نهض عرفته ڤارنكا ولم تتمالك لما رأت سحنته المنقبضة المضحكة ومعطفه المتسخ الغضين[1] أن أرسلتها ضحكة رن صداها فى البناء كله

وهذه القهقهة الساخرة قلبت أحلامه رأساً على عقب وطوحت بهنائه المزعوم ، فاسودت الدنيا فى عينيه واحلولكت مرائيها ، فلم يعد يسمع ولم يعد يرى . وما بلغ منزله حتى هرع تواً إلى رسم ڤارنكا

(١) المتجعد

فانتزعه من إطاره ومزقه نتفاً وألقى به فى النار ، ثم خلع عنه ثيابه ورقد فى سريره محرور الجسم منهوك القوى ولم يقم منه بعد ذاك

وبعد مضى ثلاثة أيام أتى إلىّ طاهيه « أفاناسى » يستشيرنى فى استقدام الطبيب لأن سيده على مايرى مدنف عليل ، فلم أر بداً من عيادته ، وقد وجدته نائماً وراء كلّته ، مغطى بلحافه حتى الرأس؛وطرحت عليه بعض الأسئلة فلم يكن ليرد إلا بلا أو بنعم ؛ وكان « أفاناسى » الطاهى يروح ويجيء حيال السرير مكتئب النفس محزون الفؤاد

وكانت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، وقلما اغتمضت عيناه فى لياليه السود لطوارق أوهامه ومروعات أحلامه ؛ وبعد شهر ذاق خلاله هذا البائس المحزون من صنوف الألم وضروب العذاب ما صهر جسده الواهى وأذاب جسمه المنهوك ، وقع المقدر ونفذ المحذور وأسلم صاحبنا الروح

أما هيأته وهو مسجى فى نعشه فقد كانت تنم عن العذوبة والطمأنينة كأنما كانت تنبىء عن السرور الذي شمله بوضعه أخيراً فى « غمده » وبلوغه الهدف الذى طالما حن له ، ولنيله المأرب الذى طالما سعى إليه

وسرنا — الأساتذة والطلبة — جميعاً وراء نعشه في موكب مهيب . وأبت السماء فى ذلك اليوم إلا مشاطرتنا ما كنا فيه من أسى على الفقيد الراحل فاربد أديمها واكفهر ، ولم تلبث أن بكت بدمعها الهاطل المدرار

وهكذا اضطررنا أن نرتدى معاطفنا ونحمل مظلاتنا وننتعل « كوتشوكنا » الواق كأنما آثرنا ألا نتبع إلا ذوقه ولا نمشى الا على هواه حتى فى يومه الأخير . وأحسب أننى فى غنى عن إعلامك يا إيڤان أن فارنكا كانت الوحيدة التى مشت فى جنازته خاشعة مطرقة بكل ما فى الخشوع والإطراق من معنى ، وأنها ذرفت عندما واروا جثمانه الثرى بضع قطرات من دمعها السخين . وأما نحن الآخرين فقد عدنا من دفنه ولا أكتمك وعلى وجوهنا أمائر الحزن ، لا أسى عليه ، بل لأننا كنا نأبى أن تظهر على وجوهنا دلائل السرور ؛ وموت رجل كبيليكوف مسرة لقلوب من نكبوا بطلعته المشؤومة إبان حياته

لقد دفناه ، ولكن كم وكم بقى علينا أن ندفن من أمثاله ؟ إن الأرض ملأى بنظرائه ، وإننا عند ما نعيش فى بؤس فإنما نعيش فى (غمد) ، وعند مانحيا فى محيط ضيق خانق ، أو عند مانقضي حياتنا من غير جدوى ولا نفع ، أو نسف فى القول ولا نسمع إلا كل لغو لا طائل فيه ، أو نزجى أوقات الفراغ فى لعب النرد أو الورق ، فإنما نعيش فى (غمد) أليس كذلك ؟

— بلى ياصديقى ، ولكن أن نسمع الكذب ولا نسفّه قائله ، وأن نرى الواشى ونجله الاجلال كله ، وأن نحتمل الذل الشائن ، ونرضى ونحن الأباة بالهون ، ونداری من لا يستحق أن نصفعه ، من أجل رتبة لا قيمة لها ومنصب لا أهمية له ، فما لا يشرفنا . وللموت عندى خير من مثل هذه الحياة وأعذب

— هذا أمر آخر يا إيفان ، والآن فلننم ودخل الأستاذ فاستلقى على الهشيم ، ولم يلبث بعد بضع دقائق أن غفا ، وأما إيفان فقد خرج وجلس حيال الباب يدخن غليونه

جورج سلستى

مرقص التاريخ

فنشنزيو فيفياني

مترجمة عن كتاب "الاطفال الممتازون"

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

في يوم من أيام سنة ١٦٣٨ دخل مدينة فلورنسا، وهي إذ ذاك عاصمة دوقية توسكانيا، صبي في الثانية عشرة من العمر يحمل على ظهره صرة معلقة في عصاً موضوعة على كتفه وكان في جيب هذا الصبي عدد قليل من الدراهم .

قال ابو هذا الصبي مخاطباً إياه قبل مجيئه إلى فلورنسا : « لقد كبرت يا بني وأصبح في وسعك أن تعول نفسك ، ولم يعد في وسعي أن أعولك . ولست أزودك بأغلى من نصيحتي إياك بتقوى الله ؛ فإن اتبعت هذه النصيحة لم تفقد في أي وقت من الأوقات من يمد إليك يد المعونة »

قال الأب ذلك وبكى ونفح ابنه بدريهمات هي التي كانت معه حين دخل عاصمة الدوقية ، وقد حرص الصبي على الاقتصاد فوضع حذاءه في الصرة التي حملها على عصاه ومشى حافياً ، ولما وصل إلى شاطئ الأرنو استحم في مائه وجلس يرفأ ثيابه عند الشاطئ ثم غسلها واستأنف السير

ولم يكن فيفياني قد تعلم حرفة ما ، بل لم يكن لديه أي استعداد لتعلم أية حرفة . ولقد كان يحسن القراءة والكتابة ويعرف الحساب إلى حد ما ؛ وكان يعرف اللغة العبرية وهي التي كان الكتاب

قد كتب الدهر من وقائعه
أجل مجموعة من السير
يذهب مألوفها وتافهها
في زبد للحياة مندثر
ويخلد النادر الغريب من الـ
ـواقع لا المزدرى من الخبر
إن زال حب الغريب من وسط
فليس فيه مجال مبتكر
غرابة في الجمال ندرته
أبقته في نادر من الصور
كانت حياة وكان صاحبها
لم يبق غير الغريب في الصور
ماضٍ من العمر أنت صاحبه
ماذا تعي من حوادث العمر
أروعها مظهراً وأحفلها
بكل ما كان غير منتظر
والشر كالخير رائع الخبر
فالشر في الخير بين الأثر
والشر والخير في اجتماعهما
خوف جزوع وزهد منتصر
قصة نيرون إن تكن رُويت
فظلم نيرون غير محتقر
أحقر ما توصف النفوس به
صبر قنوع وقنع مصطبر

(المترجم)

المقدس يقرأ بها فى ذلك العهد فى إيطاليا قبل ترجمته إلى اللغة الإيطالية

وكان قسيس القرية قد ترجم لفيفيانى مزموراً واحداً من مزامير داود فاستحثه ذلك على أن يترجم كل المزامير إلى لغته

كان هذا كل استعداده ، وهو يبحث عن عمل فى فلورنسا ، فطاف بالحوانيت لينظر هل من حرفة يستطيع احترافها فلم يجد ما يلائمه . ولكنه وجد فى أحد الحوانيت ما استثار دهشته — وجد فانوساً سحرياً ، فدخل فى الحانوت لا لكى يطلب عملاً ولكن ليطلب إلى صاحبه أن يرشده إلى كيفية صنع هذا الفانوس

وكانت المصابيح السحرية نادرة فى ذلك الحين . وقد كان الرجل ظريفاً ، فلم يأبَ أن يفهمه سر هذا المصباح . وقام بروع الطفل أنه يستطيع أن يعيش بالطواف بين القرى والمدن ومعه الفانوس السحرى يعرضه بالأجر التافه على الأطفال

وعد مامعه من النقود وسأل صاحب الحانوت : أليس يكفى هذا القدر من المال ثمناً للفانوس ؟ فأجابه : « لا . ولن تستطيع شراء مثله بعشرة أضعاف هذا الثمن . ولكن لماذا تريده ؟ »

فلما قص عليه الصبى قصته قال : إننى لن أبيعك هذا الفانوس ، ولكنى أؤجره لك لما يبدو لى من أنك شريف . فهل تعدنى بالشرف أن تمر علىَّ فى كل أسبوع مرة وتخبرنى بالحقيقة كم ربحت . ولك علىَّ ألا أطالبك بالأجر إلا بنسبة ربحك ؟ »

قبل الصبى وأخذ المصباح فصار يعرض على الأطفال لأول مرة ما يشبه النوع المعروف فى مصر باسم « صندوق الدنيا » وإن كان أدق صنعاً منه ، فنال فيفيانى مبلغاً وافراً من المال

وفى يوم مطير هرب الأطفال من المطر إلى البيوت ؛ وكان فيفيانى واقفاً ومعه فانوسه السحرى ؛ وفي الناحية الأخرى من الطريق رجل مختبئ تحت شرفة لكثرة المطر ، فقال له فيفيانى : « أيها السيد إذا لم تأت لتشاهد فانوسى السحرى فإنى لن استطيع العشاء هذه الليلة »

وكان هذا الرجل هو جاليليو العظيم أكبر عالم فى جيله ، فأخذته الرأفة ووقف يشاهد صندوق الدنيا إرضاء للصبى المسكين . ثم أخذ يسأله عن قصته فرواها له : وقد اهتم جاليليو بقصته أيما اهتمام فقاده إلى منزله وتبناه وعلمه فأصبح فيفيانى من أكبر العلماء فى القرن السابع عشر

وذاعت شهرة فيفيانى بعد نضوجه فأدر عليه المال أمراء بيت مديسى ، ومنحه لويس الرابع عشر معاشاً ضخماً ، وضمه المجمع العلمى الفرنسى إلى عضويته . وكان من بين أصدقاء فيفياني فردريك الثاني غراندوق توسكانيا ، وقد استعان به فى علاقاته الدولية عدة مرات ، كان يرسله فيها سفيراً إلى ملوك أوربا

ومات فيفيانى فى الثانية والثمانين ، بعد أن ألف عدة كتب في الهندسة

« عن الانكليزية من كتاب الأطفال الممتازين »

عبد اللطيف النشار



يقول شوبنهور على طريقته فى التشاؤم والتقطيب على وجه الحياة : إن معظم الروائيين يقفون برواياتهم عند عتبة الزواج لايتعدونها ، كأن ما بقى من الحياة لا قيمة له ولا خطر فى تقديرهم ، أو كأن ما يعلمون علم الخبرة واليقين من انتهاء أحلام الحب والسعادة قبل الزواج إلى توافه العيش وخمول الاعتياد بعده يجعلهم يقفون عند ذلك الحد من رواية الحب ، حتى لايشوهوا الصورة التي دأبو على تصويرها قوية ساحرة جهد طاقتهم .

وعلى صدق مايقرر شوبنهور هنا وعلى عظم الفارق بين حياة الرؤى والأحلام قبل الزواج ، وحياة الجد والكلفة بعده ، فأننا مثبتون فى هذه الأقصوصة صورة من حياة زوجين بعد عهد الزواج لا قبله . وليس هذا لأن الزوجين اللذين نرسم لهما هذه الصورة مثَّلا دور الحب الأول تمثيلا عاجزاً لا يستحق جهد الرسم ولا عناء التصوير ، إنما نهمله لأنه كان طبيعياً لم يثر شيئاً من فضول الاستغراب فى الناس ، كما لم يثر عواطف الحسد ولا مزاحمة الطامحين التى تكون السبب الأول غالباً فى تعقيد الصورة وإكسابها تشويق الطرافة وإثارة المفاجأة . فصادق كان بين طلاب الصفوف العليا فى الجامعة مثال الشباب النبيل والرجولة القوية والمواهب النادرة : أخلاق وطباع تدنى الناس منه وتقربهم اليه ولكن فى غير ابتذال ولا خفة ، وتبريز فى الدروس ولكن فى غير إجهاد ولا مشقة ، واكتمال فى التكوين الجسمى ولكن فى غير نعومة الأنوثة ولا طراوتها . ومن هنا فقد نفض جميع الشبان أيديهم (والأصح قلوبهم) من فريدة لما رأوها تنجذب انجذاباً قوياً فى ناحية صادق ، وتدنو منه ثم تصير معه فى دائرة محكمة من الحب الصحيح والمواهب النادرة والرجولة الكاملة ؛ وما كان يدور لأحد بخلد أن يتخطى هذا السور ، بله تحطيمه ، ليصل إلى حيث استقر قلب الفتاة ويزحزحه عن موضع ارتكازه

***

وانقضت سنو الدراسة وخرج صادق يمارس مهنة الطب بعد أن نال شهادته بامتياز وتفوُّق عظيمين . وخرجت فريدة أيضاً فى العام نفسه لتمارس التعليم فى إحدى مدارس الأناث العالية ؛ ولم يكن ذلك من حاجة ماديّة إلى التعليم وإنما استعداداً لعهد الأمومة الذى من أول واجباته معرفة الصغار معرفة اختبار لا معرفة كتب ومحاضرات

ومضى شطر من العام وصادق وفريدة يغتنمان كل فرصة للّقاء ، يروِّحان على عواطفهما ، ويُعدَّان العدَّة للمستقبل البعيد الذى ينتظرهما ، مستقبل الحياة الزوجية السعيدة والبنين الصالحين ؛ وانتهيا إلى مرحلة الاستعداد الأخيرة فأعلنا للمعارف والأصدقاء خطبتهما التى تلاها الزواج بعد أسبوع ، ولم يشذ

صادق وفريدة عن التقليد الحديث هنا ، فقد قام الأهل والأصدقاء يودعونهما في إحدى أمسيات الربيع المبكر إلى السفينة التى أقلتهما إلى أحد الأقطار المجاورة يقضيان شهر العسل كأهنأ ما تقضي فترة من العمر

وعاد الزوجان عند نهاية الشهر، هو لمتابعة عمله، وهي للقيام بواجبات الزواج والبيت . ولا حاجة إلى القول بأن صادقاً كان إلى هذا الوقت قد اكتسب ثقة العائلات العديدة وأصبح مثابة المرضى وموضع الأمل فى الشفاء والسلامة . وقد ساعده على ذلك العلم الوثيق والإحاطة الشاملة والمتابعة الشديدة لكل جديد في عالم الطب، لعلمه أن الطبيب الذى يغفل مسايرة مستحدثات الطب يُضحى شيئاً عتيقاً فى وقت قصير . هذا إلى الشخصية المحببة والأخلاق الموزونة والثقة بالنفس فى غير اعتداد ، والفهم السريع والادراك الصحيح للأزمات النفسية التى تنتاب المرضى والمعتلين ، إلى إشراق قوى فى الوجه والنفس يبعث في النفوس أملاً قوياً فى الشفاء ورغبة أكيدة فى الحياة

أما فريدة فقد غدا همها توفير الراحة الفكرية والحسية لصادق ، ليصفو ذهنه وينصرف إلى عمله الدقيق أخلى ما يكون بالاً ، وأهدأ ما يكون فكراً ، وأشد ما يكون انصرافاً عن توافه الضرورات المنزلية والحاجات البيتية المربكة . وكانت تقول : ألا يكفيه هذا العناء الموصول والجهد المضنى والزيارات المفاجئة تستلّه من أحضانى أو من بين يدى ليلاً أو نهاراً ، وتعرضه للفح الحر أو نفح القر ، إلى ما يرهق التصور ويرمض الاحساس من العيش الدائم بين آلام الناس وأحزانهم ، حيناً فى غمرة الموت ووجوم الفناء ، وحيناً أمام أقسي الآلام وأشد الأوجاع وآلم الزفرات . ألا يكفيه كل هذا البلاء حتى أحمله أعباء البيت وأثقاله لأنصرف إلى الزينة والزيارات وقتل الوقت فى ثرثرة المجالس وبطالة الاجتماع ؟ ! ... وفوق هذا ما فتئت فريدة تهيئ له كلما آب من عمله جواً روحياً من ذاتها ومما يحيط بها ، يبعث إلى نفسه الراح والروح ، وينفض عن شعوره وأعصابه ما علق بها من انقباض ، وخالطها من ارتماض . تلقاه متشوفة مشرقة ، وتقضى الوقت بين يديه موقدة الحس مشبوبة العاطفة ، وتودعه لهيفة واجفة ، كأنه ذاهب فى سفر بعيد أو لخطر أكيد . وهكذا مرت الأيام تترى وحياة هذين الزوجين مثال أعلى ومثل مضروب لهناء الزوجية فى السر والاعلان . وقد زاد فى هناء الزوجين ووثق بينهما النجاح الباهر الذى نجحه صادق حتى تخطت شهرته المحيط الضيق الذي يعمل فيه ، وغدا مثابة الزمنى والمرضى في مختلف القرى والمدن المحيطة

هذا وقد تعرف صادق بحكم عمله إلى أسر كثيرة ، وتوثقت عري الألفة والصداقة بينه وبين عدد كبير منها ، فكثرت دعوات هذه الأسر له ولزوجته فى المناسبات العديدة التى تقتضيها الحياة العصرية . وكانت فريدة أول الأمر جد مغتبطة لهذا الطور الجديد من حياتها ؛ وأقول جديد لأنها نشأت فى أسرة محافظة ، ثم تسلمتها المدرسة بجدها وأوامرها ونواهيها العديدة ، ثم انتهت إلى التعليم وهو يضع من القيود ويفرض من الواجبات على المعلمة مالا يبقي لها معه مطمح ولا سبيل لهذه الحياة الاجتماعية الحافلة

إلا أنه ما عتم أن أخذت فريدة تضيق بهذه

الاجتماعات بعض الضيق ، وأخذ يرين عليها شيء من الانقباض والحرج كلما دعيت إلى اجتماع من هذه الاجتماعات ، بل لقد تطور الانقباض والحرج إلى مقت وكراهية شديدين . على أن فريدة كانت من قوة الإرادة ورهافة الحس والتحرُّز بحيث لم يندَّ عن لسانها كلمة أو تبدر منها بادرة تشى بما أخذ يستقر فى نفسها من مرارة وكره لهذه الاجتماعات حتى لا تؤذى شعور الزوج وهى الحريصة جدَّ الحرص على أن تبقى جو البيت الروحى والحسى جنة يفيء إليها من عناء المهنة وأوصاب العمل

وكانت هـذه الحال تفضى إلى أوخم العواقب لو استسرت هذه العقدة النفيسة فى نفس فريدة وانحدرت إلى معمل العقل الباطن ليحولها سماً زعافاً يسمم الروح ويتلف الأعصاب ، ولو كانت فريدة عادية الذكاء غير شـديدة التفطن والفحص لـكل بادرة من بوادر النفس وكل هاجسة من هواجس الشعور ، فلقد لاحظت هذا الطور الجديد من الشعور تنتهى إليه من غير إرادة ولا عزم منها ، ولاحظت كذلك أن نضارتها أخذت تجف ببطء ولـكنه أكيد ، وأن الألق والبريق اللذين ينبعثان من عينيها انبعاثاً غريباً أخذ مكانهما كدرة واضحة واغبرار ، وأن تينك الوجنتين الورديتين أخذ لونهما ينصُـل ويحول ، وأن الشفتين المرجانيتين حل محلهما خطان أبيضان فى حمرة خفيفة توشك أن تزول . وهالهـا ما رأت ، ووجمت تفكر وتحلل ؛ ولو كان لهجس الشعور صوت مسموع لسمعتها حينئذ تقول :

لم كل هذا ؟ ! إننى أشعر بسرور خفى ولـكنه أكيد كلما مضى الأسبوع ولم تكن دعوات ولا اجتماعات ولا زيارات . أيمكن أنى مللت حقيقة مخالطة الناس ورضيت بالوحدة والانقطاع عما سواهما؟ كلا ! كلا ! والدليـل أننى لا زلت أرتاح لزيارة صويحباتى وجاراتى ، وأننى مافتئت أزورهن وأستزيرهن وأجد الأنس والغبطة فى ذلك . إذاً ما هو وكيف أفسره ... ... ؟ ! يا ألله ! أيمكن أن يكون ذلك هو السبب ؟! أكاد أعرف ! أكاد أكشف الحقيقة المرَّة ... لقـد شاهدتهنَّ فى الحفلة الراقصة منذ أسبوعين يتسابقن للرقص معه ، ورأيتهنَّ يُمقْنه بعيون لا يخفى فيها الإعجاب إن لم يكن ما هو فوق الإعجاب ! ثم ألم تمتدح جميلة وسعاد ذوقه ولطفه فى أذنى ؟ وتلك الشقراء معورة العينين شهوانية اللحاظ كم أثنت على سمته وأناقته « التى لا ترتقع إلى حدود التماثل الهندسى والسمت البوذى كما نرى فى بعض المخانيث من عبَّاد الزى والأناقة »

ووقفت فريدة عند هـذا الحد من التساؤل والتظنى خشية أن يجرفها تيار الشعور إلى نقطة الخطر فى مجارى الشعور حيث تتركز الخواطر والهواجس وتحتشد فى نقطة واحدة لا تحول عنها ولا تريم . وعادت تقول : وما شأنه هو إذا كان سمته أو ذوقه أو أناقته أو أى عنصر من عناصر شخصيته مثار الإعجاب ومبعث التقدير أو خلافهما فى نفوس الأوانس والسيدات ؟ أليس هو لى وحدى دون سواى ؟ أليس يعود فى المساء من عمله المرهق فيزول فى لحظة كل ما ازدحم على جبينه من تقطيب الجد واكفهرار العمل ، ويودعنى فى الصباح وبوده ألا يودعنى ؟ ألم يقل لى منذ حين إنه لا يشعر بأنه يحيا على متن الحياة إلا فى البيت ، وأنه خارج البيت كأنما يحيا على هامش الحياة وحفاف الشعور ؟

هكذا حـلّلت فريدة الموقف وعرفت أنهـا

وساوس الغيرة فى غير مبرّر ؛ أخذت تنهش وتعيث فى صدرها « ولكن أليس هذا كالذى يستلقى فى الفراش ويذهب يئنّ ويتوجع توجع المريض المدنف لا لشيء إلا لعلمه أن فى الهواء الذى يستنشقه جراثيم المرض وأسباب الإصابة ؟ ! »

ولكن المنطق شيء والعاطفة شيء آخر . فإن فريدة — بالرغم من تحليلها هذه العاطفة الطارئة تحليلاً صحيحاً ، وبالرغم من زوال الشيء الكثير من أسباب القلق وعدم الاطمئنان — ظلت تشعر بالراحة وانفراج الشعور كلما مضى اليوم أو الأسبوع دون أن يُدْعوا إلى اجتماع أو يُضطرا إلى إقامة اجتماع في منزلها . وتمنّت لو تزول هذه الاجتماعات زوالاً نسبياً أو مطلقاً فيزول معظم السبب فيما تخشى وتحاذر

ولاحظت فريدة كأن رغبتها فى هذا الشأن أستجيبت ، فقد رأت صادقاً يعتذر لأصدقائه عن كثير من هذه الاجتماعات بحجة العمل الكثير والزيارات الطبية المفاجئة ؛ وقل تبعاً لذلك دعوتهما الأصدقاء والمعارف إلى منزلها . وقد حملته فريدة أولا محمل الأمر العارض الذى لا يلبث أن يزول ، ولكنها لاحظت استمرارا من صادق على الأعراض عن معظم هذه الدعوات ، فأخذت تسائل نفسها : أيمكن أن يكون قد فطن إلى ما فى نفسى فاستجاب له استجابة الزوج الوفى الكريم ؟ وهل كثير على صادق أن ينفذ إلى علة قلقي وشحوبى ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية من أمرى ؟ الحق لولا أننى لا أحتفظ فى صدرى بصورة غير صورته لأرعدت كلما أطل فى عينى أو تفرس فى وجهى

وزادها يقيناً بأن صادقاً عرف خبيئة أمرها فأخذ يجاريها على ما فى نفسها أن رأته يهمل هندامه إهمالاً تكاد تبين فيه القصد، وأن رأته يحلق ذقنه يوماً ويتركها يوماً آخر بدل الحلاقة اليومية التى اعتادها .

وقد نبهته يوماً إلى ذلك فأجاب : إن الحلاقة كل صباح صيرت جلدة وجهى حساسة كل الحساسية، فأنا أعمد إلى إطالة فترة الحلاقة لأريحها

وأخيراً زال كل شك من نفسها فيما انتهت إليه من أمر صادق حينما رأت شعر رأسه يتدلى وراء أذنيه بشكل ظاهر ، فاغرورقت عيناها ، ودلفت إليه وجلست حذاءه ، كف تمرُّ على سحنته ، وأخرى تعبث بشعر رأسه ، وخاطبته بصوت فيه الألم والسرور :

وأخيراً ياصادق ، ألا تنوى أن تدعو الحلاق ليسوّى هذا الشعر الذى أخذ يتدلى وراء أذنيك بشكل ظاهر ؟ هل أدركك ذهول الفلاسفة أو اعتقادهم أنه ليس ثمّة فكر عميق بدون لحية كثّة وشعر متهدل طويل ؟ هذه اللحية الشائكة تكاد تترك خدوشاً فى وجهي كلما أمررت سحنتى على سحنتك

— أما لحيتى فقد فسرت لك لماذا أحلقها يوماً وأتركها آخر . وأما شعر رأسى فأوثر أن أتخطى الزمن الذى كنت أعيّنه للحلاقة لأنجو بعض النجاة من أخطار الحلاقين وما يعرّضون المرء له من أسباب العدوى والإصابة . وقد فاتنى أن أذكر لك أنه جاءني فى الأسبوع الفائت شاب يطفح على وجهه مرض خبيث ، وبعد البحث علمت أن حلاقه أتحفه بهذا المرض بموساه أو يده القذرة . ألا قبّح الله الحلاقين ! إنهم وسيلة أكيدة لنقل الأمراض !

— اسمع ياصادق ! غداً عيد ميلادك وسوف يكون عندنا صنوف من الناس، ولن أطيق أن أراك

بهذه الذقن أو هذا الرأس ، فإما أن تقوم تدعو الحلاق الآن أو ...

— أو ماذا ؟

— أو أنني آتي بالمقص والمشط ، أنا

— بالله أسرعي يا فريدة ! إنه لتدبير والله ! سوف نوفر القروش التي ندفعها لذلك الثرثار . وفوق ما توفرين من دراهمي سوف أكون آمناً على نفسي بين يديك . وفرق بين أن يمر ذلك الحلاق القذر يديه على وجهي وعنقي ، وبين أن تمرّي هاتين اليدين النظيفتين على رأسي ووجهي .. لماذا تتلكئين؟ هل آتي بالمقص والمشط أنا ؟

لا تتجاهل يا صادق ! فأنت أدقُّ حسًّا وأوعى شعوراً من أن يجوز عليك طور من أطواري . هيا نسدل ستاراً على هذه المهزلة التي أوشكتُ بحماقتي أن أصيرها مأساة

وطوقته فريدة بذراعيها وانهالت تقبله وتقبله حيثما وقع فمها من وجهه ورأسه ، والدموع تسفح على وجنتيها ، والكلمات تقطعها أنفاسها المتهدّجة وصدرها الذي أخذ يعلو ويهبط بسرعة وشدة

ولم يستطع صادق عند هذه الثورة النفسية إلاَّ أن يستجيب لها ويرد لفريدة قبلة بقبلة ، وهو في خلال ذلك يناديها ، مالك ؟ ! أجننت ؟ لاشك قد جننت ! لقد خنقتني وكتمت أنفاسي ! خلّي عني ! أني وحده لا يكفي للتنفس !

وتجيبه : نعم جننت ؛ وأيّة امرأة لا تجنُّ إذ يكون لها مثلك ؟ ! لقد جزت الامتحان يا صادق . لقد جزته . اغتفر لي غيرتي الحمقاء التي صدّتك عن محافل الأنس ، وألبستك ما لا يتلاءم وذوقك وكادت تبدّلك فيلسوفاً بلحية مرخاة وشعر مرسل

— أوه ! أغتفر ماذا يا فريدة ؟ أغتفر لك أن شحب لونك ، وزالت نضارتك ، وشح نومك وأوشكت أن تذوى ذوى الزهرة في مهب الريح اللافحة لما خيل إليك أنني صائر إلى غيرك ؟ ! ثم أية متعة من متى لا أتخلى عنها في سبيل أن تعود إليك نضارتك ويثوب إليك بشرك واستقرارك ، كما لاحظتها تعود بعد زوالٍ مذ قلت استجابتنا للدعوات والاجتماعات

* * *

ومن ذلك الحين عادت الزيارات إلى الاتصال ، وعادت ألبسة صادق إلى أناقتها وانسجامها ، وعادت فريدة لا يقلقها أن تسمع الثناء والإعجاب بصادق يصبان في أذنيها ؛ فلقد وثقت بأنه لها وحدها دون سواها ، بل لقد أصبح الاعجاب بصادق في أية ناحية من نواحي شخصيته يسرها ويطربها . ذلك أنها وثقت بأن صادقاً جزء منها ومكمل لها حقاً ؛ وإذن فالثناء عليه والاعجاب به لها فيهما حصة

أديب عباسي

كورني فاسيليف

للفيلسوف الروسي تولستوي

بقلم الأديب احمد فتحي مرسي

> يعد ليون تولستوي في مقدمة كتاب روسيا الحديثة ... وتعد كتاباته الأناجيل الأولى للثورة الأخيرة .. ولد في سنة ١٨٢٨ وتثقف ثقافة فرنسية ثم بدأ كتاباته بتصوير حال الفلاحين البائسة ونقد نظام الحكم فبرع في هذه الناحية ، ولذا يرى متتبع أثره الأدبي أن جل مؤلفاته في هذه الناحية
>
> وقد نزل تولستوي في أواخر أيامه عن ممتلكاته للفلاحين مما أكسبه عطف هذه الطبقة عليه ، وتعلقها به . وقد ماز تولستوي عن غيره من كتاب روسيا الحديثة النهج الواقعي الذي انتهجه لنفسه (Realism) مخالف بذلك من سبقه أمثال پوشكين و « جوجول » وكذلك مازه منهم دقة تصويره لحال الفلاح وسيلمس القارئ ذلك جلياً في هذه القصة
>
> وقد اختفى تولستوي في أواخر أيامه وتوفى سنة ١٩١٠
>
> فتحي

لم يكن كورني فاسيليف قد نصل بعد من ربيعه الرابع والخمسين عند ما عاد إلى الريف للمرة الأخيرة ؛ ولم يكن الشيب قد وسم خصلات الجثلة المسبلة فحسب — بسمته الغراء ، بل جازها إلى عذاريه فمسهما مواسه ، ولاحت بهما رواعيه ... وكان أملس الوجه ، رشيق التركيب ، رحيب ما بين المنكبين ؛ تلوح على وجهه رفاهة المدنيـة وعيشة الحضر

ومنـذ عشرين حولا خلت تحرر كورني من ربقة الجنـدية وتعلق التجارة ؛ ولـكن ما تلبث أن غشى نفسه الملال ، فأخذ يربي الماشية ترعى كلأ الضفاف وعشب المروج

وكان كورني يقيم « بجاني » في منزل تالد الطراز ، متهدم الشرف ، ومن حوله أم عجوز في مغرب حياتها ، وزوجة شابة في ريعان صباها ، وطفل وطفلة لم يتخطيا المهد ، ويتيم فتى تربطه به وشيجة القرابة وآصرة المودة

وباع كورني آخر رأس من ماشيته وهو حمل صغير ، بعد أن اقتصد زهاء ثلاثة آلاف روبيل . ووصل إلى سمعه أن ريفياً في الجيرة يبيع أرضه بثمن زهيد ، فذهب يتقصص أثره ، ويتسقط خبره ، إلى أن وقع عليه في بلدة قريبة ، فعاد إلى بلدته بعد الصفقة ، ويمهد السوم ، ويعود بالثمن

وعند ما بلغ كورني المحطة ، وكانت في جهة قصية عن البلدة ، كان الصباح قد لألأت حواشيه ، وكان الجو مغشى بالسحب الجون ، والجليد يساقط على الأرض في هينة ولطف ... وما غادر كورني القطار حتى التقى بالعم (كازما) ، وهو رجل رقيق الحال ، حقود النفس ، يغتاب الناس ويختانهم ، ويطوي في نفسه الحسد والحقد على الموسرين ، وخاصة كورني ، وكان يدعوه « كورناشكا »

وكان للعم كازما عربة قديمة يجرها زوج من الخيل الهزال الضامرة ، يثني مقادتها كل يوم إلى المحطة ، عله يعود من الركب برجل أو اثنين ... وبهذا كان يقيم أوده ... ابتدره كورني قائلا :

— ألا تنقلنى معك إلى البلدة أيها العم كازما ؟

— نظير روبيل إذا قبلت

— أظن أن فى سبعين كوبك الـكفاية

فثنى الرجل هامته موافقاً وهو يسارقه النظر الشزر ، فصعد كورني فتطرح على المقعد الخلفى للعربة ، وهو لاغب وهنان ، ثم قال :

— حسن ... يمكنك أن تسير الآن

فانطلقت بهما العربة فى طريق رصف ظليل ، وغشى عليهما الصمت برهة ؛ وأخيراً قال كورنى :

— وكيف حال البلدة أيها العم كازما ؟

— على خير حال ياسيدى ... اللهم إلا ...

فقاطعه قائلاً :

— اللهم إلا ماذا ؟ أماتت العجوز ؟

— كلا يا سيدى ... إنها فى عافية صحيحة ... وكذلك زوجتك الحسناء ... ولم يحدث شىء سوى أنها استخدمت عاملاً جديداً يدعى « اقستينى »

وأرسل العم كازما ضحكة مرنة نزلت على كورنى كالسم الوحى . فعند ما بنى كورني بمارفا ، كانت الألسن تتقول بذلك الاسم السالف بجانب اسمها .. واسترسل كازما يقول :

— هكذا تسير الحياة ... إن أحداً لا يمكنه أن يحد من حرية المرأة

— هكذا يقولون ! ...

ثم قال كورني حائداً بمجرى الحديث :

— إن جوادك الـكميت قد لحقه الـكبر ... وكذلك الأشهب

— لابدع فى ذلك يا سيدى ... فهما كسيدهما على شفا القبر

وبعد أن طوت المركبة زهاء نصف الطريق لاح لهما خان صغير على رجع البصر ، فأمر كورنى العم كازما أن يقف عنده حتى يستريحا قليلا ويريحا الجياد اللاغبة ... فجذب كازما عنان الخيل ، ومضت العجلات تثاقل فى دوراتها حتى همدت حركتها . فهبط العم كازما يمرس أطرافه فى رخاوة وكسل ، ومضى يرتب المقاعد ، وينسق الرصائع ، وينظم أعنة الخيل

وقال كورنى :

— هل لك فى كأس من الخمر أيها العم كازما ؟

— لك الشكر يا سيدى

وجلسا يعبان الجام تلو الجام حتى أفضت الخمر إلى مكمن أسرار كازما فمضى يفيض ويسترسل فى الحديث قائلاً :

إننى آسف لك أيها السيد كورنى ... كثيراً والله ما صدت الألسن عن التشدق بك والخوض فيك قائلاً للناس : « ومامقدمه ببعيد ؛ وسترون كيف يغار على شرفه »

وكان كورنى يسمع إليه وهو متكفىء اللون ، متفزع القلب ؛ وأخيراً قال فى خفوت :

— ألا تريد أن تسقى الجيـاد ؟ إن كنت لا تود فدعنا نرحل

ومضت العربة تزيف فى خطرتها ، وتصل ما انقطع من الطريق ... وأخيراً بلغ كورنى البلدة عند ما ضرجت الشمس جبين الأفق الغربى ... فغادر العربة ، وهو ثائر الخاطر عجلان الخطو ، وما ولج الباب حتى قابله اقستينى بنفسه فحياه تحية فاترة ثم صعد الدرج فى تراخ وهينة

وقابلته زوجته فى نهاية الدرج مرحبة باسمة ، وقادته إلى غرفته حيث لحقت بهوالدته وهى عجوز رقيقة

البدن سوداء العينين ، فرحبت به باسمة جذلة ، ثم جلست تناقله الحديث وتجاذبه القول ، وهو ثائر شارد لايناقشها القول ولا يراجعها العبارة .. وفجأة تذكر العم كازما في الخارج ، فابتدر الباب ، وما كاد يجذب مصراعه حتى لمح زوجته وأقستيني يتهامسان فمر بهما دون أن يثني إليهما الطرف وخرج فدعا كازما ليتناول معه الشاي فلبى دعوته

وجلس على المائدة كورني صامتاً معقود اللسان اللهم إلا كلمة قصيرة يحيي بها ضيفه ، وبسمة عارضة يختطفها من شفتيه

وانفضت المائدة وانصرف كازما ، وعاد كورني حزينا واهيا ، فاستلقى على مقعد طويل ، ووسد رأسه كفيه ، وهو ثائر النفس ، موزع الخاطر ... وكانت تطرق أذنيه الفينة بعد الفينة تفتّح وتغلّق ، وأخيراً ظهرت زوجته بالباب قائلة :

— يلوح لى أنك تعب ... فلم لا تستريح ؟

ثم يممت شطر الفراش فأضجعت ابنتها ... وصعد الدم في وجه كورني وقد ذكر قول كازما « وما مقدم كورنى ببعيد ؛ وسترون كيف يغار على شرفه » وجاش الغضب فى صدره ، وانشعبت به الأفكار ... وأخيراً رفع وجهه إلى زوجته وكانت مستغرقة فى صلاتها صادفة عما حولها

ثم قامت بعد برهة فتثنت على طفلتها فى رفق ولين قائلة لزوجها :

— إن « أجاشا » نائمة ... لقد أسبل الكرى جفنيها وهى بين ذراعى

— ... ...

ثم سألها بعد برهة :

أيعمل إقستينى هنا منذ طويل ؟

— إقستينى ... لا أذكر ... منذ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع

— أتعيشين معه ؟

فانتهضت واقفة ، وقد تفزّع وجهها ، وتكفأ لونها :

— أعيش مع إقستينى !.. ما هذه الأفكار أيها الرجل .؟ من قال لك ذلك ؟ من روى لك الكذب؟

— إننى أسألك : أهذا صحيح أم لا ؟

« قالها وقد اربدّ وجهه »

— دع عنك هذه الأراجيف.. أأخلع لك الحذاء؟

— إننى أعيد السؤال على سمعيك .. أهذا ...

فقاطعته :

— أهذه هى التحية التى تحملها الى ... مَنْ أخبرك بهذا الكذب ؟

— ما الذى كنت تقولين له عند ما لمحتكما وأنا أدعو العم كازما ؟

— ما الذى قلته ... قلت له أن يغير غطاء الخوان

— خبرينى الحق ... وإلا قتلتك

وأخذه الغضب فجذبها من شعرها بقوة آلمتها

— إنك لا تبغي سوى الشجار ... يا إلهى كيف أخلص من تلك الحياة ؟

— كيف تخلصين من هذه الحياة ... ؟ قالها وقد احتدم غضبه المتوقد

— أجل . لماذا تنابزنى بالألقاب ... وترمينى برميّاتك الباطلة ؟ ماذا أفيد من حياة كهذه ... ؟

ولم يدعها تتم كلامها بل انقض عليها يوسعها صفعاً وركلاً ، وهو كلما أغرق فى ضربها أغرق فى حنقه ونقمته عليها ، وهي بين ذراعيه تتخبط كالطائر فى القفص ، تتلق لكماته بيديها ،

رتستدفع ذراعيه بذراعيها ... وبين ذلك تيقظت الطفلة على الجلبة وهرعت إلى أمها ، فجمحت به نوازى غضبه فرفعها ورماها فى أقصى الغرفة بكل ما وسعت قواه ، فأخذت الطفلة تصيح لحظة أو لحظتين ، ثم تخافت بكاؤها وخمدت أنفاسها

وأقبلت والدته العجوز تستطلع جلية الأمر وقد تهدل شعرها الرمادى الجثل ، وهرعت إلى الطفلة دون أن تتعالم الخبر من كورنى وحملتها بين ذراعيها ، وكان كورنى جامداً فى مكانه يتنفس فى ثقل ، وقد جهده الصراع ، وهد من قواه ، وصاحت العجوز :

— أنظر ماذا أنزلت بالطفلة ... لقد كسرت ذراعها

لكن لم يبد على كورنى أنه فهم شيئاً ، واستدار على عقبيه وخرج من الحجرة حتى بلغ ساحة الدار ، وكان الظلام غاشياً على الكون ، والجليد يسّاقط فيذوب على وجهه المتقد ، وطفق يأكل ما علق بالسياج من الجليد كأنه يطفئ به لاهب حناياه وضارم قلبه ... وكانت الريح تردّ إليه من جهة المنزل أصداء بكاء الطفلة فيخيل إليه أنها صادرة من أفق ناء عنه

وأخيراً هب كورني من مجلسه ودخل غرفته. فأسرج ثم أخذ يرتدى ثيابه . فلما فرغ منها انتقل إلى الغرفة الأخري ، فأيقظ الغلام اليتيم ليسرج له الفرس

وكان الفجر قد أفصح عند ما امتطى كورنى صهوة فرسه ومضى فى الطريق الذى جاء منه أمس فى صحبة كازما

وبلغ كورنى المحطة قبل تحرك القطار ببضع دقائق ، فارتمى لاغباً على مقعد العربة ، ثم صفر القطار وتحرك ، ثم غاب ... فغاب معه كورنى

— ٢ —

سبعة عشر حولاً تقضت

وكان الوقت خريفاً وشمس الطفل الغاربة تلملم مطارفها المنضّرة المذهبة عن المروج ، وقطيع السيد أندريف فى طريق العودة وهو ينقر الطريق بأظلافه نقرات منتظمة رتيبة تثير فوقه من النقع مايلبد الجو ويغشي على العيون .. وكان يماشى القطيع فى المقدمة شيخ واهن أشيب الشعر تنوس خصلاته الغزار على عطفيه ، وعلى متنه حقيبة عتيقة ؛ وكان القطيع قد جازه إلى النصف فبدت راعيته الحسناء تحث الخطى فى جنباته منتقلة من جانب لجانب إلى أن بلغت ذلك الشيخ فحيته فى عجلة وسألته فى عطف : لعلك غريب عن الناحية يا سيدى ... وأظنك في حاجة إلي مكان تقضى فيه الليل ... فلا تقصد غير دارنا ... الثالثة من أقصى البلدة ، وهناك كنّتى وهى عجوز مثلك وستلقاك بكل ترحيب

— الثالثة من أقصى البلدة ؟ أظنها دار « زينوفيف »

— ومن أين عرفت ؟

— لقد كنت هناك

وأسرعت الفتاة إلى مؤخرة القطيع تستحث حملاً صغيراً ذا ثلاثة أرجل ليلحق برفقته

أما الرجل الشيخ فقد كان كورنى فاسيليف ، وأما الراعية الحسناء فكانت ابنته أجاشا التى كسر ذراعها من سبعة عشر عاماً وكانت قد تزوجت فى قرية صغيرة تبعد عن « جابى » قرابة أربعة أميال

وتحول كورني من ذلك الرجل ذى الحول والطول والثراء ، إلى ذلك الرجل ذى الاطمار البالية

والأعصاب الواهية، والجسم الهازل الوهنان، وهو كلما أمعن في السقم أمعن في التثبت والتيقن أن زوجته هي التي جرت عليه ذلك العذاب الأليم المقيم

في ذلك المساء الذي نشب فيه الخلاف بينه وبين زوجته وخرج هائماً على وجهه مرّ في طريقه بذلك الريفي صاحب الأرض المبيعة، فعلم منه أنه تم بيعها لآخر، فقصد إلى موسكو وهناك استباه الشراب وأصباه، فتلبث يعاقر الخمر ليل نهار حتى علقته وعلقها ... ثم ابتاع قطيعاً من الغنم ولكنه هلك عن آخره، وأتبعه بآخر ولكن جده تعثر به هذه المرة أيضاً، فلم يبق في يده من الثلاثة الآلاف روبيل إلا خمسة وعشرون

وتلمس كورني طريق العمل فاشتغل كاتباً في مزرعة، ولكن الخمر استلبت عقله فلم تدعه في عمله طويلا ... وانتقلت به الحال من سيء إلى أسوأ ... فاشتغل راعياً ولكن طالعه العاثر لزمه هنا أيضاً فنفق القطيع عن آخره لداء انتابه ... ولم يكن لكورني ذنب في ذلك ولكن صاحب القطيع جمح به الغضب فطرده من عمله هو والكاتب

وأخذ كورني يطوف بالبلاد بائعاً متجولاً حتى انتابته حمى مستعصية وهى لها جسمه ووهنت أطرافه، وليس ثمة معين له أو مقيل في غربته ... فقر به العزم أن يصل السير إلى موطنه عسى أن يكون الموت قد أودى بزوجته فيعيش بجانب ولده ما تبقى من العمر. ومضى يقول لنفسه:

— علها قضت نحبها الآن ... فإن لم تكن فسأمضي لأخبرها ما ذا جرّت عليّ من البلاء والهوان

واشتدت عليه الحمى في الطريق فأضوته وأهزلته وتولته الأناة في سيره وسراه، حتى بلغ في أسبوعين المكان الذي قابل فيه ابنته دون أن يتعرّف عليها

— ٣ —

وفعل الشيخ كما قالت له الفتاة فمضى إلى المنزل وسأل أهله عما إذا كان هناك ما يحول دون قضاء سواد ليله في ضيافتهم فرحبوا به وأنزلوه على الرحب والسعة ... وقالت له ربة البيت العجوز:

— إنك وشيك أن تتجمد أيها الشيخ ... فها هو ذاك الموقد أمامك

ورحب به زوج أجاشا الشاب وكان يسرج المصباح في ركن الغرفة؛ وطفق الشيخ يخلع ثيابه المنداة ليجففها، وبعد برهة أقبلت أجاشا فسألت عن الشيخ قائلة:

— أورد عليكم شيخ غريب؟

— ها هو ذا

وكان كورني جالساً قبالة المدفأة يمرس أطرافه المرضوضة ويبسط أنمله فوق النار. ولما حلّ موعد الشاي دعوه فلبى، وجلس على طرف المقعد، وأخذوا يتساجلون الحديث عن الجو والزراعة والقمح الذي استأنوا في حصاده لجفاف الجو

وخرج كورني من صمته قائلاً: إنه مر في طريقه بكثير من المزارع المبكرة الحصاد ... والتفت فجأة إلى الفتاة قائلا:

— ما ذا أصاب ذراعك ... لماذا لا تحركينها؟

فتولت عنها ربة البيت الجواب قائلة:

— إنها كسرت ولم تزل وليدة في المهد

— ولكن لماذا؟

— كان والدها رجلا من أثرياء جابي يدعى

كورنى فاسيليف ، كان فى عيش رغد مع زوجته ولكنهما اشتجرا ذات يوم ... فجنيا على طفلتهما المسكينة ...

وارتجفت يد كورنى بكوبة الشاى فأراق نصفها قبل أن تصل يده إلى المنضدة ليضعها

— ولكن لماذا فعل ذلك ؟

— من يعلم ؟ كثيراً ما تدور الإشاعات الباطلة حولنا نحن النساء ... يقال إن سبب الخلاف أنها استخدمت عاملاً جديداً من بلدتنا هذه ، وقد مات بعد ذلك بسنين قلائل ... وسأل كورنى فى ذهول :

— مات ؟ !

— منذ أمد طويل ... لقد كانت العائلة فى خفض من العيش عند ما كان عائلها حياً

— أمات هو أيضاً ؟

— نرجح ذلك ... فقد اختفى من زهاء خمسة عشر عاماً . فقاطعتها أجاشا :

— أظن أن عهد اختفائه أبعد من ذلك ... فقد أخبرتنى والدتى أنه اختفي ولم أزل فى الرضاع فقال كورنى :

— أأنت ناقمة عليه لأنه كسر ذراعك ؟

— وكيف أنقم عليه ... ؟ إنه أبى قبل كل شيء ... أأصب لك قليلاً من الشاى ؟

ولكن كورني كان مستغرقاً فى صمته تتتابع أنفاسه . فسألته :

— ماذا طرأ عليك أيها الشيخ ؟

— لاشيء ... يحفظك الله

وقام الشيخ يتحامل على نفسه ، ويتساند إلى الحائط حتى بلغ الموقد فجلس تجاهه صامتاً

— ٤ —

وأفصح فجر اليوم التالى عن صباح ماتع من أصباح الخريف فتيقظ كورنى وجمع متاعه ويمم شطر الباب فلحقت به ربة البيت قائلة فى دهش :

— أما تنتظر الإفطار ؟

— يحفظك الله ... يجب أن أذهب الآن

— إذن لاتنس أن تمر علينا فى طريق عودتك

فتمتم شاكراً ثم مضي فى سبيله إلى بلدته ، وكانت عواصف الخريف قد تنبهت من غفلتها ، وهبت من رقدتها ، فعصفت بأسماله ، وغشّت على عينيه ؛ ولكنه كان يعلم الطريق جيداً ، فأخذ يتتبعه دوحة بعد دوحة ، ونهجاً تلو نهج ، وأخيراً بلغ البلدة فإذا كل شيء فيها كما هو العهد به ، إلا القليل من مبانيها الذى خر من عَمَده ، وتداعى من أواسيه

وأدناه السير إلى داره ، فإذا بها على حالها لم يعبث بها البلى ... وعلى حين اقترابه منها فُتح الباب فجأة ، وخرجت منها فرس صغيرة فى قرابة الثالثة من عمرها فادّكر كورنى فرسه التى شيعته إلى المحطة فى سفره ، فقال محدثاً نفسه :

— لابد أن تكون تلك ابنتها ... ففيها من أمها شبه فى صدرها الرحيب وقوائمها الدقاق

وكان يتولى مقادة الخيل إلى نهلها غلام أسود العينين هازل الجسم

— إنه حفيدى ولا شك ففيه من ولدى عيناه السوداوان

وأخذ كورنى يصّعد الدرج في هوادة وتؤدة حتى بلغ الدرجة التى جلس عليها ليلة أن برح البلدة ، وإذ ذاك طرق أذنيه صوت امرأة تصيح :

ومن هذا الشحاذ المتجرئ على الصعود إلى الدار دون أن يسأل ؟ وعرف فى الصوت صوت امرأته ... ونظر فإذا على مرمق طرفه امرأة ضامرة عجوز ... وكان كورنى يتوقع أن يرى امرأته فيما كانت عليه من جمال وزُهرة ، فإذا به حيال امرأة قد خدّش وجهها ظفر الزمان .. وصاحت المرأة :

— لاشئ عندنا ... يمكنك أن تأكل النافذة إذا شئت

— إننى لم أقدم لأسألك شيئاً

— ما الذى تريده إذن ؟

وتوقفت فجأة عن الحديث وتبدى فى وجهها كأنها عرفته

— إن هناك كثيراً من السآلين أمثالك ... يحوّمون حول القرية كل صباح فاذهب ... اذهب !

وتداعت أطراف كورنى فتساند إلى الحائط وقد بهت لونه ووجف قلبه وقال فى خفوت :

— مارفا ... لم يبق لنا من الحياة إلا شطر قليل

— أرجوك أن تذهب ... إذهب

— أليس عندك مزيد من القول ؟

— كلا ... ليس عندي مزيد ... فاذهب لشأنك

وبخطى وئيدة تدافعت إلى الخلف وغلّقت عليها الباب ، وفى هذه اللحظة ارتفع صوت رجل من الداخل يقول :

— لماذا تطردين الشيخ ؟

وبرز من الباب شاب فارع القامة ، مستقيم العود أسود العينين ... كان يلوح كأنه كورنى من أربعين حولاً خلت ... ولم يكن ذلك الشاب إلا ولده « فيدكا » الذي خلفه من سبعة عشر عاماً وليداً فى المهد ... قال الشاب :

— لحظة أيها الشيخ ... ثم ارتد إلى المنزل

وتلبث كورنى فى مكانه مثنىّ العنق ، مسنداً إلى الحائط ، متهدّل الجسم ، وقد خفت وجيبه وعاوده الضعف ... وخرج إليه بعد برهة شاب تلوح فى محياه الدلة ... عرف فيه ذلك اليتيم الذي كان يكفله ... وتقدم إليه الشاب يبضع لقيمات جافة ، فأخذها كورنى من يديه وهو يعالج حبس دموعه التى ندّت وجهه

واستدار كورنى وأخذ ينزل من الدرج ماصعد ، وهو يتكفأ ويساقط فى خطاه ... ومضى في سبيله حزيناً واهنا

وتلبثت مارفا تسارقه النظر من خلف سِجاف النافذة حتى غاب فى منعطف الطريق ... وعطفتها الذكريات إلى الماضي فذكرت كورني الشاب الذي ودها وودته ... إنها ما كان لها أن تلقاه فى هذا الجفاء بعد غيبة طويلة ... وتشعبت بها الأفكار ونثالت عليها فمضت تنفضها عنها بالتلهي بالعمل

— ٥ —

وبلغ كورنى دار ابنته بعد لأىٍ وجهد فقالت له :

— إنك لم تذهب بعيداً ياسيدي

— لم أستطع .. فقد وهنت قواى .. سأرجع أدراجى .. أيمكننى أن أقضى الليل هنا ؟

— بكل سرور

وقضى كورنى ليلته فى صراع الحمى ، ساهد الجفن ، نابىَ المضجع ، حتى وضح النهار وغدا كل إلى عمله ، ونظر فإذا أجاشا تعد الخبز على غير بعيد منه فناداها فى عطف فأجابت :

— لحظة واحدة ياسيدى ... أتريد شيئاً ؟

ولكنه لم يجب ، وأقبلت إليه ، وكان متطرحاً على ظهره ، فقال دون أن يرفع إليها الطرف

— أجاشا ... لقد حانت منيتي ... فبحق السماء أسألك الصفح عني

— صفح الله عنك يا سيدى ... ولكنك لم تفعل ما يستوجب الصفح فاستدمع الشيخ ثم قال

— بل هناك ما يستوجب ذلك ... إذهبي إلى والدتك ... وقولى لها ... وقولى لها ... إن ذلك ... الغريب ... إن ذلك ... الغريب

وأخذ الشيخ ينشج ، فقالت ابنته :

— إذن لقد ذهبت إلى دارنا أمس

— أجل ... قولى لها ... واستجمع الشيخ ما تشتت من قواه ، ثم قال :

— إن ذلك الغريب قد أتى يستودعك الله

وأخذ الشيخ يبحث فى جيوبه بيده الراجفة فسألته :

— عم تبحث يا سيدى ؟

ولكنه كان مستعبراً واجماً فلم يجب ... وأخرج من جيبه بطاقة صفراء صغيرة قدمها إليها قائلاً :

— أعطيها هذه إذا سألت عن ذلك الغريب ... إنها بطاقة الجندية ...

ثم غارت عينا الشيخ ، واصفار وجهه ، وهمس إليها قائلاً :

— أعطيني شمعة

فتناولت قطعة من الشمع وأوقدتها وأعطتها للشيخ وهي تكاد تسقط من التأثر ... ثم ذهبت لتحفظ البطاقة

... وعادت أجاشا فإذا الشيخ جامد في مكانه وقد جمدت عيناه ، وتصلب عوده ، ويبست يده على الشمعة فنادته ... ولكنه كان قد أسلم الروح ...

فأطفأت الشمعة ، ونشرت على وجهه غطاء أبيض

* * *

وقضت « مارفا » الليل لا يغمض لها جفن ولا يقر بها مضجع . فلما انحسر الليل عن جبين النهار تأزرت وخرجت تبحث عن ذلك الغريب ، فلما بلغ منها السعى ، علمت أنه آوى إلى منزل « أندريف » فيممت شطره ومضت تقول لنفسها فى الطريق فليصفح كل منا عن الآخر ، وليقض ما بقى من العمر فى جوار ولده

ولما تدانت مارفا من المنزل رأت جمعاً من الناس قد تحشد على الباب وهم يتخافتون بينهم أن كورنى فاسيليف ، ذلك الرجل الثرى الذى غادر القرية من سبعة عشر عاماً ، يسلم أنفاسه فقيراً فى منزل ابنته

وأقبلت مارفا على المنزل ، فأفسح القوم لها الطريق ولكنها لم تكد تتوسط الدار ، حتى وقع نظرها على جثمان كورنى ممدداً جامداً

إنها وردت مستأنية مبطئة لتسأله الصفح أترى صفح عنها ... وخفضت نظرها إلى وجهه تتلمس فى قسماته جواب سؤالها ... ولكن وجهه كان أملس لا يتماسك عليه إيجاب ولا سلب

القاهرة « فتحى »

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل الأول

قدمنا إلى باريس مصممين على الرحيل منها إلى سفر بعيد . فأقمنا فى منزل خاص لنعدّ ما نحتاج إليه ، وكأن تصميمنا على مغادرة فرنسا بدّل كل شيء في نظرنا فعاد إلينا الفرح والأمل والثقة مرة واحدة ، وتبدد الحزن من حولنا ، وقضت فكرة الانتقال القريب على كل مشاكسة وجدال

واستغرقنا فى أحلام سعادتنا وأصبحت لا أنقطع عن ترديد أغلظ الأقسام بأننى لن أتحول عن حبي ما عشت موجهاً كل عنايتى إلى إنساء خليلتى كل ما حملتها من شقاء وأوصاب . وما اكتفت بريجيت بإنالتى عفوها ، بل أظهرت أنها لا تتردد فى تضحية كل ما عزّ للّحاق بي ؛ وهكذا رأيتنى مدفوعاً بدافع الإنصاف إلى مبادلتها إخلاصها بمثله ، فتغلب حبي لبريجيت وإعجابي بها على ما بقلبي من جامح النزعات

وانحنت يوماً على (الخريطة) مفتشة عن مكان نتوارى فيه ، وما كان وقع اختيارنا على مكان موافق بعد ، وكنا نطيل التردد متلمّسين في الحيرة لذة جديدة ونحن مكبان على الرسوم يصدم جنبي جنبها ويطوّق ذراعى خصرها ، فتسألني وأسألها عن مكان عزلتنا ، وعما سنفعل فى حياتنا الجديدة

بأى بيان أوضح ما كان يخالجنى من ندم على ما فات عند ما كنت أرفع رأسى متأملاً في هذا الوجه الشاحب الحامل آثار الآلام الماضية ، وقد أنارته ابتسامة الأمل . وكنت أنصت إلى كلماتها العذبة تصور ماسنكون عليه فأتمنى أن أريق دمى فداء لها

أى أحلام المنى ! لعلك أصدق سعادة نتمتع بها فى هذه الحياة

ومضت سبعة أيام ونحن نفتش عن مأوى لنا ونتجول فى المدينة لابتياع ما نحتاجه لتزيينه ؛ وفى اليوم الثامن طرق بابنا شاب لا أعرفه يحمل رسائل لبريجيت ، وبعد أن قابلها وانصرف رأيتها حزينة واهية القوى ، وما عرفت عن هذه المقابلة سوى أن الرسائل واردة من المدينة التى كنت تبعت بريجيت إليها لأملى لها غرامى حيث يقطن أقرباؤها

وأعددنا فى زمن وجيز كل ما احتجنا إليـه ، فأصبحت مأخوذاً بفكرة الرحيل ، وقد تولانى منها تمثل منع كل راحة عنى ، فكنت أنهض من فراشى مبكراً وأدخل إلى غرفة بريجيت ماشياً على رؤوس أصابعى متحاشياً إيقاظها لأجثو أمام سريرها ، حتى إذا أفاقت رأتنى شاخصاً إليها ، وقد بللت أجفانى الدموع ؛ وما كنت أدرى أية وسيلة أتخذ لأثبت لها إخلاصى فى ندامتى ؛ فتجاوزت حدود الأعمال الجنونية التى لامستها فى غرامى الأول ، وأصبحت أستوحى غرامى الجامح كل عمل يتجه إلى الشطط والإفراط ؛ فتحول عشقى إلى نوع من العبادة ،

فكنت كلما دنوت منها أنسى أنني مالكها منذ ستة أشهر ، ويخيل إلى أنني أراها لأول مرة فأكاد لا أجسر على لمس أدرانها وهى مَنْ حملتها من فظاظتي مالا يُحتمل . فإذا تكلمت ارتعشت كأنني أسمع صوتها لأول مرة ، ويدفعني الهوس إلى الارتماء على أقدامها منتحباً ، أو إلى الاستغراق فى الضحك دون ما سبب . وكنت إذا ما تذكرت معاملتي الماضية أشعر باشمئزاز وأود لو أن على وجه الأرض هيكلاً للحب أذهب إليه فأعتمد في مائه المقدس ، وأرتدى مسوحه فلا أخلعها إلى الأبد

ومثلت لخيالي اللوحة التى رسم فيها تيتان مشهد الحوارى توما يلمس بأصبعه جرح المسيح فرأيتني أشبه هذا الحوارى إذا صح وجه الشبه بين حب الانسان وإيمانه بربه ! إن فى ملامح توما وهو يسبر الجرح ما يصعب تحديده من عاطفة تتراوح بين الشك والايمان فتلوح لك كلمة التجديف الحائرة كأنها تذوب على شفتى الحوارى ، وقد ارتفعت منهما كلمة الصلاة ، فلا تعلم أجاحد هو أم رسول ؟ ولا تدرى إذا كان بلغ فى ندمه ما بلغه من كفره . ولعل هذا الحوارى نفسه لم يدرك كما لم يدرك الرسام ولم يدرك الناظر إلى الرسم هذا السر الغامض الذي ترف عليه من المخلّص ابتسامة كأنها التماع الندي تحت شعاع الرحمة والحنان

وما كنت أقف أمام بريجيت إلا مثل وقفة الحوارى توما ، وقد حكمنى الصمت وتولتني الدهشة فأرتجف فرقاً خشية أن يكون ما تبدّل من حالى قد دفع بسريرتها إلى الارتياب بى ، ولكن ما مرت علينا خمسة عشر يوماً حتى نفذت بصيرة بريجيت إلى ما يدور فى خلدى فأيقنت أنها استنبتت باخلاصها إخلاصى ، وأن صفاء نيتى قد نشأ من مجالدتها وصبرها فما وسعها إنكار المعلول والعلة لا ريب فيها

وكانت الحوائج ومجموعات الصور والأقلام والكتب والرزم تملأ الغرفة وقد نشرت عليها الخريطة التى استولت على كل جوارحنا . وكنت أذهب وأجيء فى هذه الغرفة لأقف أمام بريجيت وأنطرح على أقدامها فتصفني بالكسل وتقول إنها لا تجد بداً من القيام لوحدها بالأعمال جميعها ما دمت أنا لا أنفع لشيء

وبينما كانت ترتب الحقائب وتقفلها كان الحديث لا ينقطع بيننا عما ننويه لسفرنا ، فكنا نقول إن سيليسيا على بعدها معتدلة الجو فى فصل الشتاء . إن جنوا جد رائعة بما وراءها من جبال وما فيها من حدائق انبسط الاخضرار على أعراشها ولكنها مكتظة بالناس ، يملأها الصخب ، ويقلقها الضجيج ؛ وإذا مرَّ فى أسواقها ثلاثة رجال فلا بد أن يكون فيهم راهب وجندى . إن فلورنسا حزينة ولا تزال معرضاً لحياة القرون الوسطى فكيف نحتمل مشاهدة نوافذها المحترقة وجدرانها القذرة ؟

أما روما فما شأننا بها وما نحن من السائحين الذين يتوقون إلى الغرائب أو يطلبون العلم ؟

أفما يجدر بنا أن نذهب إلى ضفاف الرين ؟ ولكننا لن نصل إليها إلا بعد انقضاء الموسم ، ويصعب على الانسان أن يقيم فى الأماكن المهجورة

أما أسبانيا فحركتها مستمرة وعلى مرتادها أن يعيش فيها كما يكون فى ساحة حرب فيتوقع مصادفة كل شيء ما عدا الراحة

لنذهب إذن إلى سويسرا مقصد العدد الغفير وإن لم ترق لبعض الناس ، فهنالك يتجلى أروع

ماخلق الله من الألوان : هنالك زرقة السماء وخضرة السهول وبياض القمم العالية

وصاحت بريجيت : هيا بنا ! لنطر كغردين فى الأجواء ، وليقم فى ذهننا أننا لم نلتق إلا منذ أمس الدابر فى أحد المراقص فأعجبت بك وأعجبت بى . ولسوف تقصّ على بعد أن نبتعد أميالا أنك فى القرى الصغيرة عشقت امرأة تدعى مدام بيارسون فلا أصدق شيئاً مما ستسرده عنها إذ لا أريد أن تسرَّ إلىّ بما وقع بينك وبين امرأة هجرتها لتتبعني . ولسوف أقول لك أنا أيضاً إنني منذ أمد غير بعيد أحببت رجلا ذا أخلاق سيئة حملت الشقاء من صحبته فتسمعني كلمات الاشفاق وتلزمني السكوت ، وهكذا نطوى إلى الأبد تلك الصفحة القديمة

وعند ما كانت بريجيت تتكلم بمثل هذا كنت أشعر بجشع الحريص وارتياعه ، فأضمها إلى صدرى بساعدين يرتجفان ، وأنا أهتف قائلاً إننى لا أعلم ما يوجب ارتعاشي أفرحى أم خوفى ؟ سأحملك إلى بعيد يا بريجيت ، لأنك كنزى الوحيد فتكونين لى تحت هذه الآفاق الوسيعة . هيا إلى الأمام ولتمت ورائى أيام شبابى وتذكاراتى فتضمحل معها آلامنا وأوصابنا

أى خليلتى لقد حوّلت بصبرك الولد رجلاً فإذا ما تخليت عنى الآن يمتنع علىّ أن أحب بعد

من يدرى ؟ لعل امرأة غيرك كانت ستتولى معالجتى لو لم تعثرى علىّ . أما الآن فأنت وحدك فى العالم المرأة التى بيدها إنقاذي وهلاكى لأننى أحمل على قلبي وسمَ جميع ما حملتك إياه من عذاب . لقد كنت عاقًا فعميت بصيرتى وقسوت عليك ، وإننى أشكر الله لأنك لا تزالين تحبيننى ، فإذا ما عدت يوماً إلى القرية التى رأيتك تحت أشجارها فتطلعي ملياً إلى ذلك المسكن المقفر ، إنك لواجدة فيه طيفاً يتوه في أرجائه ، ذلك هو الرجل الذى دخل إليك من باب هـذا المسكن فبقى فيه ، لأن الرجل الذى خرج معك منه إنمـا هو رجل آخر .

وكان جبين بريجيت يشع بنور الحب ، وتلتفت إلى السماء قائلة : أصحيح أنى لك وأننا سنبتعد عن هذا العالم الذى أهرمك فى شرخ شبابك . إنك ستعرف ما هو الحب فتنجلى أمامى حقيقة نفسك ؛ وإذا وهنت محبتك لى يوماً أيان يستقر بي الترحال فإنك لن تتملص من تبكيت ضميرك لأنى أكون قمت بالمهمة التى قدرت على ؛ فإذا ماتخليت عنى أجد في السماء إلـهاً أوجه إليه شكرى على ما أولانى من نعمته .

إن هذه الكلمات لم تزل تصـدو فى جوانب تذكارى فتملأ نى حزناً وروعة .

وأخيراً قررنا أن نسافر إلى « جنيف » فنختار لنا مسكناً هادئاً على منحدر جبال «الألب» فبدأت بريجيت تذكر البحيرة الجميلة فأحسبنى أنشق النسمات التى تعقد زرداً على سطحها حاملة عطور أزهار الوادى ، فكنا نشاهد بعين الخيال « لوزان » و« ڤيڤى » و « أوبرلن » ووراءها قمم الجبل الوردى الذي يفصلها عن سهول « لومباردى » الواسعة ، فكأننا كنا نسمع فى هـذه الأماكن هتاف السكينة وهمسات أرواح العزلة تدعونا إليها لإغراق حياتنا فيها

وعند ما كان يحين المساء وأربت على أنامل

ريجيت بأناملي كنا نشعر كلانا بشيء من التسامي يقصر البيان عنه ، وما هو إلا عاطفة كل قلب يستعد للرحيل ، فتتنازعه روعة الابتعاد وآمال ما يتوقع مشاهدته فى سفره

إن فى فكر الانسان أجنحة خافقة وأوتاراً ناطقة تمثل الألوهية فيه، فاذا ما استعد للرحيل ينتصب فيه عالم جديد كأنه خلق فيه خلقاً

وما عتم حتى ظهرت على ريجيت دلائل الشحوب فأضبحت صامتة تحنى دائماً رأسها ، وإذا ما سألتها عما بها تجيب فى صوت خافت أنها لاتشعر بشيء . ونبهتها يوماً إلى قرب ميعاد السفر فنهضت متخاذلة لتتمم معدات الرحيل ؛ وأردت أن أشدد عزمها بتأكيدى لها أنها ستاقى السعادة وأننى سأكرس لها حياتي فلجأت إلى ذرف الدموع ، وقبلتها فعلا وجهها الشحوب وأعرضت بعينيها عنى تاركة شفتيها لشفتى ، وقلت لها إن بوسعها العدول عن الرحيل .فقطبت حاجبيها

ودعوتها إلى إعلان ماتضمر مكرراً لها أقسامي بأننى سأضحى حياتى لتأمين سعادتها فارتمت على عنق غير أنها لم تلبث حتى دفعتنى عنها وهي لاتعي

ودخلت يوماً إلى غرفتها حاملا ورقة السفر بالعربة التى تتجه إلى « بزانسون » وإذ اقتربت منها واضعاً هـذه الورقة على ركبتها رفعت ساعديها وصرخت ثم سقطت مغمى عليها على قدمي

الفصل الثانى

وحاولت عبثاً معرفة ما دعا ريجيت إلى هـذا الانقلاب الفجائى ، فكانت تصر على السكوت وهى عليلة . وأمضيت يوماً كاملاً فى التوسل إليها ذاهباً فى ظنونى كل مذهب حتى عيل صبرى ، فطفرت إلى الشارع تائها ولا وجهة أقصدها ، حتى إذا وصلت إلى الأوبرا اعترضنى شخص عارضاً على تذكرة دخول فأخذتها منه ودخلت المسرح وأنا لا أعى

جلست مشرّد الفكر لايسترعى نظري شيء ، فقد كانت بصيرتي المستغرقة فى ذاتها تموّه على بصرى فتمحو كل مرأى حولي وقد انصبت على فكرة واحدة كلما زدتها إمعاناً ازدادت غموضاً وإبهاما

ما هو هذا الحائل الذى انتصب فجأة على سبيل آمالنا فتعثرت به وتبددت ؟ إذا كان هنالك كارثة من فقد ثروة أو موت صديق فما يدعومثل هذا إلى التكتم والاصرار على السكوت . إن ريجيت لم تدخر وسعاً لتحقيق أمانينا فما يكون هذا السر الذى يذرو سعادتنا هباء ولا يسعها إعلانه ؟

أصحيح أن ريجيت توصد سريرتها دونى ؟ ما الذي يدعوها إلى كتمان أمرها إذا كان لها من حزنها أو ترددها أو غضبها ما يوجب إرجاء رحيلها أو العدول عنه ؟

وما كان قلبي وهو السادر في هواه ليخامره ريب فى إخلاص ريجيت فاذا لاحت لى فكرة تستدعى لومها ردها هذا القلب متمرداً بعد أن رأى من ثباتها وولائها ما رأى . وهكذا وجدتني تائها فى وهاد أظلمت آفاقها وخفيت عنى مخارجها

ولاح لى على أحد المقاعد المقابلة شاب لم تغرب سيماؤه عن تذكاري ، فحدقت فيه وشرود فكرى يحول دون تحديدي لشخصه وقرن هيئته باسمه .

وبعد شخوص مديد عرفت فجأة أنه الشاب الذى حمل إلى بريجيت الرسائل من مدينة « ن » حيث يقيم أنسباؤها ، فنهضت مسرعاً دون تروٍ قاصداً مخاطبته ولكننى رأيت أن لابد لى من اجتياز عدد وفير من المقاعد للوصول إليه فاضطررت إلى الانتظار ريثما ينزل الستار . وخطر لى أن هذا الشاب دون سواه يمكنه أن يرسل نوراً على ظلمات شكوكي لأنه قابل مدام بيارسون مراراً عديدة منذ أيام ، وكنت أراها بعد كل مقابلة معه حزينة قلقة وكانت قابلته فى صبيحة يوم اعتلالها . وما أطلعتني بريجيت على الرسائل التى وردت إليها فقد يكون هذا الشاب إذن عارفاً بالسبب الذى دعا إلى تأخير رحيلنا وإذا كان لايعرف هـذا السبب فهو على الأقل يعلم ما تضمنت الرسائل . وكنت أرى فى اطلاع هذا الشاب على أمورنا ما يجرئنى على استجوابه ، لذلك سرنى الالتقاء به ، وما أسدل ستار المسرح حتى سارعت إلى اللحاق به فى الممشى ؛ ولكنه اندفع دون أن أعلم إذا كان رآنى أم لا ، وتوارى فى إحدى الشرفات فوقفت أنتظر خروجه ربع ساعة حتى إذا فتح الباب رأيته خارجاً فهرعت نحوه رافعاً يدي بالسلام ولكنه بعد أن مشى بضع خطوات متردداً أدار ظهره فجأة وانحدر على أحد السلالم واختفى .

وما كانت حركتى لتخفى على هذا الشاب فقد أدرك ولا ريب أننى قصدت مخاطبته ، فهو إذن قد أراد اجتناب هذه المخاطبة ، وما كان له أن ينسى هيئتى ، وهب أنه لم يعرفنى فليس من المألوف أن يولى الانسان الأدبار أمام من يسير نحوه . وما كان فى الممشى أحد سوانا عند ما اتجهت إليه فلا ريب إذن فى أنه تهرّب من مقابلتى

وما خطر لى قط أن هذا الشاب تعمّد إهانتى بما فعل لأنه كان يزورنا كل يوم فألقاه بالترحيب فضلاً عن أنه كان بسيطاً متواضعاً وليس فى خلقه شيء مما يبرر الظن بسوء قصده فهو إذن أراد التخلص من محادثة رآها مرهقة له . وهكذا قادنى التفكير إلى اضطراب أشد إذ تحققت وجود علاقة لاريب فيها بين تهرّب هذا الشاب وإصرار بريجيت على السكوت

ليس فى العالم عذاب أشد على الانسان من الارتياب . ولكم تعرضت للمصائب فى حياتى لأننى ملت إلى الشكوك فاستبقت الحادثات

وعدت إلى المسكن فرأيت بريجيت مشغولة بقراءة هذه الرسائل المشئومة ؛ فقلت لها إننى علت صبراً فلن أطيق بعد الآن بقاءً فى هذا المأزق الذى يبلبل أفكارى ، وأعلنت لها إصرارى على معرفة ما أدى بها إلى هذا التبدل قائلاً : إنها إذا استمرت على الصمت أعتبر صمتها كرفض صريح للرحيل معى بل كأمر تصدره إلىّ بالافتراق عنها إلى الأبد

فما وسع بريجيت تجاه هذه المهاجمة إلا أن تسلمنى — ودلائل الامتعاض بادية على محياها — إحدى تلك الرسائل ، فإذا أقرباؤها يقولون فيها إن رحليها سيصمها بالعار ، إذ لا يجهل أحد ما دعاها إليه ، وأنهم يجدون من واجبهم تذكيرها بسوء مصيرها لأنها تعيش معى نخليلة ، وأن عليها وإن

كانت حرة فى تصرفها كأرملة أن تحافظ على سمعتها وشرف الاسم الذى تحمله ، فاذا هى تمادت فى غيها فلا عتب لها عليهم وعلى جميع أصدقائها إذا هم قطعوا كل علاقة بها . وقد اختتم هؤلاء الأقرباء رسالتهم بإسدائها النصح للرجوع إلى بلادها

آلمتنى لهجة هذه الرسالة فلاح لى لأول وهلة انها لاتتضمن إلا إهانات وتقريعاً . فقلت لبريجيت لاريب فى أن الشاب الذى حمل إليك هذه الرسائل قد كُلِّف أيضاً بترديد ماورد فيها على مسامعك فهل تنكرين أنه يقوم بهذه المهمة ؟

ورجعت إلى الصواب كاسراً من حدة غضبي أمام بوادر الحزن التى ظهرت على وجه بريجيت وهى تقول : لك أن تفعل ماتشاء إلى أن تقضى علىّ إن حظى من الحياة بين يديك وأنت سيد هــذه الحياة منذ زمان بعيد وبوسعك أن تعدّ ما يحلو لك من انتقام تجاه هذه الجهود التى يبذلها أصدقائي القدماء بدعوتهم لى إلى سواء السبيل وبمحاولتهم إرجاعى إلى حظيرة المجتمع الذى كنت أحترمه من قبل والشرف الذي تعرّيت منه . ليس لى ما أقوله لك ، ولك إذا شئت أن تملى علىّ جوابى على هذه الرسائل فأصدع بأمرك

فقلت لها : إننى لا أطلب سوى معرفة ماتقصدين ومن سيصدع بالأمر إنما هو أنا لا أنت ؛ فقولي لي أتريدين البقاء أم الرحيل لأعلم إذا كان يجب على أن أرحل وحدي

فأجابت بريجيت : لماذا توجه إلى هذا السؤال ، وهل قلت لك إننى غيرت رأيى ؟ إننى متألمة ولا طاقة لى على السفر وأنا على هذه الحال فلا أنتظر إلا الشفاء ، أو على الأقل استعادة بعض القوى لأذهب معك إلى جنيف كما تم اتفاقنا

وافترقنا بعد هذه المحادثة وفى قلبي من برودة لهجتها من الحزن ما لم أكن لأشعر بمثله لو أنها أعلنت أنها لن ترحل معى

وما كانت هذه المرة الأولى التى حاول بها الناس بمثل هذه النصائح أن يفرقوا بيننا . غير أن بريجيت ما كانت من قبل لتأبه لمثل هذه المحاولات ، لذلك صعب علىّ التصديق بأن هذه الرسائل وحدها قد أثرت فيها هذا التأثير فى حين أن ما انطوت عليه من نصائح كانت قد بذلت لها من قبل أيام لم نكن بلغنا السعادة التى توصلنا إليها أخيراً . ووقفت أحاسب نفسى لأعلم إذا كنت أتيت فى باريس أموراً توجب إدانتى . ثم تساءلت عما إذا كان السبب فى هذا الانقلاب ما يطرأ على النساء من ضعف عند ما يقررن اقتحام أمر فلا يجسرن على تنفيذه ، أم إن هنالك ما يدعوه الإباحيون آخر مقاومة للعقائد الموروثة ، ولكن بريجيت كانت قد أمضت ثمانية أيام لا تنى خلالها عن التكلم عن أحلامها وعن حياتها المقبلة بكل صراحة وبكل إخلاص حتى أنها أصرت على الرحيل بالرغم منى فلا بد إذن من وجود سر فى الأمر ، ولكن أين السبيل إلى النفوذ اليه إذا كنت لا أتلقى جواباً على ما أوجهه إلى بريجيت من سؤال إلا على شكل لا يتفق والحقيقة ؟ وما كان بوسعي أن أكذبها طالباً منهـا إيراد جوابها بشكل آخر

إنها تعلن لي استعدادها للرحيل ، غير أن اللهجة التي تتخذها لهذا التصريح تدعونى إلى رفض ما تعلن قبوله ، إذ ليس لى أن أرضى بمثل هذه التضحية وقد أصبح قبولها فى عينى عبارة عن خضوع لأمر واقع أو استسلام لقضاء لا بد منه . وقد كنت أعتقد من قبل أن بريجيت تطاوع هواها لتتبعنى فاذا هى فى نظرى مكرهة على القيام بما عاهدت عليه ووعدت به ، وروّعنى أن أحمل بين ذراعى هذه المخلوقة الشاحبة لأختطفها من أوطانها وأذهب بها إلى أمد بعيد قد يطول مدي الحياة وما هى بين يدى إلا ضحية مستكينة

لقد قالت لى إنها ستفعل كل ما يحلو لى ، وما يحلو لى أن أكلف التجلد والصبر ما يزيد فى آلام القانتة الصابرة ، وأسهل على أن أذهب ضارباً فى مجاهل الأرض وحدى من أن أتحمل النظر أسبوعاً واحداً إلى هذا الوجه يقنع بالشحوب سره الدفين

ويلى ! أيوسعى أن أذهب وحدي ناكصاً على أعقابى بعد أن قطعت بخمسة عشر يوماً أجمل مراحل السعادة ؟ أنى لى هذا الإقدام وأنا لا أفكر إلا فى الوسيلة التى تمكننى من اختطاف بريجيت والرحيل بها ؟

ومرّ بى الليل الطويل ولم يغمض لي جفن ، حتى إذا لاح الفجر وجدتنى مصماً على مقابلة الشاب الذى رأيته فى المسرح ، وما عرفت أكان ما يدفعني إلى ذلك حاسة غضب ، أم حاسه فضول ؟ وما عرفت أيضاً ما أريد من هذا الشاب ، ولكننى وثقت من أننى سأتمكن من مقابلته فلا يتسنى له هذه المرة أن يتهرّب من ملاقاتى

وما كنت أعرف عنوان مسكنه ، فدخلت على بريجيت أطلب هذا العنوان قائلاً : إن الواجب يقضى علىّ بزيارة من زارنا مرات عديدة ، وما كنت أخبرتها شيئاً عن مصادفتى له فى المسرح ، فوجدتها مستلقاة على سريرها وعلى أجفانها بلل الدموع ، ومدت يدها إلى قائلة : ماذا تريد منى ؟

وكانت نبرات صوتها تتدفق مرارةً وحناناً

وخرجت من غرفتها بعد محادثة قصيرة مشبعة بالولاء وقد سقط عن قلبى بعض ما يثقل عليه

وعرفت من بريجيت أن الشاب الذى أقصد زيارته يدعى سميث ، وأنه ساكن على مقربة منا . ولما قرعت بابه ملكنى اضطراب شديد ومشيت إليه كأنني أقتحم نوراً شديداً ؛ غير أننى ما وقفت أمامه حتى جمد دمى فى عروقى لأنه كان منطرحاً كبريجيت على فراشه ووجهه شاحب كوجهها ، فمد إلىّ يده قائلاً ما قالت هى : ما ذا تريد منى ؟

إن فى الحياة من غرائب التصادف مايحير العقول

قعدت ولم أجب فكأننى استفقت من حلم ، وأنا أكرر فى سري السؤال الذي وجهه الشاب إلىّ لأنني ما كنت لأعرف ما أتيت أفعل لديه . وهب أن هذا الشاب مطلع على أمور تهمنى فهل هو مستعد لإعلان ما يكتم . لقد حمل الرسائل إلى بريجيت فهو لا شك يعرف مرسليها ، ولكن هل هو يعرف عن مضمونها أكثر مما أطلعتنى بريجيت عليه ؟ وصعب

عليّ أن أستنطق مضيفي وأصبحت أحاذر أن يرتاب فيما يمر بخاطري

وبدأنا الحديث بالمجاملات المألوفة فشكرته لقيامه بالمهمة التي كلفه إياها أنسباء مدام بيارسون وقلت له إننا عند ما نبارح فرنسا سنعهد إليه أيضاً ببعض المهام . ثم حكمنا الصمت كأن كلا منا لايدرى سبباً لوجوده تجاه الآخر

وأدرت لحاظي إلى ماحولى ككل حائر فرأيت في هذه الغرفة وهي في الدور الرابع مايدل على نزاهة ساكنها واجتهاده ، إذ لم يكن فيها سوى عدد من الكتب والآلات الموسيقية ورسوم إطاراتها من الخشب الأبيض وأوراق منضدة على خوان ومقعد قديم وبعض الكراسي ، غير أن جميع هذه الأدوات كانت مرتبة نظيفة يرتاح إليها النظر . ورأيت على رف الموقد رسم امرأة مسنة وإذ تقدمت لأمعن فيها قال لى إنها أمه

وتذكرت حينذاك أن بريجيت كانت حدثتني مراراً عن سميث فعادت إلى مخيلتي حوادث عديدة عن حياته لأنها كانت تعرفه منذ طفولته وكانت تراه أحياناً فى قرية أنسبائها ولكنها انقطعت عن زيارة هذه القرية إلا مرة واحدة منذ تعرفت إليها ، وهكذا عرفت صدفة ما عرفته عن حياة هذا الشاب الذي كان يشغل وظيفة صغيرة ليقوم بأود أمه وأخته منقطعاً عن اللذات من أجلهما ، وبالرغم من براعته فى الموسيقى لم يقتحم المجال طلبا للنجاح فى هذا الفن بل اختار حياة السكون مفضلاً خمول الذكر منتمياً بهذا إلى فئة قليل عديدها فى الحياة ترى من واجبها شكر المجتمع لعدم شعوره بها ولاغضائه عن مواهبها

وكنت سمعت عنه أموراً تكفي لتحديد شخصيته ومنها أنه كان تولّه بفتاة عاشرها سنة فرضي أهلها بتزويجه منها وكاد العقد يتم لولا أن أمه قالت له « وأختك من سيزوجها ؟ » ففهم من هذه الكلمة أنه إذا تزوج وحوّل جنى عمله إلى عائلته فان أخته تبقى بلا مهر ٍ وتحرم من الزواج ، فلم يتردد فى العدول عن زواجه مضحياً غرامه هاجراً بلدته ووجهته باريس حيث وجد الوظيفة التي يشغلها الآن . عند ما سمعت هذه الأقصوصة فى القرية تمنيت أن أتعرف إلى بطلها إذ رأيت فى هذا الاخلاص من العظمة ما يربو على أمجاد أعظم انتصار فى معارك الحياة

وعند ما تفرست فى رسم أمه خطرت لى هذه الحادثة فحولت أنظارى إليه وسألته عن سنه فأدهشني إعلانه لى أنه من سني ، فى حين أن سيماءه كانت تدل على أنه أصغر مني . وعند ما دقت الساعة الثامنة وقف وأراد أن يخطو إلى الأمام فرأيته يتمايل مضطرباً ، وإذ سألته عما به قال لى إن ساعة ذهابي إلى المكتب قد حانت ؛ غير أنه لا يجد فى نفسه القوة على السير إذ أنه يشعر بنار الحمى ويتألم ألماً شديداً ، فقلت له : لقد كنت فى عافية بالأمس عند ما رأيتك فى « الأوبرا » فقال : أعتذر إليك لأنني ما عرفتك . إنني أذهب إلى الأوبرا مراراً ، وأرجو أن أصادفك هنالك

وكنت كلما أمعنت الفكر فى حالة هذا الشاب وأدرت لحاظى فى غرفته أزداد تردداً فى تناول الموضوع الذى كنت أتيت لبحثه إذ لم يبق فى

خاطرى ما كان خامره من أن هذا الشاب أمكنه أن يدخل على ذهن بريجيت مايلحق الضرر بى ، بل رأيت فيه من دلائل الصراحة والجد ما أوقفنى موقف الاحترام أمامه، وما لبثت أن اتخذت أفكارى مجرى آخر وأنا أتفرس فى وجه رفيقي وهو يتفرس أيضاً في وجهى

لقد كان كل منا فى الواحدة والعشرين من سني حياته ، ولكن الفرق كان كبيراً بينى وبينه فهو الشاب المتعود الحياة المنتظمة المتحرك ضمن دائرة محدودة ، الذى لا يعرف من الدنيا إلا طريقه بين غرفته المنفردة ومكتبه فى إحدى الوزارات مرسلاً إلى والدته نتاج الجهود التى لا تعرف قيمتها إلا اليد العاملة ، فلا يشكو من ألمه إلا لأن هذا الألم يحرمه يوم عمل ، ولا ينصبّ فكره إلا إلى تأمين الراحة لسواه منذ تحركت للعمل يداه . أما أنا فما الذى فعلته بهذا الزمن الثمين الذى مر بى سراعاً ، هذا الزمن الذى يمتص عرق المجاهدين فى الحياة ؟ من كان مثلى يعد رجلا ؟ ومن عرف الحياة أنا أم هذا الشاب ؟

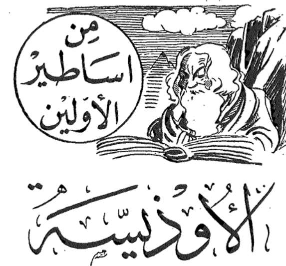
إن ما أوردته هنا صفحة مما مر بيننا فى لحظة وأنا أحدق فيه وهو يحدق بى

وحدثني بعد ذلك عن سفرنا وعن البلاد التى كنا ننوى زيارتها ؛ ثم سألنى عن ميعاد هذا السفر فقلت له : إن مدام بيارسون مريضة طريحة الفراش منذ ثلاثة أيام فردّد قولى : « ثلاثة أيام » بحركة استغراب لم يقو على ردها

وسألته عن سبب استغرابه فوقف وألقى ساعديه على كتفىّ وعيناه جاحظتان وهو يرتعش ، فقبضت على يديه مستفسراً عن ألمه ، فكفكف دمعه براحته وانسحب يتعب نحو سريره

وحدقت فيه مندهشاً إذ رأيت الحمى تهزه هزاً فترددت فى تركه على هذه الحالة ، وإذ تقدمت إليه ردني عنه بعنف ، وما عتم أن عاد إليه صوابه فقال لي: أعتذر إليك . وما كانت حالتي لتسمح لى باستقبالك فأرجو أن ترفق بى وتتركنى وشأنى ؛ ولن يفوتنى عند ما أستعيد قواى أن أذهب اليك لأسديك شكري

(يتبع) فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصل السابق

« انطلق أودسيوس بعد أن غيرت مينرفا ملامحه ، فجعلته شيخاً هرماً يدب على عكاز غليظ ، ويئن تحت ملابس ثقيلة عتيقة ، فأتى بيت راعيه يومايوس الذى لم يعرفه ، وإن يكن قد هش له وبش ، وأطعمه وأكرم مثواه ... وأبدى الراعى من الأسف على مولاه ما أتاح الفرصة لأودسيوس الذى ادعى أن الرجل الذى يذكره يومايوس ربما يصل إلى إيثاكا ذلك الشهر أو الشهر الذى يليه ، لأنه غادره وهو يوشك أن يبحر من عند ملك كريت ومعه كنوز فائقة من الذهب والفضة والنحاس . وأنه يعرفه شخصياً ، وقد اشترك معه فى حرب طروادة ... ولكن الراعى قهقه ملء شدقيه ولم يصدق حرفاً مما ذكر أودسيوس ، وعاد أودسيوس فأقسم أنه غير حانث وأن مولاه عائد فينتقم من أعدائه ويقتلهم جميعاً ، ثم راهن الرجل ... ومع ذلك فلم يزدد الراعى إلا تكذيباً ... وتشقق بينهما الحديث ، وأقبل الليل ، فهب كل إلى مضجعه ... »

عودة تلماك

ثم رفت مينرفا رفتين أو نحوهما ، فكانت فى وادى ليسديمون الخصيب حيث حل تلماك ضيفاً كريماً على الملك منالايوس ، وحيث وجدته يتقلب على فراش السهد والأرق ، لا يستطيع أن يغمض عينيه من هول ما يفكر فى أبيه ... بينا نام ابن الملك نسطور ملء عينيه نوماً هادئاً عميقاً على سرير مقابل لسرير الفتى المحزون

ووقفت الربة عند رأس تلماك وأنشأت تقول له :

« إلام تظل فى مُهاجَرك بأقصى الأرض هنا نائياً عن وطنك يا تلماخوس ؟ أو هكذا رضيت أن يأكل العشاق الفُسّاق تُراثك ويذهبوا بنعماء السماء عليك ، ثم لا تلبث أن تئوب إليهم من تطوافك بالآفاق بقبضةٍ من هواء ، وخيبةٍ من رجاء ! هلم هلم ! سل الملك أن يأذن لك فى السفر من فورك فقد ألح جدك وأخوالك على أمك أن تتزوج من الأمير يوريم ، لما اتفق عليه من مهر ضخم ، وتقدمات وافرة ، أضعاف ما وعد الآخرون ... هذا فضلاً عما يوشك أن يُسلَبَ من القُنى العزيزة عليك من بيتك التى تنقص من هنا لتزيد فيما هناك ، فإنه ليس أحب من هذا إلى فؤاد المرأة ، وهي سرعان ما تنسى أطفالها من زوج شبابها ورفيق صباها من أجل زوجها الثانى الذى تود لو تهبه كل شيء . فالبدارَ البدارَ إذن ، وعد أدراجك إلى بلادك لتحفظ تراث أبيك ينفعك حين تكون لك زوجة صالحة وذرارٍ أنجاب ببركة السماء ورعاية الآلهة ... ثم خذ حذرك يا تلماك ، فلقد اختبأ زعيم العشاق فى ثلةٍ من رجاله بين ساموس وإيثاكا يتربصون بك ويترصدونك ليغتالوك قبل أن تصل إلى شاطىء الوطن ... وإن فألهم لخائب ، ولن يفعلوه حتى يهال تراب الموت عليهم جميعاً ... ألاَ فارحل يا بنى فى ظلام الليل ، واجْتَنِبْ

سفينتك أن تسلك سبيل ساموس ، وابعدما استطعت عن الجزائر القريبة منها ، وسيرعاك بعض الآلهة ، ويسخر لك ريحاً رخاء تسارع بك إلى بلادك . فإذا بلغت أول الشاطىء الإيثاكي فانزل إلى البر ، ولتسلك الفلك سبيلها إلى المدينة من دونك ، ولتذهب أنت إلى يومايوس راعى قطعانك الذى يحبك فأرسله إلى أمك كى تقر عينها بأوبتك . » وما كادت تفرغ حتى زفت[1] إلى الأولمب . وهب تلماك وأيقظ رفيقه من نومه قائلاً : « هلم بيزاستروس ! هلم فأسرج الخيل ولنرحل من فورنا ! » وقال له ابن نسطور يجيبه : « هلم إلى أين الآن يا صاحبى ؟ كيف نخبط فى ظلام هذا الليل الدامس ؟ ألا نصبر حتى تشرق ذكاء ، وحتى يلقاك الملك فيخلع عليك ويحسن وداعك ، لتظل ذكراه الحسنة ماثلةً إلى الأبد فى روعك ؟ »

وانبلج الصبح ، فنهض منالايوس الملك من حضن هيلين الدافىء ، ويمم شطر الغرفة التى نام فيها تلماك ورفيقه . وما كاد تلماك يلمح فى غبشة الفجر صورة الملك حتى هب مسرعاً ، وأضفى عليه طيلسانه الفاخر ، وأتزر فوقه بمئزر آخر ، ثم دلف نحو الباب فلقى الملك ثمة وقال له : « بورك الملك وتعالى جده ! تالله لقد آن أن أعود إلى إيثاكا فحبذا لو أذن الملك بذلك » فقال الملك : « إنا لانستطيع أن نحجزك إذا كانت رغبتك أن تشد رحلك ياتلماخوس ؛ وإنه ليس أشق علينا أن يقيم ضيف لدينا برغمه ، أو أن نستعجله على الرحيل من عندنا ... بيد أنه يحسن أن تنتظر قليلاً حتى نهيىء لك أفخر الهدايا وأعز اللهى ، وحتى نعدها لك فى عربتك ؛ وسآمر ندامای فيعدون لنا فطوراً يليق بوداع ضيف كريم عزيز مثلك ، لابد له من إكلة حافلةٍ تصبر لسفر طويل يزمعه . فلو أن سفرك هذا كان خلال هيلاس ، وكنت من أجله ستجتاز آرجوس شرقاً لغرب ، إذن لسافرت معك ، ولجزت بك مدائن شتى ، ولأهرع إلينا عمال الأقاليم يقدمون إلينا الهدايا والتحف ، من صحاف الذهب وركائز الابريز وكل كأس ثمينة ، ومن كل دابةٍ مطهمة وجواد كريم » وأجاب تلماك فى أسلوب الفطين الحذر : « مولاى أتريدس منالايوس العظيم ! تالله إنه لآثر إلى أن أرحل لساعتى ، فلقد تركت ورائى بيتاً لم أدعه فى صيانة أحد ، وحطاماً لست آمن عليه أحداً ... وأخشى يامولاى أن أقضى فى رحلتى هذه وراء أبى ، فلا أكون قد أبقيت على نفسى ، ولا رعيت تراثه الذى تركه لى » وأمر الملك خدمه فهيأوا الخوان ، وزودوه بما بقى من عشاء أمس ، بعد أن أضرم رئيسهم إتيون ناراً أسخن عليها ماينبغى أن يكون منها حارًّا ... وتوجه الملك إلى غرفته ، فلقى فيها زوجه وولده ؛ فتناول كأساً من الذهب الخالص ، ودفع لولده بدلها من الفضة ؛ أما الملكة فنهضت إلى خزانتها فأحضرت ساجاً[1] عملت فيه يدها الصناع فزخرفته وزركشته حتى بدا كسماء التمعت فيها نجوم ... وعاد ثلاثتهم إلى حيث ينتظرهم تلماك وكلمه الملك فقال : « ذاك تذكارى إليك يا ابن أودسيوس حبذا لو تقبلته ؛ وهو كأس عجيبة من صنع فلكان أهداها إلىّ البطل فيديم ملك سيدون حين حللتُ عليه ضيفاً ؛ هذا وأنا أدعو لك أن يكلأك جوف فى رحلتك بعين الرعاية ، وأن يكتب

(١) زف الطائر أسرع فى طيرانه ورما بنفسه

(١) الساج الطيلسان

لك السلامة والتوفيق » ثم قدم إليه الكأس العظيمة وكذلك فعل ابنه ؛ أما هيلين فقدمت إليه الساج ، وتبسمت عن فم ألذ من أقحوانة ، وقالت له : « وأنا أيضاً أدعو لك يابني ، وأقدم إليك سدوساً [(١)] من أنفس الديباج حبذا لو جعلته قنية تذخره لك أمك حتى تقدمه بدورك لعروسك ليلة زفافها إليك » وكان لكلماتها في نفسه نشوة ، فأخذ الطيلسان وناوله ابن نسطور ، الذي عني به ووضعه بمكانه من العربة . ثم يمموا المائدة الكبرى ، وصبت الماء على أيديهم جارية ذات حسن وأناقة وظرف ، وأخذوا بعد ذلك في فطورهم ، بينا وقف ابن الملك يدهق الكؤوس ويشرب الخمر ، حتى إذا فرغوا نهض تلياك ورفيقه فسلما وودعا ، وركبا العربة الفخمة المثقلة بأثمن الهدايا ؛ وتناول الملك كأساً من الخمر وسار حتى دنا من الخيل ؛ وصبها صلاة للآلهة من أجل الراحلين وقال : « لكما الصحة والصفاء أيها الشابان اليافعان . تحياتي إلى نسطور أخي الذي كان يرعاني كأحد أبنائه تحت أسوار طروادة » فأجابه تلياك : «لاغرو أيها الملك، فسنقص عليه آية كرمك وعظيم سخائك ... وحبذا لو وصلت إلى إيثاكا فلقيت أبي أودسيوس ثمة ! إذن لقصصت عليه هو الآخر ما غمرتنا به من حفاوة وكرم وعطف ! » وما كاد ينتهي من كلمته حتى بدا عن يمينه نسر عظيم يحمل في مخالبه إوزة كبيرة بيضاء ، وقد حلق في الهواء ، وجرى حوله الخدم والحشم من أهل المدينة، بيد أن النسر فاتهم جميعاً ... وقد زعج الملأ الواقف لتوديع تلياك ، وبدا الهلع في وجه بيزاستراتوس ، فسأل الملك فقال : « ليتفضل الملك فيحدثنا عن هذه العلامة إذا كانت من أجلنا أو من أجل مولانا » ولكن الملك لم يحر جواباً لفرط دهشه . فلما لحظت حيرته هيلين زوجته ، تكلمت فقالت : « أيها الملأ اسمعوا وعوا ، فإني أحدثكم كما علمتني الآلهة ... تالله إن هذه لآية ، فكما غلب ذاك النسر أولئك الناس ، وذهب بتلك الأوزة البيضاء ، فهي له ، فكذلك يعود أودسيوس من تجواله وطويل ترحاله إلى إيثاكا ، فيبطش بأعدائه الذين استباحوا عرضه وعشقوا زوجه ، ويخلو له وجه بنلوب » وانتفض تلياك من شدة ما أثرت فيه كلمات الملكة فقال : « ألا حبذا لو تم هذا ! اللهم يا جوف المتعال حقق النبوءة أعبدك ، واكتب لأبي السلامة أخبت لك ، واكتب لي أن أعود إلى بلادي فألقاه ثمة تكن لك صلاة دائمة ، وذكر متصل يا إله السموات ! » ثم حيا الملك ، وألهب الجياد فانطلقت تنهب الرحب ...

ولم يزالا على سفر طوال يومهما ، حتى بلغا قصر ديوكليس مع مغيب الشمس ، فضيفهما وباتا ليلتهما عنده ؛ وما كادت أورورا تنضر جبين الشرق بالورد حتى هبا مسرعين ، وودعا مضيفهما الكريم ، وواصلا رحلتهما ... وكان ابن نسطور قد أخذ بأعنة الخيل فجعلها تنساب حتى لكأنها كانت تسابق الريح ... ولما بلغا أبواب بيلوس قال تلياك لصاحبه وهو يحدثه : « أنت عذيري يا أعز الأصدقاء إذا سألتك أن تصل بي إلى السفينة من غير أن تتوجه إلى بيتكم للقاء أبيك ، فقد يكبر علي أن أرفض نزله ، وأستأني بذلك عنده ، في وقت أنا في أشد الحاجة إلى العودة إلى الوطن ... على أنني سأحفظ

(١) هو الساج أيضاً

لك فى أعماق ذكرى خالدة لا تمحى ، زادتها هذه الرحلة الحزينة جمالاً ، وعقد أواصرها ما بين أبوينا من الود ، وما بيننا من اتفاق السن ، وصفو المودة وجميل الأخاء » وتردد ابن نسطور أول الأمر ، بيد أنه لم يستطع إلا أن يلبي رجيّةَ تلماك ، فثنى أعنة الخيل إلى الشاطئ حيث كانت تنتظره الفلك ، فنقل فيها متاعه ، ثم ودعه صديقه وعقرت القرابين باسم مينرڤا ، وصلى لها الجميع وسبَّحوا سبحاً طويلاً ... وإنهم لكذلك ، إذا شاب طوال مفتول العضل يتقدم إلى تلماك ، فيخبره أنه قاتل آبق[1] ، وأنه يلوذ به ، وأن اسمه تيوكليمين ، وأنه يرجوه فى أن يسافر معه . فهش له وبش ، وأخذ سلاحه فألقاه فى السفينة ، وأذن له فى الركوب ، وجلس الرجل مع تلماك عند مؤخر السفينة ، فى حين كان الملاحون يهيئون القلاع ، وينشرون الشراع ، ثم أقلعت الفلك ، وأرسلت مينرڤا بين يديها سَجسجاً تدفعها فى رفق ، وتطوى تحتها الماء فى حدب . وكانت الشمس تتوارى بالحجاب ، وكان الليل يلقى سدوله فوق الكون ... وما هى إلا عشية حتى مرت السفينة بفيريا ، ثم باء بليس ، وجوف فى كل ذلك يحرسها ويرعاها

هذا ما كان من أمر تلماخوس الفتى ... أما ما كان من أمر أودسيوس وراعيه ، فقد كانا يلتهمان فى هذا الوقت طعامهما ، وما كاد يفرغان من ذلك حتى أحب أودسيوس أن يرى لنفسه إذا كان الراعى قد ضاق به ذرعاً فينطلق من عنده ، أو هو كريم ذو نخوة ونحيزة فيبقى عنده ، فنهض يقول : « أيها الراعى يومايوس ... وأنتم أيها الأصدقاء الرعاة ... اسمعوا وعوا ... تالله إنى لأخشى أن أرهقكم بضيافتى أو أثقل عليكم بلبثى عندكم طويلاً ، فرجائى إذا انفلق الإصباح أن يقودنى أحدكم إلى المدينة لأستجدى وأتكفف ، فلن أعدم فيهم من يتفضل على ببلغة أو كسرة أو جرعة ماء ... ولسوف أيمم شطر قصر پنلوپ ، وعسى أن أستطيع لقاءها لأبلغها أنباء أودسيوس ، فإذا لم أستطع فلن أعدم عملاً فى خدمة العشاق ، لأنى والله المحمود ولى من أولياء هرمز رسول السماء ونصير الضعفاء ، ولن أضيق بتكسير الخشب ، أو إضرام الحطب ، أو حمل الكاس والطاس ، أو القيام على الشواء ... أو ما إلى هذا وذاك من عمل الفقراء البائسين » واهتز يومايوس إشفاقاً وقال : « أيها الرجل ماذا تقول ؟ أتجازف بنفسك فتلقى بها إلى التهلكة وسط هؤلاء الناس ؟ من أنت أيها الفقير حتى تحسبك تقدم الخمر لهم أو تخدمهم ، ولهم خدم شباب غرانيق ، وندامى كالكواكب نضرةً وجمالاً ... وحشم يلبسون أحسن الوشى وأفخر الحرير والديباج ... لتبق معنا أيها الشيخ فلن نضيق بك ، وحين يعود سيدي تلماك فإنه يكسوك ويسبغ عليك ، ويبعثك مكرماً معززاً أنى شئت » . وشاع البشر فى أعطاف أوديسيوس فقال : « شكراً لك يايومايوس ألف شكر ، وجزاك الله عنى أجزل الخير ، بما كفيتنى شر السؤال وذل الاستجداء ، وليس شراً منهما على نفس أبية قاست الأهوال وما تزال تقاسى ... بيد أن لى مسألة عندك بودى لو جلوتها

(١) نضرب صفحاً عن قصة هذا الرجل مؤقتاً لبعدها عن الموضوع

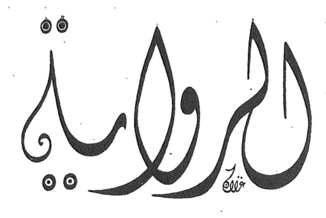
لى : أما يزال والد أوديسيوس حياً يرزق ؟ وهل مازال أمه بخير ؟ أم أنهما اليوم من أهل الدار الآخرة ؟ لقد غادرهما أوديسيوس يوشكان يطرقان باب هيدز ، فهل عندك من أخبارهما شيء ؟ » . قال الراعى : « ومالى لا أصدقك أيها الشيخ ؟ إن ليرتيس — أبا مولاى — مازال على قيد الحياة ... لكنها حياة شاقة أنقضت ظهره ، وأنفدت صبره ، وهو مايفتأ يضرع للآلهة أن تخلصه منها بالموت ... إنه قد فقد أحسن آماله حين فقد حامى شيبته الزائد عن شيخوخته ، ولده أوديسيوس ! وقد عجل له الشقاء موته ، وحياته من بعده ، فهو ما ينى يبكيه ، وما ينفك يساقط نفسه حسرات عليه ... أما أمه فقد قضت من أسى وحزن وطول بكاء ، قضاء ماقضى مثله صديق ولا عدو ! إننى حزين عليها ياصاح ، بل أنا أفتقدها كأعز من أمي لأنها نشأتني صغيراً ، ورعتنى كبيراً ، وكانت تحبنى كمحبة ابنتها ستيمينا التى تزوجت أحسن زيجة فى ساموس من كفء مهرها أحسن مهر وأعلاه ... أبداً لا أنسى أنهم ألبسونى أحسن اللباس ، وأعطونى نعلين جديدتين ، فرحاً بزواجها ، ثم أرسلونى إلى الحقل ، ولكنهم لم ينقصوا من محبتى ... لقد عاشت مولاتى بعد أوديسيوس معيشة شقية كلها آلام ، وكنت أواسيها وأعزيها ، ولكنها ما انتفعت قط بعزاء ، ولا استروحت إلى سلوة ، حتى ماتت ... وهأنذا أبكيها كلما ذكرتها ، وقل أن أنساها ، على أني أحمد السماء على ما أولتنى من خير ، وأسبغت علىّ من نعم ، هى حسبى وحسب الضيف الذي يغشاني ... على أنى أعذر مولاتى وسيدتى بنلوب إذا لم أر منها عطفاً علىّ ، لأنها فى شغل بحالها وسط هؤلاء الأوغاد المناميد ... وهي بالرغم من ذلك تولى خدمها المقربين منها نصائح غالية تنفعنا جميعاً ... ثم هى لاتنسى أن تنفح الكثيرين منهم مايفرحون به من آلاء وأعطيات ، غير مايأكلون وما يشربون » . وكأنما أراد أوديسيوس أن يتهكم عليه ويسخر به فسأله عن بلده ووالديه ، وعن القوم الذين أخذوه عنوةً ، وفى أى سفينة جاءوا به ، وبكم باعوه لأهل أوديسيوس ، فقال الرجل : « أيها الصديق أعرنى أذنيك ، وارشف خمرك ، أقص عليك قصتى ، فالليل طويل ، وفي جنحه يحلو السمر ، وليس أشهى من أن يروى ذو أشجان لذى أشجان ؛ وأنتم أيها الإخوان ، من كان منكم في حاجة إلى النوم ليصحو مبكراً فليذهب لينعم بالكري ... ثم أحسبك سمعت أو عرفت جزيرة سيريا التى عند أورتيجيا ... إنها جزيرة صغيرة ، لكنها غنية بأغنامها وماشيتها وقمحها وأعنابها ، كما اشتهرت بهوائها العليل ، ومناخها الجميل ، وصفوها وطيب رياها ... لذلك لا تعرف أبدان أصحابها الأوصاب ، بل يعمّرون حتى يأتيهم أبوللو (١) فيصميهم بسهامه ، وتعجل أرواحهم إلى هيدز ، ويقتسم أرض الجزيرة أهل مدينتين عظيمتين ، كانتا تخضعان لسيطرة أبى الزعيم العظيم ستريوس أورمنيد ... وحدث أن أرست فى شاطئنا سفينة فينيقية محملة بالطُّرف والتُّحف

(١) تضيف بعض النسخ ديانا — وهذه أول مرة نرى فيها أبوللو يقوم بوظيفة عزرائيل فى الأدب اليونانى ، لأنها وظيفة هرمز (مركيورى) خاصة (المترجم)

وبلعب الأطفال ، من صناعة الفينيقيين ؛ وحدث أن كان في بيت أبي جارية قسيمة وسيمة ذات حسن وذات دلال ، كانت تقف على سيف البحر لبعض شئون المنزل ، فرآها بعض ملاحى المركب واستطاع أن يخدعها بكلام معسول ذى طنين وذى رنين ؛ ثم سألها من هي ، ومن أى البلاد أقبلت إلى هذه الجزيرة ... وكان الخبيث يمزج ألفاظه بنظرات الأبالسة ، وغمزات الشياطين ، وابتسامات الغزل ، فانقادت له ، ضعيفة كبنى جنسها إذا نصبت لهن شراك الهوى ، وجذبتهن أحابيل الغرام ، وقد أخبرته الغادة أنها من سيدون المشهورة بصناعة الصلب والنحاس ، وأن أباها أرياس الفلاح ، وأن بعض القرصان قد اختطفها حين كانت عائدة أدراجها من حقله ، وباعها لصاحب تلك الجزيرة بأبخس الأثمان ، وقد أغراها الملاح بالعودة معه إلى بلدها على فلكه ، وبالفرار من حياة الرق والعبودية للقاء الأهل والأحباب والأبوين الثريين اللذين مازالان حيين يرزقان ... فاستحلفته المسكينة إذا كان جاداً فيما قال ، لخلف لها ، واستقسمته إذا كان أميناً غير ذى غرض أو لبانة ، فأقسم لها ؛ ثم تعاهدا على ذلك وقالت له : « والآن فلا يذكر أحد من أمرى معكم شيئاً لأيٍ من أهل المدينة ، حتى لا يَفْشُو السر ويعلم به صاحبى ، فيكون فى ذلك وبالى ووبالكم وهلاكى وهلاككم .. بل امضوا في بيع بضاعتكم وشراء ما يلزمكم ، ثم إذا عزمتم أن تقلعوا فابعثوا أحدكم إلىّ بقصر صاحب الجزيرة ، فانى مُرْضع ابنه ، وهو الآن يحبو ، بل يدرج ، وإنى محضرته معى فانه سينفعكم ، بل تستطيعون بيعه فى أحد البلاد ببعض المال ، وسأحضر معه كل ما تستطيع يدى أن تحمل من آنية وأكواب من خالص الذهب وغالى الفضة ، مما يخف حمله ويعلو ثمنه » وعادت البائسة إلى قصر أبى ... ولبث الملاحون عامهم كله فى مرفئنا يبيعون ويشترون ، حتى إذا حال الحول أو كاد ، حضر واحد منهم إلى بيتنا يبيع بَنِيقة[1] من ذهب وكهرمان ، فالتف حوله وصيفات القصر ثم حضرت أمي فاشترت بضاعة الرجل الخبيث ؛ الذى استطاع أن يومىء إيماءته المتفق عليها إلى مرضعي فلما انصرف من فى القصر من أضياف ، وذهب الخدم إلى شغلهن قادتنى مرضعى التاعسة من يدى فمرت بى فى غرفة الزائرين ، حيث كانت أكواب الشراب ما تزال على المائدة فدست منها ثلاثة فى ثيابها ثم ذهبت بى — وأنا طفل لا أدرك — إلى المرفأ ، حيث ركبت معها فى سفينة الفينيقيين ، فأقلعوا ساعة الغروب ... ودفعتنا ريح عاصف طيلة ستة أيام وفى صبيحة اليوم السابع ، أرسلت ديانا سهامها مسمومة إلى صدر المرأة — مرضعى الآبقة — فماتت لساعتها — ووضعوا جسمانها في سَأْبٍ[2] ثم قذفوا بها في اليم ، طعمة غير سائغة للأسماك ، ورحت أنا ، لفرط حبي لها ، أبكيها وأعول من أجلها ... ثم دفعتهم الريح والموج إلى شاطئ إيثاكا ، حيث ابتاعنى صاحبها العظيم ليرتيس ، وبقيت فيها إلى اليوم » وألم أودسيوس لما قص الراعى وتوجع وواساه بكلمات طيبات ... « فلقد وصلت فى رعاية

(١) بوزن سفينة ولا تشدد ، هى (الياقة أو الكولة)

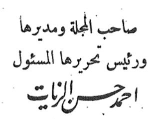
(٢) السأب والمسأب وعاء كبير للزيت أوالخل وهو الزق ولم نجد مرادفاً لكلمة (برميل) المعروفة فاستعملناه



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول



بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٠ — ١٢ رمضان سنة ١٣٥٦ — ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى



فهرس العـــدد

جوف إلى سيد رحيم ورجل بر ، كفل لك الهناءة والحياة الهادئة ... أما أنا ، فما أزال موكلا بفضاء الأرض أذرعه ، وببلد ألبسه وآخر أقلعه » ...

ولما يناما طويلا ، فقد قطع حديثهما حبل الليل ... هـذا ما كان من أمرهما ... أما ما كان من أمر تلماك ورجاله ،فقد وصل ملاحوه سالمين إلى الشاطئ الايثاكي ، وأرسوائمة ، وربطوا حبالهم فى أوتاد المرفأ ، ثم اجتمعوا إلى فطورهم فأ كاوا وشربوا... فلما فرغوا أمرهم تلماك أن يذهبوا هم إلى المدينة ، « ...أما أنا ، فذاهب لبعض شأنى فى المراعى القريبة وسأعود قبيل الغروب ؛ وفى الغد ، سأسقيكم سلافة الأوبة التى تذهب عنكم وعثاء هذا السفر » ونهض تيوكلمين (الشاب الآبق) فاستأذن فى الذهاب بالبشرى إلى والدة تلماك ، ولـكن تلماك قال : « كلا يا تيوكلمين ، لا أريد أن تعلم أمى بقدومى اليوم ، فابق مع رجالي هؤلاء حتى لاتقع أبصار العشاق المناكيد عليك ؛ وإن شئت فاذهب إلى أحدهم ، يوريماخوس ، فهو أعظمهم قدراً وأنبههم ذكراً ، وهو الذى يحاول جاهداً الزواج من والدتى ، والجلوس على عرش أبى ، فاربط حبالك بحباله ... أواه يا أرباب السماء ! حنانيك يا جوف ! بُعداً لهذا الزواج ، وبُعداً لمن يحلمون به!» وما كاد يفرغ من حديثه حتى بدا إلى يمينه بازى باشق — هو من غير ريب رسول أبوللو

الأمين — وقد أمسك فى مخالبه حمامة بيضاء ، فظل يُدَوِّم ويرنق حتى إذا كان بين الفلك فى البحر وتلماك فى البر نثر خوافيها فى الجو ، فنزلن بالقرب من تلماك — وهنا — تكلم تيوكلمين فقال : « تالله إنها لآية من السماء يا سيدى ، إنك ابن أعظم من فى هـذه الأرض ، وإن بيتك أعرق بيوتاتها ،وستظفر كما ظفر آباؤك »وشكره تلماك ، وتمنى لوصدقت نبوءته ، ثم أوصى به أعظم رجاله وأخلصهم له — كليتوس — فاهتزت أريحية الرجل ، ووعد أن يكون له كسيده (تلماك) حتى يؤوب... وسلم تلماك — ومضى للقاء يومايوس ثم أقلعت السفينة بمن عليها إلى المدينة

« يتبع » دريني خشبة



﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾

ليلة هائلة

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب السيد جورج سلستي

— « تريدون مني أن أحدثكم عن أشدّ ليالىّ هولاً ، كأنكم تعلمون أنى قضيت فى سنى الصبا والشباب ليالى مروّعة ، أو كأنكم تحسبون أنّ لي مغامرات جنونية تأسر وقائعها القلوب ، وتستحوز على المشاعر ، فى حين أنى ـ ولا أكتمكم ـ لم أكن في يوم من أيام حياتي فارساً ولا مغامراً ، وسجل حياتي ياسادة خلوٌ من روائع البطولة ؛ وليس لدىّ من الأحاديث التى ترغبون فيها ما أفخر به وأتيه ، إلاّ أنى لا أرى بداً من أن أنزل عند رغبتكم الملحّة وإن لم أكن فى قصتى ذلك المقدام الذى تروعكم جرأته ؛ وإن يكن فيها ما لا يزال يهز نفسى ويكبت روحى ».

وصمت « إيفان بتروفتش » لحظة تدفّقت عليه فيها خيالات تلك الليلة الليلاء التى عانى فيها من ضروب الوجل والرعب مايشيب لها رأس الوليد ؛ ثم قال بلهجة منفعلة :

« أعود بكم القهقرى إلى ليلة عيد الميلاد من العام ١٨٨٣ ، إلى تلك الليلة التى ما برحت ماثلة أمام عينىّ برغم تقادم العهد ومرور الزمن ، والتى لا أزال حتى الساعة أذكر وقائعها كأنها جرت أمس ؛ فانّ من الوقائع يا سادة ما ينطبع في الذهن فلا يمحوه كرّ الأيام ولا تعاقب الليالى

كان الظلام دامساً والهـــواء بارداً قرًّا والضبـاب الكثيف يغمر الأرض بحلتـه السوداء القاتمة عند ما كنتُ عائداً إلى غرفتى بعد نصف الليل من سهرة قضيتها وبعض الأتراب فى مناجاة الأرواح عند صديق لى حميم تغمده الله برحمته صباح اليوم

وطريقى إلى غرفتى فى حى « يقظة المقابر » موحشة تبعث الرهبة حتى فى القلب الجسور ؛ وقد كان علىّ أن أجتاز منعطفات وممرات لا عدّ لها تحت ستار الظلام الدجىّ

وكانت الأنوار فى الشوارع مطفأة على غير عادة فما كان يستطيع عابر السبيل مثلي أن يهتدى إلا بالتعبيث [1] فكنت أسير وئيد الخطى واجف القلب كمن يسير فى مأتم . فالكآبة الخرساء كانت تسود منى الحواس واليأس القاتل كان يملك منى المشاعر . وأفكارى قاتمة كأنما أمدّها الظلام الحالك بسواده

فقد كان تأثير جلسة مناجاة الأرواح شديداً علىّ ، وكان صوت (سبينوزا) الذى وفقنا إلى استدعاء روحه ومناجاته ما يزال يرنّ في مسمعي ، وعبارته الأخيرة التى أنذرنى فيهـا بدنوّ الأجل ونصحنى بالتوبة واستغفار الخالق عن مآثمى وخطاياى كانت تدوّى فى أذنىّ دوياً يمضّ منى الروح

أجل ياسادة كنت أتحسّس طريقى فى سيرى

(١) طلب الشيء فى الظلمة باليد من غير أن يبصر

الوئيد وعلى صدرى كابوس من الهمّ جدُّ مرهق . وكان يخيّل إلى أن أرواح الموتى تملأ رحاب الطرق وأن جموعها تلحقُ بي وتقفو أثرى . وكنت أحسب لدى كل خطوةٍ كنتُ أخطوها أننى سأجد شبحاً من أشباح العمالقة واقفاً لى بالمرصاد ليمسك بي من خناقي بيده الحديدية

إن الموت محتوم ولا مفرّ منه ، ولكن النفس البشرية يعزّ عليها أن تتلاشى حتى ولو كانت من الموت على قاب قوسين ، فكيف بي حينذاك وأنا فتى رطب العود غيسانى الشباب

فقد كنتُ أسير مرتعد الفرائص من الخوف ولكنى كنت أشجع نفسي وأهيب بها لتتخطّى السبيل من غير وجل ؛ وكنت أشعر أنى أدفع بخطاي دفعاً ليكون لي من وطئها الثقيل على الأرض صدى آنس به فى ذلك الظلام الحالك الرهيب

وأمطرت السماء فكانت ضغثاً على إبّالة

وصعّد إيفان زفرةً محرقة ، ثم تناول الكأس عن يمينه وجرع قليلاً من الماء ثم تابع :

« إنّ هذا الخوف الذى كان يسربلنى من قمة رأسي إلى أخمص قدمى ، هذا الخوف الذى لا يحدّه بيان ولا يلمّ به تعبير ، والذى ما إخالكم تفقهون له معنى لأنكم — لحسن طالعكم — لم تذوقوه ولم تشعروا به لم يكن ليفارقنى قطّ حتى ولا بعد أن صعدت إلى غرفتى في الطابق الرابع من منزل « ترويوف » مستطار اللب مبلّل الثياب

فتحت الباب ودخلت وكان الظلام الدامس سائداً مأواى الحقير

واشتدت العاصفة فانفتحت ميازيب السماء كأفواه القِرَب ، وجُنّت الريح فراحت تجأر بصوتها المدوى المخيف ، وتصفع مصاريع الشبابيك صفعاً لا رحمة فيه ولا عطف . وتعصف فى المدفأة فيسمع لها أنين كحشرجة المحتضر ، فقلت فى نفسى والبسمة المصطنعة تتحير على ثغرى : إن كان علىّ أن أصدق (سبينوزا) فإننى وقد نجوت من الموت على قارعة الطريق لن أنجو منه هنا ، وإننى سألاقي وجه ربى فى هذه الليلة الثائرة الغضبى ، وأسلم الروح بين عويل الرياح الهوجاء وبكاء السماء . وتخطيت العتبة وأنا أرسم إشارة الصليب على وجهى ، ثم أشعلت عدداً من الثقاب ورحت أجوس بنظراتى التائهة أنحاء الغرفة وإذا بى أرى منظراً مرعباً مخيفاً لم أكن أتوقع أن أراه قط ، منظراً ما إن لمحته حتى انهلع له قلبي من الرعب وقَفّ[1] له شعر رأسى ، فصرخت بملء فىّ وألقيت بنفسى من باب غرفتى كالمخبول ورحت أقفز الدرج قفزاً من غير وعى . ولا أدرى ياسادة كيف أنى لم أقع وكيف لم يكسر رأسى ويدق عنق ، وأرجو ألا تسألونى كيف رحت أركض فى الشوارع تحت وابل المطر المنهمر ركضا وأنا الذى كنت أسير فيها قبل بضع دقائق متعثّراً أتلمس سبيلى فيها كالعميان . ألا ليت الريح اجتاحت بتيارها عود ثقابى ، أو ليتها أطفأته على الأقل ، إذن لما كنت على ما أرجح لمحت شيئاً ولما انهلع قلبي وذهب الرعب بصوابى . فقد برز لى فى نصف الغرفة نعش كستنائى اللون مدّت حواليه قطعة من الديباج المزركش بالأستبرق ، وتدلّى على غطائه صليب معلق بشريطة وردية من الدمقس المحلى بالشذور

إن فى الوجود أشياء تكفى رائيها لمحة خاطفة حتى تنطبع فى ذهنه بكل دقائقها ، وهذا ما جرى لى ياسادة من مرأى ذلك التابوت . فقد ألمت بنظرة واحدة مجلى بذلك المنظر وحواشيه ، فقد كان

(١) قف الشعر وقف ذعرا

النعش لجسم معتدل القامة ، وثبت لدى من قبضتيه البرنزيتين ومن الديباج المجلل به والشريطة الحريرية المزركشة التى تتدلى عليه أنه صنع خاصة لفتاة من أهل الغنى واليسار »

وقامت إحدى الحاضرات فرفعت ذؤابة القنديل قليلاً ثم عادت إلى مكانها فاستطرد حديثه :

« ما كان لى أن أخشى لو أنى دخلت فرأيت كلْباً كلِباً أو لصاً سارقاً ؛ ولا كان لى أن أتعجب لو أنى دخلت فوجدت النار تلتهم الغرفة بما فيها ، أو وجدت السقف قد تداعى والجدران قد انهارت فهذا كله أمر طبيعى معقول لا غرابة فيه ؛ أما أن أجد تابوتاً فى منزلى ، تابوتاً ثميناً لفتاة ذات ثراء فى غرفة وضيعة لموظف صغير — فما لا يخطر فى بالى قط ، وهو مما يستدعى الدهشة حقاً ، بل مما يهول المرء ويرعبه !

فمن أين هبط هذا النعش ؟ ومن ذا الذى أتى به إلى غرفتى الموصدة أثناء غيابى ومفتاحها لا يدرى أحد أين أضعه إلا خُـلَّص صحبي وأترابى ؟ ولـكن ليس من المنطق فى شىء أن يضع قسيمو ودى وولائى نعشاً فى غرفتى ! أتكون الأرواح قد جاءت به إليها يا ترى فيكون (سبينوزا) إذ ذاك غير مخطىء فى قوله لى ساعة أنذرنى بدنو الأجل ؟! يا للفجيعة إذن ! ويا للهول ! أتكون ساعتى قد حانت وأنا فى مطلع الصبا ومستهل الشباب ؟ حنانيك اللهمَّ وغفرانك !

تلك كانت الأفكار التى ساورت مخيلتى ياسادة . ولقد كان لى أن أظن أن التابوت قد أتى به خطأ إلى غرفتى أحد موظفى دوائر الجنائز ، فقد يغلط أحدهم فى الطابق أو يخطىء البـاب المقصود ، ولـكن من منا يجهل أن حاملى النعوش لا يغادرون الدار قبل أن يتقاضوا أجرهم من صاحبها المرزأ المفجوع أو قبل أن ينفحهم على الأقل بخذيًا[1] ؟ !

وهكذا صرت فى بحر لجى من الظنون والأوهام، وأشكل علىّ الأمر حتى بت أعتقد أنه أحد اثنين لا ثالث لهما : فهو إما جناية أو أعجوبة ، وإن يكن عصر العجائب قد انطوى بعد أن توفي الله السيد المسيح

ما كنت لأومن بمناجاة الأرواح وأحسب أنى لن أومن بصحتها ماعشت وإن يكن فيها ما لم أوفق إلى إدراكه حتى اليوم . ولـكنّ مصادفة من طراز التي وقعت لى تميـل حتى بلب الحليم الرزين إلى الناحية الروحية الرمزية ، هذا إن لم تجعله يعتنق مذهبها ويعتقد به بالرغم منه

ولـكن مالنا ولهذا الآن ، فلنعد إلى ما كنا فيه : فقد ظللت ياسادة أسابق الريح فى الشوارع المظلمة تحت وابل الأمطار وأنا أحسب لخوفى ورعبى أن الجثة التى تخيلت وجودها فى نعش منزلى قد نفضت عنها الأكفان فهى تلحق بى وتركض ورائى حتى بلغتُ الساحة العامة واهي القوى مضعضع الجسم مضطرب الروح ، فوقفت لحظةً ومعطفى المبلول تلعب بأذياله الريح ، ووجهى الأصفر الشاحب يلطمه رذاذ المطر ، والبرد القارس يهزنى حتى العظام . ووقفتُ لحظة أستجمع فيها قواي ، فقد كان علىّ أن أبيت فى مكان ما فأتقى هول العاصفة ، ولـكن أين ؟ أفى منزلى ؟ وأنا الذى أخذ الأين والـكلال مأخذيهما منه هرباً من ذلك المنزل المسكون ؟! أأنكب نفسى بالتابوت أو بالجثة التى قد تكون فيه مرةً أخرى وقد هُدّت قواي لأنجومنهما وأبتعد عن رؤيتهما ؟! أأخلو وحدى بنعش ؟! إنَّ هذا ليذهب بالبقية الباقية من عقلى . هذا إذا كان قد تبقى لى منه شىء

(١) خذيا كثريا : الهدية أو الحلوان « البقشيش »

بل إن هـذا لميتتي ما في ذلك ريب ، ولـكن بقائى فى الشارع تحت المطر الواكف يقرسني البرد بزمهريره فما لا أريده ولا طاقة لى على احتماله

وتذكرت ، وأنا فى غمرة اليأس ، أنّ لى فى «حيّ الأموات[1]» القريب صديقاً يدعى (أبو كييف) — وهو الذى انتحر منذ عهد قريب بطلق من مسدسه كما تعلمون — فرأيت أن ألجأ إليه لأقضى ليلتى عنده »

وتناول إيفان منـديله ومسح العرق البارد المرفض عن محياه ثم قال بعد أن زفر زفرةً حرّى : « لقد أبى سوء الطالع إلا أن ينكبنى ياسادة بملازمته إياى فى ليلتى تلك . فقد أممتُ منزل صديق وكلى أمل بلقائه فإذا بي أذهب فلا أجد أحداً . ولم أر بداً وقد عولت ألاّ أبرحه إلى مكان آخر ، من أن أتلمس المفتاح في الـكوة التى اعتاد صديقى أن يخبئه فيها . وقد أحسست لـما عثرت يدى عليه بلذة ثلج لها صدرى ، وتيقنت وأنا أفتح الباب أن الفرج قد وافانى بوجهه الباسم الطلق ، وأنى واجد من غير بدّ فى غرفة صـديقى الراحة التى عدمتها وحرمت منها هزيعين من الليل كاملين ، فدخلت دخول الواثق المطمئن وأنا أنضو عنى معطفى المبتل

كان الظلام الحالك باسطاً أرديته ، وكانت الريح تدوى أبداً بلحنها المؤنس الفاجع ، وفى إحدى الزوايا جدجد يشق هدأة الدجى بغناء مستهجن يطلقه على وتيرة واحدة مملة ، وكانت النواقيس فى كنيسة « الـكرملين » تعلن للملأ بدقاتها الموزونة صلاة السحر ، وكان كل مافى الطبيعة الثائرة يبعث على الرهبة والجلال . وأنا برغم ما كنت بدأت أشعر به من الطمأنينة ، كنت أحس فى أعماق بحزن شديد يغلّـف روحى وبيأس قوى يضغط على صدرى

وارتطمت قدمي وأنا أتقدم فى صحن الغرفة بشئ حسبته للوهلة الأولى أريكة ، فألقيت عليه معطفى وقبعتى . وبينما كنت أحاول أن أتخـذ مجلسى عليه كان عود الثقاب الذى رحت أشعله قد أنار جوانب الغرفة ، وما لحت (أريكتى) هذه على ضوئه الباهت حتى أرسلتها صيحة مدوية ملؤها الرعب اهتزت لها أرجاء الغرفة من غير ريب ، ورحت كالهائم المخبول المروّع أقفز درجات المنزل قفزا

فإن ما حسبته أريكة لم يكن إلا نعشاً . أجل يا سادة ، لقد أبصرته حقاً ولم تخطيء عيناى فى مرآه فقد كان ضعف تابوت غرفتى حجماً ولونه قاتماً يوئس رائيه ! فمن أتى به إلى هناك ولماذا ؟ أيكون فى الأمر جناية يا ترى ؟ وكيف جرى ذلك فى غرفتين غرفة صديقى وغرفتى معاً ؟ ومن لى بمن يجلو حقيقة الأمر ، ويطلعنى على تفاصيل هذا السر الغامض المبهم ؟ ! أيكون على عينى غشاوة ترينى فى كلّ ما أرى مأوى الموت الرهيب ؟ ! أتكون جلسة مناجاة الأرواح قد أنهكت أعصابى وانتابنى من جرّائها رُدَاعٌ[1] أليم استحال معه كل شيء فى نظرى توابيت ؟ ! أم أننى قد جُننتُ ؟ ! »

وما مرّ ذكر الجنون فى خاطرى حتى وضعت رأسى بين يدى ، ورحت أفكر بما تبقى لى من عقل وتمتمت شفتاى من غير إرادتى :

« أأكون قد أصبحت مجنوناً ؟ ألا رحماك يا الله ! »

وكادت رأسى تنفجر ، وكانت ركبتاى تصطـكان من شدة الذعر والبرد معاً ، وجسدى

(١) أحد أحياء موسكو

(١) الرداع : وجع الجسد أجمع

كله يرتجف ، والريح العاتية القرّة تخترق برودتها عظامي ، والمطر يتدفق من ميازيب السماء كالينابيع ؛ وكنت من غير معطف ولا قبعة ، فمعطفي وقبعتي تركتهما على تابوت غرفة صديق ، ويستحيل عليّ أن أعود لآتي بهما فالرعب قد شلّ أعضائى كلها وشدّد الذعر ضغطه على صدري ، وأطبق على أضلاعى ، وتصبب العرق البارد من وجهى !

ما ذا كان عليّ أن أعمل يا سادة ، لقد بتُّ مجنوناً ، أو نصف مجنون على الأقل ، وفقد عقلي الراجح توازنه ، وأصبحت مختل الشعور . وغدوت عدا ذلك عرضة للبرداء

وكأن ربى وربكم شاء ألا يتخلى عن عبده فى هذه المرّة ، فألهمني فى موقفى الحرج هـذا أن ألجأ إلى صديق الحميم الطيب (بوغوستوف) الذى لم يكن منزله عن « حى الأموات » ببعيد ، وكان يسكن فى الطابق العلوي من إحدى بنايات أحد مستشارى الدولة ، وكان حضرة صديق الطبيب هذا قد حضر معى جلسة مناجاة الأرواح اللعينة ، فهرعت إليه آملاً أن ألقى عنده الراحة — ضالتى المنشودة — فإذا بأملي يخيب ، وإذا بي عنده أنكب برزء جديد تحملته أعصابى المنهوكة المضعضعة ؛ فقد سمعت وأنا أصعد درج منزله جلبة وضوضاء ، ووطء قدمى مهرول راكض ، ولطم أبواب ، وقعقعة مخيفة ؛ ثم لم ألبث أن سمعت صوتاً شبيهاً بزئير الأسد الطعين وصوتاً صارخاً :

« إليّ ، إليّ ، النجدة ! الغوث ! » ثم رأيت بعد ثانية واحدة شخصاً مجللاً بثيابه السوداء ينحدر على الدرج خائفاً مرتاعاً ، فناديته وقد عرفت فيه صنوى الحبيب :

— بوغستوف ، ما بك ؟

ووصل إليّ مرتعد الفرائص ، شاحب اللون ، مستطار اللب ، زائغ النظر ؛ فأمسك بذراعيّ وسأل بصوت أبح :

أهذا أنت يا إيفان ؟ أتكون أنت إيفان حقاً ؟ إنك لست شاحب السحنة فحسب ، ولكنك — أعنى يا إلهى — بطل من أبطال الأساطير المروعة أو جن ، أو ميت نفض عنه الأكفان وخرج من ضريحه !

فقلت له :

— وأنت يا أخى مالك مضطرباً قلقاً ؟ وما بال وجهك قد تغيرت منه الأسارير وتبدلت فيه الملامح؟ إنك لتخيف رائيك حقاً يا (بوغوستوف)

— آه ! دعنى بربك يا أخى أستنشق الهواء ، وأستشعر الدعة والاطمئنان حيالك ، وإنى جد سعيد بمرآك هذا إن كنت حقاً أنت الذى أرى ، وإن أنت لم تكن وهماً لحواسى ومشاعرى . لك الله يا جلسة مناجاة الأرواح من لعينة !

وأطلق من صدره المجهود زفرة ملتهبة ثم قال :

« لقد قلبت تلك الجلسة أعصابى إلى حد ... آه ! أرجو ألا تعتبرنى مجنوناً يا إيفان ... إلى حد ... تأمل يا هذا ... إننى عند ما دخلت المنزل وجدت فى البهو ... نعشاً ... أجل نعشاً ! »

وكدت ياسادة أكذّب أذنيّ فيما سمعتا لو لم استعده حديثـه ولو لم أرغب إليه أن يكرر قوله ليثبُتَ لى أن ما رآه تابوتٌ حقيقيّ لاريب فيه

وجلس على العتبة وأجلسنى معه وأمسك رأسى بكلتا يديه وقال :

« أجل يا إيفان ، لقد رأيت نعشاً ، نعشاً حقيقياً » ثم صمت لحظة كأنه راح يستجمع خلالها قواه أو شتيت أفكاره ثم استطرد :

أنا لست بالجبان ولا الرعديد ، وإنّ الشيطان نفسه ليرتعب ياصاح إذا عثر على نعش بعد جلسة مناجاة أرواح !

ووجدتُ من بيان صديقي الطبيب حافزاً لى على القول فرحتُ أقص عليه متلعثما تارةً وطوراً مبيناً قصة النعشين اللذين نكبتُ برؤيتهما ورحنا على الأثر يحدق كلانا فى وجه رفيقه تحديقة الواله المشدوه ويمرزه [1] ليستوثق من وجوده ، ثم قال الطبيب :

كلانا نحسّ ، فلسنا نائمين إذن ، ولا كنا فى غمرة الأحلام ، وليس (تابوتى) ولا (تابوتك) من صنع الوهم وعمل الخيال ولكنها الحقيقة الراهنة فما العمل الآن ياصديقى ؟

وبقينا ردحاً من الزمن جالسين على العتبة يقرسنا البرد ، تائهين فى عالم الرجم والحدس نتساءل عن سرّ وضع التوابيت فى الغرف الثلاث . وعزمنا أخيراً أن نطرح عن نفسينا عبء الوَجَل والرعب، وقرّرنا أن نوقظ الحاجب وأن نستدعيه لندخل وإياه غرفة الطبيب . وهكذا فعلنا ، وقد رأينا لدى دخولنا نعشاً مزيناً بالحرير ، مموّهاً بماء الذهب

ورسم الحاجب إشارة الصليب

قال الطبيب بصوت راجف النبرات : « علينا الآن أن نعرف إذا كان النعش مأهولاً أم خالياً »

وبعد تردّدٍ طويل فى أيّنا يُقدم على فتحه ، انحنى الطبيب نفسه وهو يصرّ بأسنانه فرقاً وجزعاً ورفع الغطاء دفعةً واحدة ، وإذا بنا نرى عوضاً عن الجثة التي كنا نترقب أن نراها فيه كتاباً هذا نصه :

عزيزى بوغوستوف

إنك تعلم ، على ما أظن ، أن أحوال عمي المالية قد ساءت كثيراً فى الآونة الأخيرة ، وإنه فى هذه الأزمة الخانقة غارق في ديونه وأن لا سبيل إلى وفائها الآن

وبما أن السلطة ستحجز غداً على مقتنياته ، (وهو كما لا يخفى عليك خير صانعي التوابيت فى البلد وأحذقهم فى مهنته) قررنا نحن أقاربه الأدنين فى الاجتماع العائلى الذى عقدناه أمس أن ننقذ شرف عائلتنا وسمعتنا من النكبة الواقعة ، وارتأينا أن نخفى أثمن التوابيت وأجملها عند من نعتقد فيهم الاخلاص والوفاء

وهأنذا ، بناءً على هذا الاعتقاد ، أبعث إليك كما أبعث إلى كل أخ محب كريم تابوتاً للاحتفاظ به أسبوعاً على أكثر تقدير معتمداً على ما فيك وفى خُلّص الصحب من كرم ونبل

محبك : ايفان تشيلوستين

وتنفسنا الصعداء بعد قراءته ككل متعب مكدود ألقى عن عاتقه عبئاً كان يبهظه ويرهق قواه

هذه هي يا سادة أشأم ليلة عرفتها فى حياتى وقد وجب عليّ بعدها أن أعالج لدى الأطباء ثلاثة أشهر متوالية لتهدئة أعصابي وإعادتها إلى ما كانت عليه

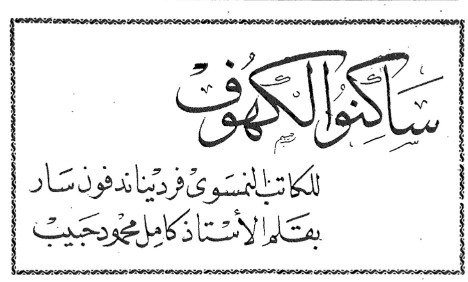
أما صديقنا صانع التوابيت فقد نال بغيته وأنقذ سمعته وهو الآن يدير بنفسه محلاً لتجهيز الموتى يبيع فيه رخاماً وتماثيل وغير ذلك مما له علاقة بالتجنيز ، إلا أن أشغاله لنكد الطالع ليست على ما يرام

ولهذا يا سادة أخشى عند ما أعود كل مساء إلى منزلي ، أن أجد فيه حيال سريرى تمثالاً من الرخام الناصع أو نعشاً مزيناً

جورج سلستي

---

(١) مرزه : قرصه بأطراف الأصابع



قال مستر برينيت مفتش أعمال الغابة وهو يعبث بلحيته البيضاء : « لقد كان ذلك منذ سنوات وسنوات وهى فى خيالى كأنها ذكرى الأمس القريب »

— ١ —

فى سنة ١٨٦٥ كنت مساعداً فى أعمال غابة الكونت (و ...) فى موراڤيا ، وكان رئيسنا رجلاً طوى سنى شبابه ، وأصابه النقرس فهو يتكىء دائماً على كتفى أو على عصاه ، وكنتُ فتى بَيِّن الفتاء ، شديد القوة أتعشق عملى فلا أتركه إلاّ إلى دار الرآسة فى القلعة ؛ ولم أكن شاباً بين الشباب يستهوينى ما يستهويهم ويجذبنى ما يأسرهم ؛ فما طلبت اللذة فى الخمر ، ولا وجدت السعادة فى قصف ولهو . غير أن نفسي هفت نحو أمر ما تصبر عنه .. تلك هى رفيقة الصبا وقسيمة الشباب ، وأنى لى أن أجدها فى هذا القفر اليباب ؟ أفتستطيع النفس الظامئة الوثابة أن تكفكف رغبات تتأجج بين طيات الجوانح فتدفعها إلى أمر ... ؟ وبدت دار رئيسي — وكنت أسكن معه — جرداء ممحلة بعد إذ تزوج ابنتاه وخلّفتا وراءهما أمّاً عجوزاً وخادماً شمطاء . وهنـاك فى تفاريق الغـابة بعض فتيات فيهن الملاحـة والظرف والجمال وفيهن التبذل والفجور أيضاً ؛ يجذبهن العمل وتغريهن الدريهمات ولكنهن شر مستطير على من يقع فى حبالتهن ، فما له من عقاب سوى العزل . ولقد كنت أقسو عليهن أحياناً فما أزيدهن إلا سخرية وتهكماً ؛ ثم هن يحدقن فىّ وعلى شفاههن ابتسامات رقيقة خلابة ، فأنثنى عنهن خيفة التردى فيما هو أدهى وأمر ، وما استطاعت واحدة أن تجذبنى إليها والغواية تتجاذبنى

وغير بعيد منا ، على شاطىء النهر إلى جانب سوق المدينة ، يعيش جماعة من ذوى اليسار من التجار والفلاحين ؛ وهناك مركز الشرطة ؛ وعلى جانبى الطريق ، بين المعامل والمدينة ، دور بناها الكونت لتسكنها الطبقة الوسطى من العمال ، وهم ناس فيهم النظافة والنظام ، وفى الناحية الأخرى من المدينة أكواخ قذرة ضمت سفلة القوم وأوشابهم ، ومن بينهم رجل يدعى كراتوتشويل وجد لذة فى الخمر فاندفع يشربها فما يبدو إلا سكران ممتلخ العقل . ثم استلبه الشراب — بعد حين — من قوته فما عاد يصلح لعمل . بين يديه زوجة وثلاثة أطفال تعضهم الفاقة فما يجدون البلاغ ولا يستطيعون العمل فراحوا يستكفون الناس ، وانسلت الأيدى تسرق ما تبلغ إليه ، ثم هم ينتظرون من ينزل بهم من الرّحل فى شغف وشوق لينالوا منهم شيئاً وليجمعوا ما بقى

من آثارهم . وأذن لهم المفتش بالاحتطاب عطفاً منه وإشفاقاً ، فحسنت حالهم وبدا عليهم أثر النعمة فبنوا كوخاً كبيراً وزرعوا أمامه بعض الخضر وتندّر عليهم بعض الظرفاء فأطلقوا على الكوخ اسم «ڤيللا كراتوتشويل» . أما زميلي مساعد المفتش فكان يلقبهم بـ (ساكني الكهوف) فلصق بهم الاسم ..

وكان أكبر الإخوة طفلاً عليلاً سقيماً أنهكه الفراغ وأضناه الكسل ، وبدت على الطفلين الصغيرين سمات الشر فانطلقا يتسولان ويسرقان . وبذّت الطفلة أخاها ، فهي تختفي في الدور حين يسدل الليل مسوحه . ثم تنسل عند الصباح الباكر في خفة إلى دارها وبين ثنايا ملابسها من المتاع ما تستطيع حمله . وفي ذات مرة عثر عليها تحت سرير أحد الموظفين فساقها إلى الشرطة ؛ غير أن صغر سنها حال بينها وبين السجن فعوقبت بالضرب ، ولكن أنّى للعصا أن تنزع شراً وتغرس خيراً ؟ لا ريب أن أباها وأمها كانا يدفعانها إلى مهاوي السوء ليستطيع الأب أن ينال بعض ما يتمنى من شراب . وشبّا .. ووجدت الابنة — بعد حين — في أخيها معواناً .. ثم قبض عليهما معاً في مخزن . وحكم على الفتاة بالسجن سنة ، أما الطفل فكان صغير السن

تلك هي حياة آل كراتوتشويل خلال السنوات الأولى التي قضيتها هنالك . ولشد ما آلمني أن تلوث هذه الشرذمة الناحية التي أعيش فيها . وكان الصبي يستجدي بعض عطفي بين الفترة والفترة بأصابعه المبتورة . ولقد قيل إنه هو الذي عمد إلى المنجل فبتر به أصابعه فراراً من العمل الذي أرغم عليه ، ولكنه كان قوياً شديداً تبدو عليه علامات الذكاء والفراهة . وكان يختلف إلى النهر فيقضي شطراً من نهاره يصيد السمك ، وأنا أجد في عينيه الزرقاوين وشعره السبط المنسدل على جبينه ما يجذبني إليه فأقذف إليه بقطعة من نقود أو بقايا دخينة فيتلقفها فرحاً مسروراً

وفي صباح يوم من أيام مايو أشرقت شمسه وهدأ نسيمه ، انطلقت إلى القلعة أقضي وطراً ؛ وحين دنوت من القنطرة رأيت فتاة استلقت على ظهرها إلى جانب النهر على الرمال الدافئة ، لا يسترها سوى قميص قصير ما يكاد يبلغ ركبتيها ، به فروج تبدى عن شيء وتخفي شيئا ؛ وقد انكشف منديلها عن شعر ذهبي سبط جميل تداعبه نسمات النهر الهينة . وحين سمعت وقع أقدامي تقترب منها رويداً رويدا نظرت إليّ بعينين خضراوين جذّابتين . من تكون هذه الفتاة الفتانة التي انطرحت على الأرض في أسمالها ؟ لعلها ابنة كراتوتشويل !

وعند الظهر عدت إلى داري فألفيتها في مكانها لم ترم ، وأحسست كأن نظراتها تخترق شغاف قلبي فأنتفض وقد استشعر أمراً ؛ غير أنني طرت إلى داري خشية أن يقودني قلبي إلى الهاوية

وقصصت ما رأيت من أمر الفتاة وأخيها على رئيسي فاهتاج وغضب ، ثم قال «إن هذا جمود وإغضاء من القانون . أفيترك هؤلاء ولا عمل لهم يعيثون في الأرض فساداً ؟ لابد أن أسوق الأبوين إلى العقاب وأن أدفع بالأبناء في غمار العمل» قالت زوجته «واأسفا ! أفيعيش الأطفال هملا ، وفيهم الجمال والذكاء ولا سيما البنت ؟» وصاح الرجل مغيظاً : «ماذا نفعل ؟ وهذا عمدة البلد لا يعني بأمر ابنه ، فهو يقذف به بين الأنعام ليقضي عمره بهيمة بين البهم ! لا ضير فهو غني ، أما هؤلاء ففقراء يعوزهم المال

وتعصرهم الفاقة ، ولا ريب أن الفساد ينخر في عظامهم في غير هوادة ولا لين ... » وأخذ الرجل يتحدث عن الأمر في شدة وحماسة حتى تفرقنا كلٌّ إلى فراشه . ورأيت فيما يرى النائم كأن آل كراتوتشويل يرتكبون الجرائم الوحشية في غير تحرج ولا حياء

— ٢ —

وفي الصباح التالي حملت بندقيتي وناديت كلبي وانطلقنا معاً إلى الغابة . وكان اليوم من أيام الاحتطاب يتطلب اليقظة والدقة والعناية ؛ فإن أخلاط الناس يحشرون في الغابة يعبثون بها إن وجدوا منا غفلة أو أنسوا إهمالاً . ورئيس الحرس إلى جانبي ينتزي نشاطاً وجدًّا ، وتقاطر الفتيان والفتيات حولي يلتمسون الإذن ثم انطلقت أضرب في أنحاء الغابة ما أهدأ ولا أستقر . وعند الظهر ابتدأ الجمع يتصدع فهممت أريد الذهاب إلى داري فرأيت زوجة كراتوتشويل تدب وتتحامل على نفسها كأنها تنحط من صبب ، وهي تحمل حملاً ثقيلاً من الخشب وأنفاسها تتتابع من البهر والتعب ، والعرق يرفض من جبينها فما ينصب ، ومن خلفها ابنتها تتهادى في أناة وصلف لا تحمل سوى المنجل ، وراعني أن أرى الفتاة تختال في سيرها كأنها ابنــة أمير ، ثم هي لا تخفف عن أمها العجوز بعض ما أثقلها . وحيتني الأم بصوت فيه رنات الأسى والجهد ؛ أما الفتاة فانطلقت لا تعيرني التفاتة ، وحين جاوزتني نظرت إليّ نظرة ذي علق وعلى ثغرها ابتسامة رقيقة خلابة كأنها أحست مني الميل نحوها ؛ فأهمني أن تضطرب الفكرة في خيالها وأنا أكتمها في نفسي ...

ودلفت في اليوم الثاني إلى عملي على حدود الغابة في المزرعة ؛ فإذا الفتاة جالسة على صخرة ناتئة على جانب الطريق كأنما تنتظر إنساناً وبين يديها بعض زهور يانعة تعبث بها . وحين صرت بإزائها نظرت إليّ في حياء وخفر ، فاضطرب قلبي ؛ غير أنني اندفعت في طريقي ... واستطعت أن أراها وأنا في المزرعة ، وأردت أن أنزع عن قلبي بعض ما نفثته فيّ نظراتها الملحة ؛ فتنكبت في العودة طريقي الأول ، وسرت غير بعيد ، فإذا الفتاة تشتد في سيرها تقطع عليّ السبيل ، وتنثر عند قدمي أزهارها ، ثم تختفي في أضعاف الغابة ؛ وعادت تكرر عملها مرة ومرة ، وحين اقتربت من باب داري سمعت ضحكتها ترن على بضع خطوات مني فيها السخرية والهزء

وتبعتني يوماً ويوماً فما شككت في أنها تترصدني. وعند عودتي في اليوم الثالث سألني الرئيس : « برينيت . أفرأيت ابنة كراتوتشويل ؟ لقد حامت حول الدار كأنها تريد أمراً ... ! » واعتقل لساني فما استطعت أن أحدثه الحديث ، ثم قلت : « نعم رأيتها على مسافة بعيدة » قال : « وإذا رأيتها ثانية فلبها وسقها إلى الشرطة ، وإن هي حاولت فراراً فارمها بالكلاب يمزقها أو اقذفها برصاصة . قلت وأنا أرغم نفسي على الابتسام : « هذا أمر صعب » قال : « لا ، فما أريدها تتسكع حوالينا ؛ أو توعدها بأن نمنع أبويها الاحتطاب فقد يكسر هذا من شوكتها » وشق عليّ أن أكتم في نفسي أشياء . وناداني صوت الضمير فعزمت على أن أقذف بهذه الفتاة الشريدة بعيداً عن الغابة

ولاقيتها — في اليوم التالي — فناديتها : « ها أنت ذه ! » ونظرت إليّ في استحياء ، فقلت في غلظة : « أي شيء جاء بك إلى هنا ؟ » وخاب أملها حين أغلظت لها القول ، فأطرقت في ذلة وانكسار

وهى تقول : « أى شيء ... ؟ أحرام علىّ ؟ » قلت « نعم » قالت : « ولماذا ؟ إن الغابة مفتوحة لكل طارق ! » قلت : « لا ، وإذا كان حقاً ما تقولين فأنت آخر من يستطيع أن يجول فى أنحائها » قالت : « ومن ذا يقف فى طريقى ؟ » قلت : « أنا » قالت : « أنت ؟ » ثم حدجتنى بنظرة فيها الصلف والجحود وفيها الرقة أيضاً ، فاضطربت وتخاذلت ثم ناديت شجاعتى فلبتنى سريعاً فقلت : « أنا لا يعنيني أن تكونى هنا أو هناك ، ولكن الرئيس أمرنى ... » قالت : « وكيف تنفذ أمر رئيسك ؟ لعلك تريد أن تغرى بى كلبك . انظر ! » ثم ألقت إليه بقطعة خبز فالتقطها وأخذ يحوم حولها . فقالت وهي تبتسم فى رقة وظرف: « ليس فيه ما فى سيده من تجبر وعناد . لقد أخذ ما أعطى ! » وابتدأ الحديث يلمس فىّ ناحية حساسة فقلت : « أنا لا أريد أن أندفع معك في الحديث ، ولا أريد أن أقسو عليك ، ولكن اضطرابك فى جوانب الغابة دون عمل سيضطرنا إلى أن نمنع أبويك الاحتطاب » ثم ناديت كلبي وهي من خلفى ترسل ضحكاتها ترن فى الفضاء

وتصرمت أيام لا أراها ، وهفا قلبي نحوها ، فآلمنى أن تخضع هي لأمرى فتحتجب عنى

ودارت الأيام ، وهبت رياح الصيف الساخنة تنضج القمح ، وانطلقت إلى القلعة ـ ذات صباح ـ لأنجز عملاً ... ثم عدت عند الظهر فى الهاجرة ، والشمس تتلهب ، والدنيا صامتة ، والريح ساكنة ، وأنا أسير الهوينى ... وتلظى الحر فطبختنى وكلبي الهواجر ، وغلبنا القيظ والظمأ فما أجد ريًّا والدار على بعد ساعة منا ، والقنوات بازائنا ما فيها قطرة ، وما فى لسانى بِلَّة ، وقد أعيانى الجهد وأضنانى الإعياء .. ثم تذكرت أننى رأيت منذ شهور ينبوعاً فى هذه الناحية ، فعطفت أفتش ... وراعنى أن أجد إناء به ماء فاضطرب قلبي وأنا أحدق فيه أريد أن أستشف أمراً ، وفزعت حين سمعت صوت جسم يسقط من بين الأغصان إلى جانبي ، فالتفت فإذا هى ... هي الفتاة ، ابنة كراتوتشويل ؛ وراحت ترمقنى بنظرات نفاذة وهى تبسم ، اهتز لها قلبى ثم ... ثم نكصت على عقبي وكلبى من ورائى يلغ فى الإناء حتى روي ثم اندفع في أثرى

وبلغت الدار ونفسى تنازعنى إلى الفتاة ، والرغبة الجامحة تلح علىّ ، وسيطرت علىّ فكرة ما أستطيع دفعها فسلبتنى الراحة والهدوء ، واضطربت الحياة فى ناظريّ فما أطمئن إلى فراش ولا أتلذذ بطعام

وساقنى العمل إلى الغابة بعد أسبوع ، فرأيت الفتاة فى مكانها الذي اعتادت أن تنتظرنى فيه ، فسرت فى مفاصلى — لدى رؤيتها — رعدة شديدة وحدثتنى نفسي أن أقول لها ... غير أنى استشعرت العار والفضيحة فانطلقت لا ألوى على شيء ، وكلبى يبصبص عندها بذنبه كأنهما صديقان ، ورأيتها تداعبه فتشغله عنى ، فناديته فلم يأبه ، فقلت في شدة « دعيه ! » فقالت في هدوء « أنا لا أستطيع أن أطرد صاحبى ، وهو لا يكتم فى نفسه ما يكتم سيده » قلت : « ماذا ؟ ماذا ؟ » قالت فى رقة وهى تدلف إلىّ « أوه ، لقد لبثت طويلا هنا أنتظرك » قلت : « أنا ؟ لماذا ؟ » ووقفت الكلمات على شفتيها وفى نظراتها الرقة والظرف فنفثت فى نفسي الحنان والعطف ، وفي قلبي السحر والهوى ، فتخاذلتُ ... واستطعت بعد لأى أن أحدثها فى غلظة « إنك لا تستحين ، ابتعدى عنى ! » فنظرت إلىّ فى خوف

وفزع ثم تقهقرت حين رأتني أهز فى يدى بندقتى . تقهقرت وعلى وجهها أثر الخبث والدهاء ثم قالت فى استعطاف : « لا ، لاتفعل ، لا تطلق بندقتك فتحدث ضوضاء وضجة . أنا ذاهبة ولكن أعطنى بعض المال فأنا جائعة ، وملابسى ممزقة ، ثم إنى لا أملك حذاء » قلت : « حذاء ؟ وماذا يفيدك الحذاء أيتها الخائنة ؟ » وأسقطت عليها كلمتى الأخيرة صاعقة تهد من كيانها وتعصف بقوتها ، فقالت وهى تتحامل على نفسها : « لا تنطق بها ثانية ، فأنا لم أسرق منك شيئاً » وندمت على أن زلّ لسانى فنطق بما لا أبتغيه ، فاندفعت أرفه عنها بعض ما أصابها فقلت فى هدوء ، « لقد أثرت غضبى ؛ وإذا كنت جائعة عارية فلما ذا لاتصيبين بعملك مالاً ؟ » ثم أخذت أحبب العمل إلى نفسها بكلمات فيها الرقة والحنان فقالت : « إن إنساناً لا يطمئن إلىّ ، وأنت تعلم لماذا ... » قلت : « نعم ، وسأتحدث إلى المفتش فى أمرك » قالت فى شغف : « نعم ، خذنى أنت ، إننى أريد أن أعمل تحت رعايتك » واقتربت منها وفى يدى حافظة نقودى « إنك فتاة جميلة جذابة فلماذا لا تكونين رقيقة أمينة ؟ ما اسمك ؟ » قالت : « ماروشكا » قلت : « حسن ياما روشكا ، والآن أريد أن تضربى لاخوتك مثلا أعلى فى الجد والنشاط والاستقامة ، فتعولين أبويك وقد أقعدهما الكبر . ألم تفكرى فى المستقبل يا ماروشكا » وأثمرت كلماتى فانفجرت باكية ، فقلت وأنا أعبث بشعرها : « لاتحزنى ياصديقتى واذهبى بعد يومين فاطلبى عملا ، وخذى هذا المال فهو كل ما ادخرت فسدى به بعض خلّتك » ثم وضعت المال فى يدها وأنا أقول : « أتذهبين ؟ » قالت فى انكسار : « نعم » ثم حيتها وانصرفت والعبرات ما تزال تتدفق من محجريها ... واطمأن قلبى لأننى استطعت أن أغسل عنها بعض خطاياها ..

— ٣ —

وفى مساء هذا اليوم انطلقت إلى المفتش أحدثه حديث الفتاة وأسأله عملاً لها . وعجب هو لحديثى — بادىء ذى بدء ، فخبّرته بوعدها ، فقال : « حقاً ، لن أقف فى سبيلها فأجنى عليها جناية أخرى . سأجد لها عملاً برغم أنى لا أثق بها . إن الارادة يابنى وإن كانت من حديد لاتغلب الطبع وهو قد انحدر من الأبوين واختلط بالدم . لقد كان أبواها يطلبان العمل فى الحين بعد الحين ثم لايلبثان أن يلقيا بالفأس والمكتل جانباً ويندفعان إلى حياة التبطّل والكسل ؛ وأنت تعلم أن أخاها قطّ أصابعه بالمنجل هرباً من العمل حين أُرغم عليه ، وأنا أخشى أن تنهج هى نهجه ، ولكننى سأحبوها بعمل ... »

وأشرفت — بعد يومين — من علُ على الحقول والعمال يعزقون أستطلع خبر الفتاة ، والسماء صافية والنسيم عليل ، والناس منتشرون هنا وهناك بين نبات اللفت ، وإلى جانبهم حقول القمح تضطرب تحت النسمات اللينة كأنها أمواج من ذهب . وجهدت أن أرى الفتاة فعجزت واليأس يجد طريقه إلى نفسى رويداً رويداً ، ثم أشرقت على شفتى ابتسامة الرضا والطمأنينة حين رأيتها مجدة في عملها وإن لم أر أثراً لمالى عليها سوى منديل قشيب أحمر تداعبه هبات النسيم ... ثم انقلبت إلى دارى فرحاً

وعند المساء أحسست بالمرض يتدفق فى جسمى

فيحجبني عن عملي أياماً ... وانتهى عزق اللفت ... ثم تماثلت للشفاء ...

واستحصد القمح ، غير أن الكونت (و...) وجاره وصديقه الأرشيدوق كانا قد قدما للصيد فشغلت بهما حيناً ، ثم استطعت أن أنطلق إلى الحقل عند شروق شمس يوم من أيام يولية . لقد كان الحر شديداً والعرق يتصبب من كل فتاة وفتى وهم في عملهم مندفعون ومن ورائهم زميلي يبعث فيهم النشاط والقوة . ووقع بصره عليّ فناداني: «عم صباحاً يا ربنيت أفجئت لترى فتاتك ؟ لن تجدها فهي قد عافت العمل بعد يومين » ثم ابتسم في سخرية وتهكم وهو يقول « وإذا شاقك أن تراها فهي هناك » وأشار إلى رابية . حقاً إنها هناك عند الساقية إلى جانب شجرة الصفصاف وهي ما تزال في ملابسها الرثة وهيئتها الزرية، ثم ابتسم صاحبي مرة أخرى وهو يقول: «لاجرم أنه يلذ للإنسان أن يرمقها من بعد ! كيف تقضى الفتاة ساعات يومها ؟ ماذا يفزعها عن الطريق المستقيم طريق النجاح ؟ إنها جميلة فتانة وعجيب ألا تجذب إليها فتى من طبقتها . إنني لا أوقن بطهارة ذيلها وعفتها على رغم أنني لم أر لهـا صديقاً . أفتستحق الحب ؟ لو كنت غنياً ، إذن لوفرت لها أسباب الهناءة والسعادة ؛ ولكن ماذا يفيد وقد صرخ الشيطان في عروقها ؟ » وجاءت الآلة تجمع ما حصدته المناجل فانطلق هو إليها ، وخلفني وكلماته توقظ في نفسي هوى نشرت عليه أستار النسيان ، فدق قلبي في عنف واضطربت الأخيلة في رأسي ثم ... ثم كتمتها في نفسي ...

وراحت هي تتنكب طريقي فما أراها إلا في الحين بعد الحين عند القنطرة ؛ وإن رأتني تميل عنى تحدق في ماء الغدير . ثم هي قد حال أمرها فأبدلت ثياباً بثياب ، وبدت نظيفة أنيقة ترف جمالاً وبهاء ، فيها متعة العين والقلب في وقت معاً ... وقالت لى نفسي : أنى لها هذا ؟ لست أدرى

وتصرمت أسابيع ، وجاءت أسرة الكونت ، وتدفقت — على آثارهم — جماعات من الضيوف.. وانطلقت أنا إلى رئيس الحرس أهيئ أمراً . . . فألفيت زوجه لدى الباب ترضع طفلها . فأشارت إلى الطريق الذى سلكه فذهبت أتقصصه ، ووقفت على شرف أستطلع خبر الحارس ، فأفزعنى أن أرى فتى وفتاة يستلقيان على الأرض يتعانقان في شغف وشوق ؛ واضطربا أن رأياني أحدق فيهما ، فطلبا مهرباً وقد أرخت الفتاة منديلها على وجهها ، وعرفت فيهما ماروشكا وابن العمدة ، وهو صبي وسيم الطلعة ، في العقد الثاني من عمره وفيه التخنث والغباء فاضطرب قلبي وزلزلت زلزالاً ...

وعدت أدراجى ، غير أنى سمعت الشاب يناديني : « سيدى ، سيدي ! » فأجبت في غلظة وجفاء : « ماذا تريد ؟ » . قال في تلعثم : « سيدى ، أرجو أن تكتم هذا الأمر في نفسك ، وإن لا تكن صفعة شديدة لأبي ولأمى معاً » ، وسبقني لساني إلى سؤال استشعرت منه الخزى : « ولكن هل تتلاقيان هنا كثيراً ؟ » قال : « كل يوم تقريباً » قلت : « وفي هذا المكان ؟ » قال : « حيناً هنا وحيناً في مكان آخر » قلت : « أو ما رآكما غيرى ؟ » قال : « رآنا بعض سكان مقاطعة الأرشيدوق وهم لا يعرفوننا » قلت : « والحارس ؟ » قال : « لقد أغلقت فمه ! »

وحققت كلماته رأياً اضطرب فى خيالى وخيال رئيسى حيناً من الدهر. لقد كان الحارس ذكياً جسوراً ونشيطاً ، ولم تكن فيه الأمانة لأنه كان سكيراً تدفعه الخمرة إلى الخيانة والسرقة ، ولكن الكونت كان يحبوه ببعض عطفه لأنه قضى دهراً من عمره وهو خادمه الأمين ... وحز الأمر فى نفسى ...

وصمت حيناً فقال الشاب : « سأقدم إليك جائزة سنية ! » فصرخت في وجهه فى غيظ وغضب : « تنح ، لن أفشى سرك إن أنت هجرت هذه الناحية ! » ثم طلبت الحارس فوجدته قد عاد إلى داره ؛ ونازعتنى نفسى إلى أن أحدثه حديث الفتى والفتاة . فمنعنى الخجل والحياء ...

— ٤ —

أقعد المرض رئيسي عن أن ينطلق إلى العمل أو إلى المدينة أو إلى السوق إلا فى الفينة بعد الفينة ، فهو يجلس دائماً فى الندى يشرب الجعة ويلعب الورق ، وهو حين ينتشى يبدو فرحاً طروباً

وجاء — ذات ليلة — وعليه أثر المرح فقال وهو يجلس إلى جانبى : « أفعلمت ؟ لقد دوت إشاعة فى كل مكان أن قد وقع ابن العمدة فى حبائل ابنة كراتوتشويل » قالت زوجته : « لا تقل هذا ! » وهززت أنا كتفى كأننى لا أعرف شيئاً من أمرها . واستمر الرجل يقول : وعجيب أن يغضب الأب ويزمجر ويتوعد بعد أن أفلت الأمر من يديه ، فالفتى يريد أن يتزوج من فتاته وهو يتهدد من يقف فى سبيله . قالت الزوجة : « عجباً ، يا للغباء ! » واندفع الرجل فى حديثه « لقد أغووه ، وفتحت له الفتاة ذراعيها فذاق لذة الهوى ، وجذبته إليها يرشف من رحيق الغرام ، فجن جنونه فما يستطيع عنها صبراً . والآن فأبوه يرقبه عن كثب فما يدعه يغيب عن ناظريه . ومن الغريب أن الريبة لم تضطرب فى خياله والناس يرون الفتاة تتأنق فى ثيابها الغالية وتتهادى فى غرور وصلف ، وما لها من عائل . فأبوها هناك سكران ما يفيق . على أن هذا الأمر يخدش كرامتنا يا برينيت ، فما يتلاقيان فى الغابة إلا تحت سمع الحارس وبصره ؛ وما من شك فى أن الشاب أخرسه ببعض ماله فواراها فى كن ، ثم حمق فراح يذيع الخبر طمعاً فى مال آخر ... »

ثم ... ثم انطلق كل منا إلى فراشه ، وما لبثت أن سمعت نباح الكلاب يشتد ، ثم دق الجرس فى عنف ، فتطاللت أستطلع الخبر فرأيت بناءين ، فاستخبرتهما الأمر فخبرانى أن ناراً فى المدينة إلى جوار الغابة

واندفع الرئيس من فراشه لدى سماع الخبر وقد نسى مرضه وهو يقول : « نار فى الغابة ! » ثم انطلق إلى ملابسه يرتديها وهو يردد : « نار فى الغابة ! كيف ؟ كيف ؟ » قلت « أظن أنها ليست هناك ، لعلها فى كوخ الحارس » قال : « هذا صحيح ، لقد أشعلتها ابنة كراتوتشويل لتثأر من الرجل » ثم قال : « أسرعوا إلى هناك . سألحق بكم » وألححت عليه أن يظل فى مكانه رحمة منى له ، وخوفاً أن يثور به المرض فلا نستطيع السير إلا فى بطء ... ثم انطلقت مع الرجلين وفى أيدينا المصابيح ، ووجدنا الناس قد تدفقوا إلى النار فأخمدوها فلم تأكل سوى قليل من قش حول دار الحارس

وسألت الزوجين الخبر ، فقالت الزوجة فى غير

ترو ولا أناة : « لعل إنساناً أشعل النار ، فسارقو الصيد قد سلط عليهم الغيظ والحقد لما أصابهم به زوجي ، وقد يكون ... » ثم أمسكت عن الحديث على حين فجأة ، فهي قد التفتت إلى زوجها بغتة فرأت كأن شرراً يتطاير من محجريه ، وانطلق هو في رزانة وتؤدة يقول : « أنا لا أتهم أحداً ، إن الليلة قرة ونحن أوقدنا النار يصطلى بها الأطفال فلحقت بالقش وهو قديم بال لا قيمة له »

وبدا لى من خلال كلماتهما أن ماروشكا بريئة ؛ غير أن الرئيس أصر على أنها هى الجانية ومن ورائه غوغاء الناس يدفعونه ؛ وطار الخبر أن ماروشكا أشعلت النار فقبض عليها تسام الخسف

ودفعت الفتاة التهمة عن نفسها فى لباقة وحماسة فوهت حجة الرئيس ، فسحب المدعى العمومى الدعوة. غير أن الجمهور راح يقذفها بتهم أخرى منها السرقة والتشرد والسفاهة و... أراد المستشارون أن يهدئوا من ثورة الناس فساقوها إلى الإصلاحية

ووجد الفتى لفقدها فالتاث وذهل عن نفسه ، وانطلق إلى آل كراتوتشويل يقضى نهاره بينهم ، ثم انحط فى حمأة الرذيلة لا يرعوى ولا يثوب . وأراد أبوه أن يدفعه إلى الجندية ليسلو ، ثم أمسك ضناً بوحيده أن تطحنه الحرب

— ٥ —

ووضعت الحرب أوزارها فى سنة ١٨٦٦ فتجلت — والحرب مأيمة ميتمة — عن حزن أفعم القلوب وعصف بالأفئدة ، وعن عيون ما ترقأ عبراتها تبكى الضحايا ؛ ولقد قذف ابن العمدة بنفسه في أوارها علّه يجد فيها دواء دائه ، فالتهمته وخلف من ورائه أبوين يشقيان بفقدانه

وقصفت الخمر عود كراتوتشويل فتيتم أبناؤه ، وتأيمت أمهم ، وحال أمر أكبر أبناء كراتوتشويل فراح يرعى قطعان الأوز فى أمانة ونشاط ، فوثق به الناس واطمأنوا إليه ، فأقاموه على قطعانهم راعياً

وانصرمت سنة وما فى الناس من يذكر ماروشكا ، ومسحت الأيام ذكراها من قلبي فانطلقت إلى ابنة مقاولى أجاذبها الهوى ثم خطبتها فتزوجتها

ولشد ما أدهشنى أن أرى ماروشكا فى ليلة ظلماء من ليالى نوفبر بإزاء القنطرة ؛ وأردت أن أجذب نظرها إلىّ فلوت عنى رأسها ؛ وأحزننى أن أرى السجن يستلبها من جمالها ورونقها

وفى ذات صباح وقع بيننا وبين العمال خلاف فما استقر الأمر إلا وقد أضنانى التعب وأكدنى الجهد ، والرئيس فى فراشه يشكو مرضاً وزوجه إلى جانبه تعنى بأمره

وانطلقت عند المساء إلى حجرتى أطلب الخلوة لأحصي الحساب ووقفت حوادث اليوم دون عملي ففي خاطري تبلبل وفي عقلى اضطراب ، فألقيت بالقلم جانباً وأخذت أضرب فى أرجاء الحجرة وكلبي إلى جانبي ما يستقر ولا يهدأ . واستطعت — بعد لأى — أن أنكب على عملى ؛ واستلقى الكلب على الأرض وقد غلبه النوم . ومضت ساعتان ... ثم رفعت رأسى أتسمع صوت العاصفة الهوجاء يدوى فى أنحاء الغابة ؛ وأزعجنى أن أسمع صوت أجراس ترن متتابعة فتختلط بهزيم الريح فتبعث فى النفس الفزع والرعب ، فاندفعت إلى النافذة لعلى أرى شيئاً ، ورق قلبى أن رأيت ألسنة النار تندلع

مرتفعة صوب السماء . إنها فى المدينة . ووثبت من مكانى وعلى أثرى كلبى (ستوب) أعدو نحو النار . لشد ما غاظنى أن أرى اللهب يؤج فى دار العمدة !

وذهلت عن نفسى حيناً وأنا فى وسط الطريق . أفأشتد صوب النار أم أرتد أنشر الأمر أمام رئيسى ؟ ثم سمعت حركة عنيفة فوق رأسى ، بين أغصان الشجر ، والنار تضىء الغابة فتكشف عن كل مابها ؛ وتنورت الأمر ، فإذا هى ... هى ماروشكا ، فصحت بها « هل أنت هنا ؟ » قالت : « نعم » قلت : «وماذا تفعلين هنا ؟» قالت : «أرى ، إننى أنتظر منذ ساعتين لأرى اللهب وهو يتسعر » قلت : « أفعلت . . . ؟ » قالت : « دون ريب لقد انتهى كل شىء ! » ونزت بي نزوات الغضب فقلت « أيتها السافلة ! » ثم أمسكت ببندقتى أريد أن أحطم رأسها برصاصة ، ففزعت واضطربت ، ثم قالت : « أفتفعل ؟ ولكن لن أخشاك . أقتلنى ، أقتلنى أنت فهو خير لى » ثم قفزت فإذا هى بإزائى ، ونظرت فإذا زجاجة خمر يبدو بعضها من جيبها فعرفت أنها ثملة ، ثم قالت فى هدوء : « لماذا لا تقتلنى والنار ليست فى الغابة ؟ » قلت فى رقة : « أنا أعرف ذلك ولكنى أرثى لهؤلاء الناس» قالت «لا بأس ، لا بأس . لقد أردت أن أجازيهم بما فعلوا ، فلقد كنت فى المرة الفائتة بريئة لم أقترف ذنباً فدفعونى إلى السجن ظلماً وعدواناً ، وها أنا ذى أذيقهم وبال أمرهم » قلت وأنا أنظر إلى النار : « أيتها العابثة ، لقد أحبط الله عملك فالريح قد هدأت وأمنوا هم الخطر » وحدقت فبدا لها صدق قولى فثارت بها ثورة الغضب والحقد فقالت وهى مغيظة محنقة « هذه الدار وحدها تكفينى ! » قلت فى تهكم : « إنها دار العمدة وهو رجل غنى لا يضيره أن يشيد غيرها وإذا آلمه ذلك — كما تظنين — أفتنتقمين منه وقد فقد وحيده لأجلك ؟ » قالت فى استهتار : « وماذا يعنينى وأنا لم أحبه أبداً ؟ لقد صحبته لأسلبه ماله ولأنك أنت أعرضت عنى » ثم هبت العاصفة زفزافة فانبعثت النار ثائرة تتحدم ، فضحكت وصاحت فرحة : « ها ها ، أفلا ترى ، لقد تسعرت النار وامتد اللهب إلى البيت المجاور » ثم أخذت الزجاجة تتعبّب الخمر ، وهي تقول : « ستشوى جلودهم ... أولئك الذين دفعوا بى إلى العذاب ، ماذا أفادهم وماذا أصابنى ؟ أنا لن أعمل لأنى أكره العمل ... وإذا أرغمنى إنسان عليه فسأنتقم منه فى غير هوادة ولا لين » ثم راحت ترقص وتدور حولى فى سعر وجنون ، فأمسكت بها وأنا أقول « أفلا تستطيعين العمل ؟ ستعملين مرغمة» ثم أشرت إلى النار وقلت « إن هذا معناه العمل الشاق سنوات عشرا» فقالت «العمل الشاق ! العمل الشاق ! أين هو الرجل الذى يستطيع أن يقذف بى إلى العمل الشاق ؟ » قلت « سيعلم الناس الخبر ، وإذا وجدت إلى الهرب سبيلاً فسيعثر عليك الشرطة » قالت « أفتظنه ؟ ولكن لماذا لا تقبض أنت علىّ أو تقتلنى برصاصة من بندقتك هذه ؟ » ثم ألقت بنفسها على الأرض وهى تصيح : « اقتلنى ، اقتلنى ! » ثم هبت واقفة واندفعت إلىّ قائلة : « لا ، لا تفعل ؛ بل قبلنى ، قبلنى . أفتظن أنه غاب عنى ما قاسيت فى سبيلى ، نعم ، نعم لقد جننت بى ، غير أنك خفت أمراً لولاه لضممتنى إليك . افعل الآن .. الآن عند النهاية » ثم تعلقت

بى وقاربت بين شفتى وشفتيها ، وقد انبعثت من بينهما رائحة الخمر الكريهة ، وأنا أحول بينها وبين ما تريد . وانقض كلبى عليها يمزق ملابسها وهى عنه لاهية ، ثم اندفعت تقول : « تعال ، تعال إلى الغابة إلى الظلام ، إلى الخلوة .. » وجذبتنى إليها فى شدة وعنف وقد عبثت بقوتى رائحة الخمر المنبعثة من بين شفتيها قوية نفاذة فما استطعت أن أدفعها عن نفسى

وجاء الخلاص فى صوت عجلات آلة المطافئ تسرع إلى حيث النار . لقد سلكوا هذا الطريق لأنه قصير ولكنه كان وعراً ، فراح رجال المطافئ يستحثون الخيل في أصوات خشنة . واطمأن قلبى فناديت : « يا للرجال ، يا للرجال ! لقد أمسكت بالجانى فأعينونى بقوة ! » وحال ما هم فيه من لجب واضطراب — حال بينهم وبين أن يسمعوا صوتى وفيه بُحّة من أثر الأين ورائحة الخمر معاً . وفزعت الفتاة أن رأتنى أستعدى عليها الناس فتراخت أعصابها فدفعتها عنى في قوة ثم أطلقت رصاصتين فى الهواء ، فطارت هى فى أضعاف الغابة

واضطربت لما كان فناديتها: « ستهربين ولكنهم سيعثرون عليك ! » وتفرق رجال المطافئ فى ثنايا الغابة يحاولون عبثاً

وفى الربيع التالى انفرج الثلج عن جثة فتاة مشوهة عرف الناس فيها ماروشكا ؛ غير أننى لم أرها لأننى كنت قد ذهبت أعمل فى مقاطعة صهر الكونت فى جنوب سيبريا على حدود كرواتيا

كامل محمود حبيب

الشامة

لألفريد دي موسيه

بقلم السيد مظفر البقاعي

— ١ —

عند ما أزعجت لويس الخامس عشر المشاجرات التي وقعت في عام ١٧٥٦ بين الوزراء وبين البرلمان من جرّاء ضريبة الدانقين أزمع أن يحضر الجلسة بنفسه ليرغم النواب على الخضوع له ، فاستقال هؤلاء عندئذ وقبلت استقالة ستة عشر منهم ثم نُفوا . وقد قالت السيدة دي بمبادور لأحد الرؤساء: «أتستطيعون وأنتم حفنة من الرجال أن تقاوموا سلطة ملك فرنسا؟ ألستم على ضلال ؟ انزع معطف الرآسة يا سيدي ترَ مثل ما أرى .»

لم يحمل المنفيون وحدهم وزر أعمالهم بل شاركهم فيه أهلوهم وصحبهم . وكانت مراقبة الرسائل تسلي الملك فكان يوعز إلى حظيته أن تتلو له كل ما يستثير الفضول في البريد عل ذلك يسري عنه سأمه من لذاته . ولا مرية أنه بعلة القيام شخصياً بأعمال شرطته السرية كان يتلهى بآلاف الدسائس التي كانت تمر بهذه الصورة أمام عينيه . وكان مصير كل شخص ذي وشيجة قريبة كانت أو بعيدة بزعماء الأحزاب إلى الهلاك غالباً . فقد كان معلوماً أن ليس للويس الخامس عشر مع كل ما فيه من أنواع الضعف سوى قوة واحدة وهي كونه عديم الرحمة

ففي إحدى العشيات وقد جلس أمام النار ومد رجليه فوق حافة الموقد تملكته السويداء كعادته فرفعت المركيزة فجأة كتفيها ضاحكة ، وكانت تجيل النظر في رزمة من الرسائل ، فسألها الملك عن جلية الخبر فأجابته :

« ذلك أني أجد هنا كتاباً لا يدل على رشد ولا بصيرة ، بل فيه ما يؤلم ويهيج العطف والشفقة

فقال الملك : وماذا في ذيله ؟

— ليس فيه اسم قط ، فهو رسالة غرام

— وماذا في أعلاه ؟

— هنا النكتة . إنه موجه إلى الآنسة دانيبول ابنة أخي صديقتي السيدة داستراد ؛ ومن الجلي أنه قد حشر بين هذه الأوراق لأراه

فقال الملك ثانية : وماذا به ؟

— ولكنني قلت لكم إن فيه غراماً . وهو يتكلم عن فوفر ونوفليت فهل تعرف جلالتكم هذين البلدين ؟ وهل من نبيل فيهما ؟ »

كان الملك يباهي بمعرفته فرنسا عن ظهر قلب ، ويعني بذلك أشرافها . على أن مراسيم بلاطه وقد اطلع عليها ودرسها لم تكن مألوفة لديه ، وكذلك أشعرة مملكته ، فعلمه بها إلمام ؛ أما البقية فلا يعتد بها بل يسدل عليها شيئاً من الكبرياء ، ولذلك فإنه بعد أن سبح في لجة الأحلام برهة قطب حاجبيه كمن طرقه تذكار سيء ، ثم أومأ إلى المركيزة أن تقرأ وألقى

بنفسه فى الأريكة وهو يقول باسماً: «إيه ! فالفتاة جميلة»

فشرعت السيدة دى بمپادور تتلو بلهجتها التهكمية اللطيفة رسالة طويلة مفعمة بعبارات الهيام ، يقول الكاتب : «تأملى قليلاً كيف أن الأقدار تجفونى ، فقد كان يبدو لى أن كل شئ معد لتنفيذ رغائبى . وأنت نفسك يا صديقتى الحنون ألم تجعليني أؤمل السعادة ؟ ويجب مع ذلك أن أتحاشاها من أجل خطيئة لم أرتكبها ؛ أو ليس من فيض القسوة أن أسقط فى الهاوية بعد أن سمح لي أن أرنو إلى السماء ؟ ومن ذا الذي يجعل نصب عينى تعيس محكوم عليه بالموت كل ما يحببه فى الحياة ويجعله يتحسر أسفاً عليها ابتغاء أن يتمتع بلذة بربرية ؟ ومع هـذا فـكذلك حظى ؛ ليس لي ملجأ ولا أمل سوى القبر لأنى منذ غدوت بائساً وجب علىّ ألا أفـكر مطلقاً فى الزواج بك . وعند ما كان الحظ والغنى يبسمان لى كان الحصول عليك جملة المنى وأقصى الآمال ؛ أما اليوم وقد أمسيت فقيراً فإنى أرتعش إذا ما ظللت أجترئ أن أحلم بذلك . ومذ أضحيت غير قادر على أن أجعلك سعيدة صرت أمنعك أن تحبينى برغم أنى أموت فيك غراماً ... »

فابتسمت المركيزة لهذه الـكلمات الأخيرة ، وقال الملك : دونك ياسيدتى رجلاً شريفاً . ولـكن ماذا يمنعه أن يتزوج من صاحبته ؟

— اسمحوا لي يامولاي أن أتم :

« إن هذا الظلم الذى ينهكنى فاجأنى به أفضل الملوك . وإنك تعلمين أن أبى كان يطلب لي وظيفة ضابط صاحب العلم فى الحرس لأن هذه الوظيفة ذات أثر فى حياتى ، فهى تخولنى حق تقديم نفسى إليك . وكان الدوق دوبيرون قد وعدنى بها ، ولـكن الملك رفضني على صورة لا تزال ذكراها لدىّ مريرة . إذ يجب ألا أعاقب من أجل رأى أبى (الذى أود أن يكون خطأ) ! وان إخلاصى للمليك أصدق وأعمق من حبى لك . ولو استطعت أن أجرد سيفى فى سبيله لتجلى صدقى وإخلاصي . إن رفض طلبي أصارنى بائساً ، لأن ابتلائى بحرمان كهذا يتعارض مع المعروف من كرم الملك »

فقال الملك : حقاً إن هذا يهمنى

« لو تعلمين كم نحن فى اكتئاب ! آه ! يا صديقتى ، واهاً لرسالة نوفليت وكشك ڤوڤير وهذه الغياض التى أتنزه فيها وحيداً طول النهار ، فقد حظرت العمل على البستانى البغيض إذ أتى أمس بمجرفته وكاد يمس الرمل ... حيث لا تزال آثار أنامل قدميك الصغيرتين وكعبيك الـكبيرين الأبيضين ظاهرة فى المشى ، وبصمات خطاك وهى أخف من النسيم لم تمح ؛ وقد تمثلت لي قدماك تسيران أمامى لدن كنت أتبع طيفك الجميل فكان هذا الشبح الفاتن يلمع آناً فآناً كما لو كان ممتطياً جواداً شارداً

« فهناك وقد كنت أناجيك أثناء سيرنا الوئيد على طول الحديقة أتيح لى أن أعرفك فأقدرك : أدب رائع فى نفس ملاك ، وكفاءة الملـكات فى لطف الآلهة ، وأفكار تليق بلايبنز فى حديث ساذج ، نحلة أفلاطون على شفاه ديانا . كل ذلك كان يجعلنى دفيناً تحت قبة الهيام والعبادة . وكانت الأزهار الحبيبة خلال ذلك تضوع من حولنا ، فكنت وأنا مصغ إليك أتنشق عبـيرها حيث تحيا ذكراك ؛ وها هى ذى الآن تحنى الرأس وتريني الموت ... »

فقال الملك : إن هذا أسلوب ردئ على غرار

جان جاك ، ففيم تقرأينه لى ؟

— لأن جلالتكم أمرتنى بذلك حباً فى عيون الآنسة أنييول الجميلة

— حقاً إنها ذات عينين جميلتين

« وعند ما أعود من هذه النزهات أجد والدى وحيداً فى القاعة الكبرى مستنداً على مرفقه قرب شمعدان بين تلك الأوانى الذهبيــة الكامدة التى تغطى روافدنا النخرة ، فينظر إلىّ قادماً وفى النفس ألم ، لأن حزنى يزيد فى جواه ... يا أتينابى ! فى منتهى هذه القاعة قرب النافذة ما يزال القيثار الذى لعبت بها أناملك اللطيفة التى مستها شفتاى مرة واحدة ففتحت إذ ذاك فاك لتنشدى أعذب الألحان ... وما كانت أنشودتك سوى ابتسامة

« ما أسعد أغانى لولى ورامو ودونى وكثيرات غيرها مما لا أدرى ! نعم نعم أنت تحبينها ، فمعانيها فى مخيلتك وألفاظها مرت على شفتيك

« إننى أنا أيضاً أجلس إلى هذه القيثارة وأحاول أن أعزف عليها أحد هذه الأنغام التى تسرك فتبدو لى كلها باردة مملولة فأدعها وأصغى إليها تموت بينما يضيع صداها تحت تلك القبة المحزونة ؛ ويلقى أبى علىّ نظرة فيرانى مغتماً كئيباً فلا يسعه أن يصنع شيئاً لأجلى لأن أمراً من أمور الديوان أو الطريق أغلق أبوابنا . وماذا عساه أن يصنع فى سبيلى وأنا الذى — على رغم مافيه من شباب مضطرم ، وعزم متقد — لا يطلب إلا أن يتبوأ مكاناً فى الدنيا ؟ »

فقال الملك :

— ألا يقال إن هــذا الغلام كمن ذهب إلى الصيد فقتلت طريدته وقد كاد أن يقتنصها ، فلمن تكون ... ؟

فمضت المركيزة فى التلاوة بصوت أكثر خفوتاً :

« حقاً إننا الجيران الأدنون والأقرباء الأبعدون للراهب شوڤلان ... »

فقال لويس الخامس عشر متثائباً :

— هاهى ذي جلية الأمر . هو أيضاً من أقارب جماعة المدققين المحاسبين ، إن برلمانى يستغل رحمتى . حقيقة إنه كثير العيال

— ولــكنه قريب أبعد !

— حسن . إن هــذه الدنيا لا تغنى فتيلاً فى نظر هذا الراهب شوڤلان فإنه من الأخلاقيين المتشددين ؛ غير أنه مع ذلك إبليس رجيم ، ولذلك أقيل وعزل . ألقى هذه الرسالة فى النار ولا تعودي إلى الخوض فى هذا الموضوع !

— ٢ —

لم تكن الــكلمات الأخيرة التى نطق الملك بها حكماً بالموت ولــكنها حرمان من الحيــاة . ما ذا يستطيع أن يفعل فى عام ١٧٥٦ فتى بلا ثروة لا يريد الملك أن يصغى لشكاته ؟ إن سعى الانسان للحصول على عمل أو محاولته أن يجعل من نفسه فيلسوفاً أو شاعراً قد يجدى دون أن يكون له مساعد ، وعندئذ يتبين تفاهة مهنته وحقارتها

وما كان هذا الحرمان مما يرغب فيه الفارس ڤوڤر الذى كتب بمداد من دموعه هذه الرسالة التى هزأ بها الملك ، فقد كان حينئذ وحيداً مع أبيه فى قصر نوفليت القديم وقد أخذ يذرع الغرفة فى اكتئاب وغضب ثم قال :

— أود الذهاب إلى ڤرساى

— وما الذى تفعل هناك ؟

— لا أدرى ؛ ولــكن ما ذا أصنع هنا ؟

— إنك فى صحبتى وما إخالها تسليك ؛ ولست على أى وجه أحبسك عن الذهاب ، ولكن أتنسى أن أمك قد ماتت ؟

— كلا يا سيدى ، وإنى وعدتها أن أهب لك حياتى . غير أننى أريد السفر الآن ، وسأعود إذ ليس فى طوقى البقاء فى هذا المكان

— وعم نشأ هذا ؟

— عن هيام مفرط فانى متبول القلب بحب الآنسة انيبول

— هذا عبث أنت أدرى به ، فما تزوج بلا مهر غير موليير . وهل تنسى نكبتى ؟

— أواه يا سيدى من نكبتك ! أيجوز لى ، دون أن أتجرد من أعمق احترامى ، ان أسألك عمن سببها ؟ لسنا من أعضاء البرلمان ، ونحن ندفع الضرائب ولا نقررها ، فاذا كان هؤلاء يقترون على الملك فذلك شأنهم لا شأننا . ولِمَ يجرنا حضرة الراهب شوفلان إلى الخراب معه ؟

— إن الراهب المذكور يعمل كرجل شريف ، فهو يرفض أن يوافق على عُشر ، لأنه ثائر على إسراف البلاط الذى لم يحدث مثله منذ زمن السيدة دو شاتورو . وقد كانت تلك على جمالها لا تكلفنا شيئاً تقريباً حتى ولا ما كانت تهب بسخائها المفرط . وعلى أنها كانت حظية وملكة كانت تقنع بألا يلقيها الملك فى سجن مظلم تعفن فيه إذا ما حرمها عطفه ؛ أما هذه (الذابلة) ، هذه (النورمندية) هذه (الجشعة) !

— ما ذا يعنينى ؟

— أتقول ما ذا يعنينى ؟ إن الأمر لأعظم مما تتصور .. ألا تدرى أن ثروة حظية هذا الملك الذى يغتصب مالنا لا تحصى ؟ فقد خصصت لنفسها فى أول الأمر ريعاً قدره مائة وثمانون ألف ليرة ، وما كان ذلك إلا سخافة لا تعد شيئاً الآن إذ لا يستطاع تصور المبالغ الهائلة التى يغدقها العاهل عليها ، فلا تنقضى من السنة ثلاثة شهور حتى تلتقط سريعاً خمسمائة أو ستمائة ألف ليرة . أمس بحجة الملح واليوم بحجة زيادات خازن الاصطبلات . وقد اشترت عدا مالها من مساكن فى كل الدور الملكية : (لاسل) و (كريسى) و (أولنى) و (برامبوريون) و (مارينى) و (سان ريمى) و (بلفو) وكثيراً من الأراضى والقصور فى باريز وفونتنبلو وفرساى وكومبين . كل هذا فضلاً عن الثروة السرية المكنوزة فى كل بلدان أوربا ومصارفها خوفاً من هجر المليك المتوقع أو موته . ومنذ الذى يدفع هذا كله ؟

— أجهل ذلك يا سيدى ، ولكنه غيرى

— بل هو أنت ، وكذلك جميع الناس ، وفرنسا بأسرها ، وهذا الشعب الذى ينضح دماً ويتصبب عرقاً ويصرخ في الطريق شاتماً الأوابد . إن البرلمان لا يرغب فى هذا ولا يريد ضرائب جديدة ، فمند ما نشبت الحرب قدمنا آخر فلس من مالنا ولم نفكر في المساومة ، وقد استطاع الملك الظافر أن يلمس بعينه محبة شعبه له بشكل أوضح عند ما أشفى على الموت ، فقد انقطعت الاحتجاجات وسكتت الأحزاب وزالت الأحقاد وجثت فرنسا كلها تصلى من أجله . ونحن إذا كنا ندفع نفقات جنوده وأطبائه بلا حساب فلسنا نريد الانفاق على حظاياه وعلينا واجبات أخرى غير إعاشة السيدة دى بمبادور

— لست أدافع عنها يا سيدى ، فأنا لا أستطيع أن أخطئها أو أصوب رأيها إذ لم أرها قط

— من غير شك . ولعله لا يسوؤك أن تراها لترى رأيك فيها ، أليس كذلك ؟ إن العقل فى سنك يحكم بواسطة العينين . حاول رؤيتها إذن إن راق لك ذلك ، غير أن هذه السعادة ستخطئك

— ولم يا سيدى ؟

— لأن هـذا جنون ، ولأن هذه المركيزة أكثر اختفاء فى مقاصيرها الصغيرة فى برامبوريون من سلطان الأتراك فى قصره . لأن الأبواب تغلق كلها في وجهك . فماذا تريد أن تفعل عندئذ ؟ أمحاولة المستحيل ؟ أم البحث عن الثروة كشريد ؟

— لا ، ولكن كعاشق . أنا لا أريد التوسل ياسيدى ، وإنما أريدالاحتجاج على ظلامة . فلقدكان لي أمل راسخ بل شبه وعد من السيد دوبيرون وكنت على وشك الحصول على ما أبغي . ليس غرامى هذا نزوة أو طيشاً لأنك ما أنكرته علىّ ، فاحتمل إذن محاولتى الدفاع عن قضيتى . إنى أجهل ما إذا كان يتاح لى الاتصال بالملك أم بالسيدة دى بمبادور ، ولكنى أريد السفر

— إنك لا تعرف البلاط ، وتريد المثول فيه !

— لا بأس ! فقـد يكون قبولى هناك لهذا أكثر سهولة ، لأنى مجهول

— أنت مجهول أيهـا الفارس ! أتظن ذلك ؟ اسم كاسمك ! إننا عريقون فى النبل يا سيدي فلا يمكن أن تكون مجهولاً

— حسن إذن فالملك يصغى إليّ

— ولكنه لا يريد أن يفهم منك . إنك تحلم بفرساى وتظن أن سيحتويك قصرها عند ما يقف الحوذى بك هناك ... لنفرض أنك تمكنت أن تصل إلى الإيوان بل إلى الرواق ومن ثم إلى الكوة فإنك ترى عندئذ أن ليس بينك وبين جلالته سوى مصراعى باب تستشف من ورائه هاوية فتتلفت باحثاً عن « مهرب » أو ملجأ فلا توفق إلى شئ .

هل تتصور كيف ينتقم الملك لنفسه منا نحن أقرباء السيد شوفلان ؟ إنه يأمر بتعذيب داميان الذى طعنه بموسى وينفى رجال البرلمان ! أما نحن فيكتفى بكلمة أو بالصمت وهو الأنكى . أتدري ما هو صمت الملك حينما يحدجك عند مروره بنظرة خرساء ؟ إنها درجة من درجات العذاب تأتى بعـد الاعدام والباستيل ، وهى فى الظاهر أقل منهما قسوة ولكنها أشد أثراً من مرأى الجلاد . حقاً إن المحكوم عليه بها يظل حراً ، ولكن عليه ألا يفكر فى الاقتراب من امرأة أو من أحد رجال الحاشية أو من قصر أو دير أو ثكنة ، فكل شئ موصد دونه محظور عليه ، وهو إذن يتنزه على غير هدى فى سجن غير منظور

— سأتحرك فيه حتى أخرج منه

— لن تفعل أكثر من غيرك . فابن السيد دومنيير لم يكن مجرماً أكثر منك ، وكانت له مثلك وعود وآمال مشروعة ، وأبوه أخلص أتباع جلالته وأشرف رجل فى المملكة . أقصاه الملك فذهب بشعره الأشقر لا ليرجو بل ليحاول إقناع الحظية . أتعلم بم أجابته ؟ هاك نص أقوالها وقد بعث إلى بها السيد دومنيير فى رسالته : « إن الملك هو السيد . إنه لا يريد إظهار استيائه منك شخصياً ، بل يكتفى بأن يظهره لك بحرمان ابنك من الوظيفة . ومعاقبتك على غير هذا الشكل بادرة لا يريدها فيجب احترام إرادته . انى أرثى لك مع هذا وأتدخل فى همومك ، فقد كنت أمًّا وأعلم وقع هذا الأمر فى نفسك » هاك كلام هذه المخلوقة التى تريد أن تترامى على قدميها !

— يقال إنهما فاتنتان ياسيدى

— ربما ! إنها ليست جميلة والمعروف أن الملك لايحبها ولكنه يخضع لها ويلين أمامها . فيجب أن يكون لها شيء آخر غير رأسها الخشبي لكي تحتفظ بنفوذها الغريب

— يزعمون أنها ذات فكر ثاقب !

— ولكنها بدون قلب

— بدون قلب ! ؟ وهي التي تعرف كيف تنشد أشعار ڤولتير وتغني موسيقى روسو والتي تعزف أنغام الزيروكوليت ! هذا مستحيل ولا أصدقه قط

— أما إنك تريد فاذهب إليها وانظر ! إني أنصح ولا آمر ، وستخسر نفقات السفر ؛ ويظهر أخيراً أنك مدله بحب هذه الآنسة انيبول ؟

— أحبها أكثر من حياتى

— إذهب يا سيدى

— ٣ —

يقال إن الأسفار تخفف من أوار الحب بما تهبه من لهو وتسلية . ويقال أيضاً إنها تذكي ناره . ولم يقم الفارس بهذا التمييز العلمى لطراءة صباه . وقد امتطى فى منتصف الطريق حصاناً من خيل البريد إذ أنهكته العربة فوصل نحو الساعة الخامسة مساءً إلى فندق الشمس ، وكانت الشمس فى زمن لويس الخامس عشر شعار الزى

كان فى ڤرساي راهب شيخ يعرفه الفارس ويحبه إذ سبق أن كان قسيساً قرب نوفليت . وكان لهذا القسيس الساذج الفقير ابن أخ راهب فى البلاط قد ينفع فتانا فيمم شطره . وكان هذا رجلاً مهيباً غمره رداؤه الواسع فاستقبل الوافد بترحاب عظيم ، ولكنه لم يتدان لسماع قصته بل قال : « حقاً لقد جئت فى الوقت المناسب ، ففى البلاط الليلة حفلة تمثيل أو نوع من عيد لا أدرى ما هو . ولست راغباً فى حضوره لأنى ناقم على المركيزة من أجل الحصول على شيء ما . فهاك كتاب توصية من حضرة الدوق دومون طلبته منه لشخص لا أدرى من هو . اذهب إلى البلاط وإن لم تكن قدمت إليه من قبل إذ لا حرج عليك وبغيتك المشاهدة . إحرص على أن تكون فى طريق الملك في المخدع الصغير فنظرة واحدة تجعلك سعيداً »

فشكر الفارس الراهب وعاد إلى الفندق وكان متعباً إثر ليلة سهاد ونهار ركوب ، فوقف أمام مرآة فيه يرتدى ثيابه بمساعدة خادمة زينته على قدر طاقتها فغطت ثوبه الموشى بالذهب بمسحوق الرز . زينة مضطربة تليق بالعشاق كثيراً . استسلم هكذا للمقادير وسار فقد كان عمره عشرين عاماً

وصل إلى القصر والليل يرخى سدوله ، فتقدم من الباب الحديدى بوجل وسأل الحارس عن الطريق فأشار له إلى درج كبير ، وهناك علم من الحاجب السويسرى أن الحفلة على وشك الابتداء ، وأن الملك أى الجميع فى القاعة . وأضاف السويسرى قائلاً : « وإذا أراد سيدى المركيز اجتياز البلاط فسيكون بعد برهة من شهود الحفلة ؛ وإن كان يرغب أن يمر بالمقاصير ... »

لم يكن الفارس يعرف القصر فدفعه حب الاطلاع أولاً أن يجيب بأنه سيمر بالمقاصير ، وإذا بخادم تبعه ليدله فأردف قائلاً بأنفة : إنه ليس فى حاجة لمن يرافقه ، وتقدم عندئذ وحيداً فى اضطراب

كان قصر ڤرساى يتلألأ أنواراً من أقبيته حتى

ذروته ، وكان بريق الثريات والمصابيح ولمعان الأثاث المذهب والرخام يخطف الأبصار ما عدا مقاصير الملكة فقد كانت أبوابها مفتوحة . كان الفارس كلما سار ازداد تعجبه وانبهاره بشكل يتعذر تخيله . ولم يكن الجمال وحده ، بل ولا سنا الأضواء نفسه يجعل المنظر رائعاً ، وإنما هي الوحشة التي تسود هذا المكان الشبيه بالصحراء المسحورة

حقاً إن وجود الانسان وحيداً في ميدان متسع سواء كان معبداً أو مقبرة أو قصراً فيه شيء من الخفاء أو الغرابة ، يخيل إليه أن البنيان أناخ بكلكله عليه ، وأن الجدران ترمقه والأصداء تصغى إليه ، ورنين خطاه يعكر صفو السكون الذي يشعر بالوحشة منه رغماً عنه ، فلا يجسر أن يسير إلاّ في خشوع . وهكذا حدث للفارس بادئ الأمر ، ولكن حب الاطلاع تغلب عليه حالاً واستدرجه ، فقد كانت ألسنة شماعدقاعدة المرايا تعكس أنوارها ، وليس من يجهل وفرة ما كان على الجدران من نقوش ترمز إلى الغرام والعشاق والآلهة فكانت جميعاً ترفرف على السقوف وتبدو كأنها تدمج القصر كله بإكليل عظيم

هنا قاعات ذات أسجاف مخملية موشاة بالذهب وأرائك فخمة ما تزال تحتفظ بجلال الملك العظيم ، وهناك مقاعد متجعدة وكراسي صغيرة مبعثرة حول منضدة قمار . عدد لا نهاية له من القاعات المتعاقبة كلها خالية تأخذ روعتها الأبصار ، ولو أنها تبدو عديمة الفائدة . ترى بين آونة وأخرى أبواباً سرية تؤدي إلى ردهات يتيه النظر من كثرتها . ألف سلم تتقاطع مع ألف ممر كأنك في أجمة متشعبة الدروب . أعمدة صنعت للجبابرة . مخادع متشابكة كأنها مخابئ أطفال . لوحة من تصوير فانلو قرب موقد من البرفير . على زينة حذاء صور صينية من الخزف . عظمة باهرة تارة وأناقة فاتنة أخرى ، وبين الرخاء والترف والبذخ المنتثر في كل ناحية ألف رائحة متنوعة وغريبة تسكر الإنسان . وغيد معاطير وفتور يهيج الهواء شهوة . لا ريب أن وجود فتى في العشرين من عمره في مكان كهذا منفرداً بين هذه الروائع فيه ما يأخذ باللب ، فكان الفارس يتقدم مستسلماً للمصادفة كأنه في حلم . وكان يتمتم قائلاً : « حقاً إنه قصر الجن ! » إذ خيل إليه فعلاً أنه يرى تحقيق إحدى تلك القصص التي يكتشف فيها الأمراء التائهون قصوراً مسحورة

— أتقيم في هذه المغاني التي لا مثيل لها مخلوقات فانية ؟ وهل تجلس غوانٍ من لحم ودم على هذه الأرائك التي ما يزال من استدارتها اللينة فوق تلك المتكآت هذا الأثر الخفيف المفعم بالتراخي ؟ من يدري ؟ ربما تبينا من وراء هذه الأستار الصفيقة أميرة ما تزال نائمة منذ مائة عام في أعماق مخدع واسع باهر ، أو فتاة من الجن بثوب من سلال أو إلهة الرخام تفتح رافدة ذهبية في عمود من المرمر وتخرج منها

أذهبت هذه الأوهام صواب الفارس فألقى بنفسه على أريكة هناك كي يحلم . ولو لم يتذكر أنه عاشق لظل مشرد اللب أمداً طويلاً . ما الذي تفعله آنئذ الآنسة أنيبول حبيبته الحبيسة في قصرها العتيق

فصاح فجأة : أتيناني ! ماذا أصنع هنا غير إضاعة الوقت ؟ هل عدمت الرشد ؟ أين أنا إذن ؟ إلهي ماذا جرى لي ؟ ثم نهض واستمر يجوس خلال هذه

المدينة الجديدة فضلّ فيها وكان ذلك أمراً بدهياً .
وظهر له خادمان أو ثلاثة في أقصى الرواق يتهامسون فتقدم منهم وسألهم عن طريقه إلى مكان الحفلة فأجيب بنفس اللهجة : « إذا كان سيدى المركيز يرغب أن يحتمل مشقة النزول من هذا السلم ويسير فى الرواق الأيمن فسيجتاز ثلاث درجات ينعطف عنــد ارتقائها إلى اليسار ، وعند ما يجتاز قاعة ديانا وقاعة أبولون وقاعة الشعراء وقاعة الربيع يهبط ست درجات أخرى ثم يترك على يمينه قاعة الحرس ليصل إلى سلم الوزراء ، وهناك يصادف ولا شك حجاباً يدلونه على الطريق

— شكراً . إننى إن لم أهتد بعد هذه المعلومات فذلك ذنبى

وعاد إلى المسير بشجاعة ، ولـكنه كان يقف رغماً عنه ينظر من طرف إلى طرف ، ثم يتذكر غرامه فيتابع تسياره ؛ وأخيراً بعد ربع ساعة خالها دهراً ألفى خداماً جدداً كما أنبىء من قبل ، قالوا له :

« السيد المركيز قد ضل ، إذ كان عليه أن يسير من الجناح الآخر للقصر ، ومع هذا فالوصول إليه سهل ، وليس على السيد إلا أن ينزل من هذا الدرج ثم يجتاز قاعة النقوش وقاعة الصيف وقاعة ... فقال: « أشكركم » .

وناجى الفارس نفسه قائلاً : « إنى مغفل حقاً إذ أسأل ناساً كالبلهاء فأنتقص شرفي في جهد ضائع ؛ ولو أن هؤلاء على فرض المستحيل لا يسخرون مني . وماذا تفيدنى هــذه الأسماء التى يسردونها أمامي بل وكل هذه الألقاب الطنانة لقاعات لا أعرف منها واحدة ؟ »

وعول أن يذهب قدماً فى الجهة اليمنى قدر الامكان ، وحدث نفسه بقوله : إن هــذا القصر جميل جداً وشاسع جداً ، ولـكنه محدود له نهاية ؛ وليكن أطول من قصرنا بثلاث مرات فيجب أن أرى أقصاه

لـكن ليس من السهل أن يسير الانسان فى اتجاه واحد نحو الأمام فى قصر فرساى مدة طويلة وآلهة البناء لم ترض هذه المقارنة القروية بين الدار الملـكية والقصر الحقير إذ بدأت تشرد العاشق المسكين وتضلله بشكل مروع لـكى تعاقبه ولا ريب ، فقد أخذت تتلذذ بأن تديره وتلفته على أقدامه ذاتها فترجعه بلا فتور إلى الموضع عينه كفلاح تائه فى غابة . وهكـذا ظل جبيس البناء المرمرى الذهبى

فى لوحة « أزمان روما القديمة » التى صورها بيرانيزى الايطالى مجموعــة رسوم يسميها المصور « أحلامه » هي تذكار مشاهداته الخاصــة أثناء هذيان حمى انتابته ، تمثل هذه الرسوم قاعات غوطية شاسعة فرشت أرضها بكل أنواع الآلات والأدوات والعجلات والحبال والبكرات والروافع والمجانق وغيرها دلالة على قوة عظمى تقوم بعملها وعلى مقاومة هائلة . وتشاهد على شفير الجدران سلماً يرتقيها بيرانيزى نفسه بصعوبة . وإذا ما اتبعت بنظرك درجاتها العلوية تشرف فجأة على هوة سحيقة . ومهما يكن من أمر بيرانيزي المسكين فانك توقن أنه أنجز عمله على الأقل إذ لا يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة دون أن يقع ؛ لـكن أرجع البصر ترى سلماً أخرى منصوبة فى الهواء فوقها بيرانيزى أيضاً على شفــا هاوية أخرى . أنظر إلى الأعلى أيضاً تجد سلماً هوائية تنصب أيضاً وبيرانيزى يتمم صعوده وهكذا

على التوالى إلى أن تختفى السلم الأبدية هى وبيرانيزى معاً فى الغيوم أعنى فى حافة الصورة

إن هذه الصورة التى أوحتها الحمى تمثل بكثير من الدقة الضجر من جهد بلا جدوى ونوع الدوار الذى يسببه نفاد البصر كحال فارسنا الذى استولى عليه الغضب وهو يجوب قاعة بعد قاعة وإيواناً بعد إيوان ثم قال :

« حقاً إن هذا أمر قاس . انى بعد إذ كنت مفتوناً مأخوذاً مغتبطا لوجودى وحيداً فى هـذا القصر اللعين (إذ ليس هو قصراً للجن) لم أعد أستطيع منه خروجا ! قبح الله الغطرسة التى أوحت إلى فكرة الدخول إلى هنا كما فعل الأمير (فنفرينه) بحذائه الذهبي الثقيل بدلا من أن أطلب إلى أول خادم قادم أن يقودنى بكل طيبة خاطر إلى قاعة الحفلة!

لما استشعر الفارس من نفسه هذا الندم المتأخر كان مثل بيرنيزاى فى منتصف سلم على درجة قائمة بين ثلاثة أبواب خيل إليه أنه يسمع من أوسطها لفظاً شديد العذوبة خفيف الجرس مفرط اللذة إذا صح التعبير ، بحيث لم يستطع أن يمتنع عن الصياح دهشاً وبينما كان يتقدم ويصيح بسمعه فى اضطراب من ذلك انفتح هذا الباب على مصراعيه وعبق فى وجهه نسيم عطرى أرجه ألف شذى ، وطغت عليه موجة من النور كسفت قاعة المرايا ، فنكص على عقبيه من هذه المفاجأة وسأله الحاجب الذى فتح الباب : « هل يريد سيدى المركيز الدخول ؟ » فأجاب :

— أريد الذهاب إلى حفلة التمثيل

— إنها انتهت فى هذه اللحظة

وعندئذ أخذت تخرج من قاعة الاحتفال غيد حسان مخضبات فى أناقة بالأحمر والأبيض ، يمسكهن لا من أذرعهن ولا من أيديهن بل من أطراف البنان سادة كهول وفتيان ؛ وكن جد حريصات على أن يتهالكن فى مشيتهن كيلا تتسخ ثيابهن ؛ وكان كل من فى هذا الحفل الباهر يتكلم همساً بشىء من الجذل الممزوج بالرهبة والحرمة

لم يحزر الفارس أن الصدفة قادته إلى المخدع الصغير بالضبط. فقال : ما هـذا إذن ؟ فأجاب الحاجب : سيمر الملك . هناك ضرب من البسالة التى لا يقف دونها شىء وهذا النوع بسيط جداً لأنه شجاعة غير المهذبين من الناس ، وفتانا الريفى لم يكن يتصف بهذه المزية على رغم كونه باسلاً حقاً ، فما إن سمع كلمتى « سيمر الملك » حتى تولاه الجمود وتملكه شىء من الذعر . كان فى لويس الخامس عشر تراخي الملوك وقلة اكتراثهم وإن كان يظل فى الصيد ممتطياً صهوة الجواد اثنى عشر ميلا دون أقل حذر . ولم يكن يطرى نفسه عبثاً بأنه أول شريف فى فرنسا ، ولا تقول له حظياته دون سبب إنه أكمل الأشراف وأجملهم . وكانت رؤيته تاركا مقعده ومتنازلاً للمسير بشخصه الكريم أمراً غريبا. وعند ما اجتاز المخدع وذراعه موضوعة أو بالأحري ممتدة على كتف المسيو درجنسون بينما كان كعبه الأحمر ينزلق على الأرض (وكان قد ابتدع هذا الزى من الكسل) انقطعت الضوضاء وطأطأت الحاشية رؤوسها ولم تجسر أن تحيى فوراً . أما الحور العين فجثون بهدوء وأناة على أربطة سوقهن ذوات اللون النارى فى أقصى أرديتهن الفضفاضة وحيين بخلاعة تحية تدغدغها جداتنا احتراماً ، وقد استبدل بها عصرنا المصافحة الانكليزية الجافة

أما الملك فلم يكن يبالى شيئاً أو ينظر إلا لما يحلو له . ولعل الكاتب (ألفيري) الذى يقص في مذكراته كيف مثوله فى فرساى ، كان هناك حيث يقول :

« كنت أعلم أن الملك لا يكلم غير البارزين من الأجانب ، ومع هذا لم أستطع أن أعتدى على هيئة لويس الخامس عشر العبوسة المقطبة إذ يجيل النظر فيمن يقدم إليه من رأسه إلى أخمص قدميه ، ولا يبدو عليه أى اكتراث له . وقد لاح لي آنذاك أنه كذلك الجبار الذى قيل له « دونك نملة أقدمها إليك » فنظر إليها وابتسم أو لعله قال : « ما أصغر هذا الحيوان ! »

جلس الملك خلال هذه الأزهار وتلك الغيد الحسان وكل ذلك البلاط واجماً لا يعبأ بأحد ، فأدرك الفارس دون تأمل طويل أن أمله فى الملك خائب وأن قصة غرامه لن تنال شيئاً من اهتمامه . وفكر يقول :

« إننى لتعس ! ولقد كان أبى محقاً إذ قال لى إنني سأرى بينى وبين الملك هوة وأنا على قيد خطوتين منه . من ذا الذى يحمينى بل من يقدمنى إليه إذا ما اقتحمت خلوته ؟ هو ذا السيد المطلق الذى يستطيع بكلمة أن يغير طالعى ويؤمن سعادتى ويحقق أمانى . إنه هنا أمامى ، وإذا مددت ذراعى لمست زينته ، ولكنى أشعر أنى أشد بعداً عنه منى عند ما كنت فى أقصى قريتى ! من لي بأن أكلمه أو أحازيه ؟ ومن ينجدنى إذ ذاك ؟ »

بينما كان الفارس هكذا مغتماً رأى غانية مُعْصراً تدخل وسمات الرقة والدعة تشع منها . كانت ترتدى ثوباً أبيض غاية فى البساطة دون ماس أو وشى وفوق أذنها وردة وقد أعطت يدها برشاقة ولباقة لسيد كانت تكلمه همساً من وراء مروحتها

وشاءت الصدفة أن تفلت هذه المروحة خلال حديثها وضحكها وحركاتها فتسقط تحت مقعد كان أمام الفارس تماماً فبادر لالتقاطها حالا ، ومن أجل ذلك جثا على إحدى ركبتيه فبدت له الشابة فتانة جداً حتى أنه قدم إليها المروحة دون أن ينهض ، فوقفت هنيهة وابتسمت ، ثم مضت بعد أن شكرته بإيماء خفيف برأسها ؛ وشعر الفارس عقب النظرة التى رمته بها بخفقان فى فؤاده دون أن يعلم لماذا — وكان محقاً — فإن هذه الصبية كانت (المتلونة الصغيرة) كما لا يزال يدعوها الناقون . أما الآخرون فكانوا يقولون عند الكلام عنها : « المركيزة » كما يقال « الملكة »

— ٤ —

« هـذه هى التى ستحمينى والتي ستنجدني ! حقاً إن الراهب مصيب إذ قال لى إن نظرة تقرر مصيرى ! نعم إن هاتين العينين الناعستين الجميلتين ، وهذا الثغر العذب الساحر ، وتلك القدم الغريقة فى الحذاء الحريرى ... هى سحر جنيتى الحنون ! »

بهذا كان الفارس يناجى نفسه ولكن بصوت عال : وذلك لدن عودته من الفندق . فمن أين أتاه هذا الأمل الفجائى ؟ هل كان الصبا يتكلم فيه ، أم إن عيون المركيزة كانت قد تكلمت ؟ على أن العقدة ماتزال على حالها ، لأنه إذا لم يعد الآن يفكر فى المثول بين يدى العاهل فمن ذا الذى يقدمه إلى المركيزة ؟ وقضى شطراً عظيماً من الليل يكتب للآنسة آنيبول رسالة تضارع الرسالة التى قرأتها السيدة يمپادور من قبل . وإيراد نص هـذه الرسالة لا فائدة منه إذ

ليس سوى العشاق — إذا استثنينا البلهاء — من يستشعرون الجدة إذا كرروا الشيء ذاته

ولما انبلج الصباح خرج الفارس يتمشى في الدروب وهو يحلم ، ولم يخطر بباله أن يستعين بحماية الراهب . وليس من السهل تبيان السبب الذي وقف به دون ذلك إذ هو خليط من خوف وجرأة ، ومزيج من خجل خاطئ وخيال . وفي الحقيقة بم كان يجيبه الراهب إذا قص عليه قصة العشية ؟ كان يقول :

— لقد أتيح لك التقاط مروحتها ، فهل عرفت كيف تستفيد من ذلك ؟ ماذا قلت للمركيزة ؟

— لا شيء

— كان عليك أن تخاطبها

— كنت مضطرباً فأضعت الرشد

— هذا خطأ . يجب معرفة اقتناص الفرصة ويمكن تلاقي ما فات . أريد أن أقدمك إلى السيد فلان فانه من أصدقائي ، أو إلى السيدة فلانة فانها أحسن وأفضل ؛ وسنحرص على أن نوصلك إلى هذه المركيزة التي أخافتك ... الخ ... الخ

على أن الفارس لم يكن يبالي شيئاً من هذا وكان يخيل إليه — إذا صح التعبير — أنه إذا سرد الحادثة أذهب رونقها وأفسد بهاءها . وكان يقول في نفسه إن الصدفة فعلت من أجله ما لم يسمع بمثله ولا يمكن تصديقه فيجب أن يظل هذا سراً بينه وبين السعادة . وكان يرى أن إفشاء هذا السر لأول من يصادفه يجرده من قيمته ويظهره غير جدير به ، فكان يناجي النفس قائلاً : أمس ذهبت إلى قصر فرساي منفرداً ، فسأذهب اليوم إلى قصر تريانون وحيداً . (وكان قصر تريانون مقام الحظية يومئذ)

قد يبدو هذا الطراز من التفكير — بل ويجب أن يبدو — خيالاً وعتاهية لمن ينعم النظر في العواقب فلا يدع للصدق مكاناً . لكن أبرد الشبان أعصاباً إذا كانوا شباناً حقيقة (إذ ليس كل الناس كذلك وإن كانوا في سن الشباب) تمكنوا أن يستبينوا هذا الشعور الغريب ، الضعيف الجريء ، والخطر الأخاذ ، الذي يستدرجنا نحو الحظ . يشعر الانسان بأنه أعمى ويتمنى ذلك . لايدرى أين المسير ولكنه يمشي ؛ والسحر هو في هذا الاستخفاف وهذا الجهل نفسه ، فهو لذة الفنان إذ يحلم ، والعاشق إذ يقضي الليل تحت نوافذ صاحبته ؛ وهو فطرة الجندي بل وكفاءة المقامر

سلك الفارس سبيل تريانون من دون وعي تقريباً . وعلى أنه لم يكن حسن الهندام كما يقال فما كانت تنقصه الأناقة ولا العظمة التي تجعل الخادم حين يلتقي بك لا يجرؤ على أن يسألك : إلى أين تذهب ؟ وبفضل بعض المعلومات التي استقاها من فندقه لم يعسر عليه الوصول إلى باب القصر الخارجي ، إن كان يصح تسمية هذا البيت المرمري الصغير الذي رأى كثيراً من الملاذ والمتاعب قصراً . وكان الباب مغلقاً لسوء الحظ ، وفي المشى الداخلي سويسري ضخم متزمل برداء فضفاض يتمشى ويداه خلف ظهره فعل من لاينتظر أحداً

فتساءل الفارس : « لعل الملك هنا ! أو لعل المركيزة غير موجودة . وعندما تكون الأبواب مغلقة والخدم يتنزهون فمن البديهي أن يكون الأسياد موجودين أو خارجين »

ما العمل ؟ فقد انتابه الاضطراب والخيبة فجأة بعد ما كان منذ هنيهة يشعر بالشجاعة ورباطة الجأش ؛ وكانت تخيفه فكرة كون « الملك هنا » أكثر مما أرعبته أمس الكلمات الثلاث : « سيمر الملك قريباً » لأنها كانت آنئذ مفاجأة ؛ أما الآن

فهو يعرف نظرته الصفراء وعظمته القاسية

« رباه ! بأى وجه أقابل هذا الملك الرفيع بعد إذ أحاول الدخول إلى هذه الحديقة كطائش سادر فألتقى به وجهاً لوجه وهو يتناول قهوته على حافة الساقية ؟ »

وتمثل فى الحال للعاشق المسكين شبح الباستيل البغيض بدلا من خيال المركيزة الفاتن الذى ارتسم فى مخيلته إذ مرت باسمة ، ولقد استبان مشارف وأقبية وخبزاً أسود وماء التعذيب ، لأنه كان يعرف حكاية (لاتود) المتشرد الفرنسى الذى ظل سجيناً خمساً وثلاثين سنة لاستياء السيدة بمبادن منه . فأخذ التأمل يحل شيئاً فشيئاً محل الأماني التى طارت

وحدث نفسه ثانية قائلاً : غير أنى لم أجترم ذنباً قط لا أنا ولا الملك أيضاً . وأنا إنما أعترض على ظلامة دون أن أنتقص أحداً ؛ وأمس استقبلت فى فرساى بكل لطف ، وكان الخدم جد مهذبين فعلام الخوف إذن ؟ أمن ارتكاب حماقة ؟ سأعمل على ما يرتق الفتق »

اقترب من الباب ولمسه بأصبعه ، ولم يكن مغلقاً تماماً فانفتح فدخل بثبات ، فانفتل السويسري فى سأم وقال : « ماذا تطلب ؟ إلى أين تذهب ؟

— أذهب إلى السيدة دى بمبادور

— هل أنت على موعد ؟

— نعم

— أين رسالتك ؟ »

ليس لديه كلمة من مركيز كما كان بالأمس، وليس معه فى هذه الكرة كلمة من الدوق دومون ! وأطرق الفارس واجماً فلاحظ أن جوربه الأبيض وأبازيمه اللامعة قد غطاها الغبار ، وكان قد ارتكب خطأ بالمجىء مشياً فى بلد لا يمشى الناس فيه ؛ فأطرق السويسرى أيضاً ، ثم صعد فيه النظر لا من فرق رأسه إلى قدمه ، بل من قدمه إلى فرقه ، فبدا له الثوب نظيفاً ولكن القبعة كانت مائلة قليلاً ولا غبار عليها . فقال :

« ليس معك رسالة . فماذا تريد ؟ »

— أريد أن أتحدث إلى السيدة دى بمبادور

— أصحيح ! وهل حسبت أن ذلك يجري على هذا الشكل ؟

— لا أعلم شيئاً عن هذا ، هل الملك هنا ؟

— ربما . أخرج ودعنى فى راحة

اصفر الفارس لهذه القحة رغماً عنه إذ ما كان يريد أن يستولى عليه الغضب فأجاب : « كنت أقول أحياناً للوصيف أن يخرج ، لكن لم يقل لى ذلك وصيف قط »

فصاح السويسرى فى حنق : وصيف ! أنا وصيف ؟

— وصيف ، بواب ، خادم وضيع ، إنى لا أهتم بذلك وقلما أعنى به

فخطا السويسرى نحو الفارس خطوة وقبضتاه متشنجتان ووجهه ملتهب ، فتحفز الفارس متهدداً واستل بعض حسامه وقال : « خذ حذرك فإننى شريف نبيل ويكلفنى أن أجندل فظاً مثلك ستاً وثلاثين ليرة

— إن كنت نبيلاً فأنا من أتباع الملك ، أقوم بواجبي . ولا تظن ...

سمع عندئذ صوت بوق من بعيد كأنه آت من غابة (ساتورى) ثم تلاشى فى الصدى ، فترك الفارس

سيفه يسقط فى غمده وقال وقد نسى الشجار الذى ابتدأ :

— ويحك ! إن الملك يخرج إلى الصيد ، فلم لم تقل لى ذلك فوراً ؟

— ليس هذا من شأنى ولا من شأنك أيضاً

— أصغ إلىّ يا صديقى العزيز : ليس الملك هنا ، وليس لدى رسالة ، ولم أحصل على موعد . هاك ما تصلح به شأنك ودعنى أدخل

وأخرج من جيبه بضعة نقود ذهبية ، فصوب إليه السويسرى نظرة ثانية باحتقار شديد ، وقال بترفع :

— ما هــذا ؟ بهذه الوسيلة يحاول الناس الدخول إلى دار ملكية ؟ إحذر أن أحبسك فى هذا المكان بدلاً من أن أخرجك منه

فاستعاد الفارس عندئذ غضبه وأمسك حسامه ثانية وقال :

— أأنت أيها الخليع ؟

فردد الرجل الضخم قائلاً : « نعم أنا »

لكن أثناء هــذا الحوار الذي يأسف المؤرخ لتعريض بطله له اغبرت السماء وتلبدت بالغيوم وثارت عاصفة لمع فيها برق خاطف تلاه رعد قاصف وانهمر وابل من الغيث فرأى الفارس والذهب ما يزال فى يده قطرة ماء كبيرة كالدينار على حذائه المغبر فقال : « ويلك ! هلا صرنا إلى ملجأ . إذ ليس من اللازم التعرض للبلل »

واتجه برشاقة نحو غار مالك (خازن النار) حيث دار البواب إذا احتيج إليه ، وهنالك بلا اكتراث ألقى بنفسه على مقعد البواب الكبير وقال :

« رباه ! إلى كم تضايقنى ! وكم أنا تعس ! إنك تحسبنى ثائراً ولا تفهم أن فى جيبي رفيعة لجلالته ! وأنى من أبناء الريف . لكنك أحمق »

فكان جواب السويسرى أن ذهب إلى زاوية أخذ منها رمحه وظل واقفاً كذلك والسلاح فى يده وصاح بعنف « متى ترحل ؟ » ويظهر أن الشجار الذى تنوسى وجدد مرة بعــد أخرى غدا جداً فى هــذه المرة . وصارت يدا السويسرى الضخمتان تضطربان بشكل غريب . ولا أدرى ما الذى كاد أن يحدث حينما التفت الفارس فجأة وقال « آه ! من هــذا القادم ؟ » وكان خادماً ممتطياً جواداً كريماً يعدو به ملء فروجه ، وكان الطريق قد توحل من المطر والباب غير مفتوح تماماً فتردد القادم ، فتقدم السويسرى من الباب ففتحه ، فوكز الراكب الحصان بمهمازه وكان قد وقف هنيهة فاندفع فعثرت به قائمته فكبا بفارسه على الأرض البليلة

ليس من السهل أبداً إنهاض جواد كبا حيث لا سوط يساعد على ذلك ، بل ذلك خطر . وكانت محاولة الجواد فاشلة خصوصاً وإن قدم الراكب ما تزال تحت السرج . إلا أن فارسنا بادر لمعونة الخادم دون أن يلقي لهذه المحاذير بالا ، وما عتم أن أنهض الحصان وخلص ممتطيه من الوحل الذى أخذ يقزل ببطء فنقله حالاً لمنزل السويسرى فجلس بدوره فى المقعد الكبير وقال للفارس : « لا مرية في أنك نبيل ياسيدى ، وقد أسديت إلىّ خدمة ، فهلا أسديت إلىّ يداً ؟ أجل فتذهب بهــذه الرسالة إلى السيدة المركيزة بدلا منى لأنها مرسلة من الملك ومستعجلة جداً كما ترى ، فقد كادت تدق عنقى وعنق جوادى من أجل السرعة ، وصرت الآن وأنا أعرج أخلق بحمل نفسى مني بحمل هذا الرقيم

وأخرج الغلام من جيبه غلافاً كبيراً مذهباً ومزيناً بنقوش عربية وعليه الخاتم الملكي

فأجاب الفارس : « حباً وكرامة يا سيدى » ومضى بعد أن أخذ الغلاف ، يعدو على رؤوس أقدامه بخفة ورشاقة

— ٥ —

لما وصل الفارس إلى القصر وجد سويسرياً أيضاً أمام الايوان فقال وقد أبدى الرسالة : « أمر الملك » فما كان الفتى يخشى الحراب فى كرته هذه فدخل جذلاً ماراً بين نصف دستجة من الخول والاتباع

ورأى الأمر الملكي والخاتم حاجب كبير واقف وسط الدهليز فانحنى بوقار كنخلة حنتها الريح ، ثم لمس باحدى أصابعه الهزيلة وهو يبتسم زاوية أحد الجدران الخشبية فانفتح حالا باب سري مغطى بسجادة ، فأشار الحاجب للفارس بلطف فدخل منه وانسدلت السجادة خلفه ، وعندئذ أدخله وصيف صموت إلى قاعة ومنها إلى ردهة فيها أبواب ثلاث أو أربع غرف صغيرة ثم أخيراً إلى قاعة ثانية ورجاه أن ينتظر قليلا . فتساءل الفارس: « أأنا فى قصر فرساى أيضاً ؟ وهل نشرع فى لعبة (الطميمة) ؟ »

لم يكن قصر تريانون يومئذ كحاله الآن أو كما كان قبلئذ ، وقد قيل إن السيدة منتنون جعلت فرساى معبداً ، وإن السيدة پمبادور جعلته وكر غرام. وقيل أيضاً عن تريانون : إن هذا القصر الخزفى الصغير كان عش غرام السيدة مونتسبان . ومهما يكن من أمر هذه الوكنات فان لويس الخامس عشر أنشأها فى كل ناحية كما يظهر ، فالوصيد الفلانى حيث كان يتجول جده بجلال أصبح يومئذ منقسما بصورة غريبة إلى أجنحة وأقسام غير متناهية وفيها من كل الألوان ، وكان الملك ينتقل كفراشة بين هذه الغياض الحريرية والمخملية

وقد سأل يوماً الكونتس سيران الجميلة : — ألا يشوقك أثاث مقاصيرى ؟

فقالت : — لا ! إنى أريده أزرق . ولما كان الأزرق هو لون الملك فقد أطربه هذا الجواب . وفى الخلوة الثانية وجدت السيدة سيران أثاث المقصورة أزرق كما رغبت

ولم تكن القاعة حيث كان الفارس آنئذ وحيداً زرقاء ولا بيضاء ولا وردية ولكنها كانت كلها مرايا. ومن المعلوم مقدار ما تجنيه السيدة الجميلة ذات القوام الفاتن من تمكنها من إبداء محاسنها مكررة على ألف وضع فهى تصرع وتستولى على من تود أن تفتنه لأنه أنى نظر رآها فلا يجد إلى اتقائها سبيلا فيضطر أن يفر أو يعترف بخضوعه

كان الفارس ينظر أيضاً إلى الحديقة حيث تتجلى خلال الجنائن والماشي السندسية الأوابد والأوانى المرمرية التى يبدو فيها ذوق الرعاة ؛ وكانت المركيزة تعمل على جعله زياً وطرازاً وقد ارتفع بعدئذ لدرجة سامية من الكمال والاتقان زمن السيدة بارى والملكة مارى انتوانيت . وكانت تظهر البدائع الحلوية حيث تنزوى الأخيلة التى تذهب اللب . وكانت الحرابى المموهة وتماثيل الآلهة الوقورة والهيا كل العلمية والأنصاب ذات الرؤوس الكبيرة الجامدة من الهول في صوامع زبرجدية ترى ظهور بستان انكليزي خلال أشجار السرو الذاهلة وتكاد

الجداول الصغيرة والمغابر الصغيرة تحل محل الجنة فتستبدل بها دار ألبان . ما أعجب سخرية الطبيعة التى يقلدها الانكليز وينسخونها دون فهم ! لعبة طفل حقيقية أضحت الآن ملهاة سيد كسول لا يدري كيف يبدد سأمه من فرساى وهو فى فرساي نفسها

أما الفارس فكان جد مفتون وجد مأخوذ من وجوده هناك فلم تخطر على باله فكرة الانتقاد لأنه كان بالعكس مستعداً لإكبار كل شيء ، وكان فعلاً معجباً بكل شيء . وبينما هو يقلب الوكنة بين يديه فعل القروى بقبعته إذا وصيفة حسناء تفتح له الباب وتقول بعذوبة :

« تعال يا سيدى » فتبعها ، وبعد ما اجتاز من جديد عدة أروقة سرية أدخلته غرفة كبرى لم يكن مصراعاها مغلقين تماماً ، وهناك وقفت وأخذت تصغى

فجعل الفارس يقول فى نفسه : « لعبة الطميمة دائماً » ومع ذلك فقد انفتح أيضاً بعد مضى زمن قصير باب وكررت وصيفة أخرى كانت تبدو أكثر جمالاً من الأولى بنفس اللهجة نفس الكلمات :

« تعال يا سيدى »

ولئن كان فى فرساى مضطرباً فقد كان الآن كذلك مضطرباً مهتاجاً ولكن بصورة تختلف كثيراً عن الأولى . لقد أدرك أنه يلمس أعتاب الهيكل الذى تحل فيه الألوهية ، فتقدم خافق القلب مستضيئاً بنور لطيف أسدل عليه غطاء فتبدد بعض الظلام ، وتأرج الجو بعطر لذيذ عبق لايكاد يدرك ، فأزاحت الوصيفة بوجل زاوية سجف حريرى فاذا به يرى فى أقصى مخدع كبير بسيط الأثاث رائعه ، السيدة ذات المروحة ــ يعني المركيزة القديرة . وكانت وحيدة ، جالسة أمام منضدة وقد التفت بقرقل وأسندت رأسها بيدها ، وبدت جد منهمكة . فلما رأت الفارس يدخل قامت فوراً وقالت : « هل أنت قادم من عند الملك ؟ » وكان فى إمكان الفارس أن يجيب . ولكنه لم ير أحسن من أن يجثو باحترام ويقدم إلى المركيزة الرسالة التى يحملها فأخذتها أو بالأحرى تناولتها بحدة بالغة ، وكانت يداها وهى تفض الرسالة تضطربان من فوق الغلاف

كانت هذه الرسالة التى سطرها الملك بيده طويلة جداً فالتهمتها أولاً بنظرة إذا صح القول . ثم قرأتها بحرص ودقة عميقة ، مقطبة حاجبيها مطبقة شفتيها ، فما كانت وهى كذلك جميلة ولا تشابه قط المظهر السحرى الذى بدت فيه لدى المخدع الصغير . فلما أتت على آخر الرقيم أخذت تفكر ، وبدأ وجهها الذى اصفر يتخضب شيئاً فشيئاً بلون وردى خفيف (وما كان لديها آنئذ خضاب أحمر) واستعادت مع الدماثة والأنس بارقة من جمال حقيقي لاح على وجهها الصبوح حتى ليظن أن خديها وردتان . فتنفست الصعداء وألقت الرسالة على المنضدة ثم التفتت نحو الفارس وقالت له بابتسامة خلابة :

« لقد كلفتك مشقة الانتظار لأنى لم أكن مستيقظة ، وما أزال ، ولذا أمرت أن يؤتى بك من المقاصير فإنى سجينة هنا كما لو كنت فى بيتى . وبعد فإنى أريد أن أجيب الملك بكلمة فهل يسوؤك أن تكون رسولى ؟

تريث الفارس إذ رأي أن من واجبه الإفصاح حتى إذا استجمع قليلا من شجاعته قال في حزن :

— مع الأسف يا سيدتى ! إن هذه المنة التى تطوقين بها جيدى لا أستطيع لها نيلا

— وكيف ذلك ؟

— لم أحصل على شرف أن أكون من أتباع جلالته

— وكيف جئت إلى هنا إذن ؟

— مصادفة واتفاقاً . فقد اتفق أن رأيت فى الطريق خادماً ملقى على الأرض فرجانى ... (ويظهر أن المركيزة كانت آنئذ جذلة وأن السرور يأتيها طائعاً)

فأعادت مقهقهة :

— كيف ؟ ملقى على الأرض ؟

— نعم ياسيدتى فقد كبا به حصانه لدى الباب ، واتفق وجودى هناك لحسن الحظ فساعدته على النهوض وكانت ثيابه قد توحلت كثيراً فرجانى أن أحمل رسالته

— وأية مصادفة أوجدتك هناك ؟

— ذلك لأن لدى رفيعة أريد تقديمها إلى جلالته

— ولكن لا يقطن الملك هنا

— نعم ولكنك تقطنين أنت

— بخ بخ ! كأنك كنت آتيا تحملنى رسالة !

— سيدتى أرجو أن تصدقينى ...

— لا تخش ، فما أنت أول من فعل ذلك ... ولكن أسألك بالمناسبة : فيم تقصدنى أنا ؟ مع أني لست إلا امرأة ... كسائر النساء

وعندما فاهت المركيزة بهذه الكلمات فى سخر ، زمقت الكتاب الذى فرغت من تلاوته بظفر ، فأجاب الفارس :

— إنى أسمع دائماً القول المأثور : الرجال يمارسون السلطة والنساء ...

— يملينها ، أليس كذلك ؟ حسن ياسيدى ، إن فى فرنسا ملكة

— أعرف ذلك ياسيدتى ولهذا تجدينني هنا اليوم!

وكانت المركيزة معتادة أمثال هذه الأحاديث كثيراً وإن لم تكن تفاتح بها إلا بصوت خافت ، ولكن يظهر أن الحديث الحالى سرها جداً فقالت :

واعتماداً على أي ظن ، وثقة بأى يقين وثقت بإمكان الوصول إلى هنا ؟ إذ يخيل إلىّ أنك لم تكن تحسب حساب جواد يعثر فى الطريق !

— سيدتي . كنت أعتقد ... كنت آمل ...

— ماذا كنت تأمل ؟

— كنت آمل أن تستطيع ... الصدفة ...

— دائماً الصدفة ! إنها من أصدقائك على مايظهر ، ولكنى أنذرك إن لم يكن لك من صديقة سواها فشفاعتك محزنة

ربما أوشكت السعادة المهانة أن تنتقم لنفسها من هذه القحة لولا أن رأى الفارس الذى خبلته هذه الأسئلة الأخيرة على حافة المنضدة المروحة التى التقطها أمس ، فأمسكها وقدمها إلى المركيزة وقد ركع ركوع البارحة وقال لها : « هاك ياسيدتى صديقتى الوحيدة هنا »

فحارت المركيزة برهة وأخذت تنظر إلى المروحة تارة وإلى الفارس أخرى وقد بدا عليها الذهول ثم قالت :

— آه ! إنك محق فقد عرفتك . إنك أنت يا سيدى ! أنت نفسك الذى رأيته أمس بعد التمثيل مع السيد ريشيليو فأسقطت هذه المروحة حيث وجدت كما تكرر القول ...

— نعم يا سيدتى

— فأعدتها إلىّ بكل لباقة كفارس من صميم الفرسان ، فلم أشكرك ، ولكنى ما زلت واثقة بأن من يعرف كيف يرفع مروحة بمثل هذه الرشاقة

البالغة يعرف كيف يرفع عند اللزوم القفاز أيضاً ؛ ونحن النساء نحب هذا

— ليس ما قلت سوى الحقيقة لأنى كدت أبارز السويسرى آنفاً لدى مجيئى

— ويحك ! مع السويسرى ! وفيم ؟

— لم يشأ أن يدعني أدخل

— لو أصر لخسرنا . ولكن من أنت ياسيدى ؟ وماذا تطلب ؟

— سيدتى إنى أدعى الفارس ڤوڤر ، وعدنى السيد بيرون أن يجعلنى ضابطاً صاحب العلم

— حقاً لقد تذكرت أنك آت من نوفليت وأنت عشيق الآنسة أنيبول

— سيدتى من الذى استطاع أن يقول لك ؟

— آه ! أنذرك بأننى ممن يرهب جانبهم وأنا أحزر عند ما تخوننى الذاكرة أنك قريب الراهب شوفلان وقد رفضت من أجل هذا . أليس كذلك ؟ أين رفيعتك ؟

— هاهي ذي، ولكنى حقيقة لا أقدر أن أفهم

— وفيم الفهم ؟ انهض وضع ورقتك على هذه المنضدة فإنى سأجيب الملك فتحمل إليه طلبك ورقيمى معاً

— ولكنى أظن أن قد قلت لك يا سيدتى ...

— ستذهب . فقد دخلت إلى هنا من عند الملك ؛ أليس كذلك ؟ حسن ! وستدخل إلى هناك من عند المركيزة بمبادور وصيفة شرف الملكة

فانحنى الفارس دون أن ينبس ببنت شفة وقد أخذته الدهشة ، فقد كان الناس كلهم يعرفون منذ زمن طويل ما حاكت الحظية من أحابيل وما دبرت من حيل ومكائد ، وكم قاومت فى سبيل الحصول على هذا االقب الذى لم تجن من ورائه إلا العار والفضيحة لولى العهد ، وقد انقضت سنوات عشر والرغبة فيه تلتهم فؤادها حتى نالته أخيراً ، ولم تكن تعرف أن السيد ڤوڤر سوى قصة غرامه ولكنها كانت مسرورة به سرورها من خبر مفرح

كان الفارس واقفاً فى جمود خلف المركيزة يراقبها وهى تكتب باندفاع ولهفة ثم تفكر وتنقطع عن الكتابة فتلمس بيدها أنفها الصغير الدقيق كالعنبر ثم يفرغ صبرها كأن أمراً يضايقها ثم تمضى أخيراً وترمج ، ومن الواجب أن نقر بأن ما تكتبه ليس سوى المسودة

كانت قبالة الفارس فى الطرف الآخر من المنصة مرآة جميلة من صنع البندقية تلمع ، وعلى أن الرسول الجبان لم يكن يجرؤ أن يرفع ناظريه ، فقد كان من الصعب ألا يرى فى هذه المرآة وجه وصيفة الملكة الجديدة ، ذلك الوجه العبوس الساحر فأخذ يناجى نفسه قائلاً :

— ما أجملها ! ومن تعاستى أنى عشيق سواها . ولكن (أتيناى) أجمل ، ومع هذا فإن التفكير فى ذلك يعد منى خيانة صريعة !

فقالت المركيزة (وكان الفارس يجهر بالنجوى دون أن يشعر)

— عمّ تتكلم ؟ ماذا تقول ؟

— أ أنا يا سيدتى ؟ إنى أنتظر

فقالت المركيزة وقد أخذت ورقة أخرى

— هأنذي قد أنجزت

ولكن نصيفها سقط عن كتفها عند ما قامت بحركة صغيرة كيما تلتفت

إنه الزى شئ غريب ، فقد كانت جداتنا

لا يبالين الذهاب إلى البلاط بثياب فضفاضة تدع أعناقهن عواريا ويجدن ذلك أمراً تافهاً ليس فيه شئ من الخلاعة ، لكنهن كن يسترن بحرص ظهورهن التى تبديها غادات اليوم فى الرقص والمسرح وهذا من مستحدثات الجمال وطرائفه

كان يوجد على كتف السيدة بمبادور النحيل البض الأخاذ شامة صغيرة سوداء تشبه ذبابة واقعة فى الحليب فجعل الفارس ينظر إلى هذه العلامة برصانة كطائش يتكلف الوقار ، وكانت المركيزة تنظر إلى الفارس وقد رفعت ريشتها فى الهواء

ففي هذه المرآة تبودلت نظرتان لا تخطئ النساء فهمهما ؛ ومعناهما من جهة : « أنت ساحرة » ومن الجهة الأخرى : « لست مستاءة من هذا »

إلا أن المركيزة أصلحت نصيفها وقالت : « إنك تنظر إلى شامتي ياسيدى ؟ »

— أنا لا أنظر ياسيدتى وإنما أرى باكبار

— هاك الكتاب فخذه ورفيعتك إلى الملك

— ولكن ياسيدتي ...

— وماذا تريد بعد ؟

— جلالة الملك فى الصيد فقد سمعت آنفاً صوت البوق فى غابة سافورى

— حقاً . إنى لم أفطن لذلك . حسن ! فليكن غداً أو بعد غد إذ لا أهمية لذلك . ولكن لا ، حالاً ، اذهب وأعطها إلى (لوبل) . الوداع ياسيدي . واجتهد ألا تنسى ان هذه الشامة التى رأيت الآن لم يرها فى المملكة سوى الملك وسوى صديقتك (لمصادفة) . ورجائى أن تقول لهذا الصديق ألا يعتاد الجهر فى سرد أسراره إذا كان وحيداً كما فعل الآن . وداعاً أيها الفارس

ولمست جرساً صغيراً ثم مدت للشاب ذراعاً عارية بعد أن رفعت عنها موجة من الوشى (الدانتلا)

فانحنى هذا كرة ثانية ولمس بأطراف شفتيه أنامل المركيزة الوردية فلم تجد فى هذا العمل وقاحة لاستحالة أن يكون ذلك بل رأت فيه شيئاً غير قليل من التواضع

ولم تلبث الوصيفات الصغيرات أن ظهرن (ولم تكن الكبيرات قد استيقظن بعد) وكان خلفهن الرجل الهزيل كالتيس فى القطيع ، وكان يشير إلى الطريق بابتسام

— ٦ —

كان الفارس قابعاً فى غرفته الصغيرة فى فندق الشمس غريقاً فى مقعد عتيق فقد انتظر الغد وما تلاه دون أن يتلقى خبراً فجعل يقول :

« يالها من امرأة غريبة ! حلوة وقاهرة ، طيبة وخبيثة ؛ أكثر النساء استهتاراً وأشدهن عناداً ! لقد نسيتنى ، أواه يا للتعاسة ! إنها محقة لأنها قديرة على كل شئ وأنا لست شيئاً

ثم قام وصار يذرع الغرفة ويقول : «نعم لاشئ لا ، لست إلا فقيراً ملعوناً ، ولم ينطق أبى بغير الصواب فقد سخرت منى المركيزة . ولقد أعجبها جمالها فحسب إذ كنت أنظر إليها فكانت جد مغتبطة لرؤيتها فى هذه المرآة وفى عينيّ تأثير محاسنها التي لا تضارع وايم الحق . نعم إن عينيها صغيرتان ولكن ما ألطفهما ، وهى صغيرة الجسم ولكن قامتها هيفاء !

آه ! يا أيتها الآنسة انيبول !

آه ! يا صديقتى الغالية ! هل أستطيع أن أنساك أنا أيضاً ؟

ودق الباب بجفاء دقتين أو ثلاثاً فقال : « من هذا ؟ » وإذا بالرجل الهزيل مرتد سواداً وجوربين حريرين يشفان عن ربلتى الساقين الضامرتين قد دخل وحياه فى احترام وقال : « ستقام الليلة حفلة رقص مقنع فى البلاط ، وقد أرسلتنى سيدتى المركيزة أقول لك إنك مدعو

— حسبك يا سيدى وإنى أشكرك شكراً جزيلا !

وما إن انسحب الرجل الهزيل حتى أسرع الفارس إلى الجرس فقرعه فأتت نفس الخادم التى ألبسته حسب معرفتها من ثلاثة أيام ، وأخذت تساعده ثانية على ارتداء نفس الكسوة الموشاة بالذهب وحرصت جهدها على أن تجعله أنيقاً

مشى الفتى بعدئذ نحو القصر حيث كان مدعواً فى هذه المرة وقد اصطنع الهدوء ولكنه كان أكثر سخطاً وأقل جرأة منه عند ما خطا فى هذا العالم الذى كان مجهولا لديه خطوته الأولى . أذهلته روائع فرساى فى هذه المرة بمقدار ما أذهلته في المرة الأولى . ولم يكن القصر ليلتئذ خالياً فكان الفارس يسير في الردهة الكبرى ناظراً إلى جميع الجهات حرصاً على استكناه سبب وجوده هنالك فلم يلح له اقتراب أحد منه . وما انصرمت ساعة حتى سئم وعول على الانصراف لولا أن استوقفته لدن مروره سيدتان على وجهيهما قناعان متشابهان كثيراً . وكانتا جالستين على مقعد . سددت إحداهما إليه أصبعها كأنها ممسكة غدارة فنهضت الأخرى وجاءت إليه فأخذت بذراعه فى تراخ وقالت له : « يظهر يا سيدي أنك على ما يرام مع مركيزتنا »

— أستميحك ياسيدتى عفواً ، عمن تتكلمين ؟

— إنك تعرف المقصود جيداً

— لا ، قطعاً

— عجباً ! ولكنه الواقع

— أبداً

— كل البلاط يعرف ذلك

— ولكننى لست من البلاط

— إنك غر ؛ فقد قلت إنه قد عرف ذلك

— هذا ممكن يا سيدتى ولكنى أجهله

— على أنك لا تجهل أن خادماً وقع لدى باب قصر تريانون أمس الأول . أو لم تكن هناك مصادفة ؟

— بلى يا سيدتي

— أما ساعدته على النهوض ؟

— لقد فعلت يا سيدتى

— أو ما دخلت القصر ؟

— دون شك ياسيدتى

— هل أعطوك ورقة ؟

— نعم يا سيدتى

— وقد حملتها إلى الملك ؟

— بالتأكيد

— لم يكن الملك فى قصر تريانون بل كان فى الصيد وكانت المركيزة وحدها ... أليس كذلك ؟

— بلى يا سيدتى

— وكانت قد استيقظت منذ هنيهة وما تزال شبه عريانة لولا نصيف كبير .

— إن أولئك الذين لا يستطاع منعهم من الكلام يقولون ما يدور فى خلدهم .

— حسن جداً . ولكن يظهر أنكما تبادلتما نظرة لم تسؤها

— ماذا تقصدين بهذا يا سيدتى ؟

— أنك أعجبتها

— لا أدرى شيئاً من هذا ، وإنما سيصيرنى إلى القنوط أن أري المروءة النادرة واللطف الذى لم أ كن أتوقع والذي كان بالغ الأثر فى أعماق نفسى يغدوان سبب دسائس شائنة

— لقد اهتاجك الغضب سريعاً أيها الفارس . ويلوح لى أنك ستدعو إلى البراز كل من فى البلاط فلا ينتهى بك الأمر إلا بعد أن تردى كثيرين

— ولكن إذا كان هـذا الخادم قد سقط وإذا كنت قد حملت رسالته ... فاعذريني إن سألتك علام سُئلت ؟

فشدت السيدة المقنعة على ذراعه وقالت له :

— أصغ إلى يا سيدي

— بمقدار مايسرك ياسيدتى

— إليك مانفكر فيه الآن : إن الملك لايحب المركيزة قط وليس من يعتقد أنه أحبها من قبل . أما هى فلم تكتف بارتكابها جريمة إغلاق البرلـان وإلقائه هو وضريبة الدانقين ظهرياً ، بل هى تجرؤ اليوم على أن تحارب سلطة أعظم كثيراً وهي سلطة اليسوعيين ، وعلى أنها ستفشل فانها ذات أسلحة تدافع بها عن نفسها قبل أن تهلك

— حسن ياسيدتي ، وماذا أستطيع أن أفعل ؟

— سأقول لك : إن السيد (شوازل) مستاء من السيد (برنى) وكلاهما ليسا واثقين من التجربة التى يريدان القيام بها . وبكلمة منك يتمكن شوازل أن يحل محل برنى

— وبأي صورة ياسيدتى ، أرجوك ؟

— بأن تروى نبأ زيارتك بالأمس

— وأية عـلاقة تربط زيارتى باليسوعيين والبرلمان ؟

— خط لى كلمة فتهلك المركيزة ولا شك أن لك الفائدة العظيمة والشكران الجزيل ...

— أطلب عفوك ثانيـة ياسيدتى ، ولـكنما تطلبين دناءة

— وهل فى السياسة مروءة ؟

— لا أعرف ذالك . لقد أسقطت السيدة بمبادور مروحتها أمامى فالتقطتها وأعدتها إليهـا فشكرتنى وسمحت لى بكرم أخلاقها أن أشكرها بدورى

— دعنا من المجاملات فإن الوقت ينقضى . إنى أدعى الـكونتس دستراد وأنت تحب الآنسة أنيبول ابنة أخى ... لا تقل لا ، فلا فائدة من الإنكار . إنك تطلب وظيفة صاحب العلم فى الحرس.. ستنالها غداً ، وإذا كانت ابنتى تعجبك فستغدو حالاً صهرى

— آه ياسيدتي ! ما هذا الاحسان الفياض ؟

— ولـكن عليك أن تتكلم

— لا ياسيدتى

— قل لى إنك مدنف في حب هذه الفتاة مدله

— بكل جوارحى . ولـكن يجب أن يظل شرفى إذ أبثها غرامى

— إنك عنيد جداً أيها الفارس ! أهـذا جوابك الأخير ؟

— إنه الأخير كما كان هو الأول

— أترفض الدخول فى الحرس ؟ وترفض يد ابنة أخي ؟

— نعم يا سيدتى إن كانا بهذا الثمن

فحدجته بنظرة ملؤها الفضول والاستكناه ، ثم ابتعدت ببطء إذ لم تر على وجهه أثراً للتردد واختفت بين الجماهير . وجلس فارسنا الذى لم يفهم من هذه الحادثة الغريبة شيئاً فى زاوية من زوايا الردهة وجعل يناجى نفسه قائلاً : « ماذا تريد أن تفعل هذه المرأة ؟ لا شك أنها مختلة الشعور ، إنها تريد إحداث انقلاب من أجل وشاية حمقاء وتعرض على أن أدنس شرفى من أجل الحصول على يد ابنة أخيها ! ولكن (أتينايي) لا ترضاني ، بل إني أرفضها إن كان الحصول عليها يحتاج إلى دسيسة كهذه ! ماذا ؟ أأعمل على خراب هـذه المركيزة الطيبة وفضيحتها وعارها ؟ أبداً ! لا ، أبداً ! »

ظل الفارس على إصراره ومقاومته حتى أوشك أن ينهض فيتكلم جهراً لولا أن لمست كتفه فى خفة أنملة وردية اللون فرفع عينيه فرأى أمامه القناعين المتشابهين اللذين أوقفاه من قبل ، وقالت له صاحبة أحدهما وقد غيرت نبراتها :

« ألا تريد إذن أن تساعدنا قليلاً ؟ » فلم ينخدع الفارس على رغم تشابه الثوبين التام وبرغم الجهود المبذولة لازالة الفرق بينهما ، إذ لم تكن النظرات ولا النبرات ذاتهما في السيدة الأولى . وكررت المتكلمة قائلة :

أتجيب أيها الفارس ؟

— لا يا سيدتي

— أتكتب ؟

— ولا هذا أيضاً

— مازلت على مكابرتك وإصرارك إذن . مساء الخير أيها الملازم !

— ماذا تقولين يا سيدتى ؟

— هاك شهادتك وصك زواجك

وألقت إليه مروحتها فاذا بها تلك التى التقطها مرتين من قبل ، وكانت الأصداف المذهبة تتلألأ وبينها نقش الصور التى عرفها فلم يبق عنده مجال للشك فى أنها مروحة السيدة پمبادور فقال :

— يا للسماء ! أهذا ممكن أيتها المركيزة ؟ فقالت وقد حسرت اللثام الأسود الشفاف :

— كل الامكان

— لا أدرى يا سيدتي كيف أجيب ...

— لا حاجة لذلك . إنك رجل مهذب أديب ؛ وسنلتقي لأنك عندنا ، فقد جعلك الملك صاحب العلم الأبيض . تذكر أن أكبر بلاغة يتمسك بها الراجى هي أن يستطيع السكوت عند اللزوم . وأردفت ضاحكة وقد هربت : « سامحنا إذا حصلنا على معلومات قبل أن نعطيك ابنة أخينا »

(دمشق) **مظفر البقاعى**


اسبرو
يشفي
الانفلونزا
في ليلة واحدة
ASPRO
٢
قرصان من اسبرو
مع شراب الليمون
الساخن يزيل
الانفلونزا
في ليلة واحدة
اسبرو
لا
يضر
القلب
ولا
المعدة
ان تغير الاحوال الجوية في هذه الايام قد اوجد كثيرا من الاصابات بالبرد
ككل عام فانتشرت الانفلونزا والبرد والروماتزم فلا بد من العمل والاحتياط
والاسراع لاتقاء شرها. ولقد اثبتت الوف من الناس ان اسبرو
يقضي على الاصابة بالانفلونزا في ليلة واحدة فلماذا لا تجربه ؟؟
واذا كنت ترى ما يترتب على الاصابة من ارتباكات ـ رقاد في الفراش وضياع للوقت
وتعب للجسم وحمى وضعف وكنت تستطيع ان تجتنب ذلك باستعمال اقراص
اسبرو عند اصابتك بالانفلونزا فانك لا شك لا تتردد في استعماله
اذا اردت ان تقي نفسك الاصابة بالانفلونزا وجب ان تعمل. واذا اخذت
اسبرو وشراب الليمون الساخن قضيت على الاصابة بها في ليلة واحدة
فاحذر الاهمال واستعد لذلك باعداد اسبرو الى جانبك فيمر
الشتاء دون ان تصاب بالانفلونزا كذلك تقي نفسك من الاصابة
بالبرد والروماتزم واوجاع
الشتاء والآلام لان اسبرو خير علاج لها
ASPRO
ماذا تعمل
للبرد والالم والانفلونزا او اي حمى الاسبرو
غنيمة. خذ قرصين الى ثلاثة اقراص كل ساعتين حتى تعود
حالتك طبيعية فالاسبرو يخفض الحرارة في دقائق قليلة
استعمله غرغرة قرصين في اربع ملاعق ماء لازالة التهاب
الزور. فان دقائق الاسبرو الصغيرة الملتصقة بالزور
تفعل فعلها. اعمل بسرعة وانقذ نفسك.
اسبرو يباع في جميع الاجزاخانات ومخازن الادوية
٢ قرصان ٥ مليمات ١٠ اقراص ٢١/٢ قرشا ٢٧ قرصا ٥ قروش
الوكلاء
ج. ب. شريدان وشركاه
٢٣ شارع المدابغ بمصر
تليفون ٥٤٢٢٣
تليفون ٢٦٣٤٠
اسبرو
يستعمل
كغرغرة
في التهاب الزور



ورث يوسف الجمّال عن أبيه بضعة عشر فداناً من الأرض ، ونظر حوله فلم ير غير هذه الأفدنة وزوجة وصبياً فى الخامسة من عمره وطفلة ماتزال تحبو ، وحيوانين هزيلين يستخدمهما في فلاحته .

وفكر ملياً ماذا يصنع وكيف يسير بقية الطريق ؟ أيستمرّ يستغلّ الأرض ويستَدرُّها وهى هنا — على سِيف الصحراء — كثيرة المطل عسيرة الحِلاَب شديدة الختل ، إذا جادها الغيث — وهو شحيح — فما الزرع ، لم يسلم من ريح الشمال تجففه وتذويه ، أو الريح الشرقية تلفحه وتذريه ، أو الدودة تعشش فى خيوطه وتأتى عليه ، أو الجراد يحط على الحقل أخضر ممرعاً ويتركه أحمر كالحاً لاحياة ولا نماء فيه ؟ أيمضى يفلح الأرض ويزرعها ، وتلك هي احتمالات الثراء السريع الذى ينشده وتغمض على صوره عيناه وتطيف بها أحلامه فى اليقظة وفى المنام ؟ « كلا ! كلا ! فالأرض التى لاتعطى إلا الكفاف حين تعطى لايفتأ المرء لاصقاً بها مشدوداً إليها ما عاش . وأين من ارتفع وجهه عن الأرض ممن ركنوا إلى الأرض ؟ ! هـذا والدى رحمه الله ، ألم يقطع أربعين عاماً محنياً فوقها مكبوباً عليها حتى غدا من طول الانحناء لاينصب قامة ولا يقيم ظهراً ؟ فماذا ترك ؟! إننى أجيل عينىّ هنا وهناك فلا أرى إلا هـذا الثور الهزيل وذلك البهيم لايمضى يوم أو يومان حتى ينفق مما أرهقه النير وبهظه الثور قرينه فى الميل عليه والاسراع فى السير دونه . ولست أدري ماذا يكون حالنا هذا العام إذا تأخر المطر أسبوعاً آخر أو أسبوعين ؟ إن لدينا ما يكاد يوصلنا إلى بدء الحصاد ، ولكن ماذا نصير إليه بعد أوان الحصاد إذا ظلّ وجه السماء أمداً آخر على جفافه الشديد وجموده المؤيس فصوّح النبت وهلك الزرع الذي نما مع البَـدْرىّ (١) ودلَّت تباشيره على الخير الوفير ، ولكن شوَّل الغيم (٢) بعده وانقطع القطر فصدى النبت وجفّ وأوشك أن يزول ؟ »

هكذا شرع يوسف الجمال يناجى نفسه لما نظر حوله ورأى الفقر والخصاصة اللذين خلّف له والده . وفكر ملياً ماذا هو صانع ، أيستمر يفلح الأرض ويزرعها وتستمر آماله تتراوح بين أقصى اليأس والرجاء تبعاً لانحباس المطر أو إغداقه . وهل فى ذلك ما يحقق الآمال المعسولة والأمانى العذاب ؟ « ثم لمَ لا أكون كموسى وخليل التاجرين توفيقاً ويُسرَ حال ؟ ولكن أوّاه أين

(١) البدري : المطر قبيل الشتاء

(٢) يقال شولت الناقة إذا انقطع لبنها

رأس المـال ، وكيف أبدأ التجارة كما بدآها ؟ ولـكن هل من اللازم أن يكون المرء تاجراً وزارعاً معاً ؟ ولمَ لا أبيع هذه الفدادين بمحصولها هـذا العام فأتخلص إلى الأبد من كدّ الفلاحة وعسرها ، وأتخلص من ريب المحل هذا العام وكلّ عام ؟ »

وعرض يوسف الجمال رغبته هـذه على أهل البلدة ، فتقدم حالاً من ابتاع الأفدنة بغلتها ، إذ ليس يجفو الفلاح الأمين الأرض مهما جفته وقست عليه ، ولا ينقطع له منها رجاء مهما تقطعت أسباب الرجاء . وهو يعلم بعدُ أنها مهما جفتـه لا تخذله ، ومهما ضغطت عليه لا تسحقه ، وإنما تخرجه جليداً على الشدة أبياً على اليأس

ومن الإنصاف أن نذكر أن زوجة يوسف لم تكن راضية عن هذا التبديل والتحول من استقرار الزراعة إلى مغامرة التجارة . وفى أصبوحة اليوم الذى جرت فيه صفقة البيع جاءته بعينين مغرورقتين وأهداب مخضلة وخاطبته : ماذا أنت صانع يا يوسف؟ أتبيع الأرض التى حفظها لك أبوك أربعين عاماً كما حفظها له أبوه وحفظها كل أب لابنه وجد لحفيده حتى وصلت إليك غير منقوصة ولا متحيفة ؟ ألا تحس بأننا نفقد شيئاً غير التراب والحجارة إذ نفقد الأرض ؟ بربك ألا تشتاق الحين بعد الحين أن ترى قطع هـذه الأرض التى تغل والتى لا تغل ، وتجوس خلالها وفى صدرك مثل الذي تحسه لولديك أو منزلك حينما تغيب عنهم أمداً طويلا ؟ تصور كم دغدغ أبوك وأجدادك صور هذه الأرض بحاريثهم ، وكم توسدوا ثراها وحلموا الأحلام فوقها ! وكم قاتتهم وبنت أجسامهم القوية بما تدر وتنتج ! ! تصور هذا يا يوسف وانظر أى شىء نفقد مع البيع !

وكأن حديث الزوجة قد نفذ شيئاً إلى مكامن الشعور فى صدر الزوج فأطرق يفكر ... ولـكن لم تلبث صور الثراء السريع والعيش الموطأ أن رقصت فى خياله دورة أو دورتين حتى انحسر عن صدره شعور الحنين واللهفة الذى أثارته زوجه بحديثها ، فرفع رأسه وخاطبها بجفاء

لقد عزمت على الخلاص من عناء الفلاحـة وأتعابها ، فلا تلجى فى الجدل ولا تمادى فى النصح والاشفاق . إننى سوف أكون تاجراً كهؤلاء التجار الذين يقضون أوقاتهم فى لعب « الطاولة » أو « المنقلة » أو القمار أو فى الجلوس والحديث ، ثم فى التهويم والنوم وما إليها من أسباب المتع وبواعث اللذة

ولم تجادل الزوجة . فهى تعرف من عناده وإصراره ما لا يجدى معه جدل ولا حوار

***

قبض يوسف الثمن بضع عشرات من الجنيهات واستأجر دكاناً وحشد فيه من السلع كل ما قدر له الرواج السريع وظن فيه الربح الوفير . وجلس على كرسى فى ركن من الدكان ينتظر تهافت الشارين عليه وإرباكهم إياه بكثرة الطلب والمجادلة فى جودة السلع وأثمانها . ولـكن ارتفع النهار وأقبل الظهر دون أن يؤم دكانه شار ؛ وبُعيد الظهر جاءته صبية صغيرة ببيضتين تطلب فلفلا . فقبض قبضة وصرها فى ورقة ، ولـكن الصغيرة استقلت الـكمية وطلبت المزيد ، ولما لم يزدها استردت البيضتين ... وعزى يوسف نفسه بأن الناس لا بدّ مقبلون عليه متى علموا مكانه من السوق وعلموا جودة البضائع عنده ورخصها .

ولا حاجة إلى القول بأن النهار الأول مضى دون أن يبيع بما يزيد عن بضعة قروش . وجاء النهار التالى ولم يكن خيراً من سابقه ، وكذلك اليوم الثالث والرابع إلى آخر الأسبوع . وعندها أخذ الشك

يدبُّ إلى نفسه والوساوس تساوره ؛ وأفضى إلى زوجته بما أخذ يتدسس إليه من ريب وشكوك فخاطبته بقولها : عليك أن تصبر هنا يا يوسف صبرك على الأرض أو أكثر ؛ وأزيدك أن احتمال الخسارة المفاجئة هنا أشد وأنكى . فأنت فى الفلاحة إذ تفقد بعض ما تفقده يعوّض عليك عنه غالباً فى السنوات الآتية ، والأرض بعد باقية لك ، ولكن الخسارة فى التجارة معناها الدمار والخراب . وكم من تاجر أصبح فى نعيم وبُلَهْنية وأمسى فى شقاء الفقر وضيق الفاقة ! فواجبك إذن الصبر وطول الأناة . وعلى كلٍّ أحب أن أنزل غداً لأرى كيف تبيع

وفى صباح اليوم التالى نزلت الزوجة وجلست بين الجدار وبين رفوف السلع القائمة بحيث تَرى ولا تُرى . وجاء أول شار فقام زوجها وعلى وجهه جهومة الارتياب وكدرة الهم وأحضر حاجة الرجل ، فقلّبها هذا بين يديه فلم تعجبه وطلب خيراً منها ، فأجابه يوسف : إن هذه السلعة خير ما عندى ، ولن ترى أحسن منها فى جميع السوق . وأقسم لك بشرفي أننى أدفعها لك بلا ثمن إذا وجدت أفضل منها ؛ ثم إننى أكتفى منك ثمناً لها برأس المال . إلا أن الشارى هز رأسه وخرج لم يشتر شيئاً . ولم تطق الزوجة صبراً فخرجت إليه وقالت : الآن علمت لماذا يتجنّب الناس دكانك ؟ لتعلم أن أكثر الناس يكرهون العبوس والاكفهرار فى وجه التاجر ، فلكل الناس همومهم ؛ ويجب ألا تضيف إلى همومهم همك . ثم إن لجاجتك وإلحاحك على أن حاجتك هى أحسن الحاجات يبثان الشك والريب فى نفس الشارى . فالناس تعلم بالخبرة أن التاجر لا يُطنب فى امتداح السلعة إلا إذا كان يشك هو فى جودتها ، وإلا لترك هذه السلعة تعلن عن نفسها بنفسها . ثم إن توكيدك الأقسام بأنك تقدّم السلعة للشارى بلا ثمن إذا وجد خيراً منها دلّه على أنك لا تقيم وزناً كبيراً لفضيلة الصدق . أما قولك أنك تبيعه السلعة بلا ربح فدلالة الكذب فيه واضحة ، إذْ لماذا أنت هنا إذا كنت تبيع السلعة برأس المال متجاوزاً عن الربح ؟ وهب أنك أخجلت الرجل فابتاع السلعة فهو ليس بعائد إلى دكانك مرة أخرى ، فالشارى يحب أن يكون حراً فى كل شيء ، حراً فى الاختيار ، حراً فى تعيين الثمن ، حراً فى ألا تظن فيه الكزازة وحب المماكسة ؛ وإذا استشعر شيئاً من ذلك فى دكان من الدكاكين فليس بعائد إليه . هذه أمور لعلك تجهلها لقلة خبرتك بشؤون السوق وتركك مشترى حاجات البيت لى . وكم ألححت عليك أن تقوم أنت بشراء ما نحتاجه فكنت تعتذر بأن تغنيك فى شئون الفلاحة سحابة النهار لا يسمح لك بارتياد السوق ومعرفتها جيداً . وإذن إليك ما أفدته بالخبرة من هذه الشؤون ، وما هو خليق أن يجتذب الشارين ويُحسِّن الحال : عليك أن تبسط وجهك وألا تكثر من التوكيد والأقسام ، وأن تكون صبوراً ، وألا تشعر الشاري شيئاً من الضيق والحرج أو الاحتقار ، فليس أقتل للتجارة وأدعى لبوارها من هذه . اعرض حاجتك عرضاً مقبولاً وأرح نفسك وأرح الشارى من الأيمان ، فهى لن تزيده يقيناً بما تقول . امتدح السلعة ودلَّ على صفاتها ولكن باعتدال . وإياك ومثل هذه الأقوال : « إن سلعي خير مافى السوق ، وإنني أعطيكها بلا ثمن » وغيرها مما لا يفيدك شيئاً إلا اعتقاد الشارى أنك تكذب وأن السلعة قد تكون من الرداءة بحيث تحتاج إلى كل هذه الأقسام والتوكيد . ثم إياك أن تبدى شيئاً من الدهشة أو الامتعاض مهما عرض الشارى ثمناً للسلعة . أفهمه بلطف أن الثمن الذى يعرضه هو دون ما يستطيع بيعها به ؛ وإذا خرج لم

يشتر شيئاً فلا تشيعه بدمدمة الامتعاض وعبوس الفشل . ثم الربح ، اكتف منه بالقليل تبع كثيراً وتربح . وبالجملة عليك أن تجعل علاقتك بالشارى علاقة مقبولة غير منفِّرة

***

وكأن يوسف استفاد من نصائح زوجه الذكية وخبرتها الصحيحة ، فتحسنت عنده نسبة المبيع اليومى ، فبش وتطلق وجهه بعد أن كان يغالب نفسه مغالبة على اصطناع البشاشة والحبور . وسارت الحال سيرها الطبيعي عاماً وبعض العام ، وحسب يوسف أرباحه عند نهاية العام فوجدها لا بأس بها ، وإن كانت دون ما كان يؤمل من الغنى المفاجئ وهو شهوته المتحكمة وهواه الكمين الذى طلَّق الفلاحة من أجله ... وعلى كل فقد عزم على أن يمضى في هذا السبيل قُدُماً ، فليس بعيداً أن يصبح فى خلال بضعة أعوام كأغنى تاجر فى البلدة . ثم ألم تيسر له هذه التجارة حياة الدعة والراحة كما كان يتشهى ويأمل ؟

غير أن جموح الخيال ونزق الشهوة جعلاه على غير استقرار من أمره ، فعاوده هوى الغنى السريع على مستوى جديد أعلى من مستواه الأول . وإذن فتجارته هذه بحالتها المحدودة لا تُنيله وطراً ولا تبلغه غاية . فماذا يصنع إذاً ؟ قام فى نفسه هذا السؤال وأبى أن يتراجع ؛ وعندها أحس كأن شيئاً من داخله يوسوس له ويهتف به : ما ضرك يا يوسف لو جربت حظك — كما يجرب الناس حظوظهم — فى القمار ؟ وأراد يوسف أن يطرد من صدره كل ما يبعث على التردد فيما وسوس له به ، فقال : لن أقامر بمبالغ كبيرة ، يكفي ربح يوم واحد . هاهم أولاء أناس أعرفهم لا يفتأون يقامرون ومع ذلك لم يفتقروا ولم تخرب بيوتهم ، كما يقال عادة عن عواقب القمار .

وعلى كل فأنا محصن نفسى من الآن وعازم ألا يزيد المبلغ الذي أقامر به على بضعة قروش

وفى الليل أمَّ يوسف مجلس المقامرين فى أحد الدور المتطرِّفة ، وتلطف به المقامرون القدماء فقام وقد أضيف إلى عشرة القروش التي جاء بها عشرات ؛ وانكفأ إلى بيته وإهابه لا يكاد يسعه من فرط السرور ؛ وأيقن بأن نجمه أخذ فى الصعود وأنه لابد مدرك الثراء السريع ومحقق أحلامه بجملتها

وسألته زوجته فيم كان تأخره ، فتلطف لها بالاعتذار ودفع إليها حفنة من قطع النقود المختلفة ، وسألته فى هذا المبلغ الكبير من أين جاء ، فأجاب بأن توفيقه في البيع ذلك النهار كان توفيقاً نادراً

وعاد يوسف طبعاً إلى مجلس القمار فى الليلة التالية ، وعاد إلى الكسب والخسارة كما كان يحلو للمقامرين الماهرين حتى لا يؤسوه من القمار قبل أن تتمكن عادته منه ، وعندها ما أسهل أن يجردوه من كل ما لديه

وهكذا مرت الليالى وصاحبنا لاينفكُّ يقامر ويقامر . وفى خلال ثلاثة أشهر افتقد ما لديه من الدراهم التى كان ينوى أن يبتاع بها بضاعة جديدة فى أول الموسم ، فأصبحت يده صفراً . وهنا شعر كأن قلبه يهبط من موضعه ، وكأن ماء بارداً يصب على جسمه . فلم يكن يقدر أن القمار يفعل به كل هذا الفعل ؛ ولم يكن يجرؤ أن يجرى حساباً على ما لديه حتى يظل على اطمئنان الجهل بحاله ، وما أوْدى به القمار من ماله . وكانت هذه الصدمة تعيد إليه رشده لو لم تكن العادة قد استحكمت منه إلى الحد الذى يكاد يستحيل الفكاك منها عنده . ومن هنا صار همه بعدها أن يبيع في النهار ما يستطيع بيعه ويذهب فى المساء يقامر به علَّه يستردّ بعض مافقد . ولكن هيهات ! فقد أعمته الخسارة وأضحى

من اليسير على المقامرين الماهرين أن يخدعوه ويُجرُوا عليه الغش فى اللعب . وكانت زوجته تسأله عما صارت إليه تجارته ، ولِمَ ترى البضائع تذهب ولا يؤتي لها بعوض ؟ فكان يجيبها أجوبة فيها امتعاض وصرف عن التمادي فى السؤال . وأخيراً عولت على معرفة الحقيقة من طريق آخر . ولم يطل بها البحث حتى عرفت كل شىء

وعاد يوسف كعادته متأخراً إحدى الليالى فوجد زوجته ما زالت جالسة عند رأس ابنيها ورأسها منكّس إلى حجرها، فهمس متكلفاً السرور والغبطة ، إلا أنها رفعت رأسها ولم تجبه بشىء ، وإنما كان على وجهها المتجهم وفى عينيها المحمرتين وآثار الدمع على خديها ما صرفه إلى فراشه دون أن ينبس ببنت شفة . فلقد شعر بأنها عرفت حقيقة حاله وما آل إليه أمره ، وخير له إذن أن يتجنب العاصفة وهى فى إبان عصفها

وفى الصباح قامت زوجته إلى ابنيها وأخذتهما بيديها وسارت تبغي الخروج . فناداها : إلى أين وما ذا تعنين ؟ فأجابت بجفاء : هذا لا يعنيك . إننى ماضية أقيم مع أهلى بضعة أسابيع

— ولكن كيف لا يعنينى غيابك ، ومن يقوم بشؤون البيت ؟ وهل تظنين أننى أقدر أن أخبز وأطبخ وأقوم بمهام التجارة ؟

فحدجته بنظرة لم يستطع أن يتلقاها بعينيه ، فكسر نظره وإن لم يشح عنها بوجهه ليوهمها أنه مازال ناظراً إليها ولم ترعبه بنظرتها ، وتقدمت خطوة نحوه وسألته بلهجة لم يسمع منها مثلها قط :

أتقول مهام التجارة ؟ ! سمعتك تقولها ! وهل بقيت لك تجارة لتقوم بمهامّها ؟ ! لقد طلبت الراحة إذ طلقت الفلاحة ، وسوف ترتاح راحة تامة حينما يأتى القمار على البقية الباقية ... هذا وأحب أن أترك لك البيت لتبيعه حينما تحتاج إلى ثمنه .. ألا يسرك هذا ؟ !

— أرجوك يا مريم ، أرجوك ! لا تفضحينى ! أقسم لك بشرفى وروح والدى أن يكون هذا آخر عهدى بالقمار ! كفى ما جره علينا من دمار

وقام إليها يترضاها ويقبل جبينها حيناً ووجنات الطفلين حيناً آخر . وما زال بها حتى فتَّر عزمها على الذهاب ، فعادت إلى البيت وذهب هو إلى عمله

***

وعادت الأمور إلى مجاريها واستَرَدَّ يوسف شيئاً من نشاطه بعد أن انقطع عن القمار ، وكاد يلم شعثه ويرأب بعض الصدوع فى تجارته التى أوشكت على البوار ، وظل حاله في انتعاش إلى أن هبط البلدة رجل غريب يحمل كتاباً فى كيس من قماش ، ولم يطل المقام بهذا الرجل الغريب حتى شاع فى البلدة أن لديه فى كتابه مفاتيح الكنوز التى خلفها الأوائل والتى لا تزال مطمورة فى الخرائب والقبور القديمة المبثوثة حول البلدة . وبحكم العلة المستحكمة والهوى المزمن كان صاحبنا يوسف أول المصدقين لِمَا أذاع الرجل عن نفسه من القدرة على كشف الكنوز.

وفى ذات مساء دار حديث بين يوسف وهذا الرجل كانت نهايته كالآتي :

— أتؤكد لي أنك قادر بكتابك وسحرك على الاهتداء إلى مواضع الكنوز وكشفها يا أبا ميسور ؟

— ثق بهذا وثوقك بأن فى وجهك عينين وفى يديك عشر أصابع

— ماذا لو شرعنا فى البحث إذن ؟

— ولكن البحث يحتاج الى أشياء يا صاح : يحتاج الى البخور وغيره مما نستعين به على طرد الأرصاد التى أقامها الأولون على هذه الكنوز لتضلل

الباحثين أو تغولهم أو تخفى الكنز كلما أوشك أن ينكشف

— هذا على يا أبا ميسور ، وليس عليك منه شيء .

هكذا اتفقا . وفى الصباح نقد يوسف صاحبه نصف جنيه يشترى به بخوراً وغيره مما سيحتاج إليه فى طرد الأرصاد وترضى الجن

وشرعا فى البحث متسترين خشية الافتضاح والوقوع تحت طائلة العقاب

اختار صاحبنا أبو ميسور مغارة من المغاور النائية عن البلدة لأن كتابه — كما زعم — دله على وجود كنز من الكنوز فيها . وشرع ينظر فى سقفها وجوانبها ملياً ويقرأ فى كتابه ، ثم أخذ يقيس أبعادها ويرسم خطوطاً متقاطعة فيها إلى أن انتهى إلى نقطة معينة رسم حولها دائرة ، ثم أوقد النار وألقى عليها البخور ، ثم نثر عليه مادة أخرى لم يدر صاحبنا يوسف ما هى . ولما سأله عنها أجابه : هى خليط من مواد عديدة يؤتى بها خاصة من الهند والصين ؛ ومن هنا كانت كثيرة التكاليف عزيزة إلا على من يبذل فى إعدادها المال الوفير

وأشار أبو ميسور إلى الدائرة التى رسمها فى قاع المغارة وقال ليوسف : أحفر هنا . وأخذ يوسف المعول وشرع يحفر بقوة وحماسة شديدتين . وفى خلال ثلاث ساعات فتح حفرة تكاد تغيب الرجل وهو منتصب . وانتبه يوسف إلى عمق الحفرة التى حفر وإلى يديه اللتين مجلتا[1] من شدة العمل ، فاستولى عليه الريب وشعور الخيبة فأحس بالتعب الشديد والكلال المفرط . ولما عاود الحفر عاوده ببطء وضعف ظاهرين . ولاحظ أبو ميسور ذلك وأدرك علته ، فقال كأنه يحدث نفسه : يخيل إلى أن هذا البخور الذى ابتعناه بنصف جنيه ليس من الصنف الجيد الذى يعجل دخانه طرد الأرصاد وإظهار الكنوز .

وعلى كل فقد يكون سبقنا إلى الكنز باحث فاستحوذ عليه دوننا ؛ فخير لنا إذن أن ننتقل إلى مغارة أخرى

ولم يفت صاحبنا يوسف ما ناجى أبو ميسور به نفسه ، لأن التعب والريب صيّراه شديد الإصغاء والسماع ، ولأن هذا — أبا ميسور — أراد ألا يصل صوته من الخفوت إلى درجة الخفاء

— صدقت يا أبا ميسور ! قد يكون سبقنا إلى الكنز باحث غيرنا فناله دوننا

— قد يكون هذا وقد يكون أن البخور ليس من الجودة والنقاء بحيث يخدِّر الأرصاد فتتخلى عن الكنز الدفين

— غداً نجدِّد البخور إن شاء الله

— ولكن نصف الجنيه الذى دفعته إلىّ استنفدناه فى مشترى هذا البخور الرَّدىء

— غداً يكون لديك غيره . لا يهمك أمر الدراهم . كلما احتجت إلى مبلغ فأنا أدفعه إليك

وهكذا سار الحال على هذا المنوال بضعة أسابيع ويوسف دائب على الحفر فى ظلام الليل ودفع المبلغ بعد المبلغ إلى صاحبه ليشتري البخور وخلافه من المواد التى كان يُغرب فى تسميتها دون أن يكون لها وجود ألبتة ، لكى يشده يوسف بعلمه ووقوفه على أخفى الأسرار التى تتعلق بالبحث عن الكنوز ، وحتى لا يوئسه من أمل النجاح قبل أن يكون استصفى البقية الباقية فى دكانه

وكان يوسف وصاحبه يحفران كل مغارة وينبشان كل قبر فى البحث عن الكنوز . وكانت تقع لهما فى أثناء البحث وقائع ومفاجآت عديدة ، كأن يفضى البحث والحفر إلى مغارة مطمورة فينتعش الأمل الذاهب ، وأن ينتهيا إلى نقرة

(١) مجلت اليد نفطت من العمل

فى صخر رأس أو جرَّة مهشمة فيضرب أبو ميسور كفاً على كف ويشرع يندب سوء الحظ الذى جعلهما يجيئان متأخرين فى البحث حتى يكون الكنز المخبوء نصيب غيرهما ممن سبقوهما إلى التنقيب ، أو كأن يطير خفاش أو بومة فيطير له قلب يوسف الذي غدا يعتقد اعتقاداً جنونياً بالأرصاد وصار يرى في كل ما يدب أو يطير فى هذه المغاور رصداً بصورته الحقيقية أو المتخفية ، كما لم يفتأ يوحى إليه أبو ميسور

وتشاء المصادفة أن يحفرا بعد يأس فى مغارة مرَّا بها أولاً ، ولكن أبا ميسور أهملها لأنه لم يرَ فيها دليلاً على وجود كنز من الكنوز فيها ، فيكشف الحفر فجأة عن إبريق من البرنز بغطاء محكم . ويرفع يوسف الغطاء بحركة عصبية لا وعى فيها . ولما بدا له ما كان بداخله صاح صيحة مرعبة هرع لها أبو ميسور من ركن المغارة حيث كان يحرق البخور ويعزم ؛ ونظر إلى أسفل ، وعندها صاح : مكانك ! إياك أن تمسه ! الرصد ! الرصد بدأ يتحرك ! آه لقد أخذ يضايقنى البخور ! نحتاج إلى البخور وإلا غاب الكنز وهلكنا ! السرعة ! السرعة إلى البلدة وإلى بالبخور ! الباقى يوشك أن ينفد ! الارصاد بدأت تضيق علىّ ، الارصاد !

وخرج يوسف من الحفرة مفغور الفم مضعضع الأعصاب زائغ العينين راعش اليدين ، ونظر إلى أبى ميسور وهو عند باب الحفرة يحرق البخور ويقرأ ويعزم نظرة فيها توسل الرجاء ، وبريق الأمل ، وفيها بلاهة الدهشة ورعشة الخوف . لقد تحقق أمل العمر أو كاد ، وحومت السعادة فوق رأسه . ولكن الرصد ! الرصد يوشك أن يطيرها !

— ألا تزال واقفاً ! ؟ ألا تتحرك يا خشبة ؟ !

— نشدتك الله يا أبا ميسور ما ذا أصنع ؟ !

— إلى البلدة ! إلى البلدة وإلىّ بالبخور من أجود الأصناف ! لا تسر على الأرض بل طر طيراً فى الهواء . هيا ! هيا ! وإلا طار الكنز وطرت أنا معه !!!

وشمر يوسف أذياله وانطلق يعدو فى ناحية البلدة بسرعة المجنون

ولا حاجة إلى القول بأن يوسف عاد بعد ساعة يحمل البخور فلم يجد أبا ميسور . ونظر فى قاع الحفرة فرأى مكان الابريق حفرة خالية ، فصاح صيحة خرجت معها البقية الباقية من عقله ؛ وشرع يلطم وجهه ويلدم صدره وهو فى خلال ذلك يصيح أخذتهما الأرصاد ! ! أخذتهما الأرصاد ! !

وانثنى يعدو راجعاً إلى البلدة ولازمة جنونه : أخذتهما الأرصاد ! أخذتهما الأرصاد ! وسار فى سوق البلدة يلطم وجهه ويكرر الصراخ : أخذتهما الأرصاد ! أخذتهما الأرصاد . وحف به الصبية من كل جانب وأمسك كل بحجرين وشرع يقرعهما بعضهما ببعض ويصيح : أخذتهما الأرصاد ! أخذتهما الأرصاد ! وظلوا وراءه يقرعون الحجارة ويردون على لازمته بمثلها إلى أن أبلغوه منزله على هذه الحال من العته والخبال

أما مريم زوجته التعسة فلم تقتلها الصدمة وإن كادت تصرعها ، فلقد خفف وقعها بعض الشيء أنها كانت تقدِّر لزوجها شيئاً قريباً من هذا مذ رأته ينصرف هذا الانصراف الجنونى إلى البحث عن الكنوز ، وفشلت فشلاً تاماً فى صرفه عن هذا الاتجاه الجديد الذى وضعه فى جو من الخفاء والاعتقاد يسهلان ضعضعة الحس واختبال الفكر

لقد كانت مريم بطفلين وزوج يعولهم ، أما الآن فقد أضحت بثلاثة أطفال عليها أن ترى هى كيف تعولهم ... ! !

أديب عباسى

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل الثالث

وتحسنت صحة بريجيت وكانت أعلنت لى أنها مستعدة للرحيل فى حال شفائها فلم أطاوعها بل رأيت أن ننتظر خمسة عشر يوماً أيضاً ريثما تستعيد قواها لتحمل مشاق السفر

وبقيت ممنّعة بصمتها الحزين فلم أستطع اقتيادها إلى مصارحتى بما تضمر ، وقالت إن سبب انقباضها هو الرسالة التى وردت اليها ، ملحّة علىّ بألا أطلب منها إيضاحاً فى هذا الصدد فاضطررت إلى مجاراتها ، فثقل علينا الانفراد حتى لم يعد يستقر بنا مقام كل مساء إلا فى المسارح والملاهي فنكتفى بالقعود جنباً إلىَ جنب ، فإذا أشجانا نغم أو شاقنا بيان شددنا يداً بيد ، أو تبادلنا نظرات التفاهم والولاء ؛ غير أننا كنا نحتفظ بالصمت أيّان توجهنا

وكنت أتحفز عشرين مرة فى النهار لأرتمي عند أقدامها متوسلاً إليها أن تعيد إلىّ سعادتى أو تقضى على فيردنى ما يبدو على وجهها من شحوب عند ما تحس بما أنوى، إذ كانت تقف وتولّى أو ترسل إلىّ بكلمة باردة تتجمد منها كلمات قلبي على شفتى

وكان سميث يأتى إلى مسكننا كل يوم فلا أشعر بنفور منه لما كان يبدو عليه من حسن النية والسذاجة ، ولاشتراكه في بحث مسألة رحيلنا بكل إخلاص ، فى حين أن زياراته المتكررة كانت سبباً لما حل من اضطراب على بيتنا ؛ وبالرغم من أن زيارتى له كانت قد أبقت فىّ شكوكا مستغربة . وكنت حدثته عن الرسائل التى حملها إلى بريجيت فما لاحت عليه دلائل الاستنكار ، بل رأيته يبدى من الحزن بقدر ما أشعر به ، فاعلن لى أنه كان يجهل ما فى هذه الرسائل وأنه لا يقر لهجتها ؛ ولو أنه عرف بما فيها لما كان حملها . وما كان لى أن أذهب إلى الاعتقاد بوجود سر ما بين سميث وبريجيت فى حين أنها كانت تعامله معاملة لا تتجاوز حدود المجاملة ، ولهذا كنت أقابله بسرور بالرغم من وقوف كل منا تجاه الآخر موقف المحاذر المتكلف . وكان قد رضى بأن نعهد إليه بمقابلة انسباء بريجيت بعد سفرنا والعمل على تفادى مقاطعتهم لها ، وكانت لسميث حرمته فى البلدة ، لذلك توقعت أن يكون لتوسطه خير نتيجة ، واعترفت له بهذا الجميل .

وكان كل شيء فى خلق هذا الشاب يدل على نبله إذ لم يكن يدخر وسعاً لإعادة السرور إلينا عند اجتماعنا به فنتأكد أن ما يطمح إليه هو أن تسود السعادة بين بريجيت وبينى، وما سمعناه مرة يورد ذكر علاقتى بها إلا وهو يبدى عقيدة الرجل الذى يرى فى الحب أقدس رابطة تضم شخصين أمام الله . وهكذا كان سميث فى تقديرى صديقاً مخلصاً أوليه ملء ثقتى .

غير أن الأحزان التى كان يغالبها فتبدو عليه بالرغم منه كانت تثير بى أفكاراً غريبة فأستعيد ذكرى الدموع التى رأيت هذا الشاب يذرفها وأتمثل وقوعه

مريضاً فى الزمن نفسه الذى مرضت بريجيت فيه فأحس من كل هذا بوجود تفاهم حزين يسود بينها وبينه ، فلا أملك نفسى من التألم والاضطراب

لقد كانت أقل ريبـة تدفع بى من قبل شهر إلى الاندفاع مع غيرتى اندفاعاً جنونياً ، فأصبحت لا أجد أمراً يدفعنى إلى الارتياب ببريجيت فأقول مالي وللسر الذى تخفيه إذا كان هنالك سر مادامت مصممة على الرحيل معى ؟ وهب أن بينها وبين سميث أمراً تخفيه عنى فهل فى ذلك ما يستوجب اللوم وليس بينهما سوى مودة واشتراك فى أحزان ؟ لقد عرفته طفلا وهي تراه الآن بعد كرور السنين فى زمن تستعد فيه لبارحة فرنسا ليتقدم إليها كآلة فى يد القدر ليبلغها ما يكدرها فى موقفها الحرج ، فلا غرابة إذن أن يسود عليهما مثل هذا الحزن من تذكر الماضى . وهل من موجب للوم إذا هو واجهها بنظرات الآسف الحزين إذ يراها مقدمـة على سفر طويل معرضة لحياة مضطربة ، وقد أصبحت مضطهدة يكاد ينكرها أهلها وأصحابها ؟

وعند ما كانت تمر هـذه الخواطر ببالى كنت أرى أن علىّ أنا أن أقف بين بريجيت وبين سميث لأدخل إلى نفسيهما الاطمئنان مؤكداً لها أن يدى ستكون خير عضد لهـا إذا شاءت أن تستند إليها ومؤكداً له أننى ممتن لـما يبديه نحونا من عطف ، ولما سيؤديه من خدمة . كنت أرانى مدفوعاً إلى هـذا دون أن أجسر على القيام به إذ كنت أشعر بصقيع فى دمى فأبقى دون حراك على مقعدى

وعند ما كان سميث ينصرف إلى مسكنه فى المساء كنا نبقى صامتين أنا وبريجيت أو يدور حديثنا عليه وما كنت أدرى حقيقة الدافع الغريب الذى كان يحدو بي إلى الاستفهام من بريجيت عن تفاصيل حياته ، وما كان لديها سوى ماذكرته فيما تقدم ، لأن حياة هـذا الشاب كانت عبارة عن فقر واستقامة وخمول ذكر ، وما تستدعى مثل هذه الحياة أكثر من كلمات وجيزة لسردها ؛ غير أننى كنت أستعيد إيراد حوادثه وأنا لا أدرى سبباً لاهتمامى بها

وحـلّلت تفكيرى فأدركت أن فى قرارة نفسى ألماً خفياً كنت أنكره على ذاتى . ولو أن هـذا الشاب جاء إلينا فى أيام سعادتنا فحمل إلى بريجيت رسالة ثم تجنب الالتقاء بي فى المسرح ثم ذرف دموعاً لا أدرى سببها فهل كنت أقف عند مثل هذه الحوادث وأنا ممتّع بسعادتى ؟ ولـكن الأمر قد وقع فى زمن كنت أصطدم فيه بأحزان بريجيت وأشعر أن معاملتي الماضية لها قد ولدت فيها هذه الأحزان ؛ ولو أننى عاملتها طوال الستة أشهر الماضية المعاملة الحسنة لما كنت أجد من سبب لتكدير صفو حياتنا. وقد كان سميث ، بالرغم من كونه رجلاً عادياً ، متصفاً بالأخلاق الرضية ، ولا تخفى صفاته الطيبة عن الناظر إليه فلا يجد بداً من الوثوق به ، ولذلك كنت مضطراً إلى أن أقول فى نفسى : لو أن سميث كان هو عاشق بريجيت لما كانت تتردد فى الرحيل معه راضية مسرورة

كنت أرجأت سفرنا بملء اختياري فأصبحت الآن نادماً على ذلك . وما كانت بريجيت تغفل عن تذكيرى بالسفر فتقول لي : ما الذى يمنعنا عن الرحيل بعد أن شفيت من دائى ؟

وفى الواقع ما كنت أدرى سبباً لتأخرى . ولـكم وقفت مستنداً إلى الموقد ، أنظر تارة إلى سميث وطوراً إلى خليلتى فأرى كلا منهما شاحب الوجه صامتاً فأحار فى تعليل هذه الحالة ؛ غير أننى كنت

أشعر بأن ليس هنالك سرّان بل سرّ واحد مشترك ، فما تستقر الرينة مني كما كانت تستقر من قبل في غيرة مريضة بل في أعمق غريزتي كأنها أمر واقع لا يقاوم . وفي غرائز الانسان أمور جد مستغربة ، ومن أغربها أنني كنت أجد شيئاً من اللذة حين أترك بريجيت وسميث يتحادثان قرب الموقد لأذهب تائهاً على الأرصفة وأستند إلى الأعمدة المادة للنهر مسرحاً أبصاري على مركض المياه كما يقف من لا عمل له متلهياً بالنظر إلى المارة في الشوارع

وعند ما كان يدور الحديث بينهما عن الأيام التي قضياها في بلدتهما متوجه إليه بريجيت الخطاب بلهجة الأم مذكرة إياه الأيام التي قضياها سوية كنت أحسبني متألماً ، ولكنني كنت في الوقت نفسه أشعر بشيء من السرور فأستنطقهما عن تلك الأيام وأحدث سميث عن أمه ، وعن أعماله ، وعن أمانيه في المستقبل فأفتح له مجالاً لإظهار حقيقة شخصيته على خير ماتظهر به فأنتزع من تواضعه صورة فضائله؛ وكنت أقول له إنك شديد التعلق بأختك (فاي) ، متى تنوي تزويجها ؟ فكان يقول والاحمرار يعلو وجهه إن إنشاء الأسرة يكلف كثيراً ، ولعله يتمكن من تحقيق هذه الأمنية بعد سنتين أو أقل من هذه المدة إذا سمحت حالته الصحية بالقيام ببعض أشغال إضافية تنيله مكافأة فوق راتبه ؛ ثم يقول إن في البلدة عائلة لها كفافها من العيش اتفقت مع أسرته لتزويج أخته من ابنها البكر ، وإنه تخلّى لأخته عن حصته في إرث أبيه ، وسوف لا يعدل عن ذلك وإن أصرّت أمه على الرفض ؛ ثم يضيف إلى ذلك قوله : إن للشاب ساعدين يؤمنان حياته ، أما الفتاة فحياتها متوقفة على زواجها . وكان سميث يعرض أمامنا مشاهد حياته وخفايا نفسه وأنا أتفرس في ملامح بريجيت لأقرأ تأثير هذه المشاهد عليها

وكنت أشيع سميث إلى الباب عند انصرافه ثم أقف مستغرقاً في التفكير إلى أن ينقطع صوت وقع أقدامه فأعود إلى الغرفة لأنظر إلى بريجيت وهي تهيأ لخلع ثيابها فأقف متمتعاً بجسمها الرائع وبما فيه من جمال امتلكت كنوزه فأراها تسرّح شعرها الطويل وتعقد فوقه عصابة ثم تترك رداءها ينزلق عن جسمها إلى الأرض لتطفر نحو سريرها كأنها إلهة الجمال تندفع إلى البحر للاستحمام في مياهه . وكنت أنا من جهتي أنطرح على سريري دون أن يخطر لي ببال إمكان استسلامها إلى سميث ، فما كنت أقصد التربص لها للوقوف على جلية الأمر بل كنت أتعامى وأقول في نفسي إنها لجد جميلة ، وما سميث المسكين إلا شاب طيب القلب ؛ ولكل منهما أحزانه كما أن لي أحزاني . وهكذا كنت أشعر بانقباض قلبي وأحس في الوقت نفسه أن حملاً ثقيلاً سقط عنه

وفتحنا صناديق السفر فاتضح لنا أننا نسينا بعض الحوائج فعهدنا إلى سميث بمشتراها ، وما كان هذا الشاب ليتردد في القيام بكل ما نكلفه به . وعدت يوماً إلى البيت فرأيته جاثياً على الأرض منهمكا في إقفال صندوق كبير ، وكانت بريجيت أمام البيانو الذى كنا استأجرناه لمدة إقامتنا في باريس وهي تعزف عليه أنغاماً عزيزة عليّ فوقفت في ممشى الغرفة وكان الباب مفتوحاً أتنصت إلى هذه النغمات وهي تنفذ إلى أقصى مشاعري ، وما سمعتها من قبل تثيرها بمثل هذا الشجي وهذا الخشوع . وكان سميث يتلذذ بالإصغاء إليها وهو على ركبته يشد حابل الصندوق . ثم وقف وقد أكمل عمله وبقيت بريجيت

ملقيـة أناملها على معزف البيانو وقد شخصت أبصارها إلى الآفاق . ورأيت للمرة الثانية الدموع تنحدر من عيني الشاب فكادت عيناى تذرفان مثلها ، فتقدمت نحوه دون أن أدرى ما أفعل ومددت يدى لأصافحه ، فارتعشت ريجيت وظهرت دلائل الدهش على وجهها وقالت لي : أ كنت هنا أنت ؟ فقلت : إنى كنت هنا . أنشديني يا عزيزتى وأسمعيني صوتك أيضاً . فعاودت الإنشاد دون أن تجيبنى بكلمة ، ورأت ما يفعل إنشادها بي وبسميث فخففت نبرات صوتها تدريجياً حتى حسبت نغمات الشعراء همساً يتردد فى الآفاق من بعيد . ونهضت فألقت قبلة على وجنتي ، وكان سميث لم يزل قابضاً على يدي فشعرت أنه يشد عليها بحركة مرتعشة وقد علت وجهه صفرة الموت

وحملت إلى البيت مرة أخرى مجموعة مناظر عن بلاد سويسرا فجلسنا نحن الثلاثة نقلب صفحاتها فاستوقف انتباه ريجيت أحـد المناظر فى مقاطعة « الفود » على مقربة من طريق « بريك » حيث يمتد واد ظليل تحف به أشجار التفاح وترتعى المواشي فى مروجه ، ووراء هذا المنظر كانت تلوح قرية لا يتجاوز عدد مساكنها العشرة ، وهي مبنية بشكل مدرج على منحدر التلال ؛ وكان يظهر فى مقـدمة هذا المنظر رسم فتاة تلبس قبعة من القش وهى جالسة إلى جذع شجرة وأمامها خادم المزرعة يدلها بعصاه الممدة على الطريق التى قطعها من جهة الجبل حيث كانت تظهر مناظر جبال الألب تكللها ثلاثة تيجان من الثلج مرصعة بأشعة الشمس الغاربة . وكان هذا المنظر على غاية من الجمال يلوح الوادي المخضل فيه كأنه بحيرة من الأعشاب الندية . فسألت ريجيت عما إذا كانت تود أن نذهب إلى هـذه القرية . وما انتظرت جوابها فأخذت قلما ووجهته نحو الرسم ؛ وإذ سألتني ريجيت عما أريد أن أفعل ، قلت لها إنني سأحاول بتعديل بعض الخطوط على وجه الفتاة الماثلة فى الرسم أن أجعله شبيها بوجهك ؛ ولعلني أوفق أيضا لوضع بعض الشبه من وجهي على وجه الجبلي الجسور

وأعجبتها هذه الفـكرة فرأيتها تأخـذ محفاة فتمرها على الوجهين فبدأت أنا برسم ريجيت مكان وجه الفتاة ، وحاولت هي أن ترسم وجهي مكان وجه الفتى ، ووفقنا كلانا إلى ما قصدنا فإذا بي وبها على مدخل القرية في سويسرا . وبعد أن ضحكنا أمام هذا المشهد بقيت المجموعة مفتوحة ، وإذا بالخادم يدعونى لأمر ما فخرجت . ولما عدت إلى الغرفة رأيت سميث مستنداً إلى الخوان وهو مستغرق فى التأمل حتى أنه لم ينتبه لدخولى . وجلست قرب الموقد حتى إذا رفعت صوتى وخاطبت ريجيت انتبه سميث لوجودي فرفع رأسه وتفرس فينا لحظة ثم استأذننا بالانصراف فجأة . وبينما هو يتجه من المشى إلى الباب رأيته يصفع جبينه براحته فنهضت عن مقعدى وهرعت إلى غرفتى وقد انطبعت فى عيني هذه الحركة التى تنم عن الألم وأنا أسأل نفسي ماذا عسى أن يكون هذا ..؟ وضممت راحتى بحركة الاسترحام دون أن أدرى إلى من أتوجه بها ، أإلى ملك سعادتى أم إلى شيطان بؤسى ؟

الفصل الرابع

وكان قلبي يهيب بى إلى الرحيل فأرجىء السفر من يوم إلى يوم إذ كنت أشعر فى كل مساء بلذة مريرة تسمرني فى مكاني . وكنت فى كل مرة أتوقع فيها زيارة سميث يملكني اضطراب لا يهدأ حتى

أسمع قرع جرس الباب منذراً بوصوله . فما هي يا ترى هــذه العاطفة المضمرة فينا يستهويها الألم ويشد بها الشقاء ؟

وكنت كل يوم أرتعش لكلمة أسمعها أو لبارق لحظ أباغته ثم تردني هذه الكلمة نفسها وهذه البارقة عينها في اليوم الثاني إلى الحيرة والارتياب بريبتي . وما أدري لماذا كنت أرى بريجيت وسميث غارقين في بحر من الأحزان كما لا أعلم لماذا كنت أشخص متأملاً فيهما وأنا لا أبدي ولا أعيد في حين أنني ما كنت أملك ثورة نفسي في مثل هذا الموقف . لقد كنت أحس بشيء من الخيال وفيّ من الغيرة العنيفة في الحب ما يشبه غيرة الشرق في لهب غرامه

وكنت أمضي أيامي في الانتظار دون أن أعرف ما أنتظر . حتى إذا أمسيت قعدت على سريري قائلاً : لأ فكرن في هذا الأمر ؛ فأسند رأسي بيدي ولا ألبث حتى أصيح : لا إن هذا مستحيل . ثم أعود إلى مثل هذا العمل في الليلة التالية

وكانت بريجيت تبدي لي من التحبب أمام سميث ما لا تبدي مثله ونحن منفردان ، حتى إنها ذات ليلة كانت ذاهبة معي في مجادلة قاسية ، فما سمعت صوت سميث في البهو حتى هرعت إليّ وقعدت على ركبتي ؛ أما هو فكان يبدو في كل آن كأنه مستغرق في أسى لا ينقطع عن مجالدته ، فكانت حركاته معتدلة ولا يتكلم إلا متمهلاً ؛ غير أنه لم يكن يتمالك أحياناً من الإتيان ببعض حركات تشذ بعنفها عن حالته العادية

أفكان تململي في موقفي ونفاد صبري نوعاً من الفضول ؟ ولو جاءني أحد وقال لي : مالك ولهــذه الأمور ؟ إنك حقاً لفضولي . فهل كان يمكنني أن أفسر عاطفتي بغير التحرش والفضول ؟

إنني أذكر حادثة وقعت لي على الجسر الملكي رأيت فيها رجلاً يهلك غرقاً

كنا رهطاً من الأصحاب نتمرن على السباحة فذهبنا تحت الجسر يتبعنا مركب فيه سباحان من متخصصي الانقاذ ، وتبعنا رهط آخر حتى بلغ عددنا الثلاثين . وأصاب أحد رفاقنا احتقان أورثه الدوار فاذا به يصرخ مستنجداً وقد رفع يديه يلوح بهما على سطح الماء ، وما عتم أن اختفى أثرها . فألقينا بأنفسنا في اليم ثم عدنا بلا جدوى ، وما أخرج الغريق إلا بعد مرور ساعة إذ وجدت جثته عالقة تحت كومة من الأخشاب

لن أنسى ما حييت ما شعرت به وأنا أغامر بنفسي تحت أطباق المياه ، فإنني كنت أرسل أبصاري في اللجج القاتمة تدور بي بصخبها المختنق ، وأذهب غائصاً على قدر ما يطيق صدري كبت أنفاسي ، ثم أطفو على سطح الماء لأتبادل بعض كلمات مع رفاق الغاطسين مثلي ، ثم أعود إلى الأعماق لاصطياد الإنسان الغريق وملء قلبي الأمل والارتياع . وما كنت أتمثل يدي الغريق تقبضان عليّ برعشة الموت حتى أشعر بلذة يمازجها هلع لا أستطيع التغلب عليــه . وطفوت راجعاً إلى ظهر المركب وقد أنهكني التعب

إن من نتائج الفحشاء إذا هي أبقت في الإنسان على شيء من إنسانيته أن تدفع به إلى هوس الإستطلاع . وقد تكلمت عما انتابني من هذا الهوس في زيارتي الأولى لديجنة ، وسأذهب الآن في وصف الفضول إلى أبعد ما وصلت إليه

تقضي الحقيقة على كل إنسان أياً كان أن تغور يده عند ما تحين ساعته إلى ملمس العظام من أي جرح يتكشف عنها ، وما تعرف حقيقة الحياة إلا

بهذا الإختبار . وبعض الناس يتراجعون خوفاً أمام العظم المعرّى والبعض الآخر ينالهم الارتياع فيرتعشون كالأشباح لا يتقدمون ولا يتأخرون . وهنا لك أناس يعدمهم هذا المشهد فيموتون ولعلهم أفضل الأحياء . ويمر الحدث على أكثر الناس فيتابعون سيرهم ملفّعين بالنسيان ، والأجيال تتابع على هذا السبيل نحو الفناء

وقد قضى على بعض الأشقياء في مثل هذا الموقف ألا ينكصوا على أعقابهم ولا يترددوا فلا هم ينسون ولا هم يموتون ، فإذا ما قدر عليهم أن يصطدموا بكارثة ، وما الكوارث إلا كاشفة الحقائق للبصائر ، فإنهم يقتحمونها ويمدون أذرعهم نحوها فهم كالغائص تحت أطباق اليم يستفزهم نوع من التوّله بالغريق وقد كلح وجهه في قبضة الموت فيتلمسون موضعه حتى إذا قبضوا عليه ضموه إلى صدرهم وتحروا عن منبض حياته

هؤلاء هم الثملون بخمرة الفضول الطامحون إلى معرفة ما وراء كل مظهر ، يقضون عمرهم في الارتياب ومحاولة بلوغ اليقين فيقفون جهودهم على استكشاف ما في الحياة كأن الله قد بثهم عليها عيوناً وأرصاداً فيرسلون أفكارهم مشحوذة كالسهام وتقطع أحشاءهم نهشة الفهد الكاسر

ليس كالفسّاق من يستولى عليهم مثل هذا الهوس لأنهم يقفون أمام نهر الحياة فلا يكتفون بالنظر إلى الماء يجرى صافياً في مركضه بل يندفعون أبداً إلى سبر أعماقه ومراسيه . فهم إذا ماخرجوا من مرقص هرعوا إلى المواخير ولما تزل أكفهم ندية من مصافحة يد عذراء قد تكون ارتعشت بين أناملهم فيطرحون أرديتهم عنهم ويجلسون إلى مائدة ليكرروا — وهم يقهقهون ضحكا — آخر عبارة نطقوا بها أمام جميلة من فضليات النساء

أفما كان بوسع هؤلاء الأغرار أن يرفعوا ببذل بعض دريهمات الرداء المنسدل كالنقاب على مواضع العفة فما يكون تقديرهم للحياة وهم منها في موقف الممثلين وراء ستائر المسرح الداخلية ؟ ومن كهؤلاء الناس يذهب إلى قرارة الأشياء وقد تعود سبرها محتقراً جاحداً ؟ أفما سمعتهم ولا بيان لهم إلا التعابير الجافية المتهتكة القذرة فهم لايرون الافصاح عن الحقيقة إلا بها ، وما سائر التعابير في عرفهم إلا سخافات وتمويه ، فإذا هم قصوا عليك واقعة اكتفوا بالبيان عن احساسهم منها فلا يخرج من شفاههم إلا سفيه الكلام ؛ فعبثاً تفتش على الروح فيما يقولون وما يتلفظون إلا بالحرف الميت . فإذا أراد أحدهم أن يقول : لقد أحبتنى هذه المرأة ، قال : لقد تمتعت بوصال هذه المرأة . فهو لايقول : أحب ، بل يقول : أشتهى . وبدلاً من قوله إن شاء الله يقول : إن شئت أنا

ويعلم الله ما يدور في خلد هؤلاء الناس وبماذا يناجون أنفسهم

ومن كانت هذه حاله فلا بدع إذا هو استغرق في الكسل أو اندفع بحماسة الفضول إلى هتك الأستار ، لأنه بينما يتمرن على تمثل الأمور على أسوأ حالاتها لا يروق له أن يرى في العالم من يحسن به ظنا ، فيعمد إلى سد أذنيه في تكاسله . وهكذا يدع الأب ابنه حراً في ارتياد الأماكن التي تحلو له قائلاً : للشبيبة أن تحيا حياتها ؛ غير أن الابن لا يمالك نفسه

عند عودته من التفرس فى وجه أخته ، وقد انتصبت فى مخيلته الوقائع الحيوانية التى تصدمه فى كل آن فيتساءل عما إذا كانت أخته ليست من طينة المرأة التى كان فى غرفتها ... ويدور القلق بالفتى فيرعى أحشاءه الارتياب

إن سوء الظن الدافع إلى الاستكشاف إنما هو داء وبيل ينشأ من ملامسة الأرجاس يدفع بالمبتلين به إلى التجول كالأشباح بين المقابر عاملين على هتك ما تستر لحودها . وما هـذه النزعة إلا عذاب أليم يعاقب الله به من ارتموا على مزالق الضلال ، فهم يتشوقون أبداً إلى التيقن من تداعى كل من حولهم إلى الانهيار . ولعل هذه النزعة تملأهم ارتياعاً ولـكنهم مسوقون كرهاً إلى التحرى والتجسس ومنازعة الوقائع أسرارها فيحنون الرأس على الزوايا كالمعار يوجهها لتركيز ما يقيمه فى خياله . فإذا ما عثروا على دليل يثبت الشر علت شفافهم بسمة الرضى ؛ وإذا ساورهم الشك فى وجوده مالوا إلى افتراضـه والإيمان به ؛ وإذا صدمهم الخير تطلعوا إلى ما وراءه

إن آية هؤلاء القوم قولهم من يدرى ؟ تلك كلمة ابليس ألقاها فى وجه السماء وقد أغلقت دونه بابها . ولـكم أشقت هـذه الكلمة من بنى البشر على ممر الأجيال ، ولـكم جرت من الويلات وأدت إلى مجاذر ، ولـكم ذهبت كالمنجل يقطع أعمار السنابل الخضراء قبل نضوج حبوبها . إن ألوف الأسر قد دفنت تحت أنقاض مسا كنها منذ دوت هـذه الكلمة بين جدرانها

من يدرى . من يدرى . يا لها من كلمة دنيئة ! وخير للناس من أن يتفوهوا بها أن يقتدوا بالأغنام تسير إلى المجزر وهي تقضم الأعشاب مطمئنة على طريق مذابحها ، أفليس من يحسن الظن ويحيا مطمئناً خير ممن يصدم الحياة بما يدعوه نباهة وحزماً وهو يغذى تفكيره بمبادىء « لاروشفوكولد » ؟

وهل من واقعة يمكننى أن أوردها مثلا أشد إثباتاً لما أوردت من الحادثة التى أقصها

لقد كانت خليلتى مستعدة للرحيل ، ولا تنتظر إلا كلمة أقولها لتصدع بها وما كان حزنها خافياً عنى فلماذا بقيت ؟ وما ذا كان سيقع لو أننا شددنا الرحال؟

لقد كان علىّ أن أقتحم مخاوفى حتى إذا مرت ثلاثة أيام على رحيلنا نسينا كل ما وراءنا ، وهل كان لها أن تفكر فى سواى وهى منفردة بى ؟

لماذا وقفت مهتماً بسر لا يتهدد سعادتى ؟ إن بريجيت كانت مستسلمة لى فهل كان على أن أذهب إلى ما وراء استسلامها ؟

كان لى أن ألقى قبلة على شفاهها فأضع بها حداً لـكل شقاء ، ولـكننى تخيرت مسلـكا آخر . وهذا ما فعلت :

كان سميث قد تناول العشاء معنا ذات ليلة فتركته مع بريجيت وانسحبت حالاً ؛ وعند ما أقفلت الباب سمعتها تنادى الخادمة طالبة إحضار الشاى

وعند ما دخلت الغرفة فى اليوم التالى مررت صدفة أمام المائدة فرأيت عليها إبريق الشاى وقربه فنجان واحد ؛ وما كان أحد دخل قبلى لأفترض أن الخادمة أخذت أحد الفنجانين ، فأرسلت أنظارى فى جوانب الغرفة فلم أجد للفنجان الآخر أثراً

فسألت بريجيت عما إذا كان سميث تأخر عندها ، فقالت إنه بقى حتى نصف الليل . فسألتها عما إذا

كانت نامت دون أن تدعو أحداً من الخدم فقالت: لم أدع أحداً لأن الكل كانوا نياماً

فذهبت أنظاري فى جوانب الغرفة مرة أخرى تفتش على الفنجان . فى أية مهزلة يرى على المسرح غيوراً تذهب به حماقته إلى التفتيش عن فنجان ؟ وما كان قصد بريجيت وسميث من شربهما فى فنجان واحد يا ترى ؟ ...

وما كانت هذه الفكرة على شيء من الوجاهة فى غرابتها ، ومع ذلك بقيت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً والفنجان فى يدى حتى هزتنى ضحكة عصبية قهقهت بها طارحاً الفنجان إلى الأرض فانحطم وتطايرت كسره بداداً ، ومشيت أزيد هذه القطع تكسيراً بضربات قدمي

ونظرت بريجيت إلى وهى صامتة ، واستمرت على معاملتى ببرودة تكاد تكون احتقاراً فى اليومين التاليين ، وهى تزداد ملاطفة لسميث حتى أنها بدأت تدعوه باسمه « هنرى » ولا تكف عن الابتسام له

وقالت ذات مساء بعد العشاء إنها تريد الخروج لاستنشاق الهواء وعرضت علىّ أن نذهب مشياً إلى الأوبرا ، فرفضت مرافقتها وقلت : إذهبى مع سميث وخليانى . فاستندت إلى ذراعه وتمشيا وبقيت وحدى كل السهرة أحاول أن أدوّن مايعنّ لخاطرى فيتمرد البيان علىّ ، وألجأ إلى استعراض شكوكى والتلذذ بها فأمعن فيها كالعاشق لاينفرد بنفسه حتى يخرج من جيبه رسم محبوبته محدقاً فيه مستغرقاً فى أحلام غرامه

وعلقت أبصارى على المقعدين حيث جلس سميث وبريجيت كأنني أستنطقهما سرّا يكتمانه مستعيداً لمخيلتى كل ما طرق أذنى وما لاح لعينى ، وكنت أتجه من حين إلى آخر إلى الغرفة التي رتبنا فيها حقائب السفر منذ شهر فأفتحها وأفحص ما وضعت فيها يداها الناحلتان من حوائج وكتب وأنا أتنصت إلى فرقعة بمحلات العربات فى الشارع فيخفق لها فؤادى .

وبسطت على الخوان خريطة أوروبا الشاهدة على ما بنينا من أمان واستسلمت أمامها لأفجع تشاؤم . ومن الغريب أننى لم أكن أشعر فى آلامي بما ينم عن غضب أو غيرة ، فقد كانت ريبتي تقف مترددة لا تقتحم تعيين أمر تبنى عليه شكا جلياً . فيا للعقل البشري من قوة تخلف من المظاهر ما يعذب القلب ويشقيه ! وما أشبه الدماغ بسجون ديوان التفتيش فى القرون الوسطي وقد علقت على جدرانها من الآلات مايحيرك فلا تدرى أهى ألاعيب أطفال أم مكامش تعذيب

وهل لأحد أن يبين لي ما الفرق بين قولي لخليلتى : إن جميع النساء خائنات وبين قولي لها : أنت خائنة ؟

ومرت في رأسى خواطر أشبه بأدق القياسات البنية على السفسطة ، فكنت أتسمع الى ما يدور من جدل بين عقلي وضميري فأسمع الأول يقول :

— إذا فقدت بريجيت فماذا يكون ؟

فيقول الضمير : انها سترحل معك

— واذا كانت تخادعني ؟

— وهل لها أن تخدعك وهى من طلبت فى وصيتها أن يصلي الناس من أجلك

— لعلّ سميث يحبها ؟

— ما لك ولهذا أيها المجنون وأنت الواثق من أن محبوبها هو أنت لا سواك

— اذا كانت تحبنى فما هو سبب حزنها ؟

— ذلك سرّها فاحترم هذا السر

— أتكون سعيدة ياترى اذا أنا اختطفتها ؟

— ان سعادتها متوقفة على حبك لها

— لماذا تضطرب عند ما ينظر سميث إليها فتحول عن عينيه عينيها ؟

— ذلك لأنها امرأة ولأنه في شرخ شبابه

— لماذا يعلو وجهه الاصفرار عند ماتنظر هى إليه ؟

— لأنه رجل ولأنها رائعة الجمال

— لماذا انطرح على صدرى عند ما كنت فى زيارته ولماذا ضرب فى أحد الأيام جبينه براحته ؟

— لاتسل عما يجب أن تجهل

— ولماذا وجب على أن أجهل هذه الأمور ؟

— لأنك حقير ضعيف ولأن الله وحده علام الغيوب

— ولكن لماذا أحس بهذه الآلام ولا أفكر بهذه الأمور دون أن يسود الاضطراب أعماق روحى ؟

— تذكر أباك واصنع الخير

— ولكن ما الذى يصدنى عن هذا التذكار وعن هذا البر ولماذا يجتذبني الشر إليه ؟

— انطرح جاثياً على ركبتيك واعترف لأنك إذا كنت أسأت الظن فقد ارتكبت سوءا

— وما هو ذنبى إذا كنت أتيت الاثم ولماذا تخلّى الخير عنى ؟

— ذلك لضلالك فى المسالك المظلمة وليس لمن يسير فى الظلمة أن ينكر النور ، فلماذا تحشر نفسك فى زمرة البغاة ؟

— لأنني أحاذر الدخول فى زمرة المخدوعين

— لماذا تحيي لياليك بالسهر ؟ إن الأطفال ينامون عند ما ينسدل ستار الظلام ، ولماذا أنت منفرد الآن ؟

— ذلك لأنني أفكر وتساورني المخاوف والشكوك

— ومتى تؤدي فريضة الصلاة ؟

— عند ما يعود إيماني إليّ . لماذا خدعني الناس؟

— ولماذا تخدع الناس أنت الآن أيها الجبان ؟ أفليس أولى بك أن تموت إذا كنت لا تحتمل آلامك؟

هكذا كان يتجادل فى صوتان هائلان يتناقضان فأسمع صوتاً ثالثاً ينتحب بينهما قائلا

— يا للطهارة المفقودة ويا لأيامي الماضيات !

« يتبع » فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصول السابقة

« لم يعد أودسيوس بعد إذ وضعت حرب طروادة أوزارها لأنه ضل طريقه فى البحر ولأن إله البحار نبتيون كان ألد أعدائه وكان لهذا واقفاً له بالمرصاد — وقد أبحر ولده تلماك ليسأل عنه الملوك الذين صحبوه إلى طروادة — وكانت أمه آية فى الجمال اليونانى الفذ فلما تأخر وصول زوجها طمع فى زواجها جميع أمراء إيثاكا وأمراء الجزر القريبة منها فحضروا إلى بيتها وحاصروها فيه ليضطروها إلى الزواج من واحد منهم ولكنها استمهلتهم حتى تفرغ من نسيج كانت تعمل فيه بالليل وتنقضه بالنهار ؛ وأبحر بعض عشاقها ليقتلوا تلماك في طريقه إلى الوطن . وقد لقى أودسيوس أهوالا جمة هى أحسن مافى الأوديسة وقد مرت بالقارئ في الفصول السابقة . ثم أوصله فلك الملك الفياشيين — أمراء البحر — سالماً إلى إيثاكا — وقد غيرت مينرفا ملامحه وأظهرته فى شكل شحاذ عجوز وأمرته أن يذهب ليبيت عند راعيه يومايوس وليظل لديه يومين أو نحوهما حتى تذهب هى فتعود بابنه تلماك سالماً إلى الوطن — وفى الفصل التالى يلقى الولد أباه ويتعارفان ... »

أوديسيوس يلقى تلماك

لقد كانت هدأة الفجر الساكنة الجميلة حينما هب يومايوس وضيفه من نومهما ليلبسا ثيابهما ويعدا فطورهما ، وليرسل الراعى عماله وراء قطعانه النائمة فى السهل الصامت الوديع ... وحينما أقبل تليماخوس أهرعت إليه الكلاب تلحس ثيابه وتلعق قدميه ، وتهتز من نشوة وطرب لأنها رأته بعد طول الغياب ... وقد لحظ أودسيوس ذلك فقال يتحدث إلى الراعى : « يومايوس ! هذا أحد معارفك أو الأوداء إليك مقبل ... لشد ماتملقه الكلاب التى أوشكت من قبل أن تعقرنى ! إنها لاتنبح ولا تكشر ، بل تقعى فى إثره ذليلة ! » . وما كاد يفرغ من حديثه حتى كان ولده واقفاً أمامه في رحبة الدار . وما كاد يومايوس يلمحه ، حتى هب من مقامه مسبوها مرتبكا ، وحتى انقذفت الأكؤس التى كان يمزج فيها الخمر من يديه ... بيد أنه ذهب إليه يقبله ويقبله ، ويبالغ فى تقبيله ، كأب مشوق لقى ولده فجأة بعد بضع سنين من مرارة البعد وألم الفراق ! ثم قال يكلمه : « أواه تليماخوس ؟ أهو أنت يانور عينىّ ؟ أنت نفسك ؟ أوَ قد عدت ؟ تالله ما كان يخطر بخلدى أنك عائد من سفرك بعد الذى دبّروا لك ! هلم ياحبيبى ! تعال يابنى ! فلقد عادت إلى روحى من سفر سحيق برؤيتك... تعال تليماخوس فما أندر ماتزورنا هنا لطول اشتغالك بالمعاميد المناكيد !! » وقال تلماك يجيبه : « أجل أيها الصديق ؛ غير أنني أتيت لأسألك عن أمى !! أما تزال مخلصة لذكرى أودسيوس قائمة على عهده ، أم أنها هجرت مهاده لتقع فى شرك

من شراك العناكب المحدقة بها ؟ ! » وأجابه الراعي فوصف له ما تلقاه الأم المحزونة من الضنى والحزَن ، وما تذرف من الدموع في جنح الليل لما يرميها به الحِدْثان ... ثم دخل تلماك بعد أن أخذ الراعي حربته ، فنهض أودسيوس ليخلي لولده مقعده ، فأبى تلماك .. « لأن المكان فسيح ، ولأن يومايوس يستطيع أن يعد لنا مقعداً آخر ... فوالله لتجلسنّ أيها اللاجيء الكريم ! » . وهيأ الراعي لسيده مقعداً من الحشائش الغضة والحلفاء الرطبة جعل عليها فروة كبيرة مما عنده ؛ وجلس تلماك .. وأحضر يومايوس فطوره في أطباق من أطباق أمس وشيئاً من الخبز والخمر ؛ ونشر الصحاف على الخوان أمام مولاه ، وأخذ الثلاثة يلتهمونها أكلة مريئة هانئة ... حتى إذا فرغوا ، توجه تلماك بالحديث إلى راعيه فقال : « ممن ضيفك يا أبتاه ؟ ومتى وصل إلى إيثاكا وكيف ؟ وأي الملاحين حملوه إلى شاطئنا ؟ » . قال الراعي : « والله يا بني ما أستطيع أن أخفي عنك ما قال ؛ فهو يدعي أنه من نسل الأماثل الأمجاد من أمراء كريت ، وأنه طوف في الآفاق ، وسافر في البلاد ورأي من المدن ما لا عين رأت ... وهو يقول إن فلكاً تسبروتيا قد حمله إلى شاطئنا قبل أن تحمله رجلاه إلى كوخي هذا ... ولكن .. لم هذا ؟ ولم أتولى أنا الاجابة ؟ إنه أمامك وأنا أدع أمره لك ، فاصنع به ما تشاء ... إنه لائذ بك ، قاصد بابك ، وأحسب أن له حاجة عندك ! » وبدا الألم في محيا الشاب فأجاب : « تالله لقد آلمني حديثك أيها الأب يومايوس ! أنت تجعله لائذاً بي قاصداً بابي ، وأنت تعرف من حالي ما تعرف ، وتعلم أنني مُرزأٌ بهذه الطغمة ، مشغول بوالدتي التي لا أستطيع أن أدفع عنها إصر هؤلاء الأنجاس المناكيد ، الذين طال لبثهم حولها ، وتوقحهم بسببها حتى لأخشى أن تضيق بهم فتختار مرغمة أفضلهم بعلا لها ، أو أكثرهم عطاء ، وأوسعهم ثراء ... بيد أنني أوثر أن أمنحه دثاراً وصداراً ، ونعلين ، وسيفاً جُرازاً ، ثم أرسله إلى أي أقاليم العالم شاء ، في حمايتي ... وإن أحبَّ ، فليبق هنا في ضيافتك أنت ، وسأرسل إليه ما هو حَسْبُه من طعام وشراب خشية أن يرهقك ، أو أن تضيق به ... أما أن يصحبني إلى القصر الذي تعلم من أمره ما تعلم ، فذاك ما لا أرضاه له ... فقد يغمزه أحد بكلمة فيجرحه ، وأجرح أنا بسببه ، وأنت لا يخفى عليك أنني صغير لا أستطيع مهما أوتيت من الشجاعة أن أرد عادية هؤلاء الأوغاد » ، وتولى أودسيوس الاجابة فقال : « أَوْه أيها الحبيب الطيب القلب ! لشد ما يتمزق نياط قلبي لما سمعت من أمر هؤلاء العشاق الأشقياء الذين يستبيحون منزل فتى كريم مثلك ! ولكن قل لي ، إذا أذنت أن أتكلم في هذا الشأن : هل عن رضى منك لصقوا بمنزلك فما يريمون ؟ أم برغمك أيها العزيز ؟ أليس لك أخوة يسندونك ويشدون أزرك فتطردهم من بيتك ؟ أواه لو عاد لي شبابي الآن أواه ! وآه لو عاد الآن أودسيوس ! تالله لو أنني في حالك هذه لآثرت أن أمتشق سيفي في وجوههم فاما أن أطهر بيتي منهم ، وإما أن أخر قتيلا بينهم فلا تقع عيني على ما يصنعون ، ولا أرى إلى عيثهم وعبثهم بكل ما في منزل أبي من خير ومَيْر السنين الطوال ! » فقال تلماك : « ليس سراً أيها اللاجيء الكريم ما بيني وبين قومي ، وليس منهم من

يضمر لى عداوة أو يطوى جوانحه لى على حقد ...
أما الأخوة والأشقاء فليس فى أسرتنا من رزق
هذه النعمة ، بل هذا دأب عائلتنا منذ القدم ؛
ذلك أَرْسسْيَاس لم ينجب غير لترتيس ، ولم ينجب
لترتيس غير أودسيوس ، وهذا لم ينجب غيرى ...
أنا ... هذا المرزأ المحزون الموجع القلب .. من أجل
ذلك طمع هؤلاء الطامعون فينا وتكالبوا على بيتنا
من كل فج ، فأقبلوا من ساموس ودلشيوم
وزا كنتوس وأطراف إيثاكا ، ومن الجزر الكثيرة
المنتثرة في هذا البحر ... كل يرغب أن تكون أمى
له من دون العالمين زوجة برغمها ، فهم مقيمون
لا يريمون ، آكلين ناعمين ، يستنفدون غلة ما ترك
أودسيوس ، آتين على كل ما فى بيته وخزائنه ،
ويوشكون أن يأتوا على أنا الآخر ! » ثم أمر
يومايوس أن يذهب إلى القصر فيخبر أمه بعودته
سالماً من بيلوس ؛ فذكره يومايوس بجده الضعيف
الشيخ الذى امتنع عن الأكل والشراب منذ أن
رحل تلماك يسائل عن أبيه ... وذلك مما أضواه
من الهم ، واستأذنه فى أن يمر عليه فيخبره بعودة
مولاه حتى يطمئن هو الآخر . ولكن تلماك أمره
بأن يذهب من فوره إلى القصر فيخبر الملكة ،
ولترسل هي إحدى وصيفاتها إلى جده فتخبره ...
وانطلق يومايوس ... وكانت مينرفا تنتظر ذهابه
لتبدو لأودسيوس في صورة حسناء ذات وقار
وحسن سمت ، وقد أخذت الكلاب بروعة مرآها
فتكبكبت فى أحد أركان الحظيرة ، وراحت توقوق
وتهر[1] مما شدهها من منظر مينرفا ، وقد لفت

فعلها أودسيوس فهب مسرعاً إلى ربة الحكمة التى
قالت له : « الآن ينبغي أن تكشف نفسك لولدك
فتقفه على حقيقة الأمر ، ثم تذهب معه إلى المدينة
وفى قبضتك الموت الزؤام تجرّعه صاباً ويحموماً
للعشاق . وسأكون دائماً معك ، وسأشرف على
على المعركة بنفسى » ولمسته بعصاها السحرية فارتد
إلى صورته الحقيقية ، وعاد إليه عنفوانه وجماله ،
وتلك البشرة البُرنزية التي تلتمع فوق جسمه دائماً ؛
واستطالت لحيته كذلك ، وعاد إلى الكوخ فى حلته
الضافية التى كانت عليه من قبل ... فلما رآه تلماك
شُده وفَرِق وقال له : « أيها النازح الغريب ماذا
أصابك ؟ لقد تبدلت أيما تبدل ! خبرنى أرجوك
وأتوسل إليك ، أأنت إله كريم فنعقر لك القرابين
ونذبح مِن أجلك الأضاحى ؟ » قال أودسيوس :
« ليفرخ روعك يا بنى فما أنا إله إن أنا إلا بشر ،
وإن أنا إلا أبوك الذي ذهبت تذرع الدنيا من أجله
والذى بسببه غصصت بكل هذه الآلام ، وصبرت
للؤم هؤلاء الناس ! » ثم ضم إليه ولده وطفق يقبله
ويذرف دموعه على خديه !! بيد أن تلماك لم يصدق
وراح بدوره يقول : « أبى ؟ لن تكون مطلقاً أبى !
بل أنت إله تنزل من السماء ليعبث بى ، وليزيدنى
شقوة وأشجاناً ! أي بشر يستطيع أن يصنع
ماصنعت ، وكنت منذ لحظة عجوزاً محدودب الظهر
مجعد الوجه غائر العينين ، تلوح فى مِزَقٍ وأسمال ،
ثم تخرج هنيهةً وتعود فى هذا البدن الفينان وذاك
المظهر الفتان الذى لا يكون إلا للآلهة ؟ » فقال
أبوه : « أى بنى أنا أودسيوس ، ولن يرجع إليك
أودسيوس آخر سواى ! اطمئن يا ولدى فقد
صنعت مينرفا ما رأيت بأبيك ، وما صنعته أنا بنفسى

(١) الوقوقة صوت الكلاب إذا خافت والهرير صوتها إذا أنكرت شيئاً (الثعالبى)

إنها ربة ولها القدرة على كل شيء ، ففي وسعها أن تظهر من تشاء في صور شتى ، وليس هذا على أثينا بعزيز » وأحس تلياك ما كان يشيع في كلمات أبيه من حرارة وإخلاص لا يصدران إلا عن قلب أب ، فانطلق يبادل والده عناقاً بعناق ، ودمعاً بدمع ، وقبلات بقبلات ! ثم سأله كيف عاد إلى الوطن بعد كل تلك السنين الطوال ، فقص عليه قصته ثم قال له : « ولكن حدثني أنت عن أمر أولئك العشاق الأوغاد ما عددهم ، وهل نستطيع كلانا أن نقف لهم فنظفر بهم ؟ » فأجاب تلياك : « أبتاه ! لقد سمعت الثناء على شجاعتك وسعة حيلتك وجليل حكمتك في كل خبار ، وكل نقع ... ثناء يلهج به فم الدنيا جميعاً ! بيد أنه ينبغي ألا نجازف هذه المجازفة التي لا نعرف ماذا وراءها ... إذ ماذا يصنع اثنان بعشرين ومائة من خيرة صناديد إيثاكا وما حولها ؟ الرأى أن نفكر في أنصار يشدون أزرنا ويكونون عوناً لنا » فقال أودسيوس وهو يبتسم : « وما قولك يابني في اثنين الله — جوف العلى — ثالثهما ، ومينرفا نصيرتهما على القوم الظالمين ؟ أإذا كان هذان معنا ، أفنحتاج إلى عون آخر ؟ » فقال تلياك : « بلى ... تعالى جوف وجلت مينرفا ... إن لهما لأيدياً فوق أيدى الناس ، لأنهما يحكمان من فوق عرشهما الممرد فوق السحاب ، في الأرض والسماء على السواء . » وقال أبوه يزيده طمأنينة : « وسيكونان معنا في الحلبة حين يجد جدها ... فإذا كان الصباح فاذهب إلى القصر واختلط بالعشاق ؛ وسيقودني راعينا الأمين إلى هنالك ، متنكراً في صورة الشحاذ الفقير الذى رأيت ، فإذا فرطوا علي فلا تأس ، حتى ولو كان فرطهم بالضرب والسباب ... ويسرني أن تحتمل وتصطبر ، فإذا زادوا فاصرف عني أذاهم بكلمة طيبة حتى يحكم الله بيني وبينهم بأن يحين حينهم ... واحذر أن تخبر أحداً بعودتي حتى ولا أبي ... بل على الأخص أمك بنلوب أو هذا الراعي يومايوس ... إذ ينبغي أن نستعين على أمرنا بالكتمان حتى نعرف أصدقاءنا ونخبر أعداءنا ! » وطمأنه تلياك وأكد له كل شيء ... ثم وصل يومايوس إلى بنلوب فأخبرها بعودة تلياك ، وذاع النبأ بين العشاق فذعروا ، لفشل مؤامرتهم ضده ، وانتشروا خارج القصر ، واعتزموا أن يبعثوا نفراً منهم بهذا النبأ إلى الطغمة التي ذهبت تتربص بالفتى لتغتاله إذ هو عائد من بيلوس ... ثم اجتمعوا يمكرون السيئات ويدبرون قتل تلياك حين تتيح فرصة أخرى . وكان ميدون قريباً منهم فاسترق سمعهم وطار به إلى بنلوب التي هالها ما مكروا وما دبروا ، فذهبت في جميع وصيفاتها إلى رحبة القصر ، حيث اجتمع أعداؤها إلى شياطينهم ، فصاحت بزعيمهم أنطونيوس من وراء حجابها قائلة : « أنطونيوس تبت يداك يا ألأم الناس ! أنت يا من يدعونك التقي الصالح وأنت أسفل مما يظنون طوية وأخبث سريرة ! كيف حدثتك نفسك بهذا التدبير السيء فترسم لأشرارك قتل ولدي الذى لم يعد لي في الحياة رجاء غيره ؟ أ لأنه ضعيف بنفسه ؟ ألا فاعلم أنه قوي بالله الذي ينتقم لعباده من الظالمين ! أيها اللئيم ، أبمثل هذا تجزي جميل أودسيوس الذي حال مرة بين أبيك وبين أعدائه معرضاً بنفسه للتهلكة ولولاه لظفروا به ، ولولا أن قتل منهم من قتل وصرع من صرع لعجلت روحه إلى نيران هيدز وبئس القرار ؟ أفلم

يكفك ما تأكل بغير حق من زاده ، وتعبث غير عابئ بعتاده ، فترسم لأشرارك غيلة ابنه ؟ » وانبرى يوريماخوس يهدّئ من ثورتها ويطمئنها أن أحداً من العالمين لا يستطيع أن ينال تلماك بأذى ما دام هو حياً يدب على قدمين ... وكان يتكلم برغم ما كان ينطوي عليه قلبه ... لأنه كان من أكبر المتآمرين على حياة ابنها العزيز الحبيب ... ! وبعد أن توارت أورورا عاد الراعى إلى حظائره يدب على عكازه ؛ وكانت مينرڤا قد لمست أودسيوس بعصاها السحرية فعاد إلى صورة الفقير الشحاذ وعادت إليه مِزَقه وأسماله ، فوجد سيده وضيفه الفقير يعدان عشاءهما . ولما لمحه تلماك قال له : « ماوراءك يا يومايوس الصالح ؟ أعلمت عن الطغمة التى استأنت في ساموس تتربص بى شيئاً ؟ » فأجابه الراعى : « تالله لا علم لى بشىء يا مولاى ، فأنا لم أنتظر طويلا فى المدينة لأتسقط الأنباء ، لأنك أمرتنى أن أرتد على عجل ؛ بيد أننى لمحت مركبا يطوى البحر إذ أنا عائد ، ويدخل المرفأ ، وفيه من العُدة والعَدَد ما يبهر النظر ويخطف البصر ، وأحسب أنهم هم الأمراء الذين تعنى ، غير أننى لا أجزم بهذا » .

ونظر تلماك إلى والده مبتسما ، محاذراً أن ينتبه الراعى إلى شىء

***

أوديسيوس فى قصره

ونضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، وخضبته بالشفق ، فهب تلماخوس من نومه الهانئ الهادئ الموشى بالأحلام ، فلبس وانتعل ، واخترط جُرازه ثم قال لراعيه : « أيها الأب الصديق ، إنى متوجه إلى المدينة لألقى أمي ، فأكبر الظن أنها لن يرقأ لها دمع ولن تخفت لها آهة حتى ترانى ... أما هذا اللاجىء . . . فرأيى أن ينطلق إلى المدينة فليسأل الناس وليطرق الأبواب ، ولن يعدم إذا تكففهم أن ينال رزقه ويحصل على لقمات يتبلغ بها ... إن لدى من المتاعب والمشاق ما يشغلني عن كل جوّاب آفاق ... إمض به إلى المدينة إذن ؛ فاذا آلمه هذا ، فهو حر ... إنى رجل لا أعبأ أن أقول الحق ! »

فنهض أودسيوس ليقول : « سيدى ! إنى لم أبغ أن أتلبث هنا ، فليس لشحاذ فقير مثلى أن يلتمس رزقه فى الحقول والغيطان ! بل إنى منطلق إلى المدينة ولست مقعداً أو ضعفاناً فلا أقوى على عمل يؤجرنى عليه أحد أمرائها ... تفضل أنت فاذهب لطيتك ، وسأمضى أنا مع خادمك حين تَمْتع الشمس قليلا ، فأنا كما ترى رجل شيخ ، وأخشى أن يقتلني برد الصباح وصقيعه ، وليس مايحفظنى منهما إلا ماترى من مِزَق مضى أصلها وبقى رقعها ! » . . . وانطلق تلماك فبلغ القصر ، ولقى أول من لقى مرضعه يوريكليا ، حيث كانت وأترابها ينشرن فراء على كراسى وحمالات مبعثرة فى الردهة ... فلما رأته عجلت إليه ورحبت به وسلمت عليه ، وانطلقت الدموع من عينيها فانعقد لسانها وانحبس منطقها ، ثم اجتمعت الجوارى يقبلن تلماك ويحدقن به حتى لفتن نظر الأم المعذبة المحزونة المطلة من إحدى شرفات القصر ، فأهرعت من علٍ وأخذت في حضنها المحب الرحيم أعز الأبناء ، وأمطرت جبينه وخديه بالدموع والقبل ثم جعلت تقول له : « أوَ قد عدت إلى الوطن يا نور عينى ! تلماك ! تالله لقد وقر فى

قلبي أنني لن أراك بعد إذا أبحرت إلى بيلوس برغمي ، وعلى غير علم مني ، لتتسقط أنباء أبيك... ولكن ... خبرني يا بني ماذا عساك سمعت . »
فقال الفتى : « أماه ! لم تعودين بذا كرتي إلى عبوس الحياة وقد أفلت من الموت ؟ أولى لك ثم أولى أن تضنى عليك من أنخر أثوابك ، ثم تصلي للآلهة أن تهيء لنا يوم انتقام عادل لايبق ولا يذر ! ! بيد أنه ينبغي أن أذهب الآن لألاقي ضيفاً كريماً عزيزاً جداً على _ عزيزاً جداً على يا أماه! _ حضر معي في سفينتي أمس ، وقد أرسلته مع من يضيّفه عني حتى أعود فأضيّفه أنا نفسي »
وذهبت بنلوپ فصلت طويلا للآلهة ، وانطلق تلماك فالتقى تيوكلمنوس وعاد معه إلى القصر ، وجلسا يتحدثان بينا أحضر أحد الخدم مائدة حافلة بألوان الطعام وأطيب صنوف الشراب ، فوضعها أمامها ... وأقبلت بنلوپ فجلست لدى الباب تنسج ثوبها الذي لاينتهي ! فلما فرغا من طعامهما أقبلت فقالت تخاطب تلماخوس : « يبدو لى أنك لن تقص على الآن ما سمعت من أنباء أبيك ياتلماخوس ، وأوثر إذن أن أصعد فأضجع فى فراشى الذى أبلله دائماً بدموعى منذ فارق أودسيوس ... فإذا انصرف الأوغاد المعاميد وفرغت من شغلك بهم فاحضر إلى لتقص علىّ من أنبائه . » ولكن تلماك قال : « أماه ! لم لا أقص عليك ماسمعت وما سافرت إلا لأطمئنك وأطمئن نفسي ؟ لقد سافرت إلى پيلوس وحظيت بلقاء نسطور الذى هش لي وبش وفرح بي كأنما أنا ابنه الذى افتقده طويلا وعاد فجأة إليه ؟ غير أنه لم يذكر لى عن أبي قليلا أو كثيراً لعدم علمه بشيء من أنبائه ، ولذلك بعثني مع واحد من أبنائه إلى ملك أسپرطة لأسأله عن أبي....وقد لقيني منالوس فأحسن لقائى وأكرم مثواي ، ورأيت زوجه هيلين الحُسّان المفتان التى شبت بسببها حروب طروادة ، والتى لقي من أجلها أبطال الأغريق أنكى ألوان العذاب ... ولما سألني الملك فيم قدمت ، نبّأته بأنباء العشاق المعاميد ، ووصفت له مايجرون على بيت أبي من الخراب ، فأرغى وأزبد ولعنهم أشد اللعن ، وتوسل إلى الآلهة أن ترد إليهم أودسيوس فيبطش بهم ، ويعيد إليهم صوابهم ، ثم قص على ماسمعه من أحد أرباب الماء _ پروتيوس _ الذى أخبره أن أبي مايزال حياً يرزق فى إحدى الجزر النائية ، وأن عروساً من عرائس الماء تحجزه عندها فى تلك الجزيرة برغمه ، لأنها تحبه وتهواه ، وأنه لايجد سفينة يهرب عليها إلى الوطن ... هذا يا أماه كل ماعلمته عن أبي من الملك منالوس ، وقد أذن لى فى العودة ، فأُبت فى رعاية السماء وحفظ الآلهة » . وكانت بنلوپ تصغى وثورة من الحزن تجتاح نفسها ، ولظى من الوجد يفتك بقلبها . فلما فرغ تلماك ، التفت تيوكليمنوس المتنبي إلى السيدة الرؤوم فقال : « يازوج أودسيوس أعيريني سمعك ! إصغى إلى فسأتنبأ لك ! إن ابنك هذا لم يسمع عن أبيه أى نبأ يقين ... أما أنا ، فقد بدت لى أمارات وشهدت فى السماء علامات ... ومحال أن تكذب علامات السماء ... أقسم لك بجوف العلى رب الأرباب ، وأقسم بهذا البيت بيت أودسيوس ، أن زوجك هنا ، وفى إيثاكا ... وهو يعلم كل صغيرة وكبيرة من أنباء العشاق وخباثاتهم ، وإنه ليدبر لهم عقاباً هائلا لن يفلت أحداً منهم !! » وسكت المتنبي ... وأقبل العشاق من لعبهم فخلعوا عباءاتهم ،

ثم نشطوا إلى الشاء والخنازير فجزروا لطعامهم ...

هذا ما كان من أمر تلياك وأمه ، وما كان من أمر العشاق . أما ما كان من أمر أودسيوس فقد مضى فى الطريق إلى المدينة بخطى متعثرة والراعى بين يديه ، وعلى كاهله حقيبته ، وفى يده عكازه ، وكلما لقيهما أحد صعّر خده ، وشمخ بأنفه ، تقززاً من منظر هذا الشحاذ الفقير القذر ... ثم أتيا إلى نبع يتفجر في الطريق فيستقى الناس منه ، وقد بسقت من حوله أشجار الحور والسنديان ، وترقرق المـاء فوق الحصباء كاللجين يتدحرج من حَيْـد أكمةٍ هناك ، أقام الصالحون فوقها مذبحاً لعرائس الغاب حيث يتقـدم الناس بنذورهم ويعقرون إضحياتهم ... وقـد لقيا هناك راعى ماعز الملك — ملانتيوس — يسوق قطيعاً من أسمن ما يرعي لأجل ولائم العشاق ... ولقد كان ملانتيوس هذا من أذنابهم ومتملقيهم . وكان يصنع كل ما يحببه إليهم ويضمن له عطفهم ، فلما رأى الفقيرين وأحدهما زميل له ، انطلق يهذى ويصخب ، ويسب ويسخر ، ويغمز الرجلين غمزاً شديداً موجعاً ، حتى غلى الدم فى رأس أودسيوس: « إنْـشَملا أيهَـذان المسخان! طاعون يجتاحك يا راعي الخنازير القذر ! حقاً إن الطيور على أشكالها تقع ! كلب يقود آخر ... إلى أين ؟ إلى حيث يلتقط فتات موائدنا ! عجباً ؟ ألا تطلقه معي إلى المزارع ينظف الزرائب ويحمل العلف ويحرس الغلة ويشرب ما شاء من اللبن الحازر [1] والمخيض ، ويكسو عظامه المعروقة باهاب من اللحم ؟! ولـكن هيهات ! فقد بلدت طباعه فلا يصلح لعمل شريف ! » وهكذا ظل الراعى الشرير يقيء من هذا البذاء ، وركل أودسيوس آخر الأمر ركلة قوية فى ساقه ، فلولا ما حرص الملك عليه من كتمان أمره لحطمه بسببها ، ولمسح به ظاهر الأرض ! ولقد هاج هائج يومايوس فدعا آلهته لتنتقم لرفيقه الضعيف وطفق يقول : « يا عرائس هذا النبع المقدس اسمعي بحق ما عقر لك أودسيوس وباسم ما ضحى أن ترديه إلى بلاده لينتقم من أمثال هذا الوغد الزنيم الذى لا يحسن إلا أن يملق أعداء مولاه ، وإلا أن يغشى رحابهم ، بينما قطعانه سائمة فى المرج لا راعى لها ولا حفيظ ! » فصاح الراعى الوقح : « هاه ! أجيبى يا عرائس دعاء كلبك الأمين ! أواه لو أستطيع أن أحملك فى فلك أحد هؤلاء السادة فأبيعك بيع الرقيق فى بلد سحيق ! أودسيوس ما ذا أيها البهيم! لقد أودى أودسيوس ولن يعود إلى الحياة قط . وبودي لو لحق به ابنه تلياك ! ! » ... قالها ... وانطلق حتى بلغ القصر وغشى مجلس العشاق يطرفهم بما حدث له مع راعى الخنازير ... أما أودسيوس وأمينه فقد سارا رويداً حتى أتيا بوابة القصر فتلبثا عندها ... وتناول أودسيوس يد الراعى وقال : « يومايوس ! لا ريب أن هذه سراى الملك ! أنظر ! هاهى ذى الحجرات يتلو بعضها بعضاً ، وهاك الرحبة الـكبرى ذات العماد وذات الأبواب ... وإنى أحدس أن هناك أضيافاً اجتمعوا لوليمة ، وهذا قتار اللحم يملأ خياشيمي ، وإرنان القيثار يجلجل فى أذنى ... » فقال يومايوس يجيبه : « أنت ذكى شديد الذكاء ! إنه هو المكان بعينه ، والآن ، هل تذهب أنت وحدك فتستعرض الأمراء وتعود ، أم تنتظر حتى أذهب أنا فأخطف نظرة إليهم ؟ على أنك يجب ألا تتلبث هنا طويلا ، فقد يراك بعضهم

(١) شديد الحموضة والمخيض الذى استخرجت زبدته

فيؤذيك ويطردك من هنا شر طردة » وقال أودسيوس : « بل انطلق أنت وإني منتظرك هنا ، فاذا لكمني أحد أو لكزني أو ركلني ، فلشد ما احتمل هذا وذاك ، وهل هو إلا بعض ما احتملت في حروبي الطويلة ؟ » وبينما هما يتحدثان ، إذا كلب كبير رابض يقف فجأة فيبصبص بذنبه وينصب أذنيه ، ويحدق بصره في أودسيوس ، ويظل مسحوراً ذاهلا ! ! آه ! إنه الكلب العزيز آرجوس الذي رباه الملك قبل أن يرحل إلى طروادة ... لقد أهمل أمره ، فهو رابض هكذا في حمأة من الروث والقذر والقُمّل أمام بوابة القصر ، كالشاعر العجوز الذي يجتر ذكرياته !! لقد عرف صوت مولاه برغم السنين الطوال ، فبكى ، وهر ، وأرسل الدموع حراراً تسقي صدغيه ! وقد تأججت في قلبه الحيواني ثورة من الحزن الطارئ المفاجئ فلم يقو أن يزحف ليمسح بلسانه قدمي مولاه ... وقد لحظ أودسيوس ما أصاب كلبه العزيز فبكى هو الآخر تأثراً ، وسجل هذه الآية من الوفاء للحيوان على الانسان ! وأشاح بوجهه عن الراعي حتى لايدرك مابعينيه من دموع. فلما مسحها بكمه قال يحدث يومايوس : « أليس عجيباً ومؤلماً معاً يا صديقي أن يتركوا هذا الكلب الذي تبدو عليه سيماء النبل فوق هذه الكومة من الروث ؟ قد يكون أقعده الضعف عن متابعة الصيد وقد يكون بقاؤهم عليه من أجل منظره وحسن سمته !! » فأجابه الراعي : « أوه ، بلى أيها الرفيق ! أما والله لو شهدته في إثر مولاه أودسيوس لعجبت لعظم قوته وشدة جبروته ! أبداً لم يخلق الله وقتئذ كلباً أتبع لصيد ، أو أقوى حاسة شم منه ؛ وأبداً لم يكن عندنا كلب ليس يدرك عَدْوَه كآرجوس هذا الرابض يساقط نفسه أنْفُساً !! إنه يبكي مولاه الذي قضى وتركه من ورائه لإهمال الوصيفات وقلة اكتراثهن ... أما عبيد هذا القصر فهم كالوصيفات حذوك النعل بالنعل ، فهم لا ينشطون لعمل كما ينشطون وسيدهم بينهم ، ثم هم قد فقدوا بالعبودية وذلة الرق نصف آدميتهم ورجولتهم !! » ثم مضى أودسيوس نحو صديقه وخدن صباه ، فبكى وذرف دموعه ، وكذلك فعل الكلب ... حتى مات ... ولكن بعد أن رأى سيده تارة أخرى !!

ولح تليماك راعيه فأومأ إليه ، وأخذه جانباً ، ثم أمده بنصيب جزيل من طعام الوليمة ... وبعد لحظات أقبل أودسيوس في صورة الشحاذ الفقير ، وجلس على الأرض ، فأرسل إليه ولده شيئاً من اللحم والخبز مع يومايوس ، وأسر إليه أن يرسله بين الأمراء يتكفف ، وبالأحرى ليتعرف ، فلما فرغ من طعامه نهض فسار بينهم يسأل هذا ويحدق فيه ، وينصرف إلى ذاك ويحدجه ، ويمد يده من أجل لقمة كما يصنع الشحاذون ، وقد رثى له كثيرون فأمدوه بلقمات ومضغ من اللحم ، إلا أنطونيوس ، فقد استهزأ به وبمن أحسن من الأمراء إليه ، وعيرهم بأنهم يتصدقون بما ليس لهم ثم هاج وماج ، ورفع كرسياً أوشك أن يحطم به رأس أودسيوس ، وأمره أن ينصرف فلا يعكر عليهم صفوهم أكثر مما فعل !! ولكن الكرسي صدع كتف الملك ، وأعنى رأسه ، ووقف أودسيوس كالصخرة لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة ... ولكن ألف ألف فكرة سوداء كانت تكظ فؤاده وتزحم تفكيره ... ثم مضى فجلس حيث كان من قبل ، وهتف بالعشاق في صوت جهوري فقال : « سادتي الأمراء اسمعوا ! تالله لو أنها ضربة في حرب بين كفئين لما حملت لها موجدة في نفسي ...

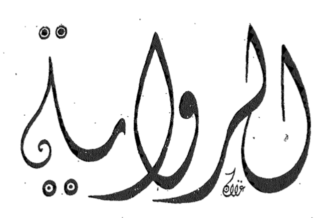
ولكن أنطونيوس رأى من سلطان الجوع والضعف على ما جرّأه وأثار نحيزته ... وأنا مع ذاك أترك جزاءه لله ، وأضرع إليه جل ثناؤه أن يقبضه قبل أن تزف إليه عرسه !! » وكأنما خجل العشاق مما فعل أنطونيو فجعلوا يلومونه ويتلاومون فيما بينهم . قال قائلهم : « من يدرى ؟ ألا يحتمل أن يكون أحد آلهة السماء جاء ليبلونا ... والويل لك يا أنطونيوس إذا صدق حدسنا ... ألا تعلم أنهم طالما يتنزلون فيغشون مدننا في صور الشحاذين ليروا بأعينهم ما نأفك وما نمين ؟ » ولم يبال بهم ولم يأبه لما قالوا ... وكان تلياخوس يتميّز من الغيظ ، ويُسر في نفسه أوجع الألم لما نال أباه من الضرب ، بيد أنه غلب غضبه ، وحبسه في أعماقه ، كما حبس في عينيه وابلاً من الدموع ... وكانت بنلوب تطلع من شرفتها وترى ما حل بالرجل من إيذاء ، فهتفت بيومايوس أن يدعوه إليها كيما تسائله عن أودسيوس ، لما يبدو عليه من أثر السفر وجوب الآفاق . قال الراعى : « أجل يامولاتى ، إنه رجل من كريت ، وقد خاض ألف مكروه قبل أن تحمله الصدفة إلى بلادنا ؛ ثم هو محدث ساحر الحديث طلي الرواية ، حتى ليخلب سمع من يصغى إليه بأشد مما يستطيع منشد مطرب أن يفعل ! وكلما طال حديثه لذت طُلاوته ، وكثرت حلاوته ، فلا تمل أذنان ، ولا يضيق به مصغٍ إليه ... وأعجب ما ذكره مرة لي أنه رأى أودسيوس وعرفه فى أپيروس ... بل يزيد فيؤكد أن مولاي عائد أدراجه إلينا ، حاملاً معه كنوزاً من الذهب ، وأذخاراً لم تر العين مثلها ولم تخطر على قلب بشر !! » فتنهدت بنلوب وقالت :

« انطلق إذن فأحضره ، ودعه يحدثني بما روى وجهاً لوجه ، وسأهبه صداراً ودثاراً إذا توسمت فى قوله الحق ، وآنست فى روايته الصدق »

وادعى أودسيوس أنه يخشى أن يجوز وسط الأمراء مرة أخرى ، وفضّل أن يلقى الملكة فيتحدث إليها إذا جَنّ الليل بجانب المدفأ ... ووافقت الملكة ، وصوَّبت رأي الرجل ؛ وكان الوقت أصيلاً فقصد الراعى إلى تلماك واستأذنه في الانصراف إلى حظائره ، فأذن له ، ولكن بعد أن أمره بالتزود لعشائه ، ففعل يومايوس ، ثم مضى ليسهر على خنازيره

« يتبع » دريني خشبة

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

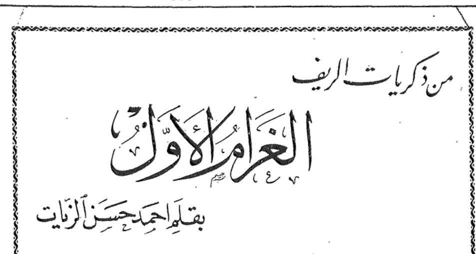
الادارة

شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢١ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٥٦ — أول ديسمبر سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى



فهرس العدد



ذهبت منذ قريب إلى القرية فى شأن من شئون الأسرة . وللقرية في رمضان سحر يغلب على القوى الحاسة فتغرق فى فيض من الشعور الرضى الرخى المبهم ، فلا تدرى أهو حلاوة الذكرى الخاطرة ، أم نشوة الطبيعة الشاعرة ، أم لذة الأنس الخالص ، أم جمال الايمان المشترك . وأحب شيء إلى نفسي هناك أن أخرج أنا وصديقي العمدة إلى ملاعب الطفولة ومسارح الصِّبى ، فأستنشي عبير الذكريات الجميلة ، وأستوحى آثار الذاهبين الأعزة . مشينا على العادة ننقل الخطو الرفيق على أسطار مشرقة من أديم الثرى الحبيب ؛ فهنا نتذكر مجلساً من مجالس الآباء ، وهناك نتمثل ملعباً من ملاعب الإخوة ، وثمت نتخطر موقفاً من مواقف الأحبة ، حتى انتهينا إلى مكان ظليل جميل فى ظاهر القرية ، فجلسنا فيه نقول كان وكان ، ونتمتع بملء العين والصدر والنفس من صفاء الجو ورخاء النسيم وإشعاع البيئة . وفى فترة من فترات الصمت العميق الحالم أرسل صديقى نظره إلى مورد الماشية من الترعة ثم رده علىّ وفى عينه الساجية جميع معانى التعجب ، وعلى شفته الباسمة كل أدوات الاستفهام . فنظرت حيث نظر فإذا امرأة فى أخريات الشباب تورد بقرتها الماء ، وقد أسدلت على وجهها الكامد طرحتها السوداء ، فلم أتبين معرفتها . وعهدي بالقرية بعيد فلم أعد أميز المرأة بلبستها ومشيتها وبهيمتها كما كنت أفعل .

ارتد بصرى إلىّ خائباً لا يملك تفسير ما فى نظرة الصديق من عجب ، وما فى ابتسامته من خبث ..

فسألته : ماذا ؟

قال : أما عرفتها ؟

فقلت : من هى ؟

قال : فلانة !

فقلت : فلانة ؟!!

قال : نعم فلانة ! ولا أدرى كيف أحببت هذه المرأة وأنت رجل منذ نشأت شاعر القلب ، وهى على ما أرى من ضمور الجسم وجفاء الخلقة ..! ماذا فتنك منها وإنك لتراها .. ؟ ...

فقلت له : بالله ربك لا ترد ! لا أريد أن تصفها ولا أحب أن أراها . دع لى صورة الفتاة التى عرفتها وأحببتها . إنها لا تزال فى طوايا القلب طاهرة كالطفولة ، ناضرة كالصِّبى ، ساحرة كالشبيبة . أما هذه التى ترى فليس بينى وبينها عهد ولا سبب . قم بنا عن هذا المكان وسأريك من هذه الصورة الجميلة خطوطاً تبعثك على أن تتخيل أكثر مما تسمع ، وتتمتع أكثر مما تفهم

* * *

كان ذلك فى ربيعى السابع عشر والدنيا غير

الدنيا ؛ والناس غير الناس ، فالدور يفيض منها الخير ، والمجالس يشيع فيها الوقار ، والأخلاق تغلب عليها السذاجة ، والأمور بين أهل القرية تجرى على نظام سماوى من التسامح والتعاون والألفة والعفة والاحترام والاحتشام والبر . وكان سلطان الأب على الأسرة أشبه بسلطانه عليها فى الجاهلية الأولى ، فهو مجمع رأيها فى القول ، ومرجع أمرها فى العمل ؛ لا يُثنَى له يد فى شأن ، ولا يُرد عليه قول فى حكم . لذلك نشأنا على الهيبة فلا نقترب من مجلس ، وعلى الحياء فلا نشارك فى حديث ، وعلى الطاعة فلا نعارض فى أمر ، وعلى الحشمة فلا نتبذل فى عاطفة . فتستطيع أنت من وصف تلك الحال أن تدرك طبيعة الحب الذى وُلد بين هذه البيئة وبين هذه النشأة .

كنت أقضى عطلة الدراسة كل صيف فى القرية ؛ فلا أكاد أنطلق من قيود الحياة فى القاهرة حتى أعود إلى أحضان الطبيعة الرءوم ، أتوخى أفياء الشجر كالطير ، وأحوّم بين الحقول كالفراش ، وأروى مشاعرى الظامئة من الجمال الحلال فى السماء والماء والهواء وصور الناس ووجوه الأرض . فاذا أينع القطن وحان جنْيه حلا لى أن أخرج وراء الجانيات الجميلات بعلة أن أراقب عملهن وأسجل أسماءهن ؛ ولكن الباعث الصحيح على مكابدة القيظ واحتمال العناء كان شغفى بالجانب الشعرى من هذه المشغلة . فقد كان خروج الفتيات من أزقة القرية أسراباً إلى الطريق الضاحك المطلول عليهن صباحة الصبح وإشراق العافية ، ووقوفُهن صفاً على رءوس الخطوط فى أعلى الحقل يحيين بأصواتهن الرخيمة الشادية شجيرات القطن وقد انعقدت على أوراقها أكاليل الحباب وسال على أطرافها رُضاب الندى ، ومشيُهن الوئيد فى أخاديد الأرض منحنيات على الفروع الموقرة بالثمر الغالى يقطفنه فى لباقة ويضعنه فى خفة وهن يتفكهن بالنكات ويتروحن بالأغانى ويتسارون بالمنى ، ثم عودتهن فى طفول الشمس يمرحن كالغزلان ويصدحن كالعصافير فيخلعن على كآبة النهار المحتضَر وضاءة الصباح الوليد ؛ كل أولئك كان يرهف شعورى بالجمال فأسمو على حداثتى وجهالتى إلى أفق الالهام والشعر .

وكان من بين هؤلاء الفتيات النواهد أربع لهن عليهن السلطان الغالب والارادة المطاعة ، لامتيازهن بالحسن الرائع أو الصوت العذب أو الدلال العابث . ولهذه المزايا نفسها نشأت بينى وبينهن ألفة ، فكن يتخلفن عن السِّرب ينضحن وجوههن ويصلحن هندامهن حتى تنهض الجمال رائحة بأحمال القطن ، فنعود جميعاً صامتين إلا كلمة حيية أو ضحكة ندية تقع فى الأذن أو فى القلب حيناً على حين

وكانت فلانة هذه إحدى هؤلاء الصواحب الأربع ، وكانت يومئذ فى عمر البدر تمتاز منهن بحلاوة الصوت ولطافة الروح وقوة الجاذبية . وكان منبع الجاذبية فيها عينين حوراوين تشعان الفتنة من خلال أهدابهما الوُطف ، وفماً رقيق الشفتين نضيد الثنايا جميل الافترار ، وصوتاً لطيف الغنة حلو النبرات فضىّ الرنين ، ونفساً رزينة الطبع رقيقة الشعور هادئة الشعاع ؛ فلا تملك وأنت مأخوذ بسحر هذه الصفات أن تفكر فيما فقدته من براعة التكوين وصفاء البشرة وغضارة البدن . وكانت هى من دونهن شديدة الخفر طويلة السكوت خافضة الصوت ؛ تغمغم إذا تكلمت ، وتطرق إذا تبسمت ، وتنظر إذا نظرت خُلسة أو عن عُرْض . فأغرانى

هذا النفور الغزالى بها ، فكنت أسلط عليها رفيقاتها فيداعبنها باليد ، أو يعابثنها باللسان ، فتنظر أو تضحك أو تصيح ؛ فأحس فى دعج عينيها ، وبريق ثناياها ، وحلاوة جرسها ، شيئاً خفياً قوياً لا أجهله لأنه ملء الشعور ، ولا أعلمه لأنه فوق المعرفة

كنت أقعد تحت الظلة عند مفارش القطن المجموع فتأتى الفتيات فرادى وثُـنَى فيضعن مايثقل حجورهن من القطن ، ثم يثرثرن طويلاً وينصرفن طافرات أو هازجات ، إلا فلانة هذه ، فقد كانت تأتى وحدها فتحل نطاقها على طرف المفرش ، ثم تفرط حجرها وهى خاشعة الطرف باسمة ، فأحاول استنطاقها فترتاع وتنقلب إلى خطها مضرَّجة الوجه لا تنبس ولا تلتفت . وفى ذات مرة طلبت منها جرة الماء فجاءت بها على استحياء وهى تحاول أن تُغضى من وجهها وتكسر من طرفها فلا تستطيع . ووقفت أمامى عيناً لِعَينٍ ، وروحاً لروح ؛ وجهدت أنا كذلك أن أقول لها كلمة فذهل الخاطر وتعطل اللسان ؛ وظل كلانا ينظر إلى الآخر ولا يراه ، ويتلمس الطريق إليه ولا يجده ؛ ولكن سبباً من أسباب القدر كان قد وصل القلب بالقلب ، فامتزجت النفس بالنفس ، وفهم الشعور عن الشعور ؛ وأدركنا معاً أن بيننا سراً ليس بيننا وبين الناس ، جعلها فى نظرى غير من أرى من الصبايا ، وجعلنى فى نظرها غير من تعرف من الصِّبية . ومنذ ذلك اليوم أصبحت تحوم حولى حوَمان الروح حول جسدها الهامد ؛ تعلم أنه لها ، ولكنها لا تملك أن تبعث الحياة فيه

* * *

ومضت أيام الجَنْى السعيدة ، وقرّت الكواعب الحسان فى البيوت ، وأقفرت الغيطان فلا تعج بالشباب ، وصمتت الطرقات فلا تهزج بالأغاريد . وأصبح لقاء الأوانس الأربع ، أو الآنسة المرادة من هذا الجمع إن أردت الصدق ، عسيراً على مثلى ممن لا تساعدهم تربيتهم المدنية على أن يغشوا دور الأهلين فى كل وقت ، ويلابسوا طبقات الفلاحين من غير سبب . ولكننى أصبحت على غير ما أمسيت ! ففراغ بالى قد امتلأ ، وأفق خيالى قد امتد ، وسر حالى قد استعلن ؛ وظللت اليوم كله لا أجد فى قلبى غير هواها الملح يعصف به عصف الريح بالشجرة المتهدلة ، ولا أبصر فى عينى إلا جفنيها الكحيلين يُسبِلان فى سكون على ألحاظها الفاترة ، ولا أسمع فى أذنى غير أغنيتها مع صاحباتها فى آخر يوم من أيام الجنى ساعة أقبلت على الحقل فى ضحوة النهار كعادتى ، ومطلعها :

يا بدرِ لما جيتْ كانِتْ ضلامْ نوَّرِتْ

تلمست العلل والحيل لأراها فى بيتها أو ألقاها فى غيطها ، فأخطأنى التوفيق لهذا الحياء الغالب على طبعى ؛ فكنت أمر ببابها ، أو أسير فى طريقها ، فأجدها أحياناً على عتبة الدار داخلة أو خارجة ، أو ألمحها حيناً على حمارها القصير الأبيض راكبة على حمل من البرسيم ، فنتخالس النظر ، ونتسارق الابتسام ، ثم يذهب كل منا لوجهه

لم أكن أعرف على وجه اليقين شعورها بهذا الفراق بعد أيام الجمْع ، ولكننى علمت من بعدُ أنها كانت تبتغى الوسيلة إلى اللقاء الحر حتى اهتدت إلى هذه الحيلة :

كان فى بيتنا صيدلية صغيرة من العقاقير الضرورية الواقية ؛ وكان أهم ما فى هذه الصيدلية لتر دائم من قطرة الزنك نجعله لمن يشاء من أهل القرية. فكنت ترى « المنظرة » فيما بين المغرب والعشاء أشبه

بالعيادة الناجحة . وكان الذى يتولى هـذا العمل الخيرى أنا أو أحد إخوتي . فبينا أنا ذات ليلة جالس وحدى على مصطبة الدار إذا بى أراها مقبلة تتهادى فى الظلام ، وقد غصبت عينها اليمنى بمنديل أسود ! فنهضت إليها عجلان فى حال تنم على دهشة المفاجأة وربكة الموقف وقلت لها :

— أهلاً وسهلاً ! سلامةْ عِينِـك يا نور !

— فقالت نور ويدها ترتجف فى يدى، وصوتها يتهدج فى أذني

— الله يسلمك ! عاوزه أحط أَطْـرَهْ

— فدخلت بها المنظرة وأجلستها بجانبى على الكنبة ، ورفعت هى العصابة عن عينها فإذا جفناها محتقنان قليلا . فسألتها عن سبب هـذا الاحتقان فقالت إنها حكتهما عامدة بالتوتيا الخضراء فالتهبا . فقلت لها وقد فطنت إلى ما رمت اليه :

— ولماذا ؟

— كِدَهْ !

— كده ليه ؟

— أهو كده !

فضحكتُ وضحكتْ . ثم أملتُ رأسها الصغير على ركبتى ، ووضعت كفَّى على وجنتيها ، وأناملى على خديها ، وطفقت أنظر من هذا القرب إلى هذا الجمال الذى شغفنى وشغلنى . فهذه هى العين التى ترسل السحر حيث ترسل النظر ؛ وهذا هو الثغر الذى يفترُّ عن المفاتن كما يفترعن الدرر ؛ وهذا كله هو المحيا الذى يشرق فى قلبي الناشئ إشراق الأمل ، ويتحدث فى نفسى الغضة حديث الصبابة . وأردت أن أحجز تيار الهوى عن الوضع الذى نحن فيه فملأت القطارة وهممت أن أفتح عينها ، ولـكنها نهضت مذعورة وهى تستضحك وتقول :

لا . لا . عينى سليمة ، ما فيش لزوم

حينئـذ لم يبق بينى وبين نور إلا شيء له دلائل وليس له لغة . هى تعلم أنى أحبها ، وأنا أعلم أنها تحبنى ، ولـكننا لا نجد لهذا العلم الضرورى اسماً يدل عليه ، ولا كلاماً يعبر عنـه . لأننا معشر القرويين — كما تعلم — نعرف الحب بمعناه وننكره بلفظه . فنحن نفرق منه كما نفرق من ألفاظ الفضيحة والنقيصة والعهر ، ولا نفهم من كلمة الحب إلا انفتاح العين والقلب لواحد من الناس فى غيبة الأسرة . ذلك إلى أن الحياء الطبيعى يعقد اللسان عن شكاية بُرَحائه وحكاية همه ، فكيف بالتصريح به ؟

كانت هذه الساعة التى جلستْها إلىَّ ظاهرة من أغرب ظواهر النفس : صبيان في حميا الشباب ومرح الفتوة يتحرق كلاهما شوقاً إلى صاحبه ، فتدنيهما الفرصة المرقوبة، وتجمعهما الطبيعة المؤلِّـفة، على غفلة الأعين وهمود الآذان ، فلا تنبسط يد ، ولا ينزلق لسان ، ولا تجمح شهوة ، ولا يكون بينهما إلا حديث عامٌّ لا يلبث أن ينقطع لأنه زورٌ على القلب وكذبٌ على الخاطر ؛ ثم يفترقان وفى صدر كل منهما سعير من الوجد يذيب الحشا ويرمض الجوانح !!

دأبت نور على هذا اللقاء بهذه العلة أسبوعا من الدهر كان شِبعا ورِيًّا لهذه العاطفة المكبوتة فنمت نمو الجبار فى صدرٍ واهن ضيق . ثم خشيتْ فضول الرقباء من طول الاستشفاء فأمرت عينها أن تبرأ ! وانسدل بينى وبينها الستار فلم أعد أراها

* * *

تذرعت إلى صداقة أخيها بوحدة السن والهوى حتى تمكنت بيننا الألفة . وأنتجت هذا الصداقة نتيجتها المقصودة فكنت أقضى أماسِىَّ فى بيته، بين

أمه وزوجه وأخته . نجلس جميعاً على فرن القاعة الدافىء نلعب الورق ونشقق الحديث ، ولكن ما حولنا وما بيننا من الأشخاص والأشياء كان إطاراً وكانت هى الصورة. فالعين لا تقع إلا عليها ، والقلب لا يتجه إلا إليها ، حتى فطنت لحالنا الأم ، واضطربت بحديثنا الألسنة ، وعزا الخليُّون هذه العاطفة إلى طيش الحداثة ، واستبعدوا أن ينتهى هذا العبث إلى شىء من الجد لاختلاف التربية وتباين الطبقة ؛ ولكن هوى نور غطى على قواى المدركة فتركنى أضطرب فى دائرة ضربها علىّ فلا أحاول الخروج من حصارها الكثيف ، ولا أقصد إلا الغاية الحتمية للحب العفيف . ذلك أن الحب انجذاب وامتلاك واستئثار ومتعة . وهو يسلك إلى هذه الأطوار ما أمكن من المسالك ؛ فاذا تعددت أمامه المنافذ انسرب من هنا وانسكب من هناك ، حتى ينتشر ويتبدد ؛ وذلك هو الحب فى المدينة . أما إذا انحصر فى حدود من الخلق المتين والتنشئة القويمة هدر هدير الأسير المغلوب ، واضطرب اضطراب المختنق المكروب ، ثم لا يجد له متنفَّساً إلا الفرجة الوحيدة المشروعة ؛ وهذا هو الحب فى القرية . لذلك قطعت العزم على أن أفضى بذات صدرى إلى أمها قبل رحيلى إلى القاهرة . فلما كلمتها ورجوتها فى ضراعة وتوسل أن تذود الخطَّاب عن نور ريثما أعود ، فجئها هذا الرجاء فشخص بصرها ، وانفغر فوها ، وظلت على هذه الحال برهة لا تطرف ولا تجيب . وأخيراً قالت فى لهجة الحائر المشدوه :

وهل يرضى أبوك ؟

فقلت لها : وماذا عليك ؟ إنى أعرف من يستطيع إقناعه . ولكن أم نور نفسها لم تقتنع ، وكرهت مع ذلك أن تكسع باليأس أمل هذا العاشق الصغير ، فقالت لى بلهجة الأم العطوف :

سافر يابنى مطمئناً فهى لك !

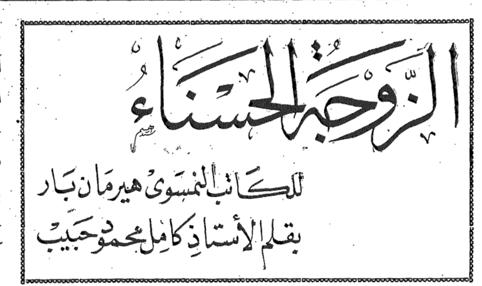
***

وذهبتُ إلى نور فى الحقل القريب أودعها وداع الراحل فى الغد ، فوجدتها بين البقرة وعجولها الصغار توزع بينهن العلف ، كما وجد ڤرتر شرلوت بين أطفالها الستة توزع عليهم الخبز ! فجلست على حزمة من البرسيم ، وجلست هى إزائى على أديم الأرض . ومرت برهة من الصمت الحزين قبل أن أقول لها إننى عاهدت أمها على أمر ستعلم نبأه منها إذا سألتها ، وإننى سأسافر فى الغد إلى القاهرة ، وسأعود فى الصيف إلى القرية ، فيجتمع الشمل ويرجع الأنس ويتحقق الرجاء . فتبين الأسى فى وجه نور ، وحاولت أن تتكلم فأعياها الكلام ؛ فأطرقت برأسها ، وتحاملت على نفسها ، ولكن وجهها احتقن احتقان المختنق فانفجرت بالبكاء حتى سُمع نشيجها من بعيد . فكانت هذه هى المرة الأولى التى قالت فيها نور بلسان الطبيعة القوى الصريح : إنى أحبك !

وسعى الدهر بينى وبينها ، فوسَّع مسافة الخلف بين طريقى وطريقها ؛ وقطعتنى القاهرة عن القرية فأصبحت لا أزورها إلا لماما ؛ واستحدثت فى نياط القلب أسباب جديدة ؛ وتزوجت نور من ذلك الشقى الذى تعرف ، فألح على براءتها بالشر ، وأنحى على سعادتها بالفقر ، حتى أصارها إلى ما ترى !

وكم يا صديقى فى أجادب الدنيا وصحارى الحياة من أزاهير لوحتها السموم وصوحتها الهواجر ، ولو أنها غرست فى أطايب الأرض لكانت زينة العيش وبهجة النفس ومتعة النظر !

الزيات



... ولاقيت صديقى بول دورن بعد غياب طويل فاندفعت إليه فى شوق قائلاً : « كيف حالك يا عزيزى ؟ لقد احتجبت عنا طويلاً ، أفتزوجت حقاً ؟ لم يكن ليضطرب في خيال واحد من رفاقك أنك تتزوج فتنزل عن بعض مافيك من عبث ومرح ولكن المرأة ... المرأة يا بول ! »

وابتسم بول فى رقة وأخذ بذراعى يجرنى إليه

أفكان لبول أن يتزوج وقد عرف فيه صحابته المجون والعبث ؟ إن هذا خيال ما يستطيع الإنسان أن يثق فيه !

وتناول سيكارة فى هدوء ووقار ، وحدجته بطرف عينى فآلمنى أن أرى فيه الرزانة والسكون ! لا ضير ، فهو زوج ! ثم ... ثم قلت : « لقد أبدلت طبعاً بطبع يا بول بعد أن تزوجت ... تزوجت من فتاة جميلة » فترك ذراعى فى غضب وهو يقول: « دع عنك المزاح وإلاّ كان هذا فراق بينى وبينك ! » وأزعجني حديثه فاندفعت أسأل : « ما ذا ، ماذا يا صديقى ؟ »

قال : « حقاً ، إنها حسناء فاتنة ... ولعمرى إن البلاء فى الزوجة الحسناء ، فأنا أدفع الثمن غالياً ، نعم إننى أحبها ولكن أتعلم ما يثقل زوج المرأة الحسناء ؟ إذا غاب عنك هذا فلا تتحدث عن شئ بعده . إن الزواج من حسناء يتطلب صبراً كصبر « أيوب » ثم راح يصفر صفيراً مزعجاً وفى وجهه العبوس والتجهم ؛ وخيل إلىّ أننى سموت إلى الغاية التى يريد فقلت : « أفرأيت يا بول ، إن خطاياك تنحدر إليك من صبب ! هذا هو الجزاء ! إن الغيرة تكاد تعصف بك » ونظر إلىّ فى دهشة وهو يقول : « يا للغباء ! أى غيرة ؟ فيم تفكر ؟ » وأسفت على أن رميته بتهمة هو منها براء ، فقلت : « أفلا تستشعر الغيرة ؟ » قال « لا . لا . إن الزوجة الحسناء هى خير ما يتمنى المرء إن لم يستعبدها جمالها » قلت : « لقد قصر عقلى عن أن أستشف ما تريد » قال : « سأضرب لك الأمثال لأكشف لك عن بعض ما عمى عليك »

وبدا لى أنه ينفس عن كربته حين ينشر على عينى أمره ، وأنا صديق قديم حبيب إلى نفسه ، فتعلق بصرى به وهو يتناول سيكارة أخرى فيشعلها وهو يقول :

إن النشوة التى سيطرت علىّ - يوم زواجنا - كادت تستلبني عقلى . لقد انطلقت إلى ميونيخ برفقة زوجتى ، وخيالى يصور لى أننا نستطيع أن نجول فى أنحاء المدينة فى لذة وسعادة ؛ نزور معاً بعض أصدقائى ثم نطير إلى مروج بافاريا ننعم

بالحلوة ، ونقطف الثمرة الحلوة . ووجدت السعادة في ميونيخ ، وعلى حين فجأة بدأ القلق يضطرب في ناظريها ، فجلست إليها أستطلع الخبر ، فقالت : « لاشيء ! إنني أرى الجمال هنا ، ولكن... ولكنني أرى في الناس غلظة وجفاء ! » وحدثتني نفسي : « يالله ! لا ريب أن في سكان ميونيخ البطء والهدوء ، أما الغلظة والجفاء... ! » واندفعت هي في حديثها : « حقاً ، إن فيهم غلظة وجفاء ! إن المرء ليضرب في الطرقات والشوارع الساعات فلا يرى إنساناً واحداً يرفع بصره فيحدق في الآخر . هذه هي الغلظة التي رأيتها فيهم »

أفرأيت يا صديقي ؟ لقد زلت زوجتي ، فهي تريد الشوارع تموج بالناس بين معجب بها وعاشق لها ، وهي لا تجد بغيتها في ميونيخ . لعلك تنفجر ضاحكا من هذه السخافة ، ولكنك ستجد فيما أقص عليك متعة وسلوة

وفي الصباح التالي انطلقت أجلس في ندي مكسمليان أنتظر زوجتي لأصحبها إلى المعرض . لقد تركتها في الفندق ترتدي ملابسها وتتزين . ولبثت طويلاً أنتظرها . ودقت الساعة عشراً وأنا جالس إلى نضد أردد بصري بين المارة وأحدق في دار الأوبرا وهي قبالتي ؛ وابتدأ الناس يتصدعون عن المكان والندل متكئون إلى الجدار في كسل وفتور . وخلا المكان إلا من شرذمة من الطلبة يتحسون الجعة ويلعبون ؛ وهدأ المكان إلا من بعض كلمات تنفرج عنها شفاه الطلبة بين الحين والحين ؛ وبذر الانتظار في نفسي غراس القلق والضيق... ثم جاءت عند الظهر ... جاءت ترف رفيفاً جميلا ، حسناء جذابة ، فاتنة خلابة ، تسير الهوينى في خيلاء وصعر ، وعلى ثغرها ابتسامة عذبة... ومالت إلى النادلة تسألها ثم دلفت إليّ في أناة وتؤدة ، وحين صارت بإزاء الطلبة تركت مظلتها تسقط من يدها فاندفعت النادلة إليها والطلبة في شغل

وسألتها عن بعض ما تحب من أصناف الطعام لتتناول طعام الإفطار فلم تعر سؤالي التفاتة وراحت تقول : « أنا لا أريد أن أجلس إلى هذا الشباك فهناك في الشارع وعلى جدار اللهى أشياء تبعث في النفس الضيق والملل... خير لنا أن نتنحى عن هذا المكان . ثم انطلقت تختار نضداً إلى جوار الطلبة ؛ وحين سحبت إليها كرسياً هزت الآخر فانتثر ما عليه من صحف فتناولتها والطلبة في لهوهم ما ينظرون . واستقر بنا المقام فسألتها مرة أخرى عما تتطلب من طعام ، والشوق يدفعني إلى المعرض ؛ غير أنها قالت في تؤدة وهي تضع نظارتها على عينيها : « خبرني ، أفلا يجد هؤلاء الطلبة عملاً سوى شرب الجعة ولعب الورق ؟ » وأمسكت بصحيفة أصرف بها عن نفسي السوء وأكفكف بين سطورها نزوة تضطرب في قلبي ، ولكنها لم ترض أن تنزل عن رأيها في سهولة ، فاندفعت تتحدث إليّ : « يالتعس آباء هؤلاء الطلبة ! إنهم يبذلون آخر فلس في جيوبهم في سبيل أبنائهم وهم يبددون المال في المقاهي ، أين العلم وعصا المعلم ؟ » وانطويت عنها أردد بصري في سطور الصحيفة في إغضاء وإهمال ؛ ولكنها قالت : « أنظر إلى كؤوسهم ... إلى رؤوسهم ! ياعجباً ! إنهم كحالي المحطة ! »

وتأجج الغضب في رأسي وأنا أهدىء من ثورتي خشية أن ينثلم شرفي في هذا الندى ، ثم قلت في هدوء : « لا ، بل أستطيع أن أرى أن ميونيخ تبعث في نفسك الضيق والضجر ، وأنا لا أجد بداً من أن ننطلق إلى شليرسي بعد ساعتين ، فهو مكان

هادىء جميل ، وهناك دريتشر صديق قريب إلى نفسي » ثم رجعنا إلى الفندق نتأهب ...

وأبرقت إلى صديق ... وبلغنا شليرسى عند الساعة الرابعة ، فألفيت صديق لدى المحطة ينتظر . وانطلقنا جميعاً إلى فندق جميل على شاطيء البحيرة وحللنا غرفة واسعة أنيقة جميلة ، تتراءى أمامها البحيرة وما حولها من مباهج . وأضنى التعب زوجتى — أجاثا — فانطرحت فى فراشها فى سبات عميق ؛ أما أنا فقد انطلقت على دراجتي أطوف بالبحيرة والقرية وأستجلى رواء الريف الجميل ، ثم عدت عند الثامنة فاذا هي فى الحديقة ، وفى يدها كتاب ما تستقر عيناها بين سطوره ، وعلى خطوات منها بعض الريفيين ، وقس يجلس إلى الحارس . وأخذتنى روعة المكان فأحببت أن أقضى بعض وقتى هناك ؛ واندفعت إليها وهى جالسة فى ثوبها الأبيض الحريرى الجميل ، يتأرج العطر منها عبقاً طيباً ؛ غير أنه لم يلتفت إليها أحد ، ووقفت بإزائها أقول : « ما رأيك يا عزيزتى ؟ » فحدجتنى بنظرة قاسـية وقالت : « أهذه هى شليرسى ؟ أنا لا أستطيع أن أمكث هنا أكثر من يومين فهذا مكان لا يلذنى » قلت : « إنه هادىء ... والبحيرة ... »

فقاطعتنى « والبحيرة صغيرة عابسـة » قلت : « والوادى الجميل ... » فقاطعتنى ثانية : « والوادى الجميل غير صحى » قلت : « والجبال ... » فقاطعتنى مرة أخرى : « والجبال ، أنا لا أحبها ! » ثم نظرت إلىّ فى ازدراء وهي تقول : « والطعام ردىء الطهى والجعة البافارية تملأ الجسم شحماً ، وأنا لا أريد أن أبدو خدلّجة كالفلاحات . إننى أبتغي حياة هادئة . لقد كان من الخير لى أن أسجن فى دير ولا أتزوج من رجل لا يحبنى » قلت : « لا بأس ، سنرحل إلى بلد آخر إن لم تجدى اللذة هنا » ، واضطرب قلبى ، وانتفض فؤادي ، واستولى علىّ الأسى والحزن ، فأنا لا أطمئن إلى حياة قلقة لا أستطيع فيها أن أستقر فى مكان جميل جذاب أجد فيه السكون والراحة ، ولكن ماذا أفعل وأجاثا ماتهدأ ولا تطمئن. لا ريب فهى تريد أن تنطلق إلى فينا حيث تطوقها الأنظار فى كل مكان ، لأنها إن افتقدت من يعجب بها حارت حيرة من اعتاد التدخين ثم هو لا يجد إلى الدخان سبيلا . تلك حقيقة مروعة ، فخير للانسان ألا يتزوج من حسناء !

وفى الصباح التـالى بكرت إلى البحيرة ، إلى الوادى ، إلى الغابة أمتع نظرى وأشيعها جميعاً بنظرات الوداع ، نظرات فيها الألم والحسرة ، والخواطر المتناقضة تصطرع فى خيالي . أما هى ... هى أجاثا فما تزال فى مخدعها تنعم بالنوم الهادئ . إننى أتعشق هذه الناحية من الأرض ، ولـكن ...

ولمع فى خاطري رأى ، انفرجت له شفتاىَ عن ابتسامة فيها الرضا والاطمئنان ، فانطلقت أعدو في لهفة إلى صديق دريتشر ، وهو ممثل بارع ، وهو رئيس فرقة التمثيل الأهلية فى بافاريا يستمتع بشهرة عالية ؛ وهو أيضاً شاب فيه المرح والطرب والفكاهة والرأى النافذ والقريحة الوقادة ... وهو صديق فيه الاخلاص والوفاء

وحين ضمنا المجلس اندفعت أقول : « دريتشر ، إننى أطلب إليك شيئاً وأرجو ألا تجادلنى فيـه . إنك تعرف كل إنسان فى هذه الناحية ، أفتستطيع أن تمدنى بشاب أنيق وسيم ليمثل دور عاشق ؟ » قال فى دهشة « ليمثل ماذا ؟ » قلت « ليمثل دور عاشق . إننى أريده يجلس ويحدق ... يحدق فى زوجتى ساعة من نهار . إن زوجتى قد اعتادت

هذا النوع من الغزل فهى تفزع عن كل مكان تفتقد فيـه بغيتها . وسأدفع له ثلاث ماركات فى اليوم ثمناً لجلوسه فى الحديقة يردد بصره بين الفينة والفينة فى زوجتى ، وأدفع له ثمن شرابه » قال : « لاضير ، لا ضير ...! » ثم نشرت الخبر أمامه ، فقال : « نعم سأفعل غير أنى لاأستطيع أن أستغنى عن واحد من زملائى ، ولـكن ... آه ، نعم ، إن فى الفرقة عاملاً شاباً فيه الأناقة والظرف و ... دع عنك هذا ، سأحدثه الحديث كله الآن ؛ وفى المساء نبتدئ العمل ... » قلت « أشكرك ياصديق ، ولـكن أفتطمئن إلى العامل ؟ » قال « وماذا يعنيك أنت ؟ إن المرأة لاتعنى بنظرات من يتعشقها بقدر ماتعنى بنظراتها هى ؛ وسترى ... »

وعند المساء انطلقتُ إلى مكتب البريد وخلّفت أجاثا وحدها فى الحديقة ... وجاء العامل فى ثوب أنيق ... جاء ينفذ أمر سيده فى براعة وإتقان ... ورجعت أحدثها : « لقد ذهبت إلى المحطة ... فراقنى أن نسافر على قطار الساعة العاشرة صباحاً » قالت فى لهفـة : « ماذا ؟ ماذا تعنى ؟ أفلا تستطيع أن تستقر فى مكان ؟ إننى أميل إلى هذا المـكان ، إلى البحيرة... » فقاطعتها قائلاً : « ولـكنها صغيرة ! » قالت : « هذا هو موضع الجمال فيها » قلت : « والجبال من حولها » قالت « لاضير ، فأنشد الهواء العليل فى أعاليها . سنبقى هنا حيناً من الدهر فما يرضينى أن نضطرب فى أنحاء العالم ... »

ومكثنا هنـاك ثلاثة أسابيع دفعت فيها الثمن غالياً . ولا ريب أن أجاثا لن ترضى بهذا المـكان بديلاً ...

كامل محمود حبيب

في ليلة الميلاد

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم السيد محمد العزاوي

لقد كان أمس اليومَ الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر

وكنت على وشك أن أتغدى مع صديق القديم « چورچ جاران » ، حينما ألقى إليه مولاه خطاباً غطت غلافه الطوابع والأختام الأجنبية . فقال لى چورچ :

— أتسمح ؟

— من دون شك !

فطفق يقرأ ثمانى ورقات طوال ، خطت عليها يد انجليزية أسطراً فى كل اتجاه .. فهى تستقيم فى اتجاه واحد حيناً ، وتتقاطع فى اتجاهاتها أحياناً . وكان يقرؤها بصوت بطىء خفيض ، منتبهاً لما يتلو أعظم انتباه ... فى تلك اللذة التى يحسها عادة من شيئاً يمس قلبه الرقيق

وبعد أن فرغ من تلاوته وضعه على رف المصطلى ثم قال :

« هيه ! هذا من أذيال تاريخ قديم ، مافضضت غلافه لأحد من قبل ... تاريخ عاطفي أسدل عليه الزمن سجفه وحجبه . لا يذكرنى به إلا بعض النسائم تهب علىّ من هذا الكتاب وأمثاله ... آه !

لقد كان يوماً فريداً كل عام . وبخاصة فى ذلك العام الذى مضى عليه عشرون من إخوته ... حينما كنت فى الثلاثين ... فأنا الآن فى الخمسين !

« كنت حينذاك مفتشاً بهذه الشركة التى أديرها الآن ، « شركة ماريتيم للتأمينات » . ولما أزمع العام الرحيل عقدت العزم أن أمضى عيد رأس السنة الجديدة فى باريس اللاهية . ولم يخالجنى شك فى أنى سوف أقضى فى باريس يوماً سعيداً حافلاً ، وليلة مرحة لاهية ... ولكنى تلقيت من من مدير الشركة خطاباً يأمرنى فيه أن أبحر — تواً — إلى جزيرة رى « Ré » إذ اندفع فلك شراعى ذو ثلاث سوارٍ إلى الشاطىء فاحترث الرمل وعجز عن الخروج . وكان الفلك تابعاً لشركة « سنت نازير البحرية » إحدى عميلاتنا القديمات

« إذن ضاع الأمل فى ذلك اليوم السعيد الحافل ، وفى تلك الليلة المرحة الطروب ... وكانت الساعة الثامنة حين تسلمت الخطاب . فوصلت فى العاشرة بناء الشركة لأتلقى التعليمات اللازمة . وفى نفس المساء حملنى القطار السريع ، فوصلت « لاروشل » فى صبيحة الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر

«وكان لدى ساعتان من الزمن أقضيهما قبل أن أركب فلك « رى » السفين « جان — جيتون » فطفقت أطوّف بالمدينة . وقد عجبت من أمرها إذ لم

أو مدينة أعجب من « لاروشل » . فهى واسعة الشوارع ملتوية المسالك كأنها التيه « اللابرنت »

« وبعد أن طوّفت ما طوّفت فى شوارعها الفريدة حملنى زورق بخارى أسحم إلى جزيرة « ری » وتحرك وهو يصفر صفيراً مدوياً يبدو عليه الغضب والاحتدام . ومرق من بين المنارتين اللتين تحرسان الثغر ، ثم عبر الجون الهادىء نخرج من ذلك السد الذى ابتناه « ريشيليو » حفظاً للميناء وأمناً للسفن . حينئذ رأيت الماء كيف يتكسر على صخوره ، وشاهدت الصخور فى البحر تطوق المدينة البارزة فى اليم فكأنها عقد درى زان نحرها الجميل ... ومن ثم اتخذ الزورق طريقه فى اليم إلى اليمين .

« لقد كان يوماً ذا برد وزمهرير ، فسماؤه ملبدة بضباب كثيف وسحبه ثقال ؛ وكان البحر هادئاً تحت ذلك السقف الواطىء المنحوس ، فكان الزورق يمخرُ فى أديم أزرق صاف ... فى مياه هادئة لا تحركها هبة نسيم ، فكأنها متعبة منهوكة من كثرة ما لاقت من الأين والعنت ، بل كأنها ميتة لا حياة فيها : أماتها البرد القارس ، وجثم على صدرها ذاك الضباب الكثيف ، وانزلق « جين — جيتون » على صدرها الصقيل بأمن ودعة . واستطاع أن يسرى فى تلك اللجة السدفاء الهامدة ، تاركاً وراءه أمواجاً صغيرة لا تلبث أن تهى فتموت .

« وطفقت أتحدث مع القائد مدة ... كان هذا القائد مندمجاً فلا تدرى فى أى موضع ركبت أطرافه منطوياً على نفسه فهو مستدير — إجمالا — كهيئة زورقه البخارى . وكنت أريد أن أعرف بعض خفايا الكارثة التى سوف أقررها : وهى أن « مارى — يوسف » — فلكا كبيراً ذا ثلاث سوار من سفن « سنت نازير البحرية » — قد اضطرته ليلة عاصفة أن يحترث الرمل من جزيرة « رى » ...

« وقد كتب مدير الشركة : لقد قذفت العاصفة « مارى — يوسف » فى ليلة هوجاء ، فنشب فى رمل الشاطىء حتى بات من العسير تسييره من جديد . ولم يكن هناك من الوقت ما يكفى لأن نحمل ما كان على ظهره ، إذن فيجب عليكم تقدير حال السفين المنكوب ، وتقدير ما كانت عليه حاله قبل الكارثة ، ثم الحكم بعد ذلك بأن كل ما بذلناه من جهود كاف لأن يعيده سيرته الأولى . وقد ذهبت وكيلاً من شركتنا كى أقدر حال السفين ، فربما حكمت لهم ، وربما شهدت عليهم أمام القضاء إذا دعت الحال

« وبعد أن يتسلم المدير تقريرى يجب عليه أن يعد عدته للدفاع .

« وكان قائد الزورق « جان — جيتون » يعرف كل شىء عن الكارثة إذ دعى وسفينه وألقيت على عاتقه عملية الانقاذ . وقد قص على القصة فى بساطة وسهولة قال : إن « مارى — يوسف » قد قذفته هبة من ريح صرصر عاتية فى ليلة مدلهمة فتحول عن طريقه فضل سواء السبيل ، واتخذ سبيله فى اليم سربا ، وبات لا يدرى ربانه فى أى شقة من اليم هو ، ولا فى أى وقت من الليل الطويل ؛ وظل يخبط فى بحر من الزبد الغاضب والموج المتدافع والريح العاتية .. موجة تبلعه وأخرى تخلعه ، وريح تسفعه وأخرى تدفعه ، حتى ارتطم بذلك الساحل الهولة . وأنت تعلم أنه كثير الرمل لأن اليم يأتيه برمل « الصحارى » أثناء المد .

وبينا أنا أتحدث كنت أتلفت حولى ، وأدير البصر

فى كل مكان : فقد كان هناك بين أديم المحيط وسطح الضباب مجال تجول العين فيه وتبصر . وأخيراً شارفنا أرضاً فقلت :

— أهذه جزيرة رى ؟

— أجل يا سيدى !

وأشار القائد بيده — فجأة — إلى شىء غير واضح يقوم بقاموس المحيط — تقتحمه العين ولا تكاد تدركه — وقال :

— هيه ! هذا سفينك

— مارى — يوسف ؟

— نعم بالطبع !

ولكنى ذهلت ... ! هذه النقطة السوداء « مارى — يوسف ؟ » تلك التى لا تكاد تبصرها العين حين بصرت بها حسبتها قمة صفوان غارق فى اليم ! وبدت لى النقطة تبعد عن الشاطئ ثلاثة كيلو مترات سوياً ، فقلت :

— ولكن أيها القائد ! لابد ألا يقل غور الماء عن مائة وخمسين متراً فى تلك النقطة التى أشرت لى عليها

فطفق يضحك ، ثم قال :

— مائة وخمسون مترا ياصاحبى ! إنى أقسم أن ليس هناك متران ! فكيف غورك الذى فرضت يا صديق ! ؟

— حقاً إنها مشكلة !

ولكنه استمر يقول :

— نحن الآن على المد ، فالساعة لما تبلغ التاسعة والدقيقة الأربعين ... لك أن تذهب أنى شئت ... فامش والشاطئ ضامّا يديك إلى جيوبك ، واملأ بطنك الرقيق مما يقدم اليك « فندق ولى العهد » من آكال شهية وأشربات فاخرة ، ثم عد إلىّ بعد ذلك فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين أو فى الثالثة على الأكثر . وأنا أعدك أن لن تجد على « مارى — يوسف » هذا قطرة من ماء أو أثراً لوحل ... وسوف تسر وتدهش إذ تعلم أن تلك العملية لن تستهلك من الزمن إلا ساعة وخمساً وأربعين دقيقة أو ساعتين على الأكثر . والواقع أنه لايمكننا أن نقضى فى تلك العملية أكثر مما قلت ، لأنه سرعان ما يعقب الجزر مدا فى ذلك الشاطئ اللعين ... لك أن تبدأ عودتك إلينا فى تمام الرابعة والدقيقة الخمسين —أتدرك ما أقول؟— وأن تركب «جان ـ جيتون» فى السابعة والنصف ، وأنا زعيم بأن أحملك فى نفس المساء إلى ميناء « لاروشل »

« فشكرت القائد ، ثم تخذت فى مقدمة الزورق مقعداً أرقب منه مدينة « سان مارتان » فقد كنا نعدو نحوها فى سرعة فائقة

وكانت « سان مارتان » ميناء تشبه جميع الموانى الصغيرة . إلا أنها تمتاز منهم بأنها حاضرة تلك الجزائر التى بعثرتها يد الطبيعة ـ حول القارة ـ فى قاموس المحيط . كانت قرية كبيرة من قرى الصيادين ، قدمها فى الشاطئ ، والقدم الأخرى فى وشل اليم المظلم ... تقتات الخضر والطيور ، والأصداف والسمك ، ومعظم العيش على هذا الأخير ، لأن الجزيرة خفيضة الأرض قليلة الزرع ، تبدو كأنها غير آهلة وإن كنت لم أطوف بها أو أوغل بداخلها

« وبعد أن اغتذيت عبرت رأساً ناتئاً مندفعاً فى صدر البحر ، وكان هذا ينعطف من ورائه فجأة . فكنت أصوب النظر — فوق الرمل — إلى مكان بعيد ، شديد البعد ... حيث تبدو نقطة سوداء بأقصى الأفق هناك بعيداً ... بعيداً ... وحشئت

الخطى فوق ذلك السهل الأصفر ، فكانت قدماى تغوصان فيه كما تغوص يد الجزار فى لحم عجل سمين! لقد كان البحر فى جزره بعيداً عن الشاطئ الطويل ؛ وكثيراً ما أنعمت النظر كى أبصر ذلك الخط الذى يفصل الرمل عن المياه الصافية فلم أفلح إلا فى رؤية خط باهت مفرغ لا تفاصيل فيه ولا ملامح ... والآن ... ينبطح المحيط الأطلسى أمامى تماماً ... الشاطئ يحجزه ... فلست أدرى أهو يحتضنه محبة أم يتأهب لأن يصد غارته إذا ماعاد بمده الصاخب ... كنت أسير فى مفازة وحدى ، يلطمنى نسيم البحر فى هينة ودعابة ... ويلفنى الماء الأجاج برائحته الفظة المخمة ... ولكنى بين ذلك لا أعدم هبة من نسيم البر القوى ... من روائح العاقول وذلك النبات الذى ينمو على الشطئان ، ولا أعدم هبة من نسائم الموج الهادئ حين الجزر ...

« كنت أسير وحدى ، وكانت تشائينى أرواح أولئك الذين أماتهم البحر غيلة واقتساراً . نعم ! وكانت تحوم حولى ، وتحادثني بأصواتها الخافتة ، يحملها النسيم على أجنحته الخفية .. ولكنى ما كنت أعى مما تقول شيئاً ، فقد كنت من آن لآخر أسرع الخطو وأوسع الخطى ... وأدفأنى المجهود إذ ذاد عنى برد الجو الشديد ، وبدأ الضال « مارى ـ يوسف » يتراءى لى بطة غالها اليم ، ولفظها الموج على الشاطئ ؛ ولكنه كان يكبر كلما تقدمت رويداً ؛ حتى هالنى عظم حجمه ، واعتقدت بأنه حوت هائل قد أجهد صيادوه أنفسهم فى صيده وإخراجه من البحر ، ولكن جهودهم تكاد تذهب سدى ، فالحوت ينطرح على عطفه الأيسر ، ويوشك أن ينزلق إلى اليم مرة أخرى ...

« وبدا لى الحوت ، وقد تطرح على ذلك البساط الأصفر كبير الحجم عظيم النسب ، وقد ثقفته بعد ساعة من المشى السريع ...

« لقد استراح على أحد أعطافه مهدماً محطماً . يبدى للناظر عظامه المعروقة وأضلاعه اليابسة . مثلما يفعل الحيوان العليل ... حقاً لقد كانت ألواحه سحماء من أثر القطران . ولكن من يتبادر إلى ذهنه أنها من أثر القطران ، وليست عظاماً نخرة فتتها السوس وسودها البلى ؟ إن المدقق يستطيع أن يميز هذا من ذاك . وما ذلك بفضل فراسةٍ أو ذكاء ، بل بفضل دُسرٍ حديدية ، ومسامير ناتئة فى الخشب ! سوف يرى المدقق وغيره أن الرمل قد فرغ من غزوه من زمان بعيد . وأنه قد غزاه من كل ثلمة فتقها الحطم فيه . حقاً ! لقد تغلغل الرمل فيه حتى بات من العسير أن ينظفه المرء أو ينتشل الفلك منه . بل لقد حسبت أنه نما فى الرمل كما ينمو الزرع فى الأرض ، فليس إلى اقتلاعه من سبيل . لقد غرسه الزارع من مقدمته فهى تبدو مدفونة فى ذلك الرمل الأصفر ، بينما ترتفع مؤخرته إلى السماء فارعةً ضارعة كأنها صيحة غوثٍ يائسة ! وكانت كلمتان رجحهما اليأس وأضواها الحزن ، تبدوان على عطفه الأعلى :

« مارى — يوسف »

علوت جثة الفلك من عطفه الذى استراح عليه ، وبعد حين كنت على سطحه الأعلى ، ثم دخلته لأطوّف بحجراته وأبهائه ما سمح لىَ الرمل بذلك . وكان النور الشاحب يوصوص إلى من تلك المنافذ التى أنشأها فيه مبدع الفلك ، أو من تلك الفتوق التى أحدثها الصخر فيه . وكان

يلقى بأشعته الحزينة على تلك الحجرات والأبهاء التي صيرها الرمل كهوفاً وغيراناً ... لم يكن هناك شيء سوى الرمل ... والرمل فقط ...!

وبدأت أسطر على قرطاس ما أشاهد من حال هذا الضالّ المنكود . وكنت أبغى أن أفرغ من تقريري ، ولكن جوف الفلك مظلم لايدخله النور إلا من كوة صغيرة تكفي لأن أبصر منها جل الشاطئ الأصفر ... كان حينذاك الوقت أصيلاً ، تداعب الشمس فيه بنورها الذهبي رمال الشاطئ الصفراء فتكسبه نوعاً من حياة وبهجة ، لاتلبث هذه أن تغيض وأن تنقبض هذه الأخرى . ذلك لأن الشاطئ كان وحيداً فلم يكن به أحد غيري ... وغير ... « ماري — يوسف » ؛ وإني لا أذكر أن منظراً من مناظر الغروب قد أثر فيّ مثلما أثر هذا ، فقد ملك ما ملك من زمام حسي وذهني ، واستولى عليّ ما استولى حتى لم أعد أصطبر عنه برهة ريثما أخط بضع كلمات في تقريري الطويل . إن الطبيعة تتجلى في الأماكن المنعزلة فتسحر وتأسر ... ولكني تلهيت عنها فجلست على دن مقلوب مهشم . وأسرعت أخط ما يعن لي من الفكر كي أفرغ من تقريري سريعاً . وبينا أكتب كنت أسمع همهمة جافة خافتة ... إنها هزيم الموج البعيد ... إنها عواء الريح العتيد ... إنها آهات الفلك الضارعة ... بل هي أناته الموجعة ... كلا ! إنها أصوات غامضة تحدثها مئات بل ألوف من حيوان اليم العظيم !

وسمعت بقربي أصواتاً آدمية فجأتني فبهت وتحيرت في أمري ، فوثبت جزوعاً كأنما أنا أمام شيطان رجيم ! لقد حدست — في برهة — أن غريقين سوف يقومان من قاع المركب ، يأتيان فيذكران كيف ماتا ، ثم يقصان عليّ من أنباء الفلك ما لم أحط به خُبراً . ولا أكتمك أني ذعرت لتلك الفكرة ، فقفزت إلى سطح السفينة من إحدى الكوى . وهناك عند مقدمة الزورق شاهدت سيداً وقوراً ، قد حفت من حوله ثلاث فتيات حسان ... أو بالحرى سيداً انجليزياً تحف به فتياته الثلاث ، ولا يخالجني ريب أنهم فزعوا جميعاً إذ يرونني بغتة أخرج إليهم هلعاً جزوعاً ، فقد كانوا يحسبون الفلك خالياً وحيداً ... وفرت صغرى البنات ، ولما ذهب عنها الروع عادت . أما الفتاتان الباقيتان فقد أمسكتا بأبيهما خشية أن يسقط على الأرض . أما هو فقد فغر فاه دهشةً وذعراً . وكان هذا كل ما أبداه من علائم الدهشة والحيرة . وبعد ثوان قال :

— آه ياسيدي ؟ أأنت صاحب هذا السفين ؟

— نعم ياسيدي !

— أتسمح لنا بزيارته ؟

— إذا تكرمتم ياسيدي !

ونطق بعد ذلك بجملة غريبة الألفاظ لم أدرك من ألفاظها إلا كلمة « كريم » فقد كانت تتردد في كلامه كثيراً

وطفق يبحث عن مكان سهل الصعود ، فدللته وأعطيته يدي ليستعصم بها من الزلل . وبعد أن ارتقى السطح أعنت الفتيات الثلاث على الصعود معنا إلى سطح السفينة الأعلى . لقد كن جميلات ساحرات ، وكبراهن خاصة ... ... ! ملاك في الثامنة عشرة من عمرها ... يانعة كالزهرة ، فارعة كالبانة ، عاطرة كالنرجسة ... ! دقيقة ... رقيقة ! لينة المعاطف مرهفة القوام ... ! حقا ! إن هؤلاء

الانجليزيات الحسان يشبهن زهرات بديعة تعهدها المحيط بلطفه ، وحباها بعطفه ، وشملها بعنايته ؛ فنشأها على جماله ونسقه ... ولو صح ذلك لكانت كبراهن إحدى الزهرات اللاتى نشأن بشاطئ أصفر لا تزال تحفظ له العهد ، وتخلص له الود ، فاتخذت من رمله شعرها الغزير البديع !

وكانت تتحدث بلهجة أسلم من لهجة أبيها ، فكانت ترجماناً بينى وبينه . وكان على أن أقص عليهم الكارثة وخوافيها ؛ فبدأت أنسج الحوادث ، وأنمم التفاصيل ؛ وكنت أقرر الحوادث فى مهارة وحذق ، وأؤكد فى التقرير ما وسعنى التأكيد ؛ فكأنما كنت حاضراً حينذاك ، فأنا أحد الذين كرثهم البحر بغدره ... ! وما دخلوا جوف السفين الذى ينيره بصيص من نور ينفذ إليه من الكوى والفتوق حتى علت صيحات الفرح والإعجاب ... وجذب الوالد وبناته دفاتر للرسم لا شك أنهم كانوا يحملونها فى ثيابهم الواسعة . ثم أخذ كل يخط رسماً « كريكاتورياً » لذلك الشكل الناشز العجيب ... حقاً ! لقد كان شكلاً لا يقدر على وضعه إلا يد اليم القاهرة ، ولا يقدر على رسمه إلا يد فنان موهوب ... وساد الجو سكون حبيب . ولك أن تتخيلهم وقد جلس أربعتهم كل قريب من الآخر ... أبوهن فى طرف وهن فى الطرف الآخر ... قد جلسوا جميعاً على روط خفيض ثم وضعوا دفاترهم على أفخاذهم وانحنوا عليها يرسمون منظر الفلك الحزين . وبدأ كل يخط خطوطاً لا بد أنها تحدد منظر المكان مرسوماً من الداخل المعتم

وبينما كبراهن ترسم كانت لا تكف عن الثرثرة والحديث معى ، أما أنا فقد كنت أجلس جوارها أقارن بين ما ترسم وهيكل « مارى — يوسف » المنكود ...

وعلمت أنهم يقضون الشتاء فى « بياريتز » وأنهم قد وصلوا جزيرة « رى » أخيراً كي يشهدوا منظر « مارى — يوسف » وهو غارق فى اليم محترثاً شاطئه ورمله . ولم أجد بوجوههم ذاك التجهم الذى يشف عن غطرسة طالما غرستها انجلترا فى نفوس أبنائها الكرام . لقد كانوا نبلاء بسطاء : هؤلاء الناس ! لا أثر لكبر ولا غطرسة ! كانوا من هؤلاء السواح الدائبين الذين تقذف بهم انجلترا إلى العالم يخبرونه ويعلمون أسراره . فالأب سمهرى القوام ، بادى الهزال ، عظيم الوجه أحمره ، يحده من الجانبين عذاران ناصعا الشيب . وكذلك بناته فارعات القوام باديات الهزال كذلك — إلا الكبرى — رقيقات لطيفات ... وكبراهن خاصة !

لقد كان لكبراهن أسلوب فى الخطاب وفى الحديث ... فى الفهم وعدم الفهم ... فى تصويب حدقتيها نحوى إن أرادت سؤالى ... حدقتيها الصافيتين كماء المحيط ! فى الإمساك عن الرسم كى تقدّم ما رسمت ، وتعدّل ما خططت من خطوط ... فى الإقبال على العمل بنشاط وحبور ... وفى إجابتها « بنعم » أو « لا » ... أسلوب جعلني أذهل وأدهش ... أذهل عن وقتى ونفسى معاً ... جعلنى أعلق السماع لها ساعات لا عدّ لها ... وأغرم بترقب ما تسقطه شفتاها اللعساوان من رائع اللفظ وعذب الحديث !

وعلى حين غرة قالت لى هامسة :

— إنى أسمع صوتاً تحت هذا السفين

كأنى أسمع الصوت أنا الآخر ! فقفزت إلى سطح الزورق الأعلى لأاتى هؤلاء الناس !

وأصخت السمع فسمعت إذ ذاك همهمة ، سمعتها منذ أمد قصير . كنا نسمع همهمة جافة مستمرة فى حفيف غير حالى النبرات ... تستمر فى صوت أجش خفيض ... ما هـذا ؟ رفعت رأسى وفزعت إلى الكوة فصرخت صرخة مدوية : لقد استردنا اليم فخاطنا بمائه وموجه !

وقفزنا جميعاً إلى ظهر المركب ، ولكن أزمة الفرصة قد أفلتت جميعاً من بين أيدينا . فقد عرفنا الأمر أخيراً ولات ساعة معرفة ! حاصرتنا المياه من كل جانب ، كل فوج يتبع الآخر ، والموج يكسع بعضه بعضا ... كلا ! لم تكن تعدو ! بل كانت تحبو مدللة وادعة ترمقنا بسناها الذهبي ، ثم تودعنا وهى تترنم بخريرها الساحر في الطريق إلى البر القريب ! ماذا حدث ؟ لا شئ أكثر من بضعة أمتار من المـاء قد سبقتنا إلى الساحل ... ولكن لم يكن المرء بمستطيع أن يميز حد الماء الزاحف على رمل الساحل القريب

« وقد تأهب الانجليز للمغامرة بأنفسهم وسط المـاء المترحل إلى البر ، ولكنى منعتهم لأنه بات أمامنا مستنقع عميق يأتيه الماء متحدراً من منعرج مرتفع ، فإذا ما قفزنا فيه جرفنا المـاء وأغرقتنا دوامات المنحدر

« وانصب الغم فى قلوبنا صباً ، إذ كانت لحظة عصيبة لهـا ما بعدها من اللحظات السود ... ولم نكن ندرى ماذا نفعل ... على أن صغراهن ضحكت قائلة :

— بتنا نحن المنكوبين المغرقين !

« وأردت أن أضحك ولكن الهلع ألجمنى وأخرسنى ... إذ تمثل أمامى ما نحن فيه وما نحن مقدمون عليه من خطر عظيم . فوددت لو صرخت : « النجدة ! » ولكن لمن أوجه الصيحة ؟

« واحتضنت الفتاتان الصغيرتان أباهما .. وكان هذا يحدق فى البحر الساحر بعين غاضبة محنقة

« أسدف الليل قبل أن يسترد البحر مياه المد فكان ليلاً رطباً ثقيلاً بارداً ...

وأخيراً قلت :

— لا شىء لدينا سوى أن نمكث الليل بهذا السفين .

— نعم بالطبع !

« ألبثنا كذلك ربع ساعة ؟ نصف ساعة ؟ لست أدرى كم من الوقت لبثنا ، ولكن الذى أدريه أنا كنا جميعاً متكاتفين ، نحدق فى المياه الهادرة من حولنا ... تأتي مجمجة من بعيـد ، فتنحدر على المنعرج ساخرة ، وتمس الزورق فنحس بأنها تغلى . كلا ! لم تكن تغلى ، بل كانت تميس وتدلف — ساخرة — إلى الشاطئ المغلوب !

« واستشعرت إحدى البنات البرد يقرسها ، ففكرنا حينئذ فى الرجوع إلى جوف الزورق من جديد لنتقى هبات النسيم البارد ، وانحنيت على السلم فألفيت المـاء يملأ قاع السفين ، فاقترحت عليهم أن نمكث فى مؤخرته المرتفعة ريثما نجد لنا مخرجاً من مأزقنا هذا ، أو نكون فى مكان يعصمنا من الماء إلى حين

« لفنا الظلام بمسوحه السوداء الطاخية ... وتقارب كل منا من صاحبه كي يشيع الدفء فينا ... ولكن ... كان يحيطنا الماء والظلمة ! أحس بجسد يرتعد بجانبي فيرتطم بكتفى ، لقد كانت صغرى البنات ترتعد من خوف وزمهرير ، وأسنانها تصطك من

حين لآخر بصوت جاف خفيض ... لا تتحدث إلا غراراً بعد أن سجدنا على أنخاذنا — كما يفعل العابد الخابت — نحدق فى المياه الداكنة بحزن وجزع . ومع ذلك فقد بدأت أستشعر لذة غريبة تغمر قلبي الواجف برغم الليل الحالك والبلاء العظيم! لذة قوية أجدها فى البرد القارس والليل الحالك والكرب المميت ... فى تلك الساعات المضطربة السدفاء التى أمضيتها — والتى سوف أمضيها فوق ذلك الرمث الهائم فى جوف الليل البهيم — قريباً.. قريباً من ... تلك الفتاة الساحرة !

وتساءلت طويلاً فيما بيني وبين نفسي : لم غلبني على أمري هذا الشعور بالفرح والسعادة ... لمه ؟

« لمه ؟ هل أدرى؟ .. ألأنها بقربى؟ .. من..؟ هي؟ .. ومن تكون « هى » ؟ فتاة انجليزية مجهولة ؟ إني لا أحبها ... بل لا أكاد أعرفها ... ثم ... ثم بعد ذلك أستشعر حناناً هائلا يعصف بقلبي الـ ... مغلوب ! وددت لو استطعت إنقاذها ... بل وددت أن أضحى بنفسى في سبيلها ! .. هذا الشيء الأجنبي!

الليل يثقل ببرده وحلكته ... أمواج من ماء وأخرى من أسداف الظلام ... ليل سادر وصمت مقيم ...

« وعلى حين غرة سمعت نشيجاً ... وا أسفا ! كانت صغرى البنات تبكى . وحاول أبوها أن يسليها ويداعبها فاشتركت معه أختاها . فتكلم الجميع بلغتهم التى لا أعرف منها لفظاً ... لكنى حدست أنهم يهدهدونها ويداعبونها ، ولكنها تأبى فتنطوى على نفسها فى خوف وفزع

« وسألت جارتى :

— ألا تحسين برداً يا آنسة ؟

— آه حقاً إنه يؤذيني

وأردت أن أهبها معطفى ولكنها أبت . غير أنى خلعته وألقيته على كتفيها بالرغم منها

وبدأ الهواء يحرك الموج ـ فى هنيهة ورفق ـ فيسمع له خرير خفيض ، ولكنه تعاظم واشتد فانقلب زئيراً صاخباً .. واندفعت المياه إلى فلكنا لاهثة غضبى ... ووثبت إذ ذاك فجأة ، فقد لطمنى الهواء البارد فى وجهى ، وبدأت العاصفة !

« وأحس السيد بما أحسست به ، فما زاد على قوله :

— إن هذا لمضر بنا ... إنه ...

« هو مضر بنا جميعاً دون ريب ... إنه الموت الأكيد الأسود ! ... فقد بدأ الموج — حتى الضعيف منه — يهاجم السفين . ذلك الرمث المفكك يربطنا ظهره بالحياة . فإذا ما صفعته على جنبيه موجة هوجاء تفككت أوصاله ، وانفصمت عراه الواهية ..

« كانت ظلمة الليل تزيد وتعظم كلما هبت علينا ريح سحماء عاتية . وكنت إن أنعمت النظر فى الماء — فى تلك الحلكة المتكاثفة — رأيت حبالا من الزبد يشد بعضها بعضاً ، ثم تتلكأ فى أعطاف « مارى — يوسف » المنكود ، فتحركه ، وحينئذ تهبط قلوبنا فى البطون ، وتبلغ أرواحنا الحلقوم خوفاً وفزعا .

وبدأت كبرى الفتيات تضطرب وترتعد ، فالتصقت بى تلتمس لدى دفئاً ... وتملكت من زمامى رغبة جامحة أن أحتضنها بين يدى ، وأغيبها فى صدرى !

هناك البحر ... البحر من خلفنا وأمامنا ، والبحر عن يميننا ويسارنا ... وهناك على البر تقوم

المنائر ... ومنها تتراقص الأنوار البيضاء والحمراء والزرقاء كل له ميزته ودلالته ... تتراقص أمامنا وخلفنا . وتدور نافذتا كل منار من آن لآن ... فكأنها عيون باحثة ... عيون مرتدة تسائل عنا الليل البهيم ! وقد حسبت أن إحداها عثرت علينا فهي تتلكأ في سيرها ، فكأنما هي تتعرف علينا خفية وتتوسم الوجوه ! ولكنها ضايقتني هذه المنارة وأغضبتني ! فقد تراءى لي — بعد لحظة — أنها تتلهب كعين العاذل الثقيل ! فهي تبطئ في السير كظيمة غضبى ! ثم لاتغمض أجفانها عنا إلا على قذى وشجن ؟

وكان السيد الانجليزي يشعل عوداً من الثقاب ليرى الساعة من حين إلى حين . وعلى حين بغتةقال لي — من فوق رؤوس فتياته — في لهجة بائسة :

— سيدي ! أتمنى لك عاماً سعيداً ؟

لقد كنا في منتصف الليل فتمنيت له ماتمنى ، ومددت له يدي فشد عليها بحرارة ، ثم قال لبناته جملة طويلة لم أفقه منها شيئاً ، فبدأت الفتيات يتغنين — وهو معهم — وارتفع الصوت حاراً قوياً ، ينشد : « الله يحفظ الملكة » فتهادى النشيد في الليل البهيم وحوم في الظلام الأبكم ضارعاً ملتاعاً ...

وأحسست أولاً برغبة قوية في الضحك ، ولكني أمسكت بفضل شعور ناشز عجيب ...

لقد كان شيئاً فخماً منكوداً ، لازمه سوء الطالع فألهبه وأرهفه : ذلك الغناء ..! غناء الموتى المغرقين ... غناء من ضرب عليهم الموت فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ... ذلك الغناء كان شيئاً يشبه الدعاء والابتهال !

وبعد أن فرغ الغناء طلبت إلى جارتي أن تتغنى بما شاءت وماحلا لها من أهازيج الفرح والتطريب علنا ننسى مانعاني من بلاء وعنت . وارتضت جارتي ما اقترحت عليها ، فتهادى صوتها في الليل حنوناً قوياً . ينفث السحر ، ويبعث الشعر حياً . تهادى ... فترقرق ... ثم سال حزناً وأسى . لقد كانت تغني لحناً حزيناً دون ريب ... إذ كانت تسنأني بنبراته ومقاطعه ، فيخرج من بين شفتيها حزيناً موجعاً ... ثم ... ثم يصدر عن السفين ... يهيم في الظلام ... ليتكسر على رءوس الصخر وشعافه ... ثم يغيب في ضحكات الموت الساخرة ! ولست أدري هل كنت يقظان حينما حسبت أني أسمع صوت كروان جريح ينوح ويبكي بينما يرجحن فوق الموج في حزن ولغب ! ؟ ...

وسخر منا البحر فعاد بمده ، ثم طفق يرتطم بسفينتنا « ماري — يوسف » ولكن ... لم أكن أنا لأفكر في شيء من هذا ... لا أفكر إلا في هذا الصوت الحنون !

وما لبثنا إلا قليلاً حتى انقلبت بنا السفينة بغتة فقد اعتدلت كأنها تستعد للنزال ، فانسدحنا — برغمنا — على سطح الزورق الأعلى . وانطرحتْ عليَّ كبراهن فأمسكت بها في جنون ونشوة ، فضممتها إلى دون وعي ولا تفكير ... لقد كنت أحسب أني أنشق آخر أنفاسي ، فوددت أن يكون حبها آخر عهدي بهذه الدنيا ؛ فشرعت أقبل ذلك الشعر الجثل الجميل الآن ! لم يعد السفين يتحرك ... ولم نعد نحن نختلج

وصاح الأب فزعاً « كيتي ! » فأجابته من بين ذراعي : « نعم ! » ثم تطلقت من بين أحضاني ... يا لها من لحظات ! كم وددت حينذاك أن ينحطم « ماري — يوسف » فيبلعنا البحر سويا

وقال السيد :

— إنها خطرة باغتة ، ولم تحدث بنا ضر ؛ فما يزال بسطح الزورق أطفالى الثلاث

يا لله ! لقد كان يحسب — حين لم يبصر فتاته الكبرى أنه قد ثكلها

وثاب إلىّ الرشاد رويداً رويداً . وهناك عن كثب شاهدت نوراً يترجح على الماء الغاضب ... وصحت فردت الصيحة . لقد كان زورق الفندق ، أتى ليبحث عنا بعد أن أدرك ما قدمنا من تهور

ونجونا ، وكم أسفت لذلك ! حملنا الرجال عن الرمث إلى زورقهم المتين ، فلا أمل فى الكرب ثانية ... ! وأخيراً عدنا إلى مدينة « سان مارتان » وفرك الانجليز أيديهم :

— العشاء ، العشاء !

« وقد طعمنا ... ولكني لم أكن سعيداً ... لأنى حزنت على « مارى — يوسف »

وكان لابد أن نفترق فى الغد . وبرحوا الجزيرة إلى « بياريتز » بعد كثير من الوعود والقبل . ولم أكن أستطيع اللحاق بهم ، فهناك قيود العمل اللعين

كم كنت مجنوناً حينذاك ! كان علىّ أن أطلب يد الفتاة ، فإنى واثق أنى لو مكثت معها ثمانية أيام لكنت فى التاسع زوجها !

كم يكون المرء — أحياناً — ضعيفاً غامضاً !

ومضى عامان لا أسمع فيهما من أخبارها شيئاً . وفى رأس الثالث تسلمت من نيويورك خطاباً . فقد تزوجت هناك ، وقد قلت لى ذلك . ومنذ ذلك الوقت ونحن نتراسل فى اليوم الأول من يناير كل عام ، وهى تحدثنى عن معيشتها ... أطفالها ... عن أخواتها ، أما عن زوجها فلا ! ... لماذا ؟ آه ! لماذا ... ؟ وأنا الآخر لا أحدثها عن شىء إلا عن « مارى — يوسف »

غرامى الأول والأخير ... المرأة التى أحببتها وأحبها ... كلا ! بل التى سوف أحبها ... آه ! لقد كرثنا الدهر كما كرث اليم «مارى — يوسف» وحطمنا الحب كما حطمه البحر ... وضل كل منا فى الحياة طريقه ، كما ضل « مارى — يوسف » فى الظلام طريقه ... إن الحوادث تحملك بعيداً ... بعيداً ... ثم بعد ذلك ... بعد ذلك ... كل شىء يمر وينقضى ... فهى الآن عجوز دون شك ... لا أكاد أعرفها إذا ما لقيتها ... فتاة الماضي ... فتاة « ماري — يوسف » الشريد ... أى مخلوق ... مقدس ! لقد حدثتنى أنه قد ابيض شعرها شيباً .. وهذا شعرى يشتعل فيه المشيب ... يا إلهى ! إن هذا يفزعنى ... آه ! تلك الغدائر ... الغدائر الصفراء .. كلا ! إن وجهها قد غاض وتغضن ... إيه أيتها الذاكرة ! أى ذكرى أليمة تبعثين ...

سيد محمد العزاوى

يقظة الضمير

لبوريس فيليبوف

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

(اشتهر هذا الكاتب الذي نشأ فى مدينة كييف ، عاصمة مقاطعة پادولى بدرس أعماق النفس البشرية ، والاحاطة بالعوامل القاسية التى تنتج عن تغير أحوال الفرد بفعل القضاء والقدر وهو يعتقد أن الانسان أداة عاجزة و « عجينة لينة » فى يد الفلك المدار فهو ليس ملك نفسه ، وليست إرادته بنافعة ولا بشافعة إذا تحكمت إرادة عليا . وقد وضع قصصاً طريفة تؤيد نظره ، ونشر بعضها فى مجلات پرافدا ، و « ذرفى دانيا » وفى مجموعة صغيرة دلت على علو كعبه فى فن القصة ، ولكن المنية عاجلته فى منتصف العقد الثالث فى عام ١٩٢٢ وهذه القصة من خير ما كتب)

كان صديق بوريا مقاولاً وفناناً وقد درس صنعة العمارة على أبيه ، فقد كان معماراً شهيراً شاد بعض قصور النبلاء وشارك فى رفع قوائم كنيسة سانت أندريه فى ساراتوف على نهر الفولجا . وكان له مال وفير ورث بعضه عن أبيه وحاز بعضه بجده وكده . فنشأ فى العز والترف ، وعاش عيشة راضية سعيدة . وقضى شبابه فى بطرسبرج عاصمة القياصرة ، وكانت أجمل المدن فى نظره ، فكان شديد الإعجاب بها ، يصفها بأنها ثمرة خير قران بين المعدن والمرمر والماء ، ولم يوفق البناءون فى أنحاء العالم وفى كل العصور إلى ما وفقوا إليه فى تشييد قصورها ومد جسورها وتزيين طرقها ولاسيما برسيكتيف نيفسكى. فكان بوريا يعيش سعيداً بين عمله وبين إعجابه بمسقط رأسه ومدينة أحلامه ، غير مكترث بما كان يقع فى قصورها وسجونها وحصونها من المظالم ؛ يرفه عن نفسه فى كل مساء باللهو فى الأندية والملاعب والحانات ويختم لياليه بالمحاصرة والمعاقرة ـ وأحياناً بالمقامرة على المائدة الخضراء فيربح ما يربح ليعوض نفقات سهرته ، أو يخسر مالا يؤثر فى ثروته . ولم يكن متزوجاً لأنه ما زال فى عنفوان الشباب ، ولم يلق فى الأماكن التى كان يغشاها تلك التى تتغلب على عوامل العزوبة فى نفسه ، بل كان يكتفي باللواتى يقضين لبانته فى لقاء صاخب ، تسبقه نشوة الخمر وتعقبه لذة الذكرى . وكان يذكر تلك الأيام والليالى جيداً حتى التافه من حوادثها . واستمر على تلك الحال بين العمل واللهو حتى التقى بالفتاة «جوتى» وكانت امرأة مدرس صغير فى مدرسة ابتدائية ، وكان الزوج فقيراً يكفيه مرتبه كمعظم أبناء صنعته الذين تستغلهم الحكومة ليخرجوا رجال المستقبل ، وهم يموتون جوعا ، ويلاقون الويلات من شظف العيش . ولكن جوتى.. ما أحلى هذا الاسم فى فمه فقد كان يتلمظ إذ ينطق به كأنه يحسو خمراً أو يستوعب قطعة من الحلوى المحشوة بالجوز واللوز عند ماروى لى قصتها وقصته بنفسه قبل موته بأيام قليلة قال : لم تكن محبوبتى جوتى جميلة وصغيرة فحسب ، بل كانت

ذات قدرة نادرة على تنظيم الحياة وتدبير الدار ، حتى تمكنت من مطاردة الفقر ومحاربته بالفطنة . فكانت تعد الغداء والعشاء ، ولكن جسمها كان دائماً نظيفاً معطراً . وتبدو أناملها التى تمارس الطهى مرتين فى النهار رخصة دقيقة لم يعلق بها أثر من آثار النار أو الدسم ؛ وكان شعرها أسود لامعاً ، أما عيناها فنبعان من منابع الجمال . كيف أصفهما وهما بلون القطيفة الخضراء وحولهما إطار بلون الشهد الذهبى ؟ أما ثيابها فقد كانت فتنة الفنان كأن مصوراً يفكر ثم يبتكر ، ثم يخرج فكرته ؛ فهى ثياب رخيصة ولكنها متقنة بل إلى ما فوق الاتقان . وهى التى علمتنى أن الثوب ليس بثمن قماشه ولا بلون رسومه ولكن بدقة صنعه وتطريزه . كانت على فقرها محسودة من ربات الجمال من طبقة الأغنياء ، فنجحت تلك الفاتنة فى أن تعيش بالخيال وجعلت من حياتها وحبها حلماً رائعاً . فلما رأيتها أثناء زيارة فنية فى بيتها الصغير فى شارع پوشكين فى الخط الرابع فى الدور الأعلى من العمارة رقم ١١٧ ، نسيت نفسى ونسيت وجه الدڤرنيك (البواب) الدميم الذى لم أر أقبح منه فى حياتى . لقد نسيت نفسى حقاً وتساءلت أفى الأرض أنا أم فى السماء ؟ وأحسست أنى تغيرت فى طرفة عين ، وصرت رجلاً آخر ، لا أحب سواها ولا أفكر إلا فيها ، ووهمت أنها لم تخلق إلا لتسعدنى ونسيت أنها متزوجة ، وأن لها رجلاً آخر يعاشرها ويسعى على رزقها ورزقه . وغاب عنى شبحه وفكرته وصار فى ذهنى الملتهب كأنه شخص خيالي لا وجود له فى الحقيقة !! هل هذا هو ما يسمونه الحب للوهلة الأولى ، أو دقة الصاعقة ؟ لا أدرى . والعجب فى أمرنا أنها هى الأخرى أحبتنى منذ تبادلنا النظرة الأولى ؛ وكان زوجها غائباً بالطبع ، وفى ظنى أنه لو كان حاضراً لما غير حضوره موقفنا ! نعم كنت أحبها على الرغم منه ومنها ومن العالم أجمع . لم يكن قدها ولا جمال وجهها وعينيها ولا رخاصة أناملها ويديها ولا إبداع سماوتها هى التى فتنتنى وحدها ، بل صوتها أيضاً ... صوتها ... كان هذا الصوت مزيجاً من الموسيقى وتغريد البلابل وهزات النسيم وسحر النغم الغامض وحنان الأم ، فاجتذبنى قبل أن أفيق من غشيتى لدى رؤيتها . لقد تمثلت لى فيها الأنوثة الكاملة وأردت فى لحظة جنونية أن أرزق منها بغلام . لقد صرخت الطبيعة فى أذنى ، وتحرك كل ساكن فى كيانى ، وفى لحظة أخرى عدت إلى نفسى فاحتقرت نفسى لانغماسى فى الشهوات البخسة ، ورأيت ضرورة التغيير قبل أن أنبس بكلمة ، لأصبح رجلاً جديداً جديراً بحبها ، ولا بد من أن أطلق ماضى حياتى الملوثة بالدنايا قبل أن أفوز بيدها . هل تتخيل أن هذه المعجزة تتم فى دقيقة واحدة على يد امرأة صغيرة ؟ ولكن المعجزة تمت ، فإن جوتى بادلتنى حبي ؛ ولم يكن الفقر وحده سبب مطاوعتها إياى وتلبيتها نداء قلبى — لأنها كانت مستورة — ولم يكن نداء الجنس بالدافع الوحيد لها — لأن زوجها كان شاباً — وقد قالت لى إنها لا تشعر بالخيانة الزوجية ، لأنها أحبت بإخلاص ، وإن الذنوب لا يشعر بها إلا المرغم على اقترافها . أما الحب الطاهر ولو كان مشوباً بالتسليم فلا يشعرها بالخطيئة ، فقلت لها : ياجوتى الصغيرة ، يا جوتى الحبيبة ، يا حلم الملائكة ورمز هيلانة الهاربة فى سبيل باريس الفارس الجميل ، كيف تقولين ذلك ؟ إنه ذنب ضد عقيدتنا ... فنظرت إلى نظرة قصيرة ثم أغضت ... هل هو عتاب أم تكذيب ، أم تغليب إرادة الحب على إيمان القلب ؟ لست أدرى ! اللهم اغفر ذنب حبها إياى فقد أحبتنى

وأنقذتني . عجباً ! هل يمحو ذنب واحد ذنوباً جمة ؟ هذا هو الذي حدث . فإنني بعد حبها أصبحت بريئاً كالطفل . لقد أحبتني لأنني كنت مَرِحاً وكنت غنياً فمكنتها من التمتع بما كانت محرومة منه من ملذات الحياة . صحبتها إلى المسارح الراقية وأسمعتها شليابين يغنى، وكارينا دمنسكي تمثل، وأريتها ايزيدورا دنكان ترقص، وسقيتها كؤوس البيبرمنت والفودكا الغالية والبندكتين اللذيذ بعد العشاء في مطعم بورتريف، ولم تكن تحلم بأن قدميها تطآن أرضه ؛ ورأت انعكاس أضواء المدينة على نهر النيفا ، وتلألؤ أنوار قصر الشتاء على الجليد . وخلوت بها في بيوت جميلة ، فكانت تقول لي : « إن قلبي يحدثني يا بوريا العزيز بأن هنائي بك قصير الأجل ، ولكن لا عليك فقد حييت واستمتعت » ولا أستطيع أن أذكر لك كل ما رأيته وسمعته منها فلم أحتفظ بصورة من صورها التي صنعتها بنفسي في الحدائق وفي ظل الأشجار وعلى موائد الطعام ولم أستبق رسالة من رسائلها ، فقد سلمتها إليها يداً بيد ، كالعرف السائد في زمننا ، فإن العاشق لا يحفظ رسائل معشوقته المتزوجة ...

ولكن كل ذلك انتهى فجأة وأنا المذنب الملوم حقاً فقد بدأت بالقطيعة ولا أدري ما السبب ، سوى رذيلة الملل من الشيء الواحد ، وبطر الرجل حيال المرأة الخاضعة ، وغريزة الزهد فيما يمتلك . فإن النفس تنتزع من ظلام الجحود أسباباً للفرقة . لقد تألمت لفراقها وشعرت بطعن الخناجر عند ما قالت لي لدى لقائنا الأخير : « ألم أتنبأ بأن سعادتنا قصيرة الأجل؟ إنك مثل كل الرجال ، وإن لم أكن عرفت سواك ، فأنت تنبذني بعد أن فرغت من غايتك . وأصبحت لا تقيم لي وزناً ، ونسيت كل عهدك . لقد سلكت السبيل التي يسلكها أمثالك ، فأنا لا ألومك ، ولكنني أحببتك وصدقتك ولا أندم على حبك ، ولا أستطيع أن أستعطفك أو أحرك شفقتك فليس في وسعك أن تحبني بعد أن زهدت فيّ ؛ وليس في وسع أعظم الرجال أن يقدم الكرامة على العاطفة فإن ملالك عند وصلك إذا انتهى الحب يكون أقتل لي من عذابي بعد هجرك . لو كنت امرأة أخرى .. لو كنت عذبتك وأذقتك لوعة الدلال والصد ، وبعتك صفاء قلبي غالياً ، لبقيت طول حياتك على حبي ؛ ولكن طبيعتي لا تتغير ، وقد جدت لك بنفسي منذ أحببتك فكانت عاقبتي مرارة البعد . لقد أفسدت حياتي يا بوريا ، فلن أصلح لأكون زوجة ، بل لن أصلح للفساد بعدك ! فإما راهبة وإما منتحرة ، فأيهما يحلو لك ؟ أفتني في هجري كما أفتيتني في حبي . قل بالله عليك ولا تضن عليّ بنصحك » فكانت كلماتها كوخز السنان في قلبي ، وكانت الدموع لا تكفي لتمحو ألمي ، كما كان الرجوع إلى سابق عهدنا مستحيلاً بعد أن انمحى العقد الذي كان ربطنا ، وانتثرت كلماته الممزقة فوق رمال القطيعة المجدبة كالصحراء ، فرجعت إلى صديقي كرلنكو بيليانوف — قاتله الله ! — فقد كان فاسقاً مستهتراً ، وكنت هجرته منذ عرفت حبيبتي المخلصة جوتي . وقلت له اسمع : إنها تنذرني بالندم ، زاعمة أنني لن أجد سواها فيمن يماثلها من النساء . فقال لي : كلهن يقلن هذا القول لاستبقاء الرجل المحبوب ؛ أما إذا فرغت قلوبهن من حبه ، فلن يعرنه أقل لفتة ، ولا يشفقن عليه ولو تمرغ في تراب أقدامهن ولو تمزقت أحشاؤه أمام أعينهن . الأولى لك يا صديقي أن تعف عن الطعام ونفسك تشتهيه . أنظر هنا يا بوريا . أنظر هنا ، الأولى لك أن تبدأ بالانصراف قبل أن تفاجئك هي بالهجر —

إن الحب حرب بين الجنسين يا أخى ، ومن المهارة فى الحرب أن تنسحب من الميدان قبل أن ينال منك خصمك أو يجهز عليك ، والإجهاز هنا أن ينتهى حبها إياك وأنت متعلق بها فالويل لك ثم الويل لك. واعلم أننا جميعاً نفعل مثلك : نغازل النساء المتزوجات ثم نودعهن وداعاً لا لقاء بعده . فافعل كل ما يفعله أبناء جيلك ولا تحسب أنك تذنب في حقها .. وإذا كنت تعلم أنها فقيرة ، وأنها متشبثة بك لغناك ووفرة مالك فلا بأس من أن تعوضها بنفحة أو بسطة كف تستعين بها على نسيانك وتجديد حياتها فى ظل زوجها الأنوك !

وعندما سمعت منه هذه الكلمة قلت له : اخرس أيها النذل ؛ فإنها ليست من هذه الطبقة وليست على هذا الطراز . إن هذه الطفلة الوادعة تنقلب دُبًّا لتنشب أظفارها في وجهى إذا قدمت لها المال ... ثم أنت تغتاب رجلا جنيتُ أنا عليه ! فغضب بيليانوف . وقال لي: أنا نذل..؟ أنت حمار ، لن تستريح حتى تنهق . فأعجبتني النكتة وضحكت وصالحته .هذا العذول الخبيث بيليانوف . اصطلحنا وسقيته قنينة من الفودكا الرخيصة الثمن لأنني كنت أكره أن أراه يشرب النوع الذى كانت جوتى تشربه معى فأردت تسميمه لأجل الذكرى . وبعد أن تلذذ بيليانوف بالخمر، وقبل أن يصاب بالصداع المحتم قال لي:

أنا أعلم يا بوريا أنك رجل شريف ، تكره السرقة وتأبى المطل فى السداد وتبغض خيانة الأمانة وترفض أن تهتضم حقوق الغير ، وهذه عادات كسبتها بممارسة أعمالك ، ولكن أن تستمر على حب امرأة أحبها غيرك ، هذا الذى لا تطيقه بطبعك . إنها كالنواة التى يلفظها من أكل الفاكهة ، أترضى أن تعيش على النوى ؟ إنها متزوجة كما تقول ، فلها رجل آخر لا تقدر على رده ...

فأحدث الخبيث بيليانوف فى ذهنى صورة قبيحة قاتله الله ! ليتنى ما أسكرته فقد صار بعد الفودكا أسلط لساناً وأقبح لفظاً وأجرأ على الكلام القارس . يا لك من عذول لئيم يا بليانوف .. لم يكن اللئيم خالياً من الأغراض . فقد كنت هجرته فيمن هجرت من الأصدقاء بعد حبى إياها ، وقد كفتنى الاجتماع به وبرفقائه فى الحانات والملاهى والمغانى الصاخبة فقنعت بها دون كل الناس . فكان يروق له أن يستردنى لأعود سيرتى الأولى . أليس هذا عجيباً ؟ لقد كان يغار منها وهو لا يعلم ذلك ، أو يعلمه ويخفيه عني ليظهر أمامى بمظهر الناصح المخلص

فقلت له قبل أن يصيبه الصداع :

— ولماذا لا تنصح لى أن أتزوج ؟ فقال : آه . الزواج ! هذا شىء آخر . دعنا نخلص أولاً من الخليلة ، حتى نبحث عن الحليلة

قاتله الله وجميع القديسين ! لقد كان جوابه حاضراً وبديهته سريعة فأقنعنى قبل أن يصيبه صداع الفودكا المحتم . وصحت عزيمتى على هجرها فخلت بين نفسي وبينها وأنا على أشد الألم ، فتغلبت فى النهاية بعد أن ذقت الأمرين . فقد كانت صورتها لا تفارقنى فى الليل والنهار ، وكنت أحلم بلقائها ووصلها وأسمع أنينها كأنها ضجيعتى ، وأتذوق حلاوة لمسها وهي بعيدة عني حتى لقد هممت المرة بعد المرة أن أثوب إليها ، وأعود راكعاً بين يديها

وتخيلت فرحها إذ ذاك فكدت أجن من الوجد ولكنني قاومت وقاومت حتى فزت بالنسيان ، ولست أدرى بالدقة كيف عشت بعد هجرها ؛ وتلهيت بالانكباب على عملى ، وقطعت علاقتي ببيليانوف وأشباهه وطلقت حياة الرقص والخمر ونفضت عن كاهلى حياة الفجور كما ينفض الشخص ثيابه فى يوم مطير

وتفرغت للبناء وجمع المال فربحت فوق ثروتى أرباحاً طائلة ، وصرت المقاول المعروف بالمهارة فى

عملى والاناقة فى شخصى والاستقامة فى خلق وبلغت ذروة الانتصار المادى وتكدست أموالى فى المصارف ووثقت بى الشركات ورجال الأعمال وتمكنت من التصرف فى ملايين الروبلات واتصلت شهرتى بفنلندا فبنيت للقيصر قصراً على شاطئ البحر وأعددت له مرسًى ليخته الذى كان يعتمد عليه فى فراره . أتعرف تسارسكوى سيلو ؟ نعم ! أنا الذى أشرفت على بنائه وسافرت إلى الغرب . وزرت إيطاليا وفرنسا ودرست كل طراز للبناء القديم والحديث . وأخيراً حننتُ إلى البيت والمثوى والركن الركين والرجولة المطمئنة الآمنة بالمال واليسر والرخاء المضمون . فتزوجت من فتاة جميلة ورزقت أطفالاً وبينهن بنت أسميتها جوتى (لأجل الذكرى التى كانت تتجدد) . ثم جاءت الحرب العظمى واضطربت الأحوال وارتبكت الشؤون ونفخ فجأة فى صور الثورة . وصار كل شئ إلى الفناء المقدور ، إلى العدم . وحل الفشل محل النجاح وماتت الزوجة وتشتت شمل الأطفال ، فلا أدرى أين هم . وقابلنى بيليانوف وكان لايزال يسكر ويلهو ويعتمد على الغير فى نفقاته ، فلما رآنى وسمع قصتى قال : لاتبتئس فان جان جاك روسو كان له خمسة أطفال ألقى بهم جميعاً فى ملجأ اللقطاء ! لست أعلم منه ولا أعقل ولا أغنى . لقد كان فيلسوفاً كبيراً وألف أحسن الكتب ، وأنت ، ما أنت إلا مقاول ومعمار . وإن العالم كله أصغى إلى تعاليمه وهو لا يعلم إن كان أولاده أحياء أم ذهبوا إلى العالم الآخر ، إن كان هناك عالم آخر ؛ المسألة ترجع إلى اعتقاد روسو . فسُرِّى عنى وأنا أعلم خبثه وقبلت كلامه على عِلاته بحكم اضطرارى لقبوله . وعدت إلى شرب الخمر ولعب القمار من جديد ثم مارست أعمالاً فأحرقت الأخضر واليابس وقضت على البقية الباقية من مالى . وغادرنى التوفيق وابتعد عنى أصحابى وعادانى أشدهم لؤماً ، ماعدا بيليانوف ، لأنه لم يكن يعطينى شيئاً ولا يضيره أن يأخذ من غيرى . وألقى بى المجتمع الذى كنت يوماً من سادته ، ولكن الحالة الجديدة لم تجعل سيداً ولا عبداً . وكان يعزينى أن القيصر وولى عهده والقيصرة وبناتها لم يكونوا أسعد منى حظاً ، ولكن هذا القول كان وهماً ؛ ولكننى كنت أتوهم ماهو أعظم منه وهو أننى سأعود يوماً ما إلى الثراء بعد الحاجة ، واليسر بعد العسر ، إذا نفضت عن كتفى غبار اليأس القاتل . وصورة الثروة التى أستردها لما تفارقنى ، وكانت تحارب أمام عينى شبح الفقر الذى يتهددنى ، فكنت أحسب أن لى قريباً مجهولاً سوف يهلك فى أمريكا وتوافينى ثروته على عجل ، أو أن يكون لى كنز دفين فى أحد البيوت التى بنيتها . وتملكت هذه الفكرة نفسى فعاد إلىّ بصيص من الرجاء وظفرت بصفقة رابحة عددتها فاتحة الخير وبداية الفرج بعد الضيق . وكان الجنود العائدون من الميدان يملأون الحانات ، ولا سيما فى حى بطرس وبولس بجوار الحصن الشهير ، فغشيت ليلة إحدى هذه الحانات التى كانت مكتظة بالشاربين من عسكر الدولة التى بدأت تتلون بلون الثورة ، وكانت ضجة الجنود وهم يتجرعون الفودكا تعلو وتتضخم وتهز أركان المكان، كما انعقدت فى سقفه الأسود سحب من دخان طباقهم ، وأخذوا ينظرون إلىّ شزراً لأننى لم أكن أختال فى ثياب كثيابهم ، فطلبت من الساقى قنينة من الفودكا لأحرف أنظارهم عنى فتغير نظرهم إلىّ من الحقد إلى السخرية ، كأن الخمر كان وقفاً عليهم .. ولكنهم فى الحق كانوا يتساءلون فيما بينهم عن علة قعودى ، لماذا لا أخوض غمار الحرب التى خاضوها ، وأبقى فى العاصمة منعماً بالحرية

والسلامة ؟ ولو علموا الحرب التى أعانيها لأشفقوا علىّ فانها كانت أحمى ناراً وأحرق أواراً من حرب القنابل ، فان الموت كان خيراً مما أنا فيه . وطالما حسدت بطل تولستوى « الميت الحى » ولكن أنى لى بنعمة الموت المنقذ ؟ وبينا أنا مستغرق فى وحدتى والألم يحز فى نفسى ، والندم على دخولى هذا المكان يكاد يمزق أحشائى ، وإذا بامرأة ظهرت تختال وتتبختر وتضىء وتتلألأ كالكوكب الدرى فى ظلام تلك الحفرة المدلهم ؛ كانت تلبس ثوباً من الحرير الأحمر يماثل ثياب ضباط الفرسان وفى يدها عصا صغيرة من العاج . فلما دخلت ساد السكون واتجهت الأنظار إليها ثم أخذت تنظر وتنتقي ما طاب لها من الشبان والكهول وتوزع الضحك والكلمات العذبة والنظرات الفاتنة ذات اليمين وذات اليسار . وفجأة انطلقت الألسن بعبارات الإعجاب وتبدل العبوس بالابتسام والضحك ، وأخذوا يستعطفونها ويقدمون لها الأقداح ؛ وقد ينهض أحد هؤلاء الجنود الظمآنين إلى الحب فيلمس يدها ثم يقبض عليها ويضع على أناملها قبلة حارة . وكانت المرأة تقابل ذلك كله ببشر وسرور ومرح ، وترحب بألفاظ الحب بنظرة دلال ، وتبادل بعض الضباط نكات لاذعة ولكنها فى حدود الأدب ، فانقلبت الحانة الجهنمية روضة من رياض النعيم . وعلى غير انتظار رأتنى . والتقت عينانا ، فأعرضت عنى أولاً .. وتجهم وجهها وتغيرت حالتها . وفى شبه حلم مخيف عرفتها هى .. جوتى .. لقد أخبرونى أنها ماتت في جزيرة القريم منذ ثلاثة أعوام بمرض الصدر ... كذبوا وهاهى ذى على قيد الحياة ، جميلة رائعة ، ولكنها تبدلت . صدقوا ... إن جوتى التى عرفتها وأحببتها وقاطعتها ونسيتها قدماتت ، أما هذه فامرأة أخرى وا أسفاه ... إننى لم أستطع أن أنتزع صورتها الأولى من ظلام الماضى الحالك .. من مخزن التصاوير القابع فى ذهنى كأنه صراف بخيل ... لا يقدم الأشكال والرسوم إلا بحساب أى حساب

لقد تجاهلتنى وابتعدت عنى وثابرت على الترحيب بأضيافها حتى لم يحرم أحد من الحظوة منها ببسمة أو نظرة عطف مصطنع أو كلمة عذبة أو وعد بلقاء قريب . وكانت « خطة السير » قد ساقتها مصادفة أو بقصد غامض نحو المنضدة التى طرحت عليها أعباء همى ووهمى ومددت لديها بساط خسارتى وندمى ، فلما دنت منى حدقت فىّ ، ودهشت ، ثم تراجعت وقالت لى وهي تضحك ضحكة الألم والسخرية والندم والخجل ، ضحكة لم تكن تعرفها جوتى الأولى ، وأتقنتها هذه الثانية وقالت لى :

— أأنت هنا ؟ فى الحانة ؟ لقد التقينا . إن العالم صغير ، ولا بد للأحياء أن يجتمعوا مهما فرقت الأيام بينهم . أنظر إلى ماصنعتَ يحق لك أن تفتخر . أنا مخلوقتك ، بل قل مخلوقة حبك ، إن شئت . فأحنيت رأسى ألماً وحسرة فقالت لى :

— إرفع رأسك يا بوريا ولا تخجل . إن الصانع لا يخجل من صنعته ، وأنا صنعة يديك . لم يكن ينقصنى إلاأن أراك ، وها أنا ذى قد رأيتك . ثم مدت لى يدها — تلك اليد التى طالما قبلتها وبللتها بدموعى وبقينا هكذا برهة لا أدرى هل طالت أم قصرت لأن نفسى كانت فريسة الانفعال والعواطف ورأسى كأحد مصانع الأسلحة والذخائر ؛ ثم شعرت أنها تسترد كفها من يدى ، كما لو كانت حلية تخشى عليها من سارق يقلبها بين كفيه ليسلبها ، وحولت عينيها عن عينى وقالت : الوداع يا ... بوريا

فى صباح تلك الليلة عثروا فى نهر النيفا على جثتين الأولى لرجل فى الأربعين من عمره والثانية لامرأة فى مقتبل الشباب . بوريا وجوتى ! !

محمد لطفى جمعة



رغبت فى أن أقضى أياماً على بحيرة (ليمان) ، ولما كنت حريصاً على ألا أنفق أكثر مما فى طوق فقد رأيت أن تكون إقامتى فى فندق (بلابرى) . وعند ما سألت هناك عن الشروط أعطيت كتيباً عليه اسم صاحبة الفندق الآنسة (أوجينى دى پارديلاك)

وقد أيقظ هذا الاسم الأرستقراطى كثيراً من الذكريات فى نفسى فتذكرت بيت عائلة (پاردبلاك) الفخم الذى كان فى النهاية القصوى من فرنسا بالقرب من مدينة أعرفها جيداً . وأصْدُقُك القول أنى كنت أعشق ذلك البيت القديم الشريف الذى كانت تكتنفه حديقة فسيحة فيها بحيرات عدة . وكنت أرى فى بعض الأحايين مالكته وهى عجوز فانية عند ما كانوا يتنقلون بها فى أنحاء الحديقة وهى جالسة فى عربتها الصغيرة

وكان سكان المدينة كثيراً ما يسخرون منها ، فهم يقولون إنها تملك قصراً جميلاً ولكنها لا تستطيع أن تتمتع به ، وخيولاً كثيرة لاتستخدمها فى شىء ، ومطابخ يموج فى جنباتها الطاهون بالرغم من أنها لاتعيش إلا على اللبن

ومع ذلك فقد جرى غناها مثلاً على ألسنة الناس فى إقليمها وما جاوره . وكانوا كثيراً ما يقولون إن أموالها ستؤول كلها فى نهاية أمرها إلى خزانة الحكومة ، ولكني قد علمت الآن أن أمريكيا قد اشترى قصرها الفسيح ؛ وذكرنى هذا مثلاً محلياً له علاقة بهذا الموضوع كنت قد سمعت امرأة تقوله يوماً لابنتها ..

ورأيت فى يوم من الأيام — بينما كنت أطل من إحدى نوافذ الفندق امرأة نصفاً تجمع أزهاراً فى الحديقة ، وكان الشيب قد وخط شعرها وظهرت على جبينها تجاعيد تنم عن الكبر . وما إن رأيتها على ماهى عليه حتى اعتقدت تماماً أنها تؤدى وحدها أكبر نصيب من العمل فى الفندق

ودخلت حجرتى خادمة فسألتها : « هل هذه التي أراها هى الآنسة (دى پارديلاك) ؟ » فقالت : « إنها هي » ...

وأخيراً رأيتها فى إدارتها الصغيرة — وكانت تعُد مفارش من الكتان — فحييتها وذكرت اسم (پارديلاك) فأدارت وجهها إلىَّ فى حدة وسألتنى عما إذا كنت أعرف شيئاً عن هذا الاسم ... ؛ فحدثتها عن المنزل ، والنهر الذى ليس ببعيد عنه ، ثم عن (الجارون) وهو قريب منه ؛ وذكرت لها بعد ذلك أسماء كثير ممن تعرفهم ؛ وتحدثت عن السيدة الهرمة التى رأيتها فى العربة الصغيرة ثم سألتها : « هل كانت تلك السيدة

عمتك ؟ » فهزت رأسها بالإيجاب .

فقلت : « ألم تذهبي إلى منزل (پارديلاك) فى الأيام الأخيرة ؟ »

فأجابت — وهى تلق مفرشاً على الكوم الذى أمامها : « إننى لم أذهب إلى هناك منذ إحدى عشرة سنة »

فقلت : « ليس من الممكن على كل حال أن يكون قد نسيك الناس هناك . وإن كنت لا أعلم أتعرفين ذلك أم تجهلينه ؛ ولكنك ولا ريب قد صرت مثلاً بين الناس هناك ... ؛ فقد سمعت امرأة تصيح فى وجه ابنتها قائلة لها : إنك قد فقدت عقلك وصرت غبية كتلك الآنسة « دى پارديلاك » التى فضلت الحب على ثروة كبيرة !! »

فتنهدت الآنسه (دى پارديلاك) وقالت بعد قليل من التفكير : « إنهم ولا ريب يقولون ذلك !! » ثم ضحكت فجأة ، وما كان ضحكها مما ترتاح الأذن إلى سماعه ؛ فقد خُيّل إليّ أنه يخرج من قلب صيغ من صوان صلد ؛ واستمرت تعد مفارشها الكتانية ، ثم التفتت إليّ بعد دقيقة وتكلمت كما لو كانت تتم حديثاً :

— « سبعة عشر عاماً .. سبعة عشر عاماً طوالاً ! لقد عشت مع عمتى سبعة عشر عاماً بطولها وما كنت إلا خادمة أو ما يشبه ذلك عند ما جئت إلى هذا الفندق أول مرة ؛ ولكن ليس هذا ما يهمنا . لقد كنت خادمة عند عمتى ، بل كنت أقوم بما يعمله الخدم جميعاً على اختلاف أعمالهم ؛ وكنت صبية صغيرة عند ما ذهبت إلى منزلها أول مرة وما نسيت ذلك اليوم أبدا ، فقد كان الخامس من شهر أبريل وهو يوم ميلاد عمتى !

وكانت عمتى تثير الإعجاب بما تعمله فى يوم ميلادها ؛ إذ كانت تنفق المال فى ذلك اليوم بغير حساب ؛ وكان أقاربها يأتون إليها من الأماكن الدانية والقاصية كل يرجو صلاتها ؛ ومن أجل هذه الصلات كان الرجل الذى لا يستطيع الحضور بنفسه يرسل زوجته لتذكر عمتى بنصيبه . وقد ذهب والدى معى فى ذلك اليوم بالرغم من أننا كنا نسكن على بعد ثلاثين ميلاً من دار « پارديلاك »

وإنى لعلى يقين الآن من أن أبى وأمى كانا يتوقعان بذهابهما معى إلى عمتى خيراً كثيراً بعد ما أيقنا أن وجودنا عندها ما كان يبعث إلا السرور والإعجاب فى قلبها ؛ وما كان ينال بعض ذلك أحد أقاربها الكثيرين الطامعين ، ولذلك كان أبواي من أسبق الناس إلى اكتساب صلاتها

وإنى لأذكر جيداً أن عمتى قالت لأمى ونحن نتأهب للعودة : « إن فضائل الإنسان هى التى توصى خيراً به ؛ وقد أجمعت رأيى على أن أترك لك كل ما أملك » ...

ولم يكن هذا كل ما حدث ، فقد جمعت عمتى أقاربها الآخرين قبل ذهابنا ثم ذكرت لهم وهى تقرع الأرض بعصا فى يدها كل ما تعتقده فيهم ، فقالت لهم إنهم منافقون يتملقونها لينالوا أموالها ، ثم طردتهم بعد ذلك من منزلها . وبذلك ظهر الأمر أكثر وضوحاً لأبوىّ ، وما كان فى حقيقته كذلك أو ما كان على الأقل سهلاً ميسوراً كما وقع فى ظنهما ...

وفى الخامس من أبريل من العام التالى ذهبنا إلى عمتى جميعاً فى أبدع زينة وأجمل ثياب . وكانت تعاملنى عند ما كنا عندها معاملة فيها الفظاظة

والشراسة ، كما كانت تمزح مع أبي مزاحاً مراً مؤلماً لأنه خسر شيئاً من المال فى صفقة عند مسجل عقود

ومع ذلك فقد عرضت علينا عند ما كنا نتأهب للعودة إلى دارنا أن نمكث عندها ليلة أخرى ، وكأنما كانت هذه الدعوة امتيازاً مازتنا به من بقية أقاربها

« ثم قالت : إن فى منزلنا هذا خمسين حجرة للنوم ، وإنى أدعوكم للانتظار عندى إلى الغد » ...

وكأنما أغرقت أبي وأمي فى بحر من كرمها بهذه الدعوة فقد أوهمهما هذا أن ثروتها قد صارت أكثر قرباً منهما وأنهما سينالانها دون ريب . وبينما كنت في حجرتي الكبيرة التي اخترتها لنفسي من البيت الفسيح سمعت أبي وأمي في الحجرة المجاورة يهنئ كل منهما الآخر ضاحكا مستبشراً ...؛ غير أن ما حدث فى اليوم التالى لم يكن مما يبعث على الطمأنينة ، فقد تجاهلت عمتي وجودنا ، وكانت تسخر من أبي سخريتها المؤلمة بين الحين والحين

ولما أعد طعام الغداء لم تعرض عمتي علينا أن ننتظر ، فلم يجد أبي بداً من أن نعود إلى دارنا بعد أن أهانته عمتي وحقرته . وكان أبي فى هذه الساعة مكتئباً منقبض النفس . ولما عرضنا عليها عزمنا على العودة لم تمانع فى ذلك وقالت لنا : « معكم الحق ، فلكم أن تذهبوا ولكنى سأبقى هذه الصبية معى لأنى فى حاجة إلى رفيق ؛ وقد خطر لى هذا أمس عند ما شاهدت بنفسى نمو جسمها وحسن خلقها»

وأذهل الأمر أبي وأمي وحيرهما فقبلا خوفاً من أن يفقدا الثروة الموعودة إن رفضا ما عرضته عليهما عمتي . ثم ضماني إليهما بحرارة ما أحسست بمثلها من قبل عند ما ودعاني فى ذلك الصباح

وما أظن صادقة أن أبوي كانا يعتقدان أنهما قد أساءا إلىّ بتركي مع عمتي ، فقد كانا يظنان أني سأظل عندها بضعة أسابيع لا غير وأني سأذهب إليهما متى أشاء وأعود متى أحب ، وما علما أن عمتي إنما كانت تريدني عندها خادمة خاصة أتبعها ولا أتركها ، وأخدمها على الرغم مني بعد أن يئست من أن تجد لها خادمة تقبل أن تكون كذلك وترضى بمثل هذه الشروط ...

وكنت بالطبع أسكن عند عمتي ، وكانت تكسوني وتطعمني ، وكان أجرى عن عملي ما سأرثه عنها من ثروة كبيرة عند ما تموت . وما كنت أظن أنها إنما أخذتني صغيرة لتذلني وتخضعني لسلطانها . وعند ما أدرك أبواي حقيقة الأمر وعلما بما هو واقع لم يحتجا على هذه المعاملة ولم يغضبا حباً للثروة الموعودة والغنى المنتظر ...

وبدأت حياتي على أن أكون رفيقة لعمتي ووريثة لها . وما بلغت الخامسة عشرة من عمري حتى كنت قد أدركت تماماً أن أقل نسيان أو أدنى إهمال أو أصغر كلمة فاجئة فيها شيء من عدم اللياقة ستفقدني مال عمتي وثروتها . ويمكنك من هذا أن تفهم كيف كنت أرقب مستقبلي وكيف كنت أخشى أن أخطئ فأرتكب غلطة ... وعلى هذه الحال عشت سبعة عشر عاماً !!

لم يكن هذا أشد الأمور مرارة على نفسي فقد كانت عمتي لا تسمح لى بأن أستريح يوماً فى حياتى أو أخلص ساعة إلى نفسى إذ كنت لا أفرغ من العمل أبدا . لقد كنت قبل أن أعيش مع عمتي صبية نامية الجسم ضاحكة الوجه . وقد تغير هذا كله سريعاً وتبدل فلم يبق منه شيء ، إذ جعلتني

العبودية التي أعانيها منافقة كاذبة ، ووضعت في طبعي المكر والخبث ، ومحت من شفتي كل ضحك وابتسام . لقد كتبت مرة أو مرتين إلى أبويّ أتشكّى وأتظلّم ، ولكن أبي أرسل إليّ رداً جميلاً ساحراً وقال لي يشجعني إنني سأجني من وراء هذا ثروة كبيرة ..!

« كانت عمتي غنية جداً ، ولكنها كانت مقعدة كسيحة ، وقد جعلها هذا الداء امرأة غريبة الخلقة والخلق ، تكره كل إنسان ، وتمقت كل شيء . وكانت تحتم على خدمها بل على كل من يتصل بها طاعة لها لاتتغير . والأعجب من ذلك أنها كانت تثور ، وتكاد تتميز غيظاً إن رأت أحداً يضحك أو تظهر على وجهه مخايل السعادة والبشر . وكانت لا تسمح لي بالذهاب إلى الحديقة بمفردي ، بل كانت لا تسمح لي بأن أتركها أو أبتعد عنها لحظة واحدة ؛ وما كانت لي إلا فرصة واحدة أتمتع فيها بالجري وحدي في البيت وذلك عند ما كانت عمتي ترسلني لأبحث لها عن منديلها أو عن قبعتها المصنوعة من القش ...

***

« لم يكن لها أصدقاء ، فإن أتاها زائر قلنا إنها غير موجودة ، وعاشت بذلك في عزلة . وما كانت تذهب حتى إلى القداس في المدينة ، ولو ذهبت لانتهزتها فرصة أرى فيها الناس . وكان كاهن الكنيسة يأتي إلى منزلنا ليتلو علينا نحن الاثنين قدّاسه في إحدى الحجرات ، ثم يتلوه بعد ذلك على الخدم في الفناء الخلفي للدار . وكان الطبيب يأتي عادة في موعده ، ولكن عمتي أساءت إليه مرة إذ وصفته بالغباء على مسمع منه . أما جماعات الخدم فما كانوا يمكثون طويلا عندها إذ كانت تغيرهم بين الحين والحين ، وكانت تطرد الواحد منهم أو الجماعة فيتركونها ، أما أنا فقد بقيت وحدي عندها لا تطردني ولا تبعدني عنها

« وجاء يوم ميلادها فاستقبلت أقاربها ، وكان بعض أبناء أخوالي فتياناً مرحين فتبادلنا بسمات معسولة ، ولكنني كنت أشعر طول الوقت أنهم كانوا كاذبين فيما يظهرون لي فقد كانوا ينظرون إليّ من طرف خفي كما ينظرون إلى عدوة لهم و ... و ... ولكن ما كنت أستطيع أن أقول شيئاً . إن الواجب يحتم على الوريثة المنتظرة ألا تفقد عقلها ... وألا تفقد قلبها ... !

وكانت نضرتي قد ذبلت قبل أن أبلغ الثامنة عشرة من عمري ، فجف عودي ، فما أنا بالفتاة وما أنا بالمرأة ؛ وكنت أعجب كيف تستطيع مثلي أن تعيش ، وما كنت في الحقيقة إلا شبحاً كالح اللون ينتظر نعل امرأة ميتة ، ومع ذلك فما كانت تملكني إلا فكرة واحدة وهي أنني يجب ألا أغضب عمتي (إيرين) ...

« وكان قد لمسني الغرور من قبل عند ما رأيت أنني قد صرت فتاة جميلة ساحرة . ولكن هذا كله قد أصبح جزءا من الماضي الذي فات والغابر الذي مات . فهأنذي أرتدي الملابس السود ولا أعتني بشعري فأصلحه أو أرتبه في أي شكل من الأشكال . وهأنذي قد أصبحت نحيلة الجسم صفراء اللون حتى صرت في الثامنة عشرة من عمري صورة رمزية لعانس لم تتزوج ... »

فسألتها : « ألم ترى والديك في ذلك الحين ؟ »

فأجابت : « .. كنت أراهما مرتين تقريباً في العام ساعتين فقط . وما كانت تسمح لي عمتي إلا

بزيارة عاجلة لها ، أما هما فكان يخشيان الحضور إلى بيت عمتى (إيرين) خوفاً من أن يخطئا فيقولا أو يفعلا ما يغضبها

« ومرض والدى مرضاً لم يرج له شفاء منه . وقبل أن يموت قال وهو يبسم لى ابتسامة كلها ألم : « ليس فى يدى شيء أستطيع أن أتركه لك ياطفلتى المسكينة ؛ ولكنك سوف تنالين عما قليل كل ما تريدين ! » . ولم تعش أمي طويلا بعد وفاة والدى وقالت لى قبل موتها : « كم كنت أتمنى أن أعيش حتى أراك تملكين ثروة عمتك (إيرين) كلها !! »

« آه من هؤلاء النسوة العجائز المثريات ! ! .. إن الواحد منا ليكاد يعتقد أنه لا يمكن أن يؤذيهن شيء أو يضرهن أو يغير منهن . ولكنهن مع ذلك يفزعن عند ما يصيبهن أذى ، وقد كنت أنا فزعة هلعة مثلهن لأنى كنت أخشى أن تصدر منى هفوة بسيطة أفقد بسببها كل ما أضعت صباي من أجل الحصول عليه ...

« وظل أقارب عمتى يأتون إليها فى يوم ميلادها الخامس من ابريل من كل عام . وكانوا يأتون من أقاصى فرنسا ، وكنت فى بعض الأحايين أتنهد وأزفر بالرغم مني عند ما يرحلون عنا ، وكانت تملأ خاطري أحياناً رغبة خفية فى أن أبتعد عن عمتى قليلا فأقول لنفسى : « آه لو كان فى مقدورى ألا أظل بجوارها إلا فى الليل ! » وطافت برأسى هذه الفكرة : « كم أتمنى أن ينام معنا فى هذا البيت إنسان آخر ! ! » . ولكنها كانت آمالا تخطر فى نفسي ما استطعت يوماً أن أعبر عنها بكلمات أقولها !!

***

« واقترب منى فى يوم من أيام ميلادها اثنان من أقاربها وقال لى واحد منهما دون أن ينظر إليّ : « إن عمتك تعجز عن أن تعمل أى شيء إن لم تكونى ملازمة لها » . وقد خيل إليّ أنه لابد أن يكون كل واحد منهما قد فقد بنتاً له فى الخامسة عشرة من عمرها ، تشبهنى لأنها صارت ميتة ، ولا تشبهنى لأنها كانت سعيدة ! !

« ودارت الأيام دورتها فصارت عمتى أشد قسوة من قبل . فما أكاد أمسك كتاباً حتى تطلب منى شيئاً ، وما كنت فى حقيقة الأمر غير كلب يرتدى ثياباً أنيقة . فما كان عليها إلا أن تنادى صاحبة : « يا أوجينى ! » حتى أسرع إليها . وكثيراً ما كنت أخجل عند ما كانت تنادينى فى لهجة معيبة فان نادتنى غاضبة اندفعت أبكي ... سبعة عشر عاماً ! !

« وذات مساء ... هذا شيء مضحك ! ... ذات مساء — بعد سبعة عشر عاماً ! ! » ، وسكتت بضع دقائق ؛ ثم قالت : « كان ذلك فى السابع عشر من أغسطس فأنا أعرف هذا اليوم كما أعرف يوم ميلاد عمتى ... كان هذا اليوم عيداً محلياً من أعياد المدينة ، وكانت عمتى (إيرين) تكره هذا اليوم لأن الناس يجتمعون فيه ويمتعون أنفسهم بما يشتهون من لهو ومرح . وكان المساء ساكناً جميلا ولذلك تناولنا عشاءنا على سطح البيت كما هى عادتنا في ليالي الصيف الجميلة الصافية

« وأثار الدفء الدم فى عروقى ؛ فجلست — بعد أن فرغت من عشائى — على السور الحجرى ،

وكان ما يزال دافئاً من تأثير حرارة الشمس وشغلت نفسى فى حياكة بعض الملابس

« واختلطت أصوات المساء التى عهدناها فى المدينة بضوضاء مهرجان العيد وجلبته ، وكانت عمتى جالسة على مقربة منى تقصُّ علىَّ قصة طويلة كنت أعرفها بل أحفظها عن ظهر قلب ...

« وكنت أنظر إلى الطريق الذى كان قريباً من المنزل ، وقد غرست على جانبيه أشجار الحور التى كانت تضطرب وتهتز وإن لم تكن هناك رياح ، فرأيت فى الطريق فتى وفتاة ، وكانت الفتاة تحمل قبعتها فى يدها ، وكان الفتى يجر دراجة ، وقد وضع على عاتقها بطة فاز بها فى بعض الألعاب المقامة فى ساحة المهرجان ، وجلست الفتاة على الحشائش الخضراء التى على جانب الطريق لتخرج من حذائها حصاة قد دخلت فيه ، وأسند الرجل دراجته إلى شجرة . ثم جلس بعد ذلك بجانب الفتاة ....

« وراقبتهما ونظرى مصوب إليهما ما يتحرك عنهما ، بينما كانت عمتى مستمرة فى سرد قصتها التى لا تنتهى ؛ وكان من الواضح الجلىّ أن كل واحد منهما يحب الآخر حباً جماً ، فقد أسندت الفتاة رأسها إلى صدر الفتى . وعند ذلك لم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى أنى قد بلغت من العمر اثنتين وثلاثين سنة ، وأنى مع ذلك لم أعرف الحب ولم أتذوّق طعمه وأنى ... وأنى ...

***

« وفجأة صاحت عمتى : « هل أنت مصغية يا (أوجينى) لما أقول ؟ ! » . فأجبتها : « نعم يا عمتى ! » دون أن أنظر حولي فما كان في استطاعتى أن أحول بصرى عن الحبيبين ، وإن كنت كأنى أراهما من خلال سحابة ... وأسر الرجل إلى الفتاة بشىء فى أذنهـا فضحكت مسرورة فى جذل ! فتذكرت مرة أخرى أنى ما عرفت الحب طوال عمرى ، وأنى لست فى الحقيقة غير عانس قد ذوى عودها ولم تتزوج ... !

« وبقيت ناظرة إلى الحبيبين . وفجأة بدأت البطة التى ربطها الرجل إلى عاتق الدراجة تصيح وتبحّ فصاح بها الرجل : « أخزاك الله ! » ثم رماها بقبعته . ولكنها بَحّت وصاحت مرة أخرى ثم سكتت بعد ذلك

« واقترب الفتى من الفتاة فحدقت فيهما ؛ ولكنى كنت كأنما أراهما من خلال ضباب !! »

« الحب ...! إيه أيها الحب ... لقد رأيتهما من المكان الذى جلست عليه فوق السور الحجرى وعيناها نصف مغلقتين ، فقلت لنفسى : إننى سأظل هكذا لا ينظر إلىّ أحد ولن يحبنى أحد . وكان الرجل قد طوق بيده خصر الفتاة ... وخيل إلىَّ أنه إنما يطوق خصرى أنا بيده ... ؛ ثم ... ثم صاحت عمتى : «ياأوجينى ! ألم يصبح الجو بارداً ؟» ولكنى لم أجب فما كان فى استطاعتى أن أجيب !

« وبعد ذلك ... بعد ذلك أمال الرجل وجه الفتاة إليه كأنما يريد أن يقبِّلها ، فحاولت الفتاة أن تمنعه ؛ ولكنى أدركت أن ذلك لم يكن غير تصنع منها كما كنت أنا لأبُدَّ فاعلة تماماً لو ... لو أراد الرجل الذى أحبه أن يقبلنى !!

« وصاحت عمتى : « يا أوجين ! إبحثى عن وشاحى »

« آه ! القُبلة ..! القُبلة التى لم أعرفها ولم أتذوقها بعد ! وأغلقتُ عينىّ حتى لا أرى أكثر مما رأيت وحتى أحلم بالقبل والحب — القبل والحب الذى ماعرفته طوال حياتى والذى لا يمكن أن أناله الآن ...

« وصرخت عمتى بحدة : « يا أوجينى ! ... أوجينى » ، ولم أستطع أن أجيبها . وفجأة كرهت هذه المرأة العجوز التى خدعتنى وأبعدتنى عن كل ما يمكن أن أناله من سعادة الحياة ...

« وبعد ذلك ... بعد ذلك نادتنى مرة أخرى؛ ولكن أنا — أنا قد صرت فجأة لأول مرة فى سبعة عشر عاماً — ثائرة حانقة لا أستطيع الصبر.. فقلت لعمتى بالرغم منى فى سآمة وضجر : « أوه ! أخزاك الله ! » .. ثلاث كلمات فى لحظة طارئة من لحظات اليأس والسأم ! ولكنها كانت أكثر مما كان يكفى لأن أخسر بسببه ميراثى الذى استبعدت من أجله وخدمت للحصول عليه ، وبهذا أضعت كل ما عملته فى سبعة عشر عاماً بطولها ...

« وسمعت عمتى تقول متعجبة : « أوه ! » . وعند ما أدرت وجهى ورأيت وجهها القاسى أدركت ... أدركت بين ظلام الشك ... أنها لن تعطينى بل لن تترك لي فلساً واحداً من مالها . »

وسكتت الآنسة « دي پارديلاك » وانحنت على رف بجوارها ثم حدقت فى الكومة التى أمامها من المفارش الكتانية . ومرت لحظة طويلة قبل أن تفتح شفتيها ثم قالت أخيراً : « إننى أعرف يا سيدى أنى قد صرت مثلاً فى هذه الناحية من فرنسا ؛ وما أستطيع أن أمنع نفسى من الابتسام عند ما أفكر فى هذا الأمر . فهم يقولون فى أمثالهم هنا : « إنها أعقل من تلك الفتاة « دى پارديلاك » التى فضلت الحب على أن ترث ثروة واسعة ! » وإني ... إنى ما أظن هذا إلا شيئاً طريفاً ، ولكن لا تنس أن الناس هنا كثيراً ما يبالغون ... !

« الحب ...! الحب ... ! أى نوع من أنواع الحب هذا الذى كان فى قلبي يا سيدى ؟ إنه خيال الحب ... ولكنه خيال ناقص النمو مجرد من كل شىء »

ثم ضحكت ضحكاً خيل إلىّ أنه يخرج من قلب قد قُدّ من صوّان صلد ، بينما كانت تنظر فيما حولها وهى تَعُد للمرة الثانية المفارش الكتانية

محمود السيد شعبان

قصة كمان

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف
بقلم الأديب السيد جورج سلستي

النهار ساكن مسجور ونسمات الأصيل منعشة محببة ، والشمس المتكئة على أريكة الأفق النارية تبعث بأشعتها المتألقة فاترة وسنى ، والموسيقار الكهل « سميتشكوف » يدلف على محاذاة الشاطىء اللازوردي وئيد الخطى ، وعلى ظهره المجهود من وقر السنين كمانه الضخم فى كنته [1] الحالية ؛ كمان قد يكون عبءاً على سواه إن راح يحمله ، أما هو فلا يشكو من حمله ولا يتبرّم لا لأنه مورد رزقه الأوحد فحسب ، بل لأنه حبيب إليه بعد أن نأى عنه خلصاؤه ومحبوه ، وسميره فى الليالى السود عند ما يبرّح به الهم وتجتاحه الذكريات الأليمة المرة ذكريات العهد السرىّ الغابر ، وذكريات اليوم البغيض الحاضر ؛ ذكريات الأمس البعيد أيام كان من صباه الأنيق فى نعيم تغمره شتى الهناءات ، وأيام كانت السعادة تظله بفيئها الوريف الفينان ؛ أما اليوم فقد انقلبت به الحال ، وبات نضوَ بؤس وأخا فاقة ؛ أناخ عليه الشقاء بكلكل موهٍ يصهر العافية ويذيب القوى ، وهجرته زوجته التي كان يحسبها فيما مضى أختَ الملائكة الأطهار وشقيقة الحور لما كانت تحبوه من عطف وتمنحه من حبّ ، فإذا بها لدى أول كارثة ألمت به من كوارث الدهر أول من تنكر له واجتواه ، وفرّت مع عشيق لها متخلية عنه أحوج ما يكون إلى عطفها وحبها وحنانها ؛ فنقم منذ ذلك الحين على الحياة وأضاع ثقته بالناس جميعاً ، وخلا إلى كمانه يبثه شكاة قلبه المعذب المفؤود ، ويندب على نغمات أوتاره أحلامه الذهبية التي صوّحها خريف العمر ، وطوّحت بها أيدى الحدثان ؛ ويحيا فى منزل وضيع منعزل عيشة الزاهدين المتقشفين لا يختلط

الكاتب الروسي الكبير أنطون تشيكوف

(١) الكنة بالكسر : البيت ووقاء كل شيء وستره

بالناس إلا مضطراً ، ولا يعاشرهم إلا مكرهاً عند ما يدعوه أحد النبلاء للعزف فى حفلة تقام أو فى مأدبة تودب ، وهو لو يستطيع اعتزلهم جميعاً وعاش فى صومعة كالنساك المتعبدين ، بعيداً عن التزلف والرياء والخيانة والغدر

وإنه الآن مدعوّ إلى قصر الأمير « بوبولوف » مع جوقة موسيقية فى السهرة الراقصة التى سيقيمها رب القصر احتفالا بعقد خطبة الأميرة ابنته . وهاهو ذا قد خرج من منزله ميمماً قصر الأمير مختاراً ضفة النهر المعشوشبة سبيلا ؛ إلا أن روعة الأصيل أخذته وصرفته عن نفسه ، وسحر الماء الهادىء المنساب بدعة وسكون فتنه ، وخريره الموزون المؤبد الترديد ملك عليه مشاعره ، وأحس وهو الكلف بالطبيعة ، الهائم بجمالها الساحر الأخاذ برغبة ملحة تدعوه للاستمتاع بالماء الفاتن ، وقد سكبت عليه ذكاء أشعتها العسجدية . وحدثته نفسه بالاستحمام ، فإن لديه من الوقت متسعاً يستطيع خلاله أن ينعم ما شاء وأن يتملى من متعة السباحة ما طاب له التملي ؛ وقرر تلبية نداء نفسه ، فما هي إلا هنيهة حتى كان قد نضا عنه ثيابه وتركها على الضفة فوق كمانه الضخم وألقى بنفسه فى الماء الرقراق وراح يتغلغل بين تضاعيف الثبَجَ السرىّ ، ويسبح هانئاً مسروراً كأنما ألقى عن صدره ما جثم عليه من همّ . وها هو ذا يغمره فيض الإحساس بالجمال الشعرى المونق فيبتسم بسمة الطفل الغرير .

— يا الله !

هتافٌ خفيض انفرجت عنه شفتاه بدهشة واستغراب لا حدّ لها . فقد أبصر على الضفة فتاة جالسة القرفصاء وبيدها قصبة ذات شصّ تصطاد بها صغار الأسماك ، فعرته لدى رؤيتها قشعريرة سرت فى أعضائه كلها سريان الكهرباء فى أسلاكها ؛ فقد كان يحسب نفسه بمنأى عن عيون الناس ومنجاة منهم فإذا به يرى فتاة ، إلا أنه ما لبث أن حمد الله لدن حدّق فيها وأدرك أنها غافية

واستولى عليه شعور لذيذ مبهم لم يدرك كنهه ولا معناه ؛ وأحسّ بنشوة علوية قرت لها نفسه ، واهتزت لها جوارحه

يا للمعنى الحريب !

لقد بدأ يحس حرارة الحرمان ، على طول العهد بعدم الإحساس بها ؛ ويشعر بفراغ روحى كبير وهو الذى كان يخيل إليه أنه لن يفتتن بعد بأنثى ؛ فقد أثارت هذه الغادة الغافية ما لم تثره فى نفسه غافية ولا مستيقظة !

وحدثته نفسه أن يوقظها إلا أنه عدل عن فكرته هذه خشية أن تروعها رؤيته ، ورؤيته على كل حال ليست بالتى ترضى !!

وتنهد من فؤاد ملتاع وتمتم :

— « لقد أوشك ميعاد ذهابى إلى قصر الأمير أن يحين فوداعاً أيتها المجهولة الرائعة الحسن » وراح يسبح بهدوء ، حتى إذا دنا من الضفة وألقى عليها نظرته الجامعة الأخيرة خطر له أن يترك لها ذكرى من مجهول ، ذكرى ممن رآها ولم تره ومن قد لا تراه ، وسرعان ما نفذ فكرته ، وجمع من زهر الحقل ونبات الماء ظاقة كبيرة علقها بالشص فراحت تطوف على سطح الماء يحملها التيار الجميل ؛ وصعد مرة أخرى على الضفة ليلبس ثيابه ويذهب إلى شأنه

ولكنه وقف على الضفة مأخوذ اللب مسلوب الفكر ، وسمّر فى مكانه والهاً مشدوهاً ثم دمدم سميتشكوف ووقف ذاهلاً بين الحيرة والحنق فإن ثيابه سرقت كلها ولم يترك له السارق إلا القبعة والكمان !

لم يكن فقدان ثيابه خسارة فى نظره على ما هو عليه من ضيق ذات اليد ، ولكن الأمر الهام لديه هو وجوده فى قصر الأمير فى الموعد المضروب

وجلس على كنّة كمانه يفكر فى وسيلة تخرجه من هذا المأزق الحرج الذى زجه فيه بعض الأشرار الملاعين !

وغمره يأس شديد وحزن ممض ، ومسه صداع أحس معه بتلاشى القوى وفقدان الحلم ؛ وظل على هذه الحال ردحاً من الوقت حتى أمده الله برحمته وألهمه أن يتخذ الجسر القريب ملجأ يختبئ تحته وراء العوسج والعليق ، حتى إذا ما أدركه الليل انسل تحت جناحه الدجوجى إلى أقرب بيت يراه واستنجد بساكنيه ليتداركوه بما يستتر به حتى يبلغ منزله

وبناء على هذا الخاطر وضع سميتشكوف قبعته الطويلة على رأسه وحمل كمانه على ظهره ومشي نحو الجسر المقصود ، وهو يجيل أنظاره هنا وهناك خوفاً من أن تقع عليه عين

والآن يا قارئى دعنا نترك صاحبنا مستسلماً إلى همّه لحظات قلائل ولنعد إلى غادة الشاطىء لنرى ما حل بها :

لما أفاقت من غفوتها كانت الشمس قد جنحت للمغيب ولم يبق لها لتتوارى وراء الشفق البعيد إلا مرحلة تقطعها بخطى المكدود الوانى ، فرأت أن الوقت قد حان لتعود إلى المنزل ، ونظرت فى الماء فلم تَرَ عوّامتها طافيةً على سطحه فسحبت القصبة فاذا بالخيط يمتد ، غير أن العوّامة لم تَبِنْ والشصّ لم يظهر له أثر ، فطاقة الزهر لما ثريت من الماء ثقلت فانحدرت بالشصّ إلى القاع

وخيل إليها أن الشصّ عالق بشىء ما فعليها إذن أن تغطس فى الماء لتخلصه

ورفعت عينيها الجميلتين إلى الأفق البعيد فرأت الشمس تلملم ذوائبها من رحاب الآفاق ، فعزّ عليها كثيراً أن يدركها المساء قبل أن تحصل على صنّارتها فما كان منها إلا أن نضت عنها ثيابها في مثل خطف البرق ، وغطست فى الماء حتى كتفيها العاجيتين وراحت تسعى لحلّ صنارتها من طاقة الزهر وتسريح الخيط المتعقّد

ووفقت إلى مبتغاها بعد لأى فخرجت من النهر سعيدة تتألق ملامحها بالسرور ، وتفيض عيناها بالبشر الوادع ، ولكن سرعان ما اضمحلت بسماتها وانماثت ، وتبدل بشرها بالجهامة والتقطيب

فلقد أبى سوء الطالع إلا أن ينكبها بما نكب به الموسيقار الكهل من قبلها فسرقت ثيابها ولم يترك لها السارق ما تأتزر به . فراحت تعول وتنتحب وتندب حظها المنكود

وأدركت أن البكاء لا يجديها فتيلا ، وأن من الواجب عليها أن تفكر فى أمرها لا أن ترتقب رحمة الأقدار وقالت فى نفسها :

« ليس لى إلا أن ألتجىء إلى هذا الجسر القريب

حتى إذا اشتد الظلام هرعتُ إلى بيت « أغافيا » القريب وأرسلتها لتأتيني بثياب من المنزل »

وهكذا انسلّت سريعة الخطى بين العشب الطويل حتى بلغت الجسر ، ولم تكد تخطو تحته خطوتين حتى لمحت رجلاً عارياً منتصباً أمامها كالمارد بصدره الأزبّ وذوائب شعره المدلاة على منكبيه تحت قبعته الطويلة السوداء ، فقفّ شعرها فرقاً منه وجزعاً وصرخت صرخة واحدة وارتمت على الأرض مغمًى عليها

ولم يكن « سميتشكوف » بأقلّ منها خوفاً وقد حسبها لأول وهلة جنيّة قذف بها القَدَر لتضليله وإغوائه

ثم قال لنفسه : أجل ! ولم لا تكون جنيةً هذه الساحرة التي هبطت عليّ عارية ؟ وإن لم تكن كذلك فما معنى ظهور فتاة لها هذا الجمال الفاتن والحسن الرائع على هذه الصورة المخجلة أمام الناس ؟ وكيف جاءت إلى هذا المكان دون سواه إن لم تكن موفدة لإغوائي ؟

وبينا كانت هذه الأفكار وأمثالها تصطرع في رأسه كانت الغادة الجميلة قد ثابت إلى رشدها وأفاقت من غيبوبتها فقالت له وهي ترتعد فرقاً :

— « لا تقتلني ! ارحمني بربّك وأشفق على صباي . أضرع إليك ألا تمسني بسوء ؛ أنا الأميرة جيولوف ياسيدي ؛ سيغدق أهلي عليك المال بلا حساب إن رأفت بي ؛ إن أولاد السوء قد اغتنموا فرصة غوصي في النهر واختلسوا ثيابي جميعاً »

فأحنى سميتشكوف هامته وراح يحدّق في الأرض ، وأدرك أن هذه التي حسبها جنيّةً لم تكن إلا فتاته الغافية التي وقف في النهر يتملّى من وضاءة حسنها ، فأفرخ روعه واطمأن باله ، ثم قال لها بلهجة كلها ضراعة وتوسل :

— « آه يا آنسة ، لقد رزئت بما رزئتُ به أنا من قبلك ، وألمّ بك ما ألمّ بي من خطب ، وإخال أن الذين سرقوا ثيابي هم أنفسهم الذين تطاولوا إلى سرقة ثيابك حتى أصبحنا في البلوى سواء . ورفع نظره إليها فرآها مطرقة حياءً منه وخجلاً فاستطرد قائلاً : « أرى يا آنسة أن وجودي أمامك على هذا الشكل المعيب قد حرمك متعة تسريح النظر ، وأن الأسباب ذاتها التي تحول دون ذهابك من هنا تحول بين الذهاب وبيني ، فهل تريدين أن أضعك في كِنّة الكمان فتنجي من رؤيتي وتحتجبي عن ناظري ؟ »

ومد يده قبل أن ينتظر جوابها وأخرج الآلة الموسيقية من مكمنها وتقدم منها ، وقد فتح فوهة الكنة بكلتا يديه ، فانزلجت فيها وهي متجمعة على نفسها ، ثم راح يربط الفوهة والبسمة العريضة على ثغره ، لأن الله — على حسبانه — قد حباه هذا العقل الراجح الذي أنقذه من ورطة ما كان لينجو منها لولاه ! ثم قال سميتشكوف : « الآن يا آنستي لتقر عيناك ولتطمئن نفسك ، فسأحملك عند ما يجن الليل إلى أهلك ثم أعود إلى هنا فآخذ كماني ! »

وعند ما مد الظلام رواقه على الكائنات كان الموسيقار الكهل يدلف نحو قصر الأمير وعلى ظهره حمله المحبوب ، ولم ينس أن عليه أن يتجه أولا إلى أقرب بيت ليستعير من ساكنيه ثياباً يرتديها ثم يمشي لطيته

وهكذا راح يسير في الاتجاه الذي رغب فيه متئد الخطى يستعيد في ذاكرته ذكريات المساء

فيعبس تارة ويبتسم أخرى ، فما يشك رائيه — لو قيض لأحد أن يراه حينذاك — فى أنه مخبول !

وقد يكون الخبـال مسه فعلاً فإن ما وقع له لفوق مايستطيع أن يحتمل عقله المضطرب الضعيف . وأقول عقله الضعيف وأنا واثق مما أقول ، فان زوجته التى لازمته زمناً طويلاً وبلَتْ فيه أخلاقه وخبرت طباعه لم تهجره عن عبث ، ولم تتخل عنه طمعاً فى المال الوافر والشباب الريان كما يدعى

ولقد كان مغتبطاً بحمله مسروراً ؛ وإنها لنعمى أن يحمل كهل مهجور أميرة عذراء فاتنة المحاسن !! وكانت الأحلام تهدهده على ما كان فيه من حال زرية وعري معيب ، ويأمل أن يرفعه آل بوبولوف من حضيض الضعة والمهانة إلى أوج العز والنعيم لهذه اليد البيضاء التى يسديها إلى وحيدتهم وأحب الناس إليهم ، وقد تمتمت شفتاه وهو يكاد يرزح تحت عبئه الحبيب :

« سبحانك اللهم ! ما ضربت بيسارك إلا تلقيت بيمينك ! »

ولاح له عن بعد شبحان خُـيّلا إليه فى البدء وهمين من أوهام النظر الخاطئ والفكر الشريد ؛ إلا أنه لم يلبث أن تثبَّت من حقيقتهما لدن أنعم فيهما النظر ، ورأى أن كلا منهما متأبط رزمة ما شك فى أنهـا الثياب المسروقة ، فوضع للتوّ حمله عن منكبه برفق وصرخ بملء فيه :

— « مكانكما ! »

وركض وراءهما بكل ما تسعفه قواه ، ولـكنهما أطلقا سيقانهما للريح لما رأيا من يلحق بهما ، فراحا وهيهات أن يدركا

أما الأميرة البائسة فقد ظلت فى كنة الـكمان دون حراك تنتابها شتى الآلام النفسانية اللاعجة ؛ ولقد سمعت نداء الموسيقار ووقع قدميه الثقيلتين حين هرول راكضاً ، فلعنت فى سرها الساعة التى أتت فيها لصيد السمك ، والوقت الذى أذعنت فيه لرأى ذلك المخبول ، ورضيت أن تودع فى هذا الوقاء الذى كادت تختنق فيه ؛ فكانت تحصى الدقائق آملة أن تصل إلى القصر بين كل لحظة وأخرى فإذا بحاملها الأحمق يلقى بها على قارعة الطريق دون أن يفكر فيها

ولقد حدثتها نفسها بتمزيق الوقاء بأسنانها والخروج منه إلى الهواء الطلق تملأ منه رئتيها ، وتتلفع بعد ذلك بقطع الوقاء وتسرع إلى قصرها ، وكادت تهم بذلك فعلاً لولا أنها سمعت لغطاً فقبعت فى مكانها واستكانت

وكان القادمون رفاق سميتشكوف وهم فى طريقهم إلى قصر الأمير . فلما أبصروا الـكنة فى سبيلهم وقفوا حيالها حائرين دهشين

قال أحدهم : « كمان يا رفاق » ولـكنه آلة زميلنا سميتشكوف ، فماذا جرى له يا ترى حتى تركها هنا ... ؟

— ربما كان المسكين نشوان لعبت بلبه سورة الخمر فرمى بها على قارعة الطريق من غير أن يعى !

— فلنحملها معنا إذن ولنسد إليه جميلاً . قال الثالث هـذا وتقدم من الـكنّة فحملها على ظهره وتابعوا سراهم ؛ وإن هى إلا بضع خطوات مشوها حتى بدأ حاملها يتبرم بها ويشكو من ثقلها :

— « يا للشيطان اللعين ! »

— « ماذا ألمّ بك ؟ »

— « إنهـا ثقيلة فوق ما تتخيلون ، فوالله ، لو كنت إياه لأبيت أن أعزف على هذه الآلة الضخمة

فإن حملها وحده لا يعادله أجر ولا بدل »

— « إنه السعى وراء الرزق يا صاح ، يرغم المرء على احتمال المكاره »

— « إني لأوثر الانتحار على اكتساب القوت عن سبيل هذا (الكمان) الثقيل الفادح »

وما زال هذا يتذمر وذاك يرفه عنه بالحديث ، وذلك يهوّن الأمر عليه حتى بلغوا القصر ، فوضعوا (الكمان) على منبر الموسيقى فى محله المعهود ، ودخلوا قاعة الطعام ، فإذا بالثريات تتلألأ مصابيحها وتتألق أنوارها ، وإذا بالمائدة قد صفت عليها كؤوس الشراب ، وآنية الطعام ، وطاقات الزهر ؛ وإذا فى صحن الصالة خاطب الأميرة ، وهو مستشار فى المحكمة العليا وأحد أركان غرفة المواصلات فى الدولة ، يزجى وقته بالتحدث إلى الكونت «شكاليكوف» عن الفن الموسيقى الجميل ويقول :

— « لقد عرفت بنفسى فى مدينة نابولى يا حضرة الكونت عازفاً على الكمان الكبير كان يُبده سامعيه بأنغام هى السحر ، وكان يأتى بالمعجزات حقاً فى توقيعه الجميل وعزفه الغريد

وقد كان بكمانه الكبير الضخم يكرر لحنين معاً بسرعة مدهشة تأخذ بمجامع القلوب ، ولقد عزف عليه حتى الـ « فالس ستروس » وحمل سامعيه إلى الملأ الأعلى ، وأسكرهم جميعاً وترنحت منهم الأعطاف كالشاربين الثملين

قال الكونت : « حسبك وإنى لأستميحك عذراً إن أنا هزئت بقولك ، فإنه ليفوق حد التصديق ! »

— « أنا لا أغالى فى القول ، وليس من شأنى الهزل فى موضع الجد يا حضرة الكونت ؛ وإنى لأؤكد لك أن ذلك الموسيقار المغنى قد لعب أمامى على كمانه نخبة من أناشيد «ليست» طربت لها كثيراً حتى أننى رغبت إليه لفرط إعجابي بها أن يلقننى أنشودة منها ففعل ، وأنا الآن أجيد عزفها بعض الإجادة »

— هيه ! نخبة من أناشيد « ليست » . إنك تمزح فى قولك الآن وتهزل من غير ريب

— لا وربك . ثم قال المستشار بلهجة ملؤها الحزم والجد : تعال معى أبرهن لك على صدق ما أقول . هلمّ بنا إلى منبر الموسيقى لترى بعينيك وتسمع بأذنيك . إنى لأعجب كثيراً لهذه المكابرة تبدو منك يا حضرة الكونت . ومشيا معاً إلى المنبر حتى إذا بلغاه راحا يفكان رباط وقاء الكمان ... و ... آه ! ... يا للكمان الحى !!

***

ليطلق القارىء الكريم لخياله العنان هنا ، فانى أترك له أمر الحكم على مآل الحوار الموسيقى بين النبيلين ، وأدع له أمر البتّ فيه بعد هذه المفاجأة اللذيذة العذبة ! ولنعد إلى سميتشكوف :

فقد ظلّ المسكين يعدو وراء السارقين حتى وهنت قواه وكلت رجلاه . ولما أيقن أنه لن يستطيع إدراكهما عاد يلهث من الإعياء إلى حيث ترك وديعته الغالية .

ولشد ما التاع إذ لم يجد لها أثراً ولشدّ ما اغتم واكتأب إذ راح يفكر فى طالعه المنكود وجدّه العاثر ؛ أتغرّ زوجته مع عشيقها على مرأى منه

ومسمع ، ولا يثأر لنفسه المكلومة ، ولا لكرامته المثلومة ؟ أتسرق ثيابه ويرى سارقيها ، ولا يستطيع أن يقبض عليهم لتقتصّ العدالة منهم ؟ أتكون الأميرة الفاتنة فى كنة كانه ، ويحملها على ظهره المتعب المكدود ، ويمشى بها على الجادّة عارى الجسم ويتركها تفلت من يديه دون أن ينال رضاها ويكتسب ودّها ، ويفقد ما أمّل نيله على يديها من مال هو فى أشد الحاجة إليه فى أيامه السود ؟ !

ومشى يحدّق فى جوانب الطريق بعينين زائغتين ، وتقدم إلى الأمام مسافة طويلة وهو يعلم حق العلم أن قدميه لم تطآها منذ أمد بعيد . وعاد القهقرى حتى تجاوز كلّ مدى خُيّل إليه أنها قد تكون فيه ، ثم رجع إلى الجسر منهوك القوى يفتش هنا وهناك عن ضالته ... ولكن من غير جدوى

وانتصف الليل !

ووقف تحت الجسر وقد أسند رأسه إلى جداره وغرق من أفكاره القاتمة فى لجة بعيدة الغور !

وخدرت أعصابه حتى لم يعد يشعر بالوجود ولا يحس بالحياة . وجمد بصره كمن طرأ عليه بغتة طارئ روعه ، ولم يلبث أن نزع قبعته الطويلة السوداء عن رأسه بحركة عصبية ، وأمسك شعره بكلتا يديه وجعل يشده كمن أصيب فى عقله بمسّ ؛ ثم بدأ يلكض [1] صدغيه بكل ما أوتى من قوى وانفجر بعد ذلك كالطفل الرضيع يبكى بكاء مرًّا ويقول بصوت خنقه النشيج :

« يالى من مخبول ! أأتحسر على ثيابى التى فقدتها أم على المال الذى كنت آمل أن أحصل عليه وأنا مجرم أثيم ؟ ؟

أجل إننى لمجرم قاتل . فالأميرة قد اختنقت ، ما فى ذلك ريب فى ذلك الوقاء الصفيق اللعين . لقد قتلتها بيدى فالويل لى ! »

وصمت لحظة تمثلت له فيها جثة الأميرة الملائكية الحسن ملقاة حيال الطريق تنوشها عقبان الجو ، وتتخاطف لحمها كواسر الوحش ، فشق ذلك عليه واربدّ محياه ، وانتفخت أوداجه ثم ضرب برأسه الجدار مرتين أو ثلاثا ، وقهقه بملء فيه قهقهة صدعت بأصدائها هدأة الليل الساجى !

وكأنما أفاق بعد برهة من سورته فرمق السماء بنظرات شزراء وقال يحدث نفسه : « سأراها ، سأبحث عنها فى كل زاوية وفى كل شارع حتى أجدها »

وخرج من تحت الجسر وراح يبحث عنها فى كل مكان ولكن من دون طائل ، حتى إذا أوشك الفجر أن ينبلج عاد إلى مكمنه بين العليق والعوسج مرتهك المفاصل مضعضع العزم وارتمى على الأرض وهو يقول :

— « سأغادر مكانى هذا بعد المساء المقبل وسأبحث عنها الليل بطوله ، وإن لم أعثر عليها أعدت الكرة فى المساء الذى يليه إلى أن أوفق إلى مبتغاى »

وحتى الآن يتحدث الفلاحون المقيمون فى تلك الأنحاء عن رجل عار يجلل الشعر جسمه كله مقيم تحت الجسر الصغير ، وكثيراً ما يسمعه عابرو السبيل معولا يتحسر على عزيز مفقود !

جورج سلستى

---

(١) يضربه بجمع الكف

الأغلال

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور الهندي
بقلم الأديب شكري محمد عياد

« سرقة من خزانة الملك ! »

ذهبت هذه الصيحة تطوى المدينة طيا ؛ لا بد أن يقبض على السارق حتى لا يصيب قائد الحرس أذى

وكان ڤاجارسن قد هبط إلى الثغر غريباً عن أهله ليبيع جياداً فى المدينة ؛ فسطت عليه عصبة من اللصوص سلبته كل ما كسب ، وألجأته إلى أطلال معبد مهدم خارج أسوار البلدة . فألقوا عليه التهمة ، واقتادوه مغللا إلى السجن مجتازين به شوارع المدينة

وكانت « شياما » المتجبرة ذات الجمال الفتان جالسة فى شرفتها تطل فى تراخ على الجمع المار . فإذا هي ترتعد فجأة وتصيح بوصيفتها : « وا أسفا ! من ذلك الشاب ذو الوجه النبيل والجمال النورانى ؟ ذلك الذى يرسف فى الأغلال كأنه لص ؟ سلي رئيس الجند باسمى يأت به إلىّ »

وجاء رئيس الحراس بالسجين وقال لشياما :

«ليس فى الوقت متسع لاجابتك — ياسيدتى — إلى ما ترغبين ؛ فعلىّ أن أهرع إلى الملك إطاعة لأمره »

ورفع « ڤاجارسن » — سريعاً — رأسه ، وصاح :

« من أغراك يا امرأة بأن تأتى بى من الطريق لتسخرى منى بفضولك العجيب ؟

فقالت شياما :

« أسخر منك ؟! لحبيبٌ إلىّ أن أنزع حُلىَّ فأضع مكانها أغلالك ! »

ثم التفتت لرئيس الجند وقالت :

« إليك كل ما ملكت يميني وأطلقه حرا »

فانحنى الرجل وقال :

« ليس الأمر فى وسعي ؛ لابد من ضحية نطفئ بها غضب الملك »

فتوسلت إليه شياما قائلة :

« إننى لا أطلب للسجين غير مهلة يومين »

فابتسم رئيس الجند ووافق

وفي نهاية الليلة الثانيـة من اعتقال ڤاجارسن قرأ السجين صلواته ، وجلس اللحظة الأخيرة يكتب وإذا بالبـاب يفتح وبالمرأة تدخل حاملة فى يدها مصباحاً . ثم أشارت فحل الحارس وثاق السجين ، فقال الشاب :

« لقد جئتِ إلىّ بهذا المصباح — أيتها المرأة الرحيمة — كما يطلع الفجر بنجمة الصبح بعد ليلة حمى وهذيان »

وصاحت شياما :

« رحيمة حقا ! » وانفجرت ضاحكة حتى سالت من عينيها الدموع ، وصرخت قائلة :

« ليس بين أحجار هذا السجن ما هو أصلب من قلب هـذه المرأة وأقسى . » وأمسكت بيد

السجين فاقتادته خارج الأبواب

* * *

أشرقت الشمس على ضفاف الفارونا ، وكان زورق على المرسى ، قالت شياما :

« تعال معى فى هذا الزورق أيها الشاب النازح ، وحسبك أن تعلم أنى قطَّعت كل أغلالك ، وأنى معك فى هذا القارب »

وانزلق القارب فى هينة ولين ، وغردت الطيور فى مرح وحبور ، وقال ڤاجارسن :

« خبرينى يا غرامى ! بأى ثروة اشتريت حريتى ؟ » فقالت شياما :

« هيه ! ... ليس الآن ... »

* * *

تكبدت الشمس السماء ، وعادت نساء القرية إلى دورهن وثيابهن تنز بعد الاستحمام ، وجرارهن ممتلئة بالماء ؛ وانفضت السوق فالتمع فى الشمس طريق القرية الخالى ...

وهبت نفحات الظهر الدافئة فأزاحت النصيف عن وجه شياما ، فهمس ڤاجارسن فى أذنيها :

« لقد أخرجتنى من غل يزول إلى غل يدوم مدى الحياة . ذرينى أعرف كيف فعلت ! »

فأسبلت المرأة النصيف على وجهها وقالت :

« ليس الآن يا حبيبى ... »

* * *

وأغطش الليل ، وراح النسيم الوانى ، والتمع الهلال العليل على حواشى الماء ذى السواد الحديدى

وجلست شياما فى الظلام ، وأراحت يدها على كتف الشاب ، ونام شعرها بين ذراعيه وهمست فى خفوت :

« لقد أتيت من أجلك أيها الحبيب أمراً إدًّا ؛ بيد أن إخبارك به أشد وأقسى . لأكشفنه لك فى كلمات قصار : لقد حمل عنك أغلالك يوتيجا ، وهو فتى شفه الحب وأضناه الهوى ؛ وادّعى الجريمة وأهدى إلىّ حياته ... فى سبيل حبك اقترفت أعظم ما اجترمت يا أعز حبيب ! »

كانت تتكلم والهلال الشاحب يضوى ويزول ، والطيور تأوى إلى أوكارها فتسلم الغابة لسكون عميق

وانسل ذراع الشاب فى هدوء من حول خصر المرأة وتَصَلَّد الصمت من حولها واستحجر فى الآذان ...

وجثت المرأة فجأة عند أقدامه ، وتعلقت بركبتيه صائحة :

« غفرانك أيها الحبيب غفرانك ! دع العقاب لله هو يجزينى على ما قدمت يداى ! »

وانتزع ڤاجارسن ساقيه بعيداً ، وصاح فى صوت أبح : « تشرين حياتى بثمن الخطيئة ! لعنة الله على كل نَفَس من أنفاس حياتى ! »

وهب واقفاً ، وقفز إلى الشطّ من القارب ، وانماث فى ظلام الغابة ، وظل يسير ويسير حتى انقطع به الطريق ، واستوقفته الأدغال المتكاثفة والأشجار الملتفة

وجلس على الأرض متعباً ... ولكن من هذا الذى تبعه فى صمت طوال الطريق المظلم ، والذى يقف الآن كالشبح وراءه ؟

وصاح ڤاجارسن : « هلا تركتنى ! »

وهوت عليه المرأة فى لحظة ، وأغرقته بدلها ، وغطته بشعرها المتهدل ، وأثوابها الجرارة ، وأنفاسها المترددة ، وصاحت فى صوت خنقته العبرات المحتبسة :

« لا . لا . لقد اجترمت لأجلك فاقتلني إذا شئت ؛ دعني أموت بيديك ! »

وارتعش ظلام الغابة الراسخ لحظة ، وسرى الرعب فى جذور الأشجار المتغلغلة فى جوف الأرض وارتفعت تحت جناح الليل آهة مكتومة ، وأنفاس مضطرمة ، وسقط على الأوراق الذاوية جسد

***

توهجت شمس الصباح على مسلة المعبد البعيد ، وبرز ڤاجارسن من الغاب ، وظل النهار بطوله يهيم بجوار النهر صالياً بحرارة الشمس لا يفتر لحظة

وفى الليـل ارتد إلى القارب على غير هدى ، فوجد على الفراش سواراً ، فقبض عليه وضمه إلى قلبه حتى أدماه ، وانبطح على الوشاح الأزرق المتكوّم فى الزاوية فأخفى وجهه بين طياته ؛ وأراد أن يجْـترَّ من نعومة حريره ، وشذا عبيره ذكرى جسد حى حبيب...

وترنح الليل فى صمت ثقيل راجف ، واختفى القمر وراء الأشجار ، ووقف ڤاجارسن ماداً ذراعيه إلى الغاب منادياً :

« تعالى إلىّ ياغرامى ! تعالي إلىّ ! »

وانبعث من الظـلام فجأة شبح وقف على شفير المـاء . « تعالي إلىّ ياغرامى ! تعالى إلىّ ! »

« لقد جئت ياحبيبي ، ولم تستطع يداك العزيزتان إزهاق روحى ، فقد قُدّر على أن أعيش »

وجاءت شياما ... ووقفت بازاء الشاب فنظر فى وجهها ، وتقدم خطوة ليضمها بين ذراعيه . ثم قذفها بكلتا يديه وصاح

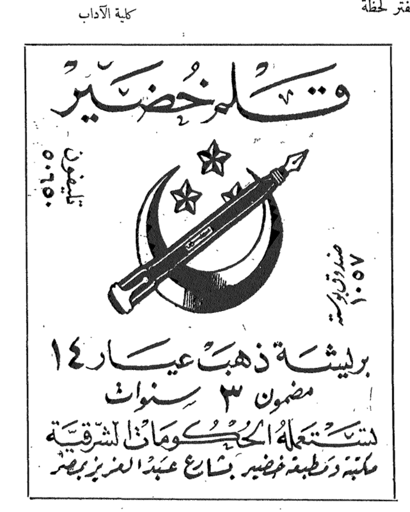
« لماذا ؟ آه ! لماذا عدت ؟ »

وأغمض عينيه ، وأشاح بوجهه ، وقال

« اذهبى ... اذهبى ... دعينى »

ووقفت المرأة لحظة ، ثم ركعت عنـد قدميه وانحنت كثيراً . وهبت فيممت نحو الشط وغابت فى ظلام الغاب كحلم انبعث من نوم . وجلس ڤاجارسن فى القارب صامتاً وحده ، وقلبه يدمى

ترجمة شكرى محمد عياد
كلية الآداب



بقية حية

للكاتب الروسي تورجنيف

بقلم الأستاذ خليل هنداوى

« كان تورجنيف خلال صيد يفتش عن ملجأ من المطر في مزرعة لأمه . فهبط كوخاً مهجوراً ووجد خصاً في زاوية من زواياه سرير خشبي يرقد عليه شكل إنساني صغير »

دنوت ولكن الدهشة سمرتنى فى مكانى . إن إزائى كائناً حياً ، ولكن ما هو هذا الكائن ؟

وجه غاض منه ماء الحياة ، وغشيه لون برنزى كأنما يرى فيه الناظر صورة قديسة قديمة ، وأنف دق مارنه حتى أشبه حد المدية ، وشفتان دقيقتان نحيفتان لاتكادان تحسان ، وعينان لامعتان ، وأسنان بيضاء ، وبعض غدائر شقراء ناست تحت النقاب ، وفى أطواء الفضاء تتحرك ببطء أصابع يدين ، ووجه لا يسمه القبح ، وإنما هو جميل ، ولكنه غريب مؤثر ، ولكنى لمحت أشد ما أثر فى نفسى ما لمحته على الخدين المتصلبين صورة ابتسامة تجهد ذاتها باطلا لتظهر

— ألا تعرفنى يا سيدى ؟

تردد ذلك الصوت الذى راح يردده هذا الكائن كنفخة ، تحركت به شفتان بعناء

— إننى (لوكريا) هل تذكرنى ؟ هذه أنا التى كنت أرسل الأغاني وأثير الضحكات عند أمك !

— أأنت « لوكريا » أنت ؟ هذا مستحيل

— أنا هى بذاتها

وما كان لى إلا القول والنظر كالمجذوب فى هذا الوجه الأربد .

وفى هاتين العينين اللامعتين الشاخصتين فىّ بدون حياة

أهذه المومياء هى (لوكريا) أجمل وأبهى إمائنا ، من كانت بضة الأهاب وردية اللون ترقص وتضحك وتمرح وتغنى؟ لوكريا ... الرقيقة التى فتنت رفاقها ، ومن كنت أبسم لها خفية حينما كنت فى السادسة عشرة

— آه يا لوكريا ماذا أصابك ؟

— إنها حادثة مروعة ، ولكن لا تخش ياسيدى ، ولا تعرك السآمة من حالى . اجلس منى قريباً على هذه الخابية لأنك لاتستطيع الإصغاء إلىّ بعيداً . أى صوت لى الآن ؟ إننى جد مسرورة برؤيتك ...

(وهنا تقص عليه لوكريا قصتها ، وأنها فى ساعة عرسها سقطت عن السلم وعراها هذا الشلل الذى عطل حركتها . وقد جربوا باطلا أن يجدوا لها الدواء . وأخيراً قادوها إلى هذه المزرعة عند أقارب لها)

— وهل تظلين مضطجعة هكذا دائماً ؟

— نعم ! وقد غبر علىّ سبعة أعوام ، فى الصيف أمكث فى هذا الخص الصغير ، وفى الشتاء يحملوننى إلى مدخل هناك

— ومن عسى يعنى بك ويقوم بحاجاتك ؟

— إني وجدت هنا رجالاً كرماء لا يتركوننى ولكن فى الغالب لا أحتاج إلى شىء . كدت أستغنى

عن الطعام والشراب ، وترانى أكثر الأوقات مطروحة جانب هذا الينبوع البارد ، وأستطيع أن أبلغ مقرى وحدى ، إذ لاتزال إحدى يدى سليمة . وهنالك فتاة صغيرة يتيمة ترافقني كثيراً فليجزها الله عنى ! كانت هنا قبل لحظة ، ألم تلاقها فى طريقك ؟ إنها غادة شقراء تحمل إلى أزهاراً طالما أحبها . كان عندنا من الروضة أزهار ولكنها ذوت . أما أزهار الحقول فهى جميلة أيضاً وشذاها أضوع ! ماذا تريد خيراً من ذلك ؟

— ولكن الحياة ؛ ألا تجدينها كئيبة ثقيلة عليك يا لوكريا البائسة ؟

— ما العمل ؟ لا أقدر أن أكذب . كانت أيام مصابى الأولى أياماً ثقيلة قاسية ، ثم ما لبثت أن تعودت ، وللانسان من دهره ما تعود ، وصبرت وذكرت أن آخرين — هنالك — قد يكونون أحق بالشكوى منى ...

— وكيف ذلك ؟

— هم من لا مأوى لهم مثلا ، والعميان والصم ! أما أنا — فشكراً لله — أبصر وأرى ، وأسمع ما خفت من الأصوات . ليشق خلد منفذاً فى الأرض فانى أسمعه ، وأتروح كل العطور حتى الضئيل منها . لتزهر زهرة فى الحقول أو زيفونة فى البستان دون أن أخبر بذلك ، فاذا ذهبت عليها الريح أكون أول كائن يحس ما تنطوى عليه هذه الريح ! لا لا ... ولماذا ألعن حظى ؟ فهنالك آخرون حظهم أقسى ، وكذلك الأشخاص المعافون تدفع بهم ميولهم كثيراً إلى عمل الشر . أما أنا فالخطيئة تركتنى

— وهل أنت وحيدة ، وحيدة دائماً يا لوكريا ؟

كيف تعملين حتى تبرح الأفكار نفسك ؟ وعلى الأقل ألا تنامين كل الوقت ؟

— لا ياسيدى ! لا أستطيع أن أنام . حيناً أريد وبدون أن أحس الآلام الكبيرة أجد فى أعماق نفسى آلاماً صماء تتمشى فى عظامى ، وهذا ما يحرمنى النوم . لا ... أظل على حالة واحدة هادئة دون تفكير . أحس أننى أحيا . إننى أتنفس ، وهذه كل حياتى . إننى أنظر وأسمع ... تدوى أسراب النحل وتسقط حمامة على السقف وتمشي ، ودجاجة تقاسم فراخها فتاتاً أو عصفورة أو فراشة تحوم . هذا يدخل السرور في نفسى ، ومن عامين طرق السنونو هذا المكان وبنى — هنا — عشاً . ما أجمل هذا !

وفى بعض خطراتى أردد صلوات ، ولكنى لا أعرف منها كثيراً ، ولكن لماذا أضجر الإله الصالح منى ؟ وما ذا أطلب إليه ؟ إنه يعلم حاجاتى أكثر مني . إنه أرسل إلىّ صليبه وهذه علامة محبته لى . أعرف صلاة (يا أبانا) وصلاة (السلام عليك يا مريم) ثم أرانى أحلم فى شىء ... وهكذا الزمن يمضى

(وهنا يعرض عليها (تورجنيف) أن يقتادها إلى مستشفى فى المدينة ولكنها ترجوه ألا يفعل)

— إننى أعرف ياسيدى أن فيما تعمله خيراً لى ، ولكن هل فى الإمكان مساعدة الآخرين ؟ هل يمكن قراءة ما في النفوس ؟ إنما يجب على الانسان أن يجد مساعدة فى نفسه . إنك لا تؤمن به . فى بعض خطراتي وأنا مضطجعة وحدى أحس أن لا أحد على الأرض غيرى ، وأن لا أحد لى سواى ، وأشعر بأن بركة تتنزل على ... تساورنى أفكار تبعث على الدهشة

— وأية أفكار تساورك يالوكريا ؟

— يستحيل الافضاء بها ياسيدى ! لأنها مما لا يمكن التعبير عنه . ثم أنساها . ثم ... يعرض لي ذلك كسحابة تمر فوقي . وعندها أحس نداوة تغمرنى . ماهذا ! لا أعلم منه شيئاً . ولكني أقول : لو كان واحد معي لا يجد له مكاناً . لا أحس شيئاً ولا شيء إلا رزيئتى

وهنا تنهدت لوكريا تنهداً شديداً ولكن صدرها لم يسعفها على التنهد أكثر من بقية أعضائها

— سيدى ! إننى هجت فيك حسن الشفقة كثيراً ، فلا تأسف عليّ كثيراً . أصغ إلى ما سأقوله لك ... إنك تعلم ، أو تذكر أننى كنت طلابة للمرح كثيراً في عهدى الأول . وتعلم كم كنت أغنى !

— وأنت تغنين أيضاً !

— نعم : أردد أغانيّ القديمة ، أنواعاً كثيرة من الأغانى ، أعرف منها كثيراً ولم أنسها . ولكن ألحان الرقص أصبحت لا أرددها لأن حالتى لا تساعدنى

— إنك تغنينها لنفسك بدون شك ؟

— لنفسى ... وأرددها عالياً ، قد لا أقدر أن أغنى عالياً جداً ، ولكن سامعها يفهمها . إننى حدثتك الآن عن غادة صغيرة تعودنى . لقد علمتها وأصبحت تعرف منها أربعا ، وعما قليل ترى

تنفست (لوكريا) والفكرة التى بدأت ترددها هذه الغادة الفانية عجزاً قد أيقظت فى نفسى هولاً لا قبل لى به . ولكنى قبل أن أنبس بكلمة تصاعدت رنة تتعالى بصعوبة لكنها صافية مستقيمة ملأت أذنى ، ثم رنة أخرى تلتها ثم أخرى ... ولوكريا لا تزال تردد ...

« فى هــذه المروج ، هذه المروج ، فى هذه المروج الجميــلة الخضراء » كانت تشدو دون أن تتبدل ملامح وجهها وعيناها لاتتحولان . ولــكنها كانت ترســل صوتها يرن مؤثراً ، هذا الصوت الضعيف الذي كان يجهد نفســه متصاعداً كأنه خيط دخان ، متدفقاً من كل نفسها . أصبحت لا أحس ذلك الرعب ، بل حل محــله شفقة عنيفة تضغط على قلبى

أنّت فجأة وقالت :

— لا أقدر ... إن قوتى تخونني ، إن فرحى كثير برؤيتك . وهنا أغمضت عينيها ، ولمست بيدى أصابعها الباردة فنظرت إلىّ نظرة خفية ، ثم رأيت حاجبيها الـكثيفين المنتهيين بخطوط ذهبية كخطوط الهياكل القديمة قد أغلقا

كنت بالقرب من الباب عند ما ذكرتنى ...

— هل تذكر ياسيدى (وقــد بدت ملامح غريبة على عينيها وشفتيها) هل تذكر جديلتى الصغيرة ؟ كانت تهوي حتى ركبتى . غبر على ذلك عهد طويل وأصبحت لا أجزم . كانت غدائر جميلة وأنى لى أن أعمل المشط فيها في هذه الحالة ؟ فاضطررت إلى قصها ... عفواً يا سيدى ... لا أستطيع !

مرت أسابيع معدودة علمت خلالها أن لوكريا غادرت هذا الــكون . وهنالك يقصون — أنها فى يوم موتها — كانت تسمع بدون انقطاع نواقيس تقرع . وكانت لوكريا تزعم أن هــذا اللحن الذى تسمعه لا يقبل من الــكنيسة ولــكنه من العالم الأعلى وكأنها لا تجرؤ على أن تقول : من السماء

خليل هنداوى


هذا هو "اسبرو"
يساعدك!
انه أقوى دواء
ظهر الى الآن
للقضاء على الألم
اسبرو
نحن في عالم سريع التغيير. لا شيء فيه ساكناً. حوادث جديدة وأراء جديدة
في كل وقت ودون انقطاع. وفي العالم الطبي حركة نشاط كبيرة. فالقوة الهائلة
الموجودة في قرص "اسبرو" اصبحت معروفة بصفة عامة. فهي تلطف الألم وتزيل شكايات الحمى والتعب
الناشئ من حرارة الجو. وتجلب النوم اللذيذ للمصابين بالأرق، ولذلك اقبل الناس أفواجاً على
مخازن الأدوية لشرائه. وهنالك شكايات كثيرة سببها واحد. فاسبرو يتغلب على هذا السبب ويزيل الشكايات
في الحال. ولهذا هو السبب فيما لاسبرو من القوة الهائلة على مغالبة الألم. لقد انقضت أيام استعمال الأدوية
الخطرة. فان نجاح اسبرو جاء كالبرق. فجميع الناس يستعملون الآن هذا القرص العجيب لأنه أسرع وأضمن
دواء للشكايات الناتجة من حرارة الجو" واسبرو مستعد لمساعدتك الآن" ولكن عليك
أن تتأكد من أنك تحصل على اسبرو فقد توجد أقراص
تشبه اسبرو في ظاهرها ولكن اعلم أن محتويات الأقراص الداخلية
هي التي تأتي بالشفاء.
'ASPRO'
REG. TRADE MARK
اسبرو مصنوع في انجلترا
يباع في جميع الاجزاخانات ومخازن الادوية
٢ قرصان ٥ مليمات
١٠ اقراص ٢½ قرشاً
٢٧ قرصا ٥ قروش
من حقك أن تحصل
على ما تطلبه - فلا
تأخذ غيره. الوكلاء ج. ب. شريدان وشركاه
25

من أعماق النفوس

اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل الخامس

إنها لقوة مروعة هذه القوة الكامنة فى الفكر الانسانى ! فهى السلاح الذى ندافع به والمعقل الذى نلجأ إليه ؛ إنها لأفضل ماوهب الله للانسان ، فهى تابعة لنا تأتمر بأمرنا ؛ تقذف بها إلى الآفاق ولكنها إذا ما تخطت حدود ذهننا ذهبت طليقة لا تملك لها زماماً

وكنت وأنا أرجىء الرحيل من يوم إلى يوم تبارحنى قواى ويهجرنى الوسن فتنسرب منى حياتى دون أن أشعر ؛ فاذا أنا جلست إلى المائدة كرهت طعامى ، وإذا أسدل الليل ستاره وانطرحت على فراشى تراءى لى حتى فى أحلامى وجهان شاحبان هما وجها سميث وبريجيت كأنهما يرقبانني كما أرقبهما من صباحى حتى مسائى

وكنت كلما ذهبا كل مساء إلى الملاهى أرفض مرافقتهما ثم أتبعهما إلى المسرح الذى قصداه فأقعد مختفياً بين النظارة لأراقبهما . وإذا ما جلسنا نتحدث فى غرفة ادعيت أن لى ما يشغلنى فى غرفة أخرى ، فأختفى ساعة أتجسس وأنصت إلى حديثهما .

ولكم خطر لى أن أوجد خلافاً بينى وبين سميث فأدعوه إلى المبارزة ، فكنت أدير له ظهرى وهو يوجه الخطاب إلى فأراه يتبعنى مندهشاً ويمد يده إلىّ ليصافحنى . ولكم قصدت أن أنهض من فراشى ليلا لأفتح أدراج مكتب بريجيت وأفحص أوراقها ، ولكننى قاومتُ هذه الفكرة حتى اضطررت مرة إلى مغادرة البيت كيلا أستضعف لها . وخطر لى يوماً أن أدخل عليهما وأنا شاهر خنجراً لأكرههما على الاقرار لى بسبب الحزن المستولى عليهما . وفى يوم آخر انقلب غضبى عليهما إلى عداء لنفسى . إننى أدوّن هذه الأحول بمداد الأسى والخجل . ولو أن أحد الناس انتصب أمامى ليسألنى عما يدفع بى إليها لكنت ولا ريب أصاب بالعي فلا أجد كلمة أبرر بها ما أفعل

لقد كنت موجهاً كل قواى إلى التجسس والارتياب فأخلق الاضطراب والشقاء لنفسى فأقضى أيامى فى إرهاف أذنى بالتسمع ، ولياليّ فى ذرف الدموع ، مردداً قولى إننى سأموت غماً وألماً ، مشدداً إيمانى بأن هنالك ما يستلزم هذا الفناء . وهكذا كنت أحس أن الضعف يجتثّ الأمل من قلبى . ويخيل إلىّ أننى أتجسس فى حين لم أكن أسمع فى الظلام سوى خفقان قلبى فلا انقطع عن ترديد هذه العبارات الفارغة التى يتلهى الناس بها فى كل مناسبة فأقول : إن الحياة حلم وكل شئ باطل زائل . وأتوصل أخيراً إلى سوء الظن بالله وأنا سائر على سبيل هوسي وآلامى

هذه هى الحياة التى كنت أستقطر منها لذتى وبمثل هذه المشاغل كنت أنقطع متخلياً عن الحب

حازماً نفسي نقي الهواء وصفاء السماء وسعادة الحرية

أجل إن الحرية الخالدة كانت تستهويني بالرغم مما وصلت إليه لأنها ما انقطعت عن مراودة تفكيري ، فكنت أشعر وأنا مستغرق في غرائب أطواري وجنوني بقوة تنبث في نفسي فتطلقها من أجواء سجنها ؛ تلك فترات كنت أتمتع بسكونها عند ما تنفحني نسمات من الهواء البليل ، أو عند ما أدع جانباً المؤلفات المشحونة بالنقد العنيف وبثورات الإلحاد التي تجتاح المجتمع لتمنيه بالعلل ، فأطالع سواها كمذكرات كونستان مثلاً . ولأوردنّ بضعة أسطر قرأتها من هذه المذكرات فأعادتني إلى حقيقة حياتي :

« أصيب سالسدورف الجراح الساكسوني التابع للبرنس كريستيان بشظايا قذيفة كسرت ساقه في معركة واغرام ، وكان منطرحاً على التراب وهو على آخر رمق ، فإذا به يرى «أميديه دكربورغ» مرافق أحد القواد يسقط مصاباً بقنبلة صدمت صدره فتغدق الدم من فمه . وتيقن أن هذا المصاب سيموت مفلوجاً إذا لم يبادر أحد لإسعافه ، فزحف مستجمعاً بقية قواه حتى وصل إلى المرافق الصريع وعالجه بفصد أنقذ حياته . وحمل الجراح بعد المعركة إلى فينا حيث قطعت رجله فلم يعش إلا أربعة أيام »

قرأت هذه السطور فسقط الكتاب من يدي وطفقت أبكي بدموع أعادت إليّ السكينة يوماً كاملا إذ تحولت عن كل هم وانقطعت إلى ذكر سالسدورف فما خطر لي أن أصوّب ريبتي إلى أحد

وما كانت تفيدني مثل هذه اللحظات سوى التفكير في زمن ساد الصلاح فيه عواطفي وحياتي فأبسط ذراعي نحو السماء أستعطفها في شقائي ، وأسائل نفسي عن هدفها في هذه الحياة مديراً لحاظي في الآفاق متوقعاً أن تقذف إليّ بقنبلة تضع حداً لأوهامي . غير أن هذه الحال لم تكن تنجلي أمامي إلا كلمعات بروق خاطفة في دياجير أيامي

ما أشبه الفكر عند ما يدور على نفسه بدرويش يطلب الاستغراق في نشوة دورانه فلا يلبث حتى ينهكه جهده فيقف مرتاعاً وما اكتشف في محاولته شيئاً ، إذ لا يقوده الانصباب على أغواره إلا إلى المهاوي حيث ينقطع الهواء كما ينقطع في الآبار السحيقة وعلى الذرى المحتكة بالسحاب ، فقد وضع الله حداً لكل مجال تحتم على الإنسان ألا يخترقه . وعند هذا الحد المنيع يتطرق الصقيع إلى القلب وتسوده غفلة يندفع فيها إلى اجتياز نطاقه طلباً للحياة حاسباً أنه ينشق الهواء وليس ما حوله إلا أثير أوهام تحتشد فيه جهوده المضيعة أشباحاً تدور به لتقضي عليه

ووهنت قواي في موقفي حتى غدوت لا أطيق الحياة في وساوسي وشكوكي فصممت على القيام بعمل أتوصل به إلى معرفة الحقيقة

استأجرت عربة وأمرت أن تكون معدة للسفر عند الساعة العاشرة ليلاً وأوصيت الخدم ألاّ يدعوا مدام بيارسون تشعر بالأمر

وجاء سميث وقت العشاء فجلسنا إلى المائدة وأنا أتكلف المرح وأقول لبريجيت : إنني لا أعارض في العدول عن السفر إذا كانت ترغب عنه ، لأنني أستحسن باريس ولا أجد بين المدن مدينة تفضلها في ملاهيها ومسراتها . وأعربت أخيراً عن ميلي إلى البقاء ما دام ليس هنالك ما يضطرنا إلى الرحيل

وكنت أتوقع أن تعلن بريجيت إصرارها على السفر إلى جنيف ، فما كذب ظني إذ أبدت رغبتها

فى ذلك ولكن بلهجة لا تنم عن عزم أكيد . فانتهزت الفرصة للنزول عند إرادتها وغيرت مجرى الحديث قاطعاً خط الرجعة على ما اعتبرته أمراً مقضياً. ثم عدت أقول : وهل هناك مايمنع مرافقة سميث لنا فى رحلتنا فإن بامكانه أن يحصل على إجازة ، وفضلاً عن ذلك فإن مهارته فى فنه وإن أنكرها هو تضمن له العيش حراً فى أى بلد نزل فيه . إن عربتنا تتسع له ؛ وليس من الخير لشاب فى سنه أن يمضى أيامه سجيناً . ووجهت الخطاب إلى بريجيت أطلب منها أن تبذل نفوذها لإقناع سميث بأن يضحى من أجلنا ستة أسابيع من وقته على أن يعود بعد هذه السياحة إلى مكتبه

وكانت تعلم أن هـذه الدعوة لم تكن إلا نوعاً من المزاح ولكنها لم تتردد فى ضم صوتها إلى صوتي . غير أن سميث تعلل بإمكان فقد وظيفته إذا هو تغيب عنها واعتذر إلينا متأسفاً

واستحضرت زجاجة من خير الشراب واستمررنا فى الحديث حتى انتشينا . وخرجت بعد العشاء لأتأكد من أن أوامرى قد نفذت ، ثم عدت مسروراً إذ رأيت كل شيء على ما يرام . وأبديت رغبتى فى عدم الذهاب إلى الملاهى وطلبت أن يعزف سميث لنا على قيثارته لنمضى السهرة سوية . فأخذ يوقع الأنغام وذهبت بريجيت تطلق صوتهـا بالإنشاد ، وجلست أنا أضرب على البيانو ، وقمنا بعد ذلك نحتسى « البونش » ونلعب بالورق وأنا معلق أنظارى على ساعة ، حتى إذا وصلت إلى العاشرة سادني ارتعاش تغلبت عليـه ، وقرقعت العجلات أمام الباب فقبضت على يد بريجيت وسألتها عما إذا كانت مستعدة للرحيل . فنظرت إلىّ مستغربة وقد حسبتني مازحاً فقلت لها : إن ما بدالى من إصرارها أثناء العشاء دفعنى إلى التعجيل ، وما خرجت بعد الطعام إلا لأطلب العربة . ودخل خادم المنزل يشعرنا بأن الحوائج قد رتبت وربطت وأن السائق فى انتظارنا

وقالت : أصحيح أنك تريد الرحيـل في هذا الليل ؟

فقلت : ولم لا ما دمنا متفقين على مغادرة هذه المدينة ؟

— وهل نسافر الآن فى هذه الساعة ؟

— أجل سنسافر . ألسنا على أهبة منذ شهر ؟ وما دمنا قررنا الأمر فالتعجيل خير من التسويف . أفما رأيت كيف تم كل شيء بسهولة ؟ ومن رأيي أن يقضي الانسان فى شؤونه على هـذه الطريقة فلا يدع لغده مايستطيع أن يفعله فى يومه . إذا كان يحلو لك السفر هذا المساء ، فلماذا لا أنتهز الفرصة للتخلص من التسويف وقد ثقلت هذه الحياة علىّ ؟ إذا كنت عازمة على الرحيل فلنرحل

وساد بيننا السكوت ، فتقدمت بريجيت إلى النافذة فإذا بالعربة أمامها تؤيد ما عزمت عليه . وما كان لها أن ترى في هـذا إلا تنفيذاً سريعاً لما شاءت هى ، فأصبحت تجاه أمر واقع لا تملك العدول عنه . وبعد أن تحققت أن كل شيء قد أعد سرحت نظرها فى جوانب المسكن وأخذت قبعتها ودثارها قائلة : هيا بنا . ولكنها وقفت مترددة وأخذت بيدها مصباحاً وذهبت تدور فى غرفتي وفى غرفتها فاتحة أدراجهما ثم سألتنى عن مفتاح مكتبها قائلة : إنه كان معها منذ ساعة وقد فقـد . وعادت تقول : هيا بنا إننى مستعدة ، وهى لا تملك نفسها من الارتعاش وجاءت فجلست حيث كنت جالساً وأنا أحدق

فى سميث الواقف أمامى وقد ملك نفسه ، فما نمَّ عن اضطرابه شيء سوى قطرتين من العرق تدحرجتا على فوديه . وكانت بين أنامله قطعة عاج من قطع اللعب انحطمت وتساقطت كسرها على الأرض .

ومدّ كلتا يديه إلينا ليصافحنا قائلاً : سفر سعيد يا صاحبىّ

وعدنا إلى الصمت وأنا أتوقع أن يضيف إلى توديعه كلمة واحدة ، وقد قلت فى نفسى إذا كان هنالك سر ففى أية مناسبة غير هـذه سأوفق الى اقتناصه ؟ إن فى مثل هذه الساعة تنعكس الأسرار على الشفاه ، وهأنذا أترصد خيالها

وقالت : فى أى بلد سنقيم يا عزيزى أكتاف ؟ وأنت يا هنرى ستكتب إلينا ؛ ولن تنسى أهلى فتسعى جهدك لديهم من أجلى

فقال بصوت طغى التأثر على هدوء نبراته : أعدك بألا أدخر جهداً فى هذا السبيل ، ولكن الرسائل التى تلقيتها لا تدع لى أملاً كبيراً ، فإذا ما حبطت مساعىّ فلا تتهمينى بالقصور . وعلى كل لا تتوقعى ورود أخبار تسرك فى القريب العاجل . ثق بيّ فإنى مخلص لك

وبعد أن وجه سميث إلينا بعض كلمات من قبيل المجاملة تحول نحو الباب فسبقته إليه وخرجت لأدع له مجالاً لخلوة أخيرة . ودفعت الباب ؛ ورأى كأننى أبتعد ، ثم عدت فألصقت أذنى بفتحة المزلاج

وحدق سميث فيها قائلاً : متى أراك ؟

فقالت : لن ترانى بعد . الوداع يا هنرى

ومدت إليه يدها فرفعها إلى شفتيه وخرج ، ولو لم أندفع بسرعة إلى الوراء لكان اصطدم بى

وعنـد ما خلوت ببريجيت وهى حاملة دثارها تنتظر إشارتى ـ وقد بدا التأثر بجلاء على ملامحها ـ شعرت بانقباض فى حشاشتى ؛ وكانت وجدت مفتاح مكتبتها إذ رأيت أدراجها مكشوفة فارتميت على المقعد قرب الموقد ، وقلت لها وأنا لا أجسر على التحديق فى عينيها :

— إصغى إلىَّ يا بريجيت . لقـد أسأت إليك كثيراً وقد حق علىَّ أن أتحمل آلامى فلا أشكو إلى أحد . لقد طرأ على حالك من التبدل ما ضعضعنى فاضطررت إلى دعوتك لجلاء أمرك ، ولـكننى أعدل اليوم عن الاستسفار وأصرح لك بأننى راض بالبقاء هنا إذا كان يصعب عليك الرحيل

فقالت : هيا بنا فلنرحل

— لك ما تشائين ، ولـكننى أقتضى الصراحة منك ، فأنا مهيأ لاقتبال أى سهم يسدد إلىّ دون أن أسأل عن مصدره فلا أتململ ولا أشكو ، وإذا كان قضى علىَّ بأن أفقدك فما أطلب منك إلا حجب الأمل عنى كيلا أتعثر بأذياله فأموت

فحدقت فى قائلة : حدثنى عن حبك ولا تذكر أوجاعك

فقلت : أحبك أكثر من الحياة ، وما أوجاعى إلا أوهام تجاه هذا الغرام . تعالى لنذهب إلى آخر الدنيا فأحيا بك أو أموت من أجلك

وتقدمت نحوها فاذا بالاصفرار يعلو وجهها وإذا بها تتراجع إلى الوراء مرغمة وهى تكره شفتيها المتقلصتين على الابتسام ، وذهبت إلى مكتبتها قائلة : أمهلنى هنيهة من الزمن إذ علىّ أن أحرق بعض أوراق وأبرزت رسائل أقاربها أمامى ثم مزقتها وألقت بها إلى النار ، وعادت فأخرجت أوراقاً أخرى طالعتها ووضعتها على الخوان ، وما كانت هذه الأوراق إلا

قوائم حسابات لبعض مورّدى حوائجها ، وبينها ما لم تكن دفعت ثمنه بعد ، وطفقت تتكلم وهى تدقق فى هذه الحسابات راجية عفوى عنها لاحتفاظها بالصمت طوال المدة الأخيرة ، مبدية نحوى أشد العطف ، مستسلمة لإرادتى ، فرأيت فيها مجسم الحب أو مجسم مظاهره ، وذهب مرحها المصطنع يحز فى قلبي إذ رأيت فيه ألماً يجحد نفسه فيتكلف سروراً أفجع من النواح واستسلاماً قرارته أمرّ عتاب . وقد كان خيراً لى لو أنها ظهرت جامدة ولم تلجأ إلى هذا الهياج المكذوب للتغلب على نفسها

وظهرت بريجيت لعيني كأنها ممثلة تقلد ما كانت عليه قبل خمسة عشر يوماً ، فاذا بكل حركة منها كانت تسكرني غراماً من قبل تصدم قلبي فينقبض لها ارتياعاً

وصحت بها فجأة : أى سر تضمرين يا بريجيت ؟ إذا كنت تحبينني حقيقة فالى مَ ترمين بهذا الدور الذى تحكمين تمثيله أمامى :

— أنا أمثل ! وما الذى يدعوك إلى هذا الظن ؟

— أفما يجدر بك أن تعلني أن روحك تلامس الموت ، وإنك تتحملين عذاب الشهداء ؟ إننى أفتح لك ذراعى فألقى رأسك إلى صدري وأطلقى سراح دموعك عليه ، فلعلني أذهب بك إذا فعلت ، أما أن أختطفك ، وأنت على ما أرى فذلك مما لا أقدم عليه

فصرخت : هيا بنا فلنذهب

فقلت : لا ! قسما بحياتى إنني لن أفعل ما دام بيني وبينك هاوية سر أو سواد نقاب . إن أشد مصاب لأهون وقعاً علىّ من هذا المرح الذى تتصنعين

فوجمت إذ رأتنى نافذاً إلى أقصى سريرتها بالرغم مما تبذل لحجبها عنى

واستطردت قائلاً : لماذا نخادع نفسينا ؟ لو لم أكن تراميت إلى المهاوى فى نظرك لما كان وسعك أن تتظاهرى بغير حقيقتك أمامي . أفترين هذا السفر تنفيذاً لحكم مبرم قضيت به عاتياً وأتيت به جلاداً يقودك إلى الإعدام ؟ أى شيء يروعك من غضبي لتلجئى إلى مثل هذه الحيل ؟ وما هو هذا الخوف الذى يقودك إلى مثل هذه الأكاذيب ؟

— أنت مخطيء يا أكتاف . قف عند هذا الحد ولا تزد

— لماذا هذا الحذر ؟ إذا كنت قد فقدت صفة الأمين على سرك فعامليني معاملة الصديق على الأقل . وإذا امتنع علىّ أن أعرف مصدر دموعك فهل أحرم النظر إلى انسكابها من عينيك ؟ أتراجعت ثقتك عنى إلى حيث لا تعتقد باحترامي لأوجاعك ؟ وما هى الجناية التى أعاقب عليها بحرمانى معرفة هذه الأوجاع ؟ أفليس لدائك من دواء ؟

— لا ! وخير لك ولي أن تشدد النكير علىّ . إنك لتدفع بنا كلينا إلى الشقاء ، أفلا يكفيك أن نرحل عن هذه البلاد ؟

— وهل بوسعي أن أرحل وكل حركة منك تدل على نفورك من هذا السفر ؟ فأنت تقتحمينه مكرهة وبوادر الندم تسبق أقدامك عليه ، فما تخفين عنى يا ترى ؟ وما يفيد التلاعب بالألفاظ إذا كانت الفكرة أوضح من النهار ؟ وهل يجمل بى إذا لم انحط إلى أدنى دركات الإنسانية أن أقبل عن رضى ما تجودين به مكرهة آسفة ؟ على أننى أقف حائراً فى رفضه وأنت تحطمين قواى بصمتك

— لا . إننى لا أتبعك مكرهة . أنت على خطأ

فى اعتقادك هـذا ، فأنا أحبك يا أكتاف فكف عن تعذيبي

وتساقطت هذه الكلمات من فمها بكل عذوبة الحنان ، فرأيت نفسى منطرحاً على قدميها وقد غلبتنى نظراتها ونبرات صوتها فهتفت : أتحبيننى يا بريجيت ! أحق ماتقولين يا خليلتى ؟

— أجل إننى أحبك . أجل إننى ملكك فافعل بى ماتشاء . إننى سأتبعك . هيا بنا يا أكتاف فإن العربة بانتظارنا . وشدت بأناملها على يدى وهى تلقى على جبينى أحرّ قبلاتها مكررة قولها : لا بدّ من أن أتبعك . إننى أريد أن أسير معك إلى آخر يوم من حياتى ...

رددت كلمة « لا بد » فى نفسى ووقفت ناظراً إلى بريجيت تقلب آخر صفحة من أوراقها فسألتها عما إذا كانت أتمت عملها ، فأجابت إيجاباً

عند ما أوصيت بالعربة لم أكن مقرراً الرحيل بل رميت إلى القيام بتجربة فإذا أنا تجاه أمر واقع

وتقدمت فاتحاً الباب وأنا أرفع صوتى قائلاً : « لا بدّ » وما تعنى هذه الكلمة ، بل أى شىء وقع هنا وأنا لا أدرى به ؟ أوضحى لى الأمر وإلا بقيت حيث أنا ؟ أفيكون حبك لى فرضاً عليك وعاطفة لا بد منها ؟

فارتمت على المقعد وهى تفرك يديها ألماً وتصرخ: ويحك ! إنك ستجهل الحب طول حياتك

— لعلك تقولين الحق ، ولكننى أستشهد الله على أننى أعرف العذاب . لقد قلت إنه لا بد لك من حبى فلا بدّ لك أيضاً من إبداء الجواب ، وما أنا مبارح موقفى حتى ولو اضطرنى إصرارى إلى فقدك ، حتى ولو سقطت هذه الجدران علىّ قبل أن أطلع على هذا السر الذى يقضّ مضجعى منذ شهر . إننى تاركك إذا لم تتكلمى . لقد أكون مجنوناً ؛ لقد أكون مقدماً على هدم حياتى بيدى ؛ ولقد يكون من الخير لىّ أن أتجاهل ماأطلب إيضاحه ، فلا أثير بيننا أموراً قد تقتل سعادتنا وتمزق شملنا وتحول دون هذا السفر الذى حصرت أمانىّ فيه ؛ لقد يكون كل هذا ولكننى لا أرتجع عن عزمى . تكلمى أو أتخلى عن كل شىء

— لا ... لا ... لن أتكلم

— بل سوف تتكلمين . أفتحسبين أننى أخدع بأكاذيبك ؟ أيخيل إليك أننى جاهل أمرك وأنت تتبدلين بين صبح ومساء متقلبة كتقلب الظلمة والنور ؟ وتلجأين إلى تبرير موقفك بإبرازك رسائل لا تستحق أن ألقى عليها نظرة واحدة . وهكذا تقنعين بأننى أكتفي بأول تعليل يخطر لك تقديمه ، أوجهك وجه تمثال من الجير لتضمحل وراءه أشباح عواطفك فما هو اعتقادكِ فىَّ يا ترى ؟ إننى لا أنخدع بنفسي على قدر ما يلوح لك فحذار أن ينم لى سلوكك عما تبذلين لستره كل هذه الجهود

— وماذا تعتقد أن يكون هذا السر الذى أخفيه؟

— ألِىّ يوجه هذا السؤال ؟ وما تقصدين من هذا التحدى الصريح إذا لم يكن ما ترمين إليه إحراجى لإثارة كرامتى الجريحة حتى إذا انفجر غيظى تخلصت منى .

إنك تتوقعين منى تصريحاً لتقابليه بخبث الأنوثة . تريدين أن أتهمك لتردى علىّ بقولك : إن امرأة مثلك لا تتنازل للدفاع عن نفسها . إن أشد النساء لؤماً

تعرف كيف تتشح ببرود العظمة وتذود عن نفسها بسلاح التحقير ، فالصمت أقوى ماتتمتع به المرأة . وما تعلمت هذه الحقيقة من أمس . إنك تراودين الاهانة بالسكوت ولكن إذا كان بوسعك أن تحاربي قلبي لأن قلبك خافق فيه ، فأنت أضعف من أن تهاجمي تفكيري ، فإن رأسي أقسى من الفولاذ وفيه من المعرفة مالا تعلمين

— يالك من ولد مسكين ! أفلا تريد أن نرحل ؟

— لا . إنني لن أسافر إلا بصحبة خليلتي وما أنت بخليلتي الآن . لقد جاهدت طويلاً وتعذبت كثيراً وأنا أقرض شغاف فؤادي . لقد طال ليلي وآن للصبح أن ينجلي . فهل أنت موردة جوابك أم لا تزالين مصرّة على السكوت ؟

— لن أجاوب

— ليكن ما تريدين فأنا مصرٌّ على الانتظار

وذهبت لأنطرح على مقعد فى آخر الغرفة مصمماً على عدم الحركة حتى أعرف ما أريد معرفته . أما هى فأخذت تتمشى أمامي رافعة رأسها وقد انطبعت آثار التفكير على جبينها المتجهم

وبت أتبعها بأنظاري ، وكلما استغرقت فى صمتها أوغلت فى غضبي . وكنت أحاول إخفاء ثورتي فتوجهت إلى النافذة وصرخت بالخدم أن يؤدوا للسائق أجره معلناً عدولى عن السفر هذا المساء

فقالت بريجيت : مسكين أنت !

وأقفلت النافذة وعدت إلى مقعدى متظاهراً بأنى لم أسمع شيئاً وفى أحشائى نار تتقد تجاه هذا الصمت الجليدى وهذه القوة السلبية . ولو أننى كنت فى موقف عاشق تيقن خيانة محبوبته له لما كنت شعرت بضنك أشد على روحى من هذا الضنك

وما قررت البقاء فى باريس إلا وأنا مصمم على استنطاق بريجيت مهما كلفنى الأمر ، فأخذت أستعرض الوسائل توصلاً لبغيتي فلا أجد ، وأتمنى لو خطرت لي وسيلة ناجعة أبذل فى اتخاذها كل ما أملك

ما العمل ؟ ماذا أقول ؟ وهى واقفة أمامى هادئة تحدجنى بنظرات ملؤها الأسى

وسمعت قرقعة حوافر الخيل وقد حلت من مرابط العربة ، وما لبث حتى ساد الصمت على الشارع. وقد كان بوسعى أن أقف وأصرخ لأسترجعها غير أنى جمدت مكانى كأن القضاء قد حتم بابتعادها دون معاد

تقدمت إلى الباب ودفعت مزلاجه وأنا أسمع فى أذنى همساً يقول لى : لقد أصبحت وحدك تجاه المخلوقة التى فى يدها حياتك أو موتك

وعدت إلى التفكير فى حيلة تهتك الأستار أمامى فاذا بى أتذكر قصة من قلم ديدرو عن امرأة تأكلها الغيرة على عشيقها فلجأت إلى حيلة غريبة توصلاً لجلاء ريبتها به إذ صرحت له بزوال حبها له وبأنها عازمة على هجره ؛ وكان هذا العاشق يدعى المركيز أرسيس ، على ما أذكر ، فوقع فى الحبالة واعترف لخليلته بأنه هو أيضاً لم يعد يشعر بالحب لها

وكنت قرأت هذه القصة وأنا فى زمن المراهقة فأعجبت بحيلة بطلتها ، وعندما عنّت لخاطرى وأنا فى هذا المأزق ابتسمت وقلت فى نفسى : لعل بريجيت تقع فى الشرك نفسه إذا أنا مددته لها فتفضى إلىّ بسرها

وهكذا انتقلت من حالة الهياج والغضب إلى المراوغة والمخاتلة ، وخيل لى أن اقتياد امرأة إلى الاقرار ليس من صعاب الأمور ، وقلت في نفسى : ما دامت هذه المرأة خليلتى فلن أعجز عن استنطاقها إلا إذا كنت من صعاليك الرجال

وتراخيت مستلقياً على مقعدي وتكلفت عدم المبالاة والمرح فقلت : أما ترين أن زمن التصريح قد حان ؟

وإذ رأيتها تنظر إلىّ بعينى الاستغراب ذهبت فى حديثي قائلاً : لا بد من التوصل يوماً إلى المصارحة بالحقائق ؛ وسألجأ إلى اقتحام هذه الصراحة فأكون قدوة تحررك من كل حذر ؛ وليس خير من التفاهم والاتفاق بين الأصدقاء .

وما توقفت عن ذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ، كأنها لم تسمع كلماتى وقد رأت ولا ريب على أسارير وجهى ما يكذب بياني . فتابعت قائلاً :

— لا تجهلين أننا منذ ستة أشهر نعيش جنباً إلى جنب ، وما كان أبعد حياتنا عن السرور أو ما يشبهه أنت فى مقتبل العمر وأنا كذلك ؛ فهل لو شعرت بنفور من هذه المصاحبة تجدين فى نفسك ما يدفعك إلى مصارحتى بنفورك ؟ وما أكتمك أننى لو مللت هذه الصحبة فلن أتردد فى الاعتراف بها ، إذ لا يوجد سبب يحول دون هذه الصراحة ، لأنه إذا كان الحب ليس جريمة فلا يمكن أن نرى جرماً فى تناقص هذا الحب أو فى زواله . وهل يستنكر أن يحتاج من فى سننا إلى التغيير ؟

ووقفت واجمة وهى تردد قولى « من فى سننا » أإلىّ توجه هذا الكلام ؟ بأى دور تريد أن تقوم فى تمثيلك هذا ؟

وتصاعد الدم إلى رأسى فقبضت على يدها قائلاً :

— اجلسى واسمعى

فقالت : ولماذا أستمع وما أنت الذى يتكلم ؟

وخجلت من محاولتي المراوغة فعدلت عنها وقلت :

— اصغى إلىّ واقتربى منى . إننى أتوسل إليك أن تجلسى إلى جنبي ، إذا كنت لا تزالين مصرة على الصمت فاستمعى لى على الأقل

— أنا مصغية فتكلم

— لو جاءنى أحد وقال لي أنت جبان وأنا من لم يتجاوز الثانية والعشرين ، وقد أقتحم المبارزة فلا ريب فى أننى أغضب لامتهان كرامة أعرفها فى نفسى فأسير إلى الميدان مجازفاً بحياتي لأشبك سيفى بسيف نكرة من الناس . وما أقدم على هذا إلا لأثبت أننى لست جباناً ؛ وإذا أنا لم أفعل ألصق المجتمع بى ذل الرعاديد ، إذ لا يورد الجواب على مثل هذه الاهانة إلا كلمة السيف

— لا ريب فيما تقول ، ولكن إلى أين تتجه بهذه المقدمة ؟

— إن النساء لا ينزلن إلى ميدان المبارزة ؛ غير أن لكل إنسان سواء أكان ذكراً أم أنثى ساعة يناقش فيها الحساب مهما انتظمت حياته ، ولا يفلت من هذا المأزق إلا رجل يرضى بالعار وامرأة تقنع بالقطيعة والنسيان . لقد حق على كل مخلوق أن يثبت حيويته فإذا ما هوجم رجل دافع بسيفه ، أما المرأة فما يجديها امتشاق الحسام لصيانة نفسها بل عليها أن توجد لنفسها ما يوافق موقفها من سلاح ، فإذا هاجمها رجل لا تأبه له وردته بالترفع والاحتقار . أما إذا كان المهاجم محبوباً سلاحه الشك والارتياب فلا قبل لها باحتقاره ، وقد وضعت روحها فى صدره

— إذا كان المهاجم محبوباً فلا جواب إلا بالصمت

— لقد أخطأت فى بيان قصدك فان الجواب الذى ترين للمحبوب الذى يلطخ بارتيابه حياة امرأة إنما يقوم بذرف الدموع وباستشهاد مابذلت من صبر ومن إخلاص فيما مضى . إنك تتركين للزمان أن يظهر براءتها من التهم إذا تركها عاشقها وهو يؤاخذها بجريرة سكوتها

— لعل ذلك صحيح ولكننى أرى الصمت أولى

— إنك تلجأين إلى الصمت ! وكونى واثقة من أننى سأذهب وحدى إذا أنت لم تعدلى عن هذا السكوت

— وأخيراً ... يا أكتاف

— أخيراً ليأت الزمان مبرراً لك بعد ذلك ، إنك تنتظرين عدل الزمان

— أجل وذلك ما أرجو

— ذلك هو أملك ! اسبرى أقصى سريرتك فهذه هى المرة الأخيرة التى يتسنى لك أن تستنطقيها أمامى . لقد قلت إنك تحبيننى فصدقت ، فهل تقصدين الآن تجاه ارتيابى بك أن أهجرك تاركاً للزمان مهمة تبرئتك ؟

— ألك أن تصارحنى بريبتك ؟

— ما كنت أود أن أصرح بها إذ لا فائدة من هذا التصريح ، ولكننى أصبحت ولا مناص لى من مقابلة الصغارة بمثلها . إنك تخوننى ! إنك تحبين رجلاً غيرى ، ذلك هو سرك ، وذلك هو سرى

— ومن هو هذا الرجل ؟

— هو سميث

ومدت يدها تطبق أناملها على شفتى وهى تعرض بوجهها عنى ، فسكت وأطرق كل منا مستغرقاً فى تفكيره

وسمعتها تقول حزينة مجهدة :

اصغَ إليّ . لقد جالدت العذاب طويلاً يا أكتاف ولتشهد السماء على أنني أبذل حياتى فداءً لك . وما دام أمامى بصيص من الأمل أتحمل كل عذاب للاتجاه إليه ، ولكننى مضطرة إلى تذكيرك بأنى امرأة ولو أغضبك هذا التصريح ؛ وللمرأة حدود تقف قواها عندها . فلا تقاوم الطبيعة البشرية باصرارك على استنطاق فانى لن أجيب على سؤالك ؛ وليس بوسعي الآن إلا أن أجثو لآخر مرة على قدميك متوسلة اليك أن نسرع فى الرحيل

« يتبع » فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

أوديسيوس يتشاجر مع شحاذ

وبينما كان أدوسيوس جالساً يزدرد طعامه ، إذا شحاذ ضخم الجسم شائه المنظر يدخل فجأة ، فيلتفت إليه جمهور العشاق . ويعرفون فيه الفقير إيروس ، المشهور بنهمه الذى لايوصف ، وبإقباله الشديد على أردأ ألوان الشراب ... وكانت له عليهم دالة ، وليس فى الجزيرة كلها من يجهله ... فلما لمح أودسيوس جالساً يتبلغ بلقماته ، نظر إليه نظرات المغيظ الحَنِق وقال له : « انحرف عن الباب أيها العجوز القذر وإلا جررتك من عقبيك ... ولو أننى أترفع عن مقارعة أمثالك !! » وحدجه أودسيوس وقال : « أيها الصديق إننى ما آذيتك ، وإن فى المكان متسعاً لكلينا ... أرجو ألا تثير فىّ أكثر مما فعلت وإلا فلا يغرنك هرمى وتقدم سنى ، فتالله لأرينك كيف أضربك ضرباً تقول منه الهامةُ اسقونى ! إجنح للسلم هو خير لك ! وأصغ إلى نصحى ، وإلا فلن تدخل قصر الملك أودسيوس بعد اليوم ... ! » وغيظ الشحاذ إيروس وقال : « اسمعوا ما ذا يهرف هذا الشَّره المخرف ! ألا ما أشبهه بزوجة حمقاء تثرثر أمام كانون ! تالله ليخيل إلىّ أن أنقض عليه فأنفُض ثناياه ! هلم أيها الرجل ! استعد للقاء ، وليشهد السادة كيف أمثل بك ؟ » وقهقه أنطونيوس وقال: « أيها الأصدقاء اشهدوا ! إن إيروس يتحدى هذا الفقير ، والفقير بدوره يتحداه ... هلم نجعل حولهما حَلْقَة لنرى إلى هذا العراك المضحك ! » وسكت أنطونيوس ، وتكبكب الأمراء حول الرجلين ضاحكين عابثين ، ثم التفت إليهما أنطونيوس وقال : « إسمعا إذن ؛ ههنا كعكات ليس أجود منها ... وإنها خالصة لمن يتفوق منكما على قِرنه ... ولمن فاز أجر عندنا عظيم ... إنه سيجلس معنا فى جميع ولائمنا منذ غد ، ولن ندع أحداً من الشحاذين يضايقنا بعد هذا اليوم » وتخابث أودسيوس وقال : « يا سادة ! من الظلم أن يتبارى رجل عجوز ضعيف مثلى مع هذا الهولة ... ولكن الجوع يدفعنى إلى البطش به مع ذاك ... بيد أن لى رجاء ألا يساعده أحد علىّ ، فيلكمنى مثلاً أو يلكزنى حينما أكون مشغولاً به » فقاسموه ألا يفعلوا . وتقدم تليماخوس ابنه فقال : « أيها الرجل ، إذا وسعك أن تناضل هذا الزميل فلن تخشى من هؤلاء رهقاً ... إنى أنا مضيفك ، وليس أحب إلى أنطونيوس ويوريماخوس من أن يشهدا هذا اللقاء الفذ بينكما ! » ثم إن أودسيوس شمر عن ساعديه وفخذيه ، وكشف قليلاً عن صدره ، عامداً ليظهر الأمراء على عضله المكتنز وقوته الخارقة ... وقد صدق حدسه ، فقد بهت العشاق ونظر بعضهم إلى بعض يقولون : « واعجباً !

أى عضل وأى ساعدين ونخذين يخفى هذا الرجل تحت أسماله ومِزَقه البالية ؟ مسكين إيروس ! ماذا يبقى منه بعد هذا اللقاء ؟! » أما إيروس فقد انتفض واقشعر بدنه مما عراه من الذعر ، ولكن الخدم لم يتركوا له أن يفر من اللقاء الذى دعا هو إليه ، بل شمروا له عن ساعديه ونخذيه كما فعل غريمه ، ثم جروه إلى الحلقة برغمه ... وود أودسيوس أن يبطش بالرجل فيحطمه بأول لكمة ؛ غير أنه آثر ألا يفعل خشية أن يكتشف العشاق من هو ... فلما امتدت الأيدى تصنع الدفاع ، وأقبل وأدبر ، وكر وفر ، ثم أهوى على أذن الرجل بضربة سحقت عظامه ، وطرحته على الأرض ... ولبث المسكين لا يبدى حراكا من هول ما حل به ؛ بيد أن أودسيوس جره من عقبيه إلى ساحة القصر ، ثم عرج به نحو جدار كبير حيث سنده إليه ، وجعل فى يده عكازه وقال : « إلبث هنا ولا تغش منازل الملوك بعد ، وذد بعصاك الخنازير السائبة ، فذلك خير من أن تصيب بها الغرباء أمثالى ... فان عدت إلى مثل حماقتك فلن يصيبك إلا شر مما رأيت ! » وتركه وانثنى إلى حيث كان ، فوجد العشاق يضحكون حتى كاد يقتلهم الضحك ... وهتفوا له ثم قالوا : « حقق الله آمالك ، وأنالك أمانيك أيها الغريب اللاجىء ، بما خلصتنا من هذا الشحاذ النهم الملحاح ! » ، وسمع أودسيوس دعاءهم ، وابتهل إلى الآلهة أن تستجيب !! ثم وضع بين يديه انطونيوس كعكة كبيرة ، وزوده أمفينوموس بخبز وخمر صبها له فى كأس كبيرة من ذهب ، ودعا له بخير . وآنس فيه أودسيوس طيبة ودماثة خلق فقال له : « هيه ... هلم أيها العزيز أمحضك نصيحتى وأحدثك من تجاربى ... ألا ما أضعف الانسان ! إنه إذا ما مسه ضر دعا الله فاذا كشف عنه الضر فهو مقتصد نأى بجانبه كأن لم يمسسه ضر ... فأنا مثلا لقد كنت فى عنفوان صباى أعيث فى الأرض مغتراً بقوتى وفتوتى ، حتى أسقط الكبر فى يدى ففئت إلى أمر السماء ، ولكن بعد أن كتب علىّ الشقاء وهكذا أولئك الأمراء الذين غرتهم الأمانى وأضلهم جبروتهم فأقاموا بهذا القصر غارّين آمنين لا يظنون أن له صاحباً قد يفجأهم بعودته فيستأصل شأفتهم ويذهب بريحهم ... وإنى والله أيها السيد لأرى أنه عائد ليس من هذا بد ، وأنه عائد قريباً ؛ فتقبل أنت نصيحتى ولا تقم معهم ، بل انطلق إلى بيتك وأهلك ولا تستأن حتى يدهمك معهم فيحطمنكم أجمعين .. »

وشرب أودسيوس ، ودفع الكأس إلى الأمير الشاب الذى بدت عليه أمارات الهم مما قال الرجل ولكن ... واأسفاه ! لقد كتب عليه الشقاء ، فلم يصغ لنصيحة أودسيوس

وبدا لبنلوب أن تذهب فى بعض وصيفاتها فتخطر بين العشاق ليروها ، ولترى ما ذا يكون ... وقبل أن تفعل ألقت عليها مينرفا نعاساً وأمنةً ، وبدت لها فى الرؤيا كأنما تعطيها لُهى عجيبة ؛ ثم إن الربة أضفت عليها رواء كرواء الآلهة ، ونضَّرتها بنضرة الشباب والجمال ، فربا جسمها واستطال ، وزانته لمة عاجية وسناء ... فلما هبت من نومها ، مرست عينيها متعجبة ، وشدهتها تلك الغفوة الطارئة التى جلبت لها السعادة فى دنيا من الهموم .. وتمنت لو أراحها الموت من حياة اتصلت أشجانها وباعدت بينها وبين إلفها بمفاوز من الآلام والأحزان ... وانطلقت فى سرب من وصيفاتها

فأشرفت على العشاق وقد ضربت بجمارها الشف على وجهها المتألق الناصع ، فذهل الملأ ، وزاغت أبصارهم ، وأحسوا أن شيئاً يخلع قلوبهم ، فما منهم إلا تمنى أن يكون صاحب هذا الجمال الرائع والحسن الباهر ، والفتنة المتقدة ... ونهض يوريماخوس فقال يخاطبها : « يا ابنة إيكاريوس بوركت ! تالله لو رآك كل من فى هيلاس لاجتمعت حولك قلوب غيرنا من العاشقين ، ولأقبلوا من كل فج فازدحموا حولك هنا ... فى ذلك القصر العتيد ! »

فقالت بنلوب : « يوريماخوس ! تالله لقد ذهب الآلهة بجمالى الذى تصف يوم رحل عنى زوجى أودسيوس فيمن رحل إلى طروادة ... وما أنس لا أنس ما قال لي وهو قابض على يمينى يودعنى : « زوجتى ! إن أكثر من ترين من هذا الجيش لن يعودوا إلى ديارهم ... ففي طروادة محاربون صناديد ، وملاعبو أسنة لايشق لهم غبار ، وذادة ورماة ! وإنى لا أدرى ماذا يكون من أمري هنالك ، ولذا ، أكل إليك كل ما أدع ورائى ، وإنى موصيك أول ما أوصيك بأبى وأمى ، فاعنى بهما كأحسن ما كنت تعنين وولدها معك ، فإذا شب ولدى وترعرع ، فلك أن تتركى هذا القصر إن شئت ، وتتزوجى ممن تختارين من الأكفاء الأنداد » هذا وإنى أرى أن هذا اليوم العصيب قد حان ! ولكن وا أسفاه ! إنكم اجتمعتم هنا لتأكلوا وتشربوا وتعيثوا وتعبثوا بكل ما ترك صاحب القصر . . . وكنت أظنكم تقيمون فى منازلكم وترسلون إلى هداياكم لتكبروا عندى ولا تهزل مكاناتكم لدى .. ألاساء ما تزرون »

وتبسم أودسيوس من قولها ، ووثق من إخلاصها ، وعجب من شدة ما سحرت ألباب العشاق ومما أخذتهم به من حزم ... أما أنطونيوس فقد أجابها بقوله : « أما هدايانا يا ابنة إيكاريوس فلا أحب إلينا من تقديمها إليك ... على أننا لن نريم عن هذا القصر حتى تختارى لنفسك بعلاً يكون كفئاً لك »

وأيد العشاق ما قال قائلهم ، فنهضوا ليحضروا هداياهم ، وسرعان ما عادوا يحملونها ... وتقدموا بها إلى بنلوب ؛ فهذا ثوب ثمين من قاقم موشى بالذهب تزينه اثنا عشر زراراً ذهبياً ... وهذا عقد حليت خرزاته بقطع من الكهرمان الحر ؛ وتلك أساور من ذهب وشنوف كثيرة وأقراط [١] . وعادت بنلوب ومن خلفها وصيفاتها يحملن الهدايا والحلى .. وأخذ العشاق كدأبهم فى القصف واللهو والعبث والغناء ... حتى أقبل الليل ، فقدم الندامى بمجامر من نحاس بها وقود يشتعل ، وطفقن يلقين فيها من الند والرند والعود ذى العرف ، وطفق البخور يعبق فى أرجاء البهو الكبير ... وهنا ... نهض أودسيوس وتوجه إلى البنات يقول : « أيها العذارى أولى بكن ثم أولى بكن أن تذهبن إلى سيدتكن فتسلينها وتواسينها ، وسأقوم بالنيابة عنكن على هذه النار حتى ينصرف العشاق ... ولن يؤودنى أن أقوم عليها حتى مطلع الفجر ؛ ولن أضيق بجمعهم مهما عبثوا بى ، فأنا رجل ذو تجاريب » . فتضاحكن به ، وقالت ميلانتو التى هي أجملهن وأقلهن احتشاماً ، تعبث به : « ماذا أصابك الليلة أيهذا النازح الغريب ؟ انطلق إلى حداد المدينة فنم فى دكانه ، فهو خير لك من أن تسهر ههنا وتثرثر ... هل غاب صوابك يا شيخ لأنك ظفرت بالشحاذ إيروس ؟ اربع عليك ، فقد تبتليك السماء بمن يبطش

(١) الشنوف والأقراط (الحلقان) لأذن المرأة

بك كما بطشت به ، ويطردك من هنا ! ؟ » . . .
ورشقها أودسيوس بعينه وقال : « أسكتى ياهناة [1] والله لأحدثن بما حدثت الأمير تلياخوس فليقطعن لسانك ، وليمزقن جسدك ! » . وذعر العذارى وولين هاربات ، وقام أودسيوس على النار وجعل يلحظ العشاق وفى قلبه ضرام ، وما فتىء يفكر فى ألف خطة للانتقام منهم والبطش بهم ... ولم تشأ مينرڤا أن تنهى هذا الشقاء الذى ضربته على أودسيوس ، بل تركته يستهزىء به العشاق ، ويسخر به يوريماخوس، فيضحك العشاق إذ يقول: « ما أظن إلا أن الآلهة قد أرسلت إلينا هذا الرجل ليكون حامل مشاعلنا وحامى قبسنا ... أنظروا إلى رأسه النحاسى ، أليس يصلح أن يكون مشعالا يضىء لنا ؟ » ثم التفت إلى أودسيوس وهو يقول: « أإذا استأجرتك لتسوّج مزرعة لى بعيدة من هنا وتغرس بها أشجاراً ، على أن أطعمك وأكسوك وأنقدك مالا ، فإنك ترضى ؟ ولكن لا ... إنى لأظنك تنسرق منها طواعية لغرائزك وخبث جبلّتك فتنطلق إلى المدينة لتستجدى وتتكفف ... »

وتخابث أودسيوس وقال يجيبه : « يوريماخوس! تالله إنه ليس أحب إلىّ من أن أباريك فى فلاحة فى يوم من أيام الربيع ، حين يطول النهار ، من مشرق الشمس إلى مغربها ، على ألا يذوق أحدنا طعاماً ولا يسيغ شراباً ... أو أن يعهد إلى كل منا بأربعة أفدنة فى أرض جبوب ، وثورين حنيذين ذوَى خوار ، فى ذلك اليوم ، لترى أينا يصمد لحرثه ويفلح أرضه ... بل إني لأتمنى ، إذ نحن فى هذه الأرض ، أن يدهمنا عدو بخيله ورجله ، وتكون لى درع دلاص سابغة وخوذة من نحاس ، ورمحان فى يدى لترى كيف لا يحول الجوع بينى وبين أقرانى ، وكيف أضرج بدمائهم الأرض ، وأتركهم فى البرية جزر السباع وكل نسر قشعم ... أيها اللُّكع الوقح ... والله لو أن أودسيوس رب هذا البيت قد فجأك الآن لضاقت عليك الأرض بما رحبت ... أنت أيها المغرور المتعاظل الذى غرّه أن يكون شجاعاً بين نوْكى لا حول لهم ! »

وجن جنون يوريماخوس ، وأخذ مُتكأً ثقيلا وقذفه شطر أودسيوس ، ولكن البطل انفتل بعيداً وسقط المتكأ على الساقى المسكين ، فخر إلى الأرض يئن ويتوجع ... وغيظ العشاق أيما غيظ ، وعلا لغطهم ، وودوا لو يسحقون أودسيوس لولا أن تقدم تلياخوس وحال بينه وبينهم وهو يقول : « يا سادة ! إنى كصاحب هذا القصر ، لا أستطيع أن أطرد الرجل منه بعد إذ آويته وضيفته ... والرأى أن تقطعوا سمركم هذا ، وتذهبوا من فوركم إلى منازلكم حتى يتصرم الليل ... » وأيده الأمير أمفينوس ، ووقفوا جميعاً فاحتسوا الكأس الأخيرة ثم انقلبوا إلى منازلهم ... وفى نفس يوريماخوس من الهم ما تنوء بحمله الجبال ...

المرضع العجوز تعرف أوديسيوس

وهكذا خلا الجو لأودسيوس وولده ، فقال ، يحدث تلياك : « أى بنى ينبغى أن نخبىء أسلحة القوم فى مكان حريز ، فإذا سألوك عنها فقل لهم إنك تحفظها لهم حتى لا تتأثر بالدخان والغبار وتقلبات الجو. وامتثل تلياك ، ودعا المرضع العجوز يوريكليا فقال لها : « أماه ليقر الوصيفات فى مضاجعهن حتى

[1] الهناة الداهية

أنقل أسلحة أبي إلى مكان حريز فقد تراكم عليها الوسخ وأتلفها الدخان » وقالت يوريكليا معجبة : « أجل يا بنى ، إنه ينبغي أن تعنى بكل ما يتعلق بأبيك وبكل ما ملكت يداك ... ولكن قل لى ... من يحمل لك المصباح حتى تنقلها إلى حرزها ؟ ألا أدعوهن فيحملنه لك ؟ » وشكرها تلماك ، وذكر لها أن الرجل الغريب سيحمله ، وأهرعت يوريكليا إلى داخل القصر ، وهب أودسيوس وولده يحملان الخوذ والدروع والرماح ، وبدت مينرفا الكريمة تحمل بين أيديهما مصباحاً ذهبياً كان يشع سناء عجيباً ، ونوراً لم تقع عينا تلماك على مثله . فقال لأبيه وقد أخذه العجب « أبتاه ! ما هذا النور المنعكس على الجدران والعمد والقوائم والعوارض حتى ليكاد يجعلها تلتهب ! قط ما رأيت مثل هذا قط ... لا بد يا أبي أن إلهاً معنا هنا ! » وقال أبوه : « أخزن عليك لسانك يا بني ، واملأ قلبك بما ترى ، فانه من نور السماء ، وهذا دأبُ الآلهة ... والآن ، لتصعد أنت فلتنم ملء عينيك كي تستريح ... أما أنا ، فباق هنا ، لأنه لا بد لى أن أكلم أمك وخدمها »

وانطلق تلماك إلى مخدعه ، وأقبلت بنلوب وأقبل في إثرها سرب من خدمها فأعددن لها عرشاً ممرداً من ذهب وعاج استوت عليه وأسندت قدميها العاجيتين إلى متكأ جميل ، فبدت كاحدى الآلهة . وجلس أودسيوس على كرسى صغير بُثّتْ عليه فروة غليظة ، ثم كلمته الملكة فقالت : « والآن أيها الغريب الكريم قص على من أنبائك وخبرنى من أنت ، ومن أى البلاد قدمت » فقال أودسيوس : « أيتها الملكة تعالى جدك وصلح حالك ... إن لك فى العالمين لذكراً يعبق كالعطر ، واسماً كريماً ليس لملك عظيم يحكم أمة عظيمة بالعدل وتجزيه بالمحبة ... إنني يا مولاتى رجل كرثه الزمان ، وعسفت به يد الحدثان ، فاذا سألتنى ما اسمى وما بلادى ، فانك تثيرين من أعماق ذكريات عنيفة تدمي فؤادى ، وتفجر الدموع فى مآقى ، فأعفينى أيتها الملكة من ذكر ذلك ، فانه ليحزننى أن أجلس بين يديك باكياً متصدعاً مهموماً ... » وبدا الألم على وجه بنلوب وقالت : « أواه أيها الغريب ما أقسى ما ذبلت حياتى وذوت زهرتى مذ رحل زوجى المحبوب إلى طروادة ، تاركا لى الهم ، ومخلفاً لى الحسرة ! ألا ما أقسى ما يحن قلبي إليه ، ولشد ما يخفق من أجله ! لقد أسلمنى بعاده لليل أليل من الآلام ، فما أدرى منذ فارق كيف أهش لضيف مسكين مثلك ، ولا كيف أبش لأحد ما من العالمين ... وهؤلاء الأمراء اللؤماء الذين تكبكبوا حولى يريدون ليرغمونى على اختيار أحدهم بعلاً لي من دون أودسيوس لا أدرى كيف أذودهم ، ولا أعرف السبيل لدفع أذاهم ... لقد مكرت بهم طويلاً ، ولكنهم مكروا بى السيئات ، فلا أدرى كيف أنقذ نفسى منهم ؛ وهذان أبواى يريداننى على هذا الزواج البغيض إلىّ ، وهذا ابنى قد شب ، وهو يضيق بعشاقى ذرعا ، وإن فى صدره حرجاً منهم لأنهم يهلكون ثروته ، ويعيثون فى قصره ، ويخوضون فى عرض أبيه ... ولكن ... حدثني بأربابك من تكون ، ومن قومك ، وأى بلاء من الدهر شردك عن وطنك ... تكلم أيها العزيز ولا تحزن » . وأرسل أودسيوس آهة عميقة ثم تكلم فزخرف حديثاً طويلاً مُوشَّى ، ولفّق قصة حزينة متقنة ، وذكر للملكة أنه رجل مُمزَّأ

من جزيرة كريت كانت له نعمة وكانت له سعة من العيش ، وذكر أبويه وأهله والحياة الواسعة المخفرجة التي كانا يحييانها ، وذكر أنه عرف أودسيوس أول ما عرفه حين غرقت به الفلك وقذفه الموج على الشاطئ الأقريطى ، فهرول إليه وتلطف به وأخذه إلى داره حيث أكرم مثواه واحتفى أبواه به ... ولم يكد أودسيوس يفرغ من حديثه حتى ترقرقت الدموع فى عينى بنلوب وانطلقت تبكى على زوجها الذى لم تدر أنه جالس إليها يحدثها ويوشى لها أطراف الكلام . وتأثر هو من بكائها فكادت عيناه تفيضان بالدمع ، لولا أن ملك حاله ، وهيمن على عواطفه ، فحبس العبرات التى أوشكت تنهمل بأجفان من حديد ... ثم أرادت الملكة أن تمتحنه إن كان صادقاً فقالت : « وهل تذكر أيها العزيز ماذا كان يلبس يوم لقيته ؟ أو تستطيع أن تصفه لى ، وتصف رفاقه الذين صحبوه فى هذه الرحلة المشئومة ؟ »

وتخابث أودسيوس فقال : « مولاتى ! ليس من اليسير على شيخ كبير مثلى أن يذكر أحداث ماقبل عشرين عاماً ... بيد أننى سأحاول أن أرسم لك الظلال الضئيلة التى ما تزال تنطبع من صورته فى رأسى ... أذكر يا مولاتى أنه كان يلتفع بثوب أرجوانى موشى بالذهب ، وقد رسم فيه بالذهب أيضاً كلب صيد معروق يحمل فى برطيله(١) ظبياً مرقَّطاً . وأذكر أننى رأيت قميصه ولمسته ، فلاأذكر أننى لمست فى حياتى أنعم ولا أرق ولا أثمن ... وكان يسعى بين يديه مشير أكبر منه جسماً وسناً ذو كتفين مستديرتين وبشرة سنجابية وشعر مُفلفَل ... وكان أودسيوس يوقره ويجله أكثر مما كان يجل سائر أصحابه »

وصمت أودسيوس ، وبكت بنلوب فاستخرطت فى البكاء ، ثم قالت : « لشد ما كنت أرثى لك أيها الغريب النازح الجوّاب ؛ أما الآن فإنى أحترمك وأعطف عليك ، بل أحبك ؛ تالله لقد صنعت له هذا الثوب بيدى ، وأنا التى وشيته بالذهب ! واأسفاه عليك أودسيوس ! إنك لن تعود إلى ياحبيبى ! بُعْداً ليوم نزحت فيه عن وطنك إلى هذا البلد اللعين المشئوم إليوم ! » وهش أودسيوس وقال : « خفضى عنك يامولاتى ، ولا تتلفى قلبك بطول هذا البكاء . ثم لم تيأسين من أوبته وقد سمعت عنه أخباراً سارة حين كنت فى أبيروس ؟ لقد مات عنه كل أصحابه ، ولقد غرقت سفينته فى أعماق اليم لغضب صبته الآلهة عليه ؛ بيد أنه نجا مع ذاك . وهو الآن سليم معافى يوشك أن يصل إلى إيثاكا بخير . وأنا لا أرسل ما أقول حديثاً ملفقاً ، بل أحلف عليه وأقسم بأغلظ الأيمان أنه سيصل إليكم فى عامكم هذا ... بل ربما كان بينكم قبل أن يتم القمر دورة هذا الشهر ! ! » . فتأوهت بنلوب وقالت : « ويك أيها الضيف ! تالله إن قلبى ليكذب ما تسمع أذناى ، وإنه لايصدق أن صاحبى عائد يوماً إلى إيثاكا ... ولكن هلم ... إنى سآمر وصيفاتى فيغسلن قدميك ويعطينك ثياباً وكسوة ويهيئن لك فراشاً وثيراً هنا . فاذا كان الغد فستجلس مع تلماك على مائدة الأمراء ولن يجسر أحد منهم أن يكلمك كلمة أو أن يمد يده إليك بأذى » وشكر لها أودسيوس وقال : « مولاتى لقد اعتدت أن ألتحف السماء إذا نمت ، وأن أفترش

---

(١) عن ثعلب عن ابن الأعرابى أنه فم الكلب أو شفته ولم يذكره صاحب القاموس

النبراء ، ولن تمسني وصيفاتك ، فقد يذعرن من خشونة قدمي ... ولكن إذا كان فيهن واحدة مخلصة شربت من كؤوس الزمان مثل ما شربت من محن وآلام ، فلا بأس أن تغسل لى قدمى ، على أن تكون عجوزاً حيزبوناً ! ؟ » . وسرت بنلوب وقالت تجيبه : « أبداً ما علمت أحزم منك ولا أوفر ذكاء وعقلا أيها الضيف الكريم . لك ما سألت ، فان عندنا خادماً أمينة طاعنة فى السن كانت موكلة بمولاي أودسيوس إذ هو طفل تغسله وتسهر عليه ، وهى التى ستغسل لك قدميك ... يوريكليا ... يوريكليا .. أقبلى .. اسهرى على هذا الرجل العجوز الذى له مثل سنك وتجاريبك ... إن له سحنة كسحنة أودسيوس وسيماء كسيمائه .. إغسلى قدميه وقدمى له كسوة تليق بضيف حل ببيتنا » وكأنما هاجت ذكرى أودسيوس شجون المرأة فترقرق الدمع فى عينيها اللهزتين وقالت : « آه يا ولدى يا أودسيوس لشد ما ينزع فؤادى إليك ويخفق لذكراك ! تالله لم أر رجلا أخبت للآلهة كما أخبت وضحى لها كما ضحى ... ومع ذاك فقد ناموا جميعاً عنه فلم يتأذنوا برجوعه إلى وطنه ! ومن يدرى ؟ قد يكون غريباً كهذا الغريب ، جواب آفاق فى بلاد نائية ، ومن يدرى ؟ قد تكون نسوة تعبث به كما عبث نسوة هذا القصر بهذا الرجل ... هلم أيها الضيف الكريم ، لا أحب إلىّ من أن أغسل قدميك كما أمرت مولاتى ... أوه ! يا للعجب ؟ ! لماذا ينجذب إليك قلبي هكذا ؟ يا للآلهة ! ! أبداً ما رأيت من أضياف هذا البيت العتيق أشبه بأودسيوس منك صورة وصوتاً وخطراناً ... »

وتأثر الملك وأنشأ يقول : « ربما يا أماه ! لقد قال مثل ما قلت كثيرون ممن رأونى ورأوا أودسيوس »

وذهبت يوريكليا فأحضرت طستاً[1] به ماء وانتهز أودسيوس انشغالها عنه فابتعد عن الموقد ، لأنه ظن أن المرأة قد ترى الندوب التى بقدميه ، الباقية ثمة من عضة خنزير برى كان قد بطش به فى حداثته فتكشف ما حرص هو عليه من كتمان أمره .. بيد أنها لمست النَّدَبة[2] الكبرى فى ساق سيدها إذ هى تغسلها ... وكانت الظنون قد ساورتها لما سمعت من صوته ، واستذكرت من صورته . فلما تحسست الندبة زاغ بصرها ، وحملقت فجأة في وجه مولاها وسقطت يداها من غير وعى فانقلب الطس النحاسي محدثاً صوتاً مُرِنًّا مُدَوياً ... وسال الماء ... وانحبس الدمع والمنطق فى عينى العجوز وفى لسانها ثم عالجت المفاجأة السارة المحزنة فى صدرها ... وصرخت تقول : « أنت ! هو أنت ! والله إنك لأودسيوس ... لقد عرفتك ... هذه هى النَّدبة التي أحدثها الخنزير بساقك ! لقد لمستها بيدى! »

وأهرعت العجوز مذهولة نحو بنلوب لتزف إليها البشرى الهائلة ... ولكن مينرفا كانت أسبق منها ... فقد سحرت عينى بنلوب وسمعها ... وعجل أودسيوس إلى العجوز فأطبق بكفه على فمها وقال : « يوريكليا ! أصمتى ! أنا هو ! ولكن أصمتى ! إن كلمة واحدةً منك تقضي علىّ ! لقد غذوتنى ونشأتنى فى حضنك صغيراً ، فهل تكونين

---

(١) الطس بالفتح والطست والطسة (الطشت) الذي يغسل فيه (قاموس)

(٢) أثر الجرح القديم


الرواية

نكبتي وشاحذة سكيني كبيراً ، وبعد أن وصلت إليكم بعد يأس وقنوط من عودتي ؟ أصمتي ! غُلّي لسانك بسلاسل وأصفاد فلا أريد أن يعلم أحد أنني هنا ... وإلا ... فتالله لن أرحمك — ولو أنك مرضعي — يوم يجد الجد ! »

وارتعدت يوريكليا ، وقالت تجيبه : « أي بني ! لم تكلمني هكذا ؟ أتشك في ثباتي وحفاظي ! إطمئن يا بني ، فسأكون أصمت من الحجر الصلد ، وأستر لسرك من الحديد ! » فحدجها أودسيوس وقال : أصمتي إذن ، ولا تفسدي تدبيرنا ، ولنتوكل جميعاً على الله ! » وذهبت فأحضرت ماء آخر ؛ وأخذت في غسل رجليه العظيمتين ، فلما فرغت ضمختهما بأفخر الطيوب ، ووقفت تقلب عينيها في مولاها بينما كان هو يربط لفائف على ندوب ساقيه ... وأخذ أودسيوس كرسيه وجلس قريباً من الموقد تلقاء بنلوب التي شرعت تحدثه وتقول : « أيها الضيف ، ما أرى بأساً أن أسألك إذا كنت أبقى هنا مع ولدي أو أختار أحداً من أولئك الأمراء فيكون لي بعلاً .. على أن رؤيا رأيتها ما تزال تضطرب في خلدي ولا أعرف كيف أعبرها . ذلك أنني كنت أقتني عشرين إوزة بيضاء ، وكنت أحبها وأرعاها بنفسي ، فرأيت فيما يرى النائم نسراً قشعماً انقض عليها من الجو فافترسها جميعاً بينما كانت تأكل طعامها من المعلف الذي أعددته لها ... ولما رأى النسر شدة حزني والتياعي على إوزي ، وقف على نتوء قريب ثم أنشأ يكلمني ويقول : لا تحزني يا ابنة إيكاريوس على الإوز فإنه يمثل عشاقك الفُسّاق ... أما أنا فأمثل زوجك النازح الذي سيعود من سفره فجأة فيبطش بالطغمة العاتية التي استباحت قصره ، وولغت كالكلاب في عرضه ... ألا يا ابنة إيكاريوس اسعدي ! »

واستيقظت من نومي مسبوهة وطرت إلى إوزي لأطمئن عليه فوجدته سالماً ... فهل تستطيع أن تعبر تلك الرؤيا أيها العزيز ؟ »

فقال أودسيوس : « أيتها السيدة الفاضلة ... لقد فسر لك الرؤيا زوجك بلسانه ... وهي لا تعني غير ما قال ... إنه قادم وشيكا لا ريب ... وإنه حامل إلى العشاق مناياهم »

واثّاقلت بنلوب ثم قالت : « أبداً ... إن هي إلا أضغاث أحلام ! إذا كان غد فإني ذاهبة إليهم فذاكرة لهم شرطاً إن استطاعوه نالني أقواهم فذهبت من فوري إلى بيته وتاركة كل هذا القصر الذي دخلته زوجة لخير زوج ، ليكون حلماً جميلا يزخرفه لي الماضي ... وذلك أنني شارطة عليهم أن يحملوا قوس أودسيوس فيصيبوا بها غرضاً يخترق السهم إليه اثني عشر (دنجلا)[1] فان أصابه أحدهم فأنا له » . وهش أودسيوس وأيد فكرتها « لأن واحداً منهم لن يستطيع أن يوتر قوس أودسيوس قبل أن يحضر أودسيوس فيحطمهم جميعاً !! »

وأشارت بنلوب إلى خدمها فأعددن لأودسيوس مُتّكأً وفراشاً وثيراً ... وذهبت بنلوب لتذرف في مخدعها دموعاً من بلور

« يتبع » دريني خشبة

(١) لم نجد في العربية — أو لم نعرف — مرادفاً لمحور القرص أو العجلة ، فأجزنا هذه اللفظة لشيوعها بين الصناع .

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧ }

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

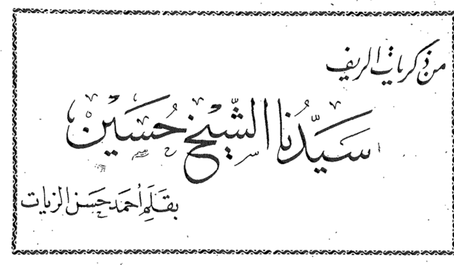
بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء ــ القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٢ — ١٢ شوال سنة ١٣٥٦ — ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى



فهرس العـــدد



كان سيدنا الشيخ حسين رجلاً مربوع القامة إلى الطول ، ممتلئ الجسم إلى السِّمن ، آدمَ اللون في اصفرار ، مستدير الوجه في غلظ ، قصير العنق في اكتناز ، عريض الجبهة في بروز ، ضيق العين في كلال ، مرسل الشارب ، مسبل اللحية ، قد شاع فيهما مشيب السنة الخمسين

وهذه هي الصفات الخَلْقية التي تثب إلى ناظريك أول ما تراه ؛ فإذا رَجعتَ فيه البصر رأيت في وسط جبينه سمة ظاهرة في شكل الزبيبة من أثر السجود ، وفي أعلى ذقنه ندبة غائرة كطعنة المسمار من أثر مشاجرة . وليس بين طول السجود وحب المشاجرة تناقض في خلق الشيخ ، فقد كان رقيق القلب مرهف الشعور ، يهتاج لأدنى باعث ، ويبكي لأقل حادث ، ويتأثر لأي خبر ؛ فهو شديد الرضى إلى حد الاستكانة ، سريع الغضب إلى درجة البطش ؛ ورضاه وغضبه لا يخرجان عن حميته لدينه أو عصبيته لرأيه . فالصوفي الذي ينسب إلى الأولياء ما للأنبياء من الخوارق يحرك قلبه ويثير إعجابه حتى ليقبل رجله ؛ و(الشاعر) الذي يغلِّب (أبو سعدة الزناتي) على (أبو زيد الهلالي) يهيج نفسه ويُضرم غيظه حتى ليضرب وجهه . يلبس العمامة الضخمة على رأسه الصغير الأصلع فتنطبق على فوديه ، وتستقر على أذنيه ، وتُلقي على محياه الأسمر إشراقاً حائلاً من التقى والهيبة ؛ ويرتدي (الزعبوط) الخشن الفضفاض على جسمه الرهل الرجراج ، فإذا مشى رفع ذيله على عاتقه الأيسر فيكشف لعينيك عن جانب من سراويله البيضاء يضرب عليها من خطوة إلى خطوة رأس تكتها السوداء الغليظة . وهو يمشي مطرق الرأس متكفئ الخطو كأنما يهبط في حَدُور من الأرض . واضطراب لحمه مع وثاقة تركيبه دليل على أن هذا الرهل عارض من عوارض الجلوس والراحة ؛ ولا يحتاج هذا الدليل من عرفه في ريِّق شبابه ، فقد قضى عمره الأول ضارباً في الأرض بقدميه وذراعيه ، حتى سخرته الحكومة فيمن سخرت لحفر قناة الاسماعيلية وترعة المحمودية . فلما عاد من الهجرة والسخرة شرع يحفظ القرآن على أبيه ليخلفه على خدمة (الزاوية) وهي مسجد القرية الصغير . وكان حفظه القرآن على الكِبَر غميزة يصيبه منها منافسوه من (الفقهاء) ، فيقولون في خبث الحاسد إن كلام الله لا يرتسم على لوحة الذهن إلا في الصغر ؛ ويجهد هو أن يفوِّت عليهم ما يقصدونه من هذا الغمز فلا يفتُر عن استظهاره واستذكاره حتى حمله على ظهر قلبه ، وأداه عن طرف لسانه

وتوفى أبوه فأصبح خادم (الزاوية) ، وقارىء البيوت، ومعلم الكتّاب، ولاحد الموتى؛ فكان نهاره كله سعياً متصلاً وحركة دائبة : ينفلت من صلاة الفجر فيدور دورته الرتيبة على الدور يقرأ فى كل منها ما تيسر من كتاب الله ، ثم يُسأل وهو ماش يتدهدى بين الأزقة عن تاريخ اليوم فى التقاويم العربية والأفرنجيه والقبطية فيجيب ، ويُستفتى عن اليوم المشئوم والميمون فيفتى ، ويُطلب منه أن يحسب النجم لهذا أو ذاك فيحسب ؛ ثم تناديه إحدى عجائز البيوت ليبنى لها الفرن فيلبى ، ويدعوه أحد الفلاحين ليكيل له الغلة فى البيدر فيذهب ، ثم يختم دورته اليومية عند الضحى العالى ، ويعود إلى الكتاب فيعلق عمامته وزعبوطه على الوتد ، ثم يقعد على شقة من الحصير ، عن يمينه (الجريدة) ، وعن يساره القلة ، وأمامه حزمة من الخوص المبلول ، وفى يديه ضفيرة يدخل فيها الخوصة بعد الخوصة وأصابعه الكزماء[1] تلوى بها من كل جانب ؛ ثم يستمع إلى أحد الصبيان وهو متربع على الأرض قدامه ، يرتجف من الخوف ويتلو عليه ما حفظ من لوحه . فإذا فرغ سيدنا من استماع قراءة الحافظ ، وعرك أذن الناسى ، وضرب رجل المقصر ، ذهب إلى الزاوية فملأ ميضأتها ومغطسها بالدلو ، ونظف حُصُرَها ومماشيها بالمكنسة ؛ ثم يصلى بالناس الظهر ، ويعود فيتغدى ، ثم يعطى الصبيان حصة العصر ، ويصرف بعضهم إلى أهليهم ، ويرسل البعض الآخر يجمع الحطب من التلول ، أو يجلب السريس من الحقول ، أو يبل له حزم الخوص فى المستنقع ؛ ثم يستبقى فريقاً لتشقيق السعف لجدل الضفيرة ، وفتل الحبال من المسد لخياطة المقاطف . فأما ذوو الخطوط الجميلة فهؤلاء على عليهم ما طُلب منه من التمائم والأحجبة : فذا يكتب (السبع آيات المنجيات) ، وهذا يكتب (السبعة عهود) ، وذاك ينقل من (الديربى) جدول التأليف بين الزوجين ، وذلك يكتب على خوصة نخلة شرقية للسعال ، أو على بيضة دجاجة سبتية للحمى . وينصرف أولئك جميعاً ويبقى أبرعهم فى القراءة فينقلب أستاذاً (لسيدنا) يحفّظه قصيدة البردة للأبوصيري شطرة شطرة ، أو على حد تعبيره هو : (شجعة شجعة). وهنا تظهر قسوة الإرادة الفتية على الذاكرة الشيخة ، فسيدنا يريد أن يحفظ البردة كلها لأنها تُنشد أمام الجنائز كأنها كتاب الموتى ، وهو حريص على أن يتزعم فريق المنشدين فى الجنازة ، يذكّر الناسين أوائل الأبيات ، ويرسم للبادئين طرائق النغم ، حتى يعتاض بهذه الزعامة عن زعامة القراء ، فإن فيهم من يفوقه فى حفظ القرآن وتجويده . ولكن ما العمل وأنا لا أفهم ما أقرأ ، وهو لا يعلم ما يحفظ ؟ لا حيلة إلا أن ينقشها فى صفحة حافظته على الصورة التى ألفناها من رسم الكلمات .

ولا أذكر كيف قرأ مطلع هذه القصيدة :

أمِن تذكُّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وإنما أذكر أنه كان على غير هذا الضبط الذى تقرأه أنت الآن ، وربما كان أقرب إلى الضبط الذى قرأه عليه أحد أنصاف الأميين من إخواننا المسيحيين إذ قال :

أَمِّ تِذَّكَّرْ جُبْرانْ بِدِّى سَلَّمْ

وما كان أصعب عليه رحمه الله من نطقه (أكففا همتا) فى قول الأبوصيري :

---

(١) الكزماء : هي القصيرة الغليظة .

فما لعينيك إن قلت اكففا همـتا

وما لقلبك إن قلت استفق يهم

فانه كان يلفظها على أنها كلمة واحدة ؛ وهى بهذا الاعتبار تلتوى على لسانه وتندّ عن ذاكرته

***

كانت لى الحظوة عند (سيدنا) من دون أولاد الكتاب ، لأنى كنت أسمع له البردة ، وأكتب له الحجاب الغالى ، وأرسم الخاتم الدقيق على رُكَب التلاميذ عصر الخميس حتى لا يستحموا فى النهر يوم الجمعة . وكانت لى الدالة على (امرأة سيدنا) ، لأنى كنت سريعاً إلى قضاء حاجها من بيت الأسرة . فكنت أُعفى من الأعمال الشاقة : كهرس سنابل القمح بالمصاحن ، ودق كَرَب النخل بالمطارق[1] ، وجر حُزم الجريد من البستان ؛ وأُجاب إلى كل ما أسأل ؛ فلا أزال أذكر أن العريف قرر ذات حين أن يأتى (الأولاد) بأغديتهم فى الصباح حتى لا يخرجوا من الكتاب فى الظهر . وأغدية التلاميذ تختلف طبعاً باختلاف البيوت فى الغنى والفقر ؛ فكان العريف الماكر يركم الطعام بعضه فوق بعض فيجعل طيبه أسفل ورديئه أعلى ؛ ثم يجمع الصبيان حول هذا الركام ويأمرهم أن يبدأوا الأكل من فوق ، فيأكلوا كارهين ، حتى إذا أوشكت أناملهم الصغيرة أن تهبط إلى الطبقات الخصيبة أعلن انتهاء الغداء ، وحمل آخر النهار كل ذلك إلى أهله ! فكان أكثر (الأولاد) يقاسون الجوع ولا يستطيع أحد منهم أن يجأر بالشكوى ، إلا أنا ، فلم أكد أعرِّض (لسيدتنا) بفوضى هذا النظام حتى حملت (سيدنا) على غل يد العريف وإلغاء حكمه

(١) الكرب : رءوس الجريد الغلاظ التى تقطع معها (قحف)

على أن هذه الحظوة وتلك الدالّة لم تستطيعا أن تحببا إلىّ الكتاب ، ولا أن تخففا عن نفسى شدة كربه . فقد كنت كسائر الأطفال أكره الكتّاب كراهتى للموت ، وأخاف من الفقيه مخافتى من الهولة . وكان أسعد أيامنا نحن أولاد الكتاب يوم يموت فى القرية ميت ! فإذا سمعنا فى الصباح الباكر صراخ النعى على بعض السطوح طفرنا من السرور وسكرنا من الطرب ، لأن هذا الميت سينقذنا طول النهار من طلعة الفقيه . فقد كان الشيخ حسين هو الذى يبنى قبره ، وهو الذى يغسله ويكفنه ، ثم يلحده ويلقنه ، وفيما بين ذلك يشارك الجزار فى ذبيحته ، ويرأس المنشدين فى جنازته . فإذا لم يكن فى القرية ميت يشغله تجهيزه ، ولا فى بعض الدور فرن يؤخره بناؤه ، فرغ لنا بنظرته القاسية وجريدته الجاسية وصيحته المنكرة . فهو فى جلسته وهيئته اللتين وصفتهما من قبل ، ونحن قعود على أرض المنظرة ، بعضنا ينقل من المصحف ، وبعضنا يحفظ فى اللوح ، وأحدنا ينود[1] أمامه ، يسمِّع الدرس القديم ، أو يصحح الدرس الجديد . فإذا عثر ولج به العثار أنحى على نخذه بالجريدة المبرومة ، ثم يأمرنا أن نجهر بالقراءة حتى يضيع فى صياحنا بكاء المضروب . ويتطاير غضب سيدنا إلى نواحى المنظرة فتنخلع قلوبنا من الرعب ، ويتداخل بعضنا فى بعض كما تتداخل الخراف فى الحظيرة إذا ما سمعت هيمة الذئب[2]

على أن سيدنا كان فى غير ساعة الدرس طيب القلب رقيق الكبد لا ينفك فى صلواته يدعو الله أن

(١) ناد القارئ : إذا هز رأسه وكتفيه على نحو ما يفعل قراء القرآن

(٢) الهيمة : صوت العدو المهاجم

يجعل أولاده من حملة القرآن وطلبة العلم

***

كان أظهر ما فى حياة الشيخ حسين غرامه بالزاوية ، فهو لا يفكر إلا فيها ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يسأل إلا عنها . هى ميراثه عن أبيه ، ويرجو أن تكون ميراثه لبنيه . أمنيته لنفسه أن يدفن فى الزاوية ، ودعوته لابنه أن يكون خطيب الزاوية ، ورجاؤه فى الله أن يعطف عليها وزارة الأوقاف ، أو يرقق لها قلوب الناس ، فيرفعوا ما خرمن سقفها ، ويقيموا ما تقوض من بناها ؛ ولكن وزارة الأوقاف مشغولة عن الزاوية ، وأهل القرية مكتفون بالمسجد الكبير ، فمن الذي يدنيه من مناله ويسعفه بآماله ؟ لا أحد إلا إيمانه بالله وثقته بنفسه . ألم يكن فى صدر أيامه بنّاء ؟ إذن لا يعوزه إلا الآجُرّ والحجارة ، وهذا مطلب مع العزيمة المؤمنة ممكن التحقيق سهل الملتمس . فكان كلما دخل داراً يقرأ فيها (الراتب) نفضها بنظره الحسير ، فإذا رأى آجرة مهجورة أو طوبة مكسورة حملها فى كمه الواسع إلى الزاوية . وكان يمشى فى الطريق ونظره إلى الأرض ، فإذا رأى حجراً أو بعض حجر لقطه وحمله إلى الزاوية . وكان يرجو بهذه الطريقة أن يتجمع له مع الزمن والاستمرار أكوام من الآجر ، لو لا أن الحوادث العوابث حالت بينه وبين ما يرجو . كانت الكلاب الراقدة فوق التلول ، أو الرابضة على العتبات ، أو الراصدة فى الأزقة والحارات ، كلما رأته ينحنى على (الطوبة) يلتقطها ، ظنت أنه يريد أن يرميها بها ، فبعضها يهجم عليه ، وبعضها يولى عنه ؛ ويدعو نباح هذا الكلب وهرير ذاك سائر الكلاب ، فيضطر (سيدنا) إلى أن يقذفها بما معه من الحجارة ، فتحمى المعركة ، ويتفاقم الأمر ، ولا ينحسم إلا بتدخل أهل الحى . وعرفته الكلاب ، فكان إذا مشى هرّته ولو لم يكن فى يده حجر ؛ فهو فى طريقه إلى الدور أو إلى الزاوية أو إلى الكتاب ، تراه متبوعاً بسرب منها تنبحه وتهم به ، حتى أكرهته آخر الأمر أن يدع جمع الطوب وأن يحمل الهراوة

***

وسمع النائمين فى الزاوية بين عَمَدها المتصدعة ، وفوق حُصُرها البالية ، يتحدثون ذات يوم بأن المنشاوى باشا ينفق الأموال فى وجوه المعروف ، ويحبس الأطيان على أعمال البر ، فهو يقيم المستشفيات والملاجئ ، وينشئ المدارس والمساجد ، ويفيض من ثرائه الغمر على البيوت الجديبة فتهتز وتورق . ففكر سيدنا ملياً وهو يضع قنديل الزيت فى مشكاته المحطمة ، ثم رجع إلى بيته ساهماً حالماً كأنما يشغل باله شأن خطير

ورآه المبكرون من رجال القرية ونسائها يأخذ طريق السوق بعد صلاة الفجر ، نعلاه تحت إبطه ، وزاده فوق ظهره ، وعصا غليظة فى يده

— إلى أين ياسيدنا الشيخ حسين فى هذا الوقت ؟

— إلى المنصورة فى شأن من شؤون الزاوية

— ألم تجد حماراً ؟

— بلى ، ولكننى فضلت أن أحمل نفسى مخافة أن يضيع الحمار

ولكن مضى اليوم واليومان والأيام وسيدنا لا يظهر فى مكان من أمكنة القرية ، فإلى أين ذهب ؟ كان يطوى المراحل ما شياً حافياً إلى (القرشية) بلد المحسن الكبير المنشاوى باشا ؛ وكان بين قرية الشيخ وبلد الباشا مائة كيل من الأمتار

ها هو ذا يهدج[١] فى الطرق الشوكاء والمسالك الحصبة والمزالق الوحلة دامى القدم مرتهك المفاصل طاوى الحشا ، يبيت ليله فى القرية التى تقابله فى المساء ، لا ينزل على العمدة ولا على الشيخ ، وإنما ينزل على خادم المسجد أو فقيه الكتاب أو مأذون القرية ممن يتوسم الخير فيه ويرجو المؤاساة عنده

وبعد عشرة أيام كاملة من السير المجهد واللغوب المضنى ، ورد مناهل الباشا فى القرشية فوجدها تموج بذوى العاهات والحاجات من طلاب الرزق ، بين صحفى يقدم وصل (الاشتراك) ، وشاعر يطلب جائزة القصيدة ، ورئيس مدرسة يبتغى نصيباً من الإعانة ، ومديرة ملجأ ترتجى حصة فى الوقف ، وطوائف مختلفات من المحتالين والعيارين والمشعوذين وأرباب الطرق ، كل يستندي كف المحسن الكبير الذى يوزع ثروته تفصيلاً قبل أن يخرجه الموت عنها جملة

دخل المسافر المجهود فى غمار الناس وهو أشعث أغبر ، فاقتحمته العيون ، وتدافعته الأيدى ، وظن الحجاب والخدام أنه طالب طعام ، ولم يدروا أنه ركب المخاطر وتجشم الأهوال ليطلب من الباشا بناء الزاوية ، فدفعوه إلى رواق فسيح كعنابر الجند تكدست فيه العجزة والمساكين على حال من البؤس لا توصف . واحتج سيدنا على هذا النمط الغريب من الإكرام ، وقال ثم قال ، فلم ترتفع إليه عين ، ولم تستمع إليه أذن . وقضى على هذه الحال الأليمة بضعة أيام لم يفتر فيها لسانه عن الاحتجاج واللجاج فى مقابلة الباشا ، والناس من حوله يضحكون منه ويعبثون به ، حتى تسلل فى غفلة الأعين ذات صباح إلى دوار الباشا فوجده جالساً فى ردهة (السلاملك)

فلم يكد يراه حتى هرول إليه قبل أن تقع عليه عيون الخدم وهو يغمغم بالدعوات ويتوسل بالنظرات ويبتهل باليدين . فارتاع الباشا الشيخ ، وصاح بالخدم أن يطردوا هذا الجرىء ، فانقضوا عليه واعتقلوه ثم أخرجوه وهو يصيح :

الزاوية يا باشا ! الزاوية ! ربنا يطول عمرك !

* * *

وفى ذات أمسية قمراء من أماسى القرية الجميلة ، بينما كان الصبيان يلعبون فى الجرن ، والشبان يسمرون على المصاطب ، والشيوخ يتعبدون فى الزاوية ، إذا بالناظرين إلى سكة السوق يرون الشيخ حسين عائداً وخفاه تحت إبطه وليس على ظهره زاد .

— أين كانت هذه الغيبة الطويلة ياسيدنا ؟

— ... ؟

— مالك تتهالك على نفسك ؟ هل أدخلوك فى المستشفى الأميرى ؟

— أمْرُ الله ! قَدَرُ الله ! قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

وأصبح الصباح فأقبل الزائرون يسلمون على سيدنا فوجدوه طريح الفراش ، عينه رمداء ، وجسده مردوع ، وقوته منسرقة . فحاولوا أن يعلموا منه سبب هذا الغياب ومصدر هذا السقم فلم يسمعوا إلا قوله : أمر الله ! قدر الله !

وتبلغت العلة بالرجل الصالح فلم يمض على أوبته شهر حتى خلا مكانه من الزاوية المعزة والقرية الحبيبة

وسكت الكتَّاب فلم يضج ، وهدأت الكلاب فلم تنبح ، وقرت الحجارة فلم تنزعج ، وعوض الله سيدنا البارّ من بيته فى الأرض ، جنته فى السماء

الزيات

(١) هدج الرجل : مشى مشية الشيوخ

الحب والتجسس

قصة بوليسية للكاتب الأمريكي جيمس جولد كوزينز

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

قصة قصيرة من وضع جيمس جولد كوزينز J. G. Cozzens الذى ولد فى شيكاغو وتعلم فى قارة أوروبا وعاش فى فرنسا وألمانيا وتزوج من برنيس بومجارتن ووضع القصص الطويل والقصير ومنها سان بدرو وآدم الأخير والرجال والاخوة . وهو فى هذه القصة القصيرة التى تنقل إلى العربية للمرة الأولى يرسم لك التجسس الحربى كأنك تراه ويحلل نفسية المرأة شيبوليث التى أوردت نفوساً كثيرة موارد الهلاك بفتنتها . وبطل القصة لدفيج يلهو بحب الفتاة ايثيل تارة وينصب الشباك ليوقع بالمرأة شيبوليث طوراً ويقتفيها متتبعاً حركاتها ومسجلا أخبارها ، وما يزال بها حتى يعثر بها فى مدينة أنتيب بعد أن نجت من حبل المشنقة على يديه . وقد نالت هذه القصة جائزة (اندرسون) ونقلت إلى بضع لغات

لما بلغت وصديقتى اثيل ثغر « أنتيب [١] » استقبلنا ماء اليم تحت أقدام البلد ، يلهو به المد والجزر ، فأخذنا بالجانب الشمالى ، وسرنا على جسر بين شقين من البحر غير بعيد ، إلى أن رأينا قصوراً وجنَّات راعنا حسنها وزينتها ، وهى التى شادتها شركة « كازينو [٢] » القمار لموظفيها وحفظة خزائنها ، وصيارفة أموالها ، ورؤساء حصَّاديها [٣] . وهى تمتد على طريق الراكب أو الراجل كأنها حىٌّ كامل ، من بلد عامر ، ذى نصيب متوافر من مفاخر فن العمارة ، بل هو عقد يزين جيد المدينة . أيَّامُ حدائقه وجناته مراتع آرام ، ومورد عذب كثير الزحام ، وليالى حجراته مطالع أنوار وأكمام أزهار وأوكار أطيار ومستودع أسرار . فنزلنا ببيت من تلك البيوت اختصنى به صديقى الدكتور شارل أحد أطباء المدينة والشركة ، وقد أضاف إلى علم الطب ثروة جديدة باكتشافه علاجاً حديثاً لداء ديزير ريفوليه [١] الأليم الذى أعجز شفاؤه نطس الأطباء . ولكنه كان بين مخالب شيبوليث ذات الخطر . كان شارل واحداً من النوابغ الذين هم على جانب من البساطة والبله . فلما استقرت بنا النوى وألقينا بعصا الترحال ، وقبل أن آخذ بنصيبى من الهناء بقرب « أثيل » التى أضنانى بعدها ، ذكرت أننى تعودت أن أنزل بفندق « ريتز » فأجد به راحتى وخلوتى وسلواى . ولما كنت خلقت ألوفاً لو رددت إلى الصبا ومنحت

(١) بالفرنسية Antibe ميناء على شاطىء الذهب فى جنوب فرنسا على قرب من (كان) ومونتكارلو شهيرة بملعب قمار وكانت من مراكز الجواسيس الدوليين أثناء الحرب العظمى

(٢) كازينو كلمة لاتينية إيطالية معناها مقر أو دار لجماعة وتطلق على ملاعب القمار الملحقة بالفنادق الكبرى

(٣) حصاد ترجمة لكلمة Crouhier وهو مساعد رئيس المائدة الخضراء لجمع نقود اللاعبين ويقسمها بين البنك وبينهم

(١) ديزير ريفوليه بالفرنسية Desir Refoulé أى الرغبة المكبوتة

قوته وجماله وإرادته ، لفارقت شيبي باكياً عليه ...
وقد فاتني الاستشهاد بهذا المغنى أثناء حوارى وأثيل عند ما قبضت على بضع شعيرات من رأسى متلبسة بجريمة البياض ، فى وسط السواد وقبل الأوان ، ولكنني أعرضت عن هذا الاستشهاد الآن لأنه وإن كان عامراً بروح الوفاء ، إلا أنه معيد لذكرى الشيب ومهدد بمفارقة الشباب وأنا محتاج إليه فى عشرتها . فرأيت أن أكتم الأمثال وأبوح برغبتى فى قضاء حق الزيارة لذلك النزل الذى أنست به وعشت فى ظلاله أحياناً

فلما طرحت الأمر بين يدى أثيل الفاتنة وشرحت لها القصد من تلك الزيارة التى كانت منطوية على رغبتي فى مراقبة الجاسوسة شيبوليث[1]

قالت لى : أتفى لمكان لمجرد الذكرى ؟

قلت لها : نعم إذا كان الوفاء قد غاض ، فلا نرجو عند أكثر الناس وفاء للود ولا وفاء للحق ولا وفاء للعدل ولا وفاء للذمم ، فإنى لا أريد أن أخون عهد هذا المكان الذى تحسبين أنه لا يحس ولا يشعر

— وماذا ترجو من الوفاء لجماد تقول إنه لا يحس ولا يشعر ؟

— إنه إن لم يجز على الوفاء إحساناً باحسان فهو لن يجزى عليه شراً . ولم أفاتحها بالطبع فى حقيقة مطلبى خوفاً من إذاعة السر الذى كنت مرتبطاً به

فقالت لى : إنك تشبه ذلك الانجليزى الذى وقف يبكى على حريق قصر بالمور وهو لا يملك فيه شبراً ولا فتراً

— إننى أفهم ذاك الانجليزى وأعطف عليه فانه لا يبكى الجدران التى تركها الحريق متشحة بسواده ، ولا ألواح البلور التى دوى صوت تحطيمها فى الجو كأنه قصف الرعد أو طلقات المدافع ، ولكن ذلك الانجليزى البكاء — وقد شهد اللهيب يتصاعد من ناحيات القصر — خُيِّل إليه أنه ليست الأشياء المادية هى التى تحترق وحدها ، ولكن ذكريات شتى تأكلها النار فيما تأكل فينبعث لها لهيب مختلفة ألوانه متباينة نفحاته ، فههنا ذكرى لذة وهناك ذكرى ألم

— أوَ تفى لذكرى فندقك العتيق قبل أن تفى لى ؟

— لِيكونَ وفائى لك أمتع وأعمق وأطول وأعرض وأجدى وأنفع !

— إننى أتركك على مضض ، وأنتظرك على نار ، وأصبر لك على عتاب مُبَيَّت ، فما وراء هذه الزيارة المعجلة وتلك اللهفة المتلفعة بثوب من الحنان سوى ذكرى لاذعة من تلك الذكريات التى تتوارى ولا تزول ، وتكمن ولا تفنى ، وتغوص فى الماء ثم تطفو ولا تغرق

فتحملت عتاب أثيل ولم يكن مبعثه سوى الغيرة وإنها لأهون على من اطلاعها على السر الرهيب . وحاولت أن أصرفها عن طول النقاش فقلت لها :

أتذكرين ذلك القصر العتيق فى وسط الطريق بين أورايخ وتولوز ، ذلك المغنى القديم الذى قيل إن أحد أمراء فرنسا شاده لمعشوقته من « النوَر »

قالت : نعم أذكره

قلت : إنه الآن مغمور بالشمس ، محفوف بصخور الجبال ، غارق إلى نصفه فى الغابة يعصف به هواء النهار وريح الليل على مر الأسحار والأصائل . فلو أن ذلك الأمير الشاعر ما زال عائشاً بعد أن هدم الدهر صرح سعادته ، وامتدت يده العابثة

---

(١) اسم الجاسوسة الدولية التى ينتوى القبض عليها

إلى قصره ، أترينه يضن عليه بزيارة كالتى جدنا عليه بها ضحى هذا النهار ؟

فأطرقت أثيل ، وقالت : كلا ! وهـذا الذى يخيفنى فأى ذكرى لك فى فندق ريتز تريد أن تحييها وتحيِّيها ؟

— ولا شك أنك تذكرين تلك العصافير التى كانت ترعى بين الدمن ، كأن صفيرها الرقيق نغمات آتية من مكان بعيد ، ولعلها ذكريات أعجز الدهر أن يمحوها

— ولكن أتذكر أيضاً كيف انفرجت الحشائش فجأة عن حيوان يثب بين الطلول فإذا هو ثعلب مفزع . فأنت لا تسمع دائما صوت البلابل ، وقد ترى أحياناً وحوشاً كاسرة ، حتى فى عالم الذكريات ، فلا بد لى أن أصحبك فى تلك الزيارة . فقلت لها : حباً وكرامة ، هيا بنا

وقبل أن نخطو فى طريقنا وردت باسمى المستعار برقية من الكولونيل روكيه يأمرنى فيها بالانتقال فوراً من بيت الطبيب شارل إلى فندق مجهول على شاطىء البحر ، لأكون على استعداد للانتقال بطريق الماء فى باخرة صغيرة ، وأن أؤجل تعقب شيبوليث إلى غد . فلما علمت أثيل بتأجيل زيارة ريتز ، كادت تطير من الفرح . وقصدنا إلى النزل الصغير الذى شاده شيخ فرنسى فى وحدة قمساء وأطلق عليه اسما مصغراً للتعزيز والتدليل « كابانون » (١) فأذكر أثيل بالكوخ الهندى الذى وصفه برناردان سان پيير وأعجبت الفتاة بهدوئه كما أعجبت بقصة پول وڤيرجينى وقالت لي :

— هنا يحلو لى أن أنام وأشرب وأعيش

— ولم ذكرت النوم ولم تذكرى الصحو ، والشراب ونسيت الطعام ، والعيشة ولم تذكري الحب ؟ قالت : النوم لأن فيـه الأحلام ، والشراب لأنه يغنى المفكر عن الطعام ، والعيش لأنه هو الحياة .

— والحياة أن تتيقظ على صوت الأمواج وتستقبل أشعة الشمس وأن تقنع بعشرة الحبيب فى خلوة صحيحة بعيدة عن فضول الأوغاد من العاذلين والحساد والنمامين اللسناء الذين خلقوا ليكذبوا ويفتروا ويفرقوا بين الأحباب

كان ذلك الكوخ الأنتيبى (١) جميلا حقاً لأنه يمثل العزلة الشماء والوحدة المتكبرة المتعالية يقصد إليه من يريده ، ولا يصل إليه إلا من يتعب فى سبيله . فكرة سامية عبر عنها صاحبها بالالتجاء إلى شاطىء البحر فى سفح الجبل ، فهذه الأمواج الصادرة والواردة تترنم بأنغام هادئة كأنها تهمس أسرارها فى أذن الرمال الذهبية التى لا يعلم عمرها إلا الذى خلقها وأبقاها ، وهذه الألوان البنفسجية تعكسها أشعة الشمس وتداعبها وترقصها وتحتضنها وتقفز عليها فتتولد منهـا ذرات من النور الملون تخطف النظرات من الأبصار كأنها لمحات الفكر فى لمحة منه لمحات التجلى الروحى . وهنا يشعر الانسان بأنه جزء لا يتجزأ من هذه الكينونة الكاملة ... الله ! فينسى الماضى والحاضر والمستقبل ؛ وفى طرفة عين — بل فى طرفة روح — إذا صح هـذا التعبير — يتلاشى الزمان والمكان

النور ... نبع الفن الفياض ولباس السعداء ، النور الذى يفرحنا ويسرنا لأنه يطابق المعرفة الكاملة القائمـة على التأمل ، والتأمل حيـاة الحكماء . لقد أدركت الأديان قديماً سر النور ولا سيما فى الشرق فجعلت من النور « النعيم السرمدى »

(١) Cabanon تصغير كوخ . ويصح أن يسمى كويخاً !

(١) نسبة إلى انتيب وأصل اسمها أنتيبوا أى وراء الغابة

وخلقت « هرمز » الغارق فى النور الصافى ؛
وإهرمان الغارق فى الظلام الأبدى

وكنت صامتاً فأخذت إثيل بيدي وسألتنى عن تفكيرى فقلت لها وأنا أنظر فى عينيها :

— أفكر فى الجمال وهو الشعاع الأول من هذا النور السماوى ، وهو الرسالة السامية الموجهة إلى هذا العالم الأرضى من الذى قال للنور كن فكان ، والذى خلق الانسان وجعله أجمل الكائنات وجعل المرأة أجمل من الرجل وجعلك أجمل النساء !

فضحكت إثيل وقالت :

— هل هذا الذي يشغل بالك ؟

قلت : نعم ، لأننى حين أرى عجائب نظام الوجود إنما أجد صورة أحملها فى عقلى ، وإننى إذ أحمل هذه الصورة أستطيع أن أندمج فى الطبيعة وأسمعها هامسة فأفسر همسها وأصيح بها : « هذا الذى حاولت أن تقولى » إن الطبيعة نفسها تستطيع أن تفهم نفسها والعقل لا يفهه إلا العقل ، وحين يتم الفهم لا يبقى من كل ما يشغل العقل أو يستهويه سوى شيئين : الحب والجمال ، الحب أولا لأنه هو الأعم الأشمل ، والجمال ثانياً لأنه أحد مظاهر القوة التى تربط العابد بالمعبود إلى الأبد ... إلى الأزل ... وفيه تنطوى أسمى معانى الخلود والبقاء

— ٢ —

البحر والنور ، وموسيقى الأمواج ، وهبات النسيم ، والمقاعد الوثيرة ، والحرية المطلقة ، والوحدة الهادئة ، تلك أدوات الحياة فى « الكابانون » وتلك هي التى تحبها إثيل ، ولكننا لم نكن الضيفين النادرين اللذين صادتهما محاسن ذلك الكوخ فقد كان هناك نساء ورجال بلغت بهم السن ذروتها فهم يؤثرون أن يقضوا أياماً بين المياه الصافية والجبال العالية يتلهون عن أثقال الشيخوخة بمشهد الشباب خفيفاً حمله ، لاعباً لاهياً ، مستمتعاً بلذات الشباب وما الحياة إلا الشباب !

وكان مشهد إثيل فى ثوبها الأزرق المنقول بلونه وتطرزه عن ثوب « نورماشيرر » حذوك الغرزة بالغرزة والخيط بالخيط ، وقبعتها الصغيرة التى تنحسر عن جبينها الوضاء ، وشعرها القسطنى الذى يعبث به الهواء ، وعينيها العسليتين الناعستين — كان مشهد جمالها وشبابها ومرحها ورنات صوتها — يبعث فى نفوس العجائز تذكار ساعات من العمر زاهية ، ولذات فى الحياة ماضية ، وقد تكون الذكرى سلواناً وإن كانت لفائت لا يعود . فقد كان كل ما حولنا من الكون ينمو ويبسم للحياة

وبعد أن أخذنا قسطنا من الراحة على تلك المقاعد الوثيرة تجاه البحر والجبل ، انتقلنا إلى إحدى الغرف التى أعدت للنازلين بأعلى الكوخ الصغير وهي مطلة على الألب ماريتيم [1] وشاطىء الذهب ، ومشرفة على المدينة الصغيرة التى تبدو عن بعد كباقة أزهار متعددة الألوان . فكان أول ما عنيت به « إثيل » تصفيف الكتب والمجلات التى حملناها فى متاعنا ، وكان همها الثانى العناية بكلبنا العزيز فيثفل الذى تعلق بها ، وانتقل جزء من حبه إياى إلى سيدته ، فهو يتبعها أنى ذهبت ، وينظر إليها بعينين ملؤهما الاخلاص والوفاء حتى ليكاد ينطق بعبادتها .

فلما بدلنا ثيابنا نزلنا للغداء ، وكان من سمك الدراك وحساء الخضر وفاكهة ونقل ونبيذ جراف الذى خزنه صاحب الكوخ فى كهف عتيق فى أحد بيوت أنتيب القديمة ليكسب لذة القدم ، وصفاء اللون ولذعة « باكوس » ذات النشوة المدهشة

ولما أن فرغنا من غدائنا « التنسكى » [2]

(١) سلسلة جبال (٢) نسبة إلى التنسك

وجلسنا نشرب القهوة بلغتنى البرقية التى كنت أنتظرها ، وفيها الأمر بمراقبة شيبوليث فأردت أن أذكر إثيل بزيارتنا لفندق ريتز

وكانت أنتيب فى تلك الفترة كمدينة بيارتز ، مستقر التجسس الدولى يصلها فى كل قطار أفراد وجماعات من كل جنس ولون ، يجتمعون ويتفرقون ويتبادلون الأسرار ويدونون ما يصلون إليه من الأخبار بأنواع من اللغات الرمزية ، وكلهم خبير بفنه ، دقيق فى عمله ، حريص على الكتمان ، ولا سيما النساء منهم اللواتى كن منجمَ الفتنة وعشَّ الدعارة ، ووكر البلاء ، ومنابع الدماء ، ومنابت الردى ، ولا سيما أولئك النسوة اللاتى اتخذن انتيب وبلدة « بيارتز »[1] وكان ونيس[2] مَرْسَى لدعائم الشرحتى وصفها «بومبانجيه» رئيس الخفية الفرنسية بأنها مدن عشَّش بها الشيطان وضرب فيها قبابه !

ومن أشهرهن تلك المرأة التى اعتقلت فى وكرها كالأفعى المطيبة ، وسلط عليها سيف المجلس العسكرى برأسه الكولونيل فودرويان . فكادت تصافح الموت وتعتنق قبراً مجهولاً فى ضواحى مونتكارلو لولا أن رجلاً صحيح النية ، خالص الضمير ، ظن نجاتها تورثها التوبة فتغسل بدموعها دماء إساءتها فتعفِّى على ما كان من جرمها ، وتقلع عن مزج خبزها بدماء ضحاياها ، فتدخل فى الأمر وتوسط وتشفع وتوسل حتى خلص عنقها من الحبل الذى فتلته بسوء فعلها ونسجته من خيوط شرها ، فما لبثت أن فازت بجلدها حتى رجعت عن توبتها ، ونكصت على عقبيها ، ولم تذكر تذللها وانهيار ضميرها ، وتهدم نفسها ، مذ كانت أنفاسها معدودة وحفرتها معدة ، وهلاكها محققاً . أتذكرين تلك المرأة التي أظهرت الصحف صورتها وسجلت أسماءها وألقابها ووصفت ماضيها وأوردت أخبار أهلها وذويها ؟ ولا يزال بعض الناس ولا سيما الذين تعاونوا على إنقاذها من براثن الكولونيل فودرويان[1] محتفظين بقصاصات من تلك الصحف ومثل من صورتها ناطقة وهى لا تختلف كثيراً عن حاضرها .

كانت تلك الخواطر تجول بنفسى عند ما تأهبنا للزيارة ولم تتخذ إثيل زينة نادرة ولم تتحل بشىء من حليها الغالية ، وقد قنعت بلبس فستان بلون البن المطحون ، وجعلت حول عنقها عقداً من اللآلىء الصغيرة له واسطة من حجر العقيق عليه نقش حمامة ، وتقبعت بقلنسوة من لون الثوب مقصوصة على شكل جناح الطير

فكانت لها تلك الروعة الغريبة التى تعبر عن الجمال وشدة الجاذبية

وأمسى منظرها مشبعاً بالأحلام والسحر فبعث فى نفسى نشوة غريبة وفيضاً قوياً ، وأخذت أسأل نفسى :

— ألها هذه المكانة من نفوس الآخرين ؟ فان كان كذلك فويل لى ، فان كل الرجال يعشقونها ، وويل لها لأنها سوف تمشى فريسة الاستهواء والغواية ، وهى مصدر تلك اللذة المجهولة التى ينبثق سحرها من نظراتها ومن صوتها على هذه الهيأة التى تعجز أداة التصوير عن أداء بعض حقيقتها . انتقلنا إلى فندق ريتز ، فوصلنا بعد أن عدنا أدراجنا على جسر البحر وتوجهنا إلى يسار خط الحديد ، وكان

(١) مشتى جميل على شاطىء المحيط الإطلنطى من أعمال اسبانيا

(٢) مثل بيارتز ولكنهما فرنسيتان على البحر الابيض

(١) نشر الكولونيل برافوم ديلافرتيبه مذكراته عن أسرار الحرب العظمى وأفاض فى سرد هذه الحادثة (مطبعة كوندورسيه باريس)

الفندق حافلا بالأضياف الذين انتشروا فى ردهاته وشرفاته وحول شجيرات حديقته المصغرة التى كنت أشبهها بحديقة ليلييوت[١] . فكان نصيب إثيل من نظرات الرجال والنساء ما كان بين حاسدة إياها وحاسدى ، ولكننا كعادتنا لم نبال ولم نعر أحداً التفاتاً ، لأن معظم البلاء فى اعتداء الناس عليك ناتج من تشجيعهم بالنظر إليهم والاكتراث بهم . وقديماً قالوا : « من وطأته الأبصار وطأته الأقدام ! » فكان لهذا التسامى عن الناس أثره الطيب فى حمايتنا من الناس .

وقد اتخذنا مكاناً قصياً وأخذنا نرقب المارة ونتبع بأنظارنا قاطرات البخار فى رواحها وغدوها وأستعيد بمفردى ذكرياتى ، وإثيل صامتة فى حيرة من أمري : أبرىء أنا من حب النساء كما أدعى أم محب قديم جئت أحج إلى كعبة غرامى الذى تحطمت أصنامه رغم أنفى ؟ ولكننى كنت بمنجاة من سوء ظنها ولو قليلا لأنها قبلت الاقتراح فى اصطحابها لزيارة هذا الفندق الكبير

— ٣ —

ولم نوشك أن يستقر بنا المقام ونحتسى الحسوة الثالثة أو الرابعة من الشاى حتى دخل الدكتور شارل صاحب الفضل الأول والآخر (إلى يومنا هذا) فى اكتشاف العلاج لداء ديزير ريفوليه الأليم ومعه امرأة لم أتبينها فى أول الأمر . ولكننى عند ما تحققت شخصيتها أدركت سر الأمر بانتقالى من دار ذلك الطبيب . ونظرت إلى إثيل فاذا لونها ممتقع ووجهها باهت ، وقد تقلصت عضلات الابتسام ، واصفر الأنف وارتعشت الأطراف وكادت الأسنان تصطك ، وقد رجعت إلى الوراء كأنها حيال أفعى قاتلة من أفاعى الهند الصاعقة الساحقة التى لا ترحم بشراً ولا تخشى وحشاً كاسراً

فنظرت ورائى فاذا بها ... المرأة ... شيبوليث اليهودية الحسناء الملعونة التى كان لى معها تلك الفاجعة الأليمة منذ عام .. وكانت اختفت عن الأنظار وانقطع ذكرها على الألسن والأسماع ، وظنت فئة من الذين يحسنون الظن بالأقدار والأيام أنها قضت فيمن قضى فى كارثة الباخرة « ديادیم » التى غرقت ، أو أنها بخعت نفسها ندماً وجزعاً من الصورة التى تركت عليها ضميرها بعد اتصالها بكل رجل من الرجال الأربعة أو السبعة الذين كنت آخرهم . أو أن شهماً من هؤلاء الفتيان الذين يفضلون الكرامة على الهوى ويجعلون الفضيلة أولا والشهوة فى المحل الثانى قد طعنها بخنجر أو أفرغ فى جلدها الشيطاني درها من الرصاص المسمم

ولكن لا ! لا هذا ولا ذاك ولا تلك . وهاهى ذي شيبوليث اللعينة ماثلة أمامى ، شاخصة إلىَّ ببصرها ، محدقة فى وجهى بعينيها الساحرتين ، ثم تقلب أجفانها فى إثيل ، وهى تحرق الأرم وتكاد تنشب فيها أظفارها لتفترسها لغير ذنب سوى أنها رأتها فى صحبتى وأنا تلك الضحية الوحيدة التى أفلتت من يدها ونجت من حبالها بمعجزة إلهية . ولعلها شعرت بغريزتها الشيطانية أن أوان الانتقام والعقاب قد حان ، وأنها إن خلصت من حبل المشنقة بالأمس فلن تنجو اليوم أو غداً . وقبل أن يفيق الدكتور شارل من دهشته بلقائى ، أو يختم صيغة الترحيب المتفق عليها بين أفراد تلك الطبقة بادرت إلى تنفيذ عقد سرى متفق عليه بينى وبين الجاسوسة شيبوليث ، فحييتها كأنى لا أعرفها ، وقبلت يدها على ما يقضي به

(١) يشير المؤلف إلى شعب الأقزام الذين لقيهم جوليفر فى أول أسفاره

ذلك العرف السخيف المجلوب إلينا من روسيا القيصرية والمحبوب لدينا بعد أن استمرأنا طراوة الأكف الناعمة والأنامل اللينة .

وفي الحق أنني عند ما قال الدكتور شارل «مدام راشيل لوكسمبرج» حدثتني نفسي بأن أقطع يدها بأنيابي قبل أن تنهشها بأنيابها . وقد أطلت القبلة وأحسست برد يدها وأحسست هي أن شفتيّ تنفرجان فسارعت بسحب يدها باسمة بفمها وهي تنثر الشرر من عينيها

وقد كان بالي منشغلاً باسمها الجديد المستعار وبالصدمة التي سوف تصيب الطبيب عند ما يقف على حقيقتها ؛ ولم ينبهني من ذهولي إلا قولها لي : « طالما اشتقت إلى رؤيتك بعد لقائنا الأول على مقربة من هنا في مدينة كان، وإقامتنا القصيرة في مونتكارلو .. »

وكان الدكتور شارل لاهياً عنا في تلك اللحظة كعادته عند ما يستغرق في أفكاره التي تدور في ذهنه حول العلاج الجديد الذي اكتشفه لمرض « الدزير ريفوليه » فلم يسمع إلى ما قالته مدام شيبوليث ولكن الآنسة إثيل نظرت إليّ نظرة إدراك وعتاب

ففهمت أن رؤيتها استثارت في قلب شيبوليث دفين حقدها وهي امرأة تغلي في قلبها مراجل العداوة والحسد والبغضاء على الرغم من جمالها وذكائها وفطنتها . ولعلها ورثت من أهلها من الحفائظ ما يحلل حقدها على الدنيا بأسرها ؛ فلما هاج هائجها ورأيت ما يعقب ذلك من سوء الأثر في نفس الآنسة ، حاولت باللطف واللين أن أستل سخيمة قلبها وأطفئ نار غضبها لأنني عرفتها بذيئة اللسان سبابة قوية في الغميزة ، فأردت أن أتقي قوارصها ونواقدها ، فلم أجد مخرجاً بغير مجاملتها وملاطفتها وإن كنت لا أصبر للآنسة على موجدة ، فقلت للمرأة :

— أي نعم ! ياسيدتي ، أذكر لقاءنا الأول على شاطئ كان ، وإقامتنا في مونتكارلو ، فقد كان لقاء موفقاً وإن لم نكن على موعد ، وإقامتنا السعيدة وإن كانت قصيرة الأجل قد انتهت بطول الأجل لبعض الناس !

فقالت : مازلت أترصد ورود كتاب وأترقب بلوغ خبر منك ، ولكنك أغفلت ذلك ولم تحفل بما كان بيننا من مودة

فنظرت إليّ الآنسة إثيل وهي مصيخة للحديث مصغية إليه واعية لكل مافيه فاذا نفسها قد نهضت وفارت

وكان الدكتور شارل أخذ يحيي إثيل ويرحب بها وهي عنه لاهية لاتعيره أذناً

فقلت : لئن تلبثت ياسيدتي في الاتصال بك بالبريد الجوي أو السريع أو المتباطئ فليس معناه أنني نسيتك أو تهاونت في شأنك . وما كان أحوجني في تلك اللحظة العسيرة إلى مداراتها ومساءاتها

فلم تفتها غايتي من تلطفي بها وعلمت أنني لا أفعل ذلك إلا حرصاً على كرامة الفتاة التي معي وطهرها وعفتها وأدبها

فقالت : من الناس من يكفر نعمة الاخلاص ويغمط إحسان الوفاء ، ومن هؤلاء من لاطاقة لهم بالقيام بحرمة الصنيعة

فقلت في نفسي : « لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » وما هذه المرأة إلا روح متمردة متقمصة من أرواح هؤلاء الجنود . وقلت لها : صدقت ! وبدأت أنظر إلى الدكتور شارل الذي كان يشرح لإثيل أعراض الداء الذي وفق إلى علاجه وأنا

أنتهز فرصة للفرار من هذا الميدان ، فان المرأة توهمت أننى صرت فى ملكتها وأنها تسترقنى وتستبدنى لأنى أريد ألا تستطرد فى حديثها بمسمع من الآنسة . وإذا أنا أفكر فى وسيلة الهرب من تلك المرأة أراها تحدج بى وتدقق النظر فى وجهى كأنها قرأت فى صفحته أننى أحمل فى هذه المرة نذير هلاكها وأتربص بها الدوائر

فقالت : أوه ! أوه ! يا موسيو لودفيج لقد وخطك الشيب ، وقلب لك الزمان الذى كنت لا تبالى به مِجَنه ، فعاضك من نضارة عودك ذبولاً ومن سواد فوديك قتيراً

فقلت لها وأنا أحرق الأرم :

— نعم ما من رجل إلا نقض الدهر مِرّته وألان عريكته . تلك سنة الطبيعة ، وقد ودعت شبيبتى التى طارت وداع محب هادىء لم يطر الفراق لبه ، ولم تعصف بعقله رياح البغضاء والهجر والقطيعة ، فلم أشعر قط بالاخفاق والخيبة

— الأمر ظاهر فانك لا تترك فرصة حتى تنتهزها ومثلك إذا واظب على الرقص على هذا التوقيع لا يهرم ولا يحدودب حتى إذا لفعه الشيب ووخزه الكِبَر وأكل عليه الدهر وشرب

وكان الغيظ قد بلغ من الآنسة ومنى مبلغه ولكننى أنفت أن أسلم لهذه المرأة بالهزيمة قبل القبض عليها فضحكت وقهقهت لعلى أفيق ذلك الطبيب الغارق فى دائه ودوائه ، ولكن هذه الاستغاثة ذهبت أدراج الرياح . وكنت أظن أنه أعز جواراً وأمنع ذماراً مما رأيت ، ولكن المسكين كان كالسكران بخمرة كشفه عن أسباب الداء وأبواب الدواء

فصحت عزيمتى على أن أخنقها بوترها وأرميها بحجرها وأرد كيدها فى نحرها وتحفزت لذلك واستعددت له وإن كان حياء البنت وخفرها يعوقني ويلجمني ويعقد لسانى

فقلت : أتذكرين يا سيدتى الجواسيس ، ولا سيما الذين حكم عليهم بالاعدام فى مونتكارلو فى العام الماضى ، من هلك منهم ومن نجا ولو إلى حين ؟

— ٤ —

فاصفرت شيبوليث ، وارتعدت ، وجمد الدم فى عروقها ، ولهثت ، وضاق نفسها ، واختنقت واكفهر وجهها وتجهمت ، واتسعت حدقة عينها اليسرى ثم ضاقت كالسنور الذى يثور قبل أن يهاجم جرذا ، أو كالأفعى التى توشك أن تنفث سماً لتلسع مهاجماً ... ثم ملكت ناحية غضبها ، وربطت حزمة أعصابها بسلك من فولاذ إرادتها وكظمت غيظها وقالت :

— تدهشنى قوة ذاكرتك كأنها بئر عميق لا ينضب ماؤه !

— أو جُب مظلم يخفى فى جوفه أشلاء أشرار ، وجماجم فجار ، وهيا كل قتلى الغرور والنميمة

فالتفتت شيبوليث نحو الطبيب الذى مازال ساهياً لاهياً كالأصم وسط المعركة الحامية تستنجده لينقذها من المأزق الذى ألقت بنفسها فيه ، وقالت : هذا الشاى قد برد ، والزبدة تجلدت والمربى تحول لونها والخبز المقدد تقلصت خرومه حتى عاد كالأسفنج القديم !

فألقى الطبيب نظرة زاهدة على المائدة ، وقال :

— أنت تعلمين أن الشاى ينبه أعصابي ، والزبدة المثلوجة الممزوجة بحمض البوريك (١) تسممنى ، والمربى تزيد مقدار الجليكوز في كبدى ، والخبز المموه بالدسم يؤذى طحالى

(١) قد أثبت التحليل الكيماوى أن هذا الحمض يضاف إلى الزبدة ليحفظها من الفساد

— ولم إذن طلبت الشاى المستوفى ؟ (تيه كومبليه)

— لأجل ضيوفى ولأجلك

— أتظن أننا نستهدف لأخطار تلك العلل التى أجدت سردها وأحسنت تشخيصها ؟ إنك كرب الدار الذى يقدح في طعامه ليمسك المدعو عن الأخذ منه ! فقالت الآنسة آيدا :

— ولا سيما وقد غابت الشمس وجنحت

شيبوليث — وما لنا وغياب الشمس وحساب الساعات ونحن وأنتم فى نزهة ! فقال الطبيب :

— هل الدهر إلا ليلة ونهارها تقضيهما فى العمل واللعب ؟ وهل الحيـاة كلها سوى طلوع الشمس ثم غيابها . فأجابت الآنسة إثيل :

— لقد أتينا فى شباب النهار ، ولم نأخذ قسطنا من الراحة وقد مال ميزانه

شيبوليث — أية راحة تعـدل لقاء الأصدقاء ومسامرة الأصحاب

الآنسة — ولـكن هذه القطر الرائحة الغادية غير منقطعة تؤذي سمعى ، وتهز أعصابى ، ولا أظنها إلا فاعلة بك وبالسيدين ما أحسه وأستشعر به

— أما أنا فتعودتها ، وصار يحلو لى أن أرقبها وأعدها وأنظر إلى سيول النـاس منهمرة ، تدخل وتخرج ، وتصعد وتهبط ، وتجتمع وتتفرق ، وتندفع وترابط كلما فتحت بوابة المنزلق وأقفلت ، كأنهم وكأنها قناطر الماء أو نبض الحياة ، وحركة الـكون . وكنت لأول عهدى بالاقامة فى هذا الفندق أحلم فى نومى بالقطار وصفيره وهزته ورجته وهرج المحطة ومرجها ، وأفزع أحياناً من رقادى على صوت قادم أو استعداد راحل ، ولـكننى صرت الآن أطمئن لتلك الضوضاء اطمئنان الطفل إلى أغانى المرضعات . أليس الأمر ما أقول يا موسيو لدفيج ؟ أو أنك تحسبها طفولة ثانية وأننى أقضم الحلوى بالأسنان الخضر ، ولا أعلم بعـد علم شيئاً كما وقع لصديقك هاجنباك قبل أن يلحق بأسلافه . وكان هاجنباك أحـد جواسيس الألمان الذين أعدمهم الفرنسيون ، فضحكت ضحكة الانتصار وضحكة التلذذ بحديثها المبثوثة في جوانبه النكتة المفاجئة والمفارقة الطريفة ، وأدركت أنها تريد مهادنتى (أما المصالحة فلا !) بادخال السرور على نفس الآنسة التى لم يكن بينهما ثأر ولا ضغينة مبيتة ، فلم أشأ أن أنفخ في نار عدائها التى أوشكت أن تصير رماداً ولو إلى حين وتركت عنانها على غاربها وأرهفت أذنى لأكون رقيباً على قولها ، وتظاهرت بالانشغال عنها بحديث صاحبها الطبيب الذى لم يكن شىء يستهويه ويملك عليـه مشاعره غير الأدواء النادرة والعلل العجيبة والأدواء الغريبة . وفي تلك اللحظة جاء أحد الخدم برسالة إلى شيبوليث يحملها فى طبق من الفضة . فما لبثت أن فضتها حتى عبست ، ثم ابتسمت تصنعاً لتدارى علة عبوسها ، ونهضت معتذرة . نخفت أن يكون شريك يقظ من أفراد عصابتها الدولية قد أنذرها وحذرها وأنها مولية الفرار قبل أن أتمكن من أداء واجبى الذى ينحصر فى تضييق الخناق عليها . وانتهزت إثيل هذه الفرصة ودنت منى وقالت :

— هل عرفتها من زمن طويل ؟

قلت : مَنْ هى ؟

قالت : تلك التى لا أحب أن أسميها والتى تنتظرها بفارغ الصبر . فقلت بينى وبين نفسى : لقد قلت حقاً ولـكن لست أفسره ! ثم خاطبتها :

— آه تقصدين لا ريب إلى شيبوليث

— لم أستطع قط أن أنطق باسمها

— إنه لفظ عبرى ورد فى التوراة معناه سنبلة وقد إتخـذه المحاربون من بنى إسرائيل كلمة سر أو جواز مرور ضد خصومهم فى بعض وقائعهم

— وكيف وصلت هذه التسمية إليها ؟

— هذا ما لا علم لى به

— كيف عرفتها ولم تقف على سر اسمها ؟

— لم تصل المودة بيننا إلى هذا الحد

— وكيف تغار منى عليك إذا لم تكن مودتكما معتقة كهذا النبيذ على الأقل ؟ قلت : عرفتها جاسوسة وعرفتها زوجاً ليهودى اسمه ليفى برهلمان كانت تعنفه فى الصباح والمساء تريد أن تسيره فى الصغيرة والكبيرة كما تشاء وتهوى

— هذا لا يدهشنى فقد زودتها الطبيعة بلسان أحد من السيف ، وإرادة قوية كالفولاذ ، وذكاء نافذ كالسهم المسدد ، وقلب يغلى بالغيظ والحقد أين منه مراجل البخار

— إنك تصفينها كما لو أنك عرفتها منذ أعوام

— وهل كانت محبوبة لدى زوجها ؟

— نعم كان يحبها ويتفانى فى رضاها ، فإذا هاجت عليه وأنشبت أظفارها به وسلقته بلسانها يتمتم قائلاً : « لا بد لـكل نقمة من آفة ، ولا بد دون الشهد من لسعات النحل »

— لا أظن زوجها رجلاً كالرجال

— كان كهلاً قصير القامة مستدير الوجه قد طغى الشيب على رأسه الضخم ولحيته الـكثة وحاجبيه البارزين المتهافتين على عينين فيهما حدة وبريق كأنهما سراجان وهاجان أين منهما نور الـكهرباء ، وفى جبهته الواسعة العالية أسطر مستطيلة عميقة متوازية كأنها نقشت بيد راسم لا يخطئ فى مد الخطوط المستقيمة

— كأنك تصف فاوست الحكيم قبل أن يبيع قلبه إلى الشيطان

فضحكت وقلت :

— ما أصـدق وصفك ! سواء أكان ليفى بروهلمان فاوست أو مفستو فإنه كما وصفته وأذكر من كلماته فى زوجته قوله : « إن الحـكمة تتدفق من شفتيها كاسمها ، حقاً إن دم إسرائيل الزكى ليجرى فى عروقها »

— قلت لى إن اسمها « سنبلة »

— ومعناه بالعبرية غدير أو نهر ، فكان الرجل غارقاً بين السنبلة والغدير ، وكان على الرغم من حبه إياها وإعجابه بها وبدمها الزكى يعلم أنها عريقة فى حرفة الزوجية بصيرة بأنواع الأكاذيب التى تخرج من الورطات وتنقذ المرأة الـكذوب من أحرج المآزق

— فضحكت عايدا وقالت :

— لعل عشيرها الحاضر الدكتور شارل يستنبط دواء يتجرعه الرجل فينقاد لزوجته انقياداً أعمى ثم يقنع الانسانية المتطلعة للانقاذ على يديه بأن الحضارة لن تبلغ شأوها الأعلى حتى يصبح للزوجات الأمر المطاع . وفى تلك اللحظة عادت شيبوليث فابتسمت لأثيل وقالت لها :

— ما أجملك وأذكاك ! لقد أحسنت الطبيعة إلى الدنيا بك وبمثيلاتك ، ألا إن الروعة والجمال والفرح لمن حبتهم الطبيعة بالادراك ، ففهموا سرعة الدهر وقوة سيره وكر الغداة ومر العشى ؛ أما النـدم والحسرة فللذين لم يدركوا ، فتباطؤوا

الأولون علموا أن تحصيل اللذة الراهنة غاية الحياة ومرماها وهدفها ونهايتها ، والآخرون هم الذين توانوا وتمسكوا بالفضائل فانتظروا حتى أفلت الزمان وانفلتت الأيام من بين أيديهم ساخرة من تهاونهم ، فلما انتبهوا كانت الفرصة الذهبية قد غادرتهم صرعى الهموم والندم

فدهشت ايثيل من روح الاباحة فى حديث شيبوليث وقالت : فى اعتقادى الذى يحلو لى أن أتمسك به أن الواجب يقضى علينا أن نكتم أنفاس اللذة الشريرة على قدر الطاقة وأن نشجع اللذة الخيرة .

شيبوليث — إذا فعلنا هذا محونا الضمير وأسقطناه من حساب عقولنا ، ولا شك فى أنه يموت من تلقاء نفسه بتعطيل وظيفته لأننا ما دمنا لا نشتهي إلا الخير ولا نقصى إلا الشر فإن الضمير يستغرق فى نومه كما استغرق هذا الكلب الجميل تحت قدميك آمنا مطمئناً ، لأن الحاجة إلى يقظته ومراسته معدومة ، والضمير كلب الحراسة الذى ينهض كلما وجد داعياً ليقظته

وفى تلك اللحظة حدث أمر غير منتظر ، فإن شيبوليث لم تكد تفرغ من ذكر الكلب الحارس ويقظته حتى نهض فيثفل ونبح فى وجهها نبحة حادة شرسة وأخذ يهتز بالغيظ وهو يوشك أن يهاجمها . ففزعت المرأة وجزعت وأخذتها رعدة الخوف وتناولت قدحا من الماء ورفعت يدها لتقذف به وجه الكلب الأمين ، ورأيت الغضب يرتسم على وجه الآنسة ع كما ارتسم الرعب على وجه المرأة .

فقبضت على معصمها وقلت لها : حذار أن تفعلى لئلا يطيش حلم الكلب فلا نقدر على حمايتك منه . وخلصت القدح من أناملها التى استماتت عليه فقالت :

— لم يخطر ببالى أنك تصحب كلباً مستوحشاً غير مكمم لتحثه على مهاجمة أصدقائك . فإن التسلح بالكلاب الشرسة الغليظة علامة على الخوف الذى يخالج قلوب أربابها

قلت : أنت مخطئة يا عزيزتى فإن كلبى وديع هادىء ، ولكن له ضميراً وكرامة ؛ فلما هاجمته وادعيت أنه نائم ككلب أهل الكهف انتبه ليثبت لك وجوده الأدبى ؛ وليس للكلاب وسيلة للتعبير عن أفكارها غير هذه . وفى الأمثال القديمة : لا توقظوا الكلاب النائمة

شيبوليث — وقالوا : على نفسه جنى غليوم تل ، لأنه استهدف للأخطار باختياره

— ولكن كلبنا اسمه فيثفل ، وخير لنا وله أن نعود إلى حوارنا الهادئ . كنت تقولين إن الضمير يتعطل إذا اتجهت نفوسنا إلى الخير المحض ، ولكن الخير فى نظرك أمر اعتبارى ونسبى فلا يمكن أن نصفه بالمحض . وخلاصة القول فى هذا البحث اللذيذ الذى أثرت ريحه على غرة منا ومن كلبنا أن الإنسان لايميل إلى الخير دائماً ولا إلى الشر دائماً ، وأن الضمير يحتاج إلى حكم العقل أولاً ليستيقظ ، لأن الحكم على ما يتفق والفضيلة أو يخالفها يحتاج إلى ميزان العقل ، والعقل يخطئ ويصيب بالنسبة للزمان والمكان والافراد والجماعات ، كما أن العقل خاضع لقانون الوراثة وقيود التقاليد وأغلال العرف والقوانين الوضعية ، فإذا خضع الضمير للعقل أمسى عرضة لتضارب أحكامه

فتجهم وجه شيبوليث ثم استدركت خلقها فبشت ودعتنا للعشاء فرجوت إيثيل أن تخاطب إدارة فندقنا فى الاعتذار ، ولم يكن مقصدى إلا أن أبعدها عن حلبة المعركة فانفلتت فى المدخل

وقالت شيبوليث :

« قيود » التقاليد و « أغلال » العرف ! مادخل القيود والاغلال ... ؟ أتكون فى هذه المرة ؟ ولم تكد تنتهى حتى أحاط بها رهط من رجال الخفية الحربية يقودهم كولونيل « لاروك » نفسه ،

وسرعان ما أخرجت من حقيبة زينتها الثمينة مسدساً أنيقاً من الصدف المنزل بالفضة وصوبته إلى صدرى وأطلقت ، فانحنيت ومرت القذيفة فوق هامتى واستقرت فى ظهر الطبيب الذى كان لاهياً فى تشخيص المرض الذى اكتشف دواءه . ولكن الشرطيين قبضوا عليها وكبلوها بالأغلال والقيود

فقالت : لست جاسوسة . أنا بريئة . هذه وشاية دنيئة وبلاغ كاذب . فقال لها الكولونيل وهو يدس يده فى ثيابها : ان لم تكونى جاسوسة فأنت قاتلة . وهاهو ذا قتيلك الدكتور شارل يشهد عليك دمه بأنك لا تؤذين إلا الذين يحسنون إليك . وساقها الجند إلى سجن أنتيب حيث سبقتها زمرة من شركائها فى انتظار المحاكمة أمام المجلس الحربى الأعلى

وعادت إيثيل والكلب فى أثرها . فأشرت إليها بألا تتقدم خطوة ، خشية أن تبصر بجثة الطبيب الذى كان يتحدث إليها منذ برهة وصار الآن يتخبط فى دمه ، فسألتنى وهى لهفى :

أسمعت طلقة المقذوف ؟ وأجبتها متجاهلاً : أى مقذوف ؟ لعلها فرقعة إطار المطاط فى عجلة لسيارة جامحة ... وهرولت إليها قائلاً :

« لم يبق لنا إلا أن نقضى أيام الراحة بعد التعب فى فندقنا اللذيذ نداعب كلبنا الأمين فيثفل، فهيا بنا ! »

فقالت : أين شيبوليث والطبيب ؟

قلت : لقد انطلقا فى غيبتك إلى حيث تلقى هى جزاء شرها ، ويلقى هو جزاء خيره ...

محمد لطفى جمعة

الأم البيضاء

للكاتب الروسي تيودور سولوجب
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

اقترب عيد القيامة ، وقد أصبح « إيسبر كونستانتينوفتش ساكساولوف » قلق النفس متعباً ، منذ اللحظة التي سئل فيها — وهو في بيت جوروديشيف : « أين تقضي ليلة العيد ؟ »

ولأمر ما أبطأ ساكساولوف في الإجابة على هذا السؤال

فقالت ربة الدار ، وهي سيدة ممشوقة القوام ، ضعيفة البصر ، ثرثارة : « تعال فاقض ليلة العيد عندنا »

واضطرب ساكساولوف ، فهل كان اضطرابه من حركة الفتاة التي ما سمعت كلمات أمها حتى رمقته بنظرة خاطفة ، ثم لم تلبث أن حولت عنه نظرها مسرعة ، وهي مستمرة في التحدث إلى الشاب مساعد الأستاذ ؟

وكان ساكساولوف فتى « مناسباً » في نظر أمهات الفتيات الناهدات ، وكانت هذه الحقيقة من أسباب حيرته وضيقه ، فقد كان ينظر إلى نفسه كأعزب عجوز وإن لم يكن قد جاوز السابعة والثلاثين من سني حياته . ولقد أجاب على دعوة السيدة بقوله :

« أشكر لك كرمك ياسيدتي ، ولكنني دائماً أقضي هذه الليلة في بيتي »

فنظرت الفتاة إليه وابتسمت وقالت : « مع من ؟ »

فأجاب ساكساولوف وفي صوته أثر دهشة خفيفة : « وحيداً »

فقالت السيدة جوروديشيف وقد ابتسمت ابتسامة مرة :

« يالك من عدو للبشر ! »

لقد كان ساكساولوف راضياً بحياة الحرية التي يحياها ، ولقد كان في بعض المناسبات يسأل نفسه متعجباً كيف أوشك مرة أن يتزوج ! فلقد أصبح الآن ألوفاً لبيته الصغير المؤثث على طراز جدي ، مستأنساً بخادمه الخاص الشيخ الرزين « فيدوت » وبامرأته « كريستين » التي لاتقل عنه شيخوخة والتي كانت تطهى له غذاءه . وكان مقتنعاً جد الاقتناع بأنه لم يتزوج لأنه أراد أن يعيش وفياً لحبه الأول . وفي الحق أن قلبه قد برد من أثر ما تعود من عدم الاكتراث الناشئ من حياته المنعزلة التي لاترمى إلى غاية معينة

كان ساكساولوف ذا ثروة مستقلة ، فقد مات أبواه من زمن بعيد ولم يكن له من أقارب على الاطلاق . فكان يعيش عيشة مأمونة رخية هادئة ، وقد اتصل ببعض المنتديات المشتغلة اشتغالاً جدياً

بالآداب والفنون العصرية . وكان يهتم اهتماماً ابيقوريا بكل شئ حسن فى الحياة ، بينما الحياة نفسها كانت فى نظره فارغة خالية من المعنى . ولولا حلم وحيد بهيج برئ كان يتراءى له بعض الأحيان ، لأصابه الجمود التام الذى أصاب كثيرين غيره من الناس

— ٢ —

لقد كان حبه الأول الوحيد ، الذى انتهى قبل أن يزهر ، يبعث أحياناً إلى مخيلته فى الليل أحلاماً حلوة حزينة ، وكان قد التقى من قبل خمس سنوات بالفتاة الصغيرة التى خلفت فى نفسه ذلك الأثر الدائم . وكانت فتاة باهتة اللون ، رقيقة ، هيفاء الخصر ، زرقاء العينين ، شقراء الشعر ، وكانت تتراءى فى نظره كمخلوقة سماوية ، مصنوعة من هواء ودخان ، ألقى بها القدر اتفاقاً إلى ضوضاء المدينة فترة قصيرة من الزمن . وكانت بطيئة الحركة وكان في صوتها الواضح الحنون نعومة تشبه خرير ماء النهر المنحدر فى لطف على الصخور

وكان ساكساولوف يراها دائماً فى لباس أبيض — ولا ندرى إن كانت هى المصادفة التى قضت بذلك أم كان من عادتها لبس البياض — فانطبع أثر البياض فى نفسه لايفارق تفكيره فيها ، حتى اسمها « تمارا » كان يبدو له دائماً أبيض كالثلج على قمم الجبال

وشرع ساكساولوف يزور والدى تمارا وفى أكثر من فرصة اعتزم أن يحدثها بتلك الكلمات التى تربط إنساناً بحظ إنسان سواه . ولكنها كانت دائماً تروغ منه ، وقد فاضت عيناها بأظهر معانى الخوف والألم . فأى شئ كانت تخاف ؟ وكان ساكساولوف يرى فى عينيها أمارات الحب الصبى ، إذ كان يبدو فيهما بريق لطيف كلما رأته ، وكانت وجنتاها تصطبغان بالحمرة الخفيفة

ولكن فى ليلة لن تنسى ذكرياتها أبداً ، أصغت الفتاة إليه وكان ذلك فى طليعة أشهر الربيع ، ولم يكن قد مضى وقت طويل على ذوبان الجليد فوق النهر وعلى اكتساء الأشجار أثوابها الخضراء الناعمة ، وقد جلست تمارا وساكساولوف فى إحدى الحجرات أمام نافذة تشرف على نهر النيقا ، ودون أن يتعب الفتى نفسه فى البحث عما يقول ، وعن وسيلة قوله نطق ببضع كلمات عذبة ولكنها أزعجتها ، فبهت لونها وابتسمت ابتسامة شاردة ، ووقفت ، وكانت يدها الرقيقة ترتجف وقد أسندتها إلى مسند الكرسى المنقوش

وقالت الفتاة فى صوت ناعم رقيق : « غداً » ثم انصرفت

وجلس ساكساولوف برهة طويلة ، وقد ملكت اللهفة نفسه ، يرقب الباب الذى اختفت وراءه تمارا واستولى على رأسه دوار لا يهدأ ، واسترعى نظره غصن من زهر الليلاق الأبيض ؛ فتناوله وترك البيت من غير أن يقرئ أهله السلام

وفى الليل لم يغمض له جفن ولا عرف الكرى الطريق إلى عينيه . فوقف فى النافذة ينظر إلى الطريق المظلم الذى أخذ ظلامه ينقشع رويداً كلما اقترب الصباح ، وقف يبتسم وهو يعبث بذلك الغصن من الليلاق الأبيض ، فلما أشرق الصباح رأى أن أرض الغرفة قد غطيت كلها بأوراق ذلك الزهر الجميل . وقد بدا له ذلك الأمر ساذجاً مضحكا ، ثم استحم فشعر كأنما قد استجمع حواسه المشردة ، وترك البيت قاصداً بيت تمارا

وهناك خبروه أنها مريضة ، فقد أصابتها رجفة من برد فى ناحية ما ، ولم ير سا كساولوف الفتاة قط بعد ذلك اليوم . فقد ماتت بعد أسبوعين ، ولم يحضر جنازتها ، ومرّ موتها لم يحدث فى نفسه هزة ولا صدمة ! ولم يكن فى مقدوره أن يميز ما شعر به نحوها أ كان حباً أم كان مجرد افتتان قصير المدى طائر

وكان فى بعض الأمسيات يتخيلها أمامه ، ثم لا يلبث خيالها أن يتلاشى ، ولم يكن محتفظاً بصورة من صورها . ومرت سنوات عديدة . وفى أيام الربيع الماضى ذكر سا كساولوف تمارا ، ذكره بها غصن من الليلق الأبيض فى شرفة أحد المطاعم وقد وضع ـ كئيباً ـ فى غير موضعه ، بين صنوف الطعام الدسم ، ومن ذلك اليوم عاد يستعذب التفكير فى تمارا في ساعات المساء ، وكان إذا غفا بعض الأحيان رآها قد أقبلت فجلست أمامه ونظرت إليه نظرة ثابتة تفيض وداعة وتدللا وكأنما تريد أن تطلب منه شيئاً . وكان مما يضغط صدره ويؤلمه أحياناً أن يحاول إدراك ما تبتغيه تمارا بهذه النظرة التوسلية

وفى هذه الليلة عند ما غادر بيت جورودیشیف فكر على عجل وقال فى نفسه : « ستأتى فتحييني تحية العيد »

وكان الخوف والوحدة قابضين لنفسه فساءل نفسه مفكراً :

« لماذا لا أتزوج ؟ يجب ألا أكون وحيداً فى ليالى الأعياد الالهية »

ومرت فى مخيلته صورة ڤاليريا ميشايلوفنا — فتاة آل جورودیشیف — ولم تكن الفتاة جميلة ولكنها كانت دائماً متأنقة فى لباسها ، وخيل إلى سا كساولوف أنها تميل إليه وأنها لن ترفض يده إذا هو تقدم لها خاطباً

وفي الطريق شتتت الضوضاء والزحام آراءه فامتزج تفكيره فى أسرة جورودیشیف بما يصل إلى أذنيه من صخب الجمهور ونكاته . على أنه هل يستطيع أن ينكث بوفائه لذكرى تمارا إكراماً لأى مخلوق سواها ؟ لقد خيل إليه أن العالم كله شيء تافه حقير عادى ، حتى أنه تلهف إلى تمارا — وإلى تمارا وحدها — لتأتى فتحييه تحية عيد القيامة

ثم عاد يحدث نفسه مفكراً :

« ولكنها ستحدجنى مرة أخرى بهذه النظرة التوسلية ، ترى ماذا تريد تمارا الطاهرة الرقيقة ؟ ترى تقبل شفتاها الناعمتان شفتى الظامئتين ؟

— ٣ —

وهام سا كساولوف فى الطرقات على غير هدى ، يفكر فى تمارا تفكيراً موجعاً ، يحدق فى وجوه المارة ، فيتأفف مما يرى من خشونة بادية على وجوه الرجال ووجوه النساء على السواء . وتبين أن ليس بين جميع هذه الوجوه وجه واحد يستطيع أن يتبادل وإياه تحية عيد القيامة ممزوجة بفرحة الحب ؛ وسيشهد اليوم الأول من أيام العيد كثيراً من القبلات تتبادلها الشفاه الخشنة وتتحرك لها اللحى المعقدة وتشوبها رائحة الخمور .

فإذا كان لا معدى له من أن يقبل إنساناً ما فليقبل طفلا . وقد بدأ سا كساولوف تسره رؤية وجوه الأطفال

ومضى الرجل يضرب فى الأرض وقتا طويلا ثم بدأ التعب ينال منه فقصد إلى فناء كنيسة فيما وراء الشارع الصاخب بضجة الناس . وارتفعت إلى وجه سا كساولوف عينا طفل جالس على أحد المقاعد وقد تجلى الخوف فى نظرته ، ثم قبع جامداً لا يتحرك شاخصاً ببصره إلى الأمام لا يحوله يمنة ولا يسرة .

وكانت عيناه الزرقاوان لطيفتين تشمان ببريق حزن الطفولة ، فهما أشبه الأعين بأعين تمارا . وكان الطفل ضئيل الجسم حتى أن قدميه لم تكونا لتتدليا على الأرض فمدتا إلى الأمام فى خط مستقيم . فجلس ساكساولوف إلى جانبه ونظر إليه فى حنان ولهفة ، فقد كان فى منظر ذلك الطفل الوحيد ما يثير فى نفسه ذكريات جمة العذوبة ؛ على أنه كان طفلا عادى المنظر فى ثياب ممزقة مهلهلة ، على رأسه الأشقر الصغير قبعة من الفرو الأبيض ، وفى قدميه نعلان قذران باليان .

جلس الطفل على المقعد جامداً فترة طويلة ثم وقف واندفع يبكى بكاء موجعاً ، وجرى فى الفناء حتى تجاوز الباب وصار إلى الطريق العام ، وهناك وقف مرة أخرى . وكان بادياً أنه لا يعرف فى أى طريق يتجه . فبكى بكاء خافتاً كأنما يسر شجاه إلى نفسه لا يريد أن يطلع عليه أحداً من الناس . فكانت قطرات الدمع تنحدر كبيرة على خديه . فازدحم الناس حوله ، وأقبل عليه رجل من رجال الشرطة ، وسأل الطفل أين يسكن فأجاب فى لثغة الطفولة القاصرة :

« فى دار جليكهوف »

فسأله رجل الشرطة :

« فى أى شارع ؟ »

ولكن الطفل لم يعرف اسم الشارع وكرر قوله

« فى دار جليكهوف »

وكان رجل الشرطة شاباً مرحاً ففكر لحظة ثم أيقن أن ليس هناك مكان بهذا الأسم فى الجوار القريب .

ودنا عامل عابس الوجه من الطفل وسأله :

« مع من تعيش ؟ أليس لك أب ؟ »

فأجاب الطفل وهو ينظر إلى الجمع المحيط به بعينين تفيضان بالدموع :

« لا ، ليس لى أب »

فقال العامل فى خشوع وهو يهز رأسه :

« ليس لك من أب أيها العزيز ! فهل لك من أم ؟ »

فأجاب الطفل :

« نعم لي أم »

« ما اسمها ؟ »

فأجاب الطفل :

« اسمها أمى »

ثم فكر قليلا وقال :

« الأم السوداء »

فقال العامل العابس :

« السوداء ؟ هل هذا هو اسمها ؟ »

فقال الطفل شارحاً :

« لقد كان لى أولا أم بيضاء ، والآن لى أم سوداء »

فقال رجل الشرطة آخر الأمر وقد استقر على رأى :

« حسن يا ولدى ، إننا لن نعرف منك كثيراً ولا قليلا ، فالأحسن أن آخذك إلى مركز البوليس وهناك يستطيعون عن طريق التليفون أن يعرفوا أين تسكن »

وقصد رجل الشرطة إلى أحد الأبواب ودق الجرس ، وفى هذه اللحظة رآه أحد البوابين فأقبل عليه حاملاً المكنسة فى يده ، فطلب منه الشرطى أن يأخذ الطفل إلى مركز البوليس ، ولكن الطفل تأمل قليلاً ثم صاح باكياً :

« دعنى أذهب فسأعرف الطريق وحدى ! »

ترى هل انزعج الطفل من مكنسة البواب ، أم تراه حقاً قد تذكر الطريق ؟ على أى الحالين جرى الطفل مسرعاً حتى كاد يغيب عن نظر سا كساولوف ؛ غير أن الطفل لم يلبث أن أبطأ خطاه ، وقد اتجه مع الطريق صعداً يجرى من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر محاولاً عبثاً أن يهتدى إلى البيت الذى يسكن فيه . وتبعه سا كساولوف فى سكون وصمت ، ولم يكن يعرف كيف يتحدث إلى الأطفال

وأحس الطفل آخر الأمر بالتعب ، فوقف إلى جانب عمود من أعمدة المصابيح واتكأ عليه وترقرقت الدموع فى عينيه

فبدأ سا كساولوف يحدثه فقال :

«حسن يابنى ، ألا تستطيع أن تتعرف البيت؟»

فنظر إليه الطفل بعينيه الحزينتين اللطيفتين ، وعلى حين فجأة أدرك سا كساولوف السبب الذى أغراه بأن يلح فى تتبع خطوات الغلام

ففى نظرة التائه الصغير وسيمائه شىء يشبه ما فى نظرة تمارا وسيمائها أكمل الشبه

فسأله سا كساولوف فى لطف ورقة :

« ما اسمك يا عزيزى ؟ »

فأجاب الطفل :

« اسمى ليشع »

« أتعيش مع أمك يا ليشع ؟ »

« نعم مع أمى ، ولكنها أم سوداء ولقد كانت لى أم بيضاء »

فظن سا كساولوف أن الطفل لا شك يقصد بالأم السوداء إحدى الراهبات

« وكيف ضللت الطريق ؟ »

« لقد مشيت مع أمى ، ومشينا ومشينا . ثم طلبت منى أن أجلس وأنتظر ، ومضت بعد ذلك مبتعدة عنى . فأصابنى الخوف والجزع »

« ومن هى أمك ؟ »

« أمى ؟ إنها سوداء غضوب »

« وماذا تصنع أمك ؟ »

ففكر الطفل لحظة ثم قال :

« إنها تشرب القهوة »

« وماذا تفعل غير ذلك ؟ »

فتوقف ليشع لحظة عن الكلام ثم قال :

« تتشاجر مع المستأجرين »

« وأين أمك البيضاء ؟ »

« لقد حملوها بعيداً . وضعوها فى نعش ثم حملوها بعيداً . وأبى أيضاً قد حملوه بعيداً »

وأشار الطفل بيده إلى الفضاء البعيد ثم انفجرت عيناه بالدموع

فساءل سا كساولوف نفسه مفكراً :

« ترى ماذا أستطيع أن أعمل لهذا المسكين ؟ »

ثم إذا الطفل ينطلق جاريا . وبعد أن اجتاز عدة شوارع عرضية أبطأ خطاه مرة أخرى ، وكذلك التقى به سا كساولوف مرة ثانية . وكان المعنى الذى لحظه على وجه الطفل خليطاً من الفرح والخوف ، وقد قال لسا كساولوف وهو يشير إلى بيت كبير قبيح المنظر ذى خمس طبقات :

« هذه هى دار جليكهوف »

وفى هذه اللحظة ظهرت على عتبة باب دار جليكهوف امرأة سوداء الشعر ، سوداء العينين ، ترتدى لباساً أسود ، وعلى رأسها منديل أسود فيه نقط بيضاء ، فلما رآها الطفل تراجع خائفاً وقال هامساً :

« أمى ! »

فنظرت إليه المرأة — وهى امرأة أبيه — نظرة الدهشة وصاحت :

« كيف جئت إلى هنا أيها الشقى ، ألم أطلب منك أن تبقى على المقعد ؟ »

وكادت المرأة تنهال ضرباً على الطفل المسكين لولا أن رأت سيداً محترم المنظر يرقبها عن كثب ، نخفضت صوتها وقالت :

« ألا يمكن أن تنتظر نصف ساعة دون أن تهرب ؟ لقد تعبت فى البحث عنك أيها اللعين ! »

ثم قبضت بيدها الغليظة على يد الطفل الصغيرة وجذبته بعنف إلى داخل الدار

فتعرف سا كساولوف الشارع والدار ثم انصرف

— ٤ —

كان سا كساولوف يحب الإصغاء إلى نصائح خادمه فيدوت الرزينة الحكيمة ، فلما عاد إلى بيته أخبره بقصة الطفل ليشع ، فقال فيدوت :

« لقد تركته المرأة عمداً حيث وجدته أنت . فيالها من امرأة خبيثة تذهب بالطفل إلى هذا المكان النائى عن الدار »

فسأله سا كساولوف :

« وما الذى يحملها على أن تفعل ذلك ؟ »

« لا أستطيع أن أعرف ، ولكن لاشك فى أن هذه البلهاء قد قدرت أن الطفل سيهيم فى الشوارع حتى يلتقطه بعض الناس . وماذا تتوقع من امرأة الأب ؟ وأية فائدة تجنيها من بقاء الطفل عندها ؟ »

فقال سا كساولوف :

«ولكن كان فى مقدور البوليس أن يعثر عليها»

« وذلك جائز ، ولكن قد تكون معتزمة مغادرة البلدة كلها ، وإذن كيف يستطيعون أن يقتفوا آثارها ؟ »

فابتسم سا كساولوف وقال يحدث نفسه :

« هذا حق ، وكان يجب أن يكون فيدوت قاضى تحقيق »

وجلس سا كساولوف على مقربة من المصباح وفى يده كتاب ، فلم يلبث أن أغفى ، فرأى فى الحلم تمارا — رقيقة بيضاء — أقبلت عليه وجلست إلى جانبه ، وكان وجهها يشبه وجه ليشع شبهاً مدهشاً وقد نظرت إليه نظرة ثابتة ملحة كأنما تنتظر منه شيئاً . وكان مما يؤلم سا كساولوف أن يرى عينيها البراقتين المتوسلتين على هذه الصورة ولا يستطيع أن يدرك ما تريد . فهب فجأة من مكانه وأسرع إلى الكرسى الذى خيل إليه أن تمارا جالسة عليه ، حتى إذا وقف أمامه قال متوسلا فى صوت مرتفع :

« خبرينى ماذا تريدين ؟ »

ولكن خيالها تلاشى من أمامه

فقال سا كساولوف فى نفسه وقد استولى عليه الحزن :

« لم يكن ذلك إلا حلماً »

— ٥ —

وفى اليوم التالى بينما كان سا كساولوف خارجاً من معرض المجمع العلمى التقى فى الطريق بآل جورو ديشيف فأخبر الفتاة بقصة الطفل ليشع

فقالت فاليريا ميشايلوفنا فى صوت رقيق :

« يا له من طفل مسكين ! إن امرأة أبيه تريد أن تتخلص منه »

فقال سا كساولوف وقد أزعجه أن تتفق الفتاة

وفيدوت فى استنتاج هذه النتيجة الفاجعة من ذلك الحادث البسيط :

« ليس هناك ما يؤكد هذا الاستنتاج »

« الأمر واضح كل الوضوح فالطفل لا أب له فهو يعيش مع امرأة أبيه ، وهي تجد فى بقائه عندها عبئاً ثقيلا عليها ، فإذا لم تستطع أن تتخلص منه بوسيلة غير جافة فلا شك فى أنها ستطرده فى قسوة لتتخلص منه نهائياً

فابتسم ساكساولوف وقال :

« إنك تنظرين إلى هذا الأمر نظرة جد عابسة »

فسألته فاليريا ميشايلوفنا :

« لم لا تتبنى هذا الطفل ؟ »

فسألها ساكساولوف فى دهشة :

« أنا ؟ »

فقالت فى شيء من الالحاح :

« إنك تعيش وحيداً ، وليس لك من أقرباء ، فلتعمل عملا طيباً فى عيد القيامة ، وعندئذ تجد معك من تبادله تحية العيد على كل حال »

« ولكن ماذا أستطيع أن أعمل بطفل ؟ »

« جئه بمربية . والذى يبدو لى أن القدر قد قد ساق هذا الطفل فى طريقك لتتبناه »

ونظر ساكساولوف إلى وجه الفتاة الحنون وقد علته حمرة طفيفة — نظرة ملؤها الدهشة ، وقد تجلى فى عينيه من معانى العطف ما لم يقصد إليه

ولما تراءت له تمارا هذه الليلة فى منامه بدا له أنه قد فهم ما تريد . وقد سمع فى سكون الغرفة هذه الكلمات واضحة ناطقة :

« إعمل بما طلبته منك فاليريا »

وهب ساكساولوف من نومه فرحاً ومر بيده على عينيه الناعستين ، فوقع نظره على غصن من الليلق الأبيض فوق المائدة . فساءل نفسه : من أين جاء ذلك الغصن ؟ هل تركته تمارا شاهداً على رغبتها

وخطر له فجأة أنه بزواجه من فتاة آل جورروديشيف وتبنيه الطفل ليشع يكون قد حقق رغبة تمارا . فتنفس تنفس الارتياح وسط الشذى العطرى المنبعث من غصن الليلق الأبيض

ثم ذكر أنه هو الذى أحضر ذلك الغصن بنفسه فى ذلك اليوم ، ولكنه لم يلبث أن قال فى نفسه : « إن ذلك لا يغير من جوهر الأمر شيئاً فليس تفكيرى فى مشتراه وإحضاره إلى البيت ونسيانى بعد ذلك أنى اشتريته إلا حقيقة واقعة تشير إلى رغبة تمارا »

— ٦ —

وفى الصباح قصد ساكساولوف إلى حيث يجد ليشع ، فقابله الطفل على الباب وأراه مسكنه وكانت امرأة أبيه جالسة تشرب القهوة وتتنازع مع المستأجر الأحمر الأنف ، وإليك ما استطاع ساكساولوف أن يعرفه من أمر ليشع :

ماتت أمه وهو فى الثالثة من عمره ، فتزوج أبوه من هذه المرأة السمراء ولكنه مات فى السنة نفسها ، وللمرأة السمراء ايرينا ايفانوفنا طفل من صلبها فى السنة الأولى من عمره ، وكانت على وشك الزواج من زوج جديد ، وستقام حفلة الزواج بعد أيام قليلة ، وستذهب هى وزوجها على أثر ذلك إلى الريف ، وكان ليشع غريباً بالنسبة إليها وهو بذلك عقبة فى طريقها :

فقال ساكساولوف :

« أعطنيه »

فقالت إيرينا إيفانوفنا وقد شعرت بسرور خبيث
« يسرني أن أجيب طلبك »
وبعد أن توقفت لحظة قالت :
« إنما يجب أن تدفع لي ثمن ملابسه »
وهكذا آوى ليشع إلى سا كساولوف وساعدت فتاة آل جورروديشيف فى الحصول على مربية صالحة وفى إعداد كل مايلزم لإقامة الطفل . وتحقيقاً لهذه الغاية كانت تزور بيت سا كساولوف ، وقد بدت فى نظر رب الدار ، وهي منهمكة فى عملها هذا ، انسانة مغايرة للتى عرفها من قبل ، وكأنما قد فتح له باب قلبها ، وشعت عيناها ببريق اللطف والصفاء وأنس فيها جملة ما كان يأنس فى تمارا من رقة ووداعة

— ٧ —

تأثر فيدوت الخادم العجوز وامرأته مما كان ليشع يروي لهما عن أمه البيضاء ، وفى يوم سبت النور عند ما أرقداه فى فراشه علقا فى نهاية السرير بيضة من السكر بيضاء وقالت له كريستين :
« هـذه البيضة من أمك البيضاء ، ولـكن يجب ألا تمسها يا عزيزى إلا بعد قيام المسيح ودق النواقيس »
فرقد ليشع مطيعاً وبقى فترة طويلة محدقاً فى البيضة الجميلة ، ثم غلبه النوم
وفى هذا المساء جلس سا كساولوف فى البيت وحيداً ، وحوالى منتصف الليل تغلب عليه شعور بالنعاس لم يكن فى مقدوره أن يقاومه ، فأغمض عينيه مسروراً لأنه قد يرى تمارا بعد قليل . ولقد جاءته مرتدية البياض مشرقة جالبة معها عن بعد أصوات النواقيس السارة ، وانحنت تمارا على سا كساولوف وعلى شفتيها ابتسامة لطيفة وفى عينيها نظرة الابتهاج ! وأحس سا كساولوف بلمسة رقيقة على شفتيه ، وسمع صوتاً ناعماً يقول فى لطف :
« المسيح قام ! »
ومد سا كساولوف من غير أن يفتح عينيه ، ساعديه فعانق جسما صغيراً لطيفاً . وكان الذى عانقه هو ليشع الطفل الذى تسلق على ركبتيه ليحييه تحية العيد
فقـد أيقظت نواقيس الـكنائس الطفل ، فأمسك بالبيضة البيضاء وأسرع إلى سا كساولوف
واستيقظ سا كساولوف فضحك ليشع ورفع البيضة أمام عينيه وقال :
« لقد أرسلتها لي أمي البيضاء ، وأنا أعطيها إياك لتعطيها للخالة فاليريا »
فأجابه سا كساولوف :
« حسن ياعزيزي ؛ سأفعل ما تريد »
وأعاد سا كساولوف ليشع إلى فراشه ثم قصد إلى فاليريا ميشايلوفنا يحمل لها البيضة هدية من الأم البيضاء ، ولـكن خيل لسا كساولوف في هذه اللحظة أنها هدية من تمارا

عبد الحميد حمدى

طبيب الأقليم

للقصصي الروسي إيفان تورجنيف

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

في بعض أيام الخريف أصبت ببرد شديد أثناء عودتي من جزء بعيد من الاقليم الذي أقيم به . وكان من حسن حظي أن الحمى لم تتمكن مني إلا بعد وصولي إلى فندق بالمدينة فأرسلت من يستدعي الطبيب

وبعد نصف ساعة جاء الطبيب وهو نحيل الجسم أسود الشعر متوسط الطول فوصف لي الدواء المألوف ودفعت إليه ورقة مالية ذات خمسة روبلات فدسها في جيبه وهم بالقيام ، وحسبته سينصرف ولكن لا أعرف ماذا حدث فجعله يستأنف الجلوس ويعود إلى التحدث ، فاغتبطت بذلك لأني عانيت في الليلة السالفة آلام الأرق وكنت بحاجة إلى مثل هذا الحديث

وجيء بالشاي وأخذ الطبيب يتكلم في حرية ، وهو رجل ذكي يعرب عن نفسه في شجاعة ، وفي حديثه من الفكاهة الشيء الكثير

وفي العالم أشياء غريبة ، فقد تعاشر أحد الناس مدة طويلة دون أن تطلعه مرة واحدة في أحاديثك معه على دخيلة نفسك ، بينا تجد رجلاً آخر لم يكد يتصل بينك وبينه سبب التعارف ولكن كلا منكما قد أخذ يفضي إلى الآخر بسره كاملا كأنه أمام قسيس الاعتراف

ولست أعرف كيف اكتسبت ثقة هذا الصديق الجديد الذي أخذ بغير مقدمة يطلعني على أسراره . وسأعيد إلى القارئ واحدة من سيره محاولا صياغتها في أقرب الأساليب إلى أسلوبه . قال وقد بدأ يسرد القصة بصوت خافت مضطرب (وهذه هي النتيجة العادية لتعاطي سعوط بيريزوف غير مخلوط بمادة أخرى تخفف من حدته)

— قال : « ربما كنت لاتعرف القاضي (بافال لوكونتش) ألا تعرفه ؟ على حد سواء ! لقد كنت أزوره بمنزله وكان يلعب معي بالورق وهو مولع بهذا النوع من اللعب وعلى حين فجأة » وقد نطق الطبيب لفظ فجأة بصوت عال وتغيرت لهجته بعد ذلك إذ يقول :

« وعلى حين فجأة جاء التابع وقال ان رجلا يسأل عني . قلت : ما الذي يريد ؟ فأجابني تابعي : لقد جاء بخطاب إليك ويظهر أنه من مريض . قلت : ناولني الخطاب . فناولنيه ، وقلت : لقد صدقت فراستك فالخطاب من أرملة عجوز تقول ان ابنتها تحتضر وتستعجلني إلى الذهاب . وكانت العربة التي أرسلتها في انتظاري ... ولكن المسافة بيننا وبينها تربو على العشرين ميلا ، وكنا في منتصف الليل والطريق من أسوأ الطرق . ولما كانت هذه الأرملة

فقيرة فالطبيب لاينتظر على هذه المشقة أجراً يزيد على الروبلين . وقد لايبلغ الأجر هـذا القدر . ولـكن الواجب فى نظر الطبيب أهم من كل شئ

وخرجت فوجدت العربة بالباب ووجدت السائق جالساً فى مكانه وقبعته على رأسه لم يرفعها لاستقبالى ، ولم يظهر لى أى مظهر للاحترام ، فقلت فى نفسى : هـذا حسن جداً ، فانه يدل على أن القوم أغنياء... أراك تبتسم ! ولـكن فقيراً مثلى يجب أن يضع كل ملاحظاته فى موضع الاعتبار ، فاذا كان السائق جالساً كأنه أمير ، وإذا كان لايحييك عند ركوب العربة بلمس قبعته كان لك أن تطمئن على أن الأجر لن يقل عن ستة روبلات

ركبت العربة ومعى العقاقير التى توقعت أنها لازمة . ولا أطيل عليك فى وصف الطريق وأوحاله ومستنقعاته ، ولـكننى أقول إننى وصلت فى النهاية فوجدت المنزل حقيراً . وكان النور ظاهراً من وراء النافذة دلالة على أنهم كانوا فى انتظارى . وتلقتنى امرأة عجوز تبدو عليها كل علائم الاحترام وقالت : أنقذها فانها تحتضر

قلت : لاتخافى . أين هى المريضة ؟

فقالت : اتبعنى . ورأيت فى ركن من الغرفة فتاة فى العشرين فاقدة الوعى وحرارتها فى درجة الاحتراق وهى تتنفس فى مشقة وبجانبها أختاها تبكيان

وقيل لى إنهـا بالأمس كانت فى صحة جيدة ، وكانت قوية الشهية للطعام ، وفى الصباح شكت من وجع فى رأسها ، وفى المساء صارت فجأة إلى الحالة التى تراها

قلت : لا داعى للخوف

وأنت فقد تعلم أن مثل هذا القول من واجب الأطباء . ودنوت من الفراش فوضعت على رأس الفتاة « لبخة » من الخردل ونظرت إلى وجهها ، فأى وجه رأيت ؟ إننى لم أر من قبل مثل هذا الجمال وليس فى العالم قسمات كهذه القسمات ، ولا نظرات كنظرات هاتين العينين . وتحسنت حالتها بحمد الله فتصبب العرق من جبينها وعاد إليها وعيها فالتفتت حولها وابتسمت ثم غطت وجهها بيديها فسألت أختاها تسألانها عن صحتها ، فأجابت إنها بخير . ثم أدركها النعاس

قلت : هـذه علامة حسنة ، ولـكن يجب أن نترك المريضة وحدها . وخرجنا جميعاً من الغرفة نمشى على أطراف الأنامل ، إلا خادماً تركناها مع المريضة

وكانت الغرفة الأخرى هى غرفة المائدة . وكان فيها على المنضـدة وعاء الشاى وزجاجة « الروم » فقدموا إلىّ الشاى . وطلبوا أن أبيت بالمنزل هـذه الليلة فوافقت . وهبنى لم أفعل فإلى أين كنت أذهب فى مثل هذه الساعة ؟

وظلت العجوز تكرر سؤالى عن حالة المريضة وأكرر جوابى بأنها ستعيش . وأخيراً قلت لها إنها هى أيضاً بحاجة إلى الراحة . وطلبت إليها أن تذهب لتنام ، وكنا إذ ذاك فى الساعة الثانية صباحاً فقالت:

ولـكن هل توقظنى إذا حدث شئ ؟

قلت : نعم

فذهبت العجوز وبنتاها بعد أن هيأت لى فراشاً فى غرفة المائدة ، ولـكننى لم أستطع النوم لأنى كنت فى نهاية التعب ، وكنت لا أستطيع منع نفسى عن التفكير فى المريضـة ، وأخيراً عجزت عن مقاومة ميلى فقمت لـكى أراها

قمت إلى غرفتها ففتحت الباب برفق ، وما كان أشد خفوق قلبى ! ... ونظرت فرأيت الخادم نائمة

مفتوحة الفم وهى تغطّ ... تلك التعسة الملعونة !
أما الفتاة فكانت متجهة الوجه إلىّ مبسوطة الذراعين ... تلك المسكينة !

دنوت منها ففتحت عينيها فجأة ورأتنى فانزعجت وقالت : من أنت ؟ من أنت ؟

قلت : لا تخافى ياسيدتى فأنا الطبيب . فحدقت فى وجهى وقالت : أأنت طبيب ؟

قلت : نعم وقد استدعتنى أمك من المدينة ... لا بأس عليك ، إنك الآن أحسن مما كنت عليه منذ ساعتين ؛ وبعد يوم أو يومين تستطيعين القيام والمشى

فقالت : لا أريد أن أموت ! لا أريد أن أموت . أنقذنى !

وانتابتها حالة الحمى فجسست نبضها وقلت : هدئى من روعك . فنظرت إلىّ ثم تناولت يدى وقالت : سأخبرك لماذا لا أريد أن أموت ... نحن وحدنا هنا . لا تخبر أحداً ... لا تخبر أى أحد وأنصت ، فزدت دنواً منها ، وهمست فى أذنى وشعرها يلمس خدى . وأنا أعترف بأن دواراً كان يعترينى إذ ذاك ، وكانت تتكلم وأنا لا أفهم لأنها محمومة . وكأنها كانت تنطق بغير اللغة الروسية . ثم انتهت من همسها وأشارت إلىّ بأصبعها إشارة تحذير وقالت : « إياك أن تخبر أى أحد »

فطمأنتها وأسقيتها الدواء ثم أيقظت الخادمة وخرجت

وهنا تناول الطبيب شيئاً من السعوط وتبلد من تأثيره وقال : وفى اليوم التالى لم تتحسن صحة المريضة خلافاً لما كنت أتوقع . وفكرت ثم فكرت ، فقررت أن أبقى بهذا المنزل ولو أن سائر مرضاى فى انتظارى

وذلك لسببين : أحدهما أن هذه المريضة كانت فى خطر جدى ، والثانى ـ ولا بد لي من الاعتراف به ـ أننى شعرت بالميل إليها ، لا بل إلى الأسرة كلها . ومع أنها أسرة فقيرة فهي مثقفة مهذبة . وقد كان والد الفتيات أديباً مؤلفاً ، ومات فقيراً بالطبع ولكنه ترك بناته مثقفات متعلمات ولعل هذا السبب (أو لعل سبباً آخر) هو باعث ميلى إلى الأسرة . ولكنى أؤكد أنهم عاملونى كما لو كنت فرداً من أسرتهم

وفى الوقت نفسه كانت حالة الطرق تزداد سوءاً على سوء ، فما كنت أستطيع العودة لو أردت . وكذلك كانت حالة الفتاة لا تزداد إلا سوءاً ؛ ومضت على هذه الحالة أيام

ثم سكت الطبيب لحظة وبدت عليه علائم التفكير واستأنف القول فقال : ولست أعرف كيف أخبرك ...

وهنا تناول مقداراً آخر من السعوط وشرب جرعة من الشاى وقال : سأخبرك بغير مقدمة ... ولكن ماذا أقول ... ؟ إن المريضة أحبتنى ... لا أعنى أنها هى التى أحبتنى ... كيف أقول ؟

واختضب وجه الطبيب احمراراً وقال : لا أريد أن أقول إنها أحبتنى ، فعلي الرجل ألا يتغالى فى تقدير نفسه . وهى متعلمة واسعة الاطلاع ، وأنا لا أكاد أذكر ماتعلمته من اللغة اللاتينية ، وليس لى ما أستطيع أن أباهى به ؛ ولكن الله له الحمد لم يخلقنى أبله فلست أرى فى الواحد أنه إثنان ولا فى الأسود أنه أبيض . ولهذا استطعت أن أتبين أن ألكسندرا أندريفنا — وهذا هو اسم المريضة — لا تحبنى ، بل هى تشعر بصداقة وود — أعني بميل واحترام — وإن كانت هى نفسها تخطيء فى تقدير شعورها الحقيقى نحوى

وكان الطبيب يلقى الجمل الأخيرة فى سرعة شديدة

وارتباك ظاهر . ثم شرب بقية الشاى وقال بصوت أقرب إلى الهدوء من الصوت الذى كان يتكلم به ، قال : وكانت حالة المريضة تزداد سوءاً على سوء . وأنت أيها الصديق قد لا تستطيع أن تفهم الأدوار التى يمر بها الأطباء خصوصاً عند ما يتصور الطبيب أنه فقد سيطرته على المرضى . فى هذه الحالة يفقد ثقته بنفسه ويجبن ويتصور أنه نسى كل شىء عرفه ويخال أن المريض فقد ثقته به ، وأن الناس يرتابون فيه ويتهامسون عليه . والناس متى رأوا مرضاً اعتقدوا أنه لا بد له من دواء ، وانتظروا من الطبيب أن يأتى بدوائه فإن لم يستطعه عدوا ذلك دليلا على جهله ؛ ويعرف الطبيب عنهم هذه الحقيقة فيتشبث بدواء ، ثم يعدل عنه إلى غيره ، ثم يتناول كتاباً من كتب الطب فيختار دواء ثالثاً ، وقد تكون المصادفة وحدها هى مبنى هذا الاختيار ؛ وإلى هذا الحد يكون المريض قد وصل إلى درجة الاحتضار ، ويخطر ببال الطبيب أن طبيباً آخر قد ينقذ مريضه فينصح بالإستشارة الطبية . ولو اطلعت على نفس الطبيب عند ذلك لعرفت أنه إنما يود أن يشرك معه أطباء آخرين حتى لا ينفرد بتحمل المسئولية عند الوفاة . على أنه فى الواقع ليس ثمت مايدعو إلى الارتباك فإن الموت يكون مقضياً به على المريض ، وليس الوزر وزر الطبيب فقد أدّى مايجب عليه بعمله وفق القواعد التى تعلمها . ولكن الصعوبة الحقيقية التى يعانيها الطبيب هى شعوره بالعجز عن تأدية خدمة لمريضه ، وهذه هى الحالة التى عانيتها مع ألكسندرا أندريفنا ، فإن الأسرة نسيت أنها فى خطر . وأنا كذلك أخذت أؤكد أن الخطر قد زال ، ولكن قلبى كان يشعر بعبء ثقيل . ومما زاد فى تعبى أن حالة الطرق ساءت جدًّا فكان السائق كلما ذهب بالعربة لشراء الدواء لم يعد إلا بعد بضعة أيام

ولم أترك قط غرفة المريضة إلا للضرورة ، وكنت فى ملازمتى إياها أقص عليها القصص المسلية ، أو ألاعبها لعبة الورق وأسهر بجانب سريرها فى الليل ؛ وكانت أمها تشكرنى والدموع تتحدر من عينيها فأقول فى نفسى : إننى لا أستحق شكرها لأنى أعانى هذه المشقة بدافع الحب . وقد بلغ من ميل الفتاة إلىّ أنها فى كثير من الأحيان لا تسمح بوجود أحد غيرى فى الغرفة . وكانت تكثر فى حديثها معى من إلقاء الأسئلة علىّ فتسألنى مثلاً : أين تعلمت وأين أعيش ؟ وتسألنى عن أحوال أسرتى ، وعمن اعتدت أن أقابلهم . وكنت أشعر بأنه ينبغى لها ألا تكثر من الكلام . ولكنى من جهة أخرى لم أكن قادراً على حمل نفسى على منعها

وكنت أحياناً أضع رأسى بين يدى وأفكر فى الحماقة التى ارتكبتها ، فتأتى الفتاة وتمسك بيدى وتمنحنى نظرة طويلة . وكنت أحس حرارة يديها الدالة على الحمى وألمح فى عينيها علائم الملل من مرضها الشديد ؛ وكانت تصفنى بأنى رجل طيب وتقول إننى أفضل من كل جيرانها . وتأسف لأنها لم تعرفنى من زمن قديم ، فكنت أشكرها وأقول : إنك لا تعرفين مقدار ما اكتسبته وإنك سوف تشفين

ولا بد من إخبارك بأن هذه الأسرة كانت قليلة الاتصال بالجيران لأن جيرانها لم يكونوا فى مستواها من حيث الغنى ، ولأن عزة هذه الأسرة كانت تمنعها عن الاتصال بالأغنياء

ولقد كنت أشعر حين تمد يدها لتأخذ من يدى الدواء وحين تستعين بى على النهوض ، وحين تنظر إلىّ نظراتها الطويلة — كنت أشعر عند ذلك بأن قلبى يكاد أن يتمزق ؛ وكانت حالتها تزداد سوءاً فى اطراد مستمر . وكنت أرى أنها ميتة لا محالة

وصدقني إذا قلت إنني وددت لو سبقتها إلى القبر .

وكانت أمها وأختاها ينظرن إلىّ ويراقبنني وقد بدأت ثقتهن بى تتزعزع . وخار عزمي فلم أستقر على رأى

وفى إحدى الليالى كانت الخادم نائمة فى الغرفة وكانت تغط غطيطها المعتاد . ونظرت إلى الفتاة فلم أجد جمالها قد قل على الرغم من شدة ذبولها وهزالها ؛ وكانت وطأة الحمى شديدة عليها فى تلك الليلة فظلت تتقلب على الفراش إلى منتصف الليل ثم ظهرت كأنها نائمة . وكان المصباح موقداً فى ركن من الغرفة تحت الأيقونة المقدسة ، فجلست هناك مطرق الرأس ، وأدركني النعاس لحظة ثم استيقظت فجأة عند ما شعرت بيد تلمسني . ونظرت فرأيت ألكسندرا أندريفنا ، وقد تقلصت شفتاها والتهب خداها مثل التهاب النار وقالت : هل أموت يا دكتور ؟

قلت : لا سمح الله

فقالت : لا تقل لى إنني سأعيش ، لا تقل كذلك ... أصغ بالله ولا تكتم عنى حقيقة حالى

ثم أسرعت أنفاسها وقالت : إذا كنت أعرف أن موتى قريب فانى سأقص عليك قصتى كلها

قلت : بالله يا ألكسندرا ... فقالت مقاطعة : أصغ إلىّ إننى لم أكن نائمة . ولكننى كنت أنظر إليك مدة طويلة . لقد وثقت بك فأنت طيب شريف . وأرجوك بكل مقدس فى الحياة أن تخبرنى بالحقيقة هل أنا فى خطر ؟

قلت : ماذا أقول لك يا ألكسندرا ؟

فقالت : أستحلفك ألا تكتم عنى

قلت : لا أكتمك فأنت فى خطر أكيد ، ولكن الله رحيم . فقالت : إننى سأموت . وبدأ عليها كأنها مسرورة من لقاء الموت . وأشرقت أسارير وجهها ، فانزعجت وقلت : لا تخافى لا تخافى

قالت : إنني لا أخاف الموت . ثم جلست فجأة وأسندت رأسها إلى ذراعها وقالت : أشكر لك أن صدقتنى وأرحتنى . وإنك عطوف حنون ، إننى أحبك . ثم نظرت إلىّ كنظرة المأخوذ فاضطربت . واستمرت تقول : هل أنت سامع ؟ إننى أحبك .

قلت : ولكن يا ألكسندرا كيف استحق . ؟

فقالت مقاطعة : كلا كلا إنك لم تفهمني . ثم أمسكت بذراعي ووضعت رأسى بين كفيها وقبلتني

وصدقني لقد كدت أبكى عند ذلك وجثوت تحت قدميها . ودفنت وجهي فى الوسادة ، فلم تتكلم . وكانت تعبث بيدها فى شعرى وأنا أصغى ثم بكت فهدأتها وأخذت أؤكدلها ... ولكنى كنت فى الواقع لا أعى ما أقول

ثم قلت إنهم سيستيقظون يا ألكسندرا . يكفى يكفى . فقالت لا أبالى . وإذا استيقظوا فليأتوا ، فإنى لا أهتم ... إننى أموت وماذا تخاف أنت ولماذا تخاف ؟ ارفع رأسك أم لعلك لا تحبنى وأنا المخطئة ... إن كان كذلك فإنى أعتذر إليك

قلت : يا ألكسندرا ، ماهذا الذى تقولين ؟ إننى أحبك يا ألكسندرا . فنظرت إلى عينىّ وفتحت ذراعيها وقالت : إذن فضمنى بين ذراعيك

وأخبرك بالحق أننى لم أعرف كيف لم أجن فى هذه الليلة ؟ إن المريضة كادت تقتل نفسها وقد بدت لشدة ما اعتراها من التغير كأنها ليست هى .. وأدركت أنه لولا معرفتها بأنها موشكة على الموت لما فكرت فى أمرى . قل ما تريد ولكن من أصعب الصعوبات أن يشعر الانسان بأنه مقبل على الموت وهو لم يتجاوز العشرين دون أن يعالج الحب ، ذلك هو الأمر الذى دفعها إلى اليأس . فأمسكت بى

ولم ترد أن تتركني ، وهي تقول : « كن رؤوفاً بي . أشفق عليّ . ما الذي تفكر فيه ؟ أنت تعرف أنني سأموت . إنني لو كنت سأبقى على قيد الحياة فاني أخجل . نعم ولكن لماذا أخجل الآن ؟ »

قلت : ولكن من الذي قال إنك ستموتين ؟

فقالت : دع هذا القول فانك تخدعني . إنك لا تعرف كيف تكذب فان وجهك ...

فقلت : إنك ستعيشين يا ألكسندرا ، إنني سأشفيك ، إنني سأطلب من أمك أن تباركنا وسنتزوج ونكون سعيدين

قالت : كلا إنني سأموت ، ولكنني متمسكة بوعدك وإنك وعدتني ... إنك قلت لي ...

ولقد كان خطأ مني أن تسرعت في القول . سألتني عن اسمي الأول ، وكانت قبل ذلك تدعوني كما يدعوني سائر الأسرة بلقب الدكتور ، ولا بد هنا من الاعتراف بأن اسمي (تريفون) ليس من الأسماء السارة فقلت : اسمي تريفون إيناتش . فهزت رأسها وقالت كلمات باللغة الفرنسية ، وقد كانت هذه الكلمات بالطبع دالة على الاشمئزاز من هذا الاسم ثم ضحكت

وقضيت سائر الليلة معها وكنت أحس بأني أسير بخطوات سريعة نحو الجنون

ولما دخلت غرفتها للمرة الثانية كنا في الصباح بعد تناول الشاي وكدت لا أعرفها فان الموتى عند الدفن أشبه بها من الأحياء ، وإنني أقسم لك أني لم أفهم كيف جرت الأمور على هذا المنوال ثلاثة أيام على التوالي ولا أعرف ما الذي كانت تقوله لي بالليل ، وتصور أنني في الليلة التالية كنت أصلي وأدعو الله أن يأخذها إليه

وعلى حين فجأة جاءت الأم وكنت قد أخبرتها في الليلة السالفة بأن الأمل قليل وأن الأفضل استدعاء القسيس

ولما رأت المريضة أمها قالت : « لقد أحسنت إذ جئت فقد تبادلنا الوعد وكلانا يحب الآخر »

قالت الأم : « ما الذي تقول الفتاة ، وماذا تقول أنت يا دكتور ؟ »

فقلت : « إنها تهذي فهي في نوبة الحمى »

قالت الفتاة : « ما هذا ؟ إنك كنت تقول لي غير ذلك منذ لحظة وقد قبلت خاتمي ، لماذا تتظاهر ؟ إن أمي طيبة وسوف تصفح . إنها تدرك أني أموت لا داعي إلى الكذب ... مد إليّ يدك ! »

فوثبت من مكاني وفررت من الغرفة ، وقد أدركت العجوز بالطبع حقيقة ما كان ...

ولا أريد أن أتعبك بالاطالة في هذا الحديث وأنت تدرك أن هذه الذكرى تؤلمني ، وقد ماتت مريضتي في اليوم التالي فيرحمها الله

ثم تنهد وقال : « وقبل موتها طلبت إلى أهلها أن يخرجوا ويتركوني وإياها وحدنا في الغرفة ، وقالت : سامحني ... إنني أنا الملومة .. إن مرضي .. ولكن صدقني إنني لم أحب أحداً أكثر مما أحببتك . احتفظ بخاتمي)

ووقف الطبيب ليذهب ثم قال : إنه يكره الذهاب إلى منزله عند ما تكون زوجته مستيقظة لأنها تكثر من تعنيفه ، ولأنه يكره بكاء الأطفال

وقال : « بعد ذلك تزوجت من بنت تاجر ، وأخذت بائنة قدرها سبعة آلاف جنيه واسم زوجتي أكولينا وهو اسم يتناسب مع اسم تريفون ولكن زوجتي مفقودة الصبر وهي بحمد الله تنام أكثر أوقاتها

ولما سكت الطبيب دعوته إلى أن يلاعبني لعبة الورق فربح مني روبلين وعاد إلى المنزل وهو مسرور بما ربح

عبد اللطيف النشار

قد دفنا الماضي البغيض

للأستاذ أديب عباسي

هبط البلدة عبد الكريم البرجي هو وزوجته الشابة وبنوه الصغار : حسين ومحمود ووصفي ، وأخذوا لهم مسكناً غرفة مفردة في حي من أحياء البلدة المتوسطة ، وعزموا أن يعيشوا عيشة هادئة مستقرة يستريحون معها من الضرب في الآفاق إلى آخر العمر . ولكن عكر عليهم هذه الآمال وشرد تلك الأحلام ما لاحظه عبد الكريم وزوجته صفية من انقباض السكان عنهم انقباضاً ملحوظاً مذ حلوا بينهم ، ثم ما جاء بعده من استرابة وحيطة تبدوان في وضوح وصراحة على جميع الأجوار . ولقد حاول الصغار في اليومين الأولين أن يختلطوا بصبية الحي ، ولكنهم كانوا في كل محاولة يجدون أنفسهم وحيدين حيث وقفوا ، وينظرون فاذا الصبية عادوا وعقدوا لهم بعيداً حلقة أخرى يستأنفون فيها ألعابهم . ولقد فهم الاخوان الثلاثة مما رأوا من سلوك صغار الحي ومما فسره لهم أبواهم أن وجودهم بينهم غير مرغوب فيه ، وأن عليهم أن يكفوا عن لحاقهم ، ويكتفوا باللعب بعضهم مع بعض ، فأذعنوا لذلك كارهين

ولم يجد عبد الكريم البرجي صعوبة في تبين أسباب هذا الانقباض والاسترابة في سكان الحي . فقد اعتاد أن يرى مثل ذلك حيثما حل المعمور نفر من أبناء جنسه ، بل هو يعلم أنه أضحى من الحيطة اللازمة والحرص المحتوم أن يرهف الناس الأسماع ويحدوا الأبصار ويضاعفوا الانتباه كلما لاح لهم النوري أو النورية من بعيد أو من قريب ، ويعلم أن ربة الدار لا تحسب في الحريصات اللائى لا يتغفلن بسهولة إذا لم تجر كل مساء تفتيشاً دقيقاً على محتويات البيت كلما هبط البلدة نفر من النَّور

أدرك عبد الكريم إذن أسباب انقباض السكان واسترابتهم ، ولم يجد أول الأمر حيلة يدفع بها أسباب الريب سوى أن يعتكف هو وذووه في البيت ما أمكنهم الاعتكاف . وقد رأى عبد الكريم يوماً أن ينكر الأصل الذى يمتون إليه فلم يفلح . فلقد كان في سيمائهم جميعاً ومعارفهم ونبرات أصواتهم وحركاتهم وسكناتهم ما لا يجدى معه إنكار ولا تنكر ؛ هذا عدا ما بوغت الصغار مرة أو مرتين يتراطنون بلسانهم الخاص برغم ما حذرهم أبواهم ونهياهم عنه أشد التحذير والنهى

وطال انتظار العائلة أن تخف الريبة والتحوط فيستطيعوا أن يتصلوا بالسكان ويواصلوهم ، ولا سيما أنهم جاءوا يطلبون رزقهم عن طريق العمل الشريف لا من طريق التطفل والتسول والسرقة كما هو دأب أبناء جنسهم . فصمموا أخيراً على تحدي ارتياب الناس وخرجوا من مسكنهم وبرزوا للناس وواجهوهم مواجهة في الأزقة والشوارع وفي سوق البلدة والساحات العامة دون استخذاء ولا وجل . ولقد كان لذلك أثره المحتوم ، فخفيت إلى حد بعيد

نظرات الارتياب وخف التهامس بين الناس كلما مروا قريباً منهم ، وثاب إلى ربات الدور بعض اطمئنانهن فاستطاعت صفية أن تلقى عليهن التحية وتقف دقيقة أو دقيقتين تحادثهن دون أن ينفرن وينفرط عقدهن أو يتحسسن حليهن خشية أن تطير من حيث لا يحتسبن أن تطير

وزاد اطمئنان السكان حينما رأوا عبد الكريم يعمد إلى غربال كبير ويملأه بالفواكه والخضر والسُحارة المشوية [1] والحمص المسلوق وخلافها مما قد يتسع له هذا الغربال ، ويحمله على رأسه ويدور على المساكن من الصباح إلى المساء يبيع ما يستطيع بيعه ثم يعود إلى منزله لا يبرحه إلا فى صباح اليوم التالى . فلقد أقنعهم هذا بأن عبد الكريم عازم عزماً أكيداً أن يعيش من كد يده لا مما يستطيع أن يناله بالسرقة والتسول

هذا وقد برزت عناصر الطيبة والأريحية فى البلدة حينما رأوا عبد الكريم يخرج على تقاليد الجنس ويصطنع هذا الأسلوب من الحياة المستقرة ، ويعيش مما يحصّله بكد يمينه وعرق جبينه ، وغدت ربات البيوت لا يشترين من السوق شيئاً يستطعن شراءه منه ، بل غدون يوصينه بأشياء وحاجات معينة يأتيهن بها من السوق وينال عليها ربحاً يسيراً

وتحسنت أحوال العائلة وصار عبد الكريم يستطيع أن يتخذ له دكاناً يستقر فيه ويعرض للناس سلعه ، ولكنه آثر أن يظل بائعاً متجولا ، وكأنه بذلك يلبى بطريقة محوّلة مصغرة ما غرسته الأجيال فى دمه ودافته فى أعصابه من حب التجوال والضرب فى الآفاق ، ولكن حرمته إياه حياة الاستقرار التى اصطنعها أخيراً

وأراد عبد الكريم أخيراً أن يكتسب تقدير الناس واحترامهم بعد أن أزال من نفوسهم كل أثر للريبة وسوء الظن ، فأدخل بنيه الثلاثة مدرسة البلدة يتلقون مبادىء القراءة والكتابة والحساب والتركية كغيرهم من أبناء البلدة

ويبدى أبناء عبد الكريم نشاطاً وجلداً فى الدرس ، فيكونون فى طليعة لداتهم طيلة السنوات التى قضوها فى مدرسة البلدة . ويزور المدرسة فى آخر العام مفتش معارف الولاية وهو رجل تركى ، ويجتلب انتباهه أبناء عبد الكريم بسيمائهم وقسماتهم الخاصة ، فيسألهم فى بعض ما تعلموه ويجيبونه أجوبة تسره ، فيسأل عنهم . وحينما يخبرونه من أبوهم وكيف آثر حياة الاستقرار على حياة التطويف والانتقال تستولى عليه الدهشة والاعجاب ويبعث وراء أبيهم ، ويحضر هذا ويسأله المفتش لماذا آثر حياة الاستقرار دون أبناء جنسه ولماذا هو يبعث أبناءه إلى المدرسة ؟ فيجيب جواباً موفقاً إذ يقول: « نحن يا سعادة البك نرغب أن نكون خداماً نافعين للدولة إذ نختار حياة الإقامة والاستقرار ، ونعلم الأبناء ليصبحوا قادرين على خدمة الدولة الخدمة الصالحة المفروضة على كل عمانى أمين » ويُسرّ المفتش سروراً كبيراً بهذا الجواب ويقول: « عفارم عفارم عبد الكريم ! إننا سوف نرسل بنيك على نفقة الدولة إلى المدرسة التجهيزية ليكونوا خداماً صالحين للدولة كما ترغب »

ولم يستطع عبد الكريم أن يجيب على هذا

(١) السحارة فصيح « المعلاق » العامية

الانعام الكبير إلا بالانهيال على يدى المفتش يقبلهما بشدة ودموع الفرح والغبطة تفيض بها أجفانه وتسح منهمرة على يدى المفتش المنعم

***

أدخل أبناء عبد الكريم البرجى المدرسة التجهيزية كما وعد المفتش أباهم ، ولم يفتر لهم همّ أو يخبو سعي أول ما دخلوا المعهد ، فكانوا أمثلة جيدة فى صدق العمل وحسن الاجتهاد ، ولكن الانتقال من بيئة القرية المحدودة إلى محيط المدينة الصاخب بدون تدرج فى هذا الانتقال أو تمهيد له يكون له غالباً مثل نتيجة الانتقال من المحيط المظلم إلى المحيط الشديد الاضاءة ، فتغشى الأبصار وتزوغ الأنظار أمداً يطول أو يقصر حسب استعداد الأشخاص لسرعة التكيف والتحول السليم من حال إلى حال . ومن هنا لم يلبث أبناء عبد الكريم إلا شطراً يسيراً من العام حتى أدركوا الفارق الكبير بين حياة القرية ومتعها الضئيلة التافهة ، وبين ما تتكشف عنه حياة المدينة كل يوم من متع آسرة ولذائذ مغرية . ولم يكن من حياة البلدة ونماذج اللهو فيها — إن صح أن ينسب إليها اللهو — ما يستطيع أن يتهداه أبناء عبد الكريم فيكون لهم جسراً ينتقلون عليه آمنين من عُدْوة إلى أخرى من عدوات الحياة . لم يكن لهم شيء من الخبرة السابقة والقدرة على تمييز سليم اللهو من الموبق ، فكان لذلك أثره المحتوم فى نتائج عملهم عند نهاية العام ، فرسب محمود ووصفي رسوباً شنيعاً ، ونجح حسين نجاحاً لعله كان أعود إلى شعور الاشفاق فى صدور المدرسين منه إلى جهد صادق من حسين وتقدير عادل لنتائج عمله . فقد كان في سمت حسين المستكين وإحدى العاهات اللازمة له ورسوب أخويه رسوباً شنيعاً ماجعلهم يشفقون عليه ويعاملونه معاملة لينة ، ولا سيما انه كان أقل اخوانه انصرافاً عن الدرس إلى اللهو والاستهتار

وأرسلت النتائج المدرسية للاخوان الثلاثة إلى مفتش المعارف فقرر فصل محمود ووصفى وإبقاء حسين . وبلغت عبد الكريم نتائج بنيه تلك وما قرر المفتش حيالها ، فأقامه ذلك وأقعده ، ولم يقر له قرار حتى ذهب يبغي مقابلة المفتش لعله يستعطفه ويصرفه عما دبر لابنيه الفاشلين ، ولكن المفتش أبى أن يقابله ، فلقد أحنقه أن يرى ثقته واختياره يقعان على همم فاشلة ، واستعداد مزيف ؛ ولكن الأب لم ييأس ولم يفت فى عضده أن منع الدخول على المفتش فى مكتبه ، فترصد له فى الشارع المؤدى إلى بيته ، وحالما لمحه يخرج من المكتب يبغى المنزل أقبل راكضاً من بعيد ، وأكب على يديه ورجليه وما زال يبكي وينتحب ويستغفر لبنيه إلى أن رق له ووعده بأن يعيد بنيه جميعاً إلى المدرسة ليجربهم سنة أخرى . فمضى عبد الكريم ودموع الحزن والشكر تبلل وجهه ، ودعا للمفتش أحر الدعاء وعاد وعلى وجهه كل سمات النصر الذليل والنجاح الضارع

وقبل أن يعود أبناء عبد الكريم إلى المدرسة فى العام الجديد استدعاهم المفتش إلى مكتبه وأنّبهم تأنيباً شديداً مريراً على تقصيرهم وسيرتهم المريبة ، وأخذ عليهم المواثيق فى أن يقلعوا عن حياة اللهو والاستهتار وينكبوا على عملهم المدرسى وينصرفوا

إليه عن كل ما عداه ... وخرجوا من لدنه وفى سماتهم وخطواتهم كل دلائل الذلة والضراعة والانفراج بعد حساب عسير ورهبة

عاد الإخوة الثلاثة إلى المدرسة التجهيزية ، وكأن نصائح المفتش أو تهديده ثم ما يكون عادة من رد الفعل القوى لكل فعل قوى ، قد أثابت إليهم بعض عزيمتهم والعازب من رشدهم ، فأقبلوا على دزوسهم إقبالاً إن لم يحقق لهم التبرز فقد جنبهم الفشل . وظل ذاك دأبهم إلى أن خرجوا من المدرسة بعد بضعة أعوام يحملون شهادتها ويحملون فى الوقت عينه شيئاً غير يسير من صلف المعرفة الناقصة وغرور العلم الفج . هذا إلى ذكريات لوقائع ومغامرات عديدة ما فتئوا يوماً يباهون بها ويقولون : « لقد كنا كالحيتان فى البحار تفتح أفواهها لتستقبل جميع أنواع السمك بلا تفريق بينها ثم لاتجد معدها مع ذلك صعوبة فى هضمها جميعاً وتمثيلها ! »

وقد استقبل أهل البلدة أبناء البرجى استقبالاً حسناً وطفقوا يهنئون أبويهم أحر التهنئة ويتمنون لهم أحسن المستقبل وأفضل العمل . وكأن الإخوان الثلاثة فهموا من إقبال أهل البلدة على تهنئتهم والاستبشار بمستقبلهم أنهم جاءوا يقرون لهم بالفضل المطلق ويبايعونهم على إمارة العلم والمعرفة فأدار ذلك رؤوسهم وضاعف غرورهم وصلفهم إلى حد لايطاق . وقد احتملهم أهل البلدة أول الأمر إذ ظنوا أنها نشوة النجاح لا تلبث أن تزول ويحل محلها الاتزان والتقدير الصحيح للأمور ، ولكنهم لاحظوا أن أبناء البرجى يمضون فى طريق الغرور والدعوى إلى حد الاستهتار بهم والاحتقار الشديد لهم ، فثارت ثائرتهم وأقبلوا يسلقونهم بألسنة حداد ويردون على استهتارهم واحتقارهم إياهم باستهتار واحتقار أشد . ولكن الغريب أن ذلك لم يوقفهم عند حد من الغرور والاستهتار ، فكأنهم أمنوا على أنفسهم من ناحية علمهم ومعرفتهم ، فغدا لايهمهم أن يهاجموا من أى نواحى الهجوم . وقد أغاظ هذا الموقف غير المبالى أهل البلدة وأحفظهم، فأداروا رؤوسهم هنا وهناك يلتمسون ناحية ضعيفة فى هؤلاء المغرورين ، فينفذون إلى مكامن الغرور فيهم ، فيقتلونه فيهم أو يقتلونهم به . وكما ينزل الوحى فجأة تنبهوا فجأة إلى أن الاخوة من ذلك الجنس الذى يضرب المثل به فى الحقارة وهوان الشأن والحطة . ولم ترحمهم البلدة الموتورة فى كرامتها ، فانتشرت لفظة « النوَر » ومشتقاتها فى طول البلدة وعرضها وغدت على كل لسان ؛ وصرت حيثما ذهبت لاتسمع إلا : النورى ! النور ! استنور القوم ! ما أنورهم ! قبح النور من أجل النوَر ! وما إلى هذه الألفاظ والتعابير مما هدى القوم إليه الحقد والضغينة . وفعلت هذه الموجة الصاخبة فعلها فردتهم إلى نفوسهم ، ثم اكتسحتهم اكتساحاً ، فعادوا ينقبعون انقباعاً شديداً فى مسكنهم كمثل ما ألجئوا إليه أول ما هبطوا البلدة . وشعروا بمرارة ألمية إذ رأوا كل ذلك البناء الذى بنوا ينهار عند كلمة واحدة (النور) ، وشعروا كذلك بحقد وكراهية بالغة — لأهل البلدة — بل لذلك الوالد الذى « أبى أن يكون إلا نورياً !! » وكم أخذوا يتمنون (بجدع أنوفهم) لو أنزلوا من صلب غير صلبه !

وجاءهم الفرج — بعد إذ غدت حياتهم لاتطاق حقاً — حينما جاءتهم طلبات من الحكومة للعمل فى بعض دوائرها . فأقبلوا بلا ونًاء يستعدون للرحيل . وفى ليلة من ليالى كانون الكالحة أمسوا ولم يصبحوا

***

استأجر عبد الكريم وبنوه بيتاً أنيقاً كبيراً فى المدينة التى اختير الأبناء للعمل فيها ؛ وتنفسوا الصعداء بعد تلك المطاردة العنيفة التى طوردوها فى البلدة ، وشعروا بلذة الانطلاق بعد الانقباض ، وذاقوا حلاوة الاطمئنان بعد مرارة القلق . ولكنهم عادوا بعد حين يستشعرون شيئاً من الاضطراب الخفى والقلق المكتوم ؛ واستغربوا أول الأمر أن يعود إليهم القلق والاضطراب بعد نجاة وأمن ، ولكن لم يصعب عليهم أخيراً أن يتبينوا أسباب ذلك فقد شعروا أنهم ما يزالون تحت خطر المطاردة ، إذ ماذا يمنع أن يستطيل حقد أهل البلدة ويستمر فيرسلوا من يدل أهل المدينة الكبيرة على أصلهم الوضيع ونشأتهم الحقيرة ، فيكون الشىء الذى لا يطاق والتعاسة التى لا تحد . ومضى شهر ثم شهر ثم آخر وهم كالذى بين فكىّ القضاء لا يدرى متى يطبقان عليه . ولكن بعد أن مضى هذا الزمن ولم يرد من البلدة نبأ يدل على أصلهم أو يحضر رسول سوء يكشف للملأ أمرهم ، عاد يتسرّب إليهم الاطمئنان من جديد ، وأيقنوا أنهم يسيئون الظن بأهل القرية أكثر من اللازم

ومضى حال العائلة رخيًّا خليًّا أمداً طويلاً .

وقد استطاع الإخوة أن يدخروا من رواتبهم والرُشى التى كانوا ينالونها على عادة موظفى ذلك الزمان شيئاً وفيراً من المال ... وينظر الأب إلى هذا المال الكثير فيتنبه إلى أن بنيه يسرفون فى معيشتهم ، وأنّ عليه أن يحد من غرب أهوائهم وينهنه من شهواتهم ! وتهاجمه هذه الفكرة هجوماً هيناً أول الأمر ، ثم يعود هجوماً عنيفاً أشد العنف . ويتقدم أخيراً إلى بنيه وينبهم بمرارة وحدة إلى إسرافهم البليغ وتبذيرهم الشديد . ويستغرب الأبناء هذا المظهر الطارئ من أبيهم ويقولون : « ما لك تركتنا نعيش كما نشاء والمال قليل بين أيدينا ، وتجىء الآن — وقد أسبغ الله علينا نعمه — تريد الحد من أسباب سعادتنا وتعكير صفونا ؟ ! إنه لشىء عجيب حقاً ! » ولكن الأب لا يصغى إلى حججهم ويصر على محاسبتهم محاسبة دقيقة على ما يسرفون ويبذّرون . وأخذ يذكرهم أن له الحق المطلق فى تنظيم شؤون الصرف كما يرى ويقول : « أى شىء كنتم تكونون الآن لو آثرت الانتفاع بأتعابكم المبكرة وشغّلتكم فى البلدة ولم أرسلكم إلى مدرستها ؟ ! ثم أى شىء كنتم تصيرون إليه لو لم أترام على قدمى المفتش بعد فشلكم الشنيع فيرق لى ويعيدكم إلى المدرسة بعد أن قرر طردكم ؟ ! أذكروا هذا وانظروا أى إثم تقترفون ؛ وأى فضل تنكرون أيها الأبناء العاقون إذ ترغبون أن تركبوا رؤوسكم وتمتطوا أهواءكم الجامحة كما تشاءون ! »

وقد كان يذعن البنون وينزلون عند هوى الأب لو جاءهم بهذا العزم مبكراً قبل أن تتمكن منهم عادات الاسراف وتتأصل فيهم ، ومن هنا يُفهمونه بصراحة أنهم لن ينزلوا عما اعتادوا أن يعيشوا من العيش الرغد ليجاروا هواه الغريب فى التقتير والتضييق عليهم . وهكذا يصرّ الأب من

جهته ويصر البنون ، فيدب الخصام ويستطيل الجدل والمشادة . وفى ثورة من ثوراته يصيح الأب : « صرتم ناساً يا نور لا تستطيعون أن تعيشوا إلا كالحكام والولاة ، والله لأرينكم ! » ويجفل البنون عند كلمة « نور » وتتسع حدقات عيونهم وتشخص أبصارهم كمن تبين فجأة خطراً داهماً وشراً مستطيراً . ويلحظ الأب ذلك ويتنبه إلى هذا السلاح الحاسم تقوده إليه فجأة ثورة من ثورات الغضب ، فيعود يقول : « نعم ، نور وألف نور ؛ والله لأفضحنكم وأعيدنكم مهزأة فى أفواه الناس أجمعين ! إفعلوا ماتشاءون وتقدرون ، وسأفعل ما أستطيع يانور ! » (وهنا يرفع صوته بكلمة « نور » عالياً) ويخشى البنون أن تزداد ثورته فيقوم ينادى على الناس فى السابلة : تعالوا انظروا النور ، تعالوا أخبركم عن أصلنا الوضيع الحقير ، فيخرجون صامتين من لدنه وسيماء الكره الشديد والدهشة البالغة فى عيونهم وعلى وجوههم

وينادي محمود بعد صمت طويل وتفكير عنيف : « ماذا تريان ؟ ! إن كل ما بنينا يوشك أن ينهار على رؤوسنا . لماذا لا نفعل شيئاً ؟ هل نبقى كالحوت غرست فى جنبه حربة تصحبه حيثما توجه إلى أن تقضى عليه ؟! لماذا لا نزيل هذه الحربة المسمومة من جنوبنا ونحطمها ونرميها قصياً ؟ ! » ويجيبه وصفى : « علينا أن نتخلص منه وإلى الشيطان مثل ذلك الأب اللعين ! » ويقول حسين : « ولكن كيف نستطيع الخلاص منه ؟ وماذا نصنع لننجو من عواقب ما تشيران إليه ؟ » ويجيب محمود : « الأمر هين . علينا أن ندعه ينتحر ! » ويضحك وصفى ضحكة صفراء ويقول متهكماً : « ولكن كيف نستطيع أن نفرض عليه هذه الرغبة فيقتل نفسه باختياره؟! »

ويجيب محمود : « لا تعجل ياوصفى ! كل ما أعنيه هو أن يكون ظاهر الأمر انتحاراً وحسب . وعلى كل اتركانى أفكر فى الأمر ملياً ، وأعد للأمر خطة محكمة أعرضها عليكما غداً » ويقوم كل إلى فراشه منطوياً على شر ماتنطوى عليه نفس من نفوس البشر

***

أبدى الإخوة فى الأسابيع التالية تساهلاً شديداً مع الأب ، فدفعوا إليه بجميع ما لديهم من نقود وطلبوا إليه أن يجرى الاقتصاد والتدبير فى جميع نواحى عيشهم . ويدهشه أول الأمر هذا الانقلاب ينقلبه البنون من موقف العناد إلى موقف الملاينة ، ويفسره بأنه ـ لا شك ـ النتيجة المحتومة لما هددهم به من هتك سرهم والدلالة على أصلهم . ويشعر بنشوة الفوز فيمعن فى التدبير والتقتير ، وكلما لاحظ أن بنيه يهمون بكلام يقول : « يالله ! ماذا يصير إليه حالنا لو علم الناس حقيقة أمرنا والمخفى من شأننا ؟ ! إنه لشىء مرعب حقاً . ولكن الحمد لله إن أحداً إلى الآن لا يعرف من أمرنا شيئاً ! »

وفى يوم يتقدم حسين إلى أبيه ويقول : « إننا فى حاجة إلى حبل للغسيل فاشتره لنا يا أبت وحاول أن يكون من الجنس الجيد الرخيص »

ويسر الأب إذ يرى بنيه أصبحوا يفهمونه ويجارونه على خطته فى الاقتصاد ، فيعد حسيناً بأن يبتاع لهم أحسن الحبال وأرخصها ولو اقتضى الأمر أن يدور على جميع أسواق المدينة لا يترك منها واحداً .

ابتاع عبد الكريم البرجى الحبل بعد أن طاف على معظم أسواق المدينة ينشد الرخص والجودة معاً .

وفى صباح اليوم التالى لشتراء الحبل سمع الجيران صياحاً وولولة فأهرعوا ينظرون ماذا أصاب عائلة البرجى فى ذلك الصباح ويدخلون فيرون صفية والاخوان الثلاثة يبكون ويعولون أشد البكاء والعويل، ويسألون : ماذا دهاهم وأى خطب أصابهم؟ وتشير الزوجة بأصابعها إلى غرفة نوم زوجها ، فيطل الجيران وإذا عبد الكريم معلق من رقبته فى حديد النافذة وعيناه جاحظتان ولسانه مدلى على صدره مقدار شبر . ويروعهم المنظر ، فيجفلون ويقبلون على صفية وأبنائها يسألونهم : كيف كان ذلك ومن صنعه ! ؟ وتجيب صفية : « لا أدرى ! لاأدرى . كل ما أعرفه أن عبد الكريم ابتاع البارحة حبلا قال لى إننا نحتاجه وجئت غرفته هذا الصباح لأوقظه فوجدته معلقاً كما ترون » أما الاخوان فكانوا يمثلون دور الذين عقد الحزن ألسنتهم فلم يجيبوا عن استفسار الناس بشىء

ولم يمض وقت طويل حتى أبلغ قائد الدرك نبأ الحادث ، فحضر إلى بيت عبد الكريم بصحبته المدعى العام . وشرع المدعى العام — بعد أن عاين الجثة — يُجرى تحقيقاً دقيقاً ، فتوجه إلى الزوجة أولاً وسألها عدة أسئلة ، فتبين من أجوبتها ولهجة حديثها ومظاهر الحزن الأكيد فى وجهها أنها لاتعرف من المأساة سوى فصلها الأخير . فتركها وباشر التحقيق مع البنين ، فكانت أجوبتهم جد متقاربة ، وتشير إشارة واضحة إلى أنهم لايتهمون أحداً وإلى ترجيحهم أن أباهم مات منتحراً . ولما سألهم المدعى العام ماذا يظنون الدافع لانتحار أبيهم ، كادوا يتلعثمون لولا أن محموداً قال : « يُخيل إلى أن والدى كان فى المدة الأخيرة يتملكه شىء من السوداء والحزن المبهم ، فكنت أسأله ماذا به ولم أراه واجماً ، فكان يجيب : لاشىء ! لاشىء ، وتنبسط أساريره ويزول وجومه كأنه يحاذر أن يطلع أحد على دخيلة أمره . وكنت أسأل والدتى — بحكم نفوذ المرأة إلى أسرار الرجل — هل ترى سبباً لهذه السوداء والوجوم يتملكانه أحياناً ، فتجيب بأنها لاتعلم من أمر ذلك شيئاً »

ويجىء الطبيب ، فيرى أن تنزل الجثة ليفحصها ويرى هل فى الحادث جناية مدبرة أم هو انتحار وحسب . ولكن المدعى العام يطلب اليه أن يتريث قليلاً ، ويطلب إخراج الاخوة ، فيخرجون . وعندها ينصب الكرسى الذى كان مطروحاً تحت رجلى عبد الكريم ، فيلاحظ أن الكرسى لايصل إلى قدميه بل يظل بينه وبينهما خلاء بمقدار شبر . وعندها يلتفت إلى الطبيب وقائد الدرك ويقول : « حتما هذا الكرسى وضع هنا للتعمية ولم يستعمله الرجل فى انتحاره قط ، إن يكن مات منتحراً . وعلى كل دعونا ننزل الجثة الآن فقد يكشف لنا الفحص الطبى أفى المسألة جناية أم هى انتحار وحسب » وتنزل الجثة ويلاحظ المدعى العام أن على الحبل آثار احتكاك حوالى المحل الذى رُبط منه بحديد النافذة ، فيضيف هذه الملاحظة إلى ملاحظته على الكرسى . ويشرع الطبيب فى فحص الجثة ، فيقرر بعد الفحص الدقيق أن ليس ثمّت أثر لاستعمال العنف ، وأن فقرات العنق محلولة مما يدل على أن الجسم ضغط إلى أدنى بعد إذ كان معتمداً على شىء . إلا أن المدعى العام ينبهه إلى أن حول العنق دائرتين من أثر ضغط الحبل عليه ، ويسأله كيف يعلله ؛ ولكن الطبيب لا يهتدى إلى تعليل

مقبول . ويضيف المدعى العام إلى ملاحظتيه الأولين هذه الملاحظة الثالثة عن أثر الحبل حول العنق

ويطلب المدعى العام الإخوة ، فيحضرون ، ويعتذر إليهم عن ربكهم بالأسئلة فى وقت هم أحوج ما يكونون فيه إلى بواعث التعزية . ويسمح لهم بدفن أبيهم إذ لم ير وجهاً لموته غير الانتحار

يدفن الاخوة أباهم ويعودون من المقبرة . . وفيما هم سائرون والناس وراءهم وأمامهم اغتنم محمود عطفة فى أحد الشوارع والتفت إلى أخيه وصفى ، وقال بصوت خفيض : «لقد دفنا الماضى البغيض ! » ولم تفت العبارة أذنين كانتا تسيران خلسة وراءهم لتلتقطا مثل هذه العبارة أو غيرها

ويزداد المدعى العام يقيناً — بعد أن سمع ما سمع — بما أخذ يكوّنه لنفسه من نظرية حول موت البرجى فيقول : إن هذه العبارة التى همس بها أحد الاخوان تدل دلالة واضحة على أن الإخوة لم يمازج نفوسهم قط شىء من الحزن لموت أبيهم ، بل هى تشير إلى مبلغ ارتياحهم وسرورهم لموت أبيهم . وليس بالقليل أبداً أن ينسيهم شعور الانفراج بموت هذا الأب واجب الحيطة اللازمة فيناجى بعضهم بعضاً بمثل ما سمعت . أما مظهر الحزن الذى يتكلفه الاخوان الآن تساعدهم عليه طبيعتهم الصفراوية وملامحهم المبهمة المكتومة ، فهو دور يمثلونه ويتقنون تمثيله ، ولكن الذى يحيرنى بعض الحيرة هذا « الماضى البغيض » الذى يشيرون إليه ، ولعلى إذا أرسلت من أعتمد إليه إلى البلدة التى جاءونا منها يتحرى عن جلية أمرهم ، أستطيع أن ألقى نوراً جديداً على موت البرجى بما سأقف عليه من ماضى الرجل وبنيه

* * *

بعد شهرين كاملين من هذه الحوادث بكر الناس فى صباح أحد الأيام بالنهوض والذهاب إلى قاعة المحكمة ليتسنى لهم أن يحجزوا فيها مقاعد لهم ويشهدوا محاكمة أبناء البرجى بتهمة قتلهم أباهم كما سيثبت ذلك المدعى العام فى هذه الجلسة الختامية

و حوالي الساعة العاشرة جاء جنديان مسلحان يسوقان أبناء البرجى ويدخلانهم قفص الاتهام ؛ وبعد أن تمت الاجراءات اللازمة وقف المدعى العام وألقي بصوت هادىء رصين مرافعته التالية :

حضرات القضاة المحترمين : لا أريد أن أطيل الشرح ولا أكثر التحليل وإنما أكتفى بعرض موجز للحقائق التى بنيت عليها نظريتى فى الاتهام ، وهى أن وفاة البرجى لم تكن نتيجة للانتحار كما دلت على ذلك ظواهر الأمر ، وإنما كانت الوفاة بأيدى جناة آثمين هم هؤلاء البنون الماثلون أمامكم ، إن جاز فى عرف المبادىء النبيلة والغايات الشريفة أن ندعوهم أبناء ، ولو كان الصخر ينبت بنات وبنين لقلت إن هؤلاء الذين لا أستطيع أن أدعوهم بنين إلا تجوّزاً نشأوا من الصخر الجامد والحجر الأصم

إن أول ما نبهنى إلى أن الحادث لم يكن انتحاراً الكرسى الذى وجدناه مطروحاً تحت رجلى القتيل . فقد بدا لي أن أقفه تحت رجليه لأرى أتطوله رجلا الجثة أم يبقى بينه وبينها فراغ ، كما تبادر إلي ؛ وقد صدق حدسى لما نصبت الكرسى وظل بين أعلاه وقدمى القتيل مقدار شبر من الفضاء

وهنا أدركت أن من المستحيل أن يكون الرجل علق نفسه بحديد النافذة ثم ركل الكرسى ، بعد أن صعد عليه ، ليسقط جسمه ويشد الحبل على عنقه ويزهق أنفاسه . وإنما المعقول أن يكون الرجل خنق بالحبل على الأرض ثم علق بعدها وطرح الكرسى بين رجليه لإيهام المحققين والإلقاء فى روعهم أن الموت كان انتحاراً وحسب ، ولكن فات الجناة أن يتقنوا أسباب التعمية هنا ، فنم الكرسى عليهم

ثم أنزلنا الجثة وتقدم الطبيب ليفحصها ، وقرر الطبيب أن فقرات العنق محلولة مما يدل على سقوط الجثة إلى أسفل ، كما قرر أنه لا تكاد تبدو آثار من استعمال العنف على الجثة ، مما جعله يميل إلى نظرية الموت انتحاراً لا قتلا

بيد أن تقرير الطبيب وترجيحه الوفاة انتحاراً لا قتلاً لم يفت فى عضدى بل كان مساعداً لى على تصوير الجرم تصويراً خيالياً ، ثم وجدت بعدئذ من الحقائق ما يبرر لى هـذا التصوير : تصورت أن البنين — لسبب من الأسباب — أرادوا قتل أبيهم فجاءوا بالحبل ودخلوا عليه ليلاً فألفوه نائماً وعندها وضعوا أنشوطة في الحبل وأدخلوا رأس أبيهم فيها وأمسك واحد من الاخوة بطرف من الحبل وآخر بالطرف الآخر ثم تجاذبا الحبل بينهما بقوة وسرعة ففاضت روح المسكين دون أن يبدى مقاومة ، يساعد على ذلك استغراقه فى النوم وشيخوخته . وبعد أن أتم الجناة ما جنوا رفعوا الجثة وعلقوها بحديد النافذة ليوهموا الناس أن أباهم مات منتحراً

هذه الصورة التى صورتها لنفسى عن كيفية وقوع الجرم حاولت أن أدعمها بالحقائق ، وأول ما جاءنى من الحقائق دليلا على صدق الصورة الدائرتان من أثر الحبل حول عنق القتيل . فالدائرة السفلى هي بلا ريب أثر الحبل إذ شد على عنق الرجل وهو نائم والدائرة العليا هى أثر الحبل بعد أن علق فى حديد النافذة ، وقد نبهنى إلى دلالة الدائرتين من أثر الحبل حول عنق الرجل الاحتكاك الذى رأيته في الحبل قريباً من مكان تعليقه بحديد النافذة ، إذ خيل إلى أن هـذا الاحتكاك ناجم من إدخال طرفى الحبل في فجوة من فجوات حديد النافذة وسحبهما من الجهة الخلفية إلى أسفل لرفع الجثة على نحو ما ترفع الأجسام بالبكرات . فقد قلت لاريب أن الرجل مات مخنوقاً قبل أن يعلق ، والأرجح بل الأكيد أن يختلف وضع الحبل حول عنق الجثة وهى ملقاة أفقياً ثم وهى معلقة عمودياً ، وعليه طلبت أن يخرج الحبل من عنق الرجل ونظرت فاذا أثران : الأول مخفي تحت زيق القميص ، والثانى مكان الحبل إذ شد على عنق الرجل بعد التعليق

وأحببت أن أعلم من جاء بالحبل الذى علق به الرجل ، فسألت الإخوان فأجاب كلهم بأن أباهم ابتاعه كأنهم بذلك يتسارعون إلى إبعاد التهمة عنهم ولكن لم أقتنع بكلامهم ورحت أسأل التجار فى السوق هل ابتاع البرجى حبلا قبل أن تحدث له الوفاة فكان جميعهم يجيب بأن البرجى جاء حقاً يطلب حبلا . وقد أخبرونى جميعاً كذلك بأنه كان فى حالة نفسية جيدة وأنه جادلهم طويلا وما كسهم فى الثمن كثيراً فاستغربت ما ذكروه من مظهر حرص الرجل وقلت : هل يعقل أن يكون المرء حريصاً مثل هذا الحرص وهو قادم على الانتحار وتطليق الحياة بخيرها وشرها ؟ ثم ألا يجوز أن الأب حمل اختياراً على شراء الحبل — حمله على ذلك أحد

بنيه حتى يُعلم فى السوق أن الرجل أعد وسائل الانتحار بيده ؟ دارت فى نفسى هذه الخواطر ، ففكرت فى سؤال الإخوة من جديد لعلى أستدرجهم إلى معرفة من أوحى بمشترى الحبل . ولكننى عدلت عن هذا الرأى لأننى رأيت الإخوة — بعد أن رأوا الشبهة تتجه نحوهم — يمعنون فى الحذر والحيطة بحيث لم يعد فى الامكان استدراجهم . ولكننى لم أيأس ، فقد تلطفت بخادم المنزل ، فأخبرتني بأن حسيناً هو الذى طلب إلى والده مشترى الحبل ، وقالت انها علمت ذلك من عبد الكريم نفسه فقد استغربت لماذا اشترى الحبل ولديهم حبال كثيرة ، فأجابها بأن ابنه حسين هو الذى طلب إليه شراء الحبل لحاجة البيت إليه . وزادت الخادم أن نقاشاً حاداً كان يقع بين عبد الكريم وبنيه ، ولكن ذلك النقاش هدأ فجأة كما بدأ فجأة ، وساد البيت بعده مظهر قوى من الاقتصاد والتقتير . وهنا سألت الفتاة : هل تذكر شيئاً مما كان يدور بين الأب والبنين عند ما كان ينجم الجدل والمشادة ، فأجابت بأنها كانت تخشى أن تدنو من الأبواب والنوافذ حينما كانوا يتناقشون ، ولا سيما أن بعض الإخوان كان يخرج الحين بعد الحين يستوثق أن أحداً لا يسترق السمع أو يصغى لما يتجادلون ؛ ولكنها برغم ذلك استطاعت أن تسمع الأب مرة أو مرتين يردد بصوت عال كلمة «نور» فكان الأبناء يستكينون جد الاستكانة ويفكرون عند سماعها . وأخيراً سألت الخادم : هل لاحظت على عبدالكريم قبل أن يقدم على الانتحار شيئاً من الحزن والسوداء ؟ فأجابت بأنها لا تعرف ماذا أعنى بالسوداء ففسرتها لها ، وعندها قالت : إنها لم تلحظ شيئاً من ذلك ، بل كأنما لاحظت أن الرجل زاد قوة وانشراحاً ، ولا سيما بعد أن انقطعت المشادة بينه وبين بنيه

بعد أن أصغيت ما أصغيت الى ثرثرة الخادم دون أن تدرك خطورة ما أفضت به إلي قلت : هذه أدلة جديدة تزيدنى يقيناً بأن البرجى راح ضحية العقوق ولؤم البنوّة . فالحبل لم يشتره المسكين لينتحر إذن ، وإنما أوحى بنوه إليه بشرائه زيادة فى الاحتياط ، فيقول الناس والمحققون ان الرجل ابتاع أسباب الموت والفناء بيده . كذلك أدركت ان ما قاله لي محمود فى بدء التحقيق من استيلاء السوداء والشذوذ على أبيه قبيل الحادث واعتقاده ان لذلك علاقة بانتحاره لم يكن إلا أكذوبة ارتجلها فى غير تفكير ليتخلص من حراجة الموقف حينما أعجلته بالسؤال هو وأخويه عن أسباب انتحار أبيهم . أما ما كان يتردد على لسان الأب وقت المشادة من لفظ «النور» فلم أحمله أول الأمر محملاً خاصاً ، وقلت : هي عادة الشرقيين من الاسفاف فى الخصومة وتوزيع النعوت والألقاب فى غير قصد ولا اعتدال . ولكنني عدت ونظرت إلى هذا اللفظ يتردد في الخصومة بين الأب والأبناء نظراً جديداً لما جاءنى من انتدبته للبحث عن ماضى القوم فى البلدة التى جاءوا منها بأن القوم يمتون مباشرة إلى النور ، وانهم قوطعوا من جراء ذلك مقاطعة شديدة أول ماحلوا البلدة ، ثم طوردوا مطاردة عنيفة — لأمور طارئة — بلفظ « النور » حتى اضطروا أن يرحلوا بليل

بعد هذا عدت إلى ترتيب الحقائق ترتيباً

جديداً بعض الجدة ، فقلت : لا ريب أن الأب كان يهدد بنيه بكشف ماضيهم وانتسابهم إلى ذلك الجنس الوضيع (النور) ، إذا لم يرعووا وينزلوا على مشيئته فيما شجر عليه الخلاف ودبت الخصومة ، فاضطروا أخـيراً ، اجتناباً للفضيحة واختياراً لأهون الشرين ، أن يذعنوا بعد أن بيتوا له شراً كبيراً . وقد ذكرت لى الفتاة الخادم أن الخصومة هدأت وتبعها فوراً تقتير واقتصاد شديدان ، وهذا بلا ريب ما كان يريده الأب ونجم عنه الشجار الذى انتهى حينما أذعن البنون . وسارت شؤون الدار على هوى الأب لا على هوى البنين . وقد يبدو مظهر الاقتصاد والتقتير المفاجئ فى الأب شيئاً غريباً ، ولكننى أقرر هنا أنها حالة نفسية مشهودة شهوداً عاماً ، فكأن رؤية المال يربو ويزداد — ولاسيما عند من يثرون بعد متربة — تزيد الناس حرصاً عليه ورغبة فيه ... أقول : اختار الأبناء أن يذعنوا من جهة ، ولكنهم — من جهة ثانية بيتوا للأب شراً مستطيراً ، فكانت حكاية الانتحار وأخيراً حقيقة الجناية ...

وعند هذا الحد من مرافعة المدعى العام تسمع حركة سقوط فى قفص الاتهام ، فيلتفت المشاهدون ويلتفت القضاة فيرون حسيناً ملقى على الأرض وقد أخذته غشية ، ويبادرون إلى إسعافه ، وحالما يفيق يستأنف المدعى العام مرافعته ويقول : قد رأيتم ياحضرات القضاة المحترمين كيف انهار أحد المتهمين بعد أن لم تقو أعصابه على التماسك فى وجه الحقائق الصارخة بأنهم القتلة المجرمون . ثم انظروا كيف غدت غبرة الموت وقترة الفناء تعلوان وجهى الأخوين الآخرين !

ويختم المدعى العام مرافعته بطلب الحكم الصارم على الإخوة الثلاثة إذ يقول : إننى أطلب من المحكمة الموقرة ، بعد أن عرضت عليها عرضاً واضحاً عناصر الجريمة وجميع ملابساتها — أن تحكم على هؤلاء الإخوة الثلاثة كقتلة سفاحين انحدروا إلى أقصى دركات الوحشية وألأم صفات الاجرام والاثم ؛ إذ من تمتد يده إلى شعلة الحياة فى صدر الأبوة تعبث بها وتطفئها إلا من أعطى نفس خنزير أو أدنى من نفس خنزير !!؟

ويوجه رئيس المحكمة الكلام إلى الإخوة ويقول : أنصحكم — بعد أن وضحت معالم الجريمة — بالاعتراف فذلك أولى لكم وأجلب لاستعمال الرأفة بكم

ويقف الرئيس عند عبارته الأخيرة ينتظر جواباً فلا يتكلم أحد . فيعيد الكلام ويسأل : ماذا تقولون ؟ أتصرون على الانكار ؟ وعندها يرفع حسين صوته ويقول منتحباً فى رنة تكسرها الذلة ويقطعها الحزن : نعم ، نعم ، نحن القتلة ، نحن المجرمون !! ولا يستطيع محمود ووصفى بعد إقرار أخيهما أن يصرا على الانكار فيعترفان

واختلى القضاة يتداولون بينهم أمر الحكم ، وشخصت الأبصار نحو الإخوة الثلاثة وفيها من المعانى والعواطف المتباينة ما أتى على البقية الباقية من ثباتهم وتماسكهم ، فيلتفت حسين إلى أخويه ويقول بصوت باك ورنة متحطمة :

— أنظرا ! قريباً سنتخلص من جميع ذلك الماضى البغيض !!

أديب عباسي

الوطنية

مترجمة عن مجلة القصص الواقعي الانجليزي

بقلم الأديب محمود السيد شعبان

فقد أعلن لى (هانز) فى يوم من الأيام — وقلبه يفيض حزناً ، ونفسه تمتلئ أسفاً ، وجسمه ينتفض فرقا — أن ألمانيا قد أعلنت الحرب على أعدائها ، وأنه سيسافر إلى ميدان القتال لأن اسمه قد درج بين أسماء المحاربين هناك ... ثم رجانى أن أعود إلى (باريس) — وفى الوقت فسحة — خوفاً من أن تجدّ ظروف تحول بينى وبين ذلك .

وقد كان (هانز) — بالرغم من كل ذلك — على يقين من أن الحرب لن تستمر أكثر من ثلاثة شهور على أكثر تقدير ، وأنه سيعود إلىّ بعد ذلك..

وأحسست بعد أن أفقت من صدمة هذا النبأ الفاجع ، وهول هذا الخبر المؤلم — أن حبى لزوجى (هانز) أقوى وأعنف بكثير من حبى لوطنى (فرنسا)!

وشعرت أن كل ما هو حبيب إليه أحب إلى نفسى من كل ما سواه ، وأن كل ما هو عزيز عليه أعزّ على قلبى من كل ما عداه . ومن أجل ذلك أهبتُ بنفسى أن أكون ما حييت فداء لهانز وللقيصر ولألمانيا متحملة فى سبيل ذلك ما قد ينتابنى من الألم أو يمسنى من السوء ...

وودعت (هانز) وأرسلته إلى المعركة ، وقلبي يفيض إعجاباً ، ونفسى تتيه فخارا . وقد كنت أنا أيضاً أعتقد أن الحرب ستضع أوزارها عما قليل ، وأن (هانز) سيعود إلىّ سليما قوياً آمناً . وانقضت شهور عدة فما خمد لهيب الحرب وإنما ازدادت المهالك

تزوجتُ من (هانز) — وهو أحد الجنود الألمانيين — لعام واحد قبل الحرب العالمية الضروس التى أهلكت كل حىّ ودمرت كل شئ ، بالرغم من أنى فرنسية الأصل والجنس ... وكان أول عهدى به أن لاقيته فى معرض من معارض الفنون فى (باريس) — وكان قد ذهب إليه زائراً — فلما سمعته يتكلم الفرنسية بطلاقة تحدثت إليه ، فملكنى حديثه العذب الفكه ، وأسرنى غزله المرح الرقيق ، فكان ما كان ، وانتهى بنا الأمر إلى الزواج بعد قليل

وتركت وطنى راضية لأعيش مع زوجى (هانز) فى قرية صغيرة من قرى ألمانيا . وعشت بين أحضان عائلته فى سعادة ورفاهية ، ورغد وبُلَهْنِية . وصار أصدقاؤه مع مضى الزمن أصدقائى ، وخُلَصاؤه خُلَصائى ، وأقاربه أقاربى ! وما مضى على وجودى بينهم غير قليل حتى تعلمت كيف أتكلم الألمانية ، وحتى كدت أنسى أننى كنت فرنسية الجنس واللغة فى يوم من الأيام . ونقلنى (هانز) بما حباه الله من قوة وسحر إلى دنياه فذقت لذة الهناء ، وحلاوة الصفاء ، ومتعة الحب ! !

ولكن هذا النعيم لم يدم طويلاً وا أسفاه !

المشتركة فيها عدداً وعددا . وكان (هانز) يرسل لى بين الحين والحين بعض الرسائل — وهو فى ميدان القتال — فكنت أجد فيها قليلاً من المتاع واللذة ، وشيئاً من الراحة والطمأنينة ، ووميضاً من السلوان والأمل ! ولكنى ما كنت أريد إلا أن أرى وجهه ، وأسعد به فى جوارى مرة أخرى !

***

أواه يا قلبي !

إننى ما رأيت (هانز) بعد ذلك اليوم أبداً ، وما كنت أحسب أنى قد ودعته الوداع الأخير ! فقد ترامى إلىّ أن طائرة فرنسية دمرت الكمين الذى كان يختبئ فيه — بعد مضي عشرة شهور من بدء الحرب — فقضى نحبه محترقاً . وكاد الحزن يفقدنى عقلى ويورثنى الخبل ...

ومن ذلك اليوم تولدت فى نفسى الكراهية والبغضاء لفرنسا ، وتمنيت لو استطعت أن أثأر لزوجى أو أنتقم له من أولئك الذين قتلوه ! وأحببت لو أن فرنسا خرجت منهزمة منكسرة من الحرب بل مدمرة مهدمة مخربة ! ! ولكن السنين — واحسرتاه — قد خيبت ظنى ، إذ وقعت الهزيمة على ألمانيا ؛ فملأت الأحلام المفزعة فؤادى ، وأفعمت الأوهام القاتلة خيالى ؛ فصدقت كل ما يقال عن قسوة الألمانيين ، وكل ما يذاع من أنباء اعتدائهم على الأطفال الآمنين والنساء الضعيفات . فدعوت الله من قلب خالص أن ينصر القيصر ويكتب له الفوز المبين ! !

... وفى يوم من أيام سبتمبر من عام ١٩١٨ أجلى الفرنسيون الألمانَ عن قريتنا ، ولكن الألمانيين تمكنوا — قبل غروب شمس ذلك اليوم — من استرداد قريتهم المسلوبة ومحاصرتها وتطويقها ...

واستيقظتُ على حين غِرّة على صوت مزعج ودوي هائل وضجيج وجلبة فى حجرة الاستقبال التى فى الطابق الأسفل من منزلى ، فارتديت منامتى على عجل وأضأت المصباح الكهربائى الذى ينير الدَّرَج ثم هبطتُ الدركات مسرعة يدفع بعضى بعضاً

***

فماذا رأيت هناك ؟

... لقد رأيت جندياً فرنسياً يرتدى ملابسه العسكرية متكئاً بجانبه على المنضدة ، والدم يتفجر غزيراً من جرح فى رأسه ، وكانت سترته ملطخة بالوحل ، وعلى وجهه أثر مما يعانى من الألم ويقاسى من الجهد ...

وما كاد الرجل يرانى — وأنا أقترب منه — حتى ألقى إلىّ نظرة فيها كل معانى الاسترحام كأنما يستجدى بها المعونة ، ويرجو بها الغوث . ثم مدّ إلىّ إحدى يديه كأنما يعلن إلى أن لا حول له ولا قوة

فقلت له بلهجتى الفرنسية الوطنية : « هل يؤلمك هذا الجرح كثيراً ؟ »

ففتح الجندى عينيه على مهل ثم قال : « هل سيدتى ... فرنسية ؟ »

وما أدري لماذا أحسست ساعتئذ بثورة فى دمى وهزة فى جسمى ، وخفقان فى قلبي !

وقلت للجندى : « نعم ، إننى فرنسية ، ولكنى مقيمة هنا . . إني ... أنا ... ! »

وأمسك الجندى بذراعى ثم قال : « إن الواجب يحتم عليك أن تساعدينى . لقد حسبنى زملائى ميتاً فتركونى ، والآن يجب علىّ أن أرجع إلى صفوفنا ! يجب علىّ ... »

وما كاد يتم كلامه حتى سمعت دقاً عنيفاً على الباب ، وصوتاً عالياً ينادى : « أيتها السيدة ! ... أيتها السيدة »

كانت فى منزلنا حجرة صغيرة اعتاد (هانز) أن يقضى فيها شئونه الخاصة ؛ فلما مات أغلقت بابها الصغير ثم غطيته بستر يحجبه عن الأبصار ، وأبقيت الحجرة على ما كانت عليه ، فلم أتناول أى شيء فيها بتغيير أو تبديل كأنها مكان مقدس لا يُمسّ ، أو كأنها الموئل الذى تستريح فيه روح زوجى وتطمئن إليه ...

وما أدرى ما الذى دفعنى إلى أن أنتهك هذا الحرم المقدس فى ذلك الموقف العصيب !

لقد قُدْتُ الجندى الفرنسى إلى الحجرة فرفعت الستر عن بابها ، ثم فتحته ، وبعد أن أدخلته فيها أغلقت بابها ثم أعدت الستر إلى موضعه ...

واشتد الدق على الباب الخارجى عنفاً ، وما كدت أفتحه حتى دخل منه جندي ألمانى ضخم الجسم كبير الجرم أحمر الوجه ، فدفعنى جانباً وأزاحنى عن طريقه ، ثم أخذ يجول فى أنحاء البيت كيفما شاء باحثاً عن الجندى الفرنسى . ففتش المطبخ ثم الحمام فلما لم يجد غريمه اندفع يرقى الدَّرَج إلى أعلى

وتَلَبَّثْتُ فى موضعى حتى عاد إلىّ ، وحرصت على أن أكتم شعورى ، وأكبح عواطفى ، وأدفع عن نفسى رجفة كادت تهزنى . وحاولت أن أبعد عينى عن الستر حتى لا ألفت نظر الألمانى إليه

وما كاد الجندى يقف أمامى وجهاً لوجه حتى أدركت أنه مخمور لا يعى !

وقال لى بصوته الغليظ الخشن : « إننى ... إننى أظن أنى قد رأيت كلباً فرنسياً يجرى فى فناء دارك وما أرتاب في أنه قد تسلق الحائط ودخل منزلك من النافذة ... إنى ... إنى ... ! »

فأجبته بهدوء : « لقد بحثت بنفسك فلم تجد أحداً هنا »

وكان من العسير عليه أن يدرك ما يقول أو يفكر فيه فقال : « أنا ... أنا ... لقد أخطأت .. أنا ... أنا ... »

وانتشرت على شفتيه ابتسامة شيطانية ما رأيت أخبث منها ثم قال : « هل تعيشين هنا .. وحيدة؟!»

فأجبته : « نعم . إننى أعيش هنا وحيدة منذ أن قتل زوجي »

فاقترب منى شيطاناً فاجراً ، وعربيداً داعراً ، ومخموراً خبيثاً وهو يتمتم : « وعلى ذلك فأنت تعيشين هنا وحيدة ؟ ! »

ولكن بالرغم من كل ذلك لم أتحرك من موضعي ولم أتزحزح عنه ، بل قلت له : « ألا تظن أنه من المستحسن أن تخرج الآن لتبحث عن الكلب الفرنسى فلعلك عاثر عليه ؟ ! »

ولكنه أجابنى — بعد أن طوق خصرى بذراعه وضمنى إليه بعنف — : « لا .. لا .. لقد ذهب ... و ... وأنا لا أريد أن أبرح هذا المكان ... بل أريد أن أمكث هنا بأية طريقة !! »

وأحسست بعد ذلك بشفتيه تنطبقان على عنق . ثم قال : « ستكونين — ولا ريب — متساهلة لينة الجانب معى ... أليس كذلك ؟! »

وحاولت أن أدفعه بعيداً عنى ثم قلت له : « أرجوك ... »

ولكنه ضمنى إليه بقوة ، ثم تتابعت أنفاسه سراعاً وهو يقول : « لاتقاومى ... فلن تجديك

المقاومة شيئاً . لابد مما أريد ... وتستطيعين أن تنسى كل شئ عند ما أتركك إن كنت لا تريدين أن ... ... لاتقاومى ... !! »

وهممت أن أصرخ مستغيثة ولكنى تذكرت أن صراخى سيجلب دون ريب عدداً كبيراً من الجند ، وأن هؤلاء سيفتشون وسيبحثون من جديد عن الجندي الفرنسى . فقلت للجند الألمانى : « أرجوك ... أرجوك أن تدع هـذا لوقت آخر ... ... !! »

فقهقه الرجل ثم قال : « لوقت آخر ؟ ! وقت آخر ؟! ربما يكون ذلك عند ما أموت !! »

وما تلبّث حتى حملنى على ذراعيه وأخذ يصعد بى الدَّرَجَ إلى أعلى . ولكنه لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى سمعنا صوتاً يقول على حين غِرَّة : « إننى آسف ياسيدتى على ماسببت لك من تعب ..! »

وما سمع الألمانى هذا الصوت حتى أنزلنى من فوق يديه وأوقفنى على قدمىَّ ، ثم أدار وجهه فيما حوله وإذا ... وإذا بالجندى الفرنسى واقفاً أمامه وجهاً لوجه ، منتصب القامة ، مرفوع الهامة ، بالرغم مما يقاسى من جراحه ، وما يعانى من آلامه ! وإذا به يبسم لنا بالرغم من أنه يكاد يُغمى عليه من الألم ، ويُغشى عليه من الجهد والإعياء

***

— « إننى سجينك الذى تبحث عنـه ، وأسيرك الذى ترجوه !! إننى حاجتك وطَلِبَتُك ... وما دام الأمر كذلك فهيا بنا إذن نذهب من هنـا ونترك هـذه السيدة الكريمة فى سلام وطمأنينة !! » هكذا قال الجندى الفرنسى للجندى الألمانى الذى أذهلته المفاجأة فوقف مرتبكا لايدرى ماذا يفعل . وأخيراً قال هامساً فى نفس متقطع :

« نعم ... نعم ... إنك سجينى ! »

وخرج الرجلان من دارى وسار معا ؛ وعلى ثغر الفرنسى ابتسامة لاتفارقه ، وعلى وجه الألمانى حيرة وذهول !

وما رأيت الجندى الفرنسى بعد ذلك اليوم أبداً . فياليت شعرى هل مات فى الحرب أم هو ما يزال حياً إلى اليوم ؟ ! ولو أننى رجعت إلى (باريس) بعد الحرب لما تباطأت فى البحث عنه حتى ألقاه فأشكره على ما أسـدى إلىَّ من عارفة وما قدّم إلىَّ من جميل

ولكنى وا أسفاه لم أعد إلى فرنسا ، لأن حياتى فيها تزوير على نفسى ؛ ولم أبق فى ألمـانيا ، لأنى فجعت فيها بموت زوجى الذى كنت أعيش من أجله على أرضها ؛ بل أتيت إلى انجلترا لأبدأ حياة جديدة ، وما نسيت هذه الذكريات المؤلمة فى يوم من الأيام بالرغم من مرور هذه السنين الطوال

محمود السيد شعبان



اعترافات فتى العصر

لألفريد دي موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل الخامس

وترامت نحوى فهببت أصيح : — إنه لمجنون من يحاول ولو مرة واحدة فى حياته أن يفوز بالحقيقة من فم امرأة . إنه ليعود بغنيمة الاحتقار وقد استحقها

إن من يتوصل إلى كشف حقيقة المرأة إنما هو المتنصّت إلى هذيانها فى نومها ، أو المستنطق خادمتها بقوة الرشوة . وما يعرف حقيقة المرأة إلاّ من استحال امرأة ليهتك بدناءتها الأشباح الملفعة بالظلام ؛ أما الرجل الذي يطلب هذه الحقيقة بكل صراحة وإخلاص ، الرجل الذى يمد يداً تأنف الدنايا مستجدياً هذه الحسنة الرائعة فإنه لن يظفر بها طوال حياته . إن المرأة تحترس من أمثال هذا الرجل فلا تجيب على سؤاله إلاّ بهز كتفيها ؛ وإذا ما خانه الجلد انتصبت فى وجهه كعذراء الهيكل غاضبة لعفافها وصيانتها . وهل تدافع المرأة إذا شعرت بالريبة تدور حولها بسوى آية النساء العظمى : إن في الشك مقتل الحب ، وما تغتفر المرأة إهانة لا يسعها أن تجيب عليها

أما والله لقد ثقل هذا الحال علىّ فإلى أى زمن سيدوم ؟

فقالت وقد تجمّدت نبراتها برودا على شفتيها :

— لك أن تضع له حداً فإنه ليرهقنى بقدر ما يرهقك

— سأضع له حداً فى هذه اللحظة فأنا هاجرك إلى الأبد ، وللزمان أن يفعل فعله ليبررك

الزمان ! الزمان ! هذه كلمة الوداع ، أيتها العاشقة الباردة ؟

تذكرى وداعك هذا عند ما يمرّ الزمان فتفتشين عبثاً عن السعادة والحب والجمال . أين فجيعتك لفقدى أيتها العاشقة ؟

إن كل ما يمر فى ذهنك الآن هو أن المحب الغيور سيدرك يوماً ما ارتكب من ظلم عند ما ينطح البرهان بصره فيعلم أى قلب أدمى ، وعندئذ تسح دموعه خجلاً من نفسه فيفقد لذة العيش ويهجره وَسَنُه وتصبح حياته مأتماً ينوح به على أيام كان له أن يقضيها فرحاً سعيداً ، ولكن لا يخطر لك أن معشوقة هذا التعس قد تقف مذعورة فى ذلك الحين من نتائج انتقام الزمان لها فتصرخ قائلة :

— ليتنى فعلت ما كان يجب فعله قبل فوات الأوان

صدقينى ! إن كبرياء هذه العاشقة لن يأتيها بأية تعزية إذا كانت أحبت حقيقة

وكنت أود أن أتكلم هادئاً فأفلت زمامى من يدى ، وبدأت بدورى أذرع الغرفة طولاً وعرضاً . فتشتبك نظرات بريجيت بنظراتي اشتباك السيف

بالسيف ، وكنت أراها أمامى كأنهـا باب منيع سُجنت وراءه فأفتش عن وسيلة أبذل فى سبيل امتلا كها حياتى لأحطم أقفال فمها وأغتصب سرها

وقالت : ماذا تقصد وما الذى تريد أن أقوله لك ؟

— أريد أن تبوحى لى بمـا تضمرين . أفليس من القساوة أن تكرهينى على تكرار هذا القول ؟

— وأنت .. وأنت .. أين قساوتى من قساوتك ؟ تقول إن من يطمح إلى معرفة الحقيقة مجنون ، أفلا يحق لى أن أرد على هذا بقولى إنها لمجنونة المرأة التى يخيل لها أن ما ستعلنه من حقيقة سيصدق

إن السر الذى تريد معرفته هو أنى أحبك . ذلك هو سرى . فيالى من عاشقة أضاعت رشدها . إنك تفتش عمـا يكمن وراء شحوبى ، وشحوبى أنت ألقيت به على ثم عدت تتهمه وتستنطقه . يالي من مجنونة ! لقـد أردت الانكماش على آلامى لأقف عليك صبرى واحتمالي . أردت ستر دموعى عنك فإذا أنت تتجسس عليها وتحسبها دلائل جرم خفي . يالى من مجنونة ! لقـد أردت قطع البحار وهجر وطنى لأتبعك وأموت بعيدة عن كل من أحبنى منطرحة على قلب يرتاب فى إخلاصى . يالى من مجنونة ! لقد كنت أحسب أن للحقيقة من النظرات والنبرات ما ينم عنها ويدعو إلى احترامها

أواه إن عبراتي تخنق أنفاسى عند ما أفكر فى حالى . لماذا اقتدتنى إلى هذا السبيل أخضع عليه حياتى إذا كنت ستقف بى هذا الموقف الحائر لا أهتدى فيه إلى نفسى ؟

وانحنت على والدمع يتساقط من أجفانها وهى تصرخ: يالى من مجنونة !

وعادت إلى حديثها :

— إلى متى تستمر على هذا الضلال ؟ فقد أعجزتنى بشكوكك وهى لا تشب حتى تنطفى ولا تنطفى حتى تشب . أنت تطلب إلى أن أبرر نفسى ، ومن أية جناية يجب على أن أبررها ؟ أمن هجر بلادى أم من غرامى أم من موتى أم من قطع رجائى ؟ إذا أنا تكلفت السرور حسبت سرورى اهانة لك . لقد ضحيت كل شيء لأرحل معك ، وما أنت سائر معى مرحلة دون أن تلتفت إلى الوراء . فأنا لا ألاقى غير الإهانة ولا أشهد غير الغضب أيان كنت ومهما فعلت

أى بنى الحبيب ! ليتك تعلم بأي صقيع قاتل أحس وأية أوجاع تقطع أحشائى عند ما أراك تقابل أصدق كلة تصعـد من قلبى إلى لسانى بالريبة فلا تصغى إليها إلا هازئاً ساخراً . إنك لتحرم نفسك السعادة التى لا سعادة سواها على الأرض وهي الاستسلام فى الحب . إنك لتقتل بما تفعل كل عاطفة رقيقة سامية فى قلب من يحبك ، ولن يطول بك الأمر حتى يمتنع عليك أن تؤمن إلا بكل خشن كثيف ، فلا يبقى لك من الحب إلا ما تراه بعينك وما تلمسه بيدك

أنت لم تزل فتياً يا أوكتاف ، وأمامك مراحل طويلة فى الحياة فستتخذ لك خليلات غيرى

لقد قلت حقاً ، ليست الكبرياء شيئاً معدوداً وما أتوقع منها تعزية وسلواناً ، ومع ذلك فإنى أطلب إلى الله أن يقدر عليك ذرف دمعة واحدة تتحدر يوماً كفارة عما أذرفه الآن من دموع

ووقفت وهى تقول أيضاً :

— أيجب على أن أعلن ، وعليك أن تعلم ، أننى منذ ستة أشهر لم أنطرح على وسادى ليلة دون أن أكرر قولى لنفسى : إنك لن تشفى من دائك ولا

حيلة لى فيك . أيجب أن تعلم أننى مانهضت يوماً فى صباحى دون أن أصمم على محاولة شفائك . وأنك ما قلت لى كلمة دون أن أشعر منها أن لا بد من هجرك ؛ وأنك ما ضممتنى مرة إلا وأعلن لى قلبى أنه يفضل الموت على الانسلاخ عنك ، وأننى فى كل يوم بل فى كل دقيقة حاولت وأنا كالأكرة بين أملى وخوفى أن أتغلب بحبى على أوجاعى أوأتغلب على حبى بهذه الأوجاع ؛ وأننى ما فتحت لك قلبى مرة دون أن تنفذ منه بنظراتك الساحرة إلى أعماق أحشائى ، فإذا أنا أوصدته دونك شعرت أنه ينطوى على كنز رصده القضاء عليك ولن يناله سواك ؟ أعلىَّ أن أحدثك عن ضعفى وعن هذه الأسرار التى تتجلى تافهة لعين من لا يجد لها حرمة فى نفسه ؟ أأقول لك إنك فى كل مرة ذهبت من بين يدى غاضباً كنت أوصد بابى لأنفرد برسائلك الأولى أطالعها بدموعى ، وإن بين ما أعزفه قطعة تعرفها أنت مازلت أستقطر من نغماتها الصبر فى غيابك حتى تعود ؟

يا لشقائى ! إننى أعلم الآن ما ستكلفنى هذه الدموع التى ذرفتها فى الخفاء وهذا الجنون الذى يتدفق ضعفاً وحناناً . إننى لا أبكى لأن كل ما تحملت من عذاب لم يُجدِ شيئاً

وأردت مقاطعتها فصاحت : دعنى ، دعنى أقول لك ما لا بد من إعلانه : لماذا ترتاب بى وأنا لك بكليتى منذ ستة أشهر وعليك وقفت فكرى وروحى وجسدى ؟ فما تكون يا ترى هذه الخيانة التى تجسر على اتهامى بها ؟

إذا كنت قررت السفر إلى سويسرا فها أنا ذى مستعدة للرحيل معك ، وإذا كنت تظن أن لك مزاحماً على فاستكتبنى الرسالة التى تريد وسلمها للبريد بيدك

ما لنا لا نعلم ما نفعل وإلى أين نتجه ؟

تعال نستقر على رأى فقد عشنا دائماً سوية فقل لى ما الذى يدعوك إلى هجرى ؟ إننى لا أطيق أن أكون ملتصقة بك وبعيدة عنك فى وقت واحد

قلتَ إن من حق الرجل أن يتمكن من الوثوق من خليلته وأنت مصيب ، ولكن إذا كان فى الحب خير للرجل فعليه أن يؤمن به ، وإذا أصابه منه ضير فمن واجبه أن يعتبره داء يعمل على شفاء نفسه منه

أفما ترى أن ما نفعله الآن إنما هو مجازفة فى ميسر ؟ وما نجازف إلا بقلبنا وحياتنا ، إن ذلك لأمر فظيع

مَنْ أنا لتصب على شكوكك ؟

وتوقفت أمام المرآة ، وهى تكرر قولها :

مَنْ أنا ؟ أنظر إلى ما أصبح وجهى عليه

وأردفت توجه الخطاب إلى خيالها :

— أإليك يوجه الارتياب أيتها المرأة التعسة ؟ أحولك تدور الشكوك أيها الوجه الشاحب ؟ أيتها الوجنتان الذابلتان ترويهما محرقات الدموع ، أكملى مراحل عذابك يا هذه ! وليأت الفم الذى جفف رواء جمالك بقبلاته لينطبق الآن على عينيك فيغمضهما

انزل إلى الحفرة الرطبة الباردة أيها الجسد الناحل وقد تراخت قوائمك عن حملك ، لعلهم يصدقونك وأنت ممدد فى اللحد إذا كانت الشكوك تؤمن بالموت

ويحك أيها الشبح الحزين إلى أى شاطئ من شواطئ العذاب تترامى معولاً باكياً ؛ أية نار تشب بين عظامك فتقف واضعاً خططاً لرحيل وأسفار وإحدى رجليك ناشبة فى ثلمة القبر

مُت أيها الشبح وليشهد الله أنك ما أردت إلا أن تجود بحبك . أية قوة من الوجد أثاروا فى

فؤادك وإلى أى حلم قذفوا بخيالك ليجرعوك أخيراً هذا الزعاف القائل :

أية جناية ارتكبت حتى تهب هذه الحمى المحرقة فيك ؟ وأية ثورة تجتاح روح هذا العربيد الذى يدفعك برجله إلى الحفرة ومن شفتيه تتدفق كلمات الغرام ؟

إذا أنت بقيت فى الحياة أيتها المرأة فإلى أين مصيرك ؟ ألم يحن حينك ؟ أما كفاك الدهر عذاباً ؟

أى برهان يُطلب منك لتصديقك إذا كنت أنت البرهان الحى تُكَذّبين فى شهادتك على نفسك . أبقى عذاب لم تقتحميه ؟ فأية تضحية تعدين لإطفاء أوار هذا الحب الذى لا يرتوى ؟

إنك ستصبحين أضحوكة تفتش عبثاً عن طريق مهجور تفزع إليه كيلا يشير الناس بأصابعهم مقهقهين ...

ستفقدين الحياء فتشعرين حتى عن مظهر هذه الفضيلة المتحطمة ولطالما عزت عليك من قبل . وسيكون الرجل الذى تلتحفين بالعار من أجله أول من يمد يده للاقتصاص منك ، فيزجرك لأنك وقفت الحياة عليه وتحدّيت المجتمع فى سبيله ، وعندما يتهامس أصدقاؤك حولك يتفرس فى ملامحهم ليرى ما إذا كانت الشفقة قد تجاوزت حدودها فى نظراتهم . انه ليتهمك بالخيانة إذا امتدت يد لتصافح يدك عند ما تعثرين فى صحراء حياتك على أحد يمكنه أن يمرّ بك فيشفق عليك

يا لله ! أتذكرين اليوم الذى وضع الناس فيه على رأسك إكليلاً من الورود البيضاء ؟ هذا هو الجبين نفسه الذى تزين ببياض تلك الورود ؟ فياليت هذه اليد التى علقت الإكليل على جدار المعبد قد تناثرت رماداً قبل سقوط وريقاته الذاوية

أى وادىّ الجميل ! أى عمتى المحنية تحت وقر السنين الراقدة الآن بسلام فى لحدها ! أى أشجار الزيزفون أشجارى ! أى جدىي الأبيض الصغير ! أى ابن مزرعتى ، لقد أحببتمونى جميعاً فهلا ذكرتم الزمان الذى رأيتمونى فيه سعيدة فخورة محترمة ؟

أية قوة ألقت بهذا الغريب ليضلّنى سواء السبيل ؟ من أجاز له أن يمر على طريق قريتى ؟ ويلٌ لك أيتها المرأة ، لماذا تلفت وراءك لأول مرة اقتفى أثرك ؟ لماذا رحبت به كأخ ؟ لماذا فتحت له بابك ومددت له يدك ؟

أى أوكتاف ! لماذا أحببتنى إذا كان هذا هو مصيرك ومصيرى ؟

وتداعت إلى الحضيض فهرعت إليها أسندها بذراعى وحملتها إلى مقعد ارتمت عليه ملقية رأسها على كتفى وقد حطمها مابذلت من جهد وهى تتدفق ببيانها الرائع المرير

وتوارت عن عيانى الخليلة المهانة فاذا بى لا أرى مكانها غير طفلة تئن من آلامها ...

وأطبقت جفنيها فطوقتها بذراعى وقد سكنت بينهما لاتعى

ولما ثاب إليها رشدها شكت الضعف ورجتنى بصوت ضعيف حنون أن أتركها لتذهب إلى مرقدها وتهادت فى مشيتها فرفعتها على ذراعى وألقيتها على مهل فوق الفراش وما بقى على وجهها شئ ينمّ عن الألم بل رأيتها تتجرد من آلامها وتنساها كمن يرتاح من جهد جسدى أضناه . ذلك لأن طبيعتها الضعيفة الرقيقة أرهقها العراك فاستسلمت بعد أن ذهبت بها إلى أبعد ماتحتمل قواها وبقيت رابطة أناملها على يدى وأنا مكبّ

على وجهها أقبله وإذا بشفاهنا ولما تزل ثملة بغرامها تتلاقى فيلتصق فمها بفمي دون أن نشعر وما عتم حتى استغرقت فى الوسن بعد هذه المصادمة العنيفة وهى تتوسد صدرى مفترة الثغر كأننا فى الليلة الأولى من ليالينا

الفصل السادس

وكانت بريجيت نائمة وأنا جالس أمام سريرها صامتاً جامداً كفلاح اجتاحت العاصفة حقله فحطمت سنابله

وذهبت أسبر أعماق نفسى متلمساً ماجنت ، وما كدت أستعرض بعض أعمالى حتى رأيتنى تجاه مآت لا سبيل لتلافى نتائجها

إن من الآلام ما تستنفد طاقة الحس فتشعرك بشدتها أنها بلغت حدها ، وبمثل هذه الآلام كنت أتوغل فى خجلى وتبكيت ضميرى فأرى أن لا بد لى من توديع بريجيت بعد هذا العراك العنيف ، وبعد أن كرعت حتى الثمالة كأس غرامها الحزين ، وقد توجب على أن أطلق سراحها من هذه الأوصاب إذا كنت لا أتعمد قتلها

وما كانت هذه المرة الأولى التى تلجأ فيها بريجيت إلى تأنيبى، ولكم وجهت إلىّ جارح الكلام فى ثورة غضبها ، ولكن ما قالت فى عراكنا الأخير لم يكن صادراً عن كبرياء جريحة بل كان بياناً عن حقائق تمخض بها القلب طويلا فما انبثقت منه حتى مزقته تمزيقاً ، وقد رأيت كل ما يحوط بنا من أحوال وما أبديته من رفضى الرحيل معها يمنع تسرب أى أمل إلىّ

فتيقنت أن بريجيت لن تقوى على إنالتى عفوها حتى ولو غالبت نفسها واستفزتها إليه ، وما كان هذا الوسن العميق الذى سادها كأنه نوع من الموت لجأت إليه طبيعتها لتجاوز الألم حدوده فيها إلا برهاناً على صدق يأسى من عودتها إلىّ ، فان سكوتها فجأة بعد هذا التدفق فى بيانها وهذه العذوبة التى تجلت على ملامحها عند ثواب رشدها ورجوعها إلى الحياة حزينة مروعة ، وحتى هذه القبلة التى رنت كصدى لقبلتى ، كل هذا كان يؤذن بأن الدهر قد سكن بيننا وأن حبل وصلنا قد انبتّ إلى الأبد بين يدى

وكنت أتفرّس فيها وهى ممددة فى وسن العياء المرهق فأتيقن بأننى إذا عدت إلى ما سبّب هذه الغيبوبة بعد أن تفيق منها سأدفع بها إلى الرقدة التى لا انتباهة بعدها ، وسمعت الساعة تدق فى سكون الليل فشعرت بأن الساعة المنقضية تتوارى طاوية معها حياتى

وما أردت أن أستنجد بأحد فأوقدت المصباح الصغير وشخصت إلى إشعاعه الضئيل يذهب بدداً في الظلمة كذهاب خطرات أفكارى التائهة الحائرة

وما كنت فكرت حتى اليوم فى إمكان فقد بريجيت بالرغم من أنى صممت مائة مرة على هجرها ، ويعلم كل من ابتلى بالعشق قيمة مثل هذا العزم فى ساعات اليأس أو فى دقائق الغضب ، وما ينقطع المحب عن الوله بمعشوقته مادام واثقاً من حبها له . وهكذا كنت أنا ، ولكننى لأول مرة شعرت بأن قضاء لا يرد ينتصب مفرقاً بينها وبينى ، فانهدت قواى وأحنيت الرأس قرب سريرها وقد أدركت مدى شقوتى ، ولكن شعورى المتخدر لم يكن يقيس مدى آلامها فان روحى كانت تتراجع مرتاعة أمام ما يقتحمه تفكيرى

وقلت فى نفسي : هذا ما أردته أنا لك فقد انقطع كل رجاء فى بقائك مع من تحب . أنا لا أريد قتل

هذه المرأة فلا مناص لى إذن من هجرها ، وذلك ما صممت عليه وسأحققه غداً

وذهبت فى تفكيرى على هذا النمط دون أن أحاكم نفسى على ماجنت ودون أن ألتفت إلى ماورائى وإلى ما أمامى ، فنسيت سميث وما وقع من حوادث . وما كنت لأتميز السبب الذى قادنى إلى هذا الموقف وانحصر كل همى فى التفكير لأعلم بأية عربة سأغادر المدينة فى الصباح

ومر علىّ زمن طويل وأنا على هـذا السكون الغريب ، فكنت كرجل أصيب بطعنة خنجر فلا يحس أولاً بغير صقيع النصل حتى إذا سار بضع خطوات فى طريقه يقف مندهشاً وقد زاغت عيناه فيتساءل عما ألم به ، وينفتح جرحه دافقاً على مهل أوائل قطرات دمه ، فلا يلبث أن يرى الأرض تخضب بالأحمر القانى وملاك الموت يقبض عليه فيهزه الروع فجأة ويسقط مصعوقاً على الحضيض

وكنت كمثل هـذا الجريح ساكناً والداهية الدهماء تحدجنى بأنظارها وتتقدم إلىّ

وبدأت أردد بصوت خافت الخطاب الذى وجهته بريجيت إلىّ وأنا أدور فى الغرفة معدًّا ما كانت الوصيفة تعده لها فكنت أتفرس فى وجهها ثم أذهب لألصق جبينى على زجاج النافذة ناظراً إلى وجه السماء المتجهم بالغيوم

وانحصر تفكيرى فى كلمة واحدة « الرحيل غداً » وما طال بى الأمر حتى امتنع علىّ أن أفهم معنى هذه الكلمة ، وانتفضت فجأة وأنا أهتف قائلاً: يا لله ! أى خليلتى التعسة إننى أفقدك لأننى ماعرفت أن أحبك

وارتعشت أعضائى كأن شخصاً مجهولاً يصيح بهذه الكلمات فى أذنى فذهبت فى كل جارحة منى ذهاب الريح على قيثارة تهز أوتارها المشدودة لتقطعها

وأحسست بآلام سنتين تخترق فؤادي فى لحظة وعلى أثرها تقبض عليه أوصاب الحاضر وليدة ذلك الماضى المشئوم ، وما أجد فى البيان ما أصف به مثل هذه الأوجاع ، ولعل وصفها بكل جلاء لايحتاج إلا لكلمة واحدة ، ولكن هذه الكلمة لا يفهمها إلا من ابتلاهم الحب بأدوائه

وكانت بريجيت مستغرقة فى نومها وأنا مطبق أناملى على يدها فإذا هى تتلفظ باسمي فى بحرانها

نهضت أتمشى فى الغرفة والدموع تنهمر من عينى فمددت ذراعى كأنني أحاول القبض على الزمان الماضى وقد أفلت منى وأنى له أن يعود ؟ وصرخت : أممكن هذا ؟ أحق أننى أفقدك وقد امتنع علىّ أن أحب سواك ؟ أحق أنك مولية إلى الأبد ؟ أنت حياتى ، خليلتى أتهربين منى فلن أراك بعد ؟

واتجهت إلى بريجيت أخاطبها كأنها تسمعنى فأقول لها : لا .. إننى لن أرضى بهذا القضاء ، أى معنى لهذه الكبرياء ؟ أفليس من وسيلة أبذلها للتكفير عن إهانتي لك ؟ ساعديني على وجود هذه الوسيلة ، أفما غفرت لى ألف مرة من قبل ؟ إنك تحبيننى وسوف تخونك قواك إذا أنت أقدمت على جناية هجرى ، لأنك لا تعلمين ولا أعلم أنا ما سنفعل وما سيحل بنا إذا افترقنا

واستولى علىّ الجنون المطبق المخوف فبدأت أذهب وأجىء رافعاً صوتى بما أقول دون هدى مفتشاً هنا وهنالك عن آلة جارحة قاتلة حتى ارتميت جاثياً أمام السرير أضرب بحافته جبينى ، وتحركت بريجيت فتوقفت مذعوراً

وقلت فى نفسى : إذا هى أفاقت من نومها الآن فما أنت فاعل أيهـا المجنون ؟ دعها فى نومها إلى

الصباح فما لك إلا هذه الليلة لتراها

وعدت إلى مقعدى وقد كتم الخوف أنفاسى وخيل لي أن دمى قد تجمد في عروق مع انجماد دموعى فلبثت دون حراك يهزنى البرد هزاً فأقول لنفسى لأحتفظ بسكونى : أنظر إليها ! تفرس بها فلن يتسنى لك أن تراها بعد الآن .

وملكت أعصابى أخيراً فتناثرت دموع الأسى بطيئة على خدى . وتولت سورة الغضب فإذا مكانها سكينة الاشفاق فأسمعنى وهى صرخة إعوال وأنين تشق الفضاء ، فانحنيت على السرير أحدق فى بريجيت كأن ملاكي الصالح يهيب بي لأول مرة إلى استطباع ملامحها العزيزة على صفحات فؤادى

ها هى ذى أمامى فيا لشدة شحوبها وقد أحاطت بأهدابها الطويلة هالة زرقاء ! ولما يزل رشاش الدمع عالقاً بأطرافها وهذه قامتها المشوقة منطرحة على الفراش وقد تقوّست كأنها حتى في رقادها تنوء تحت وقر ثقيل ، وهذا خدها الأسيل تمده صفرة دكناء وقد لاقته على الوسادة كفها الصغيرة ومعصمها النحيل ، وهذا جبينها وقد ارتسمت عليه آثار إكليل الأشواق تاج المتألمين الصابرين

وإذا بى وأنا مستغرق فى تأملى أرى أمامى ذلك الكوخ حيث التقيت بها منذ ستة أشهر صبية مرحة تتمتع بالحرية ولا تبالى بشيء

ويلى ! ما الذي فعلته بذاك الصبا وتلك الخلال؟

وعادت الأغنية القديمة المنسية تتردد على مسمعى :

كنت فى روض دلالى زهرة فيها ضرامْ
أحرق العشق جمالى هكذا يقضى الغرام

بهذا كانت تتغنى خليلتى الأولى ، وما كنت من قبل لأدرك معنى هذا الشعر الساذج كما أدركه الآن ، فبدأت أترنم به كمن يحفظ ألفاظاً تنجلى له معانيها فجأة . إنها أمامى الآن هذه الزهرة المضطرمة تتساقط رماداً وقد أحرقها غرامها

وأجهشت بالبكاء قائلاً لنفسى : أنظر إليها يا هذا وفكر فى شكوى من لهم أجسام الخليلات وليس لهم غرامهن . إن خليلتك مولهة بك وقد استسلمت لك وها أنت ذا تفقدها لأنك ما عرفت كيف تهواها

وتجاوزت أوجاعى حدود احتمالى فنهضت لأرجع إلى ذرع الغرفة بخطواتى قائلا :

— أجل ، أنظر إليها يا هذا وتذكر من يقضى عليهم الملال فيذهبون فى الأرض مسرحين أوجاعاً لا يشاطرهم إياها أحد . أما أنت فقد كان لك من يقاسمك آلامك فما انفردت بشيء مما احتملت . تذكر من يسيرون في الحياة ولا أم لهم ولا قريب ولا صديق حتى ولا كلب لهم يؤنسهم ، تذكر من يفتشون ولا يجدون ومن يبكون فيسخر بهم الناس ومن يحبون فيُكرهون ومن يموتون فلا يذكرهم أحد

أما أنت فأمامك على هذا السرير مخلوقة قد تكون الطبيعة أعدتها لاستكمالك ، فهيأت روحها فى دوائر الفكر الخفية أختاً لروحك ، وجسدها في أعمق أسرار المادة أختاً لجسدك ؛ وقد مضت عليك ستة أشهر لم ينطق فمك بكلمة ولم يخفق قلبك بنبضة دون أن تجاوبك كلمة من ثغرها ونبضة من فؤادها . غير أن هذه المرأة التى أنزلها الله عليك كإنزاله الندى على الأزهار لم تستقر حتى انزلقت عن تويج قلبك الهاوى . لقد جاءتك هذه المخلوقة فاتحة لك ذراعيها لتهبك حياتها أمام وجه السماء فإذا هى تتبدد كأنها طيف لن يتبقى بعد زواله حتى خيال خياله !

لقد التصقت شفاهكما وطوقت ذراعاك عنقها وضمتكما ملائكة الحب الخالد فأصبحتما كائناً واحداً

برابطة الدم وجامع الشهوة ، ولكنكما حتى فى ساعات هذا العناق الموحد كنتما منفصلين يبتعد أحدكما عن الآخر ابتعاد منفيين بينهما ما بين مشرق الشمس ومغربها.

أنظر إليها يا هذا ولكن احترس من إبداء أية حركة ، لم يبق لك إلا هذه الليلة لتراها فاخنق إعوالك كيلا تنبهها من رقادها

وساورتنى أفكار مظلمة بدأت تحتل دماغى على مهل فشعرت بقوة مخيفة تدفعنى إلى سبر الأعماق فى نفسى

أفيكون قضاء العناية فىَّ أن أرتكب الشر فى حين أن ضميرى يشعرنى حتى فى غمرات جنونى أننى صالح ومحب للخير ؟

أأرتكب الشر كأن ورائى قوة لاتنى تدفعنى إلى الأغوار فى حين أشعر بقوة أخرى تحذّرنى من الانزلاق على مهاويها ؟

لماذا أرتكب الشر وفىَّ صوت يهتف مستنكراً ما آتىّ ؛ حتى ولو تلطخت يداى بدماء الجريمة أسمع صرخة من أعماق فؤادى تعلن لى أننى لست مجرماً وأن الفاعل ليس ذاتى بل هو شخص آخر كامن فىَّ ولم ينبثق منى ، هو الروح الشرير المنفّذ لما قُضىَ علىّ

لقد مرت بى ستة أشهر وأنا أذهب على سبيل الأذية فما اجتزت يوماً دون أن أعمل على الإضرار كافراً بنفسى ونصب عينى نتائج فعلتى

فهل الرجل الذى أحب بريجيت ليحقرها ويقسو عليها فهجرها تارة ليعود إليها تارة أخرى مالئاً روحها ارتياعاً دائراً حولها بالشكوك ليطرحها أخيراً على فراش الضنى ، كان رجلا آخر سواى ؟

وضربت بكفىّ على موضع قلبى ناظراً إليها ممددة أمامى فكذبا عينىّ فيما أرى ومددت يدى متلمساً جسدها لأتحقق أننى لست فى حلم وأن هذا الجسد ليس خيالا

ولمحت وجهى فى المرآة فاذا به يحدق فى مستغرباً كأنه يستنكر هذا الإنسان الذى تتجلى ملامحى فى ملامحه

من هو هذا العاتى الذى يحدق فى فمى ويتخذ يدىّ آلة للتعذيب ؟

أهذا الرجل هو من كانت تدعوه أمى باسم أوكتاف ؟ أهذا هو من كان يتراءى لى بين مروج الغاب عند ما كنت أنحنى وأنا فى الخامسة عشرة من ربيع حياتى فوق جداوله وهى تنساب كاللجين صافية كصفاء فؤادى ؟

وأطبقت جفونى عائداً إلى أيام طفولتى فإذا التذكار يخترق قلبى بألف شعاع كأن الشمس تمزق خيوطها حالكات الغيوم

وصحت : لا . إن من ارتكب هذا الإثم ليس أنا وليس كل ما يتراءى لى فى هذه الغرفة سوى أضغاث أحلام

وعدت أستعرض تفتّح قلبى للحياة فيلوح لى على صفحات تذكارى متسول هرم كان يجلس أمام باب المزرعة وكنت أحمل إليه بعد الغداء فضلات مائدتنا ، فأراه كأنه الآن أمامى مقوس الظهر ماداً يديه الناحلتين ليباركنى وهو يبتسم

وشعرت بغتة بهبوب نسمات الفجر على صدغىّ وبتساقط قطرات كأنها أنداء الصباح على روحى

فتحت عينى فاذا الحقيقة تنطح بصرى وقد أنارها اشعاع المصباح الضئيل

وعدت أخاطب نفسى قائلا :

أتعتقد أنك برىء من الاثم يا هذا ؟ أتحسب

نفسك بريئاً لأنك تبكى ؟ أيها المتلمذ للحياة منذ أمس وقد أفسدته الحياة ، إن ما تراه فى تقديرك شهادة من ضميرك لك قد لا يكون إلا ندماً وتبكيتاً وأى قاتل لا يبكته ضميره ؟

أفأنت واثق من أن صراخ الألم المتعالى من صميم فضيلتك ليس آخر حشرجة تدفع بها فى احتقارها ؟

أيها الشقى ، لا تحسبن هذا الصخب المتعالى من أعماق فؤادك أنيناً وإعوالا ، فقد لا يكون ما تسمعه إلا صرخة الطيور الجوارح تنبئها العواصف بتحطم سفينة بين ثائرات الأمواج

من أخبرك بما كانت عليه طفولة من يموتون مخضبين بالدماء ؟ أفما كان لهؤلاء أيضاً أيام بر وصلاح؟ إنهم يمرون مثلك أيديهم على جباههم ليتذكروها

لقد ارتكبت الشر وما تندم على ما فعلت أفما أحرقت الندامة قلب نيرون بعد أن قتل أمه ؟

من قال لك يا ترى إن الدموع تغسل الآثام ؟ وهب أن الدموع تطهر وأن قسما من روحك لن يستسلم للشر أبداً ، فما حيلتك بالقسم الآخر الذى استغرق فيه ؟ إنك ستتلمس بيسراك الجراح التى فتحتها يمناك وستنسج من فضيلتك كفناً تدرج فيه جرائمك . إنك لتفعل ما فعله بريتوس عندما أرسل طعنته النجلاء وعاد ينقش على نصله ما تشدق به أفلاطون

وإذا مافتح أحد لك ذراعيه فانك لترسل إلى أعماق قلبه مثل هذا النصل وقد نقشت آيات النوم عليه ، وهكذا ستقود إلى المدافن بقايا عواطفك وتنثر فوقها أزهار إشفاقك العقيم هاتفاً بمن يشهدون ما تفعل : « ماحيلتى ؟ لقد علمنى الناس القتل فلا يعزب عنكم أننى أذرف الدمع لما قضى علىّ لأن الله قد خلقنى أفضل منى الآن »

وتذهب مورداً الأحاديث عن أيام صباك فتقنع نفسك بأن على الله أن يغفر لك وانك مُكرهٌ غير مختار فى شقائك ، ثم تتحول إلى الأرق فى لياليك فتناجيه بمثل ماتناجى به نفسك كيلا يسلبك راحتك حتى الصباح

ولكن من يدرى ! إنك لاتزال فى مقتبل العمر ولسوف تستسلم لقلبك فتغلك كبرياؤك . ها أنت ذا الآن أمام أول طلل من آثار الدمار التى ستبقيها حيث تمر . وإذا ما ماتت بريجيت غداً فانك ترسل دموعك على نعشها لتذهب بعد ذلك سائحاً فى الأرض ، ولعلك تتوجه إلى إيطاليا فتلتف بردائك كانكليزى أصيب بداء الملال واليأس من الحياة إلى أن تصبح يوماً فى أحد الفنادق وأنت تحتسى كأساً بعد كأس فتقول لقد سكت صوت ضميرى وحان زمن السلوان فلأرجعن إلى الحياة

إنك تأخرت كثيراً حتى ذرفت الدمع يا هذا فكن على حذر ! سيأتيك يوم تنقطع عن البكاء فيه

من يدرى ! لقد يدور بك من الناس من يهزأون بالأوجاع التى تتوهم الشعور بها ؟ وتمرّ بك امرأة قيل لها إنك تبكى خليلة خطفها الموت فترسل إليك بسمة الإشفاق فتستنبت فجيعتك ما يغذى غرورك

أفما يكون بوسعك فى ليلة من الليالى عندما يصبح ما ترتعش له الآن ومالا تجسر على التحديق فيه صفحة مطوية فى ماضى الزمان أن تتراخى على مقعدك أمام مائدة أنس وطرب لتقصّ على رفاقك فحشاءك والابتسام على شفتيك ما رأته عيناك وهما دامعتان

هكذا يكرع الناس كؤوس العار وذلك هو سبيل الحياة . لقد كنت حالماً بالأمس فغدوت ضعيفاً وهذا الضعف سيقودك إلى الشر غداً .

(تتمة الكتاب فى العدد القادم) فليكس فارس



3
حقق للعالم ما يريد
فنال
اسبرو
اهمية دولية
الدواء المحدود الاستعمال والمحدود الفائدة يكون أيضاً محدود البيع . ولكن الدواء الذى يستعمل فى أحوال متعددة وله فائدة عظيمة ونسبة شفاء للناس ينال شهرة عالمية واسعة وينتشر فى اصقاع الارض . واقراص
اعظم برهان على صحة هذه الحقيقة . فقد ذاعت شهرته فى انحاء العالم لانه اعظم دواء مزيل للالم
واصبح يباع بمقادير هائلة بفضل اقبال الذين استعملوه وتأكدوا من نفعه فقدموه لغيرهم - ولقد كان العالم يبحث عن دواء واحد يحل محل أدوية كثيرة . دواء يوقف الالم بسرعة مفعوله ويجلب النوم اللذيذ للمصابين بالارق ويزيل التعب الناشئ من حالة الطقس ويشفى آلام الحيض عند النساء ، وآلام الصداع والنيورالجيا وغيرها من الامراض فى دقائق هو هذا الدواء والسبب فى ان له هذا الاستعمال هو تخفيض الحرارة بعد هضمه فى الجسم وتذويب الاملاح البولية وتطهير باطن الجسم وفضلا عن ذلك فانه لا يضر القلب ولا المعدة والدليل انه يؤدى كل هذه المنافع بحيث لكل انسان الحق فى شرائه . فعليك ان تنضم الى صفوف ذلك الجيش العظيم من الذين استفادوا من هذا الدواء العجيب .
"اسبرو" مصنوع فى انجلترا
لا تستعمل الأدوية المخطرة بل خذ "اسبرو"
اقرأ هذه الشهادات المقنعة ففيها الكفاية
اسبرو يباع فى كل مكان بسعر
٢ قرصان ٥ مليمات ١٠ اقراص ٢ ١/٢ قرش ٢٧ قرصاً ٥ قروش
الوكلاء ح . ب . شريدان وشركاه
٢٣١ شارع المدابغ بمصر
٩ شارع طوسون باسكندرية



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

نذير من السماء ...

طفق أودسيوس يتقلب فى فراشه على أحر من الجمر ، وطفق رأسه يغلى كالقدر ، بل يفور كالتنور بطائفة ثائرة صاخبة من الأفكار والوساوس ، وهو لا يدرى ماذا يصنع بهذه العصبة أولى القوة من أولئك العشاق المفاليك ، وهو وحده ، ومهما يكن شجاعاً صنديداً فقد يتكاثر الذباب على الأسد فيقتله ..

وهبطت من السماء مينرفا اللطيفة فى صورة حسناء هيفاء ممشوقة القد ، بارعة القسمات ، فجعلت تواسيه وتطمئنه ، وتبشره بأن الأولمب كله من ورائه فلا يخاف ولا يأسى ...

— « هذا حسن أن يكون الأولمب ، وتكونين يا ربة الحكمة من ورائى حتى أنتصر على أولئك الجبارين ... فكيف لا أخشى أن يهب من ورائهم قبائلهم وذراريهم واللائذون بهم يثأرون لهم فيحل بى بطش شديد ؟؟ » فتقول مينرفا : « الذى يحفظك منهم غداً يحفظك من غيرهم بعد غد ، ولو جمعوا لك جحفلا أضعافاً ... فلا عليك أيها العزيز .. خل عنك الوساوس إذن ... ونم ملء جفنيك ... واترك للسماء قيادك فهى حسبك ... » قالت هذا وزفت فى الأثير اللانهائى إلى أولمب ، تاركة وراءها القصر العتيد بمن فيه من نُوّام وغير نوام ...

مسكينة بنلوپ ! لقد كانت هى الأخرى شاردة اللب ، موزعة القلب ، ما ترقأ لها عبرة ، ولا تُغْفِى لها عين ، ولا يقر لها قرار ... لقد لبثت ليلها كله تتشوّف إلى أودسيوس وتبكى عليه ، وتستذكر أيامه ، وترثى لهذا الفتى اليافع تليماك ؛ ثم تدعو الموت كى يخمد أنفاسها ، ويفر عليها أحزانها ... ولكن المنايا نوافر لا تستجيب لدعاء أحد ... وهب أودسيوس عند مطلع الفجر فانطلق إلى المذبح الكبير حيث جثا متضرعاً لهفان ، يسبح باسم زيوس العلى ويصلى له ، ويهتف به أن يجعل له علامة يطمئن قلبه بها أن كبير الآلهة ما يزال يحميه ويكلؤه ، كما كلأه فى شدائده فى كلا البر والبحر ... وكان أودسيوس يزكى صلاته بأطهر الدموع وأحرها ، وكان سيد الأولمب يصغى لدعائه من علياء السماء ، فما إن فرغ الملك المحزون حتى أرسل زيوس فى الأرجاء زلزلة عظيمة مُدَوية رجعت أصداءها جنبات القصر الساكن ، وأحياد الجبال الشامخة ... وكانت خادم بائسة تسهر طوال ليلها عاملة فى طاحونها ناصبة ، فلما وقرت فى سمعها الزلزلة ذعرت وروّعت ، وأزاحت طرف الستر لتنظر إلى السماء فلم تجد فيها سحابة واحدة ، بل وجدتها مشرقة بتباشير الصباح مضيئة بنور ربها ... فجعلت تجأر إلى الله وتقول :

« زلزال وليس فى الأفق سحاب !! أما والله إنه نذير، أما والله إنها لغضبة السماء على هؤلاء المناكيد ... القساة ... الذين يقسروننى على هـذا العناء وذاك النصب طوال الليل كأننى من حـديد ... ياجوف العلي ... إن يكن ماسمعت حقاً فإنى أسألك بحق أسمائك أن يكون هذا الدقيق آخر ما يأكلون من زاد هذه الدنيا !! »

وتبسم أودسيوس من قولها ، وتوسم فيه وفى تلبية السماء خيراً له ، وشاع فى أعطافه شعور قدسى بما دنت ساعة الانتقام ... وكانت الوصيفات الأخريات يوقدن نار الدفأ فى الردهة الكبرى ، بينما برز تلياخوس من مخدعه مخترطاً سيفه ، ورمحه ينجر من خلفه ، حتى إذا بلغ وصيد الباب الكبير هتف بالمرضع العجوز يوريكليا يقول : « كيف حال الغريب النازح يا أماه ؟ بودى لو أنكن عنيتن به كما ينبغى ، لأن والدتى على ماجبلت عليه من خير ولطف ، لاتهش لأمثاله من النازحين الغرباء » وقالت يوريكليا تجيبه : « يابنى لاتثريب على والدتك فى هذه السبيل ، فقد احتسى ضيفك من الخمر ملء بطنه ، حتى لقد أبى أن يذوق طعاماً بعد ، وقد أبى إلا أن ينام على فراش خشن فى الردهة الكبرى ، ولا أدرى لم تشبث بهذا » . وانطلق تلياك إلى المدينة يتبعه كلباه . ثم أقبل الراعى يومايوس يسوق بين يديه ثلاثة خنازير كِنَاز من أسمن قطعانه ، وما إن رأى أودسيوس — الشحاذ الفقير فى حسبانه — حتى قصد إليه ، ولبث يسائله عما لقى من العشاق — فذكر له أودسيوس ما كان من وقاحاتهم ... وبينا هما كذلك ، إذ أقبل الراعى السفيه ، سليط اللسان ، ميلانثيوس وهو يحـدو قطعانه وماعزه ، وطفق كدأبه يسب أودسيوس ويرسل عليه وعلى يومايوس ماتزح به فمه من شتائم ، تحرشاً بالرجل الشحاذ الفقير ، ولكن أودسيوس لم يحرك ساكناً . . . وأقبل راع آخر يقود بقرة صفراء لاذلول ولا فارض ، يدعى فيلوتيوس ، فوقف عنـد زميله يومايوس يسائله عن صاحبه الفقير الشيخ ، وكأنما راعته ملامحه وحسن سمته : « إن له لسيماء كسيماء الملوك برغم أسماله ومِزَقه ! » ثم صافح أودسيوس وقال له : « مرحباً أيها الأب ! خفف الله عنك عناءك ووضع عنك وزر ماتشكو ... ياللسماء ! إن مرآك يفجر الدموع فى عينى لأنك تذكرنى بمولاى أودسيوس الذى وكل إلى رعى قطعانه وأنا بعد صغير حَدَث ، فكبرت كما كبرت ، وتضاعف عـددها ... ولكنى وا أسفاه لا أفرح بسمنها ووفرة عددها ، بل إن الحزن ليرزح على نفسى لأنها تُسَمَّن فتكون غذاء لا مباركا ولا هنيئاً لأولئك الأمراء الظالمين ... ولولا رجائى فى السماء ... وأملى الكبير فى عودة مولاى أودسيوس لَلُذْتُ من بعيد بسيد آخر أخدمه ، لأن الصبر على خبائث هؤلاء العُتَاة الطُّغاة لم يعد فى طوق أحد ... وا أسفاه عليك يامولاى أين أنت اليوم ؟ ألا ليتك تعود فتبطش البطشة الكبرى بهؤلاء الجبارين ! » ... واغتبط أودسيوس بما سمع من كلام الراعى فقال له : « لله ما أشجعك أيها الصديق ! ولكنى أبشرك وأطمئنك ، وأقسم لك أن مولاك عائد مافى هذا شك ، وهو عائد عما قريب ، وستشهد عيناك هاتان مصارع البُغاة الطغاة ! » ... وبينما هما يتحدثان إذا بالعشاق

يقبلون أفواجاً فيملأون البهو ، ويجلسون إلى وليمهم ، فيشير تلماك إلى أبيه فيجلسه معهم ، ويعد له مائدة ومقعداً ، ويحضر له من الشواء والخبز والشراب ماهو حسبه ويقول له بمسمع من الجميع : « إجلس أيها السيد ولا تخش رهقاً ... إنى أمقت أن أسمع شَغَباً اليوم ، فالبيت بيت أودسيوس وإنى لصاحبه ! » وغيظ انطونيوس فقال : « دعوه فقد حق له أن يقول ما يشاء ، فتالله لولا أن حال چوف بيننا وبينه لأسكتنا إلى الأبد أنفاسه ! » وقال سفيه آخر : « طب نفساً ياتلياخوس وقر عيناً ، فهاك منحةً منى لضيفك ، مضغةً مشهاة ! » ثم تناول عظمةً من السلة القريبة فقـذف بها أودسيوس الذى انحرف عنها فلم تصبه ، وعند ذلك قال تلماك مغاضباً : « تالله لو أصابته لأقصدتك برمحى هـذا فنفذ فى صدرك ، وخرج يلمع من ظهرك ، ولانقلب العرس الذى تحلم به فكان مناحةً تؤُزّ بيتك ... إنى لم أعد صبياً بعد فلا ترهبونى ! سترون كيف أستطيع أن أضع لكل ذلك حداً بعد إذ طفح الكيل ! » وهنا هب لئيم آخر فجبذ فى سخرية مقالة تلماك ... « لأن من حقه أن يحمى ضيفه ... ولـكن اسمع ياتلياخوس ... لم لا تمضى إلى أمك وقد يئست من عودة أبيك فتطلب إليها أن تحضر فتختار البعل الذى يروقها من بيننا ؟ » فتعمّـل تلماك الكلام وقال : « هي حرة مطلقة الحرية . إنى لا أقف فى طريقها ولا أقسرها على شئ ! » وما كاد يفرغ حتى انفجر المناكير يضحكون ويضجون

ثم حدثت المعجزة !

لقد تضرجت وجوه القوم بحمرة الدم ... ولقد تحركت قطع اللحم فوق الخوان فهي تقطر دماً أحمر كأنه ينبثق من غلاصم قتلى ! ثم امتلأت عيونهم بدموع غِزار حرار ... ثم طفقت صدورهم تعلو وتهبط وتنشق عن تنهدات تَصَّعَّدُ من سويداوات القلوب ... ثم هذا ثيوكليمنوس — الكاهن الآبق — يشهد المعجزة ويرى النذير ، فينهض فيهم قائلا : « تعساً لكم أيها الأنجاس لقد سيء بكم ! ما ذا تخبأ لكم القادير يا ترى ؟ ما هذه الظلمات كأنها قِطَعُ الليل تغطش رؤوسكم وتزلزل أقدامكم ؟ وما هذه الدموع تتصبب من عيونكم فتشوى خدودكم ؟ أنظروا إن استطعتم ! ما هذه الدأماء التى تضرج جدران القصر ؟ ما هذه الأشباح التى تكظ البهو الخالد ؟ إنها تتهاوى إلى عالم الفناء فويل لكم !؟ أوه ! وتلك آية أخرى ! لقد كسفت الشمس فجأة وتوارت بالحجاب ! الضباب الضباب ! ماأروع الضباب ينتشر فيملأ ما بين الأرض والسماء !! »

وبالرغم مما أنذر الكاهن فقد أغرق القوم فى الضحك ، ولم يزدادوا إلا خبالاً ... وقال قائلهم ، وإنه ليوريماخوس : « ما أحسب إلا أن به جِنّة ! خذوه فغلوه ثم فى السوق صلوه ، عسى أن يجد ثمت ضياءً يمشى فيه ، إنه لا يجد ضياء هنا !! »

وتلبث الكاهن فقال: «أربع عليك يايوريماخوس فان لى عينين وأذنين وإنى لأرى وأسمع ... وإنى نذير لكم من بلاء يحل بكم فلا يبقى ولا يذر ... أيها الأفاكون المفسدون ! » وانطلق الكاهن من القصر ... ولمز أحد العشاق تلماك فقال : « ألا ما أتعسك فى كل من ضَيّفت من ضيف يا فتى ! أما كان بحسبك هذا الفقير الشحاذ القذر الذى تطعمه ما عليه من سبيل حتى تجلب هذا المتفيهق

الذى يدعى النبوة ويرجم بالغيب ؟ »

وصمت تلماك فلم ينبس ، وظل ينظر إلى أبيه ، ويرقب ساعة الجد

* * *

وما رميت إذ رميت ...

وكانت بنلوب جالسة فى الحريم تسمع إلى ضجيج القوم وعجيجهم ، فبدا لها أن تضع حداً لهذا العبث العقيم الذى استمر كل هذه السنين الطوال فأمرت بعض وصيفاتها فتبعنها إلى المخبأ الذي حفظت به أذخار الملك وعتاده ، والسلاح الذى طالما فرقت له قلوب وارتعدت فرائص وزاغت من هوله أبصار ..

لله ما كان أشجاها ذكريات حافلة بأروع ضروب المجد !! هاهى ذى الرماح التى طالما لاعب بها أودسيوس الأسنة ، والسيوف التى طالما انتزع بها الأرواح ، والدروع السابغات التى كانت تدرأ عنه وتحميه ، وتحفظه وتفتديه ... ثم ها هى ذى القوس العظيمة معلقة فوق الحائط تلمع وترقص من حولها المنايا..القوس ذات الذكر التى أهداها إلى أودسيوس أحد المعجبين به ... ها هى ذى بعد هذه السنين الطوال لم يحملها أحد غير أودسيوس ، لأن أحداً غير أودسيوس لا يستطيع أن يثنى قوس أودسيوس ، وفيها الوتر العُرُد ، الذى لا يلين ولا يبين ولا يرد ، إلا إذا كله أودسيوس ! ! وتناولت بنلوب كنانة السهام التى طالما قذفت المنون فى قلوب الأعادى ، وجلست تنثرها فى حجرها ، وتنتقى منها وتبكى أحر البكاء ... لأن كل سهم منها كان يهيج فى قلبها ذكريات زوجها البطل

وأشارت إلى وصيفاتها فحملن القوس العظيمة وحملن (الدَّناجل) ، ثم حملت هى السهام وسارت أمامهن ، وعلى وجهها نقابها السادر الحزين ؛ حتى إذا كانت عند الأمراء هتفت بهم فصمتوا ، ثم قالت لهم وفى صوتها نبرة الحزن ، وموسيقى الآلام : « ها هى ذي قوس أودسيوس وتلك هى سهامه أيها السادة الأمراء ، فمن استطاع أن يثنيها فيرسل عنها سهما يخترق الدناجل الاثنى عشر فانى له ، وهو صاحبي ... وعسى أن تبطل السماء حجتكم اليوم .. فقد طالما ذهبتم بخير هذا القصر وأرغتم من زاده بحجة أنكم عشاقى كما استبحتم أن تسموا أنفسكم ، فاليكم القوس فانظروا ماذا تصنعون » وأشارت إلى الراعى يومايوس فتسلم القوس العظيمة ، وحملها معه زميله راعى الضأن فيلوتيوس ... ثم إن الراعيين لم يطيقا ذكريات سيدهما التى هاجتها فيهما القوس فذرفا دموعهما ثم استخرطا فى البكاء ... وانتهرهما أنطونيوس فقال : « تباً لكما أيها الفلاحان القذران فيم هذا البكاء ! ألتبتعثا الشجو فى فؤاد سيدتكما ؟ إنطلقا أيها السخان فابكيا بعيداً فتالله ما أحسب بكاءكما إلا يزيد فى صلابة القوس ، وتالله ما أحسب أحداً منا يبالغ منها مأربا ... وَىْ ! من منا له بأس أودسيوس ؟ ! لقد كنت طفلا ، بل كنت وليداً ، حينما رأيت رجلا ذا صولة وفتوة يهديها إلى البطل .. أجل ... رأيت هذا بعينى هاتين ... » وكان فى كل ما قال ساخراً ... فقد هيأ له الغرور أنه بقليل من العناء سيثنى القوس ويرسل النهم ويحظى ببنلوب !

ونهض تلماك فقال إنه سيساهم فى الرماية فاذا استطاع فانه سيبقى أمه لديه ولا يتركها تغادر منزل أبيه قط ... ثم حفر حفراً على خط مستقيم فجعل

فى كل منها دُبجلا وثبت جولها بالحجارة والتراب..
ثم إنه تناول القوس العظيمة وألقمها السهم ، وجمع قواه وطفق يشد ؛ وفشل مثنى وثلاث ، وكانت القوس تشمخ عليه فلا تكاد تنثنى ، حتى إذا حاول الرابعة وأوشك أن يظفر ، أومأ إليه والده ففهم ما يريد وقال : « أوه ! إنه لايقدر على هذه القوس إلا من هو أقوى منى وأكمل جسماناً وأتم بنية ... فليتقدم لها من شاء منكم حتى نرى ! »

وقال أنطونيوس : إنهم جميعاً مشتركون فى التجربة حسب مقاعدهم ، حتى الكاهن ... فنهض هذا ويمم شطر الوصيد وحمل القوس الرهيبة ، وحاول مائة مرة أن يثنيها فلم يستطع ، فألقاها وقال : « أيها الرفاق ... ما أحسب هذه القوس إلا مؤيسة للجميع ... لقد أوهتني وذهبت بمُنَّتى ... ألا فاتحلموا بامرأة أخرى غير بنلوپ ، فوالله ثم والله إنها للرجل الذى كتبتها المقادير له ... الذى يحضر إليها بما ليس فى وسعكم من كنوز ومن أذخار »

وغضب أنطونيوس وتجهم للكاهن ثم قال : « ألا ساء ما تقول أيها الرفيق ! أحسبت أننا نيأس من هذه القوس لأنك لم تقدر عليها ؟ ومتى كنت رجل جلاد وجهاد ؟ ومتى ثنيت قوساً أو أرسلت سهماً ! أربع عليك ففينا الكثيرون الذين يستطيعونها بالقليل الأقل من الجهد » ثم أمر راعى الضأن ميلانتيوس أن يحفر حفرة ويوقد فيها ناراً يجعل بها وعاء من شحم ليعالجوا به القوس عسى أن تلين قبل أن يُدلوا دلوهم ... فلما كان هذا أخذ الأبطال كل بدوره يعالج أن يثنى القوس ، ولكنها استعصت عليهم جميعاً ، ولم يبق إلا أنطونيوس ويوريماخوس، وهما أكثر هذا الجمع قوة وأوفرهم فتوة

ثم نهض راعى الخنازير ، يومايوس ، ونهض فى إثره صديقه الراعى الآخر ، فخَطَّا الخطى خارج البهو لما شاهدا من يأس القوم ... وقد تبعهما أودسيوس ... فلما كانوا بعيداً قال لهما : « أيها الحبيبان ، أإذا أرسلت العناية أودسيوس فى هذه اللحظة ليبطش بهؤلاء المناكيد ، أفتحاربونهم معه ، أم تحاربونه معهم ؟ » ... فرمقه فيلوتيوس وقال : « يا للسماء ! تالله لو صحت أحلامك لرأيت كيف أفتديه منهم بنفسى ومهجتى ! وتالله لرأيت كيف يهتز سلاحى فيحصد رؤوسهم ويبعثر أشلاءهم ! »
وقال يومايوس مثل هذه المقالة ... ولما وثق من اخلاصهما كشف لهما عن حقيقته فقال : « إذن فاعلما أننى أنا أودسيوس ، وهذه هي الندوب التى أحدثها الخنزير فى ساقى ، وقد أُبت الى وطنى فجأة فلقيتكما أول من لقيت ، وأكرمت مثواى يايومايوس وأنت لا تعرفنى ، ولم أشأ أن أبدو للقوم حتى أعرف عدوى من صديقى » ولم يكد يفرغ من قوله حتى انحنى الرجلان يشهدان الندوب، فلما استيقناها، ذهلا عن نفسهما ، وجثوا عند قدمى مولاهما ، وطفقا يقبلانهما ويغسلانهما بدموعهما ، ثم نهضا فألقيا سلاحهما عليه ؛ بيد أنه أمرهما أن يصمتا حتى لا يفضح أمرهم أحد ... وقال لهما : « لا بد أن نعود أدراجنا إلى البهو ، وسأنطلق أنا قبلكما ، وسأطلب منك يايومايوس أن تعطينى القوس لأقوم بنصيبي فى التجربة ، وسيرفض القوم أن أفعل ، ولكنك يجب ألا تبالى وتناولني القوس ، ثم تسرع بعد هذا الى الحريم فتخبر النساء فيه ألا يذعرن إذا سمعن ضجة أو عويلاً فى البهو ، أو شهدن حرباً وقتالا ... أما أنت يافيلوتيوس فتسرع إلى باب

البهو فتوصده وتحكم إغلاقه حتى لا يفلت منهم أحد أبداً » . ثم مضى فجلس مكانه لدى الباب ، وتبعه الراعيان ... وفي هـذا الوقت كان يوريماخوس يحاول محاولته ، وكان من وقت إلى آخر يذهب بالقوس العظيمة فيعرضها للنار عسى أن يسهل عليه ثنيها ، لـكن القوس أبت مع ذاك أن تلين ، فلمـا بلغ من يوريماخوس الجهد ألقى بها يائساً وقال :

« تباً لها من قوس عنيدة ، والعار الأبدى لنا جميعاً يا رفاق ! ما لنا ولهذا ؟ إن فى إيثاكا حساناً ، وإن فيهن أزواجاً تُرْباً أبكاراً لمن يشاء ... أوه ! يا للخزى ! أواه لو لم تقل الأجيال المقبلة إننا كنا دون أودسيوس قوة وأقل منه فتوة حين عجزنا أن نثنى قوسه !! يا للخزى ... يا للخزى ! »

ورُوِّع أنطونيوس ! وذهل عن أمره ، ولم يشأ أن يخزى نفسه بأن يحاول كما حاول غيره ... فوقف فقال : « ما أحسب القوس عنيدة ولا مستعصية كما تزعمون ... ولـكن اليوم يوم عيد أبوللو رب القوس العظيم ، فأنى لنا أن نحمل قوساً اليوم ! دعوها ، واتركوا الأهداف مكانها ، فلن يجسر أحد أن يدخل بهو أودسيوس فيمضى بها ، وفى بكرة الغد يحضر ميلانتيوس من قطعانه عنزات سماناً فنضحى بها لأبوللو ، ثم نتم محاولتنا »

ولـكن أودسيوس هب من مجلسه فقال : « يا سادة ! ما دمتم لن تحاولوا الرماية اليوم فأرجو أن تدفعوا إلى هذه القوس لأجرب أنا أيضاً ، ولأرى هل ما تزال بقية من مُسّنة الشباب مخبوءة فى أعصابى ! أم أنها ذهبت بها جميعاً متاعب الحياة وكثرة التجوال فى أطراف الدنيا ... » وجن جنون القوم لما قال أودسيوس هذا ، وعجبوا كيف يجسر شحاذ فقير مثله أن يطلب أن يشارك السادات فى مباراتهم ... ومن يدرى ؟ لعلهم ذعروا أن ينجح هذا الفقير فيما فشلوا هم فيه ... قال أنطونيوس :

« أخزن عليك لسانك أيها السليط الوقح ! ألا يكفيك أن يسمح لك بوجودك بين هؤلاء السادة الأخيار من أقيال البلاد حتى تطالب أن تباريهم ! »

وكانت بنلوب تطالع فلم تحتمل أن يؤذى ضيف ولدها هكذا ، فقالت : « أنطونيوس ! أنى لك أن تؤذى تلماك فى ضيفه ؟ بل ينبغى أن يحاول الرجل كما حاولتم ، فأما أنك تخشى أن يظفر فيما فشلتم فيه .. فلا ضير .. إنه لا جرم ليس يحلم مثلـكم بأن أكون زوجةً له ، فليفرخ روعك إذن ، ولتطمئنوا جميعاً »

وقال يوريماخوس : « يا ابنة إيكاريوس ما دار بخلدنا قط أن تكوني زوجة له إذا ظفر ، ولـكنا خشينا أن يفضحنا فى الناس فيقول : « عجباً لسادات إيثاكا وما حولها ؟ يطمعون أن يتزوج أحدهم امرأة البطل العظيم أودسيوس ثم لا يستطيعون رمى سهم عن قوسه ، ويأتى رجل شحاذ فقير فيثنى القوس ويرمى السهم وهم مع ذاك لا يستحيون ! » هذا ما خفنا أن يكون يا ابنة إيكاريوس وهذا ما خشينا أن يذهب بشرفنا ! » فقالت بنلوب : « لتطمئن يوريماخوس فليس فى مثل هذا يضيع شرفـكم ... ولـكن الرجل ذو جسم طوال ومظهر جبار ، وقد ذكر آباءه فعُلم أنه كريم العنصر طيب الأرومة عريق المحتد ، فلم لا يعطى القوس لنرى ما يكون ؟ وإنه إن ظفر فسأخلع عليـه وأدفع له سلاحاً وأرسله أنى شاء ! » . ثم نهض تلماك فقال : « أماه ! إن القوس قوسي وإنى لصاحبها ، أعطيها لمن أشاء وأصونها ممن أشاء ، ولن ينازعنى حقى أحد من العالمين ، ولو شئت لأعطيتها الرجل فتكون حقاً خالصاً له ما سمحت لأحد أن يمنعنى ... تفضلى أنت فغلقى عليك أبواب

الحريم وانظرى في أعمال البيت وصرفي شئون الخدم وخذى في غزلك ونسجك ، وسننظر نحن فى أمر القوس وسأرى أنا لمن تكون النوبة ، فانى هنا سيد لا مسود ! » ... وشدهت بنلوب قليلا ، إلا أنها عرفت أن ابنها قال حقاً ، فانسحبت ، وغلقت عليها أبوابها ، وانطرحت فى فراشها حيث وافتها مينرفا فسكبت فى عينيها غفوة هادئة لذيذة ، فاستسلمت لسُبات عميق

وتقدم يومايوس لحمل القوس وأوشك أن يذهب بها إلى أودسيوس ، لكن الأمراء زأروا مغاضبين ، فخشى الراعى ، وألقى القوس ثانية ، فصاح به تلياك : « هات القوس هنا أيها الرعديد ، لشد ما أود أن أخلص منك ومن هؤلاء السادات الذين ترهبهم ... ! » وسخر الأمراء وضجوا ضاحكين ... ولكن الراعى تقدم إلى القوس فاحتملها ، وذهب بها قدُماً إلى مولاه ... وانطلق بعد هذا إلى الداخل فنادى المرضع يوريكليا وقال لها : « إن مولاى يأمرك أن تغلّقي جميع الأبواب ، ويقول لك إنه إذا سمع أحد من النساء ضجة فى البهو أو قتالاً فليجلسن حيث هن ولا ينزعجن ، وليأخذن في عملهن ، أتسمعين؟ »

وغلّقت المرضع الأبواب وبلغت رسالة مولاها ... ثم هم فيلوتيوس فغلق باب البهو وأحكم إقفاله ، وربطه بِسَلَبٍ (1) طويل كان لسفينة وألقى لدى الباب ؛ وعاد فجلس مكانه وعيناه لا تريمان عن مولاه ...

وتناول أودسيوس القوس فجعل يفحصها ويبحث فى أجزائها ، مخافة أن يكون السوس قد نخرها إذ هو ناء عن بلاده ... وزاغت أبصار القوم ، وجعلوا يُبَرّقون فى الشحاذ الفقير ويقولون : « الهلّوف (1) الزنيم ! إن له لعيْناً فاحصة كأن لها عهداً بالرماية ؛ وإنه ليبحث القوس كأنه يقتنى أمثالها ! » ... ثم قبض أودسيوس على القوس ، وشد طرفها فى سهولة وفى يسر ، كما يشد الموسيقى وتراً من أوتار قيثاره ، ونظر إلى الأهداف المتراصة أمامه ، وأرسل سهماً اخترقها جميعاً ، وسُمِع له صوت كسقسقة العصافير ...

يا عجباً ! ! لقد أراش أودسيوس السهم ، وأرسل زيوس العلى زلزلةً ورعداً مدوياً وثب له فؤاد البطل ، وطارت منه ألوان القوم ، وانقذف الرعب فى قلوبهم ...

ثم أخذ أودسيوس سهماً آخر فثبّته ، ثم أراشه فاخترق الأهداف مرة أخرى ...

قال أودسيوس : « تليماخوس أيها العزيز ! إن ضيفك لم يخيّب رجاءك ولا أضاع عشمك (2) ، ولقد أصبت الأهداف كلها على حداثة عهد بالرماية ... والآن هلم ... إن النهار يوشك أن يولج ، وإنه لينبغي أن نعد وليمة المساء للسادة الأمراء ، ولن يعدموا بعدها ما دأبوا عليه من رقص وعزف ، وقصف وغناء ... ! »

وهم تلياك فألقى حمائل سيفه على كاهله ، وتناول رمحه العظيم . وسنرى ! !

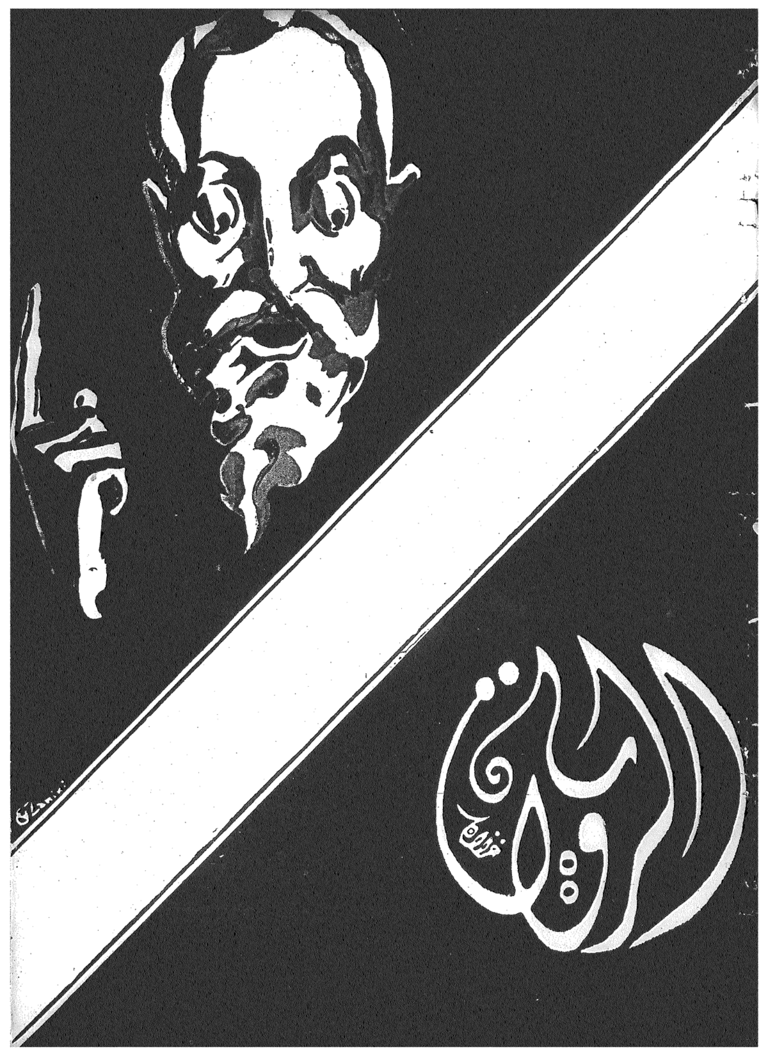
« يتبع » دريني خشبة

(1) فى القاموس السلب لحاء شجر باليمن تعمل منه الحبال ونحسب أن منه إطلاق السلب على الحبال الغليظة فى مصر فلم نر بأساً من استعماله بهذا المعنى

(1) الهلوف بتشديد اللام وزان فردوس الثقيل الجافى البطين. ونحسب أن منه نحت المصريون كلمة هلفوت وقد استعملناها لظرفها ومناسبتها كثيراً للمقام

(2) فى القاموس العشم الطمع

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾



الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ ق في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٣ — ٢٩ شوال سنة ٣٥٦ — أول يناير سنة ١٩٣٨ — السنة الأولى



فهرس العــدد

جولى رومان

للقصصى الفرنسى جى دى موباسان

بقلم احمد حسن الزيات

منذ عامين كنت أسير فى الربيع على ساحل البحر الأبيض . وألذ الأشياء أن تفكر وأنت سائر في الطريق على عجل . وهل أجمل من أن تسير فى الضياء وفى الهواء على حدُور الجبل أو على سِيف البحر وأنت تحلم ؟ ويا كثرة ماينثال على نفسك الهائمة فى هاتين الساعتين اللتين تمشيهما أحلامُ الحب وأوهام المخاطر ! تهب عليك الأمانى المبهمة البهيجة فترشفها مع النسيم العليل الفاتر ، فتُحدث فى قلبك شهوة السعادة كما يُحدث المشى فى نفسك شهوة الطعام ؛ وتطير حواليك الخواطر السواحر عِجالاً مغرِّداتٍ كأنها أطيار الربيع !

كنت أسير فى ذلك الطريق اللاحب الذاهب من سان رفائيل إلى إيطاليا ، أو بالحرى ذلك الزخرف الأنيق المتغير الممتد الذى تراه فتحسبه خُلق ليمثل جميع ما قال الشعراء من قصائد الغزل وأناشيد الغرام . وكنت أفكر فى أن الناس إنما يأتون هـذه البلاد من (كان) حيث يسترفهون ، إلى (موناكو) حيث يقامرون ، ليظهروا الزهو والصلف ، أو ليتعاطوا اللهو والسرف ، فيعرضوا تحت هذه السماء الحافلة بالسحر والجمال ، وفوق هذه الجنـة الحالية بالورد والبرتقال ، غطرستهم السافلة ، ودعاواهم الباطلة ، ورغباتهم الخسيسة ، ويصوروا الذهن البشرى على جبلته الأولى من الحقارة والجهالة والكبرياء والطمع . وعلى حين بغتة رأيت فى آخر فرضة من الفُرض الرائعـة التى يصادفها السائر فى كل منعطف هناك ، أربع دور أو خمسا يقمن فى وجه البحر ، وتحت أقدام الجبل ، وأمام غابة موحشة من الصنوبر تمتد وراءهن إلى بعيد فى واديين كبيرين لا طريق فيهما ولا منفذ

وكان أحد هـذه الجواسق أنيقاً معجِباً ، فقيّد بصرى بحسنه ، واستوقف خطاى على بابه . وهو مسكن صغير أبيض الجدران أسمر النوافذ قد كسته الورود المتسلقة من أساسه إلى سقفه . أما حديقته فبساط من الزهر تجمّع فيه كل لون وكل شكل ، فكان خليطاً عجيباً من الأناقة الفريدة والظرف النادر . فإذا سرحت بصرك فى أفنيته وجنباته رأيت الخضرة النضيرة تغطى كل شبر من أرضه ، وألفاف النَّوْر تجمّل كل درجة من سلمه ، وعناقيد الورد الأزرق أو الأصفر تتدلى على واجهته ، وأكاليل الزهر الأحمر تتألق على أعمدة مَشْرَفه ؛ وأبصرت من خلفه ممشى من أشجار البرتقال المزهرة يمتد حتى يقف عند حضيض الجبل

***

دنوت من الباب فقرأت عليه هـذا الاسم مكتوباً بحروف صغيرة من الذهب : (ڤيلا أنطان) فقلت لنفسي : ليت شعري أي شاعر أو أية حورية يسكن هنا ؟ أي مُخْتَلٍ ملهم كشف هذا المكان وشاد فيه هذا المنزل الذي تطير حواليه الأحلام ويتنزل عليه الإلهام ويطيف به الجمال كأنما نبت في طاقة من الريحان والزهر ؟

وكان على مقربة من هناك عامل من عمـال الطرق يقطع الصخر ، فسألته : مَن صاحب هذه الجنة ؟ فقال : السيدة چولى رومان

چولى رومان ! لطالما سمعت وأنا في فجر أيامي هذا الاسم يتردد على الأفواه ! ذلك اسم الممثلة الكبيرة منافسة الممثلة الشهيرة راشيل ! تلك هي الفنانة الفتانة التي لم تنل امرأة ما نالت من تصفيق المعجبين وتنافس المغرمين وتدليل الأحبة ! ما أكثر ما وقع في سبيلها من حوادث المبارزة والانتحار ! وما أشهر ما استفاض حول اسمهـا من المغامرات والأحاديث !

ما عمر هذه الساحرة المغوية اليوم ؟ ستون ؟ سبعون ؟ خمس وسبعون ؟

چولى رومان ! هنا ، في هـذا البيت ! هنا ، تسكن المرأة التي تيمت أندر العبقريات الشعرية ، وأنبغ القرائح الموسيقية في هـذا البلد !

لا أزال أذكر تلك الرجفة التي أصابت فرنسا بأسرها وأنا يافع حين فرت هذه الممثلة إلى صقلية مع هذا ، بعد أن قطعت أسبابها مع ذاك

لقد سافرت مع حبيبها الشاعر ذات مساء بعد أن مثلت إحدى المآسي الجديدة ، وهتف لها الجمهور نصف ساعة متصلة ، ودعاها إلى الظهور إحدى عشرة مرة متعاقبة . سافرت هي وهو على مركبة البريد كما كانوا يسافرون يومئذ ، فعبرا البحر ليحييا حياة الهوى والصبابة في الجزيرة العتيقة تحت ظلال البرتقال التي تكتنف (بالِرْمَ) ، وتسمى صدفة الذهب

لقـد كان الناس يتحدثون عن صعودهما إلى بركان (أطنة) ويذكرون كيف انحنيا على فوهته الوسيعة وهما ملتصقان خداً لخد يريدان أن يلقيا بنفسيهما في هاوية جهنم

لقد مات ! مات صاحب الشعر المضطرب الذي أدار بعمقه رأس جيل ، وفتح بدقته وأسراره عالما جديداً للشعراء الجُدُد

ومات الآخر كذلك ! مات ذلك المهجور الذي ابتكر من أجلها جملا من الموسيقى بقيت في كل ذاكرة ، وتراكيب من النصر واليأس حزَّت في كل قلب

وبقيت هي بعدهما في هذا البيت المنتقب بالزهور المحتجب في خميلة من الفتنة !

* * *

غمزت الجرس غير متردد ولا متلكئ ، ففتح الباب غلام في نحو الثامنة عشرة من عمره ، على وجهه ويديه دلائل الحمق والبلاهة . فناولته بطاقتي بعد أن كتبت عليها تحية رقيقة للممثلة العجوز ، ورغبة شديدة في أن ألقاها ؛ فلعلها تعرف اسمي فتسمح لي بالدخول

ذهب الخادم ورجع ، فطلب إلى أن أتبعه ، فتبعته إلى بهو نظيف ظريف ضخم الأثاث على طراز لويس فيليب . وكانت فيـه جارية في سنها السادسة عشرة ممشوقة القوام عليها مسحة من

الحسن ، فرفعت مكنستها احتراماً لى ، ثم انصرفت وبقيت وحدى

***

كان على حوائط البهو ثلاث صور : صورة للممثلة فى أحد أدوارها ، وصورة للشاعر فى ردنجوته ، وصورة للموسيقار أمام بيانه . وكانت هى فى زى ذلك العهد شقراء فاتنة تبتسم بشفتها الرقيقة وبعينها الزرقاء ؛ وقد تأنق المصور فى صورتها وافتنّ نجاءت بديعة متقنة . وكان كل ما فى البهو يشعر بالقدم ويتحدث عن الأُلاَّف الذاهبين والأيام الخوالى

فتح أحد الأبواب ودخلت امرأة شمطاء نحيلة الظل ضاوية ، قد لفع رأسها الشيب وابيض حاجباها وأهدابها فبدت كأنها الفارة البيضاء . فمدت يدها إلىّ وقالت فى صوت لا يزال على طراوته وحلاوته ورنينه :

— شكراً لك يا سيدى! فإن من كرم الخلال أن يفكر رجال اليوم فى نساء الأمس ! تفضل بالجلوس

ذكرت لها أن جمال بيتها استهوانى وأغوانى فسألت عن صاحبه ؛ فلما عرفت أنه هى لم أستطع أن أقاوم رغبتى فى طلب الإذن عليها . فقالت : إن ذلك ليثلج صدرى ويبهج نفسى ياسيدى . وهذه أول مرة يقع فيها مثل ذلك . حينما أُلفيتْ إلىّ بطاقتك وعليها كلتك الرقيقة عرتنى هزة شديدة كأنما انبئت بقدوم صديق قديم غاب عن عينى منذ عشرين سنة .

أنا امرأة ميتة ، ميتة حقاً ، لا يتذكرنى أحد ، ولا يفكر فىّ إنسان ، حتى يأتينى الموت الحق ؛ ويومئذ تتحدث الصحف عن جولى رومان ثلاثة أيام فتقص على قرائها ذكرياتها ومغامراتها ونوادرها ومآثرها ، ثم يمحونى النسيان ويطوينى البلى

ثم سكتت برهة وعادت تقول :

وليس ذلك اليوم ببعيد . بعد بضعة شهور أو بضعة أيام لا يبقى من هذه المرأة الحية إلا هيكل صغير من العظام . ثم رفعت بصرها إلى صورتها التى تبسم لها : لهذه العجوز ! لصورتها المضحكة ! ثم نظرت إلى صورتى الرجلين الشاعر المحتقر والموسيقار الملهم فكأنما يقول أحدهما للآخر : « ماذا يبتغى منا هذا الطلل الدارس ؟ »

فأخذ بكظمى حزن لا يوصف ولا يغالب : حزن على العمر الذى انقضى ولا يزال يضطرب فى الذكريات اضطراب الغريق فى الماء العميق .

وكنت أنظر وأنا فى مكانى المركبات الفاخرة تخطف على الطريق الذاهب من نيس إلى موناكو ، وفيها الفتيات الرشيقات عليهن مظاهر الغنى ودلائل السعادة ، والرجال المستبشرون عليهم آثار الرخاء والغبطة . فنظرتْ إلى ما أنظر إليه ، وفهمت ما أفكر فيه ، فقالت مغمغمة وهى تبتسم ابتسامة المستسلم : لا يستطيع المرء أن يكون بعدَ ما كان !

فقلت لها : لَشدّ ما كانت الحياة فى عينك جميلة !

فتنهدت ثم قالت: نعم كانت جميلة رخية ! ومن أجل ذلك آسف عليها أشد الأسف .

ورأيتها على استعداد لتتحدث عن نفسها فأخذت أستفهمها فى رفق وحذر كما يجس الإنسان القرح الممض . فتكلمت عن فوزها وغبطتها ونشوتها وأصدقائها وعن كل ما يتصل بحياتها الناجحة المجيدة . فسألتها :

وهل أنت مدينة بهذا السرور المرح وتلك السعادة الخالصة للمسرح ؟

فأجابت في شدة وحدة : أوه ! كلا

فابتسمت أنا وعادت هى تقول وقد نظرت إلى الصورتين نظرة حزينة :

إنى مدينة بكل ذلك لهما .

فلم أتمالك أن سألتها : لأيهما ؟

فقالت : لهما معاً ، حتى لأخلطهما بعض الخلط فى ذاكرتى الشيخة . ولقد أحس فى نفسى وخز الضمير لأحدهما ، اليوم ! فقلت لها : لست مدينة لهما بشئ ياسيدتى ؛ إنما أنت مدينـة بسعادتك للحب . فهو وحده الذى يجب أن تعترفى له بالجميل والشكر . وما كان هذا أو ذاك إلا ترجماناً له .

فقالت : ذلك جائز . ولـكن أى ترجمانٍ كانا !

فقلت لهـا : وهل أنت موقنة بأنك كنت لا تجدين في دهماء الناس من يحبك خير الحب وكل الحب ، فيقدم إليك قلبه وفكره ووقته وحياته ، بينما هذان لم يقدما إليك إلا خصمين مَخُـوفين هما الموسيقى والشعر ؟

فصاحت تقول بذلك الصوت الرخيم الحنون الذى يحرك أوتار القلب :

لا ياسيدى ، لا . ربما كان غيرهما يحبنى أكثر منهما ، ولـكنه ما كان يستطيع أن يحبنى مثلهما . آه ! لقد غنيانى أناشيد الغرام على لحن لايتسنى لغيرهما أن يوقعه ! لشد ما أطربانى وأسكرانى ! هل كان فى مقدور إنسانٍ ما أن يجد ما وجداه هما من السحر فى الألحان والأوزان ؟ وهـل يكفى المرء أن يحب إذا كان لايقدر أن يضع فى حبه أنغام السموات والأرض ؟ لقد عرف هـذان الرجلان كيف يسبيان عقل المرأة بالنغم والـكلم . أجل ربما كان فى هوانا من الوهم أكثر مما فيه من الحقيقة ؛ ولـكن هذا الوهم يحملك فوق أطباق السحاب على حين تدعك الحقيقة ملقى على أديم الثرى . فإذا كان غيرهما قد أحبنى أكثر ممـا أحبانى ، فإنهما وحدهما علمانى كيف أفهم الحب وأحسه وأعبده

قالت ذلك ثم تقاطرت دموعها اليائسة فى سكون وصمت ، فتغاضيت عن ذلك وجعلت أنظر إلى بعيـد حتى ثابت إلى نفسها بعـد لحظات واستأنفت تقول :

كل مخلوق ياسيدى يشيخ قلبه متى شاخ جسمه؛ ولـكننى لا أخضع لهذه القاعدة ، فإن جسمى المسكين قد بلغ التاسعة والستين ، بينما قلبي البائس لايزال فتيا لم يتجاوز العشرين . ولذلك ترانى أعيش وحدى بين الزهور والأحلام

ثم تولانا صمت طويل عاودها فيه الهدوء فعادت تقول وهى تبتسم :

إنك لتسخر منى إذا علمت ... إذا علمت كيف أقضى أماسىّ كلما كان الجو جميلاً والطبيعة مشرقة . أنى لأثير فى نفسى الخجل والرثاء فى وقت معاً

فحاولت حملها على أن تقول لى ما ذا تفعل فلم أنجح . فهممت بالقيام ، ولـكنها هتفت بى قائلة :

— الآن ؟

فأجبتها أنى سأتعشى فى مونت كارلو . فقالت في شيء من الحياء والحشمة : أتقبل أن تتعشى معى ؟ إن ذلك يملأ قلبي سروراً وغبطة

فقبلت دعوتها على الفور ، فتهلل وجهها لذلك ؛

ودقت الجرس فجاءت الخادم فأمرتها بما تريد ثم قامت فطافت بي كل مكان في البيت

* * *

وكان للبيت طنف مزجج مزدان بالشجيرات المزهرة يفتح على غرفة الطعام فيرى الجالس فيه ممشى البرتقال الممتد إلى الجبل . وبين ضمائم العشب والزهر تجد مقعداً واطئاً يدل وجوده على أن الممثلة العجوز كثيراً ما تأتي فتجلس فيه

تجولنا في الحديقة ننظر إلى فنون الزهر وضروب الشجر وأنواع الرياحين ، وكان المساء يقبل على رُودٍ وهدوء فينشر في جو السماء الفاتر أريج الورد والفاغية . ولم يكن غير قليل حتى غابت أواخر النهار في أوائل الليل ، وحان موعد الطعام فجلسنا إلى المائدة

كان العشاء لذيذاً طويلاً ارتفعت فيه الكلفة بيني وبينها حين فطنت إلى ما نشأ لها في قلبي من شدة الميل وصدق المودة . وشربت إصبعين من النبيذ كما كانوا يعبرون من قبل فاطمأنت إلى بأنسها ، وأطلعتني على دخيلة سرها . قالت :

أنظر إلى القمر ! أني أحبه وأقدسه . لقد كان الشاهد على سعادتي الجياشة وسروري المرح . ويخيل إلى أن جميع ذكرياتي منقوشة على صفحته ؛ فما هو إلا أن أطالع وجهه حتى تتهافت على خاطري سراعاً تباعاً . وفي أغلب العشايا أهيئ لنفسي مشهداً من أروع المشاهد ... مشهداً جميلاً ... جميلاً ... لو كنت تعلم ؟ ... ولكن لا ... إنك لو علمت هزأت بي وسخرت مني .. لا أستطيع .. لا أجرؤ.. لا ... لا ...

فتوسلت إليها قائلاً : سبحان الله ! ماذا ؟ أطلعيني عليه وأنا أعدك ألا أسخر منه . أقسم لك على ذلك ...

فترددت . ولكني تناولت يديها المعروقتين الباردتين وقبلتهما مراراً واحدة بعد أخرى كما كان حبيباها يفعلان . فتحرك لذلك قلبها فقالت في شيء من التردد :

أتعدني ألا تضحك ؟

فقلت لها : أعدك وأقسم

فقالت : إذن تعال

ونهضت فنهضت معها ، وكان الخادم الصغير الأبله يُنَحي الكرسي من ورائها فهمست إليه بكلمة سريعة فقال :

سمعاً وطاعة ياسيدتي . على الفور

وأخذت بذراعي فمشينا تحت الطنف ؛ وكان المشى متعة للنظر وبهجة للقلب ؛ والبدر الطالع يرسم في سوائه خطاً طويلاً من الضوء كأنه شريط من الفضة ، يقع على الرمل الأصفر بين رءوس الأشجار المدهامة ؛ وكان الشجر في نشوة إزهاره يسطع شذاه العبق الحاد فأفعم الليل كله . وكنت ترى من خلال خضرته الحوّاء آلافاً من الحباحب [1] تطير مضيئة لساعة كبات النجوم ، فهتفت قائلاً :

ما أحرى هذا الزخرف بمشهد من مشاهد الحب !

فابتسمت ثم قالت :

أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ سترى !

(١) الحباحب Luciole ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج

ثم أجلستني بجانبها وجمجمت قائلة :

ذلك ما يبعث الأسف والأسى على الحياة .

ولكنكم لا تفكرون في شيء من ذلك يا رجال اليوم . إنكم ماليون وعمليون وتجار وسماسرة ! حتى الحديث إلينا لا تحسنونه ولا تعرفونه . وإذا قلت (نا) أردت الشوابَّ الكواعب .

لقد أصبح الحب في رأيكم علاقة تبتدئ في الكثير الغالب بحساب الخياطة ، فإذا وجدتم الحساب أغلى من المرأة قطعتم ؛ وإذا وجدتم المرأة أغلى من الحساب دفعتم .

صداقة ظريفة ... عادات طريفة !

ثم أمسكت بيدي وقالت : أنظر ! فنظرت فإذا منظر عجيب يشدَه الفكر ويذهل الخاطر : هناك في طرف المشى وفي ضوء القمر أقبل فتى وفتاة يتهاديان وقد أخذ كل منهما بخصر الآخر . كانا يمشيان هوْناً على الشريط الفضى فتتعاقب عليهما أضواء القمر وأظلال الشجر . وكان الفتى في لباس من الدمقس على طراز القرن الماضي ، وعلى رأسه قبعة مُرَاشة بريش النعام . وكانت الفتاة ترتدى حلة شمسية[1] الذيل وقد ذرَّت على شعرها الزَّرور الأبيض ، وصففته على نحو ما كان يصنع الحسان في العهد الغابر . فلما صارا على مائة خطوة منا وقفا في وسط المشى وأخذا يتعانقان على أرق ما يكون الغزل والعناق بين عاشقين

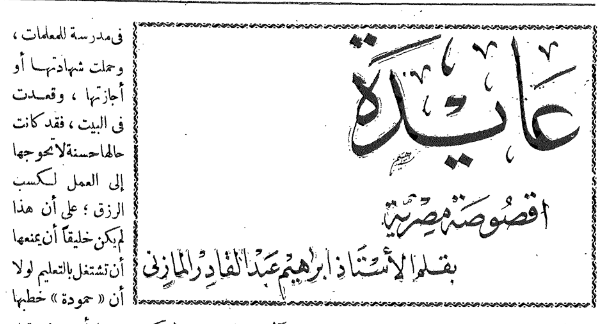
تفرست في الحبيبين فإذا هما الخادمان : الغلام والجارية ! وحينئذ استخفني الفرح وماد بي السرور حتى التوى جسمي على المقعد . ومع ذلك غالبت رغبة الضحك كما يغالب الجريح رغبة الصياح فلم أضحك . ولكن الخادمين عادا إلى آخر المشى فماد منظرهما أخّاذاً يملك القلب . ثم أخذا يبتعدان رويداً رويداً ، ويختفيان شيئاً فشيئاً ، حتى ذهبا كما يذهب الحلم

* * *

وانقلب المشى بعدهما موحشاً كئيب المنظر . وذهبت أنا أيضاً حتى لا أراهما على الحال الطبيعية . فإن هذا المنظر الذى بعث الماضي كله يجب أن يبقى طويلاً . أجل، بعث ذلك الماضي كله ! ماضى الغرام والزينة والبذَخ ! ماضى التصنع والخداع والغواية ! ماضى الرشاقة والفتنة بالحق وبالباطل ، ذلك الماضى الذى لا يزال يحرك شعور الممثلة الشيخة ، ويهز قلب العاشقة العجوز !

الزيات

(١) ذيلها على شكل المظلة



كانت « عايدة » تعرف « شيحة » من خطيبها . وكان بيت شيحة هذا مقابلاً لبيتها ، فكانا يتبادلان التحية والسلام ، وكل منهما فى شرفته ، أو نافذته ولكنه لم يكن يزورها ، وإن كانت دعته مرات إلى « تشريفها » . وكان يشتهى أن يجيب الدعوة ويوثق الصلة ولكنه كان يصد نفسه لعلمه أن أهلها محافظون ، وإن كانت هى فتاة عصرية . ولم يكن أحد يعرف ما عمل شيحة ، فقد كان رجلاً كتوماً ، قليل الكلام ، طويل الصمت ، يكتفي بالإشارة إذا أغنت عن الكلمة ، وبالنظرة إذا كانت حسبه بلاغاً ؛ فإذا بدا له أن يتكلم أوجز ولم يسهب ، وضرب فى كل حديث إلا نفسه وحياته وعمله . وكان يغيب عن بيته — أو شقته — أياماً ثم يعود ، ولا يسأله أحد أين كان ، أو ماذا كان يصنع بنفسه ؟ وكان أكبر الظن به أن له ضيعة يتعهدها . وكان مديد القامة ، عريض الألواح وفى عظام وجهه قوة ، وفي نظرته — حين يطيلها — حدة ، ولكنه مع ذلك كان سمحاً ، حلو الابتسام ، وظريفاً جذاباً — حين يشاء

وكانت « عايدة » قد أتمت دراستها ، وتخرجت فى مدرسة للمعلمات ، وحملت شهادتها أو أجازتها ، وقعدت فى البيت ، فقد كانت حالها حسنة لاتحوجها إلى العمل لكسب الرزق ؛ على أن هذا لم يكن خليقاً أن يمنعها أن تشتغل بالتعليم لولا أن « حمودة » خطبها فآثرت الزواج . ولم يكن يعرفها أو تعرفه قبل الخطبة ، ولكنهما بعدها تحابا — على الأيام ، فقد كان حمودة شاباً حديث العهد بالوظيفة ، وكان فيه حرص وتؤدة ، فاكتفى بالخطبة ، وتمهل حتى يعد نفسه لحياته الجديدة ويدّخر مايعدّه لازماً لها ، ومن أجل ذلك كفّ عن التدخين اقتصاداً فى النفقة ، وانصرف عن غشيان المقاهى والاختلاف إلى دور السينما ، وكانت تلك متعته التى لا يكاد يلتمس سواها . وكانت أناته تثقل أحياناً على عايدة ، ويشق عليها طول الانتظار ، وتصبو إلى الانتقال من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، وتجادل حمودة ، وتشعر أن جسمها كله ينتفض من قوة الحنين إلى تلك الحياة الجديدة التى كانت تحلم بها وتخايلها منها صور من المتع واللذاذات غامضة غير جلية ، ولكنها متع تحسها سلفاً بالخدر الذى فى أعضائها والفتور الذى يعتريها حتى لتكاد ساقاها — من فرط الاختلاج — تعجزان عن حملها . وكانت ربما شعرت بالنفور من حمودة لثقل ما يكلفها من الصبر ؛ وكانت تقول له أحياناً إنه لو كان يحبها كما

يزعم لما أطاق أن يفطم نفسه عنها هذا الفطام ، ولكنه كان — فى كل مرة — يستطيع أن يفيء بها إلى السكون والرضى والاقتناء

ولم تكن تشكو هذا إلا إليه ، ولكن أمها كانت تنظر إليها فتدرك — بلا حاجة إلى البث والشكوى — أن بنتها تحرق نفسها . وكان حمودة يقضى السهرة فى بيت عايدة أحياناً ، ويتعشى مع الأسرة ، وكان يجلس إلى المائدة أمام عايدة ، فأما الأب فكان يكب على الصحن ويشغل بالطعام عما عداه ؛ وأما الأم فكانت عينها لا تزال تنتقل من حمودة إلى عايدة ، ثم ترتد من عايدة إلى حمودة ، فكانت تراها تنظر إليه ، ولا تكاد تحول عينها عنه كأنها تريد أن تأكله بلحظها وتلتهمه وتجعله يتسرب — من عينيها — فى كيانها المتوقد ، وروحها الملتهفة . أما حمودة فلم يكن في نظرته أكثر من السرور الهاديء والاقرار الرزين بما رزقت من قوة الجذب وحلاوة الطباع ، وكان على يقين من حبها له ، فكان الصبر لا يثقل عليه . ولا نكران أنها كانت تزعجه بالحاحها ولكن طبيعة الحذر كانت تدفعه إلى المقاومة واتقاء العجلة . وكان همه من حياته رضى القلب وراحة النفس والاطمئنان ، فمطلبه السكينة الهينة لا النشوة ، وما أخطأته السكينة المنشودة قط إلا حين ضغطت عايدة كفه ورفعت إليه وجهها ، وقد استدارت شفتاها كأنما تتهيأ للتقبيل أو تدعوه إليه . ولم يرض عن نفسه ولا عنها حين أحس بالاضطراب الذي أحدثه له هذا ، فصار بعد ذلك يعالج أن يخفت ألسنة الهواتف فى نفسه ويسكن الضجة التى قامت فيها ، وحرص على اتقاء لمسها ، وعلى لفت وجهه عنها كلما رأى فى عينيها صيحة الجوع ونداء الصبوة وصرخة اللهفة ، وحدث نفسه أنها قادرة على إسعاده وأن حسبها أن تقول له إنها قانعة بأن تظل خطيبته حتى يأتى فى رأيه أن يبنى بها . ولكنها لا تنفك تستعجله قبل أن يستوفي عدته ، وبذلك تسلبه السكينة التى هى كل مناه من الدنيا

وكانت أم عايدة ترى هذا وتدركه ، فيسرها من حمودة أنه رزين غير طياش وأنه يريد أن يوطد القاعدة قبل أن يرفع البناء ، ويستوثق من متانة الأساس قبل أن يفرح بعلو الجدران وتفتح النوافذ ، ولكنه كان يؤلمها ويقطع قلبها أن ترى على وجه بنتها آيات الحرقات التى فى أحشائها ، وكانت تحدث نفسها أن السكينة بعض ما يفيض الحبيب على نفس حبيبه ، وأنها هي آتت زوجها الرّوح بحبها له ، وأفرغت على قلبه السكينة الموموقة ، ولكنه لا حيلة لها ، فقد أحبت عايدة خطيبها ، فلو طلبها ألف ، كلهم خير منه ، لما رضيت بواحد منهم . ولا خوف من البطء في الحقيقة ، فان حمودة جاد لا يهزل ، ووفى لا يخون ولا يغدر ، وعاقل لا يطيش ، ولكن بنتها ، هى بنتها ، وليس يسعها إلا أن تتألم لها .

***

وكانت عايدة تلقى شيحة فى بعض الطريق أحياناً فتسير معه مسافة ، أو تركب معه الترام ، إذا كانت غايتهما واحدة ، فكان يحز فى نفسها ويسخطها عليه أنه لا يزال يسألها كلما قابلها : « امتى الدخلة إن شاء الله ؟ » وكانت تراه يبتسم فيكبر فى وهمها أنه يتهكم ويسخر ، فتثور نفسها وتعود لا تدرى على أى الرجلين سخطها أشد ونقمتها أحمى : على حمودة الذى يكلفها ما لا تطيق من الصبر ، ويعرضها لهذه

السخرية من شيحة ، أم على شيحة الذي لا تدرى لماذا يسخر منها ويتهكم عليها ؟ ما شأنه هو على كل حال ؟ ولكنها كانت تراجع نفسها وتضبطها فما يليق أن تظهر الغضب لسؤال برىء في ظاهره ، ولا أن تكشف بالغضب عما تنطوى عليه من الألم ، فيعرف خبيئة نفسها ودخيلة صدرها

وقال لها مرة وقد التقى بها فى «مدينة الملاهي» إلى جانب المعرض الزراعى : « ليتك تتزوجينني ! إن حالى حسن ، وفى وسعى أن أمتعك بالدنيا وأجعل حياتك فيها رحلة جميلة »

فزوت ما بين عينيها وأغلظت له فى الرد ، فلم ينهزم ، بل راح يقول :

« إنك تبددين شبابك ، وهو مع ذلك كل حظك من حياتك ... فتاة جميلة مثلك ، تشتهى ولا شك أن ترتدى أنفس الثياب وآنقها ، وأن يكون بعلها ذا مال ، وخبيراً بالدنيا »

فقالت له بحدة : « وهل شكوت إليك نقصاً أو حاجة حتى تبتدرنى بهذا الكلام ؟ »

فاعتذر وقال : « لا أحتاج منك إلى شكوى فان لى لفراسة ، وأنا أعلم أن شيحة يمشى إلى غايته مشى السلحفاة ، ولو كان يقبل معونتى لأعنته ، ولكنه متكبر ... جداً »

فقالت لنفسها إن حمودة يشعر بكرامته ويعتز بها ، وإنه جدير بالإكبار من أجل ذلك ، وإنها هي لاشك تعرف له قدره ، وإن كان يسوءها منه هذا المطل والتسويف

وعدل شيحة عن تحريضها لأنه أحس أن هذا منه يستثير مقاومتها . وذهب يهمس فى أذنها بكلمات الإعجاب ، وهاتيك فى كل أذن عذاب ، وطاف بها فى أرجاء هذه « المدينة » وأركبها كل ما يركب وأراها كل ما يُرى ، وأنفق عن سعة ولم يضن بشىء ، ثم تركها مع أترابها على موعد

ودار بنفسها وهي تؤوب إلى البيت أنها لو كانت مع حمودة ، لأوسع قدميها إحفاء ، ولكانت حقيقة أن تخرج من مدينة الملاهى وفى نفسها مُنى كثيرة . والفاقة ليست عيباً ولكنها على كل حال ضنك وضيق . وفى الناس كثيرون أغنى من شيحة ، ولكن شيحة والحق يقال — كذلك حدثت نفسها — كريم سمح . وما أحلى كلامه وأعذب حديثه ، بل ما أحلى صمته وأبلغ نظرته ! ولكن الواحدة تشعر بالاطمئنان حين تكون مع حمودة ، ويشيع فى نفسها الرضى، مهما بلغ من شدة الصبوة . أما شيحة — وارتعدت عايدة وهى تناجى نفسها بذلك — فإنى أحس وأنا أصعّد عينى إليه أنى كالعصفور الناظر إلى الحية .. مرعب .. مرعب ..

وطاف برأسها أنها لا تستطيع أن تقاوم تأثيره فى نفسها إلا إذا كانت بين الناس ، ولقد وسعها أن تزجره فى «المدينة» ولكنها واثقة أنها ماقدرت على ذلك ولا اجترأت إلا لأن حولها من الناس بحر زاخر ، ولو كانت وحدها معه لما وسعها شئ

وتكررت المقابلات فى « مدينة الملاهي » ، ولم يكن من هذا بأس ، لأن الشهر شهر رمضان وفيه يطيب السهر ، وهى على كل حال لا تخرج إلا مع جاراتها وصواحبها ، فلا اعتراض ولا ملاحظة ، لا من الأبوين ولا من الخطيب

وقال لها ليلة وهما خارجان من إحدى الملاهى « تعالي ... إن معى الليلة سيارة فلندر بها دورة »

ولم تر بأساً فخرجت معه ، وركبا السيارة وانطلق بها وهى إلى جانبه ، وأقبل عليها يحدثها ويناجيها ويسرها ويضحكها ، كما لم يكن يفعل من

قبل ، فإن كلامه فى العادة — على عذوبته — قليل . ولم يكن بالها إلى الطريق ، بل كانت عينها على هـذا الرجل الغريب الذى يفزعها ، آنا ، وآونة يرقصها بعـذوبته ولينه ، وإذا بالسيارة تقف فجأة أمام بيت منقطع

وقال لها « تعالى »

فنظرت فلم تستطع أن ترى شيئا ، فقـد كان الظلام دامسا ، ولا مصابيح هناك ، فسألته : « أين نحن ؟ »

فلم يزد على أن قال « تعالى ... سترين »

وتناول يدها وأنزلها من السيارة ، ودخل بها البيت ، وكان فى دهليزه مصباح بترول صغير مثبت فى الحائط بمسمار ، فمشت أمامه ، وخرجت من الدهليز إلى غرفة رحيبة ، فى وسطها مائدة فوقها مصباح كبير يتدلى من السقف ، وحولها كراسى من الخيزران ، وتحتها سجادة كبيرة عتيقة ، وإلى اليمين « صفة » عليها شمعدانات وتحتها مما يلى الحائط حقيبة

وصفق شيحة ، ففتح باب ودخل رجل أشعث منكر الهيئة والصوت ، أوقد المصباح وأشار إليـه شيحة فخرج ، وما لبثت عايدة أن سمعت صوت السيارة ، فكاد قلبها يقف من الرعب ، ورفعت عينها إلى شيحة وهى واجفة ، فأومأ إليها فمشت أمامه إلى حيث أشار ، وعينها عليه كأنما كان يجذبها إليه ، وفتحت الباب فإذا وراءه سلم فعاد يومئ إليها بعينه وحاجبيه أن اصعدى . ففعلت وهى لا تعى

وعرفت وهى تنحط على كرسى فى الغرفة التى مضى بها إليها أن هذه هى النهاية !

***

لبثت فى هذا البيت شهوراً تطبخ وتكنس وتغسل وتخدم ، ولا تتخطى عتبته ، وكان شيحة يغيب عنها أياماً ثم يعود ، ولـكنه لا يتركها وحدها فقد كان فى البيت حارسه الذى لا يغفى ولا يغفل ؛ ذلك الرجل الأشعث المنكر الهيئة والصوت ، وكانت عودة شيحة فى كل مرة إيذاناً بمجىء زوار ، وكان الزوار هم هم لا يتغيرون ، وكانت إذا حضروا تلزم غرفتها ولا تخرج منها إلا إذا دعاها شيحة ، فكانت تقـدم لهم الطعام — تضع أطباقه على المائدة — وتخرج ولا تتلبث أو تتلـكأ ، ولـكنه لم يسعها إلا أن تسمع بعض مايدور بينهم من الـكلام ، فدهشت وتعمّـدت أن تتسمع ، فعلمت أن هؤلاء شركاء يزيفون أوراق النقد ، وأن ههنا فى البيت أدوات التزييف ، ولـكنها فى غرف أرضية ، تذكرت أن الحارس كان لا ينفك يصدها عن الانحدار إليها أو الاقتراب منها ، وعرفت أنهم يحملون مايزيفون ويوزعونه على أعوان لهم يسافرون به إلى الأسواق فى الريف ، وهناك يحتالون حتى يتخلصوا منه ، ثم يعودون بالأوراق الصحيحة ، ويجتمعون فيقتسمون وهكذا ...

إذن شيحة مزيف أوراق ، وهذا عمله ! وقد وقعت فى حبالته ، فقذف بها ـسجنها على الأصح ـ فى هذا المنزل المنقطع ! وأبوها وأمها ... وليس لهما من الذرية سواها ... وحمودة ... ماذا ترى صنعوا ؟

وكانت فى أول الأمر تبكى بأربع ، فلما مضت الأيام صار همها أن تهرب وتعود إلى أهلها ، ثم خطر لها أن الرجوع صعب بعد الذى صار إليه أمرها مع شيحة ، وكانت لا تزال تجهل حقيقته ، فقالت لنفسها إن هذه قسمتها ولا حيلة لها تعرفها ، فخير لها أن توطن نفسها على الرضى بما كتب الله عليها . ولم يفتر حبها لحمودة ، ولا ضعفت صبوة نفسها إليه

وحنينها إلى السكينة والأمان والدعة والرضى فى ظله ، ولكن شيحة كان قد استولى عليها ، وإن لم يستول على نفسها ، فلما تبينت أن هؤلاء مزيفون فزعت وأيقنت أن المسألة قد تغير وجهها ، وأن السجن هو مآلها لا محالة عاجلاً أو آجلاً . ولو اقتصر الأمر على مقامها فى بيت شيحة لبقى لها أملها ، ولكن التزييف ؟ ... أى أمل لها الآن فى اتقاء الفضيحة والعار والسجن جميعاً ؟ وأهلها المساكين ؟ لخير لهم أن تموت ... يبكون ساعة .. أوشهراً ... أو شهوراً ثم يتعزون !

وطال إطراقها وسهومها وتفكيرها ، وكثر أرقها ، ولكن شيحة لم يكن يباليها أو يعبأ كيف تكون . وبحسبه منها أن تقضى حاجاته ، وأن يقضى منها لباناته ، بل لقد صار يبدى لها الملل ولا يتقى أن يظهر الضجر ، وسمعت عايدة أحد زواره يقول له مرة :

« عايدة فتاة طيبة »

فهز شيحة رأسه أن نعم ، ولم يقل شيئاً

فقال الرجل: « لقد عزمتُ كما تعلم أن أكف اكتفاء بما حصلت ... فهل عندك مانع من أخذ عايدة معى ؟ »

فتنبه شيحة وقال : « إيه ؟ »

قال الرجل : « إنها فتاة ، وقد أخلصت فى الخدمة فيحسن أن نبعد بها عن هذا كله »

فقال شيحة : « آه ! هذا ماتعنى ؟ لا بأس ... متى شئت »

فكادت عايدة تصعق ، وماذا بعد أن تصير هكذا ... يعلها رجل فيرميها إلى آخر ؟؟ وانتوت أن تتخلص وتنجو بسرعة

***

واستطاعت بعد عناء أن تعثر على ورقة بيضاء وقلم تخط به ، ثم طوت الورقة ، ولم تزل تحتال وتتحين غفلة من الحارس حتى خرجت ، وسألت أول غلام صادفته عن الحى الذى هى فيه — فما كانت تعرف أين هى — ثم أضافت العنوان إلى مافى الورقة ، وشبكتها بدبوس وكتبت عليها عنوان خطيبها وأنقدت الغلام قرشين — فقد بقى معها ما جاءت به من مدينة الملاهى — واستحلفته أن يرمى الورقة فى أى صندوق للبريد ، بطابع أو بغير طابع ، سيان ؛ المهم أن تلقى في الصندوق والسلام

وعادت إلى البيت وهى مشفقة أن يكون الحارس قد فطن إلى خروجها ، وشاء الحظ الحسن أن يكون شيحة وزملاؤه غائبين عن البيت . ولا شك أن شيحة يذهب فى هذه الأيام إلى شقته تلك أمام بيتها ، فياما أجرأه ! ألا يدركه عطف عليها حين يطل من نافذته ويرى شقة أبويها ، وتقع عينه على أحدهما ؟ أو حين يلتقى بخطيبها ؟ وما ذا تراه يقول لحمودة حين يشكو إليه اختفاء عايدة ؟ وما ذا عساه يقول ؟ كل شيء بالطبع إلا الحقيقة ! ومن المحقق أنه ضللهم جميعاً وهو يتظاهر بالاشفاق عليهم ويتبرع بمعونتهم ! وهل ينتظر إلا هذا من مثله ؟

ومر يومان كادت تجن فيهما ، وكانت إذا دخل الليل ، تصعد إلى غرفتها وتجلس إلى النافذة وتحاول أن تنظر من ثقوب الشباك ، وأن تخترق بعينها أسداف الظلام ، وكان النوم يغلبها وهي قاعدة ، ثم تتنبه وتنهض مذعورة ، مخافة أن يكون أحد قد جاء ، ومضى يائساً . فقد كتبت إلى حمودة أنها ستجلس كل ليلة وراء النافذة القبلية

وفى مساء اليوم الثالث ، وكان شيحة واخوانه لا يزالون غائبين ، والحارس فى الغرفة التى يقضى

إليها الدهليز من الباب على عادته سمعت صفيراً خافتاً فحدقت فى الظلام فلم تستطع أن ترى ، فرفعت الشباك بحذر ورفق وأطلت فسمعت همساً: «عايدة .. عايدة» أنا حمودة ! اسمى ... هل هنا أحد ؟ »

فهمست من فوق بصوت مبحوح : « لا ... الحارس فقط »

فسأل : « متى يجيئون ؟ »

قالت : « غداً ... أو بعده على الأكثر »

قال: « إذن لابد أن تبقى حتى يكونوا جميعاً هنا.. لا تخافى ... يجب أن تبقى ... سأعود ... احذرى أن تقولى شيئاً ... »

فوعدت

فلم يزد على أن قال « مسكينة ! » واختفى فى الظلام .

***

وفى اليوم التالى كان الشركاء جميعاً محيطين بالمائدة ، وعائدة تحمل إليهم الطعام ، وفرغوا منه فالتفت شيحة لها وقال :

« اصعدي ، واستعدى للخروج »

فريعت ، وخافت أن تخرج ويجيء حمودة فلا يجدها ، وكيف يعرف بعد ذلك أين ذهبت ؟ وكان لابد أن تخفي جزعها فتجلدت وقالت :

« أخرج ؟ »

قال : « نعم ... لم يبق لك محل هنا »

قالت وهى تجاوره : « ولكنى أفضل أن أبقى»

قال : «اسمعى الكلام ، ستعيشين بعد الليلة مع خليل . سامعة ؟ »

قالت بذلة « حاضر »

وصعدت ، وقد أفقدها اليأس المفاجيء كل قدرة وسلبها كل قوة .

تستعد ؟ »هل عندها شيء ؟ وستلقى إلى رجل آخر ... ! قبل أن ينقذها حمودة ! حتى البكاء ممتنع عليها ! وهل تعرف ماذا عسى أن يصنع بها شيحة إذا سمعها أو رآها تبكى ؟ أتراه يمكن أن يظن أن هذا من حبها له ، ورغبتها فى البقاء معه ؟ وهل فى وسعها الآن أن تضايقه وتتظاهر بهذا لتؤخر رحيلها عن البيت ؟

وإنها لفى هذا وما إليه وإذا بحركة عنيفة يرتفع إليها صوتها من تحت ، فانتفضت واقفة ، وذهبت تعدو إلى الباب ، وتسمعت فعلمت أن البوليس قد جاء ــ ولكن كيف دخل؟ لعل الباب كان مفتوحاً ــ وقبض على الشركاء ، ورأت شبحاً يصعد درجات السلم ، فارتدت راجعة إلى الغرفة ، ووقفت تتلفت ثم توارت وراء ثياب معلقة على مشجب ، ودخل الشبح ثم صاح « لا أحد » — وانثنى راجعاً ... فكاد قلبها يقف مرة أخرى ، فقد كان الصوت صوت حمودة . فهل ترى كان يبحث عنها ؟ ؟ وهل اعتقد أنها هربت قبل مجيئه ، وأنها ليست الآن فى البيت ؟ ؟ لماذا لم تقل له إنها هنا ؟ ...

وخلا البيت وساد السكون بعد أن مضى ألف عام فيما تحسب وهى واقفة وراء الثياب ، فخرجت تمشى وانحدرت إلى الدور الأرضى ، وبرزت إلى الفضاء الرحيب أمام البيت ، ووقفت تتسمع ثم مشت فى الظلام على غير هدى ، فما كانت ترى شيئاً ، ولم تكن تحس أو تدرك إلا أمراً واحداً .. أنها نجت من السجن ، وليكن بعد هذا ما يكون ...

وصافح سمعها صوت يقول «هسس ! هسس!»

ففزعت ، وكبر فى وهمها أن هذا بعض القوم الذين ظنت أنها نجت منهم ، ووقفت في مكانها لا تتحرك ولا تكاد تتنفس ، فقال الصوت مرة

أخرى « هسس ! هسس ! » فلم تستطع أن تجيب ودنا منها شبح ، فسقطت على الأرض مغشياً عليها

***

لما أفاقت عايدة ، ألفت نفسها راقدة على الأرض ، وخدها على ساق حمودة ، فابتسم لها ، « أحسن ؟ » ففركت عينها وجلست فقال لها : « لما جاءنى كتابك لم أخبر أحداً ، حتى ولا البوليس ... أردت أن أهتدي بنفسي أولا ... وكان فى وسعى أن أنقذك فى تلك الليلة ، ولكنى أردت أن أقبض على المجرمين ، فكان لابد أن تبقى كما كنت حتى لا يشتبهوا ، ويهربوا ... وكنت أحرص على ألا يقبض عليك معهم ، ولهذا لم أقل للبوليس شيئاً عنك ، ولكن القبض عليك لم يكن يخيفني فإنك ضحية ، ولست شريكة ، وكنت واثقاً ، لما جئت مع البوليس أنك فى البيت ، فلما اعتقلوهم صعدت — متطوعاً — فلم أجد أحداً ، ولكنى شعرت بحركة خفيفة فأيقنت أنك مختبئة ، فصحت : « لا أحد » وعدت مطمئناً وفى نيتى أن أعود وحدى لآخذك ، ولكنى وأنا عائد سمعت وقع قدميك ... هذه هى القصة ... »

قالت : « ألا تريد أن تسمع قصتي ؟ »

قال : « كلا ! إنها لا تعنيني ... حسبى أنى وجدتك ... والآن قومى ... على فكرة ... لقد رأيت أن الانتظار لا داعى له ، فهل عندك مانع من التعجيل ؟ »

قالت : « يجب أن تعلم أنى عشت مع شيحة »

قال : « ألم أقل إنك كنت ضحية ؟ انسى هذا يافتاتى وتعالى ... »

ابراهيم عبد القادر المازنى

عشية أو ضحاها

للقصصي الروسي ليونيد أندرييف
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

لا يوجد مطلع على طرائف الأدب الروسى لم يقرأ قصة قصيرة أو وسطى أو مطولة لهذا المؤلف الذي قضى نحبه في العقد الثاني من هذا القرن العشرين بعد أن ظهرت أشعة وهاجة من عبقريته النادرة ، فقد قفز في برهة قصيرة إلى الصفوف الأولى . ومن أروع قصصه « يمين العاهر » و « الهاوية » و « الثائر » و « الصمت » و « حياة الانسان » وهى فاجعة رائعة مكتوبة على الأسلوب التمثيلي . وفي قصته القصيرة التي ننقلها إلى العربية إلى المرة الأولى دليل جديد قوى على نبوغه وحذقه وصدق فنه

نشأ جودار برافسكي في سرجيوسنا احدى ضواحي مدينة سراتوف ، على نهر الفولجا ، وكان صبياً ذا ذكاء وفطنة ، ورث الإقدام والثبات عن والده ميغول ميغولفتش الفلاح ، وقوة الإرادة والطموح إلى العلا عن والدته أوجستا سبيانفنا المنحدرة من أصل قوقازى . فأراد أبوه أن يقاسمه العمل في الحقول صنعة آبائه وأجداده ، لأن الأرض في نظره مصدر الخير كله . ولكن الأم تمنعت قائلة : « إن لم يكن تعليمه في المدرسة مستطاعاً فلنبعث به إلى إينكين صانع التماثيل والإيقونات ، يعلمه فنه الجميل الراقي ، ويؤهله إلى حياة أرفع من حياتنا » فنزل الوالد على إرادتها ، وقبله مثّال القرية على مضض ، لأنه كان يضن بأسرار مهنته أن تبذل لأولاد الموجيك[1] ، وهم أقل من طبقته ؛ وفرض على الوالدين أجراً لتعليم الولد روبلين يدفعانهما كل شهر .

ولكن الأم كانت حانقة مغيظة لرغبتها في تعليمه . ولما كان ميغول ميغولفتش يحب أن يتقى غيظ الأم قبل على مضض أن ينقل الصبى من مصنع المثّال إلى صفوف المدرسة الابتدائية في سراتوف . فأظهر من النجابة ما دعا إلى إعجاب أساتذته ، ولكن المال كان قليلاً والنفقات تزيد على طاقة الأب فكافح وصبر بضع سنين حتى بلغ الولد منتهى حظه من التعليم وهو شهادة البكالوريا . وقد حسب الوالد نفسه من بناة المجد أن بلغ ولده هذه المرتبة من العلم في حياته

وكانت الأم ترجو أن يصل الشاب إلى الجامعة ليتخرج فيها طبيباً أو مهندساً ليعيش بين طبقة السادة والنبلاء في بطرسبرج ؛ وشجعها على المضيّ في هذا الأمل أن جودار كان مجتهداً طموحاً شديد الحساسية مثله مثل الفنانين الذين كمنت فيهم مواهب الجمال والقدرة على إبرازه ، وإن قعدت بهم الفاقة دون تحقيق أمانيهم . وكان الولد كأمه يطمع لنفسه في المراكز العالية ، فتأخذ على زوجها المواثيق ألا يبخل على ولده بالمال الذى يحتاج إليه في تثقيفه ولو اضطر إلى

(١) طبقة الفلاحين

بيع جزء من الأرض الموروثة !

وسافرت الوالدة والولد إلى بطرسبرج ونزلا ضيفين على قريب لهما كان فيما مضى مديراً لإدارة الأموال المقررة ، وحملا إليـه هدية حسنة من الدجاج والبط والفاكهة والبقول والزبدة والبيض فأحسن استقبالهما وأكرم وفادتهما واطمأن « الدثورنك (١) » إذ علم أن الأم قروية من قرية سرجيوسنا وأن الشاب قادم للانتظام فى صفوف الجامعة . فوفر على نفسه مشقة التجسس وتبليغ الشرطة خبر مقدمها ، واكتفى بضمانة الموظف القديم الذى أكد له أنهما لا يحملان فى حقيبتهما البريئة ديناميتاً ولا قنابل يد ولا مسدسات ولا منشورات ثورية ! ولـكن مظهر الأم وما تحمله من أمائر النبل الموروث ووسامة الشاب حركت سلوكه وأيقظت وساوسه فكان يهمس فى أذن الموظف القديم كوبرنيك سبيروفيتش : « إن كثيراً من الشرفاء الذين أفسدت أذهانهم كتب السـاحر العجوز المقيم فى « ايسـانيا يوليانا (٢) » قد يتنكرون فى هيئة الفلاحين ليصرفوا عنهم ظنون الشرطة » ولا يهدأ باله إلا إذا قال له المضيف : « أنا ضامن لهما ، فهما من أقاربى ، وإن دماءنا لم يتطرق إليها الفساد » ...

وسعى الموظف كوبرنيك سبيروفتش لدى أولى الأمر واستكتب الأم والولد عرائض الاسترحام . ولـكن مساعيهم ذهبت أدراج الرياح لِـقلةِ الضريبة العقارية التى يدفعها الأب عن النصاب الواجب أداؤه لخزانة الدولة ، فمن الإرهاق له أن يجبر على دفع رسوم الدخول والامتحان فضلاً عن أثمان الـكتب ونفقات الحياة .

وهب أنه باع الأرض لينفق ثمنها فى تعليم ابنه فيصبح الشاب إذن أقل استحقاقاً للدخول ، لأنه ينحدر إلى طبقة المعدمين . وقال له أحد كبار الموظفين بسلاتير بوبوف مراقب التعليم العالي وهو يجادله ليقنعه بالعدول :

— تعلم يا كوبرنيك سبيروفيتش ما أكنه لك من المودة والاحترام ، ولـكن القانون هو القانون ؛ قد يكون قاسياً أو خاطئاً فالأولى أن نعمل على تعديله لا على نقضه وتحطيمه . فأجابه سبيروفيتش : « حقاً إن نظر المرء ليختلف تبعاً للزمان والحوادث . أتراني ياجناب المراقب ثائراً أو صاخباً محتجاً ! ماذنب هـذا الولد النابغ الذى نال شهادته بكده وجده ، يحرم من التعليم العالى لأن أباه ليس ميسوراً . إن النبوغ من نعم الله التى تهبط على المياسير والمعاسير على السواء

— هدىء روعك يا حضرة مدير الأموال المقررة سابقاً — أتراه وقـد أتم تعليمه وهو على ما وصفت من الذكاء والفطنة ، ولم ينس أصله وفاقته وحاجة والديه ، فينشأ ثائراً وينضم فى غير وعى إلى صفوف المفتونين الحمق الناقمين على نظام الدولة الراغبين فى هلاكي وهلاكك ، فيقطعون معاشك ويمنعون مرتبى ويزاحمون أولادى وأولادك فى معترك الحيـاة بما أوتوا من كفاية نادرة ، وهم لايزالون ذوى أدمغة بكر وأذهان خصيبة لم تقض على تلافيفها حياة الترف والرفاهية التى شاءت بركة

(١) بواب المنازل فى بطرسبرج وموسكو فى العهد القيصرى — يجبى الأجور ويراقب السكان ويتجسس عليهم للشرطة

(٢) هو ليوتولستوى

الله أن تغمسنا فيها إلى الأذقان ، فهل تندم ولات ساعة ندم أو تحرق الأرم على أنك زدت النار اشتعالاً بتعليم هذا الفتى النجيب وما هو إلا سهم يصوب إلى صدورنا ؟

فقال كوپرنيك سپيروفيتش وكان شيخا هما فى الستين من عمره أطلق شعر عارضيه وعثنونه فبدا فى هيئة مشير خطير فى الجيش :

أراك يا حضرة المراقب قد ركبت متن الشطط وقطعت بخيالك الجامح فراسخ عدة فى عالم الوهم ، وأصبحت كغيرك من ذوى المناصب الرفيعة ترى فى كل شاب يستزيد من العلم زعيما لثورة المستقبل ، يفكر فى فتنة تأكل الأخضر واليابس ، أو يدير مؤامرة تهلك الحرث والنسل ، كالمستأجر الجديد لبيت قديم يزعم أنه مأوى الجن ومسكن العفاريت فلا يلبث أن يرى فى كل ركن شبحاً ويسمع فى سكون الليل صدى أصوات المردة ، وما رأى وما سمع إلا ما أملى الرعب الذى تملك عليه زمام نفسه

وكان موظف الجامعة هادىء الأعصاب متزن التفكير واسع الصدر ، فترك مدير الأموال المقررة السابق يتكلم إلى آخر ما أراد ثم التفت إليه وعلى فمه ابتسامة عريضة خبيثة وقال له :

— أرى أن الذى شطح ونطح وجرى حتى لهث ليس خادمك المطيع ؛ ولو لم أكن أعرفك المعرفة الحق وأثق بك ثقة لاحد لها وأعلم من ماضيك الحافل بالولاء للدولة والعبودية لجلالة مولانا القيصر ، لظننت بك الظنون وحدثتنى نفسى بأن الراحة واطمئنان البال والفراغ مفسدة لأكبر العقول ومرتع خصب لوساوس الشيطان ونزوات الثورة . أكل هذه النخوة ، وكل تلك الهمة وذلك الغليان الذى لم يعهد فى الشيوخ من أجل طالب تريد أن تلحقه بالجامعة قهراً ومن هو الطالب ؟

وتناول فى اهتمام يمازجه التهكم عريضة ابن الفلاح وقرأ « جودار برافسكى ... من قرية سرجيوسنا إحدى ضواحى سراتوف .. وهو بعد عاجز عن دفع المصروفات خليق بأن ينقطع عن الدراسة إذا انكشف ستر أبيه بنزول أثمان القمح ! ! وما بقى إلا أن تطلب منا أن نعفيه من الرسوم ونجنى على خزانة الدولة حباً فى سواد عينيه وتوقيراً لضآلة شأنه !

فقال كوپرنيك وقد ملك زمام غضبه : خزانة الدولة ؟ عفواً ! لم تصل بى الرعونة إلى هذا الحد ، ولكننى حسبت ...

— كفاك حساباً فيما مضى ، وأنت تعلم أننى لا أمل مجلسك ، ولا أكره حديثك ، لولا أن لدىّ من الأعمال ... فياحبذا لو شرفتنى فى منزلى (١٧ پرسپكتيف نيفسكى) فنشرب معاً طاساً من الشاى ، فى مجلس خال من الجدل

فتلقى كوپرنيك السهم بلباقة وأخفى الجرح الذى أصابه فى الصميم ونهض فى وقار وتؤدة قائلا :

— لا جرم أن نظمنا الاجتماعية والسياسية كالشجرة الكريمة النابغة قد آتت أكلها ، وأنت من خير ثمارها ، عم صباحاً يا سيدى . ولا تخش انتمائى إلى كبير تحوطنى حمايته وتظلنى رعايته فى الأماكن العليا ، إذا حدثتك نفسك بأكل لحمى أو السعى فىّ ، وإنما ورائى ماض فى خدمة الدولة تندك جبال الأورال ولا يندك ، وصحيفة ناصعة البياض لن تلوثها وشاية واش أو دسيسة دساس

* * *

وعادت الأم الحزينة إلى قريتها وقريتها تحمل اللوعة

بين حنايا أضلاعها ، وتخفي الهم الذى احتواها من خيبة الأمل ، وهي تعلم أن زوجها سوف يلقاها بانتصار رأيه ، ويتهمها بالغرور والتطلع إلى مكانة أسمى من مكانتهم ، فكان جزاءها أن تعود وما جنت من سعيها إلا ترك الولد فى البلد النائى غريب الوجه واليد ، أليف هم وغم ووحدة ، وقد انخرط فى سلك « الخواجات » والسادة وهو ليس منهم فى شيء سوى الهيئة والمنظر ، عليه أكثر مما عليهم ، وليس له مما لهم . وقال لها : « أى نفع لنا وله من العيشة القاسية فى وسط أولئك المرائين المتسترين تحت ألف نقاب » كأنه يدرك نفاق العاصمة ، ففهمت معنى نظراته الشزراء وأدركت ما يجول بخاطره عنها ولكنها لم تملك أن ترد غضبه أو تقلل من شأن انتصاره ، فقد شعرت بالضعف والعجز بعد أن رأت خططها الجميلة ومشروعاتها الرائعة لم تتعد دائرة خيالها . وها هى ذى قد تلاشت أحلامها البراقة واضمحلت أمانيها الذهبية . ولكن أوجستا سيبانشنا لم تكن لتهزم حيال بعلها الظافر ، فهي تعلم أنه تأثر واستاء ، ولم ينطق بما قاله إلا ليثير حفيظتها وأن يحنقها فتم له ما أراد

ولما كانت مصلحة الأموال المقررة فى حاجة إلى الجباة والمحصلين فى مواسم العام التى تكون مظنة لرخاء المولين ودافعى الضرائب ، فقد سعى كوپرنيك فى تعيين جودار فى وظيفة بديوانه القديم ، وعمل الرئيس بوصية كوپرنيك على جودار فصار جابياً يدور ويلف ويحصل ويجمع من الصباح إلى المساء ، فلا يعود إلى وكره إلا وقد خارت قواه واضمحلت إرادته وشعر بهوان النفس وضعف البدن فيتهالك على فراشه حزيناً يائساً ، وهو يئن من الألم ويحن إلى تلك الأيام السعيدة التى قضاها فى كنف أنيكين صانع الآلهة على ضفاف نهر الفولجا

وفى تلك الفترة تعرف جودار إلى اسبازيا كورنولوفنا إحدى طالبات الجامعة فى التاريخ والاقتصاد وقالت له إنها ابنة مزارع فى جزيرة القرية ليس ميسوراً ولا معسوراً يعيش عيشة راضية بايراد سنوى قدره ألفا روبل قانعاً بحظه من دنياه ، يعتقد أن السعادة لا تكون إلا لمتوسطى الحال أمثاله الذين لا يعرفون النعيم ولا يجهلون الفقر . وكانت اسبازيا تحدث جودار أول الأمر عن مستقبل الانسانية وسعادتها فلا يحرك ساكناً ولا تظهر على وجهه علائم التصديق ، فكانت تمازحه فى رفق ساخرة من ارتيابه وشكه هازئة بضعف يقينه ، فكان ينتزع اليقين من سعادته بقربها ، والنظر إلى عينيها الزرقاوين العميقتين فتأخذه النشوة ويستحوذ عليه السرور كلما رآها وصافحها وسمع نبرات صوتها الحنون الهادىء . ولما تنبهت فيه عواطف جديدة لم يعهدها وظن أنه أصبح لا يستطيع أن ينتعش إلا فى صحبتها دعاها فى أحد أيام الربيع بعد الغداء إلى نزهة خلوية ، فقالت له وهما يخترقان بستان إيفان وكاترينا : أراك يا دوشنكا [(١)] تخفى عنى أمراً فتشجع فتكلم ولا تكتم عنى شيئاً . فقال لها : أخفى عنك أننى أحبك حباً يقصر عنه القول بحيث أهبك حياتى لو شئت . فحدقت اسبازيا فى محياه وأدركت من أمائر الصدق والاخلاص والحزم البادية عليه أنه جاد فى قوله

فسكتت وأطرقت ثم تخيرا مقعداً خالياً فجلسا عليه ، وبدرته قائلة :

— وكيف تعلل هذا الشعور والاستعداد

(١) يا عزيزى

للتضحية وأنت متبرم بالحياة ناقم عليها كما علمت منك ؟

فقال لها : العلم عند ربى فقد يغفل الزمان مرة فى الدهر واحدة عن التنكيل بى ، وقد تبسم لى الأقدار بسمة ولو سهواً .

قالت : أترضاها وتقنع بها ؟

قال : نعم

قالت : ولو كانت بسمة التهكم والزراية ؟

فقال لها : على رِسلك

قالت له : ألم تكن لك صديقة صغيرة فى قريتك ؟

قال : كلا . لم أعرف النساء قبل أن أرد هذه العاصمة فقد قضيت ساعات فى رفقة غانيات رعناوات لم يكن للقائهن من بد ... فأرخت عينيها وقالت :

لقد تركن حتماً أثراً عميقاً فى نفسك الفتية يا دوشنكا

فقال : كلا ! فقد كنَّ غانيات طائشات لا هم لديهن ولا حساب للغد ، لأنهن لا يعشن إلا للساعة التى هُنَّ فيها ، وطالما سمعت منهن قولهن السخيف الفاتر : « ساعة الحظ لا تُعوض » فكنت أشمئز وأتقزز وأهم بتركهن حيث كن جالسات أو متكئات صاحيات أم مترنحات

فألقت اسبازيا على صاحبها نظرة فاحصة متمهلة كأنها تدرسه عن كثب

فقال لها : ولكن لماذا تريدين منى هذا الاعتراف الذى لا طائل بعده ؟

فقالت : لا شىء ألبتة يادوشنكا . لا شىء ألبتة، وصمتت . وكانت نفس جودار تحدثه بأن اسبازيا تعلم علم اليقين فيم يفكر ، وماذا وقع له فى خطوته الأولى نحو الشباب ، ولعلها بعد أمه التى ولدته أدرى الناس به وأخبرهم بطباعه ، ولقد فهم معنى نظراتها وأدرك ما يجول بخاطرها وتوهم أنها تفتح قلبها له

فقال : أية سعادة تغمرنا بفيضها الساحر إن صدقت ظنونى ؟

فقالت : وما تلك السعادة التى تنشدها وتؤمل أن تغمرنا بفيضها الساحر ؟ !

فقال لها : لماذا لا ننعم بتلك اللحظة السانحة ؟

فضحكت ضحكة عجيبة وقالت له :

— أراك تتعجل اللذات يادوشنكا ولا تحسب للزمالة والصحبة البريئة حساباً ، والمرء فى ريفنا ينشأ على ما عوده أبوه !

فاحمر الفتى خجلاً واضطرب قلبه وود لو تنشق الأرض فتبتلعه فتريحه من الحياة ومتاعبها وضآلة أمله فيها ولا سيما بعد هذا الحب الضائع والهفوة التى وقع فيها وقال :

— عفواً يا آنسة ! إن احتمال إقبال السعادة علىَّ أقلقلنى فذهلت عن نفسى

فقالت له : لا تعجل ولا تدعنى آنسة فلا أزال اسبازيا التى تعرفها وتود أن تبقى على مودتها — فبلع ريقه واطمأن — ولكن قل لى : لماذا لم تدخل الجامعة وأنت على ما أرى من ذكاء وفطنة ؟

فروى لها تاريخ حياته الموجع ، ووصف لها ماعاناه والداه فى تعليمه ، وما تجشمته أمه وقريبه فى سبيل تحقيق آمالها فيه . فقالت له :

— ليست الجامعة بالمكان الوحيد الذى يطلب فيه العلم ويبحث بين جدرانه عن الحقيقة ، ولعلها آخر مكان يسعى إليه أمثالك لتكوينهم رجالاً خصوصاً فى بلادنا هذه وزمننا هذا ، ولعلها تكون أداة تعطيل ورجعى

قال لها وقد فتحت عيناه من الدهشة :

— أين يكون إذن ذلك المكان الذى يتكون فيه الرجال ؟ وإن كانت الجامعة على ما وصفت فما علة الإقبال عليها ، وإقبالك أنت خاصة ؟

قالت : البعض يلتمسون الإجازة التى تفتح لهم أبواب المناصب العليا ، والبعض يلتمس وسيلة للعمل المنتج وهو تعليم الشعب

***

ومن تلك الليلة صحبته إلى حى بتروفنا فيما وراء النيفا وهو حى العمال والمصانع ، وقادته إلى بيت صغير فبدّلا بثيابهما ثياب صغار الخبازين والعجانين ، فكان من رآهما داخلين لا يعرفهما بعد أن تزيا بزيهما الجديد . ثم أخذا يجوسان خلال الحارات الضيقة القذرة والأزقة الحالكة الموبوءة حتى بلغا بناية كانت مصنعاً كبيراً أمسى مهجوراً ، وقد اكتظ بمئات العمال يستمعون إلى خطيب فى ثياب راهب ؛ وكان الراهب نحيفاً خفيفاً أجرد أمرد لا شىء فيه غير عينيه كالشعلتين المضيئتين ، وكان صوته كأنغام الكمان يوقع به أنغاماً تارة شجية مبكية وطوراً مثيرة مهيجة

وكان الخطيب يقطع من جبل البلاغة ويصوغ من جواهرها ، يفيض تارة كالنهر العذب الفرات وطوراً يهدر كالشلال الرهيب ، يترنح ويميل كقصب السكر بمهب الريح ، وكأنه يطرب لما يقول كأنبغ المنشدين ذوى الأصوات اللعلاعة والفن الرفيع . انتشى جودار أولاً ، ثم زاغ بصره ، ثم سكر وراح يردد فى نفسه معاني الخطبة الرائعة بعبارات تكاد تكون من ألفاظه وصياغته ، ولم يعد عليه شىء غريباً ، فهذه حياة الفلاحين يصفها الراهب ويجيد ، وحياة اللهو والغرور ينظمها فى در نضيد ، وتلك صورة اليأس والقنوط التى خلعها السادة على العبيد ، وهذه صور كل واحدة أفتن من الأخرى للمستقبل السعيد . وكان يتنقل بسامعيه الذين صاروا من تابعيه — من وصف جحيم الحياة حتى ليشعر جودار بحر أوارها ويرى حمرة شررها ، ثم يغرى بوصف جنات الدنيا ، حتى ليتخيل جودار أنه وإسبازيا يلهوان فى أرجاء حديقة فيحاء ويقطفان الأزهار من بين الحشائش المخضلة الندية

ثم انفرط عقد الاجتماع وجلس الخطيب فأقبلوا عليه يحتضنونه ويقبلون يديه ويبللون مسوحه بدموعهم الحارة ، وبركع بعض النساء العصبيات تحت أقدامه ولولا خشية الله لعبدنه ؛ وكان جودار قد بلغ أعلى درجات التحمس ، ولكن حياءه وكبرياءه عاقاه عن مجاراة الجمهور في اندفاعه وقنع بأن قال لها : « ما هذا الذى رأينا وسمعنا ؟ »

فقالت له : هذا صوت المستقبل يرن في أذنيك ليوقظك كما أيقظ هذه الألوف من الضحايا المستغرقة فى النوم العميق . فقال لها : وكيف السبيل إلى الاقتداء به وبلوغ شأوه فى الفصاحة والمعرفة ؟

قالت : سهر الليالى أو القراءة والاستنقاع فى تلك الينابيع الفياضة بماء الحق الصافى

وفي الغداة قالت اسبازيا لجودار : إن كنت ترغب فى تذوق هذه الحياة الفاتنة وتقصد إلى مشاركتنا فى العمل المنتج فما عليك إلا أن تغير حياتك ، وأن تعيش عيشة مزدوجة ، فأنت فى عملك نهاراً وتبعث فى الليل رجلا آخر . فلما قبل نفحته بجواز مزيف يحمل اسماً جديداً يعرف به فى أطراف الليل وجزءاً من النهار ، وهو اندوماك نوڤالوف ، فصار يغشى محافل

الحركة ، ويلتهم الكتب التهاماً ويواصل العمل ، لا يمل ولا يضجر ، فتجددت حياته وخلع رداء الماضى وصار كالجواد الكريم الذى يقصد إلى اتجاه واحد لا يحيد عنه يمنة أو يسرة محمولا على أجنحة من حب الفوز والتحمس للنصر ، يستنشق ريح الأمل الذى يحدوه ، ويلقى فى يد اليأس تراب الماضى الأليم .

وكانت بطرسبرج فى فجر القرن العشرين قد استيقظت فنهضت كالغادة الحسناء ، تنفض عن كاهليها غبار سهرة الليلة البارحة ، واتجهت نفوس الشباب من كل جنس ولون ودين وطبقة إلى العلم .

وعند ما فتحت الدوما أبوابها للزارعين فكر جودار فى الاستقالة من منصبه الصغير ، ولكنه تمهل وقد اشتهر فى الأوساط الثورية باسمه الجديد « اندوماك نوڤالوف » ولكن لم يقف على سره أحد غير فتاته المخلصة التى جمعته إلى الزعماء والقادة ، وكانوا هم أيضاً يحملون أسماء مستعارة مثله ؛ وأظهر اندوماك نوڤالوف كفاية فى التنظيم وقدرة فائقة على خدمة وطنه ، وامتدت إليه الأيدى بالمونة واشرأبت نحوه أعناق الطامحين والمعجبين ، وطلب إليه أن يستقيل من وظيفة التحصيل والجباية التى كان يشغلها فى مصلحة الأموال المقررة لينقطع للعمل القومى فيتقنه ، وأصبح لا يسمع أحداً يناديه باسمه القديم . وعند الانتخاب العام صار نوڤالوف فى مقدمة المرشحين لمجلس الدوما عن حى پتروڤنا وهو حى الخبازين ، وفاز بلا مزاحم . فقد كان ناخبوه سامعيه ومريديه وأصدقاءه الذين يلتفون حوله فى الغداة والعشى . وعند ما ألفت الوزارة رشحه حزب « پراڤدا تراسكويا [1] » وهو الكثرة الغالبة ، لوزارة المعارف ، فحمل « محفظتها » وفاز بكرسيها المرموق من فطاحل الرجعيين بعين الجشع . ودخل قصر الوزارة ، وجلس فى القاعة التى تربع في دستها باديف وستولبين وسميرنوف وجوجو لوفتش [1] وكلهم كونت أوبارون . فكان أول همه أن ألغى القرار الذى يحرم أولاد الفلاحين من دخول الجامعة لعجز النصاب ؛ وكان عليه أن يجدد شباب التعليم ويبدل نظمه البالية ، فأكب على العمل ليل نهار واتخذ مقره ومسكنه ومثواه فى الوزارة لا يغادرها ولا يبارح مكتبه إلا لمرقده

وفى إحدى الأمسيات الهادئة اتخذ طريقه إلى سيزاك تويلاى [2] إزاء پرسكتيف نيڤسكى ، حيث يقطن قريبه الشيخ كوپرنيك سپيروفتش ، ولما استأذن على رب البيت استقبله فى دهشة قائلاً :

« جودار ياولدى العزيز ! أين أنت ؟ لقد قطعتنا ولا ذنب لنا إلا عجزنا فى السنين الخوالي عن إلحاقك بالجامعة ، ولكنك رضيت بوظيفتك ، وقد أقعدتنى الشيخوخة عن متابعة السعي ، فقال جودار :

— لا عليك ياعماه فهذا تاريخ قديم نسيته ، ولم أقعد عن الدرس والطلب ... حتى ... وقطع عليه الحديث دخول هوربين الولد البكر ، ولم ير جودار منذ بضع سنين فقال له :

— دعنى أنظر إلى وجهك يا ابن عمتى ما أشبهك بنوفالوف وزير معارفنا الجديد ! وخرج ثم عاد مسرعاً وبيده « جازيت بورصانيا » وفيها تصاوير الوزراء الجدد ... ووضعها تحت عينى والده ... فابتسم الشيخ وقال :

(١) الحق الصراح

(١) من وزراء المعارف السالفين

(٢) شارع فى بطرسبرج

« عند رعايانا التتر والتركمان مثل ينطبق على هذه الحالة « لقد خلق الله فى كل بقعة من الأرض أربعين شخصاً على صورة واحدة » ، وليست وزارة المعارف بكبيرة على ابن عمتك ، لو أنه وفق إلى دخول الجامعة ، أو دخل من « الباب الخلفى » ثم خفض صوته هامساً : « باب الثورة والدوبا ... » لو أنه ظفر بلقاء الأب جابون [1] وخطب فى الجماهير . ولكن لا عليه ، فإن الدهر لم يساعده . أف لهذا الوغد المتكبر سلاتير بوبوف الذى كان مراقباً للتعليم العالى ! إنه خنوص خبيث ، يدافع عن الطبقات كأنها بنات خالته ، ويقصى الفقراء عن مناهل العلم كما لو أنهم يخطفون من بين يديه صحن البورش [2] الذى يتجرعه ويسد به نهمه » !

فقال جودار وقد امتقع لونه : أظن هذا الرجل لا يزال مراقباً للتعليم العالى

فقال الشيخ كوپرنيك : حتى فى عهد هذه الوزارة الثورية . إنه لخرق فى الرأى وخضوع للظلم ورجوع بالعلم إلى العصور المظلمة ، واستسلام للرجعيين

فقال ولده هوزبين : من يسمعك لا يشك فى أنك ثائر مع أنك قضيت معظم عمرك المبارك فى الطاعة المطلقة . فتنهد الشيخ حتى اهتز صدره وقال: آه لو عرف الشباب وآه لو قدر المشيب !

وكان جودار يهم أن يبوح بحقيقة حاله ، ولكن الليالى والأيام علمته الكظم والكتمان

ولما بدأ يشرب الشاى تذكر والديه وخصمه فأخذ يحرق الأرم غيظا ويعض بنان الندم آسفاً ، ثم نهض وودع وانصرف . وفى اليوم التالى دعا سپيروڤتش ليلقاه في تمام الساعة الثانية عشرة فى قصر الوزارة .

ولم يدر الشيخ سبب الدعوة ولكنه حافظ على موعدها ولبس أفخر ثيابه واستأذن على الوزير فأحسن استقباله ، ولكن عينى كوپرنيك جحظتا وفمه فغر من الدهشة عند ما سمع صوت الوزير أندوماك نوڤالوف ولم يتمالك أن سأله : سيدى الوزير ... أتعرف شخصاً اسمه جودار براڤسكى ؟ فدنا جودار منه ، وقد خشى على عقل الشيخ وحياته وقال له :

— فلنفترض يا سيدى المدير السابق للأموال المقررة أن جودار برافسكى وأندوماك نوڤالوف علمان على شخص واحد ، فهل كنت تفرح وتغتبط وتقبل شكرهما أو شكره وتكتم سرهما أو سره ؟ فنهض الشيخ مرتجفاً ، وهو يهمس : ولدى ! ولما هدأ روعه قال له جودار : الآن سأنتقم لك وآخذ بثارك ، وأظفرك بعدوى وعدوك

ودق الجرس ، وطلب إلى كاتم سره أن يدعو إليه مراقب التعليم العالى . ودخل الموظف القديم سلاتير بوبوف يجر أثقال السنين ويحمل أعباء اللحم والشحم ، وحيا ثم وقف منتظراً .

— يا جناب المراقب . أقدم اليك السيد كوپرنيك سپيروڤتش . ففتح الرجل عينيه ورحب به مطمئناً إلى رجل من العهد القديم

وأذن الوزير للموظف بالجلوس قائلا :

— لك أن تجلس فقد ألغيت النظم القديمة ، ونحب أن نأتى على التقاليد البالية دفعة واحدة . ومن هذه التقاليد وظيفة المراقب على التعليم العالى ،

---

(١) راهب سياسى خطب وكتب وثار ثم نال نفوذاً كبيراً حولى سنة ١٩٠٥ .

(٢) نوع من حساء الخضر واللحم

فهي من اليوم ملغاة وزائلة . وعليك أن تذكر أنك آخر من شغلها ولك أن تتمتع من هذه الساعة بكل ما تمنحك الاحالة على المعاش الكامل من الراحة والرفاهية ، وإن الوزارة لم تستغن عنك إلا على مضض فقد كنت شديد الحرص على قوانينها ولوائحها . فرد الشيخ كوپرنيك قبل أن يفيق المعزول من دهشته : ولا سيما يا سيدى الوزير حرمان نوابغ الشبان من الالتحاق بالجامعة بسبب عجز والديهم عن دفع النصاب

فقال پوبوف: أذكر أن السيد سبيروفيتش نفسه وهو من أعز أصدقائى رجانى وألح فى استثناء واحد من هذه القاعدة ، وكان يظن الفتى نابغاً نخيبت رجاءه لأن الشاب لم يكن على شىء ، فغضب صاحبى حتى كدنا نشتبك فى معركة ... ولا أظنه قد ندم على عدم نجاحه فى مسعاه

فقال سبيروفيتش : لعلك لو قبلت رجائى لبقيت فى منصبك هذا من يدرى ؟ ...

فقال پوبوف : لا أفهم ما ترمى إليه يا سيدى المدير السابق

فقال الوزير : من يدرى ؟ لعل الشاب الذى خيبت أمله كان فى موضعى فيذكر لك هذا الصنيع ولكنك تقول إنه لم يكن على شىء

فقال پوبوف : هذا احتمال بعيد التحقيق

الوزير : وما كان اسمه ؟

سبيروفتش : جودار . جودار براقسكى ياسيدى الوزير من مقاطعة سراتوف

الوزير :

كنت طبعاً ياسيد سبيروفتش تسعى لتعليم شاب واحد فى الجامعة ولعله كان يخيب أو ينضم إلى صفوف المتطرفين

پوبوف : هذا الذى قلته بالنص لصاحبى فهاج وسخط وما زال يذكرها لى

الوزير : هبنى وقريبك الشاب شخصاً واحداً ولا تحقد على صديقك القديم . فانه لم يعرقل غير ما أمر بعرقلته . والآن يا سيدى المراقب على التعليم العالى سابقاً ، أستودعك الله وأصافحك ، وإن كان لديك قريب فقير لا يملك أهله دفع النصاب فمرحباً به لأن هذا القانون كما تعلم قد ألغي قبل الاستغناء عنك . وخرج الرجل

وقال سبيروفتش وهو يعانق قريبه : لقد بعثتنى من مرقدي

فقال الوزير : لى عندك مطلب وهو أن تستدعى والدىّ وتكشف لهما في رفق حقيقة ماجرى ، وأن تتلطف بوالدتى قبل أن ترانى فإننى أخشى عليها شدة الفرح بولدها الذى حرم من التعليم العالى لأنه لم يكن على شىء فى نظر المحترم پوبوف

محمد لطفى جمعة



عبد العزيز بن الحاج أحمد فتى طوى العشرين من سني عمره فيه قوة الشباب ، ومرح الطفولة ، ودلال الغنى ، ونشوة السلطة ، لا تشغله مشاغل الحياة ، ولا تثقله حاجات العيش ، فأبوه شيخ فيه الغنى والجاه ، وفيه الشفقة والحنان ؛ فهو لا يقسو على أولاده فيبعث فى نفوسهم المقت ، ولا يقتر عليهم فينفث فى قلوبهم البغض ... وهو حين رأى ابنه الأكبر — عبد العزيز — يحبو نحو الشباب رويداً رويداً جذبه من المدرسة ليسيطر على عمله ، وليلقى بين يديه قياد أمره ؛ ثم هو ما يبرح يسدى إليه النصيحة فى لين ، ويلقى عليه الدرس فى رفق ؛ وأراد الرجل أن يلقى فى روع ابنه أنه رجل فانطلق يحدثه حديث الزواج فاطمأن الفتى إلى حديث أبيه وفى نفسه اللذة ، وفى قلبه النشوة ؛ ثم انطلق من لدنه وعلى شفتيه ابتسامة ...

وبدا الفتى مرحاً طروباً ، فزينب — الزوجة المنتظرة — ابنة خاله فيها الجمال والحياء ، وفيها العقل والهدوء ؛ ثم هو يتعشق الزواج ليبدو فى أعين الناس رجلاً فيه الرجولة ؛ وأخوها زميله فى المدرسة ، ورفيقه فى الحقل ، وتربه فى الملعب ؛ شبّا معاً صديقين ، وهاهي ذي آصرة إلى آصرة ، فطار إليه يبشره ثم انطلقا معاً إلى الحقول كعصفورين استشعرا جمال الطبيعة فى يوم صاف من أيام الربيع فراحا يدفان بجناحين فيهما النشاط والسعادة

وجاءت الزوجة الصالحة تشعر الفتى السعادة وتسعد هي إلى جانبه ، وأغمض الدهر جفنيه عنهما فرشفا معاً — على حين غفلة منه — كأساً من السعادة صافية ما يكدرها خصام ولا يشوبها جفاء وتصرمت السنون وهو بها حفىّ ...

***

وخرج عبد العزيز عند الأصيل — كما يفعل بين الحين والحين — إلى شاطىء الغدير ، برفقة صديق حبيب إلى نفسه ، توثقت بينهما عروة الصداقة منذ زمان على رغم ما بينهما من تفاوت فعبد العزيز من علية القوم ومحمود من أواسط الناس ؛ غير أن شيئاً فى حياتيهما جمع بينهما فأنس كل منهما برفيقه واطمأن إليه ... خرجا معاً يستروحان نسمات الربيع ويمتعان النظر برؤية فتيات القرية وهن يملأن جرارهن وفيهن الجمال يرف رفيفاً حلواً ما زوقته المدنية ولا شوهته الأصباغ ، يبتسمن فى خفر ويتحدثن فى استحياء . وهيج الشاطىء والفتيات فى نفس عبد العزيز ذكرى غرام مسحت عليه يد الأيام فراح يقص على صاحبه قصته . وانطلقا والحديث ذو شجون ، وراع عبد العزيز أن يرى على خطوات

منهما فتاة ليست هى ممن يعرف من بنات القرية ولا هى من طرازهن ، فهى طفلة حسناء جميلة المعارف ساحرة العينين ، ترتدى ثياب الريف فى تأنق ، وتعمل عمل الريفيات فى حذر ، كأنها لم تدرج في القرية ولم تشب بين سمائها وأرضها ؛ فتعلق بصره بها مايطرف ولا يتحول . ثم اندفع يسأل صديقه : « تُرى من تكون هذه الفتاة الفتّانة ؟ » قال محمود : « أفلا تعرفها ؟ إنها سعدية بنت حسنين الفلاح » وعجب الفتى أن تكون هذه الحسناء ابنة فلاح جلف قذر وهى كأنها زهرة يانعة تفتح عنها كِمّها منذ ساعة تتأنق فى ثياب ذات ألوان جذّابة يسترها قميص أسود رقيق شفاف خشية أن تذهب طعمة للألسن ومضغة فى الأفواه . ومَنْ مِن الفلاحات تستطيع أن تبدو أمام الأعين فى غير ثوبها الأسود الصفيق ؟ وعجب الفتى مرة أخرى أن يبدو وجهها فى صفائه وبهائه لم تلوحه الشمس فتطفئُ بعض جماله ، وأن يرى يديها فى رونقهما ونعومتهما لم يلوثهما البرسيم ، وأن يرف ثوبها فى نظافة ونظام لم يعصف به الغيط . فقال لصديقه : « أفيكون ذلك حقاً ؟ » قال محمود « نعم » قال « فما بالها على ما أرى من حسن وأنق وبهاء ورونق ؟ » قال محمود : « لا جرم إنها قد قضت عمراً من عمرها عند خالتها فى القاهرة لا ترى الريف إلا قليلاً قليلاً ؛ وحين مات زوج خالتها وكان موظفاً بالحكومة ارتدت الخالة وابنة أختها ليعيشا فى ظلال الأهل هنا ... هنا فى القرية » قال عبد العزيز : « ياعجباً ! ياعجباً ! » ثم انطلقا ... وابتسم الفتى أن وجد فى نفسه شيئاً يجذبه إلى الفتاة ظنه بعض هوج الشباب

واختلف الفتى إلى الناحية التى رأى فيها الفتاة يدفعه قلبه ، فهو يسعى إليها فى صحبة صديقه محمود مرة ، ووحده مرات ، يمتع نظره وقلبه معاً برؤية صاحبته ثم ... توثقت العروة وانكشف الحجاب فراح يتحدث إليها أو يجلس على خطوات منها أو يقدم إليها هدية صغيرة ؛ والفتاة تستشف نوازع قلبه فتدفعه عن نفسها فى دلال وتجذبه إليها فى رضا . وتلاقيا — مرة — على حين غفلة من الرقباء فاندفع يقول لها وتقول له ... وحال حالها ... لقد كان هذا الهوى فى عيني الفتاة لهواً وفى عينى الفتى عبثاً ، فاستحال — بعد حين — في قلبيهما حباً جامحاً وعشقاً عاصفاً ؛ والفتى ما يستطيع أن يجلس إلى فتاته فى خلوة ، والفتاة لاتستطيع أن تجد السبيل إلى فتاها . وأنى تخلص إليه وهى فى قيد من أبيها وهو فظ غليظ الكبد ، وقيد من أهلها وهم حواليها يترصدونها ، وقيد من دارها وهى فى قلب القرية ؟ فثار الحب ثورة لايجد لها متنفّساً .

***

وأظلمت الدنيا فى عيني عبد العزيز حين أحس بقلبه يدفعه إلى فتاته فى شدة وعنف وهو يعلم أن لاسبيل إليها وهو زوج ، وتوزّعته الخواطر السود فبدا كاسف البال حزيناً مهموماً ، وانطفأ إشراق وجهه واستلبه العشق من مرحه ومحمود من ورائه يسرى عنه ويخفف من آلامه وينزع عنه أشجانه

ليت الفتى ضم جوانحه على لهيب من الأسى يتأجج فما أرسله حمماً تتلظى به الزوجة المسكينة ! لقد تراءى له أن زوجته هي العقبة الكؤود التى تحول بينه وبين أمله ، فلبس لها لباس الشر ، فما يرمقها إلا شزراً ، وفى عبوس ، وما يحدثها إلا

الحديث الجاف الخشن ، ولا يطمئن إليهـا إلا ريثما ينفلت من لدنها ... واضطربت هي أن ترى زوجها وحبيبها ينطوى على هم فى نفسه لا يحدثها حديثه وهو كان ينشر على عينيها حديث حياته كلها ... لقد أعرض عنها على غير ذنب ، وعافها دون جناية فخزّت فى نفسها آلاما ما تستطيع أن تبوح بشيء منهـا

وهفت نحوه — ذات مرة — تداعبه وترفه عنه فردّها فى غلظة ، وجلست إليه — أخرى — تريد أن تحدثه فدفعها فى جفاء ، وتقدمت أيام والفتاة تضيق بما ترى من زوجها ... ثم نادت شجاعتهـا فلبتها فقالت : أى عبد العزيز ! لقد مرت الأيام ، وأنا أراك فى كمد وحزن وما أجـد الجرأة على أن أسألك سر أمرك ، وفي نفسى أنها سحابة ما تلبث أن تتقشع فما بالك ؟ » قال فى فتور : « لا شيء ! » قالت : « ولـكنى أراك تغيرت فأصبحت رجلا غير الذى أعرف . أفأستطيع أن أسرى عنك بعض ما أهمك ؟ » فصمت وفي نفسه خواطر تتناوحه وهو ما يقوى على أن يحدثها حديث قلبه فيعصف بصُبابة من السعادة فى قلبها تكاد تنضب ؛ ولـكنها استمرت تقول: «وأنا الآن إلى جانبك أشعر كأنى غريبة عنك» قال فى هدوء : « وماذا أحسست منى ؟ » قالت : « أحس منك الجفاء والـكراهية ، ولشد ما يؤلمنى أن أراك تطمئن إلى العزلة ، وتسكن إلى الوحدة ، وعليك أثر الحزن والأسى ؛ ولقد عرفت فيك المرح الطروب ... » قال : « هذا بَـثّى لا أبوح به » قالت « وأنا ... ؟ » قال « إنه لا ... » واعتقل لسانه فمـا استطاع حديثاً واضطربت فى خاطرها هى فكرة

لقد ألقى الفتى فى قلب زوجته بالوساوس تقرضه فهى ماتستقر وما تهدأ . ماذاعسى أن يكون الأمر ؟ إن المرأة لتضطرب للخاطرة تطيف بخيالها فيعصف بها الشك ، وهى لا تأمن قلب زوجها الشاب . أحقاً أن يغلق قلب الشاب دون النساء جميعاً سوى زوجته ، وهو مايزال يضطرم حياة ونشاطاً يهفو نحو الجمال ويندفع فى أثر المتعة ؟ لعله ... لعله ... ووقفت الـكلمات على شفتيها

وجلست زينب إلى خادم عجوز تنفض أمامها أمرها ، وتشكو بثها وحزنها ، وابتسمت العجوز فى أسى ، وهى تقول : « لا ضير ! سآتيك بالخبر اليقين ! » وراحت العجوز تتقصص الفتى عن بعد وفى خفية ، وترسل ابنتها فى أثره فانكشف أمامها الأمر كله ... ثم انقلبت إلى الزوجة تنذرها الهاوية التي توشك أن تتردى فيها

وأعجز الفتاة أن ترد الزوج إليها بعد إذ أعرض ونأى فانطلقت إلى دار أبيها ... انطلقت المسكينة إلى دار أبيها هرباً من نار متسعرة عاشت فيها شهوراً فسحت على مرحها وشبابها فى وقت معاً

وتجاذب الفتى أمران وقد هجرته زوجته : حبه لفتاته ، وحنانه إلى زوجته التي صحبها السنين الطوال فمـا أحس منها أذى ولا استشعر ضيقاً ؛ غير أن شيطان الحب هبّ من مرقده يوسوس ، فأسلس وانقاد ... ثم انطلق إلى فتاته ...

***

وأغلظ الأب على ابنه واشتد ، ثم انطلق إلى زوجة ابنه يصلحها فما أبى الأب وما تعوقت الزوجة ؛ غير أن حياتهما اضطربت فأصبحت جحيما يتسعر ألماً وضيقاً وأسى ، فانطلقت — مرة أخرى — إلى

دار أبيها وفيها بُضعة منه ، لا تخضع لأمر أبيها ولا تلين لرجاء أمها ؛ ثم ... ثم وجدت فى ابنها سلوة وعزاء

***

وطرب الفتى لما كان فانطلق إلى صديقه محمود يحدثه حديث أمانيه فراح هذا يحذره غِبَّ أمره ، ولكن أنى له أن يلقى إليه السمع والفتاة تفتح له ذراعيها كل مساء وتلقاه فى ابتسامة حلوة آسرة ، وتسقيه من رحيق السعادة كأساً مترعة ؛ ومن ورائها أمها تغريه بأمر ؛ والأب يرى ويسمع ؛ غير أن طمعه فى مال عبد العزيز ومال أبيه ينشر على عينيه حجاباً كثيفاً ، وهو رجل غفل يهتز طرباً أن يتراءى له أن ابنته ستصبح فى يوم ما ... فيصبح هو ... والحاج أحمد يبلغ إليه بعض خبر ابنه فما يرى فيه سوى نزوة من نزوات الشباب الطائش ما تبرح أن تنطفىء أو تثوب ، وهو لا يستطيع أن يحدثه الحديث ضناً على هيبته أن ينفرط عقدها من قلب ابنه ... وانطوت الشهور سراعاً ... والفتى يطمئن إلى الفتاة ويسكن إلى حديث أمها

والتاث عقل الفتى واختلط عليه الأمر ، وعلى حين غفلة من أهله أصبح زوج سعدية

ماذا يستطيع الشيخ أن يفعل وقد انفلت الزمام من يده ؟ إن قلبه لا يطاوعه على أن يقذف بابنه فى منأى عنه ، فحرم على زوجته الجديدة أن تلج داره . لاضير ، فالفتى يسكنها داراً أخرى ، وهى تخفف عنه بعض ما يصيبه وتداوى داءه فى حذق ومهارة . واطمأن الفتى إلى زوجته الجديدة وقد أسدل على الأولى ستار النسيان فعاشت فى دار أبيها زوجة بلا زوج ، تتناوحها الآلام ، وتلتهمها الغيرة ، فتجد فى ابنها ، وهو يدرج بإزائها ، سلوة وعزاء

ومرت الأيام وسعدية تحاول جهدها أن تجذب الفتى إليها فتصرفه عن زوجته الأولى فيستغنى عنها فيقطع ما بينه وبينها ، وهى لا تستطيع أن تصارحه ببغيتها خيفة أن تثير فيه كوامن الذكرى ، ثم هى ما تنفك قلقة مضطربة خشية أن تجد النصيحة إلى قلبه الطريق فينبذها وينطوى عنها ؛ وعبد العزيز ما يزال — رغم هذا — ابن أبيه يقوم على أمره فى غير فتور ولا كسل

وهفت نفس الفتى إلى ابنه — والناس يحملون إليه خبره — فراح يطلبه فى إلحاح يداعبه ويلاعبه ، ثم يحبوه ببعض الحلوى واللعب ، وينفحه بالقروش و ... كأنه يكفر عن بعض ما استزله الشيطان عنه ، ووجد الطفل فى أبيه العطف والحنان فانطلق فى أثره

وجلس الطفل إلى أمه — ذات مرة — وقد وجد فقد أبيه ، فهو لم يره منذ أيام ... جلس إليها يستحثها أن تحمله إليه ، وهى تهدئ من إلحاحه وتبعث فيه الأمل ، ثم هى تدفعه عنها فى رفق ... وذهب صبر الطفل فانطلق فى شوق ينتظر أباه لدى المنعطف ؛ وانتظر فطال به الانتظار ... ومر صبى بإزاء الطفل ومن ورائه رفيق له يشتد فى أثره ويرشقه بالحصى ، وطاشت واحدة فسقطت على رأس الطفل وهو آمن فى ناحية من الطريق فصرخ : « يا أبى ... يا أبى ! » أيدرك الطفل معنى الصرخة التى أرسلها مدوية حين آلمته الحياة وصدمته الحصاة ؟ لقد انشق لها قلب الأب وهو يسير الهوينى فى طريقه كأن القدر ساقه ليلبى نداء ابنه فيخفف عنه بعض ما أصابه ، فحمله بين يديه وانطلق به إلى داره ...

واختلف الطفل إلى دار أبيه ثم راح يستوضح

أمه خبر المرأة التى يراها فى دار أبيه فخبّرته أنها هى أخته ... اختلف الطفل إلى هناك وسعدية تلقاه — فى حضرة أبيه — فى بشاشة وسرور وتداعبه فى لطف ؛ ثم هى — فى غيبته — تخلط شدة بلين وتمزج قسوة برفق ؛ والابن لا يشعر بما يتنزى فى قلب زوجة أبيه من كراهيــة له ومقت ، والأب — فى غفلته — يخيل إليه أن المرأة ترى فى ابنه هو ابنها هى أيضاً لأنه بعض حبيبها ، فهو يراها تعطف عليه وتحبوه بالحلوى واللّعب ، وفى نفسها هى أمر ...

وحَزّ فى نفس المرأة أن ترى الطفل يجذب إليه والده فيصرفه عنها حيناً من الدهر ، وخافت أن يبذر فى قلب أبيه غراس أمر ، فراحت تتغلظ عليه قليلاً قليلاً كى تزعجه عن الدار ؛ والطفــل لا يستشعر فيما يجد أذى ولا غضاضة . وعلى حين فجأة دخل عبد العزيز والطفل بين يدى سعدية ينتفض من الذعر ويصرخ : « يا أبى ... يا أبى » وهى تهم أن تلطمه ، وعلى خده أثر لطمة ، فذهل عن نفسه ووقف مكانه مسلوباً لا يستطيع شيئاً : ماذا أرى ؟ أحقاً أنها تقسو على ابنى ؟ وانفلت الطفل من بين يدى المرأة ليلاق بنفسه بين أحضان أبيه ؛ وانفجر الأب — فى غيظ — عن كلمات لذّاعة قاسية يلوم زوجته ويؤنبها ؛ وأحست المرأة كأن الـكلمات تتساقط عليهــا رجوماً رجوماً تسحق كبرياءها وتعصف بكرامتها ، فاندفعت تكيل له الألفاظ الجافية الغليظة . وشق على الزوج أن يرى الزوجة وأبوها أبوها تتسامى إليه وهو هو ؛ فتهدم عليه بألفاظ اللوم والتبكيت ، فقال : « أيتها الحمقاء ... ! » فقاطعته : « صه ، أيها المعهور ... ! » وسقطت الكلمة المرذولة عليه صاعقة تستلبه من عقله وهدوئه وتنفث فيه ثورة التهور والجنون ، فنطق — والغضب يعصف به — بالـكلمة المحرمة ، ثم ارتد وابنه بين يديه يضمه إليه ويقبله بين عينيه ، ويلمس فيه السلوة والعزاء ؛ ومن ورائه المرأة المطلقة وقد جن جنونها حين تهدمت حياتها وتحطمت آمالها ، فراحت تصرخ فى سعر : « أفقلتها ؟ أفقلتها أيها الأحمق ، أيها ا... ! »

كامل محمود حبيب



خطر لنا أن نهجر المقاهى والمجالس العامة التى لا فائدة منها وأن نجتمع فى بيوتنا بالتناوب ، فكنا عند كل مساء نقطع فيها الوقت سامرين إلى منتصف الليل أو إلى ما بعده ونحن نعرض لمختلف الموضوعات من سياسة أو أدب أو تاريخ أو قصص أوغير ذلك

ولقد جرّنا الحديث ذات ليلة إلى الأسماء التى يختارها الآباء لأطفالهم وإلى غرابتها فى بعض الأحيان وإلى الدوافع التى تحملهم على اختيارها دون سواها وقد تكون لاعتبارات مضى زمنها ، أو لآمال مستقبلة يرجون تحققها . فتراهم يطلقون على طفلهم اسم « الغالى » بعد أن كاد العقم يجرعهم فى سبيله كؤوس الأسى ، أو اسم « ست الدار » على أمل أن تكون الطفلة يوما ما زينة أهلها وسيدة بيتها ، أو « أبو الغيط » لعل هذا الطفل يعطف عليه الحظ فيصبح فيما بعد مزارعاً موفقاً

وهكذا أخذنا نستعرض كثيراً من الأسماء من صلاح الدين إلى أبو القمصان إلى فارس إلى غصن فوردة ، وإلى غير ذلك من هذا النوع الذى لا ينتهى . وعند ذلك صاح أحدنا : ألا ترون يا رفاقي أن اسم « سنبلة » اسم جليل المعنى حلو فى السمع ، مع أن أحداً على ما أعلم لم يفكر فى اختياره إلى الآن ؟ ولكن آخر أجابه بأنه سبق التسمية به وإن له عنده لقصة طريفة روتها له احدى قريباته وكانت صديقة لصاحبة هذا الاسم

***

ظلت زمناً غير قصير ووجهها مسندٌ إلى زجاج النافذة وما كان هناك ما يلفت النظر أو تقع عليه العين ، وقد أخذ الرذاذ يتساقط فى الطريق خيوطاً على هيئة حبات صغيرة من الملح ، وهى تنقر ذلك الزجاج نقراً متواصلاً والضباب الكثيف يرتفع شيئاً فشيئاً فى الفضاء فتختفى فيه صور الأشجار والبيوت والأفق فلم يكن هناك في الجانب المقابل للنافذة إلا الطبيعة الجامدة المتضائلة كساها الشتاء ثوباً قاتماً من الحزن

ولكن نظراتها كانت ضالّة زائغة ، فكأنها تنظر أمامها إلى شىء وهى لا تنظر فى الحقيقة إلى شىء ، وإنما كانت تفكّر فيما يتردد على خاطرها من الذكريات وقد ملكت عليها صوابها وحواسّها حتى أنها لم تسمع طرق بابها ؛ فاضطرت ابنة عمى إلى الدخول فألفتْها على تلك الصورة مستغرقة فى خيالاتها وأحلامها ، فما أذهلها أمرها وهى تعلمها أديبة وشاعرة رقيقة تحب الطبيعة وتعشق جمالها ، فلا بد أن منظر هذا الرذاذ التساقط وذلك الضباب المنتشر أخذ

بلها والطبيعة دائماً جميلة فتانة مهما تعاقبت الأيام والفصول

وكانت الفتاة قد انتبهت فالتفتت إلى خلفها ووجهها ينم عن الحزن والتفكير حتى ارتاعت ابنة عمي وسألتها عن أمرها ، فأجابتها في بساطة أن لا شيء ... وهو جواب كان يحمل في طيّاته أثر ما كان يشغل بالها ، وما كان إلا جواب هؤلاء الذين حياتهم أشبه بأفق ذلك الشتاء تتلاشى شيئاً فشيئاً في ضباب الأيام الضائعة وهي تمر على حالة واحدة لا جديد فيها

وكان التعب قد نال منها فارتمت فوق مقعد قريب وهي تردد جوابها السابق : لاشيء ، لاشيء

— وهذا الشحوب وهذا التفكير الباديان على وجهك يا سنبلة ؟

— قد يكون ذلك لرداءة الجو ، ألا ترين ؟

(مشيرة إلى النافذة)

في الربيع يصعد ماء الحياة المبتسمة إلى أجسامنا نحن أغصان الحياة فنشعر كأننا نولد من جديد ونسيم الآمال العذبة يهز أعطافنا ويغرس الابتسامات في شفاهنا فتتفتح عن قُبل الحب الهنيئة كما تتفتح أكمام الورد العطر اليانع

وفي الربيع تمتد الأغصان وتنمو الأوراق وسواء كانت من المتسلقات أو مما يلبث مكانه فانها تملأ الفضاء بهاء وبهجة ، وتكسو الأرض خضرة ونضرة ، وقد رقت السماء وطاب الجو ، فلا نشعر عنده بحاجة إلى ذلك الفرو الذي نلف أعناقنا به عند الشتاء وقد غمرتنا النشوة وجرى في دمنا النشاط وارتسم على ملامحنا البشر ، وصفت بشرتنا فاستغنت عن ذلك الجمال الصوري الذي نطلبه عند الأصباغ والأعطار

أما في الشتاء ...

وعند ذلك قاطعتها صديقتها قائلة :

أما الشتاء فقد أطريته من قبل كما أطريت فصل الربيع الآن . ألم تقولي إنه الصاحب الرقيق الذي نخطب وده وتجد قلوبنا دفأها عنده ، وأنه الذي يهيء لنا سبيل الأحلام الناعمة ونحن من حول الموقد نصطلي ناره ونتناول الأقاصيص ننصت إليها كما تنصت الطفلة الصغيرة إلى ما تقصه عليها جدتها حتى يغلب جفنيها النعاس ؟

— الحقيقة أن لأمزجتنا أقفالاً مفاتيحها الفصول

— بل قولي إنك بحاجة إلى الحب حاجة الغصن الظمآن إلى ارتشاف الماء

— وما ذا عساه أن يفيد مع من عصفت بها الأقدار فما عاد يشغل رأسها خاطر ولا قلبها حب ، ولم يعد خلفها ماض ولا أمامها مجال لأمل ؟ لقد أصبحت يستوى في عينيّ الشتاء والربيع والضحك والبكاء وقد آليت أن أعيش وحدي مع نفسي أتذوق طعم العزلة فيها وإن كانت عزلة قاسية مريرة حتى أن الدقائق لتمر من حياتي دون أن أشعر بها

***

أما أبو سنبلة فكان رجلاً فقيراً لا يملك في قليوب إلا بضعة أفدنة ضئيلة الايراد ، ولكنه كان مزارعاً نشيطاً قوي الارادة يفيض قلبه دائماً بالأمل ، فأخذ يجد ويقتصد حتى أصبح من أعيان ذلك البندر . فلما بسط الله له في الرزق وهيأ له أسباب السعادة

انتقل إلى القاهرة بعد أن اقتنى بها أفخر العمارات وشيد لسكناه هذا القصر الأنيق وهو يطل على حديقة قصر يملكه صديق له من الصغر، وكان لهذا الصديق ولد فى سن سنبلة وسيم القسمات لطيف الحديث جم الحياء تخرج فى الجامعة المصرية بعد أن نال إجازتها فى فن الأدب، فاقترح أبوه على جاره أن يزوجه من ابنته، ولكنها استمهلت أباها فى لطف بحجة أنها لا تزال صغيرة، وأن من يريده لها لا يزال فتى قليل التجربة

وكانت العادة فى مثل هذا الحال أن يتبادل أقارب الطرفين صورتى الخاطب والمخطوبة، حتى إذا وقع كل منهما من قلب الآخر وتهيأت الأسباب لإبرام الزواج ساغ لهما التزاور والاختلاط. وهكذا ظلت صورة سنبلة عند خاطبها وصورته عندها

ولقد كان شديد الولع بها ففعل فيه رفضها ما يفعله السهم النافذ حتى غلبه الحزن وامتد إلى جسمه السقم. وكثيراً ما كان الأطباء يعودونه فلا يجدون لمرضه سبباً ظاهراً، ولذلك كانوا يشيرون عليه بالرياضة والأسفار وارتياد الرياض والمتنزهات حتى أنه كان كثير الجلوس فى جوسق بالحديقة تطل عليه شرفة فى ذلك القصر الذى دفن آماله فيه

وكانت مجلات الأدب فى ذلك العهد كثيرة تنشر على قرائها ما يرسله إليها الكتاب والشعراء من وحى خيالهم وسحر بيانهم، وكل منهم يضع اسمه على ما يكتب إلا واحداً كان يقتصر على كلمتى « شاعر مجهول » وكان شعره يتناول كل لون من ألوان الحياة وبخاصة الحب وما يتصل به من مآسى المحبين. وكان القراء يشعرون بما فى هذا الشعر من السهولة والقوة وحلاوة الأسلوب، حتى أصبح هذا الشاعر المجهول معلوماً عند جميع الناس لا تخلو أحاديثهم في مجتمعاتهم من ذكره، وكلهم يتمنى لو أنه يكشف عن اسمه وعن مكانه فيملأون عيونهم منه بعد أن استهواهم وسحرهم بشعره

وكانت سنبلة قد انتبهت إلى ما تنقله المجلات عن هذا الشاعر، فكانت إذا حضر بها ساعى البريد تسرع إلى فهارسها فإذا وقع بصرها على الشاعر المجهول قلبت صحفها لتعثر على ما ينشره على الناس من جديد، حتى إذا ما انتهت من قراءته استرخت على مقعدها وقد دبت فى مفاصلها النشوة

ولقد أخذ هذا الشعر يغتصب كل يوم شيئاً من فراغ قلبها حتى استولى عليه وهى تقول : لا يقول مثل هذا الشعر إلا قلب عذبه الحب، فمن هى السعيدة التى ظفرت منه بهذا الثناء المنظوم ؟ بل من هى تلك القاسية التى لا تجزي إحسانه إليها بإحسان منها، وهى تبتعد حين يتقرّب، وتصد عند ما يترضى ؟ ثم تقول : ليتنى كنت أنا بيت القصيد من شعره فأباهى وأتيه على أجمل الفتيات، ثم تبكى

وكثيراً ما دفعها الشوق إلى معرفته فسألت أصحاب تلك المجلات عنه ولكنهم أجابوها بأنهم هم أيضاً يجهلون من هو

***

— إنك يا سنبلة فى أوج شبابك وحسنك كالثمرة اليانعة الناضجة لا تنتظر إلا اليد السعيدة التى تمتد لتقطفها فلم لا تفكرين فى الزواج ؟

— فكرت فيه ولكننى لم أتزوج من شاب

متقلب تغريني ساعات نشوته الأولى ثم ينفض عني

— ما أخطأت ؛ فإن أخطر مايكون مثل هذا الزواج الذي لا يقوم إلا على مجرد المتعة ، فإذا ما خمدت نار تلك النشوة الأولى راح يبحث له عن متعة أخرى ترفع ما تراكم من رماد نزقه فوق تلك النار . وليس على مثل هذا الأساس المضطرب يستقيم الزواج وتصان الأسر

— ولا أرى كذلك أن أتزوج من أي شاب وإن كان جميلاً

— إذن فأنت تريدين أن تتزوجي من غني ؟

— ولا هـذا أيضاً فإن أبي وافر الغنى على ما تعلمين . ولـكني ...

وكانت صديقتها تعلم مبلغ ولعها بما تقرأه في المجلات من مقطوعات الشاعر المجهول فصاحت بها :

— أتراك تحدثين نفسك بالزواج من هـذا الشاعر . إذن فأنت تجرين وراء الخيال يا سنبلة

— ولِمَ ؟ أليس بموجود ؟

— بلى ولـكنك لا تعرفين من هو ولا أين يقيم

— ومن يدري ؟ ربما أصل إلى الاهتداء إليه يوماً ما .

— ربما . ولـكن ماذا يكون من أمرك لو أنك وجدته عند ذلك دميماً أو طاعناً في السن ؟

— إعلمي ياصديقتي أن مثل هذا الشاعر كمثل النور الساطع ، فهل تستطيع عيناك أن تحدق فيه حتى تهتدي إلي شيء من عيوبه ؟ ومع ذلك فإن لهؤلاء الشعراء أرواحاً صافية لطيفـة تحول بين عيوننا وبين ما نحصيه عليهم من العيوب . أما أنه لا يكون كفئي في السن فهذا ما لا أحفل به ، لأن قلب الرجل دائماً في سن العشرين ، وهذا القلب هو الذي سأحتله ؛ وحسبي أنه فتى صهرته نار الحب فأوحت إلى خياله بهذا الشعر السماوي الذي غمر نفسي واحتل قلبي وتغلغل في خواطري وأحلامي ودمي .

وكانت هذه الصديقة موفدة في الحقيقـة من قِبل والد الخاطب وقد فكر في أن صلتها بسنبلة وقد بدأت من الصغر في المدرسـة كفيلة بإلانتهـا واسترضائها ولذلك عادت تسألها :

— وما هو يا سنبلة عيب هـذا الشاب الذي طلب أبوه يدك له ؟ إني لأراه فتى في شرخ الشباب بهي الطلعة مليح القامة وهو فوق ذلك متعلم وأبوه غني ، وهو صديق لأبيك

ولـكن سنبلة لزمت الصمت ، وأخذت تنظر إليها من طرف خفي كأنها تتكشف ما دفع بها إلى هذا السعي . فلما ألحت عليها صاحت فيها : أبداً ؛ أبداً لن يكون إلا ما أردت . وإذا كان أبي أو أبوه هما اللذين وسطاك بينه وبيني فحسبك أنك وقفت على أمري ، ولك من الآن أن تصرحي لهما به . ومع هذا ...

وعند ذلك قصدت في عنف إلى درج المكتب وأخرجت منه صورة ذلك الفتى ثم اندفعت إلى باب الشرفة المطلة على الحديقة ، وكان جالساً تحتها فمزقتها ثم ألقت بأجزائها إليه قبل أن تدركها صديقتها ...

***

ولقد كان هذا الفتى يعيش إلى تلك اللحظة على الأمل . فلما قذفت سنبلة في وجهه برسمه على تلك

الخشنة الزرية أدرك أن هذا الخيط الباقي قد انقطع وأن الاستمرار فى التعلق بها بعد ذلك إنما هو ضرب من الجنون . ولكن أنى لقلبه أن يقنع بذلك وقد أصبح ملكاً لها ؟ وكان جلوسه فى الحديقة فى ذلك الفصل القارس مما ساعد على تغلغل الداء فيه ، فاختفى عن الحديقة من ذلك اليوم ولزم فراشه ، وقد أخذ الأطباء يعودونه إلا طبيباً واحداً هو الذي كان أقدرهم على شفائه : « وداونى بالتى كانت هى الداء »

أما سنبلة فما كانت من يوم ذلك الحادث تأبه له أو تفكر فيه لأن كل خواطرها كانت منصرفة إلى شاعرها ، ولكنه انقطع عن نشر مقطوعاته من ذلك اليوم مما حيرها وأطار لبها ، وهى تظن الظنون وتحسبه مريضاً أو على سفر ، أو أنه ظفر بتلك التى كانت رسول إلهامه ووحيه ...

وكانت صديقتها ، بالرغم مما صدمتها به على ما سبق ، تزورها من وقت لآخر ، ولكنها تحاشت أن تشتبك معها فى حديث يتعلق بابن الجار أو بذلك الشاعر ، إلا أنها كانت حيرى لما كانت تراه على وجه سنبلة من دلائل الحزن والذبول ، وهى تقول فى نفسها : لعلها تأثرت بمرض ذلك الشاب ، وأنها الآن نادمة على ما فرط نحوه منها

وبينما هما كذلك دق الجرس ، فأسرعت سنبلة إلى تلقف أعداد المجلات الجديدة من خادمتها ووضعتها على المكتب ، ثم أخذت تتصفحها عدداً عدداً ولكنها لم تجد فيها شيئاً جديداً ، فتغير لونها وكاد ينهمر الدمع الذي كتمته في مآقيها .

على أنها لمحت فوق المكتب شيئاً ملفوفاً كان مع المجلات ، فلما رفعت الغلاف عنه وجدته صورتها التى كانت عند ذلك الشاب يردها إليها ، وقد قطع كل أمل منها ، وكاد الأسى يقضى عليه بسببها .

ولكنها رأت بظهرها هذين البيتين :

يا طلعة الشمس هل تدرين كيف قضى
على هناء حياتى ردّكِ القاسى

حسبى على أىّ حالٍ ما قضيتِ به
فالشمسُ تشرق من بعدٍ على الناس

الشاعر المجهول

وما كادت تقع عيناها على توقيعه حتى انهمر سيل الدمع من عينيها وارتمت عند صدر صديقتها وهى تردد فى صوت مختنق خافت : إنه هو . إنه هو . ثم اندفعت إلى داره وكان على آخر رمق

***

ولم تمض أيام على ذلك حتى فكر الجاران فى إبرام الزواج وأخذا يتكلمان فى معداته وفى المهر الذى يقدّم له . ولكنها اقتربت من حبيبها وقالت له فى دلال : إنّ لى عندك — أيها الشاعر الذى عذّبنى وكان بعيداً عنى وهو قريب منى — مهراً من نوع آخر . ففهم غرضها وأخرج من جيبه ورقة مطوية ناولها إياها ضمنها هذا الشعر :

أطلّت فقالوا إنها البدر مُسفر
وهلت فقالوا ها هو الغصن يخطر

ولا البدر يحكى وجهها فى صفائه
ولا الغصن يحكى قدّها فهي تسخر

تبارك باريها فكم هو مبدع
يصوغ من الحسن الظبا ويصورّ

ومن عجب إعراضها وهى خلسةً
تحدّق من طرفٍ خفى وتنظر

فشكّكنى فيها وفيه سيوفُه
وإنّ نفار الظبي أدنى وأيسر

فنبّهت عينى أن تغضّ لتتّقِى
مضاربه واللحظ كالسّيف أبتر

وحذّرت قلبي أن يميل مع الهوى
وما بعده إلا الأسى والتحسر

فما سمِا منّى فقلبي معذّب
بهجرانها والعين بالدمع تهمُر

وبينهما نفسٌ تناجى شقيّةٌ
لقد صحّ ما قد كنتُ أخشى وأحذر

وكم قائلٍ ما بعد شكواك والبكا
وما بعدَ جفنٍ فى دجى الليل يسهر

أما آن أن تنسى فتسلو كما سلَت
وتصبر لكن كيف أسلو وأصبر

ولم تستبن أمرى إذا كنتُ عنده
بريئاً فتُغضى أو مُسيئاً فتغفر

ألم يكفها سهدى وسقمي وأدمعى
وفى بعض هذا إن تشأ ما يكفّر

وفى ليلةٍ طالت علىّ وعُوّدى
تملّكهم ممّا أعانى التأثّر

تذكّرتها والجوّ صاف وريحه
كأنفاسها والليل نشوان مُقمر

إذا بى أراها بيننا فكأنما
تمثّل لى فى الحلم ما كنت أذكر

وكانت وقد ألقت على القوم نظرة
ثناها الحيا تمشى الهوينا وتعثرُ

وجسّت يدىء قد راعها ما أصابنى
فصاحت بماذا أنت بالله تشعُر

ومن عجب دائى بها وهى أصله
وتسألنى عن علّتى وهى أخبر

فلما خلت من عوّدى الدارُ أجهشت
ومدمعها باللؤلؤ الرطب يحدِر

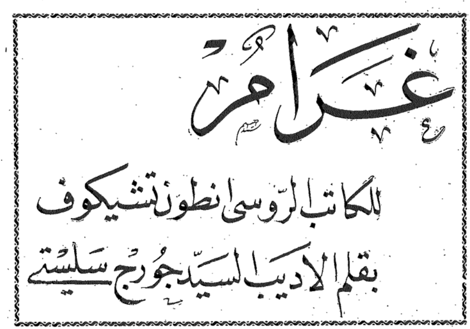
تقول رعاك الله ما أنت واجدٌ
من النّار فى جنبىّ منه وأكثر

ولكن تجاهلت الذى كان بينهمْ
لكى يجهلوا ما بيننا فهو أستر

ومالت على صدرى وهمت إلى فمى
وكم قبلة فيها الدواء المبشر

محمود خيرت


فخر مصر في المستقبل
رعاية العلم وحمايته
اليوم - كما كانت
تفعل في الماضي
قدمت مصر اعظم خدمة للنوع الانساني حينما انفردت
تقريباً من بين الامم بالدفاع عن العلم ازاء العوامل
التي كانت تريد محقه وابادته من الوجود.
والعالم الحديث مدين لمصر بما ابدته من شجاعة في
مؤازرته وحمايته في الماضي وليس أدل على
تقدير مصر لتقديم العلم من ترحيبها باسبرو
فان العلم وجد في قرص "اسبرو" الصغير الذي
يعد اعجوبة طبية في العالم فهو اقوى شكل من
اشكال القوة الشافية الملطفة للالام عرف للنوع الانساني وقد مكن النوع
الانساني من اقتصاد الملايين من الجنيهات كانت تضيع على ادوية وعقاقير خطرة
نهائية فهذا الدواء العظيم يوقف الالم ويزيل الشكايات من ارتفاع حرارة الجسم
ويجلب النوم اللذيذ للمصابين بالارق ويعيد القوة الى المصابين بانهيار الاعصاب
والضعف الناشئ من الحر. وقد قضى "اسبرو" على الآراء الطبية الموروثة فان دواء
واحداً يحل محل خمسة ادواء وعمله سريع وعاجل فهو لا يخذلك وعليك ان تقبل
عليه وتجربه فان الوفا من الناس يستعملونه الآن للتخلص من متاعب فصل الصيف
وحرارته وما تأتي به من الالام
"اسبرو" يجلب النوم للمصابين
بالأرق ويجلب الراحة
للمصابين بتعب الاعصاب
ويحمي الجسم من الحميات
الوافدة ويخفف الآلام
من ضحايا الملاريا وفوق
ذلك فانه يقضي على برد
الصيف والانفلونزا
في ليلة واحدة ويمنع
الالام الحيضية عند
النساء.
"اسبرو" هو اعظم هدية قدمها
العلم للنوع الانساني
ASPRO
REG. TRADE MARK
استعمل "اسبرو" في حالات
الانفلونزا
اوجاع الرأس
الأرق
التأثير العصبي
عرق النسا
النقرس
البرد
الروماتزم
الاضطرابات
التهاب الاعصاب
حمى الصيف
الصدمة العصبية
وجع الاسنان
روماتزم الظهر
تأثير المسكرات
الالام الحيضية
الملاريا
الربو
الوكلاء
ج. ب. شريدان وشركاه
القاهرة ٢٣ شارع المدابغ
الاسكندرية ٩ شارع طوسون
اسبرو مصنوع في انجلترا
يباع في جميع الاجزاخانات ومخازن الادوية
٢ قرصان
٥ مليمات
١٠ اقراص
٢½ قرش
٢٧ قرصا
٥ قروش
"اسبرو" في متناول ايدي الجميع



حفلت المائدة بالطلي الممتع من الأحاديث ، كما حفلت باللذّ الشهي من أصناف الطعام ، وأندر المدعوون إندارا لذيذاً عذباً ، فلقد شاقهم جميعاً أن يفتنوا فى أحاديثهم ففعلوا ما شاء لهم ظرفهم وأدبهم كأنما كان واحدهم يسعى ليبذّ ندّه فى طلاوة القول وحلاوة النكتة ، فأتوا بالبديع المستطرف من المُلَح ، وجاءوا بالسائغ المستحب من النوادر ؛ فرنّت الضحكات بريشة ناعمة تنبىء سامعها بما شمل مرسليها من سرور ، واستحوذ عليهم من مَرَح ، وظلوا كذلك ردحاً من الزمن غير يسير يتطارحون روائع الطُرَف حتى أطــــلّ عليهم « نيجانور » لشأن من شئون الخدمة ، فاذا « بأليوكين » يغير الحديث لدى مرآه ويبدل مجرى القول ، ويتخذ من هذا النادل موضوعاً لما يضطرم فى نفسه من ميول وأهواء ، وإذا به يقص على مدعويه أن لنيجانور هذا قصة غرام رائعة ، وإن الفاتنة « بلاجيا » كانت ولم تزل صَبّــةً به مغرمة ، وكان ولم يزل هائماً بها كلِفاً ؛ وأبدى تعجبه كيف تتعشق فتاة على حسن مونق وقدٍ رشيق كبلاجيا شاباً ليس من جمال الخَلق وحسن الخُلُق فى كثير ولا قليل كنيجانور ، لأنه أبداً باسر الوجــــه كالح الأسارير ، ذو عينين صغيرتين وقَسَمات لا وسامة فيها ولا انسجام ، ولأنه سكير قلما يصحو من نشوة الصهباء أو ينجو من سورة الخمر ، ولأنه فظ الطبع غليظه كثيراً ما ينهال على حبيبته بالضرب كلما أغضبته فى قول أو أحنقته فى عمل ، ويكيل لها الشتائم لكل بادرة منها لا تروقه ويقذعها بالسباب ما شاء له خلقه السيىء وطبعه الوحشىّ فتنفر منه وتبكى ، ولكن ما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تعود إليه ناسية ما لقيته من عَنْته وفظاظته ، وتغمره بحبها وحنانها كأنه لم يجترح فى حقها إثماً ولم يلصق بها إهانة ، وترقه قبلاتها الحرى كأنه لم يسيء إليها قط ولم يؤذها ، وكأنما لم يبدر منه إلا كل ما يحببه اليها ويغريها به

وتساءل « اليوكين » عن كنه هذا الحب غير المألوف ، وعن مدى اللذة النفسانية فى هذا الهوى الغريب ، وقال إنه لا يلومها لأنها لا تحب رجلا أقرب إلى مزاجها وطباعها وأدنى إلى تفهم نفسيتها وعقليتها من ذلك السكير الغرّ ، فان لها كما للناس ذوقاً فى الحب ليس من المنطق ولا الحكمة فى شيء أن تؤاخذ عليه وتلام من أجله ، وللناس فيما يعشقون مذاهب ، كما يقولون ، ولكنه يحاول أن يدرك مقدار السعادة الشخصية فى مثل هذا الهوى الغريب الفذ ،

ويود لو يستطيع أن يوفق إلى حلّ ما فى الحب من طلاسم ، وإلى سَبْر غوره وكشف النقاب عن معمياته لا سيما والحب لم تذكر عنه حتى الآن إلا حقيقة مفردة لا جدل فيها ولا خلاف عليها وهي أنه « عظيم » وكل ماعدا ذلك مما كتب عنه ، أو قيل فيه قابل للجدل والأخذ والرد وللمناقشات الطويلة المرهقة ، وليس إلا مقدمات للغزٍ لا يزال مغلقاً ولسر لم يبرح غامضاً ، وإن البيان الذى يظهر مطابقاً لحالة لا يتفق وعشراً سواها ، وإنه من الخير أن تبحث كل حالة من حالات الحب على حدة ، مستقلة تمام الاستقلال عن أخواتها ، فالتخصيص وحده — كما يقول الأطباء — يؤخذ به ويؤبه له ، لا التعميم

— « بالصواب نطقت » قال الأستاذ بوركين :

— أجل ! هذا هو الحق الصراح يا صديق ، فنحن الروسيين جد مولعين بالألغاز والأحاجى ، أو بالأحرى يستهوينا الغامض المبهم فنحوم حوله فقط ؛ أما أن نكتشف جوهره ونبلغ لبابه فأمر لسنا من طلابه وليس لنا به غاية ولا مأرب ، وكتابنا رعاهم الله وحرسهم يجملون الحب ما شاء لهم ذوقهم الشعرى الأنيق ويحيطونه بهالة من الروعة والجلال ويوشونه كالربيع بالورد المفوّف والأرج المعطار والبلبل الغريد

إننا لا نفهم الحب كما يجب أن نفهمه ، أو لا نحاول أن ندركه كما يتحتم علينا أن نفعل ، ورجالنا يحسبون أن الحب هو الزواج ، فاذا أحببت غادة فعليك أن تطلب يدها لتبنى بها ، ونساؤنا يقدرن الحب بمقدار الهدايا ، فعلى قدر هداياك ، يكون حبك وهواك

وإنى لا أزال أذكر يوم كنت طالباً فى موسكو . إننى أحببت أو خُيّل إلى أنى أحببت سيدة فاتنة لطيفة دقيقة الحس رقيقة الشعور كانت كلما احتبستها بين ذراعى تسألنى عن الهدية التى سأقدمها إليها فى آخر الأسبوع

إننا معشر الروسيين والحق يقال لا نفتأ نتساءل كلما أحببنا : أرفيع حبنا أم وضيع ؛ روحاني أم شهوانى ؟ وإلى أين يؤدى بنا هذا الحب يا ترى ؟ وهل يليق بنا أن نمعن فيه أم نقف عند حدنا خوف التورط فيما لا تحمد عقباه ؟

وأنا أقول من غير مواربة ولا مداجاة : إننى لن أسأل نفسى هذه الأسئلة الباردة بعد اليوم . قد أكون مخطئاً فى نظريتى هذه إلا أننى لا ولن أستبدل بها سواها ؛ وقد يكون الخير كل الخير فى التروّى قبل أن يطوّح المرء بنفسه فى حب ، إلا أننى أعلم العلم اليقين أن هذا التروى يُفقده لذةَ الروح ومتعة النفس ويرمض القلب ويشقيه

إنى أعرف هذه الأمور حق المعرفة وأدركها حق الإدراك لأنى بلوتُها بنفسي وخبرتها

ولمعت عيناه وتألق محياه كأنما غمرته سورة علوية من البشر والسرور ، وظهر للرائين بأجمل وضع وأفتن صورة ، وشاعت على ثغره الجميل بسمة وادعة جميلة

وتراءى كأنه يريد أن يتكلم عن ذكرى ، عن أمرٍ مضى وله فى نفسه أثر وبقيا ، كأنه يودّ أن يقص قصة من أقاصيص الشباب الناشئ ، قصة هوى مكبوت . والأعزبون الذين يسكنون وحدهم عندهم دائماً فى قرارة نفوسهم أشياء هم أبداً على استعداد للتحدث عنها من تلقاء ذواتهم ، والمقاهى فى المدن ملتقى الأعزبين يؤمونها لتزجية الوقت بأحاديثهم ، وأنى تبصر أعزبين معاً فقل إنهما يتساران عن هوى ويتحادثان عن حبّ

كانت السماء تتراءى من خلال زجاج النوافذ مربدة الأديم ، والأشجار مخضّلة الأفنان من رذاذ المطر الذى وكف منذ حين ، والسحاب الأدكن تحدوه الريح كما يحدو الراعى سائمته ، وكان الطقسُ بارداً قراً فى حين كانت قاعة المائدة دافئة والراحة المضمونة فيها تغرى بالبقاء ، إما للتحدث أو للاصغاء

وتنحنح اليوكين ، ورطّب شفتيه بطرف لسانه وانطلق فى حديثه يقول :

« لا أزال أيها الأعزاء منذ أمدٍ بعيد أسكن فى هـذه الأرباض وأدير بنفسى أعمال استثمار أراضينا فيها ، فقد عزّ علىّ كثيراً لدن تخرّجت من الجامعة أن أجد جلّ أراضينا مرهونة وأن أرى أبى غارقاً فى ديونه لكثرة ما تكبّد من مصاريف فى سبيل تثقيفى فى خير جامعات موسكو ، فعوّلتُ على ألا أهجر الأرض حتى أفى ما عليه من ديون

ولما كنت أعلم أن ريع الأرض ضئيل وأنى لن أوفق إلى مبتغاى مالم أبذل كل مافى وسعى من قدرة ، رحتُ أستغلّ الأرقاء والعبيد فى هذا السبيل الشاقّ ، والزراعة كما لايخفى عنكم تستلزم بذل الجهود وتستدعى إفراغ القوى ، فلم أدع فى القرية ولا فى القرى المجاورة رجلاً سابغاً [1] إلا استدعيته للعمل عندى ، أو امرأة فارغة إلا أتيت بها فحرثوا وزرعوا حتى البور والسباخ . وكان العمل مستمراً ما تنقطع فورته ولا تهدأ حدّته من مطلع الشمس حتى مغربها وحاولت فى مستهلّ الأمر ألا أهجر الكتب وأن أثابر على مطالعة أمهات الصحف والمجلات ظناً منى أنى أستطيع أن أجمع بين عناء العمل وبين لذة الثقافة فإذا برأيى يخيب ، وإذا بى بعد بضعة أسابيع أتخلّى عن سكنى فى الطابق العلوى الأنيق الترتيب والرياش وأهبط إلى الطابق الأسفل أنام وأقوم فيه لا عن تبذّل ولكن عن ونى . ولم ألبث أن تعودت أن أرقد كالفلاحين حيث يتفق لى أن أفعل ، فى العَجَلة أو على الهشيم أو فى كوخ حارس الغابات لشدّة ما كان ينتابنى من تعبٍ يرهق القوى ويضنى الجسم

وبقيتُ كذلك أنصبّ على العمل انصباباً من غير تراخ ولا توان حتى قيّض الله لى ما يرفّه عنى بعض الترفيه إذ عيّنتُ قاضياً شرفياً لمحكمة الولاية الصلحية ، وأصبح لى ما ينتزعنى من إدارة أعمالى الزراعية ولو إلى حين ، وبات من المحتم علىّ أن أذهب كلما دعت الحاجة إلى المحكمة فى المدينة فأساهم فى أعمال القضاة . وهكذا عدتُ إلى شئٍ من سابق العهد السرىّ وحياة الترف والنعماء ، وأصبح لى كثير من المعارف والأصحاب من سراة البلد ووجهائه يستقبلوننى لدى مجيئى إلى المدينة بكل بشاشة وترحاب

إلا أنى أحبّ العلاقات الودية إلى نفسى وألطفها عندى كانت تلك التى توثقت عراها بينى وبين نائب رئيس المحكمة السيد « لوجا نوفتش » ؛ وما إخالُ أن بينكم من يجهله ، فهو رجل رصين جذاب ، كريم النفس ، طيب القلب إلى حدٍّ بعيد

وإنى لأذكر حين دعانى للمرة الأولى لتناول الطعام على مائدته بعد جلسة طويلة مسّتنا بعدها الجهد والوَصَب فقبلت الدعوة شاكراً وذهبتُ

(١) رجل سابغ : فارغ لاعمل عنده والسباخ من الأرض مالم يحرث

أنا وهو إلى منزله وتعرفت هناك بالسيدة قرينتـه « أنـا اليكسيفنا » ، وهى غادة فى مستهلّ العشرين من عمرها ما إن رأيتها حتى شعرتُ بجاذب خفيّ يدنيني منها ويحبّبها إليّ

أنا لا أستطيع اليوم أيها الأعزاء ، وقد مضى دهرٌ من الزمن طويل على هذه الحادثة ، أن أقول لـكم على التدقيق ماذا وجدت فى السيدة « أنّـا » حتى أعجبت بها الإعجاب كله وحتى نالت من نفسى من النظرة الأولى المكانة العظمى وتبوّأت من قلبي المنزل الأسمى ، ولـكن كل شيء كان لى واضحاً جلياً حين كنا على المائدة معاً وحين كنت أتناول الغداء وأرمقها بين الفينة والفينة من طرف خفيّ بنظرات ما أدرى والله كيف أنعتها ، وكل ما أستطيـع الآن أن أحـدّده لـكم منها هو أنى رأيتها فتيّـة تجمع إلى الحسن السـاحر سرعة الخاطر ، وإلى خفـة الروح وحمز الفؤاد حياء المحصنـات وخَـفَـر العذارى . وشعرت فوراً أنها شخص أنيس قريب إلى قلبي ، كأنى أعرفها منـذ نعومة أظفارها أيام كانت طفلة مرحة تملأ الفضـاء ضحكاتها وأناشيدها ، أو كأن رسمها الـكريم مطبوع فى ذهني منذ زمن بعيد ، أو كأن هذا المحيا الطلق وهاتين العينين الساجيتين وهذا الجسم البديع مما ألِفه نظرى وأحبه قلبي قبل ذلك اليوم

وقد كنت وأنا جالس إلى المائدة ما أزال ثائر النفس هائج الأعصاب لنقمتى على الحـكم الجائر الذى أصدره رئيس المحكمة على أربعة من اليهود اتهموا بتأليف عصابة تقطع الطرق وتعيث فساداً ، ورحت من تأثرى وانفعالى أسرد تفاصيل المحاكمة على السيدة « أنا » وأبين لها الخطأ الفادح الذى وقع فيه القاضى بإدانة أولئك المتهمين إدانة لا تتفق والعدالة فى شيء ، فكانت تصغى إلى حديثى بإعجاب وتهز رأسها الصغير الجميل وتسأل زوجها متعجبة دهشة :

— وكيف جرى ذلك إذن يا « ديمترى » ؟!

وديمترى لوجانوفتش كان رجلاً زمّيتاً رزيناً يعتقد كل الاعتقاد أن البت فى القضايا لا يكون على المائدة ولا في حديث خاص ، وأن ذلاقة اللسان يجب ألا تبريء مذنباً وتجرم بريئاً ، وأن الحـكم يجب أن يكون صارماً مهما كان نوع الذنب ليكون المحكوم عليه عبرة لسواه ، وليرهب الناس القانون ويحترموا الشرائع

وقال لى رداً على سؤال قرينته بلهجـة ملؤها الرزانة والجد : « لسنا يا صديقى من أصحاب الفتن ولا من مثيرى القلاقل فحسبك أننا لن نعتقل ولن يحكم علينا »

ولما رآنى على أهبة الإجابة رفع يمناه بكل هدوء وقال : « أرجو منك يا عزيزى أن تترك هـذه الأحاديث لفرصة أخرى أكثر ملاءمة من هذه ؛ وإنى سأتفق وإياك على رأى واحـد فيما بعد . أما الآن فـكل واشرب ، فالأكل والشراب على قدر المحبة كما يقول العامة وهم فى قولهم جد مصيبين ؛ أليس كذلك يا « أنا » ؟

فأحنت « أنا » رأسها وقالت : « بلى يا عزيزى »

وإنى الآن أستطيع أن أقول لـكم أيهـا الأعزاء إن هـذين الزوجين كانا سعيدين هانئين على أتم ألفة وأشمل وفاق ؛ وإنهما كانا متفاهمين كل التفاهم لا يتحاجان فى أمر ولا يعترض أحـدهما على رأى الآخر ، وإن فعل فبكثير من اللطف والحنان والأدب وكانت الاشارة أو الغمزة من أحدهما كافية لإفهام الآخر مراده .

وبعد الغداء عزفا معاً على البيان فكان توقيعهما عليه لطيفاً مشجياً ، وأنشدت هي أغنية رقيقة عذبة حركت بها مكامن الاحساسات من نفسى ، ولم يلبث أن أغطش الليل فقمت مودعاً شاكراً لهما لطفهما وحسن ضيافتهما ، وعدت إلى منزلى . وكان ذلك فى أول فصل الربيع المراح

ومضت الأشهر تباعاً ، ولم تدع لى مشاغلى الكثيرة فرصة واحدة لأهبط المدينة ، ولكن ذكرى المرأة الفتية الشقراء الوسيمة الوجه الفاتنة القسمات لم تبرح خاطرى قط ، وطيفها الحبيب لم يحل عن ناظرى

وفى أخريات الخريف مثلت فى المدينة إحدى المسرحيات الرائعة لمشروع خيرى ، وكان أن دخلت مقصورة الحاكم ، ولشد ما خفق قلبى لدن رأيت « أنا اليكسيفنا » ، وشعرت من جديد بضغط قوى على صدرى لا سبيل إلى دفعه كان مأتاه إحساسى بأثر الجمال البليغ فى نفسى الساهمة المرورة ، فحييتُ ، وجلست قرب « أنا » مأخوذاً بسحر عينيها الحالمتين ، ولقلبي وجيب دونه وجيب الفؤاد المروّع

أجل ! لقد جلست قربها أنظر إلى المسرح والممثلين فلا أرى هذا ولا هؤلاء إلا أطيافاً وأشباحاً ، فقد كان فكرى شريداً بمنأى عن التمثيل وهواته محصوراً كله فى هذه التى رحت أخالسها النظر من حين إلى حين ، والتى كنت كلما احتك كتفى بكتفها عرضاً أشعر بغمرة اللذات وفيض الهناءات ، كأن مفاتن العالم ومباهج الحياة استحالت جميعاً امرأة فاتنة شقراء هى هذه التى أسعد بالجلوس حيالها أعلى من روعة حسنها الضحيان

وقالت لى لما انتهت الرواية وقمنا معاً نتخطر فى على مهل :

— أكنت مريضاً ؟

فأجبتها أن وعكة ألمت بى فبرحت بجسمى وأنى برئت منها أو كدت فقالت :

— أراك سقيما شاحب اللون ذابلا فى حين أنك كنت فى الربيع مرحاً طروباً ، وكنت حين شرفتنا بتناول الغداء على مائدتنا ممتلئاً فتنة وسحراً ، وكنت بأحاديثك ملهما تفتن فى القول وتتصرف به على هواك ببيان عذب كان له الوقع الجميل فى نفسى . وأعترف لك الآن أنك استملتنى اليك بروعة أحاديثك وشعرت بميل نحوك وعطف ودي ما حنت ضلوعى على مثله لمخلوق سواك ، ولا أدرى لماذا تذكرتك كثيراً فى الصيف المنصرم ؟ ولا لماذا كان طيفك يمثل أغلب الأحايين أمام عينىّ ؟ واليوم وأنا قادمة إلى المسرح كانت نفسى تحدثنى بلقائك ؛ وهأنذى الآن ألقاك ، ولكن على غير ما كنت أود ، كمداً محزوناً . فقلت : « أكنت تنتظرين لقائى إذن ... يا أنّا ... ؟ »

وكانت تلك هى المرة الأولى التى لفظتُ فيها اسمها الكريم من غير لقب ، فرفعت إلىّ عينيها الساجيتين بجلال ، ولما التقى النظران أطرقتْ حياء ، وضرّج الخفر خديّها الناضرين الناعمين بحمرة الورد

ولم نلبث أن افترقنا على أمل اللقاء القريب . أجل . لقد افترقنا ، ولكن فيمن كنتُ أفتكر وأنا أسير إلى المنزل لأقضى ليلتى فيه ؟ وخيال مَن كان ملازمى آناء ليلتى تلك ؟ وطيف أية حورية كان ذلك الذى راود أجفانى حتى الصباح ؟ وعند مَن أودعت روحى وقلبى ومشاعرى جميعاً ؟ ! الجواب واحد

على هذه الأسئلة كلها أيها الأعزاء ، هو : « أنّا »
نعم أيها الرفاق، إنها « أنّا » لا سواها ، فأنّا هي التي أذكت في روحي جذوة مضطرمة لا ينطفئ سعيرها ؛ وهي التي أرهفت بحسنها الرفيع وصوتها الساحر إحساسي وشعوري ، وهي وحدها التي حركت في قلبي الخلي عواطف الحب

وما انتصف النهار حتى كانت قدماي تقودانني إلى منزلها كأن قوة خفية تدفع بي إليه ، وما أعلنت الخادم نبأ قدومي حتى هرع لوجانوفتش إليّ يستقبلني بما فطر عليه من لطف وإيناس ، وهشّ بوجهي وبش ، وقال لي إن زوجته حدّثته عن مرآي ليلة البارحة ، وإنه كان يعلل نفسه بقدومي إليه ، وإنه كان سيعتب علي كثيراً لو حرمته زيارتي ، فتحرك لساني بشكره ، وأما ذهني فقد ماج واضطرب ، وراحت الأفكار تتقاذفني بتياراتها وتصطرع في رأسي قوية عنيفة ؛ أأكون سافل الأخلاق منحطها فأتخذ صداقة زميلي ووده وسيلة لحب غير مشروع ؟ أيظهر لي هذا الأدب الجم ، وهذا اللطف المتناهي ، وهذا الإخاء الخالص ، فأصبو إلى امرأته وأحوّل قلبها عنه ولها منه طفلة رضيعة هي أحوج ما تكون إلى عطف أمها وحنانها ؟ أوَليس حبي لهذه الزوجة الأم إغواء وإثماً ؟ أأندفع وراء عاطفتي الجامحة اندفاعاً فيه كثير من التهور والجنون والضلال وأنا الذي تؤثر عنه الرزانة والتعقّل وبعد النظر ؟ وبكلمة موجزة : أأخون صديقي في شريكة حياته ووالدة ابنته ؟ !

أجل . كانت هذه الأفكار وأمثالها تصطرع في خاطري اصطراعاً عند ما سمعت صوتاً حنوناً حسبته لرقته وعذوبته منبعثاً عن أوتار تنقرها ريشة عازف مفن [1] ؛ صوتاً ناعماً انتزعني من غمرة الخواطر ولجة الآراء ، وانتشلني من وخز الضمير وتبكيته ، وألقاني أمامها هي ليبهرني جمالها الرفيع ، وتغويني أنوثتها الفذّة ، وتسكرني نبرات صوتها المرنان في العبارات الترحيبية المنمّقة التي انفرجت عنها شفتاها الرقيقتان المغريتان وهي تتقدم نحوي بخطى موقعة توقيعاً

ولم نلبث أن قمنا إلى المائدة ، وبعد تناول الغداء عزف ديمتري على البيان قطعة موسيقية أو قطعتين ، ثم أنشدت هي أنشودة غرام حملتني بها بعذوبة الغناء ورخامته ورقة المعنى وروعته إلى ملأ غير هذا الملأ تحف به الهناءات والمتع ، وتلاعبت بعواطفي ما شاء لها الفن الرفيع والصوت البديع ، ودارت بيننا بعد ذلك أحاديث شتى تناولنا فيها مختلف الشؤون الثقافية كالموسيقى والأدب والفلسفة والدين والعلوم ، وشربنا خلال الحديث الشاي مراراً ، ولم نفق من غمرته إلا على صوت الطفلة وهي تنشج باكية معولة والحاضنة تناغيها وتداعبها لعلها تسكت ، فنهضت « أنّا » وقمت على إثرها مودّعاً ، وكان الليل قد أوشك أن ينتصف

وأمسيت بعد ذلك كثير التردد على آل « لوجانوفتش » لا أهبط البلد إلا وأقضي جل أوقاتي عندهم ؛ وبات يشوقهم مرآي كما يشوقني مرآهم ؛ وأصبحت أغشى منزلهم ساعة أشاء كأني فرد من أفراد الأسرة دون أن يستأذن لي عليهم بالدخول ؛ ولم تلبث حياتي أن أصبحت حنيناً دائماً وشوقاً مستمرّاً ، وبت لا أستسيغ العيش ولا أستطيب الحياة إلا في بيتهم ، أو إن شئتم فقولوا إلا حيالها

(١) اللفظة الصحيحة لكلمة فنان الشائعة على أقلام الكتاب

هي ؛ وكثيراً ما كنت أدخل دارهم فلا أرى فيها إلا الحاضنة والخادم فأستلقي على الأريكة في الثوىّ أطالع في صحيفة أو أقرأ في كتاب ، فإن مللت من القراءة حنوت على الطفلة أهدهدها تارة وأناغيها طوراً ، حتى إذا حان ميعاد عودة « أنّا » من السوق هرعت إلى الباب أنتظرها على عتبته ، فما إن تقبل مثقلة الذراعين بما تكون قد ابتاعته من أدوات ولوازم ولُعَب ، حتى أتقدم إليها أروّح عنها بحمل أشيائها جميعاً كأني غلام يدأب على خدمة سيدته بكل تيه وفخر

وبات الزوجان يقلقان علىّ إذا أطلتُ عنهما غيابي كأنما اتصلت أسباب حياتي بأسباب حياتهما ، وبت أنا لا أستروح نسيم السعادة إلا بغشياني منزلهما وترددي عليهما ، ولم يكن من شيء يحول دون رغبتي في ذلك إلا وعكة تلم بي أو مرض يعروني . ولقد وفدت مرة بعد غياب طال أمده فدخلت الدار وجلستُ على إحدى أرائك الثوىّ ساهماً محزوناً ، فما هي إلا بضع دقائق حتى أقبلت « أنّا » في مباذلها وصاحت لدن رأتني بلهفة الجزعة الملتاعة :

— أهذا أنت ؟! لماذا حبست عنا قدومك كل هذه المدة ؟ ولماذا حرمتنا من أنسك هذا الأمد الطويل ؟ أأصابك مكروه ؟

لقد كانت نظراتها الوادعة المتألقة بطهر الحب ، ويداها العاجيتان الممدودتان إلىّ ، ورداؤها المنزلي البسيط الأنيق وشعرها المغدودن الناعم ، وصوتها ذو الجرْس الحنون ، ومشيتها الموزونة الخطى ، وكل ما فيها يؤثر فىّ تأثيراً عجيباً ويثير في حنايا ضلوعي عواطفي المكبوتة الكظيمة

وجلست حيالها أرمقها بنظرات ملؤها الحب وترمقني بمثلها ، وتحدثنا عن شتى الأمور ، وطرقنا مختلف الموضوعات إلا موضوع حبنا فلم ينطق لنا به لسان ولم نلم به لا تصريحاً ولا تلميحاً ، ولقد كنا سعيدين السعادة كلها هانئين فوق مدى الظن . ولما أقبل زوجها سُرَّ كثيراً بمرآي ، ورحنا معاً نزجي الوقت بالحديث ونسرّي عنا بالعزف على البيان حيناً وبالإنشاد حيناً آخر

أنا لم أعرف بعد في حياتي يا سادة رجلاً أطهر قلباً وأصفى نية وأوفى ولاءً من «ديمتري لوجانوفتش» فقد كان لا يشك في امرأته قط كأنه كان واثقاً من طهارة نفسها وعفتها ولا يرتاب بي على كثرة ما كان يأتي فيراني في منزله ، وكان هو وقرينته يفكران في أمري أكثر من تفكيري فيه وينكران علىّ هذه الحياة القلقة المضطربة التي أحياها من غير شكوى ولا تبرم ، في قرية لا متعة فيها ولا راحة لمن كان في مثل ثقافتي ؛ وكان يعز عليهما أن أبذل شبابي كادحاً جاهداً في العمل المرهق ولا يتبقى لدىّ من إيراد المواسم إلا النزر اليسير من المال أنفقه على شؤوني الخاصة بكثير من التقتير خشية نفاذه قبل الأوان

وكان يتراءى لهما أني أتألم وأني ما كنت أتكلم أو أحسو الشراب إلا لأموّه على نفسي وأنفّس عنها بعض ما بها من شجن وغمّ . ولقد كنت أشعر بنظراتهما الفاحصة حتى في ساعات سروري وانشراحي كأنهما كانا يودّان أن يستطلعا بها مكنونات قلبي ويستكشفا ضميري . وكان يؤلمهما حقاً أن يرياني سادراً في التفكير البائس ، وكثيراً ما كانا يعرضان علىّ المال عند ما كانا يدريان أن علىّ قسطاً مستحقاً من الدين ، ويلحان علىّ بوجوب

تقبل مساعدتهما المادية لى إلا أننى كنت أشكر لهما عواطفهما الرقيقة بكثير من الأدب واللطف ، وآبى أن أستدين منهما بارة واحدة مع أنى كثيراً ما كنت فى أمس الحاجة إلى المال . وكنت أوثر أن أستدين من المرابين على أن أظهر أمامهما بمظهر الوضيع المهان

ودارت الأيام دورتها ، وأصبحت «أنَّا» أمًّا لولدين كالربيع طلاقة وسنا ، ولدين مرحين غردين كبلبلين ، انطبعت فيهما ما فيها من نجابة وذكاء ، ورونق وبهاء ، ولدين كانا فخر أبيهما ، وعنوان بهجته ونبع مسرَّته ، إلا أنهما لم يكونا كذلك لأمهما التى كانت ترى فيهما ذبولاً لآمالها وتصويحاً لأمانيها

لقد كانت تعطف عليهما وتحبهما ، ولكن عطفاً مشوباً بالكدر وحباً ممزوجاً بالكآبة والحزن ، لأنها كانت تشعر فى أعماقها أن كل عام يزيد فى نموّهما وحيويتهما ينقص من قوتها وحيويتها هى ، وإنهما كلما تقدم بهما العمر نحو قمة الصبا والشباب انحدر بها إلى هاوية الكبر والهرَم ، وأصبحت غير قمينة بالتقدير ولا جديرة بالإعجاب والحب

لقد كان هذا الخاطر يعضها ويرمضها ، ولم أكن بحاجة لتصرح لي به ، فحركاتها وتصرفاتها ومسحة الشجن التى علت قسماتها كانت كلها ناطقة به ؛ ولكنها كانت على خطأ واضح وضلال مبين ، فشحوبها الساهم جاءها فتنة على فتنة وسحراً على سحر ، وكونها أمًّا لم يحل دون إعجابى بها بل على النقيض زاد فى حبي لها وتعلق بها

لقد أحببتها حباً عميقاً هادئاً لا نزوة عاطفة فيه ولا جماح نفس ، وأحبتني هى كذلك حباً شريفاً طاهراً . لقد نزهت حبي عن المفاسد والأهواء ، فكنت أضن بهذا الحب العذرى الرفيع ، هذا الحب النفسانى العالى أن يسفَّ وأن ينحط من رفعته إلى حضيض المهانة والابتذال . وكنت أربأ بنفسى أن تهوى إلى الدرك الوضيع الشائن ، وأنزهها عن ارتكاب الإثم الموبق ، فما حاولت على كثرة ترددى على منزلها واجتماعاتى الطويلة بها أن أقبلها ، أو أرتشف رحيق الهوى العذرى من شفتيها ، لأنى كنت أعدُّ حتى تقبيلها مسًّا بولائى لزوجها وحطاً من قيمة الصداقة البريئة الخالصة التى ربطت بيننا ، وامتهاناً للأخاء الذى وحّد بين قلبي وقلبه

وليس معنى هذا يا أعزائى أنى صنو الملائكة الأطهار وأن صدري لا تختلج فيه عاطفة ثائرة ولا تخفق فى حناياه نزوة جامحة ، لا ! فقد كانت تجيش بصدري نوازع شتى ولكنى كنت أكبتها وأخمد حدتها . وكان يجول فى خاطري بعض الأحايين أن هذه الخطة النقية التى أتبعها فى حب هذه المخلوقة الساحرة لم تكن مُثلى ، وأنها ليست إلا من صنع الخيال الخاطئ ، وأن رعى العهود وحفظ الوعود واحترام الصداقة وتقديس الأخوة ليس إلا أوهاماً فى أوهام ، وأن الشرف والعفاف والنزاهة والتجرد والشهامة والإباء ليست إلا أسماء لغير مسميات لا وجود لها إلا فى بطون الكتب وعقول المتزمتين المخبولين ، واصطلاحات لا معنى لها إلا فى عقول هؤلاء وأمثالهم من المأفونين أولى النظريات التى يستحيل تطبيقها على البشر بوجه من الوجوه ؛ ولكنى كنت لا ألبث أن أزجر نفسى عن مثل هذه الفكَر وأقول إنها خاطئة أوحاها إلى الشيطان وزينها لى الهوى

وهكذا يا أعزائى رحت أكلف بها من غير

أمل وأهيم بها دون رجاء . فكنا نجتمع الساعات الطوال فنمزح كثيراً ونصمت كثيراً كذلك ، وكنت أنظر إليها نظرات الوله ، وتنظر إلى نظرات التتيم ، ويحاول أحدنا أن يبوح للآخر بحبه ، ويبثه شكاة قلبه ؛ غير أنه يعود إلى نفسه فيؤثر الصمت ويفضل السكوت . وأي حاجة بنا للقول وكل ما بنا ينطق بالحب ويهتف بالهوى ؟ وأي جدوى للتصريح وكلانا يدرك حق الادراك ما يعتلج في نفس رفيقه من وجد لاعج وجوى مستعر ؟

وإن الصمت في مثل هذه المواقف لأبلغ من النطق ، والسكوت خير من الكلام . ولقد كنا سعيدين بالكلام عندما كنا نتكلم جداً أو مزاحاً ، وهانئين بالصمت عندما كنا نطلق لأخيلتنا العنان ذاهلين مسرورين تائهين في عالم الرؤى والأحلام

كنت أفكر وأنا جالس حيالها في ظلم القدر وقسوة القضاء ؛ أفكر في حبي لها وحبها لي هذا الحب الناعم الساجي ، أفكر في زوجها الكهل وفتوتها اليانعة ، أفكر في كيف أن الأقدار شاءت أن يصادفها هو لا أنا ، وكيف ألقتها في سبيله لا في سبيلي ؛ وكنت أحياناً أشتطّ في تأملاتي ويذهب بي خيالي كل مذهب ، فيخطر لي أن أنتزعها من أحضان زوجها وولديها وأفرّ بها ضارباً بصداقة زوجها وبالشرف عرض الحائط ؛ غير أني لا ألبث أن أعود إلى عقلي الرصين وأثوب إلى هداي فأعزف عن هذا الرأي الفاسد الأخطل ، وأقول في نفسي إن هـذا لو تمّ لجاء منتهى القسوة وغاية الظلم . وما إخالُ أنني فظّ إلى هذا الحد فأحطم سعادة عائلة يجلني فيها الصغير والكبير الإجلال كله ، ويثق بي جميع أفرادها ثقة عمياء كبرى . ثم إلى أين استطيع أن أنأى بها ؟ ! لو أني ثريّ موسر أسيح في أقطار المعمور وأجوب عواصم العالم ، أو لو أني زعيم فذّ في بلادي تعبدني الجماهير ، أو لو كنت عالماً كبيراً أو مغنياً خطيراً أو كاتباً نحريراً ، إذن ليسر الأمر وهان ، أما أن انتقل بها من حياة عادية لأخرى شبيهة بها أو أحطّ منها فما أرفضه وآباه الإباء كله ؛ فالى أين المآل لو قدّر الله لحبنا أمداً ولسعادتنا أجلاً ؟ ! وماذا يكون مصيرها هي يا ترى لو ألمّ بي مرض عضال أقعدني عن العمل وجعلني طريح الفراش ، أو وافاني الأجل المحتوم فمت ؟ !

كنت أفكر في هذا وأنا جالس إليها ، وأحسب أنها كانت تفكر فيه مثلي ، وأن خواطرها لم تكن إلا هذه أو ما يقرب منها ، وإخالُ أنها كانت تفكر في زوجها الذي لم يسيء إليها قط ، في ولديها فلذتي كبدها ، في أمها التي كانت تعبدها وتحب صهرها كابنها الحبيب .

وأمر آخر كان يرمضها على ما أظن ويمضّ منها الروح : أيكون حبها مسعدي يا ترى ؟ أم إنه يبليني بنكبات لا أول لها ولا آخر فيزيد حياتي تعقيداً وجدّي عثوراً ؟ ! وكان يتراءى لها عدا ذلك أنها فقدت الكثير من نشاطها بعد أن أصبحت أمّاً لولدين ، وأنها لم تعد كفءاً لي لتستهلّ معي حياة جديدة تتطلب جهداً وافراً ؛ وكثيراً ما كانت تقول لزوجها أمامي إن عليّ أن أبنى بفتاة ذات مزايا كثيرة تكون لي نعم العون في شؤوني كافة ، ولكنها كانت تتبع فوراً عبارتها هذه بقولها له إن من الصعوبة بمكان أن أعثر في المدينة بأسرها على فتاة كالتي تبتغيها وتتمناها لي

وكان يطيب لها أن تخرج معي إلى المتنزهات

العامة غير آبهة لألسن الوشاة ولا مكترثة لأقوال النمامين ، فنستمتع معاً بالنسيم السجاح والفيء السجسج ، ونتملى من منظر الورد وعبق الزهر ؛ ويلذّ لهـا أن أصحبها إلى الملهى لحضور إحدى الروايات المسرحية الممتعة ، فنذهب سيراً على الأقدام ونجلس في المقصورة كتفاً إلى كتف وجنباً إلى جنب ، فإن بدا في المسرحية موقف غرامي رائع التفتت إلي بعينين نصف مطبقتين ، ومحيا وادع كسته العاطفة كل روعتها وسحرها ، وثغر فاتن ترتقص عليه مغريات المنى ، وتمتمت :

« اليوكين ! » فأحنو عليها وصوتها الرخيم يرنّ في مسمعي ، وحبها يغور في أضلعي ، وأهمس بحب : « أنّا ! » وأهمّ بتقبيلها فما إن يكاد يصل ثغري إلى ثغرها حتى أسحب رأسي وأتراجع عنها أظمأ ما أكون إلى رشفة من بين ثناياها ، وأحبس القبلة في فمي فما تريم ، فترد هي رأسها الصغير المحبوب ، وتطلق من صدرها المجهود زفرة لاهبة حرّى ولا تنبس . وأحسب أن تلك اللحظات القلائل هي خير ما كنت أشعر فيه بالسعادة والنعيم ، وأحس فيها بأن « أنّا » لي وحدي ، وأن واحدنا لا يطيق العيش قصياً عن رفيقه يتقلى على جمر البعد ونار النوى ! ، ولـكن وا أسفاه ، ينتهي التمثيل ونخرج من الندىّ فيذهب كل إلى طيته كغريبين لا صلة للواحد بالآخر ولا سبب يمت به إليه

ومرّت الأيام بعضهـا في إثر بعض ، وأصبحت « أنـا » سوداوية الطبع ضيقة الخلق تتبرم بالحياة وتشكو منها وتحزن لغير داع وتغضب لغير سبب ، وباتت ترى في الكائنات نقصاً مشوّهاً كرهت الوجود من أجله وضاقت به ؛ لا، بل تعدّى الأمر الى بيئتها وأسرتها فاجتوت منزلها وأمست لا تطيق أن ترى زوجها ولا ولديها الحبيبين ، وغدت تتردد على أمها وأختها كثيراً وتقضي عندهما ردحاً من النهار طويلاً ثم تنكفئ عائدة إلى منزلها كسيرة الخاطر محزونة النفس

وتغيرت اجتماعاتنا فيما تغير من عاداتها ، فأمست ساعات اللقاء سلسلة من الصمت الطويل والتأمل العميق ، وأضحت تظهر لي بمظهر الندّ أمام الناس كلما ضمني وإياها مجلس أو نادٍ . فان تناظرتُ وأحداً من الناس انحازت إليه ضدّي ؛ وإن تحدّثتُ عن أمر ناقضتهُ ولم توافق عليـه ؛ وإن سقط شيء من يدي عَرضاً قالت لي ببرودة ساخرة : « أهنئك » ؛ وان صحبتها إلى الملاهي وحدث أن نسيت أن أستحضر معي المنظار قالت بفتور : « كنت أعلم انك ستنساه ! »

وصمت « اليوكين » لحظة نظر فيها من خلال النافذة إلى السماء التي انقشعت عن أديمها بعض السحب وأن أنـة « خافتة » ثم استطرد يقول :

« كل شيء في الوجود ياسادة إلى نفاد ، ولا شيء في حياتنا — لسوء الطالع أو لحسنه — إلا ينتهي إما عاجلاً أو آجلاً . ووقت انفصالي عن « أنا » أو بالأحرى انفصالها عني قد دنا وحان ؛ فقد عين « لوجانوفتش » رئيساً لحكومة مجاورة لبولونيا وكان عليه أن يبيع كل ما عنده من أثاث ورياش وخيول وحتى منزله الريفي الجميل . وعلى ذكر المنزل الريفي هذا أقول إننا عند ما كنا لآخر مرة فيه وقفت « أنا » حيالي تتأمل معي الحديقة الغناء التي تساوره ، والحقول المنبسطة أمامها بخضرتها السندسية ونبتها المخضل ؛ وكان كلانا منقبض النفس مكبد الأسارير يشيع تلك المرائي بنظرات حزينة ويودعها لآخر مرة وداعاً لا لقاء

بعده . ولما التفت إليها رأيت في محجريها دمعتين تترأرآن ! (١)

وساءت صحتها قبل الرحيل الى مقر زوجها الجديد ، فاستشار لها الأطباء فأثبتوا أنها مصابة بضعف الأعصاب والقوى جميعاً ونصحوا لها بالاستشفاء في « الكريمه » وقرروا أن تعالج في ذلك المصح الفاتن بالهواء الرخيّ والماء المعدني والمناخ السري ، حتى إذا تمّ لها الشفاء وقيض لها البرء لحقت بزوجها إلى مسكنه العتيد

ورافقت أنّا إلى المحطة حيث اجتمع لوداعها جم غفير من علية القوم وسراة البلد ، وقرع الجرس مؤذناً بتحرك القطار بعد قليل ، فودعت زوجها ووالديها والناس جميعاً ، ولما لم يبق إلا ثوان قلائل لسيره قفزت إلى العربة لأضع رزمة لها كانت قد نسيتها ولأودّعها الوداع الأخير وحدي . ولما التقت نظراتنا خذلتنا قوانا ، ووهى جلدنا ، فاحتضنتها بين ذراعي لأول مرة في حياتي فألقت رأسها الصغير على صدري الخفاق ، ولم تتمالك نفسها من البكاء فانهمرت من مقلتيها الدموع غزيرة حرَّى

وفي تلك الغمرة الساحرة حنوت أرتشف من مقلتيها الدمع وأكفكف بشفتي العبرات الواكفة وألثمها في فمها وخديها وعنقها وشعرها وكتفيها وأنى وقع عليها ثغري لثمات كلها هوى وجوى ، وشعرت في تلك اللحظات بحزن عميق في نفسي لم يسبق لي أن شعرت بمثله في ساعة من ساعات حياتي ، وانقبضت انقباضاً لا عهد لي بمثله من قبل ، وأدركت في تلك الدقيقة فقط إبان الأسى المحرق الذي اجتاح كياني كله أن أيامنا التي قضيناها معاً وتصرمت منها الساعات قد ذهبت هدراً فيما لا طائل تحته ولا غنية فيه ، وأن هذا الذي حال بين حبها وبيني من إباء وشرف وكرامة لم يكن إلا هراءً ولغواً ؛ وأني أخطأت خطأً فادحاً في عدم انصياعي إلى عاطفتي وهواي ؛ وأدركت في تلك اللحظة فقط أن على المرء عند مايجب أن يرتفع فوق العرف والشرائع ، وأن يسمو فوق الترهات والأباطيل ، وأن يتخلى عن التفكير في غده ومستقبله ، وألا يبحث في أمور السعادة والشقاء ، والرذيلة والفضيلة ، والشرف والتهتك ، أو يضيع أوقاته سدى ؛ وليندفع وراء حبه إن شاء متعة نفسه وراحة قلبه

وقبلتها للمرة الأخيرة قبلات حارة أودعتها كل ما في فؤادي من حنين وحب وصافحتها مودعاً إياها إلى الأبد . وكان القطار قد تحرك فجلست في العربة المجاورة أبكي حتى بلغ بنا المحطة الأولى فنزلت وعدت منها إلى قريتي ماشياً

وأطلت الشمس من وراء الغيوم الدكناء التي كانت تحجبها وأرسلت أشعتها المنعشة من خلال النوافذ فقام « بوركين » و « إيفان » إلى الشرفة يتأملان جمال الطبيعة الساحر ويحدقان في ترعة الماء وقد لمعت صفحتها كالمرآة الوضيئة تحت شعاع الشمس ، ورثيا في نفسيهما لمضيفهما الذي حدثهما بسذاجة وإخلاص عن حبه الشهيد ، وأشفقا على هذا الرجل النابغ الأروع الذي يقضي أيامه في هذه الحقول والبساتين دون أن يكترث بالعلم أو بالأدب أو بأي شيء سواه يدخل السرور إلى قلبه الحزين الباكي ، الذي يحن إلى الماضي البعيد حنيناً يصوّح شبابه الوريف ويؤيس نفسه ، ويتلفت كثيراً بلوعة وحرقة إلى خيال تلك المرأة الفاتنة التي قضى بقربها خير سني صباه دون أن ينال منها حتى في آخر عهده بها إلا قبلات معدودات هي كلّ ذخيرته من هواه

جورج سلستي

(١) رأرأ الدمع دار في المحور ولم يسقط



لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل السادس

وقلت فى نجواى لذاتى : « لم يبق لى إلا أن أسدي إليك نصيحة يا هذا : خيرٌ لك أن تموت

انتهز فرصة شعورك بالصلاح فى هذه الساعة واذهب إلى الفناء كيلا تتوغل فى الشر غداً

إن أمامك الآن امرأة تحبها وهي منطرحة على فراش احتضارها ، فلا تتردد . مد يدك إلى صدرها وا كتف منها بأنها لم تمت بعد ، وما دمت تشعر بالاحتقار لنفسك أطبق أجفانك ولا تفتحها بعد ، ذلك خير لك من أن تشيعها إلى مرقدها الأخير ثم يجيء غدك فتسلوها

بادر إلى إغماد خنجر فى قلبك ما دام هـذا القلب لم يتحول بعد عن الله الذى أبدعه

أفيوقفك صباك عن الاندفاع إلى الموت ؟ وأى شيء تريد الاحتفاظ به من هذا الصبا ؟ أتأسف لسواد شعرك ؟ إذا لم يشب هـذا الشعر فى ظلمة هذا الليل على مفرقك نخير له ألا يعلوه بياض الشيب أبداً ...

ماذا تريد أن تفعل في هذا العالم ؟

إلى أين مصيرك إذا أنت خرجت من هذه الغرفة ، وإذا بقيت فيها فما هي آمالك منها ؟

أفلا تحس وأنت تنظر إلى هذه المرأة أن فى قلبك كنزاً لا يزال دفيناً ؟ أفلا ترى أن ما تفقده الآن ليس ما بدا ، بل ما كان يمكن أن يبدو فبقى مُضمراً ، وأن أفجع الوداع هو ما يشعرك بأنك لم تفصح عن كل شيء ؟

لماذا لم تتكلم منذ ساعة ؟ فقد كان لك أن تمتلك السعادة قبل انتقال عقرب الزمان خطوة واحدة

لماذا لم تعلن ألمك إذا كنت تتألم ؟ وإذا كنت تحب فلماذا أضمرت حبك ؟

إنك الآن كحاشد الأموال يموت على أكوام كنوزه . لقد أقفلت بابك على نفسك أيها الحريص وها أنت ذا وراء المزالج المحكمة تهزّها عبثاً لأنها لن تعنو لسلطانك فهى منيعة ومن صنع يديك

أيها الضال ، إنك نسيت ربك عند ما اشتهيت؛ وبلغت مشتهاك فلعبت بسعادتك كما يلعب الأطفال بالدمى وما خطر لك أن ما تقلبه يداك سريع العطب ، وليس لك أن تظفر بمثله عند ما تشاء . لقد احتقرت مأملك وأهملت التمتع به وأنت تتلهى بالابتسام ولا يخطر لك أن هنالك ملاكاً صالحاً يسهر عليك ولا ينقطع عن الصلاة ليحتفظ لك بهذا الشبح الذى لا يلوح حتى يختفى

أواه ! لو أن فى السماء ملاكاً يتولى حراستك ، فما هو فاعل يا ترى الآن ؟

إنه لاشك جالس إلى معزفه وقد تراخى جناحاه وامتدت يداه إلى مضارب الأنغام ليتغنى بأنشودة

أبدية ، أنشودة الحب والسلوان ! ولكن أعضاء هذا الملاك ترتعش وقد انطوى جناحاه وهوى رأسه كالقصبة المنكسرة . لقد مرّ به ملاك الموت ، وما لمس كتفه حتى تبدد وتوارى في الكون الفسيح

وها أنت ذا باق وحدك على الأرض وأنت فى الثانية والعشرين من سنى حياتك بعد أن كان الحب الشريف السامى وقوة شبابك سيوجدان منك كائناً له شأنه فى الحياة

لقد مرت بك أيام طويلة من الملال والأحزان وساورك التردد ، وأثقلت عليك الشبيبة الطائشة ، فأوصلتك هذه المحن إلى يوم كان لك أن تتوقع فيه بلوغ الطمأنينة والسلام . لقد كان لك أن تتوقع من حياتك التى وقفتها على كائن امتلك لبّك أن تهب عليها نسمة جديدة فإذا أنت تشهد انهيار كل شىء يحيط بك . وقد انقلبت شهواتك الغامضة إلى أسى صريح . لقد كان قلبك من قبل خالياً منها هو الآن يصبح مهجوراً ...

هذا هو حالك ، وأنت لم تزل واقفاً عند حيرتك وترددك !

ما الذى تتوقعه وهى قد سئمتك ولم تعد لحياتك من قيمة عندها . إنها تهجرك فلم لا تهجر أنت نفسك ؟ وليبك عليك من أحبوا شبابك ، إنهم ليسوا بعديدين

إن قلباً حكمه الخزى أمام من يهوى لجدير بالصمت إلى الأبد . لقد مررت على قلب بريجيت فعليك بالمحافظة على ما أبقاه من أثر فيك ، فإذا بقيت فى الحياة فلا بد لك من درس آثارها ؛ ولا سبيل لك للمحافظة على أنفاسك المدنسة إلا باستكمال تدنيسها ؛ ولا قبل لك بالحياة إذا أنت لم تشترها بهذا الثمن .

اسوف تضطر لتتمكن من احتمال حياتك ألا تكتفى بنسيان الحب ، بل عليك أن تتعلم جحوده ونكرانه كما عليك ألا تنسى ما كان صالحاً فيك فحسب ، بل عليك أيضاً أن تقتل أية جرثومة قد تستنبت الأيام منها صلاحاً ، لأنك إذا بقيت للحب متذكراً فلن تستطيع أن تخطو على الأرض خطوة واحدة ، وأن تضحك أو تبكى ، وأن تحسن إلى فقير . لن تستطيع الشعور بالحنان لحظة واحدة دون أن تسمع صرخة الدم فى قلبك قائلة لك : إنك ما خلقت صالحاً إلا لإسعاد بريجيت بكل عاطفة طيبة فيك

إنك لن تقوم بأى عمل دون أن يذهب عملك مثيراً أحد الشقاء فى أعماق أحشائك فكل ما تهتاج له روحك ينبه فيها تأسفاً على ما فات فيتحول الأمل نفسه وهو رسول السماء فى القلوب يدعوها إلى الحياة — إلى شبح قاتم ينضم إلى الماضى ليؤاخيه . فاذا ما حاولت بلوغ أمنية انقلب جهدك ندماً لأن القاتل لا يذهب فى الظلمة إلا وهو يربط على صدره بكلتا يديه خشية أن تقع أنامله على جدار فتنمّ آثارها عليه

تلك هى الحياة التى قدرت عليك فى آتيك فاختر بين روحك وجسدك إذ لا بد لك من القضاء على أحدهما

إن ذكرى الخير ستدفع بك إلى ارتكاب الشر فما عليك إلا أن تصبح جثة باردة إذا كنت تحاذر أن تبقى شبحاً لذاتك !

أيها الفتى مت فى صلاحك لعل أحداً يأتى إلى قبرك فيذرف الدمع عليه »

وانطرحت أمام السرير فاقداً هداى لا أعلم من أنا ولا أحسّ بما أفعل ، وأرسلت بريجيت زفرة وهي

تدفع عنها غطاءها كأنها تزحزح عنها حملاً ثقيلا ، فانكشف صدرها ناهداً بناصع بياضه أمام عيني

واهتزت مشاعري كلها لهذا المشهد فما عرفت أهو الحزن يستولي علي ، أم الشهوة تتلاعب بدمي

وخطر لي فجأة خاطر ملأني ذعراً فاذا بي أقول : « أواه ! أأترك جميع هذا لسواي ؟ أأموت وأنزل إلى القبر فيبقى هذا الصدر بعدي يتنفس هواء السماء ؟ أمن العدل أن تمتد يد غير يدي إلى هذه البشرة الشفافة الناعمة ، وأن تلتصق بفمها شفتان غير شفتيّ ويجول في قلبها غرام غير غرامي ؟ أيقف قرب هذا السرير رجل سواي ؟

أتكون بريجيت سعيدة حية معبودة وأكون أنا في زاوية من القبر أنتثر رمادا ؟

أية مدة من الزمان تحتاجها لتنساني إذا مت غداً ؟ وأي مقدار من الدموع ستذرف على حجر قبري ؟

من يدري ؟ لعلها لن تذرف قطرة واحدة من جفونها عليّ ، ولن يقترب منها صديق بل لن يقترب منها أحد دون أن يقول لها إن موتي كان خيراً لها من بقائي فيعزيها ويدعوها إلى الانقطاع عن ذكري ؛ وإذا هي بكت يحولها الناس عن التفكير بي ، وإذا استمر حبي حياً في قلبها بعدي فان الناس سيعملون على شفائها منه كأنه سم زعاف له ترياقه

وهي نفسها لعلها في اليوم الأول تصمم على اللحاق بي ، ولكنها لا تلبث حتى تتحول بعد شهر عن طريق المدفن كيلا ترى حتى من بعيد أغصان الصفصاف الباكي المتهدلة على شاهد قبري

وهل لها أن تفعل غير ذلك وما كان الجمال الرائع إلا ساليًا عتياً ؟ وكيف تطلب الموت وهذان النهدان ينفران إلى الحياة ، وكل لفتة ترسلها إلى مرآتها تقنعها بوجوب البقاء ؟ وأي رجل لا يتقدم مهنئاً لها بشفائها عند ما تجف آخر دمعة على أجفانها وتلتمع أول ابتسامة على ثناياها ؟

لن تمضي ثمانية أيام على صمتها حتى تبدأ بالتململ من ذكر اسمي لأنها لا تجيء على ذكري إلا وهي ترسل حولها نظرات من يستنجد الناس لاقتناص السلوان ، فلا يطول الزمن حتى تمتنع عن التفكير فيّ وتجنب سماع اسمي . وفي صبيحة يوم من أيام الربيع تفتح نافذتها لتنظر الانداء ترصع الأزهار وتتنصت إلى زقزقة العصافير بين ناضرات الغصون فتستغرق في وجومها قائلة : لقد أحببت فيما مضى . وعندئذ مَن سيكون قربها ياترى فيقول : وستحبين إيفان ، فتصغى إليه ؟

أين أكون أنا حينذاك ، أيتها الخائنة ؟ أين أكون حين تنحنين وقد علا وجهك احمرار برعم الورد يتفتق عن أكمامه إذ يتصاعد كل ما فيك من فتاء وبهاء وينعقد تاجاً على مفرقك ؟

ستقولين إن قلبك مغلق ، ولكنك تسرّحين منه هالة من أنوار جديدة تستهوي كل أشعة منها قبلة غرام . وما من امرأة تعلن إرادتها بأن تُحَبّ كالمرأة القائلة إنها لن تُحِبّ بعد !

وأية غرابة في هذا ؟ أفلست أنت أيضاً بنت حواء ؟ أفما تعرفين اعتدال قوامك وروعة تحرك وقد وصف جمالك من رآه فلا تعتقدين كما تعتقد العذارى أن لكل النساء مالك تحت أستارك ولا تجهلين ما للتمنع من قيمة في عواطف الرجال ؟ وهل ترضى المرأة التي غرّها الثناء أن تحرم ما يولّده الإعجاب بها من غرور ؟ وهل تعدّ نفسها

من الأحياء إذا ضُرب عليها الحجاب وساد حول جمالها السكوت ، وما جمالها فى عقيدتها سوى ما يلتمع من شهوة فى عين عاشقها وما يتدفق من ثناء على شفتيه

لا ... لا مجال للشك فى أن من أحب مرّة يمتنع عليه ألا يحب بعد . فمن يرى الموت يفزع منه إلى الحياة

إن ريجيت تهوانى وقد يقتلها هواها ولكنها ستندفع إلى صدر غيرى إذا أنا انتحرت من أجلها . وانحنيت فوق السرير وأنا أردد كلمة : غيرى ... غيرى ... حتى لاصق جبينى كتفها العارى

وقلت فى نفسى : أليست هى أرملة ؟ أفما مرّ الموت قربها من قبل ؟ أفما اعتنت يداها الصغيرتان بمريض وكفنتا جثة ميت ؟ وما تجهل دموعها الأولى المدة التى جفت بعدها ، والدموع الثانية ستجف بأسرع من الأولى

وقانى الله استهواء الوسواس الخنّاس ! أفما بوسعي أن أقضى عليها وهى مستغرقة فى نومها ؟

ولو أننى نبهتها من رقادها الآن لأقول لها إن ساعتها قد دنت وإننا سنطلق روحينا بآخر عناق وآخر قبلة ، فإنها لن تتردد فى القبول . وليكن بعد ذلك ما يكون ، فأين الدليل على أن كل شئ لا ينتهى بالموت إلى الفناء ...

وكنت مشهراً بيدى سكيناً عثرت عليه

أهو الخوف أم الجبن أم التوهم الذى جرّ التفكير إلى الاعتقاد بالحياة الأخرى ؟ وما يعلم عنها من يقولون بها ؟ إن تلك الحياة قد أوجدت للجاهلين وللغوغاء من الناس وما بلغ الاعتقاد بها فى أحد مبلغ اليقين إذا لم ير أحد من نواطير القبور ميتاً يخرج من قبره ليذهب إلى بيت كاهن فيقرع بابه ، وقد مضى الوقت الذى كانت تتراءى فيه أشباح الأموات للأحياء بعد أن حظّرت الشرطة اقتحام المعمور على الباقين من معقل الموت فما يهتف من قبور هذه الأيام إلا من سارع الناس إلى مواراته التراب قبل خمود أنفاسه . من أخرس الموت فى هذا الزمان إذا كان قد أسمع صوته من قبل ؟ فهل اختار الروح المنطلق السكوت كيداً لأن الحكومات تمنع المؤمنين من الاحتشاد على الطرق لإقامة شعائر الدين ؟

إن فى الموت النهاية والهدف . لقد وضع الله الموت حدًّا والبشر يتناقشون فى أمره وقد كتب على جبين كل منهم : إنك فريسة الموت ، شئت أم أبيت

وماذا يقول الناس إذا أنا قتلت ريجيت ؟ ليقولوا ما يشاءون فلن تسمع ولن أسمع أنا بما سيتشدقون . ستنشر غداً إحدى الجرائد أن أو كتاف ت ... قتل خليلته ، وبعد غد لن يتحدث بنا أحد ، ويرجع كل من شيع نعشنا إلى بيته ليتناول غداءه على عادته ، وأبقى أنا وريجيت تحت أطباق الثرى فى رقاد عميق لا تنبهنا منه الأقدام السائرة فوق ترابنا

أفلا ترين أيتها الحبيبة أننا سنرقد هنالك بسلام ؟ أفليس التراب خير فراش وثير نتوسده فلا تجتاحه الأوصاب والأوجاع ولن يقدم فى جواره من سكان القبور من يغتابنا مقبحاً اتحادنا أمام الله . هنالك ستتعانق عظامنا وقد تعرت عن كل كبرياء واضطراب ، وما يعقده الموت المعزى لا يُحلّ وما يجمعه لا يبدّد

لماذا ترتعش فرقاً من العدم أيها الجسد المعد

ليكون فريسة له ؟ كل ساعة تمر من الزمان إنما هى خطوة من قدميك نحو الفناء تقطع بها حلقة من سلسلة حياتك . وما غذاؤك إلا من كل شىء ميت ؛ فالسماء تثقل عليك والأرض التى تطأها بقدميك تشد بهما لتجتذبك إليها . انزل ... انزل إلى الحفرة ودع عنك هذا الخوف ، لأنك لا ترتعش إلا لكلمة الموت فما عليك إلا أن تقول : إننى لن أحيا بعد . وهل الحياة إلا وقر ينفس الإنسان عن كربه باطراحه ؟ ولماذا نقف تجاه الموت مترددين إذا كان قد تحتم علينا الوصول إليه عاجلاً أو آجلاً

إن المادة لا تفنى وقد عالج العلماء بكل ما لديهم من الوسائل ذرّة منها فعجزوا عن إخراجها من حيز الوجود إلى العدم . فإذا كان لا مسيطر على المادة إلا تصاريف الصدفة العمياء فأى شر ترتكبه إذا هى انتقلت من عذاب إلى عذاب آخر ما دامت عاجزة عن استبدال سيدها المسيطر عليها ؟ وهل يهتم الله للشكل الذى أبدو فيه وللثوب الذى تتشحه أوجاعى ؟ إن عذابى مستقر فى جمجمتى وهذا العذاب إنما هو ملكى وأنا حر فى القضاء عليه ؛ أما الأكرة العظيمة فليست لى ، فأنا أعيدها إلى من أودعنى إياها ، أتخلى عنها للأرض فليتخذها شاعر كأساً يحتسى فيها خمرة جديدة

أية ملامة أستحق إذا أنا فعلت ، ومن ذا الذى يوجه هذه الملامة إلىّ ؟ وأى قاض صارم سيحكم بالخيانة على ، وهو لا يعلم شيئاً من أمرى لأنه لم يكن كامناً فى أحشائى ؟

إذا كان قد قضى على كل مخلوق بقسط من العمل لابد له من القيام به ، وإذا كان التمرد على هذا العمل جريمة ، فياللأطفال الذين يموتون على أثداء المرضعات من مجرمين ! فلماذا يعفى عن هؤلاء الآبقين ؟ ومَنْ من الأحياء يستفيد من الحساب الذى يؤديه الأموات ؟

إذا كان قد وجب على الإنسان أن يعاقب على حياته فقد كانت السماء ولا ريب خالية خاوية ، أفما يكفى الإنسان شقاءً أن يقضى عليه بالحياة ؟ ذلك ما قاله فولتير على سرير احتضاره ، ومَنْ أولى منه بهذه الصرخة وهى أنين شيخ جاحد قطع من حياته كل رجاء ؟

لأية علة يقوم هـذا العراك ؟ ومن هو يا ترى ذلك المسرّح أبصاره من العلياء فى هذه المآسى ؟ من هذا المشرف متسلياً على مشاهد هذه المخلوقات التى لا ينقطع توالدها ولا تنتهى مدتها ، فيلذ له أن يرى الصروح تشيد ثم تنبت الأعشاب بين أطلالها ، وأن يرى الزارع يزرع ثم تكتسح العاصفات مازرع ، وأن يرى الأحيـاء يمشون ثم يصرخ بهم الموت : قفوا ... وأن يرى الدموع تسيل حيناً ثم تجف على مساكبها ، وأن يرى وجه الشبيبة متورداً بالحب ثم يراه مجعّداً بالهرم ؟

مَنْ هو هذا المتلهى بالنظر إلى الناس يجثون أمام السماء باسطين أكف ضراعتهم إليها فلا تزيد السماء سنبلة واحدة على ما ينبت من السنابل فى حقولهم ؟

من هو مبدع كل هذه الأشياء ليتمجد وحده بعلمه ؟ إن جميع ما صنع هباء بهباء

إن الأرض سائرة إلى الفناء ، وقد قال هرشل إن حياتها ستنتهى بالصقيع ، فمن هو يا ترى الرافع على يده هذه القطرة من البخار المتجمد المحدق بها منتظراً انحلالها وتطاير عناصرها كما يحدق الصياد بوشل من

مياه البحر يتوقع تبخره ليظفر بالملح من راسبه

إن نظام التجاذب الذى يقلق العوالم فى مدارها إنما هو دافعها إلى الفناء قارضاً من أحشائها بشهوة لا حدّ لها . فما من كوكب إلا ويجرّ شقوته دائراً بالأنين على محوره ، وكل العوالم تتنادى من أقصى الأفلاك إلى أقصاها مشتاقة إلى راحة السكون مفتشة عن أول كوكب يتوقف عن مسيره بينها . ولكن الله يمنعها أن تستقر فهى دائبة أبداً على عمل لا غاية فيه ولا نفع منه . إنها تدور وتدور ، تتألم وتحترق ، تنطفئ وتشتعل ، تنحدر وترتفع تتلاصق وتتجانب ، وتتشابك تشابك الحلقات حاملة على سطوحها آلافاً من المخلوقات تتجدد بلا انقطاع وهذه الكائنات تضطرب وتتلاقى فيلتصق بعضها ببعض برهة من الزمان ثم تسقط ليقوم غيرها بعدها ، فالحياة تندفع دائماً إلى حيث انعدمت الحياة كالهواء يهب أبداً إلى حيث فرغ الهواء ...

كل شىء يسير على ناموس مقرر فى هذه الأفلاك فكل مسلك خط بأسطر من ذهب ومن نار ، وكل شىء ذاهب على نغمات الموسيقى السماوية وهو يتجه أبداً على صراط لا قبل له بالتحول عنه .

وكل هذا ليس شيئاً ! وكل هذا هباء ! ...

ونحن ، نحن الأشباح التعسة التى لا اسم لها ، الأشباح الناحلة المثقلة بأوجاعها السائرة كالوهم فى هذا الكون الفسيح ، وما نفخت فيها نسمة الحياة إلا لتلد الموت ، لأنفسنا نبذل الجهود لنثبت أن لنا مهمة كبرى ، وأن هنالك من يشعر بوجودنا فنتردد فى إطلاق رصاصة على رأسنا كأننا إذا فعلنا وهززنا كتفنا نأتى أمراً فرياً ...

وكأن موتنا سيخرج هذا الكون عن نظامه

لقد كتبنا وأملينا الشرائع الإلهية والانسانية ونحن نقف واجمين خائفين مما كتبنا

يعيش واحدنا ثلاثين سنة صابراً على أوجاعه وهو يعتقد أن تجلده مقاومة وكفاح ، فى حين أنه لو أطلقت على هيكل تفكيره قبضة من البارود المشتعل لاستنبتت على أحد القبور زهرة ناضرة .

وكنت وأنا أتفوّه بهذه الكلمات أصوّب السكين إلى بريجيت وألقى رأس النصل على صدرها، وبت فاقداً رشدى كالمحموم ورفعت الغطاء لأهدى السكين إلى منبض قلب خليلتى . فإذا بصليب صغير من الأبنوس يلتمع بسواده بين نهديها ، وإذا بى أتراجع مذعوراً ، وقد تراخت أناملى عن مقبض السلاح فسقط من يدى

وكانت عمة بريجيت هى التى أعطتها هذا الصليب فى ساعة احتضارها ، وما كنت قد رأيته على صدرها قبل هذه المرة ، ولعلها علقته فى عنقها عندما عزمنا على السفر كتعويذة تقيها الأخطار .

وشبكت كفاً بكف فجأة والتوت ركبتاى فإذا أنا راكع أهتف والارتعاش يهزنى : أكنت هنا ، يا سيدي ؟ أكنت هنا وأنا لا أدرى ؟

ليقرأ هذه الصفحة من لا يؤمنون بالسيد المسيح لقد كنت أنا أيضاً لا أومن ، فما كنت ارتدت المعابد لا بأيام الطفولة ، ولا بأيام المدرسة ، ولا عند ما أصبحت رجلا ؛ فلم يكن لديني ، لو صح أن تدعى عقيدتى ديناً ، رموز ولا طقوس إذ لم أكن أعتقد إلا بإله لا وحى منه ولا طرق لعبادته ، لأنني تسممت منذ مراهقتى بآداب العصر ، ورضعت من أثدائه ما درت على الناس من عقيم الإلحاد . فكانت الكبرياء البشرية إلهة الأنانية تمنع فمى أن يتفوّه

بالصلاة فتندفع روحى في ارتياعها طالبـة العزاء فى الـكفر والجحود

وبت كالثامل قد أضاع رشده عند ما رأيت رمز المسيح على صدر بريجيت ، فتراجعت عنها مذعوراً لا لإيمانى بل لعلمى بأنها تؤمن به

وقفت يدى وما شُـلّت لرهبة سنحت عبثاً ، كنت فى الليل منفرداً وحدى ولا ترانى عين إنسان فما كانت معتقدات الناس لتنال من روعى ، وكنت أملك تحويل عينى عن هذه القطعة الخشبية بل أملك القبض عليها وإلقاءها في الرماد ، ولـكننى بدل طرحها هي طرحت سلاحى

إن ما شعرت به في تلك اللحظة نفذ إلى أعماق روحى ولما يزل مستقراً حتى اليوم فيها

ما أشقى الناس الذين يهزأون بما يمكنه أن ينقذ حياة إنسان ، وما يهم الاسم والشكل والايمان . أفليس كل ما هو صالح مقدساً ؟ فبأية حجة يتطاول المخلوق على خالقه ؟

وشعرت فى داخلى بينبوع يتدفق من ذرى تفكيرى كالجداول المنسربة من ذوبان الثلوج على القمم وقد لمحتها عين الشمس المنيرة المحرقة ، وارتفع الندم من عذابى ارتفاع البخور من مجامره

لقد كنت على وشك ارتكاب جريمة ، ولـكننى ما رأيت آلة الاجرام تسقط من يدى حتى شعرت ببراءة نفسى ، فقد كفت لحظة لأستعيد السكون والقوة والهدى ، فتقدمت إلى السرير وانحنيت على ضم خليلتى مقبلاً صليبها على صدرها قائلا لها :

— نامى بسلام فان عين الله ساهرة عليك . لقد مرّ بك أعظم خطر وأنت تبتسمين فى أحلامك ولـكن اليد التى هددت حياتك لن تمتد يوماً للاضرار بأى مخلوق . وهأنذا أقسم بمسيحك نفسه إننى لن أقتلك ولن أنتحر فما أنا إلا مجنون . ما أنا إلا ولد حسب نفسه رجلا . أنت لا تزالين حية والحمد لله ، ولسوف تستعينين بصباك وجمالك على نسيانى ، وإذا ما قدرت على منحى العفو لما أورثتك من داء فان عفوك نفسه شيشفيك من دائك

نامى بأمن إلى الصباح يابريجيت ، وغدا ستنطقين بحكمك فأرضخ لأى قرار تتخذين

وأنت أيها المسيح ، أنت يا من كنت لها منقذاً جُدْ لى بغفرانك ، ولا تقل لها ما رأيت : لقد ولدت فى عصر ملحد جاحد فيا لشدّ ما يحق علىّ من التفكير أيها المنبثق من روح الله . إن الناس قد نسوك فما علمنى أحد أن أحبك . إننى ما طلبتك يوماً فى المعابد ولـكننى وجدتك الآن حيث لا أملك التغاضى عن رهبتى وخشوعى . وقد ظفرت شفتاى ولو مرة قبل موتى بتقبيلك على صدر ممتلىء بالايمان بك . فليكن إيمانها حارساً لها وأنت يا سيدى أذكر هذا البائس الذى لم يجسر على اقتحام الموت عند ما رآك مسمراً على صليبك . لقد أنقذتنى من الشر وأنا كافر ولو كنت مؤمناً لأنزلت على روحى العزاء . اغفر لمن جعلونى ملحداً بعد أن جدت بالندامة علىّ . اغفر لجميع المجدّفين لأنهم لم يروك فى ساعة يأسهم

إن المسرات البشرية تقوم على السخرية ولا رحمة فيها ، والسعداء فى هذه الحياة يظنون أنهم فى غنى عنك أيها المسيح فاذا هم جدفوا عليك فى كبريائهم فانهم سيقادون يوماً إلى معمودية الدموع . أشفق عليهم لأنهم يرون أنفسهم فى مأمن من عواصف الحياة ولأنهم يحتاجون إلى تأديب المصائب ليهرعوا إليك

ليست حكمتنا وشكوكنا إلا ألاعيب أطفال في يدنا فاغفر لنا لأننا نتوهم أننا كافرون . اغفر لنا أيها المبتسم على جاجلة الفداء . إن أشد ما ينزل بنا من شقاء في حياتنا العابرة كالظل إنما هو محاولة غرورنا أن ينساك وأنت تعلم وما تخفى خافية عليك أن هذا الغرور وهم تبدده نظرة منك . أفما كنت رجلاً ؟ وهل رفعك إلى مرتبة الألوهية غير العذاب ؟ إن مرقاتك إلى السماء كانت آلة تعذيب رُفعت منها فاتحاً ذراعيك إلى أحضان مصدرك الأسنى . ونحن على مثالك يقتادنا الألم إليك كما اقتادك إلى أبيك . إننا لا نتقدم للانحناء أمام رسمك إلاّ وعلى جباهنا أكاليل الشوك . ولا نلمس رجليك الداميتين إلا بأيد دامية ، فإنك بعذاب الشهداء اكتسبت محبة البائسين !

ولاحت طلائع الفجر وبدأ كل شيء ينتبه مرسلاً في الأثير أصوات الحياة ، وشعرت بالعياء لشدة ما نالني فأردت الانسحاب من غرفة بريجيت طلباً لبعض الراحة ، وبينما أنا متجه نحو الباب ارتمى على أحد المقاعد ثوب من أثوابها على الأرض فإذا بورقة مطوية تسقط منه . والتقطتها فإذا هي رسالة معنونة بخط بريجيت ولم تكن ملصقة فنشرتها وقرأت ما يأتي :

٢٥ ديسمبر

« عند ما تصل إليك رسالتي هذه أكون بعيدة عنك ، ولعلها لن تصل إليك أبداً . إن حظى مرتبط بحظ رجل ضحيت في سبيله كل شيء فهو لا يطيق الحياة بدوني . ولسوف أحاول أن أموت من أجله . إننى أحبك ، الوداع . أشفق علي »

وقلبت الورقة فاذا عليها هذا العنوان :

إلى هنرى سميث في بلدة ن ... نافذة البريد

الفصل السابع

وفى اليوم التالى عند الظهر كان شاب وامرأة يخترقان حديقة «القصر الملكى» وذراعاهما مشتبكان تحت أشعة الشمس ؛ دخلا مخزن صائغ واختارا خاتمين متشابهين فقدم كل منهما خاتماً إلى الآخر وهما يبتسمان . وسارا فى نزهة قصيرة ثم دخلا مطعم « بروفينسو » وصعدا إلى إحدى غرفه المطلة على أجمل مناظر الدنيا ، وهنالك انفردا بعد انسحاب الخادم وتقدما إلى النافذة يسرحان النظر ويد كل منهما تربت على يد رفيقه

وكان الشاب مرتدياً أثواب السفر وقد طفح وجهه بشراً كعريس يُرى عروسه لأول مرة مباهج باريس . وكان مرح هذا الشباب حبوراً هادئاً ينم عن سعادة لا اضطراب فيها ، ولو أن رجلاً مرت به تجاريب الحياة نظر إلى هذا الشاب لتبين فيه طفولة تستحيل إلى رجولة ، وعزماً تستقيه العاطفة من التفكير

وكان هذا الشاب يتطلع إلى السماء ثم يتأمل ملامح رفيقته فتنحدر من أجفانه دموع يتركها سائلة على وجنتيه وقد أنارتها ابتساماته

أما المرأة فكانت شاحبة وقد انطبعت على ملامحها آثار التفكير العميق وهي لاتحدق إلا فى وجه رفيقها ، ولا تملك نفسها من مسايرة مرحه ، غير أنها فى الوقت نفسه لاتحاول إخفاء ما يطفو على وجهها من قرارة قلبها

وكانت إذا ابتسم رفيقها ابتسمت له ، فكأنها فى حبورها تساير مسايرة ولا تختار اختياراً ، فإذا ما تكلم تكلمت وإذا ما قدم لها طعاماً أكلت ،

ولكنها كانت تذهب فى نفسها من حين إلى حين كأنها فى غيبوبة عما حولها، وكانت سكنات هذه المرأة وحركاتها كلها تنم عن استرخاء تستسلم فيه لرفيقها استسلام التابع الضعيف يستمد حياته من متبوعه وقد أصبح خيالاً له وصدى لصوته . وما كان الشاب مخدوعاً بحالة رفيقته بل كان ينفذ إلى سريرتها وفيه شيء من الغرور وكثير من الرضى فاذا هي تراخت وألصق تذكارها عينيها بالأرض هبَّ يعالجها بقوته متكلفاً المرح لينقذها من ضعفها ؛ فقد كان بين هذين الرفيقين تمازج غريب من الفرح والحزن والاضطراب والسكون ، فإذا ما نظر إليهما متأملٌ خالهما تارة أسعد الناس وتارة أشقى من فى الحياة ، وغاب عنه هذا السر يشد أحدهما إلى الآخر برابطة الأسى عقدت على عاطفة أقوى من الحب ، وهل أقوى من الحب سوى عطف الصديق على الصديق ؟

وما كان يلوح فى عيونهما شيء من لمعات الشهوة ويد الواحد تشد على يد الآخر فكانا ولا ثالث بينهما يتحدثان بصوت خافت فيسندان جبيناً إلى جبين كأنهما يتعاونان على التذكرات المرهقة دون أن تتجاذب الشفاه إلى قبلات الغرام ، ودقت الساعة تؤذن بالأولى بعد الظهر وكل منهما محدق فى عيني رفيقه يستنجدها ، فكأنهما ضعيفان يتلمسان من الضعف مخرجاً إلى الصلاح ، وتنهدت المرأة وقالت :

— لعلك مخطئ يا أوكتاف

فقال : لا . لست مخطئاً ياصديقتى ، ثقى بما أقول . إنك مقدمة على تحمل العذاب ولقد يطول صبرك عليه أما أنا فلا نهاية لعذابى . ولكننا سنشقى كلانا . لك الزمان أنت وأنا لى الله

— أوكتاف ... أوكتاف ... أأنت واثق من أنك لست على ضلال ؟

— لاأعتقد بأن أحدنا سيسلو الآخر ياربجيت ، ولكننى واثق من أن ليس لنا أن نتبادل المغفرة الآن ، غير أن هذه المغفرة محتومة علينا حتى ولو قدر ألا نلتقى بعد

— ولماذا لن نلتقى يوماً ؟ فأنت لم تزل فى ريعان الشباب

وأردفت بابتسامة مرة :

— سنلتقى بمأمن من كل خطر لأول غرام يحتلُّ قلبك بعد غرامى

— لا ، ياصديقتى . ثقى بأننى لن أراك دون أن يثور بى كامن غرامى . قدّر الله أن يكون الرجل الذى اتخلّى له عنك أهلاً لك . إن سميث فتى صالح وطيب القلب ولكن مهما بلغ حبك له فسوف لاتنقطعين عن حبي . ولو أننى أقرر الآن بقاءك معى هنا أو اللحاق بى لما كنت ترددين فى اتباع ما أريد

— ما أصدق ما تقول !

— أصحيح هذا ؟ أتلحقين بى إذا أنا دعوتك ؟

ولكنه بعد أن هتف بهذه الكلمات من أعماق قلبه استطرد على مهل :

— من أجل هذه المطاوعة يجب ألا نلتقى أبداً . إن من الحب فى هذه الحياة ما يبلبل الرأس والحس وما يزعزع العقل والقلب ، وليس غير نوع واحد من الحب يختفى فى الروح دون أن يعكر صفوها لأنه ينشأ منها ولا يموت إلا بانطلاقها

— وهل ستحرمني من مراسلتك يا أوكتاف ؟

— لا . سأكتب إليك مدة من الزمن لأن ما سأواجهه من عذاب في بادئ الأمر سيقتلني لامحالة إذا أنا حرمت نفسي من كل تعزية . لقد اقتربت منك على مهل وبكل حذر حتى عرفتني وحتى ... لا ، لندع الماضي . ولسوف تنقطع رسائلي عنك رويداً رويداً وهكذا سأنحدر على مهل من الذروة التي رقيتها منذ سنة ، ولقد يكون لهذه الرجعة الحزينة روعتها

وإذا ما رجعت بالذكرى إلى الأيام التي كنت حياً فيها فلأقفن أمامها وقفة المتأمل في قبر عقدت الخضرة والأزهار فوقه قباباً تظلل اسمين لراحلين عزيزين يرقدان فيه فأشعر بحزن مفعم بالأسرار وأريق دمعة الأسى حلوة لا مرارة فيها

وارتمت المرأة عند سماعها هذه الكلمات على مقعد معولة باكية ؛ وبكى الشاب معها ولكنه بقي دون حراك كأنه ينكر على نفسه لوعتها ، وعند ما جفت مآقيه تقدم إلى صديقته وقبّل أناملها على مهل وقال :

— صدقيني أن من يشعر بحبك له مهما كانت العاطفة التي تشملينه بها إنما يستمد من هذا الشعور قوة وإقداماً . لا يداخلك ريب يابريجيت في هذه الحقيقة وهي أنه لن يفهمك أحد كما فهمتك أنا . ولعل سواي يبذل لك من الحب ما أنت أهل له ، ولكن لن يصل أحد بحبه لك إلى الأعماق التي أحببتك منها . سيداري سواي ما أهنت فيك من الصفات فيحوطك بغرامه ، ستجدين عاشقاً أفضل مني ولكنك لن تجدي لك أخاً مثلي

هاتي يدك ودعي الناس يهزأون من كلمة أقولها وهم لا يفهمونها

« لنبق صديقين ويستودع كل منا الله رفيقه إلى الأبد »

عند ما تعانقنا لأول مرة كان في كل منا ذات خفية أدركت أننا سنتحد فلندع هذه الذات الخفية وقد اتحدّت مني ومنك أمام الله جاهلة افتراقنا على الأرض ، فلا تقوى ساعة خلاف تافه من الزمان على حل اتحادنا في السعادة التي لا تزول

وكان لم يزل قابضاً على يدها فنهضت وهي تشرق بوجهها وتقدمت نحو المرآة بابتسامة غريبة وأخذت مقرضها من حقيبتها وقطعت خصلة طويلة من شعرها ، ثم نظرت إلى وجهها ملياً بعد أن شوهته بحرمانه قطعة من تاجه وتقدمت بهذه القطعة إلى عاشقها

وضربت الساعة ثانية فخرجا عائدين من الحديقة وعلى وجهيهما علامات الرضى التي كانت تلوح عليهما وهما قادمان على طريقها

وقال الشاب — ما أجمل هذه الشمس !

فقالت المرأة — إنه نهار جميل لن يمحى أثره من هنا . وضربت بشدة على صدرها

وأسرعا بالمسير وتواريا بين الجموع

***

وبعد ساعة مرت عربة على مرتفع وراء حواجز فونتنبلو وكان الشاب مستقلا وحده هذه العربة يلقي نظرة أخيرة على المدينة التي رأى فيها النور وهو يوجه الشكر لله لأنه من ثلاثة ابتلاهم العذاب بجريرته لم يبق إلا شقيّ واحد

« انتهى الكتاب » فليكس فارس



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصول السابقة

« لما وضعت حروب طروادة أوزارها عاد جميع أبطال الاغريق إلى أوطانهم ماعدا أودسيوس ملك إيثاكا فقد نسى أن يضحى للآلهة قبل أن يبحر فأضله نبتيون إله البحار ووقف له بالمرصاد وأغرق أساطيله وظل يترصده كلما هم بالعودة إلى وطنه حتى انتهى به المطاف إلى ملك الفياشين الذى أحبه وأكرم مثواه وأرسله على بعض سفنه إلى شاطئ إيثاكا — وبينما كان أودسيوس فى تجوالاته كان أمراء المملكة قد يئسوا من أوبته وعشقوا زوجته، وطمعوا أن تختار أحدهم زوجاً لها مكان أودسيوس لفرط جمالها وباهر حسنها ولكنها شغلتهم عن نفسها بحيل اخترعتها حتى عاد زوجها ولقى ولده تليماك واتفقا على الانتقام من العشاق كما سيأتى ... وكان أشد العشاق هياماً بينلوب هما أنطونيوس ويوريماخوس من نبلاء إيثاكا — وسيلقيان أول الناس مصرعهما ... »

الانتقام الهائل ...

وألقى أودسيوس أسماله، واطّرح مِزَقه، وبرز للملأ أودسيوسٌ القويٌّ الحديديٌّ الجبار، وتناول كنانة الأسهم التي تهمهم فيها المنايا وتغمغم، والقوس العتيدة المنيدة، ووقف فوق الوصيد حتى لا يفر أحد من أعدائه فينجو من الموت الذي هو ملاقيه، ثم نثر الكنانة عند قدميه وهتف بالعشاق يقول: « وهكذا يا سادة تتم فصول المأساة، وهكذا أيضاً تنتهى المباراة التي لم يفز فيها واحد منكم ... والآن ... أنظروا ... إنى لنْ أسدد سهامى إلى هذه الأهداف بعد، بل إنى مسدد إلى غرض آخر .. »

وشد الوتر العُرُد، وأرسل إلى حلقوم أنطونيوس سهماً مُرَاشاً عجّل به إلى هيدز. وكان العلج يوشك أن يحتسى كأساً ذهبيـة من أعتق الخمر، فسقطت الكأس من يده الذاهلة، وسقط هو يتشحط في دمه، ويلفظ أنفاسه. وذُعِر الآخرون حينما رأوا أخاهم يسقط إلى الأرض رمَّةً لا نأمة فيها ولا حراك، وهاجوا وماجوا، وهبوا يبحثون عن أسلحتهم...ولكن هيهات! لقد أخفاها أودسيوس وولده ليلة أمس ... فأنى لهم بها !! وصاحوا بأودسيوس: « أيها المجنون لقد أخطأت المرمى! ماذا أصابك؟ إنك تسدد إلينا؟ لقد قتلت أنبل شباب إيثاكا، ثكلتك أمك! أبداً لن تحمل بعد هذه قوساً أبدا

وانكشف الستر، وعاد إلى الشحاذ الفقير عنفوانه، وانقذفت من فمه الحُمَمُ فقال: « أيها الكلاب! فَالَ(1) مازعمتم أن أودسيوس لن يؤوب! هأنذا أيها العبيد! لقد استبحتم حمى بيتي وأذللتم قُدْسَه الحرام، وأَوْضَعتم في الفتنة فاعتديتم على نسائى ولم تبالوا أن تتعشقوا زوجى بينا رجلها حى يسعى على قدميه، غير عابئين بمن يطلع عليكم في السماء وهو بكم محيط، ولا مبالين بما تضج به الرفات الكريمة في ثرى هذه الأرض من فعالكم، فويل لكم قد حان حينكم !! »

(1) خاب

وارتعدت فرائص الكلاب كما دعاهم أودسيوس وطارت حمرة الجمر من خدودهم ، ووقف يوريماخوس متخاذلاً وهو يقول : « إن كنت حقاً ملكنا أودسيوس فكلنا نعتذر عما ارتكبناه من الإثم في بيتك . ولقد تكلمت فقلت الحق كل الحق ولكنك قد أرديت أنطونيوس الذي دعانا إلى كل ذلك والذي كان يطمح أن يتربع على عرشك ويملك كما ملكت ، فاعف عنا واصفح عن خطايانا ، فنحن بالرغم من كل ما حصل شعبك الأمين ورعاياك الأوفياء الأولياء ... على أننا سنعوضك مما استبحنا مالاً بمال وعتاداً بعتاد » فقال أودسيوس : « يوريماخوس أيها النذل ! إنكم مهما ملأتم يدي بالذهب فلن تشفوا حَرَدي ولن تذهبوا غُلتي حتى أنتقم منكم جميعاً لما صدر عنكم من إفك وما ارتكبتم من أوزار ! فاختاروا لكم ! الحرب التي جدت بكم فجدوا بها ، والقتال الذي لا محيص منه ولا محيد عنه ، أو ... فالفرار الفرار ... ولن تجدوا إلى الفرار سبيلا... »

وزلزل الجميع زلزالاً شديداً ، وجفت ألسنتهم في حلوقهم فما عرفوا ماذا يُحيرون ، ثم هتف فيهم يوريماخوس فجأة يقول : « أيها الإخوان لقد تحجر قلب هذا الرجل فلن يعرف سبيلاً إلى الرحمة ، وها قد قبض على القوس بكلتا يديه ، ووقف فوق الوصيد يذودنا عن الباب ، ولن يفلت أحد منا من سهامه قط ، بل إنه سيقنصنا واحداً بعد واحد ... ولا أرى إلا أن تفزعوا إلى سيوفكم فتخترطوها ، وإلى المناضد فتدّرعوا بها ، ثم نهجم عليه كرجل واحد عسى أن نزحزحه من الباب فننجوا بأنفسنا ونلوذ بالفرار فإذا بلغنا المدينة فاننا سالمون ! » ثم فرغ من صيحته واستل جُرازه ، وهجم على أودسيوس مُرْعداً مزمجراً ، ولكن أودسيوس أصماه بسهم في صدره فصرعه ، وخر اللئيم يعالج سكرة الموت ، وانتشرت ضبابة الفناء الأبدي على وجهه المقبوح فأطبقت عينيه ... وهنا ... هاج الأمير أمفينوم وماج وهجم على أودسيوس بسيفه الذي تقطر من حده المنايا ... وكاد اللئيم ينال من خصمه منالاً لولا أن قفز تلماك برمحه العظيم فأغمده في صدره ورده عن أبيه وعاد مكانه دون أن ينتزع الرمح مخافة أن يتكاثر عليه الأعداء ... وقال تلماك لأبيه : « أبتاه ! إنه يجب أن نستعد بسلاح أكثر ... وإني ذاهب فمحضر ما نحتاج إليه وعائد بسرعة البرق » فقال أبوه وهو يتصيد القوم بسهامه : « هلم يا ولدي وهات ما استطعت ، فلشد ما أخشى أن تفرغ هذه السهام فلا أستطيع أن أدفعهم عن الباب ... »

وانطلق تلماك إلى غرفة السلاح فأحضر ما مست الحاجة إليه من رماح وسيوف وخوذات ، وادّرع بما هو حسبه منها ، ثم ألبس الراعيين الأمينين أضاتَيْن دِلاصَيْن (١) وزودهما بسيفين بتّارين ، ووقف الثلاثة إلى جنب البطل العظيم يمنعون تكاثر العشاق عليه ، بينا هو يرسل سهامه فتخترقهم وتستأصل شأفتهم واحداً فواحداً ، حتى إذا فرغت سهامه ، وقف الأبطال الثلاثة يذودون من دون الباب حتى لبس أودسيوس دروعه ووضع على رأسه خوذته ، وأخذ رمحين عظيمين في كلتا يديه ، وعاد إلى كفاحه وكانت ثمة في الجانب الآخر من البهو بوابة صغيرة لم يفطن العشاق إليها ، فأرسل أودسيوس راعي الخنازير ليحرسها وليحول بين العشاق وبينها ... وضاقت الدنيا حتى غدت ككفة الحابل في أعين القوم ، وتجهمت لهم حتى غدت كالليل البهيم ألقى غواشيه فوق رؤوسهم ، وناء بكلكله على صدورهم ... فقال

(١) درعين سابغتين

قائلهم : « ألا يستطيع أحد أن يمرق من البوابة فيصيح بأهلنا ويستنجدهم لنا ؟ »

فانبرى له ميلانثيوس [1] يجيبه : « هذا عبث لن يكون وراءه طائل ، فإن رجلا واحداً يستطيع أن يقفنا جميعاً لو فعلنا ، دون أن نبلغ الباب ... بل لدي فكرة ... إني أعرف أين خبأ أودسيوس وابنه أسلحتنا ، وسأنطلق فأحضر لكم منها ما يقيكم منها ... » ثم تعلق بحبال مدلاة من كوة في السقف وتسلق عليها حتى نفذ ثمت ، وانطلق إلى غرفة السلاح فأحضر اثنتي عشرة درعاً ورماحاً كثيرة وخوذات وظل يلقي بها من الكوة فيتلقاها رفاقه ويدرعون بها ... ولو كان مع أودسيوس سهم واحد يرسله إلى هذا العلج قبل أن يتعلق بالحبال لما استطاع أن يحضر هذه العُدَد . قال أودسيوس : « أي بني لقد خاننا أحد ودل القوم على غرفة السلاح فانظر كيف يتضاعف عناؤنا ويزيد بلاؤنا » فقال تلياك : « كلا يا أبتاه ، إنه لم يخننا أحد ، والذنب ذنبي ، فقد تركت باب الغرفة دون أن أوصده ... يومايوس ! إنطلق فغلق باب غرفة السلاح وأحضر مفتاحها ؛ وانظر هل خاننا أحد ، أو أن هذا من فعل ميلانثيوس كما أحدس ! » وانطلق يومايوس فرأى ميلانثيوس ذاهباً إلى غرفة السلاح ليحضر عُدَداً أخر ورماحاً ، فقال الراعي : « هاهو ميلانثيوس الوغد منطلق إلى الغرفة كما حدس مولاي » وهتف بتلياك : « هاهوذا ! هاهوذا ! هل أحضره حياً ليلقى جزاءه أم أقتله حيث هو؟ » فقال أودسيوس : « بل اذهب أنت وأخوك الراعي فشدا وثاقه واحبساه في الغرفة حتى يلقى جزاءه ، وسأبقى أنا وتلياك لنذود دون الباب » وانطلق الراعيان فوقف كل منهما خلف مصراع من باب الغرفة حتى إذا برز ميلانثيوس انقضا عليه وكبلاه ودفعاه داخل الغرفة ، ثم ربطاه في عمود هناك ، وقال له يومايوس « إهنأ يا صاح وارقد هنا إلى الصباح ، وأكبر ظني أن الشمس لا تشرق عليك إلا وروحك في عالم الظلال والأشباح ، فلا تراك قطعانك بعد اليوم » وأغلقا الباب وعادا أدراجهما إلى مولاهما وولده ، ووقف الأربعة يناضلون جحفلا بأكمله . ثم بدت مينرفا الحكيمة في زي منطور وطيلسانه فعرفها أودسيوس وفرح بها قلبه ، وهتف بها قائلا : «منطور أيها العزيز معونتك وتأييدك فنحن صديقان منذ القدم ! » وهتف العشاق ينادون : « احذر يامنطور وإلا فتلقى حتفك بعد أن نظفر بهذا الوغد . ولحظت مينرفا ذعر أودسيوس مما رأى من تسلح القوم فقالت تؤنبه وتحثه : ما هذا التقاعس عن الحلبة يا أودسيوس ؟ هل فقدت شجاعتك وعنفوانك ؟ إنك ما أحجمت مثل ما تحجم اليوم طوال عشر سنوات حاربتها في طروادة من أجل هيلين فهل يشق عليك أن تلقى هذه الحفنة من عشاق بنلوب في بيتك ، بل في عقر دارك ؟ هلم ! قف إلى جانبي وانظر إذا كان منطور قد عق الصداقة القديمة ! »

وحاربت معه ساعة ، ولكنها تركته ليعمل للنصر بمفرده ، وانسحبت فكانت عصفوراً من عصافير الجنة جعل يرف ويرف في سماء البهو ؛ حتى وقف على إحدى خشباته ... وفرح العشاق لما رأوا من مفارقة منطور ، وعادت إليهم بعض شجاعتهم لما رأوا المحاربين الأربعة يقفون وخدهم في مدخل الباب الكبير ... وقال أحدهم يخاطب الباقين :

(١) هو الراعي الخائن الذى أصبح ضلعه مع العشاق ضد مولاه أودسيوس

« هلموا فليقذف ستة منا رماحهم قذفة واحدة إلى صدر أودسيوس، فإنه إن سقط واسترحنا منه ، فلن نلقى عناء من الباقين » ولباه أصحابه ، فقذفوا برماحهم فى صدر أودسيوس ، ولكن .. هيهات .. إن واحداً منهم لم يصب غرضاً من الصدر العظيم ... وهنا ... هتف أودسيوس برفاقه ، فانقض الأربعة على أربعة من المهاجمين فجعلوا فى صدورهم رماحهم ، ورد الله كيدهم فى نحورهم ، فقتل كلٌّ مهاجمه ... وروّع الآخرون فارتدوا على أعقابهم ، وانزووا فى الركن السحيق من البهو ، وبهذا استطاع أودسيوس ورفاقه انتزاع الرماح من صدور المقتولين ... ولم يهتم الراعيان بما أصابهما من جراح بالغة ، بل وقفا يناضلان ويفديان سيديهما ... ولما رأت مينرفا ما يلقى المحاربون الأربعة من تكاثر الأعداء ، رفت فى الهواء ، ثم كشفت عن درعها الهائلة التى تجلب الموت على كل من يراها ، ووضعت خوذتها الرائعة ثم انبرت للقوم ، وهجم المحاربون الأربعة يطاردون الأعداء ، والأعداء يجرون من ههنا إلى ههنا مذعورين ذاهلين مما رأوا من درع مينرفا ... وجعل أودسيوس ورفاقه يصطلمونهم أربعة بعد أربعة ... حتى لم يبق إلا المنشد المسكين فيميوس ، الذى قسره العشاق على الإنشاد لهم ، وتطريبهم تطريباً لم يؤثره ، ولم يؤجر عليه ... لقد فزع المنشد المسكين من هول المجزرة ... وانطرح تحت قدمى أودسيوس يقول : « مولاي ! أودسيوس العظيم ! ارحمنى واعْفِنى فقد قهرنى القوم على ما رأيت ! اصفح عن المنشد البائس الذى يدخل السرور على أفئدة الآلهة ، ويذهب الحزن عن قلوب الناس ! » وهتف تلماك بأبيه يقول : «إصفح عنه يا أبى ، فإنه لا تثريب عليه ولا لوم ... وهلم ننقذ المنادى إن كان ما يزال به رمق ، فلقد كان يعنى بى إذ أنا صبى فى المهد ! » وكان المنادى قد فزع مما رأى ، وخبأ نفسه تحت مقعد كبير ، ثم طرح عليه جلد ثور ، فلما سمع تلماك يقول لأبيه هذا القول ، برز من مكمنه ، وتعلق برجلى تلماك ، وأنشأ يتوسل ويتضرع ، ويبكى ويتصدع . فقال له أودسيوس : « لا تجزع أيها الرجل ، فلقد أنقذك ولدي كما أنقذ المنشد ... اذهبا فانتظرا فى الرحبة ، فعندى مايشغلني عنكما الآن ... وانطلق الرجلان وهما لا يصدقان أنهما نجوا ، وجلسا عند المذبح ينتظران قتلهما فى كل لحظة ... ثم مضى أودسيوس يبحث فى البهو وتحت المناضد عمن يكون به رمق من الحياة فيجهز عليه ، بيد أنهم خروا جميعاً مضرجين بدمائهم فى التراب ، وقد تكبكبوا فوق بعضهم كالسمك فوق الساحل يقذف به الصياد فى يوم صائف ... ثم قال لابنه أن يدعو المرضع العجوز يوريكليا ، فأقبلت ورأت أودسيوس واقفاً كالمارد بين القتلى وقد لطخت الدماء يديه ورجليه وصدره ، فكادت المرأة تجن من الفرح لهذا النصر المبين الحاسم ، وأوشكت تصيح وتزغرد ، لولا أن ردعها أودسيوس عن ذلك : « أيتها المرضع العجوز ! اكتمى فرحتك ، فإنه ينبغى ألا تكون شماتة فوق جثث القتلى ، وألا يكون صياح ، لأنها إرادة السماء وقد نفذت فيهم بما أسرفوا من قبل وكانوا من المفسدين ! » ثم أمر بالجثث أن تحمل خارج القصر ، وبالدماء أن تغسل ، فتم ذلك فى أقصر وقت ، والتفت إلى المرضع يحدثها ويقول : « أرأيت ؟ اذهبي الآن فأحضرى ناراً وكبريتاً كيما نطهر الحجرة ، ثم أخبرى بنلوب أن تلقانى ههنا ! » . فقالت العجوز « سمعاً وطاعة لك يابنى ! سأفعل ما أمرت ، ولكنى سأحضر لك ثوباً تلبسه قبل كل شىء ،

فإنه لاينبغى أن تظل واقفاً هكذا فى أسمالك هذه » بيد أن أودسيوس أمرها أن تفعل ما أخبرها من فورها ، فانطلقت العجوز ، وعادت بالنار والكبريت وأخذ أودسيوس فى تطهير البهو الكبير

بنلوب ... وأخيراً ... بنلوب !

وهرولت المرضع العجوز فصعدت إلى الطابق العلوى ، حيث كانت سيدتها المحزونة تتقلب على فراش الهموم والأحزان فهتفت بها وهي تضحك ، وتكاد تجن من الفرح : « هلمى يابنيّتى فاشهدى بعينيك كيف حققت الآلهة أحلامك واستجابت لصلواتك ... هلمى ... لقد عاد أودسيوس وبطش البطشة الكبرى بأعدائه فقتلهم عن بكرة أبيهم بعد ما كان من خباثاتهم وبعد ما استباحوا من حرماته وما أراغوا من خيره وهزئوا بولده ... إنهضى ! »

ولم تصدقها بنلوب ، وقالت مستهزئة بها : « لشد ما عدوت طورك وغبت عن صوابك أيتها المرضع العزيزة حين توقظيننى بمثل هذا العبث وذاك الحديث الملفق ! لقد حرمتنى من غفوة يا لها من غفوة لم تكتحل عيناى بأهدأ منها ولا أروح منذ أن فارقنا أودسيوس إلى الأرض المشئومة ... تالله لو حصل مثل هذا ممن هن دونك سناً ومنزلة من الخدم لكان لى معهن شأن آخر ... ولكن ... لا عليك يا يوركليا ... » فتبسمت المرضع ثم قالت : « وَيْ ! تالله إنه للحق ، ولا مرية فيما أقول ... إنه هو الشحاذ الفقير الذي كلمك ، والذى عبث به القوم وقد كان يعرف تلماك كل ذلك ، ولكنه جعله سراً بينه وبين أبيه حتى يثأر من الأمراء ويستأصل شأفتهم ! » فوثبت بنلوب من سريرها مسبوهة ذاهلة ، وطوقت بذراعيها عنق يوريكليا ، وأنشأت

تقول : « خبرينى بالله عليك أيتها العزيزة .. خبرينى بالله عليك ... إذا كان ما تقولين حقاً فأنى لأودسيوس أن يلقي وحده كل هؤلاء ؟ وأنى لواحد أن يهزم فيلقاً من مائة أو يزيدون ؟ » فقالت المرضع : « لعمرك ما رأيت كيف حدث هذا الأمر ، ولكنى سمعت بأذنى هاتين أنين القتلى ... لقد كنا جميعاً جالسات داخل القصر ، وفرائصنا ترتعد من الفرق وكانت النوافذ كلها مغلقة بأمر سيدى ، حتى أقبل تلماك فدعانا إلى البهو ، حيث رأينا أودسيوس واقفاً بين الرمم وهو الآن يطهر البهو من أدرانهم بالنار والكبريت ؛ والدفأ يتأجج بلظى كالجحيم ، ولقد أرسلنى لأدعوك إليه حتى يفرح بك ويطمئن قلبك بعد طول العذاب » وكانت العجوز تتكلم وهي ما تنقطع عن الضحك والمرح ، فقالت لها بنلوب : « أيتها المرضع العزيزة لا يقتلك الفرح والصخب .. تالله إنه لن يفرح بأودسيوس اليوم أحدكما أفرح به أنا وولدى تلماك ... هذا إن كان ما قلت حقاً ... على أننى لا أصدق ... لا جرم إنه إله كريم أقبل لينتقم لنا من هؤلاء العرابيد جزاء ما أنزلوا بنا من هوان فأبادهم جميعاً .. أما أودسيوس فلا ! لقد قضى أودسيوس ، وقضى إلى الأبد ! » فقالت يوريكليا : « أما تزالين غير مصدقة يا طفلتى (!) العزيزة ؟ ألا فاسمعى ! هاك دليلا آخر ؛ بينما كنت أغسل قدمى الرجل الفقير اللاجىء تحسست يداى ندوباً في فى ساقه ذكرتنى بالندوب التى أحدثها الخنزير البرى فى ساق سيدى أودسيوس ، فلما كشفت عنها تبينتها ، وتأكدت أنه هو ، وأردت أن أصيح بك لأخبرك ، وأزف إليك البشرى . لكنه أطبق يده على فمى فلم أستطع أن أنبس ... تعالي ! هلمى معي الآن وانظري بعينيك لترىْ إن كنت كاذبة ، تعالى جعلت فداك ! » وانطلقا معاً ، وطافت الذكريات

برأس بنلوب ، ولم تدر ما ذا عساها فاعلة إذا كان ما أنبأت به المرضع حقاً ... فلما دخلتا البهو جلست بنلوب على مقعد كبير من المدفأ ، ثم طفقت تحدق بصرها فى أودسيوس ، وكان جالساً وظهره إلى عمود من عماد البهو ، وعيناه تبحثان فى الأرض ، وكأنه كان ينتظر أن تتكلم بنلوب قبل أن يفوه هو بكلمة ... بيد أنها لم تنبس ، بل كانت ذاهلة شاردة ، تنظر إليه مرة فتوشك أن تعرف فيه بعلها الحبيب ، ولكنها كانت إذا نظرت مِزقه وخرقه ، والأثمال التى لا تستر بعض جسمه الهائل عجبت ، وتولاها الدهش ، وانعقد لسانها فما يكاد يبين

وقال تلماك آخر الأمر : « أماه ! لشد ما تحجر قلبك وغلظت كبدك ! لم لا تنهضين فتعانقي أبي !! أية زوجة ينحبس لسانها كما انحبس لسانك ، فما تكلم زوجها الذى آب من سفر سنين كلها أشجان وكلها أحزان ، وكلها آلام متصلة ومتاعب تنوء بحملها الجبال ! » فقالت أمه تجيبه : « تالله يا بنى لقد ذهلت عن نفسي وإنى لفى تيه فما أكاد أبين ... ولكن إذا كان حقاً أودسيوس ، فان لنا علامات هى سرّ ذات بيننا ، ولا يعرفها أحد سوانا » فتبسم أودسيوس وقال: « لا عليك يا بنى ! دعها فستستبين حقيقتي حين أخلع هذه الأسمال » ثم انتحى وولده ناحية ، وأسر إليه أنهما ينبغي أن يتهيآ لما عسى أن يكون من تألب الايثاكيين عليهما وشغبهم لما كان من قتيل ساداتهم ، وما يتوقع من قيامهم بثورة عامة لا تبقي ولا تذر للانتقام من القاتل ... وذكر أودسيوس أنهما يجب أن يقيما فى البهو فيأخذا فى مثل ما كان العشاق يأخذون فيه من قصف وعبث ومجانة ... وحسب المارة أن بنلوب قد اختارت بعلها من بين الأمراء ... « فهى لم تعد تطيق الوحدة ، ولا تحتمل الترمل ، ولا تقوى على حياة الآمال الكواذب التى تجرعت غصصها مدى عشرين عاماً ... » أما أودسيوس فقد مضى فاستحم وتضمخ بأحسن الطيوب ، وأضفى عليه من كل سابريّ وفَوْفٍ موشى ، ثم تنزلت مينرفا فنفخت فيه من روح الشباب ، وسكبت فى عروقه دماء الفتوة ، ومسحت بيديها الكريمتين على وجهه المجعد ذى الأسارير فأشرق وتألق ، وهدّلت شعره على كتفيه غدائر فاحمة كقطع من الليل البهيم . ثم إنه انطلق إلى البهو فجلس تلقاء بنلوب وأنشأ يقول: « أيتها الزوجة المعجبة ! أما والله لقد ركبت بين جنبيك الآلهة قلباً ليس كقلوب النساء .. وأي امرأة تنتبذ من زوجها مكاناً قصياً كما تنتبذين يابنلوب ... بعد إذ عاد اليك من تجوال عشرين سنة كلهن قلاقل وأهوال ... يوريكليا ! هلمي فامهدي لى فراشاً بيديك الضعيفتين ، مادام الحديد البارد الذي خلق منه قلبها لا يلين ! » ومع كل هذا فقد كان الريب يرين على فؤاد بنلوب ، فقالت تختبره : « مولاي ! إني وأيم الحق لا معجبة ولا بي خيلاء ، ولكنى أذكر أحسن الذكر كيف كنت يوم همت بك سفينتك الجبارة إلى اليوم ... يوريكليا ! اذهبي أيتها المرضع فأحضري سرير زواجنا من المخدع ، واجعلي عليه الوسائد والحسبانات ليستريح عليه مولاك كما أمرك . » وعجب أودسيوس لما تكلمت به زوجته ، فقال : « إنك يا زوجتى تمزقين نياط قلبي بما تقولين ! أنى لأحد ما من العالمين أن يحرك سريرى بله أن يحمله ، إن لم تكونى قد أطلعته على سره ؟ لقد صنعت مخدعى واتخذت سريرى فى جذع الزيتونة الهائلة ... فهل ما يزال سريرى فى موضعه ثمت ، أم أن أحداً قد قطع الجذع العتيد واحتمل السرير إلى مكان بعيد ؟ » وهنا ، مادت الدنيا برأس بنلوب ، وتأكدت أن الرجل زوجها من

غير شك ، تخفق قلبها خفقاناً شديداً ، وانطلقت تعدو نحوه ، ثم طوقت عنقه بذراعيها ، وراحت تبكي وتنتحب ، وتقول له : « لاتنقم علي إذن يا أودسيوس ، ولا يحزنك أنني لم أعرفك منذ أول نظرة ... أواه أيها العزيز ! لقد قضت الآلهة أن نفترق ونتعذب كل هذه السنين وما كان من شكي فهو أثر من احتراسي خشية أن يخدعني أحد فيدعي أنه أنت ، ويزخرف علي ويبهرج حتى ينالني بالخداع والحب ... ولكن ما دمت قد ذكرت لي سر المخدع والسرير والزيتونة ، وهو ما لا يعلمه أحد غيري وغيرك وغير يوريكيا ، فالآن فاهناً ، ولأهنأ أنا ، وليطمئن قلبي ... قلبي الوفي الذي أرده إليك كآخر عهدك به ، لا ينطوي إلا على حبك ، ولا يضمر غير الوفاء لك .. » وعانقها أودسيوس ... وضم إلى صدره صدرها ... والتف حول عنقه ذراعاها البضتان البيضاوان — وجمد عاجهما الناعم الأملس حول كاهله، ووقف أودسيوس على شاطىء الذكرى كما يقف السباح المتعب المنهوك على شاطىء اليم وقد بلغه بعد جهد ، فأعضاؤه متراخية وأعصابه موهونة ، وقلبه خفق ، وروحه نشوى ، وذراعاه مع ذلك معلقتان بالشاطىء وقد سمرتا فيه ... وقال بعد لأي : « والله يا زوجتي العزيزة إنا ما بلغنا بعد نهاية أشجاننا وأحزاننا ، وإن أمامنا لا مدا بعيداً وهموماً أخر تنبأ لي عنها الكاهن تيرزياس حينما رحلت إليه في هيدز ، وإني لا أدري ماذا يكون من أمري ... ولكن ... لا ... لننطلق الآن إلى مخدعنا العزيز الطاهر فإن بي حاجة إلى الراحة والاستجمام ... وإن بي لشوقاً مبرحاً و نزوعاً شديداً إليك » . فقالت بنلوب : « المخدع الطاهر النقي معد في أيما لحظة أردت يا أودسيوسي العزيز ... بيد أنك أثرت شجني وفزعت شجوي بما ذكرت عما يتربص بنا من هم جديد ، فهلا ذكرت لي ماذا زعم لك تيرزياس في العالم الآخر ؟ إني مشوقة إلى ماقال ، فاذكره بحق الآلهة عليك » فأجاب أودسيوس « عمرك الله لم تسألين عن أمر إن يُبْدَ لك يَسُؤْك ؟! ولكن لا ضير ... سأذكر لك ماأنبأني به تيرزياس » ثم وجم قليلاً وقال : « لقد أشار أن أن أحمل مجدافاً عظيماً على كاهلي ، ثم أنطلق مهاجراً إلى ممالك نائية وأصقاع سحيقة ، حتى أكون في قوم لم يسمعوا عن البحر قط ، ولم يروا في حياتهم مجدافاً ولا سارية ، فإذا لقيت أول من يسألني عما أحمل ، وهل هو مذراة مما ينسف به القمح غرست المجداف في الأرض ، ثم تقربت إلى إله البحار نبتيون الجبار بقرابين تمحو ما بيني وبينه ، وتعقد بيننا أواصر السلام والوئام ، كما تقربني إلى أعوانه الآخرين من آلهة الماء ، فاذا فعلت استرحت من لأواء الحياة ، وجنبتني أرزاؤها ، وعدت إلى شعبي وإليك ، وإلى ولدي وقصري فعشت بينكم بسلام ، حتى يأتيني الموت هادم اللذات من أعماق البحر ، ولكنه سيكون موتاً طيباً لا مخوفاً ولا مرهوباً ، بل سكرة بين أمنة ونعاس . بعد إذ الجسم موهون ، والقلب فارغ ، والرأس مشتعل والروح سالية قالية . »

وهكذا ظل الحبيبان المشوقان يتحدثان قطعاً من الليل ، بينما كانت المرضع وخادمة أخرى تمهدان الفراش على ضوء المشاعل ... ثم أقبلت الوصيفة فذهبت تمشي بين أيديهما إلى المخدع ، وفي يديها المشعل المقدس يفيض نوراً ولألاء كما أفاض منذ عشرين سنة ... ولفهما ظلام الليل ، وستر الهوى ، وسكن البهو بعد ما ضج بالعزف والقصف ، وهدأ القصر في سدول السعادة

(الفصل الأخير في العدد المقبل) دريني خشبة

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾





مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

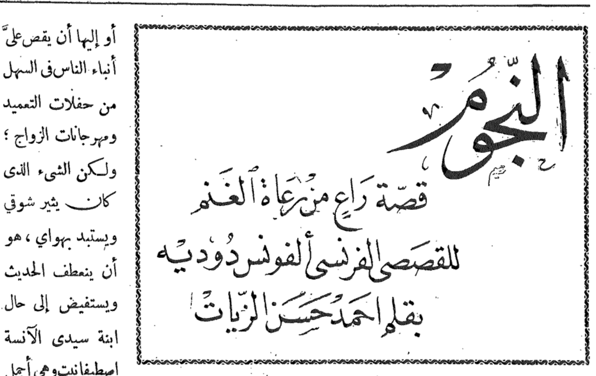
بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء ـــ القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٤ — ١٣ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ ـــ ١٥ ينايرسنة ١٩٣٨ — السنة الأولى



فهرس العـــدد



كنت وأنا أرعى الغنم على شعاف اللوبرون أقضى الأسابيع الطوال لا أسمع صوتاً يهتف ولا أرى قدماً تسعى . فأنا وحدى أعيش فى المرعى القفر لا أجد بجانبي غير كلبي ، ولا أنظر أمامى غير قطيعى ، اللهم إلا ناسك(مُندلور) فقد كان يمر من حين إلى حين بهذا المكان وهو يبحث عن الأعشاب الطبية فى الجبل ، وإلا بعض الفحامين من أهل (بيمون) ألح وجوههم السود وهم يمرون من بعيد ؛ ولكن هؤلاء الناس قد فقدوا الرغبة فى الكلام لطول العزلة فأصيبوا بداء الصمت ، وجهلوا تصاريف العيش وأقاويل الناس فى القرى والمدن فغلبت عليهم السذاجة .

كذلك كنت أسمع فى كل أسبوعين جلاجل بغلنا وهو يصعد فى حدور الجبل حاملاً إلىّ زاد نصف الشهر ، فأنظر إليه وهو يلوح من فوق المنحدر شيئاً فشيئاً وقد نتأ على ظهره رأس فلاح المزرعة الشاب ، أو قناع العمة (نوراد) الشيخة . حقاً لقد كنت سعيداً ! كنت أطلب إليه أو إليها أن يقص علىّ أنباء الناس فى السهل من حفلات التعميد ومهرجانات الزواج ؛ ولكن الشيء الذى كان يثير شوقي ويستبد بهواي ، هو أن ينعطف الحديث ويستفيض إلى حال ابنة سيدى الآنسة اصطيفانيت وهى أجمل فتاة فى الفراسخ العشرة التى تحيط بهذه البقعة

كنت أسأل وأنا أخفى مظاهر الاهتمام : هل تذهب غالباً إلى الحفلات والأبهاء ، وهل يتقدم إليها كثير من الشباب الظرفاء ؟ ولئن سألنى سائل ماذا ترُدُّ عليك هذه الأنباء وأنت الراعى الفقير الحقير لأقولن له إننى كنت قد بلغت سن العشرين وكانت هذه الآنسة هى كل ما رأيت وعلمت فى حياتى من الجمال والحسن

وفى ذات أحد من الآحاد كنت أنتظر زاد الأسبوعين فلم يصل فى موعده. فحملت تأخره فى الصباح على حفلة القدّاس ؛ ولما متع النهار وثارت العاصفة عزوته إلى أن البغل لم يستطع السير لرداءة الجو ووحل الطريق . ثم اقتربت الساعة الثالثة فصحَت السماء ، والتمع الجبل بالشمس والماء ، فسمعت من خلال رفيف [1] الأشجار وخرير الجداول صوت الجلاجل فى عنق البغل ، وهو فى بهجة جرسه وحدة رنينه أشبه بإيقاع الأجراس

(١) رف الشجر : تقاطر من أوراقه الندى أو الماء

في عيد الفصح . ولكن الذى كان يقوده فى هذه المرة لم يكن فلاح المزرعة ولا العمة نوراد ؛ إنما كان ... إحزَرْ مَن ؟ كان الذى يقوده آنستنا بنفسها ... آنستنا بشخصها ... استوت على صهوته فى اعتدال بين جنيبتيه [1] وقد تورد خداها من هواء الجبل وطراءة الجو بعد العاصفة

وقفت اصطفانيت الجميلة مطيتَـها على باب الحظيرة، ثم قالت وهى تترجل : إن الفتى مريض ، والعمة نوراد فى عطلة عند أولادها ؛ وإن الذى عوقها هو ضلالها فى شعاب الطريق .

ولكن الذى يراها فى زينة يوم الأحد بشريطها المكلل بالزهر ، ونطاقها المضمخ بالعطر ، وفستانها المجمل بالمخرَّم ، يظنها لجمال هندامها وحسن شارتها قد أضاعت وقتها فى مراقصة الرجال ، لا فى تلمس طريقها بين الأدغال

يا للمخلوقة الظريفة ! إن عينى كانتا تحملقان إليها فى غير فتور ولا ملل . كانت هـذه هى المرة الأولى التي أرى فيها اصطفانيت من قرب . فما كنت أراها إلا فى الشتاء حينما اهبط السهل بالقطعان ، وأرجع إلى الضيعة فى المساء لتناول العشاء : كنت ألمحها أحياناً تجتاز الردهة في خفة الغزالة لا تعوج على شىء ولا تتحدث إلى خادم . وكانت دائماً على أتم ما تكون الفتاة من الزينة ، وعلى أقل ما تظهر الجميلة من الزهو . أما الآن فهى لى وأمامى ولأجلى ؛ أرنو إليها بمجامع عيني ، ولا يحول شىء بينها وبينى ! أليس ذلك مما يُزْهف الفؤاد ويُذهب الوعى ؟

أخرجت اصطفانيت الزاد من السلتين ثم أخذت تنظر إلى ماحواليها نظرة استطلاع وشوق ؛ ثم شمرت ثوبها الأنيق قليلاً مخافة أن يبتل ، ودخلت الحظيرة تريد أن ترى الركن الذى أنام فيه ، ومذود القش الذى أرقد عليه ، ومعطفى المعلق على الحائط ، ثم عصاى وزنادى الموضوعين على الأرض ، فوجدت فى كل أولئك مبعثاً للهو وسبيلاً إلى الفرجة .

قالت الآنسة الجميلة : إذن أنت تعيش هنا ياراعىَّ المسكين ! لا ريب أنك تضجر من المقام لطول الوحدة وضيق العزلة . قل لى ماذا تصنع وفيم تفكر ؟

فقام بنفسى أن أجيبها : « فيك يا صـيدتى » وما كنت أكذب بهذا الجواب على نفسي ، ولكننى كنت من اضطراب النفس بحيث لا أجد كلمة تقال ولا جواباً يُغنى.

وأعتقد أنهـا لاحظت علىَّ ذلك الاضطراب ، فوجدت الخبيثة سرور قلبها فى أن تضاعف ربكتى بأسئلتها العابثة ، قالت :

— وصديقتك الطيبة يا راعىَّ ؟ أما تصعد الجبل لتراك من حين إلى حين ؟ لابد أن تكون هى المعزة الذهبية أو الحورية (إستيريل) التى لا تركض إلا على رءوس الجبال .

كانت اصطفانيت نفسها وهى تتحدث إلىَّ أشبه الناس بالحورية إستيريل فى جمال ضحكتها ورأسها مائل إلى الخلف ، وسرعةِ عودتها سرعة جعلت ظهورها أشبه بالرؤيا .

— استودعك الله يا راعىَّ !

— وأنت فى أمان الله يا سيدتى .

ثم ألقت على البغل سلالها الفارغة وانصرفت . فلما غيبها الطريق المنحدر كان يخيل إلىَّ أن الحصى الذي كان يتطاير من حوافر البغل يقع على فؤادى حصاة حصاة ؛ وقد بقى وقعه في أذنى طويلاً ، طويلا . وظللت بقيـة النهار كالوسنان

(١) جنيبتا البعير والبغل ما يحمل على جنبيه

لا أجرؤ على الحركة مخافة أن يتبدد هذا الحلم .

فلما تضيفت الشمس للغروب ، وأخذت بطون الأودية تزرقّ لدنو المساء ، والأغنام الثاغية يتضام بعضها إلى بعض لتدخل الحظيرة ، سمعت صوتاً يهتف بي من المنحدر ، ورأيت فتاتنا ترجع لا متهللة ولا متدللة كما كان يظهر عليها منذ هنيهة ، ولكنها كانت ترتجف من الخوف وترتعش من البلل .

والظاهر أنها حين بلغت أسفل الجبل رأت نهير (السرج) قد طما وفاض بعد المطر ، فأرادت أن تغامر فى عبوره فأشفت بها المغامرة على الغرق .

وأقطع ما فى الأمر أنها فى هذه الساعة من الليل لا تستطيع أن تفكر فى العودة إلى الضيعة ، لأنها وحدها لا تتبين معالم الطريق ولا تأمن عوارضه ، وأنا لا أستطيع أن أترك القطيع لأبلغ بها موضع الأمن . والتفكير فى أنها ستقضى ليلتها على الجبل فى هذا المكان يُعضّ قلبها بالهمّ ويقضّ جنبها بالقلق ، لأن أهلها على الأخص سيبيتون من الاشفاق والخوف على غير قرار ولا سكينة . فسكّنت رَوْعها وأزلت خوفها وقلت لها :

لا بأس عليك ! إن ليالى بوليو قصار ياسيدتى ؛ وليس فى الأمر على سوئه ما تخشى عواقبه ، والهم ساعة ثم ينقضى !

ثم أسرعت فأوقدت النار بالحطب الجزل لتجفف عليها قدميها وثوبها ، فقد كان لا يزال يرف من ماء النهر ؛ ثم وضعت بين يديها شيئاً من اللبن والجبن وعزمت عليها أن تأكل . ولكن الصغيرة المسكينة ما كانت تفكر فى طعام ولا دفء . وغلبها الأمر على العزاء فاستكانت للعبرة ؛ وهاج ذلك من نفسى فدمعت عيناى أنا أيضاً

* * *

على أن الليل كان قد غشى الأرض ، فلم يبق إلا غبار من الشمس على شعاف الجبل ، أو بخار من الضوء على حواشى المغرب ؛ فطلبتُ إلى الآنسة أن تدخل الحظيرة لتستريح وتغفو ، وبسطت لها فروة جديدة من جلود الخراف على فراش من القش الطرى الوثير ، ثم تمنيت لها ليلة سعيدة ونومة هنيئة ، وخرجت فجلست أمام الباب .

شهد الله أننى على الرغم من نار الحب التي كانت تحرق دمى وتلذع شَغاف قلبى لم يَرِد على فكرى خاطر سوء ، ولم تقم بنفسى رغبة منكرة . اللهم لا شىء إلا نخوة شديدة فيها الكبر وفيها الفخر ، لأن فى زاوية من زوايا الحظيرة ، وعلى مقربة من القطيع المستطلع ، ترقد ابنة سيدى فى رعايتى وحمايتى ، كأنها نعجة لم يخلق الله فى قطعان الأرض أغلى منها قيمة ولا أنصع منها بَشرة !

أبداً لم أر السماء فى مثل هذا العمق ، ولم أشاهد النجوم على مثل هذا البهاء . كل شىء فى الكون مما حوالى قد تغير فى نفسى وفى عينى هذه الليلة !

كان بصرى يجول فى رقيع الجلَد ، وفكرى يسبح فى أجواء الخيال ، وإذا باب الحظيرة يفتح ، والآنسة الجميلة تخرج ! نبا بها الفراش فلم تكتحل عيناها بنوم ! لأن الغنم كانت تحدث فى القش خشخشة وهى تتحرك ، أو تردد الثغاء وهى تحلم ، فامتنع عليها الرقاد فآثرت أن تكون بجانب النار . فلما رأيت ذلك منها طرحت على كتفيها فروتى ثم أرّثت النار وهيجت اللهب وجلسنا نصطليها جنباً إلى جنب ، لا ننبس بكلمة ولا نهمّ بحديث

* * *

لو كنتَ قضيتَ ليلة فى العراء تحت النجوم لعرفتَ

أن عالماً خفياً يستيقظ في الوحدة والسكون حين يرقد الناس وتسكن الجوارح . حينئذ ترسل الينابيع شدوها الواضح ، وتشعل الغدران ألهابها الصغيرة ، وتذهب الأرواح وتجيء حرة طليقة ، وتشعر أن في الهواء حفيفاً لا يكاد يُحس ، وجَرْساً لا يكاد يُدرك ، فيخيل إليك أنك تسمع الغصون تنمو والأعشاب تنبت

إن النهار معاش كل حي ؛ أما الليل فمعاش كل شيء . ومن لم يتعود هذه الظواهر أحس لها رهبة وأوجس منها خيفة . لذلك كانت فتاتنا ترتعد من الخوف ، وتميل على وتلتصق بي كلما طار إلى أذنيها صوت أو حركة . وعلى حين بغتة ارتفع إلى أسماعنا من الغدير البراق صوت طويل شجي متموج ، وفي اللحظة نفسها انسابت في أجواز الفضاء نجمة جميلة فسامتت رأسينا ، ثم هوت في اتجاه الصوت كأنما كانت هذه الأنَّة التي سمعناها تحمل معها هذا الضوء الذي رأيناه

فسألت اصطفانيت في صوت خافت :

— ما هذا ؟

فأجبتها : هذه روح تدخل الجنة ياسيدتي . ثم رسمت بيدي على صدري علامة الصليب

فصلَّبت هي أيضاً ، ومكثت برهة مرفوعة الرأس مشدوهة الفكر متزايلة المشاعر ثم قالت :

أحقٌّ أنكم يا معشر الرعاة سحرة ؟

فقلت لها : كلا يا آنستي ؛ ولكننا في الجبل نعيش على مقربة من الكواكب ، فنحن نعلم من أمرها وسرها مالا يعلمه سكان السهول

وكانت لا تزال تنظر في النجوم وقد اعتمد رأسها على كفها واتشحت بجلد الخروف ، فبدت كأنها راعٍ سماوي صغير ؛ ثم قالت في لهجة الإعجاب والعجب :

ما أكثر النجوم وما أجملها ! أبداً ما رأيتها على هذه الكثرة وفي هذا الجمال ! هل تعرف أسماءها أيها الراعي ؟

أجل يا سيدتي . أنظري ! إن فوقنا تماماً «طريق القديس جاك» (بريد المجرة) إنه يسير من فرنسا قُدُماً إلى إسبانيا . خطه القديس جاك دي غاليسيا للبطل شرلمان ليدله به على الطريق الواضح في حروبه الشعواء مع العرب . وعلى بعد منه ترين « مركبة الأرواح » (الدب الأكبر) بمحاورها الأربعة المشرقة. فالنجوم الثلاث اللاتي يسرن في المقدمة هن الخيول ، وهذه النجمة الصغيرة التي ترينها تلقاء النجمة الثالثة هي السائق . أترين ذلك الوابل من النجوم الذي يتساقط من حولها ؟ تلك هي الأرواح التي لا يريدها الله في ملكوته

وأدنى من ذلك قليلاً تبصرين «مشط البستاني» أو الملوك الثلاثة (الجوزاء) : تلك ساعتنا معشر الرعاة نُوَقت بها حركات الفلك ؛ فما هو إلا أن أنظر إليها كما أنظر الآن حتى أعرف أن الليل قد انتصف ، وأن نصفه الأول قد مضى . وأدنى من ذلك قليلاً نحو الجنوب يلمع «جان دي ميلان» وهو شعلة الأجرام الفلكية (الأبرق)[1] . وإليك ما يزعمه الرعاة عن هذا النجم : يزعمون أن «جان دي ميلان» هو و«الملوك الثلاثة» و «قفص الفراريج» (الثريا) كانوا مدعوين ذات ليلة إلى عُرس نجمة من النجوم الصديقة . وكان «قفص الفراريج» مُعْجلاً فسار أول المدعوين واتخذ الطريق الأعلى . أنظري هناك تجديه في أقصى السماء . وقطع « الملوك الثلاثة » الطريق من أسفل

(١) من نجوم الشعرى اليمانية .

أسفل فلحقوا به . أما الكسول النؤوم « جان دي ميلان » فقد قعد به كسله ونومه عن اللحاق فظل في المؤخرة ؛ وثارت به الحمية فرماهم بعصاه يريد أن يقفهم بها . ومن ذلك سُمي « الملوك الثلاثة » عصا « جان دي ميلان » أيضاً

على أن أجمل الكواكب جمعاء إنما هو كوكبنا يا سيدتي : كوكب الراعي ؛ ذلك الذي يضيء لنا في الفجر حينما نغدو بالقطيع إلى المرعى ، وفي الغروب حينما نروح به إلى الحظيرة . وإنا لنسميه أيضاً (ماجلون) : ماجلون الجميلة التي تجري وراء « بيير دي بروفنس » (زحل) ثم تتزوج منه كل سبع سنين. فقالت الجميلة :

— كيف أيها الراعي ؟ وهل بين النجوم زواج ؟

— نعم يا سيدتي ولا ريب

وأخذت أشرح لها كيف يكون زواج النجوم وقران الكواكب ، ولكني أحسست شيئاً نديًّا رقيقاً يقع على كتفي في لين ورفق . ذلك كان رأسها الجميل أماله خَدَرُ النعاس فاستلقى على في تكسر قليل جميل نال الشريط المزدهر ، والمخرَّم المكوي ، والشعر المموَّج . وباتت هكذا لا تفيق ولا تتحرك حتى شحب وجه السماء ، وذوى روض النجوم ، وغرقت هوادي الليل في ضوء الصباح المنتشر . وكنت أرامقها وهي في حضن الكرى وفي أعماق نفسي ثورة ، وفي صميم قلبي اضطراب . ولكنني كنت في حمى هذا الليل السافر الباهر لا أهم بسوء ، ولا أفكر في ريبة ، ولا أخْطِر ببالي غير الخواطر الجميلة . وكانت الكواكب من حولنا ومن فوقنا تواصل سيرها الذلول الصامت كأنها القطيع الوديع الضخم ، وقد تمثل في نفسي لحظة من اللحظات أن نجمة من هاتيك النجوم هي أجملها رُواء وأبهرها ضياء قد ضلت طريقها فأقبلت عليَّ واستلقت على كتفيَّ لتنام !

الزيات

الشهرة بعد الثمانين

مترجمة عن الإنجليزية

للأستاذ عبد اللطيف النشار

لم يقولوا للمستر « إيدي وارن » إنه في اليوم الذي يبلغ فيه عامه الثاني والثمانين سيرى آماله في الحياة وقد تحققت كلها : تلك الآمال التي قضى العمر في النزوع إليها . ولكنهم أخبروه بأنه في ذلك اليوم سينال نعمة يكون لها أثر حسن في بقية حياته

وكان « إيدي » منذ السادسة عشرة من عمره موسيقياً يشتغل في المسرح ، لكنه لم يكن قط نابغاً في مهنته . ولم يتهمه أحد قط من أصحابه على كثرة عددهم بأنه من العبقريين . فقد كانت شخصيته عادية لا ميزة لها سوى شدة ما بها من الغموض

لكنه كان يحب المسرح من كل قلبه ، وكان يعتقد أنه طيب القلب . وكان لذلك يثق بنفسه ثقة عظيمة . ويرى أن هذه الثقة هي السبب في احتماله حرفته كل هذه المدة الطويلة دون أن يصادف منها نجاحاً ودون أن يطمح في بلوغ غاية

وكان « إيدي وارن » رجلا متواضعاً ، ولولا اعتقاده أنه طيب القلب لما قبل أن يشتغل في مسرح من أحقر المسارح في حي منعزل من أحياء المدينة الفقيرة . لكنه بالرغم من تواضعه واقتناعه كان يعبس ويقطب في بعض الأحيان ، ويقول لأصحابه : « سيأتي يوم من الأيام ترون فيه اسمي مكتوباً بحروف من النور في شارع « وست أند »

يُكتب اسمه بالأنوار ! ذلك أمل لا يبلغه من الممثلين غير العظيم النابه الذي يستحق أن يقرأ إسمه

كل رجل وكل امرأة وكل طفل فى لندن . وكان وارن يعتقد أن سيأتى يوم ينال فيه ذلك المجد فيرى اسمه مضيئاً أمام أكبر مسرح فى العاصمة .

وقد بلغ الآن الثانية الثمانين ولما ينل هذا المجد . وكانت صحته سيئة ، حتى لقد أشار عليه أطباؤه ألا يطيل الجلوس بين أصدقائه ، فقضى ثلاثة أعوام فى فراشه لا يبارحه إلا إلى المسرح . وهو يحلم بأنه سيأتي اليوم الذى يري فيه اسمه مكتوباً بالنور

وكان أمله فى المسرح لا يبشر بذلك ؛ فإن مئات الألوف سمعوه وهو يغنى ، ولكن الذين يذكرونه لا يتجاوز عددهم مائة . على أنه كان ذا أصدقاء حقيقيين يربو عددهم على أصدقاء أى موسيقى آخر . وكانوا من مختلف الطبقات : من أدنى السوقة طبقة إلى أعلى العسكريين مرتبة ، وفيهم الممثلون والممثلات ؛ وله على الطائفة الكبيرة أفضال سابقة ، فهو لذلك حائز لثقتها ، فقد كان يخلص النصح لكل فرد من أفرادها عند حدوث الأزمات . وكان رأيهم فيه قبيحاً ، ولكنهم على الرغم من ذلك يحبونه .

ولما علموا بقرب عيد ميلاده الذى يبلغ فيه الثانية والثمانين جدوا فى العمل واشتركوا فى تقديم هدية عظيمة إليه، ودبروا لذلك تدبيراً بديعاً يعود عليه بالكسب الوفير بعد الحفلة التى عزموا على إقامتها وأعلنوا عنها . ولم يكن الجمهور على علم بصاحب هذا الاسم الذى تقام الحفلة من أجله

واستأجر الممثلون المسرح من دون أن يخبروه . وفى المساء الذى تقام فيه الحفلة جاءوا إليه بعد أن جن الظلام فوجدوه فى حالة ضعف شديد فقادوه إلى المسرح فى عربة . ولما وقع بصره على اسمه مكتوباً بالنور كوفئ الممثلون على متاعبهم وعلى ما أنفقوه من المال بما أدخله صاحبهم الفانى على أنفسهم من السرور . وبدت على ثغره ابتسامة مضيئة ، وضحك ضحكة من استخفه الطرب . وكان الإعلان بالمصابيح يتضمن هذه العبارة :

إيدى وارن الموسيقى الممثل الغريب الأطوار

الاسم بالأنوار ! نسى وارن فى هذه اللحظة أنه مريض ، ونسى كل شيء إلا أن المعجزة التي كان يرجوها قد تحققت ، وأنه قد بلغ ما كان يرجو

اسمه ! اسمه هو لا اسم رجل آخر ! اسمه بالنور ! وكان العرق البارد يتصبب من جبينه، ولكن ثغره مشرق بابتسامة وقلبه خافق بنشيد

وكان المسرح غاصاً بالناس بفضل النشاط الذى أبداه الممثلون . ولما جاء موعد رفع الستار حملوا «إيدى» إلى المسرح ووضعوا على صدره «الكمان»

مسح الرجل عينيه من دموع الضعف ودموع الهرم ودموع السعادة ، ثم وقع بضعة ألحان مرحة . ولما أوشك الدور أن ينتهى سقط « الكمان » من يده وصاح من كانوا على منصة المسرح :

« الطبيب ! الطبيب ! إن إيدى قد ... »

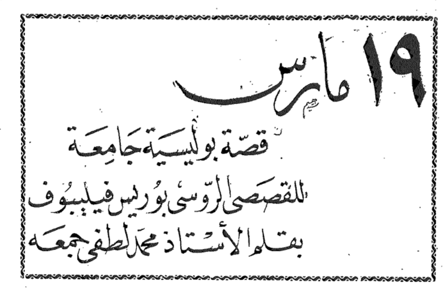
وهرعوا إلى جسمه الضئيل فخيل إليهم أنهم لا ينظرون إلى جثمان ميت ، فإن الوجه يضيء بالبشر ، والشفتين يفتران من ابتسامة

وسأل أحدهم الطبيب :

« أخبرنا هل هو .. ؟ هل هو ... ؟ »

وقبل أن يجيبه الطبيب دخل عامل الكهرباء مهتماً فاندس بين الواقفين دون أن يلاحظ سبب اجتماعهم وقال : « لقد حدث خلل فى الجهاز الكهربائى الذى يضيء فى الشارع فانطفأ النور الذى على باب المسرح وانطفأ اسم «إيدي وارن»

عبد اللطيف النشار



وصلت مدينة جنيف عند الظهر في ذلك اليوم الذي لا أنساه ، وكان المطر نازلاً من السماء كما لو كان هابطاً من أفواه القِرب التي أفلتت من أيدي السقائين ! مطر أحمر ممزوج بتراب قرمزي كأحسن ما يصنع المصورون لتلوين لوحاتهم . مطر ثقيل غزير كحبات كبيرة من العقيق الأحمر الذي يؤتى به من بلاد العرب السعيدة ، ليجعلوه أقراطاً للنساء وحلية لخواتمهن . مطر غريب بلون الدم السائل من جراح الملائكة في معركة حامية وراء السحاب . مطر لم يرَ أهل المدينة مثيله ولم يعلموا تعليله . وكنا على أعتاب الربيع ، أليس هذا عجيباً ؟ هل يدل على الخير أو الشر ؟ ؟ لم أكن أعرف الطيرة ، فلم أكترث وجلست أرقبه وأزدرد غدائي في مطعم روسي بشارع كوراتري كان يأوي إليه دفنسكي وكارتفسكي وأوليانوف وغيرهم من المهاجرين ؟ ولكنني لم أجد أحداً منهم لأنهم لا يردونه إلا وقت العشاء . أما في تلك الساعة فكانوا لا شك في سررهم يغطون في نوم عميق ، لأنهم يقضون معظم ليلهم في الثرثرة وشرب الشاي وانتظار الفرج في المستقبل القريب ... أو البعيد ... فلم أجد أحداً ألهو بالحديث إليه سوى خادمة المطعم ، وهي الأخرى روسية حسناء ... بنت جنرال أو أمير بحر في خدمة القيصر وقد تركت الأهل والأوطان لتنشد الحرية في الغربة وهي أبية أشد الإباء ، عفيفة حتى عن الحلوان الذي يجود به الطاعمون . فلم أجد ما أقوله إلا أن أسألها عن نزل أحط فيه رحالي ، ولو إلى حين . ولما خاطبتها بالروسية ابتسمت وغضَّت من بصرها ، وأجابتني بالفرنسية : إنها لا تفهم اللسان الذي كلمتها به ! ! لتخفي شخصيتها وتظهر كرامتها ؟ ولكن لم يكن أصلها وجنسها ليخفيا على أحد من أهل وطنها . فهذا الجمال البارع والقد الفارع والشعر الذهبي والأعين الفيروزية والبشرة الناصعة ، لا تكون لواحدة من بنات أوروبا الغربية . وأخيراً أخذت أسأل نفسي أتكون تلك الصبية بغير حليل أو خليل ؟ وهل تعيش على الخبز والمثل الأعلى ، ولا تشعر بحاجتها إلى الحب ؟ وكان المطر ما زال هاطلاً ، وكنت انتهيت من غدائي ، ولم يبق لي إلا أن أنصرف . فقالت لي :

— عليك بنزل راسين في خطة سان چورچ ، تركب إليه مركبة الكهرباء من ميدان بليره على قيد خطوات من هذا المكان ، فتقف ببابه

فنهضت وودعتها ، وأخذت سمتي إلى موقف الترام وانتظرت تحت سقيفة من الخشب المطلو باللون الأحمر ؛ غير أن المطر جرف اللون فازداد حمرة وهو يتساقط في خيوط متواصلة كأسلاك من

النحاس الأحمر متصلة بين السماء والأرض . كانت مركبة الكهرباء خالية إلا من راكب واحد ، شائه المنظر ، شره العين والأذن ، رث الهيئة أخذ يرقبني عن كثب ، ويتظاهر بالقراءة في « جورنال دى جنيف » وهو لا يقرأ في الواقع إلا صحيفة وجهي ، ولا يدرس إلا ثيابي يحاول أن يتفهم شخصيتي من ألفي إلى يائي ... وكان الخبيث يرهف أذنيه ليتسمع الحديث بيني وبين نفسي ؛ فلما أعطاني الملتزم تذكرة ونقدته ثمنها ، أخذ يسأله ويتلقى جوابه في حذر ، وقد كان بلا ريب يسأله عن الناحية التي أقصد إليها ، ولكن بائع التذاكر خانه بنظرة في اتجاهي ، فخنق الراكب الدميم القذر عليه وغضب وأدار وجهه ولزم الصمت حتى ظننته مجنوناً فأخذت أقرأ في كتاب ، ولم آت على صفحة كاملة حتى اهتديت إلى حقيقة الرجل أو ماظننته حقيقة أمره . لا بد أن يكون جاسوساً روسياً يتعقبني كعادتهم : يتعقبون كل شاب روسي في البلاد الأجنبية ... خصوصاً إذا كانت ميوله مجهولة ... آه فطنت الآن فقط ! هذه البنت الملعونة خادمة المطعم لابد أنها «أرشدته» إليَّ بعد أن وجهتني إلى المكان الذى تريده ، لأبقى تحت مراقبتهم . إذن هي قعيدة الجواسيس وكبيرة المخبرين وشيخة « البصاصين» في هذه البقعة . وها قد وقعت أول ما وقعت في فوهة البركان ، أو بين فكي الأسد ! لله ما أذكاني وما أيقظ شعوري ! لقد دلني قلبي على الفخ الذى يجب أن أسقط فيه ... ولكن علامَ هذا الاضطراب وتلك الوسوسة ؟ أمطلوب أنا لحكومة القيصر ؟ أم أني فوضوى أو ثائر خطر ؟ لا هـذا ولا ذاك ... لست «مشبوهاً » وليس في تاريخي تهمة تقتضى التقصي

والاقتفاء . ولكن ماذا تصنع لتلك الحكومة التي لاتعيش إلا في ظل جيش عرمرم من الجواسيس ، ولا تكتفي بمراقبة الرجال ، بل أشباه الرجال وأشباح الرجال ... دع عنك أن شعورك بأنك موضع الريبة ومثار الشكوك يشل حركتك ، ويعرقل سعيك ، ويربك أعمالك ، ويقصى الناس عنك . فماذا أنا فاعل إذاً ؟ بلغت المكان الذي أقصد إليه ، وكان هـذا الفظ الثقيل في أثرى ، يتحرى اسمى ولقبي وسنى وصنعتي ومقصدي ومصدرى ومواردى ، ثم أقع في عش زنابير ، تُعدُّ فيه أنفاسى ، وتقاس خطواتى ، وتلتقف كلماتى ، وتعبث الأيدى بأوراقى ، وتختلس صورى ، وتنتهب نظراتى ، ويسترق السمع من وراء أبوابي ونوافذى ؛ إنها إذن حياة لا تطاق وعيشة بغيضة وسجن لايحتمل . فماذا أنا صانع لأضالل هذا الوغد الذى لم يؤت من « الفن » ما يكفى لإخفاء أمره على فريسته ؟ تمنيت لو لم أكن روسياً من مواليد ١٩ مارس سنة ١٨ بمدينـة كييف بنذر مقاطعة يادولى ... وعند ذلك ذكرتُ أن اليومَ عيد ميلادى ، وأننى جئت جنيف لأرى الشمس وأزهار الربيع وزرقة الماء في البحيرة الشهيرة ، وقمة الجبل الأبيض المعتمة بالجليد . فإذا بالشمس محتجبة وراء براقع سميكة من الغيوم المتراكمة ، وإذا السماء تمطر ماء أحمر كالدم القانى ؛ أما الأزهار فقد انثنت أعناقها وطأطأت رؤوسها ؛ وإذا بي أقع في مخالب تلك الجاسوسة الحسناء التي أسلمتنى بغير جريرة ولاذنب لذلك « المخبر » المتهتك في حرفته الحقيرة ... فياله من عيـد ميلاد سعيد ! ويا ليتنى بقيت في لوزان العزيزة ، آمناً في سربى ، مطمئناً في غرفتي ، محاطاً بعناية مدام بروشيه التى لا عيب فيها إلا ثرثرتها !

(٢)

فأين أنا منها الآن ! وأين هى منى فى تلك الغربة الموحشة وليس بينى وبين بيتى الذى آوى إليه فى « أفينوديز آلب » إلا بضع ساعات فى القطار . وأخيراً فكرت فيما ينجينى من الخطر ويضيع على هؤلاء الشرار جهودهم . وطال تفكيرى ، ثم هدانى إلى النزول عند الوقفة الأولى كمن بلغ غايته فإذا تبعنى « فحل الذئاب[1] » الذى يقتفينى بأمر « خضراء الدمن » التى باعتنى بغير ثمن ولا ثأر ولا حقد مبيَّت ، فأسأله عن علة تتبعى ، فإن لم أتخلص منه بهذه الطريقة السهلة أستغيث بالشرطي وأصمم على اقتياده إلى مقر الجند ، لأقف على داعى تجسسه . فإن مجابهة الخطر وتعجل الحوادث ولو كانت مُعقدة خير من الخوف ولو كان خياليًّا ، وأروح للنفس من القلق ولو أنه من ثمرات الذهن الـكليل ...

وقف الترام ونادى « الملتزم » : سان جورج . بتى لانسى . القرافة والبستان — كاميانى راسين ! ! آخر الخط — ترمينوس

ولم يكد الـكمسارى ينعق بتلك الأسماء متتالية حتى أسقط فى يدى ووقفت كل شعرة فى بدني — لا رُعباً ولا فزعاً — ولـكن غضباً وغيظاً . ونزلت مرغماً ؛ وقبل أن أستدير رأيت الرجل يدنو منى فى أدب وخجل لم أعهدها منه فى المركبة ، وقد كشف عن رأس أصلع لامع كقشر الرمان ناعم كبطن الأفعى أجرد كالصحراء وقال :

— لعل سيدى يقصد إلى نزل راسين ؟

— وما شأنك أنت إن كنت أقصد إلى تلك الحفرة من جهنم أم لا أقصد إليها ؟

— شأنى ؟ أنا صاحب النزل ياسيدى ، وسترى أنه ليس حفرة من جهنم بل روضة من النعيم ...

— ولماذا كنت تقتفى أثرى منذ ركبت الترام ؟

— توسمت أنك سيد غريب تريد الإقامة فى مكان هادىء فأردت أن أؤدى خدمة لك ... ولنفسى . تفضل أولاً بالدخول لتستريح من وعثاء السفر ، فآثار التعب بادية عليك . وعندنا حمام مستعد ومائدة لا تخلو من الطعام الشهى . وكان المطر الأحمر لا يزال يهطل ولـكنني لم أكن أبالى .

وفى تلك اللحظة أطل من باب الشرفة طفلان كالملائـكة وقالا فى نفس واحد :

— بابا . أدخل وادع السيد معك ولا تتلقيا هذا المطر الأحمر الفظيع ، إنه كالدم ! فقال الرجل « بونجور فرد ! بونجور ڤيجو ! » فقالا فى صوت واحد « بونجور بابا » . فسري عني وقلت لنفسى : لا يكون هذان الطفلان من أعوان المؤامرة علىّ ، فإنهما أطهر من أن يكيدا لغريب . البيت الذى فيه أطفال مأمون العاقبة . ثم ألقيت بنظرة أخري فإذا الأشجار الباسقة تظلل المدخل ، والزرع الأخضر المخضل بالمطر الأحمر قد اكتسى حلة غريبة يعجز عن التفنن فى تأليف ألوانها أمهر المصورين . فدخلت وصعدت الدرج والرجل يسبقنى ببضع خطوات . ولم أكد أصل إلى الردهة حتى تقدمت إلىّ خادم وتناولت عصاى ومعطفى وقبعتى وخلعت بيدها حذائى (كما لو كنت فى بيت أهلى فى روسيا) وتقدمنى راسين نفسه (جاسوس الترام) إلى الحمام حيث الماء الدافىء وصابون جولدفلور الذى أفضله

(١) خير تعريب لـكلمة mouchard الفرنسية

على سائر أنواع الصابون وفوطة نظيفة وقناني وأحقاق وأدوات زينة كاملة العدد . وقال لى وهو يغلق الباب وراءه : سيكون الشاى معداً عند خروجك . وإذا كان لديك متاع فى « مستودع الأمانات » بالمحطة ، فما عليك إلا أن تعطينى رقمه لنحضره بالتليفون ونسلم الوصول لحامله بعد نقد أجره ، فما دريت إلا وأنا أسلمه الوصول بيدى فابتسم وانحنى وقال « شكراً سيدى » كأمهر خادم فى أرقى فندق ...

فأقلقتنى هذه الابتسامة الخبيثة من ذى الوجه المشوه والرأس الجدب . ولكن أدبه وصوته كانا يناقضان تشويهه ودمامته ، فما رأيت مخلوقاً بعضه يكذب بعضه غير هذا الرجل : راسين ذى العينين الزرقاوين واللعاب السائل والشعر الأشقر اللعين . ولكنه لم يمهلنى حتى أفكر فى دمامته ، واتصل كلمح البرق بمخزن الودائع اتصال المتعود ، وكلف الموظف بارسال المتاع على جناح السرعة ...

وبعد برهة قصيرة كنت جالساً إلى مائدة أنيقة أشرب الشاى وأتذوق الفطائر اللينة الدسمة . واختفى راسين ، فظننته منكباً على تدوين تقرير مفصل ليرفعه إلى رؤسائه !

وفيما أنا أشرب الشاى مشرد الفكر ، غير عابىء بلذة الراحة بعد التعب والرى بعد الظمأ بقدر انشغالى بما ينتظرنى على يد هذا الجاسوس المتظرف أطلت «فيجو» وأخوها « فرد » من باب الغرفة وحييانى تحية الود

فاستدرجتهما بناعم القول ، وسألتهما عن السيد الذى قالا له « بابا » وكنت أظن حتى تلك اللحظة أنهما يمزحان أو يمثلان دوراً تلقناه .

فهمسا — وقد استولى كل منهما على أذن من أذنى — انه لا يستطيع أن يدخل إلى قاعة الاستقبال مادام فيهاضيف ، هذا تنبيه ماماعليه ! وهو لا يستطيع مخالفتها وإلا ... برر ... برر ...

وأخذ الطفلان يغردان فى أذنى ويلعبان أمامى كالطيور الصغيرة المَرِحة .

وبعد برهة سمعت صوت الحمال ورأيت حقائبى تحمل إلى أعلى الدار ، ولم يطلب أحدٌ منى حساباً ، وجاءت جانيت تخبرنى أن غرفتى قد أعدت وأن متاعى قد نقل إليها فما علىّ إلا أن أصعد ريثما تعد لى الحمام الدافىء كأمر سيدتها مدام راسين . فتركت الطفلين وتبعت خطاها إلى غرفة رحبة أنيقة الأثاث شرقية شمالية تدخلها الشمس ويتخللها الهواء ، وكان المطر الدامى لم ينقطع ، والغرفة مطلة على الحديقة تتراءى للناظر من نوافذها مباهج البستان وتسمع منها أجراس كنيسة عتيقة ، تخفى وراء أبراجها الضخمة المناظر الأخرى التى ورد اسمها على لسان الملتزم فى الترام ...

ففتحت جانيت الحقائب وصففت الثياب فى مواضعها من الصِّوان وأطلقت سراح الكتب التى كانت كالأسرى مكتوفة الأيدى مكتومة الأنفاس فى ظلام الصناديق وتركتنى لتعد الماء الساخن . وبعد فترة كنت أختال فى ثياب جديدة وبدت علىّ نضرة النعيم وألقيتُ نظرة على كتبى ، ولكن قلبى اضطرب واستولى علىّ القلق مما يدبره لى ذلك الأصلع اللعين . وزادنى جزعاً أننى لم أجد فى المنزل أحداً سواى . ولم أعهد فندقاً يخلو من المقيمين

والراحلين غير هذا . وبعد أن أجلت الطرف فى الأشجار سمعتُ دقات جرس وجاءت جانيت تنبئنى بحلول موعد العشاء وهو فى السابعة — وقد تعودت أن أتمشى فى لوزان قبيل التاسعة أو بعدها بقليل فانحدرت على مهل أنزل الدرج وأفكر فيما عسى أن يحدث لى

ولم أكد أصل إلى غرفة الطعام حتى دخلت علىّ سيدة فى الثلاثين من عمرها لم ترَ عينى أجمل منها ولا أبدع وأروع . وقبل أن أتمكن من استجلاء روائها وأمتع الطرف بمنظرها الفتان بدرتني بالتحية والابتسام ، ودعتنى إلى الجلوس على رأس المائدة كأننى صاحب الدار ، وجلست إلى يمينى في ثوب من الحرير الأزرق وحول عنقها عقد من حجارة زرقاء كريمة ، وفى أذنيها قرطان من الياقوت. ولما كان الجو لايزال رطباً من أثر المطر واحتجاب الشمس فى ذلك اليوم — عيد ميلادي ١٩ مارس — فقد وضعت على كتفها شالاً من الحرير الأبيض ، وتعطرت بخلاصة الأزهار فتأرج منها الطيب منعشاً مغرياً خلاباً

واندفعت تتكلم وتضحك حتى لكأنها عرفتنى منذ الصغر

وبعد برهة دعت بولديها فرد وفيجو فجلسا على يسارها ، وجاءت الخادم (جانيت) بوعاءين من الحساء فقالت ربة الدار : هذه خلاصة اللحم ، وتلك خلاصة الخضر والبقول ، فأيهما تفضل ؟ فإن لدينا طعاماً لكل ذي ذوق . أما أنا فأختار لك خلاصة اللحم لأنها تقويك . فلم أخالف لها إشارة لأنها كانت تتكلم بلهجة الآمر الناهي الذى تعود أن يُطاع . وبعد هنيهة دخل الغرفة فى ذل واستخذاء — يجر رجليه ويتلفت خلفه وينظر نظرة الوجل والحذر — راسين — جاسوس الترام — فجلس فى طرف المائدة — فقالت له السيدة :

— دائماً متأخر ؟

فأجابها بصوت الطفل المذنب :

— عفواً ياعزيزتى . فقد كنت ...

ولكنها لم تمهله حتى يتم كلامه ونظرت إلىّ باسمة ساخرة وقالت :

— حضرته زوجى مسيو راسين . ثم دفعت بوعاء الحساء فى ناحيته فنهض ومد ذراعيه كالعابد المنتظر الالهام ، وصرفت السيدة نظرها عنه كما يصرف رب الدار اللئيم نظره عن ضيف ثقيل أو زائر متطفل . وأخذت تؤنسنى وتقدم إلىّ الطعام وتنقله من الصحفة إلى أطباق مختارة ألذه وأدسمه وأشهاه وهى لا تداعب طفليها إلا قليلاً . وتناولت قنينة من البلور فيها ماطاب من نبيذ الكروم الغنية ، وسكبت فى قدحى من ياقوتها ورأيت راسين ينظر إلى دورق البلور وقد لمعت أضلاعه وكواكبه بنور الكهرباء وحمرة الخمرة ، وهو يداعب كأسه بأنامله يريد أن يملأها ، فاقترحت أن يشاركنا فقالت :

— إن زوجى لايشرب النبيذ فقد نهاه الطبيب . أليس كذلك ياراسين ؟

فقال المسكين مغمغما : نعم ... نعم ... نعم ياعزيزتى

ولم يطفىء المسكين ظمأه إلا بالماء القراح الذى لا طعم له ولا رائحة ولا لون ...

ولما جاء دور الفاكهة تناولت سيلين (وكان

هذا اسمها) برتقالة وقشرتها وفصلت فصوصها عن بذورها بمهارة وأضافت إليها السكر وعصير الزهر وقدمتها إلىّ مبتهجة ، ودحرجت لزوجها برتقالة مريضة صفراء مجعدة . ولو كان فى البرتقال إناث عوانس لكانت منها تلك التى زفت إلى راسين .
ونهضنا عن المائدة وانتقلنا إلى غرفة الجلوس ، فسارت أمامي ، لا لتتقدمني ولكن لتريني قدّها وثوبها ينحدر من خصرها الناحل إلى كثيب أردافها المتزنة ...

وأخذت مكانها بجانب البيانو بحيث أرى وجهها وأسمع صوتها وأمتع الطرف بأناملها الدقيقة الطائلة وهى تداعب مفاتيح العاج ، وأخذت تعزف أنغام « حديقة بللها القطر » من أطرب ما ألفه « تشيكوفسكى »

وفى أثناء العزف دخل راسين يتسلل كالجرذ المسلوخ بصلعته البراقة التى أشبهت فى نظرى مؤخر قرد عتيق ، فلم أستطع أن أكتم ضحكى فوقفت سيلين ونظرت إلىّ قائلة :

هل يضحكك عزفي ؟

فقلت : لا ...

فنظرت إلى زوجها وقالت : أنت هنا ؟ ألم أقل لك أن ترقد الأطفال أولاً ؟ فقال : لقد ذهبا إلى جدتهما ليلهوا بحديثها قبل النوم

فقالت : هذا حسن ، تعلم أننى أصير فريسة أعصابى إذا غنيت فى حضرتك ثم لا تفارقنى ؟

فقلت لها : ذريه يا سيدتى يؤنسنى فى السهرة الأولى . فنظرت إلىّ وسكتت على مضض ، وجلس الرجل مكتئباً منقبض النفس . فقالت سيلين :

— خير ... ما دام السيد ومالت إلىّ تريد أن تتعرف اسمى فقلت : جوديل ستارسكى من كييف يا دولى — طبيب فى طريقى إلى باريس وبرلين . فأبرقت أسرتها وتهللت وتركت البيانو ، وجلست أمامى وقالت لزوجها من جديد :

« ما دام السيد الطبيب يشفع لك فى هذا اليوم وهو عيد ميلادى ، فقد ولدت فى ١٩ مارس سنة ١٨٠٠ وقد نسيت أن تقدم إلى هدية ...

فأردت أن أنقذ موقف راسين الذى تحول بفضى له شفقة عليه ، وقلت :

— عيد ميلادك ١٩ مارس ؟ يا للعجب !

فقالت : وأى عجب فى ذلك ؟ ألأن المطر كان أحمر ؟

قلت : كلا ، بل لأنه عيد ميلادى أنا أيضاً

فاحمر وجه المرأة وانفعلت ولمعت عيناها ، وقالت: إنه عيد سعيد حقاً . وقال راسين : كنت أنتوى أن أتفرغ لانتقاء هديتى إليك ولكن تتبعى السيد وتطوعى لارشاده إلى النزل أنسانى

فقلت : لا عليك يا راسين فقد عفوت عنك

فقالت : أنا الكفيل بهدية العيد لهذه المصادفة السارة

وتجاهلت سيلين وجود زوجها وانصرفت بفكرها ونظرها وحواسها إلىّ ، وكأنها عرفتنى منذ طفولتها فأخذت تحدثنى عن ماضيها ونشأتها فى أسرة غنية ، وكيف أن أباها كان يثير الاعجاب والحسد بما يعمله فى يوم ميلادها إذ كان ينفق المال بغير حساب ، ويوزع الهدايا والتحف على الجميع . وكانت تسخر من زوجها سخرية

جارحة بين الحين والحين ، وترميه بنظرات أحد من الخناجر وأحمى من الشرر وهو يطأطىء الرأس ويغضي البصر . كان حبه لزوجته نوعاً من العبادة المكتومة التى يكنها الرقيق المحروم لمولاته المعبودة

وقد أدرك الزوج المسكين أن الهفوة الصغرى أو الاهمال غير المقصود أو اللفظ فى غير موضعه تفقده البقية الباقية من صبرها عليه فتطرده من البيت أو تقطع عيشه فى غير رفق أو تصادره فى رزقه وتحرمه على الأقل رؤية ولديه (؟) فكانت حاله حال المسكين الذى يراقب مسلك نفسه ويخشى أن يخطىء فينفى ويحرم

وكانت سيلين تتكلم وتلهو وتمزح وأنا فى شغل شاغل ، أقول لنفسى : « أتكون هذه الأسرة من الفطنة وسعة الحيلة بحيث تمثل هذه الأدوار البارعة لاستدراجى ونقل أخبارى ؟ »

وفي الساعة التاسعة نهض راسين وتقدم إلى زوجته وقبل يدها ، وحيانى بانحناء صلعته الجريئة وخرج يتعثر فى أذيال الاستكانة والصغار

وعند ما رأت سيلين ظهره قالت : أف !!

فقلت لها : ليس من حق أن أسألك وأنا ضيفك وقد أبى أدبك وكرمك أن تسأليني عن هويتى قبل أن تقبليني فى بيتك ولم تعرفى ما أدفع لإقامتى

فاحمر وجهها وكادت تصرخ فى وجهى ولكنها ملكت نفسها وقالت :

لم أنتظر أن تحكم عليّ بالضعة حتى هذا الدرك ولكنك معذور لأنك لا تعرفنا ... ومرت بعينيها غيمة رأيت فيها أثر دموع جهدت فى احتباسها وقالت :

— كنت تسألني شيئاً فأكمل حديثك

قلت لها : هل هذا الرجل زوجك حقاً ؟

فأطرقت برأسها ، وقالت : نعم

قلت : وهل هو والد هذين الملكين البريئين ؟ فرد وفيجو ؟

قالت : نعم

قلت : ولماذا تعاملينه بتلك القسوة ، وتمزحين على ظهره مزاحاً أليماً فى حضرة رجل غريب وأنت المهذبة المثقفة ؟ حقاً إن جمالك وظرفك وذوقك كانت خليقة برجل أجمل وأرق وأعلم وأكيس ولكن ما دمت رزقت منه ولديك أما كان الأجدر بك ... فقاطعتني قائلة :

— وهل ولدت حقيقة فى ١٩ مارس ؟

قلت : نعم

قالت ولم تملك دموعها فى هذه المرة :

— كنا أغنياء وهذا البيت الذى تراه معداً لنزول الغرباء كان أحد قصورنا الخلوية ، وكان أبى من أغنى أصحاب مصانع الساعات فى هذه المقاطعة وهو الذى اخترع ساعة الهيكل الشهيرة ؛ فبعد أن بلغت الثامنة من عمرى مرضت وفقدت السمع والنطق ؛ فلم يدخر أبى وسعاً فى علاجى وأنفق نصف ثروته على الأطباء والدجالين والصيادلة والمشعوذين ، ولكن راح المال على غير طائل ؛ وبعد أن كنت طفلة جميلة ساحرة ذوى جمالى وصرت شبحاً أصفر اللون ؛ وبعد أن كنت نامية نمواً حسناً فرهة أسير نحو الأنوثة الناضجة بقدم ثابتة وأمل لامع ، أمسيت مخلوقة بلهاء لا أعى ولا أدرك . وانطفأ نور الذكاء من عينيّ وانقطعت صلتى بالعالم

والناس ، وصرت أداة حية ولكنها معطلة . وبلغت العشرين وأنا على تلك الحال بعد أن جف ماء الحياة من عودى ، وذبلت نضرة الجمال من وجهى ، وانقلبت محاسنى دمامة لا تطاق

فأشار قسيس الحى على أبى أن يزوجنى قبل أن تفوت على تلك الفرصة من العمر فأمسى عانساً خرساء صماء تتقاذفنى أمواج الحياة القاسية . ولم يكن أبى يفكر فى أحد من ذوى المكانة التى تدانينا ، فاحتواه اليأس حتى كاد يقتله ، فدله القسيس على شاب كان يخدم فى الكنيسة ، وينظف مقاعدها ويفتح نوافذها ويغلق أبوابها ويعدها لصلاة الجماعة يوم الأحد . وكان من أسرة طيبة قعد بها الدهر . فبكى والدى وكاد يغمى عليه من الحزن . أما والدتى فكانت فى ذهول لا رجاء فى إفاقتها منه

وأخيراً . تم الزواج

فقلت : وكان هذا الرجل راسين

فقالت والدموع تخنقها : نعم ! ولكن بعد الزواج بأسبوع واحد حدثت المعجزة ، فقد عاد إلى سمعى وبدأت أتكلم كالأطفال وأتدرج في النطق إلى أن استعدت الحاستين كاملتين واستردت حقوق من الحياة ، فتعلمت وتثقفت ، وحاولت أن أرفع مستوى زوجى الشماس فلم أستطع ، فإن من اعوجاج الرجل مالا تملك أقدر النساء تقويمه

وفكرت أن أنفصل عنه . فلم يقدر أبى على نسيان جميله ونسب إليه الفضل فى شفائى ، إن حقاً وإن باطلاً . وفوق ذلك فقد حسبه رجلاً وسلمه زمام ثروته

— ولماذا تدهشين من عرفان أبيك بجميله ؟

قالت : الحقيقة أننى عقيب الزواج ضاقت الدنيا في عيني وتضرعت إلى السماء ، طالبة الغوث والنجدة ، ورأيت في نومي أنني أسمع وأتكلم . ففتحت عيني فإذا الحلم حقيقة . فسرى عني قليلاً وأنا فى أشد الدهشة والعجب

فضحكت وقلت لها :

— يا لك من جميلة تنكرين الجميل ...

فضحكت وقالت : ليس هذا ختام القصة فإن أبى سلمه زمام ثروته وفوض إليه الأمر كله فى التجارة والإدارة وظن أنه يستريح على ظهره كما قلت إنني أمرح على ظهره ، فخسر الأنوك المال والمصنع وضيع التجارة ، ورحنا نحن ضحية جهله وسخافة عقله . ولم نتمكن من إنقاذ شيء من ثروتنا غير هذا البيت الذى وهبه الدائنون لى لأن أكبرهم نصيباً كان يحبنى كإحدى بناته . وهو الذى أشار علينا باتخاذه نزلاً .

فأطرقت أنا بدورى . وكنت بين مصدق ومكذب ، لولا أنها حملت إليّ تو الساعة صورها وهى طفلة ، وهى صبية ، وهى عليلة ، وهى بثياب الإكليل ، ووثائق المصنع ، وتاريخ والديها وصورها . فلم يبق لدى شك فى صدق روايتها ، وكانت الساعة الأولى بعد نصف الليل عند ما نظرت إليّ نظرة غريبة وقالت :

— لا بد أنك يا دكتور قد تعبت ، فقد حملتك أعباء تاريخى فوق أعباء السفر . فانهض ونم نوماً سعيداً فقد أعددت لك فراشاً وثيراً . ونبئنى بما تشتهيه للإفطار حتى أعده لك بيدى

فقلت لها : عندما رأيت الغرفة والسرير قبل

أن أراك وأسمع حديثك تمنيت أن أرقد لأستريح . ولـكن الآن لن يطيب لى النوم ...

فابتسمت وقالت : قم ونم . فلعلك ترى فى النوم خيراً مما رأيت فى اليقظة . فنهضت متردداً آسفاً ، كاسف البال حزيناً ، وقد تخيلت الفتاةالروسية التى تخدم فى المطعم راقدة فى فراش حقير فى غرفة ضيقة . وقد حملت ضميرى وزر اتهامها بما هى بريئة منه ، كما تخيلت راسين البائس الذى يشبه الـكلاب العليمة [1] التى يلبسونها ثياب الرجال المضحكة لتمثل فى اللعب أدواراً قاسية كالقفز من حلقات ملتهبة أو ركوب دراجة محطمة وهى تنبح نبح الـكلاب وتأتى بأعمال البشر خاضعة راضيــة قانعة بقطعة السكر التى تمتد بها يد مدربها القاسى ... وهو الآخر اتهمته وتخونته وظننت به الظنون ، ولم يكن إلا ساعياًفى إرضاء هذه الحسناء بجلب نزيل جديد . واشتقت على الرغم منى إلى الحب الذى حركته فىّ تلك المرأة القاسية المسكينة . ورسبت فى قرارة نفسى حثالة من الآلام والأوهام التى مرت بى من نصف النهار إلى نصف الليل بغير انقطاع . فتناولت يدها وصافحتها وأبقيتها فى كفى فترة ثم رفعتها إلى شفتىّ ، لأنى أحسست أنها كانت تنتظر ذلك منى وترغب فيه

وصعدت أمامى فى الدرج إلى أن بلغت غرفتى وقالت لى وهى تفتحها بيدها « ليلةسعيدة » وراحت فى الظلام تلتمس مرقدها . أين ؟ فى أحضان راسين أم فى حضن الوحدة والخيال ؟ وهى لاشك تفضلهما على حضنه ...

[1] Chiens savants تدرب على أعمال وحركات

فخلعت ثيابى ببطء وانطرحت على فراشى ، وكان التعب قد أضنانى فرحت بعد لحظة فى سبات عميق . وحلمت أن الباب قد انفتح وتسللت منه سيلين على أطراف أصابعها حافية فى سواد الليل ، وما زالت تدنو من فراشى وهى تـكتم أنفاسها حتى شعرت بلهبها فوق جبينى الذى كان يتصبب عرقاً من الفرح والانفعال . وحلمت أننى لمست زر الـكهرباء المعلق بخيط من حرير فوق رأسى فأضاءت الغرفة وفتحت عينى فإذا سيلين نفسها واقفة على قيـد ذراع منى محمرة الوجه لا تنطق ولا تتلفت . وقفت أمامى المرأة التى رثيت لهـا واشتهيتها وجهاً لوجه وقلباً لقلب وجسداً لجسد ، فحاولت أن أتـكلم فلم أستطع ، وبقينا فى صمت عميق أحدنا ينظر للآخر ولا يكاد يراه فخشيت فى لحظة وجل أن تـكون قد عاودها البكم فى أثر الانفعال وأنه قد تعداها إلىّ ! وحاولت أن أنطق لأطمئن على سمعى ونطقى ولـكننى خشيت انفضاح الأمر فى هدوء الليل

فمددت إليها يدى وأنا لا أصدق أنها تقبض على شىء من لحم ودم وخشيت أن يكون تمثال الجمال الذى أمامى خيالاً ألتمس إليه الطريق فلا أجده . ولـكننى جذبتها إلىّ فدنت منى وهى تتمنع تمنع الراغبة وتحاول أن تكسر من طرفها فلا تستطيع ، وأجلستها على حافة الفراش وقلت لها فى همس وقلبى يضطرب وفؤادى ينتفض :

أنت جئت إلىّ وأنا أفكر فيك . إننى لاأستحق هـذه المجازفة الـكريمة . فماذا أقول لك ؟ سيلين سيدتى ... تكلمى .

فتبين الأسى فى وجهها وحاولت أن تتـكلم

فأعياها النطق الصريح . وأطرقت برأسها وتحاملت على نفسها وانفجرت بالبكاء

فتناولت رأسها وكانت عيناها مغمضتين الاقليلا والدموع تنهمر منهما بغير نشيج وأدنيت وجهها الىّ محاولاً تقبيلها . فتمنعت في رفق وقالت :

— لا . لا . لم يؤن الأوان .

فخجلت وهدر الميل اليها فى مشاعرى هدير الغليان وقلت لها :

— لماذا إذن جئتِ وتجشمت مشقة الدبيب ؟

فقالت لى : جئت لأننى لم أستطع أن أغمض عينى دون أن أراك ... وهيهات أن يهنأ لى عيش بعد الليلة بدونك

فقلت : أبهذه السرعة تشغلين ، وبرجل غريب الوجه واللسان وربما كان غريب القلب والأطوار أيضاً ؟

فقالت : لست غريباً عنى فان سبباً من أسباب القدر قد وصل حياتى بحياتك ومزج قلبى بقلبك وأوجد سراً بينى وبينك لم أجد مثله بينى وبين الرجل الوحيد الذى عرفته وهو زوجى

فابتسمت ابتسامة أساءت سيلين فهمها وتوهمت الشك يجول فى أطرافها فقالت :

— ثق أو لا تثق فلا ألومك ولا أرغمك على تصديقى . إننى على الرغم من زواجى عشر سنين ، لا أزال بكراً لم يمسسنى رجل

قلت وقد أدهشتنى جرأتها : وهذان الملكان الطاهران ؟

قالت : أطفالى ! لقد ظننتك فهمت تلميحى لقد رزقتهما من رجل لا أحبه ومن لا أحبه لا أعرفه وكأنه لم يمسسنى

فخجلت ولم أعتذر ، فان هواها غطي على عقلى فتركنى مضطربا فى الدائرة التى خطها حولى ، فسكت ثم تشجعت وقلت : ولكننى أحترق شوقاً إليك وقد أعجبني منك كل شيء : صوتك وجمالك وعيناك وقدك وذكاؤك . وقد جمعتنا المصادفة وألفت بين قلبينا حوادث غير مرقوبة وربطت بين نفسينا الطبيعة المواتية فى غفلة الأعين وهمود الأسماع

فقالت : أو تقيم طويلا فى جنيف ؟

فقالت : بقدر ما تسمحين لي أن أقيم

فقلت : أما فى هذا البيت فلا ، لا لأنه البيت الذي فيه ولدت وتزوجت ، ولكن لأننى لست فيه حرة ، ولا أقدر أن أخرج من الحصار الكثيف الذى يحجر علينا . وإن للحب غاية محتومة فلست أومن بالصداقة البريئة بين رجل وامرأة فى جميا الشباب ، وما الحب الذى يتخطى حدود الصداقة الموهومة إلا امتلاك واستئثار ، وهو الذى أشعر بأنك خلقته فىّ هذه الليلة

فقلت : ما دمت قد ذكرت زواجك فلا بد أن تكون له حرمته فى نفسك : فكيف تستبيحين الجمع بين تلك الحرمة وبين الحب الذى تصفين

فقالت : أما الزواج فله الحرمة التي تذكرها وأكثر ، وأما الزوج فلا ، ولا سيما هذا الذى ألح على حياتنا بالشر ، وانحى على سعادتى بالفقر ، حتى أوصلنا إلى مانحن فيه

فقلت لها : لقد قبلت شرطك . وغداً ...

فقالت لى : غداً نبكر يا صديقى إلى بحيرة ليمان نستجلى بهاءها ونخترق غابة بوازى[١] الحالمة نشنف أسماعنا فيها بتغريد البلابل فهذا فصل لقائها وموسم تحرقها ثم تذهب إلى بستان الأمواه النابقة[٢] وفيه من الأشجار والأزهار ما يزيل عن نفسنا الحزن

وقد سيطرت عليها نشوة كادت تفقدها هدوءها ورزانتها . واستمرت فى حديثها قائلة : غداً يا قسيم ميلادى ننطلق إلى المدينة فنجول فى أنحائها ونطوف بالمخازن الجميلة ثم نطير إلى قرسوا الضاحية القريبة فننعم بالخلوة ونقطف أحلى الثمار ونجد اللذة والسعادة . غداً أنطلق من الأغلال التى طال تقيدى بها فنسير جنباً إلى جنب فى شوارع المدينة الحبيبة حيث تختلط أصوات الليل التى حرمت من سماعها فى رفقة نفس حبيبة برنين الأجراس التى تدق فى عيد الفصح السعيد ...

وفى تلك الساعة سمعت صوتاً غريباً كأن يداً تنقر على درفة النافذة فصمتنا وكتمنا أنفاسنا وهممت بإطفاء النور فنهتنى بإشارة من يدها ، فنهضت فى خفة وحذر واتجهت نحو النافذة وفتحتها برفق بحيث أتمكن من رؤية ما وراءها فرأيت طيراً ضخما من طيور الليل يطير عائداً إلى وكره معششاً فى إحدى أشجار الكافور التى كانت تضطرب وتهتز ، وإن لم تكن هناك رياح عاصفة فأغلقت الدرفة وعدت إليها وطمأنتها وقلت لها : غداً

ولكنها لم تتكلم ودقت الساعة الثالثة

فدنوت منها وعلى غرة منها ضممتها إلى صدرى فضمتنى بحرارة وقوة ما أحسست بمثلها من قبل ، وطبعت على فمها الملتهب قبلة لا أنسى لذتها وعبيرها ما حييت . وكنت فى ذهول فلم أشعر بسيلين وهى تتملص من ذارعى التى كانت حول خصرها ، فانطرحت على فراشى منهوك القوة ، آسفاً على مابدر منى ولكننى سعيد

ولا أدرى كم طال نومى

ولكننى تيقظت على صرخة واحدة لم تتكرر لم تكن صرخة إنسانية . ولكنها نزعت قلبى من صدرى ، وأنبأتنى بكارثة لا قبلها ولا بعدها ؛ ثم ساد صمت عميق . وفى تلك الفترة سمعت على النافذة نقراً كالذى سمعته عند ما كانت السيدة جالسة على فراشى ، فأضأت الغرفة ، ولبست بعض ثيابى ووقفت وراء الباب ؛ فإذا حركة وقع أقدام وصوت امرأة عجوز لم أسمعه من قبل يقول :

— آه ... ماذا صنعت بها أيها الشقى؟ وابنتاه ! جاستون . جاستون . أنظر ما فعل الشرير المجنون بابنتنا . فوهمت فى أول الأمر أن مجرماً ضالاً ، أو شريداً فاقد العقل قد سطا على الطفلة فيرجو[١]

ففتحت الباب وتقدمت بعض الخطى فرأيت باب الغرفة القابلة لغرفتى مفتوحاً على مصراعيه وقد وقف فيها شيخان رجل وامرأة . وخرجت علىّ جانيت مستغيثة نائحة

(١) Bois la boesie فى ضواحى جنيف

(٢) بستان بها أيضاً

(١) Virgo اختزال vrginie وهو اسم البنت

فقلت لها : أيقظي السيدة

فقالت : كيف أوقظها أنظر ؟ يا سيدي !

فخطوت وإذا بي أرى راسين راكعاً على الأرض وقد تدلت رأسه على صدره كالمشنوق ولم أكد أحول بصرى عنه حتى كدت أسقط من هول ما رأيت

سيلين ... نعم سيلين مطروحة على الفراش فى ثياب نومها وفى صدرها خنجر والدماء تجرى من بين نهديها كأنها خارجة من نافورة . ولم تكن بعد قد فارقت الحياة . وهي إذن التى صرخت تلك الصرخة الفاجئة الفاجعة التى مزقت أحشاء الليل

فلما تفجعت عليها وبكيت ، فتحت إحدى عينيها وقالت فى همسة سمعتها واضحة :

غداً ...! وأغمضت عينيها وصعدت روحها . المطر الأحمر القانى ... والمدافن والكنيسة والبستان . و ١٩ مارس عيد مولدى ومولدها ومصرعها

***

عدت إلى غرفتى وأنا أكاد أجن وأهلك من الحزن واللوعة والأمل الضائع والحسرة على شباب تلك التى لم أعرفها إلا ليلة واحدة وقد ملأت بالى بعد فراغه ، ومدت أفق خيالى وراءما كنت أرجو . وبعد نصف ساعة عند بزوغ الصباح أقبلت الشرطة بخيلها ورجلها وكلابها وحقائبهم العازلة وأدوات التصوير والسلاسل والأغلال ، وفى أثرهم قاضى التحقيق ورجال السلطة والطبيب الشرعى وأعوانه ونفر من الصحفيين والمصورين

ولكن الخطب الجسيم الذى حل بالمقتولة كان أهون مما تصوروا فى شأن القاتل فقد كان متلبساً بالجريمة ومعترفاً بها ولكنه لم يبررها ولم يعتذر

وكان علىّ أن أنتظر حتى تدفن سيلين فى مدافن سان جورج وأن أسمع دقات أجراس الكنيسة ، لا تحية لعيد الفصح المرتقب ، ولكن إيذاناً بطلب الرحمة لروحها !؟

محمد لطفى جمعة

هبة الموت

للكاتب الفرنسى اناطول فرانس
بقلم السيد محمد العزاوى

جلس أندريه على شاطىء السين ساعةً يستروح النسيم ... وما كان أحد أحق منه بنسيم السين يروِّح عنه الكد والتعب . إنه سوف يترك هذا كله بعد حين ! وجلس أندريه يفكر . ترى فيم أمضى بقية يومه ؟ ليس يدرى أندريه . ولكن الذى يدريه أنه قضى يومه فى باريس ؛ وأن كل شعاب باريس شاهدته اليوم يسير فيها . حتى إذا ما أضناه اللغب فزع إلى السين الحبيب . أى نهر وأى جلال ! ؟ أى موج وأى تبج ! أى جمال وأى هدوء ! لن يبصر من هذا شيئاً ؛ وهو ليس بنادم على ذلك . إنه لن يندم لأنه سوف لا يري أمواجه الوديعة تميس وتدّلف . سوف لا يراها تتهادى إلى جنة الحب ، وتنساب إلى تلك الربوة حيث يجثم بيت « لوس » كهرة بيضاء . إذن فلن يرى وكر الحب ولا عش الغرام . حقاً لن يراه ولن يندم . لأنه سوف يلقى فى السجن حبيبته ، فيجدد — بقربها — أيام الوصل والأم ... ل !

إنه لايذكر من يومه هذا إلاقليلاً . فهو لايذكر إلا أنه أصبح قلقاً حائراً ، وأنه اغتسل في الساعة الثامنة . ثم خرج يفطر فى أحد مطاعم « الپاليه روايال » . وبينما النادل يعد له الطعام تصفح بعض الصحف . وقرأ فيها أسماء من حق عليهم الإعدام بساحة الثورة فى الرابع والعشرين من شهر فلوريال

وهو يذكر أنه أفطر بشهية . ثم قام فنظر فى المرآة إلى خياله ، حتى يصلح ما تشعث من لباسه الأنيق ؛ وحتى يرى أهو منبسط الأسارير أم منقبضها فيرسلها على سجيتها السمحة الطروب . وهو يذكر — كذلك — أنه سار على شاطىء السين بخطًى خفيفة سريعة ، قاصداً منزلاصغيراً ، يصنع زاوية مع السين وشوارع المازارين

هناك كان يعيش « المواطن لا رديون » النائب العام لدى محكمة باريس الثورية ، وقد عرفه أندريه قبل ذلك راهباً متنسكا فى « أنجرس » ، ثم عرفه جمهورياً متطرفاً فى باريس

ودق أندريه الجرس . فظهر له — بعد دقائق — وجه لارديون يطل من كوة بالباب . فلما استوثق من اسم الزائر ومهنته فتحه على مصراعه مرحّباً . وكان لارديون مطهم الوجه ، أحمر الأذنين ، لعينيه بريق خاطف غريب . كان مظهره مظهر الجبان الضحوك ؛ ورحب بأندريه وهو يقوده إلى أفخم غرف المنزل

ولما أن ولج الباب أندريه ألفى مائدة ممدودة صُفت عليها صحاف فخمة فيها طعام أُعِد لاثنين . وهو لا يذكر من ألوانه إلا فخذ خنزير وفرّوجاً ، « وفطيرة » من الحلوى الفاخرة ، وحساء وشواء كثيراً .. وبصر أندريه بستٍّ من زجاج الخمر المعتقة موضوعة في جردل من الماء لتبرد ، ولاحظ أندريه فوق المصطلى تفاحاً وفاكهةوجبناً !

وهو يذكر أنه استدار ببصره في الغرفة الفسيحة ، فألفى زجاجات الخمر وقواريرها مختلطة — على المكتب — بأوراق الجمهورية المبعثرة ... ثم وجد باباً مفتوحاً لم يشك أندريه في أنه يؤدى إلى مخدع ، فقد كان ثمّ سرير غير مرتب ... وأخيراً قال أندريه :

— أيها المواطن لارديون ! لقد جئتك كي تسدى إلى جميلاً

— أيها المواطن ! إنى مستعد أن أهبك إياه إن لم يتعارض مع مصالح الجمهورية

— إن ما أسألك أيها المواطن لارديون يتفق ومصالح الجمهورية ، ومصالحك أنت أيضاً

وجلس أندريه بإشارة من لارديون ثم قال :

— أيها النائب ! أنت تعلم أنى أعارضك منذ عامين وأعارض أصدقاءك ؛ وأنى صاحب مقالات « مذابح الإرهاب » إنك إذ تقبض علىّ لا تكون أسديت إلى الجميل الذى أرجو ، بل تكون أديت واجبك ، فليس طلبي إذن أن تقبض على . ولكن أعرني سمعك أيها المواطن !

إنى مغرم وحبيبتى فى السجن ...

وأحنى لارديون رأسه مؤمناً على مشاعره ، ومتابعاً قوله . واستأنف أندريه :

— عهدى بك رجل شعور يا لارديون ! وإنى لأرجوك أن تصل بينى وبين من أهوى ، بأن ترسلنى سريعاً إلى سجن « بورت ليبْر »

فابتسم لارديون بسمة العبث يخلطه الحزم ، أو الحزم يخلطه العبث ، ثم قال :

— ها ! ها ! أيها المواطن ! إنك تسألنى شيئاً أغلى من الحياة ! إنك تسألنى السعادة ! ثم مد ذراعيه نحو المخدع قائلاً : إبيشاريس ، إبيشاريس !

فبرزت من الخدر فتاة عارية الذراعين ، حاسرة النحر ، ترتدى قميصاً قصيراً وقبعة ناتئة فاحتضنها لارديون واجتذبها إلى ركبتيه قائلاً :

— يا ملاكي ! تأملى وجه المواطن ولا تنسيه أبداً . إن المواطن مثلنا يعمر قلبه الحب والهوى وهو يعلم أن الفراق مر أليم؛ ولذلك يريد لقاء حبيبته فى السجن . وطابت نفسه أن يطيح رأسه معها بالمقصلة . أترين بأساً أن نطوق عنقه بجميل ؟

— فقالت الفتاة وهى تداعب خد القائد الثورى « كلا ! لا أرى بأساً » .

— إذن فقد أصدرت الحكم يامولاتى . واجب علينا أن نعين ذينك الحبيبين المغرمين المخلصين . أيها المواطن أندريه جرمين ! أعطني عنوانك وأنا أعمل على أن تبيت فى السجن الليلة

فقال أندريه بأنه موفق سعيد . فأجابه لارديون وهو يصافحه « ستذهب فتاقى حبيبتك . نبئها بأنك وجدت إبيشاريس بين ذراعى لارديون

وأحضانه ؛ فلعلها تستطيع أن تهبك بعض ما تهبنيه إبيشاريس ! »

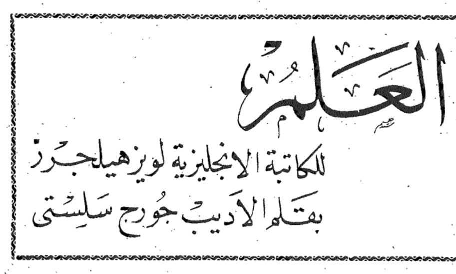
قال أندريه إنه واجد أكثر من ذاك لديها في السجن . وإنه شاكر ، وآسف أنه لن يستطيع أن يرد للارديون الجميل . فقال لارديون وهو يضم إبيشاريس :

— إن المروءة هي ألا تطالب من أحسنت إليه برد الجميل . من يدري متى يأتي دورنا ؟! اليوم دعنا نشرب ، ولا تفكر في غدٍ وإلا تعكر الصفو ولاحت الغيوم ... أيها المواطن ؛ ألا تشاطرنا الطعام والشراب ؟

واستراحت إبيشاريس إلى الدعوة ، فقادت أندريه بلطف إلى المائدة . ولكنه أفلت منها برشاقة ومرح ... فخرج يشكر للنائب صنيعه

وهو لا يذكر بعد ذلك كيف أمضى بقية ذلك اليوم الطويل الثقيل ! ولكنه يدرك الآن أنه ينشق من نسيم السين آخر أنفاس الحياة ...

سيد محمد العزاوي



انصدع عمود الفجر ، وتمشت طلائع الأنوار فى حواشى الليل تمشّى الأمل الوضىء فى حنايا القلب البائس الملتاع ؛ وأطلتْ مليكة النهار في محفتها النارية فاترة الطرف تنثر بسمات ثغرها الشنيب ذات اليمين وذات اليسار ، فتهللت الدنيا واطلقت الكائنات ؛ واسترسلت ذوائب الأضواء على السهول الفيح فاهتزت الأغراس وارتعشت السنابل ، وانطلق نسيم الصباح البليل فوق المروج والحقول يهمس فى آذان الزهر هينمات الهوى ، ويتمتم فى مسامع النباتات أسرار الغرام ، وسبحت فى رحاب الأجواء وفود الأطيار تسكر السماء بزقزقاتها ، فيترنح لأغاريدها قلب الأثير ، وتميد لأناشيدها أعطاف الأفق ، وانحسرت مرائى الطبيعة الفاتنة فى تلك السهول المنبسطة الخضراء عن منزل وضيع قائم حف بباحاته مخضل النبت وساوره ندىّ العشب ، فبان فى روعة الصباح الضحيان منزلا من منازل الخلد جاثماً فى دعة تفتن اللب فى إطار من الخضرة السندسية يأخذ بمجامع القلب . منزل وادع اطمأنت به أسسه في تلك الربوع الغرّ التى يُظلها العَلَم الفرنسى المثلث الألوان اطمئنان أهليه النائين عن ضجيج الحياة وجلب المجتمع الصاخب .

وخرجت من المنزل فتاة فى مستهل الصبا ومطلع الشباب تتألق منها الأسارير بالوضاءة ، وتفيض منها القسمات بالحسن ، وقد زادها ثوبها القروىّ البسيط جمالاً فطرياً محببا إلى القلوب ، ومشت كفيئة الخطى إلى دجاجاتها تنثر عليها الحب مفترّة الثنايا ، والأفراخ تتصايح حولها صيحات الفرح وتقفز حيالها مرحة مسرورة . فلما فرغت من شأنها مع دواجنها تخطرت بقدها اللدن المشوق على بساط العشب المتوج الهامات بأنداء الصباح ، وراحت ترمق السماء بعينين حالمتين تفيضان وداعة ولطفاً ، وتتأمل فيما يكتنفها من المرائى الساحرة بسذاجة الولد الغرير .

ووقع نظرها على سحابة زرقاء تتصاعد من وراء الغابة فى مطاوى الأفق ، ثم على أخرى مرفوعة على مناكب الهواء السجاح البارد ، فوقفت مبهوتة سادرة لحظة أو لحظتين وهزت كتفيها فى مرارة واشمئزاز وقالت : « الحرب ... مرة أخرى يا لنكد الطالع ! » ورفست الأرض برجلها حانقة غضبى

إن القدر ليأبى أن تكون السعادة إلا مشوبة بالكدر ، والاطمئنان إلا مقترنا بالقلق والاضطراب ؛ وسنّة الدهر الخؤون ألاّ يحرم الناس لفتاته المُرة بين الحين والحين كأنما يعز على القضاء الواغل أن يفلت امرؤ من إساره

والحرب ؟ ! أى جدى فى الحرب وأى نفع ؟ !

إنها النكبة الكبرى والطامة العظمى ، تنثر الدمار نثراً فتقوض معالم المدنية والعمران ، وتطوّح بالشباب إلى مهاوى الردى ، وتبعث بهم إلى أشداق الموت لقما سائغة هنيئة !

أما المجد والسؤدد ، أما العز والفخار ، فليست إلا كلمات جوفاء لا معنى لها إلا عند الجشعين الألى يتخذون من جماجم الضحايا وأشلائها سلماً لمطامعهم ومآربهم ، فيا للصبا المغدور ، ويا للدم المهدور !

والشباب زينة الحياة وبهجتها ، وذهابهم ذهاب الأمانى وتلاشى الأحلام ، ونأيهم تصويح لمستقبل الفتيات العتيد . فالحرب إذن نكبة عند النساء فادحة تلمس منهن الوتر الحساس فى الصميم ، وتسىء إليهن إساءة ليس إلى اغتفارها والصفح عنها من سبيل !

كانت نظرات الفتاة معلقة فى سحب الدخان وهو يسمو نحو الأعالى ، وفكرها محصوراً فى الحرب وويلاتها والمساوىء التى تلحق من جرائها ببنات جنسها ، وتاهت فى تفكيرها العميق الذى شغلها عن نفسها حتى أنها لم ترَ رجلا يزحف بين السنابل الخضراء ، ولا سمعت وقع خطاه وهو يعدو على بضعة أمتار منها ممزق الثياب متربها ، ولم تفق من غمرة التفكير إلا على صوته الذى أرسله بحذر وهو يسرع إلى باحة المنزل ويحتمى ببابه

هو شاب فى مقتبل العمر عليه بزّة الجندى الفرنسى قدعلت محياه الوسيم أمائر الوصب المرهق ، وتجلت فى نظرات عينيه دلائل الجزع ، فما إن وقع عليه بصرها حتى صاحت مرتاعة :

— « يا إلهى ! لكم أرعبتنى ! »

فوضع سبابته على شفتيه الرقيقتين اللتين انفرجتا عن همسة ناعمة مدلولها الصمت ، ثم شاعت على قسماته بسمة كئيبة خرساء ، كان لها فى نفسها هى أبلغ الأثر . ولم يلبث روعها أن أفرخ وبالها أن اطمأن ، فتقدمت إليه وأسندت ذراعها إلى الباب حياله ، وقالت له بصوت رقيق أودعته الكثير من العذوبة والحياء :

— « يلوح لى أنك قادم من معركة إخال أن رحاها ما تزال دائرة هناك . أليس كذلك ؟ »

وأشاحت برأسها نحو الغابة التى ما فتىء الدخان يتصاعد من ورائها كثيفاً داكناً

وألقى الرجل عليها نظرته فرآها تحدق فى الأفق وقد انقبضت منها الملامح وتجهمت ، واصطكت أسنانها من غيظ كظيم . فقال وقد فار حنقه ولمعت عيناه بوميض الغضب :

— « هؤلاء الألمان الخنازير لا همّ لهم إلا قتل الأبرياء وإراقة الدماء ! ليست فرنسا هى التى يريدون فما هم بحاجة إلى زرعها ولا إلى أرضها ، وإنما الفتك بأهلها مايبتغون . إن إزهاق أرواح الناس مبتغاهم ، وسفك الدم غاية مناهم ؛ إنهم وحوش ضارية لا يلذ لهم إلا مرأى النجيع المهدور يترقرق على الثرى ، وإلا الأشلاء المبعثرة هنا وهناك على أديم الأرض . لقد هجموا علينا فجأة شأنهم فى كل غاراتهم الغادرة وحصدونا برصاصهم حصداً »

ورجع خطوة إلى الوراء ، وأسند ظهره إلى الباب وضحك ضحكة صفراء ، يحسبها السامع لجفافها شهقة محتضر ثم قال :

— « أحسب أننى الرجل الوحيد الذى لا يزال من كتيبتنا على قيد الحياة . لقد قتلوا أفرادها جميعاً ولم ينج من الموت المحتم إلا أنا ... لقد مات رفاقى

كلهم وإنى على آثارهم لمقتفٍ . إن هى إلا ساعة أو بعض ساعة ألفظ بعدها ... »

وتوقف عن الكلام ، فساد المكان صمت رهيب ، وخيم عليه سكون فاجع . فريعت الفتاة ، وتقدمت إليه مرتعشة ، ومدت يدها النحيفة السمراء ، وقالت بلهفة الجازعة :

— « ما بك ؟ أمصاب أنت بجرح يحتاج إلى تضميد ؟ أألمّ بك مكروه ؟ دعنى أحضر لك جرعة من الماء القراح ، أو أقدم إليك المساعدة التى تبتغى ؛ أفصح بربك ... قل ... أيعوزك شىء ما ؟ أتريد ماء أو ... ... ؟ »

فهز رأسه والألم يكبت منه الروح ، وتحيرت على ثغره الذابل بسمة هزء بانت من ورائها أسنانه اللؤلؤية البيضاء ، وأطلق من صدره المعنّى آهة اضطرب لها جسده الواهن المنهوك وقال :

— « إن زمنى يا فتاتى قد تصرم وانقضى ، ولم يبق لى من الحياة إلا دقائق معدودات . لقد استقرت فى صدرى رصاصة جانية ، والثغرة التى فتحتها فيه ضمينة بالقضاء على أشد الرجال عزماً وأقواهم بنية ، وقد ألفظ أنفاسى الأخيرة بين يديك يا فتاتى ، ولكن لا . لى ما أقوله لك قبل رحيلى الأبدى من هذه الدنيا الفانية ... وصيتي الأخيرة قبل أن تفارق روحى جسدى »

قال هذا ومدّ يده إلى صداره وانتزع من بين ثناياه قطعة من القماش الملون طويت بترتيب كلى ، وقدمها إليها وقال : « انظرى ! »

فتطلعت الفتاة إلى ماقدمه إليها الجندى الجريح وصاحت بدهشة واستغراب لا حدّ لها :

— « ولكن ما هذا ... ؟ »

فرفع إليها نظره الخافت وقال بصوت أجش :

— « لقد نجوت به منهم . أجل ، لقد أنقذته ولكن بعد أن دفعت فى سبيل إنقاذه حياتى ... وإنها لثمن بخس ... ! »

وبسط القطعة المطوية برزانة وهدوء ، ثم استطرد :

— « إنها علَم فرنسا الغالى . لقد فنى أفراد الكتيبة جميعاً ولم يسلم منها إلا هذا اللواء المفدى... لقد نال هؤلاء الألمان اللاعين كل شىء ما عداه ، فهو وحده لم يمس ... لقد أحرزوا النصر ووفقوا إلى نيل الظفر المنشود بعد أن أزهقوا أرواحنا وأهرقوا دماءنا ... إيه أيتها الفتاة ... »

وكف عن الكلام هنيهة ، ثم أمسك معصمها الذى لوّحته حرارة الشمس دون أن تسفعه ، وهزّه هزة استجمع لها كل ما فيه من قوى وتابع :

— « عليك أن تحتفظى بهذا العلم احتفاظك بنفائس الأعلاق ، وأن تصونيه صيانتك لأقدس ما عندك . أتسمعين ؟ »

فأجابت بشىء من الجرأة والدالة :

— « ما لنا وللعلم الآن يا هذا ، دعنا منه ولندبر أمر إنقاذك »

وتفرّست فيه لتتبيّن أثر كلماتها فى نفسه ، فرأته وقد زوى ما بين حاجبيه وكلح وجهه جامد النظرات سادر الطرف لا يحير ، فلم يكن منها إلا أن أمسكت اليد التى أطبقت على معصمها بقوة ، ودلت عليه برقة ، ورمقته بنظرات فاترة تتيم قلب الخلى واستأنفت قولها :

— « إن العلم على كلّ حال لايتعدّى كونه قطعة من قماش ، وأما أنت فملء برديك الشباب

النضير ، وأمامك مستقبل وضيء ملؤه الآمال ، وأنا . . . أريدك أن تحيا . . . سأحاول جهدى لأنجّيك وأعيد إليك قواك وعافيتك ، ولن أدّخر وسعاً فى سبيل برئك وشفائك وضمان سعادتك وهنائك »

وتوقفت عن كلامها مرة أخرى لحظةً واحدة فقط حدقت خلالها فيه ومقلتاها تشعّان بوميض غريب ثم قالت :

— « فى وسعى أن أخبئك فى مكان لا تُرْفع إليه عيونُ أعاديك ، ولن ينالوك عندى مهما تألّبت جموعهم وكثرت علىّ ، فالتمويه على هؤلاء الخنازير الأغبياء سهل ميسور »

وما كادت شفتاه تنفرجان عن آخر لفظته ، حتى كان هو قد انتزع يده من قبضتها انتزاعاً وصاح بها :

— « خبئى فرنسا بدلاً منى . إيه أيتها العذراء ما أراكِ تفقهين ما أقول ؛ إن العلم هذا هو فرنسا بعينها ، متجسمةً فيه بكرامتها وإبائها ومجدها التالد والطارف ، وشمها الأنوف النبيل ، ويجب ألا يصل إليه أعداؤنا الألمان بوجه من الوجوه ، أتفهمين ؟! »

كان يتكلم بشيء غير يسير من الحدة والغضب ؛ والحدة والغضب خلّتان مأثورتان عن الفرنسيين جميعاً لا تكاد تستثنى منهم أحداً ؛ غير أنه لم يلبث أن انفثأتْ حدّته واستكان ، وانطلق يطوي اللواء طيّاً سريعاً ومقلتاه الذابلتان عالقتان بمقلتيها الناعستين ثم قال بلهجةٍ كلها ضراعة وتوسّل :

— « إن رداءكِ واسعٌ فضفاض فعليك بالله أن تخبئيه فى صدرك ... فتصبح فرنسا الحبيبة فى صدر امرأة ، وإنه والله لحصنٌ آمن من برلين »

وصمت هنيهة أطلق فيها من صدره المجهود زفرةً لاهبةً ثم قال بلهجة السيد الآمر :

— « أسرعى يافتاة »

ونزلت الفتاة عند رغبته وأذعنت لمرادة فراحت تفتح صدرها بأصابعها اللدنة الناعمة وراح هو يتملى بنظر البائس المحزون من روعة الفجوة الضاحية بين النهدين السريّيْن ، حتى إذا وضعت العلم المطوىّ فيها ، وأخذت تزرّر صِدارَها وهنَ منه العزم وخارت القوى ، فهوى جسمه ، وكاد يقع على الأرض تحت قدميها الصغيرتين لو لم تسعفه بذراعيها العبلاوين المفتولتين ، فاتكأ عليهما قليلاً ثم ارتعش بينهما ارتعاشة الطائر الجريح وتململ بينهما بحركة خفيفة مؤلمة حاول أن يستجمع فيها قواه لينتصب واقفاً وجمجم لنفسه بصوت خفيض متقطع سمعتْهُ الفتاة جلياً واضحاً :

— « يلوح لى أن الموت أدنى إلىّ مما كنتُ أحسب ، فخيرٌ لى إذنْ أن أذهب فى سبيلى »

ثم التفت إلى الفتاة وحدّق في محياها الوضيء القسمات بعينيه السوداوين الكئيبتين وقال لها :

— اصغى لما أقوله لك ولا تحاولى أن تعترضى على مشيئتى ... أجدى عليك ألا أبقى هنا ، فبقائى شرٌّ كله ، ووبالٌ عليك وعلى ذويك أجمعين ... سأسير على بركة الله وحسبى أنى أودعتُ العَلَم فى حرز حريز ... وحذارَيْك الألمان يا فتاة ... فاذا شئت أن تحسني إلى نفسك فأنكرى عليهم رؤيتك لى ... لا بل عليك أن تنكريها الانكار كله

وسيثقون بقولك من غير ريب ، فالوقت لا يزال باكراً ... أتفهمين ؟ ! »

وسكت وكل ما فيه ينم على اليأس الفادح والألم المر ؛ ونظر حوله نظرات بطيئة فاحصة كأنه راح يودع ذلك المحيط الزاهر المغمور بالجمال الفطري الساحر ، ويشيع هاتيك الأرباض التي يهدهدها سجع البلابل وتغريد العنادل كل فجر ، ويناغيها كلَّ مساء حفيف الأوراق في الغصون المُلْد الندية وهينمة النسيم الرخي في سوق [1] السنابل الثرية . ولما هم بالسير استوقفته الفتاة بنظرة كلها هوي وجوى ، وقالت له وقد ضرج الخفر خديها النضرين بحمرة الشفق الحالي : « قبلني — على الأقل — قبل رحيلك . هبني لثمة واحدة من ثغرك الشنيب. وارشف مرة — لاغير — لماي قبل منآك ! »

فجمد الجندي في مكانه بارد النظرات ، وقد وقفت هي أمامه ملتهبة العاطفة بقدها المياس ، وقوامها الرشيق ، وشبابها الغض الرطيب ، وجسمها المغري الفاتن ، وألقى عليها نظرة ضمنها كل معاني الزهد والاحتقار ، وقلب شفتيه ، وهز منكبيه وتمتم :

— « واهاً لكن معاشر النساء ! إنكن جميعاً في العاطفة سواء ؛ ... طُبعتنَّ بطابع انثوى واحد ، وجُبِلتنَّ على شاكلةٍ واحدة ! »

وصمت وهو يلهث ، كأنما جشم نفسه مشقة لا قبل له باحتمالها إلا بجهد ، حتى إذا هدأت أنفاسه واستراح التفت إليها ثانية وقال :

— « إنك تحملين فرنسا في صدرك أيتها الفتاة و ... »

وضحك ضحكة هادئة مقتضبة واستطرد في عبارته :
« وأنا رجل على شفير الهاوية وأوشك أن أموت ... والاحتضار على قيد باعٍ مني وتتحدثين إلي مع ذلك كله عن الهوى والحب ، هيه ... »

وراح صدره يهبط ويعلو بسرعة ، وفؤاده يخفق حتى ليكاد يسمع وجيبُه ؛ فلما أحس بشيء من الراحة تابع قوله بشيء من المرارة كثير :

« لا شأن لي بالهوى ... إنها الحياة التي ابتغي ؛ ... هي الحياة التي أحتاجها أيتها الغانية ! »

لقد رماها بهذه الكلمات المقتضبة القاسية ، وإن هي إلا أحجار تنثال لا ألفاظ تقال ، ثم سار الهوينى ، وانطلق يدلف في سبيله دلفةَ العاني الكليل

وأما هي فقد انثنت بسكون على الحاجز الخشبي واليأس يرمض منها الجوارح ويقضّ منها الحشا ، تواكبه نظراتها الحزينة وهو يشق طريقه بين سنابل الحقل كبِطيء الخطى وئيدها . ولما ابتعد عنها ولم تعد تسمع حركة ولا نأمة ، ولم يبق لها إلا ارتقاص الأزهار بين أكف النسمات ، وارتعاش النباتات بين أنامل الهواء ، لكضت صدرها الحبيب الفاتن لكضةً أو لكضتين وصاحت من فؤادٍ متبول وحشاشة كلمى :

— « فرنسا ! ! أنا أكره فرنسا وأمقتها ! »

ورأأ الدمع في محجريها ولم يلبث أن انهمر على خديها الملتهبين صبيباً سخيناً

جورج سلستي

(١) جمع ساق



لا تخف الانفلونزا هذه المرة ولا تنتظر حتى يتقدم سيرها بل امنعها في دور ظهورها وامنع المضاعفات منها. وانت تستطيع ذلك بالتأكيد بشرط ان تأخذ الاسبرو. وفي الواقع ان قرصين او ثلاثة من الاسبرو مشروبا ساخنا تزيل اصابة الانفلونزا في ليلة واحدة. وقد اثبت مئات الالوف من الناس ان هذا صحيح ونشروا شهادات من وقت لآخر تبرهن على صحة هذا القول. لذلك لماذا تتأخر؟ ابق الاسبرو قريبا منك وقت انتشار الرشوحات والانفلونزا والروماتزم. عالجها حالا فتعرف بذلك ما لا تستطيع تقديره من المرض والوقت والتعب والمال.

ان الاسبرو مادة سليمة وفعالة للغرغرة في الم الحلق والتهاب اللوزتين. قرص اسبرو في ربع ملعقة ماء تكون منه غرغرة مريحة لوجع الحلق والتهاب اللوزتين وتفعل فعلا واقيا. والسبب الذي يجعل اسبرو سريع الفعل في ازالة الرشح والانفلونزا هو اولا لانه مخفف للحمى وثانيا اذا اخذ داخل الجسم فهو مطهر داخلي وقاتل للجراثيم فهو لذلك يمثل طريقتين فوريتين لمهاجمة المرض وكل الآلام التي من هذا النوع.

كيف تعطى «اسبرو» للاطفال

يؤخذ قطعا صغيرة مع اللبن او المربى
من ٣ - ٦ سنوات ربع قرص
من ٦ - ١٤ سنة قرص واحد
من ١٤ - ١٨ سنة قرص ونصف

«اسبرو» كغيره من الادوية لا يعطى للاطفال اقل من ٣ سنوات بدون امر الطبيب

«اسبرو» يستعمل كغرغرة في التهاب اللوز

ASPRO REG. TRADE MARK

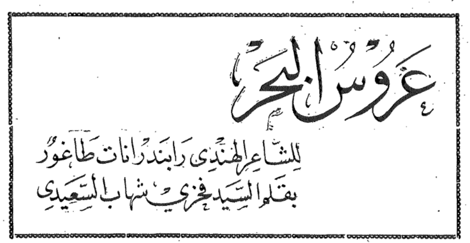
يباع في جميع الاجزاخانات ومخازن الادوية

٢ قرصان	٥ مليمات
١٠ اقراص	٢½ قرشا
٢٧ قرصا	٥ قروش

ASPRO

اسبرو لا يضر القلب

ج. پ. ستيردان وشركاه



كان شاباً فتياً ، فى مرآه قرة العين ، وابتهاج القلب ، وغبطة النفوس ...

وكان غرة قومه ، ووجه عشيرته ، يثنون له أعطافهم ، ويمهدون له أكنافهم ، ويؤثرونه بالحب والإيناس

وكان مَن حوله يستفزون نفسه الثائرة بأحاديث الزواج ، وما فيها للقلب من متعة ، وما فى الطبع إليها من طمأنينة وارتياح

قال واحد من رسل الملوك إليه : « أما أميرة بهليك ... فما أجملها ! إنها لكالباقة من أزاهير الربى فى الربيع ! »

ولكن الأمير الشاب أشاح بوجهه — وكأن لم يعلق الحديث منه بشيء — وما أجاب

وقال آخر : « ... وتلك هي أميرة كندهار .. زاهرة أنيقة ، وضّاءة بهية ، كمثل وضاءة العنقود النضيد ! »

ولكن الأمير الشاب ينساب فى الغابة لا يخرج منها إلا بعد حين ...

وقال وصيف من سراى الملك — أبيه — : « ... جميلة أميرة كامبهوج جمال قوس الأفق عند انبثاق أضواء الفجر وأنواره ... وعيناها ... عيناها ناعستان حالمتان ، تلتمعان التماع قطر الندى الوضاء ! »

ولكن الأمير الشاب يستغرق فى كتابه تصفحاً فلا يرفع عنه عينيه ولا يفيق !

***

واعتضد الملك الوالد بنَجِيّ[1] ابنه وعشيره يسأله عما انحرف بابنه عن الزواج وبغضه إليه !

فقال سمير الأمير : « أيها الملك الجليل ، لقد زهد الأمير فى الزواج ما سمع عن عرائس الأمواه ، ولقد أقسم فى سره لتكوننّ زوجه من عرائس البحر ، بنات الماء ... »

وأراد الملك أن يعلم من أمر هذه العرائس شيئاً ، فاستدعى إليه أهل العلم وأرباب الحكمة .. ولكن أرباب الحكمة لا يعرفون ... ولكن أهل العلم لم يَرْووا فى كتبهم عن العرائس المزعومات شيئاً ! إنما هاتيك العرائس : عرائس الخيال الموهومات .. وكذلك قال رُوّادُ البحر من الهنود التجار !

فدعا الملك الشيخ إليه سمير ابنه ، يسأله عمن قصّ على ابنه هذا الخيال الموهوم ؟ فأجاب : إنه رجل يضرب فى الآفاق مجنون ... وقد سمع منه الأمير ما سمع فى الغابة حين كان يصطاد !

فأرسل الملك أعوانه فى البحث عن هذا المتشرد المجنون ليحضروه إليه ... حتى وجدوه وجاءوا به إلى قصر الملك الفخم العظيم ! فسأله الملك عن

(١) النجى : الصاحب أو الصديق

مملكة عروس الماء أين تكون ؟ !

قال المجنون : إنها فيما يلي حدود الشمال من مملكتك أيها الملك العظيم ... عند سفح جبل « شيتراهى » حيث تنبع بحيرة « كامينا كا » ...

فقال الملك وهل يبصر المرء عرائس الماء هناك ؟

فأجاب الجائل المخبول : نعم ! في إمكان المرء رؤيتهن ... ولكنه لا يكاد يعرفهن لما يُحِطْنَ به أنفسهن من إبهام وغموض ... غير أني أعرف العرائس الفاتنات بأصوات مزاميرهن الرائعة ... أو بقبس من شعاع لهن وهاج !

فغضب الملك من هذا الهذيان وقال : « إنه لمجنون ! قد أصابه مسّ من حياة التشرد والتجوال فاطردوه »

غير أن الأمير كان قد أصغى إلى ذلك الهذيان الجميل ... وقد علق بقلبه منه ما سمع ، فليس إلى طرده من سبيل ...

***

وجاء الربيع يكاد سنا حسنه يستلب العقول ... وانبثقت أزاهيره فى الغابة تملأها حسناً وعطراً ! فركب الأمير جواده وخرج ... فيسأله الأهل : إلى أين أيها الفتى النبيل ؟ إلى أين أيها الأمير الجميل ؟ ولكن الأمير ساكت لا يجيب ...

السيل يتدفق منحدراً من أعالى الجبل ثم ينصب فى البحيرة فيفيض ... وهناك ، هناك قرب الجبل فى المعبد المهجور كان الأمير يقيم !

ومرّ شهر ، والأمير فى معبده يرتقب ، وفى الشهر هذا اشتدت خضرة الزرع ، واكتست بوشاح من الزبرجد الزاهى الجميل !

وإن هذا لشهر جديد يكاد ينصرم .. والأمير فى مكانه لا يريم !

وفى ليلة من ليالى هذا الشهر أصغى الأمير الشاب إلى صوت مزمار خافت يطرق أذنيه كالصدى النائى البعيد ...

وفى اتجاه السيل المنحدر إلى البحيرة الجميلة كان اتجاه الأمير ... حيث كان مصدر الصوت الشعرى الرخيم ؟

وهناك ، كانت تجلس بين أزهار «اللوتس»[1]
حورية من بنات البحر عرائس الماء المنشودات
إن شعاعاً عبقاً كان ينبثق من زهرة من
من زهور « السيرش » [2] في مفرقها الجميل

***

فترجل الأمير عن جواده ، ودنا إلى الحورية فى استحياء يطلب منها تلك الزهرة الجميلة العبقة .. فرفعت رأسها ترنو إليه ثم سحبت زهرتها من شعرها وقدمتها قائلة : « إنها إليك »

ثم سألها الأمير : وأى ملكة أنت ؟

فبدت على وجهها علامات الدهش والانكار ثم قهقهت فى ضحكات متزنات كالأنغام .. كان لها رنين في قلب الأمير الشاب .. لقد ظن الناس تلك الضحكات مزامير . لشد ما يخطئون ...

ثم ركب الأمير جواده ، وأردفها خلفه ومضى يحث السير !

وهما على ظهر الحصان همس الأمير فى أذنها أن اخلعى عنك النقاب .. واذكرى اسمك الكامل فأجابت : إن اسمى ؛ كا كارى ... وأما القناع

(١) زهور هندية معروفة لم نجد لها فى اللغة ترجمة !
(٢) ليس في العربية وصف كهذا ولكن أمانة الترجمة اقتضت نقله ، على أن فيه معنى يدركه بعض الذين تيمهم الجمال

فما كان قد انكشف كما أراد !

وهنا قال الأمير : وجهك ... أرنيه ... إنني فى حاجة إلى استجلائه أيتها الملكة الحسناء

ولكنها قهقهت فى ضحكات كالأولى كان لها فى قلبه الملتاع وقع ورنين

ثم وصلا إلى المعبد القديم المهجور ... فعلن الخبر وذاع ؛ وسمع الملك الشيخ بزواج ابنه الأمير فأرسل إليه الجند والخيل والفيلة والعربات ، فى معبده المهجور !

***

— واليوم يا « كاكارى » ستذهبين إلى القصر.

ولكنها لم تجبه ، ولكن فى عينيها كان الجواب .

لقد كانتا دامعتين ، طافحتين بالدموع ، تستعبران ! لقد هاجتها الذكرى ... وأثارت ما فى نفسها من شجون ...

ثم قالت : « بل أنا لا أستطيع الذهاب ... أيها الأمير المحبوب ! »

ولكن ضوضاء القادمين وجلبتهم غلبت صوتها الواطئ الضئيل ، وسارت إلى قصر الملك الفخيم !

***

فرأتها الملكة فقالت : وأى أميرة هذه تكون ؟

ورأتها ابنتها فقالت : يا للعار ! !

ورأتها من وصائف القصر واحدة ، فقالت : انظرن إلى رداء الأميرة الخلق ... لا بأس عليها فإنها ممن لا يحتجن إلى الثياب إذ أنها من عرائس الماء !

ولكن الأمير أسكتهن فى حنق وغيظ شديد . وقال :

« إن الأميرة قد جاءت متخفية فى هذه الأطمار ... »

ولكن أصوات الهزء إن خفتت فلم تنقطع ، أو انقطعت فإلى حين ؛ وكان الأمير إذا سمع ذلك يهيج ويغضب لأنهم لا يشاركونه شعوره نحو هذه الأميرة ابنة الماء ؟ !

ومضت الأيام : والأمير على ما وصفنا ، وأهلوه على ما ذكرنا ، وزوجه على حالها لم تتغير ، ولم تُلقِ عنها نقابها البغيض المكروه ...

ولكن الأمير يؤمل وينتظر ، وهو الآن يكتفى بالأمل والانتظار ...

***

وإنه لجالس مع « عروس البحر » يسامرها إذ سألها عن مدى لبس هذا القناع البغيض ؟ فقالت : « بل سيكون لذلك أيها الأمير مدى معلوم ، ولكن تريّث الآن »

فأجابها : إذن فسيكون ذلك فى قمر الشهر المقبل أيتها الأميرة الحسناء ! !

***

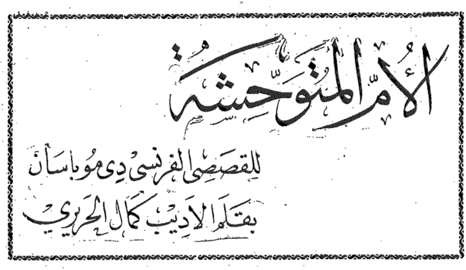
إن قمراء[1] البدر قد اكتملت وضوحاً وقوة ، فهى الآن تملأ البيد ، وتغسل الحقول ... وتسيل على الأرض فتغطى على كل ما فيها ... حتى تلك الغرفة ، وذلك السرير ! !

ولكن أين كاكارى ... أين الأميرة ابنة « البحر الحسناء » ؟ !

... لقد غابت ، إذ رفعت عنها القناع ! !

« بغداد » فخرى شهاب السعيدى

(١) قمراء البدر نوره



كان قد مضى على رؤيتي ضاحية « فيرنون » أربعون سنة حين أبت إليها هذا الخريف للصيد اللاهي واللهو البريء والذكرى الحلوة . وقد نزلت ضيفاً على صديقي « سرفال » بعد إذ أعاد بناء قصره المتهدم من غارة الألمان

لشد ما استرقني جمال هذا الريف ووسوسة رياح الخريف ! فني هذه الأمكنة الحبيبة أجواء سحرية وآفاق شعرية ، ومسارح لذكريات طفولتي عزيزة عليّ أثيرة عندي . ثم فيها بعد ذلك المناظر الطبيعية البهيجة ، والمشاجر الخضرة الأريجة ، ومفاتن النظر والفؤاد والسمع

أتدري ما يجتذبنا من هذه الأمكنة التي درجت فيها طفولتنا ونما صبانا ؟ ذكريات عِذاب حول نبع مسجور كنا نتصيد فيه السمك ، أو جلسات إلى دوح مشتجر نصغي فيه لغناء الطير ، أو قفزات مرحات فوق نهير دافق صافق نغوص فيه بأقدامنا ، أو صعدات إلى ربوة مشرفة مخضوضرة بالنبت يانعة الزهر مفغومة بالعطر . كنا نتجارى على مصاعدها فرحين ، أو نتبارى على مسالكها الزلقة لاهثين ، كأننا الجداء المرحة الطافرة ، أو الظباء الراتعة النافرة . كل شيء في « فرجيل » كان يتصبى مشاعر طفولتي الساذجة ، ويستهيم أحاسيس صباي المائجة ، خصوصاً ذلك الجبل الذي يتشح بالغيطان الشجراء ، ويتحلى بالرياض الزهراء ، ويتقلد بعقود النهر الفضية ، وأساور الغُدُر البراقة ، كأنه غانية أملود ، بحَلْيها وحُليها ومطارفها وشفوفها

لله كم كنا نلهو بصيد السراطين من شقوق الجداول ، وقنص أسماك الحيات من غَمْر الماء ! وكم كانت سعادتنا سماوية ونشوتنا ملائكية ، حين كنا نستحم عراة في ماء الجدول ، بين أسراب البط وطوائف المكاكي . ولكن وا أسفاه كل ذلك انقضى وانطوى في غيابة الأربعين عاماً

وأنا في ضحوة هذا النهار أسير سريع الخطو رشيق اللفتة كأني الجدي الطافر ، وكلباي أمامي يسرحان في الأرض ويرودان أماكن القنائص ومواقع الطيور ، وعلى بعد مائة خطوة كان صديقي « سرفال » يدوس بقدميه الكبيرتين حقلاً من شجيرات « الشوكي » الممتدة أمامنا . وكنت مجتهداً في تنحية كتل من العليق التي كانت تحد غابة « سادر » من كل جهاتها حين تبصرت كوخاً متهدماً متهافتاً أسود أسحم أكل الدهر عليه وشرب . وما كدت أثبته حتى عراني لرؤيته هزة ورعشة . نعم لقد ذكرته جيداً : فقد كان في جلسته وموقعه

على الحال التي كنت تركته فيها لآخر مرة سنة ١٨٦٩ منفرداً منعزلاً طيب الموقع تكتنفه شجيرات الكرمة وترتع في باحته وأمام بابه أسراب الدجاج . فحين شاهدته الآن بهيكله الماثل الخرب وجسده الضارع الحزين ، انسربت من عيني شئوني وهاجت في صدري شجوني . فذكرت متالماً يوماً كنت فيه ساغباً لاغباً مما أجهدني الصيد ، فدخلت هذا الكوخ لأول مرة فقدمت لي صاحبته قدحاً من نبيذ . كما ذكرت أن صديقي « سرفال » اقتص عليّ حكاية سكانه فقال : أما رب هذا المسكن فقد قتله حارس من حراس الأحراج في يوم كان يستلب فيه غلة جاره ، وأما الولد فلخشونة طبعه وشراسة أخلاقه ووحشية مزاجه فقد كانوا يلقبونه بالولد «المتوحش» هو وأمه ؛ ولطالما أتلف الزرع وسرق الدجاج وأفسد الحرث والنسل . وهنا خطر لي أن أعلم ما تم في أمر سكان هذا الكوخ المهجور فناديت صديقي وطلبت منه سرد قصة أهله فقال :

حين أعلنت حرب السبعين تطوّع « الولد المتوحش » وهو في سنته الثالثة والثلاثين ، في عداد من تطوّع من شباب القرية ، تاركاً أمه العجوز وحدها في كوخها المنعزل ، وليس وراءها من يعولها غير صبابة من مال تعتاش بها

كانت وحيدة منبوذة في هذا الكوخ المطرَّح النائي ، ومع هذا لم يكن الخوف ليعرف مكاناً من قلبها ولا سبيلاً إلى نفسها ؛ إنما يخاف ويفزع الخرَّد الغيد والحسان الأماليد ، اللائي قلوبهن هواء ، وأعصابهن خيوط عنكبوت . أما «الأم المتوحشة» فكانت — بقامتها المنآدة المديدة ، ومعارفها الخشناء الجليدة ، وملامحها القروية الجافة — أشبه ماتكون بولدها وزوجها . لم يكن أحد مهما راق ليعجبها ، ولا شيء مهما راع ليضحكها أو يطربها ؛ فهي الدهر متعبة منقبضة ، باسرة الوجه راكدة الريح ...

على هذه الحال كانت تقضي حياتها الجافة الرتيبة في كوخها المتأبّد المربد . حتى إذا تردى كوخها ردائه الشتوى الأبيض أخذت تختلف مطلع كل أحد إلى القرية تشترى الخبز واللحم ، وتبتاع الخضار والفاكهة ، ثم ترتد في سرعة إلى كوخها وتسلم نفسها إلى عزلتها ووحدتها ؛ وفي بعض الأحيان حين كانت تخشى وثبة ذئب عاو أوغارة ضبع طاو ، كانت تتقلد بندقية ولدها الصدئة العتيقة وتمشى بها متحاملة مكدودة ، محنية القامة ، مرتهكة المفاصل منبهرة الصدر ، تقتلع أقدامها اقتلاعاً من أبسطة الثلج ، بينما فوهة البندقية تعبث بعصابة سوداء حول رأسها ، تجتهد الفوهة عبثاً في تنحيتها عن شعورها البيضاء المشتعلة شيباً ، والتي لم تكتحل عين بشرية برؤيتها مكشوفة

ففي ذات يوم أقبل « البروسيون » إلى القرية غازين ظافرين ، فتحتم على كل بيت أو كوخ في القرية استقبال هؤلاء الأضياف الكرام ... كل بما تملك يمينه وتتسع له ثروته ؛ وإذ كان الظن يتجه إلى ثروة صاحبتنا الوفيرة ونقودها المدفونة ، فقد أجبرت على ضيافة أربعة جنود فتيان من الألمان ، حُمْر الوجوه شُقْر الذقون زُرق العيون ، غلاظ شديدي الأسر ، مكتنزي اللحم والشحم على رغم شدة الحرب وهولها وعركها أجسام الشباب برحاها ؛ وعلى أنهم في حميّا النصر ونشوة الغلبة والعزة ،

فقد كانوا نهاية فى الظرف والدماثة ولين الجانب ، يلقون الأم المتوحشة بالوجه الباش واللسان العذب واللهجة العطوف . ثم هم كانوا لا يألون جهداً فى إراحتها وتوفير نقودها وتقليل إنفاقها عليهم ، ولا يكلفونها عمل شيء أو تهيئة حاجة يستطيعون الاضطلاع بها دونها . وعلى الجملة فقد كان إصلاح الملبس وكى الثياب وتنظيف الأقمصة وغسل الأوانى ، وأخيراً مسح زجاج النوافذ وتكسير أحطاب التدفئة أموراً منوطة بهؤلاء الفتيان الناشطين الذين كانوا يرعون هذه الأم المتوحشة ، رعاء الأبناء البررة أمهم الحبيبة العزيزة . على أن ذلك ما كان يمنعها من تذكر ولدها الراحل بقامته الطويلة المحنية وجسمه المهزول الأعجف وأنفه المحدب الأعقف ، وعينه الرمادية الدكناء وشاربه الغليظ الكث الذى طالما نما وربا حول فمه وشفتيه ، كغابة كثيفة مشتجرة ؛ كانت دائمة التسآل عنه ، كثيرة التلهف لرؤيته ، لا يمر يوم دون أن تلقى واحداً من هؤلاء الأربعة بهذا السؤال :

— ألا تدلنى على معسكر الفرقة الثالثة والعشرين من الجيش الفرنسى ؟ والهفتاه على ولدى لقد تطوع فى هذه الفرقة . فكانوا يجيبونها برطانتهم الألمانية : لا نستطيع ذلك ولا نعرفه . وإذ يذكرون أمهاتهم المروّعات الجازعات ينتظرن إيابهم فى البلد القصى تدركهم على هذه الأم الملتاعة المسكينة رحمة فيسرون عنها اللهفة ويرفهون بعض ما تجد من الشجو والحنين. لهذا وللطف والظرف اللذين كانت تجدهما فى هؤلاء الجنود الأربعة ، كانت « الأم المتوحشة » تحبهم وتحنو عليهم بالرغم من أنهم أعداء بلادها ووطنها . وليس ذلك بدعاً من قلوب القرويين الأطهار فالتعصب القومى لم يدخل قلوبهم ، والبغض الوطنى لم يجر فى دمائهم . فذلك كله يكاد يكون وقفاً على قلوب أهل المدن والأمصار . إن أهل القرية السذج المساكين ، وسكان الريف الخضّع الخاشعين ، الذين يتحملون الغرم وغيرهم ينعم بالغنم لأنهم فقراء ، والذين يطيبون نفساً بلحومهم الحية الغريضة كى تحرقها نار المدافع وتسفدها جواحم القنابل ، لأنهم كثير عديدهم فى زعم أهل المدن ، والذين يتألمون من الحرب أشد الألم ويتعذبون أهول العذاب ويمنون منها بكل طاخية دهياء وكارثة ظلماء لأنهم مستضعفون فى الأرض ، لا يملكون لأنفسهم وذويهم نفعاً ولا دفعاً ؛ أقول إن هؤلاء المساكين الأخيار ليسوا أصحاب أمزجة حربية وطبائع جهنمية ، فلا الموت للذياد عن الوطن المغصوب مما يعتدونه شرفاً وفخاراً ، ولا نحر الحياة والشباب عندهم بالمأثرة التى تستأهل إلقاء الأجسام فى النار

***

كان الناس يتحدثون فى شأن هؤلاء الجنود الأربعة وما يلقون عند الأم المتوحشة من رعاية وحدب وإكرام . ففى ذات صباح بينما كانت صاحبتنا خالية لنفسها وحدتها فى كوخها إذ أبصرت فى السهل الممتد أمامها رجلاً يقصد منزلها . وحين اقترب من الكوخ عرفت فيه موزع بريد القرية . فلما شاهدها ناولها ورقة مطوية وقال لها : إنه لكتاب يهمك ياسيدتى . فأسرعت العجوز بإخراج منظارها الذى تستعين به على خياطة ملابسها ثم قرأت :

سيدتى المتوحشة :

يسوؤنى أن أحمل إليك أنباء فاجعة أليمة لاتهيأ

نفسك المعذبة لسماعها : لقد قتل ابنك يا سيدتى . انفجرت عليه قنبلة جهنمية فشطرته قسمين، واهفتاه! ولما كنت بجانبه فى خط القتال وكان قد رجانى أن أحمل أخباره إليك إن أصيب بنكبة أو أذى فقد أخرجت من جيبه عقيب الفاجعة ساعته لأسلمها إليك حين تنتهى الحرب . وتقبلى تحياتى وتعزيتى الخالصتين :

سيزار ريفور
جندى من الفرقة الثانية من الجيش الفرنسي

وفى ذيل الرسالة تاريخ كتابتها وهو يعود إلى ثلاثة أسابيع

وقفت الأم أمام هذه الكارثة مأخوذة والهة حيرى، لا تحير كلاماً ولا تذرف دمعاً . فقد كان مصابها يعزُّ على العبرة . ثم أنشأت تردد بينها وبين نفسها : هو ذا ولدي الحبيب لاقي مصرعه فى مطاوى الغربة ، بعيداً عن أمه الرؤوم ، فواهفتاه عليه وعلى شبابه الغض وصباه الشارخ . ثم رحمها الموقف وأنجدها الدمع فأذرفت الدموع الغزار وصعدتّ الزفرات الحرار . حتى إذا ثابت إليها نفسها وعاودها عازب حلمها ، أخذت تذكر في حسرة ولهفة أنها لن تقبله آخر الأبد قبلات أم حنون ، ولن تحتويه بذراعيها ولن ولن ... يا لظلم الإنسان ! ألم يكف حراس الأحراج قتلُ زوجها المسكين حتى قفاهم الألمان القساة بولدها الوحيد يشطرونه شطرين كأنه لعبة من سكر بين يدى طفل أرعن . ثم خيل إلى المرأة المرزّأة أنها تراه وسط المعمعة ، مفصول الرأس عن الجسد بارز العينين من محجريْهما .

يعض من الألم أطراف شاربه الكثّ ، كدأبه حين يغضب ويهيج

على أن سؤالاً جديداً تهافت على رأسها : ما عساهم صانعين بجسده الدامي المقطع ؟ أيعودون به إليها كما فعلوا بجسد زوجها أم سيخلفونه جزر سباع الطير وضواري الوحش ؟

وهنا بلغ سمعها خفق نعال جنودها ، يصخبون ويجلبون بعد عودتهم من القرية . فغيّبتْ الرسالة المشئومة فى صدرها . ثم إنها ملكت عنان جأشها ، فاصطنعت هيئة الهدوء والجد واستعادت سحنتها الاعتيادية المألوفة . كان الأربعة فى لهو وسرور وقصف ، وقد عادوا من القرية ظافرين بأرنب حنيذ طرى سرقوه ولا شك من احد منازل القرية . وحين بصروا بالأم أشاروا إليها بلكنتهم المألوفة : أن أعدى لنا حساء لذيذاً شهياً . فهرعت الأم تهيء الطعام وتعد مائدة الإفطار . ولكن شجاعتها خانتها حين تحتم عليها ذبح الحيوان المسكين . لم تكن هذه المرة الأولى التى تزاول فيها ذبح أرنب أو دجاجة . ففيم ترتجف يداها ويخفق فؤادها ؟ ! أخيراً تمت عملية الذبح والسلخ . فظهر اللحم أحمر تسيل دماؤه الحارة القانية على يدى العجوز فيسري لمرآها الخوف والهول فى عروق المرأة ، وترتعد من قمة رأسها حتى إخمص قدمها ، ولاسيما حين تمثلت فى جسده الدامى ولدها الفقيد وقد قتلته القنبلة فخرّ صريعاً لليدين والفم

ويتم نضج الحيوان ، فيتخذ الأربعة مجالسهم حول المائدة وتجلس صاحبتنا فى مكانها المعتاد ،

لا تشتهى طعاماً ولا تسيغ شرابا ، بينما أصحابنا يزدردون اللحم الغريض ويشرقون بالنبيذ المعتق الأحمر غير حافلين بها ولا ملقين إليها بالاً ؛ على أنها كانت تتناوبهم ببصرها الحين بعد الحين ، وقد هيأت فى نفسها أمراً . وعلى حين فجأة فاجأتهم صائحة :

— أليس غريباً أنى وقد مضى على إضافتكم شهر لم أعرف أسماءكم بعد . فأدرك الجنود بعد لأي ما تعنيه الأم ، ثم أعلنوا أسماءهم كل بدوره ، ولكن ذلك لم يقنعها ، فرجتهم كتابة أسمائهم وأسماء أسراتهم ومحل إقامتهم فى ورقة خاصة . فأذعن الأربعة لمشيئتها ثم ناولوها ورقة بما ابتغت ، أخرجت لقراءتها منظارها المعهود ، وجعلت تنظر إلى خطوطها الغريبة ؛ وما إن تأملتها برهة حتى طوت الورقة وأخفتها دون ثيابها بجانب رسالة ابنها الفاجعة . فرغ الأربعة من تناول الطعام فأهابت بهم قائلة :

سأعد لكم شيئاً تحبونه ، ثم طفقت تخرج من الغرفة التى ينامون فيها أكياس الهشيم وأكداس التبن ، وحين سألوها عما تبتغى من عملها أجابتهم :

— البرد قارس والجو بارد وسأبنى لكم من هذه الاكياس غرفة تنعمون فيها بالدفء اللذيذ والنوم الهنئ . فأقبلوا فرحين يساعدونها في تكديس الاكياس وتعريم الجوالق . حتى تم لهم بذلك غرفة ذات جدر أربعة رجتهم الأم أن يرقدوا فيها ليلتهم قارين دافئين هانئين

وفى الغد كانت دهشة أحدهم بالغة ، حين شاهد الأم تعيد سيرة الأمس فلا تتلمظ طعاماً ولا تمد يدها إلى صحيفة ، ولما سألوها عن سبب امتناعها عن الطعام اعتذرت بضعف الشهية وعناء العمل ، ثم أضرمت ناراً لتصطليها وصعد أصحابنا الأربعة السلم الصناعي الذى اصطنعته العجوز لابلاغهم الغرفة الجديدة ، وما كادوا يفعلون ويغلقون وراءهم باب سقف الغرفة الجديدة ، حتى انتزعت الأم المتوحشة ذلك السلم الحبلى الذى يصلهم بباحة الدار ، ثم انسلت ففتحت باب الكوخ الخارجى ، وعادت تحمل حزم التبن والهشيم لتملأ بها صحن المطبخ . وكانت تروح وتغدو إلى غرفة النائمين فى حذر ورقبة لتطمئن إلى استغراقهم فى النوم . وإذ سمعت غطيطهم الدوى الصاخب كأنه الأنغام المشوشة الناشزة تنبعث من الأوتار المتراخية المعطلة ، ارتدت إلى المطبخ فألقت فى الموقد المستعر حزمة من الهشيم وأعقبتها بأخرى من التبن ؛ وحين تأكدت من اشتعالها وسرت النار في الأكياس المجاورة غادرت المطبخ ، وراحت تتأمل عملها فى سكون وجمود ووحشية . وفى بضع دقائق توهج المكان بالسعير المتأجج ثم استحال الكوخ بغرفه ومطبخه ، إلى جحيم يتضرم وأتون يقذف باللهب والشرر . ثم أخذت ألسنة اللهيب تندلع من النوافذ والشبابيك كأنها ألسنة الشياطين ، وهنا انبعثت من الكوخ صرخات شاكية ضارعة ، أعقبها أنات وتوسلات حزينة مبكية ؛ ثم انقطعت الأنات المدوية ، وخفتت الصرخات العاوية ، فما عدت تسمع غير فرقعة الأخشاب وهى تئز فى الفضاء ، أو فرقعة الجدران وهى تهاوى إلى الأرض . أخيراً انفجر الكوخ وتصدع هيكله وسط سحب داخنة سحماء وغيوم مشتعلة حمراء . فكنت ترى الثلوج فى البرية ، وقد تألقت وتوهجت من انعكاس النار عليها ، كأنها العروس الرعبوب ، ارتدت حلة ناصعة بيضاء مطرزة الحواشى بالشرائط الحمر

وفى وسط هذا الهرج والمرج كنت تسمع إرنان جرس يدوى من بعيد ، منذراً بالخطر وداعياً النجدة ، بينما الأم المتوحشة عالقة البصر إلى الكوخ وقد تنكبت بندقية ولدها ، وفى نفسها أن تطلق الرصاص على كل واحد من هؤلاء الأربعة يسعده جده فينجو من الجحيم اللاهب . حتى إذا اطمأنت إلى أن كل شىء قد انتهى إلى ما ترغب ألقت بسلاحها إلى النار المندلعة ، وتسلقت جذع شجرة ثم راحت ترقب الحريق وادعة ساكنة .

وأهرع من القرية رجال للنجدة ، وفلاحون لاستطلاع الخبر ، وجند من الألمان للتحقيق ، وكان على رأسهم ضابط يتقن الفرنسية كأحد أبنائها ، قال لها : أين جنودنا الأربعة أيتها العجوز ؟

فمدت الأم المتوحشة يدها المعروقة الهزيلة ، ثم أشارت إلى الحريق الذى بدأت تخمد ناره ، وأجابت بصوت هادىء قوى : هناك هناك .

فأحدق بها الجند ، ثم سألها الضابط :

— ومن كان للسبب فى إضرام النار ؟ فأجابت المرأة وفى لهجتها التشفى والحنق :

— أنا ... أنا ...

ولم يصدق الضابط قولها وظن النكبة عصفت برأسها ، فأمر جنوده فسدوا أمامها طريق النجاة ، غير أنها استسلمت إليهم ، ثم أخذت تقص عليهم حكاية حالها منذ اليوم الذى استقبلت فيه الجنود الأربعة ، حتى هذه الساعة التى تشفى فيها غيظها تأخذ بثأرها من كل ألمانى

فرغت من قصتها وأخرجت من جيبها ورقتين مطويتين راحت تتبين كلاً منهما على ضوء الحريق مستعينة بمنظارها ، قالت وهى تفرد إحداها :

— هذه رسالة نعى ولدى فيكتور ، ثم أعقبت وهى تجأر كالنمرة الغاضبة :

— وهذه عنوانين جنودكم ، وأرجو أن تذكروا حين إرسالها إلى أمهاتهم : أنى أنا التي حرقت فلذات أكبادهن ، وليكن توقيعها هكذا :

« انتصار سيمون المتوحشة »

لم يستطع الضابط أن يملك غضبه أمام وقاحة هذه العجوز وتشفيها ، فأمر بجنوده فاستاقوها إلى جدر من كوخها يوشك على الانطفاء ، ثم اصطف حولها على بعد عشرين متراً اثنا عشر جندياً ، وبرغم أنها أدركت ما يراد من هذا العمل لم تبد حراكاً ولا استعدت لدفاع عن نفسها

وهنا ارتفع صوت الضابط يأمر الجنود باطلاق النار دفعة واحدة .

لم تسقط المرأة كتلة دامية ، ولكن رصاص البنادق قصف ركبتيها ، فهوت إلى الأرض صريعة ، تحمل فى يدها المتقبضة رسالة ولدها دامية حمراء

قال صديقى وقد انتهى من سرد قصته علىّ :

ولكى ينتقم الالمان ويشفون حرهم من القرية ، هدموا قصرى كما تعلم .

وبينما صديقى يقول لى هذا كنت أمثل لخاطرى ، وأنا أتأمل الكوخ المهدم الخرب ، شجو أولئك الامهات اللواتى فقدن أولادهنّ بين جدرانه الملتهبة . ثم أعجب وأدهش لهذه البطولة الشرسة التى أبدتها الأم الثاكل ساعة الموت وحين تلقت رصاص الجنود

كمال الحريرى

الدهر المعلم

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

ولد خليل بعد وفاة أبيه ببضعة أسابيع ، ولم يكن اليتم أشد ما ادخرته له الحياة ، لأن أباه كان قد عاش عهدى الشباب والكهولة فى فقر مدقع قضى به عليه نزاع بينه وبين أبناء عمومته على قطعة كبيرة من الأرض ما زال يؤجل الفصل فيه أمام المحاكم أعواماً كثيرة حتى تقضت حياة الرجل في ضيق . وشب الطفل بين أحضان أمه مع إخوة ثلاثة له يعيشون جميعاً على ريع ثلاثة فدادين لأمهم ، فكان من أمر الإخوة الثلاثة أن عملوا في الحقل على قناعة بما قسم لهم فى حاضرهم ، وعلى أمل أن يعوضهم الله عن جهدهم وصبرهم خيراً فى مستقبلهم . وكان من حظ خليل أن أرسل إلى الكتاب ثم إلى مدرسة الزقازيق الابتدائية على كره من اخوته ؛ وآزره النجاح فنال الشهادة الابتدائية وأدخل المدرسة الثانوية . وما زال مثابراً على نشاطه صابراً على فقره حتى نال شهادة الكفاءة . وبث النجاح فى نفسه إيماناً وطيداً وعزماً أكيداً وثقة مطمئنة ، لولا أن قدّر لحياته غير ما بشرت به طلائعها فزلّت به القدم وخانه الحظ فسقط فى امتحان البكالوريا ، وأذهله السقوط إذ باغته من حيث لم يقدّر فصكّه صكاً وزعزع ثقته بنفسه . ولم يستطع البقاء فى المدرسة معفًى من المصروفات المدرسية فرجع إلى قريته حزيناً ينوي صادق النية أن يدرس فى داره ويتقدم إلى الامتحان مرة أخرى ، ولكن كانت الحياة شاقة مضطربة يكتنفها القلق والانزعاج إذ أن اخوته ضايقهم أن يقبع فى عقر داره مطمئناً بين كتبه ويجهدوا هم أنفسهم طيلة يومهم ، فران الهم على صدره وتقهقر درجات وهوى لدى الامتحان فكان سقوطه هذه المرة أنكى من المرة الأولى وأشد.

وسرعان ما انبرى له إخوته قائلين : إما العمل معنا فى الحقل وإما أن نرى لك رأياً غير المذاكرة . فساءه تعصبهم عليه واستبدادهم به فحزم أمتعته وقال لهم غاضباً : « لاعجب أن يتربص بنا أبناء عمنا ويقيدونا بالفقر كما قيدوا أبانا من قبل ، مادمتم — وأنتم إخوتى — تأخذكم القسوة علىّ فتفسدون مستقبلى ... فلتكن أمنيتكم ، وهأنذا هاجركم وهاجر القرية والمديرية ، ولسوف يأتيكم نبأى بعد حين » . وترك القرية غير مستمع إلى توسلات ، يدفعه الغضب الشديد ، ويخيل إليه أنه سيغزو المدن ويقهر البلدان ، وينل المال حتى يعلو شأنه عن كل شأن

وكان له قريب يدعى عبد الباسط الغر ، يدير مدرسة أهلية في العاصمة ، فجعل غايته إليه ، وبنى آماله عليه

وكان خليل يبدو محافظاً على دينه ، وإن وقف به إسلامه عند حدود المظاهر ، فكان يصلى الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويقرأ القرآن ، ولكن قل أن تهتز نفسه لمواطف الإيمان العميق ، أو تنبعث فى قلبه خلجات التدين الصادقة ؛ ولذا أمكن أن تستقر فى وجدانه آراء يبرأ منها التدين والأخلاق الفاضلة كإيمانه بالشطارة واعتقاده أنها فضيلة مادامت تمين على العيش والظفر فى معترك الحياة . ولم يتحرج من الكذب والرياء والاحتيال ما دامت هذه جميعها من دعائم الشطارة التى تسدد خطاها نحو أهدافها النافعة ؛ ولم يتنبه ضميره إلى التنافر القائم بين هذه المبادئ خيرها وشرها فنجا من الأزمات النفسية والأخلاقية كأنه أشخاص مستقلون فى كينونة واحدة . وظل راضياً هادئاً يعمل لدينه بما يفرضه عليه من العبادات ، ويعمل لدنياه بما يغريه به الهوى ؛ وسار فى طريق الحياة قدماً تدفعه هذه البواعث المتناقضة كأنه آلة صماء يستعين بها الطبيب على إنقاذ النفوس ويستعملها الأثيم فى إزهاق الأرواح الأبرياء ... وعلى هذا النحو كان تلميذاً مجتهداً متعبداً ، ولكنه استعمل مكره وحيلته ، فشارك الآكل طعامه ، والمكسو ثيابه ، والقارئ كتبه ، حتى ساءت سمعته وامتهن ذكره ، وخاض التلاميذ فى سيرته ؛ ولكنه كان يعد نفسه دائماً المظفر المنتصر مادام يستطيع الاحتيال على أسباب العيش ؛ وهون عليه الفقر كبرياؤه وكرامته

***

حط خليل فى القاهرة وقصد لساعته — مستعيناً بإرشاد الناس — إلى شبرا حيث قريبه الناظر

وكان الرجل يقيم فى بيت كبير قديم ، مكون من طابقين ، جعل من الطابق الأول فصول مدرسته ، ومن الثانى نصفه للإدارة ونصفه سكناً له ، وكانت زيارة خليل مفاجأة لم يتوقعها فرحب به قائلاً :

« أهلاً وسهلاً .. كيف حال والدتك وإخوتك ؟ أهلاً ... أهلاً ... لم لمْ تنبئنى بمجيئك ؟ » فأجابه مبتسما :

« لأنى حتى مساء الأمس لم يخطر لى السفر على ذهن ، ولم أكن أقدر أنى تارك القرية قبل استدارة عام دراسي كامل . فبدت الدهشة على وجه الناظر وتساءلت عيناه ؛ فاستطرد خليل قائلاً بلهجة حزينة :

« ضاق بى إخوتى وضقت بهم فالتمعت فى ذهنى فكرة الهجرة ، وسرعان ما أبرزتها إرادتى إلى حيز الحقيقة فارتحلت عنهم » فضحك الأستاذ وقال :

« إن تاريخ أسرتنا يتلخص فى قصة نزاع شق منذ القدم ، يأكل فيه أبناء العم أبناء عمومتهم والإخوة أبناء أبيهم . وعلى كل حال فحسناً فعلت فإن القرية لتضيق عن مواهبك . ولكن على فكرة ... قل لى ما شأن قضيتكم الآن ؟ » فلم يتمالك خليل نفسه من الضحك وقال :

« كعهدك بها ، ميتة حتى يأذن الله فيميتها ... وقد قابلنا المحامى منذ أجل قريب فوعدنا ومنانا وما يعدنا إلا هواء كما وعد أمنا من قبل ، وكما وعد أبانا محاميه رحمة الله عليهما من قبل القبل ...

« كل شىء رهن بمشيئة الله فاصبر الصبر الجميل والآن اخبرنى علام عزمت ؟ » فنظر إليه بعينين مستطلعتين وقال : « أرغب فى أن أجد عملاً »

« أى عمل ؟ »

« آمل أن أجد فى مدرستك وظيفة مناسبة »

فصمت الأستاذ مفكراً لحظة ثم قال :

« أظنك لم تحصل بعد على البكالوريا ؟ »

« نعم ولكن معلوماتي لا تقل عن أحد من حامليها »

« فليكن . فان عندى مدرسين لا يحملون سوى الكفاءة ... فما هي المواد التى ترى أن تدرسها ؟ »

فانعش الأمل نفس خليل وتيقظت ثقته بنفسه وتنبهت شطارته فقال بثبات :

« كل ما تعهد به إلى .. عربى .. انجليزي .. حساب .. رسم .. ديانة .. ألعاب رياضية .. »

« حسن ... وفضلا عن ذلك فسأعهد إليك بقسط فى إدارة الحفلات »

« أي حفلات ..؟ »

« الحفلات المدرسية ... التى تدر على المدرسة ريعها الحقيقى وخاصة بعد أن أصبحت الاعانة الوزارية غير مضمونة »

« وما سبب ذلك والوزارة لا تنى عن تشجيع المدارس الأهلية ..؟ »

فتنهد الأستاذ وقال :

« لأنى تورطت فى تأييد الوزارة السابقة وخطبت فى حفل عام أقيم لتكريم الرئيس المستقيل؛ ولا أظن الوزارة الحاضرة — والعداوة بين حزبها وحزب الوزارة المستقيلة مشهورة — تنسى هذا « للعبد لله » وعلى كل حال انتظر فستعلم كل شىء فى حينه »

* * *

ومن غداة اليوم التالى ابتدأ الأستاذ خليل عمله كمدرس . ولم يكن ذا استعداد خاص للتعليم ، ولكن ذخيرته من الحيلة أيدته بالقوة والثقة فقام خير قيام بما يتطلبه عمله من الثبات والظهور بمظهر العلم والعرفان وألهمته مواهبه ما يسوس به الأطفال ويضبط النظام ؛ على أنه لم يلبث أن فطن إلى أن جميع زملائه يستندون فى الغالب إلى التهويش والتضليل لا إلى العمل الصادق والدرس الحق ، فاطمأنت نفسه وهوش وضلل وكان من المتفوقين . وكان يهاب قريبه وناظره ويعمل له الحساب، ولكنه — بطول الممارسة — اطلع على خبيئة نفسه ، فألفاه لا يحتفل بالتربية والنظام احتفاله بالحفلات وإيراداتها ففى الحفل المدرسى توزع بطاقات الدعوة بالمئات على أولياء أمور التلاميذ ، وبالعشرات على كبراء الحى وأغنيائه ، وفى أثناء الحفل يدور صغار التلاميذ على كبار المدعوين بالورد وغيره من الأشياء الخفيفة الثمن فيدفع المتورطون منهم ثمنه أضعافاً مساهمة فى تنشئته الفقراء ... وكانت وظائف القائمين على هذه الحفلات أقرب ما تكون شبها بوظائف محصلى الضرائب . وقد لعب الأستاذ خليل دوره بمهارة جلبت له العطف والثقة فأضحى لدى ناظره فى منزل مكين

ولدى نهاية الشهر الأول من حياته الجديدة قصد مع القاصدين إلى حجرة سكرتير المدرسة ، ليقبض مرتبه — ولم يكن قد سأل عنه تأدباً منه واطمئناناً إلى تقدير قريبه — ولشد ما كانت دهشته

حين سلمه الرجل ثلاثة جنيهات لاغير . وراجعه فى الأمر ولكن الرجل أكد له أنه سلمه مرتبه بالكامل . فهرول إلى حجرة الناظر والجنيهات فى يده ، وما إن رأى الرجل « المرتب » فى يده وطالع الدهشة المرتسمة على وجهه حتى فهم بداهة ماوراءها ، فابتسم ابتسامة صفراء وقال بهدوء : — « أغير راض أنت ؟ ... »

طبعاً ... خصوصاً وإني أرى أن من المدرسين — ممن هم دونى عملا ونشاطاً — من يجاوز مرتبهم الخمسة جنيهات أو يزيد ... » فاستطرد الرجل وهو مازال محافظاً على هدوئه : —

« لا يغرنك قولهم ولا ما هو مقرر لهم ، فهذا شيء والقبض شيء آخر ... وثق أنك أوفرهم حظاً . ولا تنس أنك تشاركني سكني وأني لن أغفلك من المكافأة كل حفل مدرسى »

« هذا حسن ، ولكن ... »

« لا لكن يا أستاذ خليل ، أنت قريبي ويعز على أن تشكو . ولكن ما حيلتى وأنا مدير أعمال خاسرة لا تكاد أرباحها تفى بمتاعبها ؟ ... فلتقنع بهذا الآن وعزاؤك أن اخوانك لا يجدون فى الحكومة عملا ، وإذا وجدوا فلن يطمعوا فى مثل مرتبك هذا »

وهنا ذكر غضبته الفرعونية أمام إخوته وتلويحه لهم بقبضة يده وهو يقول : «ولسوف يأتيكم نبأى بعد حين» فشعر بخزي قاتل وخيبة أمل مريرة إذا كان الأمر كذلك فينبغى أن يرى لنفسه حيلة ، وهل تنقصه الحيلة ؟ . وها هى ذى المظاهر جميعاً — من عبادة وصلاة وتلاوة قرآن — تدفع عنه الظنون وتنفى عنه الريب ، أو فما أهون الحياة جميعاً وما أعبث الجهد يضيع فى سبيلها

واستأنف أساليب الحياة التى كان يتبعها بإخلاص على عهد التلمذة فى مدرسة الزقازيق ، وتربص بالحفلات المدرسية التى قال الناظر أنها تدر على المدرسة ريعها الحقيقى ، تلك الحفلات المغرية حيث تتراكم بطاقات الدعوة أكداساً ، أكداساً وتتجمع التبرعات من كل صوب ، ويسهل اللعب على من كان مثله نشيطاً شاطراً حذقاً ، وجرت يده فى خفة ودبت الحياة في جيوبه المهجورة فاطمأن نوعاً إلى الحياة واستطاع أن يمتع نفسه ببعض ليالى القاهرة الفاتنة طوراً فى المقاهى وطوراً فى الحانات ، ولكن الأيام لم تتركه فى غيه يهمع فلم يلبث أن أحس بمراجعة رئيسه تحيط به ، وبحذره يأخذ عليه المسالك ، فكف مقهوراً خيفة أن يفقد الرهان كله ويخرج « من المولد بلا حمص » ولكن أنى له الصبر ونداءات الشهوات لا تخمد لها نار في قلبه أو يخف لها صراخ !

وهداه تحريه إلى مقهى قريب من المدرسة تسهر فيه شرذمة من إخوانه المدرسين يلعبون الورق إلى ساعة متأخرة من الليل فارتأى أن يسلك جماعتهم وأن يجرب حظه ، وقد قابلوا رغبته بدهشة لا تخفى لأنهم ظنوه بادئ الأمر حنبلياً لا يراجع نداء دينه الحنيف إلا واحداً منهم تحداه بنظرة ظفر وقال وهو يقهقه :

« ألم أقل لكم أني أعلم مالا تعلمون ؟ »

وشاركهم فى لعبهم ، وجاء الحظ مخيباً لآماله ، فتنبهت فيه غريزة الشطارة وانصرف بكليته إلى ترويض

يده على الخفة والرشاقة ... وسرعان ما تنبه الرفاق إلى هذا الراجح أبداً ... وكان من العسير أن يخفى سره إلى الأبد فحامت حوله الشبهات ، وتجلت فى عيون لاعبيه الريبة والحذر؛ وما زالوا يدافعونه حتى قاطعوه صراحة ونحّـوه عن مائدتهم فآب ملوماً محسورا ...

ومرت عليه الأيام الطويلة وهو يعانى الفقر واليأس ، وأخيراً فتش فى جعبته فلم يجد سوى الاقتراض مخففاً عن نفسه ومشبعاً لرغباته وشهواته فاقترض ، اقترض من الناظر ومن المدرسين ومن البواب نفسه . ولما طولب بأداء الدين ماطل وسوّف وأجل وتهرّب ، فارتفعت الشكوى منه على كل لسان ، واضطر سكرتير المدرسة أن يحجز على مرتبه فلم يف بالمبالغ المطلوبة . وهنا اشتد الغضب بالناظر واستدعاه إليه وقال له معنّفاً :

« إنك تخيب أملى فيك ، وتضعنى فى مركز دقيق أمام مرؤوسى ، وإنى أصارحك بأنى لن أصبر على تصرفاتك بعد الآن »

ثم جمع إليه الموظفين وقال لهم فى لهجة حازمة قاطعة :

«من يقرض خليلاً بعد الآن فستقع عليه تبعة عمله ... ولن يكون مرتبه ضمانة لأحد ... »

وهكذا وجد نفسه فى عزلة رهيبة ، يعيش بين أناس لاتربطهم به صلة عطف أو مودة ، يضيقون به ويضيق بهم ، ويتحاشونه ويتحاشاهم ، فأحاط به الهم وعاش عيشة نكدة يتحمل الحرمان فى جزع ، ويتلهف على الأمل يميناً وشمالاً فلا يلقى إلا وجه القنوط يطالعه فى كل مكان

***

وفى أول مارس دس الجنيهات الثلاثة فى صدره وترك المدرسة هائماً وإخوانه يتغامزون ، ولم يلتفت إليهم لأنه كان مشغولا باشباع نهمه فى حدود الأغلال التي قيده بها الدهر ، ولم يكن يبرأ — حتى فى هذا اليوم السعيد يوم أول الشهر — من الابتآس والكآبة ، لأنه يعلم أنه لا يملك حق التصرف فى المبلغ الذى معه على ما يشتهى وإلا عرض نفسه لثلاثين يوماً قاحلة ينسى فقر ساعة منها ليل هـذا اليوم السعيد ، ولكنه لم يدر بخلده حسبان تلك المفاجأة التى كان يدّخرها له الدهر

ففيم هو يضرب فى الأرض إذ رأى رجلا يمر به مسرعا . عرفه من النظرة الأولى ، فأسرع نحوه حتى لحق به ؛ وأحس به الرجل فتوقف والتفت إليه واستولت عليه الدهشة فصاح : —

« خليل افندى ... ما الذي أتى بك إلى هنا ؟ إنها مصادفة عجيبة تجمعنى بك حين أفكر فيك . فتعجب مني واشكر الله كثيراً ..

« ولم تفكر فيّ يا حضرة المحامي ؟ »

« كى أبشرك يا سيدى فقد كسبتم القضية وردت إليكم أرض أبيكم وريعها المتجمع ...

وكانت كل كلمة تخرج من فم المحامى تهز قلب خليل هزاً عنيفاً حتى خارت قواه وأحس أن الأرض تميد به فاستند إلى الحائط . انه فرح فوق مايحتمل ، أما المحامى فاستطرد وهو يهم بالمسير : —

إنى مسافر هذا المساء إلى الزقازيق ، وسوف

«أقابل اخوتك غداً ... »

« خذنى معك ... »

« إذا شئت ... ولكن ينبغي أن تعلم أن أمامكم عدة أيام — ربما بلغت الأسبوع — تتم فيها بعض الاجراءات القانونية قبل أن تتسلموا أموالكم

« إيه ... »

فاه بها وقد جمد وجهه ، فضحك الأستاذ وقال: « أحرى بمن انتظر السنين راغماً أن ينتظر الأيام راضياً ... »

فليكن ، لقد أصبحت السعادة منه قاب قوسين أو أدنى ، ورأى أن من الحكمة أن ينتظر هذه الأيام في القاهرة لأنه كره أن يقيم بين إخوته فقيراً ، ولو أياماً معدودات وهو الذى هجرهم غاضباً متكبراً

وإنها لسعادة عظمى أن ينتقل الإنسان فجأة من الفقر إلى الغنى ، شبيه به أن يجد عبد نفسه على عرش دولة من السادة ، فأى سعادة بعد بؤس ، وعز أثر ذل ، وظفر عقب خذلان ؟

وقد تحسست يده محفظته فشمر بغبطة ، وذكر أمانيه منذ لحظة فانفرجت شفتاه عن ابتسامة عذبة وهمس لضميره : « أستطيع أن أعيش أول ليلة فى حياتى »

واستسلم للأحلام ، فغمرته تياراتها المضطربة ، ولفحه لهيبها ، فتشعبت به المسالك ، واختلط عليه الأمر ، وخيل إليه أن جنيهاته الثلاثة لن تشبع نهمه أو تطفئ شهوته

فلما أن هدأت نفسه واطمأنت عواطفه الثائرة رأى الأمر سهلاً يسيراً ووجد « خطة » السهرة جاهزة بين يديه حاضرة فى قلبه من طول ما صورتها له أمانيه ، وصاغتها أحلامه

فسار بأقدام مطمئنة إلى « الحاتى » وآثر الحاتى على غيره ، لأن اللحمة كانت أعز المأكول لديه وأشده تمنعاً عليه ، وطلب ما أملاه عليه نهمه وانكب على المائدة يلتهم ما عليها بجشع وشراهة . فسكت عنه الجوع ، ولم يكف حتى اضطر إلى الامتلاء والشبع ، وأخطأ تقديره إذ ترك للمائدة لحماً شهياً

ثم عرج بعد ذلك إلى حانة هادئة شرب فيها وعل حتى دارت رأسه

ثم قادته الخمر — عند منتصف الليل — إلى فراش لا يذوق النوم الراقدون عليه

***

وعند الضحى غادر البيت كأنه غير رجل الأمس . كان تعباً متهافتاً مصفر الوجه ، يدوى الصداع في رأسه ، وتلتوى شفتاه من الاشمئزاز ، فتعجب كيف تنتهي اللذة إلى هذه الحالة المريضة التى تزهد فى الدنيا بأسرها ... وذكر تلهفه على الملاذ ، وتحرقه على الطعام والشراب والشهوات ، وذكر أنه كيف روى نفسه من هذه جميعاً حتى اتخمها فردت إلى مايعانى من سوء وضراء ، وكل هذا فى ليلة واحدة ...! ليلة واحدة لا أكثر ...! وا أسفاه ... لقد كان يظن خطأ أنه ذو موهبة وقدرة على الاستمتاع بالحياة الدنيا فاذا به عليل مسكين يتقلب على وجهه عند الكرة الأولى ... ألا سحقاً للدنيا التى لاترضى فى فقر ولا تسعد حين الثراء ، وسرت به روحه متلهفة

— وهو يعانى الألم والاشمئزاز — إلى قريته الحبيبة وتمنى على الله لو يجد نفســه سريعاً بين ديارها ، يزرع أرضه ويهنأ بعيشة زوجية هادئة بعيداً عن مهالك النفوس ومثيرات الشهوات ، وبعيداً عن الناس جميعاً الذين يعيش بينهم فى عزلة رهيبة وسط سياج من الحذر والمقت

وانتهى عند ذاك إلى المدرسة ، وتذكر وهو يضع يديه فى جيوبه أنه خالى الوفاض وأنه أنفق آخر قرش من جنيهاته الثلاثة وخرج مشكوراً مصحوباً بالسلامة ...

إن ما ينبغي له الآن أن يقترض مبلغاً زهيداً يسافر به إلى بلدته ويسدل ستاراً كثيفاً على هذه الحياة النكدة ؛ وإذا كان عشر هذا المبلغ مما يستحيل عليه اقتراضه وهو مفلس مشهور بالاحتيال فما يظن أنه يعز عليه الآن اقتراضه وهو غنى من الأغنياء وعين من الأعيان

وقصد من فوره إلى أول من لاقاه من مدرسى المدرسة فحياه على غير توقع وقال له :

« من فضلك يا شكرى أفندي ... إنى فى حاجة شديدة إلى مبلغ زهيد لأنى ... »

فدهش الرجل وقاطعه متسائلاً وهو لا يخفى دهشته :

« أتقترض ولما يمض غير ليلة على أول الشهر ؟ يا حظ من كنت ضيفهم أمس ... »

« إنك لا تدرى من الأمر شيئاً ، لقد ربحنا القضية ، ألم تعلم أنه كان بيننا وبين أبناء عمنا قضية منظورة أمام المحاكم منذ أعوام عديدة ؟ هى الحقيقة ولقد ربحنا القضية وصرت من الأغنياء المعدودين ، إلا أن جيوبى خالية من النقود وأنا فى شدة الحاجة إلى أجرة السفر وسوف أرد إليك نقودك أضعافاً لدى وصولى القرية ... »

« قد كنت لا ترد وأنت مقيم بيننا ... »

« تغير الأمر وصرت من الملاك »

فاقترب منه الشاب وشم فمه ، وارتد مشمئزاً وهو يقول :

« صــدقت ... لا ريب أنك تملك الضياع الواسعة ... أنا أيضاً أملك مثلها حيناً قصيراً من الليالي السعيدة ...

ولــكنى أعجب كيف تبقى ريح هــذه الخمر فى رأسك حتى منتصف اليوم الثانى ... »

« لا تهذ . إن ما قلت لهو الحق المبين »

فضحك الشاب وهو لا يستطيع تصديقه وسأله بلهجة تصنع فيها الجد :

« أى خمر هذه ؟ سمها لى وأنا أشرب وأملك الضياع وأقرضك ما تشاء ... »

فولى عنه يائساً وهو يعض على أسنانه ، ولم يكن حظه أعظم توفيقاً مع غيره ، فسألهم واحداً واحداً وردوه جميعاً فى لهجة صارمة حتى لم يبق ممن لم يسأل سوى حضرة الناظر والبواب . وكان يخشى الناظر ويتحاشاه فذهب إلى البواب ، ولمــا أحس الرجل بأن الحديث يحوم حول الاقتراض قال مسرعاً

« معذرة يا سيدى ، لقد سبق منى يمين الطلاق ألا أقرضك بعد المرة الأخيرة ، وقد طلــقت امرأتى مرتين — بدافع الخلافات الزوجيــة — ورددتها « والثالثة ثابتة » وخراب بيتى قضاء لا يرضيك »

فصاح فى وجهه غاضباً : — « الله يخرب بيتك »

ثم قصد إلى قريبه يائساً منفعلا ، وحادثه في الأمر وارتاب الرجل فى حقيقة القضية الرابحة لأنه لم يتعود من خليل الصدق ، وساءه أن يقترض فى اليوم الثانى من الشهر فقال له باستياء شديد :—

« إنك تتصرف تصرف القصّر المتهورين وتسيء إلى سمعتى وشرفى » فرد عليه بحماسة قائلا :

« أقسم لك بشرفى أننا كسبنا القضية ، وأن الذى أكد لى الخبر هو المحامي نفسه »

« آسف لأن أصارحك بأنى لن أومن لك حتى يأتنى الخبر من إخوتك ، ولن آمن إن أنا أقرضتك اليوم أن تأتينى غداً وتمثل أمامى نفس المهزلة ، فلتتحمل عاقبة نزقك »

« أرجو أن تصدقني ... »

« لا تلح ... إنى بدأت أحس بأن ما يفرق بين أهلينا جميعاً من الشقاق سيفرق بيننا »

فانتفض خليل من الغضب ، وامتلأ غيظاً ويأساً فضرب المكتب بقبضة يده ضربة شديدة وخرج وهو يدمدم بصوت حانق غير مفهوم

وكانت غضبة اليائس ، لأنه رمى بنفسه فى عزلة قاتلة وغدا لا مال له ولا معين ولا صديق ، فاستسلم للغضب وسب ولعن من دون جدوى لأن الغضب لا يستطيع أن يطوى به هذه الأميال التى تفصل بينه وبين قريته أو بينه وبين الراحة والطمأنينة

وضرب فى الأرض على غير هدى تقوده قدماه ذاهل الفكر ، حائر النفس ، لا يرى بصيصاً من النور ، ولا يهتدى إلى حل ، تتردد عيناه بين المارة والحوانيت والبيوت والمركبات كأنه يتمنى أن تظفرا بمنقذ مجهول ينتشله من ورطته وإفلاسه ... لو يجد صديقاً ما يزال على حسن ظنه به ؟ ولكن هذا بعيد ، فليته يجد عملا ولو نصف يومه المنكود هذا وبدا له هذا أعسر مطلباً من الأول ، فألقى بنظرة فى أركان الطريق يرجو وهو يائس أن يجد كيساً مملوءاً منسياً ...

وحملته قدماه وهو لا يدرى إلى ميدان المحطة فنظر إلى بنيانها وتنهد بحسرة موجعة ، وجاس خلالها يطالع القطر المتأهبة للرحيل بلحظ حزين كئيب ويشهد المسافرين المتدافعين المهرولين بحسد أليم

وانتزع نفسه من المحطة ، واستأنف السير ، ومر الوقت لا يحس به ، حتى أدمى المشى قدميه ، ونال التعب منه كل منال ، وخيل إليه فى تدهوره أن مفاصله ينفك بعضها عن بعض ، وشعر — بعد طول الجهد — بقرصة الجوع تمزق بطنه الذى لم يستقبل شيئاً منذ عشاء الأمس الفاخر ، فسار يتخبط ، وذكريات القرية ، ومائدة الحاتى ، والمحامى ، والناظر . تتمثل أمام مخيلته فى صورة مثيرة تاركة خلفها الألم والجزع

والتقى فى بعض تجواله الضال بشحاذ — وكانت آية الليل تحتل الآفاق التى ولت عنها أشعة الشفق — يسير متوكئاً على عكازه ، وعلى ظهره جوالق مملوء بما فيه من كسر الخبز ، فتعجب غاية العجب أن يرجع هذا الشحاذ إلى مأواه آمناً مطمئناً ، سعيداً بما على ظهره وما فى سراويله ، وأن يعانى هو — غنى مديرية الشرقية السّري — ألم الجوع والقهر ... فأى دنيا هذه ...

وأجبر الجوع تيار تأملاته على الانقطاع فتبع الشحاذ عن كثب وقد جمدت عيناه على جولقه

فسال لعابه وانخلع قلبه ، وتلهف إلى أقذر لقمة فيه ؛ ولا عجب فلو أنه نوى أن يصوم يومه لحل له الإفطار منذ ساعة على الأقل . وخيِّل إليه أنه أيسر على نفسه أن يمد يده بالسؤال إلى هذا المتسول من أن يمدها إلى أفندى محترم فى مثل بزته ، ولكن كيف يفعل ذلك ... ؟

وعرج الرجل إلى منعطف هادئ فاقترب منه وقلبه يدق بعنف فى صدره وقال له بتضرع :

« ياعم ... أعطني كسرة خبز لله »

فنظر إليه الشحاذ دَهشاً وفحصه من الرأس إلى القدم ، أو بعبارة أخرى من الطربوش إلى الحذاء ، ثم هز رأسه منكراً مستغرباً وقال بلهجة مرّة :

«على الله !» فتوسل إليه بلهجة صادقة ووجه ناطق :

« لا تغرنك ثيابى ... إنى أكاد أموت جوعا »

فتردد الرجل بين مصدّق ومكذب ثم دسّ يده فى جولقه وناوله نصف رغيف ، فارتد به إلى ركن مظلم كأنه ظفر بكنز لا يثمّن والتهمه بشراهة ولذة لا تقاس بها لذته بالأمس وهو جالس إلى مائدة الحاتى ، ولكنه لم يتمالك عواطفه فسحّت عيناه دمعاً ساخناً كما ينبغي لرجل يملك مالا يقل عن خمسين فداناً ويمد يده بالسؤال إلى شحاذ عاجز ..

وإذ سكت عنه الجوع عاد إلى السير على غير هدى ، وإلى التفكير اليائس فى معضلته ، ووجد نفسه فجأة فى عماد الدين ، فتذكر ليلة الأمس القريب ... حقاً إن الحياة عدو فى ثياب صديق ، ولعل أبا نواس — وقد كانت حياته ليالى متصلة من نوع ليلة الأمس — رد فى نهايته إلى مثل ما رد إليه هذا الصباح وهذا المساء من الألم والمحن فأطلقها صرخة داوية كما ينفجر البركان من شدة تفاعل باطن الأرض . ولكن وا أسفاه نحن لا نذكر العظات إلا حين لا تنفع إلا للعزاء والتأمل . وعرج إلى اليمين وثقلت خطاه وهو يمر أمام البيت الذى ولجه بالأمس مترنحاً

أمن الممكن أن يرجو هنا خيراً ...؟ ومع هذا فمن الذى أطعمه من جوع ... ؟ وصعد مسرعاً وطرق الباب ثم دخل ، فقابلته بترحاب وقالت له ضاحكة :

« لعلى رقت لك ... ؟ »

فقال مضطرباً :

« طبعاً ... طبعاً ... ولكني لست هنا لذاك »

« فلم أنت هنا إذاً ... ؟ » فتردد لحظة ولكنه خشى أن يعقله التردد عن الكلام فقال :

« إصغ إلى يا سيدتى ، لقد فقدت نقودي كلها ولا ناصر لى ولا معين ، وأنا فى بلدكم هذا غريب ، وينبغى أن أعود إلى قريتى بالشرقية ، وأنا — أقسم لك أنى غنى والحمد لله . فأقرضيني ريالاً فقط أرده اليك جنيهاً ذهبياً ، وخذى علىّ ما تشائين من الضمانات ، ولكن بالله لا ترفضى لأن الرفض معناه الموت والقنوط

« لعلك وجدت أن ثمن زجاجة الجمة أرخص بكثير مما دفعت بالأمس فجئت ... »

« أبداً أبداً ... والله العظيم »

« فلعلك إذاً بلطجى ؟ »

« بل أنا بائس قانط » فدقت على صدرها وقالت :

« يا لسوء حظى ... غيرى لا يرجع إليها فى مثل حالتك هذه إلا من يكون قد بذر تحت قدميها أموالا وضياعا وأنت لم تنفق على سوى جنيه أعرج »

« أتوسل إليك أنا في ورطة شديدة ... »

فقالت بتهكم :

« إن كنت عاطلا ... أوظفك فى بيتى »

« يا للداهية ... »

فقالت غاضبة :

« أتغضب وأنت تمد يدك سائلا .. ؟ »

فأجاب : « هاك طربوشي رهينة »

فصمتت هنيهة ، وتناول الموضوع من ناحيته الجدية ، ورمقت الطربوش والجاكتة بعين حالة .. ثم قالت :

« والجاكتة أيضاً ... لأن الطربوش وحده لا يساوى شيئاً »

فتنفس الصعداء وخلع الجاكتة مسرعاً وقبض الريال وفر من أمامها كأنما اختطفه اختطافاً ، ولم يبق أمامه سوي أن يحزم متاعه التافه ، فقصد من توه إلى حجرته بالمدرسة . فلما وقع نظره على الفراش خارت قواه فارتمى عليه ببدلته أوعلى الأصح ببنطلونه وراح في سبات عميق . واستيقظ مبكراً فنهض من فراشه وأخذ حقيبته وترك المدرسة دون أن يودع أحداً . وعند منعطف الطريق التقى بأحد الفراشين وكان قادماً من بيته قاصداً المدرسة فحياه الرجل بأدب — على رغم كل شيء — وأبدى استعداده لخدمته بحمل الحقيبة إلى محطة الترام فأعطاها إياه شاكراً ، وسارا جنباً إلى جنب ، وسنحت منه نظرة عارضة إليه فارتجف جسده لأنه خيل إليه أنه يرى جاكتته عليه ، كان الرجل يرتدى جلباباً وجاكتة وطربوشاً ويسير مطمئناً لا يقع له فى حسبان ما يقوم فى نفس صاحبه من الشك والرعب . أما خليل فكان ينعم النظر فى الجاكتة ولا يكاد يصدّق ماترى له عيناه . إنها جاكتته نفسها بقماشها وتفصيلها ، بل هذا الزر المكسور شاهد لا ترتقى إليه الشبهات ، فكيف حصل عليها ؟ أيكون قد سرقها ؟ إنه لا يهضم هذا الفرض ، ألعلها إذا اعطته إياها أو بمعنى آخر أهدتها إليه ؟ إن هؤلاء النسوة اللاتى يرتمى تحت أقدامهن خيرة الشبان يرتمين بدورهن تحت أقدام أحط المخلوقات وأدنسها . إنه يعرف ذلك تمام المعرفة ، فلا مجال للشك .. وتحاشى النظر إلى الرجل وأبت كبرياؤه أن يوجه إليه أى سؤال أو يفاتحه فى أى حديث . ومشى إلى جانبه شارد الفكر ساخن الرأس ملتهب العواطف حتى انتهيا إلى المحطة وكر الرجل راجعاً دون أن يسمع كلمة شكر ...

أواه ... ! لقد كان وهو فى محنة الفقر شاطراً محتالاً لايشق له غبار ، يأتيه عيشه رغداً من كل مكان ، ولكن هذا لم يمنعه — وهو أخو مكر ودهاء — من أن يرى رجلا هلفوتاً يسلبه لباسه علانية فلا يستطيع له رداً ، كما لم يمنعه — وهو صاحب ضياع وأموال — من أن يمد يده بالسؤال إلى شحاذ من أبناء السبيل وأن يطعم رغيفه القذر وهو يبكى على قارعة الطريق ...

نجيب محفوظ

لينوتشكا

للقصصي الروسي اسكندر كوبرين

بقلم محمد شكري عياد

اسكندر كوبرين ، كاتب روسى قريب العهد ؛ يمتاز عن كثير من الكتاب الروس بأنه لم تكن له رسالة فى الحياة غير الفن . فقد كان يكتب للفن وحده ، يتناول الحياة باحساس فنان فيخرجها بريشة فنان ، غير قاصد إلى فكرة إصلاحية أو فلسفة اجتماعية. على حين كان تولستوى مصلحاً اجتماعياً ، ودستوفسكي متصوفاً فيلسوفاً ، وجوركي داعية شيوعياً . وتعد لينوتشكا من أروع ما كتب كوبرين ؛ فهى تحلل إحساساً دقيقاً عالياً من إحساسات النفس البشرية ، وتحلله تحليلا صادقاً قوياً خلاباً . وللقصصي الفرنسى جى دى موباسان قصة عنوانها « انتهى Fini » قريبة الشبه من قصة كوبرين هذه ، لولا ما تمليه القومية والبيئة وشخصية الكاتبين من اختلاف فى أسلوب العرض والتشخيص Delincation . وقد نترجمها لقراء الرواية في عدد قادم ، لنتيح لهم فرصة المقارنة بين فنين عظيمين فى القصة

« المترجم »

عند ما ارتحل الكولونيل ڤوزنتزين من بطرسبرج إلى الكريميا ، عاج على موسكو فقضى فيها يومين يتلمس فى مهدها ذكريات طفولته ، ويذكى بين ربوعها أحلام شبابه

ويقال إن بعض الحيوان إذا أحس دنو الأجل ارتد مودعاً إلى مسارحه الأولى . وما كان بڤوزنتزين من داء يهدده بميتة مبكرة ، فقد كان لما يزل في الأربعين من عمره ، قوى العود منتصب القامة ، صحيح الجسم . ولكنه كان يرى فى إحساساته ومشاعره وصلاته بالعالم منذراً بشيخوخة الروح وهرم النفس كان يحس عزوفاً عن اللهو وانصرافاً إلى تذكارات الأيام الماضية وإنكاراً لكل ما يحيط به . وذهب من قلبه حب اجتلاء الطبيعة مخلفاً إحساساً دقيقاً مرهفاً بالجمال ؛ فلم يعد يجد فى مفاتن النساء ما يستفزه أو يستثيره ، وأدهى من كل ذلك أنه بات يفكر فى الموت على غير دأبه ، حين كان يخيل إليه أنه ليس هو الذى سيموت بل شخص آخر اسمه ڤوزنتزين فراح ينشق أعراف الحب من رياض الشباب ، ويحيي في قلبه المعمود أول إحساسات الحياة

ذهب إلى المدرسة الداخلية فى حقول جروهوفى ، حيث تثقف من السادسة على المذهب الفزوبليّ تحت إشراف عجائز خيِّرات ، فألفى كل شيء قد تغير ، وألـفِىَ من المدرسة قسم البنين . ثم زار المدرسة الحربية وكنيسة كاريم حيث وقف إبان تلمذته يناول القسيس البخور ، وحيث سرق أطراف الشموع وشرب الماء الفاتر بعد حفلة العشاء الربانى الأخير ، ورشّ الشماس الثقيل ببعض منه ، فجرى وراءه شيخ الكنيسة بكل أبهته وجلاله . وطاف بالمعاهد التى مارس فيها أول تجارب الحب الصبيانى

العابث ، وولج الحدائق والمتنزهات فما رأى هناك أثراً من آثار صباه ، فقد كان كل شيء قد حال وتبدّل ، فلم يشعر فوزنتزين بشيء من الحنين ينفخ الحياة فى روحه الخامدة ، ولم ينعم لذكرى الشباب بذلك الحزن الجميل اللطيف المتواضع المتأمل ، فهز رأسه : « أجل ... أجل ... إنها بداية الهرم وما باليد من شيء ... »

ثم عرض له شأن من شئون العمل حمله إلى « كيف » ليوم ، فبلغ « أودسة » أول الأسبوع المقدس[١] . وثار البحر فتلبّث ڤوزنتزين لأنه لم يكن ملاحاً ماهراً . وفى السادسة من مساء السبت أقلعت به سفينة « الدوق الأعظم ألكسى » من فرضة برا كتشكوى . ولم يودعه أحد فسر لذلك إذ لم يكن يحتمل ما يفرضه موقف التوديع من تكلف ونفاق

وكان السافرة قليلين وسوادهم من ركاب الدرجة الثالثة . وجاء ڤوزنتزين خادمه منبئاً أن في الدرجة الأولى — عداه — سيدة وابنتها . فقال الكولونيل فى ارتياح: « حسن جداً .. » وكان كل شيء ينبئ بسفرة هادئة مريحة ، فقد كانت غرفة ڤوزنتزين حسنة واسعة وضيئة النوافذ ؛ وكان البحر قد هدأ وتطامن بعد عصف وثورة ، وكسته أمواج رخية طفقت تهدهد الباخرة وتداعبها فى لين ورفق . فنام ڤوزنتزين ليلته تلك كما لم ينم منذ شهور بل منذ أعوام حتى أيقظه صفير الباخرة وقد شارفت يوپا توريا ، ودبيب الأقدام على ظهرها . فارتدى ملابسه سريعاً ثم طلب شاياً وصعد . وكانت الباخرة تسبح في ضباب وردى شف مدت فيه الشمس أسلاكا من عسجد . وكان الشاطئ الرملى يلتمع من بعيد والبحر يغسل جوانب السفينة فى لين . وتابعت الباخرة سبيلها فهبط ڤوزنتزين إلى قاعة الطعام فرأى منظراً عجباً ! رأى الموائد قد صفت إلى الحيطان وزينت بالزهور وأغذية عيد الفصح[١] ، وكانت أشعة الشمس الوضاءة ترسم على أغطية الموائد دوائر من ذهب ، وتصبغ بيض العيد بحمرة الورد وزرقة السفير[٢] ، وتتوهج تحتها أزهار الخزامى والبنفسج والسوسن والثالوث

وأقبلت سيدة تفطر ، فأطلق إليها ڤوزنتزين نظرة لمّاحة إذ هى مارة به ، وما كان بها من شباب ولا جمال ، ولكنها كانت ذات قوام خصيب ريان ، وكانت ترتدى ثوباً بسيطاً محبوكاً رمادى اللون موشى بالحرير عند الطوق وأطراف الأكمام . وكان رأسها مغطى بوشاح شف أنيق ضارب إلى الزرقة ، وكانت تحتسى شايها وتقرأ فى نفس الوقت كتاباً فرنسياً كما حدس فوزنتزين من اندماج حجمه واصفرار غلافه

وأُوحى إلى فوزنتزين عند رؤيتها كأن فيها شيئاً مألوفاً ولكنه بعيد العهد . لم يطالع ذلك فى محياها بل فى احديداب رقبتها ، وارتفاع حاجبيها كلما بصرت به . ولكن ذلك التأثير اللاشعورى لم يلبث إلا قليلا حتى نُسى وامّحى ؛ وسرعان ما ارتفعت حرارة الجو تذكي الرغبة فى نزهة على ظهر السفين ،

(١) الأسبوع الذى يسبق سبت الخلاص Holy Week ويسمى بالانجليزية أيضاً Passion Week

(١) عيد بعث المسيح Easter
(٢) نوع من الياقوت أزرق اللون Saphire

فصعدت السيدة وجلست على مقعد إلى مؤخر الباخرة ، فكانت تقرأ لحظة ثم تريح الكتاب على فخذها ، وتحدق في البحر كأنما استهوتها دوّاماته الدوّارة ، ثم إلى الشاطئ الرملي المنعرج تشرف من فوقه أعشاب قليلة

وراح فوزنتزين يذرع السفين جيئة وذهوبا . وسنح بالسيدة مرة فنظرت إليه محدقة ، وتفرّست فيه متسائلة ، فخيل إليه ثانية أنهما التقيا في مكان ما . ثم ألح عليه ذلك الشعور وأزعجه وقد وثق أن السيدة تبادله إياه . بيد أن ذاكرته لم تطاوعه وإن ألحف وأطال التفكير . فأقبل نحو السيدة للمرة العشرين ، ولكنه اقترب منها هذه المرة في يُسر أدهشه ، ورفع أصابعه إلى قبعته العسكرية وصفق مهمازيه صفقة خفيفة وقال :

« معذرة لما افترضت .. ولكني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الظن أنا تعارفنا من قبل . . أنا متعارفان من عهد بعيد .. »

لم تكن جميلة على الاطلاق . هي شقراء خفيفة الحاجبين تُفصِّل شعرَها الأحمر شعراتٌ مسمرة يخفيها البريق عن أن ترى من بعيد . وتغطى عينيها الزرقاوين أهداب خفيفة ، ويبرقش النمش وجهها المتغضّن . غير أن فمها كان غضاً وردياً ممتلئاً بَيِّن القطع جميل الزوايا

أجابته : « وأنا أيضاً أجلس هنا وأعجب إن لم نكن قد التقينا ... اسمى لڤوڤا ... هل عرفتني ؟ »

« إني آسف ... أنا أدعى ڤونتزين »

فالتمع في عيني السيدة بريق سرور ، وأضاء صفحتها نور ابتسامة مألوفة ، حتى لقد خُيِّل لڤونتزين أن سوف يذكرها في لحظة ، ولكنها صاحت في جذل وهي تمد إليه يدها :

« ڤونتزين ؟ ! كوليا فوزنتزين ؟ ! هل عرفتني الآن ؟ إن اسمى الزيجى لڤوڤا ... ولكنك تذكر ولا شك ! أفلا تذكر موسكو ، وشارع بوفارسكي وحارة بوريسوجلوبسكي ، وبيت الكنيسة وصاحبك في المدفعية « أركاشا إرلوف ؟ »

وارتعشت اليد التي امتدت تصافح كف السيدة وشدت عليها بقوة فكأنما أعشاها بريق الذكرى

« يا إلهي ! أحقاً لينوتشكا ؟ ! إنني أستميحك العفو يا إلينا يا إلينا ... »

« ڤلاديميروڤنا . لقد نسيت ! وأنت كوليا ... كوليا بعينه ... ذلك الفتى الخجول النفور ذو الحس الرهيف ! أي عجب ! أي لقاء عجيب ! هلا جلست؟! كم أنا مسروره ! »

وقال فوزنتزين : « حسن . حدثيني عن نفسك كيف حال أركاشا ؟ وألكسندرا ميلڤنا وأولتشكا ؟ »

* * *

فعندما كان فوزنتزين طالباً يتأهب للجندية اتصلت حباله بحبال زميل يدعى إرلوف . فكان يمضى أيام الأحد بين أهل صديقه ، وينعم معهم بعطلة عيد الخلاص وعطلة عيد الميلاد بل بكل عطلاته وقبل أن يلحق بالمدرسة العسكرية دهم أركاشا مرض شديد ، فاضطر آل إرلوف إلى أن ينتجعوا به الريف ، ومنذ ذلك الحين انبتَّت الوشيجة التي ناطت فورنتزين بهم حيناً . ومنذ سنين عديدة سمع أن لينوتشكا قد عقدت خطبتها على ضابط اسمه جنيشوك ، أطلق على نفسه الرصاص فجأة لسبب غير ذى بال

وقالت مدام لڤوفا :

« لقد مات أركاشا فى الريف فى السنة التسعين بحُمَّى فى رأسه ، ولم تعمر « ماما » بعده غير سنتين ، وأتمت أولتشكا دراستها الطبية فهى اليوم طبيبة أولى فى سردوبسك ، وكانت قبل جراحة مساعدة فى جماكين ، وهي تأبى الزواج إباء شديداً ، وإن كانت قد سنحت لها فرص كثيرة سائغة ؛ أما أنا فقد تزوجت منذ عشرين عاماً — وتعثرت على زاوية فمها ابتسامة — لقد أصبحت الآن عجوزا وزوجى من ملاك الأراضى ، وهو محقق أول لا طويل الباع ولا عريض الشهرة ؛ ولكنه رجل شريف أمين صاحب أسرة ، لا يشرب الخمر ولا يلعب الميسر ولا يكلف بالنساء ككثير من رجال هذا الجيل ، وهذا ما أحمد الله عليه ... »

فقاطعها فوزنتزين :

« أفلا تذكرين أنى أحببتك مرة يا إلينا فلاديميروفنا ؟

فضحكت ، وبدا على محياها كأنه انقلب شاباً من جديد ولمحت عين فوزنتزين بريق أغطية ذهبية فى أسنان كثيرة

« أى هراء ! لقد كان ذلك تجاذباً صبيانياً وحسب . بل لقد كان أقل من ذلك . إنك لم تكن تحبنى على الاطلاق ، بل لقد كنت تحب بنات سنلتكوف الأربع ، كلا بدورها . فلما تزوجت الأولى ألقيت بقلبك عند قدمى الثانية ، وهكذا على التعقيب ... »

فقال ڤوزنتزين فى بشاشة لاعبة :

« آه ! إذن فقد كان بك شىء من الغيرة علىّ ؟ »

« كلا ... مطلقاً ... فما كنت أكن لك إلا مثلما كنت أكن لأخى أركاشا . وعندما بلغنا السابعة عشرة انتابنى شىء من الضيق لما صرفت اهتمامك عني . إنها مهزلة ، ولكنك تعلم أن الفتيات لهن قلوب النساء . قد لا نحب الصامت الخابت ولكن ذلك لا يمنعنا من الغيرة عليه . وعلى أية حال فليس هذا الكلام إلا هراء . خبرنى كيف أنت وماذا تعمل ؟

فحدثها عن نفسه ، عن المجمع ، عن الحزب ، عن عمله فى الجيش ، عن عمله الحالى . كلا إنه لم يتزوج وقد فات الأوان . ولقد كانت له بطبيعة الحال نزوات شتى ، وعلائق وشيجة

ثم فتر بينهما الحديث وجلسا صامتين يترامقان النظر من عيون متعاطفة ظللتها غشاوة من دموع . وتشبحت فى ذاكرة ڤوزنتزين صور الماضى تلوح وتنتعش من وراء ثلاثين عاماً . لقد كان أول عهده بلينوتشكا ولما يبلغ كلاهما الحادية عشرة ، كانت طفلة نحيلة متقلبة الأهواء مُغيظة الفعال دائمة العراك لا ترى فيها لمحة من جمال ، ففى وجهها كلف وفى ذراعيها وساقيها طول ، خفيفة الحاجبين حمراء الشعر تندمن شعرها خصلتان رفيعتان تنوسان على خديها وكان الشغب متصلاً بينها وبين ڤوزنتزين وأركاشا ، حتى ليقضى بهم النزاع أحياناً إلى التضارب والتلاطم وما كانت أولتشكا لتشاركهم عبثهم هذا ، فقد كانت تبدو عليها سعة الصدر ورجاحة العقل وسمت الوقار . وكانوا دائمى التردد أيام العطلات على المسارح والملاعب ، يشتركون فى حفلات عيد الميلاد وتلوين بيض عيد الخلاص ، ويتكايدون ويتغايظون كأنهم

دُمىً خشبية صغيرة . وعلى هذا الحال تقضت ثلاث سنين ثم ذهبت لينوتشكا — على عادتها — لتقضى الصيف بمنزلهم الريفي بجماكين . وعادت فى الخريف إلى موسكو فرآها فوزنتزين وقد تبدلت حالاً غير الحال ، ففغر فاه واتسعت عيناه دهشاً . كانت لا تزال بمنأى من أن تسمى جميلة . ولكن كان فيها سحر أروع من سحر الجمال . ذاك سحر الأنوثة الزاهرة المتفتحة تأتى بالمعجزات بين يوم وليلة ، وترد الطفلة الخشنة الطويلة الذراعين والساقين فتاة ساحرة . فقد ظل وجه لينوتشكا محتفظاً بذلك اللون العميق المورّد يجرى من تحته دم الشباب الحار المرح . وبدأت أردافها تثقل وتستدير ، ونضج صدرها وبرزت زواياه وانتعش جسمها كله ، وجرى فيه ماء الشباب يكسوه ليونة وغضارة وجمالاً

وسرعان ما تحوّل ما بينهما . فقد كانا فى أحد اجتماعات يوم السبت يلعبان فى غرفة نصف مظلمة فبدآ يتصارعان ، وكانت النافذة لا تزال مفتوحة وقد انبعثت من الحديقة الأمامية نسمات الخريف المبكر ، ورائحة الأوراق الذابلة ؛ وخفقت فى الفضاء دقات حزينة بطيئة يرسلها الجرس الكبير فى كنيسة بوريسوجلوبسكى

وتلاقّفا بالسوق ، وتشادا بالأذرع ، وتهادّبت على وجهيهما أنفاسهما المبهورة . ثم تدافع الدم فجأة إلى خد لينوتشكا حتى بدا فى ظلام الغروب واضحاً جلياً . وراحت تهمس فى اضطراب وابتسار وغضب وقد غضت طرفها :

« دعنى وحدى . . دعنى أذهب . . إنى لا أريد . . »

ثم أردفت وهى تحدجه بنظرة غاضبة من عينيها البراقتين : « أيها الولد البشع الثقيل ! »

وكان الولد البشع الثقيل واقفاً ويداه ترتجفان وقد ارتختا إلى أسفل ، بل لقد كانت ساقاه ترتعدان ، وكان العرق يَبُجُّ من جبينه . لقد كان اللحظة يحس بين ذراعيه جسدها الرشيق الخاضع المتأوِّد الأنثوى ، ويلمس بصدره ثدييها الراسخين البسرين المطاوعين الفتيَّين ؛ ويشم رائحة جسدها ... رائحة مسكرة كأنها زهور الحور !

وبدأ فوزنتزين عامه ذاك متخاذلا ثائراً مرير الفكر خفىّ الأحزان هتان الدموع ؛ وبات نفوراً خجولا مضطرباً عاصياً متمرداً . فكانت لا تمضى لحظة إلا مد ساقه إلى كرسى فأوقعه ؛ أو مد يديه فأمسك بينهما شيئاً طرياً ، أو قلب فناجين الشاى واللبن على المائدة . فكانت الكسندرا ميليڤنا تقول عنه فى لطف وعطف : « لقد أصبح كوليانا شديد النِّفار وحشى الطباع . »

وكانت لينوتشكا تهزأ به . فقد كان يقف وراءها سامداً وهى ترسم أو تطرز ، ويحدق فى رأسها الحنِىِّ فيستشعر إحساساً عجيباً بالألم والسرور ؛ ولقد ينظر إلى نحرها الأبيض ينوس عليه شعرها الأصفر الخفيف المتموِّج ، أو ينظر كيف يتكسر إزارها المدرسى الأسود حينما تتنفس ، ثم يعود فينبسط ويستدير ، ويمتلىء عند ما تمتلىء رئتيها . وكان مرأى السوارين البسيطين على يديها البيضاوين الأنثويتين يصاحبه أنى ذهب ، ورائحة الحور تتبعه أينما كان : فى المدرسة أو فى الكنيسة . وكانت دفاتره وأغطية كتبه تمتلىء بالحرفين الأولين من اسمها ا . ا . وكانا أيضاً محفورين فى غطاء صندوقه ،

وسْطَ قلب ممزق ملتهب . وكانت الفتاة الصغيرة تدرك بغريزة المرأة كنه صمته الخاشع المتبتل . ولكنه كان فى عينيها فرداً من الأسرة ، مألوفاً إلى حد يباعد بينها وبين أن تحبه . أما هو فقد رآها قد انقلبت مخلوقاً عجيباً يانعاً براقاً شذياً ، وإن بقى لديها ذلك الغلام العنيف ذا الصوت الخفيض والسترة العسكرية الضيقة والسراويل الواسعة . فكانت تغازل معارفها من صبيان المدارس في براءة ، وتعابث ابن القسيس فى ساحة الكنيسة . وكان يلذ لها أحياناً أن تصوب إلى فونتزين نظرة من نظراتها الخاطفة الذكية المرهفة ، فكأنها قط يراود فأراً . فإذا نسي نفسه ، وشد على يدها شيئاً ، هدئته ببنان مورد ، وقالت ملمحة : « أنظر ... لأكشفن « لماما » عن كل شيء ! » فتشيع البرودة فى أطراف فوزنتزين ، ويملأ قلبه خوف قوى صادق ؛ حتى لقد أبلس وأعد العدة ليحب كبرى بنات سنلنكوف . ولكن قلبه الذى فاض بالوجد عرف السعادة لحظة فى عيد الخلاص ...

كان قد ذهب مع آل إرلوف إلى صلاة منتصف الليل فى كنيسة بوريسو جلوبسكى ؛ حيث كان لالكسندرا ميليڤنا مكان خاص فرش ببساط خاص فوقه كرسى وثير . وتلبثت الكسندرا ميليڤنا وأولتشكا فى الكنيسة لتريا تبريك خبز العيد وكعكته ، بينما غادر الكنيسة كوليا وأركاشا ولينوتشكا . واختفى أركاشا فى الطريق فجأة وكأنما ابتلعته الأرض ، فتابع كوليا ولينوتشكا السير وحيدين .

كانا يسيران وقد اشتبكت الذراع بالذراع ، ويشقان الطريق وسط الزحام في خطى متطابقة منتظمة . وكان كل شيء يسكرهما فى تلك الليلة الرائعة : الغناء المرح ، والشموع الكثيرة والتقبيل والضحك والجمع المتدفق ، وائتلاق النجوم فى السماء القاتمة ، ورائحة الأوراق الغضة من الحدائق المسوَّرة ؛ وذلك التقارب غير المألوف ، وشمور الضيعة وسط الزحام اللجى . وجذب ڤوزنتزين ذراعها إليه كأنما بغير وعى ، فلم تبد رداً ملحوظاً ؛ فأعاد تلك الشدَّة الخفية فاستجابت لها ، فتلمَّس فى الظلام أطراف بنانها ، فمد يده عليها فى لطف فلم تقاوم ولم تتفلَّت ولم يبدُ عليها غضب

وبلغا بوابة البيت ، وكان أركاشا قد تركها مفتوحة لهما ، وكان لا بد — للوصول إلى البيت — من عبور جسر أقيم بين صفين من أشجار الزيزفون لاجتناب الرُّداغ . فلما اصطفقت البوابة وراءهما طفق يقبل أصابعها الدافئة اللينة الغضة

« لينوتشكا ... إنى أحبك ... إنى أحبك »

وطوق جيدها بذراعه وهصرها إليه ، وقبَّلها قرب الأذن . وانحدرت قبعته وسقطت على الأرض فما أبه بها ، وظل يقبل خديها الباردين وهو يهمس كالمحموم : « لينوتشكا ... إنى أحبك ... إنى أحبك ... »

وعثر بشفتيها وهى تهمس :

« كلا ... كلا ... دعنى أذهب ... دعنى ... »

أى شفتين حلوتين ملتهبتين ساذجتين ! لم تقاوم حين قبلها ، ولكنها لم تبادله قبلاته وراحت تتنفس فى سرعة وعمق وخضوع ؛ ففاضت دموع الفرح على خديه تشيع البرد فيهما . وعند ما انتزع نفسه

عن شفتيها ، ونظر إلى النجوم تضيء من خلال أغصان الزيزفون رقص فرحاً وانفجر باكياً ...

« لينوتشكا ... إنى أحبك ... »

« دعنى وحدى ... ! »

« لينوتشكا ! »

فصاحت فى غضب ما كان منتظراً :

« أيها الولد البشع الثقيل ! سوف ترى ! لأكشفنّ « لماما » عن كل شىء ! سوف أخبرها ولا شك ... ! »

ولم تخبر أمها بشىء ... ولكنها لم تعد تنفرد به منذ تلك الليلة . ثم أقبل الصيف ...

« ... وهل تذكرين ... يا إلينا فلاديميروفنا ، كيف قبّل صبىّ فتاة قرب بوابة بيت الكنيسة فى مساء جميل من أمسية عيد القيامة ؟ »

فأجابته وهى تضحك فى سماحة :

« أنا لا أذكر شيئاً أيها الولد البشع الثقيل ! وعلى أية حال فهاك ابنتى قد أقبلت ، ويجب أن أقدمكما . لينوتشكا ! هذا نكولاى إيفانوفتش فوزنتزين ... صديق قديم ، قديم ، من أصدقاء طفولتى . وتلك ابنتى لينوتشكا ؛ وهى الآن فى سنّ ذلك المساء الجميل من أمسية عيد الفصح »

فقال فوزنتزين :

« لينوتشكا الصغيرة ولينوتشكا الكبيرة »

فأجابته مدام لڤوفا — فى شىء من المرارة — تصحح قوله :

« كلا ... لينوتشكا العجوز ولينوتشكا الفتاة »

وكانت لينوتشكا تشبه أمها شبهاً كبيراً ، إلا أنها أجمل من الثانية أيام صباها ، وكان لها — بدل شعر أمها الأحمر — شعر كستنائى ذو لمعان معدنى . أما الحاجبان فسوداوان بيّنان ، وفى الفم اكتناز واستفزاز ، وإن كان بكراً نديًّا جميلاً

وكانت الفتاة تبدى اهتماماً بالمناورات المشعة ، فشرح لها فوزنتزين عملها وكيفية تكوينها ، ثم طفق يتحدث عن أعماق البحر الأسود ، وعن عمل الغواصين ، وعن حوادث السفن ؛ وكان محدثاً ذَرِب اللسان فأصغت الفتاة إليه وهى تتنفس من خلال شفتين منفرجتين ولا تحول بصرها عنه

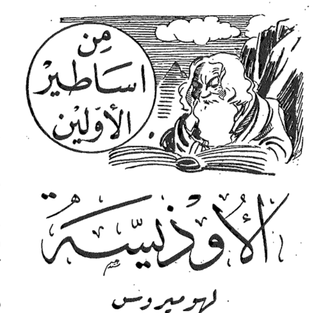
وكان كلما أنعم النظر إليها ملأ قلبه شعور من الحزن الرَّخى الجميل — عين الشعور الذى كان يتوق إليه فى موسكو — إلا أنه أعمق وأوسع وأبعث على الايثار

وعندماغادرتهما الفتاة لتطل على ديرهرسونسكى تناول يد لينوتشكا الكبيرة فقبلها وقال مفكراً :

« إن الحياة بعدُ عاقلة ، ولا بد للانسان من أن يخضع لأحكامها ، وهى إلى ذلك جميلة ، فانما الحياة بعث متّصل للأموات ؛ وسوف نذهب أنا وأنت ، وسوف نفنى ، وتنتعش من جوارحنا وأفكارنا وأعمالنا ومبادئنا وخيالاتنا ومواهبنا لينوتشكا أخرى ، وفوزنتزين آخر ؛ فكل شىء متصل بالآخر منوط به ، ولسوف أذهب ، ولكنى سوف أبقى ؛ وليس لنا إلا أن نحب الحياة ونخضع ؛ فانا نعيش سَويّا ، أحياء ومبعوثين »

وانحنى يقبل يدها مرة أخرى . فلثمت خده الأغبر فى حنان ، ثم تبادلا النظرات فامتلأت مآقيهما بالدموع ، وابتسما ... بسمة حلوة متعبة حزينة ...

شكرى محمد عياد



الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

أوديسيوس يلقى أباه

ويعقد السلام على ربوع إيثاكا

وهتف هرمز بأرواح القتلى فهمهمت، ثم أشار إليها بعصاه السحرية فسحر الكرى مقلها ثم أشار كرة أخرى فأهرعت فى إثره كما تهرع الخفافيش فى إثر دليلها

وانطلق حبيب الآلهة فعبر عباب البحر المحيط، وعبرت الأرواح الهائمة فى إثره، وجاز صخرة لوكيديا، وبوابة الشمس الخالدة، ثم انطلق، والأرواح الهائمة من خلفه، فى تيه الأحلام، وعبر بها في مروج آسفوديل ذات الأشباح، حيث لقي القتلى أرواح ذويهم وأبطالهم من رجال هيلاس الذين سقطوا تحت أسوار طروادة ... وهناك ... وقفوا طويلاً يتناجون، وكلم ابن پليوس قائد الهيلانيين أجا ممنون ورثا له، فكلمه أجا ممنون وتحسر عليه، ورأوا روح پتروكلوس حبيب أخيل زعيم الميرميدون، وروح أخيل نفسه، وروح أجاكس العظيم ... وعرف أجا ممنون روح أمفيديون العاشق المحروب الذى قتله أودسوس فيمن قتل من عشاق بنلوب، فكلمه، وكلمه أمفيديون فقص عليه ما كان من مأساتهم الغرامية وما كان من أوبة أودسيوس المفاجئة واختلاطه بهم فى صورة فقير شحاذ ... إلى آخر القصة الدامية المشجية التى انتهت بقتلهم جميعاً ... وما كاد يفرغ حتى بدا العجب فى محيا القائد أجا ممنون وطفق يثني على وفاء بنلوپ، وشجاعة صديقه أودسيوس، ثم راح ينعى على زوجته الآثمة كليتمنسترا ما كان من غدرها، وتدبير غيلته مع حبيبها الفاسق إيجستوس ...

وهكذا انتهت الأشباح الآثمة إلى ظلمات هيدز ... إلى مملكة پلوتو ... حيث تلق جزاءها العادل من مخالب سيربيروس الحادة وأظفاره القواطع

هذا ما كان من أمر تلك الفئة الباغية

أما ما كان من أمر أودسيوس فقد استيقظ فى بكرة اليوم التالى واستيقظت معه بنلوپ السعيدة، وهب من فراشه فارتدى ملابسه، ووضع عليه سلاحه، ثم أمر زوجه ألا تخاطب من الناس إنسياً حتى يعود، وأن تغلق عليها أبواب القصر، لأنه منطلق إلى أبيه ليزف إليه البشرى بنفسه. ودعا إليه تليماخوس ليصحبه وليصحبه الراعيان المخلصان الوفيان، بعد إذ يسبغ كل منهما عليه دروعه، ويستمد بسلاحه

وانطلق الأربعة يطوون شوارع المدينة التى خيم عليها الصمت دون أن يشعر بهم أحد من أهلها، حتى بلغوا الخلاء، وما زالوا يذرعونه حتى

كانوا عند المزرعة المصون الناضرة ، وهناك ، نظر أودسيوس بعينين مشوقتين ، وقلب ملتاع خَـفِق ، إلى البيت الصغير الذي يؤوى أباه الضعيف الشيخ ، حيث يقضي أيامه فى أسى ليس بعده أسى ، ويجتر همومه فى صمت كصمت الموتى ، ويذرف دموعه فى قنوط وسكون ... لا يراه أحد ، ولا يشكو بثه إلى مخلوق إلا هذه المرأة العجوز الحيزبون التى تخدمه فى رضى ، وتسهر عليـه فى حب له ، وإشفاق من أجله ... وكان ليرتس ، الأب المحزون يتلهى بالعمل فى بستان قريب يشذب شجيراته ، ويهذب زُهيراته ، فأمر أودسيوس ولده وراعييه أن يبقوا فى المنزل ليعدوا غداء فاخراً وشواء سميناً لأنه يحب أن يلقى أباه فى البستان وحده ...

- وانطلق أودسيوس إلى البستان ، فوجد الفلاحين قد انصرفوا إلى أعمالهم ، ووجد أباه يجوس خلال الأشجار كالشبح ، ويهوى بفأسه فيحتفر حولهن ، وهو بين الفينة والفينة يصلح من باسه الخشن الذى تخذه من جلد عنز ، كما تخذ منه قفازيه وجوربيه ... ووقف أودسيوس تحت كمثراة باسقة وطفق ينظر إليه ، ويقلب فى السنين الطوال التى يؤود تحتهن عينيه ، ثم يتعجب للقلب الـكبير الذى صمد لحدثان الزمان ولأواء الأيام فلم ينصدع ولم يهن ، وإن كان بعض حزنه لتنوء منه الجبال

وانبجس الدمع من عينى أودسيوس ، وانهمر على خديه الحزينين ، وأوشك أن يمضى نحو أبيه فيأخذه فى حضنه ، ويفجأه بالبشرى القاتلة ، لو لا خيفته على تلك الشيخوخة المتداعيـة أن تنقض حين لا تحتمل النبأ العظيم ... نبأ عودة قطعة القلب والـكبد بعد يأس عشرين عاماً ... لهـذا آثر أودسيوس ألا يفعل ، وآثر أن يلقى أباه كرجل غريب جوّاب آفاق ، ويحدثه ، ليعلم ما فى قلبه ، فذهب إليه ، ووقف عن كثب يكلمه :

— « أيها الشيخ ويكأنك لا علم لك بأمور هذا الزرع ، وإن أثمر بستانك وآتى أكله ! حقاً ، إنى لا أرى عشباً فى الأرض ، ولا شجرة إلا وهى مثمرة ، ولا زهرة إلا وهى مُسفرة نامية ، وما ذاك إلا لسهرك عليها ... بيد أنه لن يسوءك إن لاحظت أنك تعنى بهذا البستان أكثر مما تعنى بنفسك ، مع ما أنت فيـه من تقادم السن ولفحة الشمس ووطأة المرض ... وما أحسب مولاك إلا قاسى القلب عليك ، قليل الاحتفاء بك والتوجع من أجلك ، مع ما لك من سيماء النبل ، ومظاهر الملوك ؛ فما كان أحجى بك — وأنت فى هذه السن — أن تستحم وتتضمخ وتنام ملء عينيك ، لا يزعجك عمل ، ولا تؤودك أكلاف الحياة ! ولـكن قل لى بالله عليك أيها الشيخ ، لمن تنصب كل هذا النصب ، وبستان من هذا ؟ خبرنى ! لا تخف على أيها الأب ، فلقد لقيت من سألته فلم يأبه بى ولم يُعْـن بمسألتى ... ولقد ذرعت الرحب حتى وصلت هذه الأرض إيثا كا لأنى كنت أقدم فيما مضى من الزمان فأحل ضيفاً على أمير عزيز فيها ، وما أعرف إن كان مازال حياً يرزق ، أو مضى لا قدر الله إلى هيدز ! ولقد كان هذا الصديق يزورنى فى وطنى فأكرم مثواه كما يكرم مثواى ، ولقد كان يحدثنى الأحاديث عن أبيه ليرتيس بن آز سيزياس ... وما أنس لا أنس أيام كان يحمل إلى الهدايا فأردها إليه أضعافاً مضاعفة ، فمن ذاك أنى نفحته مرة بسبع بِدَرٍ من خالص الذهب ، وبحالة من فضة مزدانة بأفواف الزهر ، واثنى عشر صداراً ، واثنى عشر دثاراً ، ومثلهن من أكرم البُسُـط ، وشيء كثير من ثياب القاقم

والسنجاب ، ثم أهديت إليه أربع جوارٍ كنَّس أبكار اختارهن بنفسه مثقفات مهذبات ، يتخايلن في الخز ، ويرفلن في الديباج »

وازدحمت الدموع الحرار بكل الذكريات الشجية في عيني الرجل الشيخ ، وقال يجيب أوديسيوس : « أيها الأخ لقد بلغت مناك ، فهذه هي إيثاكا ... بيد أنها — وا أسفاه ! — نهب مقسم بين فئة باغية ظالمة لا تخضع لقانون ولا تعرف شريعة ... أما صديقك فوا أسفي عليه ... ويا ألف أسى على هداياك ! من لك به اليوم ليردها عليك أضعافاً مضاعفة يا صاح ! ولكن قل لي بربك وأصدقني : منذ كم سنة لقيت صديقك التاعس ، الذي هو ابني ! ؟ إيه ... ! له الله ! ماأحسب إلا أن السمك قد اغتذى به ، أو أنه غدا يوماً جزر السباع وكل نسر قشعم ! أواه عليك يا أوديسيوس يا ولدي ! هكذا قضيت ولم أذرف على ثراك عبرة ، ولم تكتحل عينا أمك قبل أن تموت برؤياك ... ولا بنلوب ! ولا بنلوب أيضاً كانت إلى جانبك لتغمض بيدها أجفانك ... ولكن ... ولكن قل لي أيها الأخ من أنت ، ومن أي البلاد قدمت ؟ وابن مَن من الكرام الأكابر ؟ وفي أي الرفاق وصلت إلى إيثاكا وفي أي السفائن ؟ أم وصلت بك إحدى الجواري المنشآت ثم غادرتك في إيثاكا ؟ »

وقال أوديسيوس وهو يلفق ما يقول : « أنا من أنا ... ف ... أنا إبيريتوس بن أفيداس بن پوليمون من أمراء أليباس ، من أعمال صقلية ، ولقد هبت على سفينتي عاصفة هوجاء فدفعتنا نحو بلادكم وألقينا المراسي في مينائكم ... ولقد لقيت أوديسيوس لآخر مرة منذ خمس سنوات ، وقد افترقنا وكنا نأمل أن نلتقي لنتبادل تذكارات المحبة وهدايا الصداقة والوفاء والود »

وانعقدت سحابة مظلمة من مرارة الحزن فحجبت الضوء عن عيني ليرتيس ؛ ثم إنه أهوى إلى الأرض فقبض قبضات من التراب وراح يحثوها على رأسه ، ويئن أنيناً مؤلماً . ولم يحتمل أوديسيوس أن يرى أباه في هذه الحال ، بل كاد صدره ينشق من حسرة عليه ، فهرول نحوه ، وأخذه ملء ذراعيه وجعل يضمه إلى صدره ويقبله ويقول : « أبتاه ! أبتاه ! هو أنا ذا ! أنا أوديسيوس عدت إليك بعد عشرين عاما فافرح وهدىء روعك ، ولتنته آلامك وإليك أحسن البشريات ! لقد قتلت أعدائي العشاق جميعاً . قتلتهم في بيتي ، وانتقمت لك ولي ولبنلوب ! »

بيد أن ليرتيس وقف ذاهلا عن نفسه ، ثم نظر إلى ولده وقال : « إن كنت حقاً ولدي أوديسيوس ، فهات برهانك الذي يقطع شكي ! »

فقال أوديسيوس : « ألا تصدق ! إذن فانظر إلى الندوب الخالدة التي أحدثها في ساقي خنزير الفلاة إذ أنا حدَث يا أبي ! ألا تذكر يوم كنا على جبل برناسوس ، وكان جدي أوتوليكوس معنا ثمة ، وكان يتحفني بالهدايا واللهى ؟ وهاك دليلا آخر يوم مشيت معك في هذه الحديقة ورجوتك أن تجعل بعض هذه الأشجار باسمي ، فمشيت معك ، ورحت أنت تسميها لي بأسمائها ، فجعلت لي ثلاث عشرة كمثراة ، وعشر تفاحات ، وثلاثين تينة ، وخمسين صفاً من الكروم الناضرة التي كان يزرع القمح بين عرائشها التي كانت تتدلى منها العناقيد من كل لون ! »

وانجاب الشك عن فؤاد ليرتيس ، فأخذ ولده بين ذراعيه المرتجفتين وراح يضمه ويقبله ، ويُصعِّد في صدره الرحب القوي أنفاسه ، حتى إذا وهنت قواه أرسله ، وأخذ يحدثه فيقول : « يا للآلهة ! يا أرباب السموات الخالدة في شعاف الأولمب ! أهكذا

قضيت آخر الأمر أن ينصب جام غضبك وحُمم نقمتك على هؤلاء الكفرة الفجرة ! ولكن ! لشد ما أخشى أن يتألب الجمهور علينا ، فيهرع إلى هنا ، ويطلبوا ثأر ذويهم ؟

فتبسم أودسيوس وقال له يطمئنه : « لا عليك يا أبى ... هلم الآن نذهب إلى بيتك الجميل ، فلقد أرسلت تلماك ثمة ومعه الراعى ، ويومايوس الوفى ، ليعدوا لنا طعاماً سريعاً خفيفاً »

وأعد الطعام ، ومزجت الخمر ، وذهبت الخادم العجوز فأعدت حماماً لسيدها الشيخ ، ثم ضمخته وأضفت عليه ملابس نظيفة ... وتنزلت مينرفا الكريمة فمشت بيديها الإلٰهيتين على جسم ليرتيس فتدفق الشباب فى عروقه ، وعاد إليه رواؤه وحسن سمته ، فلما خرج من الحمام تعجب أودسيوس وقال له : « تالله يا أبت إنى لا أشك أن بعض الآلهة قد رد إليك صباك . وخلع عليك بُرْدة الشباب من جديد !! »

ولم يكن عجب ليرتيس بأقل من عجب ولده ... « تعاليت يا جوف ! وتقدست يا مينرفا ! وسا جدك يا أبوللو ! لقد كسوتمونى نضرة الشباب التى كانت لى يوم ملكت مدينة نريكوس بمعونة السيفالينيين الشجعان ! أواه لو قُدِّر لى أن أقف إلى جنبك أمس يا بنى ، ليكون لى شرف مجالدة الأوغاد الذين قتلت ، إذن ، لحظيت بكوكبة منهم أضرج أديم الأرض بدمائها ، فأشفى منهم حرَداً فى صدرى ، وغلا فى حشاشتى ! »

وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ، ثم جلسوا على الأرائك متقابلين .. وكانت الخادم العجوز قد انطلقت إلى المزارع فدعت كبير الفلاحين دوليوس ، فأقبل فى رجاله الذين كدهم العمل وأنهكتهم المثابرة ...

فلما رأوا ما ارتد إلى سيدهم من شبابه ، وهذا الرجل الغريب الذى يجلس بين العائلة المقدسة ، وقفوا مسبوهين مشدوهين ، لا يعرفون ماذا يقولون ... وحدجهم أودسيوس ، ثم بدأ يكلمهم فى لطف وخبث ويقول : « إجلس أيها العجوز دوليوس فكل أنت ورجالك ... لا تعجب ! فليس ثمة متسع لدهش أو عجب ... إجلس قبل كل شىء املأ بطنك وبطون رجالك ... لقد انتظرنا كم طويلاً ، لكنكم استأنيتم ! » ولكن سرعان ما عرف دوليوس مولاه حين سمع صوته ، فأقبل عليه ، وتناول يديه ، وطفق يغمرها بالقبل الباكية ويقول : « أوه يا مولاى ! هكذا والله تستجيب السماء ! لقد طالما جأرنا ولقد طالما دعونا فلها الثناء إذ ردتك إلينا ! فعش واسلم وسر وابتهج .. ولكن .. هل علمت الملكة بقدوم مولاى ؟ أم ننطلق من فورنا فنزف إليها البشرى ؟ »

وطمأنه أودسيوس ، فجلس الرجل مبتهجاً مسروراً ، وجلس أبناؤه معه ، وأخذوا فى أكلهم وشرابهم ، وأخذ أودسيوس يلاطفهم ويداعبهم .. وهكذا عاد الحبور مرة أخرى إلى بيت ليرتيس !

***

وقرع آذان الناس فى المدينة ما كان من قدوم أودسيوس ، وما حاق بالأمراء المعاميد من نكبة على يديه الجبارتين فأهرعت جموعهم إلى قصره صاخبة ناعبةً ، ثم انطلقوا إلى حيث كدست أجساد القتلى فحرّق كل قتيله ، وأرسلت جثث الغرباء إلى ذويهم فى أوطانهم فى سفن الصيادين من كل فج لتُحرّق ثمة ... واجتمعوا بعدُ ليتشاوروا بينهم فيما ينبغى أن يكون ... فنهض يوپيتيس والأسى يزلزل جوانحه وأنشأ يقول : « أيها الرفاق ! وهكذا كان هذا الرجل الطاغية حرباً دائمة عليكم فلم يصبكم منه إلا

الشر ، ولم تثمر لكم فعاله إلا الندامة ! فلقد ساق شبابكم وخيرة أبطالكم إلى اليوم المشئومة حيث قتلوا أجمعين ، وينقلب إليكم اليوم ليذبح ساداتكم وذوى الصولة فيكم ... فهلموا إذن ورَوُّا رأيكم فيه قبل أن ينطلق إلى پيلوس فيطلب العون عليكم ، وتصبحوا على ما قصرتم نادمين ! إنا إن لم نثأر لضحايانا فأى عار يَسِمنا وأى خزى يصمنا يا قوم ! وأية حياة هذه التى تحيونها بعد ماحل بكم من هوان ومذلة ... لخير لكم أن تذبحوا أنفسكم فترحلوا إلى هيدز مع أرواح قتلاكم ولن تكونوا على ذلك من الآسفين ! »

ثم جلس وهو يتصدع من الحزن على صاحبه أنتينوس الذى كان أول ضحايا أودسيوس ... وقام ميدون المنشد التاعس فقال : « أيها المواطنون أعيرونى آذانكم ! تالله إن أودسيوس لم يرم سهامه إذ رمى ، ولكن بعض الآلهة كان يرسم له وينافح عنه ، ولقد رأيته بعينىّ هاتين فى صورة منطور ، ووالله ما هو منطور ، ووالله لقد كان يمشى بين يديه ههنا وههنا فيُرَاع العشاق وتفزع قلوبهم ويسقط بعضهم فوق بعض فتأخذهم سهام أودسيوس ويروى من دمائهم جرازه ! » وما كاد يفرغ ميدون ، وكان فيهم أميناً صادقاً ، حتى طارت ألوانهم وامتقعت جباههم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وادَّارأوا طويلا ، ثم وقف هاليتير بطلهم القديم بن مسطور ، وكانت له دراية بكشف أستار الماضى والحاضر والمستقبل ، فصَعَّر خده وقال : « أيها الإخوان ! يا أبناء إيثاكا ! إسمعوا وعوا ! تالله لقد طالما مهدتم للفتنة ، وإنها لثمرة أنتم غارسو شجرتها وأنتم اليوم جُناتُها .. أتذكرون يوم رجوتكم فألحفت عليكم فى الرجاء أنا وصاحبى ميدون هذا ، أن نذهب فنمنع القصر من شبابكم ، ونصون عرض أودسيوس من أبنائكم ، ونصرفهم عن ولده وزوجه ومتاع هذه الحياة الدنيا ، فأبيتم أكبر الإباء ، ورفضتم أقبح الرفض ، وجعلتموها فتنة كنت أستعيذ بالآلهة منها ؟! فعلام تغلى مراجل صدوركم ياقوم ؟ وفيم ائتمار كم بالرجل وقد ثأر لعرضه ؟ ألا فاسمعوها كلمة مخلصة أسديها إليكم ... الرأى ألا تذهبوا ، وألا تجعلوها فتنة لا تصيبن الذين ظلموا خاصة ، بل اقعدوا ههنا آمنين ، ولا تكونوا كالذى سعى إلى حتفه بظلفه ، وأبطأت عليه المنايا فسعى قُدُماً إليها ! » ... وما فرغ حتى زمجر القوم وتصايحوا به ، وضجوا من كل مكان ... ثم إنهم سمعوا إلى شيطان يوپيتيس ففزعوا إلى أسلحتهم ، وأسبغوا عليهم من دروعهم ، وانطلقوا إلى المدينة فنظموا فيها صفوفهم ، وأقاموا يوپيتيس قائداً منحوساً عليهم ، وما جعلوه كذلك إلا ليلاقى حتفه بيد أودسيوس ، وتعجل روحه إلى النار !

ومضت مينرڤا إلى سيد الأولمپ ، جوف العلى فوقفت ببابه تقول : « أبتاه ! أَبِنْ عن سريرتك ، واكشف عن مكتوم قلبك ومكنون نفسك ! هل يحل على هذه الفئة الظالمة غضبك ، أم أنك لمانحها محبتك ، ومحصنها بحمايتك ؟ » فتبسم من قولها وأنشأ يجيب : « وفيم هذا التساؤل يا ابنتى ؟ ألم تَقْدُرى أنت أن يعود أودسيوس إلى وطنه فيذبح بيديه أولئك العتاة الطغاة ، ويريح وجه الأرض من خباثاتهم ؟ ليكن ما تشائين ! إصنعى ما بدا لك ... ولكن نصحى أمحضك إياه يا مينرڤا ! مادام أودسيوس قد ثأر لنفسه من أعدائه ، فليكن السلام على الأرض ، وليحل الأمان فى ربوعها ، وليتقاسم الملأ على الود والصفاء ، وليحكم أودسيوس بين الناس بالعدل ... وعلينا نحن أن ننزع ما فى صدورهم من غل فينسوا سخائمهم ، ويطرحوا ثاراتهم ، ثم لتكن

لهم من أنفسهم أمنة ، ولتجر البركات عليهم أجمعين ، وليصبحوا بحولنا أصفياء متحابين »

وزفت مينرڤا من السموات العلى إلى إيثاكا

وفرغ أصحاب أودسيوس من أكلهم فأمرهم أن يتحسسوا آثار القوم ، فانطلق أحد أبناء دوليوس إلى المدينة فرأى من استعداد أهلها ما رأى ، وجاء إلى مولاه على عجل فقال له : « مولاى ! لقد تسلح الإيثاكيون وهم موشكون أن يقدموا إليك ! » فنهض أودسيوس فادّرع وادّرع أبوه وابنه وخادماه وأبناء دوليوس الستة ، وادّرع دوليوس كذلك ، وادّرع الفلاحون الآخرون ، وحمل كلٌّ سلاحه ، وبرزوا إلى الطريق وفى مقدمتهم أودسيوس

وبدت مينرڤا فى صورة منطور فى طيلسانه ، فلما رآها أودسيوس فرح واستبشر ، والتفت إلى تلماك فقال : « أى بنى عليك أنت أن تحمينا اليوم فلقد عرفت ما خاض أبوك من معامع ، وسنرى من يحارب خيراً من صاحبه اليوم ! » فقال تلماك يجيبه : « إطمئن يا أبى فسترى كيف يحمى العسلوج فرعه ، وكيف يشب الفرع على أصله . تالله لن أفضحك فيما وكلت إلىّ يا أبى ، ولن يخيب رأى أهلى فىّ ! »

وفرح الوالد بمقالة ابنه ، وشكر للآلهة وأثنى عليها

واقتربت مينرڤا من ليرتيس ، وهى ما تزال فى صورة منطور ، فقالت له : « أوه أيها الجد الوقور ! صل لمينرڤا وابتهل ، وتوسل إلى چوف ، أن يمنحاك القوة والجلد ، ثم اهجم بحربتك على يوپيتيس فروّها من دمه ، فالسماء كلها معك » ولمسته بيدها فتدفق شبابه فى قلبه ، وكان جيش الأعداء قد اقترب منهم فطار ليرتيس إليهم برمحه ، وأقض يوپيتيس بضربة فى صدره ، فخرج سنان الرمح يلمع من ظهره ورأى أودسيوس ذلك فطار إلى الملأ بسلاحه ورماحه ، وانقض تلماك فى إثره ، وهجم الآخرون فى إثر تلماك ، ولم يطل القراع ، فقد فزع الأعداء واختلط نظامهم ، فولوا الأدبار ، ولكن هيهات ! لا نجاة اليوم ! فلقد سد عليهم أودسيوس ورفاقه الطرق ، وأخذوا عليهم المسالك ، فهم فى ضيق وهم ذاهلون !

وهتفت ابنة چوف العذراء بأودسيوس ورجاله تقول: « السلام عليكم أيها المحاربون ! السلام ! السلام قبل أن تجرى دماؤكم أنهاراً ! »

قد بدت مينرڤا فى صورتها الإلهية المقدسة فارتعدت فرائص القوم ، وتخاذلوا فيما بينهم ، حتى أصحاب أودسيوس ! لقد ارتجفت أعصابهم وعصف الذعر بسواعدهم ، وكادت سيوفهم ورماحهم تنتثر على الأرض ... ولم يعبأ أودسيوس ، بل هجم كالنمر على القوم المنهزمين يود لو يصعقهم ، وطفق يبرق ويرعد ، ويزأر بصوته المدوى العظيم ، فغضب سيد الأولمب ، وأرسل إحدى صواعقه نذيراً من لدنه إلى مينرڤا ، فعجلت إليه ذات العينين الزبرجديتين ، وزجرته عن الناس وهى تقول : « لا يا أودسيوس ! لا يا ابن ليرتس النبيل ، لا يجدر هذا بماضيك ! ضع حداً لهذه المجزرة المروّعة أو تجلب عليك غضب چوف العلى ! »

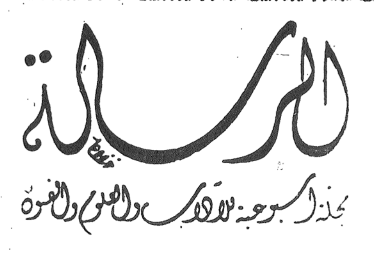
وخبت أودسيوس ، وسُرّت مينرڤا ، وعقد منطور الصلح بين الفريقين ، ودخل الناس فى السلم كافة ... !

(تمت الأوذيسة)

دريني خشبة

فهرس المجلد الأول من الرواية

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾


الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

FIN

DU

DOCUMENT



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1937

Volume 2